تفسير البصائر

تأليف

العلامة المتبحر الفقيه الكبير آية الله العظمى
الحاج يعسوب الدين رستگار جويباري

المجلد الثلاثون

32101 056221854

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

This book is due on the latest date stamped below. Please return or renew by this date.

المجلد الثلاثون

من كتاب

تفسير البصائر

تأليف

العلامة الفقيه والمفسر الكبير آية الله العظمى

أبي محمد يعسوب الدين رستگار الجويباري

حقوق الطبع والتقليد محفوظة للمؤلف

ایران - قم المقدسة

۱۳۸۱ هجری شمسی ۱۴۲۳ هجری قمری

(Arab)
BP130
.4
.J89
mujallad 30

* هوية الكتاب:

الكتاب:	تفسير البصائر
المجلّد:	الثلاثون
المؤلّف:	المفسّر الكبير آية‌الله‌العظمیٰ يعسوب‌الدّين رستگار الجويباری
النّاشر:	مكتب المؤلّف
المطبعة:	سپهر
الكمّيّة:	٢٢٠٠ نسخة
سنة الطّبع:	١٤٢٣ هجری قمری
السّعر:	٧٥٠٠ توماناً
الطّبعة:	الاولى
التّوزيع:	ايران، قم، رقم الهاتف: ٧٧٤٢٩٧٢

شابک: ٩٦٤ - ٥٩٢٧ - ٢٥ - ٠ ISBN: 964-5927-25-0

قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها.

الانعام: ١٠٤

كتاب علمي، فنّي، أدبي، فقهي، ديني، تاريخي، أخلاقي، اجتماعي، سياسي، روائي، حديث، يفسر القرآن بالقرآن، مبتكر في تحليل حكمه ومعارفه ومناهجه، واسراره الكونية والتشريعية، وفريد في بابه، يبحث فيه عن العقل والنقل.

سُورَةُ الرُّومِ

سُورَةُ الرُّومِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ
غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ
مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾
بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾
وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ
﴿٦﴾ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ
﴿٧﴾ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ
وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ
بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ
كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ
وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ
رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ
أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ

أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ١٠ ٱللَّهُ
يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١١ وَيَوۡمَ تَقُومُ
ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٢ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ
شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ١٣ وَيَوۡمَ
تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ١٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ١٥
وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ
فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ١٦ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ
وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ١٧ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ
وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ ١٨ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ
ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ
١٩ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ
تَنتَشِرُونَ ٢٠ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ
أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢١ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ
وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ
لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ
خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ
بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٢٤﴾
وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ
دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ
ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ
أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي
مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ
أَنفُسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٢٨﴾
بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ

أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ
حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ
ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ
وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ
دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾
وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم
مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ
ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ
سُلۡطَٰنٗا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقۡنَا
ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ
إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ
وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ
حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ
وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا
لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ

تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى
خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن
شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ
عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ
أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾
قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ
كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن
قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن
كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾
لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ
ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم
مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم
بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ

فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ
خِلَٰلِهِۦۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ
﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمُبۡلِسِينَ
﴿٤٩﴾ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ
مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٥٠﴾
وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا فَرَأَوۡهُ مُصۡفَرّٗا لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ يَكۡفُرُونَ
﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ
مُدۡبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا
مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم
مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ
قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ ﴿٥٤﴾
وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ
كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ
لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ
وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ

ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا
لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ
لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ
يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ
وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

﴿فضلها وخواصها﴾

روى الصدوق رحمه الله تعالى عليه في ثواب الأعمال بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من قرأ سورة العنكبوت والروم في شهر رمضان ليلة ثلاث وعشرين فهو والله يا أبا محمّد من أهل الجنّة لا أستثني فيه أبداً ولا أخاف أن يكتب الله عليّ في يميني إثماً، وإنّ لهاتين السورتين من الله مكاناً.

أقول: رواه الشيخ الطوسي في مصباح المتهجّد، والشيخ الطبرسي في مجمع البيان في مجمع وجوامع الجامع، والبحراني في البرهان، والحويزي في نور الثقلين، والشيخ الحرّ العاملي في وسائل الشيعة، والمجلسي في البحار، والقمّي في [illegible]، والكفعمي في المصباح والبلد الأمين وغيرهم.

وفي التهذيب والمقنعة عن الحسن بن علي عليهما السلام مثله.

وذكر أنّ من قرأ هاتين السورتين في ليلة ثلاث وعشرين من شهر رمضان فحقيق عسى أن يكون فيه بعد، وفي غيره مسدّد لأنّهم مؤمنون وعملوا الصالحات فهو من أهل الجنّة إن شاء الله تعالى.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿ومن جاهد فإنّما يجاهد لنفسه إنّ الله لغنيّ عن العالمين * والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفّرنّ عنهم سيّئاتهم ولنجزينّهم أحسن الذي كانوا يعملون﴾.

والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوّئنّهم من الجنّة غرفاً تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين، والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا وإنّ الله لمع المحسنين» (العنكبوت ٥٨، ٥٩، ٦٩).

وقال أيضاً: «فأمّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون» [illegible] «فأقم وجهك للدّين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون» (الروم ١٥، ٣٠).

وفي رواية أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله صلّى بأصحابه الصبح فقرأ فيها سورة الروم».

وفي الدرّ المنثور عن [illegible] قال: صلّى رسول الله صلّى الله عليه وآله الصبح، فقرأ سورة الروم، فتردّد فيها، فلمّا انصرف قال: «إنّما يلبس علينا صلاتنا قوم يحضرون الصلاة بغير طهور، من شهد الصلاة فليحسن الطهور».

وفي المجمع: أُبيّ بن كعب عن النبيّ صلّى الله عليه وآله قال: «ومن قرأها كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كلّ ملك سبّح لله بين السماء والأرض وأدرك ما ضيّع في يومه وليلته».

أقول: رواه في جوامع الجامع والكفعمي في المصباح وأبو الفتوح الرازي في تفسيره عن أبي أمامة عن أُبيّ بن كعب، وفي جوامع الجامع: «يسبّح الله تعالى» بدل «سبّح لله».

وذلك قوله عزّ وجلّ: «فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السماوات والأرض وعشيّاً وحين تظهرون» (الروم ١٧ ـ ١٨).

وفي عوالي اللآلي قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «من قال حين يصبح: فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السماوات والأرض وعشيّاً وحين تظهرون يخرج الحيّ من الميّت ويخرج الميّت من الحيّ ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون، أدرك ما فاته في يومه، وإن قالها حين يمسي أدرك ما فاته في ليلته».

وفي ثواب الأعمال بإسناده عن الحارث عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «من قال

[illegible]

[illegible]

وفي مصباح الكفعمي [illegible]

[illegible]

وفي جوامع الجامع [illegible]

[illegible]

قوله [illegible]

[illegible]

[illegible]

وفي المصباح [illegible]

قوم يسقى من فيه فإن دخل إليه خرج عنه»

وعن خواص القرآن: من كتبها ... وإن دوّنت ... للحرب ... في ...

... ومن أراد من ... مرضى بقدرة الله تعالى.

أقول: ولا يبعد أن يكون من خواص هذه ... على ... المؤمنين ... في

... النزول ...

إذ قال الله تعالى فيها: «لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله

ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون

وكان حقاً علينا نصر المؤمنين، وعد الله حق، ولا يستخفنك الذين لا يوقنون»

الروم ٤ ـ ٥ و ٤٧ و ٦

وقال سبحانه: «وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا

خساراً» الإسراء ٨٢.

«الروم»

موضوع السورة هو الوعد القطعي، وعد كريم من الله عزّ وجلّ للمؤمنين بنصره تعالى لدينه ونصره الحقّ في غلبة الروم، ويسلّيهم عن مستهزئي مكّة، وفرح المؤمنين يومئذ بذلك إذ يغلب يومئذ التوحيد على الشرك والإيمان على الكفر والحقّ على الباطل كلّه، وهو نصر للمجتمع وللإنسانيّة كلّها، وحقّ له أن يضاف إلى الله سبحانه «و يومئذ يفرح المؤمنون»

وقد قدّم عليه الإخبار الخاصّ بغلبة الروم المغلوب على الفرس بعدانه في بضع سنين من حين نزول هذه السورة المباركة يستدلّ بإنجاز هذا الوعد على إنجاز ذلك الوعد، و ليحتجّ به، من طريق العقل للبشر على أنّ الله تعالى سيحشر عباده ووعده الآخر يوم القيامة لا ريب فيه

ثمّ يندّد بالمشركين وكلّ من يتّبعهم بسبب مسلكهم في كلّ طرف من الطرق أنّهم لا يفقهون إلّا الأمور العابرة والشؤون الظاهرة من متاع الدنيا وشهواتها، ويغترّون بزخارفها، و يغفلون عن الهمّ الخطير وعن الآخرة، ويذكّرهم بمن قبلهم، ويؤكّد مجيء الآخرة، و يبيّن مصير المؤمنين والمشركين فيها، وينزّهه جلّ وعلا من الشركاء، ويعرض سلسلة رائعة في مشاهد قدرة الله وآياته ونواميسه في كونه تشهد ببراهينه على كمال علمه و

حكمته على تدبيره وقدرته وعلى جلاله وعظمته في نشأة الكون وهو مستمر الوجود

ثم يشير إلى فطرة التوحيد في فطرة الناس جميعها وإن كان أكثرهم لا يعرفون حقيقتها وإلى خلاف ضمائرهم في غمرة ... شدة ويضرعون ... دون شكر ولا تبصر وإلى قصة ... وإذا جاء ...

وفي ختام السورة يعرض ... المؤمنين في ... وثباتهم وتعظيم وعد مبكر ... بالنصر، ووعده متحقق بوعد الله

«الرّوم»

سورة الروم مكّيّة، نزلت بعد سورة «الانشقاق» وقبل سورة «العنكبوت» وهي السورة الرابعة والثمانون نزولاً والثلاثون مصحفاً، وتشتمل على (٦٠) آية، ستّ عشر (٤٤٤٨) أنّها نزولاً، و(٣٤٠٩) أنّها مصحفاً على التخصيص، وتشتمل على (٨١٩) كلمة وقيل (٨٠٧) كلمة وعلى (٣٥٣٤) حرفاً وقيل (٣٥٣) حرفاً على ما في بعض التفاسير

وقد سمّيت السورة بالروم لاشتمالها على قصّة الروم، وبدأت بها لتكون تذكرة للمؤمنين في كلّ ظرف من الظروف

في تفسير القمّي: بإسناده عن أبي عبيدة عن أبي جعفر ﴿ع﴾ قال: سألته عن قول الله «الم غلبت الروم في أدنى الأرض» قال: يا أبا عبيدة إنّ لهذا تأويلاً لا يعلمه إلاّ الله والراسخون في العلم من الأئمّة عليهم السلام، إنّ رسول الله ﴿ﷺ﴾ لمّا هاجر إلى المدينة، وقد ظهر الإسلام كتب إلى ملك الروم كتاباً، وبعث إليه رسولاً يدعوه إلى الإسلام، وكتب إلى ملك فارس كتاباً، وبعث إليه رسولاً يدعوه إلى الإسلام، فأمّا ملك الروم فإنّه عظّم كتاب رسول الله ﴿ﷺ﴾ وأكرم رسوله، وأمّا ملك فارس فإنّه مزّق كتابه واستخفّ برسول الله ﴿ﷺ﴾

وكان ملك فارس يقاتل يومئذ ملك الروم وكان المسلمون يهوون أن يغلب ملك الروم ملك فارس، وكانوا لناحيته أرجى منهم لملك فارس، فلمّا غلب ملك

فارس ملكت الروم فكره ذلك المسلمون، و فرح المشركون فأنزل الله «الم غلبت الروم في أدنى الأرض» يعني غلبتها فارس في أدنى الأرض وهي الشامات و ما حولها، ثمّ قال و فارس من بعد غلبهم الروم سيغلبون في بضع سنين

و قوله «لله الأمر من قبل» أن يأمر «و من بعد» أن يقضي بما يشاء، و قوله «و يومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء» قلت: أليس الله يقول «في بضع سنين» و قد مضى للمسلمين سنون كثيرة مع رسول الله ﷺ و في إمارة أبي بكر و إنّما غلبت المؤمنون فارس في إمارة عمر؟ فقال ﷺ: ألم أقل لك إنّ لهذا تأويلاً و تفسيراً و القرآن يا أبا عبيدة ناسخ و منسوخ؟ أما تسمع قوله «لله الأمر من قبل و من بعد» يعني إليه المشيّة في القول أن يؤخّر ما قدّم و يقدّم ما أخّر في القول إلى يوم يحتم القضاء بنزول النصر فيه على المؤمنين، و ذلك قوله «و يومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء» أي يوم يحتم القضاء بالنصر

قوله ﷺ: «يعني غلبتها فارس» جعله خبراً في الخبر من حيث إنّه المقصود أي مغلوبيّته الروم من فارس

و قوله ﷺ «و فارس من بعد غلبهم الروم سيغلبون في بضع سنين» أي الروم و إن غلبت عليهم الفرس و لكنّ الفرس من بعد كونهم غالبين في البيت الأوّل سيصيرون مغلوبين في إمارة عمر بن الخطّاب

أقول: رواه الكليني رحمه الله تعالى عليه في روضة الكافي عن الإمام الباقر ﷺ و فيه بعد قوله «و ما حولها»: «و هم يعني فارس من بعد غلبهم الروم سيغلبون يعني يغلبهم المسلمون في بضع سنين قال: فلمّا غزا المسلمون فارس و افتتحوها فرح المسلمون بنصر الله عزّ و جلّ»

و ممّا استفيد لمّا كان غلبة فارس لم تطلق على ما بين الثلاث إلى العشر و كان تمام الغلبة على فارس في السابع عشر أو أواخر السابع عشر من الهجرة فعلى المشهور بين المفسّرين من نزول الآية بمكّة قبل الهجرة فلابدّ من أن يكون بين نزول الآية و بين الفتح ستّ عشرة سنة، و على ما هو الظاهر من الخبر من كون نزول الآية بعد مراسلة قيصر و

كسرى، و الثابت على الأشهر في التاريخ أن المدة تزيد على البضع أيضاً بقليل، فلا
اعتراض على النبي ﷺ بسبب ما أخبر ﴿في بضع﴾ فإن الآية مسوقة مجملاً، و قوله
﴿لله الأمر من قبل و من بعد﴾ أي له تعالى الأمر في التقديم و التأخير بعده كما
هو الظاهر من السياق ﴿يومئذ﴾

و في المناقب لابن شهرآشوب السروي: لم يرد الله ... عليه
الزهري و الشعبي: أن قيصر حارب كسرى، فكان هوى المسلمين مع قيصر لأنه
صاحب كتاب و ملة و استعظموا الأمر شيئاً ... و ذلك و قد غلب على قيصر و هو
كسرى بعد مدة حتى ظهر ... بين المسلمين و
المشركين من الرسول ﴿غلبت الروم﴾ ... أنه قد حدث ... في قوله ﴿في
بضع سنين﴾ ثم ذكره في قوله ... بعد ... و غلبت الروم ... و روي عنه
ابن طلحة و الضحاك: أن فارس غلبت الروم ... كما ذهب
إلى ... إلى آخر الآية.

الرومية بعد الملك من الحرب

و قال بعض المفسرين: تأثر المسلمون بنصر الروم على المجوس و إن كان أكثر
علمهم ... أن الروم ... بعض ... و من فهم قوله
تعالى ﴿غلبت الروم﴾ ... يكون ... لله و ... من
الله؟

و قال بعضهم: إن أهل الروم كانوا أهل كتاب و كان المسلمون يرجون إسلامهم و
أهل فارس كانوا مجوساً فكان المسلمون لا يرجون إسلامهم و كانوا يحبون غلبة فارس
عليهم، فنزل: ﴿غلبت الروم في أدنى الأرض﴾.

و في التبيان: و السبب في ذلك معروف و هو أن الروم لما غلبتهم فارس فرح
مشركو قريش بذلك من حيث إن أهل فارس لم يكونوا أهل كتاب، و ساء ذلك المسلمين
فأخبر الله تعالى أن الروم و إن غلبتهم فارس، فإن الروم ستغلب في ما بعد فارس ﴿في بضع
سنين﴾ أي في ما بين ثلاث سنين إلى عشر، فكان كما أخبر و كان ذلك معجزة ظاهرة باهرة

النبي ﴿ص﴾»

وفيه: وروى أن سبب ذلك أن الروم لما غلبهم فارس فرح المشركون بذلك، وقالوا أهل فارس لا كتاب لهم غلبوا أهل الروم، وهم أهل كتاب فنحن لا كتاب لنا نغلب محمداً الذي معه كتاب، فنزلت هذه الآيات تسلية للنبي ﴿ص﴾ والمؤمنين.

وإن الروم وإن غلبتهم فارس فإنها ستغلب فارس في ما بعد في بضع سنين. وقال أبو سعيد الخدري: كان ذلك يوم بدر، فلما نصر النبي ﴿ص﴾ والروم على فارس ففرح المؤمنون بالنصرين.

وقال الرازي: [illegible] لا يعجل على الخلق إذا [illegible] المغلوب، ويعجل عذابه ليسلم في الأجل.

وفي تفسير ابن كثير: نزلت هذه الآيات حين غلب سابور ملك الفرس على بلاد الشام وما والاها من بلاد الجزيرة، وأقاصي بلاد الروم فاضطر هرقل ملك الروم حتى ألجأه إلى القسطنطينية وحاصره فيها مدة طويلة، ثم عادت الدولة لهرقل.

وفي أسباب النزول للواحدي النيسابوري: قال المفسرون: بعث كسرى جيشاً إلى الروم، واستعمل عليهم رجلاً يسمّى شهريران، فسار إلى الروم بأهل فارس وظهر عليهم، فقتلهم وخرّب مدائنهم وقطع زيتونهم، وكان قيصر بعث رجلاً يدعى يحنس فالتقى مع شهريران بأذرعات وبصرى وهي أدنى الشام إلى أرض العرب، فغلبت فارس الروم، وبلغ ذلك النبي ﴿ص﴾ وأصحابه بمكة، فشقّ ذلك عليهم وكان النبي ﴿ص﴾ يكره أن يظهر الأُميون من أهل المجوس على أهل الكتاب من الروم وفرح كفار مكة وشمتوا، فلقوا أصحاب النبي ﴿ص﴾ فقالوا: إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب، ونحن أُميون، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من الروم، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم، فأنزل الله تعالى: «الم غلبت الروم في أدنى الأرض» إلى آخر الآيات.

وفيه: عن أبي سعيد الخدري قال: لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس، فأعجب المؤمنون بظهور الروم على فارس.»

وفي جوامع الجامع: عن أبي سعيد الخدري قال: التقينا مع رسول الله ﴿ص﴾ و

مشركوا العرب، والتقت الرّوم وفارس، فنصرنا الله على مشركي العرب، ونصر الله الرّوم على المجوس، ففرحنا بنصر الله إيّانا على المشركين، ونصر أهل الكتاب على المجوس فذلك قوله: «ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله». وهو يوم بدر «من قبل ومن بعد» أي في أوّل الوقتين، والآخر حين غلبوا وحين يغلبون. يعني: لكونهم مغلوبين أوّلاً وغالبين آخراً، ليس إلاّ بأمر الله وقضائه، ويومئذ ويوم يغلب الرّوم وفارس يفرح المؤمنون بنصر الله وتغليبه من له كتاب على من لا كتاب له.

وفي أحكام القرآن لابن العربيّ: روى الترمذي وغيره ـ واللفظ له ـ عن أبي سعيد الخدري قال: لمّا كان يوم بدر ظهرت الرّوم على فارس، فأعجب ذلك المؤمنين فنزلت «الم غلبت الرّوم في أدنى الأرض» إلى قوله: «يفرح المؤمنون بنصر الله» قال: ففرح المؤمنون بظهور الرّوم على فارس».

وفي المجمع: عن الزهري قال: كان المشركون يجادلون المسلمين وهم بمكّة يقولون: إنّ الرّوم أهل كتاب وقد غلبهم الفرس، وأنتم تزعمون أنّكم ستغلبون بالكتاب الّذي أنزل إليكم على نبيّكم فسنغلبكم كما غلبت فارس الرّوم، وأنزل الله تعالى: «الم غلبت الرّوم ـ إلى قوله ـ في بضع سنين».

قال: فأخبرني عبيدالله بن عتبة بن مسعود أنّ أبا بكر ناحب ـ أي راهن ـ بعض المشركين قبل أن يحرم القمار على شيء إن لم تغلب فارس في سبع سنين، فقال رسول الله ﷺ: لم فعلت؟ فكلّ ما دون العشرة بضع، فكان ظهور فارس على الرّوم في سبع سنين، ثمّ أظهر الله الرّوم على فارس زمن الحديبية، ففرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب.

وروى أبو عبدالله الحافظ بالإسناد عن ابن عبّاس في قوله: «الم غلبت الرّوم» قال: قد مضى كان ذلك في أهل فارس والرّوم، وكانت فارس قد غلبت عليهم، ثمّ غلبت الرّوم بعد ذلك، ولقي نبيّ الله مشركي العرب والتقت الرّوم وفارس، فنصر الله النّبيّ ﷺ ومن معه من المسلمين على مشركي العرب، ونصر أهل الكتاب على مشركي العجم، ففرح المسلمين بنصر الله إيّاهم، ونصر أهل الكتاب على العجم.

وقال سفيان الثوري: سمعت أنّهم ظهروا يوم بدر. وقال مقاتل: فلمّا كان يوم بدر غلبت

المسلمون كفّار مكّة وأخبر رسول الله (ص) أنّ الروم ستغلب فارس ففرح المؤمنون بذلك وروي أنّهم ساروا حتّى بلغوا بيت المقدس وأنّ ملك الروم مشى إليه شكراً وبسطت له الرياحين فمشى عليها وقال الشعبي لم تمض تلك المدّة التي عقدها أبو بكر مع أُبيّ بن خلف حتّى غلبت الروم فارس وربطوا خيولهم بالمدائن وبنوا الرومية فأخذ أبو بكر الخطر من ورثته وجاء به إلى رسول الله (ص) فتصدّق به

وروي أنّ أبا بكر لمّا أراد الهجرة تعلّق به أُبيّ وأخذ ابنه عبد الله بن أبي بكر كفيلاً، فلمّا أراد أن يخرج أُبيّ إلى حرب أُحد تعلّق به عبد الله بن أبي بكر وأخذ منه ابنه كفيلاً وخرج أُبيّ إلى أُحد ثمّ عاد إلى مكّة ومات من جراحة جرحه رسول الله (ص)

وجاءت الرواية عن النبيّ (ص) أنّ فارس نطحة أو نطحتين ثمّ قال لا فارس بعدها أبداً والروم ذات القرون كلّما ذهب قرن خلف قرن هيهات إلى آخر الأبد، والمعنى أنّ فارس تنطح نطحة أو نطحتين، فيبطل ملكها والروم بخلافها" انتهى كلامه

وفي الدرّ المنثور: عن ابن مسعود قال كانت فارس ظاهرة على الروم وكان المشركون يحبّون أن تظهر فارس على الروم وكان المسلمون يحبّون أن تظهر الروم على فارس لأنّهم أهل كتاب وهم أقرب إلى دينهم فلمّا نزلت الم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين قالوا يا أبا بكر إنّ صاحبك يقول إنّ الروم تظهر على فارس في بضع سنين؟ قال صدق قالوا هل لك أن نقامرك، فبايعوه على أربع قلائص إلى سبع سنين فمضت السبع سنين ولم يكن شيء ففرح المشركون بذلك وشقّ على المسلمين

فذكر ذلك للنبيّ (ص) فقال ما بضع سنين عندكم؟ قالوا دون العشر قال اذهب فزايدهم وازدد سنتين في الأجل، قال فما مضت السنتان حتّى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس ففرح المؤمنون بذلك وأنزل الله الم غلبت الروم إلى قوله وعد الله لا يخلف الله وعده"

وقال بعض المفسّرين: إنّ هذه الآيات نزلت في ظرف كان فيه حرب بين الروم والفرس في البلاد المتاخمة للجزيرة العربية في الشام، والجزيرة العراقية، وانتصر الفرس فيها

على الروم ففرح مشركو مكة بذلك وظهروا بشماتتهم بالمسلمين الذين كانوا ينوّهون بوحدة المنبع والجوهر التي تجمع بينهم وبين الكتابيين الذين منهم الروم النصارى، وإنّ هذا الموقف قد شقّ على المؤمنين، وجرحهم فبشّرهم الله تعالى بهذه الآيات وطمأنهم.

وهناك روايات عديدة أخرى مختلفة الصيغ من مراهنة بين المسلمين والمشركين ومراهنة بينهم على صدق ما بشّرت به الآيات من غلبة الروم بعد انكسارهم.

فمنها ما يذكر أنّ المقامرة كانت بين أبي بكر وأُبيّ بن خلف.

ومنها أنّها كانت بين المسلمين والمشركين وكان أبو بكر من قبل المسلمين وأُبيّ من قبل المشركين.

ومنها أنّها كانت بين الطرفين.

ومنها أنّها كانت بين أبي بكر وبين المشركين وقد غلبت الروم فخسر أبو بكر الرهان ويلحظ أنّ ذلك يقتضي أن يكون نشوء ذلك والآيات نزلت قبل الهجرة بسنين عديدة مع أنّه كان على ما يبدو من الروايات رهانًا تلقى منه عبرة في آخر سنة مرويّة من قبل تحريم الرهان من القرآن الكريم في مكة حيث هاجر رسول الله ﷺ وأصحابه إلى المدينة بعد نزولها بمدّة قليلة.

ثمّ اختلفت الروايات في الأمد المضروب، ففي بعضها ثلاث سنين، وفي بعضها خمس، وفي بعضها ست، وفي بعضها سبع سنين، وفي بعضها أنّ الأجل المضروب والأمد المتفق عليه هو سبع سنين، ثم ذهب أبو بكر لسنتين بأمر من رسول الله ﷺ فغلبت الروم وفي بعضها خلافه. ثمّ في بعضها أنّ الأجل الذي انقضى بمكة. وفي بعضها أنّه انقضى بعد الهجرة، وكانت غلبة الروم يوم بدر، أي بعد الهجرة بسنتين تقريبًا. وفي بعضها أنّ ذلك كان في ظروف وقعة الحديبية التي انتصر فيها الروم، وانتهى إلى التهادن مع رسول الله ﷺ والمسلمين في السنة السادسة بعد الهجرة.

وكان ذلك فتحًا مبينًا على ما وصفته الآية الأولى من سورة الفتح ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ فكان نصر المسلمين على المشركين الذين كانوا هم مع المجوس لأنّهم غير كتابيين في نفس الظرف الذي كان فيه نصر الروم الكتابيين على المجوس، فكانت فرحة المسلمين

أنّه منزّل من ربّك بالحقّ» (الأنعام: ١١٤)

ومنها ما تضمّن خبر إيمانهم صراحة بكونه حقّاً منزلاً «الّذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يتلى عليهم قالوا آمنّا به إنّه الحقّ من ربّنا إنّا كنّا من قبله مسلمين» (القصص: ٥٢ ـ ٥٣)

ومنها ما تضمّن وحدة الجوهر بين الشريعة الإسلامية والشرائع السماوية السابقة كقوله تعالى «شرع لكم من الدّين ما وصّى به نوحاً والّذي أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدّين ولا تتفرّقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه» (الشورى: ١٣) وغيرها من الآيات الّتي نزلت في هذا الموضوع.

وقد كان كلّ هذا ممّا يثير مشركي مكّة ولاسيّما أنّ القرآن الكريم كان يندّد بهم لشركهم بالله سبحانه، وتكذيبهم برسول الله (ص)، ثمّ رغم تكذيبهم له حقّاً ولا على زعمهم كان من بين كثير من أهل الكتاب، وتضامنهم ضمناً بنصرة الفرس على الروم، فرح مشركو مكّة وشمتوا، وحزن المسلمون واستاؤوا.

وهذا لا ينافي ما جاء في بعض الآيات المكّية والمدنيّة من وقوف فريق من أهل الكتاب وخاصّة اليهود في العصر من النبيّ (ص) والقرآن الكريم موقف الجحود والعداوة ممّا ذكرت أسبابه مؤيّدة بالنصوص القرآنية في محلّها مناسبات. كما لا ينافي ما استجدّ فيما بعد من موقف العداء والحرب بين رسول الله (ص) والروم حيث امتدّ إلى ما بعد رسول الله (ص) إذ تعدّى عمّال الروم على رسل النبيّ الكريم (ص) وحدثت الفتن والحربية العسكرية على عهد المسلمين، فأدّى هذا إلى أن باتت جهة الروم كانت هي البادئة في العدوان وصار من حقّ المسلمين أن يجيبوهم بدفع العدوان.

هذا ولمّا كان القرآن المجيد يستهدف من الأخبار والقصص الموعظة والتذكير، فقد اقتضت حكمة التنزيل أن يكون هذا الحادث وسيلة إلى ذلك أيضاً، فاحتوت الآيات بشرى عامّة بنصر الله تعالى، ووعده بالنّصر والفرج للمؤمنين، وتنديداً بالنّاس الّذين يهتمّون بالأمور العابرة ويشتغلون بظاهرها ويغترّون بها، ويغفلون عن المهمّ الخطير كما سبق في بحث الموضوع لهذه السورة المباركة.

وفي أسباب النزول للسيوطي: وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: يعجّب
بكفر من جعل لله موالي فقال ... [illegible] ... وهم يقولون عنه»

وفي تفسير القمي: وأمّا قوله: «ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم ممّا ملكت
أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم» فإنّه كان سبب نزولها أنّ قريشاً والعرب كانوا إذا
حجّوا يلبّون وكانت تلبيتهم «لبّيك اللّهمّ لبّيك لبّيك لا شريك لك لبّيك إنّ الحمد و
النعمة لك والملك لك لا شريك لك» وهي تلبية إبراهيم ﴿ع﴾ والأنبياء، فجاءهم
إبليس في صورة شيخ، فقال: ليست هذه تلبية أسلافكم قالوا: وما كانت تلبيتهم؟ فقال
كانوا يقولون:

«لبّيك اللّهمّ لبّيك لبّيك لا شريك لك إلاّ شريك هو لك» فنفرت قريش من هذا القول،
فقال لهم إبليس: على رسلكم حتّى آتي على آخر كلامي فقالوا: ما هو؟ فقال: «إلاّ شريك
هو لك تملكه وما ملك» ألا ترون أنّه يملك الشريك وما ملكه، فرضوا بذلك، وكانوا يلبّون
بهذا قريش خاصّة. فلمّا بعث الله رسوله ﴿ص﴾ أنكر ذلك عليهم، وقال: هذا شرك
فأنزل الله: «ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم ممّا ملكت أيمانكم من شركاء في ما
رزقناكم فأنتم فيه سواء» أي ترضون أنتم فيما تملكون أن يكون لكم فيه شريك فإذا
لم ترضوا أنتم أن يكون لكم فيما تملكونه شريك فكيف ترضون أن تجعلوا لي شريكاً فيما
أملك؟.

وفي البحار باب ما ورد في فضائل بيت المقدس ... حديث طويل عن
أمير المؤمنين الإمام علي ﴿ع﴾ ... أنّ قريشاً كانوا إذا حجّوا وقفوا بالمزدلفة، ولم يقفوا
بعرفات، وكانت تلبيتهم إذا أحرموا في جاهليّتهم «لبّيك اللّهمّ لبّيك لبّيك لا شريك لك لبّيك
إنّ الحمد والنعمة لك»

فجاءهم إبليس في صورة شيخ وقال لهم: ليس هذه تلبية أسلافكم قالوا: فكيف كانت
تلبية أسلافك؟ فقال: كانت «اللّهمّ لبّيك لبّيك إنّ الحمد والنعمة لك، والملك لك لا شريك
لك إلاّ شريكاً هو لك»

[illegible]

وفي [illegible] عن ابن عباس قال [illegible]

[illegible]

وفي المجمع [illegible]

[illegible]

وفي شواهد التنزيل [illegible] عن ابن عباس قال لما [illegible] وآت ذا القربى حقه [illegible] رسول الله [illegible] فاطمة واعطاها فدك [illegible]

[illegible] عن ابي سعيد قال لما نزلت هذه الآية وآت ذا القربى حقه [illegible] فاطمة واعطاها فدك»

وفي جوامع الجامع عن ابي سعيد الخدري انه قال لما نزلت الآية اعطى رسول الله [illegible] فاطمة فدك وسلمه اليها وهو المروي عن [illegible] عليهم السلام

وفي المجمع [illegible] ابو سعيد الخدري وغيره انه لما نزلت هذه الآية [illegible] اعطى فاطمة عليها السلام فدك وسلمه اليها وهو المروي عن ابي جعفر وابي عبد الله عليهما السلام

عن ابن عباس في قوله تعالى «وما آتيتم من ربا ليربوا في اموال الناس فلا يربوا عند

[illegible] من [illegible] وجه [illegible] في [illegible]

[illegible] هذه [illegible] [illegible] الذي [illegible] لا [illegible]

[illegible]

وعنه [illegible] قال نزلت هذه الآية في [illegible] وجحودهم على [illegible] بعضهم و [illegible] عليهم و [illegible] في [illegible] من وجه [illegible] لهم

وعن السدّي نزلت هذه الآية في [illegible] لأنّهم كانوا يعملون [illegible] و [illegible]

[illegible]»

وفي الدرّ المنثور عن ابن عبّاس [illegible] نزلت هذه الآية في دعاء النبيّ ﷺ لأهل [illegible] إنّك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصمّ الدعاء إذا ولّوا مدبرين»

«القراءة»

قرأ أبو جعفر «الم» بالسكت على الحروف وقرأ أبو سعيد الخدري وابن عمر «غَلَبت» بفتح الغين واللام مبنيا للفاعل، و«سيُغلَبون» مبنيا للمفعول وقرأ جميع القراء «غُلِبت» بضم الغين وكسر اللام، مبنيا للمفعول، و«سيَغلِبون» بفتح الياء، مبنيا للفاعل

وفي القراءة الأخيرة وجهان أحدهما أن يكون المعنى أن الروم غلبوا في طرف [illegible] ثانيهما أن يكون المعنى أن الروم من بعد غلبهم فارس سيغلبهم المسلمون

وقرأ أبو عمرو «علابهم» وقرأ الكلبي «غلبهم» وقرأ جميع القراء «غلبهم»

وقرأ أبو جعفر «آثاروا» بالمد بعد الهمزة والباقون «أثاروا» بغير مد وقرأ أبو عمرو «أشدهم» بسكون الشين، والباقون بفتحها

قرأ عاصم وحمزة وابن عامر «عاقبة» بالنصب على أنها خبر «كان» مقدمة على اسم «كان» كقوله تعالى «وكان حقا علينا نصر المؤمنين» (روم ٤٧)، وفي اسم «كان» وجهان أحدهما أن يكون «السوأى» [illegible] فتقديره «ثم كان السوأى عاقبة الذين
ثانيهما أن يكون «أن كذبوا» بعد تأويله بالمصدر اسم «كان» فتقديره «ثم كان التكذيب عاقبة الذين أساؤوا»

وقرأ الباقون بالرفع، وفي اسم كان [illegible] وجهان أحدهما أن يكون «السوأى»

خبرها ثانيهما: أن يكون «أن كذّبوا» بحرف و بتقدير لأن كان عاقبة الّذين أساؤا السّوأى لأن كذّبوا بآيات الله تعالى أي بمعنى في سرته و كمره شيء لأن التكذيب فيكون «السّوأى» منصوباً على المصدر.

و قرأ ابن مسعود «السّوء» بالتذكير.

قرأ أبوعمرو و عاصم «يُرجعون» بياء الغيبة مضمومة لأنّ ما قبلها «يبدؤ الخلق» غيبة، و الخلق هم المخلوقون في المعنى، و حمل قوله تعالى «ثمّ يعيده» على لفظ الخلق، و جاء قوله سبحانه: «يرجعون» على المعنى و هو يرجع على لفظ الواحد و قرأ الباقون «تُرجعون» بتاء الخطاب مبنيًّا للمفعول، و هي القراءة المشهورة لأنّ في الكلام التفاتاً من الغيبة إلى الخطاب.

قرأ نافع و أبوجعفر «لم تكن» ٣ بتاء التأنيث و الباقون بياء التذكير و لأنّ «الشّفعآء» إسم «تكن» على كلتا القرآئتين

قرأ حفص و نافع «حين تمسون» ٩ بكسر التاء و بتشديد و الباقون بسكونها مخففه قرأ حمزة والكسائي «تخرجون» ٩ بفتح التاء مبنيًّا للفاعل على وجه الخطاب كقوله تعالى «و إليه تقلبون» العنكبوت ٢١،

و قرأ الباقون «تُخرجون» بضمّ التاء و فتح الرّاء مبنيًّا للمفعول على وجه الخبر كقوله تعالى «يخرجون من الأجداث» القمر ،

و قرء شاذاً «تخرجون» بالتاء مبنيًّا للفاعل

قرأ حفص «للعالِمين» ٢٢) بكسر اللام على أنّ الآيات اسندت إلى العلماء فإنّهم الّذين ينظرون فيها و يعتبرون بها كقوله تعالى «هدى للمتّقين» البقرة ٢، لأنّهم المنتفعون بها دون غيرهم كقوله عزّوجلّ «و ما يعقلها إلّا العالمون» العنكبوت ٤٣ فكأنّ الآيات جعلت لهم دون غيرهم و إن كانت لجميع المكلّفين، و قرأ الباقون بفتح اللام و هي القراءة المشهورة، على أنّ الآيات اسندت إلى جميع المكلّفين الذين يتمكّنون على الاستدلال بها و الاعتبار بها، سواء كانوا عالمين بها أولا، لأنّ الاستعداد لجميعهم حاصل بالقوّة، و فيه دلالة على وضوح الآيات و عدم خفائها على أحد من الخلق كافّة إلى يدركها، و هذا أعظم فائدة

قرأ ابن كثير و أبو عمرو «يُنْزِل» (٢٤) من باب الإفعال، و قرأ الباقون «يُنَزِّل» من باب التفعيل، و الفعل مبنيّ للفاعل على كلتا القراءتين

قرأ ابن عامر و أبو عمرو و ابن كثير و نافع «تُخرجون» (٢٥) بضمّ التاء و فتح الراء، مبنيًّا للمفعول، حملاً على قوله تعالى «يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده» (الإسراء ٥٢)، و الباقون بالعكس، مبنيًّا للفاعل

قرأ أبو عمرو «يفصّل» (٢٨) بياء الغيبة رعايةً لـ«ضرب» إذ هو مسند لما يعود للغائب، و قرأ الباقون «نفصّل» بنون جمع المتكلّم تعظيماً للمتكلّم على «رزقناكم»

قرأ حمزة و ابن عامر و الكسائي «فارقوا» (٣٢) من باب المفاعلة أي فارقوا دينهم الّذي أُمروا باتّباعه، و قرأ الباقون «فرّقوا» من باب التفعيل أي جعلوا في دينهم، و قرأ حمزة «لَدَيهُمْ» بضمّ الهاء، و الباقون بكسرها

قرأ أبو عمرو و الكسائي «فهْو» (٣٥) بسكون الهاء، و الباقون بضمّها

و قرأ أبو عمرو و الكسائي «يقنِطون» (٣٦) بكسر النون، و الباقون بفتحها. قرأ ابن كثير «أتيتم» (٣٩) ثلاثيًّا أي ما جئتم به من عطيّة ربا، و قرأ الباقون «آتيتم» من باب الإفعال أي أعطيتم من عطيّتكم ليعوّضوا ما هو أكثر منه و يكافئوا بدله

قرأ نافع و أبو جعفر «لِتُرْبُوا» (٣٩) بضمّ التاء و الباء، و سكون الواو على الجمع، و قرأ الباقون «لِيَرْبُوَ» بفتح الياء و ضمّ الباء، و فتح الواو على الإفراد

قرأ حمزة و الكسائي «تشركون» (٤٠) بتاء الخطاب، و قرأ الباقون بياء الغيبة، و الفعل على كلتا القراءتين من باب الإفعال

قرأ ابن كثير و أبو عمرو «لنذيقهم» (٤١) على وجه الإخبار من الله تعالى عن نفسه أنّه الّذي يذيقهم، و قرأ الباقون «ليذيقهم» أي ليذيقهم الله عقوبة بعض الّذي عملوا

قرأ ابن كثير و حمزة «الرّيح» (٤٦) بالإفراد على إرادة معنى الجمع لقوله تعالى «مبشّرات» أي بالمطر، و قرأ الباقون «الرّياح» بالجمع

قرأ ابن عامر و أبو جعفر «كِسْفاً» بسكون السين، جمع كِسفة، مثل سِدرة و سِدر، و قرأ الباقون «كِسَفاً» بفتح السين

قرأ ابن كثير و أبو عمرو «يُنْزَل» ٤٩ من باب الإفعال، و قرأ الباقون «يُنَزَّل» من باب التفعيل، و الفعل على كلتا القرائتين مبنيّ للمفعول

قرأ نافع و ابن كثير و أبو عمرو و عاصم و أبو جعفر «أثر رحمة الله» ٥٠ بالإفراد، و قرأ الباقون «آثار رحمة الله» بالجمع

قرأ أبو عمرو «لا تَسْمَعُ» ٥٢ بالتاء و فتحه و قرأ ابن كثير «لا يَسْمَعُ» بالياء المفتوحة، و «الصمّ» بالرفع على كونه الفاعل، و قرأ الباقون «لا تُسْمِعُ» من باب الإفعال، خطاب لرسول الله ﷺ و «الصُّمَّ» بالنصب على المفعول به و هذه قرائة مشهورة

قرأ حمزة «تهدي» ٥٣ بالفعل المضارع ملاقاة، خطاب للنبي ﷺ و «العمي» بالنصب على المفعول به و قرأ الباقون «بهاد العمي» باسم الفاعل المضاف إلى «العمي»

قرأ ابن كثير و حفص و ابن عامر و أبو عمرو و أبو جعفر «ضُعْف» ٥٤ بضمّ الضاد في الثلاثة، و الباقون بفتحها فيهنّ، و هما لغتان كالكُرْه و الكَرْه، و قيل الضمّ في الجسم، و الفتح في العقل و الرأي

قرأ أبو عمرو و ابن عامر و حمزة و الكسائي و أبو جعفر «لبثتم» ٥٦ بالإدغام

قرأ نافع و ابن كثير و ابن عامر و أبو عمرو «لا تنفع» ٥٧ بالتاء، لأنّ لفظ المعذرة لفظ مؤنث، و قرأ الباقون «لا ينفع» بالياء، لأنّ تأنيث المعذرة غير حقيقيّ مع وقوع الفصل بين الفعل و فاعله، و الفصل حسّن التذكير

قرأ أبو عمرو و ابن عامر و حمزة و الكسائي «و لقد ضربنا» ٥٨ بالإدغام

قرأ ابن كثير «القرآن» ٥٨ بنقل حركة الهمزة و حذفها

«الوقف والوصل»

«قلى» علامة الوقف [illegible]، و«لا» [illegible] الوصل، و[illegible] لا تتعلق ما بعدها
بما قبلها [illegible] «لا» و [illegible] تمام الكلام و
لاستئناف التالي [illegible] ومن بعده «ج» تمام الكلام و عطف التالي [illegible] لا يتعلق ما
بعده [illegible] على ما قبله [illegible] تمام الكلام، و استئناف التالي و
[illegible] كقوله [illegible]
المختصين، والوصل [illegible]

و [illegible] تمام الكلام و استئناف التالي، و [illegible] «ط»
[illegible] «ط» [illegible] «لا» [illegible] و
[illegible] «ع» [illegible] علامة [illegible] «١٠» و «ع» علامة
[illegible] و هو [illegible] في [illegible]

«ج» تمام الكلام و عطف التالي، و [illegible] استئناف التالي، و [illegible] «ط»
[illegible] و [illegible] «ط» [illegible] «ط» [illegible] «ط» «لا» «ثم»
[illegible]، و «ق» علامة الوقف [illegible] ولكن [illegible]
[illegible] «لا» لأنّ [illegible] «ط» [illegible] الكلام و
استئناف التالي، و [illegible] «ط» [illegible] و «الأرض ط» [illegible]

«من [illegible] ط» [illegible] «ط» تمام الكلام

واستئناف التالي و «بغير علم» ج لابتداء الاستفهام مع اتحاد و «حمل [illegible]» الى «الاستفهام» وابتداء التالي و [illegible] لتمام الكلام واستئناف التالي و «[illegible]» ج لتمام الكلام وتعليل التالي، و [illegible] ج [illegible]، و «[illegible] لا» للابتداء بالتالي «لا يعلمون لا» ٣٠

[illegible] الوقف وصح بعد [illegible] عن معمول بل مقدر [illegible] مثل قوله [illegible] و «لا تكونوا من المشركين»

من المشركين لا» لأن [illegible] «كما [illegible]»، و [illegible] لتمام الكلام و استئناف التالي و «[illegible] لا» ٣٣ لتعلق مابعده «ليكفروا» [illegible] «[illegible] هم» ج لتمام الكلام واحتمال [illegible] العطف والاستئناف، و «فرحوا بها ط» فصلا بين [illegible] و [illegible] ج لتمام الكلام واحتمال التالي [illegible] استئناف

[illegible] ج [illegible] و [illegible] علامة الوقف المجوّز، و [illegible] الوصل [illegible] و «[illegible]» ج [illegible] عطف [illegible]، و «[illegible]» لابتداء التالي، و [illegible] ط لتمام الكلام واستئناف التالي و [illegible] ج

من قبل ط» لتمام الكلام واستئناف التالي، و «[illegible]» ج لتمام الكلام و عطف التالي و [illegible] لا» لتعلق ما بعده، «من [illegible]» لتمام الكلام و استئناف التالي و «[illegible] حرموا ط» [illegible]، و «[illegible]» ج [illegible] مع [illegible]، و «[illegible]» لتمام الكلام واستئناف التالي، و «[illegible]» ج ٥٠، لأنّ [illegible] مع العدول عن [illegible] إلى [illegible]

عن [illegible] ط لتمام الكلام و استئناف التالي و «[illegible]» ج لاحتمال التالي استئنافاً وحالاً وخبراً و «[illegible]» ج لاحتمال التالي استئنافاً و حالاً و «المجرمون لا» لأن بعده جواب القسم و «[illegible]» لتمام الكلام و استئناف التالي و «[illegible]» الأول لاختلاف الجنسين مع اتحاد المقول و «[illegible]» ج لتمام الكلام وعطف التالي و «[illegible]» علامة على جواز الوصل عند البعض، و عدم جوازه عند بعض الآخرين من القرّاء، و «لا يوقنون» ٦٠

﴿الغلبة﴾

٢٦ - الغلبة - ١٠٩٥

غلبه فلان و غلب عليه غلبة، و مغلبة - غلبه غَلْباً و غَلَباً و غلبةً و مغلَبةً و مغلِبةً - من باب ضرب - قهره، استولى و صار عليه قاهراً و صيغ فيه غالب و الآخر مغلوب و قد يتعدّى باللام قال الإمام علي ﴿ع﴾ ... به الإحاطة بكلّ شيء و الغلبة لكلّ شيء

و غُلبت على الشيء - بحيث لا تستطيع منعه بنفسه و هي قهر

قال الله تعالى «غُلبت الرّوم في أدنى الأرض و هم من بعد غلبهم سيغلبون» الروم ٢ - ٣.

٣ - غلب مصدر كالطّلب و هو غلبة. يحذف الهاء عند الإضافة كما في قول الشاعر «و أخلفوك عِدَ الأمر الّذي وعدوا» أي عدة الأمر

و من المعنوي: غلب فلان على نفسه أي كرهها على الهوى و يقال غلب الكرم على فلان إذا كان أكبر خصاله، فكأنّه أصبح لا يستطيع إلّا أن يكون كريماً

في نهج البلاغة قال مولى الموحّدين إمام المتّقين علي بن أبي طالب ﴿ع﴾ في وصف المتّقين «فاتّقى عبدٌ ربّه، نصح نفسه، و قدّم توبته و غلب شهوته»

و في الحديث «كفى بالله فهو أولى بالعذر» و في حديث قدسي «إنّ رحمتي غلبت غضبي» هو إشارة إلى رحمة الله الواسعة و شمولها للخلق

و في الدّعاء: «و أعوذ بك من غلبة الرّجال» أي تسلّطهم و استيلاؤهم هرجاً و مرجاً و ذلك كغلبة العوام و الأشرار على العلماء و المؤمنين

و في الحديث «ما اجتمع حلال و حرام إلّا غلب الحرام الحلال» أي إذا امتزج الحرام بالحلال، و تعذّر تمييزهما كالدهن و الخمر و غيرهما صار المجموع حراماً

الغلبة مصدر و هي القهر، جمعها غلبات

في نهج البلاغة: في صفة المؤمنين للإمام علي ﷺ: «و سيأتي بعث بعض غلبات هوى و فتن بدت»

الغالب اسم فاعل، جمعه غالبون و غلبة

قال الله تعالى: «و الله غالب على أمره» يوسف ٢١

و قال «فإنّ حزب الله هم الغالبون» المائدة ٥٦

و قولهم غالباً و في الغالب أي في أكثر الأحوال و الأوقات

في نهج البلاغة: قال أمير المؤمنين الإمام علي ﷺ: «ما ظفر من ظفر الإثم به، و الغالبُ بالشرّ مغلوب»

و غالب: موضع نخل دون مصر حماها الله تعالى

رجلٌ غُلُبَّة يغلب سريعاً، غلّاب: كثير الغلبة جمعها غلّابون و رجلٌ غُلُبَّة و غُلُبَّة: غالب كثير الغلبة لغلبته مكان غلبه

غلب الرجلُ غَلَباً ـ من باب تعب ـ غلظ عُنُقُه، مع قصر فيه أو من يكون ذلك من داء أو غيره فهو أغلب، و هي غلباء، و الجمع غُلْب

من المادّي ـ من هذه المادّة ـ هضبة غلباء: هضبة مشرفة، حديقة غلباء: عظيمة متكاثفة ملتفّة و الجمع غُلْب

قال الله تعالى «و حدائق غلباً» عبس ٣٠، أي ملتفّة الشجر و غلاظ أعناق النّخل

و الغلب: غلاظ العنق، قبيلة تغريرة لمعة و عزّة غلباء و نيفة قويّة

الغلب: غلظ العنق و عظمها و يصفون السيّد بعظم الرقبة و طولها، الواحد أغلب و هي غلباء، و يصفون به الحيوان أيضاً، فيقولون أسد أغلب أي عظيم الرّقبة و أنثاه غلباء و يستعملونه في النّبات كذلك

الأغلب أيضاً اسم فصيل ... و في الأغلب أي على الأكثر و

في الأكثر و تغلّبُ علامة بعض الشعراء

تغلب: أبو قبيلة و قولهم تغلب بنت وائل إنما يذهبون بالتأنيث إلى معنى القبيلة و كما قالوا تميم بنت مُرّ. و النسبة إليها تغلبيّ ـ بكسر اللام على الأصل ـ و منهم من يفتح استثقالاً لتوالي الكسرتين مع ياء النسبة. و بنو تغلب قوم من مشركي العرب، طالبهم عمر بن الخطاب بالجزية فأبوا فصولحوا على أن يضعّف عليهم الصدقة فرضوا

غَلَّبهُ و غلّبَ عليه ـ من باب التفعيل ـ: جعله يغلبه، و غَلَّبَ فلاناً على بلد كذا: جعله يغلب عليه. المُغَلَّب: المغلوب مراراً كثيراً، و المحكوم له بالغلبة. ضدٌّ. و في الحديث: «أهل الجنّة الضعفاء المُغَلَّبون»

غالبه مغالبة و غِلاباً ـ من باب المفاعلة ـ: قاهره و نازعه

في نهج البلاغة: قال أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام ـ في ذكر المستكبرين ـ: و جاحدوا الله على ما صنع بهم مكابرة لقضائه، و مغالبة لآلائه

تغلّب على بلد كذا: استولى عليه قهراً

استغلب عليه الضحك: اشتدّ

استغلب الرجل و غلب عليه: قهره، استولى و قدر عليه

تغالبوا على البلد: غالب بعضهم بعضاً عليه

اغلولب العُشبُ: تكاثف، و اغلولب النبت: بلغ كلّ مبلغ و التفّ، و اغلولب القوم: تكاثروا و اغلولبت الأرض: إذا التفّ عشبها

١ ـ الرَّوم ـ ٦١٣

رام الشيءَ يرومه رَوْماً و مراماً ـ الأجوف الواوي ـ من باب نصر ـ مثل قال ـ: قصده و أراده و طلبه فهو رائم جمعه رُوَّم و رُوّام. يقال: هم رُوَّم و رُوّام بها، على رُوّم عنه

المرام: القصد

في نهج البلاغة: قال مولى الموحدين الإمام علي عليه السلام ـ في وصف الأنبياء عليهم صلوات الله ـ: «... و لو كانت الأنبياء أهل قوّة لا تُرام، و عزّة لا تُضام» أي لا تُقصد و لا تُطلب

و فيه من كتاب سيد الوصيين الإمام علي (ع) إلى معاوية بن أبي سفيان «عليهم المداومة و الثبات» «و قد رام أقوام أمراً بغير حق فتأوّلوا على الله فأكذبهم» أي و قد قصد و طلب

الرّوم جيل من الناس يسكنون سواحل البحر المتوسط

قال الله تعالى «غُلِبَتِ الرُّومُ» الروم ٢ و الواحد «رُوميّ» كما يقال في واحد الزنج زنجيّ

و فرقة من النصرانية الروميّ نسبة إلى الشيعة اليونانية

روما المكرمة من أشهر مدن الدنيا و قديمها، و هي مقر خلافة النصرانية و يقال رُوميّة بتخفيف الياء و تخفيفها و النسبة إليها روماني على غير قياس

بحر الرّوم البحر المتوسط و يقال له البحر الأبيض ... رومي و رومي كزنج و زنجي

من الواحد و الجمع إلا أن التشديد كي لا يكون بين الواحد و الجمع في تمر و تمرة إلا الهاء

الرّامة مستنقع يجتمع فيه الماء و رامة موضع بالبادية، و قد سمّوه باعتبار ... و منه قول ... «... » تضرب لمن يطلب شيئاً حيث لا يوجد، و أكثر ... في الشعر و من ذلك قول الشاعر لمن ... براسه ...

الرّام شجر، و أصله روم ... يضرب كحول ... من ... قبل التكسّر و التقطير، جمعه الأروام

الرّوْم: شحمة الأذن، و حركة خفيفة يختلس من الحرف، و هي أكثر من الإشمام لأنها تسمع

الرُّوم شحمة الأذن أيضاً

الرُّومة ـ بالضمّ ـ الغراء تلصق به ريش السهم، و رُومة و رومية مدينة في إيطاليا، و النسبة إليها روماني، الرومانطيقية و الرّومانسية مذهب أدبي يعلّق فيه الشعور و الحب على العقل تسيطر فيه الفردية بالرومانسية ... روما بوادي ... و ... عذب

المرام ـ مصدر ميمي ـ المطلب يقال هو شيء ... بعيد المرام جمعه مرامات

في نهج البلاغة قال أمير المؤمنين الإمام علي (ع) «فما تدرك بكم ثار، و لا تبلغ بكم مرام»

وفيه من كتاب له لامام علي بن أبي طالب (ع) إلى معاوية بن أبي سفيان « و رقيت إلى مرقبة بعيدة المرام، نازحة الأعلام »

ولا يخفى على الأديب الأريب من الفرق بين الرَّوم والطَّلب، حيث إنّ الرَّوم هو طلب الشيء بتدبّر، ولا يقال رمت الأكل عند الجوع، ويقال طلبت في الأمرين، وكذلك لا يقال رمت الطعام والماء، وإنّ الرَّوم لا يستعمل في الحيوان ولا يسند إليه فلا يقال رامت الدابّة ولا رامت الفرس، وإنّما يقال رمت أن يفعل زيد كذا فيرجع الرَّوم إلى فعله وهو المروم والمرام لا إلى نفسه

رَوَّمَ الرَّجُلُ: لبث، وفلاناً وبفلان جعله يطلب الشيء، ورام به همّه شيئاً بعد شيء

تَرَوَّمَ الرَّجلُ بفلان: تهزّأ به

في المفردات: الرَّوم: يقال مرة للجيل المعروف، وتارة لجمع رومي كالعجم

٤٣ ـ البضع ـ ١٢٧

بَضَعَهُ يَبْضَعُهُ بَضْعاً ـ من باب منع ـ قطعه، وبضع العروقُ سال الدم، وبضّعه يقال بَضَّعْتُ اللَّحمَ قطعته وشققته بالمبضع، وتبضّعت خرج شقّه، وبضع الدَّمعُ صار في الشّعر ولم يفض، وبضع الكلام بُضُوعاً فهمه، وبضع الكلامُ نفسه تبيّن، وبضع من فلان سئم منه، وبَضَعَ من الماء بُضُوعاً وبَضْعاً روي وامتلأ، وأبضعني الماء أرواني

البِضْع: هو قطعة من العدد، وهو ما بين الواحد والعشرة غالباً، وقد يطلق على أكثر منه، مأخوذ من البضع وهو القطع، يستوي فيه المذكّر والمؤنّث، يقال بضع سنين، وبضع عشرة رجلاً، وبضع عشر امرأة

قال الله تعالى «في بضع سنين» الروم ٤

وفي الخبر «أُهديَ إلى رسول الله (ص) هريسة من هرائس الجنّة فزادت في قوّته بضع أربعين رجلاً»

وجمعه بِضَع، وبضعات كثمر وثمرات

وفي البضع أقوال أُخر ١ ـ هو ما بين الثلاث إلى التسع ٢ ـ ما بين الواحد والتسع ٣ ـ

ما بين الثلاث إلى الخمس ٤ـ ما بين الواحد إلى الست ٥ـ ما بين الواحد والأربع ٦ـ ما بين الأربع إلى التسع ٧ـ ما بين الواحد إلى التسع ٨ـ لا يذكر البضع إلّا مع العشرة و العشرين إلى التسعين ٩ـ ما بين العقدين من واحد إلى عشرة، و من أحد عشر إلى عشرين ١٠ـ البضع من العدد غير معدود

البِضْع ـ بفتح الباء و كسرها ـ: طائفة من اللّيل

البَضْعة ـ بالفتح و قد تكسر ـ: القطعة من اللّحم و فلان بضعة من فلان كقطعة و جزء منه

في نهج البلاغة قال مولى الموحّدين الإمام علي ﴿ع﴾: «ألا إنّ اللسان بضعة من الإنسان» و في الحديث المتواتر عن الفريقين قال رسول الله ﴿ص﴾: «فاطمة بضعة منّي يريبني ما رابها و يؤذيني ما آذاها» أي أنّها سلام الله عليها جزء منّي كما أنّ اللسان جزء من الإنسان، و اللسان جزء من الإنسان

في نهج البلاغة قال سيّد الوصيّين الإمام علي ﴿ع﴾: «لقد عُلّق بنياط هذا الإنسان بَضْعة هي أعجب ما فيه و ذلك القلب»

جمع البضعة بَضْع، و بِضَع، و بِضاع و بَضَعات

البضيع اللحم، البضيع العرق لأنّه يسيل من الجسد و يقطع منه، البضيع البحر البضيع الجزيرة في البحر، و قد غلب على بعضها البضيع الماء، البحر كالبضيع

البضيع الشريك يقال هو بضيعي و شريكي يقال دابّة كثيرة البضيع، و رجل خاظي البضيع أي سمين

البُضع ـ بالضمّ ـ يطلق على عقد النكاح، و على الجماع، و على الفرج، و على نفس الأنوثة، و على مهر المرأة، و على الطّلاق فهو ضدّ، و على ملك وليّ المرأة و في حديث أبي أمامة «أنّ رسول الله ﴿ص﴾ أمر بلالاً أن ينادي في الناس يوم فتح خيبر ألا من أصاب حبلى فلا يقربنّها فإنّ البضع يزيد في السمع و البصر» أي الجماع و يقال ملك فلان بُضع فلانة. إذا ملك عقدة نكاحها و هو كناية عن موضع الغشيان

و جمع البُضع بضوع، و أبضاع و في الحديث «تُستأمر النساء في أبضاعهن»

والإبضاع: هو أن يدفع الإنسان إلى غيره مالاً ليتّجر به تبرعاً، ولا يأخذ منه في ربحه خلاف المضاربة.

البِضاعة: السلعة، وأصلها القطعة من المال تُقتنى للتجر فيه.

قال الله تعالى حكاية عن إخوة يوسف عليه السلام ﴿هذه بضاعتنا رُدّت إلينا ...﴾ ... بضاعة مزجاة ... يوسف ٦٥، ١١ ولم ترد في غير سورة يوسف عليه السلام.

جمع البضاعة بضائع.

في نهج البلاغة: قال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «وإياك والاتكال على المُنى فإنها بضائع النَّوكى».

البُضاعة - بالضمّ - هي دار بني ساعدة بالمدينة، وبئرها معروفة، وفيها أفتى النبي ﷺ بأن الماء طهور ما لم يتغيّر، وهي مال كان لأهل المدينة من أموالهم، وبئر بضاعة بئر بالمدينة معروف.

البضيع: من غنم بضيع حتى ... مثلاً ... بضيع ... والبضيع السيف القطّاع، والماء النمير، والسيف القاطع جمعه بُضعة.

البَضعة: القطعة من اللحم، ولا تسمى بذلك إلا إذا كانت مجتمعة ... فهي ... وفي الحديث «فاطمة بضعة مني».

المِبضع: المشرط، لأنه يشق به الجلد والأوداج ونحوها.

أبضعه الكلام - من باب الإفعال - بيّنه له بياناً شافياً كافياً، وأبضع الشيء جعله بضاعة، وأبضع فلاناً على المسبعة ... أبضع له ... زوّجها وجامعها.

يقال أبضعت المرأة بضاعاً إذا زوّجتها، وجامعها.

والأبضع المهزول من الرجال.

باضع الرجل امرأته مباضعة وبضاعاً: باشرها وجامعها، والمباضعة المجامعة، وفي الحديث «الكحل يزيد في المباضعة».

بضّعه تبضيعاً: قطّعه، فتقطّع مطاوع.

تبضّع العرق: سال قليلاً قليلاً من أصول الشعر، ... وتبضّع الرجل

الشيءَ جعله له بضاعة

استبضع الشيءَ ...

ابتضع ...

استبضع الشيءَ جعله بضاعة، ومنه المثل «كمستبضع التمر إلى هجر»، وقد عُدّي بـ«إلى» لأنه في معنى حامل

والاستبضاع نوع من نكاح الجاهلية، وهو استفعال من البضع الجماع

وذلك أن تطلب المرأة جماع الرجل لتنال منه الولد فقط. كان الرجل منهم يقول لأمته أو امرأته: أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه، ويعتزلها فلا يمسّها حتى يتبيّن حملها من ذلك الرجل، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، ومنه حديث: أن عبد الله بن عبد المطلب أبا النبي ﷺ مرّ بامرأة فدعته إلى أن يستبضع منها.

٨٨ ـ السنة ـ ٧٤٧

سنت النار تسنو سَنًا وسُنوًا وسَناوةً وسُنُوًّا وسَناية ـ ناقص واوي ـ مثل دعا يدعو ـ وفعل واوي ... ـ من باب نصر ـ: علا ضوءها. وسنت الأرضَ: سقتها، والسماءُ: مطرت. وسنت الناقة: ... ومنه حديث ... فاطمة الزهراء سلام الله عليها: «لقد سنوت حتى ... صدري» أي سقيت. والسانية: البئر التي يستقى منها.

سناها: ... فهي مسنوّة و... وفي حديث الزكاة: «ما سُقي بالسواني ففيه نصف العشر» السواني: جمع سانية وهي الناقة التي يستقى عليها، ومنه حديث البعير الذي شكا إليه، فقال أهله: إنا كنا نسنو عليه أي نستقي.

يقال: سنوتُ الباب: فتحته. والسنا: البرق لمع وضياء. السنا: ضوء النار والبرق. قال الله تعالى: «يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار» النور ٤٣.

السناء: الرفعة والقدر والمنزلة عند الله جلّ وعلا. والسناء: نبت يتداوى ويكتحل

به

السَّنة العام وأصلها سنوة بالواو، فحذفت الواو وقيل أصلها سنهة، وقيل الهاء عوض عن الواو وقيل للسكت، للوقف نحو كتابيه وحسابيه

والسنة من الأسماء الغالبة نحو الدابّة في الفرس، والمال في الإبل، وتجمع على سنين بكسر السين سنيناً على أنّه خرجت عن بابها إلى الجمع بالواو والنون وكسرت لكسرة ما بعدها، فأعربت إعراب جمع المذكّر السالم «سنون» رفعاً و«سنين» نصباً وجرّاً

قال الله تعالى «في بضع سنين» الروم: ٤

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين يعسوب الدين الإمام عليّ (ع): «ما أسرع الساعات في اليوم، وأسرع الأيّام في الشهر، وأسرع الشهور في السنة وأسرع السنين في العمر»

وفيه قال سيّد الأوصياء إمام المتّقين عليّ بن أبي طالب (ع): «فاعتبروا بما كان من فعل الله بإبليس، إذ أحبط عمله الطويل، وجهده الجهيد، وكان قد عبد الله ستّة آلاف سنة لا يُدرى أمن سني الدنيا أم من سني الآخرة عن كبر ساعة واحدة»

السّنة الدّنيويّة هي مدّة دورة الشمس، واثنتي عشرة دورة للقمر وإنّ السنة الشمسيّة هي ثلاثمائة يوم وخمسة وستّون يوماً وربع يوم، والسنة القمريّة هي ثلاثمائة يوم وأربعة وخمسون يوماً وثلث عشر يوم، فتكون السنة الشمسيّة زائدة على القمريّة بأحد عشر يوماً وجزء من أحد وعشرين جزءاً من يوم والسنة الشمسيّة هي مقدار قطع الشمس البروج الاثني عشر

السّنة الضّوئيّة هي المسافة التي يجتازها الضّوء في سنة كاملة أي (٩٤٦٨) مليارد كيلومتر، وأقرب نجم إلينا يبعد عنّا أكثر من أربع سنوات ضوئيّة

السّنة الانقلابيّة أو الاستوائيّة: هي الزّمن الفاصل بين مرور الشّمس في نقطة الاعتدال الرّبيعيّ مرّتين متتابعتين قيمتها (٣٦٥٫٢٤٢٢) يوماً شمسيّاً معدّلاً أي (٣٦٥) يوماً ٥ س ٤٨ د ٤٦ ث،

والسّنة النّجوميّة أو المداريّة: هي الزّمن اللّازم لدوران الأرض حول الشّمس دورة كاملة بحيث يُرى من مركز الشّمس على خطّ نجم ما مرّتين متتاليتين. قيمتها

(٣٦٥.٢٥٦٤، يوماً شمسياً معدلاً أي ٣٦٥ يوماً ٦ س ٩ د ٩.٥ ث).

في نهج البلاغة قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «وجعل شمسها آية مبصرة لنهارها، وقمرها آية ممحوّة من ليلها، فأجراهما في مناقل مجراهما، وقدّر سيرهما في مدارج درجهما، ليميّز بين الليل والنهار بهما، وليُعلم عدد السنين والحساب بمقاديرهما».

ولا يخفى على الأديب الأريب من الفروق بين السنة والعام:

منها أنّ السنة أطول من العام، والعام يطلق على الشهور العربية خلاف السنة.

ومنها أنّ استعمال السنة في أحوال أدّى فيه الشدّة والقحط والجدب، والعام أدّي فيه الرخاء والخصب، ولهذا نظير ذلك في قوله تعالى: «ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلّا خمسين عاماً» العنكبوت (١٤) حيث عبّر عن المستثنى بالعام، وعن المستثنى منه بالسنة لأنّ خمسين سنة مضت قبل بعثه، وقبلها لم يحصل له أذى من قومه، وأمّا من بعثه فهي شدّة عليه، وغلبت السنة على عام القحط والشدّة والجدب، فإذا أطلقت تبادر منها.

ومنها أنّ العام جمع أيّام، والسنة جمع شهور، ألا ترى أنّه لمّا كان يقال أيّام الزرع، قيل عام الزرع، ولمّا لم يقل شهور الزرع، لم يقل سنة الزرع.

ومنها أنّ العام يفيد كونه وقتاً لشيء، والسنة لا تفيد ذلك، ولهذا يقال عام الفيل، ولا يقال سنة الفيل، ويقال في التاريخ سنة مائة، وسنة خمسين، ولا يقال: عام مائة ولا عام خمسين إذ ليس وقتاً لشيء ممّا ذكر من هذا العدد، ومع هذا فإنّ العام هو السنة، والسنة هي العام، وإن اقتضى كلّ واحد منهما ما لا يقتضيه الآخر لما ذكر، كما أنّ الكلّ هو الجمع، والجمع هو الكلّ، وإن كان الكلّ إحاطة بالأبعاض، والجمع إحاطة بالأجزاء، وغيرها من الفروق.

وقد يعنى بالسنة الجدب والشدّة والقحط، يقال أرض بني فلان سنة أي مجدبة، وأصابتهم السنة الجدب والشدّة والقحط، وتجمع على سنوات على حذف الواو، وعلى السنين.

قال الله تعالى: «ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين» الأعراف (١٣٠) أي الجدب والشدّة

في نهج البلاغة قال مولى الموحدين (أمير المؤمنين) ـ في خطبة في الاستسقاء

«اللهمّ فاسقنا غيثك، ولا تجعلنا من القانطين، ولا تهلكنا بالسنين»

وفي الحديث «اللهمّ أعنّي على مضر بالسنة» وهي الجدب والشدة والقحط

وفي الدعاء على قريش «أعنّي عليهم بسنين كسني يوسف» وهي التي ذكرها الله تعالى في قوله «ثمّ يأتي من بعد ذلك سبع شداد» يوسف ٤٨ أي سبع سنين فيها قحط وجدب وشدة

وفي الحديث «أنّ رسول الله ﷺ نهى عن بيع السنين» بأن يبيع ثمرة نخله أو شجره من الغلات لأكثر من سنة لوجود القحط والشدة والجدب

أسناه إسناءً: أرفعه

سناه يسنوه: رفعه

سناه سناءً ومسناةً: عالجه، واستخرجه بلطف، سانيته: راضيته، وساني الرجل رضيه ودرايه وأحسنت معاشرته بالسناة: المداراة والملاينة في المطالبة والمصانعة

في المفردات السنة في أصلها طريقان أحدهما أنّ أصلها سنهة لقولهم سانهت فلاناً أي عاملته سانهة، وقولهم سنيهة قال ومنه «لم يتسنّه» أي لم يتغيّر بمرّ السنين عليه، ولم تذهب طراوته. وقيل أصله من الواو لقولهم سنوات ومنه سانيت والهاء للوقف نحو كتابيه وحسابيه وأكثر ما تستعمل السنة في الحول الذي فيه الجدب يقال أسنت القوم أصابتهم السنة»

وفي مجمع البحرين وفي نقص السنة وجهان أحدهما حذف الواو وأصله «سنوة» لأنك تقول في الجمع سنوات والثاني حذف الهاء، وأصلها «السنهة» مثل الجبهة لأنها من سنهت النخلة وتسنهت إذا أتت عليها السنون

وفي النهاية: ومنه حديث عمر «أنّه كان لا يجيز نكاحاً عام سنة» أي عام جدب يقول لعلّ الضيق يحملهم على أن ينكحوا غير الأكفاء»

أقول: وهذا خلاف ما يقول الله تعالى «إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم» النور ٣٢

٧٦ـ العمر ـ ١٠٤١

عَمَرَ فلانٌ الدّار يعمرها عَمْراً و عُمْراً و عمارة ـ من باب نصر ـ : بناها، فصارت مسكونة فهو عامر، جمعه عُمّار. و عَمَرَ المنزلُ بأهله: سكنوا فيه. و عَمَرَ المكانَ: أقْبَلَهُ سكونه. و عَمَرَ بالمكان: أقام به فهو معمور لازماً و متعدٍّ قال الله تعالى: «و البيت المعمور» الطور: ٤).

و عَمَرَ الرَّجُلُ بيتَه: سكنه و لزمه. و عَمَرَ ربَّهُ: عبده و خدمه و صلّى و صام. المعمور: المخدوم. دار معمورة: يسكنها الجنّ. و عَمَرَ فلانٌ أرضه: أهّلها و مهّدها للزّراعة و عمّرها بعد خرابها.

قال الله عزّوجلّ: «و أثاروا الأرض و عمروها أكثر ممّا عمروها» الروم: ٩).

في نهج البلاغة: قال سيّد الوصيّين الإمام عليّ ﴿ع﴾ ـ في وصف آدم ﴿ع﴾ ـ «فأهبطه بعد التّوبة ليعمر أرضه بنسله و ليقيم الحجّة به على عباده».

و عمِر يعمَرُ عَمْراً و عمراً و عمارةً ـ من باب علم و ضرب ـ : عاش زمناً طويلاً.

و من المادّة العمر ـ بالفتح و الضمّ مع سكون الميم و بضمّتين ـ إسم لمدّة عمارة البدن بالحياة.

قال الله تعالى: «و ما يعمّر من معمّر و لا ينقص من عُمُره إلّا في كتاب» فاطر: ١١).

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين عليّ بن أبي طالب ﴿ع﴾: «و جعل لكم أسماعاً لتعي ما عناها، و أبصاراً لتجلو عن عشاها، و أشلاءً جامعةً لأعضائها، ملائمة لأحنائها في تركيب صورها و مُدَدِ عُمُرِها بأبدان قائمة بأرفاقها ...» الخطبة: ٨٢).

و فيه: قال أمير المؤمنين الإمام عليّ ﴿ع﴾: «فإن يكن اليوم من عمرك فإنّ الله تعالى سيؤتيك في كلّ غدٍ جديد ما قسم لك، و إن لم يكن اليوم من عمرك فما تصنع بالهمّ فيما ليس لك ...».

عَمَرَ الرَّجُلُ عَمْراً: بقي زمناً طويلاً. و عمر اللهُ فلاناً: أبقاه. و عمر الله منزلَ فلان عمارة: جعله آهلاً. و عمر الرّجلُ مالَهُ و بيتَه عمارة و عُمُوراً و عُمْراناً: لزمه. و عَمَرَ المالُ عمارة: صار عامراً أي كثيراً وافراً. عَمَّرْتُهُ كذا: جعلته له طول عمري أو عمره.

العُمُر: الحياة، و المسجد، و البيعة و الكنيسة، سمّيت باسم المصدر لأنّه يعمر فيها أي يعبد

و العُمُر: لحم ما بين الأسنان و منه عمر الله و غلب للشكر كالعمر بالفتح

كان يقال العُمُرين في الشيّبين لأنّ العمر عندهم أربعون سنة، و بعد الأربعين ينقص، فكأنّ ما زاد على الأربعين ليس من العمر

العُمُر: الحياة و ما طال منها

العَمْر: الحياة وقيل العَمْر دون البقاء لأنّه اسم لمدّة عمارة البدن بالحياة و البقاء ضدّ الفناء، و قد يوصف الباري تعالى بالعَمْر جمعه: أعمار

و في القسم استعملوه بفتح العين و السكون فقط، فقالوا لَعمري، و لعمرك أي حياتي و حياتك

يقال عمرك الله و عمر الله ما فعلت كذا أصله عمّرتك الله تعميراً، و عمرك الله أن تفعل تحلفه بالله و تسأله بطول عمره أو عمرك الله أي ذكّرتك الله تذكيراً و عمرك الله يأتي أيضاً بمعنى سألت الله أن يطيل عمرك و لا يكون المراد بها القسم و هو منصوب انتصاب المصدر، و إذا أدخلت اللام رفعت فقلت لعمر الله رفعه بالابتداء، و اللام لتوكيد الابتداء، و الخبر محذوف و التقدير لعمر الله قسمي، و لعمر الله ما أقسم به و معنى لعمر الله و عمر الله أحلف ببقاء الله و دوامه، و إذا قلت عمرك الله فكأنّك قلت بتعميرك الله أي بإقرارك له بالبقاء

قال الله تعالى «لعمرك إنّهم لفي سكرتهم يعمهون» الحجر: ٧٢ أي حياتك يا محمّد و مدّة بقائك و عمرك الله أي نشدتك بالله و عمرك اسم لمدّة الحياة و لعمري مبتدأ، محذوف الخبر وجوباً، تقديره: قسمي أو يميني

في نهج البلاغة قال إمام المتّقين عليّ بن أبي طالب (ع) «و لعمري لو كنّا نأتي ما أتيتم ما قام للدّين عمود، و لا اخضرّ للإيمان عود، و ايم الله لتحتلبنّها دماً و لتتبعنّها ندماً»

العَمْر: الدّين، و منه لعَمْري في القسم أي لديني و العَمْر: لحم ما بين الأسنان أو لحم اللثة، جمعه عُمُور. العمور: منابت الأسنان و اللّحم الّذي بين مغارسها

ومنه الحديث «أوصاني جبرئيل بالسّواك حتّى خشيت على عُمُوري»

والعَمْر: اللّثة، وكلّ مستطيل بين سنّين، ونخل الطِّوال، الواحدة عَمْرة، ونخل السُّكّر

العَمْرَة: الخرزة وكلّ شيء على الرّأس من عمامة وقلنسوة وتاج وما إليها

والعَمْرتان: عظمان صغيران في أصل اللسان لهما شعبتان يكتنفان الغلصمة من باطن

وأبو عَمْرَة: كنية الإفلاس والجوع

العَمْرو: من الأعلام تلحق به الواو رفعاً وجرّاً للفرق بينه وبين عُمَر، وتسقط الواو نصباً لأنّ الألف تخلفها جمعه: عَمْرون وأعْمُر وعُمُور

وعَمْرو اسم شيطان، وأمّ عَمْرو: الضّبع. العَمْران: عمرو بن جابر وبدر بن عمرو، والعمران المدلّسان على الله. عمرويه: اسم رجل مركّب كسيبويه

وأبو عمرو العَمْري: ثقة جليل مكنّى بأبي عمرو السمّان من أصحاب الإمام الجواد(عليه السلام) وكان من وكلاء الإمام الحسن العسكري(عليه السلام) وهو الراوي لدعاء السّمات المعروف

وابن أبي عُمَير من الثّقات رواة الحديث من أصحاب الإمام الكاظم(عليه السلام) رأى الصادق(عليه السلام) وروى عنه

العمرويّة: فرقة من المعتزلة، مثل أبي حنيفة في الأحكام إلّا أنّهم فسّقوا الفريقين في مقتل عثمان، وهم منسوبون إلى عمرو بن عبيد وكان من رواة الحديث

والعَمْريّ: نسبة إلى عمرو

عُمَر: اسم رجل، ممنوع من الصّرف للعلميّة والعدول عن عامر. والعُمَران: أبو بكر ابن أبي قحافة، وعمر بن الخطّاب

العَمَر ـ محرّكة ـ مصدر، والدّين، والمنديل تغطّي به الحرّة رأسها، وأن لا يكون لها خمار ولا صوقعة، تغطّي رأسها، فتدخل رأسها في كمّها، ثمّ استعمل لطرفي الكمّين

وفي الحديث «ولا بأس أن يصلّي الرّجل في عَمَرتيه» وهما طرفا الكمّين

عُمَرُ: جبلٌ يُصَبّ في مسيل مكّة المكرّمة

العُمْرى: ما تجعلُه لك طول عمرك أو عمره، وهي اسم من أعْمَر، يقال: أعمره الدّار عُمْرى: جعلها له يسكنها مدّة عمره أو عمري، فإذا مات من عيّنت عنده المدّة رجع ذلك الشيء إلى المالك أو الوارث. ومنه قولهم: «ما الدّنيا إلاّ عُمْرى ولا خلود إلاّ في الأخرى»

العُمْران: اسم للبنيان، وما يُعْمَرُ به المكان، وحسن حاله بواسطة الفلاحة وكثرة الأهالي، ونجح الأعمال والتمدّن. يقال: العرب أسس العُمْران.

في نهج البلاغة: قال أمير المؤمنين الإمام عليّ ﷺ: «فإنّ العُمْران محتمل ما حمّلته».

آل عمران: اسم السورة الثالثة من القرآن الكريم في المصحف، وعمران اسم أبي موسى النبيّ ﷺ وأبي مريم أمّ عيسى عليهما السلام.

قال الله تعالى: «إذ قالت امرأة عمران ربّ إنّي نذرت لك ما في بطني محرّراً» (آل عمران: ٣٥)

وفي نهج البلاغة: قال سيّد الوصيّين الإمام عليّ ﷺ: «ولقد دخل موسى بن عمران ومعه أخوه هارون صلّى الله عليهما على فرعون»

من المشتقّ: العمارة من الإنسان: الصدر، ومنه في مصطلحهم: الجموع البشرية، مشتقّة من أعضاء من الجسم الإنساني. العمارة: جماعة يأهل بهم المكان فيعمر. والعمارة: ما يعمر به المكان.

قال الله تعالى: «وعمارة المسجد الحرام» (التوبة: ١٩)، وعمارة المسجد: ما يشمله من إقامة الشعائر والعبادة والزيارة وحفظ البناء وتنظيفه وتعميره.

العِمارة -مصدر- نقيض الخراب، وعمارة المساجد تشمل رمّها وكنسها وتنظيفها، والإسراج فيها وفرشها وشغلها بالعبادة وإكثار زوّارها، وتنحية أعمال الدنيا واللهو واللغط، وعمل الصنائع وما إليها.

في نهج البلاغة: قال إمام المتّقين عليّ بن أبي طالب ﷺ: «فإنّي أوصيك بتقوى الله -أي بنيّ- ولزوم أمره، وعمارة قلبك بذكره والاعتصام بحبله»

العِمارة: أخصّ من القبيلة، وهو الحيّ العظيم تُدني بقوم بنفسه، ويعدّه البطن،

فالأفصح أن العِمارة اسم جمع ما يعمر به المكان

«العُمارة ـ مصدر ـ زعموا كان الرجل يحيّي به أمنك مع قوله عمرك الله»

العِمارة رقعة مزيّنة تخاط في المظلّة، و كلّ شيء على الرأس من عمامة و قلنسوة و تاج و غيرها، جمعها عمائر. و العِمارة طائفة من شعب عربية تكون معاً

العِمارية هودج يُجلس فيه و يوضع فيه جسد الميّت لدفنه في مقبر

العَمّار النجيبة و الرجل و كلّ ما تضعه ترتدي على رأسه عمارة تزيّنه و حفظاً له رعاية كان أو عمامة و نحو ذلك

العُمارة: اسم رجل، و أخرى لعمارة

العامر ـ اسم فاعل ـ من عمر ضدّ خرب

في نهج البلاغة في سند الوصية للإمام علي «ع»: «و عجبت لعامر دار الفناء، و تارك دار البقاء»

العامر: المقيم. يقال: و تركتهم عامراً مكان كذا أي مقيمين مجتمعين

و قد يأتي العامر بمعنى المعمور. يقال: مكان عامر أي معمور. مثل ماء دافق أي مدفوق. العامر ـ أيضاً ـ جرو الضبع. أبو عامر: الضبع. أبو عامر الراهب، هو أبو حنظلة غسيل الملائكة، و حنظلة من خواصّ رسول الله «ص» قتل معه يوم أحد، و كان جنباً، فغسلته الملائكة، فسمّي بذلك

العامران: ابن مالك و ابن الطُّفيل

العُمّار ـ جمع عامر ـ سكّان البيوت من الجنّ. و العُمّار: المعتمرون. و منه حديث الأسود، قال: «خرجنا عُمّاراً فلمّا انصرفنا مررنا بأبي ذرّ فقال: احلقتم الشعث و قضيتم التفث»

في نهج البلاغة، قال أمير المؤمنين الإمام علي «ع» ـ في المجاهدين في سبيل الله تعالى ـ: «سيماهم سيما الصدّيقين، و كلامهم كلام الأبرار، عُمّار الليل و منار النهار»

العَمّار: فعّال للمبالغة. يقال: رجل عَمّار إذ كان كثير الصلاة و كثير الصوم، و القويّ في الإيمان، الثابت في أمره، المتحبّب الورع، الصبور على العمل، و الطيّب الثناء، و الطيّب

الرّوائح، و مجتمع الأمر، اللاّزم للجماعة، الغلبة على السّلطان. و العمار الوقور في كلامه، والرّجل يجمع أهل بيته و أصحابه على أدب شريعة الله، و القائم بالأمر و النّهي إلى أن يموت.

عمّار بن ياسر: إسم رجل من كبار صحابة رسول الله «ﷺ» و أمير المؤمنين الإمام عليّ «ﷺ»

في نهج البلاغة قال سيّد الوصيّين عليّ بن أبيطالب «ﷺ» في عمّار و أمثاله «أين إخواني الّذين ركبوا الطّريق، و مضوا على الحقّ؟ أين عمّار؟ و أين ابن التّيهان؟ و أين ذو الشّهادتين؟ ».

العمير من الأماكن: المعمور، فعيل بمعنى مفعول. و ثوب عمير: صفيق كثير عمير: أتباع

عُمَيرة: علمٌ للكلب

العُمَيران: العُمَرتان للعصفورين المذكورين. و كذلك العُمَيرتان و العُمَيمرتان

العميرة: كوّارة النّحل. و البطن. و قيل: حيّ عظيم يطيق الانفراد عن قومه. و العَميرة: خلايا النّحل مجموعة جمعها عمائر

عوامر البيوت: الحيّات، واحدها عامر و عامرة، و سمّيت عوامر لطول أعمارها

المَعْمَر: المنزل الكثير الماء و الكلأ و نحوه المَعمر: المسكن مادام عامراً بسكّانه

المعمار: البنّاء. المعماريّ: عمل البنّاء. و شكل البناء. المعماريّة: نسبة إلى المعمار

المُعَمَّريّة: فرقة من المعتزلة أتباع مُعَمّر بن عبّاد السّلمي

اليعمور: الجدي. و الصّغير من الضّأن، جمعه يعامير كعفوه «مثل الدّميم على فرام المعامير» أي يسيل الدم منها كأنّه الدّميم الّذي يدمّ من الأنف و اليعامير -أيضاً- موضع

اليعمورة: شجرة

أعمره إعماراً: أهّله و أصلحه بعد خرابه. و يقال: أعمرته داراً أو أرضاً أو إبلاً: أعطيته إيّاها. أعمر الله منزلك: جعله آهلاً. و أعمر فلان الأرض: وجدها عامرة. و أعمر

فلاناً عمّره: جعله يعمر و أعانه على أداء تعميره، و عمّر فلان على امرأته بنى عليها في أهلها، و أعمر به الدّار: جعلت له سكناها عمره.

عَمَّرَ فلان تعميراً: عاش زماناً طويلاً. التعمير: إعطاء العمر بالفعل أو بالقول على سبيل الدّعاء، و عَمَّرَ نفسه: قدّر لها قدراً محدوداً من العمر، و عَمَّرَ الثّوب: أجاد نسجه أو غزله، و عَمَّرَ الله فلاناً: أبقاه مدّة معيّنة.

في نهج البلاغة: قال الإمام المعصوم مولانا عليّ بن أبي طالب ﴿ع﴾ في رسول الله ﴿ص﴾: «و عمّر فيكم نبيّه أزماناً حتّى أكمل له و لكم فيما أنزل من كتابه دينه الّذي رضي لنفسه»، و عَمَّرَ المنزل: جعله آهلاً، و عمّره أرضاً: جعلها له طول عمره، و عَمَّرَ الرّجل: عاش زمناً طويلاً.

المُعَمَّرون من الأنبياء ﴿ع﴾ و هم في قيد الحياة حتّى اليوم أربعة: الخضر و إلياس و هما في الأرض، و عيسى و إدريس و هما في السّماء.

اعتمر بالمكان اعتماراً: قصده و زاره، و اعتمر الأمر: أمّه و قصده، يقال: جاءنا فلان معتمراً زائراً، و الاسم: العمرة، العُمرة: طاعة الله تعالى، اسم من الاعتمار.

العُمْرَة ـ في اللغة ـ: القصد إلى مكان عامر أو الزيارة الّتي فيها عمارة الودّ، و في الشرع: أعمال مخصوصة، تسمّى بالحجّ الأصغر، و واجباتها ثمانية: ١ـ النيّة ٢ـ الإحرام ٣ـ طواف الكعبة ٤ـ صلاة الطواف ٥ـ السّعي بين الصّفا و المروة ٦ـ التقصير أو الحلق ٧ـ طواف النّساء ٨ـ صلاة طواف النّساء.

جمع العُمْرة: عُمَر و عُمُرات كغرفة و غُرَف و غرفات

و قد خصّ بذلك لأنّه قصد لعمل مخصوص في موضع عامر، و تحسن العمرة في أيّ وقت من السّنة و أفضلها شهر رجب المرجّب ثمّ رمضان المبارك.

قال الله تعالى: «فمن حجّ البيت أو اعتمر ـ و أتمّوا الحجّ و العمرة لله» البقرة ١٥٨ و ١٩٦)

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين الإمام عليّ ﴿ع﴾: «و حجّ البيت و اعتماره فإنّهما ينفيان الفقر و يرحضان الذّنب»

يقال: اتّخذنا نادياً معتمراً: أي محلاً يجلس فيه المُعْتَمِر الزّائر و القاصد للشّيء لعمّه، و

قاصد للكعبة سرعٌ بشرائط مخصوصة مذكورة في الفقه

العُمرة: أن يبني الرّجل على امرأته في أهلها، فإن نقلها إلى بيته فذلك العرس

تعمّر: جاء بالعُمرة. و انتسب إلى بني عمرو بن الحارث

استعمره في المكان جعله يعمره و استعمر الله عباده في الأرض طلب منهم العمارة فيها قال الله تعالى «هو أنشأكم من الأرض و استعمركم فيها» هود ٦١ أي أذن لكم في عمارتها و جعلكم سكّانها

الاستعمار أن تملك دولة بلاد غيرها كلّها أو جزءاً منها قهراً، يقال استعمرت دولةٌ بلاد غيرها استعماراً فجعلتها مُسْتَعمَرةً لها، فهي مُسْتَعْمِرة، جمعها: مستعمرات. و هو مستعمر، جمعه مستعمرون

في اللسان العَمْر و العُمُر و العُمْر الحياة، يقال قد طال عَمْرُهُ و عُمْرُهُ، لغتان فصيحتان، و جمعه أعمار و عمّار الرّجل يجمع أهل بيته و أصحابه على أدب رسول الله ﴿ﷺ﴾ و القيام بسنّته مأخوذ من العمرات و هي السحابات التي تكون تحت اللحى

العمارة هي فوق البطن من القبائل أوّلها الشعب، ثمّ القبيلة ثمّ العمارة، ثمّ البطن، ثمّ الفخذ و أبو عُمَير كنية المزاح

و في القاموس و شرحه: عمر الرّجلُ ـ كفرح و نصر و ضرب ـ عمْراً و عمارة و عَمَراً: عاش و بقي زماناً طويلاً و أبو عُمَيْر ـ كزبير ـ كنية الذَّكر و جعل عُمَيرة كناية عن الاستمناء باليد. عُمَيْرة مستعارة للكف من أعلاء الشيء

٢ ـ الحبر ـ ٢٩٠

حَبَرَ الأمرُ فلاناً يحبره حَبْراً و حَبْرَةً ـ من باب نصر ـ سرّه، و حَبَرَ الشيءَ زيّنه و حَبَّرَ الأمر: حسّنه و وشّاه، و حبّرني هذا الأمر سرّني و فرّحني

قال الله تعالى: «فهم في روضة يحبرون» الروم ١٥ أي ينعّمون، و يكرمون، و يسرّون و يفرحون حتّى يظهر عليهم حبار نعيمهم

و في الحديث «من عرى جرساً كسي في الموقف حلّة تحبّر بها» أي يُسَرُّ بها

حَبَرَ الرَّجلُ يحبَرُ حَبْراً و حُبوراً ـ من باب عَلِمَ ـ فرح و سُرَّ و حَبِرَ الجُرْحُ بَرِئَ، و قد بقيت به آثار، و حَبِرَت الأرضُ كثر نباتها و حَبِرَت الأسنانُ صَفِرَت. الحَبور صفرة الأسنان.

حُبِرَ الجلد ـ على المجهول ـ ضُرِبَ، فبقي أثره و حُبِرَ فلان بقي بجلده أثر من قرح و حُبِرَت اليد برئت على عقدة في العظم من ذلك.

الحَبْر ـ بالفتح ـ مصدر، و الرَّجل العالم و قيل الصّالح من العلماء، إلّا أنّ الكسر أفصح لأنّه يجمع على أفعال. الحَبْر: رئيس من رؤساء الدّين. الحَبَر: صفرة تعلو الأسنان، و السّرور و سعة العيش و النّعمة. يقال فلان حسن الحِبْر و السِّبْر جميل حسن الهيئة. و قد سمّي عبد الله بن عبّاس حبراً لحسن جماله. و قيل لعلمه.

الحَبْرُ الأعظم: البابا، رئيس الشيعة الكاثوليكيّة، و رئيس كهنة اليهود. جمعه أحبار و حُبُور.

أحبار اليهود كهنتهم و الأحبار البطرك و الأسقف، واحد أحبار اليهود، و هو العالم الّذي صناعته تحبير المعاني و تخليط ما ليس من الدّين في الدّين كمخالطة الصّفرة لبياض الأسنان.

قال الله تعالى فيهم: «أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثمّ يحرّفونه من بعد ما عقلوه و هم يعلمون ـ فويل للّذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثمّ يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم ممّا كتبت أيديهم و ويل لهم ممّا يكسبون» البقرة: ٧٥ ـ ٧٩)

و قال: «من الّذين هادوا يحرّفون الكلم عن مواضعه» النساء: ٤٦)

كعب الأحبار: هو كعب بن مانع، كنيته أبو إسحاق و كان جاسوساً من علماء اليهود، تظاهر بالإسلام في عهد عمر بن الخطّاب، و اختلط معه و اتّخذه عمر بن الخطّاب سنداً لنفسه و كان يستمع منه الأحاديث الموضوعة و المفتريات.

في تفسير ابن كثير الدّمشقي (ج ٤ ص ١٧ ط مصر) «كان عمر يستفيد من كعب الأحبار و وهب بن منبه، و يحرّض النّاس على الاستفادة منهما ـ إلى أن قال ـ فإنّه لمّا أسلم

في الدولة العمرية، فجعل يحدث عمر ـ بن الخطاب ـ عن كتبه قديمًا، وربما استمع له عمر، فترخّص الناس في استماع ما عنده ونقلوا ما عنده عنه غثّها وسمينها، وليس لهذه الأمّة حاجة إلى حرف واحد مما عنده...»

ولابن كثير الدمشقي في تفسيره ولمحمود أبوريّة في كتابه (أضواء على السنّة المحمّدية ص ١٤٧ ـ ١٤٩) ولغيرهما. ولنا في تفسير سورة «ق» ج ٣٤ ص ٧٠٨ ـ ٧١٦) كلام في كعب الأحبار وتلميذه عمر بن الخطّاب فراجع

وقد جاور كعب الأحبار المدينة، وسكن الشام، وتوفي سنة (٣٢) للهجرة بحمص في عهد عثمان بن عفّان

الحِبْر ـ بالكسر ـ المداد يكتب به، وسمّي الحبر مدادًا لأنّه مما يُحَبَّر به الكتب أي تحسن، أو لتحسينه الخط وتبيينه إيّاه، أو لتأثيره في الموضع الّذي يكون فيه

الحِبْر: الرجل العالم، والعالم الصالح من المسلمين، والأثر المستحسن، وأثر النعمة ولونها، والحسن والوشي، وصفرة تركب بياض الأسنان. والحِبْر: المثل والنظير، يقال: ليس له حِبْر أي مثل ونظير. وذهب حِبْرُهُ وسِبْرُهُ: حسنه وهيئته

الحِبْرة: صفرة تخالط بياض الأسنان. حِبْرة: أُطُمٌ بالمدينة المنوّرة، وهي لليهود في دار صالح بن جعفر معروفة بالعلقميّة والشنيت

الحَبَر ـ محرّكة ـ مصدر، والأثر

الحَبِر ـ ككتف ـ الناعم الجديد يقال: شيء حَبِرٌ ناعم جديد

حُبْرَ حُبْرَ: دعاء للشاة إلى الحلب. الحُبْرة: عقدة من الشجر تقطع وتُخرط منها الآنية، جمعها حُبَر

حَبْرُون ـ كزيتون ـ اسم مدينة إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام بالقرب من بيت المقدس، وبها غار، يقال له: غار حَبْرون فيه قبر إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام وقد غلب على اسمها الخليل

الحَبْرة: السرور، والنعمة وسعة العيش وكذلك الحبور. وفي ذكر أهل الجنّة «فرأى ما فيها من الحَبْرة والسرور» أي النعمة وسعة العيش

في نهج البلاغة قال مولى الموحدين يعسوب الدين الإمام علي (عليه السلام) في ذم الدنيا ـ «لا يدوم حبرتها ـ لم يكن امرؤ منها في حبرة إلا أعقبته بعدها عبرة»

الحَبَرَة و الحِبَرَة: ضرب من برود اليمن، قطن أو كتان مخطط، و ملاءة سوداء تلبسها نساء محجبات مصر إذا خرجن من بيوتهن. جمعها حبرات و حِبَرات و حِبَر

الحُبُورة: الإمامة مأخوذ من الحَبْر بمعنى الرئيس في الدين

الحُبور: النعيم الجديد، و منه «لبس حبير الحبور، و جلس على سرير السرور»

الحبير: السحاب المنمّر، و برد المُوشّى المخطط، ثوب حبير: محسّن و منه حديث أبي ذرّ الغفاري رضوان الله تعالى عليه «الحمد لله الذي أطعمني الخمير و ألبسني الحبير» جمعه: حُبُر و حِبَرات. و في الحديث قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) «مثل المؤمن في القرآن كمثل الحِبَرات في الثياب»

المَحْبَر: موضع الحبر

المِحبار: الأرض السريعة النبات حسنه و منه ثياب حسان و جمع مِحْبار. جمعه محابير

المَحْبَرَة و المَحْبُرَة: موضع الحبر الذي يكتب به، و محبرة: الدواة، جمعها محابر. المَحْبَرَة المَلِيئَة بالسرور و الحبور و منه حديث عبد الله قال عمران علي و الناس «محبّرة» أي مجلبة للحبور و السرور

الحابور: مجلس الفُسّاق. جمعه: حوابير

الحابورة: مقعد اليهود في مجامعهم

الحِبار ـ بالفتح و الكسر ـ الأثر يعني عقده حبار الضرب و في بدنه حبار لعمل أثره. جمعه حبارات

الحُبارى: طائر معروف، أكبر من الدجاج الأهلي وأطول عنقاً، على شكل الإوزة، برأسه و بطنه غبرة، و لون ظهره و جناحيه كلون السُّمانى غالباً. جمعها حُبارَيات و هذا الطائر يضرب به المثل في الحمق و البلاهة يقال «فلان أبله من الحبارى، و كل شيء يحب ولده حتى الحُبارى» قيل لها ذلك لأنها إذا عرفت عُشّها دخلته و حضنت بيض غيرها و «مات كمد الحُبارى» مثل لأنها إذا راث ريش صاحبها بقيت قبل ريشها ماتت كمداً

و «سَلَحَ الحُبارى سُلاحها» مَثَلٌ لأنّه يقال إذا أراد الصقر أن يصيدها رمت بسلحها عليه فيمرّ عنها و يتركها، و يقال إنّها إذا سلحت على الصقر سلحت في وجهه فتمنعه

و في الحديث «لا بأس بأكل الحبارى» و في الخبر «إنّ أكله حسن للبواسير و وجع الظهر و هو ممّا يعين على كثرة الجماع»

و الحبارى: من أشدّ الطير طيرانًا و أبعدها شوطًا و أكثر الطير حيلة في تحصيل الرّزق، و مع ذلك يموت جوعاً. الحُبارى: أنواع كثيرة

و في الحديث: «إنّ الحبارى لتموت هزلاً بذنب بني آدم» يعني أنّ الله يحبس عنها القطر بعقوبة ذنوبهم، و إنّما خصّها بالذكر لأنّها أبعد الطير نُجعةً فربّما تذبح بالبصرة و يوجد في حوصلتها الحبّة الخضراء، و بين البصرة و بين منابتها مسيرة أيّام كثيرة

الحُبُّور: فرخ الحُبارى جمعه حبابير و حُبُر، و الحبرور أيضاً: فرخ الحُبارى جمعه حبارير

الحبّار و الحِبْريّ: بائع الحِبْر على أنّ فعّالاً لما يكون بصناعته يكون للنسب و الدّلالة على الحِرَف، و الصّانع كالنجّار و التمّار

الحبّار: جنس حيوانات من الرّخويّات جسمها بيضويّ مغطّى بغلاف صدفيّ تفرز سائلاً أسود يستعمل للطّباعة

أَحْبَرَ زيداً إحباراً: سرّه و أكرمه و نعّمه، و أحبر به: ترك به أثراً، و أحبرت الأرض: كثر نباتها

حَبَّرَ الدّواةَ: وضع فيها الحِبْر، و حبّر الشّعر و الكلام و الخطّ: حسّنه و زيّنه و منه حديث وصفه سبحانه «كلّ دون وصفه تحبير اللغات» أي تحسينها و تزيينها و تخطيطها بالصّواب و الخطأ و الحقّ و الباطل، و الحسن و القبح و منه من الأدويين المشبّهة حيث شبّهوه سبحانه بالسّبيكة و البلورة و غيرهما

في نهج البلاغة من كتاب سيّد الموصّين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﴿ﷺ﴾ إلى معاوية بن أبي سفيان عليهما الهاوية و النيران: «أمّا بعد فقد أتتني منك موعظة مُوَصَّلة، و رسالة مُحَبَّرة، نمّقتها بضلالك و أمضيتها بسوء رأيك»

خُمِّرَ ـ على المجهول ـ فرحت امرأة عجنت جديدة و بقي فيه ثمّ فهو مُخمَّر

مُخمِّر ـ بصيغة فاعل ـ نعت تنعت به ... شَعر في جبهته فتدخ مُخمَّرٌ

أُحمد بريّة شاة مُخمَّرة في عنقها حمر من سود و بياض

مُخمَّرٌ برئ و حسن، و مُخمَّرٌ لشحت ظهر و نسر

٣٦ ـ المساء و الإمساء ـ ١٤٣٤

مسا الشيء مسواً: نقص، و في ـ مثل ذلك من باب نصر ـ لم يزد و لم ينقص و مسا الخيار وقف و لم ينفذ، و مسا بالمكان لزمه و لم يفارقه و مسى فلان على الناقة إذا أدخل يده في حيائها أو رحمها، فنقّاه من ماء الفحل و ذلك كراهة أن تحمل. يقال: ركب فلان مساء الطريق إذا ركب وسط الطريق

المساء خلاف الصباح، و هو بعد الظهر إلى قبل الفجر، و قيل ما بين الظهر إلى صلاة المغرب، و قيل إلى نصف الليل

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتقين عليّ بن أبي طالب (ع) ـ في وصيّته لشُريح ابن هانئ لمّا جعله على مقدّمته إلى الشام ـ «اتّق الله في كلّ صباح و مساء»

يقال: أتيته مساء أمس أي أمس عند المساء. يقال: أتيتك صباح مساء، بالإضافة أي في كلّ صباح

و العرب إذا تطيّروا من أحد قالوا: مساء الله لا مساؤك، بالرّفع و النّصب فيهما، فالرفع على تقدير لك و النّصب على تقدير نحوه لأنّ العرب يكنّون بالمساء عن الشرّ و الويل، و بالصّباح عن الخير و السّرور

جمع المساء أمسية. المَسْيُ: إخراج النّطفة أو الولد من الرّحم. يقال: مَسَيْتُ النّاقة إذا سطوت عليها و أخرجت ولدها و هو إذا أدخلت يدك في رحمها فأخرجت ماء الفحل و الولد من رحمها

المُسَيُّ و المُسَيَّان تصغير المساء. يقال: أتيته مُسَيّاً و مُسَيّاناً جاء مُسَيّانات أي مُغَيْرِبانات، و هي جمع مُسَيّان لا يستعمل إلّا ظرفاً

بيان اللغة

الأُمْسِيَّة: خلاف الأُصبوحة، يقال: أتيته أُمسيّة أمس، أي: مساءه.

المُمْسى: مصدر ميميّ، والمكان الذي تُمسي فيه، كقوله: «مرّ د تُمسي زهب منزل»

يريد صومعته حيث يمسي فيها.

وفي الدعاء: «الحمد لله بممسانا ومصبحنا» مثل: بالله نصبح وبالله نمسي.

أمسى الرّجل إمساءً: دخل في المساء، خلاف أصبح.

ويستعمل ناقصاً مثل «كان» يقال: «أمسى زيد ضاحكاً» أي: اتّصف بالضحك في المساء، أو اتّصف بالضّحك مطلقاً.

ويستعمل تامّاً.

قال الله تعالى: «فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون» الروم ١٧ أي: اذكروا الله تعالى في هذين الوقتين.

في نهج البلاغة: قال سيّد الوصيّين أمير المؤمنين الإمام عليّ (عليه السلام) ـ في وصف المتّقين ـ: «يُمسي وهمّه الشكر، ويُصبح وهمّه الذّكر».

يقال: كيف أمسيت؟ أي: كيف أنت في وقت المساء.

أمسى إمساءً: وعده بأمر ثمّ أبطأ عنه، وفي الحديث: «أصحاب أبي الخطّاب يُمسون بالمغرب» أي يؤخّرونها حتّى تشتبك النّجوم.

الإمساء: خلاف الصّبح والصّباح.

المُمْسيُ والمِمْسيُ: اسمان من الإمساء، يقال: أتيته مُمسى أمس، ومُمسيه أي: أمس مساءً، و يقال: أمسينا وأمسى الملك لله أي: دخلنا في المساء، وصرنا نحن وجميع الملك لله.

مسّاه تمسيةً: دعا له أن يكون مساؤه خيراً، ومسّى الرّجلُ: وعد بأمر ثمّ أبطأ عنه.

يقال: مسّاك الله بالخير: دعاء له أي جعل مساءه خيراً، مثل: صبّحك الله بخير.

مسّى به اللّيل: إذا جاءه مساءً، يقال: يأتينا صباح مساء، مبنيّين على الفتح بتقدير العطف كخمسة عشر أي صباحاً ومساءً.

إمتسى ما عند فلان امتساءً: أخذه كلّه.

٧٩ ـ الحنيف ـ ٣٦٧

حَنَفَ الشيءُ يَحْنَفُ حَنَفاً ـ من باب مَنَعَ ـ مال، وحنف رِجْلَهُ جعلها حنفاء لازم ومتعدٍّ

وحَنِفَ الرَّجلُ حَنَفاً ـ من باب تعب ـ فهو حَنِف رِجْلُهُ إلى داخل منه ومنه «والله لولا حَنَفٌ برجله ما كان في فتيانكم مثله» وحنف الرَّجلُ انقلب ظهر القدم حتى صار بطناً فهو أحنف، وهي حَنْفَاء والحَنْفاء ـ بضمّ ـ الفرس، والماء

أصل الحنف الميل ومنه «بُعِثْتُ بالحنيفية السمحة السهلة» أي المستقيمة المائلة عن الباطل إلى الحق، عن الشرك إلى التوحيد عن الشرّ إلى الخير، وعن المعصية إلى الطّاعة ومثله «أحبّ دينكم إلى الله الحنيفية» أي الطريقة المستقيمة التي لا التواء ولا اعوجاج فيها

الحنيف: الموحّد المخلص الذي أسلم لأمر الله تعالى، المائل إلى الدين المستقيم وعزيمته فلم يلتو في شيءٍ من دينه، جمعه حُنَفَاء

قال الله تعالى «فأقم وجهك للدِّين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدِّين القيِّم ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون» (الروم ٣٠)

الحنيف: المتمسك بالإسلام، والحنيف عند العرب من كان على دين إبراهيم ﴿ﷺ﴾ موحِّداً، مستقيماً في دينه

قال الله تعالى «إنّ إبراهيم كان أمّة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين ـ ثمّ أوحينا إليك أن اتَّبع ملَّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين» (النحل ١٢٠ ـ ١٢٣)

الحنيف: وهي الحنيفة، الصحيح الميل إلى الإسلام الثابت عليه

قال الله عزّوجلّ «ومن أحسن ديناً ممّن أسلم وجهه لله وهو محسن واتّبع ملّة إبراهيم حنيفاً» (النسآء ١٢٥)

وقال «فاجتنبوا الرّجس من الأوثان واجتنبوا قول الزّور حنفاء لله غير مشركين به» (الحج ٣٠ ـ ٣١) أي مائلين عن جميع الأديان إلى دين الإسلام مسلمين مؤمنين بالله تعالى ورسله أجمعين، غير مشركين به سبحانه

قال الله عزّوجلّ «ما كان إبراهيم يهوديًّا و لا نصرانيًّا و لكن كان حنيفاً مسلماً و ما كان من المشركين» آل عمران: ٦٧) أي إنّ إبراهيم ﴿؏﴾ حنف إلى الله تعالى وحده و دين الإسلام

الحنيف: المسلم الّذي يتحنّف عن الأديان كلّها أي يميل إلى الدّين الحقّ، و هو الّذي يستقبل قبلة البيت الحرام على ملّة إبراهيم ﴿؏﴾ مختتناً مسلماً لأمر الله تعالى مستقيماً على دينه، و هذا الدّين هو دين الفطرة السّليمة الّذي تؤيّده العقول السّليمة و دعا إليه جميع الأنبياء و المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين

و في الحديث القدسي «خلقت عبادي حنفاء» أي مستعدّين لقبول الحقّ بفطرتهم، و هو في معنى: «كلّ مولود يولد على الفطرة»

الحنيف: و كانت العرب تسمّي كلّ من حجّ أو اختتن حنيفاً تنبيهاً أنّه على دين إبراهيم ﴿؏﴾

الحنف: الفصل، و الحذّاء، و المستقيم عن يهديكم طريق لا عوج بكم، و حنيف إسم و دين حنيف أي حديث إسلاميّ أي قديم له

الحنَف: الاستقامة، و منه قوله «دين محمّد حنيف» أي مستقيم لا عوج فيه

و حنُف يحنُفُ حنافةً - من باب كرم - بمعنى خيف

حُنيف الحناتم - مصغّراً - رجل من بني تيم اللات بن ثعلبة يُضرب به المثل في رعاية الإبل، و حسن القيام عليها

و عثمان بن حُنيف الأنصاري هو من أصحاب أمير المؤمنين الإمام عليّ ﴿؏﴾ و هو عامله على البصرة، و قد كتب له الإمام عليّ ﴿؏﴾ كتاباً «أمّا بعد! يا ابن حُنيف فقد بلغني أنّ رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة فأسرعت إليها - فاتّق الله يا ابن حُنيف، و لتكفك أقراصك ليكون من النّار خلاصك»

الأحنف: الّذي تميل قدماه كلّ واحدة إلى أختها بأصابعها، و علم لرجل من كبار التّابعين يُضرَب به المثل في الحلم

في نهج البلاغة قال مولى الموحّدين الإمام عليّ ﴿؏﴾ للأحنف «يا أحنف كأنّي به،

وقد سمّي بالحنيف الّذي لا يكون به شيء و لا خبث

و الأحنف من في رجله ميل و قيل الّذي يمشي على ظهر قدمه لاستقامته و قيل شعر بمثل مجرّد

الحنّاء: النبات، و الموسى، و شجره، و الأمة المنوّنة بكسر مرّة و بسقط أخرى، و أخريات، و مستحقّة، و متحرّكة حركته تعالى في الأُصول

الحنفيّة: نسبة إلى ... ترجّح في نفس من خواصّ الاستخراج الماء منه عند الحاجة

الحنفية: هي أمّ محمّد بن عليّ بن أبي طالب (ع) و قد عرف بابن الحنفيّة و كنيته أبو القاسم، ولد سنة (٢٦) و توفّي بالمدينة في محرّم سنة (٨١)، و هو ابن خمس و خمسين سنة، و دفن بالبقيع

الحنيفة: مؤنّث الحنيف، و الحنيفيّة في الشريعة الميل إليه، و الإقامة على عهده و في الحديث «السكوت من حنيفة» أي من سنن الحنيفيّة و هي عشر سنن

بنو حنيفة: حيّ و هم قوم مسيلمة الكذّاب و قيل حيّ من ربيعة

السّيوف الحنفيّة: منسوبة إلى الأحنف بن قيس، و هو صخر لأنّه أوّل من أمر باتّخاذها، و قيل الحنفيّة فمن سمّي الأحنف لذلك في رجله حنفٌ أي ميل

حنيفة: أبو حيّ من العرب و هو حنيفة بن لجيم بن صعب بن بكر بن وائل

أولاد الأحناف: هم الإخوة من أمّ واحدة و آباء متعدّدة

أبو حنيفة: كنية عشرين رجلاً من الفقهاء أشهرهم النعمان بن ثابت، و هو من الأئمّة الأربعة لمذاهب العامّة، ولد سنة (٨٠)، و قيل (٦١) و توفّي سنة (١٥٣)، و قيل (١٥١)

و كان أبو حنيفة من تلامذة الإمام جعفر بن محمّد الصّادق (ع) و هو يقول «لولا السّنتان لهلك النّعمان» ثمّ خالف أستاذه في الرّأي و القياس و الفتاوى المعروفة في الفقه

في الكنى و الألقاب للمحدّث الجليل و المؤرّخ الخبير، الشيخ عبّاس القمّي رضوان الله تعالى عليه ما لفظه «و روي عن الإمام مالك قال ما ولد في الإسلام مولود أضرّ على أهل الإسلام من أبي حنيفة، و قال كانت فتنة أبي حنيفة أضرّ على هذه الأمّة

من قبله يبيس. وأخرج عن عبد الرحمن بن مهدي قال: ما أعلم في الإسلام فتنة بعد فتنة الدجال أعظم من رأي أبي حنيفة. وعن الأوزاعي قال: عمد أبو حنيفة إلى عرى الإسلام فنقضه عروة عروة. وأخرج عن أبي صالح الفراء قال: سمعت يوسف بن أسباط يقول: ردّ أبو حنيفة على رسول الله أربعمائة حديث أو أكثر. قال: ولو أدركني النبي وأدركته لأخذ بكثير من قولي. وهل الدين إلا الرأي الحسن. وأخرج عن علي بن صالح البغوي قال: أنشدني أبو عبد الله محمد بن زيد الواسطي لأحمد بن المعذل

إن كنت كاذبة بما حدثتني فعليك إثم أبي حنيفة أو زفر

المائلين (المائلين خ) إلى القياس تعمداً والراغبين عن التمسك بالخبر

وروي أنه كان رأس المرجئة، وأنه شغل من مسائله ... ويروى عن النبي (ﷺ) فيها كذباً ... وقال ... بذنب خنزيرة إلى غير ذلك مما ليس مقام نقله، وكل ذلك ... والأخبار عنه.»

الحنفيّ: تابع مذهب أبي حنيفة جمعه: حنفيّة وأحناف

حنّفه: جعله أحنف

تحنّف الرجل: صار حنيفاً أو عمل عمل الحنيفية ... تحنّف

تحنّف ... الصلاة ... تحنّف ... وتحنّف فلان عن طريق الاستقامة وحنّف ... واعتزل ... والاستقامة، و... المتحنّف ... الحنيفيّ.

في المفردات: الحنف هو ميل عن الضلال إلى الاستقامة، والجنف ميل عن الاستقامة إلى الضلال.

وفي النهاية: الحنف ... عن ... حرى

٩٩ ـ الإنابة ـ ١٥٧٤

ناب فلان عن زيد في كذا ينوب نوباً ونوبة ومناباً ونيابة ـ أجوف واويّ ـ مثل

فإن من ثاب بصيرته ... وقد ثابت ... فلان ... والمثوب عنه والأمر المثوب عنه

وثاب إليه رجع إليه مرّة بعد أخرى وثاب إلى الله تعالى تاب وثاب فلان ثوبًا [illegible] عزّ وجلّ فلانًا ... ومثابة ومثوبة

يقال: فلان يثوب عقله [illegible]

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين علي بن أبي طالب عليه السلام في أهل الجنّة: «لا يتغيّر لهم الحال، ولا تنوبهم الأفزاع» أي لا تصيبهم الأفزاع

يقال: ثابت [illegible] إلى الملمي وتنحو تثوب إلى حالتها أي ترجع مرّة بعد مرّة بعد أخرى

الثوب: مصدر، يقال: ثاب فلانٌ ثوب القصي و [illegible] و [illegible]، و [illegible]، و الثياب الطرق إلى الماء

الثائب: اسم فاعل ... [illegible] كثائب القصي ... الأمر و ... الشخص و [illegible]، جمعه ثوب وثُوّاب جمع ثائب كعوّاد

الثُّوّاب: من [illegible] ... على حقوقه، ومن كان [illegible] ... «الجود»

الثائبة: مؤنث الثائب، بمعنى النازلة والمصيبة والملمّة والحادثة، ... لأنّها تثوب الناس ... معروف ... الحديث عن الإمام المعصوم عليه السلام: «... في يكون ذلك ... على ذي ... وفي مصحة ... من ثوائب الإسلام» أي ينزل به ويحدث من الملمّات

وفي حديث [illegible] ... والثوائب ... و [illegible] للمسلمين»

في أصول الكافي: بسنده عن أبي بصير قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إنّ الحرّ حرّ على جميع أحواله، إن نابته نائبة صبر لها، وإن ... أصابته مصيبة أو حادثة أو

سدّد و ما بهم عمر ش

وجمع النائبة نائبات ونوائب وهي الوقائع والحوادث والمصائب والشدائد

في نهج البلاغة قال يصف [illegible] «[illegible] مرؤمس

عصرتهم [illegible] لا [illegible] من [illegible] بالفوادح و [illegible]

بالقوارع، و [illegible] بالنوائب

وفيه عن امير المؤمنين الإمام علي عليه السلام «[illegible] على حقوق و نوائب

بعده لثواب»

وفي اصول الكافي بسنده عن ابي [illegible] عن جده [illegible] «قال من

لا تعدّ لصبر لنوائب الدهر يعجز»

نوائب الرعية [illegible] من [illegible] و طرق و

سد [illegible]

«احفظوا لأهل الأمور في [illegible] و [illegible]» أي الأصناف الذين [illegible] و [illegible]

بهم

الحمّى النائبة التي [illegible] كل [illegible]

المنابة مصدر، و [illegible] كنوبة [illegible] الحمّى [illegible]

المكان الذي [illegible] فيه نوّاب [illegible]

النَّوْب مصدر، الواحد «نوبيّ» و [illegible] لابن [illegible] «[illegible] النوبة

[illegible]» لأنّه كانت نوبته و جمع النائب و [illegible] مسيرة يوم و ليلة، و القوّة، و

القرب خلاف البُعد

النَّوْبة مصدر و [illegible] والنوبة، و جماعة من الناس و اسم من المناوبة يقال

جاءت نوبتك جمعها نُوَب والنُّوبة عند الأطباء، من احد الحمّى و يقال اصبحت لا

نوبة لك لا قوة لك، وكذلك: تركته: لا نَوْبة له، لا قوة له

النُّوابة: من قرى محلاف سنجار باليمن

النُّوب حيل من السودان، الواحد نُوبيّ نُوب النحل واحده نائب فقيل لأنها

ترعى و ترجع إلى مكانها مرّة بعد اخرى

النُّوبة: النائبة و المصيبة جمعها نُوَب، و الاسم من قولهم: نابه أمر و انتابه؛ و جيل من السودان، و بلاد واسعة لهم جنوب الصعيد و مدينة نوبة منها دنقلة، و هي منزل الملك على ساحل النّيل، و بلدهم أشبه شيءٍ باليمن و منهم بلال بن رباح الحبشي رضوان الله تعالى عليه مؤذّن رسول الله (ﷺ) قديم الإسلام و الهجرة، و قد شهد المشاهد كلّها، و قد نفاه عمر بن الخطّاب من المدينة إلى مصر، و مات سنة سبع عشرة و قيل ثماني عشرة، و قبره بدمشق

أناب فلان إلى الله تعالى: تاب، فهو منيب، من باب الإفعال: رجع إليه سبحانه و هو مأخوذ من النوبة كأنّ العبد برجوعه إلى الله جلّ و علا يدخل في نوبة الحقّ و الهدى و الخير و الفلاح. و رجوع العاصي إلى الله بالتوبة و التخلّص من الذّنب، و رجوع العبد إلى الله عزّ و جلّ بأن يعتمد عليه في أموره

و كان إبراهيم الخليل (ع) منيبا يرجع إلى الله تعالى في أموره كلّها

قال الله سبحانه «إنّ إبراهيم لحليم أوّاه منيب» هود: ۷۵ أي كثير الإقبال بالقلب و الإخلاص إلى الله تعالى

و قال «و خرّ راكعا و أناب» ص: ۲٤ أي رجع إلى الله جلّ و علا بالتوبة و الاستغفار و إخلاص العمل

في نهج البلاغة قال مولى الموحّدين إمام المتّقين عليّ بن أبي طالب (ع) «اللّهمّ إنّي أوّل من أناب و سمع و أجاب، لم يسبقني إلّا رسول الله (ﷺ) بالصلاة»

و فيه قال الإمام عليّ (ع) «و توكّل على الله توكّل الإنابة إليه»

و ما وردت هذه المادّة في القرآن الكريم إلّا من باب الإفعال

قال الله تعالى «منيبين إليه و اتّقوه و اقيموا الصّلاة و لاتكونوا من المشركين - و إذا مسّ النّاس ضرّ دعوا ربّهم منيبين إليه» الروم: ۳۱-۳۳ أي راجعين إلى الله تعالى

ناب زيد عن فلان وكيلاً في أمره: أقامه فيه مقامه، فزيد منيب، و الوكيل مناب، و الأمر مناب فيه بعدل. أنابه: جعله قائما مقامه و ناب إلى الله رجع إليه مرّة بعد اخرى و

قبل وتاب وآمن و ... و ... فلان فيما كتب ... أو ... خطأ فيه

ولا يخفى على الأديب والأريب من الفرق بين الرجوع والإنابة، حيث إن الإنابة هي الرجوع إلى الطاعة، فلا يقال لمن رجع إلى معصية إنه أناب

المنيب ـ اسم فاعل ـ اسم مدح كالمؤمن والمتقي و ... المطر ... خير ... و ... من ... ربيع

ثوّب له تثويباً جعل له ثوبة ... وثوّب فلان ... جعل له ثوبة

ثوبة ... عقبه و ... و ...

تناوب القوم على الماء ... عليه وتقاسموه على حصاة القسم. يقال للجماعة في السفر ... و ... و ... أي يأكلون عند هذا نزلة، وعند هذا نزلة و ... حتى ...

و ... على الأمر ... و ... عليه ... مرة و ... مرة و ... كلأمر ... نوبة ... و ... نوبة بعد نوبة

انتاب انتياباً: أتى مرة بعد مرة. يقال: انتاب ... مرة بعد أخرى، و ... إليهم، وانتاب فلاناً أمر: أصابه، وانتاب ... فهو منتاب ... مراوح ... من ... من ...

وفي الدعاء: «يا أرحم من ... المسترحمين ... » ... مرة بعد أخرى و ... «... المنتاب» أي المباح الذي يؤخذ بالنوبة ... مرة، و ... أخرى

استناب استنابة طلب ... منه ... عنه

١٩ ـ القُرْب والقُرْبى ـ ١٢١١

قَرُبَ الشيءُ أو الشخصُ يقرُبُ قُرْباً ... فهو قريب في المكان أو الزمان أو ... في النسب أو في العلم و ... و ... الولاية

قال الله تعالى: «وإذا سألك عبادي عني فإني قريب» البقرة ١٨٦، والمراد بقربه

سبحانه إحاطة علمه بأحوالهم، و قدرته عليهم و [illegible]

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين علي بن أبي طالب عليه السلام: «... و قرب في الدنوّ فلا شيء أقرب منه، فلا استعلاؤه باعده من شيء من خلقه و لا قربه ساواهم في المكان به» الخطبة ٤٩

وفيه قال يعسوب الدين الإمام علي عليه السلام: «... [illegible] أقرب من الأشياء [illegible] و لم [illegible] عنها [illegible]» الخطبة ١٢

و يدلّ على القرب [illegible] قوله [illegible] سبأ ٤٢

و على القرب المكاني قوله جلّ وعلا: «و أخذوا من مكان قريب» سبأ ٥

القُربى أخصّ الخواصّ من ذلك بحسب [illegible] القربى القرب الخاصّ من الرحم، و القرابة تشمل الدنوّ في النسب، و الأقارب أعمّ منها، فالقربى أخصّ من القرابة و القرابة أخصّ من الأقارب.

قال الله تعالى: «و آت ذا القربى حقّه» الإسراء ٢٦، و لما نزلت الآية [illegible] رسول الله صلّى الله عليه و آله [illegible] فاطمة الزهراء [illegible] فلا تشمل [illegible] القربى في قوله عزّ و جلّ: «قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودّة في القربى» الشورى ٢٣، تختصّ بأهل بيت النبوّة المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين و لا تشمل لأهل بيت النبيّ صلّى الله عليه و آله من أزواجه و قرابته من بني عبد المطّلب و قرابته.

في نهج البلاغة قال [illegible] علي عليه السلام: «وا عجباه أتكون الخلافة بالصحابة، و لا تكون بالصحابة و القرابة؟!»

و رُوي له عليه السلام شعر في هذا المعنى و هو:

فإن كنت بالشورى ملكت أمورهم فكيف بهذا و المشيرون غيّب
و إن كنت بالقربى حججت خصيمهم فغيرك أولى بالنبيّ و أقرب

و فيه قال الإمام علي عليه السلام [illegible] «... إنّ وليّ محمّد من أطاع الله و إن بعدت لحمته، و إنّ عدوّ محمّد من عصى الله و إن قربت قرابته»

قربَ الشيءُ يقربه قرباً [illegible] دنا منه أو [illegible]

قال الله تعالى «ولا تقربا هذه الشجرة» البقرة ٣٥ أي لا تدنوا منها

وقال «لا تقربوا الصّلاة وأنتم سكارى» النساء ٤٣ أي لا تصلّوا

وقال «ولا تقربوهنّ حتّى يطهرن» البقرة ٢٢٢ أي لا تباشروهنّ

وقال «فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا» التوبة ٢٨ أي لا يدخلوا الحرم

قَرَبَ السَّيْفَ قَرْباً ـ من باب نصر ـ أدخله في القراب، وجعل له قراباً فهو قارب، والسيفُ مقروب وقرّبَ القتب ضيّقه، القرب، والقارب: الذي يطلب الماء ليلاً ولا يقال ذلك لطالبه نهاراً، و سار بها إلى الماء، و منه وسمّيت سفينة و قال قائل: تقرّبت من معروفه وذلك إذا فعل شيئاً أو قال قولاً يقرب به أمراً معروفاً، و قرب الرّجلُ امرأته قرباناً غشيها مقاربة و

القراب: المشاعرة وهي رفع الرّجُل للجماع

قَرُبَهُ و قَرُبَ منه وإليه قُرْباً و قُرْبةً و قربانا ـ من باب علم و قرب ـ دنا منه فهو قريب

قرب الرّجلُ قرباً اشتكى قُرْبَهُ و قال بعضهم إنّ الفرق بين المعنى أنّ «لا تقرب» من باب «علِمَ» بمعنى لاتلتبس بالفعل ومن باب «قرُب» بمعنى لا تدن

ولايخفى على الأديب الفرق بين القُرْب والدنوّ، حيث إنّ الدنوّ لا يكون إلّا في المسافة بين شيئين فتقول دانت المسافة ومن ذلك، والقرب يكون في ذلك و في غيره، فيقال فلان قريب، ولا يقال دانٍ و يقول هو قريب بنفسه ولا يقال دانٍ بفعله إلّا بمعنى بعد

القرابة القرب في الرّحم، وأهل القرابة هم الذين يقدّمون الأقرب، فالأقرب من ذوي الأرحام جمعها قرابات

في نهج البلاغة قال سيّد الوصيّين الإمام عليّ ﴿ع﴾ «وقد علمتم موضعي من رسول الله ﴿ﷺ﴾ بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة» الخطبة القاصعة ٢٣٤)

وفيه قال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﴿ع﴾ «وإنّ الفضل يدور على الآباء و الأبناء و الإخوان والقرابات»

القِرابة سير الليل لورد الغد

القُرابة: القريب، يقال: ما هو بنسيبي و لا قُرابتي، و لا بقريب منك. قُرابة الشيء: ما قارب قدره، و مثل عربيّ قطع نوادي. يقال: «ملء قُرابة الرّكبتين» قُرابة الموضع: قريبه.

القِرْبة: الوعاء يجعل فيه الماء أو اللبن، و قد يكون صغيراً يسقى بها، جمعها: قِرْبات و قِرِبات و قِرَب. و في المثل: «لقيت منه عرق القربة» أي تعبت منه شدّة.

القُرْب: خلاف البُعد، القُرب: ضدّ البعد، و تقرّب: اختصره، و من لبّ كنه إلى مرّ و لطف جمعه القرب. القُرب يُستعمل في الزمان و المكان و النسبة و الحظوة، و الرعاية و القدرة.

ذات قُرب: موضع به يوم من أيام حروب العرب.

القَرَب: سير الليل لورد الغد، و منه «ليلة القرب» و هي الليلة التي يصبحون منها على الماء. ثمّ اتّسع فيه، فقيل: فلان يقرب حاجته أي يطلبها. تقرّب: أسرع، تقرّب الماء، و قد كان يطلبه، فهي مثله.

القربان: كناية عن الجماع، قربان المرأة: غشيانها.

القُرْبان: جليس الملك الخاصّ، و من ذلك الأعلام من الأئمة يقال لهم قربان و قربة قرابين جمعها قرب.

القُرْبان: كلّ ما يتقرّب به إلى الله تعالى من عبادة و ذبيحة و غيرها خالصاً لوجه الله سبحانه. القُربان في الأصل مصدر، و هذا يستوي فيه المفرد و الجمع و المذكّر و المؤنّث. يقال: فلان قربان الملك، و هم قربان الملك. و القربان: جليس الملك الخاصّ، جمعه قرابين.

في نهج البلاغة قال مولى الموحّدين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (عليه السلام): «الصّلاة قربان كلّ تقيّ» أي الأتقياء من الناس يتقرّبون بها إلى الله عزّ و جلّ أي يطلبون القرب منه سبحانه بها.

و في الحديث القدسيّ: قال الله سبحانه: «من تقرّب إليّ شبراً تقرّبت إليه ذراعاً» المراد بقرب العبد إلى الله تعالى: التقرّب بالذكر و الصّلاة و العمل الصّالح لا قرب الذات و

المكان، لأنّ ذلك من صفات الأجسام، و الله تعالى منزّه عن ذلك و مقدّس، و المراد بقرب الله سبحانه من العبد قرب نعمه و ألطافه و برّه و إحسانه إليه و ترادف منّه و فيض مواهبه عليه

و القربان ـ عند اليهود ـ ما يقدّمونه من المقدّمات، و ما يقدّمه الكاهن من الخبز و الخمر و لا يخفى على القارئ الخبير من الفرق بين النذر و القربان، حيث إنّ القربان هو النذر الّذي يتقرّب به إلى الله تعالى بالإخلاص، و أمّا النذر فهو عامّ

القَريب: خلاف البعيد، جمعه قريبون، و أقارب و أقرباء

في نهج البلاغة قال يعسوب الدّين الإمام عليّ ﴿ع﴾ «... حفظة و الأقرباء و الأعزّة و القرناء، فهل دفعت الأقارب أو نفعت النّواحب ...» (الخطبة ٢٢١)

و فيه قال أمير المؤمنين الإمام عليّ ﴿ع﴾ ـ في الموتى ـ «شهود لا يحضرون و قريبون لا يتقاربون.» (الخطبة ١١٠)

و مؤنّث القريب: قريبة، جمعها قرائب

القريب: اسم بحر من بحور الشعر مختصّ بالعجم، و وزنه مفاعيلن مفاعيلن فاعلاتن مرّتين

قريب: الشّيخ المسنوح مرداء في طراوته، أبو قُرَيب كنية الأصمعي و قريب إسم رئيس للخوارج

و قد يطلق القريب على المفرد و الجمع و المذكّر و المؤنّث

قال الله تعالى «إنّ رحمة الله قريب من المحسنين» (الأعراف: ٥٦) و لم يقل «قريبة» إمّا لهذا الاطلاق، و إمّا اراد تعالى بالرّحمة الإحسان، أو لأنّ ما لا يكون تأنيثه حقيقيًّا جاز تذكيره، أو أنّ الرّحمة و الغفران و العفو و الإحسان في معنى واحد

القُرْبة و القُرُبة ما يتقرّب به إلى الله تعالى من عبادة أو عمل صالح و إخلاص

في نهج البلاغة قال إمام المتّقين عليّ بن أبي طالب ﴿ع﴾ «لا قُرْبة بالنّوافل إذا أضرّت بالفرائض». و جمعها قُرَب و قُرُبات

قال الله تعالى «و من الأعراب من يؤمن بالله و اليوم الآخر و يتّخذ ما ينفق قُرُبات

عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم» [التوبة: ٩٩] أي عمل صالح يقربهم إلى الله

تعالى. ويقال: [illegible] وقُرْبى مصدرين وهو جمع قريب على غير قياس

القُرْبة القرابة، والقُرْب في الرحم. يقال في الإناء قُرْبه إذا قارب الامتلاء

القِراب القُرْب. يقال: فعل ذلك تقرب أي تقرُّب

القِراب الغمد، وقيل: هو وعاء يكون فيه السيف بغمده وحمائله، جمعه قُرُب و

قربة. قُرب الشيء ما قارب قدره. [illegible] به الأمر كقوله «[illegible] على

[illegible] قراب [illegible] و [illegible]

القُراب: القريب. يقال: [illegible] من قريب وقريب و قُرب شيء. كقراب الشيء

[illegible] قدره وقُرُبُ [illegible]

وفي الحديث: «[illegible] قُرب [illegible]» [illegible] الله، و روى «[illegible]» أي

[illegible] وصفة [illegible] هو قريب من [illegible] واستحق [illegible]

[illegible] القُرب [illegible] في [illegible] مع سلامة

[illegible] وقُرب [illegible]

القارب: [illegible] الماء ليلاً، و [illegible] وفي حديث [illegible]

«[illegible] على [illegible] [illegible] وطالب وجده»

والقارب: السفينة الصغيرة تكون مع أصحاب السفن الكبيرة تستخف [illegible]

[illegible] جمعه قوارب

القَوْرَب: الماء لا يطاق لكثرته

أقرب المستقي الإناء إقراباً: قربه للامتلاء. وأقربت الحامل: قرب ولادها فهي

مُقرِبٌ. و [illegible] المهرُ والفصيل: دنا للإثناء. و [illegible] على الإبل [illegible] ليلاً [illegible]

[illegible] فهو قارب [illegible] عمله

أقرب: [illegible] من أقرب. قال الله عز وجل: «[illegible] أقرب للتقوى» [البقرة:

٢٣٧] وجمعه الأقربون

قال الله تعالى: «وأنذر عشيرتك الأقربين» [الشعراء: ٢١٤] أي ذوو القرابة في الرحم

و قُربةُ الرّحم و قرابته و قربوته: عشيرته الأدنون

الأقرب: هو شيء صغير يكون مع الشيء [illegible] ، و حده قارب و في حديث [illegible] في قُرب [illegible] و قيل قُرب [illegible] أي ما قارب إلى الرحم منه

المقربة: الفرس التي تُقرّب مربطها و معلفها لكرامتها و المقرّبة: الناقة التي حُرِمت للرّكوب

المقربة: القرابة، و الطريق المختصر و طريق [illegible] إلى طريق [illegible] ، قال الله تعالى: «يتيماً ذا مقربة» البلد [illegible]

المقرب: من الحوامل التي قرب ولادها [illegible]

المقرّب: الطريق المختصر و [illegible]

قرّب قرباناً لله: قدمه تقرّباً إلى الله تعالى

[illegible] الله سبحانه [illegible] قرّب قرباناً [illegible] أي قدمه تقرّباً إلى الله جلّ و علا

في نهج البلاغة [illegible] ... [illegible] على [illegible] و [illegible]

القُربان: الذبيحة و غيرها [illegible] إلى الله تعالى

قرّبه إليه تقريباً: [illegible]

في نهج البلاغة [illegible] الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر لخُلُقان من خُلق الله سبحانه و [illegible] من أجل و لا [illegible] من رزق

و يقال قرّبت إلى فلان [illegible] و [illegible] موضع عطف و [illegible]

قال الله عزّوجلّ: «و قرّبناه نجيّاً» [illegible] و [illegible] موضع عطف و [illegible]

قرّب فلان [illegible] قُرّبه و قرّب [illegible] تقريباً و هو ضرب من العدو دون الإسراع و قرّب فلاناً [illegible] و قرّب الأميرُ فلاناً: قدّمه في خدمته و جعله من خواصّه

المُقرَّب من خصّه بمنزلة رفيعة عنده من خواصّه و جمعه مقرّبون

قال الله تعالى «لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله و لا الملائكة المقرّبون» النساء:

١٧٢ أي الذين حظوا بكمال المنزلة عند الله تعالى

قاربه مقاربة دانه و قارب الرجل خصومه

في نهج البلاغة عن مولى الموحدين الإمام علي ﴿ع﴾ في صفة المتقين الأخرة

- «و قاربت من حظوته و تقرّب من ثوابه»

و قارب فلانٌ فلاناً ناغاه بكلام حسن في حديثه و قارب الرجل في أمره ترك

الغلوّ و قصد السّداد و قصد في مشيه حتّى قارب و سطه بين حدّه و تردّى أي لم يتوسّط

الحدّ، و معنى مستقيم بعيد عن عقله من معنى تدبّر من ضمير د بعدت لفظه إلى

الآخرة به وفي نفسي تمنّي تكون المقارب فقط و حقوق و ما لا حسن يكون موارد

غور السبب و المقارب و ما لا عليها

و المقارب من المتاع الرخيص

في نهج البلاغة عن سيد الموحدين علي بن أبي طالب ﴿ع﴾ تمثّل به الناس في

خلافهم أمرٌ من غير بيّنهم

المقاربة مصدر قارب، و هي أفعال و أفعال المقاربة كاد و أخواتها، ترفع الاسم، و

تنصب الخبر، و قارب الإبل جمعها حتّى لا تتبدّد

اقترب الأمر: دنا دنوّاً شديداً محققاً فقرب الوعد دنا

قال الله تعالى «اقتربت الساعة و انشقّ القمر» القمر: ١

يقال اقترب العبد إلى ربّه تقرّب إليه و سعى في رضاه بالعمل الصالح و الأمر منه

اقترب اقترب الشيئان: تقاربا

تقرّبَ إلى الله بالقربان تقرُّباً و تقرّباً أي تقرّب به تعالى به و طلب القربة عنده

في نهج البلاغة: من وصيته للإمام علي ﴿ع﴾ لأصحابه «تعاهدوا أمر الصلاة و

حافظوا عليها و استكثروا منها، و تقرّبوا بها»

و فيه قال الإمام علي ﴿ع﴾ - في المنافقين - «فتقرّبوا إلى أئمّة الضلالة و الدعاة إلى

النار بالزور و البهتان»

و تقرّب الرجل وضع يده على قُرُبه، و يقول العرب: و تقرّبت الرجل في المحل و

قيل هو حاض لأمر يقرب منه الماء ... و هي حصى صغيرة ... من بسط الماء

... على قرب الماء ... محتضر ...

تقاربت إبل فلان: قلّت و أدبرت ... و في الحديث «إذا

تقارب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب» قيل: المراد استواء الليل و النّهار

و قيل: المراد آخر الزّمان، و اقتراب السّاعة لأنّ الشيء إذا قلّ تقاصرت أطرافه

و في حديث الإمام المهدي المنتظر (عج) «يتقارب الزمان حتّى تكون السنة

كالشهر» أي يطيب الزمان حتّى لا يستطال

المُتقارب: الرّجل القصير، و بحر من أبحر الشّعر، وزنه فعولن ثماني مرّات، سمّي بذلك

لأنّه ليس في أبنية الشعر شيء تقرب أوتاده من أسبابه كقُرب المتقارب

استقرب الشّيء: عدّه قريبا

في نهج البلاغة قال ... في وصف الإمام علي (ع) ... في المتّقين ... و يستقرب

الأجل ... العمل و كثرة الأمل، فلاحظ الأجل.

تقارب: ضدّ تباعد، و تقاربا: دانيا

في التّهذيب: و القريب نقيض البعيد يكون تحويلا فيستوي في المذكّر و الأنثى، و

الفرد و الجميع كقولك: هو قريب و هي قريب، و هم قريب، و هنّ قريب. ابن السكّيت

تقول العرب: هو قريب منّي و هما قريب منّي و هم قريب منّي، و كذلك المؤنّث: هي قريب

منّي، و هي بعيد منّي، و هم بعيد، و هنّ بعيد منّي، و قريب فتوحّد قريبا و تذكّر لأنّه إن

كان مرفوعا فإنّه في تأويل هو في مكان قريب منّي

و في القاموس و شرحه تاج العروس: و تقارب الزّرع إذا دنا إدراكه، و منه

الحديث الصحيح المشهور «إذا تقارب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب» المراد آخر

الزمان، أو المراد استواء الليل و النهار، و المراد من خروج الإمام القائم الحجّة

المهدي (عج) حين يتقارب الزمان حتّى تكون السنة كالشهر، و الشهر كالجمعة، و الجمعة

كاليوم كما ورد في الحديث أراد يطيب الزمان حتّى لا يستطال و يستقصر لاستلذاذه»

٩ ـ الرِّباء ـ ٥٣٧

ربا الشَّيْءُ يربو رُبُوًّا ورِباءً ـ مثل دعا ـ من باب نصر ـ: زاد ونما وارتفع وعلا فهو رابٍ وهي رابية.

ربا المالُ: زاد ونما، وربا فلان: أخذ الربا، وربا الولد في حجرها يربو ربْوًا ورُبُوًّا: نشأ. وربا في بني فلان: نشأ فيهم، وربا الفرس ربْوًا: انتفخ من عدوٍ أو فزع، وأخذه الرَّبْوُ، وأخذ فلانًا الرَّبْوُ: صعب نفسه لداءٍ ونحوه.

قال الله تعالى: «اهتزّت وربت» الحج: ٥، أي زادت بالماء وارتفعت حتى انتفخت، و«اهتزّت وربت» أي ارتفعت. وفي الحديث: قال رسول الله ﷺ: ربت في الجنّة، أي ...

الرِّبا: الزِّيادة على رأس المال، ولكن خصّ في الشرع بالزيادة على وجه مخصوص، وباعتبار الزِّيادة كذلك أُخِذَ الرِّبا الحرام.

قال الله جلّ وعلا: «وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله» الروم: ٣٩، أي من أعطى يبتغي الزيادة من ذلك فلا أجر له عند الله فيه، وبنحوه قوله: «يمحق الله الرِّبا ويربي الصَّدقات» البقرة: ٢٧٦، أي الزيادة المعقولة المعبَّر عنها بالبركة مرتفعة عن الرِّبا، ولذلك قال في مقابلته: «وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون» الروم: ٣٩.

وقال: «الذين يأكلون الرِّبا لا يقومون إلّا كما يقوم الذي يتخبّطه الشيطان من المسّ» البقرة: ٢٧٥.

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين الإمام عليّ ﵇: قال رسول الله ﷺ: «يا عليّ إنّ القوم سيُفتنون بعدي بأموالهم ـ إلى أن قال ـ: فيستحلّون الخمر بالنبيذ، والسُّحت بالهديّة، والرِّبا بالبيع».

وفيه: قال سيّد الوصيّين عليّ بن أبي طالب ﵇: «من اتّجر بغير فقه فقد ارتطم في الرِّبا».

الرُّبا: العينة، اسم من الرَّبْو، فلامه واو، والنسبة إليه رِبَوِيّ، ومثنّاه رِبَوان، ورِبَيان

الزيادة والفضل، وفي الشرع: الزيادة على أصل المال من دون عقد تبايع.

الرِّباء: الطَّوْل والمنّة والفضل، يقال: لفلان علينا رِباء أي فضل.

الرَّبْو: النَّفَسُ العالي، والرَّبْوة، والجماعة جمعه أرباء. الأَربآء: الجماعات من النّاس، واحدهم رَبْوٌ. الرَّبْو: علّة معروفة. و الرَّبْو: الانبهار، سمّي بذلك تصوّراً لتصعّده، و لذلك قيل: هو يتنفّس الصُّعَداء.

الرُّبّة: عشرة آلاف درهم.

الرُّبْيَة: نوع من الحشرات، والسّنّور. الرُّبْية لغة من الرِّبا.

وفي كتابه ﷺ في صلح نجران: «أنّه ليس عليهم رُبّيّة ولا دم». الرُّبّيّة: الرُّبْية من الرِّبا.

الرُّبْوة ـ مثلّثة الرّاء ـ الرّابية: وما ارتفع وعلا من الأرض فهو زائد على ما يحيط به.

في نهج البلاغة قال أمير المؤمنين علي ﴿ع﴾: «لا يحول بينه وبين [illegible] سُحُوح ضخمه ولا يركد لفظه ولا يزدلف نوره» الخطبة ٦٢

وفي الخبر: «الفردوس ربوة الجنّة» أي أرفعها.

وفيه أيضاً: «الصّدقة تربو في كفّ الرّحمن» أي تعظم أجرها أو جثّتها حتّى تثقل الميزان، وإرادة الكفّ كفّ السّائل، فُضِّلت إلى الرّحمن إضافة ملك.

قال الله تعالى: «كمثل جنّة بربوة أصابها وابل فآتت أُكُلها ضعفين» البقرة ٢٦٥

جمع الرُّبْوة: رُبًى، و رُبًى.

الرُّبْوة: انتفاخ الجوف، و علّة تحدث في الرّئة، فتصير التّنفّس صعباً.

و في الحديث: «من أبى فعليه الرُّبْوة»، أي من امتنع عن أداء الزّكاة فعليه الزّيادة في الفريضة الواجبة عليه كالعقوبة له. و في الحديث أيضاً: «من أقرّ بالجزية فعليه الرّبوة» أي من امتنع عن الإسلام لأجل الزّكاة كان عليه من الجزية أكثر ممّا يجب عليه بالزّكاة.

الرَّبْوَة: عند الحُسّاب عشرة آلاف المليون، و الكرّة مائة ألف. و الرَّبْوة: موضع بدمشق، به مسجد مشهور يُزار.

الرِّبْوَة: الجماعة العظيمة، نحو عشرة آلاف. يقال: «مرّت بنا رِبْوة من النّاس و رِبًى منهم».

الإربيان: سمك أبيض كالدود يكون بالبصرة

الرّابي: اسم فاعل من ربى يربو

قال الله تعالى: «فاحتمل السيل زبداً رابياً» (الرعد ١٧) أي طافياً فوق الماء

الرّابية: مؤنث الرابي، ما ارتفع من الأرض، والزائدة في الشدة

قال الله سبحانه: «فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية» (الحاقة ١٠) أي شديدة زائدة في الشدة على الأخذات كما زادت قبائحهم في القبح

الرّابية: [illegible] وهو [illegible] في [illegible]

وحركته [illegible]

جمع الرابية: روابٍ

والرّباة والرّباوة: [illegible] الرابية [illegible] ويقال: فلان في رباوة قومه؛ أي في شرفهم

في نهج البلاغة: [illegible] «[illegible] الأرض التي تقصر [illegible]»

أربى: [illegible]

قال الله تعالى: «أن تكون أمة هي أربى من أمة» (النحل ٩٢) أي أكثر عدداً وقوة ومعنى [illegible] وجعلهم [illegible] أمة هي أكثر عدداً وقوة

الأُربة: [illegible] وهي [illegible] والأُربيّتان: لحمتان [illegible] في أصول الفخذين من باطن [illegible] والأُربة: أهل بيت الرجل [illegible] ويقال: فلان في أُربة قومه [illegible]

أربى الشيء يُربيه إرباءً: [illegible] وأربى الشيء: جعله يربو وأربى [illegible] في كذا [illegible] وأربى الرجل: دخل في الربا وأربى عليه في كذا: زاد عليه وأربى عليه: أشرف عليه

في نهج البلاغة: قال أمير المؤمنين الإمام علي (ع): «وإذا تصدقت ... فلك منها بما يُربي عليها» قال الله تعالى: «يمحق الله الربا ويُربي الصدقات» البقرة ٢٧٦، أي يُنمي المال الذي أُخرجت منه الصدقة.

وفي الخبر: «مثلي ومثلكم كرجل ذهب يربأ أهله» أي يحفظهم من عدوّهم، والاسم الربيئة وهو العين الذي ينظر للقوم لئلا يدهمهم عدوّ، ولا يكون إلّا على جبل أو شرف. وفي حديث الأنصار يوم أُحد: «لئن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لنُربِيَنّ عليهم في التمثيل» أي لنزيدنّ ولنضاعفنّ.

المُرْبي - اسم فاعل - من أربى يُربي.

ربّاه يربّيه تربية: غذّاه ونشّأه، ونمّاه وعذّبه، وهذّبه. وعن فلان: نفّس من خناقه.

وربّيته تربية: غذوته، وهو لكلّ ما ينمي من الولد والزرع والورد ونحوها. قال الله تعالى: «وقل ربّ ارحمهما كما ربّياني صغيراً» الإسراء ٢٤

وقال: «قال ألم نربّك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين» الشعراء ١٨

في نهج البلاغة: قال سيّد الوصيّين الإمام علي (ع) - في وصف الطاووس - فهو كالأزاهير المبثوثة لم تُربّها أمطار ربيع ولا شموس قيظ» الخطبة ١٦٤.

وفيه: قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) - في مدح الأنصار - «هم والله ربّوا الإسلام كما يُربّى الفِلْوُ مع غنائهم بأيديهم السِّباط وألسنتهم السِّلاط».

ربّى الأترج بالعسل، والورد بالسكّر: عقده. قال صاحب ... فسيّبت الدواء ...

المُربّي - اسم فاعل - من ربّاه، ومربّيه الشيء: حسّنه وروّجه.

المُربّى - اسم مفعول - رُبّ المُربّى: حلواء معروفة تكون إمّا بالعسل كالمعقود بالسُّكّر وإمّا من النشاء المعقود بالسُّكّر أو غير ذلك.

الزّنجبيل المُربّى: معروف.

راباه مراباة: داراه، وأعطى ماله بالرّبا، فهو مُرابٍ.

تربّاه: ربّاه.

١٠ ـ الضَّعف ـ ٩٠٢

ضَعُفَ يَضْعُفُ ضَعْفاً و ضَعافةً و ضَعافيةً ـ من باب كرم ـ ضدّ قوي و سمن

يقال فلان قد ضعُف عن شيءٍ عجز عن حمله فهو ضعيف

قال الله تعالى «ضَعُفَ الطالبُ و المطلوبُ» الحجّ ٧٣ أي عجز، إذ كلّ قويّ غير الله تعالى ضعيف، عاجز

في نهج البلاغة قال مولى الموحّدين الإمام عليّ ‹ع›: «و كلّ قويّ غيره ضعيف»

وفيه قال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ‹ع› ـ في أثناء حمده ـ: «و لا أضعف ما قوّى»

و ضعف الرّجل ضَعْفاً و ضُعْفاً ـ من باب نصر ـ عجز

و ضعف فلان القوم ضعفاً ـ من باب منع ـ كثّرهم فصار له و لأصحابه الضِّعف عليهم و ضعف الشيء جعله ضعفاً، و يسمّى المضعوف ضعفاً و كذلك المضعوف به رجل مضعوف ضعيف الرّأي، أي مضعوف مضاعف

جمع الضّعيف ضُعفاء، و ضعفى و ضعاف، و ضعفة و ضعفة من الرّجال

في نهج البلاغة قال مولى المتّقين الإمام عليّ ‹ع›: «إنّ الله تعالى فرض على أئمّة الحقّ أن يقدّروا أنفسهم بضعفة النّاس كيلا يتبيّغ بالفقير فقره»

و ضعيفات و ضعائف و ضعاف في النّساء

في نهج البلاغة، من وصيّته لعليّ بن أبي طالب ‹ع› ـ في النّساء ـ: «فإنّهنّ ضعيفات القوى و الأنفس و العقول»

من أماليّ أضعاف الحديث أضعافه، و غضابه أبو حمد ضعف ثمّ قال: أضعاف الكتاب أثناء سطوره و أوساطه، يقال وقع خلاف في أضعاف كتابه أي في أثناء سطوره و حواشيه و أوساطه

و بعضه من هذه الأجزاء و العظم، قيل ضعفت أصبت ضعفه أي عظمه، فكان من ذلك الضّعف خلاف القوّة

قال الله تعالى «الله الّذي خلقكم من ضعف ثمّ جعل من بعد ضعف قوّة ثمّ جعل من بعد قوّة ضعفاً و شيبة يخلق ما يشاء و هو العليم القدير» الرّوم ٥٤

إنّ الضعف الثاني غير الأول، وهو الشيب. ومما [illegible] به قوله تعالى: «خلقكم من ضعف»
أي من نطفة، أو من تراب. والثاني هو الضعف الموجود في الجنين والطفل، والشيب الذي
بعد استحكامه، وهو الهرم الذي يرد إليه أرذل العمر. والقوّتان الأولى هي التي تجعل الطفل يتنقل من
التحرّك والهداية والاستدلال على الثدي، ودفع الأذى عن نفسه بالبكاء، والقوة الأخيرة هي
التي بعد البلوغ. ويدلّ على أنّ كلّ واحد من قوله «ضعف» [illegible] في حالة غير الحالة
الأولى.

وفي الحديث [illegible] في ضعف الشباب [illegible] في [illegible]

قال الله تعالى: «لا تأكلوا الربا أضعافًا مضاعفة» آل عمران ١٣٠ أي أضعافًا كثيرة
مترادفة.

قال [illegible] على شيء [illegible] ونقل [illegible] من الضَّعف
لا من الضُّعف. والمعنى ما يعدّونه ضعفًا فهو ضعف في المعنى، كقوله تعالى: «وما آتيتم من
ربا ليربوا في أموال النّاس فلا يربوا عند الله» الروم ٣٩ وقوله: «يمحق الله الربا ويربي
الصدقات» البقرة ٢٧٦. ومن [illegible] في الأضعاف [illegible] ضعف الشيء ضمّ بعضه على
بعض [illegible] كأنه ضعف [illegible] الشيء [illegible] فأصل الضِّعف أن [illegible]

ولم [illegible] يرجع معنى المادة [illegible] خلاف [illegible] مثل الشيء إلى أصل واحد
وإن ظهر ما بين [illegible] في الاستعمال [illegible] التي قد يكون العلاقة فيها
التضادّ بما فيه من إثارة الشيء وتداعيه ذكر [illegible]

وهي دقّة لغوية توجد مثلها في هذه المادة، مع [illegible] دلالتها على المعنى
المحسوس فيها نقص القوة في الشيء والزيادة على أصله. إذ يقال: ضعف ضعفًا أي
زاد على أصل الشيء فجعله مثلين أو أكثر كما يقال: ضعّفه [illegible] ويقال ضعّف
تضعيفًا أي زاد على أصل الشيء فجعله مثلين أو أكثر [illegible] وحده [illegible] فركّبه
بعضه

فيمكن أن يرد مثل هذا التقابل الذي يبدو غريبًا إلى أصول مطّردة في سنن العربية،
مثل تقريرهم ذلك في الهمزة و[illegible] التضعيف [illegible] الهمزة في «أفعل» تكون لجعل الشيء

نفسه أضعفه وضعّفه يقال إذا جعله ضعيفا وهو مما يكون الهمزة والتضعيف عند الزيادة للتعدية والإزالة

فمن الأول قولك أضعفه أي صيّره ضعيفا، وضعّفه أي صيّره ذا ضعف في كثير من ذلك

ومن الثاني قولك أشكاه والزيادة للإزالة أي أزال شكايته، وعلى هذا يمكن أن يقال في ضعّف أي صار غير ذي قوة. أضعفه أي صيّره ضعيفا، ضعّفه جعله نفس ضعفه، كما يقال أضعفه أي زاد من ضعفه على ضعفه إذا ضعفه والتضعيف كذلك. وعلى هذا ضعّف عنه بيانا في أسكنه أن يكون أن ضعفه زيادة من ضعفه

وهكذا من ذلك في التضعيف حرّكه أن كما يقال مرّضه أي قام في مرضه، فقال ضعّف تضعيفا وضعّف تضعيفا أي زاده على ضعفه أو أكثر. ومن هذا تجيء الصيغ والمعاني من المادة

فمعنى ضعف والمصدر الضَعف والضُعف والضعيف وقد حقق لفظ بالجسد والضعف بالرأي والعقل يكون في النفس وفي البدن وفي الحال قال الله تعالى «وعلم أن فيكم ضعفا» (الأنفال ٦٦)

ومنه قوله تعالى «فإن كان الذي عليه الحق سفيها أو ضعيفا» البقرة ٢٨٢

والفرق بين الضَعف والضُعف أن الضُعف بالضم يكون في الجسد خاصة، والضَعف بالفتح يكون في الجسد والرأي والعقل، يقال في رأيه ضَعف ولا يقال فيه ضُعف كما يقال في جسمه ضَعف وضُعف

وضعّف الرجل ضعفا فهو مُضعِف والمُضعِف كذلك الداخل في التضعيف أي ذو الأضعاف من الحسنات، وأضعف الرجل فشت ضيعته وكثرت فهو مُضعِف

ومن معنى الزيادة ضاعف وضعّف وقد تقدم بمعنى من ضعّف وقد قرئ بهما «يضاعف له العذاب» الفرقان ٦٩ «وإن تك حسنة يضاعفها» النساء ٤٠

ومنه الضِّعف مثل الشيء إذا زاد فضعف الشيء هو الذي يثنيه، فإذا أضيف إلى عدد، اقتضى ذلك العدد ومثله، نحو ضعف العشرة، فيكون عشرين، وضعف المائة فيكون

مانين، فإذا لم يضعف، فقيل ضعفين، فجرى مجرى الزوجين في أنّ كلّ واحد منهما يزوج الآخر، فيقتضي ذلك اثنين.

ويجمع الضِّعْف على أضعاف، وهم يتكلّمون به مثنّى أكثر ممّا يفردونه، وربّما أفردوا الضِّعْف وهم يريدون معنى الضِّعْفين.

وقد وردت المادّة في القرآن الكريم بمعنيين: خلاف القوّة، وزيادة الشيء.

١ ـ أمّا هو خلاف القوّة، قال الله تعالى: «الله الّذي خلقكم من ضَعْف» الروم ٥٤

٢ ـ ومن زيادة مثل الشيء بمثله، أو أكثر، قال جلّ وعلا: «لكلّ ضِعْف» الأعراف ٣٨

الضَّعَفَة: ضعفُ الفؤاد، وقلّة الفطنة، وسرعته من الرعب.

الضَّعُوف: ذو الضَّعْف، وذات الضَّعْف، يقال: رجل ضَعُوف وامرأة ضَعُوف؛ لأنّه فعول بمعنى فاعل يستوي فيه المذكّر والمؤنّث.

الضَّعيف: ذو الضَّعْف، والضعيف خلاف القوي.

في نهج البلاغة قال سيّد الوصيّين أمير المؤمنين ﷺ: «القويّ عندي ضعيف حتّى آخذ الحقّ منه»

وفي حديث الجنّة: «كلّ ضعيف مُتضعَّف» أي الّذي يتضعّفه الناس، ويتجبّرون عليه في الدنيا للفقر ورثاثة الحال.

الضعيف: الأعمى والأبله.

في توقيع الإمام أبي الحسن العسكري ﷺ ـ وقد سُئل عن الضّعيف ـ فقال: «الضّعيف من لم ترفع إليه حجّة ولم يعرف الاختلاف، فإذا عرف الاختلاف فليس بضعيف»، وعلى هذا فالضعيف الأبله. وفي الحديث: «إنّ الله ليبغض المؤمن الضّعيف» قيل: المراد الضعيف الأعمى، والمعنى أنّه بعينه معصية المعاصي.

وفي الحديث: «اتّقوا الله في الضّعيفين» أي اليتيم والمرأة، أو المملوك والمرأة. ويقال: فلان ضعيف مُضعِف، يعني ضعيفاً في بدنه، مضعفاً في دابّته.

قال الله تعالى: «ليس على الضُّعَفاء» التوبة ٩١.

وقوله عزّ وجلّ: «وخُلِق الإنسان ضعيفاً» النساء ٢٨ ذكر فيه ثلاثة وجوه: و

قوله سبحانه «إنّ كيد الشيطان كان ضعيفاً» فضعف كيده لأنه مع من قال سبحانه في عباد الله المذكورين في قوله تعالى «إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان» الحجر ٤٢

الضَّعيفة: المرأة، وذو الضَّعْف، وكلام ضعيف: ما انحطّ عن درجة الإعجاز والفصاحة

الضَّعيف: المريض، والضُّعَيْف -مصغّراً-: لقب رجل

ضِعْف الشيء: مثله في المقدار، وضِعفاه: مثلاه

قال الله تعالى «إذاً لأذقناك ضِعْف الحياة وضِعْف الممات» الإسراء ٧٥ يعني عذاب الدنيا وعذاب الآخرة مضاعفين، وضِعْفاً من النار: عذاباً، ومنه قوله تعالى «لكلّ ضِعْف» الأعراف ٣٨، أي لكلّ تابع ومتبوع عذاب مضاعف لأنهم دخلوا في الكفر جميعاً، فلكلّ عذاب مضاعف

وفي الحديث «كان يونس في ضِعْف الحوت» يريد في جوفه

الضَّعف: ضدّ القوّة، والضَّعف: خلاف الشدّة

الضُّعف: المرض

الضَّعفان: ذو الضَّعف، جمعه ضعافى

وقد يكون الضِّعف في الزائد على المثل، فليس الضِّعف مقصوراً على المثلين، وأقلّ الضِّعف في الواحد، وأكثره غير محصور، فقولهم: لك ضِعفه أي لك مثله أو ثلاثة أمثاله أو أكثر، وتقول: هذا ضِعف هذا أي مثله، وهذا ضِعفاه أي مثلاه

أما لو قال في الوصية «أعطوه ضِعْف نصيب ولدي» لأُعطي مثليه، ولو قال «ضِعفيه» لأُعطي ثلاثة أمثال، حتى يحصل للإنسان ما لأُعطي مثلين في الضِّعف، والثلاثة في الضِّعفين، وعلى هذا جرى عرف الناس في محاوراتهم، والوصيّة تحمل على العرف لا على دقائق اللغة

أضعفه: ضاعفه، وأضعف المرضُ فلاناً: جعله ضعيفاً، وأضعفه: جعله ضِعْفَيْن

المُضْعِف: من فشت ضيعته وكثرت، ومن ضعفت دابّته، يقال: هو ضعيف مُضْعِف، فالضَّعيف في بدنه، والمُضعِف في دابّته، كما يقال «قويّ مُقْوٍ»

ضَعَّفَهُ: عدّه ضعيفاً، و ضَعَّفَ الشيءَ: صيّره ضعيفاً، و ضعّف الشيءَ: جعله ضعفين، و ضعّف الحديثَ: نسبه إلى الضعف سنداً و دلالةً أو جهةً من جهاته. أضعف المطر ضعف و يقال: ثياب مضعّفة و مضعفة: خلاف مكسّرة أي عشّه

ضاعفه: جعله ضعفين و هو أعمّ من ضعّفه

في نهج البلاغة قال يعسوب الدين الإمام علي عليه السلام: «و جعل جزاءهم عليه مضاعفة الثواب تفضّلاً منه و توسّعاً بما هو من المزيد أهله»

المُضاعف في اصطلاح الصرفيّين: ما ضوعف فيه حرف من مادّته

يقال: بقرة ضاعف: في بطنها حمل كأنّها صارت بولدها معه

مضاعف عدد صحيح: و هو حاصل ضرب في عدد صحيح، و المضاعف الأصغر لعدد: هو أصغر مضاعفاته، و المضاعف المشترك بين عدّة أعداد صحيحة: عدد يكون مضاعفاً لجميعها

المضاعفة: الدرع التي ضوعف حلقها و نسجت حلقتين حلقتين

تضعّفه: عدّه ضعيفاً فركبه بسوء، المتضعّف: العدوّ الضعيف

تضاعف الشيءُ: صار ضعف ما كان، و تضاعيف الكتاب: أضعافه و أثناؤه

استضعفه: رآه ضعيفاً، و استضعف الشيء: عدّه ضعيفاً، و استضعفه: وجده ضعيفاً

المستضعف: هو الذي لا يستطيع حيلة الكفر فيكفر و لا يهتدي سبيلاً إلى الإيمان كالصبيان و من كان من الرجال مثل عقول الصبيان، مرفوع القلم عنهم

في نهج البلاغة قال إمام المتّقين الإمام علي عليه السلام: «و لا يقع اسم الاستضعاف على من بلغته الحجّة فسمعتها أذنه و وعاها قلبه»

و قال بعض المفسّرين: المستضعف من لا يعتقد الحقّ و لا يعاند فيه و لا يوالي أحداً من الأئمّة المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين و لا من عاداهم و ليس من قسم المستضعف من يعتقد الحقّ، و لا يعرف دينه التفصيلي، فإنّ ذلك من جملة المؤمنين، و بعده كونه ناقصاً. و في الخبر «سئل عن المستضعفين، فقال: شبيه بالصبيان في خدرها و الخادم، تقول لها صلّي فتصلّي لا تدري إلّا ما قلت لها، و الكبير الفاني، و الصبيّ الصغير»

٢٢ ـ الودق ـ ١٦٥٥

ودق المطر [illegible] ودقاً [illegible]

[illegible]

الوَدْق ـ مصدر ـ المطر [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

في نهج البلاغة [illegible]

«[illegible] الوَدْق [illegible]»

وفي حديث [illegible]

[illegible]

ذات الوَدْقَين [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

ودق إلى الشيء [illegible]

[illegible]

[illegible]

ودق الشيء [illegible]

وَدَق [illegible]

[illegible]

وَدَقت ذات [illegible]

وُدُقاً وَوِداقاً ووَدْقاناً ـ من باب كرم ـ إذا ظهرت رطوبة عند إرادة الفحل فهي وديق، ووَدوق ووَديق. والاسم الوَدْق. ووَدِقت عينه وَدَقاً ـ من باب علم ـ ظهر فيها الوَدَق

أتان وديق، وفرس وديق إذا حرصت على الفحل

وفي حديث ابن عباس ـ في إلقاء عصى موسى عليه السلام ـ «وإنّ فرعون كان على فرس ذنوب حصان، فتمثّل له جبرئيل على فرس وديق، فتقحم خلفها». هي التي تشتهي الفحل

الوَدْق ـ بالفتح نعت ـ والوَدَق محرّكة ـ نُقط حُمْر تخرج من لحم من دم تشرق به، أو لحمة تعظم فيها أو مرض فيها ترم منه الآذن والجفن، وذلك بعد في عينه ودقة حديثة عنه بثرة أو نقطة تشرق بالدم

عين وَدِقة: بها وَدْق. يقال فلان حمي أحفظه، وتستل الوديقة في شدة سيلان في وقت الحرّ نصف النهار، يقال هذا مرحل المستقر الموقّ

الوديقة: ما بدا في هو عند شدّة الحرّ والموضع فيه بقل أو عشب، جمعها ودائق قيل سميت به لأنها ودقت إلى كلّ شيء وصلت إليه. الوديقة حرّ شديد أشدّ ما يكون من الحرّ بالظهائر

الوادق: الحديد من السيف وغيره. يقال إنه لوادق السيف في كثرة الثوى في كلّ مكان

رجل وادق السرّة: شاخصها

الوداق والوِداق: الحديد

المَوْدِق: الموضع الذي فيه الوَدْق، أي موضع ودق المطر. والمودق معترك الشرّ، والحائل بين الشيئين، وموقف الظبي حيث يتناول الشجر

مودق الحُمُر: مأتاها

أودقت السماء: إذا أمطرت

٥٤ ـ الشَّيب و الشَّيبة ـ ٨٢٧

شاب الرجل يشيب شَيْباً وشَيْبةً ومشيباً ـ أجوف يائي ـ مثل باع ـ من باب ضرب ـ إذا

أبيضَّ قليلاً أو كثيراً، تدريجاً أو دفعة، فهو أشيب على غير قياس، لأنّ هذا النعت إنّما يكون من باب فعِل يفعَل ولا فعلاء له، وشرطه أن يدلّ على العيوب أو الألوان، فيقال: رجل أشيب، ولا يقال امرأة شيباء، فلا توصف به المرأة، وتنعت بالشمطاء على الشذوذ.

وجمعه شيب وشُيُب. والشَّيْب مصدر شاب، والشيب اسم للشعر الأبيض نفسه.

قال الله سبحانه «فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً» المزمل ١٧؛ وهو تمثيل لشدّة الهول. وقال الله تعالى عن زكريا ﴿ع﴾: «واشتعل الرأس شيباً» مريم ٤ أي انتشر الشعر الأبيض في الرأس أو شمل الشيب الرأس.

الرجل شائب، والمرأة شائبة.

في نهج البلاغة قال مولى الموحدين إمام المتقين علي بن أبي طالب ﴿ع﴾ في عبدالملك بن مروان الفاسق: «... حتى تشيب منه مفارقه».

وفيه في تعريف الناس أمير المؤمنين الإمام علي ﴿ع﴾: «فبعضهم غائب وشائبهم آثم، وعالمهم منافق».

الشَّيْبة: مصدر، والكهولة.

قال الله تعالى «ثمّ جعل من بعد قوّة ضعفاً وشيبة» الروم ٥٤.

الشَّيْب: بياض الشعر، الشعر الشائب، مفرده كمثل الآبل، وجمع شائبة شُيَّب. يقال: باتت المرأة بليلة شيباء إذا افتُضَّت، وبليلة حرّة إذا لم تُفتَضّ، وقيل بأنّ شيباء بدل من الواو لأنّ ماء الرجل شاب ماء المرأة، وليلة شيباء: آخر ليلة من الشهر.

الشَّيْبة: امرأة، وشيء من الشيب، والنبات الذي يعرف بشيبة العجوز، حشيش له بياض في أفنيته وورقه، وشيبة الحمد هو عبد المطلب بن هاشم المطعم طير السماء، لأنّه لمّا نحر فداء ابنه عبد الله مئة بعير فرّقها رؤوس الجبال فأكلتها الطير.

وبنو شيبة قبيلة معروفة، منهم سدنة الكعبة بإذن رسول الله ﴿ص﴾.

الأشيب: الرجل الذي ابيضّ شعره.

الشِّيب: سير السوط، وحكاية صوت مشافر الإبل عند الشرب، وولد الضبع من الذئب وهو شرّ الضواري، والجبال التي ابيضّت بالثلج والضبع ويقال شابت رؤوس

لأنّه أي بعض البلاد [illegible] ومنه الحديث [illegible] إلى شيب [illegible] وفيه [illegible]

شعر علاه الشيب [illegible] هو شعر معدود [illegible]

والشَّيب وشيِّب وشابه [illegible] معروفان

المشيب [illegible] الشعر [illegible] والمشيب [illegible] ومن الأصمعي [illegible]

الشَّعر، والمشيب دخول الرجل في حدّ الشيب

يوم شيبان وأشيب [illegible] وعن [illegible] يوم [illegible] شيبان

شيبان [illegible] وقد [illegible] الأزد [illegible] الأرض فيه

بالثلج [illegible] والصقيع [illegible]

الشَّيبانيّة [illegible]

أشاب الرّجل [illegible] وشاب [illegible] الحزن [illegible]

شيَّب الحزنُ فلاناً وفلان [illegible]

وفي الخبر [illegible] رسول الله [illegible] شيبتني هود [illegible]

[illegible] وأنواع [illegible] حتى [illegible]

أوانه

في نهج البلاغة قال [illegible] أمير المؤمنين [illegible]

عليه [illegible] بعد وفاة رسول الله [illegible]

الهالكين لأهل بيت الوحي [illegible]

[illegible]

الصّغير [illegible] (٣)

٤١ ـ الحقّة و [illegible] ـ ٤٢٩

حقَّ الشيءَ [illegible] وحقّة [illegible] من باب [illegible]

فهو [illegible] والحقّ [illegible]

في نهج البلاغة قال مولى الموحّدين [illegible] علي بن أبي طالب [illegible]

الحمل واستخفّه، والثقيل واحتمله والخفيّ والخفخف في حمله الأسواء.

وجمع الخفيف خفاف وخفاف وخفاف

وخفّ الرجلُ خفًّا وخفّة وخفافة: صار خفيفًا في بدنه وفي سيره وخفّته في عقله وأولاده و عياله. وخفّ القوم أي ارتحلوا وخفّهم خفًّا وخفّة وخفوفًا، نحو مسرعين وقلّوا وقد خفّ رحيلهم. وخفّ فلان إلى العدوّ خفوفًا: أسرع

وفي حديث خطبة رسول الله ﷺ في مرضه «أيها الناس قد دنا منّي خُفُوف من بين أظهركم» أي حركة وقرب ارتحال يريد الإنذار بموته

وخفّ المطر نقص

قال الله تعالى «ومن خفّت موازينه» (الأعراف: ٩) كناية عن قلّة الأعمال الصالحة و فقدها

في نهج البلاغة قال أمير المؤمنين (عليه السلام): «لا يستخفّنّ امرؤ [illegible] شهد [illegible] و لا يقلن [illegible] شهد [illegible] خفّته» ٣

الخفيف ضدّ الثقيل: المسرع في عمله وسيره يقال فلان خفيف اليد سريع العمل، وفلان خفيف الرجل سريع السير وخفيف الروح ظريف رقيق المعشر، وخفيف الظهر قليل الأولاد والعيال، وخفيف العقل دنيّ وخفيف العقل أحمق وخفيف الدمّ سمح و ليّن وبشّ و خفيف العارضين قليل الشعر في الوجه و الخفيف بحرٌ من بحر الشعر سمّي بذلك لخفّته ورنّة تفعلاته مستفعلن فاعلاتن و منه كلام خفيف على اللسان، و ثقيل على المعنى

قال الله تعالى «فلمّا تغشّاها حملت حملاً خفيفًا» (الأعراف: ١٨٩) يعني أوّل الحمل

وخفّت الأُذُنُ لمعرفة أطاعته وخفّت الغنمُ خفًّا خفيفًا

قال بعض اللغويين: الخفيف خلاف الثقيل على خمسة وجوه

ألف: بحسب هذا الخفيف والعسر ونتيجة الزمان نحو فرس خفيف، و فرس ثقيل إذ عدا أحدهما أكثر من الآخر في زمان واحد

ب: باعتبار المضاهاة بالوزن، و قياس شيئين أحدهما بالآخر، نحو درهم خفيف و درهم ثقيل

ج. خفيف فيما يستخفّه الناس و ثقيل فيما يستوخمه، فيكون الخفيف مدحاً و الثقيل ذمّاً و منه قوله تعالى «الآن خفّف الله عنكم» الأنفال ٦٦

في نهج البلاغة قال سيّد الوصيّين الإمام عليّ ﴿ع﴾: «و قد خفّفه الله على أقوام طلبوا العاقبة فصبّروا أنفسهم، و وثقوا بصدق موعود الله لهم»

د. خفيف فيمن يحسّن و ثقيل فيما فيه وقار فيكون الخفيف ذمّاً و الثقيل مدحاً

هـ. خفيف في الأجسام أي من شأنه أن يرجحن إلى أسفل كالأرض و الماء

الخفيفة ضدّ الثقيلة

في نهج البلاغة قال أمير المؤمنين الإمام عليّ ﴿ع﴾ - في وصف المتّقين -: «قلوبهم محزونة و شرورهم مأمونة، و أجسادهم نحيفة، و حاجاتهم خفيفة و أنفسهم عفيفة»

الخُفاف: الخفيف المتوقّد و خُفاف اسم رجل و هو خُفاف بن نُدبة السُّلمي أحد غربان العرب. الخفاف في التوقّد و الذكاء.

الخفّ: كلّ شيء خفّ محمله و خفّت الخفيف كخفوفه ... العلاء: الخفّ عن صهوته، و الخفّ الجماعة القليلة يقال: فلان خرج في خفّ من أصحابه أي في جماعة منهم خفّ خفّت أي تحرّك ليرتفع صوته من خلاله

خفّة: ضدّ ثقل، و الرجوح تكون في الجسم و العقل و العلم فيكون الخفّة في المحسوسات و المعقولات

الخُفّ: الملبوس و هو للبعير و النعام كالحافر للفرس جمعه أخفاف و خفاف، و أخفّاء، و الأخير قليل

في نهج البلاغة قال مولى الموحّدين الإمام عليّ ﴿ع﴾ - في المتّقين و ساعد... «... فهم لو أنّه في قرن أسنهم بأخفافها، و وطئتهم بأظلافها» الخطبة الثالثة

و فيه، قال أمير المؤمنين الإمام عليّ ﴿ع﴾ - في أهل النهروان -: «... و أنتم معاشر أخفّاء الهام، سفهاء الأحلام...» الخطبة: ٣٦

يقال جاءت الإبل على خُفّ و على وصف واحد إذا تبع بعضها بعضاً

الخُفّ ـ أيضاً ـ الإبل والفحل المُسِنّ وقيل: الضخم ومنه الحديث: «لم ترفع رحلتك خُفّاً لأكتب لك كذا» و مثله «صدقة خُفّ تُدفع إلى المحصّن» يريد بالخُفّ الإبل كما في الحديث «لا سبق إلّا في خُفّ أو نَصل أو حافر» أي في ذي خُفّ، و في ذي نُصل و في ذي حافر

في نهج البلاغة قال أمير المؤمنين الإمام عليّ ﷺ ـ في وصف مكّة المعظّمة ـ «.. لا يزكوا بها خُفٌّ و لا حافر و لا ظِلفٌ »

و في الحديث «لم تُعرف للنبيّ ﷺ خُفٌّ إلّا خُفٌّ أهداه له النجاشي» و الخُفّ ما يستر ظهر القدمين سواء كان له ساق أو لم يكن. خُفّ واحد أخفاف التي تلبس في الرجل سُمّي بذلك لخفّته، و خُفّ الأرض غليظه. و من الإنسان ما أصاب الأرض من باطن قدمه

الخَفّاف: بائع الأخفاف

خفّان موضع كثير الغضى قرب الكوفة وهو مأسدة و به قوله «هصور له في غيل خفّان شِبلٌ» أي أسد له أولاد في هذه الأرض

الخفّوف: مصدر الخَفوف؛ و لد الأتان إذا سمن الخُفوف سرعة السير من المنزل يقال خفّ الخُفوف

في نهج البلاغة قال إمام المتقين عليّ بن أبي طالب ﷺ ـ في وصف الطاووس ـ «... مع بعضها بعبابة خلفه أن يسمو في الهواء خُفوقاً» أي سرعةً

تخفّف تخفّفاً خفّ نفسه و خفّف ضدّ ثقّل

في نهج البلاغة قال يعسوب الدين الإمام عليّ ﷺ «تخفّفوا تلحقوا»

تخافّ الرّجل تخافّاً ضدّ تثاقل و في الحديث «إذا سجدت فتخافّ» أي ضَع جبهتك على الأرض وضعاً خفيفاً

أخفّ فلانٌ إخفافاً خفّت حاله ورقّت، و أخفّ القومُ هزلوا و أخفّ فلاناً و خفّفه أزال همّه، و حمله على الخِفّة، و منه «لا تعصبنّ عندي الرّعيّة فإنّه لا يُخفّني» و أخفّ

[illegible] لا [illegible]»

في نهج البلاغة [illegible] الإمام علي عليه السلام [illegible]

[illegible]

و [illegible] الرَّجُل [illegible]

[illegible]

[illegible] وفي [illegible]

التخفيف [illegible]

في نهج البلاغة [illegible] الإمام علي عليه السلام [illegible]

[illegible]»

وفيه [illegible] الإمام علي عليه السلام [illegible] الأشتر النخعي رضوان الله تعالى عليه لمّا ولّاه على مصر: [illegible]

إحالة أرض اغتمرها غَرَقٌ [illegible]

أمرهم.»

استخفّه [illegible]

استخفّ به: استهان.

في فروع الكافي: قال الإمام [illegible] جعفر بن محمد [illegible] عليه السلام: «لا [illegible] شفاعتنا من استخفّ بالصلاة» [illegible]

وفي نهج البلاغة [illegible] الإمام علي عليه السلام [illegible]

صاحبُه» [illegible]

[illegible]

[illegible]

استخفّه [illegible]

قال الله تعالى «فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون» الروم ٦٠، وقال «فاستخف قومه فأطاعوه» الزخرف ٥٤ أي دعا فرعون بني إسرائيل إلى الخفة والطيش والجهالة ولا الحفاظ و[illegible] فأطاعوه أو وجدهم طائشين أو وجدهم خفافاً في أذهانهم وعزائمهم

ومنه خفت الأرض لمعرفة [illegible] وخفت الأنثى لمعجل [illegible]

«الرّوم»

۱ـ (الٓمٓ)

اسم سمّي بما عبّر عنه و عدّوه بالحروف المقطّعة، و مدخل السّور، و في موضعه وجوه سبق في سورة «لقمان»

۲ـ (غلبت الرّوم)

الفعل، فعل ماضٍ، مبنيّ للمفعول، و «الرّوم» اسم جنس، نائب مناب الفاعل، و هو اسم لقوم سمّوا على اسم أبيهم روم بن عيصو بن إسحاق بن إبراهيم (ع) كما قيل

۳ـ (في أدنى الأرض و هم من بعد غلبهم سيغلبون)

«أدنى» اسم تفضيل، أضيف إلى «الأرض» مجرور بـ«في» متعلّق بـ«غلبت» و في اللام وجهان: أحدهما ـ عوض عن المضاف إليه، إمّا الظّاهر أي أرض العرب، و إمّا الضّمير أي أرضهم إلى عدوّهم، و قيل تقديره في أدنى الأرض منهم

الواو عاطفة، و «هم» مبتدأ، و «بعد» مجرور بـ«من» متعلّق بـ«سيغلبون» و «بعد» أضيف إلى «غلب» و هو مصدر أضيف إلى مفعوله «هم» و حذفت الهاء من «غلبه» للإضافة كما حذفت من قوله «و إقام الصّلاة» (النّور: ۳۷) للإضافة و إنّما الكلام «و إقامة الصّلاة» و قيل أضيف إلى فاعله و على هذين الوجهين يكون «غلبت» مبنيّاً للمفعول، و «سيغلبون»

مبنياً للفاعل، على الأوّل، و العكس على الثاني

فالمعنى على الأوّل، من بعد أن غلبهم الفرس، هم سيغلبون الفرس. فالمصدر مضاف إلى المفعول، و قد حذف الفاعل كأنّ المشركين سرّهم غلبة الفرس على الروم.

و المعنى على الثاني: غلبت الروم على أدنى أرض الشام، فيكون المصدر مضافاً إلى الفاعل أي من بعد أن غلبوا على الريف و الرّيف السّواد. و يجوز أن تكون الضمائر الثلاثة راجعة إلى «الروم»، و المعنى و الروم من بعد مغلوبيّتهم سيغلبون و هذا بناء على أن يكون الغلب من المصدر المبني للمفعول.

و «سيغلبون» السين حرف تسويف و يغلبون فعل مضارع لجمع المذكّر الغائب، في موضع رفع، خبر «هم» و الجملة معطوفة على «غلبت الروم» لا محلّ لها.

٤ـ في بضع سنين لله الأمر من قبل و من بعد و يومئذ يفرح المؤمنون،

«بضع» اسم لقطعة من العدد، مضاف إلى «سنين» مجرور، و «في» متعلق بـ«سيغلبون» أيضاً بحذف مضاف أي في مدى بضع سنين.

و لا يخفى على الأديب اللبيب أنّ الأصل في «سنة» لا يجمع بالياء و النون نصباً و جرّاً، و بالواو و النون رفعاً لأنّ الواو و النّون لمن يعقل، و لكن يجوز ذلك في «سنة» و إن كانت ممّا لا يعقل للحذف الذي دخلها، لأنّ أصلها «سنوة» لجمعها على سنوات، فكسرت السين في «سنين» ليدلّ على أنّه جمع على غير الأصل لأنّ كلّ ما جمع، جمع السّلامة لا يتغيّر فيه بناء الواحد، فلمّا تغيّر بناء الواحد في هذا الجمع كُسِرَ أوّله، و قد كان مفتوحاً في الواحد فعلم أنّه جمع على غير أصله و نحوه قوله تعالى «عِضين» نحل ٣٦)

و «لله» متعلّق بمحذوف، خبر مقدّم، و «الأمر» مبتداء مؤخّر، و الجملة اعتراضيّة لا محلّ لها كأنّها جواب لسؤال مقدّر و هو أيّ فائدة في ذكر قوله تعالى «من بعد غلبهم» لأنّ قوله سبحانه «سيغلبون» لا يكون إلّا بعد الغلبة؟

فأجيب عنه أنّ فائدته إظهار تمام القدرة، و بيان أنّ ذلك بأمر الله تعالى وحده

و «من قبل» متعلّق بمحذوف، و هو حال، و كذلك «من بعد» معطوف على «من قبل» و

«قبل» و «بعد» هما ظرفا زمان بُنيا على الضمّ لقطعهما عن الإضافة لفظاً لا معنى، ثمّ جُرّا بـ«من» وبقيا على ضمّهما، أي من قبل أن تغلب الروم ومن بعد أن تغلب الروم، والظرفان متعلّقان بالخبر المحذوف.

وهذان الظرفان أصلهما الإعراب، وقد بُنيا لأنّهما تعرّفا بغير ما تتعرّف به الأسماء، وذلك أنّ الأسماء تتعرّف إمّا بالألف واللام كالرجل، وإمّا بالإضافة إلى المعرفة كغلام زيد، وإمّا بالإضمار أو بالإشارة أو بالعهد، وليس في «قبل وبعد» شيء من ذلك، فلمّا تعرّفا خلاف ما تعرّف به الأسماء، وهو حذف ما أُضيفا إليه، خالفا الأسماء، وشابها الحروف، فبُنيا كما تُبنى الحروف، مع أنّ المضاف والمضاف إليه بمنزلة كلمة واحدة، فلمّا اقتطع عن الإضافة التي هي الغاية نُزّلت منزلة بعض الكلمة، وبعض الكلمة مبنيّ.

وكان حقّهما أن يُبنيا على السكون لأنّه الأصل في البناء، ولكن لمّا كان ما قبل الحرف الأخير من «قبل وبعد» ساكناً، وهما الباء والعين، حرّك الحرف الأخير لوجهين:

أحدهما ـ لئلّا يلتقي الساكنان. **ثانيهما** ـ للإشارة إلى أنّ لهما مكاناً في الإعراب مثل «من» و«كم» و«ما» ونحوها.

وقد حرّكا بالضمّ دون الفتح والكسر لوجوه:

أحدها ـ أنّهما أشبها المنادى المفرد الذي يُعرب بالضمّ أو يُكرّر.

ثانيها ـ أنّهما بُنيا على الضمّ تعويضاً عن المضاف إليه المحذوف لأنّ الضمّ أقوى الحركات.

ثالثها ـ أنّ الفتح والكسر يدخلان «قبل وبعد» ولا يدخلهما الرفع، فلو بُنيا على الفتح أو الكسر لاشتبهت حركة الإعراب بحركة البناء، فبُنيا على الضمّ لئلّا تلتبس حركة الإعراب بحركة البناء، مع أنّ الضمّة أدلّ على البناء من غيرها.

الواو عاطفة، و«يومئذ»: «يوم» ظرف زمان منصوب، أُضيف إلى مثله «إذ»، متعلّق بـ«يفرح»، والتنوين في آخره عوض عن جملة محذوفة أي يوم تغلب الروم، و«يفرح» فعل مضارع، و«المؤمنون» فاعله، وجملة «يفرح ...» معطوفة على «غلبت الروم» لا محلّ لها

٥ـ ﴿بنصر الله ينصر من يشآء وهو العزيز الرحيم﴾

«بنصر» مصدر أضيف إلى فاعله مجرور بالباء متعلّق بـ«يفرح». و«ينصر» فعل مضارع فاعله ضمير مستتر فيه يرجع إلى الله، والجملة مستأنفة لا محلّ لها أو نعتيّة و«من» اسم موصول في موضع نصب مفعول به، و«يشآء» صلة الموصول لا محلّ لها، والواو عاطفة، و«هو» مبتدأ، و«العزيز» خبره، و«الرحيم» خبر ثانٍ والجملة معطوفة على جملة «ينصر» من عطف الجملة الاسمية على الفعلية لا محلّ لها

٦ـ ﴿وعد الله لا يخلف الله وعده ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون﴾

«وعد» مفعول مطلق بفعل محذوف مؤكّد لمضمون الجملة قبله، وهي قوله «سيغلبون ـ ويفرح المؤمنون» ويقال له المؤكّد لنفسه لأنّ ما قبله في معنى الوعد والعامل محذوف وجوباً، فالوعد مصدر بدل من اللفظ بفعله، كأنّه قيل وعدهم الله تعالى النصر وعداً

«وعد» مصدر أضيف إلى فاعله «الله» والجملة «وعدهم الله وعداً» مستأنفة لا محلّ لها و«لا» نافية و«يخلف» فعل مضارع من باب الإفعال و«الله» فاعله، و«وعده» مفعول به، وفي جملة «لا يخلف الله وعده» وجهان أحدهما ـ مستأنفة بيانيّة لا محلّ لها ثانيهما ـ في موضع نصب حال من المصدر «وعده» والمعنى: وعد الله غير مخلف

وفي الواو وجهان أحدهما ـ عاطفة، و«لكنّ» حرف استدراك، و«أكثر» إسمها، أضيف إلى «الناس» و«لا يعلمون» في موضع رفع خبرها، ومفعول به محذوف أي لا يعلمون وعده تعالى لجهلهم بشأنه والجملة «لكنّ...» معطوفة على جملة «لا يخلف الله» لا محلّ لها

ثانيهما ـ حاليّة والجملة في موضع نصب حال لما قبلها

٧ـ ﴿يعلمون ظاهراً من الحيوة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾

«يعلمون» فعل مضارع لجمع المذكّر الغائب، وفي الجملة وجهان أحدهما ـ مستأنفة

لا محلّ لها أو تعليليّة. ثانيهما ـ في موضع رفع بدل من قوله «لا يعلمون»، و في هذا الإبدال من النّكتة أنّه أبدله منه، و جعله بحيث يقوم مقامه و يسدّ مسدّه، ليعلمك أنّه لا فرق بين عدم العلم الّذي هو الجهل، و بين وجود العلم الّذي لا يتجاوز الدّنيا.

و «ظاهراً» مفعول به، و «من الحياة» متعلّق بـ«ظاهراً»، و «الدّنيا» نعت لـ«الحياة»، و الواو حاليّة، و «هم» الأوّل مبتدأ، و «عن الآخرة» متعلّق بـ«غافلون»، و «هم» الثّاني توكيد للأوّل، و جملة «هم غافلون» في موضع نصب، حال. و يجوز أن يكون «هم» الثّاني، مبتدأ ثانياً، خبره «غافلون»، و الجملة خبر «هم» الأوّل.

٨ـ ﴿أولم يتفكّروا في أنفسهم ما خلق الله السّموات و الأرض و ما بينهما إلّا بالحقّ و أجل مسمًّى و إنّ كثيراً من النّاس بلقاء ربّهم لكافرون﴾

الهمزة للاستفهام الإنكاريّ، و الواو عاطفة على مقدّر يقتضيه السّياق، و «لم» حرف جحد و نفي و جزم، و «يتفكّروا» فعل مضارع لجمع المذكّر الغائب من باب التّفعّل مجزوم بـ«لم»، و الجملة معطوفة على محذوف مقدّر لا محلّ لها، تقديره: أجهلوا و لم يتفكّروا؟!

و «في أنفسهم» متعلّق بـ«يتفكّروا»، و «ما» نافية، و «خلق» فعل ماض، و «الله» فاعل الفعل، و «السّموات» مفعول به، و الواو عاطفة، و «الأرض» معطوفة على «السّموات».

و في جملة «ما خلق الله ...» وجهان: أحدهما ـ مستأنفة، لأنّ الكلام قبلها قد تمّ فلا تعلّق لها بما قبلها، فلا محلّ لها. ثانيهما ـ في موضع نصب، حال من مفعول به لفعل التّفكّر المعلّق بالنّفي.

و «ما» اسم موصول في موضع نصب، مفعول به، و «بينهما» ظرف، منصوب، متعلّق بمحذوف، صلة «ما»، و «ما» معطوف على «السّموات»، و «إلّا» أداة حصر، و «بالحقّ» متعلّق بمحذوف حال من فاعل «خلق»، و يجوز أن يكون حالاً من مفعول «خلق» أي مصحوبة بالحقّ. و الواو عاطفة، و «أجل» معطوف على «الحقّ»، و «مسمّى» اسم مفعول من باب التّفعيل، نعت لـ«أجل»، و علامة الجرّ هي الكسرة المقدّرة.

في الواو وجهان: أحدهما ـ حاليّة، و الجملة المؤكّدة التّالية في موضع نصب، حال ثانيهما ـ استئنافية، و «إنّ» حرف تأكيد، مشبّهة بالفعل، و «كثيراً» اسمها، و «من النّاس» متعلّق بمحذوف، هو نعت لـ «كثيراً» و «بلقاء ربّهم» متعلّق بـ «كافرون» و اللام المزحلقة و «كافرون» خبر «إنّ» و الجملة المؤكّدة مستأنفة لا محلّ لها

۹ـ (أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم كانوا أشدّ منهم قوّة و أثاروا الأرض و عمروها أكثر ممّا عمروها و جاءتهم رسلهم بالبيّنات فما كان الله ليظلمهم و لكن كانوا أنفسهم يظلمون)

«أولم يسيروا» مثل «أولم يتفكّروا» في الآية الثامنة، و الجملة معطوفة على استئناف مقدّر، تقديره، أقعدوا في منازلهم و لم يسيروا؟!

و الفاء عاطفة، و «ينظروا» معطوف على «يسيروا» و «كيف» اسم استفهام في موضع نصب، خبر مقدّم لـ «كان» و «عاقبة الّذين» اسم «كان» و الجملة «كان عاقبة الّذين ...» في موضع نصب مفعول به لفعل النّظر بمعنى التفكّر المعلّق بالاستفهام «كيف» و «من قبلهم» متعلّق بمحذوف، صلة الموصول «الّذين» و «كانوا» فعل ماض ناقص و الواو اسمها، و «أشدّ» خبرها، و «منهم» متعلّق بـ «أشدّ» و جملة «كانوا أشدّ منهم» مستأنفة بيانيّة لا محلّ لها و «قوّة» تمييز منصوب

و في الواو وجهان أحدهما ـ عاطفة، و مدخولها معطوفة على جملة «كانوا ...» لا محلّ لها ثانيهما ـ حاليّة، و مدخولها في موضع نصب، حال بتقدير «قد»

و «أثاروا» فعل ماض لجمع المذكّر الغائب، و «الأرض» مفعول بها، و الواو عاطفة، و «عمروا» فعل ماض لجمع المذكّر الغائب، و «ها» في موضع نصب، مفعول بها، راجعة إلى «الأرض» و الجملة معطوفة على «أثاروا» و محلّها تابع لمحلّ معطوفها

و «أكثر» مفعول مطلق، نائب عن المصدر، فهو صفة أي عمارة أكثر من عمارتهم، و «ما» موصولة، و «عمروها» صلة الموصول الحرفي لا محلّ لها، و المصدر المؤوّل «ما عمروها» في موضع جرّ بـ «من» متعلّق بـ «أكثر»

و في الواو وجهان: أحدهما ـ عاطفة، و «جاءت» فعل ماضٍ، و «هم» في موضع نصب، مفعول به، و «رسل» جمع رسول أُضيف إلى الضمير «هم» فاعل «جاءت» و تأنيث الفعل باعتبار جماعة فاعله. والجملة معطوفة على جملة «عمروها» الأولى ثانيهما ـ حالية، و مدخولها في موضع نصب حال، بتقدير «قد» و «بالبيّنات» جمع بيّنة، متعلّق بمحذوف، هو حال من الرّسل

و في الفاء وجهان: أحدهما ـ استئنافية ثانيهما ـ عاطفة و في الكلام حذف، تقديره فكذّبوا الرّسل، و جحدوا البيّنات، فأهلكهم الله بأنواع العذاب

و «ما» نافية، و «كان» فعل ماضٍ ناقص، و «الله» اسمها و اللّام لام الجحود و «يظلم» فعل مضارع، و «هم» في موضع نصب مفعول به و «يظلم» منصوب بـ«أن» مضمرة بعد لام الجحود و جملة «يظلم» صلة الموصول الحرفي «أن» المضمرة لامحلّ لها و المصدر المؤوّل «أن يظلم» في موضع جرّ باللّام، متعلّق بمحذوف، هو خبر «كان»

و في الواو وجهان: أحدهما ـ عاطفة ثانيهما ـ حالية و «لكن» حرف استدراك مهمل، و «كانوا» فعل ماضٍ ناقص مع اسمه، و «أنفسهم» مفعول به مقدّم، و «يظلمون» في موضع نصب، خبر «كانوا» و جملة «كانوا ...» معطوفة على جملة «ما كان الله ...» لا محلّ لها

١٠ ـ (ثمّ كان عاقبة الّذين أساؤا السّوأى أن كذّبوا بآيات الله و كانوا بها يستهزؤن)

«ثمّ» حرف عطف للتّراخي الحقيقيّ حيث إنّ عذابهم في الدّار الآخرة بعد هلاكهم في الحياة الدّنيا، و «كان» فعل ماضٍ ناقص، و «عاقبة» منصوب، مقدّم، خبر «كان» أُضيف إلى «الّذين» و «أساؤا» فعل ماضٍ لجمع المذكّر الغائب من باب الإفعال، صلة الموصول لا محلّ لها و جملة «كان عاقبة الّذين ...» معطوفة على جملة «ما كان الله ليظلمهم»

و في «السّوأى» وجوه: أحدها ـ نعت لمصدر «أساؤا» أي أساؤا الإساءة السّوأى ثانيها ـ اسم كان مؤخّر مرفوع، و علامة الرّفع هي الضّمّة المقدّرة على الألف ثالثها ـ

مفعول مطلق، والجملة «أساءوا» صلة، رابعها ـ مفعول به، والجملة «أساءوا» بحذف موصوف أي أساءوا الفعلة السوأى، و«السوأى» مؤنث الأسوأ كالحسنى مؤنث الأحسن اسم تفضيل من ساء الثلاثي، وبه نطق بضم فسكون.

و«أن» حرف مصدري، و«كذبوا» فعل ماض لجمع المذكر الغائب من باب التفعيل، صلة الموصول الحرفي «أن» لا محل لها، وفي المصدر المؤول «أن كذبوا» وجوه: **أحدها** ـ في موضع جر بحرف جر محذوف، وهو اللام أي لأن كذبوا فيكون مفعولا لأجله، والباء أي بأن كذبوا فيكون في موضع جر بالباء ... متعلق بـ«عاقبة»، **ثانيها** ـ في موضع رفع بدلا من «السوأى» إذا كان «السوأى» اسم «كان».

ثالثها ـ في موضع رفع اسم «كان» و«السوأى» مفعول «أساءوا»، **رابعها** ـ في موضع رفع خبر محذوف تقديره هو أن كذبوا، و«بآيات الله» متعلق بـ«كذبوا».

والواو عاطفة، وجملة «كانوا» معطوفة على جملة «كذبوا»، و«بها» متعلق بـ«يستهزؤن» فعل مضارع لجمع المذكر الغائب من باب الاستفعال في موضع نصب خبر «كانوا».

١١ـ الله يبدؤا الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون.

«الله» مبتدأ، و«يبدؤا» فعل مضارع والجملة ... راجع إلى «الله»، وجملة «يبدؤا» في موضع رفع خبر المبتدأ، والجملة «الله يبدؤا» مستأنفة لا محل لها، و«الخلق» مفعول به، و«ثم» حرف عطف للترتيب مع التراخي، و«يعيد» فعل مضارع من باب الإفعال، و«ها» في موضع نصب، مفعول به، وجملة «يعيده» في موضع رفع، معطوفة على جملة «يبدؤا»، و«ثم» كالسابق، و«إليه» متعلق بـ«ترجعون»، «ترجعون» فعل مضارع لجمع المذكر المخاطب، مبني للمفعول، وجملة ... والالتفات من الغيبة إلى الخطاب المؤذن بالمبالغة، وجملة «إليه ترجعون» في موضع رفع معطوفة على جملة «يبدؤا».

١٢ـ(و يوم تقوم السّاعة يبلس المجرمون)

الواو عاطفة، و «يوم» ظرف زمان، منصوب، متعلّق بـ«يبلس» أُضيف إلى جملة «تقوم السّاعة» فالجملة في موضع جرّ بإضافة «يوم» إليها، و «يبلس» فعل مضارع من باب الإفعال، و «المجرمون» إسم فاعل لجمع المذكّر من باب الإفعال، فاعل «يبلس» و جملة «يوم...» معطوفة على المستأنفة لا محلّ لها

١٣ـ(و لم يكن لهم من شركآئهم شفعآؤا و كانوا بشركآئهم كافرين)

الواو عاطفة، و «لم» حرف جحد و نفي و جزم، و «يكن» فعل مضارع ناقص، مجزوم بـ«لم» و «لهم» متعلّق بمحذوف هو خبر «يكن» و «من شركائهم» متعلّق بمحذوف، هو حال لأنّه كان نعتاً لـ«شفعاء» في الأصل، و تقدّم عليه و «شفعاء» جمع شفيع، إسم «يكن» و جملة «لم يكن لهم...» معطوفة على جملة «يبلس» لا محلّ لها

و الواو عاطفة و «بشركائهم» جمع شريك، متعلّق بـ«كافرين» و «كافرين» خبر «كانوا» و جملة «كانوا...» معطوفة أيضاً «يبلس» لا محلّ لها

١٤ـ(و يوم تقوم السّاعة يومئذ يتفرّقون)

الواو عاطفة، و «يوم» ظرف زمان، منصوب، متعلّق بـ«يتفرّقون» و جملة «تقوم السّاعة» في موضع جرّ، مضاف إليه، و جملة «يوم...» معطوفة على المستأنفة السابقة لا محلّ لها، و في «يومئذ» وجوه أحدها ـ تأكيد لفظيّ للظّرف السّابق ثانيها ـ بدل عن الظّرف السّابق، و التنوين عوض عن جملة محذوفة أي يوم إذ يبلس المجرمون ثالثها ـ ظرف لـ«تقوم»

و «يتفرّقون» فعل مضارع لجمع المذكّر الغائب من باب التّفعّل لا محلّ لها، و الجملة معطوفة على جملة «يبلس»

١٥ـ(فَأَمّا الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات فهم في روضة يُحبرون)

الفاء تفريعيّة، و«أمّا» حرف شرط و تفصيل، و«الّذين» اسم موصول في موضع رفع مبتداء، و«آمنوا» فعل ماضٍ لجمع المذكّر الغائب من باب الإفعال صلة الموصول لا محلّ لها، و الواو عاطفة، و«عملوا» معطوف على «آمنوا» لا محلّ له، و«الصّالحات» مفعول به، و الفاء رابطة لما في الموصول من رائحة الشّرط، و «هم» مبتداء، و في «في روضة» وجهان: أحدهما ـ متعلّق بمحذوف، هو خبر «هم» و«يُحبرون» خبر ثانٍ. ثانيهما ـ متعلّق بـ«يحبرون» فعل مضارع لجمع المذكّر الغائب مبنيّ للمفعول، و جملة «يحبرون» خبر «هم» و جملة «هم يحبرون» في موضع رفع خبر «الّذين»، و جملة «الّذين ...» مستأنفة لا محلّ لها

١٦ـ(و أمّا الّذين كفروا و كذّبوا بآياتنا و لقاء الآخرة فأولئك في العذاب مُحْضَرون)

الواو عاطفة، و«أمّا الّذين» كسابقتها، و«كفروا» صلة الموصول لا محلّ لها، و «كذّبوا» فعل ماضٍ لجمع المذكّر الغائب من باب التّفعيل، معطوف على «كفروا»، و«بآياتنا» متعلّق بـ«كذّبوا» و «لقاء» أُضيف إلى «الآخرة» معطوف على «آياتنا» و الفاء كالفاء السّابقة الثّانية و «أولئك» مبتداء، و الكلام في إعراب «في العذاب» هو الكلام في إعراب «في روضة» و «مُحْضَرون» إسم مفعول لجمع المذكّر من باب الإفعال، و الكلام في إعرابه هو الكلام في إعراب «يحبرون»

١٧ـ(فسبحان الله حين تمسون و حين تصبحون)

الفاء الفصيحة استئنافيّة و «سبحان» مصدر، مفعول مطلق لفعل محذوف، منصوب أُضيف إلى «الله» تقديره: سبّحوا سبحان الله فالجملة مستأنفة لا محلّ لها

و «حين» ظرف، منصوب متعلّق بالمصدر، أُضيف إلى «تمسون» فعل مضارع لجمع المذكّر المخاطب من باب الإفعال، في موضع جرّ، مضاف إليه، و الواو عاطفة، و «تصبحون»

مثل «تمسون» و«تصبحون» أي تدخلون في المساء و الصباح

واعلم أنّ «تمسون» و«تصبحون» و«تظهرون» من الأفعال الناقصة ترفع إسمها و تنصب خبرها، و قد تستعمل تامّة و الفرق بين الناقص و التامّ في الأفعال الناقصة أمران أحدهما ـ أنّ معنى التامّ منها هو دلالتها على الحدث و الزمن، و معنى الناقص منها هو سلب الدلالة على الحدث و التجرّد للدلالة على الزمن. ثانيهما ـ أنّ معنى التامّ هو الاستغناء بالمرفوع عن المنصوب و معنى الناقص هو عدم الاستغناء بالمرفوع عن المنصوب

إذا عرفت هذا فاعلم أنّ «تصبح» و «تمسي» و «تظهر» ثلاثة معان أحدها ـ أن تقرن مضمون الجملة بالأوقات الخاصّة التي هي الصباح و المساء و الظهر على طريقة كان

ثانيها ـ أن تفيد معنى الدخول في هذه الأوقات كالظهر و العصر، و هي في هذا الوجه تكون تامّة تكتفي بمرفوعها. ثالثها ـ أن تكون بمعنى صار كقولك أصبح زيد غنيّاً، و أمسى الفقير زيد أي صار كذلك مع قطع النظر عن وقت مخصوص

١٨ـ﴿و له الحمد في السّموات و الأرض و عشيّاً و حين تظهرون﴾

الواو عاطفة و «له» متعلّق بمحذوف خبر مقدّم و «الحمد» مبتدأ مؤخّر، و الجملة اعتراضيّة لا محلّ لها و التقدير و حين تصبحون و عشيّاً فأخّر «عشيّاً» و اعترض بالجملة التي له الحمد و يجوز أن تكون الواو حالية، فدخولها في موضع نصب، حال، و «في السّموات» وجهان أحدهما ـ متعلّق بـ«الحمد» ثانيهما ـ متعلّق بمحذوف، هو حال من «الحمد» و «الأرض» معطوف على «السّموات» و «عشيّاً» ظرف منصوب متعلّق بـ«سبحان» فهو معطوف على محلّ «حين تمسون» و «حين» الثالث معطوف على محلّ «حين تمسون» أضيف إلى جملة «تظهرون» فعل مضارع لجمع المذكّر المخاطب من باب الأفعال في موضع جرّ مضاف إليه

١٩ـ﴿يخرج الحيّ من الميّت و يخرج الميّت من الحيّ و يحيي الأرض بعد موتها و كذلك تخرجون﴾

«يخرج» فعل مضارع من باب الإفعال، و فاعله ضمير مستتر فيه، راجع إلى «الله» و «الحيّ» مفعول به و «من الميت» متعلّق بـ«يخرج» و في الجملة وجهان أحدهما ـ مستأنفة لا محلّ لها ثانيهما ـ حاليّة في موضع نصب حال من «الله» و الواو عاطفة، و «يخرج» الثاني كالأوّل و الكلام في موضع «يخرج» الثاني هو الكلام في موضع «يخرج» الأوّل

و الواو عاطفة، و «يحيي» فعل مضارع من باب الإفعال و الجملة معطوفة على جملة «يخرج» الثانية و «الأرض» مفعول به و «بعد» ظرف مضاف إلى «موت» مضاف إلى ضمير راجع إلى الأرض «ها» متعلّق بـ«يحيي» و الواو عاطفة و في «كذلك» وجهان أحدهما ـ متعلّق بمحذوف هو مفعول مطلق لعامله «تخرجون» أي تخرجون إخراجاً من القبور كذلك الإخراج المتقدّم ثانيهما ـ نعت لمصدر محذوف أي مثل ذلك الإخراج تخرجون، و «تخرجون» فعل مضارع لجمع المذكّر المخاطب من باب الإفعال مبنيّ للمفعول و جملة «كذلك تخرجون» معطوفة على جملة «يحيي» و عطفها تابع لعطف «يخرج» الأوّل

٢٠ـ﴿و من آياته أن خلقكم من تراب ثمّ إذا أنتم بشر تنتشرون﴾

الواو عاطفة و «من آياته» متعلّق بمحذوف، خبر مقدّم و «أن» حرف مصدريّ و «خلق» فعل ماض، فاعله ضمير مستتر فيه راجع إلى «الله» و «كم» في موضع نصب، مفعول به، و «من تراب» متعلّق بـ«خلق» و المصدر المؤوّل «أن خلقكم» في موضع رفع، مبتدأ مؤخّر و تقديره «و خلقكم من تراب من آياته» و الجملة معطوفة على جملة «يخرج الحيّ» من عطف الاسمية على الفعلية و الكلام في محلّها هو الكلام في محلّها و «ثمّ» حرف عطف للتراخي، و «إذا» فجائيّة، و «أنتم» مبتدأ، و «بشر» خبره، و جملة «أنتم بشر» معطوفة على جملة صلة الموصول الحرفيّ «أن خلقكم» لا على الموصول و صلته جميعاً كما زعمه بعضهم، و قال بعضهم إنّ الجملة «إذا أنتم بشر» معطوفة على قوله «و من آياته أن خلقكم»

و«تنتشرون» فعل مضارع لجمع المذكّر المخاطب، من باب الافتعال، و في محلّ الجملة وجوه: أحدها ـ في موضع رفع، نعت لـ«بشر» ثانيها ـ في موضع رفع، خبر ثانٍ للمبتدإ: «أنتم» ثالثها ـ في موضع نصب، حال من «أنتم»

٢١ـ﴿و من آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها و جعل بينكم مودّة و رحمة إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون﴾

«و» عاطفة و «من آياته» كالسّابقة و في «لكم» وجهان: أحدهما ـ متعلّق بـ«خلق» ثانيهما ـ متعلّق بمحذوف حال من «أزواجاً» و «من أنفسكم» متعلّق بـ«خلق» و في «من» وجهان أحدهما ـ تبعيضيّة فإنّ أصل «أزواجاً» حوّاء من ضلع آدم ﴿ع﴾ فيصدق التبعيض «من أنفسكم» فالأنفس بمعناها الحقيقيّ ثانيهما ـ ابتدائيّة و الأنفس بمعنى الجنس أي خلق لكم من جنسكم لا من جنس آخر، و هو الأنسب بقوله عزّوجلّ: «لتسكنوا إليها» فإنّ الجنس إلى الجنس أسكن و أوفق و «أزواجاً» جمع زوج مفعول به، و جملة «من آياته...» معطوفة على جملة «من آياته...» السّابقة

و اللّام للتعليل و «تسكنوا» فعل مضارع لجمع المذكّر المخاطب منصوب بـ«أن» مضمرة بعد اللّام، و علامة النصب حذف النون و «إليها» متعلّق بـ«تسكنوا» و المصدر المؤوّل «أن تسكنوا» في موضع جرّ باللّام متعلّق بـ«خلق» و الواو عاطفة، و «جعل» فعل ماضٍ، و «بينكم» ظرف منصوب، و فيه وجوه: أحدها ـ متعلّق بمحذوف مفعول به ثانٍ، عامله «جعل» ثانيها ـ في موضع نصب، مفعول ثانٍ لـ«جعل» ثالثها ـ متعلّق بـ«جعل» على أنّه بمعنى خلق و أوجد و «مودّة» مفعول به ثانٍ، و «رحمة» معطوفة على «مودّة» و جملة «جعل...» معطوفة على جملة «خلق لكم...»

«إنّ» حرف توكيد، تشبيه بالفعل، و «في ذلك» متعلّق بمحذوف، خبر «إنّ» و اللّام للتوكيد، و «آيات» جمع آية، اسم «إنّ» مؤخّر منصوب، و علامة النصب هي الكسرة و «لقوم» متعلّق بمحذوف هو نعت لـ«آيات» و «يتفكّرون» فعل مضارع لجمع المذكّر الغائب

من باب التمثّل، و الجملة في موضع جرّ، نعت لـ«قوم».

٢٢ـ(و من آياته خلق السّموات و الأرض و اختلاف ألسنتكم و ألوانكم إنّ في ذلك لآيات للعالمين)

جملة «من آياته خلق السّموات...» معطوفة على جملة «من آياته أن خلقكم من تراب...» و «اختلافُ» معطوف على «خلقُ السّموات» أُضيف إلى «ألسنة» جمع لسان أُضيفت إلى «كم» و «ألوان» جمع لون أُضيف إلى «كم» معطوف على «ألسنتكم» و جملة «إنّ في ذلك...» كالجملة المؤكّدة السابقة، و «للعالمين» جمع العالم، متعلّق بمحذوف نعت «آيات»

٢٣ـ(و من آياته منامكم باللّيل و النّهار و ابتغاؤكم من فضله إنّ في ذلك لآيات لقوم يسمعون)

الواو عاطفة، و «من آياته» متعلّق بمحذوف خبر مقدّم، و «منام» مصدر أُضيف إلى فاعله «كم» مبتدء مؤخّر، و «باللّيل» متعلّق بالمصدر، و «النّهار» معطوف على «اللّيل» و جملة «من آياته منامكم...» معطوفة على جملة «من آياته أن خلقكم من تراب...» و «ابتغاء» مصدر أُضيف إلى فاعله «كم» معطوف على «منامكم» و «من فضله» متعلّق بـ«ابتغاؤكم» و جملة: «إنّ في ذلك لآيات» كالسابقة، و «لقوم» متعلّق بمحذوف، نعت لـ«آيات» و «يسمعون» في موضع جرّ، نعت لـ«قوم»

٢٤ـ(و من آياته يريكم البرق خوفاً و طمعاً و ينزّل من السّماء ماءً فيحيي به الأرض بعد موتها إنّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون)

الواو عاطفة و في «آياته» هنا وجوه: أحدها ـ متعلّق بمحذوف، خبر مقدّم، و «يُري» فعل مضارع، فاعله ضمير مستتر فيه، راجع إلى «الله» لا محلّ لها، و الحرف المصدري «أن» مقدّرة قبله قياساً على ما تقدّم من أفعال و المصدر المؤوّل مبتدء مؤخّر فالفعل نزّل منزلة المصدر، و لم يصدّر بالحرف المصدريّ كما صدّر به قوله تعالى «أن خلقكم»

وقوله «أن خلقكم» لأنّ الحرف مع صلته مصدر بعد حرفيته فيكون الاسم في صورة الفعل «يريكم» بمعنى رؤيته وعليه حمل قول الشاعر: «وتسمع بالمُعَيْدي خير من أن تراه».

ثانيها ـ متعلّق بمحذوف وهو خبر مقدم، «البرق» مبتدأ مؤخر، و«يريكم البرق» حال يكون البرق من آياته وكائنًا من آياته لأن حق «أن» أن تدخل على الفعل ولكن لما قدمه الحال وكانت من جملة المعطوف، أولاها الواو وحسن حذف «أن» والجار في حكم الظرف فهو كقوله تعالى حكاية عن المؤمنين «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة» فجملة حسب فعلية معطوفة على جملة الاسمية «ومن آياته أن خلقكم من تراب». ثالثها ـ أن يكون المصدر محذوفًا تقديره «ومن آياته آية أن يريكم البرق». رابعها ـ على تقدير «ومن آياته أنه يريكم البرق» ثم حذف الموصوف، فقيل يريكم البرق. خامسها ـ «ومن آياته» بمعنى «يريكم» والتقدير «ويريكم من آياته البرق». سادسها ـ أن يكون موصوف محذوف أي «ومن آياته ما يريكم فيه البرق» فحذف الموصوف والعائد.

سابعها ـ أن يكون مقدرًا «ومن آياته شيء أو سحاب». ويكون فاعل «يريكم» ضمير الشيء أو السحاب المحذوف. ثامنها ـ أن يكون التقدير «ويريكم البرق خوفًا وطمعًا من آياته» فيكون عطف جملة على جملة. وقوله «خوفًا وطمعًا» منصوبان على تقدير اللام تقديره «لتخافوا خوفًا ولتطمعوا طمعًا» وهما مفعولان مطلقان لفعلين محذوفين يكونان حالين أي تخافون خوفًا وتطمعون طمعًا. تاسعها ـ أن يكون «من آياته» خبر لمحذوف أي من آياته ما يريكم ثم قيل يريكم البرق بدلك عن شرها ـ تقديره أنه يريكم. و«كم» في موضع نصب مفعول به أول، و«البرق» مفعول ثانٍ، و«خوفًا» مفعول لأجله منصوب و«طمعًا» معطوف على «خوفًا» وقد اعترض على هذا الإعراب بأن من حق المفعول له أن يكون فعلاً لفاعل الفعل المعلل، والخوف والطمع ليس كذلك وقد أجيب عنه بأجوبة منها: أن يكون المضاف هنا مقدرًا أي إرادة الخوف وإرادة الطمع فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه

مقامه. و منهم أن يكون «خوفاً و طمعاً» حالين أي خائفين و طامعين. و منهم أن يكون النصب على المصدر أي تخافون خوفاً و تطمعون طمعاً على أن يكون الجملة حالاً.

و الواو عاطفة، و «ينزّل» فعل مضارع، معطوف على «يري»، و «من السّماء» متعلّق بـ «ينزّل» و «ماءً» مفعول به، و الفاء عاطفة، و «يحيي» فعل مضارع من باب الإفعال، معطوف على جملة «ينزّل»، و «به» متعلّق بـ «يحيي» و يجوز أن يكون متعلّقاً بمحذوف و هو حال. و إعراب الجملة المؤكّدة معلوم من إعراب الجملة المؤكّدة السابقة.

٢٥ـ﴿و من آياته أن تقوم السّماء و الأرض بأمره ثمّ إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون﴾

الواو عاطفة، و «من آياته» متعلّق بمحذوف، خبر مقدّم، و «أن» حرف مصدريّ، و «تقوم» صلة الموصول الحرفي لا محلّ لها، و «السّماء» فاعل الفعل، و المصدر المؤوّل «أن تقوم السّماء» في موضع رفع، خبر مبتدأ مؤخّر، و «الأرض» معطوف على «السّماء»، و «بأمره» متعلّق بمحذوف، حال من «السّماء و الأرض»، و جملة «من آياته ...» معطوفة على «من آياته أن خلقكم من تراب ...»، و «ثمّ» حرف عطف للتراخي، و «إذا» ظرف للزمن المستقبل، متضمّن معنى الشرط، متعلّق بمضمون الجواب.

و «دعا» فعل ماضٍ، فاعله ضمير مستتر فيه، راجع إلى «الله»، و «كم» في موضع نصب، مفعول به، و «دعوة» مفعول مطلق، منصوب، و جملة «إذا دعاكم دعوة» في موضع جرّ، مضاف إليه. و في «من الأرض» وجوه: أحدها ـ متعلّق بـ «دعاكم» لا بـ «تخرجون» لأنّ ما بعد «إذا» لا يعمل فيما قبلها. ثانيها ـ متعلّق بمحذوف، هو نعت للنكرة، و تقديره دعاكم دعوة كائنة من الأرض إذا أنتم تخرجون. ثالثها ـ متعلّق بمحذوف، هو حال من «كم».

و «إذا» فجائيّة نابت مناب الفاء في الجزاء لاشتراكهما في التّعقيب. و في عطف الجملة الشّرطيّة وجهان: أحدهما ـ معطوفة على «أن تقوم ...» على تأويل مفرد كأنّه قيل و من

آياته قيام السّماء و الأرض بأمره، ثمّ خروجكم من قبوركم بسرعة إذا دعاكم. ثانيهما ـ معطوفة على قوله سبحانه: «و من آياته أن تقوم السّماء...» و دلّت على أسلوب «مقام إبراهيم و من دخله كان آمناً» ـ آل عمران ٩٧.

«أنتم» مبتدأ، و «تخرجون» فعل مضارع لجمع المذكّر المخاطب في موضع رفع، خبر المبتدأ، و جملة «أنتم تخرجون» جواب شرط غير جازم، لا محلّ لها.

٢٦ـ (و له من في السّموات و الأرض كلّ له قانتون)

الواو عاطفة، و «له» متعلّق بمحذوف خبر مقدّم، و «من» اسم موصول، و «في السّموات» متعلّق بمحذوف، صلة الموصول، و «الأرض» معطوف على «السّموات» و جملة «له من في السّموات...» معطوفة على جملة «من آياته أن تقوم...» و «كلّ» مبتدأ، و تنوينه عوض عن محذوف، مضاف إليه، أي كلّ مخلوق، و «له» متعلّق بـ«قانتون» و «قانتون» جمع قانت اسم فاعل، خبر المبتدأ، و جملة «كلّ له قانتون» مستأنفة لا محلّ لها.

٢٧ـ (و هو الّذي يبدؤا الخلق ثمّ يعيده و هو أهون عليه و له المثل الأعلى في السّموات و الأرض و هو العزيز الحكيم)

الواو عاطفة، و «هو» مبتدأ، و «الّذي» موصولة، في موضع رفع، خبره، و «يبدؤا» فعل مضارع صلة الموصول لا محلّ لها، و فاعله ضمير مستتر فيه، و «الخلق» مصدر بمعنى المخلوق، و هو مستحدث لإعادة الضّمير في «يعيده» عليه، و «الخلق» مفعول به، و جملة «هو الّذي...» معطوفة على جملة «له من في السّموات و الأرض...» و «ثمّ» حرف عطف للتّراخي، و «يعيد» فعل مضارع من باب الإفعال، و «ه» في موضع نصب، مفعول به، والجملة معطوفة على جملة «يبدؤا».

و في الواو وجوه: أحدها ـ عاطفة، و «هو» مبتدأ، راجع إلى «الخلق» أو البعث و الرّجوع أو الإعادة المفهومة من السّياق «يعيده» و تذكير الضّمير باعتبار كونه ردّاً و إرجاعاً أو مراعاة للخبر و هو «أهون» و «أهون» اسم تفضيل قصد به الوصف دون

التّفصيل، خبر المبتدء، و «عليه» متعلّق بـ«أهون»، و الضّمير في «عليه» راجع إلى الله سبحانه و قيل راجع إلى المخلوق لأنّه في الابتداء نقل من نطفة إلى علقة إلى غير ذلك، و في البعث يكون دفعة واحدة، و جملة «هو أهون عليه» اعتراضية لا محلّ لها ثانيها ـ حاليّة، و الجملة في موضع نصب، حال ثالثها ـ صفة و الجملة معطوفة على جملة «هو الّذي يبدؤ الخلق»

و الواو عاطفة، و «له» متعلّق بمحذوف، خبر مقدّم، و «المثل» مبتدأ مؤخّر و «الأعلى» وصف لـ«المثل» و «في السّموات» متعلّق بمحذوف هو حال من الضّمير في «الأعلى» و «الأرض» معطوف على «السّموات» و جملة «له المثل الأعلى» معطوفة على جملة «هو الّذي» و «و» عاطفة و «هو» مبتدأ و «العزيز» خبره و «الحكيم» خبر ثانٍ، و الجملة معطوفة على جملة «هو الّذي ...»

٢٨ـ (ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصّل الآيات لقوم يعقلون)

«ضرب» فعل ماضٍ فاعله ضمير مستتر فيه، راجع إلى «الله» و الجملة مستأنفة لا محلّ لها، و في «لكم» وجهان أحدهما ـ متعلّق بـ«ضرب» ثانيهما ـ متعلّق بمحذوف، هو مفعول به ثانٍ بتضمين «ضرب» معنى «جعل» و «مثلاً» مفعول به أوّل و «من أنفسكم» متعلّق بمحذوف نعت لـ«مثلاً» و «من» لابتداء الغاية فالمعنى مثلاً منتزعاً و مأخوذاً أو كائناً من أنفسكم، فإنّه أقرب شيء منكم و بيّن من غيره عندكم، فإذا ضرب لكم المثل بها في بطلان الشّرك كان أظهر دلالة و أعظم وضوحاً

و «هل» حرف استفهام للإنكار، و «لكم» متعلّق بمحذوف خبر مقدّم، و «ما» موصولة نوعيّة، مجرورة بـ«من» التّبعيضيّة، أو نوعيّة متعلّق بمحذوف، هو حال «من شركاء» و «ملكت» فعل ماضٍ، و «أيمانكم» فاعل الفعل، و الجملة صلة لموصول «ما» لا محلّ لها، و «شركاء» جمع شريك، مجرور لفظاً مرفوع محلاً، مبتدأ مؤخّر، و «من» زائدة

لتأكيد الاستفهام الجاري مجرى النفي، و جملة «هل لكم...» في موضع نصب بدل من «مثلاً»

و في «ما» وجهان: أحدهما ـ موصولة مجرورة بـ«في» متعلق بـ«شركاء»، و «رزقنا» فعل ماضٍ للمتكلّم مع الغير، صلة الموصول: «ما» لا محلّ لها. ثانيهما ـ نكرة موصوفة، «رزقنا» في موضع جرّ نعت لها، و «كم» في موضع نصب مفعول به، و الفاء عاطفة، وقعت في جواب الاستفهام، و«أنتم» مبتدأ، و «فيه» متعلق بـ«سواء»، و «سواء» هو خبر المبتدأ،

و في الجملة وجهان: أحدهما ـ معطوفة على جملة «هل لكم...» ثانيهما ـ في موضع نصب، جواب الاستفهام أي هل لكم فتستووا

و «تخافون» فعل مضارع لجمع المذكّر المخاطب، و «هم» في موضع نصب، مفعول به، و في الجملة وجهان: أحدهما ـ في موضع رفع خبر بعد خبر للمبتدأ «أنتم». ثانيهما ـ في موضع نصب، حال من ضمير الفاعل في «سواء»، أي فتستوون خائفاً بعضكم من بعض مشاركته له في المال

و «خيفة» مصدر أضيف إلى فاعله «كم»، مجرور بالكاف، متعلق بمفعول مطلق محذوف، تقديره: تخافونهم خيفة كخيفتكم أنفسكم، و «أنفسكم» مفعول به للمصدر «خيفتكم»، و «كذلك» متعلق بمحذوف، مفعول مطلق لعامله «نفصّل»، تقديره: نفصّل الآيات تفصيلاً كذلك أي مثل ذلك التفصيل، و «نفصّل» فعل مضارع للمتكلّم مع الغير من باب التفعيل، و جملة «نفصّل» مستأنفة لا محلّ لها، و «الآيات» مفعول به، و «لقوم» متعلق بـ«نفصّل»، و «يعقلون» فعل مضارع لجمع المذكّر الغائب في موضع جرّ، نعت لـ«قوم».

٢٩ـ (بل اتّبع الّذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضلّ الله و ما لهم من ناصرين)

«بل» حرف عطف للإضراب الانتقالي، و «اتّبع» فعل ماضٍ من باب الافتعال، و «الّذين» موصولة في موضع رفع، فاعل «اتّبع» و «ظلموا» صلة الموصول لا محلّ لها، و «أهواءهم» مفعول به، و جملة «اتّبع الّذين...» مستأنفة لا محلّ لها، و «بغير» أضيف إلى

«علم» متعلّق بمحذوف، و هو حال من الموصول: «الّذين».

و الفاء عاطفة، و «من» اسم استفهام انكاريّ في موضع رفع، مبتدأ، و «يهدي» في موضع رفع، خبره، و جملة «من يهدي» معطوفة على المستأنفة لا محلّ لها، و «من» الثّاني اسم موصول في موضع نصب، مفعول به، عامله «يهدي» و «أضلّ» فعل ماضٍ من باب الإفعال، و «الله» فاعله، و الجملة صلة الموصول لا محلّ لها، و العائد محذوف أي أضلّه الله و أضلّهم الله.

و الواو عاطفة، و في «ما» وجهان: أحدهما ـ نافية، و «لهم» متعلّق بمحذوف خبر مقدّم، و «من» زائدة للتّأكيد، و «ناصرين» مجرور لفظاً و مرفوع محلاً، مبتدأ مؤخّر. ثانيهما ـ حجازيّة، «لهم» متعلّق بمحذوف خبرها مقدّم على اسمها. و في الجملة «ما لهم من ناصرين» وجهان: أحدهما ـ معطوفة على صلة الموصول «ظلموا» أو «أضلّهم الله» فلا محلّ لها. ثانيهما ـ في موضع نصب حال من العائد المحذوف أي من أضلّهم الله حال كونهم غير منصورين.

٣٠ـ فأقم وجهك للدّين حنيفاً فطرت الله الّتي فطر النّاس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدّين القيّم و لكنّ أكثر النّاس لا يعلمون.

الفاء رابطة لجواب شرط مقدّر، و تقديره: إذا ثبت أنّ الخلق و الأمر و التّدبير لله وحده، و سيبعث و يحاسب، و لا عاصم لمن أعرض عنه جلّ و علا، و فضل على عباده، فأقم... أو يكون تقديره: إن ضلّ بعض النّاس على خلاف الفطرة الإلهيّة فأقم وجهك. «أقم» فعل أمر من باب الإفعال، و أصله «أقوم» فنقلت الكسرة على الواو إلى ما قبلها فالتقى السّاكنان، فحذفت الواو، فصار «أقم» و فاعله ضمير مستتر فيه وجوباً، يرجع إلى رسول الله ﷺ، و جملة «أقم» في موضع جزم، جواباً لشرط مقدّر، و «وجهك» مفعول به، و «للدّين» متعلّق بـ«أقم».

و في «حنيفاً» وجوه: أحدها ـ منصوب، حال من فاعل «أقم» ثانيها ـ حال من

المعمول «وجهك». ثالثها ـ حال من «للدّين». و في «فطرت الله» وجوه: أحدها ـ مفعول به، لفعل محذوف على الإغراء اى الزموا و اتبعوا او اعنى و اتّبع فطرت الله، و جملة «ألزموا فطرت الله» مستأنفة لا محلّ لها. ثانيها ـ منصوب على المصدر تقديره فطركم الله أو فطر الله الخلق فطرةً لما دلّ عليه ما بعدها «فطر النّاس». ثالثها ـ بدل من «حنيفاً».

و «الّتي» اسم موصول في موضع نصب، نعت «فطرت الله» و «فطر» صلة الموصول لا محلّ لها، و فاعله ضمير مستتر فيه راجع الى الله، و «النّاس» مفعول به و «عليها» متعلّق بـ«فطر» و «لا» نافية للجنس، و «تبديل» إسمها مبنيّ على الفتح، و «لخلق الله» متعلّق بمحذوف خبر «لا»، و جملة «لاتبديل لخلق الله» معترضة لا محلّ لها، و «ذلك» مبتداء، و في «الدّين» وجوه: أحدها ـ خبر «ذلك» و «القيّم» نعت لـ«الدّين»، و أصل «القيّم» قيوم فاجتمعت الواو و الياء، و سبقت إحداهما بالسّكون، و قلبت الواو ياءً و ادغمت الياء فيها.

ثانيها ـ بدل من «ذلك» و «القيّم» خبر «ذلك». ثالثها ـ بدل من «ذلك» و «القيّم» نعت لـ«الدّين» و الخبر محذوف تقديره ذلك الحنيف. و جملة «ذلك الدّين القيّم» تعليل لا محلّ لها و في الواو وجوه: أحدها ـ عاطفة و «لكنّ» حرف استدراك و «أكثر» اسم منصوب، اُضيف الى «النّاس» إسمها، و «لا» نافية، و «يعلمون» في موضع رفع خبر «لكنّ»، و جملة «لكنّ أكثر النّاس» معطوفة على جملة «ذلك الدّين» لا محلّ لها. ثانيها ـ حالية و «يعلمون» في موضع نصب، حال من «النّاس». ثالثها ـ استئنافية و «يعلمون» مستأنفة لا محلّ لها.

٣١ـ {منيبين إليه و اتّقوه و أقيموا الصّلاة و لاتكونوا من المشركين}

«منيبين» جمع «منيب» اسم فاعل لجمع المذكّر من باب الإفعال و في إعرابه وجوه: أحدها ـ حال من فاعل «الزموا» المقدّر، و علامة نصبه الياء، و المعنى الزموا

فطرة الله حالكونكم منيبين إلى الله تعالى. **ثانيها** ـ حال من فاعل «أقم» بعمومه للأمّة، فما بينهما اعتراض و تقديره: فأقيموا وجوهكم منيبين إليه أو بتقدير فأقم أنت يا محمّد وجهك و من معك. كقوله عزّوجلّ: «فاستقم كما أُمرتَ و من تاب معك» هود ١١٢

ثالثها ـ حال من «النّاس». **رابعها** ـ حال من ضمير «لايعلمون» على معنى أنّ أكثر النّاس لايعلمون أنّهم ينيبون إلى الله سبحانه حال الضّرّآء، حين اعرضوا عن الفطرة حال السّرّآء، و حالكونهم لايعلمون أنّ ذلك ليس إلّا بمقتضى فطرتهم. **خامسها** ـ مفعول لمضمر أي كونوا منيبين لقوله تعالى بعده: «و لاتكونوا من المشركين». **سادسها** ـ على تقدير: «أنيبوا إلى الله منيبين»، و قد عطف عليه فعل الأمر «واتّقوه» و «إليه» متعلّق بـ «منيبين». و الواو عاطفة و «اتّقوا» فعل أمر لجمع المذكّر المخاطب من باب الإفتعال، و «ه» في موضع نصب، مفعول به، و الجملة معطوفة على «أقيموا...» أو «أنيبوا» المقدّرة لا محلّ لها، و الواو عاطفة، و «أقيموا» فعل أمر لجمع المذكّر المخاطب من باب الإفعال، و أصله «أقوموا» فثقلت الكسرة على الواو فنقلت إلى ما قبلها، فقلبت الواو ياءً لكسر ما قبلها، و «الصّلاة» مفعول به و الجملة معطوفة على «أقيموا» لا محلّ لها

و الواو عاطفة، و «لا» ناهية جازمة و «تكونوا» فعل مضارع ناقص لجمع المذكّر المخاطب، مجزوم بحذف النّون و «من المشركين» خبر «تكونوا» و الجملة معطوفة على جملة «أقيموا» لا محلّ لها.

٣٢ـ﴿من الّذين فرّقوا دينهم و كانوا شيعاً كلّ حزب بما لديهم فرحون﴾

في «من الّذين» وجهان: **أحدهما** ـ بدل من «المشركين» بإعادة الجار، تغيير عن الاسمآء إلى حزب من أحزاب المشركين، بيان أنّ لكلّ على الضّلال المبين و المعنى و لاتكونوا من المشركين من جملة الّذين فرّقوا دينهم. **ثانيهما** ـ ابتداء، تقديره: الّذين فرّقوا و كانوا شيعاً أي أوقعوا في دينهم الاختلاف، فصاروا ذوي مذاهب مختلفة و أحزاب متضادّة. و من المحتمل أن يكون «من الّذين فرّقوا...» بدلاً من «المشركين»

و «فرّقوا» فعل ماضٍ لجمع المذكّر الغائب، صلة الموصول لا محلّ لها. و «دينهم» مفعول به، و «كانوا» فعل ماضٍ ناقص، و واو الجمع اسمه، و «شيعاً» جمع الشّيعة، خبرها، والجملة معطوفة على جملة «فرّقوا دينهم» لا محلّ لها.

و «كلّ حزب» مبتدأ، و «ما» اسم موصول، مجرور بالباء، متعلّق بـ«فرحون»، و هو خبر المبتدأ، و «لديهم» ظرف مبنيّ على السّكون في موضع نصب متعلّق بمحذوف، صلة الموصول لا محلّ لها. و في جملة «كلّ حزب...» وجوه: أحدها ـ مستأنفة لا محلّ لها. ثانيها ـ في موضع نصب على أنّها نعت «شيعاً» بتقدير العائد، أي كلّ حزب منهم. ثالثها ـ في موضع نصب، حال. رابعها ـ أنّ «فرحون» نعت لـ«كلّ» و «من الّذين فرّقوا» الخبر، فيكون «من الّذين...» منقطعاً عمّا قبله.

٣٣ـ (و إذا مسّ النّاس ضرٌّ دعوا ربّهم منيبين إليه ثمّ إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربّهم يشركون)

الواو مستأنفة، و «إذا» ظرف مستقبل، متضمّن معنى الشّرط، و «مسّ» فعل ماضٍ في موضع جرّ، مضاف إليه، و «النّاس» مفعول به مقدّم، و «ضرّ» فاعل مؤخّر، و جملة «إذا مسّ النّاس ضرّ» مستأنفة لا محلّ لها. و «دعوا» فعل ماضٍ لجمع المذكّر الغائب، جواب شرط غير جازم لا محلّ لها، و «ربّهم» مفعول به، و «منيبين» حال من فاعل «دعوا» و «إليه» متعلّق بـ«منيبين» و «ثمّ» حرف عطف للتّرتيب و التّراخي، و «إذا» الثّانية شرطيّة أيضاً، و «أذاق» فعل ماضٍ للمفرد المذكّر الغائب من باب الإفعال، و فاعله ضمير مستتر فيه، راجع إلى «ربّهم» و «هم» في موضع نصب مفعول به و الجملة في موضع جرّ لإضافة «إذا» إليها.

و «منه» متعلّق بمحذوف، حال من «رحمة» لأنّ «منه» كان في الأصل نعتاً لـ«رحمة» و لمّا قدّم عليها، صار حالاً، و «رحمة» مفعول به ثانٍ، و «إذا» الثّالثة فجائيّة، و هي رابطة لجواب «إذا» الاولى بشرطها، فهي تخلف الفاء في الرّبط، و «فريق» مبتدأ و «منهم»

متعلّق بمحذوف هو نعت «فريق» و «بربّهم» متعلّق بـ«يشركون» فعل مضارع لجمع المذكّر الغائب من باب الإفعال خبر «فريق»، و جملة «فريق ...» جواب شرط غير جازم لا محلّ لها

٣٤ـ ﴿ليكفروا بما آتيناهم فتمتّعوا فسوف تعلمون﴾

في اللام وجهان: أحدهما ـ أنّه تعليلية و حرف جرّ و ناصبة بمعنى «كي» و «يكفروا» فعل مضارع لجمع المذكّر الغائب منصوب بـ«أن» المضمرة بعد اللام، و جملة «يكفروا» صلة الموصول الحرفي لا محلّ لها و المصدر المؤوّل «أن يكفروا» في موضع جرّ باللام متعلّق بـ«يشركون». ثانيهما ـ لام الأمر، و معناه التهديد و الوعيد، و الفعل مجزوم بها و مثله بمعنى التّهديد و الوعيد قوله: «فتمتّعوا»

و «ما» إسم موصول، مجرور بالباء متعلّق بـ«يكفروا» و «آتينا» فعل ماضٍ للمتكلّم مع الغير من باب الإفعال، صلة الموصول لا محلّ لها، و «هم» في موضع نصب مفعول به أوّل، و مفعول به ثانٍ محذوف، تقديره «آتيناهموه» و هو عائد الصّلة

و في الفاء وجوه: أحدها ـ استئنافية، و «تمتّعوا» فعل أمر لجمع المذكّر المخاطب من باب التفعّل، و الجملة مستأنفة لا محلّ لها. ثانيها ـ عاطفة، و جملة «تمتّعوا» معطوفة على جملة «ليكفروا». ثالثها ـ تفريعية متفرّعة على ما قبلها. رابعها ـ سببيّة

و في الفاء الثّانية وجهان: أحدهما ـ تعليلية، و «سوف» حرف استقبال و تسويف، و «تعلمون» فعل مضارع لجمع المذكّر المخاطب و مفعوله محذوف أي عاقبة تمتّعكم، و جملة «سوف تعلمون» تعليلية لا محلّ لها. ثانيهما ـ واقعة في جواب الأمر

٣٥ـ ﴿أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلّم بما كانوا به يشركون﴾

«أم» حرف عطف منقطعة، فهي بمعنى «بل» و الهمزة الّتي للإنكار، و «أنزلنا» فعل ماضٍ للمتكلّم مع الغير، و «عليهم» متعلّق بـ«أنزلنا» و «سلطاناً» مفعول به، و جملة «أنزلنا» مستأنفة لا محلّ لها

والفاء عاطفة، و«هو» مبتدأ، و«يتكلّم» فعل مضارع مفرد المذكّر الغائب من باب التفعّل، في موضع رفع، خبر «هو» والجملة معطوفة على جملة «أنزلنا» لا محلّ لها. و في «ما» وجهان: أحدهما ـ اسم موصول مجرور بالباء، متعلّق بـ«يتكلّم»، و«كانوا» فعل ماضٍ ناقص و اسمها، و«به» متعلّق بـ«يشركون» في موضع نصب، خبر «كانوا»، و جملة «كانوا ...» صلة الموصول لا محلّ لها. ثانيهما ـ مصدريّة، و المصدر المؤوّل «كونهم ...» مجرور بالباء متعلّق بـ«يتكلّم».

٣٦ـ ﴿و إذا أذقنا النّاس رحمة فرحوا بها و إن تصبهم سيّئة بما قدّمت أيديهم إذا هم يقنطون﴾

الواو عاطفة، و«إذا» ظرف مستقبل، متضمّن لمعنى الشرط، أضيف إلى جملة «أذقنا»، «أذقنا» فعل ماضٍ لمتكلّم مع الغير من باب الإفعال في موضع جرّ مضاف إليه، و جملة «إذا أذقنا» معطوفة على جملة «إذا مسّ النّاس ضرّ»، و«النّاس» مفعول به أوّل، و«رحمة» مفعول به ثانٍ، و«فرحوا» فعل ماضٍ لجمع المذكّر الغائب، جواب شرط غير جازم، لا محلّ لها، و«بها» متعلّق بـ«فرحوا»، و«إن» حرف شرط جازم، و«تصب» فعل مضارع من باب الإفعال، مجزوم بحرف الشرط «إن»، و علامة الجزم حذف عين الفعل «الياء»، و«هم» في موضع نصب، مفعول به، و«سيّئة» فاعل الفعل، و الجملة معطوفة على جملة «أذقنا ...»، و يجوز أن تكون معطوفة على جملة «إذا مسّ النّاس ضرّ».

و في «ما» وجهان: أحدهما ـ اسم موصول، مجرور بالباء، متعلّق بـ«تصب»، و«قدّمت» فعل ماضٍ من باب التفعيل، و«أيديهم» فاعل الفعل، و الجملة صلة الموصول لا محلّ لها.

ثانيهما ـ مصدريّ، و المصدر المؤوّل «ما قدّمت أيديهم» مجرور بالباء، متعلّق بـ«تصب»، و«إذا» فجائيّة، و«هم» مبتدأ، و«يقنطون» في موضع رفع، خبر المبتدأ، و يجوز أن يكون «إذا» خبر ثانٍ و المعنى: و بالحضرة هم قانطون. و جملة «هم يقنطون» في موضع جزم، جواب الشرط المقترن بـ«إذا» الفجائيّة الّتي تنوب عن الفاء في ربط الجواب

بالشرط.

و«إذا» بمنزلة الفاء، لأنّه لا يبتدأ بها كما لا يبتدأ بالفاء، فلا يبتدأ بـ«إذا» الفجائية دون «إذا» الشرطية، التي يبتدأ بها، و لا تكون جواباً للشرط. فإذا الفجائية تشبه الفاء دون «إذا» الشرطية، و لذلك وقعت إذا الفجائية موقع الفاء، و صارت جواباً للشرط، دون «إذا» الشرطية، و قد تدخل الفاء على إذا الفجائية في جواب الشرط للتأكيد فتأمّل واغتنم.

٣٧ـ﴿أولم يروا أنّ الله يبسط الرّزق لمن يشاء و يقدر إنّ في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾

همزة للاستفهام الإنكاري لقصد التقرير، و الواو عاطفة على محذوف يقتضيه السّياق و «لم» حرف جحد و نفي و جزم، و «يروا» فعل مضارع، مجزوم بـ«لم» و علامة الجزم، حذف نون الرّفع، و جملة «لم يروا» معطوفة على جملة مستأنفة مقدّرة، أي «أعملوا و لم يروا؟!»

و «أنّ» حرف توكيد، و «الله» اسمها، و «يبسط» فعل مضارع في موضع رفع، خبر «أنّ» والمصدر المؤوّل «أنّ الله يبسط» في موضع نصب سدّ مسدّ مفعولي «يروا» و «الرّزق» مفعول به، و «من» اسم موصول، مجرور باللام، متعلّق بـ«يبسط» و «يشاء» صلة الموصول لا محلّ لها، و «يقدر» عطف على «يشاء» و «إنّ» حرف توكيد، و «في ذلك» متعلّق بمحذوف، خبر مقدّم، و اللّام في «لآيات» لام الابتداء للتوكيد، و «آيات» اسم «إنّ» و «لقوم» متعلّق بمحذوف، هو نعت لـ«آيات» و «يؤمنون» في موضع جرّ، نعت لـ«قوم».

٣٨ـ﴿فآت ذا القربى حقّه و المسكين و ابن السّبيل ذلك خير للّذين يريدون وجه الله و اولئك هم المفلحون﴾

الفاء رابطة لجواب شرط مقدّر، و «آت» فعل امر من باب الإفعال في موضع جزم، جواب الشرط المقدّر، و تقديره إن كان الرّزق بيد الله تعالى فآت

و «ذا» مضاف إلى «القربى» مفعول به أوّل و «حقّه» مفعول به ثانٍ، و «المسكين» و «ابن السبيل» معطوفان على «ذا القربى» و «ذلك» مبتدأ و «خير» خبره، و الجملة مستأنفة لا محلّ لها، و «للذين» متعلق بـ«خير» و «يريدون» فعل مضارع للجمع المذكر الغائب صلة الموصول لا محلّ لها و «وجه الله» مفعول به

و في الواو وجهان أحدهما ـ عاطفة و «أولئك» مبتدأ و «هم» ضمير فصل، و «المفلحون» خبر المبتدأ، و الجملة «أولئك ...» معطوفة على جملة «ذلك ...» لا محلّ لها ثانيهما ـ حالية، و «أولئك» مبتدأ و «هم» ضمير منفصل مبتدأ ثانٍ، و «المفلحون» خبر ثانٍ، و الجملة «هم المفلحون» خبر «أولئك» و الجملة «أولئك ...» في موضع نصب حال من فاعل «يريدون»

٣٩ـ (وما آتيتم من ربا ليربوا في أموال النّاس فلا يربو عندالله و ما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فاولئك هم المفلحون)

في الواو وجهان أحدهما ـ عاطفة ثانيهما ـ مستأنفة و «ما» شرطيّة في موضع نصب، مفعول به مقدّم لـ«آتيتم» فعل ماضٍ للجمع المذكر المخاطب من باب الإفعال، في موضع جزم، فعل الشرط و في «من ربا» وجهان أحدهما ـ متعلّق بمحذوف حال من «ما» ثانيهما ـ تمييز لـ«ما»، و اللام للتعليل و «يربوا» فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام لا محلّ لها، و المصدر المؤوّل من «يربوا» في موضع جرّ باللام متعلّق بـ«آتيتم» و «في أموال النّاس» متعلّق بـ«يربوا»

الفاء رابطة لجواب الشّرط، و «لا» نافية و «يربو» فعل مضارع مرفوع في موضع رفع، خبر مبتدأ محذوف تقديره هو يربو و الجملة الاسميّة في موضع جزم جواب الشّرط مقترنة بالفاء، و «عند» ظرف منصوب، متعلّق بـ«يربو» مضاف إلى «الله» و الواو عاطفة، و «ما آتيتم» إعرابه كالأولى، و معطوفة على الأولى

و في «تريدون» وجهان أحدهما ـ في موضع نصب، حال من فاعل «آتيتم» ثانيهما ـ في موضع جرّ، صفة لـ«زكاة» و الرابط محذوف أي تريدون وجه الله بها و الفاء

رفعه لكونه شرط اعتقاد و جملة «وأولئك هم المفلحون» كجملة «أولئك هم المفلحون».

۴۰ـ {الله الّذي خلقكم ثمّ رزقكم ثمّ يميتكم ثمّ يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيءٍ سبحانه و تعالى عمّا يشركون}

«الله» مبتدأ و «الّذي» اسم موصول و «خلق» فعل ماضٍ صلة الموصول لامحلّ لها و جملة «الّذي ...» في موضع رفع، خبر «الله» و يجوز أن تكون «الّذي» نعتاً للفظ الجلالة، و الخبر هو جملة «هل من شركائكم من يفعل» و الرابط هو «من ذلكم» و الإشارة إلى أفعاله تعالى و جملة «الله الّذي ...» مستأنفة لامحلّ لها و «كم» في موضع نصب مفعول به و «ثمّ» في المواضع الثلاثة حرف عطف للتراخي و «رزقكم» و «يميتكم» و «يحييكم» معطوفات على «خلقكم» لامحلّ لها.

و «هل» حرف استفهام للإنكار، و «من شركائكم» متعلّق بمحذوف خبر مقدّم و «من» اسم موصول، في موضع رفع مبتدأ مؤخّر و جملة «هل من شركائكم من يفعل» مستأنفة لامحلّ لها، و «يفعل» صلة الموصول لامحلّ لها و «من ذلكم» متعلّق بمحذوف حال من «شيء» لأنّه كان في الأصل صفة له، و «من» الثانية زائدة لأنّ النكرة في حيّز الاستفهام المتضمّن معنى النفي و «شيء» مجرور لفظاً، منصوب محلاً، مفعول به لـ «يفعل».

و «سبحانه» مفعول مطلق لفعل محذوف، منصوب، تقديره نسبّح سبحانه، و الجملة مستأنفة مسبّبة لما قبلها لامحلّ لها و «تعالى» فعل ماضٍ، و الجملة معطوفة على المستأنفة لامحلّ لها، و «ما» موصولة، مجرورة بـ «عن» متعلّق بـ «تعالى» و «يشركون» صلة الموصول لامحلّ لها، و العائد محذوف أي يشركونه

۴۱ـ {ظهر الفساد في البرّ و البحر بما كسبت أيدي النّاس ليذيقهم بعض الّذي عملوا لعلّهم يرجعون}

«ظهر» فعل ماضٍ، و «الفساد» فاعله و الجملة مستأنفة لامحلّ لها، و «في البرّ» متعلّق

«البرّ» و «البحر» معطوف على «البرّ» و في «ما» وجهان أحدهما ـ مصدريّة و «كسبت» فعل ماضٍ، و «أيدي» جمع يد أضيف إلى «الناس» فاعل «كسبت»، و المصدر المؤوّل: «ما كسبت...» مجرورة بالباء السّببيّة متعلّق بـ«ظهر»

ثانيهما ـ اسم موصول و «كسبت...» صلة الموصول لا محلّ لها، و العائد محذوف أي كسبته أيدي النّاس. و «لام» لام التعليل و «يذيق» فعل مضارع من باب الإفعال، منصوب بـ«أن» مضمرة بعد اللام، و الفاعل ضمير مستتر يعود على الله، و المفهوم من السّياق، و جملة «يذيق» صلة الموصول الحرفيّ لا محلّ لها و المصدر المؤوّل «أن يذيقهم» في موضع جرّ باللام متعلّق بـ«ظهر»، و «هم» في موضع نصب، مفعول به أوّل، و «بعض» أُضيف إلى «الّذي» مفعول به ثانٍ، و جملة «عملوا» صلة الموصول لا محلّ لها

و «لعلّ» حرف ترجٍّ، تعمل عمل «إنّ» و «هم» في موضع نصب، اسمها، و «يرجعون» في موضع رفع، خبرها، و جملة «لعلّهم يرجعون» مستأنفة لا محلّ لها

٤٢ـ (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبل كان أكثرهم مشركين)

«قل» فعل أمر، و الجملة مستأنفة لا محلّ لها. و «سيروا» فعل أمر لجمع المذكّر المخاطب، في موضع نصب، مقول القول، و «في الأرض» متعلّق بـ«سيروا» لبيان ظرفه، و «انظروا» فعل أمر في موضع نصب معطوف على «سيروا» و «كيف» اسم استفهام في موضع نصب، خبر «كان» و «عاقبة الّذين» اسم «كان»، و جملة «كان عاقبة...» في موضع نصب، مفعول به لفعل النّظر المعلّق بالاستفهام.

و «قبل» اسم ظرفيّ مبنيّ على الضّمّ في موضع جرّ بـ«من» متعلّق بمحذوف، صلة الموصول «الّذين» و «كان» فعل ماضٍ ناقص، و «أكثرهم» اسمها، و «مشركين» خبرها، و الجملة مستأنفة لا محلّ لها

٤٣ـ (فأقم وجهك للدّين القيّم من قبل أن يأتي يوم لا مردّ له من الله

يومئذ يصّدّعون)

«الفاء» فصيحة تفصح عمّا قبلها أي إذا كان الشرك بالله سخافة، والكفر بالله بهذه المثابة، و لكنه وبال سيلحق بمن يلتبس به «فأقم» فعل أمر من باب الإفعال و الجملة مستأنفة لا محلّ لها، و «وجهك» مفعول به و «للدين» متعلق بـ«أقم» و «القيّم» نعت لـ«الدين» و في «من قبل» وجهان أحدهما ـ متعلق بـ«أقم» ثانيهما ـ متعلق بمحذوف هو حال. و «أن» حرف مصدري، و «يأتي» منصوب لا محلّ له. والمصدر المؤوّل «أن يأتي» في موضع جرّ، مضاف إليه، متعلق بـ«أقم» و «يوم» فاعل «يأتي»

و «لا» نافية للجنس، و «مردّ» مصدر ميمي بمعنى ردّ و ردّ بمعنى رادّ اسم «لا» و «له» متعلق بمحذوف، هو خبر «لا» و «من الله» متعلق بمحذوف يدلّ عليه «مردّ». و يجوز أن يكون متعلقاً بـ«يأتي» أي يأتي من الله يوم لا مردّ له و الجملة في موضع رفع نعت لـ«يوم»

و في «يومئذ» وجهان أحدهما ـ ظرف منصوب متعلق بـ«يصّدّعون» فعل مضارع لجمع المذكر الغائب من باب التفعّل، فيه إبدال التاء صاداً و إدغامها في الصاد. أصله يتصدّعون على وزن يتفعّلون ثانيهما ـ حرف مبني على الفتح لإضافته إلى ظرف مبني هو «إذ» و التنوين فيه تنوين عوض عن المضاف إليه تقديره يوم إذ يأتي

٤٤ ـ (من كفر فعليه كفره و من عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون)

«من» اسم شرط جازم، في موضع رفع مبتدأ و «كفر» فعل ماض في موضع رفع، فعل الشرط، و جملة «من كفر» مستأنفة لا محلّ لها، و الفاء رابطة لجواب الشرط، و «عليه» متعلّق بمحذوف، خبر مقدّم و «كفره» على حذف مضاف أي جزاء كفره مبتدأ مؤخّر و جملة «عليه كفره» في موضع جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء

و الواو عاطفة و «من» الثاني كالأول، و «عمل» فعل ماض، في موضع رفع، خبر «من» الثاني. و في «صالحاً» وجهان أحدهما ـ مفعول به ثانيهما ـ نعت لمصدر محذوف أي عملاً صالحاً، و جملة «من عمل صالحاً» معطوفة على جملة «من كفر» لا محلّ لها و الفاء الثانية كالأولى و «لأنفسهم» متعلق بـ«يمهدون» في موضع رفع، خبر المبتدأ محذوف.

تقديره فهم يمهدون لأنفسهم، و الجملة الاسمية في موضع جزم جواب الشرط

و «على أنفسهم» و «لأنفسهم» متعلقان بفعل الاختصاص كل شخص بكسبه و

موجب عمله

٤٥ـ(ليجزي الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات من فضله إنّه لايحبّ الكافرين)

اللام للتعليل و حالية و «يجزي» فعل مضارع، منصوب بأن مضمرة بعد اللام لا محلّ لها، و فاعله ضمير مستتر فيه يرجع إلى «الله» و هو المستفاد من السّياق، و المصدر المؤوّل «أن يجزي» في موضع جرّ باللام و في تعلقه وجوه: أحدها ـ متعلّق بـ«يمهدون» ثانيها ـ متعلّق بـ«يصّدّعون» في الآية (٤٣) والمعنى يتفرّقون ليجزي المؤمنين من فضله و الكافرين بعدله ثالثها ـ متعلّق بمحذوف، و هو خبر لمبتدء محذوف تقديره ذلك كائن ليجزي

و «الّذين» موصول في موضع نصب مفعول به و «آمنوا» صلة الموصول لا محلّ لها، و الواو عاطفة و «عملوا» عطف على «آمنوا» و «الصّالحات» مفعول بها، و «من فضله» متعلّق بـ«يجزي» و «إنّ» حرف توكيد و «ه» في موضع نصب، اسمها، و «لا» نافية، و «يحبّ» فعل مضارع من باب الإفعال فاعله ضمير مستتر يرجع إلى «الله» و «الكافرين» مفعول به، و جملة «لا يحبّ» في موضع رفع خبر «إنّ» و جملة «إنّه لا يحبّ» لا محلّ لها، لأنّها تعليل لمقدّر أي يجزي الكافرين لأنّه لايحبّهم

٤٦ـ(و من آياته أن يرسل الرّياح مبشّرات و ليذيقكم من رحمته و لتجري الفلك بأمره و لتبتغوا من فضله و لعلّكم تشكرون)

الواو استئنافية و «من آياته» متعلّق بمحذوف، خبر مقدّم، و المصدر المؤوّل «أن يرسل» في موضع رفع، مبتداء مؤخّر و «الرّياح» مفعول به، و جملة «من آياته (إرسال الرّياح)» مستأنفة لا محلّ لها، و «مبشّرات» حال منصوبة من «الرّياح» و علامة النّصب

فيها الكسرة، و الواو عاطفة و اللام للتعليل «أن يذيقكم» في موضع جرّ باللام و في تعليقه وجوه: أحدها ـ متعلّق بفعل مقدّر أي يرسلها ليذيقكم ثانيها ـ متعلّق بما تعلّق به ما عُطِف عليه مقدّراً أي يرسل الرياح مبشرات بالمطر لتستبشروا به و ليذيقكم ثالثها ـ جملة «ليذيقكم» معطوفة على «مبشّرات» لأنّ الحال و الصفة تتساويان في إفهام العلّة، فكان التقدير يرسل الرياح لتبشّركم بها و ليذيقكم. رابعها ـ متعلّق بمحذوف، تقديره و ليكون كذا و كذا أرسلها و ليذيقكم

و «من رحمته» متعلّق بـ«يذيقكم» و الواو عاطفة و جملة «تجري» معطوفة على ما عطفت عليه جملة «ليذيقكم» و «الفلك» فاعل «تجري» و «بأمره» متعلّق بـ«تجري» و «لتبتغوا» مثل «لتجري» و «من فضله» متعلّق بـ«تبتغوا» و الواو عاطفة و «لعلّ» حرف ترجٍّ، و «كم» في موضع نصب إسمها و «تشكرون» في موضع رفع، خبرها و جملة «لعلّكم ...» لا محلّ لها معطوفة على تعليل مقدّر أي فعل ذلك كلّه لعلّكم تعقلون و لعلّكم تشكرون

٤٧ـ [و لقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاؤوهم بالبيّنات فانتقمنا من الّذين أجرموا و كان حقّاً علينا نصر المؤمنين]

الواو استئنافيّة، و اللام لام القسم المقدّر، و «قد» حرف تحقيق و «أرسلنا» فعل ماضٍ للمتكلّم مع الغير معلوم، و جملة «أرسلنا» جواب القسم المقدّر لا محلّ لها، و جملة القسم المقدّر و جوابه و ما عطف عليه مستأنفة عن إعرابه لا محلّ لها و في «من قبلك» وجهان أحدهما ـ متعلّق بمحذوف، هو حال من «رسلاً» ثانيهما ـ متعلّق بـ«أرسلنا» و «رسلاً» مفعول به، و «إلى قومهم» متعلّق بـ«أرسلنا»

الفاء عاطفة، و «جاؤوا» فعل ماضٍ لجمع المذكّر الغائب، و «هم» في موضع نصب، مفعول به، و في «بالبيّنات» وجهان: أحدها ـ متعلّق بـ«جاؤوا» ثانيهما ـ متعلّق بمحذوف، هو حال من فاعل «جاؤوا» و جملة «جاؤوا» معطوفة على «أرسلنا» لا محلّ لها و الفاء عاطفة و «انتقمنا» فعل ماضٍ للمتكلّم مع الغير معلوماً من باب الافتعال، و في عطف

جملة «انتقمنا» وجهان أحدهما ـ معطوفة على جملة «جاؤوهم» لا محلّ لها ثانيهما ـ معطوفة على محذوف، تقديره فكذّبوهم فاستحقّوا العذاب فانتقمنا و«من الّذين» متعلّق بـ«انتقمنا»، و«أجرموا» فعل ماضٍ لجمع المذكّر الغائب من باب الإفعال صلة الموصول لا محلّ لها

و في الواو وجهان أحدهما ـ مستأنفة فجملة مستأنفة لا محلّ لها ثانيهما ـ عاطفة و مدخولها معطوفة على جملة فعليّة مقدّرة لا محلّ لها و«حقّاً» خبر «كان» و «علينا» متعلّق بـ«حقّاً» و«نصر» مضاف إلى «المؤمنين» اسم «كان» و في إعراب الجملة وجوه أُخر لا فائدة لذكرها

٤٨ـ اللّه الّذي يرسل الرّياح فتثير سحاباً فيبسطه في السّمآء كيف يشآء و يجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشآء من عباده إذا هم يستبشرون،

«اللّه» مبتدأ، و «الّذي» موصولة و «يرسل» صلة الموصول لا محلّ لها، و «الرّياح» مفعول به، و جملة «الّذي ...» في موضع رفع، خبر المبتدأ، و جملة «اللّه الّذي ...» مستأنفة لا محلّ لها، و الفاء ـ في المواضع الأربعة ـ عاطفة و «تثير» فعل مضارع من باب الإفعال فاعله ضمير مستتر فيه، راجع إلى «الرّياح» و «سحاباً» مفعول به، و جملة «تثير» معطوفة على «يرسل» و جملة «يبسط» معطوفة على جملة «تثير» و الضمير «ه» في موضع نصب مفعول به راجع إلى «سحاباً» و «في السّمآء» متعلّق بـ«يبسط»

و «كيف» اسم شرط و بمعنى غير جازم في موضع نصب، و فيه وجهان أحدهما ـ حال لفعل بعده، عامله «يشآء» و جوابه محذوف دلّ عليه ما قبله تقديره كيف يشآء بسطه يبسطه في السّمآء، فحذف «بسطه» لأنّه مفعول «يشآء» و مفعوله يحذف غالباً ثمّ حذف «يبسطه» لدلالة «يبسطه» الأوّل عليه و المعنى على أيّ حال شآء اللّه تعالى بسطه يبسطه ثانيهما ـ مفعول مطلق لـ«يشآء» فتقديره أيّ مشيئة يشاء بسطه يبسطه و جملة «يشآء» في موضع نصب، حال من فاعل «يبسطه»

الواو عاطفة، و جملة «يجعل» معطوفة على جملة «يبسط» و الضمير «ه» في موضع

نصب، مفعول به أوّل، و «كسفاً» جمع كسفة مفعول به ثانٍ، و جملة «ترى» معطوفة على جملة «يجعل» و «الودق» مفعول به، و «يخرج» في موضع نصب حال من «الودق» لأنّ الرؤية هنا بصرية. و «من خلاله» متعلّق بـ«يخرج» و «إذا» ظرف مستقبل، متضمّن لمعنى الشرط. و جملة «أصاب» فعل ماضٍ من باب الإفعال في موضع جرّ بإضافة الظرف إليها، و «به» متعلّق بـ«أصاب» و «من» اسم موصول في موضع نصب، مفعول به و «يشاء» صلة الموصول لامحلّ لها

و في «من عباده» وجهان أحدهما ـ متعلّق بمحذوف هو حال من العائد المحذوف أي يشاء إصابته من عباده ثانيهما ـ هو تبيين للموصول «من». و «إذا» فجائية واقعة في جواب «إذا» الشرطية الاولى. و «هم» مبتدأ، و «يستبشرون» فعل مضارع لجمع المذكّر الغائب من باب الاستفعال، و الجملة في موضع رفع، خبر للمبتدأ، و جملة «هم يستبشرون» جواب شرط غير جازم لامحلّ لها

٤٩ ـ {و إن كانوا من قبل أن ينزّل عليهم من قبله لمبلسين}

في الواو وجهان أحدهما ـ حالية ثانيهما ـ عاطفة و «إن» مخفّفة من الثقيلة، مهملة أو عاملة في ضمير شأن محذوف و «كانوا» فعل ناقص و اسمها، و جملة «كانوا ...» في موضع نصب، حال، على توجيه الأوّل، و معطوفة على ما قبلها فلا محلّ لها على الوجه الثاني و في «من قبل» وجهان أحدهما ـ متعلّق بمحذوف، حال ثانيهما ـ متعلّق بـ «مبلسين» و «أن» حرف مصدريّ، و «ينزّل» فعل مضارع من باب التفعيل، مبنيّ للمفعول، صلة للموصول الحرفيّ لامحلّ لها. و نائب الفاعل ضمير مستتر فيه، راجع إلى «الودق» و «عليهم» متعلّق بـ«ينزّل» و المصدر المؤوّل «أن ينزّل» في موضع جرّ لإضافة «قبل» إليه

و في «من قبله» وجوه أحدها ـ تكرير و توكيد لـ«من قبل» الاولى ثانيها ـ أنّ الأوّل من قبل نزول المطر و الثاني من قبل إرسال الرياح و من قبل السحاب

فالضمير في «قبله» راجع إلى «السحاب» لأنّ السحاب جمع سحابة، فجرى مجرى

النحل والجنّ قال الله تعالى «يزجي سحاباً ثم يؤلّف بينه» النور ٤٣، و«السحاب» يجوز تذكيره وتأنيثه ثلاثتها ... من قبل السحاب، من قبل رؤية السحاب وفيه وجوه أُخر لا فائدة لذكرها والفاء تفريعية و«مبلسين» خبر «كانوا».

٥٠ـ ﴿فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إنّ ذلك لمحيي الموتى وهو على كلّ شيءٍ قدير﴾

الفاء رابطة لجواب شرط مقدّر. و«انظر» فعل أمر في موضع جزم، جواب الشرط المقدّر تقديره: إن شئت أن ... فانظر إلى آثار ... أو إن أردت أن تعرف ما يترتب على نزول المطر فانظر إلى آثار رحمة الله. و«آثار» جمع أثر مضاف إلى «رحمة» المضاف إلى «الله» مجرور بـ«إلى» متعلق بـ«انظر» و«كيف» اسم استفهام في موضع نصب على الحال، وهي معلّقة لـ«انظر» عن العمل، وفاعله «يحيي» فعل مضارع مرفوع من باب الأفعال، و«الأرض» مفعول به، وجملة «يحيي الأرض» في موضع نصب حال من لفظ الجلالة.

وأصل المعنى انظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض فالمقصود الاستفهام ... «كيف» كما يبدو منصوب على نزع الخافض ولكن صحّ الإعراب ... أولاً ... بدل من «آثار رحمة الله» فهي في حيّز النصب بنزع الخافض، والمعنى بعد كلّ هذا فانظر إلى إحيائه البديع للأرض بعد موتها. و«بعد» ظرف منصوب متعلق بـ«يحيي» مضاف إلى «موتها».

«إنّ» حرف توكيد ونصب ناسخ و«ذلك» في موضع نصب اسمها واللام المزحلقة و«محيي» اسم فاعل مضاف إلى «الموتى» خبرها، وجملة «إنّ ذلك ...» مستأنفة لا محلّ لها. والواو عاطفة، و«هو» مبتدأ و«على كلّ شيءٍ» متعلق بـ«قدير» و«قدير» خبر «هو» وجملة «هو...» معطوفة على جملة «إنّ ذلك ...» لا محلّ لها.

٥١ـ ﴿ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفرّاً لظلّوا من بعده يكفرون﴾

في الواو وجهان: أحدهما ـ عاطفة، و ما بعدها معطوفة على ما قبلها. ثانيهما ـ استئنافية، و مدخولها مستأنفة لا محلّ لها. و اللام موطئة للقسم داخلة على حرف الشرط و «إن» و «أرسلنا» فعل ماضٍ ساكنة مع نا المعظم نفسه في موضع جزم فعل الشرط، في معنى «نرسل» لوقوعه في حيّز الشرط، و «ريحًا» مفعول به، و الفاء فصيحة عاطفة، و «رأوا» فعل ماضٍ لجمع المذكّر الغائب معطوفة على «أرسلنا» لا محلّ لها، و الضمير «ه» في موضع نصب مفعول به، و «مصفرًّا» اسم مفعول، حال من الضمير «ه» راجع إلى «الريح» أو إلى الزرع و السحاب، و الثاني مفهوم من السياق

و اللام واقعة في جواب القسم، و «ظلّوا» فعل ماضٍ ناقص، و الواو اسمها، و وضع الماضي موضع المستقبل تقديره ليظلّنّ لأنّ الكلام على الجزاء و الجزاء لا يكون إلّا مستقبلا، و لأنّ جميع [illegible] من هذه [illegible] قوله تعالى و على جميعهم [illegible]

و جملة «ظلّوا» جواب القسم لا محلّ لها، و جواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم، و اغني عنه حسب القاعدة المشهورة

و حذف لدى اجتماع شرط و قسم   جواب ما أخّرت فهو ملتزم

و في «من بعده» وجهان: أحدهما ـ متعلّق بـ«يكفرون»، و الضمير في «بعده» راجع إلى إرسال الرّيح. ثانيهما ـ متعلّق بمحذوف، حال، و الضمير راجع إلى الصفرة أو زرعهم أو من بعد كونهم راجين مستبشرين، و «يكفرون» في موضع نصب، خبر «ظلّوا»

۵۲ـ «فإنّك لاتسمع الموتى و لاتسمع الصمّ الدّعاء إذا ولّوا مدبرين»

الفاء تعليلية، و «إنّ» حرف توكيد، مشبهة بالفعل، و الكاف في موضع نصب اسمها، و «لا» نافية، و «تسمع» فعل مضارع للمفرد المذكّر المخاطب من باب الإفعال، في موضع رفع، خبر «إنّ»، و «الموتى» مفعول به أوّل، و جملة «إنّك لا تسمع الموتى» تعليل لمحذوف، تقديره: لاتجزع و لاتحزن على كفرهم، فإنّهم بكفرهم صاروا صمًّا كالموتى، و جملة

«لا تسمع» الثانية معطوفة على جملة «لا تسمع» الأولى و«الصمّ» مفعول به أوّل لـ«تسمع» الأوّل، و«الدعاء» مفعول به ثانٍ لـ«تسمع» الثاني، ويجوز أن يكون المفعول الثاني لـ«تسمع» الأوّل ضميراً يعود على المفعول الثاني لـ«تسمع» الثاني على سبيل التنازع و«إذا» ظرف مستقبل متعلّق بـ«تسمع» و«ولّوا» فعل ماضٍ لجمع المذكّر الغائب، مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين والواو فاعل، و«مدبرين» حال مؤكّدة لعامل «ولّوا» منصوب، وجملة «ولّوا» في موضع جرّ لإضافة «إذا» إليها وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله، ويجوز تجريده من معنى الشرط وحينئذ يتعلّق بـ«تسمع» المتقدّم

٥٣ـ (وما أنت بهاد العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون)

الواو عاطفة، و«ما» نافية حجازية تعمل عمل «ليس» و«أنت» ضمير منفصل اسم «ما»، و«هاد» اسم فاعل مجرور لفظاً بالباء الزائدة لفظاً، ومنصوب محلّاً خبر «ما» وعلامة الجرّ هي الكسرة المقدّرة على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين مع التنوين في الوصل، وجملة «ما أنت» معطوفة على جملة «إنّك لا تسمع» لا محلّ لها، و«عن ضلالتهم» متعلّق بـ«هاد» بتضمينه معنى صارف

و«إن» نافية، و«تسمع» كالأولى، وجملة «إن تسمع» مستأنفة أو تعليلية لا محلّ لها، و«إلّا» أداة حصر و«من» اسم موصول في موضع نصب مفعول به، و«يؤمن» صلة الموصول لا محلّ لها، و«بآياتنا» متعلّق بـ«يؤمن» والفاء عاطفة، و«هم» مبتدأ و«مسلمون» خبره وجملة «هم مسلمون» في موضع رفع، معطوفة على جملة «يؤمن»

٥٤ـ (الله الّذي خلقكم من ضعف ثمّ جعل من بعد ضعف قوّة ثمّ جعل من بعد قوّة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير)

«الله» مبتدأ و«الّذي» موصولة، و«خلق» فعل ماضٍ صلة الموصول لا محلّ لها، و

«كم» في موضع نصب، مفعول به، و جملة «أنّى خلقكم» في موضع رفع، خبر «الله» و جملة «الله الّذي...» مستأنفة لا محلّ لها و«من» ابتدائيّة، و «ضعف» مجرور بها، متعلّق بـ«خلق» و «ثمّ» حرف عطف للتراخي، و جملة «جعل» معطوفة على جملة «خلقكم» لامحلّ لها و «من بعد ضعف» متعلّق بمحذوف، مفعول به ثان لـ«جعل» الأولى، و «قوّة» مفعول به ثاني

و «ثمّ» عاطفة، و جملة «جعل» الثّانية معطوفة على جملة «جعل» الأولى و «من بعد قوّة» متعلّق بمحذوف، مفعول به أوّل، و «ضعفاً» مفعول به ثان

و «شيبة» عطف نسقيّ على «ضعفاً» و «يخلق» فعل مضارع، و في موضعه وجوه أحدها ـ مستأنفة لا محلّ لها ثانيها ـ في موضع رفع خبر ثان لـ«الله» ثالثها ـ في موضع نصب حال من «الله»

و «ما» اسم موصول في موضع نصب مفعول به، و «يشاء» صلة الموصول لامحلّ لها، والعائد محذوف، و في «و هو» وجهان أحدها ـ عاطفة و «هو» مبتدأ و «العليم» خبره، و «القدير» خبر ثان و جملة «هو...» معطوفة على جملة «يخلق» و إعرابها كإعرابها ثانيها ـ حاليّة، و جملة «هو...» في موضع نصب، حال من فاعل «يخلق»

۵۵ـ (و يوم تقوم السّاعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون)

الواو استئنافيّة، و «يوم» ظرف زمان، منصوب، متعلّق بـ«يقسم» «يقسم» فعل مضارع من باب الإفعال، و جملة «تقوم السّاعة» في موضع جرّ بإضافة الظّرف إليها، و «المجرمون» فاعل «يقسم» و جملة «يقسم المجرمون» مستأنفة لا محلّ لها، و «ما» نافية، و «لبثوا» فعل ماضٍ لجمع المذكّر الغائب لا محلّ لها لأنّها وقعت في جواب القسم المقدّر، و «غير ساعة» ظرف منصوب متعلّق بـ«لبثوا»

و في «كذلك» وجهان أحدها ـ متعلّق بمحذوف، مفعول مطلق، عامله «يؤفكون» ثانيها ـ نعت لمصدر محذوف أي يصرفون عن الحقّ و هو الصّدق كما صرفوا عن الحقّ و

هو البعث و «كانوا» فعل ماضٍ ناقص، و اسمه، و «يؤفكون» فعل مضارع للجمع المذكّر الغائب، مبنيّ للمفعول، في موضع نصب، خبر «كانوا» و جملة «كانوا ...» مستأنفة لا محلّ لها

٥٦ـ[و قال الّذين اوتوا العلم و الايمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث و لكنّكم كنتم لاتعلمون]

الواو عاطفة، و «قال» فعل ماضٍ و «الّذين» موصول في موضع رفع، فاعل «قال» و جملة «قال الّذين ...» معطوفة على جملة «يقسم المجرمون» و «اوتوا» فعل ماضٍ لجمع المذكّر الغائب، مبنيّ للمفعول، صلة الموصول لا محلّ لها، و الواو في «اوتوا» مفعول به أوّل نائب مناب الفاعل، و «العلم» مفعول به ثانٍ و «الايمان» عطف على «العلم»، و اللام لام جواب لقسم مقدّر، و «قد» حرف تحقيق، و «لبثتم» فعل ماضٍ لجمع المذكّر المخاطب و جملة «لقد لبثتم» جواب القسم المقدّر، و جملة القسم المقدّر في موضع نصب مفعول لقول «قال».

و في «في كتاب الله» وجهان أحدهما ـ متعلّق بمحذوف، حال أي مكتوبة في علم الله و قدره ثانيهما ـ متعلّق بـ«لبثتم» بحذف مضاف أي في مقدار كتاب الله و «إلى يوم البعث» متعلّق بـ«لبثتم» و في الفاء وجهان أحدهما ـ عاطفة، و مدخولها معطوفة على ما قبلها، و للتعقيب ذكري أو تعقيبيّة ثانيهما ـ رابطة لجواب شرط مقدّر فهي فصيحة، تفصح عن الشرط المقدّر، تقديره إن كنتم منكرين للبعث فهذا يوم البعث أي فقد تبيّن لكم بطلان إنكاركم و جملة «هذا يوم البعث» في موضع نصب، معطوفة على جملة مقول القول

و في الواو وجهان أحدهما ـ حاليّة و مدخولها في موضع نصب حال من فاعل «لبثتم» ثانيهما ـ عاطفة و مدخولها في موضع نصب، معطوفة على جملة مقول القول و «لكنّ» حرف استدراك، و «كم» في موضع نصب، اسمها، و «لاتعلمون» في موضع نصب، خبر «كنتم» و جملة «كنتم لاتعلمون» في موضع رفع خبر «لكنّ»

٥٧ـ﴿فيومئذ لا ينفع الّذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون﴾

الفاء عاطفة، و«يومئذ» كلمة مركبة من كلمتين تشمل مدة نصب وفتحة بعد، و«يوم» ظرف مبنيّ على الفتح لإضافته إلى مبنيّ متعلق بـ«ينفع» و«إذ» تنوين عوض عن الجملة المضاف إليها المحذوفة والتقدير يوم إذ تقوم الساعة. و«لا» نافية، و«ينفع» فعل مضارع، و«الذين» موصولة في موضع نصب مفعول به مقدَّم، و«ظلموا» صلة الموصول لا محلّ لها، و«معذرتهم» فاعل «ينفع»، وجملة «لا ينفع» معطوفة على جملة «يقسم المجرمون» لا محلّ لها.

والواو عاطفة، و«لا» نافية، و«هم» مبتدأ، و«يستعتبون» فعل مضارع لجمع المذكّر الغائب، مبنيّ للمجهول من باب الاستفعال، والجملة في موضع رفع خبر «هم»، وجملة «لا هم يستعتبون» معطوفة على جملة «لا ينفع» لا محلّ لها.

٥٨ـ﴿ولقد ضربنا للنّاس في هذا القرآن من كلّ مثل ولئن جئتهم بآية ليقولنّ الّذين كفروا إن أنتم إلاّ مبطلون﴾

الواو استئنافية، واللام موطّئة للقسم، و«قد» حرف تحقيق، و«ضربنا» فعل ماضٍ للمتكلّم مع غيره لفظاً، و«للناس» متعلق بـ«ضربنا»، وجملة «قد ضربنا» جواب قسم مقدّر لا محلّ لها، وجملة القسم المقدّر مستأنفة لا محلّ لها، وفي «هذا» وجهان: أحدهما ـ متعلق بـ«ضربنا»، ثانيهما ـ متعلق بمحذوف، حال. وفي «القرآن» وجهان: أحدهما ـ بدل من «ذا»، ثانيهما ـ عطف بيان. وفي «من كلّ مثل» وجوه: أحدها ـ متعلق بـ«ضربنا»، ثانيها ـ متعلق بمحذوف، نعت للمفعول به المحذوف أي موعظة، والتقدير ضربنا موعظة كائنة من كلّ مثل، ثالثها ـ «من» تبعيضية و«من كلّ مثل» في موضع نصب على أنّه مفعول «ضربنا» أي وصفنا لهم كلّ صفة كأنّها مثل في غرابتها وطرافتها.

والواو عاطفة، واللام موطّئة للقسم، و«إن» حرف شرط جازم، و«جئتهم» فعل وفاعل ومفعول به في موضع جزم فعل الشرط، وجملة «جئتهم» معطوفة على جملة القسم المقدّرة لا محلّ لها، وفي «بآية» وجهان: أحدهما ـ متعلق بـ«جئتهم»، ثانيهما ـ متعلق بمحذوف، حال من فاعل «جئت».

واللام واقعة في جواب القسم، و«يقولنّ» فعل مضارع، مبنيّ على الفتح لاتّصاله بنون

لتوكيد التنبيه، و «الّذين» موصولة في موضع رفع فاعل «يقول» و «كفروا» صلة الموصول لا محلّ لها و جملة «ليقولنّ الّذين» جواب القسم المقدّر الّتي لا محلّ لها، و «إن» نافية، و «أنتم» مبتدأ و «إلاّ» أداة حصر، و «مبطلون» خبر «أنتم» و جملة «إن أنتم...» في موضع نصب، مقول القول

٥٩ـ﴿كذلك يطبع الله على قلوب الّذين لا يعلمون﴾

في «كذلك» وجهان: أحدهما ـ متعلّق بمحذوف، مفعول مطلق عامله «يطبع» ثانيهما ـ نعت لمصدر محذوف أي مثل ذلك الطّبع يطبع الله و جملة «يطبع الله...» استئنافية لا محلّ لها، و «على قلوب» متعلّق بـ «يطبع» و «قلوب» مضاف إلى «الّذين» موصولة، و «لا» نافية، و «يعلمون» صلة الموصول لا محلّ لها

٦٠ـ﴿فاصبر إنّ وعد الله حقّ و لا يستخفّنّك الّذين لا يوقنون﴾

الفاء فصيحة، رابطة لجواب شرط مقدّر و مفصح عنه، و «اصبر» فعل أمر و جملة «اصبر» في موضع جزم جواب الشّرط المقدّر، تقديره إن قال الكافرون ذلك و إذا علمت أنّ حالهم هذه فمآله فاصبر و «إنّ» حرف توكيد و «وعد الله» اسمها، و «حقّ» خبرها، و جملة «إنّ وعد الله حقّ» تعليلية للأمر بالصّبر لا محلّ لها

الواو عاطفة، و «لا» ناهية جازمة، و «يستخفّنّ» فعل مضارع مبنيّ على الفتح لاتصاله بنون التّوكيد الثّقيلة، في موضع جزم، و «النّون» للتوكيد و الكاف في موضع نصب مفعول به و «الّذين» موصولة في موضع رفع، فاعل «يستخفّنّ» و جملة «لا يستخفّنّك الّذين...» معطوفة على جملة «اصبر» و محلّها كمحلّها، و «لا» نافية و «يوقنون» فعل مضارع لجمع المذكّر الغائب من باب الإفعال، صلة الموصول لا محلّ لها

﴿البيان﴾

١ـ (الــــم)

رمز من رموز الوحي السّماوي، و سرّ من الأسرار الإلهيّة التي بين الله جلّ و علا و أهل بيت وحيه المعصومين الذين هم الرّاسخون في العلم صلوات الله عليهم أجمعين، و لا فيه من شبهة و لا استرابة، [illegible] على من [illegible] [illegible] سور القرآن المجيد كما لا يخفى [illegible] أنّ هذه السّورة قد افتتحت [illegible] [illegible] الأحرف المقطّعة في [illegible] [illegible] بالبحث في موضوع سوى [illegible] المختصر، و [illegible] بعد الأحرف المقطّعة أعني (الم) من دون فاصل و [illegible] أنّ خلق هذه السّورة [illegible] بالحديث عن أمور [illegible] بعد هذه الأحرف [illegible] فتأمّل جيّداً

٢ـ (غُلبت الرّوم)

يخبر بانكسار الرّوم في [illegible] [illegible] إذ كانت موقعة كما ورد [illegible] الأردن و فلسطين، [illegible] كسرى ملك الفرس، حين [illegible] ملك الرّوم في عهد رسول الله ﷺ

٣ـ (في أدنى الأرض و هم من بعد غلبهم سيغلبون)

فيه دلالة على [illegible] [illegible]، و [illegible] و [illegible] قرب عاصمتهم، و

مقرّ ملكهم و حكومتهم، إلى أن وصل عدوّهم إلى طريق حجاز و كسروهم و هم في بلادهم و على قوّة عدوّهم و كثرة عددهم و عُددهم و عجزهم. و المراد بالأرض، أرض الروم لذكرهم، و الأقربيّة بالنظر إلى عدوّهم على الفرس لحديث [illegible] أقرب أرض الروم إلى أرض فارس [illegible] و العرب و الفرس.

و هذا لاينافي وقوع الوقعة بين الأذرعات و فلسطين [illegible] و هي أقرب البلاد في أرض الحجاز يوم ذاك.

و لايخفى على أهل البيان: ما بين الدنوّ و القرب من الفرق حيث إنّ الدنوّ لا يكون إلّا في المسافة بين الشيئين، تقول: [illegible] و القرب يكون في المكانة و غيرها، تقول: قلوبنا تتقارب، و لاتقول: تتدانى، و تقول: هو قريب بقلبه، و لاتقول: دانٍ بقلبه إلّا على بُعد. و من الفرق بين الأدنى و الأقرب، حيث إنّ نقيض الأدنى الأقصى، و نقيض الأقرب، الأبعد.

و قوله تعالى: «و هم من بعد غلبهم سيغلبون» إخبار [illegible] بأنّ الروم سيغلبون الفرس [illegible] بعد ضعفهم، [illegible] و يكثر العدد و العُدّة فيغلبوا على الفرس حتّى وصلوا إلى المدائن و بنوا هناك الرومية. و في ذلك تأكيد لغلبتهم من السين في «سيغلبون» و لكون مغلوبهم من كان غالبهم. و في بناء الجملة على الضمير «هم من بعد غلبهم» [illegible] الروم على الفرس مطلقاً.

٤- في بضع سنين لله الأمر من قبل و من بعد و يومئذ يفرح المؤمنون،

[illegible] في قلوب المشركين، [illegible] و لكنّه [illegible] و هي لاتردّد و لاتنكّس [illegible] من فرح المؤمنين، [illegible] على المؤمنين، غلبة الفرس على الروم، [illegible] هذه الآيات [illegible] و

فرحهم أنّه سيقع أمر هو شبه و نظير من غلبة الروم على الفرس، و هو غلبة المؤمنين على المشركين من جهة، و على الفرس من جهة أخرى، و أخبر به رسول الله ﷺ بعد أن مزّق كسرى كتابه ﷺ، و غلبة المسلمين على الروم من جهة ثالثة، حيث يمدّهم الله تعالى بنصره و يمنحهم عونه و تأييده، فتشتمل بالفرحة صدورهم، و تتحقّق لهم أسباب السرور و الحبور، و يهزم به المشركين و اضطراب قلوبهم و اغتمامهم بذلك من جهة رابعة، و لتصديق خبر الله تعالى و خبر رسوله ﷺ من جهة خامسة، و لكونه مقدّمة لنصر المؤمنين على المشركين من جهة سادسة

و قوله تعالى: «لله الأمر من قبل و من بعد» في تقديم الخبر على المبتدإ حصر أي لله وحده أمرهم، حال كونهم مغلوبين، و كونهم غالبين، فليس شيء منهم إلّا بمشيئة الله جلّ و علا، فالأمر كلّه لله عزّ و جلّ، و يوم غلبة الروم على الفرس يفرح المؤمنون بظهور صدق خبر الله تعالى و خبر رسوله ﷺ و بكونه مقدّمة لنصر المؤمنين على المشركين أوّلاً، و على الروم ثانياً و على الفرس ثالثاً

٥ـ (بنصر الله ينصر من يشاء و هو العزيز الرحيم)

هو النصر الذي يفرح به المؤمنون، و هو نصر الله تعالى لهم على الكافرين، و في تعليق فرحة المؤمنين على نصر الله عزّ و جلّ لهم يوم غلبة الروم على الفرس دلالة على أنّ النصر الذي يفرح به المؤمنون حقّاً هو نصرهم على مشركي مكّة الذين سخروا منهم، و صبّوا عليهم ألوان البلاء، و أخرجوهم من ديارهم بغير حقّ، و هذا هو نصر الله الذي وعدهم به و وقّت له بغلبة الروم على الفرس و يعني هذا هو السرّ الذي جاء عليه نظم القرآن من التعبير عن الصراع بين الروم و الفرس بالغلبة و التغلّب على حين جاء التعبير عن غلبة المؤمنين على المشركين بكلمة «النصر» و إضافته إلى الله تعالى «بنصر الله»

فهو نصر لدين الله جلّ و علا، و نصر للحقّ في على الباطل، لأنّه صراع بين توحيد خالص، و شرك صريح، و بين إيمان صادق و كفر واضح فبه غلبت التوحيد على الشرك و الإيمان على الكفر، و الحقّ على الباطل، و فهو نصر النبيّ و كتبه، و الإنسانيّة جميعها و

حوّلها أن تضاف إلى الله «بنصر الله» «و يومئذ يفرح المؤمنون»

أمّا الصّراع الّذي كان دائراً بين الرّوم و الفرس، فلم يكن قتالاً في سبيل الله، و لا انتصاراً لدين الله تعالى، و إنّما كان قتالاً على سلطان و تنازلاً على سلطة تتنازعها الدّول منذ قرون طويلة.

و أمّا التفات الدّعوة الإسلاميّة إلى هذا الصّراع فلم يكن إلّا ردّاً على ما تنادي به المشركون في مكّة، و ما استقبلوا به خبر انتصار الفرس و هزيمة الرّوم، فقد عدّوا من الفرس جبهة هم على خطّ عداء جبهة الرّوم الّتي هي من جبهة المسلمين. و لهذا جاء قوله سبحانه:

«غلبت الرّوم...» جاء خبراً جديداً بحدث من الوقائع الّتي ستقع بعد بضع سنين لتقطع على المشركين فرحتهم الّتي اصطنعوها من هذا الخبر الّذي جاءهم بانتصار الفرس، و لتقول لهم: لا تفرحوا، الأمر ستعلمون أوّله، و لا تدرون ما يقع في آخره، فهذا الغلب الّذي تفرحون به، هو غلب موقّت، ستعقبه هزيمة خلال بضع سنين، و هذا جاء قوله سبحانه بعد ذلك: «و لكنّ أكثر النّاس لا يعلمون...»

فالنّصر مختصّ بنصر المؤمنين على أعداء الله جلّ و علا، و أمّا غلبة الكافرين على أمثالهم أو على المؤمنين فليس بنصر، و إنّما هو ابتلاء، و قد يسمّى ظفراً.

و قوله تعالى: «ينصر الله من يشاء» مستأنف مسوق لإظهار صدق المؤمنين، و موضع تعليل و تأكيد لقوله سبحانه: «لله الأمر...» فإنّ النّصر بيد الله عزّ و جلّ وحده ليس لأحد شركة مع الله فيه، و قوله جلّ و علا: «و هو العزيز الرّحيم» مبالغة في العزّة و النّصرة لأوليائه على أعدائه فينتقم بهم منهم، فيعزّهم بعزّته، لأنّه ذو القوّة و البأس، و مبالغة في الرّحمة الخاصّة بعباده المؤمنين فيرحم بهم في الدّنيا و الآخرة و تقديم وصف «العزيز» على «الرّحيم» لتقدّمه عليه في الاعتبار.

٦ـ﴿وعد الله لا يخلف الله وعده و لكنّ أكثر النّاس لا يعلمون﴾

تقرير و توكيد بأنّ نصر المؤمنين وعد ربّاني، و بأنّ الله تعالى لا يخلف وعده أي

وعدهم الله النصر و لا يخلف وعده، و قيل: تأكيد و تقرير لموعد السابق في قوله تعالى «سيغلبون» و «يفرح المؤمنون» كما أنّ قوله «لا يخلف الله وعده» تأكيد و تقرير لقوله «وعد الله»

أقول: و الأوّل هو الأنسب بظاهر السياق

و قوله سبحانه: «لا يخلف الله وعده» مستأنف بياني لتقرير معنى المصدر «وعد الله» و إظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتعليل الحكم و تفخيمه و في حكمه تنبيه للكفّار و المشركين و الفجّار و المستكبرين، و الفاسقين و المجرمين في كلّ ظرف من الظروف لجهلهم عن هذه الحقيقة، و هي قوله تعالى: «وعد الله لا يخلف الله وعده» و غفلتهم عن الآخرة و حسابها و جزائها و ما يترتّب عليه طبيعتهم على فطرتهم و استغراقهم في زخارف الدّنيا و انهماكهم في شهواتها

و قوله سبحانه: «و لكنّ أكثر الناس لا يعلمون» تعقيب و تفريع على قوله عزّ و جلّ «وعد الله لا يخلف الله وعده» و فيه إشارة من طرف خفيّ إلى قصر نظر الكفّار و المشركين و من إليهم في كلّ ظرف من الظّروف، و أنّهم لا يمدّون أنظارهم إلى أبعد من مواقع أقدامهم، و لو أنّهم أحسنوا النظر إلى هذا النصر الّذي جاءهم بغلبة الفرس لما استبدّ بهم الفرح و لعلموا أنّ الغلب قد يعقبه هزيمة، و أنّ الهزيمة قد يتلوها غلبٌ انتصار... هكذا تجري الامور بين النّاس في هذه الحياة الدنيا

قال الله تعالى: «و تلك الأيّام نداولها بين النّاس و ليعلم الله الّذين آمنوا» (آل عمران: ١٤٠)

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب «عليه السلام» لابن عباس «واعلم بأنّ الدهر يومان: يوم لك و يوم عليك، و أنّ الدنيا دار دُوَل...»

و لكنّ أكثر النّاس في كلّ ظرف من الظروف لجهلهم بنظام التكوين و بنواميس الوجود، و غلبة طبائعهم على فطرتهم و عمى أبصارهم لا يعلمون من امور الدنيا إلّا ظواهرها، و لا يأخذون منها إلّا ما يلقاهم على يومهم و هذا شأنهم في دينهم الّذي يدينون به

بأنّهم أخلّوا أنفسهم فكلّ شيء شغلهم عن حاجتهم الدنيا فهي أبعد مدى لا يود همه بعده. أمّا الآخرة فلا شأن لهم بها فإنّهم عن غفلة عن شئ أمر يخصّهم بها، و في صمم عن كلّ حديث يُلقى إليهم عنها

٧ـ «يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا و هم عن الآخرة هم غافلون»

مستأنف بيانيّ لتقرير مبلغ علم المشركين و [illegible] و من أنّهم بأنّ علمهم مقصور فيما يتعلّق بظاهر الدنيا و ما هم فيه من لهو و متاع بها و شهواتها، و [illegible] ببيان أنّ عدم العلم الذي هو الجهل، و وجود العلم الذي [illegible] من زخارف الدنيا سيّان

و قوله تعالى «ظاهراً» في شكل التنكير و [illegible] دون [illegible] فالمعنى يعلمون ظاهراً حقيراً خسيساً من الدنيا و منافعها، و فائدة التنكير هي تقليل معلومهم حتّى بظاهر الدنيا فضلاً عن حقائقها و أسرارها و ما [illegible] من الآخرة، و [illegible] حتّى يتحقّق المنفيّ عنه و هو قوله «لا يعلمون» [illegible] فلا [illegible] قوله تعالى «لا يعلمون» بقوله «يعلمون ظاهراً» [illegible] زعم بعض المفسّرين، حيث إنّ ذلك ورد مورد المبالغة لهم [illegible] على ما [illegible] من أنّهم لا يعلمون شيئاً من الحقائق و أنّ كلّ ما يعلمونه هو [illegible] ظاهر من شؤون الحياة الدنيا حتّى أنّهم غافلون عن حقائق [illegible] و نواميس الوجود و أسرار الحياة الدنيوية مع ما هي عليه من الحضور [illegible] فضلاً عن الآخرة

و قوله عزّ و جلّ «و هم عن الآخرة هم غافلون» تقرير لجهلهم و تشبيه لهم بالبهائم لقصور إدراكهم من الدنيا بعض ظواهرها الحسّيّة دون حقائقها و أسرارها التي هي مبادئ العلوم بأمور الآخرة و معارفها [illegible] بأنّ علمهم بظواهر الدنيا كلا علم إذ لم يعلم حقائقها [illegible] فالعلم المذكور «يعلمون» و عدم العلم «لا يعلمون» هما سيّان و ذلك أنّ العلم في ذاته [illegible] الشريعة و أمر المعاد، أو بالطبيعة و أمر المعاش

هو مطلوب لكل أمر يعلمه الإنسان، و يكشف له معالم الطريق إلى الحقّ و الهدى و إلى الخير و الفلاح و الهداية كل العلم فإنّه مبنيّ على نظر سليم و إدراك صحيح، و كان حقاً على الإنسان، و إلّا فهو شرّ يخدع صاحبه، و يضلّه عن سواء السبيل، و يستحدّه لكلّ إثم و معصية، و بغي و جناية، و جُرم و خيانة و

و علم هؤلاء المشركين مع أنّه مقصور على هذه الحياة الدّنيا هو علم يقف عند ظاهر بعض الامور فيها، و لا ينفذ إلى بواطنها منها. و من هنا ينخدع هؤلاء المشركون بهذا العلم الّذي لا يمسك من الأشياء إلّا بزينتها و لعبها، فيندفعون به إلى مواقع الهلاك كما يندفع الفراش إلى النّار، مأخوذاً بضوئها مبهوراً بألسنة لهيبها

و أمّا العلم الحكيم الحقّ فهو الّذي يكون طريقاً يسلكه الإنسان و ينظر فيه من آيات الله المبثوثة في كلّ ذرّة من ذرّاته، و ما أودع الله تعالى في الكائنات من أسرار و معارف فذلك علم من شأنه أن يفتح مغالق العقول، و يفتّق حواسّ البصيرة، و يهدي صاحبه إلى كلّ ما هو حقّ و صواب و خير و رشاد، و بهذا العلم يرى العالم قدرة الله جلّ و علا و يتعرّف إلى بعض ما له من علم و حكمة، و تدبير و عظمة، فيؤمن بالله عزّ و جلّ، و يؤمن بما أنزل الله تعالى من كتب، و يؤمن بما أرسل الله سبحانه من رسل، و يؤمن بالدّار الآخرة و حسابها و ثوابها و عقابها، و نعيمها و جحيمها، و بهذا العلم يصل العلم بين الدّنيا و الآخرة، فيعمل في الدّنيا للآخرة، و ينال سعادتهما، إذ لا تعارض بين الدّنيا و الآخرة عند من يعلم حقيقة الدّنيا، و مكانها من الآخرة

و قوله عزّ و جلّ «و هم عن الآخرة هم غافلون» فيه من فنّ التعطّف ما لا يخفى على أهل البيان و هو إعادة اللفظة بعينها في الجملة من الكلام أو البيت من الشّعر، فقد ردّد «هم» للمبالغة في تأكيد غفلتهم عن الآخرة، مع ما فيه من تقرير جهالتهم و تشبيههم بالبهائم المقصور إدراكها من الدّنيا على بعض ظواهرها الخسيسة دون أحوالها الّتي هي مبادىء العلوم بأمور الآخرة، و من الإشعار بأنّ العلم بظواهرها كلا علم إذ لم يعلم أسرارها و حقائقها

فالعلم المذكور «يعلمون ظاهراً» و عدم العلم «لا يعلمون» هنا سيّان

و قوله سبحانه «هم غافلون» في تكرير «هم» تأكيد بحق هذا الوقع المتجوّز وعدم الشمول. والفصل يفيد الحصر وإن كان خلاف الظاهر ولكن حسنه وقوع الفصل في اللفظ ولا عينا بالآخرة وفيه إشارة لطيفة إلى أنّ الغفلة منهم، وإلّا فليست التذكرة حاصلة، وفي إيراد الاسمية دلالة على استمرار غفلتهم ودوامها، ومدام علمهم مقصوراً بظاهر الحياة الدنيا، حيث إنّ ظاهر الدّنيا لذائذها توجب غفلة الإنسان ودوامها، فالغفلة معلول لذلك ومسبّب منه

٨ـ أولم يتفكّروا في أنفسهم ما خلق الله السّموات والأرض وما بينهما إلّا بالحقّ وأجل مسمّى وإنّ كثيراً من النّاس بلقاء ربّهم لكافرون.

عطف على مقدّر يقتضيه المقام على طريق الاستفهام الإنكاري والاستفتاح و التعجّب لقصور نظر هؤلاء المشركين على ما ذكر من علمهم بتفصيل بظاهر الحياة الدّنيا مع الغفلة عن الآخرة، من جهة، و تنديد بهم بسبب عدم تفكّرهم مطلقاً و هذا إنّ عقلهم يدركون أنّ الله سبحانه لا يمكن أن يكون قد خلق السّموات و الأرض و ما بينهما عبثاً، بل لحكمة خلقه تقوم على الحقّ و لأمد معيّن في علمه من جهة أخرى، و دعوة لهم إلى التفكّر في أنفسهم، و ما في بدء خلقتهم أن يتفكّروا كيف كان الإنسان تراباً، ثمّ تطوّر إلى أن صار إنساناً كاملاً من جهة ثالثة

و ذلك أنّ أقرب شيء إلى الإنسان هو ذاته و هذا يوجب عليه أن يتعرّف إلى أقرب قريب إليه قبل أن يمدّ نظره إلى ما وراءه

و قوله تعالى «في أنفسهم» ظرف للتفكّر و ذكره مع أنّ التفكّر لا يكون إلّا في النفس لتحقيق أمره، و زيادة تصوير حال المتفكّرين كما في قولك: اعتقده في قلبك و أبصره بعينك» مع أنّ الاعتقاد لا يكون إلّا في القلب، و لا الإبصار إلّا بالعين

و قوله سبحانه «إلّا بالحقّ و أجل مسمّى» بيان لغرض الخلقة و حكمتها و مآل أمرها

و قوله عزّ و جلّ «و إنّ كثيراً من النّاس بلقاء ربّهم لكافرون» تذييل لتقرير ما قبله

بيان أن كثيراً من الناس غير مقتصرين على ما ذكر من غفلتهم عن أحوال الآخرة و الإعراض عن التفكّر فيما يرشدهم إلى معرفتها من خلق أنفسهم، و سرائرها، و من خلق السماوات و الأرض و ما بينهما من المصنوعات و بدائعها و حِكَمها، بل هم منكرون لنبوءة البعث و جاحدون بعده حساب ربّهم و جزائه

و في الجملة المؤكّدة إشارة إلى سبب عدم تفكّرهم في أنفسهم، و عدم تدبّرهم في نظام الكون و النواميس و الوجود و هو كون كثير من الناس في كلّ ظرف من الظروف لا يؤمنون بلقاء ربّهم و لا يوقنون بيوم البعث و الحساب و الجزاء فيعرضون عن هذا التدبّر و التفكّر، فيكفرون بالله سبحانه و فيه تنبيه للنّاس أجمعين في كلّ ظرف على وجوب الاستدلال بخلق أنفسهم و السماوات و الأرض و ما بينهما من حسن خلقه على المبدء و المعاد

إن تسئل: إنّ الله تعالى قال هنا: «و إنّ كثيراً من الناس» و قد قال قبل ذلك: «و لكنّ أكثر الناس» فما وجههما؟

تجيب عنه: أنّ الله تعالى قد ذكر دلائل على الأصول و لا ريب أنّ الإيمان بعد الدلائل يكون أكثر من الإيمان قبل الدلائل فلا يبقى الأكثر كما هو، فعبّر عن الثاني بالكثير

إن تسئل: كيف يعلم الإنسان المتفكّر في نفسه، و في خلق السماوات و الأرض و ما بينهما أنّ الله تعالى لم يخلق شيئاً إلّا بالحقّ؟ و كيف يعلم بالدار الآخرة و حسابها و جزائها؟

تجيب عنه: أنّ الإنسان إذا تفكّر في نفسه علم أنّه مُحدث مخلوق إذ قد أتى عليه حين من الدهر لم يكن هو فيه شيئاً مذكوراً، فكان بعد أن لم يكن، و علم أنّ له مُحدثاً قديماً قادراً عالماً حيّاً و أنّه حكيم لا يصدر عنه لغو و لا قبيح، و لا لعب و لا لهو، و علم أنّه سبحانه لم يخلقه عبثاً، و أنّه خلقه لغرض و هو التعرّض للثواب، و ذلك لا يتمّ إلّا بالتكليف، فلا بدّ إذاً من الثواب، فإذا لم يوجد في الحياة الدنيا فإنّها دار عمل، فلا بدّ من دار أخرى و هي دار حساب، يجازى فيها

فقال: «ما خلق الله السماوات و الأرض و ما بينهما إلّا بالحقّ» أي ما خلق الله تعالى من

حقائقها و أجل مسمّى لأنّ وجودها حقيقي محدود زماني مؤجّل بأجل مسمّى، و مقدّر بقدر معلوم و قال «الله يبدؤا الخلق ثمّ يعيده» الروم ١١ أي في عالم الخلق و التقدير ثمّ يعيده إلى عالم الغيب عند الله سبحانه «ثمّ إليه ترجعون» في نشأة الحقّ

و قال «و من آياته أن تقوم السماء و الأرض بأمره» الروم ٢٥، لأنّ قوامها بمدده و صورها العقلية «ثمّ إذا دعاكم دعوة من الأرض» بانقطاع الأجل و نفاد المدد «إذا أنتم تخرجون»

و قال: «و له من في السّموات و الأرض» الروم ٢٦ أي هو المالك لمدبّريه عن الموادّ، حاضرة عند الله «كلّ له قانتون» بالعبودية التامّة و الرجوع إليه و الانحطاط الوجودي و قال فيه: «و هو الّذي يبدؤا الخلق ثمّ يعيده» الروم ٢٧ في سلسلتي البدو و الرجوع «و هو أهون عليه» لأنّ الرجوع إلى الفطرة الأصلية أنسب من الخروج عنها «و له المثل الأعلى في السّموات و الأرض» لأنّ كلّ ذي روح و نفس و جسم يتحقّق فيه مثل البدو و الإعادة، و لكنّه «هو العزيز الحكيم» الّذي «ليس كمثله شيء» الشورى ١١ و قال «و ما خلقكم و لا بعثكم إلّا كنفس واحدة» لقمان ٢٨)

فلو تفكّر الإنسان في نفسه و عرفها، لعرف بمعرفتها حقائق الموجودات و أسرارها، فانيها و باقيها، و عرف بها حكمة خلق السّموات و الأرض و ما بينهما من المصنوعات، و عرف بها ربّه جلّ و علا و لما أنكر البعث الّذي هو لقاء ربّه

٩ـ (أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم كانوا أشدّ منهم قوّة و أثاروا الأرض و عمروها أكثر ممّا عمروها و جاءتهم رسلهم بالبيّنات فما كان الله ليظلمهم و لكن كانوا أنفسهم يظلمون)

الهمزة للتقرير المنفيّ، و الواو للعطف على مقدّر يقتضيه المقام كما يلي، تقديره أقعدوا في منازلهم و بيوتهم، و حسبوا أنفسهم في حوائط مساكنهم و بلادهم و لم يسيروا في نقاط مختلفة من الأرض؟!

تقرير لسيرهم و نظرهم إلى آثار المدمّرين من عاد و ثمود و قوم لوط و غيرهم من

الأمم البائدة التي عاقبها الله بعذابه، وتقريع لهم لعدم تفكرهم في الآثار، وتوبيخ لهم لعدم تأملهم لمواقع الاعتبار، وتنديد بهم لعدم اتعاظهم بمشاهدة أحوال أمثالهم الدالة على وخامة عاقبتهم، وسوء مآل أمرهم.

وفي الجملة تعريض بالناس عامة، وحث للمؤمنين خاصة في كل ظرف من الظروف على السير في أكناف الأرض والاعتبار من مشاهدها ومناظرها ووقائعها.

وقوله تعالى: «فينظروا» في موضع الجزم عطف على «يسيروا» داخل في حكم التقرير والتقريع والتوبيخ والتنديد بهم أيضاً. فإذا كانوا لا يتفكرون في أنفسهم، وفي خلق السماوات والأرض وما بينهما فهلا يسيرون في أنحاء الأرض ويرون عاقبة الذين من قبلهم ويعرفون أخبارهم فيتعظون بها؟ فقد كان الذين من قبلهم أشد منهم قوة وعدة وعُدة، وأعماراً، وأكثر إثارة للأرض فجاءتهم رسل الله تعالى بالمعجزات والدلائل الواضحة على صدق رسالتهم، فوقفوا منهم موقف المكذب المستهزئ، ولم يتورعوا عن ارتكاب السيئات فجازاهم الله تعالى سوء الجزاء، ولم يكونوا في ذلك مظلومين، وإنما كانوا هم الذين جنوا على أنفسهم بالكفر والطغيان، والإجرام والعدوان، والبغي والعصيان حتى انتهت عاقبتهم إلى العذاب والنيران.

وقوله سبحانه: «كانوا أشد منهم قوة» وصف لحالهم وبيان لكيفية كانوا هم عليها أي أنهم كانوا أقدر منهم على التمتع بالحياة الدنيا وشهواتها وزخارفها حيث كانوا أشد منهم قوة.

وقوله عز وجل: «وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها» كماً وكيفاً وزماناً، ولا يبعد أن يكون ذكر اسم التفضيل «أكثر» تهكماً بمشركي مكة إذ لا يقاسون هم بأولئك الأمم الماضية، فإنهم كانوا معروفين بأنهم في القوة والشوكة، وكثرة العدد والعدة والعمارة والحضارة وطول الأعمار، وقد كان مشركو مكة ضعفاء، قصيري الأعمار، محتاجين إلى واد غير ذي زرع، خائفين أن يتخطفهم الناس، فلا يقاسون هم بهم إلا أن يكون العمارة بمعنى الإقامة.

وقوله تعالى: «أنفسهم يظلمون» قدم «أنفسهم» على «يظلمون» رعاية للفاصلة.

ويكون للحصر بالنسبة إلى الرسل الذين كانوا يدعونهم.

وفي الآية الكريمة تذكير وضرب مثل بالأمم السابقة في التقريع والتنديد؛ أنّ السامعين كانوا يعرفون مما وصل إليهم من أخبار، ووقعت عليه عيونهم من مشاهد أثناء رحلاتهم إلى أهل البلاد التي كانوا يرحلون إليها مما هو في جزيرة العرب وجوارها، هلكوا ودمّرت بلادهم بعذاب ربّاني وكانوا أقوى منهم وأشدّ. ومن هنا يأتي التنديد والتذكير معًا من مستحكمين موجهين إلى العقل والقلب معًا؛ فهذه دعوة قوية للمشركين خصوصًا وللناس عمومًا في كلّ ظرف من ظروف الزمان في مختلف العصور، وهم ناس من الناس، وخلق من خلق الله تكشف أخبارهم [illegible] عن أخبار [illegible] لأنه سنة الله جلّ وعلا هي سنته في الجميع وسنة الله جلّ [illegible] عامة هذا الوجود بلا محاباة لجيل من الناس، ولا هوى في [illegible] [illegible] لن تجد لسنة الله تبديلا.

وفي الآية الكريمة دعوة إلى إدراك حقيقة هذه الوحدة [illegible] على مدار الزمن، و حقيقة هذه الإنسانية ومصيره في مدار الزمن، فكلما [illegible] جيل من الناس نفسه وحياته ونفسه وتصوّر به [illegible] على [illegible] بين أجيال البشر جميعًا، ومن وحدة السنّة التي تحكم على الإنسان في كلّ ظرف ومكان.

فالقرآن الكريم يدعو الإنسان أن يسير في آفاق الأرض، ويتدبّر في حوادثها وما وقع فيها، ويتدبّر عاقبة الذين كانوا من قبلهم [illegible] أن يدرك أنّ سنّة الله واحدة وأنها لا تحابي أحدًا، وأن يوسع أفق فكره وتدبّره، فيدرك وحدة البشرية، ووحدة الدعوة، ووحدة الفطرة، وإن كانت اختلفت مظاهره، ووحدة العاقبة في الأجيال البشرية كلّها. هذا هو التصوّر الّذي يحرص الإسلام على أن يطبع به قلب الإنسان وحياته.

١٠ـ(ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوآى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ)

تأكيد لما سبق على سبيل الإخبار والشروع في بيان مآل أمرهم وعاقبة كفرهم ونتيجة عصيانهم في الدار الآخرة بعد بيان هلاكهم في الدنيا للاعتبار والإنذار.

قوله تعالى: «عاقبة الّذين» خبر كان، قدّم على الاسم لإفادة الحصر، و لإثارة حبّ الاستطلاع إليه بجعله قليلاً وراء الخبر، و وضع على الخبر لم يجعل فيه «الّذين أساءوا» و وضع الموصول موضع الضمير ليسجّل عليهم بالإساءة و الإشعار بعلّة الحكم، و الدلالة على أنّ الجزاء من جنس العمل و المعنى: كان عاقبتهم العقوبة السوأى.

و قوله سبحانه: «السوأى» مصدر وصف به العقوبة المقدّرة مبالغة كالبشرى و الذكرى كأنّها نفس السوء من باب «زيد عدل» في عظمه و فظاعته و العقوبة السوأى و ذلك أنّ من أذنب ذنباً و لم يتب عنه سيجرّه إلى معاودة مثله و الانهماك فيه، و ربّما كان من هو أكبر منه حتّى يستولي عليه الذنوب و يأخذ بمجامع قلبه فيغرق في المعاصي و لا يبالي مستحسناً إيّاها، فيعتقد أن لا إله سواها، فيعتقد أن لا شيء بعدها، فكذّب بما يصحّحه منها

و يجوز أن يكون «السوأى» تأنيث الأسوأ كالحسنى تأنيث الأحسن و صفة «السوأى» يكون صفة صاحبها و هي سوء العقوبات، و لعلّها يوم القيامة و هي جهنّم

و قوله عزّ و جلّ «أن كذّبوا بآيات الله» بيان للسوء، و يحتمل أن يكون من تعليلهم الدنيوي و الأخروي في الجزاء، لأنّهم كذّبوا بآيات الله و لم يعملوا بها سيكذّبون بها من أخذوها هزءاً و سخرية، و مادّة ... كان هذا جزاؤهم السيّئ.

و قوله سبحانه: «و كانوا بها يستهزءون» عطف على «كذّبوا» داخل معه في علّة الحكم، و إيراد الاستهزاء بالمضارع للدلالة على استمراره و تجدّده

١١ـ (الله يبدؤا الخلق ثمّ يعيده ثمّ إليه ترجعون)

مستأنف بيانيّ سيق لتقرير المبدأ و المعاد و المنتهى إليه الإنسان، على طريق برهان جدليّ بأنّ الله الّذي كان المشركون يعترفون بأنّه تعالى خلق الكون و الخلق بدءاً فهو قادر على إعادة خلقتها ثانية، فبدء الخلق و عودهم بيد الله تعالى و رجوع الكلّ في النهاية إليه للحساب و الجزاء ثواباً و عقاباً و قد تكرّر هذا البرهان في المناسبات المماثلة في

مواضع من القرآن الكريم وهذه المعوّل إليه للمخصّص، وفي الالتفات من الغيبة إلى خطاب المشركين لمكافحتهم بالوعيد ومواجهتهم بالتهديد، وإبهام أنّ ذلك مخصوص بهم، فهو التفات للمبالغة في الوعيد والترهيب

هذا ولا يبعد أن يكون الآية الكريمة ـ كما قيل ـ معطوفاً على ما دعت إليه الآيات السّابقة، من التفكّر في النفس أي في ذوات الإنسانيّة وما أودع الله الخالق العظيم في الإنسان من قوى ومدركات ثمّ النّظر في خلق السّموات والأرض وما بينهما من أصناف المخلوقات ثمّ السّير في نواحي الأرض والوقوف على أطلال الأمم الغابرة ليروا ما حلّ بالطّاغين من بأس الله وعذابه

فهذا التفكّر والنّظر والتدبّر في داخل النّفس وخارجها، من شأنه أن يفتح للإنسان طريقاً إلى الحقّ، وأن يدلّه على الله تعالى وأنّه عزّ وجلّ من قدرة لا يعجزها شيء، فكان قوله سبحانه «الله يبدأ الخلق ثمّ يعيده ثمّ إليه ترجعون» هو الحكم الّذي يقضي به النّظر في هذا الوجود والّذي لم يستدلّ عليه الإنسان بنظره ثمّ جاء من يحدّثه به، كان جديراً بأن يقبله، إذ كان على مقتضى النّظر وفي مواجهة الفكر. فإن نكر الإنسان معطيات حواسّه ومدركات عقله، فكذّب ما حدّثته به أهل الصّدق والعلم فلن يهتدي إلى حقّ أبداً، ولن يحصل على خير قطّ، ولن يصير إلّا إلى أسوأ مصير

فغاية الأكوان تنتهي إلى خالقها الّذي أوجدها في عالم الخلق والتقدير وإنّما أتى بصيغة المضارع: «يبدؤا ـ يعيد ـ ترجعون» لما علمت أنّ وجود كلّ خلق مسبوق بعدم زماني ثمّ يعيدهم إلى عالم إقامته عند الله تعالى ثمّ إليه يرجعون بعد فناء الكلّ، حيث إنّ مجيء الإنسان إلى الدّنيا هو النزول من عالم الكمال إلى ظرف الكمال، ومن عالم الفطرة المحضة إلى عالم الطّبيعة، ثمّ الذّهاب من الدّنيا إلى ظرف بروز الكمال وعالم الفطرة مع ما اكتسبه من عالم الطّبيعة، من خير أو شرّ

١٢ـ(و يوم تقوم السّاعة يبلس المجرمون)

تقرير لما يكون وقت الرّجوع، أعيد لتهويله وتفظيع ما يقع فيه، وفيه تهديد وإزعاج

هؤلاء المشركين، وكلّ من يسلك مسالكهم في الشرك والطغيان والكفر والعصيان، و الإثم والعدوان، وفي تكذيب البعث والحساب والجزاء، وجحود آيات الله تعالى وتكذيب رسله عليهم السلام، ولم يستعدّوا للعودة إليه تعالى بالتقوى والإيمان، فكلّهم مشتركون في الجرم، والمجرمون هم الّذين يرضون بالحياة الدنيا ويطمئنّون بزخارفها وشهواتها وهم غافلون عن الآخرة وحسابها وجزائها، وهم سيلقون يوم القيامة أهوالاً وبلاءً، فتحيط بهم الهول والفزع ممّا يرون من آيات الله تعالى وقهره وغضبه عليهم.

فالمجرمون يبلسون أي يتحيّرون في مواقفهم ويخمدون حججهم لما يقع عليهم من الأهوال و المروعات فيسكتون بها متحيّرين ساكتين إذ لا حجّة لهم على ما كانوا من جرمهم ولا عذر لهم فيه من نفس الرحمن إذ سكت لانقطاع حجّته، وقد يوصل أن يكون له حجّة بعد والملبس الساكت المنقطع عن حجّته، المتحيّر من أن يهتدي لها فلا عذر له فيما ارتكبه من الإجرام فحينئذ يبقى ساكتاً متحيّراً.

قوله تعالى: «يبلس المجرمون» وصف الجرم يشمل كلّ من العاملين بظاهر الفساد لذلك، الغافلين عن الآخرة والكافرين بلقاء ربّهم، ومن الظالمين والمسيئين والمكذّبين بآيات الله والمستهزئين بها وهم الذين سبق ذكرهم في الآيات السابقة. ووضع الظاهر موضع الضمير «هم» للتسجيل عليهم بهذا الوصف الشنيع بأنّهم كلّهم مشتركون فيه، وللإشعار بعلّة الحكم.

في تلخيص البيان للشريف الرضيّ رضوان الله تعالى عليه قال: في قوله تعالى: «و يوم تقوم الساعة يبلس المجرمون» «وهذه استعارة، والمراد بقيام الساعة حضورها، ووقوعها و الأجل المضروب لها، وعلى هذا قولهم: قد قامت السوق أي حضرت وقتها الذي يحضر فيه أصحابها وتنتظم بيعها وشروطها، وعلى هذا المعنى قامت القيامة، وقد يجوز أيضاً أن يكون تسميتها بذلك لقيام الناس فيها على أقدامهم قال سبحانه: «يوم يقوم الناس لربّ العالمين»

فأمّا قوله في هذه السورة: «ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره» فمعناه أنّها تتماسك بأمره في مستقرّاتها وتقف على مستقرّاتها، ومثل ذلك قول القائل: إنّما يقوم أمر

فلان بكذا، يريد أنه أقبل به، وليس هناك في الحقيقة وجه، فقوله تعالى في هذه السورة «فأقم وجهك للدين حنيفاً» فالمراد به اتبع طريق الدين قاصداً إلى سمته، غير منحرف عنه إلى غيره، ومنه قول العرب: قد استقام المسير إذا سار الإبل في طريق واضح لا اعوجاج به ولا منعدل فيه. والمعنى: فأقم وجهك للدين اللاحب والمنهج الحق الواضح.

وقوله تعالى في هذه الآية دليل على أن الشيء نفسه يرجع في المعنى إلى ما ذكرناه، والمراد به أنه مستقيم بغير اعوجاج، ومنتصب بغير اضطراب، وقوله تعالى من بعد: «وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين» قريب في المعنى مما تقدم، لأن المراد بذلك لا يخلو من أحد الأمرين: إما أن يكون المراد تعالى بإقامة الصلاة إتمام ركوعها، لأن الركوع من أعظم أركان الصلاة، وإما أن يكون المراد بذلك إتمامها وحفظها وإخلاصها من كلّ ما يعود بفسادها.

وذلك كقولهم: أقام فلان قناة الدين أي أظهر أمره، ووالى نصره، ورمى الأعداء عنه، ورفع الأضداد دونه. وجميع هذه الألفاظ المذكورة ظاهرة، هي من جملة استعارات الحقائق. وإنما أوردناها في هذا الموضع لأجل اتفاق ورودها في سورة واحدة. انتهى كلامه ورفع مقامه.

١٣- ﴿ولم يكن لهم من شركائهم شفعاؤا وكانوا بشركائهم كافرين﴾

إشارة إلى وجه الإبلاس، وإدخال اليأس على المجرمين من الشفعاء، والشركاء الذين كانوا يشركونهم مع الله سبحانه بعد بيان يأسهم من ناحية أعمال أنفسهم، وذلك أنه لمّا كان الشاكّ قد يغنيه غيره عن الكلام في ذلك فلا يكون هؤلاء المجرمين المشركين والكافرين من شفيع يشفع لهم ويخرجهم من هول القيامة وعذابها، وإنّ معبوداتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله قد ضلّت عنهم، وقد كانوا من قبل على اعتقاد بأنهم سيشفعون لهم عند الله تعالى.

والإيثار بالمضارع المنفيّ بحرف الجحد «لم» التي تقلبه ماضياً متحقّقاً، وصيغة الجمع

لوقوعها في مقابلة الجمع أي لم يكن لواحد منهم شفيعاً أصلاً

و قوله سبحانه: «و كانوا بشركائهم كافرين» بيان لحالهم مع الشّفعاء يوم القيامة، يكفرون بإلهيّتهم و يجحدونها حيث يتبرّؤن منهم و وقفوا على كنه أمرهم، و بيان الماضي «كانوا» للدّلالة على تحقّقه و استمراره لا محالة

١٤ـ(و يوم تقوم السّاعة يومئذ يتفرّقون)

بيان لتفرّق المشركين من الموحّدين و الكافرين من المؤمنين، و المجرمين من المطيعين، و الصّالحين من الطّاغين يوم القيامة كما يدلّ عليه ما قبله من عموم الخلق، و ما بعده من التّفصيل، و بيان للتّفرقة و الانقطاع التّامّة بين المشركين و آلهتهم من جهة، و تقطّع جميع الأسباب بين المشركين أنفسهم من جهة أخرى فلا يلتفت المعبودون إلى عابديهم و لا ينظر عابد في وجه عابد أو معبود بعد ما كان بينهم، لا هو، و هو لا التّابع للمتبوع كما كان بين بعضهم و بعض، اجتماع و ائتلاف على عبادة غير المعبود و الدّفاع عنه، و دفع كلّ بلاء و شرّ عن عابديه سواء كما يدلّ عليه الآيات المتشابهة

و بيان تفرّق المشركين من الموحّدين من جهة و تفرقة بين المشركين و آلهتهم من جهة أخرى و تقطّع الأسباب بين المشركين أنفسهم من جهة ثالثة كما يدلّ عليه ظاهر الإطلاق فهو لجميع الخلق المدلول عليهم بما تقدّم من مبدئهم و مرجعهم و إعادتهم لا المجرمين خاصّة

و قوله تعالى: «يومئذ» توكيد لما قبله

و في الآية الكريمة و الآيات الثّلاث قبلها حمل للمشركين و من إليهم على الارعواء و التّفكير قبل الخسران و النّدم، و فيها إنذار و حثّ على الاستعداد و التّأهّب لذلك المقام

١٥ـ(فأمّا الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات فهم في روضة يحبرون)

تفصيل و بيان للأحوال بعد التّفرّق بين المتضادّين فريق التّوحيد و الإيمان، و فريق الشّرك و الإلحاد، فريق الحقّ و الهدى و فريق الباطل و الضّلالة، فريق الخير و الصّلاح و

فريق البرّ والتقوى، فريق الطاعة والإخلاص، وفريق المعصية والنفاق. وقدّم تعالى الفريق الأول في الذكر لمقدّمه بالفطرة الإنسانية التي هم عليها وعملوا بمقتضاها دالّة على الطبيعة الإنسانية التي غلبت على الفريق الثاني الّذين كفروا وكذّبوا وعرضوا.

وقوله تعالى «في روضة» تنكيرها لإبهام أمرها وتفخيمه، والمراد بها الجنّة، وقد خصّ ذكر الروضة منها لأنّه لم يكن عند العرب شيء أحسن منظراً ولا أطيب رائحة من الرياض.

قال الأعشى:

ما روضةٌ من رياض الحَزْن مُعشِبةٌ خضراءُ جادَ عليها مُسْبِلٌ هَطِلُ

يُضاحِكُ الشمسَ منها كوكبٌ شَرِقٌ مُؤزَّرٌ بعميمِ النبتِ مُكتَهِلُ

يوماً بأطيبَ منها نَشْرَ رائحةٍ ولا بأحسنَ منها إذ دنا الأُصُلُ

وقوله سبحانه «يُحبَرون» في إيثار المضارع الدالّ بتجدّد السرور واستمراره لهم ففي كلّ ساعة يأتيهم ما يُسرّون به من متجدّدات الملاذّ وأنواعها المختلفة غير المنقطع.

١٦ـ(وأمّا الّذين كفروا وكذّبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب مُحضَرون)

بيان لأحوال الكفّار والمكذّبين بآيات الله ولقاء الآخرة وكلّ من سلك مسالكهم بحسب طبائعهم المضادّة لفطرتهم، ولم يقدّموا سوى هذه السيّئات فليس لهم في الآخرة إلّا النار.

وقوله تعالى: «ولقاء الآخرة» في تصريح ذلك مع اندراجه في تكذيب الآيات للاعتناء بشأنه وأمره، ويجوز أن يكون «بآياتنا» متعلّقاً بـ«كفروا» و«لقاء الآخرة» متعلّقاً بـ«كذّبوا» على نحو الترتيب فالمعنى كفروا بآياتنا، وكذّبوا بلقاء الآخرة.

وقوله سبحانه «فأولئك» إشارة إلى الموصول «الّذين» للتعبير باتّصافهم بما في حيّز الصلة من الكفر والتكذيب بآيات الله تعالى ولقاء الآخرة إيذاناً بكمال تميّزهم بذلك عن غيرهم، وانتظامهم في سلك المشاهدات. ومعنى البعد فيه مع قرب العهد بالمشار إليه

إشعار ببعد منزلتهم في الشرّ، وذلك لأنّهم موصوفون بما ذكر من ... يوم القيامة إلى العذاب سوقاً، ويدفعون إلى العذاب دفعاً، فهم يودّون أن يفرّوا من هذا البلاء الذي بين أيديهم، لكن هناك من يمسك بهم حتّى هذا البلاء، ويدفعهم إليه في قوّة قاهرة مذلّة لا يملكون لها دفعاً، فلا يغيبون عن هذا العذاب لحظة ...، ولا يخفّف عنهم هذا العذاب.

وقوله عزّ وجلّ «محضرون» ... لفظة الإحضار لا تستعمل إلّا فيما يكرهه الإنسان، ومنه حضور الموت، والإحضار هو جبر المرء على الحضور، ويقال: أحضر فلان مجلس السلطان، ومحكمة القضاء، أي جيء به على ما لا يؤثره. والإحضار ... يكون المعنى في النفس، وإنّما ... لا يكون الإنسان حاضراً.

إن قيل: إنّ الله تعالى وصف فريقين ... فريق الكافرين والمكذّبين، ولم يصف المنافقين والفسقة والمجرمين والعصاة والمفسدين والظلمة ولأمثال هؤلاء، فهم من زمرة المؤمنين أم من جنود الكافرين؟ فهل كلّهم فريق ثالث لم يذكرهم هاهنا؟

فيجاب عنه: إنّهم من جملة المجرمين سبق ذكرهم آنفاً، وهم داخلون في الكفر والطغيان، في الإثم والعدوان، وفي البغي والعصيان ...

١٧ـ(فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون)

مناسبة هذه الآية ... عمّا تقدّم من عظمة الله وقدرته، وعلمه وحكمته وكمال تدبيره في خلقه ...، ... في معنى الأمر ... الله تعالى والثناء عليه ... التسبيح من الله تعالى ... لعباده إلى تسبيحه في الوقتين الدالّين على كمال قدرته وعظيم سلطانه، وقت المساء وهو إقبال الليل بظلامه، وحين الصباح وهو إسفار النّهار بضيائه.

فالمعنى: ... فسبّحوا الله تعالى وعظّموه ونزّهوه عمّا لا يليق بساحة قدسه، وعمّا لا يجوز عليه من صفات النقص ... في عظمته ... وقت المساء وحين

الصّباح وفي تخصيص التسبيح بالمساء والصباح ظهور القدرة الكاملة، والعظمة الإلهية فيهما أظهر من غيرهما، حيث إنّ المساء وقت ظهور الظلمة، وإنّ الصباح وقت بروز النور فتستحق تنزيهه عن النقائص، والتسبيح في الوقتين

وقيل: لا يبعد أن يكون تخصيص هذين الوقتين بالتسبيح إشارة إلى ما جعل عليه في تحصيل المعاش وخصّ بها في الإملاء من الغداء والعمل لأداء الزّكاة والكسب

والتشاور للعمل على سبيل الإخبار دون الأمر بالاستمرار، ويكون الإخبار في المواد هو أبلغ من الأمر بالإنشاء، وفي الالتفات من الغيبة إلى الخطاب بالمؤمنين إيذان بأنّه لا شأن لغيرهم من الكفّار والمشركين والمعاندين والمعرضين أن يخاطبوا ما داموا على الشّرك والعصيان والغرور والطغيان بالتسبيح مساءً وصباحاً

وقيل: ليس في الخطاب التفات بل هو تعميم للخطاب الّذي لرسول الله ﷺ منذ شرعت السّورة

والمعنى: فإذا كان الأمر على هذه السّبيل فسبّحوه حين تمسون أيّها المعاشر النّاس في المساء وحين تصبحون في الصّباح، ويظهر هذا التّعميم ما في قوله سابقاً: «ثمّ إليه ترجعون» و لاحقاً في قوله: «كذلك تخرجون»

وهذا قيل من غير فكر، حيث إنّ الخطاب في «تمسون» و«تصبحون» خطاب تكليف و حساب، وليس الخطاب في «ترجعون» و«تخرجون» كذلك

ولا يخفى على أهل الأدب والبيان أنّ «تمسون» و«تصبحون» من الأفعال النّاقصة قد تجيء تامّة، ومعنى التمام عند أكثر أهل البيان هو دلالتها على الحدث والزّمان، ومعنى النّقصان عندهم هو سلب الدّلالة على الحدث، وتجرّد الدّلالة على الزّمان، ومعنى التمام عند أصحاب الأدب هو الاستغناء بالمرفوع عن المنصوب، ومعنى النّقصان عندهم هو عدم الاستغناء بالمرفوع من المنصوب

إذا عرفت هذا فاعلم أنّ «أمسى وأصبح وأضحى» ثلاثة معانٍ: الأوّل أن تقرن مضمون الجملة بالأوقات الخاصّة الّتي هي المساء والصّباح والضّحى على طريقة «كان» الثاني أن تفيد معنى الدّخول في هذه الأوقات كأظهر وأعتم، وهي في هذا الوجه تكون تامّة

مسكت عن مرفوعها حتّى أن يكون بمعنى صار كقولك أصبح زيد غنيّاً، و أمسى فقيراً تريد أنّه صار كذلك مع قطع النّظر عن وقت مخصوص

و في الآية التكرمة و التنبيه بأنّه جلّ وعلا و تعالى المستحقّ له الحمد و التقديس له في كلّ وقت و في كلّ مكان مساءً و صباحاً و عشيّاً و ظهراً في السّموات و في الأرض جميعاً و هذا من باب صحّة التقسيم و حسن المقابلة، و هي أن يريد المتكلّم أقساماً، ذكر في الكلام بجمعها حيث إنّ الآيتين تذكران مشتملان لجميع الأزمنة النّهاريّة و الليليّة من أوّل النّهار و وسطه و آخره و أوّل الليل و وسطه و آخره و لجميع أقسام الأمكنة العلويّة و السّفليّة كلّها

و الآيتان الكريمتان من عجائب الآيات لغرابتها في صحّة التقسيم و حسن المقابلة

١٨ ـ (و له الحمد في السّموات والأرض و عشيّاً و حين تظهرون)

قوله تعالى: «له الحمد» فيه تقديم الخبر على المبتدأ لإفادة الاختصاص و القصر به حقيقيّ

و لا يخفى على القارئ الخبير: ما بين المساء و العشاء من فرق، حيث إنّ المساء بدو الظّلام بعد المغرب، و العشاء آخر النّهار عند ميل الشّمس للمغرب، و هو مأخوذ من عشى العين و هو نقص النّور من البصر كنقص نور الشّمس و لا يبعد أن يكون بمعنى العشيّ في قوله تعالى: «و عشيّاً» يكون العشيّ لم يأت منه فعل من باب الإفعال خلاف المساء و الصّباح و الظّهيرة، حيث بني منها الإمساء و الإصباح و الإظهار بمعنى الدّخول في المساء و الصّباح و الظّهيرة

و في تخصيص هذه الأوقات من بين سائر الأوقات لما فيها من تبدّل الظّواهر في أجزاء الزّمن و الانتقال من حال إلى أخرى على صورة واضحة كالانتقال من الضّياء إلى الظّلام في المساء، و من الظّلام إلى النّور في الصّباح، و من ضياء تامّ وقت الظّهر إلى اضمحلال لذلك الضّياء وقت العشيّ، و هكذا

و في تخصيص ذكر الإنسان بهذه الأوقات مع دوام التّسبيح و التّحميد من الملائكة في

قوله تعالى: «يسبحون الليل والنهار لا يفترون» [الأنبياء: ٢٠] وقوله سبحانه «وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم» [الزمر: ٧٥] لأن الإنسان لا يمكنه في حياته الدنيا أن يصرف جميع أوقاته إلى التسبيح لاحتياجه إلى النوم والاستراحة، واللبس والركوب والأكل والشرب ونحوها، فأشار تعالى إلى أوقات يرغبهم أن ينزهوه فيها، وهي أول النهار، وأوسطه وآخره وأول الليل.

وقيل خصص هذه الأوقات بالذكر لكونه غير مستغرق فيها بعمله، وهو أن يكون ذاكراً ربه، ومنزهه لما يجب به على كل حال.

١٩- (يخرج الحيّ من الميت ويخرج الميت من الحيّ ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون)

مستأنفة بيانية لتقرير بعض ما يدلّ على بديع صنع الله تعالى وكمال قدرته على المعاد الجسماني، وفيها دعوة للناس في كل ظرف من الظروف إلى التوجه نحو آياته، والنظر العميق في صحف الطبيعة، ولما فيها من بدائع الخلق والعظمة. فلو دقّقنا النظر لا يمكن على أيّ موقع من مواقع الحياة نرى الحياة تخرج من الموت والموت يخرج من الحياة في تنامٍ وشدّة، يتبادلان موقعهما، فالميت يأخذ مكان الحيّ، والحيّ يأخذ مكان الميت، حتى لكأنهما كائن واحد لا فرق بينهما في حالتي الحياة والموت، وهذا من عجيب قدرة الله تعالى وبسط سلطانه على المخلوقات.

وقد وقع التعاكس بين الحيّ والميت من قوله: الحيّ والميت، ثم عكس فقدّم الميت وأخّر الحيّ وهو محسّن بالمقابلة في التحسين.

وقوله سبحانه: «وكذلك تخرجون» فيه إشارة إلى أنّ خروج الموتى من القبور يوم البعث لا يخرج عن أن يكون صورة من بين الصور التي يخرج فيها الحياة من عالم الموت، وأقرب مثل لهذا الأرض الجرداء الجدباء، ينزل عليها الماء، فتهتز وتربو وتنبت من كلّ زوج بهيج، فهل تعجز قدرة الله أن ينفخ في هذا التراب الهامد الذي احتوى أجساد الآدميين، فإذا هم بشر ينتشرون؟

والله عزّ وجلّ «والله أنبتكم من الأرض نباتاً ثمّ يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً»
(نوح ١٧ ـ ١٨)

فلم ينكر المنكرون البعث؟ ولم يجادلون فيه؟ إنّه ليس عن إنكار لقدرة الله تعالى، فما ينكر عاقل على هذه القدرة أيّ شيء، ولكنّه هروب من المسؤولية، وفرار من مواجهة الحساب يوم القيامة، وبخلاف الناس من مشاعر الإيمان بعقيدة الآخرة ينطلق كما يشاء، لأنّه عاش لا يعنيه إلّا شيء في سبيل حظوظه ولذّاته وشهواته، فطلبه العاجل، لا يرى للآخرة شيئاً فتعدى كلّ شيء إلّا هواه. وهكذا يغرّ المرء نفسه ويخدع عقله، ويسحب الدعي هوى فلا يرى من حقائق الأمور إلّا ما يشتهي وهواه.

٢٠ـ(ومن آياته أن خلقكم من تراب ثمّ إذا أنتم بشر تنتشرون)

إنّ الآية الكريمة وما سبقها من الآيات تشير [illegible] سبحانه، علا أن [illegible] يخلق من [illegible] وحده سبحانه تعالى في خالقيّته وربوبيّته وألوهيّته، في جلاله وعظمته، وعلمه وحكمته، وفي تدبيره وقدرته على الإبداع والإعادة يوم القيامة للحساب والجزاء، ودعوة للناس كلّهم في كلّ ظرف من الظروف إلى المبدأ والمعاد.

ودعوة لهم أن يتفكّروا في هذه الأدلّة والحجج الواضحة ويتعقّلوا في أنفسهم وفي نظام الكون والنواميس الوجودية حتّى يتبيّن لهم أنّه جلّ وعلا هو الحقّ، هو وحده الخالق العظيم، هو الربّ الكريم، هو الرازق الحكيم، هو وحده المدبّر الخبير، وهو وحده مصدر كلّ نعمة ورحمة يدركها ويتمتّع بها من حسنت نيّته وصفا قلبه وتفكّر وتعقّل ورغب في تدبّر الأمور ومعرفة الحقّ وإدراك الحقيقة، وإليه وحده ترجع الأمور كلّها، فلا بدّ من يوم البعث.

وقد جاءت هذه الآيات بأسلوب قويّ بعد ما تشير به أنّها للناس كلّهم على اختلاف طبقاتهم ويتساوى مع الأدلّة المحسوسة والمعقولة، وانتهت مع بعض هذه الآيات بالنهايات التي اختصت بها كلّ آية مثل «يتفكّرون» و«للعالمين» و«يسمعون» و«يعقلون» تدلّ على أنّها موجّهة إلى العقول والقلوب معاً وخاصّة إلى الفئة التي ترغب في الحقّ وإدراك الحقيقة.

و لاتقسيم على التعدد و التجاوح و التكثر و التكاثر، و التعدي و التضادّ مع سهولة الإجابة بالتمعن بجوامع العرجعو إلى خالقهم و أنفسهم ليتدبّروا ما فيها من حقّ وقوّة

و إطلاق الكلام في تلك الآيات الكريمة يعمّ الوجهين، و هذا ينكشف في كلّ وقت و مكان، و يتسقّ في متعطّيه حيث الناس في كلّ حال في كلّ زمان و مكان على التفكّر في خلق الله تعالى و آلائه و التعمّق في تعدد الكون و النواميس الوجود.

٢١ـ(و من آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها و جعل بينكم مودّة و رحمة إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون)

بيان دليل ثانٍ نفسيّ على المبدإ و المعاد، خطاب للنّاس كلّهم رجالاً و نساءً، لا الرّجال وحدهم كما توهّمه بعض المفسّرين، فكما أنّ الله تعالى خلق للرّجال من جنسهم أزواجاً، خلق للنساء من جنسهنّ أزواجاً، فكان الوفاق و الائتلاف بين المتزاوجين من جنس واحدة، و هذا من شأنه أن يوثق بين الزوجين، و أن يجمع بينهما على الأنس و المودّة. فإنّ الكائن الحيّ ينجذب بطبيعته إلى ما يشاكله من الأحياء، فكلّ جنس يميل إلى جنسه، و يجد بطمأنينته و الأمن و السكينة في جواره، سواء كان إنساناً أم حيواناً على أنواعه، أو النّبات على أصنافه و حتّى الجماد على أنحائه

و قوله تعالى «لتسكنوا إليها» فيه إشارة إلى هذه النعمة، و كشف عن وجه الحكمة فيها، و هي أنّه باجتماع الإنسان إلى الإنسان، و الذكر إلى الأنثى، تستريح النفس، و تسكن المشاعر، و تطمئنّ القلوب، و أنّه لانعمة أجلّ و لاأعظم من نعمة تفيض على الإنسان الأمن و السّكينة

و قوله عزّوجلّ: «و جعل بينكم مودّة و رحمة» أي بين الأزواج على تغليب الرّجال على النّساء في الخطاب، أو على حذف ظرف معطوف على الظرف المذكور أي جعل بينكم و بينهنّ، أو بين أفراد الجنس أي بين الرّجال و النّساء، و لكن إذا تحقّق الزّواج بالعقد لاعلى الإطلاق كما توهّم بعض المتعسّرين الضّالّين المضلّين

و ذلك أنّ في قوله سبحانه: «جعل» إشارة إلى أنّ المودّة و الرّحمة أمران يتولّدان من

الألفة والسكن الحاصلين بالعقد وأنه لولا العقد ما حصلت الألفة والسكن، ولولاهما ما قامت مودة ورحمة، كما لا توجد بين الزاني والزانية ألفة وسكن، ولا تقوم مودة ورحمة. لهذا جاء النظم القرآني مفرقاً بين الأمرين فجعل السكن في الطبيعة البشرية، ذكوراً وإناثاً، حقيقة في أصل خلقها على حين جعل المودة والرحمة حكماً من أحكام الشريعة وثمرة من ثمراتها، فعبّر عنها بلفظ «جعل».

وهذا إعجاز من إعجاز القرآن الكريم الذي يتجلّى في روعة أسلوبه، وجلال صدقه، إذ ليس كل ما هو من طبيعتنا يستتبع حدوث الرحمة والمودة وإن كان من شأنه أن يجمع ويقرب، فإن المودة والرحمة ثمرة الشريعة بالعقد بين الشخصين المتناسبين.

وقوله سبحانه «إن في ذلك» في معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه إشعار ببعد مرتبته.

وقوله جلّ وعلا «لآيات» بالتنكير للتفخيم أي لآيات عظيمة لا يكتنه كنهها كثرة لا يقادر قدرها.

وقوله تعالى «لقوم يتفكرون» التفات من الخطاب إلى الغيبة للتعميم، ففيه دعوة للناس عامة أن يتفكروا في خلق الإنسان من تراب، ثم انتشار نوعه في الأرض، وفي خلق الأزواج لماذا خلقت؟ ولأي شيء خلقت؟ ومن خلقها؟ ومن أنعم بها؟ ومن جعلها على الأحوال التي يعظم السرور بها؟ ولم لا يقدر أحد من الخلائق على ذلك؟ وذلك من أعظم البراهين القاطعة، والحجج الساطعة، والأدلة الواضحة على أن لها خالقاً واحداً مختاراً لها، وموجداً عليماً قديراً مدبراً يستحق التسبيح والتحميد ولا يستحقها غيره.

ودعوة للزوجين خاصة أن يتفكرا في الأصول التكوينية التي تجذب المرء إلى جنسه وفي الأصول التدوينية التي توجد بينهما المودة والرحمة والألفة والسكن، وبها يمتاز الإنسان من الحيوان.

وإن الآية الكريمة رائعة المدى والشقين المستمر، فالله عزّ وجلّ قد جعل لكل نفس زوجاً منها يميل كل جنس إلى جنسه، وجعل العقد بين الزوجين ليسهل سكن كل منهما لزوجه وتوادّهما وتراحمهما فيما بينهما، فمن واجب الإنسان، ومن باب أولى من واجب

المسلم، وخاصّة المؤمن ذكراً [illegible] في رعيه ورعايته على هذا الأساس، وأن يبذل جهده في عدم الخذلان عنه، وفي هذا [illegible] ما فيه من [illegible] لهذه الرابطة

٢٢- ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إنّ في ذلك لآيات للعالمين﴾

في الآية الكريمة إشارة إلى الآيات الآفاقية والأنفسية معاً، مما نشاهد من الكون وعوالم السموات وما فيها، والأقطار الأرضية، ومن اختلاف الألوان والبشرات واللغات التي لاحصر لها مع كونهم من أب واحد وأمّ واحدة.

وقد نظم اختلاف الألسنة والألوان في سلك الآيات الآفاقية من خلق السموات والأرض مع كونه من الآيات الأنفسية الحقيقة بالانتظام في سلك ما سبق من خلق أنفسهم وأزواجهم إيذاناً باستقلاله، والاحتراز عن توهّم كونه من متمّمات خلقهم. ومع ما في الجمع بين خلق السموات والأرض واختلاف الألسنة والألوان إشارة إلى هذه الظاهرة التي لا يكاد يلتفت إليها الناس من اختلاف ألسنتهم وألوانهم [illegible] وهي التي لا تكاد [illegible] عن خلق السموات والأرض وما فيها من أجرام وعوالم في الدلالة على وحدانية الخالق وربوبيته، على جلالته وعظمته، على علمه وحكمته وعلى تدبيره وقدرته.

إنّ الله سبحانه قد خالف بين الألوان والألسنة حتّى ما تكاد تسمع منطقين متّفقين في جرس واحد، ولاجهارة واحدة، وحتّى ما تكاد ترى صورتين متشابهتين [illegible] في الألوان والشيات والقسمات لحصول التعارف، وإلّا فلو كانت على منهاج واحد ولون واحد، وتقاسيم وتقاطيع واحدة لحصل الخلل والالتباس، ولانعدم التمييز بينها جميعاً حتّى أنّ التوأمين مع توافق موادّهما وأسبابهما والأمور الملائمة لهما في تخليق جسمهما في شيء من ذلك [illegible] في وجوه الشبه.

فكلّ إنسان من الناس هو عالم قائم بذاته في ظاهره وباطنه جميعاً، فإنّ في كلّ إنسان

به متفرّدة من آيات الخلق و قدرة الخالق، فعلى حين أنّ الناس و كأنّهم ثمار شجرة واحدة إذا هم ثمار مختلفة الطعوم و الألوان و الأشكال، لكلّ ثمرة منها طعمها و لونها و ريحها.

إنّ الناس يتّحدون في أصلهم جميعاً و كأنّهم ذات واحدة، فإذا نظرت إليهم فرداً فرداً، كان لكلّ واحد كأنّه ذات قائمة بذاته، بما له من سمات و مميّزات و خصائص.. فلكلّ إنسان نبرات صوته و مخارج كلماته و صفات أنغامه، و نحو ألحانه التي تميّزه من غيره، فلا تختلط نبرة بنبرة و لا تلتبس مخارج بمخارج، و لا تلتقي طبقة مع طبقة و لا لحن بلحن.. و إن بدا في ظاهر الأمر أنّ هناك تماثلاً و تشابهاً بين صوت و صوت و نغم و نغم و لحن و لحن.

و لكنّ الحقيقة غير هذا، حيث توجد فروق دقيقة و خطوط فاصلة في غاية الدقّة، تفصل بين صوت و صوت، و تحجز بين نغم و نغم، و بين لحن و لحن.. و كذلك الشأن في الألوان و الأشكال، و تشابهها، إنّها تتعدّد و تتعدّد، لحكمة قد وضعت كلّاً منها في موضعه، و جعلت بينها حاجزاً، فلا يبغي بعضها على بعض، تماماً كما جعل حاجزاً بين البحرين.

هذا في ظاهر الناس، أمّا ما في باطنهم فالأمر أعجب و أغرب، فنوازع التفكير، و مناحي العواطف، و مسارب المشاعر، و خلجات الخواطر، و وساوس الأهواء.. إنّها أمواج متدافعة على مدى محيط لا حدود له، و مع هذا فلا تختلط موجة بموجة، و لا يجتمع تيار في عباب تيار.

و قوله عزّوجلّ «إنّ في ذلك لآيات للعالمين» تخصيص بالعلماء، لأنّهم المنتفعون بها دون غيرهم، فكأنّها جعلت لهم دون غيرهم، و ذلك أنّ الباحثين في العالم الكبير و هو السّموات كلّها و الأرض جميعها، و في العالم الصغير و هو الإنسان وحده يقفون على آيات دقيقة دالّة على أنّ الصنع و الإيجاد مع النّظام الجاري فيه لا يقوم إلّا بالله تعالى و لا ينتهي إلّا إليه.

و لا يخفى على الباحث الخبير، أنّ السّموات و الأرض و ما بينهما كلّه عالم كبير، و أنّ

الإنسان وحده عالم صغير، ولكنه مع صغره أكبر من العالم الكبير، والعالم الكبير مع كبره هو أصغر من العالم الصغير لأن في العالم الصغير جميع ما في العالم الكبير مضافاً إلى ما في العالم الصغير مما ليس في العالم الكبير وإلى ذلك أشار مولى الموحدين إمام المتقين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع):

أتزعم أنك جرم صغير — وفيك انطوى العالم الأكبر

وفي قوله سبحانه «إن في ذلك لآيات للعالمين» إشارة إلى أن العلم هنا هو الذي يكشف هذه الأسرار، ويطلع على هذه الآيات فمن اطلع عليها فهو من العالمين، وإن لم يعرف الاصطلاحات العلمية ما عرف.

٢٣ـ(ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون)

دليل آخر يشير إلى دلائل الآخر الدالة على وحدانية الخالق وربوبيته، وجلاله وعظمته، وعلمه وحكمته، وتدبيره وقدرته على البعث والإعادة.

وقال بعض أهل البيان: لف ونشر بين الزمانين والفعلين بعاطفين إشعاراً بأن كلاً من الليل والنهار وإن اختص بأحدهما ولكنه صالح للآخر عند الحاجة كما يؤيده سائر الآيات الكريمة الواردة كقوله تعالى «وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً» النبأ ١٠-١١، فالتقدير منامكم بالليل، وابتغاؤكم فضله ورزقه في النهار وذلك أن الله عزّوجلّ قدّر الليل لينام الناس ويسكنوا ويستريحوا، وقدّر النهار ليكدّوا في سبيل الرزق وابتغاء فضل الله وقضاء مصالحهم وحاجاتهم لمعيشتهم وفي تقديم المنام على الابتغاء إشعار بأن الاستراحة مطلوبة لذاتها، وأن الطلب فلا يكون إلا لحاجة وقد فصّل بين القرينين الأولين بالقرينين الأخيرين لأنهما زمانان، والزمان والواقع فيه كشيء واحد مع إعانة اللف على الاتحاد يعني كأنه لم يعطف النهار على الليل، ولا الابتغاء على النوم ويجوز أن يعطف «ابتغاؤكم» على «منامكم» بتكرار الليل والنهار أي منامكم وابتغاؤكم من فضله بالليل والنهار لأن الإنسان كثيراً ما يطلب الرزق في الليل وينام في النهار، وبالعكس فتقديره منامكم ليلاً ونهاراً لأن الإنسان قد ينام في النهار للاستراحة

القوى الفائتة، و يقوى نحو الصحة. وابتغاؤكم من فضله تعالى أيضاً ليلاً و نهاراً لأنّ الإنسان قد يسعى لرزقه في الليل.

و في اقتران الفضل بالابتغاء إشارة إلى أنّ العبد ينبغي أن لا يرى الرزق من نفسه و بجدّه، بل يرى كلّ ذلك من فضله تعالى الموسّع من غير استحقاق لعبده.

و قال بعضهم إنّ توسيط الليل و النهار ـ و إن كان في نية التأخير ـ للاهتمام بشأنهما لأنّهما من الآيات في الحقيقة لا المنام و الابتغاء مع تعيّن توسطهما، و ذكر لفّ و نشر فيه.

و في تقديم النوم على اليقظة التي هي مدار سعيه و وسيلة معاشه و ابتغاؤكم من فضله إلفات إلى نعمة النوم التي قلّ أن يلتفت إليها أكثر الناس، حيث إنّ في النوم عزلاً للإنسان عن الحياة، و قطعاً للصلة بينه و بين ذاته حتى لكأنّه قد فقد وجوده، و من هنا كانت نظرة أكثرهم إلى النوم على أنّه عارض دخيل على الإنسان، يسلبه الأدوات التي تعرض للجسد. و هذا فهم خاطىء لهذه النعمة العظيمة التي تفيض بها الرحمة الإلهية على الإنسان.

و ندع النظر إلى النوم ـ كظاهرة جسدية ـ و إلى وظيفته العضوية في كيان الجسد الإنساني، و ننظر إلى ما يقع للإنسان في رحلة النوم و ما يصادفه على طريقه من رؤى و أحلام، حيث تنطلق قوى الإنسان الخفية، و تسبح في عوالمها، و تحلّق بعيداً أو كثيراً من مصادماتها التي تمسكها بها سلطة الجسد و تشدّها إليه جوارحه. ففي رحلة النوم و فيما بين اليقظة و النوم تنفتح للإنسان نفسه و روحه فيها و يرى هذا العالم الذي حيث لا قيود و لا سدود، و حيث يحقّق الإنسان في هذا العالم ما عجز عن تحقيقه في عالمه المادّي، فيجد في هذا ما يجد الجوعان بعد الشبع و الظمآن بعد الريّ.

فكم من محروم، طعم في نومه من كلّ طيّب كانت تشتهيه نفسه، و تقصر عنه يده؟ و كم من مظلوم شكوى سر تظلّم من يد ظالمه ثم جاء إليه في عالم الأحلام، صاغراً ذليلاً، فكان له الخاضع الطيّع، و شفى ما بنفسه من غيظ الظلم و مرارته؟ و كم من محبّ باعد الزمن بينه و بين حبيبه و انقطع بينهما حبل اللقاء، بعرفه في عالم الأحياء أو عالم الموتى و إذا هما في الكرى على لقاء، يستقيان كئوس الحبّ مترعة، و يرتشفان رحيق المودّة صافية؟

وكم من عالم وقف به علمه أمام معضلة لم يجد لها حلاً حتى إذا استسلم للنوم في صدره، و[illegible] شمس الراحة من نفسه وإذا هو بعد الاستيقاظ [illegible] في يومه قد [illegible] عليه في نفسه [illegible] بين يديه [illegible] بها! وكم؟ وكم؟ وكم؟ ويستطيع الإنسان في عالم النوم أن يحيي من تجارب حقيقته وتروحنه وانفسه ما لا يحصل في يقظته بمدركاته وحواسه [illegible] النوم [illegible] بطبيعته الإنسان بعالماً حتى وصله بعالم الروح [illegible] من [illegible] من [illegible] الذي [illegible] روحه ونفسه وعقله [illegible] في رحلة النوم من عالم الروح بكل ما يستطيع الوصول إليه منه

فالنوم ليس [illegible] وخلاف الروح وهو [illegible] تعطي [illegible] الروحي من الإنسان حظه من التحرر والانطلاق من [illegible] وصلاتها [illegible] وطلب الروح [illegible] في [illegible] حتى [illegible] في [illegible] المظلم بالحواس والمدركات [illegible] عنها

وماذا يبقى للإنسان أو من الإنسان [illegible] روحه [illegible] المصباح [illegible] [illegible] ولا [illegible] ولم [illegible] حياته [illegible] قول رسول الله ﷺ: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»

فالذين يستخفون بالنوم ويعدونه ضرورة من الضرورات [illegible] المفروضة على الطبيعة البشرية، ويعدونه [illegible] من [illegible] التي تلحق الإنسان وتطغى على وجوده [illegible] هؤلاء [illegible] الذي [illegible] من إدراك ما لا [illegible] ولا [illegible] الإنسان إلا أنه حيوان [illegible] هذا الغلاف الذي من العظم واللحم

وإذ كان النوم نعمة جليلة فإن الله تعالى قد جعل الليل الذي هو الظرف الطبيعي للنوم نعمة جليلة أيضاً كما قال عز وجل: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧٢].

فالليل [illegible] الكائنات الحية ومنها الإنسان، فيسلمها [illegible] إلى السكن، ثم

ثمّ إنّ [illegible] للموت وهو للبعث «وهو الذي يتوفّاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثمّ يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمّى ثمّ إليه مرجعكم» الأنعام ٦٠

وذلك أنّ الإنسان [illegible] في منامه [illegible] وهو في منامه [illegible] الذي [illegible] في منامه [illegible] على التكوين في زمن قصير.

وقوله تعالى «إنّ في ذلك لآيات لقوم يسمعون» [illegible] العالم الخارجيّ وما يجيء منه. وذلك ما يكون عليه الإنسان [illegible] «ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله» [illegible]

٢٤ـ «ومن آياته يريكم البرق خوفًا وطمعًا وينزّل من السماء ماءً فيحيي به الأرض بعد موتها إنّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون»

دليل آخر دالّ على التوحيد والبعث، وفي إيثار المضارع إشعار على استمرار ذلك، فإنّ الله عزّ وجلّ هو الذي يرسل البرق فيخيف به الناس من جهة، ويؤملهم برحمته من جهة أخرى [illegible] من السماء فيحيي به الأرض بعد [illegible] وذلك أنّ رؤية البرق [illegible] على الرحمة المرسلة من عند الله تعالى وحده على [illegible] السحاب الذي ينطلق البرق من خلاله، [illegible] مع البرق [illegible] الناس [illegible] واختلفت توقّعاتهم له بين اليأس والرجاء، والخوف والطمع

وذلك أنّ البرق وإن كان رسولاً من رسل الغيث لأنّه قد يجيء بالغيث وقد لا يجيء، فهناك برق يسمّى برق الخلّب، وهو الّذي يبرق ولا يصحبه مطر، ومن هنا كان قوله سبحانه «خوفاً وطمعاً» إشارة إلى أنّ لمعان البرق وإن طلع على النّاس بما يبشّر بالغيث، فإنّه يضع المشاعر المرتقبة المطر المتلهّفة عليه في موضع متأرجح بين الخوف والرّجاء.

بل إنّ الخوف ليغلب على الرّجاء، وحجّته في ذلك أنّ الحاجة إلى المطر شديدة، والطّلب به ملحّ، وهذا هو بعض السّرّ في تقديم الخوف على الطّمع. ذلك لأنّه إنّما كان متّجهاً أوّلاً إلى من يعيشون حياتهم على ماء المطر كسكّان الصّحاري والبوادي، فهؤلاء إذا تأخّر نزول المطر عاماً وأمسكت السّماء رحمتها فضلاً عنهم، فزعوا واضطربوا، وتعلّقت أنظارهم بالسّماء، يرقبون السّحب، ويرصدون مسيرتها، فإذا لمع البرق، بدا لهم منه الوجه الضّاحك المبشّر بالخير ففرحوا واستبشروا.

ولكن سرعان ما يطلع عليهم شعور أسود كالح، يقطع عليهم هذه الفرحة كأنّه يقول لهم: وما يدريكم أنّ وراء هذا البرق مطراً؟! ألا يجوز أن يكون برقاً خلّباً؟ وهنا يأخذ الخوف مكان الصّدارة على مشاعرهم شأن الحريص على الشّيء المتلهّف إليه، فيغلب عليه الخوف على فقده أكثر من الطّمأنينة إلى مداه.

وقوله تعالى «إنّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون» فإنّهم ينظرون في الآفاق نظرة تأمّل واعتبار في بدائع الأكوان ليتوصّلوا إلى معرفة مدبّرها وخالقها الّذي أحسن كلّ شيء خلقه ثمّ هدى وإلى معرفة مآل أمرها ومرجعها. فكان غيرهم كالأنعام لا عقل لهم بل هم أضلّ سبيلاً إذ لا يعرفون المبدأ ولا المعاد.

وذلك أنّ الآيات جمع آية وهي العلامة الظّاهرة وحقيقتها أنّ كلّ شيء ظاهر هو ملازم شيء لا يظهر مظهره فمتى أدرك مدرك الظّاهر منهما يتحقّق علم أنّه أدرك الآخر الّذي لا يدركه بذاته إذ كان حكمهما سواء، وذلك ظاهر في المحسوسات والمعقولات. فمن علم ملازمة العلم للطريق المنهج عقلاً ثمّ وجد العلم علم أنّه وجد الطّريق وكذا إذا علم شيئاً مصنوعاً علم أنّه لا بدّ له من صانع.

واشتقاق الآية بما سبق، وهي التي سير الناس بها، أو من قولهم أوى إليه أي يرجع إليها لمعرفة ذي العلامة.

٢٥ـ ﴿ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثمّ إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون﴾

دليل آخر من الأدلة الدالة على التوحيد والبعث بأن نظام الكون والتوسعة في السموات والأرض تقوم بأمره جلّ وعلا على أتمّ وجه، وأحكمه حتّى إذا حان الوقت الذي في علمه تعالى دعا الناس إليه فيقول: تعالوا، فخرجوا من بطن الأرض بلا تمكث فقيامهما بأمره سبحانه هو حفظ نظامهما، وإمساكهما على هذا النظام الذي وضعه الله تعالى، وثبوتهما على حالهما من حركة وسكون وتغيّر وثبات بأمره عزّ وجلّ.

وذلك أنّ القيام ـ في الأصل ـ: مقابل القعود، ولمّا كان أعدل حالات الإنسان حيث يقوى به على عامّة أعماله استعير لثبوت الشيء واستمراره على أعدل حالاته كما استعار لتدبير الأمر في قوله تعالى: «أفمن هو قائم على كلّ نفس بما كسبت» الرعد ٣٣

وقوله عزّوجلّ «أن تقوم السماء والأرض بأمره» بلا دعامة تدعمها، ولا علاقة تعلّق بها، وفي التعبير بالأمر مبالغة في كمال القدرة والغنى عن الآلة من عمد يراها الإنسان. إنّ الله تعالى أمسك السموات والأرض أن تزولا حالاً بعد حال على نظام حاصل وهي أعظم دلالة وأوضح برهان على أنّه لا يقدر على ذلك سوى الخالق الواحد القادر الحكيم ولو اجتمعت الجنّ والإنس على إمساكه في الهواء أو تثبيت ترابه على الماء لعجزوا.

بنى السماء فسوّاها بلا عمد ولم تمد بأطناب ولا عمد

وقوله تعالى «ثمّ إذا دعاكم دعوة من الأرض» كلام مسوق للإخبار بوقوع البعث ووجوده بانقطاع الأجيال وتعددها، وانقضاء الأحوال وغيرها.

فإن تسئل كيف صحّ توجيه الدعوة إليهم بالخروج وهم موتى؟

تجيب عنه إنّ الله تعالى يأمر إسرافيل بالنفخ في الصور، فتخرج الخلائق من

قبورهم، فالنفخة هي الدّعاء لأنّ إسرافيل يقول في نفخته أجيبوا داعي الله جلّ وعلا فيدعوهم بأمره تعالى فيخرجون من قبورهم. وفي خصمه بشارة بأنّ أمر الله تعالى وسلطانه الذي تقوم به السموات والأرض بأن تدعوا من القبور بعد موتكم دعوة واحدة، فإذا أنتم قيام تنظرون. وهذا يعني أنّ البعث بعد الموت، كما أن في هذا الوجود سنة سلطانه دوران الكواكب في أفلاكها، والشمس والقمر في فلكهما «لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكلّ في فلك يسبحون» (يس ٤٠)

وقوله عزّوجلّ «إذا أنتم تخرجون» فيه سرعة الاستجابة وترتّب الخروج الذي لأمر بالخروج بغير توقف، ولا يمكن أنها حسب المدعو عنه متقاعس، وقول الدعوة ويدنّ من يعني الحمل الذي يحمل على الدعوة من يقظي حين يقطع بالّ.

وقال بعضهم إنّ في الكلام استعارة تمثيلية وحسية ومكنية في الموتى عند أن يدعون الذاهب إلى محل بعيد عنه مما يشغلهم بالموت ... وهي عند تطبيقه في قوله سبحانه ...

وفي العطف ... إشارة إلى أنّ هذه الدعوة التي تدعى بها الموتى لم تجيء وفيها بعد وأنها أمر مستقبل لا يعلم أحد متى يكون إلاّ الله تعالى، وإنّ ذلك من المعلوم أنها لا تقع إلاّ بعد أن يموت الناس كلّهم وتنقضي أحوال الحياة الدنيا.

وفي التصدير لجملة الخبرية بـ «إذا أنتم تخرجون» ... الفجائية ... إشارة إلى أنّ البعث من القبور سيعقب الدعوة مباشرة بلا مهل كما قال الله عزّوجلّ «ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون» (يس ٥١) وتتحدث بما يقع على ... الذين لا يرجون بعثاً ولا يؤمنون بالدار الآخرة، وإذا فهم إذ بعثوا أخذهم الدهش والعجب، وقالوا ما حكاه القرآن الكريم عنهم «يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا» (يس ٥٢)

٢٦ـ (وله من في السّموات والأرض كلّ له قانتون)

تقرير لمملوكية الأكوان كلّها وخضوعها لأمر الله تعالى، واستجابتها لدعوته وأنّ الموتى إذا دُعوا من قبورهم لا يملكون إلاّ أن يستجيبوا لما دعاهم إليه تعالى، فهم محشورون

إليه، و ذلك أنّ وجودهم حدوثاً و بقاءً قائم به تعالى، فهم جميعاً فقراء و حاجة، فلا استقلال و لا استغناء لهم عنه بوجه من الوجوه. و هذا هو الملك الحقيقي الذي تترتّب عليه جواز تصرّف المالك في ملكه كيف يشاء. فله سبحانه أن يتصرّف في مملوكيه فينقلهم من عالم كمال بكمال إلى عالم بروز الكمال كما نقلهم من قبله إلى عالم الوجود و الكمال.

و في التعبير عمّا في السّموات و الأرض من المخلوقات بلفظة «من» و كذلك بلفظة «قانتون» التي للعقلاء، إشارة إلى أنّ هذه الموجودات محكومة بقانون، مسيّرة بحكمة و علم لكمال نفسيّاً أو تسبيباً، حتّى لكأنّ في كلّ كائن منها عقلاً مدبّراً و موجّهاً، فهي بهذا الاعتبار عاقلة مدركة. و لا يبعد أن يكون الاستغراق حقيقيّاً.

٢٧ـ ﴿و هو الّذي يبدؤا الخلق ثمّ يعيده و هو أهون عليه و له المثل الأعلى في السّموات و الأرض و هو العزيز الحكيم﴾

تقرير دليل آخر مبتنٍ على إثبات قدرة الله على المعاد لشدّة إنكارهم للمعاد، حيث إنّ بدء شيء إنشاؤه ابتداءً من غير مثال سابق، و إعادته إنشاؤه بعد إنشاء، فإعادة الخلق بعد إبدائه أسهل على الله تعالى من بدئه بمقتضى عقلكم القاصر كما تقدرون عليه فإنّ إعادة شيء من مادّته الأولى أهون عليهم من إعادته بدءاً.

و المراد بذلك هو التقريب لأفهام المنكرين للبعث و الحساب و الجزاء، و إلّا فكلّ الممكنات بالنظر إلى قدرة الله جلّ و علا سواء، فإعادة الخلق هو أهون عليه سبحانه من بدئه بالإضافة إلى أعمالكم و بالقياس إلى قدرتكم. و لا فرق بين الإبداء و الإعادة عنده تعالى سواء في السهولة، و هي تعني عدم وجود الصعوبة و المشقّة خلاف ما عند الناس.

و لا يلزم منه أن يكون في الإبداء صعوبة أو مشقّة على سبحانه لأنّ الصّعوبة و المشقّة في الفعل تتبع قدرة الفاعل بالعكس، فكلّما قلّت القدرة كثرت الصّعوبة، و العكس بالعكس، حتّى إذا كانت القدرة غير متناهية انعدمت الصّعوبة و المشقّة من رأس، و من البديهة أنّ قدرة الله عزّ و جلّ غير متناهية، فلا يشقّ عليه فعل أصلاً و هو المستفاد من

قوله تعالى «يخلق الله ما يشاء إنّ الله على كلّ شيء قدير» (النور ٤٥) فإنّ القدرة إذا جاز تعلّقها بكلّ شيء لم تكن إلّا غير متناهية

و لا يخفى على أصحاب البيان أنّ في الآية الكريمة فنّين من الفنون

ألف ـ فنّ الإستخدام، و هو فنّ دقيق رفيع عميق المعنى لسالك في باب البلاغة وفي تعريفه قولان عند علمائها

١ ـ أن يأتي المتكلّم بلفظة مشتركة بين معنيين اشتراكاً أصليّاً، متوسّطة بين قرينتين، أو متقدّمة عليهما أو متأخّرة عنهما، تستخدم كلّ قرينة منهما في معنى من معنيي تلك الكلمة المشتركة، سواء كان الإستخدام بالضمير كقوله تعالى «و هو الذي يبدؤا الخلق ثمّ يعيده» حيث إنّ الخلق في الأصل مصدر، و يكون عائد الضمير في «يعيده» عائداً على المخلوق، فهو استخدام، أو كان الاستخدام بغير ضمير كقوله عزّ وجلّ «لكلّ أجل كتاب يمحوا الله ما يشاء و يثبت» (الرعد ٣٨ ـ ٣٩)

فإنّ لفظة «كتاب» تحتمل الأجل المحتوم و الكتاب المكتوب، و قد توسّطت بين لفظتي «أجل» و «يمحو» فاستخدمت أحد مفهوميها و هو الأجل بقرينة ذكر الأجل، و استخدمت المفهوم الآخر، و هو المكتوب بقرينة يمحو»

٢ ـ أنّه إطلاق لفظ مشترك بين معنيين فيطلق فيريد بذلك اللفظ أحد المعنيين ثمّ يعيد عليه ضميراً يريد به المعنى الآخر أو يعيد عليه ضميرين، يريد بأحدهما أحد المعنيين، و بالآخر المعنى الآخر بعد استعماله في معناه الأوّل، كالآية الكريمة إذ أعاد الضمير و هو قوله تعالى «و هو أهون عليه» على الخلق بمفهومه الآخر و هو المخلوق لا بمفهومه الأوّل و هو المصدر

ب ـ فنّ المذهب الكلامي و هو احتجاج المتكلّم على ما يريد إثباته بحجّة تقطع المعاند له على طريقة أرباب الكلام، و منه نوع منطقيّ تستنتج فيه النتائج الصحيحة من المقدّمات الصادقة

و قال بعض أصحاب الكلام: هو إخراج الكلام مخرج الشكّ للمبالغة في العدل و المظاهرة في الاحتجاج على الخصم

وهو من طريف البديع أن يسترسل الشاعر في صورته والخطيب في منطقه، فيتصرف في صنوف صنعته، ويقرب من مقصوده شيئاً فشيئاً، ويدنو به من طريقة أهل الاستدلال في خطى حثيثة متواصلة، فيمهد مقدمات منتهية إلى نتيجة متوخاة، فيأتي بشواهد ودلائل، ويقيس قياس الفقيه المتكلف، ويبرهن على شاكلة الحكيم المتفلسف، وهكذا يقترب من مقصوده مليًّا. وهو فن من فنون البيان دقيق مسلكه، عميق فهمه، رقيق رمزه، قلّ من يوفّق لمثله في قدرة الاستحواذ على مشاعر من سمع الخطاب «إنّ من البيان لسحراً».

قال الله تعالى: «وهو الذي يبدأ الخلق ثمّ يعيده وهو أهون عليه» على فرض التسليم أنّ أحدهما أهون من الآخر فيما يسبق إلى نفوس العقلاء، وهذه طريقة عقلائية يستعملها العقلاء عند المقايسة، وقد كان الخصم معترفاً بأنّ الله تعالى هو الذي بدأ الخلق، إذ فالإعادة أهون من البداءة لأنّها من شيء، وتلك لا من شيء.

وقوله تعالى: «وله المثل الأعلى» إثبات وصف الله تعالى بأنّه ليس معه ما يقاس به فضلاً عمّا يساويه أو يدانيه أو يشاركه فيه غيره.

وذلك أنّ كلّ صفة من صفات الكمال تتصف بها شيء ممّا في السماوات والأرض فهي في حدّ نفسها من نعائمها، فإنّها ممّا أفاضه الله سبحانه عليه، وهو في نفسه خالٍ عنه، فالحيّ منها ميّت في ذاته، والقادر منها عاجز في ذاته، والعالم منها جاهل في ذاته، وهكذا سائر الصفات. ولذلك كان الوصف فيها محدوداً مقيّداً بشيء دون شيء، وحال دون حال.

فالعلم منها مثلاً ليس مطلقاً غير محدود، بل محدود مخلوط بالجهل عن ورائه، وكذلك الحياة والقدرة والملك والتدبير والجود والكرم والغنى والعظمة والكبرياء وغيرها من الصفات، فإنّ الله تعالى هو المفيض لهذه الصفات من فضله، والذي له من معنى هذه الصفات مطلق غير محدود، ومحض غير مخلوط، فلا جهل في مقابل علمه، ولا ممات يقابل حياته، وهكذا فالله عزّ وجلّ من كلّ صفة يتصف بها الموجودات السماوية والأرضية ـ وهي صفات غير محضة ولا مطلقة ـ ما هو أعلاها أي مطلقها ومحضها.

فكأنّه قيل هذا تنبيه قاصر، ولعلّ الأفضل إذ صفة الله تعالى عجيبة، وقدرته عامّة و

حكمته بأنّه فكرٌ سيّ [illegible] تعالى بدءاً و [illegible] و إعادةً على حدٍّ سواء و
لا مثل له سبحانه و لأنّه ليس كمثله شيء [illegible].

لمّا كان المثل كما قد عرفته مستعملاً في [illegible] و [illegible] كان هذا شأن
عجيب و نوع غريب.

و قال بعضهم [illegible] لأن [illegible] سبحانه كنسبة الأمواج إلى
البحر الزخّار فإنّ الموج لا شكّ أنّه غير [illegible] من حيث إنّه عرض [illegible] و
أمّا من حيث الوجود فليس فيه شيء غير [illegible] و قد عدّ الأمواج التي هي وجود
الحوادث و [illegible] و على البحر الزخّار الذي [illegible] يظهر من [illegible] و
من باطنه إلى ظاهره هذه الأمواج [illegible] و [illegible] و من نظر إلى
البحر و عرف انتهاء امواجه (حيث إنّ الأمواج لا تحقّق لها بأنفسها) قال: بأنّها أعدام
ظهرت بالوجود فليس [illegible] الحقّ تعالى و [illegible] إنّه موجود
محقّق، فوجوده [illegible] و المحقّق هو الحقّ [illegible]

و في هذا قيل

البحر بحر [illegible] في قدمه ... إنّ الحوادث أمواج و أنهار

لا [illegible] الأشكال [illegible] ... عمّن تشكّل فيها فهي أستار

إن تسئل [illegible] تعالى [illegible] الأعلى [illegible]
[illegible] سبحانه [illegible]؟

تجيب عنه [illegible] في [illegible] و الفعل
و الصّنعة لا بمعنى [illegible] في أصل [illegible] أو الفعل و الصّنعة [illegible]
مثل [illegible] أو صفته في غيره «ليس كمثله شيء» في [illegible] و الصّنعة و الفعل، فيحصل
كمال [illegible] و هذا المعنى الأوضح في [illegible] و صفاته

فكلّ ذي روح و نفس و جسم [illegible] و لا [illegible] هو العزيز
الحكيم الّذي ليس كمثله شيء

و قوله عزّ و جلّ «و هو العزيز الحكيم» في [illegible] لقوله تعالى «و له المثل

الأعلى، أي إنّه جلّ وعلا عزيز واجد لكلّ ما يفقده غيره، فيمتنع من أن يمتنع عليه شيء، حكيم لا يعرض فعله فتور، ولو لم يكن صفة من صفاته مثلاً أعلى ممّا عند غيره من الممكنات كانت محدودة غير مطلقة ومخلوطة غير محضة، لا خالية من النقص والقصور، ومستدعية ذلك النقص، فلم يكن عزيزاً على الإطلاق، وأحدث ذلك النقص في فعله ثلمة وفتوراً فلم يكن حكيماً على الإطلاق.

٢٨ـ (ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصّل الآيات لقوم يعقلون)

مستأنف سيق ـ على سبيل التمثيل والتشبيه في معرض الإفحام والتعريب، وموجّه بتّ معنى المشركين في كلّ ظرف من الظروف ـ للاحتجاج عليهم في إثبات التوحيد، وبطلان ما كانوا يزعمون أنّ لله سبحانه ممّا خلق شركاء في أصل الوجود أو في إيجاد العالم، أو في تدبير شؤون الكون ونواميس الوجود، أو في العبادة، فيسألهم سؤال إنكار وتقريع: هل كانوا يرضون أن يكون مماليكهم من العبيد والإماء شركاء لهم في أموالهم وتدبير أمورهم، يخافون جانبهم في تصرّفاتهم وسياساتهم، ويخافون محاسبتهم لهم أو مقاساتهم أو مناظرتهم.

فهم بغير شكّ لا يرضون أبداً أن يكون مماليكهم شركاء في أموالهم وأنداداً في شؤون حياتهم، مع أنّهم بشر مثلهم في الطبيعة والخلقة، فكيف يصحّ في عقولهم أن يجعلوا لله شركاء وأنداداً من خلقه، أو يزعموا أنّ الله سبحانه يرضى بهذا؟

فالمعنى: يا أيّها المشركون بالله سبحانه في أيّ نحو من أنحاء الشرك، إذا لم ترضوا ولن ترضوا في عبيدكم وإمائكم أن يكونوا شركاء لكم في أموالكم وأملاككم وشؤون حياتكم، فكيف ترضون لخالقكم أن يكون له شركاء، هل تكونونهم مماليك لكم تملكونهم وما في أيديهم، بحيث تخافونهم في التصرّف في أموالكم، والدخالة في تدبير أموركم بغير إذن منهم رضىً كما تخافون الشركاء الأحرار من نوع أنفسكم؟!

لا يكون ذلك أبداً، ولا يجوز أن يكون العبد شريكاً لمولاه في ماله وتدبير أمره، وإنّ العبد وما في يده ملك لمولاه، وإذا لم يجز ذلك فكيف يجوز أن يكون نوع من أنواع خلق الله سبحانه كالملائكة والجنّ، وهم عبيده مملوكون كعبيدكم، شركاء له في ملك من مخلوقه، أو كالأشجار والأحجار، بل مصنوع مخلوقه، حيث تصنعونه بأيديكم، وتتّخذونه آلهة لكم تعبدونها من دون الله

فهذا مثل ضربه الله تعالى من واقع الناس، ومن مستوى وجودهم فيه، نرى من خلال هذا المثل ما ينبغي لله تعالى من كمال وجلال، مثل تقدّس عمّا يجعلون لله سبحانه أنداداً، يعبدونهم، ويتّخذونهم أرباباً يحبّونهم كحبّ الله، بل ويؤثرونهم بالحبّ والولاء..!

وبهذا المثل يدعو المشركين إلى أن ينظروا في أنفسهم نظرة دقيقة، وتأمّل عميق، وأن يتفكّروا في الوضع الذي بينهم وبين عبيدهم، وما ملكت أيمانهم.. أيرضى هؤلاء السادة أن يسمحوا لما ملكهم ـ وهم بشر مثلهم ـ أن يشركوهم فيما آتاهم الله من مال ومتاع، وجاه ومقام؟ وأن يقفوا منهم موقف الندّ والشريك؟ وأن يحاسبوهم فيما يجرون عليه من تصرّفات في هذا المال، وذلك المتاع، ومن سلطان في ذلك الجاه والمقام؟

أيقبل مولى أن يكون لعبده يد على ما ملكت يده، فلا يتصرّف في شيء حتى يأخذ رضاه وموافقته؟ ذلك ما لا يرضاه مولى، ولا يقبله سيّد! وإلّا فأين السيادة؟ وأين سلطانها المبسوط على ما بين يديها؟

هذا والأمر يجري بين مخلوقين لله جلّ وعلا من سادة وعبيد، وفي مال الله وفيما رزق وأنعم من نعم! فكيف إذا خرج هؤلاء المشركون ومن سلك مسلكهم في أيّ ظرف من الظروف، عن دائرة أنفسهم، ينقلب هذا المنطق، حتى تنعكس هذه الصورة، وحتى يجعلوا خلقاً من خلق الله وعبداً من عبيده شريكاً له سبحانه فيما ملك، ملك خالص له، لم يعدّه من أحد، ولم يتلقّه من مخلوق؟ كيف يقبل هذا الضلال عقل؟ وكيف يطمئنّ إليه عاقل؟

وقوله تعالى: «هل لكم ممّا ملكت أيمانكم» بيان وتصوير للمثل المضروب والاستفهام للإنكار

و قوله سبحانه «فأنتم فيه سواء» تفريع على الاستفهام بمعنى النفي، و تحقيق لمعنى الشركة بينهم و بين العبيد و الإماء المملوكين لهم في أموالهم و أملاكهم، و بيان لكونهم و شركائهم متساوين في التصرّف فيما ذكر من مزيد لهم عليها إلّا بالمالكية الاعتبارية، فسلطنة المالكية مجازية باطلة و ليس فيها حقيقة

فالمعنى هل ترضون لأنفسكم، حال كون عبيدكم و ما ملكت أيمانكم في مرتبة ان يساووكم في التصرّف بأن يتصرّفوا في الأموال، و تشاركوكم فيها من غير فرق بينكم و بينهم فهم شركاؤكم معترفون بذلك مثلكم

و قوله جلّ و علا «تخافونهم كخيفتكم أنفسكم» الكاف نعت لمصدر محذوف أي تخافونهم خيفة كخيفتكم أنفسكم أي كما تخافون الأحرار المساهمين لكم في الحرّية و مثل الأموال و جواز التصرّف و التدبير

و المقصود نفي الأشياء الثلاثة ١ ـ الشركة بينهم و بين مماليكهم ٢ ـ نفي استواء المالك مع عبيدهم في التصرّف و التدبير ٣ ـ خوف الأحرار من المساهمين لهم في الحرية

و ليس المراد ثبوت الشركة و نفي الاستواء و الخوف كما زعم بعض المفسّرين

فالمراد إقامة الحجّة على المشركين، و إلزامهم على أنّهم لا يرضون بذلك، فمن لم يرض لنفسه شركة مملوكيه، و هم أمثالكم في البشرية، و يجعلون عبيد الله تعالى شركاء له سبحانه، فإذا بطلت الشركة بين العبيد و سادتهم فيما يملكه السادة بطلت الشركة بين الله تعالى و بين خلقه، فإنّ الخلق كلّهم عبيد الله عزّ و جلّ، فلم يبق إلّا أنّه الربّ وحده لا شريك له تعالى في شيء من شؤون خالقيّته و ألوهيّته و ربوبيّته و سيطرته و عظمته و جلاله

و قوله عزّ و جلّ «لقوم يعقلون» تنبيه إلى أنّ هذا التمثيل ممّا لا يكشف عنه المعنى المحقّق و المعارف إلّا لمن رغب في معرفة الحقّ و استعمل عقله في تدبّره و اتّبعه، و خالف هواه، حيث إنّ التمثيل تصوير للمعاني المعقولة بصورة المحسوس و إبراز للأوابد المدركات على هيئة المأنوس، و قد خصّ العقلاء بالذكر مع عموم تفصيل الآيات للكلّ لأنّهم المنتفعون بها، و يهتدون بهداها، يتفقّهون العبرة و العظة منها، و غيرهم كأنّهم لا يعقلون

٢٩ـ (بل اتّبع الّذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضلّ الله و ما لهم من ناصرين)

بيان لواقع أمر المشركين، و سبب شركهم و عبادتهم لآلهتهم الموهومة، على سبيل الإضراب عمّا يتفوّهون به من الأباطيل المختلقة سفهاً من أنفسهم و جهلاً من دون برهان لاح لهم فهم لعمى بصائرهم و زيغ قلوبهم لم يروا في هذا الشأن الواضح المبين، و لا في بيّنات الحجّة الدّامغة الواضحة لهم طريقاً إلى الله تعالى، فهم لم ينتفعوا بها و لم يجنوا من ثمارها المدركة للطّيّب شيئاً، بل هم مطبقون على ما هم عليه من شرك و ضلال، و مصرّون على كفرهم و عنادهم، و على غيّهم و فسادهم، إنّهم منقادون لأهوائهم الّتي غلبت عليهم و تسلّطت على عقولهم، و أخذت شعورهم

و من كان هذا شأنه، فمن يهديه إلّا معبود هواه، و لا مصاحب إلّا نداء شيطان نفسه الأمّارة بالسّوء، و لن يجد له من بعده نصيراً و لا حامياً

فهم في عقائدهم و تقاليدهم يتّبعون أهواء النّفس، و لا يستندون إلى عقل و علم و منطق، و لذلك لا تجدي فيهم الدّلائل و البراهين، و لا الإقناع و الأمثال، فإنّهم قد أعرضوا عن طريق الحقّ و الهدى، و اتّبعوا أهواءهم بغير علم فأضلّهم الله أي حرمهم من التّوفيق و السّداد، فلن ينالوا عندالله فوزاً و لا نجاحاً

و كان مقتضى الظّاهر أن يقال «بل اتّبع الّذين أشركوا» و بدلاً منه قوله «بل اتّبع الّذين ظلموا» لأنّ الشّرك لظلم عظيم، فوصفهم بالظّلم ليتمثّل به ما سيصفهم بالضّلال في قوله تعالى «فمن يهدي من أضلّ الله» فإنّ الظّلم يتبع الإضلال الإلهي كما يتبع العذاب الإلهي

و وضع الموصول «الّذين» موضع ضميرهم للتّسجيل عليهم بأنّهم في ذلك الاتّباع ظالمون، فإنّهم وضعوا الشّيء في غير موضعه، إذ كفروا بالله سبحانه و آمنوا بالطّاغوت، و كذّبوا رسل الله تعالى، و اتّبعوا أهواءهم، و حرموا بشركهم و ضلالهم أنفسهم عمّا ينبغي أن تنعّم من الجنّة و نعيمها، و عرّضوها لجهنّم و عذابها الخالد

و في الإضراب إعراض عن مخاطبتهم، و محاولة إرشادهم إلى الحقّ و الهدى، و إلى

الخير و الصّواب بضرب المثل و تفصيل الآيات الآفاقيّة و الأنفسيّة، و التكوينيّة و التدوينيّة، و استعمال المقدّمات الحقّة المعلومة، و بيّن لا تستحيله بعقلهم سحق و الهدى بسبب شركهم و إصرارهم على اتّباعهم لأهوائهم كأنّه قيل إنّهم لم يعقلوا شيئاً من الآيات المفصّلة، بل اتّبعوا أهوآءهم الزّائغة

و قوله تعالى: «بغير علم» إشارة إلى أنّ هذا الهوى المتسلّط على هؤلآء المشركين هو هوى أعمى عميّ مطبق لا يبعد إليه بصيصه من ضوء النّهار السّاطع فقد يكون الإنسان متّبعاً هواه، ثمّ إذا تبيّنه، و إذا رشد رشده شأن كثير من المشركين الّذين عاشوا في شرك الجاهليّة، متّبعين لأهوائهم، فلمّا أدركهم الإسلام، و طلعت عليهم شمسه، صحوا من نومهم، و استقبلوا نور الله، فأبصروا من عمى و هدوا من ضلال

و قوله سبحانه: «فمن يهدي من أضلّ الله» الاستفهام للإنكار الإبطالي، و المعنى فيه على النّفي و ما بعده متفرّع، و مدلوله الإياس من هداية المشركين المتّبعين لأهوائهم و إصرارهم على اتّباع الأهواء مع ظهور الحقّ لكن طمعهم الموجب لبقائهم على ظلمة ضلالهم و بقاءهم عليها و عدم صبرهم على الهداية و المعنى لا يهديهم الله تعالى لإصرارهم على اتّباع أهوائهم، و بقائهم على الشّرك و الضّلالة و الكفر و الغواية

و في الجملة إشارة إلى أنّ هؤلاء المشركين بالله سبحانه و المنكرين للبعث و الحساب و الجزاء جمدوا على شركهم و ضلالهم و أقاموا على إنكارهم و جهلهم، و أنّهم لن يتزحزحوا عمّا هم عليه من كفر و عناد، و لن يخرجوا عمّا هم فيه من شرك و فساد، و لذلك أركسهم الله تعالى في هذا الكفر و الضّلال و أغرقهم في هذا الشّرك و الفساد، فتركهم في طغيانهم يعمهون، و خلّى بينهم و بين أهوآئهم «فنذر الّذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون» يونس ١١

فإنّهم باتّباع أهوائهم «فنذر الّذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون» يونس: ١١)

فإنّهم باتّباع أهوائهم و سوء اختيارهم لن يقبلوا الحقّ و أعرضوا عن الهدى، و لن يطبّ لدائهم طبيب، و هكذا كانوا يعمهون في تيههم و ضلالهم، و يموتون على كفرهم و لجاجهم، فما لهم من ناصر يخلصهم من الكفر و الضّلالة، و يحفظهم عن الدّنيا حتّى إذا جاء وعد الله

تعالى و وقفوا موقف الحساب و المساءلة لم يكن لهم من حجة إلّا التحسّر و عضّ اليد، و ما لهم من ناصر يدفع عنهم بأس الله سبحانه و شديد انتقامه

و قوله جلّ وعلا: «و ما لهم من ناصرين» نفي لعدم حصول نصرة ناصر لهم من غيرهم بعد ما لم ينالوا التّخلّص من الضّلال و نجاتهم من عند أنفسهم لإضلال الله تعالى لهم باتّباعهم الأهواء، و إصرارهم على شركهم، و ... و في الآية الكريمة دلالة على أنّ من لم يصرّ على الشّرك و الضّلال و الكفر ... ترجى هدايته و في الجملة تسلية لرسول الله ﷺ و توطئة للأمر بعونه تعالى

٣٠ـ «فأقم وجهك للدّين حنيفاً فطرت الله الّتي فطر النّاس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدّين القيّم و لكنّ أكثر النّاس لا يعلمون»

الفاء تفريع على ما تحصّل من الآيات السّابقة و لا سيّما السّابقة المتضمّنة التشبيه تمثيلاً و المقصود فالمعنى إذا تبيّن لك الحقّ و تبيّن الرّشد و المقصود بسبب الأدلّة الواضحة و البراهين السّاطعة أنّ الخالق و المدبّر هو تعالى وحده لا شريك له، و أنّه سيبعث النّاس يوم القيامة و يحاسبهم كلاًّ على ما عمل به و حقّقت و أنّه لا محيص من الضّلالة و الانحطاط لمن أعرض عن الله تعالى و أقبل على غيره و لا من الهاوية وعذابها لمن أنكر البعث و الحساب و الجزاء، فأقم وجهك للدّين و الزمه، فإنّه الدّين الّذي تدعو إليه الخلقة الإلهيّة الأولى و هي الفطرة

فالجملة استعارة تمثيليّة لإقباله ﷺ على الدّين و استقامته و ثباته عليه، و التّوجّه التّامّ و عدم الميل عنه دون ما عوج و لا تردّد، و الاهتمام به اهتماماً مصحوباً بجدّ و ترتيب نسبة به فإنّ من اهتمّ بشيء محسوس بالبصر عقد عليه طرفه و سدّد إليه نظره، و قوّم له وجهه، مقبلاً به عليه فالمعنى فقوّم وجهك للدّين و عدّله غير ملتفت عنه يميناً و شمالاً، و امض على طريقه، و دع هؤلاء المشركين

و من المحتمل أن يكون تفريعاً على معنى التّسلية المستفادة من الآيات السّابقة الدّالّة على ما هو الحقّ و الصّواب و إقامة التّوجّه للدّين هي تحقّق القصد إليه بتمام كيانه من دون

الالتفات إلى شيءٍ غيره، والخطاب وإن كان متوجّهاً لرسول الله ﷺ ولكنّه عام يدخل فيه كلّ مؤمن، وخاصّة علماء الدّينيّة

وقوله تعالى «حنيفاً» حال من فاعل «أقم» أي حال كونك غير منحرف عن الدّين وهذا من بلاغة التّمثيل

وقد سبق منّا أنّ علم البديع والاستعارة ينقسم إلى قسمين

أحدهما ـ ما يكون متعلّقاً بالفصاحة اللّفظيّة، وهي على عشرة ضروب

منها ـ الاشتقاق وهو أن تتّفق الكلمتان في معنى واحد تجمعهما، ومنه قوله تعالى «فأقم وجهك للدّين حنيفاً فطرت الله الّتي فطر النّاس عليها»

ثانيهما ـ ما يكون متعلّقاً بالفصاحة المعنويّة وهي أيضاً على عشرة أنواع

منها ـ الالتفات والتّهييج، وهو عبارة عن الحثّ على الفعل الّذي لا يخلو عن الإتيان به، وعلى ترك الفعل الّذي لا يتصوّر منه تركه، ومن هذا القسم الحثّ قوله سبحانه «فأقم وجهك للدّين حنيفاً» إذ فيه حثّ لرسول الله ﷺ على الفعل الّذي لا يتصوّر منه تركه

وقوله سبحانه «فطرت الله» بيان للدّين الحنيف، ونصبها بفعل محذوف تقديره أعني أو أريد أو نحوهما، فالدّين الحنيف هو الإسلام الّذي هو فطرة الله الّتي فطر النّاس عليها، وخلقهم على استعداد فطريّ لقبول هذا الدّين، وهذا هو أولى من نصب «فطرت الله» على الإغراء بتقدير الزموا فطرت الله أو نحو هذا؛ لأنّ ذلك يقطع الصّلة بين الدّين الحنيف وفطرت الله، ويجعل كلّاً منهما كياناً مستقلاً على حين جعلهما التقدير الأوّل شيئاً واحداً وهو الأولى

وفطرة الله هي ما أودع الله عزّوجلّ في ذات الإنسان من قوىً عاقلة في أصل الخلقة مثل الإيمان بالله تعالى والتّنفّر من الكفر، وهذا هو ملاك أمر الدّين دين الله الّذي ارتضاه لعباده. وهذا هو الإسلام الّذي يقول: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً» المائدة ۳)

والخطاب في «أقم» وإن كان لرسول الله ﷺ ولكنّه يعمّ الكلّ، كما يفصح عنه قوله تعالى «منيبين» ولا يرد في «أقم» لأنّ رسول الله ﷺ إمام الأمّة وقائدهم،

فأمره (ﷺ) مستتبع لأمرهم، و المراد بالوجه فطرة الجريان على مقتضاها و عدم الإخلال به باتّباع الهوى و تسويل الشّيطان

و قوله عزّوجلّ: «الّتي فطر النّاس عليها» نعت لفطرت الله، تؤكّد لوجوب الإمتثال بالأمر، فإنّ خلق الله تعالى النّاس على فطرته الّتي هي عبارة عن استعدادهم لقبول الحقّ، و تمكّنهم من إدراك الهدى و بعد قبول الحقّ و درك الهدى في عمق ذاتهم

و قوله تعالى: «لاتبديل لخلق الله» في موضع تعليل للأمر بلزوم الفطرة أو بوجوب الإمتثال به، و فيه إشارة إلى ثبات الفطرة بها و استحالة تغيّرها

فلا تتبدّل الفطرة و لا تتغيّر بالإخلال بموجبها باتّباع الهوى و قبول وسوسة الشّيطان

و هذا خبر في معنى النّهي كأنّه قيل: لا تبدّلوا فطرة التّوحيد بالشّرك و لا يقدر أحد أن يغيّرها باتّباع الهوى و خطوات الشّياطين من الإنس و الجنّ

و قوله سبحانه: «ذلك الدّين القيّم» إشارة إلى الدّين المأمور بإقامة الوجه له أو إلى لزوم الفطرة المستفادة من الإغراء، أو إلى الفطرة إن فسّرت بالملّة و الدّين القيّم هو الدّين المستقيم على فطرت الله الّتي فطر النّاس عليها لاعوج فيها و التّذكير للإشارة باعتبار المذكور أو باعتبار الخبر، و بُعدها لبُعد مرتبتها

و قوله عزّوجلّ: «و لكنّ أكثر النّاس لايعلمون» استدراك عموم «النّاس» و في إيثار إسم التّفضيل دلالة على أنّ أكثر النّاس في كلّ ظرف من الظّروف لا يدركون حقيقتهم، و هم يعمون أن يروا فطرتهم، و إن يقع بعضهم أنّ هذا الدّين هو الدّين المطلوب بفطرة المحجوب معها كأنّها هي بعينه و الدّين الحقّ هو بعينها

و إنّ الآية الكريمة بصدد التّنبيه على الالتزام بتوحيد الله الّذي فطر النّاس كلّهم عليه و هو الدّين الحقّ الثّابت الّذي لا يصحّ عليه تبديل و لا تبديل و إن كان أكثرهم غفلوا عنه باتّباعهم الأهواء و خطوات الشّياطين

٣١ـ (منيبين إليه و اتّقوه و أقيموا الصّلاة و لا تكونوا من المشركين)

تعميم لخطاب المؤمنين بعد تخصيصه برسولهم (ﷺ) دعوة مشربعة للّذين لم

تخلّفوا عن فطرتهم الّتي تدعوهم تكويناً إلى التّوحيد بأن يعودوا بأنفسهم إلى الله تعالى وحده في كلّ زمان و مكان، و أن يتقوه بصالح الأعمال و اجتناب المعاصي، و بإقامة الصّلاة، و تحذيرهم عن مخالفتهم عن نظامي التكوين و التشريع و أن لا يكونوا من المشركين الّذين تخلّفوا عنهما

و تخصيص الصّلاة من بين سائر العبادات بالذّكر للاعتناء بشأنها، فإنّها تنهى أهلها حقّاً عن الفحشاء و المنكر، و أنّها عمود الدّين و معراج المؤمنين، فليس فوقها عبادة، فإن قبلت قبل ما سواها، و إن ردّت ردّ ما سواها، كما أنّ النّهي عن الشّرك من بين سائر المحرّمات بالذّكر لأنّ الشّرك أكبر الكبائر لكونه ليس فوقه ذنب فلا يغفر و يغفر دون ذلك

و قوله تعالى: «و لا تكونوا من المشركين» فيه دلالة على أنّ العبادة لا تنفع إلاّ بالإخلاص في التّوحيد

و من المحتمل أن يكون «منيبين إليه» كلاماً مستأنفاً جواباً عن سؤال مقدّر، دلّ عليه ما قبله و هو قوله سبحانه «لا تبديل لخلق الله» لأنّه خبر يراد به الأمر أي لا تبدّلوا خلق الله. و لذلك وقع في نفس أحد من مخاطبي هذا الأمر و أرادوا الإستجابة به، سؤال و هو كيف نتصرّف حتّى لا نبدّل خلق الله؟ فجاء الجواب: أنيبوا إلى الله و اتّقوه و أقيموا الصّلاة

فقوله عزّوجلّ: «منيبين» في قوّة فعل الأمر أو معطوف على فعل أمر مقدّر، و قدّم الأمر بالتّقوى على إقامة الصّلاة، لأنّ التّقوى و هي خوف الله و خشيته لا ثمرة للصّلاة إلاّ بها، فالصّلاة و إن كانت من العبادات و قربة من القربات لا تحصل لها إلاّ إذا كانت عن إيمان بالله حقّاً، و ولاء، و خشوع لجلاله و عظمته، و هذا ما يشير إليه قوله سبحانه «قد أفلح المؤمنون الّذين هم في صلاتهم خاشعون» المؤمنون: ١ - ٢

و قوله تعالى «قد أفلح من تزكّى و ذكر اسم ربّه فصلّى» الأعلى: ١٤ - ١٥.

٣٢ـ «مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ»

بيان إجماليّ في موضع تعليل النّهي في قوله تعالى «ولا تكونوا من المشركين» ووجه تفريقهم نفخ صفاتهم و... في دينهم إذ يوجب هدم أساس الدّيانة وسقوط الإنسانيّة وانحطاط المجتمع البشريّ. وهو تفرّقهم في دينهم وحزبهم أحزاباً مختلفة، تفرح كلّ حزب بما عندهم من الدّين والسّبب في ذلك كلّه هو اتّباع الأهواء، أشار تعالى إليه سابقاً في قوله «بل اتّبع الّذين ظلموا أهواءهم» إذ ظلموا الله جلّ وعلا بهتك حرمته، حيث خالفوه في تكوينه وتشريعه، وظلموا أنبياءه ورسله وأولياءه عليهم السّلام ودعاة الدّين والمصلحين، إذ هدروا سعيهم، وظلموا أنفسهم، إذ عرّضوها على الذّلّة والدّمار، وعلى العذاب والنّار، وظلموا الاجتماع البشريّ كلّهم إذ صدّوهم عن الدّين القيّم والصّراط المستقيم.

كلّ ذلك لأنّهم بنوا دينهم على أساس الأهواء المتشتّتة الّتي لا تجتمع على شيء واحد، حيث إنّ هوى النّفس لا تستقرّ في النّفوس بل ولا يثبت على حال واحدة، دون أن يختلف باختلاف الأحوال. وإذا كان الهوى أساس الدّين فلا بدّ من أن يتنوّع بتنوّع الأهواء، ولا يرى إلّا تفرقة، ولا فرق في ذلك بين الدّين الناقص والدّين الحقّ الموجّه بالهوى. فالنّهي عن تفرّق الكلمة في الدّين نهي في الحقيقة عن بناء الدّين على أساس الهوى وتوجيهه، دون العقل السّليم ومقتضى الفطرة البشريّة.

فعلى هذا البيان، في الآية الكريمة دلالة على أنّ المتفرّقين في الدّين والمشركين على شرع سواء.

فكلّ فرقة من فرق هذه الأمّة المسلمة خالفت الدّين الحقّ القيّم الّذي أمر الله تعالى باتّباعه وإقامة الوجه له، فهم داخلون في زمرة المشركين في الحقيقة، وعلى طرائقهم وفرقهم المختلفة وإن كانوا مسلمين ظاهراً، يعاملون معاملة المؤمنين.

ولا يبعد أن يكون قوله تعالى «من الّذين فرّقوا دينهم» بدلاً من قوله سبحانه «من المشركين» بإعادة الجارّ أي ولا تكونوا من المشركين الّذين فرّقوا دينهم باختلافهم فيه بسبب اتّباعهم أهواءهم المختلفة، حتّى تفرّقوا أحزاباً بحسب اختلاف أهوائهم، فيدينون

بالطبل، و بالطبل وجوه كثيرة، و فرق مختلفة فبعضهم يعبدون الأصنام المصنوعة من الأحجار و الأخشاب، و بعضهم يعبدون البشر المستعبد، و فريق يعبدون الملائكة [illegible] و طائفة يعبدون الطواغيت و الشياطين، و فرقة يعبدون الشمس و القمر و النجم هكذا!!

و لكلّ جماعة مع معبودها أسلوب عبادة و طقوس خصوصية، و [illegible] نفسها أنّها على الهدى و الصواب: «و هم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً» [illegible] كلّ ماسواها في ضلال و خسران

و ليس هكذا الحق، فإنّ له وجهاً واحداً، و طريقاً واحداً، و منهجاً واحداً

و فائدة الإبدال: هي التحذير عن الانتماء إلى حزب من حزب [illegible] كلّهم على الضلال المبين

في تلخيص البيان في قوله تعالى: «من الذين فرّقوا دينهم [illegible]» قال: و هذه [illegible] لأنّ الدين على الحقيقة لا يصحّ فيه التفريق [illegible] دينهم قد ذهب [illegible] وصفهم بذلك» انتهى كلامه

و قوله سبحانه: «و كانوا شيعاً» [illegible] صاروا فرقاً يجتمع كلّ فريق منهم على مذهب خلاف مذهب الفريق الآخر، [illegible] هم الّذين اجتمعوا على الحقّ [illegible] النبيّ ﴿ﷺ﴾ في قوله تعالى: «و إنّ من شيعته لإبراهيم» [illegible] الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﴿ع﴾ و هم [illegible] معه ﴿ع﴾ على الحقّ، [illegible] الحقّ معه، [illegible]

و في الآية الكريمة تلقين مستمرّ المدى بتقبيح التفرقة و الاختلاف في [illegible] أصولها و فروعها، [illegible] لأهواء النفوس [illegible] الأعمى، و النهي عنه، و هذا لا [illegible] عن طريق أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين [illegible]

واجب كلّ إنسان مؤهل له على شرط أن لا يكون فيه انحراف عن الفطرة الإنسانية وعن الأسس والمبادئ، الحكمة في الكتاب والسنّة، وأن لا يكون باعثٌ عن هوى أو هدفٌ إلى تأييده.

٣٣ـ (وإذا مسّ النّاس ضرٌّ دعوا ربّهم منيبين إليه ثمّ إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربّهم يشركون)

هذه الآية تبيّن الصور الفطرية التي فطر الله النّاس عليها، والإقرار بالتوحيد وبطلان الشرك، منها عند الضرّ والبلاء، والصور الطبيعية للمطلّة وظهور نشأتها من بعضهم حين الرّحمة والنّشر.

فالفطرة هي خطّ مغروز في النّاس جميعاً يولدون بها كما يولدون على صورة الإنسان وما فيها من جوارح وما في كيانه من قوى عقلية ونفسية وروحية. فهناك حال واحدة يأخذ فيها الفطرة مكانها في النّاس كلّهم حتى النّاس يُولدون من الكفّار والمشركين، والفجّار والمستكبرين، والمنافقين والمرتدّين، والّذين يكفرون من بعد ذلك، وإذا نزل بهم من بلاء وكرب، ففي تلك الحال تعود الإنسان إلى فطرته، أو تعود إليه فطرته، وإذا هو ـ من غير حساب أو تقدير، وعلى غير وعي أو إدراك ـ يفزع إلى الله جلّ وعلا، ويلوذ به من وجه هذا البلاء المطلّ عليه.

وفي هذه التجربة الّتي يمرّ بها كلّ إنسان مرّات كثيرة في حياته، شاهد يقوم في كيان الإنسان، يشهد بأنّ الله سبحانه في ضمير كلّ إنسان، وفي وجدان كلّ كافر ومشرك، وفاجر ومستكبر، وإن كان هو ينكر ذلك ولا يعترف به. ولكن إذا مسّه الضرّ وكربه الكرب، أخذته صحوة كصحوة الموت، وإذا نفسه قد أشرقت بنور الحقّ، فيعرف الله عزّ وجلّ ويمدّ يده إليه سبحانه، ولكن قد يغطي على بعضهم ظلام كثيف، حين تزول عنه هذه الغاشية، وتزايله تلك الصّحوة، وإذا هو على ما عهد عليه نفسه من كفر وضلال وبغي وفساد.

فالنّاس جميعاً عند الشدّة والضرّ يرجعون إلى فطرتهم الّتي تدعوهم إلى التوحيد.

ولكن فريق منهم عند الرحمة و يستريحون من ضغطهم المقيتة التي تدعوهم إلى الشرك بالله سبحانه

فقوله تعالى: «و إذا مسّ الناس ضرّ دعوا ربّهم منيبين إليه» تقرير لاتّحاد الناس جميعاً على الفطرة، و جبلاتهم في الصنعة، حيث إنّ كلّهم مؤمنهم و كافرهم صالحهم و فاسدهم على سواء في اللجأ إلى الله تعالى و الضراعة إليه، حين ينزل بهم الضرّ و تحويهم البلاء، ثمّ تختلف بهم الحال بعد هذا كما كانت حالهم مختلفة قبل ذلك، حيث إنّ المؤمنين اعتادوا على الاتّصال بالله سبحانه في السرّاء و الضرّاء، و على إيمانه و ولايته في اليسر و العسر، و أمّا غيرهم فإنّهم لا يعرفون الله تعالى و لا يؤمنون به و لا يتجاوزون إليه إلّا حين تضطرب بهم سفينة الحياة و تتقاذفهم الموج من كلّ مكان، فهنالك يدعون الله مخلصين له الدين كما دعا فرعون ربّه و آمن به حين أدركه الغرق!

قال الله تعالى: «حتّى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنّه لا إله إلّا الّذى آمنت به بنو إسرائيل و أنا من المسلمين آلآن و قد عصيت قبل و كنت من المفسدين» يونس: ٩٠-٩١)

و في التعبير بالمسّ دلالة على خفّته و سرعته كما أنّ في تنكير «ضرّ» و «رحمة» دلالة عليهما مع كون «ضرّ» تعليلاً لظهور فطرتهم، و «رحمة» تعليلاً لغفلتهم

و قوله سبحانه: «ثمّ إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربّهم يشركون» تصوير لحال غير المؤمنين حقّاً، حين يرفع عنهم البلاء، و تتداركهم رحمة الله جلّ و علا، إنّهم لا يكادون يخرجون من بؤر الهلاك و الدّمار، حتّى ينسوا ربّهم الّذي دعوه من قبل، و كأنّهم لم يكن بينهم و بينه شيء

و في العطف بـ «ثمّ» للتراخي بين الفزع إلى الله تعالى و بين الغوث، و استجابة الدّعاء، إشارة إلى أنّه ليس في كلّ غوث تعاجل المستغيثين، فذلك مرهون بتقدير الله تعالى و حكمته، و فيما قضى به في عباده، ثمّ إنّ الاستجابة إذا وقعت لاتقع على حسب تقدير الإنسان لحدود زمانها، و لا للصّورة الّتي تقع عليه، فذلك أيضاً مرهون بتقدير الله جلّ و علا و علمه و حكمته، و هذا ممّا يبتلى به العباد، فالمؤمنون يدعون الله تعالى تضرّعاً و خفية، و لا ييأسون من روح الله عزّ و جلّ و رحمته أبداً حتّى أنّه إذا لم يستجب

[illegible] محبوباً مستساغاً لأنّه من عند الله و [illegible] لا يؤمنون بالله تعالى، فلا يزيدهم ذلك إلّا كفراً بالله [illegible]

و قوله عزّ و جلّ [illegible] رحمة [illegible] دوقاً

و قوله تعالى [illegible] وهي ذات دلالتين

أولاهما [illegible] إلى [illegible] من [illegible] و [illegible]

و ثانيهما [illegible] خرجت [illegible] يتجهون [illegible] لا [illegible] إليهم الله من [illegible] و [illegible] و الاستغراب فهكذا [illegible] أن [illegible]

و قوله تعالى [illegible] بعمل القبيح ببعضهم دلالة على أنّ غيرهم [illegible] المؤمنين حقّاً

و قوله سبحانه [illegible] «ربّهم» إشارة إلى فداحة هذا [illegible] و دفع البلاء [illegible]

و في [illegible] المؤمنين حقّاً من [illegible] الله تعالى وحده [illegible] بكشف ما نزل [illegible] رحمة [illegible] طبيعتهم إلى الشرك بالله سبحانه و [illegible]

٣٤ـ «ليكفروا بما آتيناهم فتمتّعوا فسوف تعلمون»

[illegible] كقوله تعالى «ليكون لهم عدوّاً و حزناً» القصص: ٨)

أو بالأمر التهديدي، تهديداً لهؤلاء المشركين عند ذهاب الرحمة عنهم أي إشراكهم غير الله دليل على كفرهم بنعمته ورجوعهم عن الإخلاص له، فليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا بما نالوه رداحاً من الزمن فسوف يرون نتائج سوء هذا الكفر وشؤمه عليهم، كما يقول السيد لعبده متوعّداً إذا رآه قد خالف أمره: أعصني ما شئت وسوف ترى سوء أعمالك وتبعات مخالفتك

ومن المحتمل أن تكون اللام للأمر بمعنى أنّ شركهم بالله سبحانه هو علة كفرهم بما آتاهم الله من نعمه، فهم بهذا الشرك يكفرون نعمة الله عليهم ولا ينسبونها إليه، بل يجعلونها لمعبوداتهم التي يعبدونها من دون الله

وقوله تعالى: «فتمتعوا» التفات من الغيبة إلى الخطاب، والالتفات من الأمر الغائب إلى الأمر الحاضر للمبالغة في زجرهم من جهة حيث يوجه هؤلاء المشركون تهديداً ووعيداً من ربهم: فتمتعوا بما هم فيه وسوف تعلمون ما يترتب عليهم كفرهم وضلالهم و شركهم وعصيانهم من بلاء شديد، وعذاب أليم، وثوران الوجد والسخط من سخطهم في جنب الله واستهانتهم بأمره من جهة أخرى. فقد بلغ منهم ذلك أن يتضرّعوا عند الضرّ ويكفروا إذا كشف

٣٥ـ (أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلّم بما كانوا به يشركون)

مستأنف سياقيّ سيق للتقرير، تساؤل الإنكاري عمّا إذا كانوا يستندون في شركهم إلى برهان ووحي ربّاني، كأنّه قيل: إذا تعززت الحجج المذكورة على نفي الشّرك وبطلان الكفر، فماذا يقولون؟ أيتبعون أهواءهم في شركهم وضلالهم بغير علم؟ أم هم دليل آخر على أقاويلهم الباطلة وعقائدهم السّخيفة، بأن أنزلنا عليهم برهاناً؟

مجاز عقليّ كما تقول: كتابه ناطق بكذا، وهذا ممّا نطق به القرآن. ومعناه الدّلالة والشّهادة فهو يشهد بصحّة شركهم أو بالذي يشركون به. فالمراد بالإنزال الإعلام أو التّعليم مجازاً

والمراد بالتكلّم الدّلالة أو الشّهادة مجازاً. فالمعنى: ما علّمناهم برهاناً ولا آتيناهم

شاهداً يدلّ أو يشهد على ما كانوا به يشركون أو بشركهم؟!

ينكر عليهم ما اختلقوه من عبادة غيره بلا دليل ولا برهان، على سبيل الإنكار والإضراب عن خطابهم، وعن الحديث إليهم وبعدهم من مقام الحضور، إيذاناً بالإعراض عنهم وتعديد جناياتهم لغيرهم تعريضاً بهم بعد أن نعوا هذا الوعيد الشديد.

ومن المحتمل أن يكون التفاتاً عن المشركين وانعطافاً إلى من هم أهل للخطاب من المؤمنين الصّادقين ليحاكم هؤلاء المشركين مع هؤلاء المؤمنين: إنّهم أشركوا بالله سبحانه فما الحجّة التي بين أيديهم على هذا الشرك؟ أنزل الله عليهم كتاباً ينطق بشركهم الذي هم فيه؟ أم قام فيهم رسول من عند الله يدعوهم إلى هذا الذي يدينون به؟ ما برهانهم على هذا؟ وما الحجّة التي بين أيديهم والتي يعبدون بها تلك المعبودات؟.

إنّهم مطالبون بأن يقيموا على هذه المعبودات حجّة من سلطان، أو كتاب سماوي، أو رسول من عند الله جلّ وعلا، ولأنّهم الضلال المبين والخسران المبين «ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنّما حسابه عند ربّه إنّه لا يفلح الكافرون» المؤمنون ١١٧.

في تلخيص البيان، في قوله تعالى: «أم أنزلنا عليهم سلطاناً...» قال: وهذه استعارة والمراد بالسلطان هاهنا البرهان على أحد التأويلين وهو الحقّ الذي يتسلّط به الإنسان على مخالفه ويظهر على منازعه، وإنّما وصفه سبحانه بالتكلّم لظهور حجّته وقوّة دعوته فكأنّه ناطق، ومدافع مناضل. انتهى كلامه.

٣٦ـ ﴿وإذا أذقنا النّاس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيّئة بما قدّمت أيديهم إذا هم يقنطون﴾

إشارة بديعة أخرى إلى ما يبدو من طبيعة النّاس أيضاً من فرح وبطر في حالة اليسر والنّعمة، وقنوط وحزن في حالة الشدّة والضرّاء.

فالآية الكريمة بصدد بيان طبيعة الإنسان من حيث هو إنسان، والنّاس فيها درجات متفاوتة، خلاف الفطرة البشرية فإنّ النّاس كلّهم فيها على وتيرة واحدة، فالمؤمنون

باتّباعهم فطرتهم على حال غير حال غيرهم من الكفّار والمشركين، و الفجّار و المستكبرين و الفسّاق و المنافقين، الّذين يتّبعون أهواءهم، و يتأثّرون من طبيعتهم

ثمّ إنّ المؤمنين ليسوا على حال واحدة، بل هم درجات، و الدّرجة الّتي يتحقّق بها كمال المؤمن على صورة مثاليّة محمودة هي: ألاّ يستبدّ به الفرح إذا نالته نعمة، و ألاّ يدخل عليه اليأس و القنوط من رحمة الله تعالى إذا مسّه ضرّ و أصابته سوء، فهو على رجاء أبداً من رحمة الله جلّ و علا و رأفته ـ و هو في البلاء ـ ليستسيغ طعمه، و يُنزّله منزل الرّضا و التّسليم من نفسه، مفوّضاً أمره إلى الله تعالى، راضياً بما قسم الله له. و التّعبير بـ«إذا» الشّرطيّة أوّلاً، و المقابلة بين «إذا» في إذاقة الرّحمة، و «إن» في إصابة السّيّئة لتحقّق الرّحمة وكثرتها دون مقابلها لأنّ السّيّئة قليلة جزئيّة، و في نسبة الرّحمة إلى الله تعالى دون السّيّئة تعليم للعباد أن لا يضيفوا إليه سبحانه الشّرّ أبداً

و عدم بيان سبب إذاقة الرّحمة، و بيان سبب إصابة السّيّئة بـ«ما قدّمت أيديهم» يدلّ على أنّ الرّحمة تفضّل من دون استحقاقهم للرّحمة لأجل وجودهم، و السّيّئة عدل لاستحقاقهم العقوبة بأفعالهم

و قوله تعالى «بما قدّمت أيديهم» و لم يقل «بما قدّموا» على التّغليب للأكثر الأظهر لأنّ أكثر العمل و أظهره باليدين، و العمل بالقلب و إن كان كثيراً فهو أخفى، و إنّما يغلب الأظهر. و التّعبير بالمضارع في قوله تعالى «إذا هم يقنطون» لرعاية الفاصلة، و الدّلالة على حدوث القنوط و استمراره، و تمثيل حالهم

فالنّاس بحسب طبيعتهم لا يعدو نظرهم ظاهر ما يشاهدونه من النّعمة و النّقمة، إذا وجدوا فرحوا بها من غير أن يعقلوا و يتفكّروا أنّ ثمّ يد غيرهم و خشية من ربّهم إدامتها لم يكن، و إذا فقدوا قنطوا كأن ليس ذلك بإذن من ربّهم، و إذا ما شاء لم يأذن فتح باب النّعمة و بهذا يتّضح أن لا تدافع بين هذه الآية و بين قوله السّابق: «و إذا مسّ النّاس ضرّ دعوا ربّهم منيبين إليه» حيث إنّ هذه الآية بصدد بيان طبيعة النّاس المختلفة، و الآية السّابقة بصدد تصوير فطرتهم الواحدة الّتي فطر النّاس عليها، فلا اختلاف بينهم فيها، فإنّ النّاس متّحدون في فطرتهم، و مختلفون في طبيعتهم

٣٧ـ (أولم يروا أنّ الله يبسط الرزق لمن يشاء و يقدر إنّ في ذلك لآيات لقوم يؤمنون)

نسؤل عن معنى البسط و التقدير لما تقتضيه الفطرة من التوحيد، و دعوة الناس جميعاً إليه بأنّ الحالين عند من أظهر من المشاهدين من شخصين أو من شخص واحد في زمنين هما من الله تعالى وحده، فإنّه الّذي يبسط الرزق لمن يشاء أحياناً و يقدره على من يشاء أحياناً و هو ما ينبغي أن يكون مفهوماً، فإنّه مألوف مشاهد. و لأنّ فيه آيات و حكمها ربّانية يفهمها و ينتفع بها الّذين يؤمنون فطرتهم الّتي تدعوهم إلى التوحيد، فيؤمنون بالله وحده، فإنّهم يستدلّون بها على وحدانيّته، و على كمال علمه و حكمته، و تدبيره و قدرته.

و نعم ما قال الشاعر

نكد الأريب وطيب عيش الجاهل قد أرشداك إلى حكيم كامل

و قال الآخر

كم من أريب فهم قلبه مستكمل العقل مقلّ عديم
و من جهول مكثر ماله ذلك تقدير العزيز العليم

و قال آخر

يُعطى التيوس رزقاً بلا عدد و أهل الفصاحة رزقهم مكنونُ
فإن كان رزق لأهل فصاحتي فإنّني من التيوس أكونُ

و لا يبعد أن يكون الرؤية هنا بصريّة ظاهرة و علميّة معاً أي أنّهم رأوه ينتظر في وجوه حياة الناس و حوادثهم المختلفة. و من هذه الرؤية يجيء العلم الّذي يرى منه المبصرون أنّ الله تعالى بعلمه و حكمته لم يجعل الناس على سواء فيما قدّرهم من الرزق في هذه الحياة الدّنيا و لم يبسطه لهم جميعاً كما قال تعالى «نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدّنيا و رفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتّخذ بعضهم بعضاً سخريّاً» الزخرف: ٣٢)

و قال «و لو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض و لكن ينزّل بقدر ما يشاء إنّه بعباده خبير بصير» الشورى: ٢٧)

فهذا العلم الذي يجيء به النظر في أحوال الناس و في اختلاف أرزاقهم يدلّ على أنّ ذلك لم يكن إلّا بإرادة الله تعالى و مشيئته، و علمه و حكمته و تدبيره و قدرته، و على تقدير المالك الملك، المتصرّف في العباد، فبسط الله الرزق و توسعته لبعض الناس و تضييقه و تقديره لآخرين بحكمة و تقدير، فالرزق بيد الله تعالى يعطي منه من يشاء لمن يشاء ذلك ما تعرفه من الفطرة بطريقة واضحة صحيحة، و آمن بالله تعالى و رضي بما قسم الله له فلا يبطر المؤمن إذا أصابته نعمة و لا ييأس و لا يقنط إذا قدر الله عليه رزقه «إنّ في ذلك لآيات لقوم يؤمنون»

و أمّا غيرهم فتمنعهم عن فطرتهم، و اتّباعهم لأهوائهم، و غلبة طبيعتهم عليهم، فلا يرون لله تعالى في ذلك شيئاً و إنّما هي أسباب يفعل فيها الناس، و يتخطّطون ما عملها كما يتخاطفون الدنيا بأسبابها و ... فمن وقع بيده أو فقد ما يشتهيه رضي و اطمأنّ، و من لم يقع بيده أو فقد شيئاً غضب و حزن، و ساء ظنّه و حسرة

فمن نظر بعينه و قلبه في أحوال الدنيا و تقلّبات الأيام و تداولها بين الناس و تبدّل أحوالهم و اتّعظ و اعتبر بها، كان له من ذلك موقف رشيد حكيم مع ما يبتلي الله تعالى عباده من نعم و نقم .. فإذا ساق الله عزّ وجلّ إليه مزيداً من النعم و الإحسان، لم يستخفّه الفرح، و لم يأخذه الغرور، لأنّه يعلم أنّ ذلك إلى تبديل و تحويل و زوال

و أنّه إذا مسّته سوء و أصابته ضرّ لم يجزع و لا يأخذه اليأس و لا يقنط لأنّه يعلم بإيمانه بالله تعالى: أنّ تلك الأحوال لا تدوم أبداً، و أنّ مع العسر يسراً، و أنّ بعد الضيق و الشدّة فرجاً وسعة

فالآية الكريمة تدعو الناس إلى ما تدعوهم فطرتهم إليه و هو التوحيد من جهة، و تنكر على الذين غلبت عليهم طبيعتهم و تدعوهم إلى الشرك بالله سبحانه من جهة أخرى و تبيّن خطأهم في المبادرة إلى الفرح و السرور عند إذاقة الرحمة و إلى اليأس والقنوط حين إصابة السيّئة من جهة ثالثة

و ذلك أنّ الرزق في سعته و ضيقه تابع لمشيئة الله جلّ و علا، فعلى الإنسان أن يعلم أنّ الرحمة التي أذاقها الله تعالى إيّاه، و السيّئة التي أصابته إمّا بما كسبت يداه، و إمّا ابتلاء،

بحكمة نزول مشيّة الله عزّوجلّ فلا موجب للفرح بما أوتي منه، و لا للقنوط ممّا يرجى زواله، فيجب عليه بحسب الفطرة و يتمّ بها معرفته من دون شكّ ففيهما أن يسند إلى الله تعالى في الشدّة و الرخاء و لا يعوّقه بحسب طبيعته و هواه عن الإنابة إلى الله بمقتضى فطرته و لا سيّما عند بلوغ في قلبه من شكّ في السرّاء و الضرّاء منيباً إلى الله جلّ و علا

٣٨ـ (فآت ذاالقربى حقّه و المسكين و ابن السّبيل ذلك خير للّذين يريدون وجه الله و اولئك هم المفلحون)

خطاب لرسول الله ﷺ لأنّه مقصود بالأصالة في إيتاء حقّ ذي قرباه، فيجب على المؤمنين استمرار الحكم تبعاً، و لذلك لم يخاطبهم و لم يكرّر الأمر بالإيتاء.

قوله تعالى «حقّه» في جملة الحقّ في الضمير المفرد العائد إلى «ذا القربى» و في بعد المفعول الثاني «حقّه» على المعطوف و في المعطوف من «ذا القربى و المسكين و ابن السّبيل حقّهم» أو «حقوقهم» و في الإشعار على قرابة ذي القربى، و لم يعتبر من المسكين ذي المسكنة دلالة على خصوصيّة الفرد، و خصوصيّة حقّه.

فالمراد بالفرد يكون فرداً خاصّاً، و بالحقّ، حقّاً خاصّاً به و بذلك لم يعمّه إلى «المسكين و ابن السّبيل» فلهما الفرد الخاصّ حقّ خاصّ في ذمّة رسول الله ﷺ أمره الله تعالى بإيتائه إيّاه، فلا تبرأ ذمّته إلّا بأدائه.

و قوله تعالى «و المسكين و ابن السّبيل» في تخصيص الصّنفين بعد «ذي القربى» بالذّكر من بين الأصناف دلالة على أنّهما أولى بالإيتاء عليهما من سائر الأصناف.

و قوله تعالى «و أولئك هم المفلحون» حصر حقيقيّ على أنّ المتّصفين بالإيتاء المذكور استطراداً و إرادة وجه الله تعالى و الخلوص، هم الّذين التزموا بفطرتهم و خالفوا طبيعتهم، فآمنوا بالله حقّاً و ائتمروا بأوامره و انتهوا عن نواهيه، و عكس غيرهم من الكفّار و المنافقين، و الفجّار و المستكبرين. و في هذه الجملة و ما قبلها من تعليق حكم الحصريّة و الفلاح على إرادة وجه الله سبحانه ما لا يخفى.

فشتّان ما بين الفريقين فريق المؤمنين لفطرتهم الواحدة و عملوا على وفقها المؤيّد بالشريعة السماوية، و فريق الكفّار الذين هم تغلّبت عليهم طبائعهم الخبيثة، فصاروا هم و البهائم على شرع سواء بل هم أضلّ سبيلاً(١)

٣٩ـ﴿و ما آتيتم من رباً ليربوا في أموال النّاس فلا يربوا عند الله و ما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون﴾

مناسبة الآية لما سبق تقرير أنّ الله تعالى هو الّذي يعطي، و هو الّذي يمنع، و أنّ على المؤمنين الّذين يدركون أنّ المال مال الله سبحانه أن لا يبطروا و لا يستغلّوا أموالهم فيما لا خير فيه و لا خير لهم، و أن يبتغوا بالإنفاق منه وجه الله جلّ و علا و ابتغاء فضله و أجره.

هذا بناءً على أنّ المراد بالربا هنا أن يعطي الرّجل أخاه عطيّة طمعاً أن يزيده و يعوّضه بأكثر ممّا أعطاه فلا أجر له فيها فهذا مباح لا ثواب فيه.

و قوله تعالى «ليربوا في أموال النّاس» معناه ليزيد، و سمّاه ربا مجازاً لأنّه سبب للزيادة، و فيه كناية لأنّ الزيادة التي يأخذها المرابي من أموال النّاس بشرطها حرام لا تملكها أصلاً فالطريقة في موضع الكناية و المراد بالزكاة الصدقات.

و قوله سبحانه «فأولئك هم المضعفون» التفات عن الخطاب إلى الغيبة للتعظيم، فهو أمدح من أن يقول فأنتم المضعفون و فيه حذف المفعول به أي ثوابهم

كأنّه قال أولئك الّذين يريدون وجه الله بصدقاتهم هم المضعفون أجرهم عند الله تعالى و في الآية الكريمة تنبيه لطيف على أنّ الرّبح الحقيقيّ ليس في تنمية المرء لغيره من مال بقصد استغلاله و تكثيره و إن كان بغير شرط، فليس لهذا عند الله سبحانه أجر، و إنّما الرّبح الحقيقيّ هو في الصّدقات التي يعطيها صاحبها لوجه الله تعالى بدون مقابل و لا قصد استغلال و استثمار و لا تكثّر في المال، فالّذين يفعلون ذلك هم الّذين يربحون أضعافاً مضاعفة ممّا يكون لهم عند الله تعالى من الأجر العظيم، و ما لهم من بركات في أموالهم

٤٠ـ «اللّه الّذي خلقكم ثمّ رزقكم ثمّ يميتكم ثمّ يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيءٍ سبحانه و تعالى عمّا يشركون»

مستأنف بيانيّ مسوق لتقرير أدلّة التوحيد حسب ما تقتضيه الفطرة البشريّة تدعو الإنسان إليه على سبيل الخطاب للنّاس جميعاً و للمشركين خصوصاً في كلّ ظرف من الظروف. فإنّ الآية الكريمة تقرّر لهم و تعلمهم أنّ اللّه تعالى هو الّذي خلقكم بدءاً، و هو الّذي يرزقهم، ثمّ هو الّذي يميتهم، و هو قادر على إحيائهم بعد موتهم، فيتحقّق لهم المبدأ و المعاد معاً. ثمّ وجّهت إلى المشركين خصوصاً سؤالاً فيه تهديد و تحدٍّ عجيباً إذ ليس أحد من شركائهم يستطيع أن يفعل شيئاً من ذلك. ثمّ قرّرت تنزيه اللّه جلّ و علا و تقدّسه عمّا يشركونه معه من شركاء.

و قوله تعالى: «هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيءٍ» استفهام إنكاريّ توبيخاً و تحقيراً للمشركين الّذين يعبدون الآلهة و الأصنام الّتي لا تخلق و لا ترزق و لا تحيي و لا تميت، و تحقيراً لها و لعابديها. و «من» في «من شيءٍ» زائدة لتأكيد الاستغراق، و فيه طلب الإنصاف منهم، حيث وضعتهم موضع المسئول مرّة أخرى ليكشف لهم عمّا هم فيه من سفه و ضلال، و أنّهم قد عجزوا من قبل أن يأتوا بحجّة و برهان على ما يعبدون من دون اللّه في قوله سبحانه: «أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلّم بما كانوا به يشركون»؟ و أما و قد خلت أيديهم من هذا السلطان المطالبين به، من كتاب سماويّ أو رسول نبيّ ـ فقد جاءتهم آيات اللّه تدعوهم إلى أن يبحثوا عن هذا السلطان في داخل أنفسهم، و أن يدبروا عقولهم ـ إن كانت لهم عقول ـ إلى مظاهر الوجود و حقائقه، فإنّ في كلّ مظهر من مظاهره، و في كلّ حقيقة من حقائقه، سلطاناً و برهاناً على المعبود الحقّ الّذي يجب أن يُعبد، إنّه اللّه الّذي خلق الخلق كلّهم و رزقهم جميعاً و إنّه اللّه الّذي يميتهم ثمّ يحييهم.

فهل من معبودات المشركين في كلّ ظرف من الظروف من يفعل شيئاً من ذلك؟ هل من آلهتهم تلك من له مشاركة في خلقهم؟ و هل من آلهتهم تلك من له مشاركة في رزقهم؟ و هل تملك آلهتهم تلك إماتتهم أو بعثهم بعد موتهم؟؟؟!!!

هذه أسئلة على المشركين لابدّ و أن يجيبوا عنها، فإن كان جوابها إيجاباً ـ و هيهات ـ

كان ذلك حجّة لهم، و برهاناً مبيناً، يعبدون به تلك الآلهة عليه و يعظّمون و لا هم خالقـ
لها و لكن كان الجواب سلباً و هو الواقع فقد سقطت الحجّة و بطل البرهان، و كان عليهم أن ينفضوا أيديهم من تلك الآلهة، و أن يخلوها عن عقولهم، و أن يسقطوها من مشاعرهم و إلّا فهو الضلال و العمى و هو الضياع و الهلاك

إنّها قصّة منطقيّة قامت مقدّمتها على فرض، هو أنّ الألوهيّة لمن يخلق و يرزق و يميت و يحيي و الله عزّ و جلّ هو الّذي خلق و رزق و يميت و يحيي فهل من معبود لكم من يفعل شيئاً من هذا؟ كلّا إنّها لا تفعل شيئاً و إذن فلا مدخل لها في الألوهيّة و إذن فالله وحده المتفرّد بها لا شريك له

و قوله تعالى: «سبحانه و تعالى عمّا يشركون» تنزيه و تقديس لذاته عن الشّريك لله سبحانه على سبيل الالتفات تجهيلاً و تحقيراً للمشركين في كلّ ظرف من الظروف و التّعبير بالمضارع لما في الشّرك من استمراره من جهة، و للإشعار باستمراره و تجدّده منهم و أضرابهم من جهة أخرى

فالآية الكريمة من أبين الآيات الدّالّة على وحدانيّة الله تعالى و بطلان الشّرك مطلقاً على سبيل القضيّة المنطقيّة

٤١- ظهر الفساد في البرّ و البحر بما كسبت أيدي النّاس ليذيقهم بعض الّذي عملوا لعلّهم يرجعون)

مستأنف بيانيّ سيق لبيان نتائج الشّرك و الضّلال و الكفر و العصيان و سوء آثارهم في المجتمع الإنسانيّ، و أنّ الشّرك سبب ظهور الفساد الّذي هو ضدّ الصّلاح في شتّى أبعاد الشئون الاجتماعيّة و الفرديّة، في مختلف أنحاء الأرض برّها و بحرها

و في إيثار الماضي إشعار بتحقّق الفساد حتماً بالشّرك و إشاعة الفحشاء و المعاصي والحكم مستمرّ المدى باستمرار سببه «بما كسبت أيدي النّاس» لأنّهم خلفاء على الأرض و أصحاب الإرادات الحاكمة فيها، و إنّ كلّ ما على هذه الأرض من كائنات إنّما تتحرّك حركة منبعثة من طبيعتها الّتي أودعها الله تعالى فيها دون أن تخرج عليها و هذه

كان كلّ نوع من الكائنات على طريق واحد لا خلاف فيه بين فرد وفرد. وإنّ الإنسان وحده هو الّذي يعيش في الجماعة الإنسانية ذاتاً مستقلّة، له تفكيرها، وله سلوكها في الحياة.

ومن هنا كان التغيير والتبديل في المجتمعات الإنسانية، وكانت الحروب دائرة بينها، وكانت تلك الانحرافات والضلالات في العقائد والأفكار والمعاملات، من شرك بالله سبحانه، وكفر بالآخرة، وتكذيب للنبيّ، وتبديل، وغشّ، وخداع، ونفاق، وكبر، وعناد، وطغيان، وما إليها مما عمي به الناس من هوى، ومطامع.

ولقد دار النظر على هذه الأرض من جانب الإنسان، وليس معنى هذا أنّ الإنسان هو عنصر الفساد في هذه الأرض، إذ لو كان كذلك ما استحقّ أن يكون خليفة الله فيها، وإنّ الفساد فيها ناشئ عن غفلة فطرته، وغلبة ضعفه عليه، واستخدامه له، عن وجود تستخدمه كثير من دوابّ الأرض تدفعه للأخذ بها أو بالإفساد فيها وتدمير أهلها. وأمّا إذا اتبع فطرته، وغلب على ضعفه، واستخدم عقله، فيستخدم ما فيه صلاحها ونفع أهلها.

وفي قوله سبحانه: «بما كسبت أيدي الناس» إشارة إلى أنّ هذا الفساد والاعوجاج والاختلاط الّذي ظهر على وجه هذه الأرض، هو مما كسبته أيدي الناس أنفسهم، فهو من صنعهم ومن عمل إرادتهم الحرّة، ولهذا فهم محاسبون عليه، مؤاخذون به.

وقوله عزّ وجلّ: «ليذيقهم بعض الّذي عملوا» إشارة إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ ما يعمله الناس، هو محسوب عليهم، مجزيّون به، من خير أو شرّ. وليس كذلك ما تعمله الكائنات الأخرى الّتي تعيش مع الناس على هذه الأرض. إنّ ما تعمله لا إرادة لها فيه، شأنها في هذا شأن البذرة تُدفن في الثرى، فيخرج منها ما في طبيعتها من زهرة وثمرة. وإنّ الكائنات جميعاً للناس، مسخّرة، مستخدمة لهم.

ومن هنا كانت مسئولية الإنسان عن كلّ عمل يعمله، ليذوق ثمرة ما يعمل حلواً كان أو مرّاً: «وأن ليس للإنسان إلّا ما سعى وأنّ سعيه سوف يرى» (النجم: ٣٩ ـ ٤٠)

والآية الكريمة هنا إنّما تشير إلى الأعمال السيئة الّتي من شأنها الإفساد في الأرض، و

التي كان من شأن الإنسان أن يتجنّب، و يعمل ما هو خير وصلاح، و ما هو حسن وكمال.

و في قوله جلّ وعلا «ليذيقهم بعض الذي عملوا» إشارة إلى أنّ الله تعالى ـ فضلاً منه وكرماً و إحساناً ـ لم يجز الناس بكلّ ما عملوا من شرّ، بل ببعض ما كسبوا منه، حتى يكون لهم من ذلك زاجر يزجرهم، و إذا ما ساورتهم الأحداث يأخذون منه العبرة و العظة، و يحملهم على الإرعواء و الرجوع عن الشرك إلى التوحيد، و عن المعصية إلى الطاعة من قريب، و يستقيموا على طريق الحقّ و الهدى و الخير و الصلاح، و الصواب و الرشاد.

و لو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا لأهلكهم جميعاً، بل و أهلك معهم كلّ دابّة تدبّ على ظهر الأرض، و أيّة شكوى أن يدين بعض الناس بغير دين الله تعالى، و أن يتخذوا من دونه أولياء، و أن يدعوا له ولداً و شريكاً من خلقه، شركاً، فذلك ذنب عظيم «تكاد السماوات يتفطّرن منه و تنشقّ الأرض و تخرّ الجبال هدّاً أن دعوا للرحمن ولداً» مريم ٩٠ ـ ٩١.

و في قوله سبحانه: «ليذيقهم بعض الذي عملوا» تهديد لهم بإذاقة بعض الوبال الدنيوي لا كلّه، و لا الوبال الأخروي إن رجعوا عن الشرك إلى التوحيد و عن العصيان إلى الطاعة، و إلّا كان تهديداً لهم بإذاقة الوبال الدنيوي كلّه، و الوبال الأخروي تمامه. والمراد بإذاقة بعض ما عملوا إذاقة جزاء أعمالهم، فهم يذوقون جزاء بعض أعمالهم السيّئة كأنّهم ذاقوا بعض نفس أعمالهم، و هذا من الحذف الحسن لأنّه حذف المسبّب و إقامة السبب الذي أدّى إليه مقامه.

و قوله تعالى «لعلّهم يرجعون» يعني لا بدّ من أنّه عزّوجلّ يفعل بهم هذا ليرجعوا إلى الله تعالى و يؤمنوا به و يصلحوا.

٤٢ـ (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين)

استئناف بيانيّ سيق لتأكيد تسبّب المعاصي لغضب الله تعالى و نكاله، فأمر رسوله ﴿ﷺ﴾ بتحدّي مشركي مكّة بالتجوّل في أنحاء الأرض، فيسيروا فيها، فينظروا

عاقبة الطغاة الفجرة، و مصير الغواة الجبابرة، و خاتمة أمر الغواة الظلمة و يعلموا كيف أهلك الله تعالى الأمم الطاغية العاصية و أذاقهم سوء العاقبة بذنوبهم فيتحققوا صدق ما تقدّم فلا ينكرونه بمجرد الاستبعاد لمضمون الآية الشريفة

و قوله عزّوجلّ «كان أكثرهم مشركين» مستأنف بياني مسوق لبيان أنّ ما أصابهم و قد حلّ فيهم من حلّ كان بسبب الشرك في أكثرهم و الفساد و المعاصي في أقلّهم و فيه دلالة على أنّ الشرك وحده لم يكن سبباً لتدمير جميعهم، بل هو سبب تدمير أكثرهم و إنّ ما دونه من المعاصي و الذنوب يكون سبب تدمير غيرهم من أصحاب المعاصي

و فيه إشارة إلى أنّ الّذين ورد عليهم الهلاك من الأمم السابقة كان يغلب عليهم الشرك و الضلال و الكفر و الفساد و قليل منهم من آمنوا بالله تعالى و استجابوا لرسل الله

و من المحتمل أن تكون الجملة الإخبارية بياناً لأنّ الشرك هو سبب الفساد فوصفت بإشراكهم إذ نال غيرهم حيث إنّ الشرك فيه لا يصيب الّذين ظلموا منهم خاصّة فيه تهويل لأمر الشرك و تهديد لمشركي مكّة و لكلّ من سلك مسالكهم في كلّ ظرف من الظروف، فإنّ مصيرهم هو مصير الكفّار و المشركين من قبلهم، و ما أخذهم الله به من عذاب، و ما أرسل عليهم من مهلكات، فخربت ديارهم، و عفت آثارهم و بادوا عن آخرهم، و انقطع دابرهم بأنواع من النوائب و البلايا لكون أكثرهم مشركين، فأذاقهم الله تعالى بعض ما عملوا لعلّهم به المعتبرون فيرجعوا إلى الله تعالى بطاعته و فيه من تعليق الحكم على الوصف ما لا يخفى

٤٣ـ ﴿فأقم وجهك للدّين القيّم من قبل أن يأتي يوم لا مردّ له من الله يومئذ يصّدّعون﴾

تفريع على ما سبق أي فقد ظهر لك فساد الشرك، و وباله الّذي سيلحق بالمتلبّس به و فساد سائر الملل و النّحل «فأقم وجهك للدّين القيّم» و إن كان بإقامة وجوههم للدّين التفاتاً إلى رسول الله ﷺ بالأصالة، و إلى المؤمنين بالتبع، و لكنّ المستفاد من السياق أنّ المؤمنين هم المأمورون و الدّين القيّم هو الإسلام الّذي هو أصل كلّ دين سماوي، و مع كلّ

شريعة إلهيّة و بهذا كسب هذا التّقويم على كلّ دين، و تقدّمه على كلّ شريعة، و على كلّ كتاب

و قوله تعالى «فأقم ـ القيّم» داخل في نوع الاشتقاق من باب التّجنيس من علم البديع إذ يجمع اللّفظين «أقم» و «القيّم» الاشتقاق و هو توافق الكلمتين في الحروف الأصول مرتّبة، و الاتّفاق في أصل المعنى فإنّ «أقم» و «القيّم» كلاهما مشتقّان من قام يقوم

و قوله تعالى «يومئذ يصّدّعون» بيان لاختلاف أحوال النّاس يوم القيامة حسب اختلاف أعمالهم في الحياة الدّنيا فهم في الآخرة يتفرّقون، ففريق من فزع يومئذ و أهوال يوم القيامة آمنون، و إلى الجنّة و نعيمها يساقون، و فريق من أهوال يوم القيامة يفزعون و إلى النّار و عذابها يساقون

و في الآية الكريمة و تاليها تنبيه للنّاس و إنذار للكفّار و المشركين و تنويه بالأخيار و المؤمنين فإنّ طريق الفلاح توحيد الخالق عظمت قدرته و ملاكه هو الإخلاص في الأعمال إليه وحده فذلك الدّين المستقيم الّذي لا يلحق فيه عوج

٤٤ـ﴿من كفر فعليه كفره و من عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون﴾

مستأنف بيانيّ، معقّب على قوله تعالى «فأقم وجهك للدّين القيّم» فمن أقام وجهه للدّين القيّم و نفّذ أوامره و انتهى عن نواهيه فقد مهّد لنفسه مهاداً حسناً مباركاً، و أعدّ الدّار الّتي يرغبها في الآخرة، أمّا من أعرض عنه، و كفر به فعليه وزر إعراضه و كفره

و من المحتمل أن تكون الآية بياناً لوجه تفرّق النّاس يوم القيامة المشار في قوله «يومئذ يصّدّعون» حيث إنّ «من كفر فعليه كفره» أي وبال كفره و هو لا يضرّ إلّا عليه لا على غيره، «و من عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون» يسوّون منزلاً في الجنّة، و في تقديم الظّرف «عليه» دلالة على اختصاص الجزاء و العقاب و الوبال بمن كفر و في تقديم «فلأنفسهم» دلالة على اختصاص الثّواب بمن آمن و عمل صالحاً

قوله تعالى: «من كفر فعليه كفره» من باب ما يتعلّق بالفصاحة اللّفظيّة في علم

البديع، من نوع مقابلة اسقط مثله من وجه مقابله لمجرد بالمجرد

و قوله سبحانه: «فعليه كفره» فيه مضاف مقدّر أي وبال كفره و هي النار المؤبّدة أو الكفر مجاز عن جزائه بل عن جميع المضار التي لا تحصر و أنواعها و إفراد الضمير باعتبار لفظ «من» للتنبيه إلى قلة قدرهم عند الله تعالى و حقارتهم مع ما علم من كثرة عددهم، و جمعه في قوله عزّ و جلّ: «و من عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون» باعتبار معنى «من» و فيه مع رعاية الفاصلة إشارة إلى كثرة قدرهم و عظم شأنهم عند الله جلّ و علا

و مقابلة «من كفر» بـ«من عمل صالحاً» دون «من آمن» للتنبيه على أنه المراد بالعمل الصالح، و لما مرّ من أن الإيمان بدون العمل الصالح لا ينفع حتى أن مراد العمل الصالح ما يشمل العمل القلبي و غير ذلك معاً و العامل الصالح هو المؤمن العامل، مع أنّ العمل الصالح لا يصلح و لا يتصوّر إلا للمؤمن، على أنّ الإيمان مذكور في الآية التالية و من المحتمل أن يكون ذكر العمل الصالح دون الإيمان لغرض التكلّف عنه، و به يكمل الإيمان و أنّ الكفر ملازم للعمل معه، و أن يكون إفراد الضمير في الكفر و جمعه في الإيمان إشارة إلى أنّ الرحمة أعمّ من الغضب، فيشمل المؤمن و أهله و ذرّيته، و أمّا الغضب فمسبوق بالرحمة، لكنّه لازم من أتاه.

في تلخيص البيان في قوله تعالى: «و من عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون» قال: و هذه استعارة و معنى يمهدون أي يوطئون جنوبهم و يمكنون لأنفسهم عند مضاجع الموت و مواقف البعث، و ذلك كناية عن تقديم العمل الصالح، و المتجر الرابح تشبيهاً بمن وطّأ لمضجعه بالفرش الوثيرة و النمارق الكثيرة. انتهى كلامه

٤٥ـ (ليجزي الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات من فضله إنّه لا يحبّ الكافرين)

تعليل لقوله تعالى «يمهدون» مع ما فيه إشارة إلى تفرّقهم يوم القيامة بأنّ المؤمنين متفرّقون من الكافرين ليجازي تعالى المؤمنين بما يخصّهم من فضله، و لا يحبّ الكافرين أي يبغضهم، و ذلك يستدعي عقابهم، و فيه من التهديد و الوعيد ما لا يخفى و من المحتمل أن

تكون عملاً لقوله «يصّدّعون»، و في الاقتصار به ذكر جزاء المؤمنين إشعار بأنّه هو المقصود بالذات و الأصلي من ذكر جزاء الكافرين بالفحوى حيث إنّ عدم المحبّة كناية عن البغض عرفاً و هو يقتضي الجزاء بموجبه، فكأنّه قيل و ليعاقب الكافرين و أقيم الموصول مقام الضمير للتوسّل بذكر الصلة التي اتّصفوا بها، و التي كانت سبباً في رضى الله تعالى عنهم، و إسباغ فضله و رحمته عليهم فيه بمعنى الجزاء.

إنّ الموصول في معنى المشتق و التعليق به يفيد علّيّة مبدأ الاشتقاق، فيه تعليق على الوصف مشعراً بعلّيّة الوصف في الحكم، و تنبيهاً إلى أنّ الفلاح و الفوز عند الله عزّوجلّ للمؤمن الصالح فقط.

و قوله تعالى «من فضله» فيه دلالة على أنّ الإثابة تفضّل محض و فيه معنى عدم الاستحقاق، و هذا كون الفضل محضاً لا ينافي عدّما يؤتى المؤمنين الصادقين جزاءً و فيه معنى المقابلة، و ذلك لأنّهم بأعيانهم و ما يصدر عنهم من أعمالهم ملك طلق لله عزّوجلّ، فلا يملكون لأنفسهم شيئاً حتّى يستحقّوا به الجزاء، و أين العبوديّة من الملك و الاستحقاق، فما يؤتونه من الجزاء تفضّل من مالك الملوك فهو بغير استحقاق.

و لكنّ الله تعالى بفضله و رحمته اعتبر لهم ملكاً لأعمالهم في ما ملكهم و ملك أعمالهم، فجعل لهم بذلك حقّاً يستحقّونه، و جعل ما يثيبون به من الجنّة و الزلفى أجراً مقابلاً لأعمالهم، و هذا الحقّ المجعول أيضاً فضل آخر منه جلّ و علا، و سبب ذلك حبّه تعالى لأنّهم لمّا أحبّوا ربّهم قدّموا وجوههم للدين القيّم، و اتّبعوا الرسول ﷺ في ما دعا إليه، فأحبّهم الله كما قال «قل إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يحببكم الله» آل عمران: ٣١)

و بما أنّ الآية تعدّ ما يؤتيهم الله من الثواب جزاءً، و فيه معنى المقابلة و المبادلة، و تعدّ ذلك من فضله نظراً إلى أنّ نفس هذه المقابلة و المبادلة فضل من الله تعالى، و منشأه حبّه تعالى لهم كما يومئ إليه تذييل الآية بقوله «إنّه لا يحبّ الكافرين»

و من هنا ظهر أنّ قوله تعالى «إنّه لا يحبّ الكافرين» يفيد التعليل بالنسبة إلى جانبي النفي و الإثبات جميعاً أي إنّه تعالى خصّ المؤمنين العاملين للصالحات بهذا الفضل، و يحرم الكافرين منه لأنّه يحبّ المؤمنين و لا يحبّ الكافرين

و في قوله عزّوجلّ «إنّه لايحبّ الكافرين» إيذان لهم على مواقع فضل الله تعالى و إحسانه لأنّه سبحانه لايحبّهم و لايقرّبهم منه، على حين أحبّ المؤمنين الصّالحين و برّهم منازل القرب و الرّضوان.

و من المحتمل أنّ قوله تعالى «إنّه لايحبّ الكافرين» تقرير بعد تقرير على الطّرد و العكس، و يعني بذلك كلّ كلامين يقرّر الأوّل الثّاني، و بالعكس، سوآء كان صريحاً أو إشارة أو مفهوماً و منصوصاً.

و ذلك أنّ قوله تعالى «ليجزي الّذين آمنوا» يدلّ بمنطوقه على ما قرّر على اختصاصهم بالجزاء الكريم، و بمفهومه على أنّهم أهل الولاية و الزّلفى و قوله عزّوجلّ «إنّه لايحبّ الكافرين» تعليل الاختصاص يدلّ بمنطوقه على أنّ عدم المحبّة بمعنى حرمانهم، و بمفهومه على أنّ الجزاء لأضدادهم موفّر، فهو تعالى يحبّ المؤمنين.

و قال بعضهم إنّ قوله جلّ وعلا «فأقم وجهك للدّين القيّم» سنامها كالمورد للسّؤال و الخطاب لكلّ أحد من المكلّفين، و قوله سبحانه «من كفر فعليه كفره» و رد على الاستئناف، منطو على الجواب، فكأنّه قيل: قيموا على الدّين القيّم قبل مجيء يوم يتفرّقون فيه فقيل: ما المنقسمين على الدّين؟ و ما على المخرجين عنه؟ و كيف يفترقون؟ فأجيب «من كفر فعليه كفره» و أمّا قوله تعالى «ليجزي الّذين آمنوا» فينبغي أن يكون تعليلاً لكلّ متّصل ما يترتّب على ما قبله و ما يتّصل بكلّ يتعلّق «يمهدون» و حذف لشدّة المناسبة شأن الإيمان و العمل الصّالح، و عدم الإعطاء بمعنى الكافر و لذلك وضع موضعه «إنّه لايحبّ الكافرين».

و قال بعضهم: «إنّ في الآية الكريمة لطيفة بديعة، و هي أنّ الله تعالى لمّا أسند الكفر و الإيمان إلى العباد، قدّم الكافر، و عند ما أسند الجزآء إلى نفسه قدّم المؤمن لأنّ قوله سبحانه «من كفر» وعيد للمكلّف ليمتنع عمّا يضرّه فيبعده تعالى من الشّرّ و الفساد و قوله عزّوجلّ «و من عمل صالحاً» تحريض له و ترغيب في الخير ليوصله إلى الثّواب، و الإبعاد مقدّم عند الحكيم الرّحيم، و أمّا عند الجزاء فإنّه تعالى لايحسن إظهار الكرم و الرّحمة.

هذا و لمّا ذكر جلّ وعلا ظهور الفساد و الهلاك بسبب الشّرك و المعاصي، ذكر ظهور

الصّلاح، و لم يذكر تعالى: أنّه بسبب الإيمان و العمل الصّالح؛ لأنّ الكرم لم يذكر لعقابه سببٌ لئلّا يتوهّم منه الظّلم، و لا يذكر لفضله لإحسانه مقابل

٤٦ـ (و من آياته أن يرسل الرّياح مبشّرات و ليذيقكم من رحمته و لتجري الفلك بأمره و لتبتغوا من فضله و لعلّكم تشكرون)

مستأنف بيانيّ مسوق ـ على سبيل الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ـ لينبّه على بعض آيات الله تعالى الدّالّة على وحدانيّته و ربوبيّته و علمه و حكمته، و جلاله و عظمته، و تدبيره و قدرته، و ما فيها من أفضاله تعالى على النّاس أجمعين في كلّ ظرف من الظّروف؛ فهو الّذي يسوق الرّياح مبشّرة بالأمطار الّتي فيها لهم الرّحمة و البركة، و هو الّذي يحرّكها أيضاً لتسيير المراكب البحريّة في البحر حتّى يقوموا عليها بأسفارهم الّتي يبتغون بها رزق الله و فضله، في ذلك كلّه لآيات دالّة على استحقاقه لأن يعبدوه وحده و شكرهم على أفضاله عليهم

و هم يعيشون فيها، و لا يكادون يلتفتون إليها، كانت نعماً عامّة شاملة، يسع النّاس جميعاً كالماء، و الهواء، و النّور و غيرها؛ فهذه النّعم إذا كانت حظّاً مشاعاً في النّاس، لا يتكلّفون لها ثمناً من أنفسهم عفواً صفواً بلا حساب ـ إذا كانت كذلك ـ فإنّهم قلّ أن يلتفتوا إليها و أن يعدّوها نعمة من نعم الله تعالى عليهم؛ لأنّ الإنسان إنّما ينظر إلى نعمه خاصّة، و يلتفت إلى الأشياء الّتي تمسّه وحده، و تقع لديه دون غيره، و يكاد يستأثر بها أو تلك الّتي يتمايز فيها النّاس، و تختلف حظوظهم منها، و الّتي هي مجال تنافس بينهم

و قوله تعالى: «و من آياته أن يرسل الرّياح مبشّرات و ليذيقكم من رحمته» إشارة إلى هذه النّعمة العظيمة، النّعمة الشّاملة، و هي الرّياح الّتي يرسلها الله تعالى مبشّرات تسوق بين يديها السّحاب الّذي يحمل الحياة للنّاس و الدّوابّ و الأنعام، و الأرض بما ينزل منه من ماء، فهو الرّحمة الّتي ينزلها الله عزّ و جلّ على عباده، و يذيقهم منها طعوم فضله و إحسانه

و قوله سبحانه: «مبشّرات» في موضع تعليل لإرسال الرّياح فكأنّ التّقدير ليبشّركم بنزول الغيث

في تلخيص البيان: في قوله تعالى: «ومن آياته أن يرسل الرياح مبشّرات» الآية «هذه استعارة والمراد بها ما جرت به العادة من هبوب الرياح أمام الغيوث، وإنّ ذلك يقوم مقام النّطق بالبشارة والوعد بالأمطار الموقّعة من بدئ الرّحمة والرّحمة في كثير من الآيات كناية عن الغيث»

وقد سيقت «مبشّرات» لكونها معرفة أنّ عطفه إذا بشّرت بأنّه حيّ، مطر يحيي به الأرض لما فيه من ظهور هذا المعنى ودلالته على ذلك بمثل جاعل لأنّه من طرق العادة التي أجراها الله عزّ وجلّ

وفي عطف «وليذيقكم من رحمته» على «مبشّرات» إشارة إلى أنّ البشرى التي تحملها الرّياح إلى النّاس فيها سعادة ورضاً، ويشتقّ لاستقبال هذا الخير والفيض. وفي قوله تعالى «وليذيقكم» استعارة مكنيّة، وفي «من رحمته» مجاز مرسل علاقته الحاليّة لأنّ الرّحمة عين في الخصب والمطر، فالخصب حالّ والرّحمة محلّ، وإنّ المراد من إذاقة الرّحمة إصابة أنواع النّعم المترتّبة على جريان الرّياح من خصب المطر، والزرع، وتلقيح الأشجار، ودفع العفونات، وتصفية الجوّ وغير ذلك

وقوله عزّوجلّ «ولتجري الفلك بأمره» آية أخرى من آيات الله جلّ وعلا. والمراد «بأمره» مطلق، يشمل الرّياح ونفخه وكلّ دافع ومحرّك لأنّه تعالى خالق كلّ شيء فبأمره عزّوجلّ وقدرته تسير السّفن على وجه البحار والمياه

وقوله سبحانه «ولتبتغوا من فضله» آية رابعة من آيات هذه الآية لأنّه يذكّرهم بأنّ على قدرة واقتدار عظيم، ومن فضله الّذي يركبون هذه السّفن من منافع جريانها وجريه

وقوله تعالى: «ولعلّكم تشكرون» غاية الأشياء للعباد وفوتهم وفوزهم بحمد الله تعالى والثّناء عليه، وإقامة ... على أولائه، وإفراده بمعبوديّته، والإقرار بوحدانيّته وعلمه وحكمته، وجلاله وعظمته، وتدبيره وقدرته. ولكن أكثر النّاس لا يصرفون وجوههم إلى الله تعالى ولا يقدرون له هذه النّعم، وهذا هو السّرّ في تصدير الشّكر بحرف الرّجاء «لعلّ» الّذي يفيد الدّعوة إلى هذا الأمر المحبوب المطلوب، ولكن قليل هم أولئك الّذين يقع لهم أو منهم هذا الأمر

و انظر في وجه هذه الآية الكريمة تارة أخرى، و تأمّل هذه «الواوات» الّتي تقوم على كلّ مقطع من مقاطعها، و كأنّها رسل من رسل الله تعالى تحمل كلّ رسول منها لآية المرتّل بها في هذا المعرض العظيم لآيات الله جلّ و علا، و كأنّه يقول لمن تمرّ به قف، و خذ حظّك من النّظر فيما أحمل إليك من آيات ربّك!» و من آياته ... و لعلّكم تشكرون» لا خسيء و خسر من لا يسجد لجلال الله، و لا يعنو لعظمته، و لا ينقاد لدعوته!

و قال بعض المعاصرين: و قوله تعالى «و لعلّكم تشكرون» إشارة إلى غاية معنويّة كما أنّ الغايات المذكورة قبل، غايات صوريّة، و الشّكر هو صرف النّعمة بنحو ينبئ عن إنعام منعمه و ذلك الثّناء اللّفظيّ عليه بذكر نعمه، و بعضها الآخر على عبادته، و لذلك جيء بـ«لعلّ» المفيدة للرّجاء، فإنّ الغايات المعنويّة الاعتباريّة ربّما تتخلّف.

و في التبيان قال: «و إنّما أتى بلفظ «لعلّكم» تلطّف في الدّعاء إلى الشّكر كما تلطّف في الدّعاء إلى البرّ في قوله «من ذا الّذي يقرض الله قرضاً حسناً» البقرة: ٢٤٥)

٤٧ـ(و لقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاؤوهم بالبيّنات فانتقمنا من الّذين أجرموا و كان حقّاً علينا نصر المؤمنين)

مستأنف سيق ـ على سبيل الاستطراد ـ تسلية لرسول الله ﷺ و تأييد له و إيذاناً بالنّصر، و مواساة له فيما يلقى من قومه من كفر و ضلال و جحود و صدود، و تذكيراً له بأنّ الله تعالى قد أرسل من قبله رسلاً إلى قومهم بالدّلائل الواضحات على صدقهم في نبوّتهم و رسالتهم إليهم فمنهم من استجاب لهم و منهم من كفر بهم تعنّتاً و عناداً فانتقم الله تعالى من المجرمين و أصابهم ببلائه و أخذهم الله بذنوبهم، و ما كان لهم من واق، و نصر المؤمنين لأنّه يعتبر نصر المؤمنين عليه حقّاً، فليس وحده هو الّذي كذّب من بين رسل الله جميعاً بل إنّ رسل الله كلّهم قد كذّبوا من أقوامهم و أوذوا من سفهائهم و المراد بـ«قومهم» أقوامهم، و الإفراد للإختصار حيث لا لبس.

و قوله تعالى: «فانتقمنا من الّذين أجرموا» تهديد للمشركين و عرض لهم على المصير الّذي هم صائرون إليه فكما انتقم الله من المجرمين الضّالّين في الأمم الماضية، سينتقم كذلك من هؤلاء المجرمين الضّالّين و في الجملة إشعار بأنّ الإنتقام من المجرمين

لأجل المؤمنين، فإنه من النصر. وفي وضع الموصول موضع ضميرهم إشعار بالعلة، و التنبيه على مكان المحذوف، مع ما فيه من تعليق الحكم على الوصف.

و قوله عزّوجلّ: «و كان حقاً علينا نصر المؤمنين» وعد كريم من الله تعالى لرسوله (ﷺ) و بشارة بنصره و نصر المؤمنين معه. فعلى حين يخزي الله الكافرين و يكبت المجرمين المتألّين، فإنه جلّ وعلا ينصر المؤمنين و يعزّهم، و يجعل العاقبة لهم. فقد أوجب الله سبحانه على نفسه ـ تفضلاً و كرماً ـ أن ينصر المؤمنين، و جعل لهم الغلبة على أعدائهم كما يقول تعالى: «كتب الله لأغلبنّ أنا و رسلي إنّ الله قويّ عزيز» (المجادلة: ٢١)

و في هذا ـ فضلاً عن التشجيع و التثبيت و التطمين ـ معنى تكريمي عظيم للمؤمنين و رفع لشأنهم، و تأهيل لكرامة سنية و طهر، فضل سابقه و مرتبة، حيث جعلهم مستحقين أن ينصرهم مستوجبين عليه أن يظهرهم و يظفرهم على أعدائهم.

و إنّ إطلاق الجملة جعلها شاملة لكلّ زمان و مكان. فالمؤمن المسلم يجب أن يظلّ دائماً مطمئناً إلى أنّ الله تعالى قد وعده بالنصر و التأييد و جعل ذلك حقاً عليه تعالى، و أنّه لن يخلف وعده، و لو استبدّت عليه الخطوب، و عصفت عليه النكبات جميعاً. و في هذا ما فيه من التمكين لعرى النفس، و التحكيم لمسار الهدى.

في الآية الكريمة وعد و بشارة بالظفر للمؤمنين على أعدائهم، و النصر لأمرهم، و تأهيلهم للكرامة و استحقاق الإثابة و النصر، و في تعريف المؤمنين تنويه بهم، و إلماع إلى أنّ من تخلّف عن مراتبهم لا يستحقّ هذه المنّة الكبرى، و فيه وعيد و تنكيل و خذلان بالمآل لمن كذّب به من قومه، و أيضاً تحذير عن الإخلال بموجب الشكر.

٤٨ـ (الله الّذي يرسل الرّياح فتثير سحاباً فيبسطه في السّماء كيف يشاء و يجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشآء من عباده إذا هم يستبشرون)

مستأنف بياني مسوق لتقرير ما أجمل فيما سبق من ذكر الرّياح و أحوالها التي تتشكّل من حركة الرّياح، و ما ينشر من أمواج و غبار و سحاب، و ما ينزل من السّحاب من ماء، و ما

يدخل منه على الناس من بشر وغبطة، بعد يأس وجمود!

وذلك ـ على ما قال بعضهم ـ ملاحظ في الآية السابقة، إذ جاء ذكر الرياح وما تسوق من سحابات: «ومن آياته أن يرسل الرياح مبشّرات...» وقد يبدو لمن لا يحسّ نقد الكلام، ولا يتذوق بلاغته أنّ هذا من التكرار الذي يعاب على أرباب البيان، ويعدّ قصوراً في البلاغة، وفقراً في المعاني التي يملكها الأديب. ولكن أهكذا يحقّ أن يكون حساب التكرار إذا ورد في القرآن الكريم؟!

ندع المشاعر الذوقية حتى يمكن أن نحسب على هذا السؤال، جواباً يقوم على معايير النقد البلاغي، وعلى اعتبار أنّ هذا كلام الله، وأنه سلطان البلاغة، ولا تركيبه من عالم الإعجاز.

ونعرض أولاً الآيتين في سياق واحد هكذا:

«ومن آياته أن يرسل الرياح مبشّرات وليذيقكم من رحمته ولتجري الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلّكم تشكرون»

«الله الّذي يرسل الرّياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون»

وإذ ننظر فيهما نجد:

أوّلاً أنّه يمكن أن تتصل تلاوتهما معاً، دون أن يحسّ القارئ، أو السامع أنّ هناك تكراراً في الصورة، وأنّ الآيتين تختلفان معاً صورة وحدة هذه الظاهرة الرائعة من ظواهر الطّبيعة. ومع هذا فقد فصل النّظم القرآنيّ بين الآيتين بآية أخرى، ليس فيها لون من ألوان تلك الصّورة التي رسمتها الآيتان.

وثانياً أنّنا ـ في الآية الأولى من الآيتين ـ نرى «الرّياح» آية من آيات الله تعالى، مندرجة مع تلك الآيات التي تحدّث عنها. فكانت آيات قائمة بذاتها. فما أن تظهر آية الرّياح حتّى تختفي، وتأخذ آية أخرى مكانها. وإذا الّذي كان للرّياح في هذه الآية هو قوله سبحانه «ومن آياته أن يرسل الرّياح...»

وثالثاً ـ في الآية الثانية نرى «الرّياح» التي لمحناها في الآية السابقة لمحاً، وأنّها مجرّد

شيء معلق يرفرف هنا وهناك، وقد اهتزّت وربت فكست منها الأرض روائعها المعجبة. المطر الرياح تثير سحابا، فيبسطه الله في السماء كيف يشاء، ويجعله كسفا أي قطعا متراكمة، و سرعان ما يتفتّق هذا السحاب عن ودق أي مطر ندي الأرض، وتبرق عليها آثاره، و إذا الّذين يستقبلون هذا المطر قد لبسوا ثوب البشر، ونزعوا ما كانوا قد لبسوا من قبل، من همّ وكرب!

«الله الّذي يرسل الرياح فتثير سحابا»

إنّ الرياح هنا هي الّتي تثير السحاب، وهي الّتي قبل أن تثيره قد أثارت وجه البحار وحرّكت أمواجها، وحملت ما على وجهها من أبخرة إلى السماء، فإذا هي ضباب و سحاب.. ثمّ تضرب هذه السحب بعضها ببعض فيتقدح منه هذا الشرر الّذي يولد الرعد والبرق والمطر!

هذه هي آية الرياح الّتي أشارت إليها الآية الأولى، قد كشفت عن وجهها في الآية الثانية، فكانت هذا العطاء الجزيل من آيات الله تعالى، ودلائل قدرته وتدبيره وعلمه و حكمته.

وعلى هذا يمكن أن يرجع البصر كرّة أخرى إلى تلك الآيات في قوله تعالى: «و ليذيقكم من رحمته ولتجرى الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله» ففي كلّ آية آيات لو وجدت النّظر الّذي ينظر إليها ويكشف عن بعض معطياتها.

ففي قوله سبحانه: «وليذيقكم من رحمته» تتمثّل تلك الصّورة الّتي يفعلها المطر حين ينزل الأرض، فيشرق به وجهها، ويهتزّ له كيانها، وإذا هي وقد كانت جرداء، ميتة موحشة، قد لبست أثوابا قشيبة مختلفة الألوان والأصباغ، وإذا هي حيّة دافقة، وشباب نضير.. وهكذا في جريان الفلك، وفي الابتغاء من فضل الله.. فيهما مجال فسيح للنّظر، و مراد واسع للفكر، ومنتجع رائع للخاطر.

وقوله تعالى: «إذا هم يستبشرون» وما بعده إعلام بسرعة تقلّب قلوب النّاس من الإبلاس إلى الاستبشار، وذلك أنّ من قبل أن ينزل عليهم المطر يحتمل الفسحة في الزّمان، فجاء «من قبله» للدلالة على الاتّصال ودفع ذلك الاحتمال.

و بالجملة أنّ في الآية الكريمة و ما سبقها إشارة إلى مشهد من مشاهد قدرة الله تعالى في الرّياح و الأمطار، و ما يستدلّ به على قدرة الله على إحياء الموتى. و ذلك أنّ الله جلّ و علا يرسل الرّياح فتحرّك السّحاب و تسوقه من مكان إلى مكان حتى يكون بعضها متراكمة بعضها على بعض، فلا يلبث أن يتساقط من خلالها الماء، و حينما ينزل المطر في مكان يستبشر أهله برحمة الله تعالى و يبدّل ما كان من حزنهم و قلقهم و يأسهم قبل نزوله فرحاً و أملاً، فذلك من آثار رحمة الله في إحياء الأرض بعد موتها و جفافها، و في هذا عبرة تبعث على النّظر و التّدبّر

و المستفاد من روح الآيات و نحوها أنّه حدث في ظروف بعينها أن احتبس المطر ثمّ أرسل، و أن خرج المشركون ثمّ فرحوا، فجعل الحادث مناسبة للتّذكير و التّنبيه و تدعيم الميثاق، و للتّدليل على قدرة الله تعالى على بعث النّاس بعد الموت

في تلخيص البيان في قوله تعالى: «الله الّذي يرسل الرّياح فتثير سحاباً فيبسطه في السّماء كيف يشاء» قال: «و هذه استعارة، و المراد بها أنّ السّحاب ثمّ يمتدّ بطنه، و يوصل منقطعه، و يستخرجه من عنوانه، و يظهره بعد غموضه تشبيهاً بالثّوب المتناقض (المتناقض) أي يبسطه من مخالفه، و ينزله عن مكانه بتزوه عنه، فيأتي نقيضه و يتمكّن من فرصه» انتهى كلامه

٤٩-(و إن كانوا من قبل أن ينزّل عليهم من قبله لمبلسين)

إشارة إلى ما يكون عليه النّاس حين ينقطع عنهم موارد الماء، و يعمّ وجه الأرض، و يتهدّدهم القحط و الموت، في هذه الحال يغشى النّاس همّ ثقيل، و ينزل بهم كرب كارب، فتراهم و قد ابلسوا، و جمدوا في أماكنهم، فلا حسّ و لا حركة، قد أسلموا أنفسهم لليأس القاتل. فإذا تنزّلت عليهم رحمة الله تعالى بعثوا بعثاً جديداً، و سرت في أوصالهم روح العافية، فانتشوا نشوة صاحية، ذاقوا فيها حلاوة النّعمة و عرفوا قدرها

و قوله تعالى: «من قبله» تكرير للتّأكيد، و إيذان بطول عهدهم بالمطر و استحكام يأسهم منه، و الظّرف متعلّق بـ «ينزّل» لإفادة سرعة تقلّب قلوبهم من اليأس إلى

الإبصار مع تقارب زمانيهما على اتّصال شأن بالشرط المتّصل بالإستبشار فكان «إذا» للمفاجأة و اللام في «لمبلسين» لام زائدة للتأكيد

٥٠ـ ﴿فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إنّ ذلك لمحيي الموتى و هو على كلّ شيءٍ قدير﴾

الفاء للتفريع و الفصيحة، و بعد شرحه ترتّب الإنزال على المطر من أنواع السحاب و صنوف الأمطار و أنواع الخير، فقدرة إذا أردت أن تعرف ما ترتّب على إنزال المطر فانظر نظر استبصار و استدلال إلى إحيائه البديع للأرض بعد موتها. و المراد من الأمر «فانظر» التنبيه على عظيم قدرة الله تعالى و سعة رحمته في نظام الكون و نواميس الوجود مع ما فيه من التمهيد لما بعده من أمر البعث و المعاد

فالله الذي أحيى الأرض برحمته لو شاء بعد أن كانت خاوية هامدة كما هو قادر بالبداهة على إحياء الموتى، فالمشهدان متقاربان وكلاهما بالنسبة لقدرته على سواء

في قوله تعالى «فانظر» التفات من الغيبة إلى الخطاب لرسول الله ﷺ تعظيماً له، و المراد به الناس كلّهم في كلّ ظرف من الظروف أي أيّها الناس استدلّوا بذلك على أنّ من قدر عليه فهو قادر على إحياء الموتى و فيه استشهاد بالشاهد على الغائب

فالأمر هنا دعوة لكلّ ذي نظر في كلّ ظرف إلى أن ينظر إلى آثار هذه الرحمة الواسعة المنزلة من الله تعالى، مع هذا الماء المنزل من السماء. و ليست الدعوة إلى النظر بمجرّد النظر، و إنّما هي دعوة إلى نظر متدبّر، متأمّل، يأخذ العبرة و العظة ممّا يقع فيه من هذه الرحمة المنزلة من السماء تغيّر وجه الأرض، و سرت الحياة في أوصالها بعد أن كانت هامدة، و إذا هي اهتزّت و ربت، فإذا هي تنبت عجباً من كلّ جنس، من كلّ نوع من كلّ صنف، و من كلّ لون. ثمّ إذا امتدّ نظر الإنسان إلى أبعد من هذا وجد أنّ هذه الحياة التي دبّت في هذا التراب الهامد ليس بالمستغرب و لا المستبعد أن تلبس هذه الأجسام التي ضمّها التراب في كيانه، و جعلها بعضاً منه «إنّ الذي أحياها لمحيي الموتى» (فصلت ٣٩) فهذا من ذاك سواء بسواء.

و قوله تعالى: «إنّ ذلك» الإشارة بـ«ذلك» إلى الله سبحانه بما له من الرحمة التي من آثارها إحياء الأرض بعد موتها إشارة إلى كمال قدرته و تدبيره، إلى غاية علمه و

حكمته، إلى جلاله و عظمته، و إلى مقامه و تفرّده وحده جلّ وعلا بهذا الأمر و هو إحياء الموتى... و بُعد الإشارة مع قرب عهدها للتفخيم و التعظيم أي ذلك العظيم الشأن.

و قوله سبحانه: «لمحي الموتى» دلالة على المماثلة بين إحياء الأرض الميتة و إحياء الموتى، إذ في كلّ منهما موت و سقوط آثار الحياة من شيء مخصوص و حياة هي تجدّد تلك الآثار بعد سقوطها، و قد تحقّق الإحياء في الأرض و النبات و حياة الإنسان و غيره من ذوي الحياة مثلها، و حكم الأمثال فيما يجوز و فيما لا يجوز واحد فإذا الإحياء في بعض هذه الأمثال و هو الأرض و النبات و الإنسان فهذا جائز للإحياء في بعض تلك الأمثال و هو الأرض و النبات فليجز في بعض الآخر.

و قوله عزّوجلّ «و هو على كلّ شيء قدير» بمنزلة ما سبق و تقرير و تأكيد للإحياء المذكور بيان آخر و هو عموم قدرته فإنّ القدرة غير محدودة و لا متناهية، فيشمل الإحياء بعد الموت و الأمر تعتقد، و قد فرضت مطلقة غير محدودة و في «قدير» مبالغة في قدرته على جميع الأشياء التي من جملتها إحياؤهم و إعادتهم لأنّ نسبة قدرته تعالى إلى الكلّ سواء، فتشمل الابتداء و الإعادة

٥١ـ ﴿و لئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفرّاً لظلّوا من بعده يكفرون﴾

اللام موطئة للقسم دخلت على حرف الشرط، و الجملة مستأنفة بيانية لتقرير تزلزل غير المؤمنين و تذبذبهم و تضجّرهم و تقلّب أحوالهم على أنّهم بأدنى سبب يكفرون بنعمة الله تعالى

و ذلك أنّ هذه الرياح التي أرسلها الله تعالى تبشّر أبين يدي رحمته، و ساق بها الحياة إلى عباده يمكن أن يسوقها إليهم، و قد ضربت يداها من كلّ خير و نعمة بل ربّما حملت معها السّموم و الغُبار فهذا و ذاك كلاهما بأمر الله جلّ و علا، و قد كان من الإيمان بالله تعالى و الرّضا بمقدوره أن يستقبل النّاس هذه الريح بقلوبهم بالصّبر على قضاء الله سبحانه و بالطّمع في رحمته الّتي تعقب هذا البلاء، إمّا امتحاناً و إمّا استحقاقاً و لكن كثيراً من النّاس بل أكثرهم يشكرون الله جلّ و علا أو يكفرون بنعمته في تلك الأحوال، و يسخطون على ما أصابهم بها

و قوله تعالى: «فرأوه» الضمير للجمع راجع إلى هؤلاء الناس حيث تغلب عليهم في تلك الأحوال، اليأس و القنوط من رحمة الله تعالى

في نهج البلاغة قال مولى الموحدين إمام المتقين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام»: «في تقلب الأحوال علم جواهر الرجال» و قليل منهم من يعتصم بإيمانه، و يرضى بما أراد الله تعالى له

و قوله عزّوجلّ «مصفرّاً» يدلّ على حدوث الصفرة، و لذا لم يقل «أصفر» و هي الريح المحملة بالسموم، قد ذهبت حرارتها بكلّ ما في الجوّ من غبار الماء، فاصفرّت كما يصفر الزرع حين يجفّ ماؤه و تذهب خضرته

و قوله سبحانه: «لظلّوا» جواب سدّ مسدّ الجزاء، و لذلك فسّر بالإستقبال

و في الآية الكريمة ناعية على غير المؤمنين حقّاً من الكفّار و المشركين و الفجّار والمستكبرين، و المنافقين و المترفين، و الضعفاء و المجرمين قلّة ثباتهم و عدم تدبّرهم و سرعة تزلزلهم في عقائدهم و فيها مبالغة في احتقارهم لعدم تفكّرهم و سوء رأيهم

و ذلك أنّ النظر السويّ يقتضي أن يتوكّلوا على الله تعالى و يلتجؤا إليه بالإنابة و التوبة و الإستغفار إذا احتبس عنهم القطر، فلا ييأسوا من رحمة الله جلّ و علا، و أن يبادروا إلى الشكر و الدعاء، و أن يستديموا بالطاعة إذا أصابهم برحمته، و لم يفرطوا في الإستبشار، و أن يصبروا على بلائه إذا ضرب زروعهم بالاصفرار، و لا يكفروا نعمه

ففيها توبيخ لهم بسرعة تغيّرهم في النعمة و النقمة، و في الشدّة و الرخاء، و تنديد لهم لما يظهرونه من جزع و كفر حينما يحتبس المطر، فقد تقتضي حكمة الله جلّ و علا أحياناً أن تهبّ الرياح و تتحرّك بدون مطر، فإذا ما هبت على هذا الوجه فاصفرّ الزرع أظهر الذين لا يؤمنون بالله تعالى جزعاً و قنوطاً، فهم يعبدون الله على أساس الربح فإذا محصوا بالبلاء ارتابوا بالخالق و حكمته، و تدبيره و قدرته

٥٢ـ (فإنّك لاتسمع الموتى و لاتسمع الصمّ الدعاء إذا ولّوا مدبرين)

الفاء تعليلية، و الجملة المؤكّدة تعليلية لمحذوف ـ على طريق الإلتفات من الغيبة إلى

الخطاب لرسول الله ﴿ﷺ﴾ تسلية له ﴿ﷺ﴾ على ما يراه من تمادي في الإعراض عن الحق والهدى، وكثرة اللجاج والعناد، وغاية الضلال والفساد فهو يريد اصرف نظرك عن هؤلاء المشركين، ودعهم وما هم فيه من شرك وضلال وكفر وعناد، ولا تحزن لعدم اهتدائهم بتذكيرك، ولا تجزع عن عدم استجابتهم للإنسانية إلى الخضوع له من اتباع العقل و عتبة النظرة السليمة على صفحتهم، إلى أن عميتهم أهواؤهم وغلبة طبيعتهم على فطرتهم، فإنهم موتى روحاً وإن كانوا أحياء جسماً يتحركون كالبهائم

هذه تمثل حالة المشركين عن درك الحق من غرضهم فهؤلاء بسبب اتباعهم أهواءهم علت صفتهم الحيوانية على فطرتهم الإنسانية فصاروا كالموتى، موتى المدركات و المشاعر لا يحسون شيئاً وشبيه بالصم لا يسمعون كلاماً ولا يدركون الحق، حيث سدّوا عن دركه مسامعهم فيحاددون فيه ويكابرون ويضحكون ويصخبون والنبي الكريم ﴿ﷺ﴾ غير مكلف بتغيير طبيعتهم فيجعل الميت حياً حيّ، والأصم سميعاً يسمع وإنما عليه أن يبلغ الحجة عليهم

فقال تعالى لرسوله ﴿ﷺ﴾ إن هؤلاء المشركين قد جعلوا أنفسهم سواء أصبحوا هم بمثابة الموتى، فأنّى لك أن تسمعهم، وهم صم كالصمّ فكيف تدعوهم حتى يستجيبوا لك؟

وإن أردت أن تحسبهم في الأحياء بما هم من صور آدمية متحركة - فإنهم صمّ لا يسمعون، لأنّ ما تلقي إليهم من كلمات الله جلّ وعلا لا تصغي إليه آذانهم، ولا تقبله عقولهم فقد تعطلت فيهم حاسة السمع فلا يسمعون خيراً، ولا يستحسنون الحق

ثمّ إنه قد لا يسمع الإنسان بغيره ولا يعقل نصح ناصح، ولا يهتدي به هاد، ويكون له مع ذلك بصر يهتدي به، ويكتشف به معالم الطريق إلى الحق والهدى ويرى الخير والرشاد و لكن هؤلاء المشركين، عُمْيٌ لا يبصرون شيئاً ولا يسلمون أيديهم إلى المبصرين، حتى يأخذوا بهم إلى طريق مستقيم فلا يضلّون ولا يتعثّرون

وقوله تعالى، «إذا ولّوا مدبرين» تعليل لنفي الاسماع، ونسبه إلى شدة إعراضهم عن الحق والهدى لأنّ الأصم إذا أقبل ربما فهم بالإشارة، وهؤلاء لا يفهمون الحق، ولا يدركون الصواب بأي طريق

٥٣ـ (وما أنت بهاد العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلاّ من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون)

تقرير لما على رسول الله ﷺ من موقفه هذا من حق، إنه غير مكلّف بفعل المستحيل فلا عتب عليه إن عجز عنهم وهذا شأنهم جبارٌ، وما يجب عليه ﷺ أن يسمع الراغبين في الحقّ والهدى والإيمان والرشاد الذين هم على استعداد للإسلام ألهمهم الله تعالى وأمانهم به والمتعقّل في حجج الله عزّوجلّ، وأهل الضلال والعمى عن صنفين صنف يطلب الحقّ والخير والهدى فهو عنده سمعت، وصنف لا يطلبه فليس فيه حيلة في سمعه

وفي تعدّي اسم الفاعل «هاد» بحرف المجاورة «عن» تنبيه على أنّ هؤلاء المشركين عاكفون على الشّرك والفساد والكفر والضّلال، لا يتحوّلون عنها أبداً، ولا يتجاوزون حدودها، وهذا ضُمّن الفعل «هدى» معنى الفعل صَرَف أو أبعد أو حوّلهما ممّا يحتاج إلى مدافعة ومعاناة. وهذا يعني أنّه ليس من شأن رسول الله ﷺ أن يحمل هؤلاء العمي حملاً على أن ينقادوا له، ولهذا جاء قوله سبحانه بعد ذلك «إن تسمع إلاّ من يؤمن بآياتنا» محدّداً وظيفة رسول الله ﷺ وضابطاً منهج دعوته، وهو أن يعرض دعوته، ويتلو آيات ربّه على النّاس، ويُسمع كلام الله تعالى بإبلاغه إلى النّاس فيسمع كلمات الله ويستحسن هداها من هو مستعدّ للإيمان، لم تغلب طبيعته الحيوانيّة على فطرته الإنسانيّة، ولم **يختم الله على سمعه وقلبه، ولم يجعل على بصره غشاوة**

وهذا أيضاً جاء قوله جلّ وعلا «فهم مسلمون» تعقيبٌ على قوله سبحانه «إن تسمع إلاّ من يؤمن بآياتنا» ليكشف عن السّبب في سماعهم لآيات الله تعالى وإيمانهم بها، وهو أنّهم مسلمون بفطرتهم واستعدادهم، قبل أن يلتقوا بالدّعوة النبويّة، وقبل أن يُدعَوا إلى الإسلام، فلمّا التقوا رسول الله ﷺ ودعوة الإسلام تجاوبوا مع الإسلام الّذي في فطرتهم الإسلام الّذي دُعُوا إليه. فمعنى قوله تعالى «إن تسمع» لا تسمع إلاّ من هو مستعدّ بفطرته للإيمان، المتمثّل في كيانه، وأمّا من غلبت طبيعته على فطرته باتّباع هواه، فلن **تجاوز كلمات الله أذنه**

وفي عود الضمير على الاسم الموصول «من» مفرداً وهو فاعل «يؤمن» ثمّ عوده إليه جمعاً هكذا «من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون» إشارة إلى أنّ الإيمان شأن من شؤون الإنسان خاصّة، فهو الذي حصّل الإيمان بنظره الفطري وبتفكيره الذاتي، وبما يقع له من اقتناع عقليّ، واطمئنان قلبيّ، فلا بدّ من شركة غيره في صفة الإيمان، وكلّ واحداً من جماعة المؤمنين يدخل معهم فيما تحمل شريعة الإسلام إلى المسلمين من أوامر ونواهيه فيكون واحداً في صفوف المصلّين، وجندياً في جيش المجاهدين، إنّه عندما دخل في الإسلام لم يعد كائناً مفرداً مستقلاً بذاته، منعزلاً بنفسه، بل هو عندما كان يؤمن يدخل فيه في الإسلام، يصبح لبنة في بناء الجماعة الإسلامية، وعضواً في الجسد الإسلامي الذي يجمع المسلمين جميعاً

فالمسلم إذ يدخل الإسلام، يدخله مفرداً، بعد أن يفكر بعقله، ويبصر بعينه، ويدركه بعقله، ويستشعره بوجدانه، ويصبح بعد دخوله فيه، من غير أن يكون واقعاً تحت إكراه أو إغراء، ومن غير أن يكون خاضعاً لأيّ ضغط ولا رهبة، فإذا دخل الإسلام على هذه الصفة أصبح مسلماً مؤمناً، وأصبح بعد ذلك صالحاً لأن يكون في جماعة المسلمين، وفي زمرة المؤمنين

٥٤ـ ﴿الله الّذي خلقكم من ضعف ثمّ جعل من بعد ضعف قوّة ثمّ جعل من بعد قوّة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير﴾

ويستأنف البيان سرد الآيات الدالّة على المبدأ والمعاد، وفيها تنبيه وتذكير بأطوار خلق الله للناس، فقد جعلهم ضعفاء أوّلاً وذلك زمن طفولتهم، ثمّ جعلهم أقوياء، وذلك زمن شبابهم وكهولتهم، ثمّ جعلهم ضعفاء بعد القوّة وشيباً، وذلك زمن شيخوختهم وهرمهم، فهو يخلق ما يشاء على الوجوه والأطوار والأدوار التي تقتضيها حكمته، وهو العليم بالمقتضيات، القدير على خلق كلّ شيء حسبها. فقدرة الله تعالى تتجلّى في تطوّرات خلقة الناس وأعمارهم أيضاً، وفي كلّ منها نعمة وحكمة وعناية.

ففيها تعرض دلائل قدرة الله عزّ وجلّ على الناس جميعاً من مؤمنين وكافرين، فيجد

فيها المؤمنون نظراً جديداً إلى قدرة الله تعالى و تدبيره إلى جلاله و عظمته و إلى علمه و حكمته. فيزداد إيمانهم تمكيناً في قلوبهم و رسوخاً في نفوسهم. على حين تقوم على المشركين و الضالين من هذه الآيات حجة أخرى إلى جانب ما قام عليهم من حجج بكفرهم و ضلالهم

و قوله تعالى «ضعف» بضم الضاد و فتحها لغتان كالفقر و الفقر، و في إدخال «من» عليه تحقيق و في تنكير «ضعف» و «قوة» و «شيبة» دلالة على الإبهام و عدم تعيين المقدار لاختلاف الأفراد فيه و لما فيه من مراتب و درجات

إن تسأل: كيف قال الله سبحانه: «الله الذي خلقكم من ضعف» و الضعف صفة الشيء الضعيف، فكيف خلق الإنسان من نفس الضعف مع أنه إنما خلق من ماء و هو نطفة و التراب لا من صفة؟

نجيب عنه بوجوه: منها أن الضعف مصدر أريد به اسم الفاعل و هو الضعيف كقولك رجل عدل أي عادل و نحوه. فالمعنى خلقكم من ضعيف و هو النطفة. و منها أن معنى «من ضعف» على ضعف و «من» بمعنى «على» كقوله تعالى «و نصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا» أي على القوم. و المراد به ضعف جثة الطفل حال طفولته

و في الآية الكريمة صورة من الصور المختلفة التي يعيش فيها الناس، و يمر بها كل فرد من أفرادهم على اختلاف أجناسهم و ألوانهم و ألسنتهم و أوضاعهم. فقصة حياة الإنسان تكون صورة واحدة من صور الحياة. لا يكاد يرى فيها إلا القليل شاذاً. حيث بدأ خلق الإنسان من نطفة لا تبدو في مرأى العين أكثر من ماء مختلط نسميه بالمخاط. ثم يتدرج الإنسان من نطفة إلى علقة، إلى مضغة، إلى عظام، إلى لحم يكسو هذه العظام، ثم إلى ولد ينشق عنه رحم الأم. و إذا هو إنسان يأخذ مكانه في المجتمع البشري. و يتدرج في مدارج الحياة من الطفولة إلى الصبا، إلى الشباب و الكهولة، ثم ينحدر إلى الشيخوخة و الهرم.

هذا هو بعض ما لله تعالى في الإنسان. فلينظر الإنسان مم خلق! ثم لينظر كيف دارت دورته في الحياة كما يدور القمر في دورته من الهلال إلى المحاق!

٥٥ـ (و يوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون)

مستأنف سيق لبيان أحوال الناس يوم القيامة و شدة الأمر على الكفار و المجرمين في أمر البعث بين الدنيا و يوم البعث حتى ظنوه ساعة من ساعات الدنيا كما شبه عليهم أمر البعث في الحياة الدنيا فظنوه باطلاً باتباعهم لأهوائهم، و اغترارهم بمتاع الدنيا و زخارفها. و إنّ الكلام مسوق للتعجب من اغترارهم بزينة الدنيا، و تحقير ما يستمتعون به من ملذاتها و تنبيه لكي ينتهوا عن الكفر و العناد، و الجور و الفساد، و يرجعوا إلى سبيل الحق و الرشاد. و كما أنهم من الدنيا كذلك يكذبون في الحياة الدنيا عن ... هو قصر الأمد من ... و ... الحياة. و لأنه تكرية يؤكد للبعث و الحساب و الجزاء، و ينذر للكفار و المشركين و الفجار و المجرمين بأهوال يوم القيامة. فلسوف تقوم الساعة، و لسوف يبعث المجرمين أمام الله سبحانه للحساب و الجزاء، و لسوف يذهلون و يندهشون، و يقسمون أنهم لم يمكثوا على مدار قبورهم الدنيا إلا ساعة، و لقد سمّيت القيامة ساعة لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا و إنّ لأنها تقع بغتة و بديهة و حرف علياً له ... بالزمان، و الكلمة كما تراها، و المراد بقيامها و جودها أو قيام الخلائق فيها.

قوله تعالى (و يوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة) في علم البديع من باب ما يتعلق بالفصاحة المعنوية من نوع التجنيس، و هو على سوقه عبارة عن تفاوق اللفظين في وجه من الوجوه مع اختلاف معنيهما، و هو عظيم الموقع في البلاغة جميل القدر في الفصاحة، و لولا ذلك ما نزل الله تعالى كتابه المجيد على هذا الأسلوب، و اختاره له كغيره من سائر أساليب الفصاحة، ثم ينقسم إلى كامل و ناقص. فالكامل هو أن تتفق الكلمتان في الوزن و الحركات و السكنات، و يقع الاختلاف في المعنى.

و لم يقع في كتاب الله عزّوجلّ تجنيس كامل إلا في هذه الآية الكريمة و ذلك أنّ يوم القيامة و إن طال فهو عند الله تعالى كالساعة الواحدة عند أحدنا، و حينئذ فإطلاق الساعة عليه مجاز كقولك رأيت أسداً و زيد أسد إذا أردت بالأول حيواناً مفترساً، و بالثاني رجلاً شجاعاً.

وقوله تعالى «كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ» بيان لتقلّبهم من الحقّ إلى الباطل، ومن الهدى إلى الضلال.. وهذا دأبهم أبداً، الضلال عليهم، وملازمه لهم حتى تأتيهم الساعة.. إنهم كانوا في الحياة الدنيا يُدعون إلى الحق والهدى، وتساق إليهم الآيات المكونة للأدلة والأقيسة والحجج القاطعة، فيظنّونها باطلاً من القول، وخرافة من الرأى.. فلبثوا في الحياة على استدامة هذا الظنّ الفاسد منهم حتى عاد معهم إلى يوم البعث.. فإنهم يوم يبعثون يقسمون إنّهم لم يلبثوا في قبورهم فيما بين الموت والبعث غير ساعة من نهار.. فقد غبى عليهم أمر البعث كما شُبّه عليهم كلّ حق فصدّقوه باطلاً، فهم متمادون في الشرك، وتكذيب الرسول ﷺ وإنكار البعث، ومصرّون على الكفر والضلال، وعلى الباطل والفساد

وهذا الإنسان الذي خلق من ضعف والذي تعهّدته القدرة الإلهية فأخرجت من هذا الضعف قوة، وعقلاً، وسمعاً، وبصراً.. هذا الإنسان قد كفر خالقه، وأبى أن يجعل ولاءه له وحده، فاتّخذ من دونه شركاء.. وقد عاش كثيرون في جميع الأزمان والأمكنة مجتمعين على الكفر بالله تعالى، وعاشوا في هذا الضلال لا يعملون ليوم الحساب والجزاء، ولا يؤمنون به، حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة، وراجعوا حسابهم مع دنياهم التي أنفقوا حياتهم فيها وجدوا أنها لم تكن إلا لحظة عابرة بل لقد بلغ بهم الأمر أن نسوا هذا، وعقّبوا عليه، فأقسموا أنهم لم يلبثوا غير ساعة

ولا شك أن هذا غير الواقع، وأن أولهم هو الذي يحيل لهم بعصر الزمن الذي مضى فقد عاش كلّ منهم سنين في الدنيا لا ساعة ولا يوماً ولا أسبوعاً ولا شهراً.. ولكن هكذا الدنيا التي اتّخذها الضالّون والمشركون لهواً ولعباً، فلم يعمروها بالإيمان والتقوى والإخلاص والأعمال الصالحة.. وهذا جاء قوله عزّ وجلّ «كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ» معقّباً مقولتهم تلك، وإنها إفك من إفكهم، وضلال من ضلالهم الذي كانوا عليه في الحياة الدنيا

وذلك أنهم ـ وهم في الدنيا ـ قد رأوا الحق باطلاً، والهدى ضلالاً، والخير شراً، والصلاح فساداً.. ووقع في وهمهم أنهم على الحق فيما يمسكون به من ضلال هو هدى.. وقد صحبهم هذا الإفك في حياتهم الآخرة، فأقسموا هذا القسم الكاذب، أنهم ما لبثوا في دنياهم غير ساعة!

٥٦ـ﴿و قال الّذين اوتوا العلم و الإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث و لكنّكم كنتم لاتعلمون﴾

إخبار من الله تعالى عن ردّ بعض المؤمنين ـ مؤكّداً بالقسم ـ على هؤلاء المجرمين المنكرين ليوم البعث و الجزاء الّذين أقسموا على أنّهم ما لبثوا غير ساعة، و في هذا الرّد تصحيح لما وهموه من لبثهم في الدّنيا و ما بعد الموت إلى يوم البعث و إطلاع لهم على الحقيقة، مع ما فيه من توبيخ و تفضيح و تهكّم بهم. و هذا التّصحيح إنّما يجيئهم من أهل العلم و الإيمان الّذين يقولون لهم: «لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث» كتاب حدّد فيه آجال النّاس و أزمانهم، و ما هو كائن في هذا الوجود.

و في قرن العلم بالإيمان تنبيه على أنّ العلم الّذي لايكون معه الإيمان لا قيمة له و كثير من الّذين اوتوا العلم لايؤمنون بالله بل تغلب عليهم طبيعتهم الحيوانية، و يصبح العلم الّذي علموه حجّة عليهم، فيضاعف لهم به العذاب.

قال الله تعالى فيهم: «و إذ أخذ الله ميثاق الّذين اوتوا الكتاب لتبيّننّه للنّاس و لا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم ... فلا تحسبنّهم بمفازة من العذاب و لهم عذاب أليم» (آل عمران: ١٨٧ ـ ١٨٨)

فالعلم الّذي لايكون صاحبه مؤمناً و لا يعمل بمقتضى ما علم، هو شؤم و وبال و عذاب شديد على صاحبه، لأنّه لايهتدي معه إلى خير أبداً على خلاف الّذي لا علم عنده، فإنّه قد يطلب العلم، و قد يجد الهدى ممّا علم.

و قوله تعالى: «فهذا يوم البعث» الفاء للفصيحة لأنّها تفصح عن شرط مقدّر كأنّه قال: إن كنتم منكرين للبعث فهذا يوم البعث، إذ تبيّن اليوم بطلان قولكم و حراف قسمكم في إنكار البعث كما كان شأنكم في الحياة الدّنيا لأنّكم انصرفتم عن التّفكّر في الآخرة ففوجئتم بها، و أنّكم لبثتم أمواتاً طيلة الأمد الّذي قدّره الله تعالى، و أنّكم الآن في يوم البعث الّذي وعدتموه و لو أنّكم لم تدركوا حقيقة أمركم و موقفكم ممّا اعتراكم من دهشة و ذهول؟!

فقوله سبحانه: «فهذا يوم البعث» خبر يراد به التّقريع و التّحسير هؤلاء المنكرين

المجرمين، فهم يعرفون أنّ هذا اليوم الّذي هم فيه هو يوم البعث، و يخبرهم به هو تذكير لهم بما كان منهم من إنكار له و سخرية و استهزاء على الّذين كانوا يعدونهم به، و الّذين كانوا يعرفون في الدنيا سخروا منهم فيعرفون في الآخرة، و في ذلك ما يزيد في آلام المنكرين و يضاعف حسراتهم

و قوله عزّوجلّ «و لكنّكم كنتم لا تعلمون» تعريض بعد تعريض على منكري البعث، و تخسئة بعد تخسئة لهم، و تجهيلهم

و في الآية الكريمة دلالة على فضل العلماء المؤمنين دون غيرهم

٥٧ـ﴿فيومئذٍ لا ينفع الّذين ظلموا معذرتهم و لا هم يستعتبون﴾

الفاء لتفصيل ما قبلها ممّا فيهم من أنّ تفصيل مدّة لبث لا تنفعهم، في فصيحة أي إذا قامت الساعة و قد حلف المجرمون المنكرون للبعث، و ردّ عليهم العلماء المؤمنون لا ينفع

و فيه إلتفات من الخطاب إلى الغيبة تحقيراً لهم بأنّهم سقطوا عن مرتبة الخطاب. إخبار من الله تعالى أنّه لن ينفع الظّالمين ما يعتذرون من عذر، و لن يطلب منهم الاستعتاب و لا التّوبة و الطّاعة إذ حقّ عليهم العذاب لما كان منهم من كفر و ضلال و ظلم و فساد من شرك و عناد، و جرم و لجاج، فقد حلّ الأمر عن العتاب إذ أنّه إنّما يعاتب من يُرجى منه إصلاح ما أفسد، و أمّا و أنّه لا عمل بعد اليوم، فإنّه لا عتاب، و إنّما حساب و جزاء

و في الآية الكريمة تهديد و وعيد شديد و ترعيب، و تحذير عن أهوال يوم القيامة، و شدّة أحوال الكفرة و الظّلمة، و الفجرة و الفسقة فيها

٥٨ـ﴿و لقد ضربنا للنّاس في هذا القرآن من كلّ مثل و لئن جئتهم بآية ليقولنّ الّذين كفروا إن أنتم إلّا مبطلون﴾

استئناف بيانيّ لتقرير أنّ القرآن الكريم مشحون بقصص و أخبار كلّها كالمثل في غرابتها و حسن موقعها، و إشارة إلى أحوال المجرمين المنكرين للبعث، المصروفين عن

الحقّ ـ مؤكّداً للمبين ـ بخطابه بأنّه تعالى ضرب للنّاس المكلّفين في القرآن الّذي أنزله على رسوله محمّد ﴿ﷺ﴾ من كلّ مثل مختلف لأساليب تفهيمهم وإرشادهم وحثّهم بها على الحقّ واتّباع الهدى، وأنّه لا ينفعهم مثل معرفة الحقّ من دونهم فإنّهم مطبوع عليها، فيرون كلّ حقّ باطلاً، وكلّ هدى ضلالاً، والحقّ بالعكس، ولذا عقّبه بقوله تعالى «ولئن جئتهم بآية...»

خطاب لرسول الله ﴿ﷺ﴾ بأنّه إذا تلا عليهم آية من آيات الله تعالى سارعوا إلى تكذيبه، والقول إنّ ما جاء به باطل، وهذا هو شأن الجاهل الضّالّ المغلق قلبه، والمطمسة بصيرته

وفيه بيان لانقطاع عذر المعذّرين وعتاب المتعنّتين الّذين يطلبون المعاينة

وذلك لما جاءهم في دنياهم من آيات الله تعالى، وما حمل إليهم القرآن الكريم من دلائل واضحة وبراهين قاطعة بين يدي دعوتهم إلى الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر، وقد ضُربت لهم الأمثال على وجوه مختلفة فلم يستفيدوا بها، ولا أخذوا العبرة والعظة من مهالك القوم الظّالمين في الأمم الغابرة

وقوله تعالى «ليقولنّ الّذين كفروا» في وضع الموصول وصلته موضع الضّمير دلالة على سبب القول وهو الكفر بالله جلّ وعلا

وقوله سبحانه حكاية عنهم: «إن أنتم إلّا مبطلون» التفات من الخطاب لرسول الله ﴿ﷺ﴾ إلى الخطاب للمؤمنين معه بعد الإفراد في قوله «ولئن جئتهم» على ما اقتضاه الظّاهر، ثمّ جاء بالجمع في قولهم «إن أنتم» تنزيلاً على زعمهم له ﴿ﷺ﴾ شاهد من المؤمنين حيث جعلوا الكلّ مدّعين، ولا يبعد أن يكون نكتة توحيد الخطاب في «جئتهم» وجمعه في «أنتم» أنّ الله تعالى قال إن جئتهم بكلّ آية جاءت بها الرّسل عليهم السّلام

وهذا إخبار عن غاية عناد هؤلاء المشركين، وتكذيبهم بآيات الله تعالى، فهم لا يطلبون الحقّ والهدى، ولا يستجيبون له ﴿ﷺ﴾ إذا دُعوا لما غلبت طبيعتهم الحيوانيّة على فطرتهم الإنسانيّة

٥٩ـ (كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون)

تصوير لشدة عناد هؤلاء المجرمين الجهلة، وغاية لجاج المكابرين المتعنتين و[illegible] [illegible] وفيه تسلية لرسول الله ﷺ و[illegible] للمؤمنين، وإنذار للمجرمين وتهديد لهم [illegible]

أي مثل ذلك الطبع يطبع الله تعالى على قلوب الجهلة الذين يصرّون على جهلهم [illegible] وعلى كفرهم وضلالهم ولا يعلمون [illegible] فإنهم على خرافات اعتقدوها، وترهات ابتدعوها. إذ الجهل المركب يمنع إدراك الحق والهدى، ويوجب تكذيب الحق.

[illegible] الهدى، [illegible] الكفر وضلاله و[illegible] [illegible] من الأمثال [illegible] [illegible] [illegible] إلى طريق الإيمان الذي [illegible]

[illegible] الحق [illegible]

[illegible] قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين» الصف ٥

وقوله سبحانه «يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون» وضع الموصول موضع ضميرهم للنعي [illegible] وقد أسند الله سبحانه الطبع إلى نفسه، باعتبار أن الله عزّ وجلّ هو الذي [illegible] على ذلك، وجعل [illegible]

الحكمة المكشوفة والأخبار، وفي الخفية أنه يخبر عن واقعة سوداء هم غارقون في تكاليفهم، وفي نهاية المطاف وجود لذة سرورهم على الكفر والطغيان، وإصرارهم على الاستكبار عن قبول الحق، وإعراضهم عن ذكر الله تعالى ونسيان الآخرة.

وفي الآية تذكرة وتحذير للكفار، ما يكشف من هذه الحالة التي في دواخل الكفار والمجرمين، والفجار والمستكبرين، والفساق والمنافقين، والبغاة والطغاة، في كل هو سبب العمل الذي يكون من الخيانة الحقة الخفية التي تعرض قلوبهم.

فهذه الصفة لطبع الله تعالى على قلوب الجاهلين التي تكون عليهم قلوبهم الحقة هم غارقون في تكاليفهم وترسخ في قلوبهم كما حصلت لهم الغرور.

٦٠ـ{فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ}

هذه خاتمة والأمر من الله تعالى لرسوله ﷺ، دعوة إلى الصبر على ما يلقى من قومه من مكاره وأذاهم، وعنادهم، للإنصات إلى ذكرهم وعنادهم وتكذيبهم وضلالهم.
أي إذا علمت أن حالهم هذه، فعليك بالصبر مستعيناً بالله تعالى على تحمل المكروه والأذى، إلى أن يتحقق وعد الله الحق لا محالة وعلى يديك تحل هؤلاء الكفار المعاندين، والفجار المستكبرين المستخفين، ويحملوك على الخفة في أمرك ولا يتعدون؛ يكون في قوله تعالى: {ولا يستخفنك الذين لا يوقنون} إشارة إلى أنه لم يرد على رسول الله ﷺ من ذلك خوف إلى شيء، بل بعض النفوس من المؤمنين الذين اشتد عليهم وطء البلاء، وطال بهم الانتظار لملاقاة ما وعدهم الله تعالى من النصر على أصحاب الضلال والبغي، قد يتسرب إلى ضعفاء من المؤمنين شيء من القلق، وربما شيء من الشك والارتياب.

فهذه حال قد تعرض لبعض المؤمنين، ولكن بعضهم منها إذا تمسك بالعروة الوثقى، والصبر على الأذى، واحتمال المكاره، والثبات بمثل الذي يدفع كل شك في قدرة الله تعالى وفي تحقيق ما وعد الله تعالى المؤمنين به من النصر والعاقبة مما هم فيه من بلاء في قوله: «ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله» {الروم ٤-٥}، وقد بدأت هذه السورة الكريمة بالوعد، وختمت بالوعد، والوعدان جميعاً بالنصرة، وهذا الأسلوب من حسن البلاغة عند

أصحاب البيان، وهو أن يتأنّق في أوّل الكلام لأنّه أوّل ما يقرع السّمع، فإن كان محرّراً أقبل السّامع، قبِلَ الكلام ووعاه، وإلاّ أعرض عنه، وكذلك خاتمه مع ابتداء السّامع بنهاية الكلام حتّى لا يبقى معه للنّفوس تشوّق إلى ما يذكر بعد، فقال الله سبحانه في بدئها «غلبت الرّوم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ـ وعد الله لا يخلف الله وعده» وفي ختامها: «فاصبر إنّ وعد الله حقّ...»

فهي بين عنصر «وعد الله حقّ» والأمر بالصّبر إلى أن يتحقّق، ومعنى النّصر في أوائل السّورة «بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرّحيم وعد الله لا يخلف وعده» فثمة صلة بين بدئها وختامها

ولقد جاء في السّورة وعد الله بنصر المؤمنين بصاحبيّة يكون في ذلك قرائن على ترابط فصول السّورة واتّحادها في حديثها على بشرى المؤمنين بالنّصر

ولا يبعد أن يكون في السّورة إرهاص بالنّصر الّذي كان يوشك أن يتمّ لرسول الله (ﷺ) والمسلمين فيما اعتزموا عليه من الهجرة إلى المدينة حيث نزلت هذه السّورة في ظروف التّهيّؤ لها، فنزلت في ظروف الاتّصال الأوّل الّذي تمّ بينه (ﷺ) وبعض زعماء الأوس والخزرج أو الاتّصال الثّاني الّذي آمن فيه عدد كبير منهم ووعدوه فيه بالنّصرة، والتّرحيب بهجرته، وهجرة أصحابه إلى المدينة، ولعلّه كان يفكّر في التّعجيل بالهجرة، فثبّته الله تعالى وصبّره حتّى تتكامل الأسباب أو يشرف على هجرة أصحابه قبله والله تعالى هو أعلم بمراده

﴿الإعجاز﴾

و اعلم أنّ هذه السورة الكريمة كسائر السور القرآنية وجوهٌ من الإعجاز لا يسع المقام لذكر جميعها و نحن على جناح الإختصار

فمنها احتواؤها على الخبر و الإنشاء على وجه بليغ

و ينبغي قبل الخوض فيهما أن نبيّن حدّهما إجمالاً

و ليعلم أنّ أصحاب البيان يقتصرون على الحصر للكلام فيهما فلا تلتفت هنا، بناءً على أنّ الطّلب عندهم داخل في الإنشاء.

أمّا حدّ الخبر فيكون موضوعاً يستعمل في حكاية ثبوت معناه في موطنه، و لذلك يحتمل الصدق و الكذب، و يجب أن يعلم أنّ أقسامه لا يكون إلّا صدقاً

و أمّا الإنشاء فيكون موضوعاً يستعمل في قصد تحقّقه و ثبوته، و لذلك لا يحتمل الصّدق و الكذب و من أقسام الخبر: الوعد و الوعيد، و قد جاءا بمواضع من هذه السورة

ثمّ اعلم أنّ الإخبار عن الغيوب في القرآن الكريم على قسمين

أحدهما الأخبار الماضية كالإخبار عن قصص الأنبياء والمرسلين ﴿عليهم السلام﴾ و أخبار الأمم السابقة و الإخبار عن أحوال القرون الماضية، و الأقوام الهالكة، و الشّرائع الداثرة ممّا كان لا يعلم منه القصّة الواحدة بوقعها إلّا الفذّ من أحبار أهل الكتاب الّذي قطع عمره في تعلّمها، و قد أورد القرآن الكريم من القصص ما أوردها على وقعها، و أتى بها على نصّها، فيعترف العالم الخبير بذلك بصحّتها و صدقها، و إنّ مثله لا يمكن أن

[illegible]

وقد علم المشركون وأهل الكتاب من الناس جميعاً أن الرسول محمداً ﷺ كان أمّيّاً لا يقرأ ولا يكتب «الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل» (الأعراف: ١٥٧) «وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك» (العنكبوت: ٤٨)

كما يعلمون ﷺ [illegible] ﷺ [illegible] منهم، وقد [illegible] أهل الكتاب [illegible] ﷺ [illegible] ما علم [illegible] ﷺ [illegible] ما في التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسى ﷺ كما صدقه فيه [illegible] على تكذيب [illegible] الحق وهو [illegible]

قال الله تعالى «ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به» «الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون» (البقرة: ٨٩، ١٤٦)

ومع هذا [illegible] من أهل الكتاب [illegible] به ﷺ وحرصهم على تكذيبه [illegible] ﷺ [illegible] وعلاماته [illegible] مثل سؤالهم عن الروح وذي القرنين وأصحاب الكهف وعيسى وحكم الرجم وما حرّم إسرائيل على نفسه وما حرّم عليهم من الأنعام ومن طيبات كانت أحلت لهم فحرمت عليهم بظلمهم

قال الله تعالى «فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم» (النساء: ١٦٠) «وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم

شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا [illegible] وإنا لصادقون» (الأنعام، ١٤٦) وقال [illegible] [illegible] ٢٩

[illegible]

غيرهم

ومن [illegible] وادعى أن فيها عندهم لما حكاه مخالفه [illegible] [illegible] ٩٣ [illegible] [illegible] قال الله تعالى: «يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين» [illegible]

وقد [illegible] في هذه السورة الكريمة من قصص الأنبياء والأمم الماضية على سبيل الإجمال قوله تعالى: «أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم [illegible] ٤٧

[illegible]

[illegible] اعتماد على اضطراب [illegible]

الرّوم في أدنى الأرض و هم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الأمر من قبل و من بعد و يومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله» (الروم ٢ - ٥) ففيها إخبار عمّا لم يقع بعد فوقع كما أخبر من حيث لم يقع فيه خلاف بين المفسّرين، و المحدّثين و المؤرّخين.

في البحار - كتاب القرآن - باب ما ورد في أصناف آيات القرآن الكريم عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب «عليه السلام» - حديث طويل - قال «عليه السلام»: «... و أمّا ما تأويله بعد تنزيله فهي الأمور التي أخبر الله عزّ و جلّ رسوله «صلى الله عليه و آله» أنّها ستكون بعده مثل ما أخبر به من أمر القاسطين و المارقين و الخوارج، و قتل عمّار جرى ذلك المجرى، و أخبار الساعة و الرّجعة و صفات القيامة مثل قوله تعالى: «هل ينظرون إلاّ أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربّك أو يأتي بعض آيات ربّك يوم يأتي بعض آيات ربّك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً» (الأنعام ١٥٨) - إلى أن قال - و قوله «الم غلبت الرّوم في أدنى الأرض و هم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين» فنزلت هذه الآية و لم يكن غلبت، و غلبت بعد ذلك...» الحديث

في المجمع: قال الطّبرسيّ المفسّر القرآنيّ رضوان الله تعالى عليه في قوله عزّ و جلّ «غلبت الرّوم»: قال المفسّرون: غلبت فارس الرّوم، و ظهروا عليهم على عهد رسول الله «صلى الله عليه و آله» و فرح بذلك كفّار قريش من حيث إنّ أهل فارس لم يكونوا أهل كتاب و ساء ذلك المسلمين، و كان بيت المقدس لأهل الرّوم كالكعبة للمسلمين فدفعتهم فارس عنه»

و قوله: «في أدنى الأرض» أي في أدنى الأرض من أرض العرب عن الزّجاج و قيل في أدنى الأرض من أرض الشام إلى أرض فارس، يريد الجزيرة و هي أقرب أرض الرّوم إلى فارس عن مجاهد و قيل يريد أذرعات و كسكر عن عكرمة «و هم» يعني الرّوم «من بعد غلبهم سيغلبون» أي من بعد غلبة فارس إيّاهم سيغلبون فارس «في بضع سنين» و هذه الآيات الدالّة على أنّ القرآن من عند الله عزّ و جلّ لأنّ فيه أنباء ما سيكون، و ما يعلم ذلك إلاّ الله عزّ و جلّ «لله الأمر من قبل و من بعد» أي من قبل أن غلبت الرّوم و من بعد أن غلبت، فإن شاء جعل الغلبة لأحد الفريقين على الآخر، و إن شاء جعل الغلبة للفريق الآخر عليهم، و إن شاء أهلكهما جميعاً «و يومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله» أي و يوم

يغلب الروم فارس يفرح المؤمنون بدفع الروم فارس عن بيت المقدس لا لغلبة الروم على بيت المقدس فإنّهم كفّار، و يفرحون أيضاً بوجود آخر و هو اغتياظ المشركين بذلك، و بتصديق خبر الله عزّوجلّ و خبر رسوله ﴿ﷺ﴾ و لأنّه مقدّمة نصرهم على المشركين

«ينصر من يشاء» من عباده «و هو العزيز» في الانتقام من أعدائه «الرّحيم» لمن تاب إليه من خلقه «وعد الله» أي وعد الله ذلك «لا يخلف الله وعده» بظهور الروم على فارس «و لكنّ أكثر الناس» يعني كفّار مكّة «لا يعلمون» صحّة ما أخبرناه لجهلهم بالله تعالى» إنتهى كلامه

و في جوامع الجامع قال: «و هذه من الآيات البيّنة الشاهدة على صحّة نبوّة نبيّنا ﴿ﷺ﴾ و أنّ القرآن من عند الله سبحانه لأنّه أنبأ بما سيكون و هو الغيب الّذي لا يعلمه إلّا الله عزّ و جلّ»

و من المفسّرين من قال: «غلب كسرى ملك الفرس جيش قيصر ملك الروم في أرض الأردن و فلسطين و هي أقرب البلاد من جزيرة العرب و حدث ذلك في عهد رسول الله ﴿ﷺ﴾ و كان المسلمون يحبّون أن يظهر الروم على الفرس لأنّهم مثلهم أصحاب كتاب، و المشركون يودّون أن يظهر الفرس على الروم لأنّهم مثلهم أصحاب أصنام، و لمّا جاءت الأخبار بانتصار الفرس شقّ ذلك على المسلمين، و فرح المشركون، فنزلت هذه الآيات تبشّر المسلمين بأنّ الروم ستنتصر على الفرس في جولة ثانية، و إلى هذا أشار سبحانه بقوله «و هم» أي الروم «من بعد غلبهم سيغلبون» الفرس «في بضع سنين» و البضع أقلّ من عشرة و أكثر من ثلاثة، و قد حدث ذلك بالفعل، و هنا يكمن سرّ الإعجاز حيث أخبر القرآن على سبيل اليقين باستئناف الحرب، و حدّد وقتها، و بأنّ الدائرة تدور على الفرس، فكان كما قال علّام الغيوب، و فرحت قلوب المسلمين و زلزلت قلوب المشركين»

أقول: قوله: «لأنّهم مثلهم أصحاب أصنام» خطأ لأنّ الفرس و إن كانوا مشركين، و لكنّهم ما كانوا عبدة الأوثان كمشركي مكّة

و قال بعض الأعلام من المحقّقين: «و من إعجاز القرآن الكريم أنّ الفرس غلبت

الروم على مملكة الفرس فسرّت الفرس بذلك فحزن لذلك رسول الله ﷺ و حزن ﷺ
وأصحابه لميلهم إلى الروم لأنّ هرقل قبل كتاب رسول الله ﷺ و سرّ المشركون
فأنزل الله عزّ وجلّ «الم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع
سنين ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله» فغلبت الروم فارس بعد سبع سنين، و
حقق الله قوله وسرّ المؤمنون بذلك فهذه من الآيات في القرآن قبل كونها، فأصبح بعد ذلك
وهذا في حياته ﷺ انتهى كلامه

وقال بعضهم: هذه من أخبار الغيب في سنة ثلاثة من عصر الإسلام و غلبت الروم
فارس مصداقاً لقول القرآن الحكيم.

وقال بعضهم: ظهرت الروم على فارس يوم الحديبية.

وقال بعضهم: نقل المؤرخون من المسلمين و غير المسلمين على أن غلبت فارس على
بلاد الشام، وفتح دمشق و بيت المقدس الأولى سنة ٦١٣م، والثانية سنة ٦١٤م أي قبل
الهجرة بنحو تسع سنين، و لما بلغ الخبر مكة، فرح المشركون و سخروا و شمتوا
بالمسلمين إذ قالوا لهم: إن الروم أهل الكتاب وهي غلبت فارس وهم أميون فقد ظهر
إخواننا على إخوانكم، و لنظهرنّ عليكم، فنزلت سورة الروم فتحدى على المشركين،
فحال بعضهم وقوع ذلك، و لما مضى سبع سنين بعد الإخبار فقد نظم هرقل جنود الروم
و غزا بهم بلاد فارس سنة ٦٢١ أي قبل الهجرة بسنة، فدوّخها و فتح ممالكها وظهرت و
عاد هرقل منتصراً بالروم وذلك من أعظم معجزات القرآن الكريم

حيث أخبر عن الغيب فوقع مصداقه وفرح المؤمنون فرحاً عظيماً و قتل ...
عدوهم ودلّ على أنّ العاقبة للمتقين وهذا من أعظم معجزات القرآن، وفيه إعلاء ظهور
الإسلام على الدين كله ولو كره المشركون ... بكلامي
«... غلبت فارس الروم، ثمّ غلبت الروم فارس، ثم غلبت المسلمين فارس و
الروم، كلّ ذلك في خمس عشرة سنة من ... غلبت فارس إلى ... المسلمين

وقوله سبحانه «ويومئذ» يوم تغلب الروم على فارس «يفرح المؤمنون» بإظهار
صدق نبيهم فيما أخبر به و ذلك يوم نصر المؤمنين ببدر، فنزل به جبريل، ففرحوا

بنصر من يشاء وهو [illegible] وعليه فغلبة الروم على فارس [illegible] رسول الله (ﷺ) وهذا نصر نصر المؤمنين و [illegible] نصر [illegible] و نصر [illegible] و [illegible].

وفي الإرشاد [illegible] عليه السلام في قوله تعالى «الم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين» ذلك من [illegible] رسول الله (ﷺ) فقال عند غلبة فارس الروم: الم غلبت الروم [illegible] فكان الأمر في ذلك كما قال.

وقال بعضهم: [illegible] الروم [illegible] من [illegible] من حدث مشهود يراه المسلمون والمشركون [illegible] حرب [illegible] الروم والفرس والتي انتصر فيها الفرس وهم عبدة أوثان، على الروم وهم [illegible] والحرب على أشدّها بين المشركين والمسلمين في مكّة [illegible] المشركين، حيث كانوا هم [illegible] المسلمين [illegible] من المستضعفين من [illegible] من [illegible] و [illegible].

في هذا [illegible] في مكّة [illegible] حرب [illegible] الفرس و الروم [illegible] المشركين [illegible] في [illegible] المشركين [illegible] على [illegible] [illegible] المسلمين [illegible] الروم [illegible] سماوي [illegible] المشركون [illegible] الفرس [illegible] أهل الكتاب [illegible] المشركين [illegible] على الّذين اتّبعوا محمّداً (ﷺ) [illegible] ما يعدهم به الكتاب الّذي في أيديهم من نصر [illegible] الفرس و الروم [illegible] انتصار الفرس على الروم [illegible].

وإذن فإنّ ما يُدّعى بأنّه كتب سماوية من عند الله تعالى [illegible] هو مجرّد كذب و [illegible] من عند الله [illegible] في [illegible]

لله و قد خُذِل أتباع كتبه؟ هكذا كان تفكير المشركين و تقديرهم

و قد وجد المسلمون في أنفسهم شيئاً من الأسى بعد الهزيمة التي حلّت بالرّوم، ثمّ ضاعف ذلك الأسى و زاد في مرارته ما كان يلقاهم به المشركون من كلمات ساخرة، و نظرات شامتة. ذلك و المسلمون قد كانت تنزف جراحاتهم دماً من ضربات المشركين لهم في أجسامهم و مشاعرهم على السواء.

و في كلّ موقف يشتدّ فيه البلاء على المؤمنين و تضيق فيه عليهم الأرض بما رحُبت، تطلع عليهم آية من آيات الله جلّ و علا، فتمسك بنفوسهم المضطربة، و تنزعها من يد العاصفة المجنونة المشتملة عليها، و إذا الأمن و السّلامة يحفّان بهم، و إذا هم و قد ظفروا و غنموا و انقلبوا بنعمة من الله و فضل لم يمسسهم سوء!!

و من هذه الآيات الأولى التي نزلت بها سورة «الرّوم» وجد المسلمون ريح رحمة الله تعالى، في هذا الوعد الكريم، و في تلك البشرى المسعدة التي ساقها إليهم بين يديه.

و حقّاً قد غُلبت الرّوم في هذه المعركة و ليس بالمستبعد أن يغلب المؤمنون في معركة أو أكثر من معاركهم مع المشركين، و لكنّ العاقبة أبداً للمؤمنين. و لقد غُلبت الرّوم في هذه المعركة، و لكنّ الصّراع لم ينته بعد، فهناك معركة غير منظورة، بعدها نهاية، و ستقع بعد بضع سنين، و فيها تكون الغلبة للرّوم، و بهذه الغلبة تحسم الأمر بينهم و بين الفرس، فلن تقوم للفرس قائمة بعد هذا اليوم، بل و لن تكون لهم دولة، حيث يستولي المسلمون على هذه الدّولة، و تصبح بعضاً من دولة الإسلام، بل صارت محور الدّول الإسلاميّة و أسوة لها في الإيمان و الدّين و العلم و العمل الإسلاميّ، و في المودّة لأهل بيت النّبوّة صلوات الله عليهم أجمعين.

و قال بعضهم: ـ نقلناه مختصراً ـ إنّه في هذا الجوّ الخانق الكئيب الّذي كان يتنفّس فيه المسلمون سموم الشّماتة من أفواه المشركين، لهذه الهزيمة التي لحقت بالرّوم على يد الفرس ـ في هذا الجوّ تلقّى المسلمون في مكّة هذه الآيات من مطلع سورة «الرّوم» فوجدوا في أنفاسها المطهّرة، أرواحاً طيّبة، سرت في كيانهم، فتفتّحت لها قلوبهم، و انتعشت بها مشاعرهم، و زغردت لها أرواحهم. إنّهم يتلقّون من الله سبحانه وعداً كريماً بنصر الرّوم، و إنّهم ليجدون هذا الوعد واقعاً محقّقاً، قبل أن يقع، إنّهم مؤمنون بربّهم، مستيقنون

يعدهم به

وحين يرى المشركون هذه الحال التي سيطرت على المسلمين من الرضا والطمأنينة يتساءلون فيما بينهم: ماذا جرى؟ وأيّ شيء بدّل حال المسلمين، فأصبحوا على غير ما أمسوا عليه؟ ويجيبهم الأنباء بأنّ محمداً ﴿ﷺ﴾ تحدث إليهم بما اعتاد أن يلقاهم به من حديث يقول إنّه تلقّاه من ربّه، وأنّ ما حدثهم به اليوم، هو أنّ الروم وإن غُلبوا في تلك المعركة الّتي دارت بينهم وبين الفرس منذ قليل فإنّهم سيغلبون الفرس، وأنّ ذلك سيكون بعد بضع سنين!!

أهكذا الأمر إذن؟ وإذا كانت تلك الفرحة الّتي تعلو وجوه المؤمنين؟ ألا ما أخفّ أحلامهم؟ وما أقصر عقولهم؟! أمثل هذا الكلام يخدعون؟ وعلى مثل هذا الكلام يبنون قصوراً من الأماني والآمال؟ ألا يزالون على ضلالهم القديم، ينخدعون بما يحدثهم محمد ﴿ﷺ﴾ به من أحاديث لا تعدو أن تكون وعوداً معلّقة بالمستقبل البعيد أو القريب، لا يمسك المرء منها بشيء في يومه أو غده؟ فأين البعث؟ وأين الحساب؟ وأين الجنّة والنار؟؟؟!!

لقد أكثر محمد ﴿ﷺ﴾ من تلك الأحاديث إلينا، وصدّع بها رؤوسنا، وما نرى لذلك ظلاً، وما نشهد له أثراً! ثمّ ها هي ذي [illegible] محمد ﴿ﷺ﴾ فينتقل من الرجم بالغيب في أحشاء الزمن البعيد، المضاف إلى ما بعد موت الناس جميعاً، إلى أن يرجم بالغيب في واقع حياتنا، ممّا لا يجاوز مداه بضع سنين؟ إنّها عثرة قاتلة، ولن يقيل محمداً منها، فهيا أمسكوا به، متلبّساً بهذا الكذب المفضوح، واضربوه الضربة القاضية، وقد سنحت لكم الفرصة فيه!!

هكذا أدار المشركون الحديث حول هذه الآيات، ووجدوا ـ حسب زعمهم ـ أنّ فيها فرصتهم للنيل من محمد ﴿ﷺ﴾ والضربة الضاربة في الصميم من دعوته.

إنّها لسنوات معدودة ـ في بضع سنين ـ تنحصر فيما بين ثلاث وعشر، وبعدها ينكشف الأمر. فماذا لو ظلّ الحال على ما هي عليه، فلم تقع حرب بين الروم والفرس خلال هذه السنوات المعدودات؟ وماذا لو وقعت حرب بينهما، ثمّ دارت الدائرة فيها على الروم مرّة

أخرى؟ يكون لمحمد وحده نبي به [illegible] من بعد هذا؟ أو محمد ﷺ بعد هذا [illegible] نسمع له، أو إنساناً نصدق له قوله؟

والحق أن هذا صحيح [illegible] حرب بين الفرس والروم خلال هذه المدة المحدودة المحصورة في بضع سنين [illegible] وقعت هذه الحرب ولم يكن النصر والغلب للروم على الفرس فيها [illegible] حدث هذا لكان محمد ﷺ [illegible] ﷺ [illegible] في هذه الدنيا، ولذهب كل شيء، ولاختفى كل أثر لمحمد، [illegible] ﷺ [illegible] دعوة قائمة على أنها من عند الله تعالى وأن محمداً ﷺ [illegible] من ربه وهذا يعني أنه الصادق الذي لا [illegible] ولا [illegible] الحق الذي لا يأتيه الباطل [illegible] الكلام [illegible] من يكذب [illegible] من [illegible] قد وقعت [illegible] فيها.

[illegible] يكون هذا الكلام من عمل محمد ﷺ ومن [illegible] هذا [illegible] كما زعم المشركون: «وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزوراً وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً» الفرقان ٤-٥ وإلا فهو كذب [illegible] من [illegible] ﷺ [illegible] هذا [illegible] وحياً من ربه «[illegible]» [illegible] ٦ [illegible] الشعراء ١٩٢-١٩٤، وإلا فقد بطلت دعواه بأنه رسول من عند الله جل وعلا [illegible] هذا الكلام وحياً كما يقول محمد ﷺ [illegible] وحياً من عند الله [illegible] على بعض الناس كالعرافين والشعراء، وقد [illegible] «[illegible] الشياطين» الشعراء ٢١٠ وإذن فقد بطلت دعوة [illegible] هو وحي من عند الله عز وجل لأن الله سبحانه لا يكذب ولا يفترى!

والحق أيضاً أن هذه الآيات [illegible] الذي [illegible] في الناس جميعاً والذي ترددت أنباؤه على أسماع الناس في الجزيرة العربية، [illegible] من مشركين وأهل كتاب، بل وربما جاوزت الجزيرة العربية إلى فارس والروم [illegible] أن هذا [illegible]

[illegible] بهذه المعجزة [illegible] وقد كان ذلك فيما يبدو — في ظاهر الأمر — مغامرة [illegible] من محمد [illegible] دعوة محمد رسول الله ﷺ و يريدون أن يعرفوا [illegible]

و [illegible] المشركين [illegible] استقبلوا الدعوة الإسلامية من أول يومها بإعلان الحرب عليها من قبل أن ينظروا في وجهها و [illegible] دلائل الحق التي بين يديها — [illegible] في مواجهة الدعوة الإسلامية [illegible] هذه الأنباء بالفرح و [illegible] و [illegible] في [illegible] من [illegible] في [illegible] الأولى [illegible] لمحمد ﷺ في [illegible] في [illegible] و [illegible] في [illegible] الجنة و [illegible]

و [illegible] في [illegible] فهو في [illegible] و هذا [illegible] في [illegible] على [illegible] من [illegible] على [illegible] من [illegible] لأهل الكتاب على الفارس — لكن [illegible] إذ لا داعية لهذا التأخير مادامت قدرة الله حاضرة قادرة [illegible] بل و [illegible] من [illegible] هذا النصر لو كان إرادة الله لما وقعت [illegible] و [illegible] و [illegible] من [illegible]

هكذا [illegible] المشركون [illegible] حتى [illegible] الأمر [illegible] من [illegible] و [illegible] على [illegible] و [illegible] هذه [illegible] رسول الله ﷺ و [illegible] في [illegible] و [illegible] و المشركون في [illegible] في [illegible] عشر من رمضان [illegible] من [illegible] و [illegible] و [illegible] المشركون [illegible] من [illegible] و [illegible]

و في [illegible] الذي [illegible] المسلمين و المشركين، و [illegible] الدائرة على [illegible] و [illegible] من [illegible] و [illegible] و فيها [illegible]

الفرس هزيمة إلى الأبد، فلا تقوم لها بعدها قائمة، فهي إذاً سوف تعقب هذه الهزيمة التي حلّت بهم، حتّى تدخل جيوش المسلمين بلاد فارس وتستولي عليها وتضمّها إلى الدولة الإسلامية. وليس هذا رجماً بالغيب ولا استملاءً من سطور الأوراق كما يتخرّص المتخرّصون من القصص الخرافية.

وهذه صحف التاريخ التي سجّلت هذه الأحداث في وقتها لا تزال بين أيدي أهلها الذين ليس لهم مصلحة في أن يعملوا تاريخهم على ما نطق به القرآن، ويجيء مصدّقاً له».

وفي تفسير الطنطاوي قال: «يحقّق هذا التاريخ أنّ الروم غلبتهم فارس في أدنى الأرض إليهم، ثمّ غلبت الروم بعد ذلك بعد سبع سنين، وأنّ الروم لم تكن سبقت الاستيلاء قد غلبها المسلمون بعد نزول الآية بسبع سنين ولا أخيرة أنّ الأمر من معجزة، ولا سيّما في أحدهما الآخر، فإنّ الروم غلبوا الفرس وغلبهم المسلمون، وبذلك عرفت الآية بوجهين» إنتهى كلامه.

وفي تفسير اللاهيجي عن كتاب الاستغاثة للبحراني قال: «من جملة علوم الأئمة عليهم السلام وأسرارهم أنّهم أخبروا أنّ أميّة الذي هو جدّ بني أميّة لم يكن من قريش، بل كان غلاماً رومياً تبنّاه عبد شمس بن عبد المناف أخو هاشم، ويكون تأويل قوله تعالى «الٓمٓ غُلِبَتِ الرُّومُ» في شأن بني أميّة بأنّهم غلبوا السلطة، لكنّهم سيغلبون بأيدي بني العبّاس».

أقول: رواه المحقّق في تفسير روح البيان أيضاً.

وفي تفسير بيان السعادة مروياً عن الأئمة عليهم السلام ذلك، ثمّ قال: «صحّ تفسير الروم ببني أميّة بمناسبة على تشبيههم بأهل الروم في الكثرة أو في الاهتمام بالدنيا واعتبارها أو في أخذ المذهب بمحض الرسم والملّة».

وجه آخر من وجوه إعجاز هذه السورة.

واعلم أنّ من البديهة عند أصحاب الحكمة والبيان والبلاغة والكلام أنّ من وجوه إعجاز القرآن المجيد اشتماله على جميع أنواع البراهين القاطعة والأدلّة الواضحة على كلا

قسمي الآفاقيّة والأنفسيّة إذ ما من برهان ودلالة، ولا تقسيم وتحديد لشيء من كلّيّات المعلومات العقليّة والسّمعيّة إلّا وكتاب الله القرآن الكريم قد نطق به، ولكن أكثرها على عادة العرب دون دقائق طرق المتكلّمين لأمرين

أحدهما ـ لقوله عزّوجلّ «وما أرسلنا من رسول إلّا بلسان قومه ليبيّن لهم» (إبراهيم ٤)

ثانيهما ـ أنّ المائل إلى دقيق المحاجّة هو العاجز عن إقامة الحجّة بالجليل من الكلام، فإنّ من استطاع أن يفهم بالأوضح الّذي يفهمه الأكثرون لم ينحطّ إلى الأغمض الّذي لا يعرفه إلّا الأقلّون ولم يكن مُلغزاً فأخرج تعالى مخاطبته في محاجّة خلقه في أجلى صورة، ليفهم العامّة من جليّها ما يقنعهم ويلزمهم الحجّة، وتفهم الخواصّ من أثنائها ما يُربي على ما أدركه فهم الخطباء.

وقد يوجد شيء من المذهب الكلاميّ في القرآن الكريم للخواصّ وسرّه أنّه احتجاج المتكلّم على ما يريد إثباته بحجّة تقطع المعاند فيه على طريقة أرباب الكلام، ومنه نوع منطقيّ تستنتج منه النّتائج الصّحيحة من المقدّمات الصّادقة.

وقد جمع الطّريقين قوله تعالى: «وهو الّذي يبدؤا الخلق ثمّ يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى» (الروم ٢٧) وقوله عزّوجلّ «الله الّذي خلقكم ثمّ رزقكم ثمّ يميتكم» (٤٠) وقد سبق وجهها في البحث البيانيّ فراجع.

وأمّا الطّريق الأوّل فقد ذهب إلى ثلاث عشرة آية من آيات هذه السّورة.

وقد استدلّ تعالى بآيات من هذه السّورة على المعاد الجسمانيّ بضروب

منها قياس الإعادة على الابتداء كقوله سبحانه «الله يبدؤا الخلق ثمّ يعيده ثمّ إليه ترجعون» (١١)

ومنها قياس الإعادة على إحياء الأرض بعد موتها بالمطر والنّبات كقوله عزّوجلّ «يخرج الحيّ من الميّت ويخرج الميّت من الحيّ ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون» (١٩ و ٥٠)

ومنها قياس الإعادة على خلق السّماوات والأرض بطريق الأولى كقوله جلّ وعلا

«و هو الّذي يبدؤا الخلق ثمّ يعيده و هو أهون عليه و له المثل الأعلى في السموات و الأرض» (٣٠: ٢٧) و غيرها من الآيات و أنواع البراهين الساطعة على المبدأ و المعاد

وجه آخر من وجوه إعجازه

و من وجوه إعجاز القرآن الكريم ضرب الأمثال فيه، و هي على نوعين: أحدهما ـ ظاهر مصرّح به. ثانيهما ـ مضمر كامن لا ذكر للمثل فيه.

قال الله تعالى: «و لقد ضربنا للنّاس في هذا القرآن من كلّ مثل» (الروم: ٥٨)، فامتنّ عليهم بذلك لما تضمّن من الفوائد الكثيرة.

و قال رسول الله (ﷺ): «إنّ القرآن نزل على خمسة أوجه: حلال و حرام و محكم و متشابه و أمثال، فاعملوا بالحلال و اجتنبوا الحرام، و اتّبعوا المحكم، و آمنوا بالمتشابه، و اعتبروا بالأمثال».

و عن بعض أصحاب البلاغة و البيان: إنّ من أعظم علم القرآن علم أمثاله، و النّاس في غفلة عنه لاشتغالهم بالأمثال، و إغفالهم الممثّلات، و المثل بلا ممثّل كالفرس بغير لجام، و النّاقة بلا زمام.

و قال بعضهم: ممّا يجب على المجتهد معرفته من علوم القرآن الكريم معرفةُ ما ضُرِبَ فيه من الأمثال الدّالّة على طاعته، المبيّنة لاجتناب معصيته.

و قال بعضهم: إنّما ضرب الله تعالى الأمثال في القرآن المجيد تذكيراً و وعظاً، فما اشتمل منها على تفاوت في ثواب، أو على إحباط عمل، أو على مدح أو ذمّ، أو نحوه، فإنّه يدلّ على الأحكام...

و قال بعضهم: ضرب الأمثال في القرآن المجيد يستفاد منه أمور كثيرة: التذكير و الوعظ و الحثّ و الزّجر و الإعتبار و التّقرير، و تقريب المراد للعقل، و تصويره بصورة المحسوس، فإنّ الأمثال تصوّر المعاني بصورة الأشخاص، لأنّها أثبت في الأذهان لاستعانة الذّهن فيها بالحواسّ، و من ثمّ كان الغرض من المثل تشبيه الخفيّ بالجليّ و الغائب بالشّاهد.

و تأتي أمثال القرآن الكريم مشتملة على بيان تفاوت الأجر و على المدح و الذّمّ، و على الثواب و العقاب، و على تفخيم الأمر أو تحقيره، و على تحقيق أمر أو إبطاله

وقال بعضهم: ومن حكمة الأمثال تعبير الغيب، وهو من خصائص هذه الشريعة.

وقال بعضهم: التمثيل إنّما يصار إليه لكشف المعاني، وإدناء المتوهّم من المشاهد، فإن كان المتمثّل له عظيماً كان المتمثّل به مثله، وإن كان حقيراً كان المتمثّل به كذلك.

وقال بعضهم: لضرب العرب الأمثال، واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس بالخفيّ في إبراز خفيّات الدقائق، ورفع الأستار عن الحقائق، تريك المتخيّل في صورة المحقّق، والمتوهّم في معرض المتيقّن، والغائب كأنّه مشاهد. وفي ضرب الأمثال تبكيت للخصم الشديد الخصومة، وقمع لسورة الجامح الأبيّ، فإنّه يؤثّر في القلوب ما لا يؤثّر وصف الشيء في نفسه. ولذلك أكثر الله تعالى في كتابه المجيد وفشت في كلام رسوله ﷺ وبيان أهل بيت وحيه المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين.

وقد جاء كلا القسمين من الأمثال في هذه السورة الكريمة.

أمّا الأوّل: فكقوله تعالى: «ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصّل الآيات لقوم يعقلون» (الروم: ٢٨) وقد سبق وجهه في البحث البيانيّ فراجع.

وأمّا الثاني: فكقوله: «وهم عن الآخرة هم غافلون» (الروم: ٧) وقد سبق وجهه أيضاً في البحث البيانيّ فراجع.

ومن جرى مجرى المثل وهذا هو النوع البديعي المسمّى بإرسال المثل، قوله تعالى في هذه السورة: «كلّ حزب بما لديهم فرحون» «ظهر الفساد في البرّ والبحر» (٣٢ و ٤١)

وجه آخر من وجوه إعجازها:

هو قضيّة بدء خلق الإنسان واستمرار حياته إلى حين الموت، ثمّ بين الموت والبعث من عالم البرزخ إذ قال الله تعالى: «ومن آياته أن خلقكم من تراب ثمّ إذا أنتم بشر تنتشرون ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودّة ورحمة إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون ـ فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ـ الله الذي خلقكم من ضعف ثمّ جعل من بعد ضعف قوّة ثمّ جعل من بعد قوّة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير

ساعة كذلك كانوا يؤفكون وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون» (الروم ٢ - ٣ و ٣٠ و ٥٤ - ٥٦).

وذلك أنّ قضية خلق الإنسان تلتقي مع العقل السليم في كلّ طور من أطواره صعوداً ونزولاً. وهذه حقيقة لا يستعصي فهمها العقل في أعلى مراتبه، ولا يستعصي عن الأخذ بها

وهذه الآيات ونظائرها كثيرة في خلق الإنسان وحياته وموته، وعالم برزخه وبعثه، تضع العقل أمام قضايا ومعجزات كلّها تحدث عن خلق الإنسان، وبعضها واضح جليّ يعرف بأدنى نظر، وبعضها دقيق خفيّ لا ينال إلا بنظر عميق وإدراك سليم مع قدر كبير من العلم والمعرفة.

ومع هذا فإنّ أسماء هذه الآيات في أيّ عقل مؤمن لا تعدو حدّ مناسبتها ولا تدعو إلى الفصل في وحدتها، وذلك لحمل الحقّ عليه منها على الخفيّ، والمتشابه - عنده - على المحكم. ثم يبقى مع هذا للعقل - على امتداد الزمن - مكانه من الآيات لخفيّه، ينظر في وجوهها، ويدور باحثاً عن أسرارها. وفي كلّ يوم يجد العقل من هذه الآيات جديداً من العلم، ومزيداً من المعرفة وكثيراً من الأسرار والحِكَم.

وذلك أنّ التراب والطين والصلصال والحمأ المسنون والماء والنبات، والمنيّ وكلّ هذه الموادّ التي تحدث عنها القرآن الكريم في خلق آدم وبنيه هي العناصر التي شكّلت هذا المخلوق العجيب، والتي أقام منها الخالق العظيم هذا البناء في أحسن تقويم. وحتى ليجيء العلم الحديث متخاضعاً بين يدي القرآن الكريم مستسلماً، مسلّماً لما ضمّت عليه آيات الله تعالى من معارف وحقائق وأسرار وحِكَم. لم يزد العلم بكلّ وسائله إلا لمحات منها. فما قرّرته علوم الحياة من تلك الصلة الوثيقة التي تصل الإنسان بالأحياء، وتجعله حلقة من حلقات سلسلة الممتدّة الضاربة في أعماق الطبيعة

«التكرار وأسراره»

واعلم أنّ البحث في هذه يدور حول سبعة عشر أمراً:

أحدها ـ أنّ سورتين تشتمل كلّ واحدة منها على ستّين آية على الترتيب التالي أولاً ١ـ سورة «الذاريات» لأنّ فيها (٦٠) آية، و (٥) صفحة ٢ـ سورة «الروم» لأنّ فيها (٦٠) آية و (٦) صفحة

ثانيها ـ أنّ آيات سورة الروم تختم على ثلاثة أحرف ١ـ الميم ٢ـ النون ٣ـ الراء.

أمّا الأولى فهي أربع آيات كقوله تعالى «العزيز ـ الرحيم ـ الحكيم»

وأمّا الثانية فهي (٥٤) آية كقوله سبحانه «يسمعون ـ لا يوقنون»

وأمّا الثالثة فهي آيتين كقوله عزّوجلّ «قدير ـ القدير»

ثالثها ـ قال بعض المحقّقين إنّ في القرآن الكريم (٧٥٠) آية كلّها في الكلام على خلق العوالم العلويّة والسّفليّة كقوله تعالى: «أولم يتفكّروا في أنفسهم ما خلق الله» الروم ٨،

رابعها ـ أنّ الله عزّوجلّ قدّم في قوله: «أولم يتفكّروا في أنفسهم ما خلق الله» الروم ٨ دليل الأنفس على دليل الآفاق، وعكس في قوله «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم» فصّلت ٥٣.

أمّا وجه التقديم في سورة «الروم» فلأنّ الإنسان قلّما يذهل عن نفسه، وأنّ نفسه أقرب الأشياء إليه كقوله سبحانه «الّذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكّرون

في خلق السّموات والأرض» [آل عمران ١٩١] أي يعرفون الله بدلائل الأنفس في سائر الأحوال، ويتفكّرون في خلق السّموات والأرض بدلائل الآفاق.

وأمّا وجه التأخير في سورة «فصّلت» لأنّ الإنسان يتفكّر بهما في معرفة الأبعد الأخفى كأنّه قال «سنريهم آياتنا» الآفاقيّة، فإن لم يفهموها فآيات الأنفس معلومة، وهذا الترتيب لا يناسب التفكّر بل التفكّر يتوقّف على الأنفس أوّلاً ثمّ يرتقي إلى دلائل الآفاق، فظهر أنّ كلّ آية وردت على ما اقتضته الحكمة والبلاغة.

خامسها- أنّ الله تعالى قال في هذه السّورة «أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم» [٩] وفي سورة «فاطر» [٤٤] وفي أوّل سورة «المؤمن» [٢١] بالواو، وفي آخر سورة «المؤمن» [٨٢] بالفاء، لأنّ ما قبله في هذه السورة «الروم» «أولم يتفكّروا» وكذلك ما بعدها: «وأثاروا» و«عمروا» فوافق ما قبله وما بعده، وفي «فاطر» أيضاً وافق ما قبله وما بعده، فإنّ قبله «ولن تجد لسنّة الله تحويلاً» وبعده «وما كان الله»، كذلك أوّل المؤمن، قبله «والّذين يدعون من دونه» وما آخر المؤمن فوافق ما قبله وما بعده وكان بالفاء، وهو قوله «فأيّ آيات الله تنكرون» وبعده: «فما أغنى عنهم».

وقوله تعالى «كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم كانوا أشدّ قوّة» إنّ «من قبلهم» متّصل بكون آخر مضمر، وقوله سبحانه «كانوا أشدّ منهم قوّة» إخبار عمّا كانوا عليه قبل الإهلاك، وخصّت هذه السّورة بهذا النّسق لما يتّصل به من الآيات بعده، وهذه إخبار عمّا كانوا عليه، وهو «وأثاروا الأرض وعمروها» وفي «فاطر» «كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم وكانوا» مزيدة الواو، لأنّ التقدير فينظروا كيف أهلكوا وكانوا أشدّ منهم قوّة» فخصّت هذه السّورة به لقوله «وما كان الله ليعجزه من شيء».

وفي أوائل سورة «المؤمن» «كيف كان عاقبة الّذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشدّ منهم قوّة» [٢١] فأظهر «كان» العامل في «من قبلهم» وزاد «هم» لأنّ في هذه السّورة وقعت في أوائل قصّة نوح عليه السلام وهي تمرّ في ثلاثين آية، فكان اللائق به البسط، وفي أواخر سورة «المؤمن» «كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم كانوا أكثر منهم» فلم يبسط القول، لأنّ أوّل السّورة يدلّ عليه.

سادسها ـ قال الله تعالى في هذه السّورة «يخرج الحيّ من الميّت و يخرج الميّت من الحيّ» (الروم: ١٩) و في سورة آل عمران «تخرج الحيّ من الميّت و تخرج الميّت من الحيّ» (٢٧) و في سورة الأنعام «يخرج الحيّ من الميّت و مخرج الميّت من الحيّ» (٩٥) و ذلك أنّ ما في سورة الأنعام وقع بين أسماء الفاعلين و هو «فالق الحبّ و النّوى ـ فالق الإصباح» (٩٥ ـ ٩٦) و اسم الفاعل يشبه الإسم من وجه، فيدخله الألف و اللام و التنوين و الجرّ و غيرها، و يشبه الفعل من وجه آخر، إذ يعمل عمل الفعل و لا يثنّى و لا يجمع إذا عمل و غيرها و لهذا جاز العطف عليه بالإسم كقوله تعالى: «إنّ المصّدّقين و المصّدّقات و أقرضوا الله قرضاً حسناً» (الحديد: ١٨)، و جاز عطفه على الفعل كقوله سبحانه «سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون» (الأعراف: ١٩٣) فلذا وقع بينهما ذكر «يخرج الحيّ من الميّت» بلفظ الفعل، و «مخرج الميّت من الحيّ» بلفظ الإسم عملاً بالشبهين، و أخّر لفظ الإسم لأنّ الواقع بعده اسمان: «فالق الإصباح ـ خالق كلّ شيء» (الأنعام ٩٦ ـ ١٠٢) و المتقدّم «فالق الحبّ» اسم واحد، بخلاف ما في سورة آل عمران لأنّ ما قبله و ما بعده أفعال و كذلك في سورة يونس (٣١) و سورة الرّوم (١٩)، أفعال، فروعيت في الأفعال و الأسماء حسن الجوار فتأمّل حقّه فإنّه من معجزات القرآن الكريم.

سابعها ـ أنّ قوله تعالى: «و من آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً ..» (الرّوم: ٢١) ختم بقوله سبحانه «يتفكّرون» لأنّ التفكّر يؤدّي إلى الوقوف على المعاني الّتي خُلقت لها من التآنس و التجانس و سكون كلّ واحد منهما إلى الآخر، و ختم قوله عزّ و جلّ «و من آياته خلق السّموات و الأرض ..» بقوله جلّ و علا «للعالمين» (الرّوم ٢٢) لأنّ الكلّ تظلّهم السّماء، و تُقلّهم الأرض، و كلّ واحد منفرد بلطيفة في صورته يمتاز بها عن غيرها، حتّى لا ترى اثنين في ألف متشابه صورتاهما و لا صوتاهما و يلتبس كلاهما، و كذلك ينفرد كلّ واحد بدقيقة في صورته، يتميّز بها من بين الأنام، فلا ترى اثنين يشتبهان، و هذا يشترك في معرفته النّاس جميعاً، فلهذا قال: «لآيات للعالمين»

و من حمل اختلاف الألسن على اللغات، و اختلاف الألوان على السّواد و البياض، و الشُّقرة و السّمرة، فالإشتراك في معرفتها أيضاً ظاهر و من قرأ «للعالمين» بكسر اللام و

هي قراءة حفص، فقد أحسن لأنّ بالعلم يمكن الوصول إلى معرفة ما سبق ذكره.

ثامنها ـ أنّ قوله سبحانه «ومن آياته منامكم بالليل والنهار» ختم بقوله تعالى «يسمعون» (الروم ٢٣)، لأنّ من سمع أنّ النوم من صنع الله الحكيم لا يقدر أحد على اجتلابه إذا امتنع، ولا على دفعه إذا ورد، تيقّن أنّ له صانعاً مدبّراً، ومعنى «يسمعون» هاهنا يستجيبون إلى ما يدعوهم إليه الكتاب، وقد ختم قوله عزّوجلّ «ومن آياته يريكم البرق» بقوله جلّ وعلا «يعقلون» (الروم ٢٤)، لأنّ العقل هو ملاك الأمر في هذه الأبواب، وهو المؤدّي إلى العلم، فختم بذكره.

تاسعها ـ أنّ الله تعالى ذكر في الإعادة هنا بقوله «وهو أهون عليه» (الروم ٢٧) وفي سورة مريم «هو عليّ هيّن» (٩ و ٢١) وكذلك بتقديم الخبر «عليّ» على متعلّقه، وتأخيره «عليه» هنا، فما وجه الاختلاف في التعبير؟ فإنّ الله تعالى أورد في سورة «مريم» الاختصاص بأنّ خلق الولد بين هرم وعاقر لا يهون إلّا عليّ، وأمّا هاهنا في سورة الروم فالأمر مبنيّ على المعقول بين الناس من أنّ الإعادة أهون من الابتداء!

وأمّا وجه التقديم فهو الحصر، ولم يرده في مورد التأخير لأنّ المقصود بما عنى هنا هو خلاف المقصود هناك، فإنّه اختصّ من الله بالقدرة على إيلاد الهرم والعاقر، وأمّا المقصد هنا فلا معنى للاختصاص فيه، كيف والأمر مبنيّ على ما يعتقدونه في المشاهد من أنّ الإعادة أسهل من الابتداء، فلو قدّمت الصلة لتغيّر المعنى، وهذا سؤال مشهور تعورف بينهم، وهو أنّه كيف قال الله سبحانه «وهو أهون عليه» والأفعال كلّها بالنسبة إلى قدرته تعالى متساوية في السهولة؟ والصحيح أنّ الأمر مبنيّ على ما تقاس على أصولكم ويقتضيه معقولكم من أنّ الإعادة للشيء أهون من ابتدائه لأنّ من أعاد منكم صنعة شيء كانت أسهل عليه وأهون من إنشائها، فالإعادة محكوم عليها بزيادة السهولة.

وهناك جواب آخر وهو أن يكون أهون ليست للتفضيل، بل هي صفة بمعنى هيّن.

وقد كرّر قوله تعالى «الله يبدؤا الخلق ثمّ يعيده» (الروم ١١) في قوله سبحانه «وهو الّذي يبدؤا الخلق ثمّ يعيده» (الروم ٢٧) لزيادة التقرير، والتمهيد لما بعده من قوله عزّوجلّ «وهو أهون عليه».

عاشرها ـ أنّ قوله تعالى «فأقم وجهك للدين القيّم» (الروم ٤٣) توكيد لقوله سبحانه «فأقم وجهك للدين حنيفاً» (الروم ٣٠) تنبيهاً على أنّ المأمور بإقامة الوجه هم المؤمنون.

الحادي عشر ـ أنّ الله تعالى قال: «وإذا مسّ الناس ضرّ دعوا ربّهم منيبين إليه ثمّ إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربّهم يشركون» (الروم ٣٣) ثمّ قال: «وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيّئة بما قدّمت أيديهم إذا هم يقنطون» (الروم ٣٦)، فمدلول الآية الأولى أنّهم إذا وجدوا فرحوا، وإذا فقدوا دعوا الله وهم قانطون من غير الله، متّصلون به تعالى، عكس الآية الثانية فإنّ مدلولها أنّهم إذا وجدوا فرحوا، وإذا فقدوا قنطوا من الله سبحانه.

ووجه التوفيق بينهما أنّ المراد من الناس في الأولى غيرهم في الثانية.

وقد قال تعالى: «إذا فريق منهم بربّهم يشركون» (الروم ٣٣)، وقال في سورة العنكبوت «إذا هم يشركون» (٦٥) لأنّ الكلام هناك مع المشركين وههنا مع الناس جميعاً، وليس كلّ الناس كذلك.

وهناك أجوبة أخرى

منها: لو فرض اتّحادهما لما كان ما ذكر من دعائهم في حال قنوطهم في حال أخرى.

ومنها: أنّ الدعاء لسانيّ جار على العادة، ولا ينافي القنوط الذي هو أمر قلبيّ.

ومنها: أنّ المراد من قنوطهم فعلهم فعل القانطين [illegible] الفضلاء.

ومنها: أنّ الآية الثانية بصدد بيان أنّ الناس لا يعدو نظرهم ظاهر ما يشاهدونه من النعمة والنقمة، وفي الشدّة والرخاء، إذا وجدوا فرحوا بها من غير أن يشكروا ويعقلوا أنّ الأمر بيد غيرهم وبمشيئة ربّهم، إذا لم يشاهدوا [illegible]، وإذا فقدوا قنطوا كأن ليس ذلك بإذن من ربّهم، وإذا لم يشاهدوا [illegible]، وسبب ذلك أنّهم ظاهريّون سطحيّون.

ومنها: أنّ الأولى بصدد بيان أنّ الناس كافرون بالنعمة بطبيعتهم، وإن عرفوها عند الضرّ بفطرتهم، وقد أخذ لذلك فريق منهم لأنّ منهم من ليس كذلك فالمعنى إذا

أصاب الناس شيء من الضرّ و لو قليلاً كمرض و فقر و شدّة دعوا ربّهم و هو الله تعالى حال كونهم معرضين عن غيره، ثمّ إذا أذاقهم الله تعالى من عنده رحمة إذا فريق من هؤلاء الناس بربّهم الّذي كانوا يدعونه و يعترفون بربوبيّته يشركون باتّخاذ الأنداد و الشركاء خلاف فطرتهم

الثاني عشر: أنّ الله تعالى قال في هذه السورة «أو لم يروا أنّ الله يبسط الرزق لمن يشاء و يقدر...»: ٣٧) و قال في سورة الزمر «أو لم يعلموا أنّ الله يبسط الرزق لمن يشاء و يقدر...»: ٥٢) و ذلك أنّ بسط الرزق ممّا يشاهد و يرى فجاء في سورة «الروم» على ما يقتضيه اللفظ و المعنى و في سورة «الزمر» اتّصل بقوله تعالى «إنّما أوتيته على علم»: ٤٩ و بعده «و لكنّ أكثر الناس لا يعلمون»: ٤٩، فحسن «أو لم يعلموا»

الثالث عشر: قال الله تعالى في هذه السورة «فآت ذا القربى حقّه...»: ٣٨ بالفاء رابطة لجواب شرط مقدّر، و قال في سورة «الإسراء»: «و آت ذا القربى حقّه...»: ٢٦ بالواو الاستئنافيّة، على أنّ ما في «الروم» كالنتيجة لما في «الإسراء» لا العكس، لأنّ سورة «الإسراء» مقدّمة على سورة «الروم» نزولاً و مصحفاً حسب ما في سورة «الإسراء» خمسون نزولاً و سبع عشر مصحفاً، و سورة «الروم»: ٨٤ نزولاً و ٣٠ مصحفاً

الرابع عشر: قال الله تعالى: «و من آياته أن يرسل الرياح مبشّرات...» و «الله الّذي يرسل الرياح...» الروم ٤٦ و ٤٨) بجمع «الرياح» و قال «و لئن أرسلنا ريحاً...» الروم: ٥١) بالإفراد و ذلك أنّ الأولى للمبشّرات فهي كثيرة الأفراد و الأنواع، فجمعها إذ كلّ يوم و ليلة تهبّ نفحات من الرياح النافعة خلاف الثانية و هي الضارّة لأنّها لا تهبّ إلّا عند الإعصار، و لا يقع إلّا قليلاً

الخامس عشر: أنّ الله تعالى قال في سورة «الروم»: «و لتجري الفلك بأمره»: ٤٦) و في سورة «الجاثية»: «لتجري الفلك فيه بأمره»: ١٢) بزيادة «فيه» إذ لم يتقدّم في سورة «الروم» مرجع، و قد تقدّم في سورة «الجاثية» للضمير مرجع و هو «البحر» حيث قال «سخّر لكم البحر»

السادس عشر: أنّ الله عزّ وجلّ قال في سورة «الروم»: «ولا هم يستعتبون» [illegible] و

في سورة «فصّلت»: «وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين» [illegible]

الإعتاب وأخرى مطلوباً منهم الإعتاب؟

إنّ وجه الجمع بينهما أنّ معنى قوله تعالى: «ولا هم يستعتبون» [illegible]

عنهم بردّ إلى الدنيا، ومعنى قوله: «وإن يستعتبوا فما هم من [illegible]

هم من المعتبين.

السابع عشر: أن [illegible]

على [illegible] في [illegible] من هذه السورة [illegible]

في غيرها من سور القرآن.

١ - جاءت كلمة [illegible] على صيغتها في القرآن الكريم [illegible]

٢ - جاءت كلمة (الروم) في القرآن [illegible] مرّة واحدة وهي في [illegible]

٣ - جاءت كلمة [illegible] على صيغتها في القرآن الكريم [illegible]

١ - سورة الروم ٤. ٢ - سورة يوسف ١٩ و ٤٢ و ٦٢ و ٨ و ٨٨

٤ - جاءت كلمة [illegible] في القرآن [illegible] ٣٠ مرّة

٥ - جاءت كلمة (العمر) في القرآن [illegible] ٢٧ مرّة

٦ - جاءت كلمة (الحين) في القرآن [illegible] ٦١ مرّة

١ - سورة الروم ١٥. ٢ - سورة الزخرف ٧٠ [illegible] ٦٣

- ٦ - سورة التوبة ٣١ و ٣٤)

٧ - جاءت كلمة (المساء) في القرآن الكريم [illegible] مرّة واحدة [illegible] في سورة الروم ١٧

٨ - جاءت كلمة (الحنيف) على صيغتها في القرآن الكريم [illegible] ١٢ مرّة

٩ - جاءت كلمة (الأيدي) على صيغتها في القرآن الكريم [illegible] ١٨ مرّة

١٠ - جاءت كلمة (القرب و لقربى) على صيغتها في القرآن الكريم [illegible] ٩٠ مرّة

١١ - جاءت كلمة (الرّبا) على صيغها في القرآن الكريم نحو (٢٠) مرّة

١٢ - جاءت كلمة (الضّعف) على صيغها في القرآن الكريم نحو (٥٢) مرّة

١٣ - جاءت كلمة (الودق) على صيغها في القرآن الكريم نحو مرتين: ١ - سورة الرّوم: ٤٨) ٢ - سورة النّور ٤٣)

١٤ - جاءت كلمة (الشيب والشيبة) على صيغها في القرآن الكريم نحو ثلاث مرّات

١ - سورة الرّوم ٥٤) ٢ - سورة مريم ٤، ٣ - سورة المزّمّل ١٧)

﴿التّناسب و جهاته﴾

واعلم أنّ البحث في المقام يدور على جهات ثلاث

أحدها ـ التّناسب بين هذه السّورة و ما قبلها نزولاً؛

ثانيها ـ التّناسب بين هذه السّورة و ما قبلها مصحفاً

ثالثها ـ التّناسب بين آيات هذه السّورة نفسها؛

أمّا الأولى فإنّ هذه السّورة نزلت بعد سورة «الانشقاق» فالتّناسب بينهما موضوعاً أنّه لمّا كان غرض سورة «الانشقاق» إثبات أنّه لا بدّ للإنسان من السّعي في الحياة الدّنيا و ما تلاقيه منها و في مآل الآخرة، ومعقّباً بعد ذلك بتبشير المؤمنين و الإنذار على الكفّار و المفسدين بالخزي و الهوان، و النّار و العذاب، مع البشارة للمؤمنين بأجر لا ينقطع، و هو ثمرة إيمانهم و صالح أعمالهم

جاءت سورة «الرّوم» موضوعها البشارة العظمى من الله تعالى للمؤمنين بنصره تعالى لدينه و نصره للحقّ في أعلى مراتبه و غلبتهم على مشركي مكّة، و فرح المؤمنين يومئذ بذلك

و أمّا الثّانية فمناسبة هذه السّورة لما قبلها مصحفاً و هي سورة «العنكبوت» فبوجوه

منها: أنّ الله تعالى لمّا ختم سورة «العنكبوت» بقوله «والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا» (٦٩) أردفه بسورة «الرّوم» لتثبيت ما وعده في سورة «العنكبوت» فسورة الرّوم

[illegible] المشركين، وهم لم يزالوا مجاهدين في الله [illegible]
[illegible] مجاهدين [illegible] الروم

[illegible] سورة «العنكبوت» [illegible] أن الناس [illegible] بالجهاد والعمل [illegible] أخرى [illegible] وختمت بالجهاد، [illegible] الناس [illegible] فيها [illegible] لما [illegible]

[illegible]

و[illegible] هذه السورة [illegible] الروم» من الحجج القاطعة والبراهين الساطعة على [illegible] في الآفاق والأنفس [illegible] في سورة «العنكبوت» إذ [illegible] بدأ الخلق [illegible]: ٢٠) وهنا بيّن ذلك [illegible] ولم [illegible] في [illegible]

و[illegible] «العنكبوت» [illegible] إلى أن يوطّنوا أنفسهم [illegible] على [illegible] بأنهم [illegible] ثم [illegible] سبيل الله، [illegible]

[illegible] «الروم» تعرض مشهداً من الواقع، وتعبر عن حدث مشهود يراه [illegible] الذي وقع بين الروم والفرس، حيث [illegible] بين المشركين والمسلمين في مكة، [illegible] المشركين [illegible] و[illegible] كان [illegible] المسلمين [illegible] المسلمين قوة [illegible] ويخرج فاراً بدينه، تاركاً كل شيء وراءه؛ وفي [illegible] سورة «الروم» بشارة بغلبة الروم على الفرس، ثم غلبة المسلمين على [illegible]

ومنها [illegible] في سورة «العنكبوت» [illegible] أهل الكتاب و

أخبر بإيمان كثير منهم في القرآن الكريم، فعاتبهم المشركون، و غلبت الفرس الروميين الكتابيين فانتصروا عليهم و فرح المشركون بانتصار الفرس فأنزل الله تعالى سورة «الروم» مفتتحاً بكلمة تحدث القلوب و توجهها إلى استماع الإخبار من الله عزّ وجلّ في ذلك ببشارة رسوله الأعظم ﷺ و المؤمنين، عكس ما يتوقّعه المشركون.

و منها أنّ رسول الله ﷺ لمّا كان يقول للكفّار و المشركين و الفجّار و المستكبرين ما أمر الله تعالى به من قوله سبحانه «صمٌّ بكمٌ عميٌ فهم لا يعقلون» و كان عقر آلهتهم و نسبهم إلى العجز و عدم النفع و الضرّ، و كان أهل الكتاب يوافقون المسلمين في الإله، و في كثير من الأحكام، و لذلك قال: «و لا تجادلوا أهل الكتاب - و إلهنا و إلهكم واحد و نحن له مسلمون» العنكبوت ٤٦ فلا جرم أبغض المشركون أهل الكتاب، و تركوا مراجعتهم في الأمور فاتفق أن بعث كسرى جيشاً إلى الروم فظفر عليهم و قتلهم و خرّب مدائنهم و ديارهم، ففرح المشركون بذلك فأنزل الله تعالى سورة «الروم» ليبيّن أنّ الغلبة لا تدلّ على الحقّ، إذ قد يبتلى المحبوب، و يمهل الله المنتقم في الأجل ثمّ بيّن أنّ الروم سيغلبون الفرس غلبة عظيمة كي تكون ذلك دليلاً على أنّ الأمر بيد الله جلّ وعلا من قبل الغلبة و من بعدها، و قد وقع كما أخبر، فغلبت الروم على الفرس حتّى وصلوا إلى المدائن و سواء هدمت الرومية

و منها أنّ سورة «العنكبوت» لمّا بدئت بالجهاد و ختمت به، فردّ عجزها على صدرها، إذ بيّن بأنّ الناس لم يخلقوا في الأرض ليناموا على بساط الراحة، و إنّما خلقوا ليجاهدوا التزكية نفسهم و كيما حتّى يلاقوا ربّهم، و أنّهم في هذا السير و المصير يلاقون مصائب و شدائد و مصائب من الأهل و الأصحاب و الأمم التي يعاشرونها، و قصّت ما جرى لنوح و إبراهيم و لوط و هود و صالح و موسى و من كان من قبلهم الأنبياء عليهم السلام و خذلان الكافرين، و ضرب لهم من العنكبوت و هي ما تتّخذه من البيوت مثلاً كما يعتبر من أراد الاعتبار، و بيّن لهم أنّ مدار الكمال الإنساني على العقل و الحكمة و الفهم و العلم و العمل بالقرآن الكريم، و زهّدهم في الدنيا و أمرهم بالصبر و التوكّل على الله جلّ وعلا و أنّ الله تعالى قد تكفّل برزقهم كما تكفّل برزق سائر الخلق

فدلّت سورة «الروم» على أنّ محمّداً ﴿ﷺ﴾ سيسلك ما سلك الأنبياء والمرسلون قبله ﴿ﷺ﴾ فإذا كان الأنبياء عليهم السلام قد جاهدوا وصبروا ثمّ نصروا وفازوا فإنّ محمّداً ﴿ﷺ﴾ قد جاهد وصبر ونصر وفاز.

فإذا كان آخر السورة السابقة هو ملخّص ما فيها أي إنّ قوله سبحانه «والّذين جاهدوا فينا...» هو ملخّص ما جاء فيها فإنّ أوّل سورة «الروم» يفيد أنّ محمّداً ﴿ﷺ﴾ مثلهم، ألا ترى أنّه أخبر أنّ الروم سيغلبون بعد أن غلبهم الفرس، وأنّ أمّته ستغلب الفرس في بعث أعقبه.

فهما نصران نصر دنيويّ عسكريّ، ونصر أخرويّ بالفتح، فأصبحت سورة «الروم» متمّمة لسورة «العنكبوت» ولمّا كان رسول الله ﴿ﷺ﴾ على دين جدّه إبراهيم الخليل الرحمن ﴿ﷺ﴾ أخذ يقرّر ويفصّل ما ذكره إبراهيم ﴿ﷺ﴾ في السورة السابقة «فانظروا كيف بدأ الخلق» فيهما جاء الأمر بالسير في الأرض «أولم يسيروا في الأرض...» وقال «الله يبدأ الخلق ثمّ يعيده» وفصّل ذلك بالمنهج العلمي وأجمل المفصّل، فقال «ومن آياته أن خلقكم من تراب...» فإذن سورة «الروم» مفصّلة لبعض ما أجمل في سورة «العنكبوت» تارة، ومكمّلة لتدرّج الإنسان في درجاته ونصره تارة أخرى والله حقّ وعلاه أعلم.

وأمّا الثالثة فمقصود السورة مقرّر فيها أنّ الدنيا يقول إنّه يرسل دفعة وحده و متابعة وما بين بدئها وختمها من التناسب ما لا يخفى على القارئ، فخبر بدئها في أوائلها الوعد من الله تعالى «ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم وعد الله لا يخلف الله وعده» (٤ - ٦) واختتمت بوعد بالنصر لرسول الله ﴿ﷺ﴾ «فاصبر إنّ وعد الله حقّ...» (٦٠)

وأمّا التناسب بين أوّلها فيتّضح لك من بدء بحروف الألف واللام والميم «الم» (للاستقراء، عقبها خبر بوقوع ما لم يقع بعد من انكسار الروم في البلاد المتاخمة للحجاز، و بشرى بنصر يحرزونه خلال مدّة محدودة «غلبت الروم... في بضع سنين» (٢ - ٤)

ثمّ بيّن تعالى أنّ هذا الأمر بقضاء الله تعالى وحده «لله الأمر من قبل ومن بعد» ثمّ أخبر بأنّ المؤمنين عند وقوع الخبر عنه يفرحون «ويومئذ يفرح المؤمنون» (٤)، ثمّ أشار إلى

بسبب فرحهم و هو النّصر من الله جلّ وعلا «بنصر من الله...» ٥

ثمّ أكّد هذا النّصر بأنّه وعد ربّاني متحقّق لا محالة، وإن كان أكثر النّاس لا يعلمون أنّه لا خلف في وعده لأنّهم بله في أمور الدّين و في درك حقائق الكون و أسرار ما فيه من الوجود، و بذلك لا يؤمنون «وعد الله لا يخلف الله وعده...» ٦،

ثمّ بيّن سبب جهلهم بأمور الدّين و حقائق الكون، و سبب كفرهم و طغيانهم و ذمّهم بقصر علمهم في شهوات الدّنيا و زخارفها بقوله تعالى «يعلمون ظاهراً من الحيوة الدّنيا و هم عن الآخرة هم غافلون» ٧

ثمّ حثّهم على التفكّر في الآيات الأنفسيّة و الآفاقيّة الدّالّة على وحدانيّة الله تعالى و كمال قدرته و سعة علمه و غاية حكمته، فلا إله غيره، و لا ربّ سواه، و أنّ هذا الكون لم يخلق سدىً و لا باطلاً، بل خلق بالحقّ و أنّه مؤجّل إلى أجل مسمّى و هو يوم القيامة «أولم يتفكّروا في أنفسهم...» و لمّا ذكر دليل النّفس الّذي لا يقع الذّهول عنه إلّا نادراً، بيّن دليل السّموات و الأرض الّذي يقع الذّهول عنه في كثير من الأحوال لكنّه لا يحتاج إلى إتعاب ذهنيّ ثمّ أشار إلى ما يقع بعد عدم تفكّرهم فيها، فلو فكّروا فيها لآمنوا بالله تعالى و برسوله ﷺ و بيوم القيامة أو أنّ الكفر بلقاء ربّهم بسبب عدم التفكّر فيها «و إنّ كثيراً من النّاس بلقاء ربّهم لكافرون» ٨

إنّ الله تعالى لمّا حثّ المشركين على التفكّر في الآيات الدّالّة على التّوحيد، حثّهم على السّير في أنحاء الأرض و أقطارها بالنّظر فيما يدلّ على صدق النّبوّة و رسالة الرّسل عليهم السّلام من المعجزات و الدّلائل الواضحة على صدقهم، و في آثار هلاك المكذّبين بهم من دون ظلم في ذلك عليهم بقوله تعالى: «أولم يسيروا في الأرض فينظروا...» ٩

ثمّ بيّن سبب هلاكهم، و خاتمة عاقبة أمرهم بأنّهم لمّا جاءتهم رسل الله بالبيّنات وقفوا منهم موقف المكذّب المستهزئ و لم يتورّعوا عن ارتكاب السّيّئات فجزاهم الله سوء أسوء، و لم يكونوا في ذلك مظلومين، و إنّما كانوا هم الّذين جنوا على أنفسهم فقال «ثمّ كان عاقبة الّذين أساؤا السّوآى...» ١٠

إنّ الله عزّ و جلّ لمّا ذكر أدلّة التّوحيد و النّبوّة إجمالاً، و في ختامها نبّه على أنّ عاقبة

الكافرين وخيمه، و كان ذلك يستلزم الإعادة و الحشر أخذ بذكر الأدلّة الّتي تدلّ على المعاد، مبدأً بأنفسهم بأن يتفكّروا في أنفسهم في إثبات البعث و المعاد كما أمرهم بالتفكّر في أنفسهم في التّوحيد و النّبوّة، فقال «اللّه يبدؤا الخلق ثمّ يعيده ... » ١١)

ثمّ بيّن ظهور حالتي المؤمنين الموحّدين، والكافرين و المشركين المختصمتين يوم البعث و ما يحدث يومئذ من الفزع و الأهوال للكافرين، و الأمن و السّكينة للمؤمنين فقال «و يوم تقوم السّاعة ... » ١٢) و لا يخفى أنّ ذكر المعاد بعد المبدإ و الرّسالة أنّ يوم البعث يوم ظهور الحقائق و كشف ما في القلوب و تجسّم الأعراض من الإيمان و الكفر، من التصديق و التكذيب و من الإخلاص و النّفاق

ثمّ بيّن وجه إبلاس المجرمين المشركين الّذين اتّخذوا الأصنام آلهة يعبدونها لتكون لهم شفعاء يوم القيامة لو كان يحسبهم ـ ببيان حال آلهتهم معهم، و حالهم مع آلهتهم، بأنّ كلاًّ منهما يتبرّأ من الآخر، يوم القيامة، فقال «و لم يكن لهم من شركائهم شفعاء و كانوا بشركائهم كافرين»: ١٣)

إنّ اللّه تعالى لمّا بيّن حال المشركين مع آلهتهم و بالعكس، في مشهد الأشهاد يوم القيامة وقت الحساب، ذكر أنّه جلّ و علا يميّز المؤمنين من الكافرين، و المخلصين من المشركين بعد الحساب فيتفرّقون تفرّقاً لا يجتمعون بعده أبداً «و يوم تقوم السّاعة يومئذ يتفرّقون» ١٤)

ثمّ فصّل حال الفريقين المؤمنين و الكافرين، و كيفيّة تفريقهم و مآل أمرهم، و قدّم المؤمنين و حسن حالهم لأنّ الإيمان مقدّم على الكفر، و الوعد سابق على الوعيد، و أنّ الإنسان خُلِقَ للجنّة و نعيمها، لا للنّار و عذابها فقال «فأمّا الّذين آمنوا ... » ١٥)

ثمّ أخبر عن حال الكافرين، و سوء عاقبة أمرهم بسبب سوء اختيارهم بقوله تعالى «و أمّا الّذين كفروا و كذّبوا بآياتنا...»: ١٦)

و في مناسبة قوله تعالى: «فسبحان اللّه حين تمسون و حين تصبحون» ١٧) ما قبلها وجوه.

منها، أنّ اللّه عزّوجلّ إثر ما بيّن حال فريقي المؤمنين و الكافرين و مآل أمرهما من

الثواب و العقاب أرشد الناس كلهم أو المؤمنين و المشركين خاصة إتماماً للحجة عليهم إلى ما ينجي من الثاني، و يفضي إلى الأول من تنزيه الله تعالى عن كل ما لايليق بساحة قدسه، و من حمده و الثناء عليه، و وصفه بما هو أهله من الصفات الجميلة، و الشئون الجليلة... و به ينالون إلى السعادة الأبدية

و منها: أن الله تعالى لمّا ذكر الوعد و الوعيد أتبعه ذكر ما يوصل إلى الوعد، و ينجي من الوعيد.

و منها: أن الله عزّوجلّ لمّا ذكر عظمته في المبدإ بقوله سبحانه «أو لم يتفكّروا في أنفسهم» ۸) و في المعاد بقوله «الله يبدؤا الخلق ثمّ يعيده... و يوم تقوم الساعة» ۱۱-۱۴) و كرّر ذكر قيام الساعة للتأكيد و التخويف أراد أن ينزّه نفسه عن كلّ سوء، و يثبت لذاته كلّ حمد ليعلم أنّه منزّه عن طاعات المطيعين، محمود عن كلّ ما يوصل إلى المكلّفين، مذكور على لسان أهل السموات و الأرضين

و منها: أنّ الله جلّ و علا لمّا بيّن أنّ في دار الخلقة تدبيراً إلهيّاً متقناً صالحاً جميلاً على أجمل ما يكون، و أنّ للإنسان على توالي الأزمنة و الدّهور آثاماً و خطيئات من العقيدة الباطلة في حقّ ربّه و اتّخاذ الشركاء له سبحانه على أعلاء الشرك، و إنكار لقائه إلى سائر المعاصي و السيّئات ذيّل الكلام بتسبيحه كلّما تجدّد حين بعد حين، و تحميده على صنعه و تدبيره في نظام الكون و نواميس الوجود، فهو تعالى منزّه عن تلك الإعتقادات الباطلة و الأعمال الفاسدة، و محمود في جميع ما خلقه، و دبّره في السموات و الأرض

و منها: أنّ الله سبحانه لمّا بيّن كمال قدرته تعالى في خلق السّموات و الأرض بالحقّ، و هو ابتداء العالم، ثمّ ذكر مصير الإنسان في الكون إلى الجنّة أو النّار، و هي حالة انتهاء العالم أمر عزّوجلّ بتنزيهه عن كلّ ما لا يليق بساحة قدسه في كلّ وقت من أوقات اللّيل و النّهار تنبيهاً على أنّ من كان كذا فهو وحده يليق للعبادة، و ما سواه مخلوق، خلق بقدرته و إرادته. لايليق أن يعتقد و يجعل شريكاً لله سبحانه. قال «فسبحان الله حين تمسون» ۱۷)

ثمّ خصّص الحمد كلّه لذاته «و له الحمد في السّموات و الأرض» ۱۸) و قدّم

التسبيح على التحميد لتقدّم التخلية على التحلية والتطهير، كما في كلمة التوحيد «لا إله إلّا الله» وفي قوله تعالى: «فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى...» البقرة: ٢٥٦)

ثمّ بيّن بعض صفات ذلك الإله المستحقّ للتقديس والحمد والثناء فقال: «يخرج الحيّ من الميّت...» (١٩)

لمّا ذكر إخراج الحيّ من الميّت وبالعكس وإحياء الأرض بعد موتها بيانًا لوحدانيّته وكمال قدرته، أخذ بذكر خلق الإنسان وبعض عوارضه، لتعطف على ما سبق، فإنّ دلالة ما خلقهم على إعادتهم أظهر وأوضح من دلالة إخراج الحيّ من الميّت وبالعكس، ومن دلالة إحياء الأرض بعد موتها عليها فقال: «ومن آياته أن خلقكم من تراب...» (٢٠)

ثمّ إنّ الله تعالى لمّا بيّن خلق الإنسان «من تراب» أردفه بذكر بعض عوارضه اللازمة والمفارقة الأخرى، ولم يكن كما يبقى على مرّ الزمان والدهور منّ عليهم بأن جعل نوع الإنسان باقيًا بتعاقب الأشخاص، فقال: «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا...» وختم الآية الكريمة بقوله سبحانه: «إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون» (٢١)

وذلك أنّ خلق الإنسان من الأبوين آية، وجعل أحدهما ذكرًا والآخر أنثى آية أخرى، وخروج الولد الضعيف من الموضع الضيّق آية ثالثة، وجعل التوادد والرحمة بين الزوجين من دون صلة رحم آية رابعة لمن تفكّر وتدبّر فيها ولم يغفل عنها، حيث إنّ التفكّر يؤدّي إلى الوقوف على المعاني المطلوبة من التناسل والتجانس بين الأشياء كالزوجين.

وبعبارة أخرى إنّ الله تعالى لمّا بيّن الحقيقة الأولى لنوع البشر «من تراب» انتقل إلى بيان الحياة المشتركة بين جنسي البشر الذكر والأنثى بقوله سبحانه «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم...» والناس يعرفون مشاعرهم تجاه الجنس الآخر، وتشغل أعصابهم ومشاعرهم تلك الصلة بين الجنسين، وتدفع خطاهم وتحرّك نشاطهم تلك المشاعر المختلفة الأنماط والاتّجاهات بين الرجل والمرأة، ولكنّهم قلّما يتذكّرون يد الله سبحانه التي خلقت لهم من أنفسهم أزواجًا، وأودعت في أنفسهم هذه العواطف والمشاعر، وجعلت في تلك الصلة سكنًا للنفس والعصب، وراحة للجسم والقلب، و

مستقرّاً للحياة و المعاش، و أنساً للأرواح و الضمائر، و اطمئناناً للرّجل و المرأة على السّواء.

فصوّرت الآية الكريمة هذه العلاقة تصويراً موحياً كأنّما يلتقط الصّورة من أعماق القلب، و أغوار الحسّ «لتسكنوا إليها و جعل بينكم مودّة و رحمة إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون» فإنّهم بالتفكّر يدركون حكمة الخالق في خلق كلّ من الجنسين على نحو يجعله موافقاً للآخر، ملبّياً حاجته الفطريّة نفسيّة و عقليّة و جسديّة بحيث يجد عنده الرّاحة و الطّمأنينة و الإستقرار، و يجدان في اجتماعهما السّكن و الإكتفاء، و المودّة و الرّحمة لأنّ تركيبهما النّفسيّ و العصبيّ و العضويّ ملحوظ فيه تلبية رغائب كلّ منهما في الآخر و ائتلافهما و امتزاجهما في النّهاية لإنشاء حياة جديدة تتمثّل في جيل جديد.

و من المعلوم أنّه لمّا كان القصد من خلق الأزواج و السّكون إليها، و جعل المودّة و الرّحمة بين الزّوجين ليس مجرّد قضاء الشّهوة الّتي يشترك فيها البهائم، بل تكثير النّسل و بقاء نوع المتفكّرين الّذين يوصلهم إلى المعرفة و العبادة الّتي ما خلق الله تعالى الجنّ و الإنس إلّا لها ناسب كون المتفكّرين فاصلة هنا.

لمّا ذكر تعالى دلائل الأنفس على وحدانيّته و كمال قدرته و تدبيره و علمه و حكمته، و جلاله و عظمته أتبعها براهين الآفاق، و ظهرها و أوضحها و أعظمها خلق السّموات و ما فيها من عجائب صنعه من النّجوم و الشّمس و القمر، و خلق الأرض و ما فيها من الجبال و البحار و الأشجار و الأنهار. و ذكر جمعها لأنّ خلق المركّبات قد يسنده بعض الجهلة السّفلة إلى ما في العناصر من الكيفيّات، و إلى ما في السّموات من الحركات و الإتّصالات، و أمّا السّماء و الأرض فلا يجد بدّاً من أن يقول إنّهما بقدرة الله جلّ و علا فقال تعالى «و من آياته خلق السّموات و الأرض» ٢٢)

ثمّ أعاد إلى ذكر أحوال الأنفس و عوارضها.. و من جملتها اختلاف الألسنة لا جرمها، فإنّ التّباين بين أجرامها ليس يبلغ إلى حدّ تعدّ آية، بل وصفها و هو النّطق و تقطيع الأصوات اللّذان بهما يمتاز بعض الأصناف و الأشخاص عن بعض، و اختلاف الألوان و الحلى فبذلك يقع التّفاوت و يرتفع الإشتباه، فحسّ البصر يدرك اختلاف

الصّور، و حسّ السّمع يدرك اختلاف الأصوات، و أمّا اللّمس و الشّمّ و الذّوق، فلا حكم لها ظاهراً في باب التّمييز بين الأشخاص الإنسانيّة.

كلّ ذلك لإظهار كمال قدرته و سعة علمه و غاية حكمته الّتي يشاهدها الإنسان في كلّ آن من الآيات... و هم عنه تعالى غافلون.

و ختم الآية الكريمة بقوله تعالى «للعالمين» ٢٢) فإنّ الكلّ تظلّهم السّماء، و تقلّهم الأرض، و كلّ منهم متميّز بلطيفة يمتاز بها عن غيره، و هذا مشترك في معرفته جميع العالمين، أو أنّ الباحثين عن نظام الكون و نواميس الوجود يعثرون على آيات دقيقة دالّة على أنّ الصّنع و الإيجاد مع انتظام الجاري فيه لا يقوم إلّا بالله جلّ وعلا و لا ينتهي إلّا إليه.

إنّ الله عزّوجلّ لمّا ذكر بعض عوارض لازمة للإنسان، أخذ يذكر بعض عوارضه المفارقة، فقال «و من آياته منامكم باللّيل و النّهار و ابتغاؤكم من فضله » قدّم المنام على الابتغاء، لأنّ الاستراحة مطلوبة لذاتها، و الطّلب لا يكون إلّا لحاجة، مع أنّ الطّلب و السّعي مع الملالة النّاشئة عن فقد النّوم لا يفيد، و ختم الآية بقوله تعالى «لقوم يسمعون» ٢٣).

و ذلك أنّ من يسمع سماع تدبّر أنّ النّوم من صنع الله تعالى الحكيم لا يقدر على اجتلابه إذا امتنع، و لا على دفعه إذا ورد، يعلم أنّ له صانعاً مدبّراً.

ثمّ أشار إلى بعض عوارض الأكوان و الآفاق بقوله «و من آياته يريكم البرق » و ختم الآية الكريمة بقوله سبحانه «لقوم يعقلون» ٢٤

لأنّ العقل هو ملاك الأمر الّذي يؤدّي إلى العلم بما ذكر و غيره، أو لمّا كان ما ذكر تمثيلاً لإحياء النّاس و إخراج الموتى، و كان التّمثيل لإدناء المتوهّم إلى المعقول، و إراءة المتخيّل في صورة المتحقّق ناسب أن تكون الفاصلة «لقوم يعقلون».

و قد رتّبت فواصل الآيات الأربع أعني قوله تعالى «يتفكّرون» «للعالمين» «يسمعون» «يعقلون» على هذا التّرتيب لأنّ الإنسان إذا تفكّر في نظام التّكوين يصير عالماً، ثمّ إذا سمع شيئاً من حقائق التّدوين و وعاه يعقله.

كما أنّها رتّبت آحدها من بدء خلق الإنسان «و من آياته أن خلقكم من تراب » ثمّ

مصنفة صنفين الذكر و الانثى، ثمّ ارتباط وجوده بالسّماء و الأرض، و اختلاف ألسنتهم و ألوانهم، ثمّ السّعي في طلب الرّزق و سكونهم بالمنام، ثمّ إراءة البرق و تنزيل الأمطار حتّى ينتهي إلى قيام السّماء و الأرض إلى أجل مسمّى لتتمّ لهذا النّوع الإنسانيّ ما قدّر له أمد الحياة، و تعقيب ذلك البعث كلّ ذلك لإثبات المبدإ و المعاد، و لا يؤمن بها إلاّ من تفكّر و علم، و سمع و عقل

ثمّ ذكر دليلاً آخر من بعض لوازم الآفاق على المبدإ و المعاد، فقال «و من آياته أن تقوم السّماء و الأرض...»: ۲۵).

إنّ الله تعالى لمّا بيّن الأدلّة الآفاقيّة و الأنفسيّة على المبدإ و المعاد، ذكر أنّ الأكوان كلّها مملوكة لله تعالى، و خاضعة لأمره تكويناً. تنبيهاً على أنّ الإنسان كما أنّ تكوينه ليس باختيار، كذلك بعثه بعد موته للحساب و الجزاء ليس باختياره، فكيف يكفر بخالقه، و ينكر بعثه بعد موته باختياره؟ فقال «و له من في السّموات و الأرض كلّ له قانتون» ۲۶)

ثمّ أعاد الكلام على المبدإ و المعاد، و قدّم الأدلّة الأنفسيّة و الآفاقيّة عليهما لإصرار المشركين على الشّرك بالله سبحانه، و إنكارهم للبعث، فقال «و هو الّذي يبدؤا الخلق ثمّ يعيده...»: ۲۷)

ثمّ أقام الدّليل القاطع على بطلان الشّرك - على سبيل التّمثيل و التّشبيه - إذ بالتّمثيل تنكشف المعاني لأرباب العقول بقوله «ضرب لكم مثلاً من أنفسكم...» ۲۸)

و ختم الآية الكريمة بقوله عزّ و جلّ «لقوم يعقلون» لأنّ العقلاء هم يستعملون عقولهم في تدبّر الأمثال و ينتفعون بها

ثمّ بيّن سبب الشّرك، و هو اتّباع المشركين لأهوائهم سفهاً من أنفسهم و جهلاً، و لذلك لا يجدي فيهم البرهان و الإقناع و الأمثال بقوله تعالى «بل اتّبع الّذين ظلموا أهواءهم بغير علم...»: ۲۹)

ثمّ أشار إلى ما يترتّب على اتّباعهم لأهوائهم و إصرارهم على شركهم و ضلالهم من حرمانهم من التّوفيق و السّداد للهداية و لا نجاة لهم من الضّلالة بقوله «فمن يهدي من أضلّ الله و ما لهم من ناصرين»: ۲۹).

إنّ الله تعالى لمّا أقام الأدلّة الواضحة و الأمثلة المتنوّعة الدالّة على وحدانيّة المبدإ و إثبات المعاد، و على بطلان الشّرك و تقبيح ما يوجب الشّرك و الضّلالة و هو اتّباع الهوى، و ما يترتّب عليه من إضلال الله سبحانه من دون حجّة لهم منها، أمر رسوله ﷺ بإقامة وجهه للدّين الحنيف و اتّباع الفطرة الّتي فطر النّاس عليها و إن كان أكثرهم مخالفوها بسوء اختيارهم، و بالإعراض عنهم و عدم الاعتناء بهم. فقال «فأقم وجهك للدّين حنيفاً» (٣٠: ٣٠)

ثمّ أشار إلى علّة وجوب الامتثال بقوله سبحانه «لا تبديل لخلق الله» ثمّ ذكر سبب عدم التبديل، فقال «ذلك الدّين القيّم» ثمّ بيّن أنّ أكثر النّاس لا يعلمون حقيقة دينهم و إنسانيّتهم أنّها غير منفكّة عن هذا الدّين، بحيث لو لم يكن لهم هذا الدّين ما كان لهم حظّ من الإنسانيّة أصلاً

إنّ الله تعالى لمّا بيّن أنّ أكثر النّاس في كلّ ظرف من الظّروف يغفلون عن حقيقتهم، و يفقدون إنسانيّتهم لإعراضهم عن الدّين الفطري الّذي لا انفكاك بينه و بين إنسانيّة الإنسان، دعا المؤمنين إلى استمرارهم على إنسانيّتهم بالانقطاع إلى الله تعالى عن غيره بالإيمان و الإخلاص، أو بالتوبة و الرّجوع إليه مرّة بعد مرّة أخرى. فقال «منيبين إليه و اتّقوه و أقيموا الصّلاة و لا تكونوا من المشركين» (٣١)

إنّ الله سبحانه لمّا نهى عن الشّرك، أخذ يبيّن سبب النّهي، و مفاسد الشّرك و يعرّف المشركين بأخصّ صفاتهم، و هو تفرّقهم في الدّين، و اختلافهم في جميع شؤون حياتهم الإنسانيّة و سقوطهم عنها و هم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً. فقال «من الّذين فرّقوا دينهم» (٣٢)

إنّ الله تعالى لمّا أشار فيما سبق من كلامه إجمالاً إلى أنّ فطرة النّاس جميعاً تدعوهم إلى التّوحيد و رفض الشّرك و هي منشأ وحدتهم في كلّ زمان و مكان و بها إنسانيّتهم، و عكسه طبيعتهم إذ تدعوهم إلى الشّرك و رفض التّوحيد، و هي منشأ تفرّقهم في كلّ ظرف من الظّروف، و بها سقوطهم عن الإنسانيّة، أخذ يبيّن ظهور الفطرة و الطّبيعة منهم في حالتي الضّرّ و الرّخاء، و الرّحمة و البلاء، و اختلافهم فيهما بأنّ فريقاً منهم تظهر فطرتهم

على طبيعتهم بحسب اختيارهم و تبّاعهم بعقولهم في كلّ الحالين. فيتوبون إلى الله جلّ و علا فيهما، و فريقاً منهم تغلب فطرتهم على طبيعتهم عند الرّحمة و الرّخاء و بالعكس حين الشّدّة و البلاء بسوء اختيارهم و اتّباعهم لأهوائهم، فيشركون بالله سبحانه، فقال «و إذا مسّ النّاس ضرّ دعوا ربّهم...»: ٣٣)

ثمّ بيّن ما يترتّب على شركهم من كفرهم بنعم الله تعالى. ثمّ أمرهم بالتّهديد، و ما يمرّ عليهم كفرانهم من بلاء و شدّة و عذاب أليم بقوله تعالى «ليكفروا بما آتيناهم فتمتّعوا فسوف تعلمون»: ٣٤)

إنّ الله تعالى لمّا أبطل الشّرك عقلاً، أخذ بإبطاله نقلاً، فلا حجّة للمشركين على شركهم عقلاً و لا نقلاً بقوله سبحانه «أم أنزلنا عليهم سلطاناً...» ٣٥)

إنّ الله سبحانه لمّا ذكر الشّرك و المشركين أردف ذلك بذكر آثار الشّرك و أحوال المشركين في البطر عند النّعمة و الرّخاء، و اليأس و القنوط عند الشّدّة بخلاف فطرتهم، فإذا أذاقهم الله تعالى رحمة من عنده و نعمة عليهم بضروب النّعم ظاهرها و باطنها، فهم يسرّون به ثمّ أخبر عن طبيعتهم بأنّه إن تصبهم عذاب من الله عزّوجلّ جزاء له بما كسبت أيديهم إذا هم ييأسون من رحمة الله عزّوجلّ فقال «و إذا أذقنا النّاس رحمة فرحوا بها»: ٣٦)

إنّ الله عزّوجلّ لمّا بيّن الحالتين المختلفتين للمشركين من الفرح و القنوط عند الشّدّة و الرّخاء حسب طبعهم، أنكر عليهم هاتين الحالتين بقوله تعالى «أولم يروا أنّ الله يبسط الرّزق لمن يشاء و يقدر...»: ٣٧)

فإنّهم لا يشكرون لله تعالى عند الرّحمة و الرّخاء، و لا يصبرون في الضّرّاء و الضّرّاء كالمؤمنين حسب فطرتهم حيث يرون الكلّ من الله تعالى، فإنّهم في الرّخاء يشكرون، و في الضّرّاء يصبرون، و هذه مرتبة المؤمن الموحّد، فلذلك ختم الآية الكريمة بقوله «لقوم يؤمنون»: ٣٧)

إنّ الله تعالى لمّا بيّن كيفيّة التّعظيم لأمر الله سبحانه أمر نبيّه (ﷺ) بإيتاء ذي حقّ خاصّ حقّه الخاصّ، و بإحسان المسكين و ابن السّبيل، و بوّء عنه في ذلك من خير و فرق

عند الله جلّ وعلا لمن يريد رضاه، ثمّ قرّر أنّ الّذين يفعلون ذلك هم المفلحون الفائزون برضائه. فقال «فآت ذا القربى حقّه ...» (٣٨)

إنّ الله سبحانه لمّا ذكر ما يراد به وجهه من إيتاء ذي القربى حقّه والإحسان إلى المسكين و ابن السّبيل، و بثّ عليه، و هذا هو الرّبح حقًّا ... في مقدّمه أمر الزّكاة و الصّدقة يراد بها أيضاً وجهه، و ضمّ إلى ذلك أمر الرّبا استطراداً لأنّ الرّبح النّسبي فيما يعطيه المرء من مال بقصد استثماره و استغلاله و تكثيره إذ ليس فيه عند الله تعالى أجر و إنّما الرّبح الحقيقيّ هو في الزّكاة و الصّدقة المفروضة أو المستحبّة الّتي تعطى للمستحقّين لوجه الله تعالى بغير مقابل و لا قصد استثمار و لا تكثّر في المال فأولئك المفلحون فهم الّذين يرجون أضعافاً مضاعفة ممّا يكون لهم عند الله تعالى من الأجر العظيم و الثّواب الجزيل

فقال «و ما آتيتم من ربا ليربو في أموال النّاس ...» (٣٩)

ثمّ عاد الكلام إلى تقرير الأدلّة الواضحة مرّة أخرى على وحدانيّة الله تعالى و ربوبيّته، و على جلاله و عظمته، و كمال تدبيره و قدرته و عدله و علمه و حكمته، و على إثبات المعاد بأنّ الله تعالى هو الّذي خلقكم ابتداءً، و هو الّذي يرزقكم، ثمّ هو الّذي يميتكم، و هو وحده قادر على إحيائكم بعد موتكم للحساب و الجزاء: «الله الّذي خلقكم ...» (٤٠).

فلمّا أثبت لنفسه لوازم الألوهيّة و نفاها رأساً عمّا سواه من الشركاء الّتي اتّخذ المشركون معبودين لهم، وجّه الكلام إليهم لإبطال الشّرك موكّداً بالإنكار على ما دلّ عليه البرهان، و تشهد به العيان، و وقع عليه الوجدان بقوله: «هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء»؟ سؤال فيه تنديد و تحدّ عمّا إذا كان أحد من شركائهم يستطيع أن يفعل شيئاً من ذلك، و قد أضاف الشّركاء إليهم إذ أنّهم سمّوهم بالآلهة و الشّركاء، و يجعلون لهم من أموالهم

ثمّ استنتج من ذلك تقدّسه تعالى عن أن يكون له شريك بقوله عزّ و جلّ «سبحانه و تعالى عمّا يشركون» (٤٠)

إنّ الله تعالى لمّا أبطل الشّرك بيّن أنّ الشّرك سبب ظهور الفساد في البرّ و البحر بقوله سبحانه «ظهر الفساد في البرّ و البحر ...» فكما أنّ التّوحيد يوجب صلاح الفرد و المجتمع و

البشريّة كلّها، كذلك الشّرك يؤدّي إلى فساد الفرد و الجمع و الإنسانيّة كلّها، و ذلك لقلّة المنافع و كثرة المضار، و محو البركات من كلّ شيء. ثمّ بيّن أنّه تعالى يذيق النّاس شيئاً من وبال ما أشركوا و أساؤا، لتكون لهم فيه عبرة و تذكير لعلّهم يرجعون عن شركهم و آثامهم، فقال: «ليذيقهم بعض الّذي عملوا لعلّهم يرجعون»: ٤١.

ثمّ استشهد لمضمون هذه الآية، فأمر رسوله ﴿ﷺ﴾ أن يبالغ في الوعظ و النّصيحة للنّاس في كلّ ظرف من الظّروف ـ بصور الأمر ـ أن يسيروا في أنحاء الأرض، فينظروا كيف كان عاقبة الّذين أفسدوا فيها بشركهم، فأهلكهم و أنشأ من بعد إفسادهم غيرهم، فحلّ بهم بلاء و تدمير، فقال: «قل سيروا في الأرض...»، ثمّ بيّن أنّه فعل ذلك بهم لكون أكثرهم مشركين، حيث إنّ الشّرك يوجب فساد الأرض، المؤدّي إلى هلاك أهلها، فقال: «كان أكثرهم مشركين»: ٤٢.

ثمّ أمر رسوله ﴿ﷺ﴾ بإقامة وجهه للدّين القيّم و ذهابه على سبيل الفطرة بقوله تعالى: «فأقم وجهك للدّين القيّم...»: ٤٣،

بأن يدعو النّاس إلى هذا الدّين الّذي تدعوهم إليه فطرتهم لمنع ظهور فساد الشّرك و الطّغيان في أنحاء الأرض، فكأنّه قال: و إذ قد ظهر لك فساد الشّرك في البرّ و البحر فادع النّاس إلى التّوحيد تدفع فساد الشّرك، و إن كانوا هم في استجابتهم لدعوتك في خيار، قبل يوم القيامة، ثمّ ذكر حال النّاس يومئذ فقال: «يومئذ يصّدّعون»: ٤٣.

ثمّ بيّن وجه تفرّق النّاس يوم القيامة، و أنّ ما يناله كلّ من الفريقين من الجزاء كان نتيجة حتميّة لعمله، فمن كفر فجزاؤه جزاء وفاقاً، و من آمن فجزاؤه ما يناسبه، فقال: «من كفر فعليه كفره...»: ٤٤.

ثمّ ذكر العلّة لقوله تعالى: «يمهدون» أو لقوله سبحانه: «يصّدّعون» على ما سبق في البحث البياني، فقال: «ليجزي الّذين آمنوا...»: ٤٥.

إنّ اللّه تعالى لمّا بيّن أنّ الشّرك هو سبب ظهور الفساد في البرّ و البحر، المؤدّي إلى هلاك أهلها و دمارهم، أخذ ببيان ما هو سبب ظهور الصّلاح في أنحاء الأرض الموجب لسعادة أهلها و هو التّوحيد، فقال: «و من آياته أن يرسل الرّياح مبشّرات... و لعلّكم تشكرون»: ٤٦.

إذ نبّههم فيها إلى دلائل وحدانيّته التي يشاهدونها أمامهم من إرسال الرياح، وإنزال الأمطار، فيحيي بها الأرض بعد موتها، وتجري بأمره تعالى الفلك في البحار حاملة لهم في حاجة إليه ممّا فيه غذاؤهم وعليه مدار حياتهم واستمرارها، فيشكرونه على فضله عليهم، فيعبدونه وحده

لمّا ذكر الله تعالى أدلّة التوحيد الذي به صلاح الأرض وسعادة أهلها، ذكر الرسالة التي لا يمكن بيان أدلّة التوحيد ومعرفة الله جلّ وعلا حقّ المعرفة إلّا بها، حيث إنّ الإنسان وإن كان بفطرته موحّداً، ولكنّه بطبيعته يكون مشركاً، فلا بدّ من الرسالة ذي العصمة عن الخطأ والزلل لتبيّن للناس مقتضى فطرتهم وطبيعتهم، وهو ما يبيّن في قوله تعالى «ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاؤوهم بالبيّنات»

ثمّ بيّن أنّه تعالى ينتقم ممّن كذّب رسله فيهلكهم ويدمّرهم لأنّهم بشركهم وطغيانهم يفسدون في الأرض فيستحقّون الهلاك والدمار بقوله «فانتقمنا من الذين أجرموا»

ثمّ وعد الله عزّ وجلّ بنصر المؤمنين لأنّهم بإيمانهم يصلحون الأرض وأهلها، فيستحقّون النجاة والفلاح بقوله تعالى «وكان حقّاً علينا نصر المؤمنين» ٤٧؛

إنّ الله تعالى ذكر إرسال الرسل بالبيّنات، ونصر المؤمنين بالرسل، بعد إرسال الرياح مبشّرات، وإنزال المطر لإحياء الأرض بعد موتها، كلّها من رحمة الله جلّ وعلا تبعاً لسنّة الله تعالى في نظامي التكوين والتدوين، حيث إنّ بين نظام التكوين من إرسال الرياح بشارة المطر لإحياء الأرض بعد موتها واستمرار الحياة فيها، وبين إرسال الرسل بالهدى ونصر المؤمنين صلة وثيقة كلّها من آيات الله تعالى ومن نعمه ورحمته التي بها تتعلّق بها حياتهم

فمثل إرسال الرسل بالبيّنات لحياة أرواح الناس وكمالها، مثل إرسال الرياح مبشّرات برحمته تعالى لحياة أجسادهم، وفضل الأوّل على الثاني كفضل الروح على الجسم

إنّ الله تعالى لمّا أشار إلى الصلة الوثيقة بين التوحيد والرسالة، أشار إلى ما هو كالتوطئة لإثبات المعاد بما يشاهد من مشاهد قدرة الله جلّ وعلا في الآفاق من الرياح والأمطار، مع ما فيها بيان لما جهل فيما سبق من أحوال الرياح، والتدليل بها على قدرة

الله تعالى على إحياء الموتى بقوله سبحانه «الله الذي يرسل الرياح ... من قبله لمبلسين»: ٤٨ - ٤٩)

وذلك أنّ الله عزّوجلّ هو الذي يرسل الرياح فتحرّك السحاب، وتسوقه من مكان إلى مكان حتى تكون قطعاً متراكمة بعضها فوق بعض، فلا يلبث أن تتساقط من خلالها الأمطار، وحينما يجري المطر في مكان يستبشر أهله برحمة الله تعالى، ويتبدّل ما كان من حزنهم وقنطهم ويأسهم فيلقون فرحاً وامتلأت كل من آثار رحمة الله في إحياء الأرض بعد موتها وجفافها وقد أشار في نصّ ذلك إلى عجز الإنسان وقلّة ثباته وضعف توكّله على الله تعالى

ثم دعا تعالى كلّ ذي نظر إلى أن ينظر نظر تدبّر وتأمّل إلى آثار رحمة الله المنزلة من السماء، فيجد العبرة والعظة ممّا يقع له من تغيّر وجه الأرض بالمطر، وسريان الحياة في أوصالها الميتة، وإذا هي أمّ ولود تلد مواليد عجيباً من كلّ جنس ونوع ولون ثمّ يمتدّ نظر الإنسان إلى أبعد من هذا ويجد أنّ هذه الحياة التي دبّت من هذا التراب الهامد ليس بالمستغرب ولا المستبعد أن تلبس هذه الأجساد التي صارت التراب في كيانه، وجعلها بعضاً منه، فمن أحيى الأرض برحمته بعد ما كانت جافّة جامدة كالميتة قادر بإذنه على إحياء الموتى بقوله جلّ وعلا «فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها» ثمّ صرّح بالمقصود، فقال «إنّ ذلك لمحيي الموتى وهو على كلّ شيء قدير» ٥٠

ثمّ أكّد تزلزل غير المؤمنين، وتذبذبهم وسوء تصوّرهم في عقيدتهم، وسرعة تقلّبهم في النعمة والنقمة، وأنّهم بأدنى سبب يكفرون بنعمة الله تعالى، فقال «ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفرّاً لظلّوا من بعده يكفرون» ٥١

ثمّ عقّب لما سبق، مع ما فيه تسلية لرسول الله ﷺ على ما يراه من المشركين من غلبة طبعهم على فطرتهم، ومن سقوطهم عن الإنسانية بسبب الشرك والطغيان، والكفر والعصيان، ومن موت مداركهم ومشاعرهم بحيث لا يعون شيئاً من الحقائق، ولا يسمعون كلام حقّ فإنّهم أعرضوا عنه، وظلّوا في طغيانهم يعمهون فلا رجاء في هدايتهم بقوله تعالى «فإنّك لا تسمع الموتى...»: ٥٢)

ثمّ أكّد ذلك بأنّ من علمت طبيعتهم على فطرتهم، فإنّك لا تهديهم إلى الحقّ و الهدى، إذ عميت قلوبهم التي في الصدور، فمضوا في كفرهم و ضلالهم، و إنّما تهدي من يستعدّ بفطرته للإيمان فقال: «و ما أنت بهاد العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلاّ من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون»: ٥٣)

ثمّ عاد الكلام إلى بيان الأدلّة المثبتة على المبدإ و المعاد، فذكر خلق الأنفس في أطوارها المختلفة من ضعف إلى قوّة، ثمّ انتكاسها و تغيير حالها من قوّة إلى ضعف، ثمّ إلى شيخوخة و هرم، و بيّن أنّه العليم بها في مختلف أحوالها، القدير على تغييرها و اختلاف أشكالها. كلّ ذلك دليل قاطع و برهان ساطع على وحدانيّة الخالق و علمه و حكمته و على قدرته و تدبيره في الخلق بدءاً و إعادة، فقال: «الله الذي خلقكم من ضعف ... و هو العليم القدير» ٥٤) فلا يبعد أنّ الآية قد جاءت داعمة و رادفة لسابقتها بأنّ قدرة الله تعالى تتجلّى في تطوّرات خلقة الناس و أعمارهم أيضاً، و في كلّ ما يفعله حكمة و غاية، فلا موجب للظنّ إذا احتبس المطر أو هطل أو تأخّر البعث، أنّ ذلك بدون حكمة و لا أن يؤدّي هذا إلى الشكّ في قدرة الله جلّ و علا

ثمّ بيّن حال الكفّار و المجرمين، و اشتباه الأمر عليهم فيما بين الموت و البعث من عالم البرزخ حتّى ظنّوه ساعة من ساعات الدّنيا، فهذا استقلال منهم لمدّة لبثهم في البرزخ على طولها، و هم قد صُرفوا في الآخرة عن معرفة مدّة مكثهم في هذه المدّة الطّويلة. فقال: «و يوم تقوم السّاعة...»: ٥٥).

ثمّ أخبر تعالى عن ردّ العلماء المؤمنين يوم البعث على هؤلاء الكفّار و المجرمين إذ زعموا أنّهم لم يمرّ بهم بعد موتهم إلى يوم البعث إلاّ ساعة من ساعات الدّنيا، فإنّهم لانهماكهم في شهوات الدّنيا و زخارفها يرون عالم البرزخ محكوماً بنظام الدّنيا، فقدّروه بمقدار قليل من الزّمان و هو السّاعة، و هذا مبلغ علمهم بالآخرة فإنّهم «يعلمون ظاهراً من الحياة الدّنيا و هم عن الآخرة هم غافلون» الرّوم: ٧)

و عندئذ يقول العلماء المؤمنون لهؤلاء المنكرين ليوم البعث و الحساب و الجزاء

توبيخاً لهم و تهكّماً بهم: إنّ قسمكم هذا خرف و لغو كما كان شأنكم في الحياة الدّنيا إذ انصرفتم عن التفكير في الآخرة فتوحّشتم بها و لكنكم لبثتم أمواتاً طيلة الأمد الّذي قدّره الله جلّ و علا، و انكم الآن في يوم البعث الّذي وعدتموه و إن كنتم في غفلة عن ادراك واقع حالكم و حقيقة أمركم و موقفكم هذا لما عراكم من دهشة و ذهول «لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث و لكنكم كنتم لاتعلمون»: ٥٦)

ثمّ تفرّع عمّا سبق من أنّ علمهم بالبعث يوم البعث لاينفعهم كما لاينفع منهم الاعتذار بأن يقولوا: ما علمنا أنّ هذا يوم البعث، و لا أن يبحث عنه، و لايطلب منهم يومئذ الرّجوع إلى الحقّ و الهدى، فإنّ اليوم يوم حساب و لا عمل، فقال: «فيومئذ لاينفع الّذين ظلموا معذرتهم و لا هم يستعتبون»: ٥٧)

إنّ الله تعالى لمّا ذكر أنّ معذرة الظالمين لاتنفعهم يوم القيامة، و لايطلب منهم يومئذ الرّجوع إلى الحقّ و الهدى و لايقبل منهم التّوبة بيّن وجه ردّ أعذارهم و معاتبتهم، فإنّ هذا القرآن الكريم نزل عليهم في أحسن بيان و جعل بينهم من الأدلّة الآفاقيّة و الأنفسيّة على المبدإ و المعاد، و أخبرهم بقصص الأنبياء و المرسلين عليهم السّلام، و أحوال أقوامهم، و ضرب لهم الأمثال على وجوه مختلفة، فلم ينتفعوا بها، و لم يأخذوا العبرة و العظة من مهلك القوم الظّالمين في الأمم الغابرة، فقال: «و لقد ضربنا للنّاس في هذا القرآن من كلّ مثل»

بل كانوا يستهزؤون بآيات الله تعالى «و لئن جئتهم بآية ليقولنّ الّذين كفروا إن أنتم إلّا مبطلون»: ٥٨) ثمّ أخبر بأنّ الله تعالى يطبع على قلوب الّذين يصرّون على جهلهم و عنادهم، و يستهزئون بآيات الله، و لايفهمون بها عن الله جلّ و علا، و لا يستدلّون بها على المبدإ و المعاد و الرّسالة و لا ينتفعون بها على خيرهم و صلاحهم، و على فلاحهم و سعادتهم... فقال: «كذلك يطبع الله على قلوب الّذين لايعلمون»: ٥٩)

ثمّ أمر رسوله (ﷺ) بالصّبر على ما يواجهونه به من الشّرك بالله سبحانه، و إنكار

البعث وتكذيب الرسالة والاستهزاء بآيات الله تعالى وإصرارهم على الجهل والعناد فقال «فاصبر إن وعد الله» بأنه ينصرك على الكافرين «حق» لا ريب في حقيقته «ولا يستخفنك الذين لا يوقنون» ٦٠ بوعد الله تعالى، فقد بدئت السورة بالوعد، وختمت به والوعدان جميعاً بالنصر

«الناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه»

في تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي قال ما نصّه: «واختلف في هذه الآية «وآت ذا القربى حقّه» فقيل إنّها منسوخة بآية المواريث وقيل: لا نسخ، بل للقريب حقّ لازم في البرّ على كلّ حال، وهو الصّحيح قال مجاهد وقتادة: صلة الرّحم فرض من الله عزّوجلّ، حتّى قال مجاهد: لا تقبل صدقة من أحد، ورحمه محتاجة وقيل: المراد بالقربى: أقرباء النّبيّ ﴿ﷺ﴾ والأوّل أصحّ فإنّ حقّهم مبيّن في كتاب الله عزّوجلّ في قوله «فأنّ لله خمسه وللرّسول ولذي القربى»»

أقول: إنّ القرطبيّ من أعلام مفسّري العامّة ومتعصّبيهم وقد ثبت عن المفسّرين أنّ هذه الآية الكريمة والّتي في الإسراء «وآت ذا القربى حقّه» (٢٦) نزلتا مرّة بعد مرّة تأكيداً في قصّة فدك إذ كانت هي حقّاً للصّدّيقة الطّاهرة فاطمة الزّهراء بنت رسول الله ﴿ﷺ﴾ أعطاها رسول الله ﴿ﷺ﴾ وإن كان حقّ أقرباء النّبيّ ﴿ﷺ﴾ مبيّناً في كتاب الله تعالى، فلما ذا منعوا من الخمس في تلك الأيّام؟ غصبوه من بعد وفاته ﴿ﷺ﴾ حتّى اليوم؟ فمن كان من هؤلاء الأقرباء أقرب من الصّدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها إلى رسول الله ﴿ﷺ﴾؟

وقيل إنّ قوله عزّوجلّ «فاصبر إنّ وعد الله حقّ ولا يستخفّنّك الّذين لا يوقنون» (٦٠) منسوخة بآية السّيف، وهي قوله عزّوجلّ «فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» (التّوبة: ٥)

أقول: إنّ الآية الكريمة تصبير لرسول الله ﴿ﷺ﴾ ووعد لهم بالنّصر، ووعيد للمشركين، كلّ ذلك ممّا لا ينسخ

﴿تحقيق عميق في الأقوال﴾

١ـ (الٓمٓ)

في هذه الحروف المقطّعة أقوال: ١ـ عن ابن عبّاس أنّه يقول: أنا الله أعلم ٢ـ عن الضحّاك: إنّ الألف إشارة إلى «الله»، واللام إشارة إلى جبرئيل ﴿عليه السلام﴾ و«الميم» إشارة إلى محمّد ﴿صلى الله عليه وآله﴾ والمعنى: أنّ القرآن نزل من عند الله بواسطة جبرئيل ﴿عليه السلام﴾ على محمّد ﴿صلى الله عليه وآله﴾ ٣ـ قيل إنّ الحروف المقطّعة في السور إشارة إلى بداية الكلام ونهايته ٤ـ قيل إشارة إلى حدوث المخلوقات ونسبتها وشأنها ومحاسنها ٥ـ قيل: الله أعلم بمراده فإنّه من المتشابهات والمبهمات التي استأثر الله بعلمها، ولا يعلم تأويلها غير الله، والراسخين في العلم

٦ـ قيل إشارة إلى التحقّق من علم الحكمة ٧ـ عن ابن الألف إشارة إلى ألفة طبع المؤمنين، واللّام إلى لؤم طبع الكافرين، والميم إلى معرفة ربّ العالمين جلّ وعلا ٨ـ قسم، أقسم الله تعالى به ٩ـ قيل الألف إشارة إلى أنّه ألف صحبتنا من عرف عظمتنا وأنّه ألف بلائنا من عرف كبريائنا، واللام إشارة إلى أنّه لزم بابنا من ذاق محابّنا، ولزم بساطنا من شهد جمالنا والميم إشارة إلى أنّه مكّن من فرشنا من قام على خدمتنا وثبت على وفائنا من تحقّق بولائنا ١٠ـ قيل رمز بين الله تعالى وأهل بيت وحيه المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين

وغيرها من الأقوال حتّى انتهت إلى ثلاثين قولاً

أقول إنّ مفاتيح السّور الفرقانية رموز إلهيّة، و أسرار سماويّة بين الله تعالى و بين الرّاسخين في العلم، و هم أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين من دون خلاف بينه و بين ما ورد عن طرقهم عليهم السّلام من بعض معانيها على طريق الرّمز مفيدٌ جدًّا و أعلم جدًّا

۲ـ(غُلبت الرّوم)

في «الرّوم» أقوال: ۱ـ قيل هي قبيلة عظيمة من ولد رومي بن علقان بن يافث بن نوح ﴿ع﴾ ۲ـ قيل من ولد يافث بن يافث ۳ـ قيل من ولد رعويل بن عيص بن إسحق بن إبراهيم ﴿ع﴾ ۴ـ قيل الرّوم أمّة عظيمة من ولد روم بن عيص بن إسحق بن إبراهيم ﴿ع﴾ حاربت لها وقعة مع فارس على عهد رسول الله ﴿ص﴾ فغلبتها و قهرتها فارس، ثمّ غلبتها و قهرتها الرّوم. ۵ـ قيل الرّوم اسم أطلقه العرب على البيزنطيين، و أطلق اليوم على المسيحيين الشرقيين المتكلمين من كوينث و أرثودكس، و الإمبراطورية الرّومانية الشرقية عرفت بالبيزنطية نسبة إلى بيزنطية اسم القسطنطينية القديم، حتّى العرب سكّانها الرّوم، و قال إنّ طرة البيزنطيين قسّم ثيودوسيوس الإمبراطورية إلى غربيّة و عاصمتها روما، و إلى شرقيّة و عاصمتها القسطنطينية

۶ـ قيل الرّوم اسم محليّ هذا الجيل من الناس، و سمّوا باسم جدّهم و هو روم بن عيصو بن إسحق بن إبراهيم ﴿ع﴾

أقول ليس لنا دليل عقليّ، و لا نقل قطعيّ على تعيين أحد الأقوال و صحّته، فالله تعالى هو أعلم

۳ـ(في أدنى الأرض و هم من بعد غلبهم سيغلبون)

في قوله تعالى «في أدنى الأرض» أقوال: ۱ـ عن ابن عبّاس أي جهة الفارس، الرّوم في أدنى الأرض ممّا يلي الفارس، فالكون أهل الرّوم من بعد غلبة الفرس عليهم سيغلبون الفرس و ذلك أنّ الفرس غلبوا الرّوم، و ظهروا عليهم في عهد رسول الله ﴿ص﴾

ففرح بذلك كفّار قريش من حيث إنّ أهل فارس لم يكونوا أهل كتاب، وساء ذلك المسلمين وكانت بيت المقدس لأهل الرّوم كالكعبة للمسلمين، فدفعهم الفرس عنه.

٢ـ قيل إنّ المراد بالأرض أرض الحجاز، فبلاء المعهد إذ وقعت بين الرّوم وبين الفرس حرب عوان في بعض نواحي الشّام، قريبٌ من الحجاز، فغلبت فارس على الرّوم وانهزمت. فالمعنى إنّ الفرس غلبوا على الرّوم في أدنى الأرض أي من أرض الشّام إلى أرض فارس، فالكون الرّوم من بعد مغلوبيّتهم من فارس سيغلبون على فارس. عن قتادة أي أدنى أرض الشّام وعن ابن عمر أي على رمل الشّام إلى أرض فارس.

٣ـ قيل أي أدنى أرض الرّوم إلى فارس، فإنّ أهل الرّوم من بعد غلبة فارس إيّاهم في أرضهم، سيغلبون فارس في أدنى أرض الرّوم إلى فارس. ٤ـ قيل إنّ المراد بالأرض أرض أهل الرّوم، على أنّ الألف بدلٌ من المضاف إليه ولكنّ الأقربيّة بالنّظر إلى أهل مكّة لأنّ الكلام معهم ويساق إليهم الحديث. ٥ـ قيل إنّ المراد بالأرض أرض مكّة ونواحيها لأنّها الأرض المعهودة عندهم، والأقربيّة بالنّظر إلى الرّوم. وعن الزّجاج أي أقرب أرضهم من أرض العرب والمعنى غلبت الرّوم في أدنى أرض العرب منهم وهي أطراف الشّام ونواحيها.

٦ـ عن ابن عبّاس أيضاً وعن مقاتل والسّدّي أدنى الأرض هي الأردن وفلسطين. ٧ـ قيل، أي في أدنى الأرض قسطنطنية لأنّ هرقل ملك الرّوم هزم في ورآء القسطنطنية، وهي مقرّ السّلطنة وعاصمة الرّوم. ٨ـ قيل هي أرض الرّوم بعكرها، والأقربيّة بالنّظر إلى عدوّهم وهم فارس لحديث المعروف، وأنّ الحرب وقع بين أذرعات وبصرى وهي ما بين بلاد العرب والشّام. ٩ـ عن مجاهد أي بأرض الجزيرة العمريّة لا جزيرة العرب والمعنى أقرب أرض الرّوم إلى فارس بالجزيرة تلتقي فيها الجيشان، والبادي بالعدو، الفرس. ١٠ـ قيل، هي أرض كسكر.

١١ـ قيل هي أدنى بلاد الشّام إلى أرض العرب والعجم. ١٢ـ قيل أدنى الأرض، موضع بين العراق والشّام. ١٣ـ قيل هي أقرب الأرض إلى أرض فارس. ١٤ـ قيل عن ابن عطيّة إن كانت الوقعة بأذرعات فهي من أدنى الأرض بالقياس إلى مكّة، وإن كانت

الواقعة بالجزيرة، فهي أدنى بالقياس إلى أرض كسرى، و إن كانت الواقعة بالأردن فهي أدنى الأرض إلى أرض الرّوم ۱۵ـ عن عكرمة هي أذرعات وكسكر ۱٦ـ قيل أي في أقرب أرض الرّوم بالنّسبة إلى أرض العرب، فإنّ الوقعة كانت بين الأردن و فلسطين، و هي أقرب البلاد إلى جزيرة العرب و حدث ذلك في عهد رسول الله ﴿ﷺ﴾

۱۷ـ قيل هي كناية عن البلاد المتاخمة للحجاز ۱۸ـ قيل إنّها جزيرة العرب لأنّ الرّوم انكسر و أمام الفرس في بلاد جزيرة العرب، ثمّ في بلاد الشّام في عهد رسول الله ﴿ﷺ﴾ ۱۹ـ قيل هي أقرب البلاد من مملكة الرّوم نسبة إلى جزيرة العرب، و هي تلك البلاد الواقعة في المناطق الشرقيّة من مملكة الرّوم كدمشق و بيت المقدس و غيرها

أقول: و على التاسع أكثر المفسّرين، من دون تعارض بينه و بين بعض الأقوال الأخر فتأمّل جيّداً

٤ـ ﴿في بضع سنين لله الأمر من قبل و من بعد و يومئذ يفرح المؤمنون﴾

في قوله تعالى: «في بضع سنين» أقوال: ۱ـ قيل هو تحديد للوقت الّذي يقع فيه هذا الأمر و البضع القطعة من العدد ما بين الثلاث إلى العشر، و من السّنين ما بين الثّلاث إلى العشر ۲ـ قيل البضع ما بين الثلاث إلى خمس سنين ۳ـ قيل ما بين ثلاث إلى سبع سنين ٤ـ عن أبي عبيدة البضع من واحد إلى أربعة ٥ـ عن القتبي البضع ما فوق الثلاثة إلى دون العشرة ٦ـ عن مجاهد: البضع ما بين ثلاث إلى تسع ۷ـ عن المبرّد البضع ما بين العقدين في جميع الأعداد و قد تحقّقت غلبة الرّوم على الفرس بعد سبع سنين من غلبة الفرس على الرّوم

۸ـ قيل: البضع: ما بين الواحد إلى التّسعة ۹ـ قيل هو ما فوق الخمس، و دون العشر ۱۰ـ عن ابن عبّاس البضع عند رأس سبع سنين ۱۱ـ عن ابن عبّاس أيضاً البضع ما بين السّبع إلى العشرة ۱۲ـ قيل ما بين خمس إلى سبع ۱۳ـ قيل البضع ما دون العشرة ۱٤ـ قيل: ما بين اثني عشر إلى عشرين

أقول: و الأوّل هو المرويّ عن رسول الله (ﷺ).

و في قوله سبحانه: «لله الأمر من قبل و من بعد» أقوال: ١ ـ قيل: أي و لله وحده الأمر من قبل غلبة الروم على الفرس و من بعدها فيحكم بما يشاء، و يأمر بما يريد. ٢ ـ قيل: أي له الأمر حين غُلبُوا و حين يَغلبون أي من قبل كونهم غالبين و هو وقت كونهم مغلوبين، و من بعد كونهم مغلوبين و هو وقت كونهم غالبين فالمعنى لله وحده الأمر وقت كون الروم مغلوبين من الفرس و وقت كونهم غالبين عليهم فليس شيء منهما إلّا بقضائه، فإنّ الأمر كلّه لله وحده من قبل الغلب، و من بعده، فما غلب الغالبون إلّا بأمر الله تعالى و عن إرادته و مشيئته، و ما ستغلب المهزومون إلّا بأمر الله تعالى وحده و عن إرادته و مشيئته «قل كلّ من عند الله» (النساء: ٧٨) فما غلب فهو بأمر الله و وقته و قدره كما في «و تلك الأيّام نداولها بين الناس» (آل عمران: ١٤٠) فهو يقضي في خلقه بما يشاء، و يحكم بما يريد، و يُظهر من يشاء منهم على من أحبّ إظهاره عليه.

٣ ـ قيل: أي لله وحده الأمر من قبل أن يأمر به، و له الأمر من بعد أن يأمر به، يقضي بما يشاء أي و من بعد أن يقضي بما يشاء.

٤ ـ قيل: إنّ لفظ «قبل» يتضمّن الأزل و إنّ لفظ «بعد» دلّ على الأبد فالمعنى الأمر الأزليّ لله وحده، و الأمر الأبديّ لله وحده لأنّ الربّ الأزليّ و السيّد الأبديّ هو الله تعالى وحده. ٥ ـ قيل: أي لله الأمر يوم الحرب، و لله الأمر يوم الظفر يدلّ على الأمر من قبل، و قد علمتم ما تعملون فلا يمنعني أحد من عقوبتكم، و لي الأمر من بعد و قد رأيتم ما تعلمون فلا يمنعني أحد من عفوكم. ٦ ـ قيل: أي لله الأمر حين تقسمه و لاحقه، و لله الأمر عند النعمة و بعد أيّ معين. ٧ ـ قيل: أي لله الأمر من قبل تخليقكم و ذكركم، و لله الأمر من بعد حفظ عهدكم. ٨ ـ قيل: أي لله وحده الأمر من قبل أن يغلب المسلمون الروم و من بعد أن يغلبوهم بأخذ بعض مدنهم لأنّ الله تعالى يداول الأيّام بين الناس.

٩ ـ قيل: أي لله وحده بعدة الأحكام من قبل هذه القلبة و من بعدها. ١٠ ـ قيل: أي من قبل كلّ شيء و من بعد كلّ شيء. ١١ ـ عن ابن عبّاس: أي لله النصرة و الدولة لمحمّد (ﷺ) من قبل غلبة فارس على الروم و من بعد غلبة فارس على الروم. ١٢ ـ قيل

أي لله الأمر العام و القدرة و المشيّة من قبل بدء الخلق و من بعد فناء الخلق ١٣ ـ قيل أي كان الله آمراً قبل المأمورين، و من بعد المأمورين، و كذلك كان خالقاً من قبل المخلوقين، و رازقاً من قبل المرزوقين، و خالقاً و رازقاً بعد المخلوقين و المرزوقين، و كذلك كان مالكاً من قبل المملوكين، و مالكاً من بعد المملوكين كقوله تعالى «مالك يوم الدّين»

١٤ ـ قيل أي لله وحده الأمر من قبل هذه المدّة بضع سنين، و من بعدها بأنّه تعالى إن أراد أن يغلبهم غلبهم قبل بضع سنين، و إن أراد أن يغلبهم بعد هذه المدّة، غلبهم بعدها، فما قدر الله تعالى هذه المدّة بمحض و تناهي إرادته وحده ١٥ ـ قيل أي لله وحده الأمر فإنّ كلّ حركة و نأمة، و كلّ حادثة و حالة، و كلّ نشأة و عاقبة و كلّ نصر و هزيمة مرتبط بربط وثيق، محكوم بقانون دقيق لا سبيل لأحد مما سواه إليه

أقول: و التعميم هو الأنسب بظاهر الإطلاق و هو المؤيّد بالروايات المتواردة عن أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين

و في قوله عزّ و جلّ: «و يومئذ يفرح المؤمنون» قال: ١ ـ قيل أي يوم يغلب الرّوم على الفرس سرّ المؤمنون تفؤّلاً لأن يغلبوا هم على المشركين يوماً ٢ ـ قيل أي في الوقت الّذي يقع فيه هذا الخبر، و هو غلبة الرّوم على الفرس، سيقع أمر هامّ و أعظم و هو انتصار المسلمين على المشركين، حيث يمدّهم الله تعالى بنصره و يمنحهم عونه و تأييده، فتمتلئ بالفرحة صدورهم و تمتلئ بالرّضا و السّرور قلوبهم

اليوم إرجافُ السّرور و إنّما يوم اللقاء حقيقة الإرجاف

اليوم ترحٌ، و غداً فرحٌ، اليوم عبرةٌ، و غداً حبرة، اليوم أسفٌ، و غداً لطفٌ، اليوم بكاء، و غداً لقاء

٣ ـ قيل أي و يومئذ يفرح المؤمنون بما يرجون من إسلام أهل الرّوم ٤ ـ قيل أي يفرح المؤمنون بتصديق وعد الله عزّ و جلّ، و كان ذلك عام الحديبيّة، فغفر له ﴿ﷺ﴾ ما تقدّم من ذنبه و ما تأخّر، فبايعوه بيعة الرّضوان، و وعدهم غنائم خيبر، و ظهر الرّوم على فارس و كان تصديقاً لهذه الآية ٥ ـ قيل أي و يوم يغلب الرّوم على الفرس يفرح المؤمنون بنصر الله تعالى الرّوم

٦ ـ قيل: إنّ قوله تعالى: «و يومئذ» عطف على قوله: «من قبل» و المراد به شمول سلطنته تعالى جميع الأزمنة الثلاثة: الماضي و المستقبل و الحال، كأنّه قيل: لله الأمر من قبل و من بعد، و يومئذ، ثمّ ابتدأ و قيل: يفرح المؤمنون بنصر الله. قيل: و فيه إبطال لانسجام الآية و انقطاع طرفها عن الآخر ٧ ـ قيل: أي يوم يغلب المسلمون الرّوم يفرح المؤمنون ٨ ـ قيل: أي و يوم يغلب الرّوم فارس يفرح المؤمنون بدفع الرّوم فارس عن بيت المقدّس لا بغلبة الرّوم على بيت المقدس، فإنّهم كفّار و يفرحون بذلك لوجود خبر و هو غلبتهم المشركين بذلك، و لتصديق خبر الله عزّوجلّ و خبر رسوله ﴿ﷺ﴾ و لأنّه مقدّمة لنصرهم على المشركين

٩ ـ قيل: أي يوم غلبة الرّوم على فارس، و نصره النّبيّ ﴿ﷺ﴾ على أهل مكّة و كان ذلك يوم بدر، و قيل: يوم الحديبية

أقول: و التعميم غير بعيد عن السّياق فتأمّل جيّداً

٥ ـ ﴿بنصر الله ينصر من يشآء و هو العزيز الرّحيم﴾

في الآية الكريمة أقوال: ١ ـ عن مجاهد: أي بنصر الله الرّوم على الفرس. يفرح المؤمنون فبناء على هذا القول: «بنصر الله» متعلّق بـ«يفرح» و المعنى: و يوم يغلب الرّوم يفرح المؤمنون بنصر الله الرّوم على الفارس ثمّ استأنف، و قال: «ينصر من يشآء» تقريراً لقوله تعالى: «لله الأمر من قبل و من بعد» فالمعنى: ينصر من يشآء من أوليائه على أعدائه و يغلّبه عليه على مقتضى لسنن التي وضعها في خليقته، لأنّ نصره تعالى مختصّ بغلبة أوليائه لأعدائه، فأمّا غلبة أعدائه لأوليائه فليس بنصر، و إنّما هو ابتلاء، و قد يسمّى ظفراً، و هو العزيز في نقمته، الرّحيم لأهل طاعته

٢ ـ قيل: أي بنصر الله المسلمين على المشركين و هو يوم بدر و ذلك أنّ خبر الكسر لم يصل إليهم في ذلك اليوم بعينه، فلا يكون فرحهم يومئذ، بل الفرح حصل لهم بعده و قيل: هو يوم الحديبيّة و ذلك أنّ الفرس غلبت على الرّوم و ظهروا عليهم على عهد رسول الله ﴿ﷺ﴾ ففرح بذلك كفّار قريش من حيث إنّ أهل فارس كقريش لم يكونوا أهل

الكتاب، وساء ذلك المسلمين، وكان بيت المقدس بيد أهل الروم كقبلة للمسلمين، فدفعتهم فارس عنه، ثم ظهرت الروم على فارس يوم الحديبية «وهو العزيز» في الانتقام من أعدائه «الرحيم» لمن تاب إليه من خلقه فلا يعاجلهم بالانتقام على ذنوبهم كما قال «ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل قريب» فاطر: ٤٥.

٣ـ قيل إن المراد نصر الله تعالى الظالمين بعضهم على بعض، فإنه تعالى يولي بعض الظالمين بعضاً ويفرق كلمتهم، حتى يتقاتلوا ويتحاربوا ويفل كل منهما شوكة الآخر، وفي ذلك قوة للإسلام. ٤ـ عن ابن عباس: أي ينصر الله محمداً (ص) على أعدائه وبدولة الروم على فارس فإن الله ينصر من يشاء من عباده على من يشاء من عباده وهو نصر محمد رسول الله (ص) على المشركين «وهو» تعالى «العزيز» شديد انتقامه من أعدائه لا يمنعه مانع، ولا يحول بينه وبينه حائل «الرحيم» لمن تاب من عباده، ورجع إلى طاعته. ٥ـ قيل إن المراد بنصر الله أن النصر بيد الله، ولا يكون المراد بيان وقوع النصرة كقوله تعالى «وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم» آل عمران: ١٢٦

٦ـ قيل إن المراد «بنصر الله» هو إظهار صدق المؤمنين فيما أخبر به نبيهم (ص) من غلبة الروم على الفرس فالمراد بنصر الله ظهور المعجزة النبوية بتحقيق هذا الخبر وزيادة اليقين.

٧ـ قيل أي نصر الله الروم على الفرس، فقد فرح المؤمنون بذلك، وعلموا أنه يوم بدر يرون خبر نبي بذلك مع فرحهم بنصرهم على المشركين فيه. وقيل ليس المراد نصر الروم على الفرس، وإن توافق النصران زماناً، فكأنه قيل إن الروم سيغلبون في بضع سنين، ويوم يغلبون، ويغلب المؤمنون على المشركين، فيفرحون بنصر الله إياهم وقيل إن هذا المعنى لا يلائم قوله بعد: «ينصر من يشاء»

٨ـ قيل هو انتصار المسلمين على الكفار والمشركين خلافاً من يوم بدر أو الحديبية أو يوم الفتح وغيرها حيث وعدهم الله تعالى بنصره وعجل لهم عونه وتأييده، فتمتلئ بالفرحة صدورهم وتعمر بالرضا والسرور قلوبهم، فالنصر بيد الله وحده «ينصر من

يشاء» من عباده المؤمنين ليس لأحد شركة مع الله سبحانه فيه. و «هو العزيز» ذو القوّة و البأس «الرّحيم» الّذي يوسع من رحمته لعباده المؤمنين فيعزّهم بعزّته ٩ ـ قيل أي بغلبة من له كتاب على من لا كتاب له ١٠ ـ قيل أي بغيظ الشامتين بهم من كفّار مكّة

١١ ـ قيل أي بفتح الله تعالى بنصره من يشاء، يعني نصر الله محمّداً و أصحابه. و هو العزيز الغالب على المشركين، الرّحيم بالمؤمنين حين نصرهم ١٢ ـ قيل أي ينصر الله ينصر هؤلاء تارة، و هؤلاء تارة أخرى، و هو العزيز ينتقم من أعدائه بالنّصر عليهم تارة، الرّحيم يتفضّل عليهم بنصرهم أخرى، فينصر من يشاء نصره على مقتضى الحكمة و النّواميس الّتي سنّها الله تعالى في هذه الخليقة «تلك الأيّام نداولها بين النّاس» (آل عمران: ١٤٠) و قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (ع) «الدّهر يومان يوم لك و يوم عليك» «و هو العزيز» ينتقم ممّن يستحقّ الانتقام بالنّصر عليهم «الرّحيم» بالمؤمنين رحمة خاصّة و من قبل رحمته العامّة تعمّ كلّ مخلوق

عن الزّبير الكلابي قال: رأيت غلبة فارس الرّوم، ثمّ رأيت غلبة الرّوم فارس، ثمّ رأيت غلبة المسلمين فارس و الرّوم، و ظهورهم على الشّام، و العراق، كلّ ذلك في خمس عشرة سنة فقد سلّط العدوّ على الحبيب بعزّته و سلطانه على العالمين، و إذا نصر الحبيب فلرحمته عليه، و لأنّ النّصر تحت عزّته و سلطانه عليه، و رحمته في الآخرة واصلة إليه «و هو العزيز» الممتنع في عزّه و غلبته فلا يعجزه من يشاء أن ينصر عليه كائناً ما كان، «الرّحيم» المبالغ في الرّحمة فينصر من يشاء أن ينصره أيّ فريق كان

١٣ ـ قيل إنّ قوله «بنصر الله» متعلّق بقوله «المؤمنون» دون «يفرح» و يدلّ بالملازمة المقاميّة أنّ غلبة الرّوم بنصر من الله قيل و فيه أنّ لازمه أن يفرح المؤمنون يوم غلبة الفرس و يوم غلبة الرّوم جميعاً فإنّ في كلّ منهما نصراً و كلّ نصر من الله تعالى إذ قال: «و ما النّصر إلّا من عند الله العزيز الحكيم» (آل عمران: ١٢٦) فتخصيص فرح المؤمنين بالنّصر بيوم غلبة الرّوم ترجيح بلا مرجّح ١٤ ـ قيل أي و إذ يوم تغلب الرّوم فارس يفرح المؤمنون بنصر الله و تغليبه من له كتاب على من لا كتاب له، و غيظ من شمتوا من كفّار مكّة، و أنّه سيكون فالاً حسناً لغلبة المؤمنين على المشركين

أقول: وعلى الأوّل أكثر المفسّرين من دون تنافٍ بينه وبين بعض الأقوال الأخر فتأمّل جيّداً

٦ـ(وعد الله لايخلف الله وعده ولكنّ أكثر الناس لايعلمون)

في قوله تعالى: «وعد الله لايخلف الله وعده» أقوال: ١ـ عن ابن عبّاس: أي وعد الله بالنصر والنبوّة محمّداً ﷺ لايخلف الله تعالى وعده نبيّه بالنصرة والدولة ٢ـ قيل: أي وعد الله تعالى المؤمنين بنصره إيّاهم على الروم وإنّه لايخلف وعده لامتناع الكذب عليه سبحانه ٣ـ قيل: أي إنّ الله وعد المؤمنين أنّ الروم سيغلبون الفرس، لا يخلفهم وعده ذلك إذ ليس في مواعيده خلف ٤ـ قيل: أي إنّ الله وعد المسلمين بظهورهم على الروم والفرس والمشركين وعداً يتعلّق بأمور الدنيا وسيتلوه الآخرة لما في خلفه من النقص المستحيل على الله سبحانه

٥ـ قيل: وهو يجري المسبّبات على أسبابها، ويرتّب على مقدّماتها ولا شيء عنده عدلت صدقه ولا أحرى وأصدق قولاً فأحدٍ من أن يكون وعد صدقه ٦ـ قيل: إنّ الكريم لايخلف وعده ولا سيّما الصادق منه، وكلامه صدق وقوله حقّ ٧ـ قيل: أي انتظروا وعد الله إذ لايخلف الله تعالى وعده، حيث وعدهم غلبة الروم، وإنّ خلف الوعد يلازم النقص دائماً، فيستحيل عليه تعالى النقص، على أنّه أخبر في كلامه بأنّه لايخلف الميعاد، وهو أصدق الصادقين، ولا يقول إلّا الحقّ «والحقّ أقول» ص ٨٤

٨ـ قيل: إنّ «وعد الله» مفعول به لفعل محذوف، تقديره صدّقوا وعد الله أو سيعلموا وعد الله ونحو ذلك من الجنّة ونعيمها ونحو المؤمنين من يوم الميثاق وعداً بالإيمان والطاعة ومنه تعالى اليوم وعد بالجنّة والرضوان

أقول: والرابع هو الأنسب بظاهر الآية فتدبّر

وفي قوله عزّوجلّ: «ولكنّ أكثر الناس لايعلمون» أقوال: ١ـ عن ابن عبّاس: أي ولكنّ أهل مكّة لايعلمون أنّ الله لايخلف وعده نبيّه ﷺ ٢ـ قيل: أي ولكنّ أكثر الناس في كلّ ظرف من الظروف لايعلمون أنّ الله سبحانه لايخلف وعده لأنّهم جهلة في أمور

للدّين و المعاد لاشتغالهم بأمور الدّنيا و المعاش ٣ـ قيل: أي أكثر قريش الّذين يكذّبون بأنّ الله منجز وعده المؤمنين من أنّ الرّوم ستغلب فارس لا يعلمون أنّ ذلك كذلك، و أنّه لا يجوز أن يكون في وعده خلف و ذلك من الأمور الّتي تحتاج إلى دقّة و نظر و بحث و علم لا يمكن إدراكها إلّا بالتّعقّل و التّدبّر، و هم لا يعقلون و لا يتدبّرون لغلبة طبيعتهم على فطرتهم، و هوى أنفسهم على عقولهم.

٤ـ قيل: أي كفّار مكّة لا يعلمون وعده تعالى بنصر المؤمنين لجهلهم بشؤونه تعالى و عدم تفكّرهم فيما يجب له جلّ و علا و ما يستحيل عليه سبحانه. ٥ـ قيل: أي لا يعلم مشركو العرب ما يجوز من شؤونه و لا يعلمون سننه في خلقه في التّكوين و النّواميس الوجوديّة ٦ـ قيل: أي و لكنّ أكثر النّاس في كلّ زمان و مكان ليسوا من أولي العلم في أمور الدّين حتّى يعلموا أنّ الله تعالى لا يخلف وعده. ٧ـ قيل: أي و لكنّ أكثر النّاس و هم الكفّار على فرقهم في كلّ طرف لا يعلمون صحّة ما أخبرنا به لجهلهم بشؤونه سبحانه و عدم تفكّرهم في النّواميس و السّنن الّتي وضعها الله تعالى في التّكوين فإنّه قد جعل من تلك النّواميس أنّ وعده لا يتخلّف إذ هو مبنيّ على مقدّمات و وسائل هو يعلمها، و قد رتّب عليها تلك العدّة الّتي وعدها، و قد جعل الغلبة في الأمم و الأفراد مبنيّاً على الإستعداد النّفسي. «و لا تهنوا و لا تحزنوا و أنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين بل الله مولاكم و هو خير النّاصرين ـ سنلقي في قلوب الّذين كفروا الرّعب» آل عمران: ١٣٩ ـ ١٥١)

«و لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً» النّساء: ١٤١)

و على الإستعداد الحربيّ «و أعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة و من رباط الخيل ترهبون به عدوّ الله و عدوّكم و آخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم» الأنفال: ٦٠)

فلا تغلب أمّة أخرى إلّا بما أعدّت لها من وسائل الظّفر بها و كان لها من صفات تكمّل لها هذا الظّفر من أناة و صبر و تضحية ما تملك من عزيز لديها من مال و نفس و هكذا حكم الفرد فهو لا ينجح في الجهاد إلّا إذا كان معه أسلحة يغالب بها عوامل الأيّام حتّى يغلبها بسعيه و جدّه و كدّه، فهذه الأمور و أمثالها تحتاج إلى دقّة و نظر لا يدركها إلّا ذوو البصائر. ٨ـ قيل: أي و لكنّ أكثر النّاس لا يعلمون أمر الآخرة، و لا يعرفون الحقائق فهم

جهلاء بشئونه سبحانه لايثقون بوعده، و ينسبونه إلى أمثالهم ممّن يصدّق و يكذّب، و يحرّ و يخلف ٩ ـ قيل أي لايعلمون هذه الحقيقة و هي أنّ الله تعالى لايخلف وعده، و المراد بأكثر الناس هنا الكفّار والمشركون، و الفجّار و المستكبرون الذين لايؤمنون بالله جلّ وعلا، فهؤلاء هم أكثرية الناس في كلّ ظرف من الظروف، و هم لايصدّقون مـا تتحدّث به إليهم آيات الله عن الله لأنّهم لايقدرون الله سبحانه حقّ قدره، و لايعلمون ما ينبغي أن يكون له تعالى من صفات الكمال و الجلال

أقول: و التعميم هو الأنسب بظاهر الإطلاق فتدبّر جيّداً

٧ـ (يعلمون ظاهراً من الحياة الدّنيا و هم عن الآخرة هم غافلون)

في قوله تعالى: «يعلمون ظاهراً من الحياة الدّنيا» أقوال: ١ ـ عن ابن عبّاس و ابن زيد و الحسن و قتادة و عكرمة و ابن الجنيد: أي يعلمون أمر معايشهم و دنياهم من منافعها و مضارّها: متى يغرسون؟ و متى يزرعون؟ و متى يحصدون؟ و كيف يبنون؟ و من أين يعيشون؟ لايبكون لهم منه أثر في الدّار الآخرة ٢ ـ عن ابن عبّاس أيضاً و الضحّاك: أي يعرفون عمران الدّنيا و بنيان قصورها و تشقيق أنهارها و غرس أشجارها و هم في أمر الآخرة جهّال ٣ ـ عن ابن عبّاس أيضاً: إنّ أهل مكّة يعلمون معاملة الدّنيا من الكسب و الصّناعة و التجارة والزّراعة و البناء والغرس و البيع و الشّراء، والحساب من واحد إلى ألف و ما يحتاجون من واحد إلى ألف، و ما يحتاجون إليه في الصّيف و الشتاء. و يقال: هم في أمر التجارة كانوا أكيس الناس، و هم عن أمر الآخرة هم غافلون، جاهلون بها تاركون لعملها

٤ ـ عن عكرمة أيضاً: أي يعلمون معايشهم و ما يصلحهم ٥ ـ عن قتادة أيضاً: أي يعلمون تجارة الحياة الدّنيا و حرفتها و بيعها و تصرّفها و نعيمها ٦ ـ قيل: إنّهم علماء بأمور الدّنيا، يعلمون منافعها و مضارّها، غافلون عن أمور الدّين و المعاد و عن الحسن: بلغ و الله من علم أحدهم و حذقه بأمر دنياه أنّه يقلّب الدّرهم على ظفره و ظهر يده فيخبرك بوزنه، ما يحسن أن يصلّي ٧ ـ عن سعيد بن جبير: أي يعلمون ما تلقيه الشياطين

إليهم من أمور الدّنيا عند استراقهم السّمع من سماء الدّنيا، و عند بعضٍ هو ما علموه من قبل الكهنة ممّا تسترقه الشّياطين و ليس بشيء

٨ ـ قيل أي يعلمون الظّاهر و الباطن كما قال تعالى في موضع آخر «أم بظاهر من القول» (الرعد ٣٣) ٩ ـ عن ابن عبّاس و الحسن أي ما يعرّفهم سياسة دنياهم يعلمون ظاهراً من الحياة الدّنيا ١٠ ـ قيل هو ما يشتهون به من زخارف الدّنيا و ملاذّها و سائر أحوالها الموافقة لشهواتهم الملائمة لأهوائهم المستدعية لانهماكهم فيها و عكوفهم عليها ١١ ـ عن الكرمانيّ: كلّ ما يعلم بأوائل الرّؤية فهو الظّاهر، و ما يعلم بدليل العقل فهو الباطن

و قيل الظّاهر هو الّذي يصحّ أن يدرك من غير كشف عنه فالله تعالى ظاهر بالأدلّة، باطن عن حواسّ خلقه، و الأمور كلّها ظاهرة له جلّ و علا لأنّه يعلمها بغير كشف عنها، و لا دلالة تؤدّيه إليها، و كلّما يعلم بأوائل العقول فهو ظاهر و كلّ ما يعلم بدليل العقل فهو باطن، حيث إنّ دليل العقل يجري مجرى الكشف عن صحّة المعنى ـ في صحّته ـ و الغفلة عنها ذهاب المعنى عن النّفس كحال النّائم و نقيضه اليقظة، و هي حضور المعنى للنّفس كحال المنتبه، و نقيضه السّهو ١٢ ـ قيل هو هنا التّمتّع بزخارف الدّنيا و التّنعّم بملاذّها و تعقّب بأنّهما ليسا ممّا علموه منها، بل من أفعالهم المرتّبة على علمهم

١٣ ـ قيل إنّ المراد بالظّاهر مقابل الباطن، و تنوين «ظاهراً» للتّحقير و التّخسيس أي يعلمون ظاهراً حقيراً خسيساً ١٤ ـ قيل: الظّاهر ههنا بمعنى الزّائل الذّاهب، و المعنى يعلمون أمراً ظاهراً زائلاً لا بقاء له، و لا عاقبة من الحياة الدّنيا ١٥ ـ قيل ظاهر الدّنيا ملاذّها و ملاعبها، و باطنها مضارّها و متاعبها

قال الشّاعر

هي الدّنيا تقول بملء فيها — حذار حذار من بطشي و فتكي
فلا يغرركم طول ابتسامي — فقولي مضحك و الفعل مبكي

١٦ ـ قيل أي هؤلاء المكذّبون بعاقبة خبر الله تعالى بأنّ الرّوم ستغلب فارس و تغلب المسلمون الرّوم و الفارس و المشركين جميعاً و هم يعلمون ظاهراً من حياتهم الدّنيا و تدبير معايشهم فيها و ما يصلحهم، و هم عن أمر آخرتهم، و ما لهم فيه النّجاة من عقاب

الله هنالك غافلون لا يفكرون فيه. عن عكرمة: هم الخرّازون والسرّاجون. ١٧ ـ قيل أي كلّ ما يعرفونه هو بعض أمور ظاهرة من شؤون الحياة الدنيا، في حين أنّهم غافلون عن الآخرة مع ما هي عليه من خطورة وشأن. ١٨ ـ قيل أي يعلمون ما يشاهدون من الحياة الدنيا.

١٩ ـ قيل أي أنّهم يرون الظواهر وهم عن الحقائق والواقع غافلون، يدركون غلبة فارس على الروم بظاهر الحال، وهم غافلون بأنّ الغلبة ستكون للروم على الفرس، وإن كانت الآن مع الفرس. ٢٠ ـ قيل أي ما ينفعهم من زخارف الدنيا وما يشاهدون من زينتها وشهواتها وهم غافلون عن حقائقها من أنّها زائلة ومتاع زائل فرطوا فيه. ٢١ ـ قيل أي يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ولا يعلمون أنّ وعد الله تعالى حقّ، وأنّ لله الأمر من قبل ومن بعد، وأنّه سبحانه ينصر المؤمنين على الكافرين.

٢٢ ـ قيل أي يرون ظاهر الدنيا وهو الذي ساقه حواسّهم الظاهرة من زينة الحياة، فيرشدهم إلى التمتع بها والعكوف عليها والإخلاد إليها، ونسيان ما وراءها من الحياة الآخرة والمعارف المتعلقة بها، وقطعهم عمّا فيه خيرهم وفهمهم عميقة معنى الكلمة.

وذلك أنّ استغراقهم في الاشتغال بمتاع الدنيا وزخارفها وانهماكهم في تحقيق آمالهم فيها، منعهم عن العلم بالآخرة وقيمة كلّ امرئ علمه بالله تعالى، وأوّل العلم معرفة الجبّار، وآخر العلم تفويض الأمر إليه. وقال الإمام عليّ عليه السلام: «أهل الدنيا على غفلة من الآخرة».

أقول: وعلى الأوّل أكثر المفسّرين وفي معناه أكثر الأقوال الأخر فتأمّل جيّداً.

وفي قوله سبحانه: «وهم عن الآخرة هم غافلون» أقوال: ١ ـ قيل أي وهم عن العلم بالآخرة والعمل لها هم غافلون، إذ حبّ الدنيا في أعينهم، فأعمتهم عن الآخرة. فلله درّ القائل:

ومن البليّة أن ترى لك صاحباً ... في صورة الرجل السميع المبصرِ
فطنٌ بكلّ مصيبة في ماله ... وإذا يصاب بدينه لم يشعرِ

٢ ـ عن ابن عبّاس أي وهم جهّال بأمر الآخرة وله مضيّعون إذ عمروا دنياهم و

خربوا آخرتهم ٣- قيل أي وهم عن الآخرة التي هي الغاية القصوى، والمطلب الأسنى، هم غافلون عنها لا يخطر ببالهم فكيف يتفكّرون فيها، وما يؤدّي إلى معرفتها من الدنيا و أحوالها، فهم كالبهائم لا يتصوّرون إدراكها سوى ظواهر الدنيا الخسيسة دون أحوالها التي هي من مبادئ العلم بأمور الآخرة وهي باطن الحياة الدنيا.

فأكثر الناس يعرفون ما لديهم من أمور الحياة الدنيا كتدبير معايشهم وإحكام مساكنهم وسعة متاجرهم وتصرّفهم في مزارعهم على النحو الذي يجعلهم يزدهرون في ساحة المجتمع، وأمّا أنّ نفوسهم لها بقاء بعد الموت وأنّهم هناك لا يفنون، بل هم سيلبسون ثوباً آخر في حياة أخرى، وسينالون في تلك الحياة ما قدّمت من خير أو شرّ، ولو لم تكن للنفوس بعد هذه الحياة لكانت آلام الدنيا ومتاعبها لا تطاق، ولأصبحت النفوس لا تجد سبيلاً وهي ما تصبر بين الآلام، وتحمّلها إلّا لأنّها تؤمن بسعادة أخرى وراء ما تعانيه من المتاعب في هذه الحياة، ولو دامت عاقبة عليهم، مع أنّه باطن الحياة الدنيا فهذه الحياة لو لم تكن وراءها حياة أخرى لما كانت لها فائدة بل كان عدمها خيراً من وجودها، فهم عاكفون عليها، ولا يفكّرون بالأخرى لأنّها لا تقع تحت حواسّهم.

٤- قيل أي وهم عن الآخرة التي هي غايتها الحقيقية، والمقصود منها، هم غافلون عنها لا تخطر ببالهم لانهماكهم في الشهوات وظواهر الدنيا، فغفلوا عن الحقائق ٥- قيل أي وهم يتغافلون عن الآخرة ٦- قيل أي وهم لا يؤمنون بالآخرة ٧- قيل أي وهم عن أمر الآخرة وما وُعدوا فيها من الأهوال والفزع والعذاب هم غافلون وغافلون أنّهم في الآخرة مسؤولون وأنّهم هناك يوم آخر وعيش آخر.

أقول: والمعاني متقاربة والمآل واحد فتأمّل جيّداً

٨- (أولم يتفكّروا في أنفسهم ما خلق الله السّموات والأرض وما بينهما إلّا بالحقّ وأجل مسمّى وإنّ كثيراً من النّاس بلقاء ربّهم لكافرون)

في قوله تعالى: «أولم يتفكّروا في أنفسهم ما خلق الله السّموات والأرض وما بينهما» أقوال: ١- عن ابن عبّاس: أي أولم يتفكّر كفّار مكّة فيما بينهم ما خلق الله السّموات و

الأرض وما بينهما من الخلق والعجائب إلّا بالحقّ والأمر والنهي لا للباطل ٢ـ قيل أي أولم يتفكّر الناس في كلّ ظرف من الظروف في خلق الله أنفسهم، ولم يكونوا شيئاً مذكوراً. ثمّ في تصيّر هيئتهم أحوالاً وتارات حتّى صاروا أكمل الخلق، وأكمل العقل، فكلّ واحد منهم مُحْدَث يحتاج إلى مُحدِث قديم، حيّ، قادر، عليم، حكيم، فيعلمون أنّ الّذي فعل ذلك فهو قادر أن يعيدهم بعد فنائهم خلقاً جديداً

ثمّ يجازي المحسن منهم بحسناته، والمسيء منهم بإساءته، لا يظلم أحداً منهم، فيعاقبه بدون جرم صدر منه، ولا يحرم أحداً منهم جزاء عمله، لأنّه العدل الّذي لا يجور، فهو ما خلق السماوات والأرض وما بينهما إلّا بالعدل وإقامته، والحقّ وإحداثه إلى أجل مؤقّت مسمّى، فإذا حلّ الأجل الّذي وقّت كلّه وبدّلت الأرض غير الأرض وبرزوا يوم القيامة للحساب والجزاء جميعاً وإنّ كثيراً من الناس بلقاء ربّهم لكافرون لأنّهم لم يتفكّروا في أنفسهم، ولو تفكّروا فيها وتدبّروا، لعرفوا أنّهم ملاقو ربّهم، وأنّ معادهم إليه بعد فنائهم

فمن نظر حقّ النظر، ووضع النظر موضعه، علم أنّه عليم واجب أنّ الله تعالى لم يخلق الإنسان عبثاً بل خلقه لغاية مطلوبة لا تعود إلى نفسه سبحانه لغناه المطلق، وإنّما تعود إلى الإنسان، وهو الثواب، ولا يكون إلّا للإيمان الصادق والعمل الصالح، فلابدّ من دين مشرّع يميّز التوحيد من الشرك، والإيمان من الكفر والحقّ من الباطل والعمل الصالح من السيّء، فلابدّ من دار يمحّصون فيها وهي الدنيا، ودار يثابون فيها وهي الآخرة، فإذا استحضر نور اليقين أحكام تلك الثبات، وعلم موعوده الصادق في المستأنف، نجا عن كدّ التردّد والتحيّر، فسبيل من صحّ عقله لا يحتاج إلى التقصير فيما له كمال سكونه

٣ـ قيل أي أولم يحدثوا التفكّر في أنفسهم ٤ـ قيل أي أولم يتفكّروا في حال الخلوة لأنّ في تلك الحالة يتمكّن الإنسان من نفسه ويحضره ذهنه ٥ـ قيل أي أولم يحدثوا التفكّر في قلوبهم الفارغة، فيكون كما تقول لتحقيق أمر التفكّر، وزيادة تصوير حال المتفكّر «اعتقده في قلبك، وأضمره في نفسك» مع أنّ الإعتقاد لا يكون إلّا في القلب، والإضمار إلّا في النفس هذا بناءً على تعلّق الظرف «في أنفسهم» بالفعل «لم يتفكّروا» وأمّا

بناء على تعلّق الجار بالفعل كقولك «تفكّر في أمرك» فإنّه إذا تفكّر في نفسه التي هي أقرب الأشياء إليه وقف على غرائب الحكم، و دقائق الصنع التي أودعها الله تعالى فيها كما يكفل بيان بعضها علم التشريح، فجرّه ذلك إلى العلم بأنّ الله تعالى لم يخلق السماوات و الأرض و ما بينهما إلّا ملتبساً بالغرض الصحيح الذي أودعه الله فيها، و بتقدير أجل مسمّى، هو وقت الحساب و الجزاء

٦ ـ قيل إنّ التفكّر في أنفسهم إشعار بذكر ما فيه من فراغ البال و حضور الذهن كأنّهم عند اشتغالهم بأمور الدنيا و سعيهم للمعاش و تشوّش البال يغيبون عن أنفسهم، فيكونون عند حضور الذهن حاضرين مستقرّين في أنفسهم، فيكون تفكّرهم حينئذ مجتمعاً غير متفرّق، فيهديهم إلى الحقّ و يرشدهم إلى الواقع، فيجب عليهم أن يعملوا النّظر في أنفسهم أنّ الله تعالى ما خلق هذا النظام كلّاً و لا بعضاً إلّا خلقاً ملابساً للحقّ و مصاحباً للحقّ ٧ ـ قيل إنّهم لم يؤمروا بأن يتفكّروا في خلق أنفسهم، بل أمروا بأن يعملوا التفكّر في خلق السماوات و الأرض و أنفسهم حتّى يعلموا أنّ الله لم يخلق السماوات و غيرها إلّا بالحقّ ففي الكلام حذف أي حتّى يعلموا بدلالة الكلام عليه

٨ ـ قيل أي أو لم يتفكّروا في أمر أنفسهم فإنّها أقرب إليهم من غيرها و إنّها مرآة مجلّى للمستبصر ما يتجلّى له في سائر المخلوقات يتحقّق لهم قدرة مبدعها على إعادتها قدرته على إبداعها، فأنفسهم مرآة لهم يقدرون أن يروا وجوه الآفاق و الكون كلّها فيها، لأنّ في النفس أنموذجاً من كلّ شيء

و إلى ذلك أشار مولى الموحّدين الإمام عليّ (عليه السلام) بقوله

أتزعم أنّك جرم صغير و فيك انطوى العالم الأكبر

و كما قيل إنّ عالم الأنفس وحدها يطابق عالم الآفاق كلّها و لذلك أمر الله تعالى الإنسان بالتفكّر في نفسه، ثمّ ذكر خلق السماوات و الأرض لأنّ الإنسان إذا تفكّر في نفسه و علم أنّه خلق من نطفة حاصلة من الغذاء الحاصل من الأسباب السماويّة و الأرضيّة جزم بأنّ الله تعالى خالق السماوات و الأرض

٩ ـ قيل أي أو لم يتفكّروا في ذواتهم و أنفسهم التي هي أقرب المخلوقات إليهم، و هم

أعلم بشؤونه والخبير بأحوالها منهم بأحوال ما صنعه، فيتدبّروا ما أودعها الله تعالى ظاهراً وباطناً من غرائب الحكم الدالّة على التدبير دون الإهمال، وأنّه لابدّ لها من انتهاء إلى وقت تعزيها الحكمة التي دبّر أمرها على الإحسان بحسبها، وعلى الإساءة مثلها حتّى تعلموا عند ذلك أنّ سائر الخلائق كذلك أمرها جارٍ على الحكمة والتدبير، وأنّه لابدّ لها من الانتهاء إلى ذلك الوقت. وبعضهم: أنّ أمر معاد الإنسان ومجازاته بما عمل من الإساءة والإحسان هو المقصود بالذات، واحتياج إلى الإثبات فجعله ذريعة إلى إثبات معاد ما عداه مع كونه معزول من الإعجاز، فعكس الأمر.

أقول: والثاني هو الأنسب بظاهر السياق، وفي معناه بعض الأقوال الأخر فتأمّل جيّداً.

وفي قوله عزّ وجلّ «إلّا بالحقّ» قول: ١ـ عن ابن عبّاس: أي إلّا بالحقّ وبالأمر والنهي، لا للباطل. ٢ـ عن الفرّاء: أي إلّا للحقّ يعني الثواب والعقاب. ٣ـ قيل: أي مصاحباً بالحقّ. ٤ـ قيل: أي بالحكمة. ٥ـ قيل: أي إنّه هو الحقّ، وللحقّ خلقهما، وهو الدلالة على توحيده وقدرته. ٦ـ قيل: أي بالعدل. ٧ـ قيل: أي إلّا بإقامة الحقّ وإجرائه.

٨ـ عن الزجّاج: أي لإقامة الحقّ، ومعناه للدلالة على الصانع والتعريض للثواب.

٩ـ قيل: أي ما خلق الله تعالى الكون كلّه من المشاهد والغيوب إلّا وهو متلبّس بالحقّ، مقترن به، وذلك أنّ جملة العالم المشهود والغيب لم يخلق عبثاً لا غاية لها وراءها بأن يوجد ويعدم ثمّ يوجد ثمّ يعدم وهكذا بغير غرض ولا غاية، وإنّما خلقها لغاية يترتّب عليها. ثمّ إنّ العالم بأجزائه ليس بدائم الوجود، غير منقطع الآخر، حتّى تتمحّض كون كلّ جزء لاحقاً بجزء سابق، وكلّ آت خلفاً لماضيه، بل هو بأجزائه فانٍ بائد، فهناك غاية مقصودة من خلقه ستظهر بعد فنائه «كلّ من عليها فانٍ» (الرّحمن: ٢٦) وهذا المعنى هو المراد بتقييد قوله «ما خلق الله السّموات والأرض وما بينهما» بقوله «وأجل مسمّى» بعد تقييده بقوله «إلّا بالحقّ».

١٠ـ قيل: أي ملابساً للحقّ أي لغاية حقيقيّة لا عبثاً لا غاية له، وإلى أجل معلوم، فلا يبقى شيء من هذا الكون إلى ما لا نهاية له، بل يفنى وينقطع وإذ كان كلّ جزء من أجزائه

و المجموع مخلوقات ذات غاية مترتبة عليها، و ليس شيء منها دائم الوجود كما أن غايته المترتبة عليه بعد انقطاع وجوده و فنائه، و هذا هو الآخرة التي ستظهر بعد فناء الدنيا و فنائها ١١ ـ قيل إن «بالحق» بمعنى بالعلم الحاصل من التفكر الذي يدل عليه

١٢ ـ قيل إن «بالحق» بمعنى بالقول الذي ترتب عليه كما في قوله تعالى «و يتفكرون في خلق السماوات و الأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا» أي علموا ظاهر الحياة الدنيا فقط أو قصروا النظر على ذلك و لم يعملوا التفكر في قلوبهم فيعلموا أنه تعالى ما خلق السماوات و الأرض و ما بينهما من المخلوقات التي هم من جملتها ملتبسة بشيء من الأشياء إلا ملتبسة بالحق و يقولوا هذا القول معترفين مخلصين أثر ما علموا.

و المراد بالحق هو الثابت الذي حق أن يثبت لا محالة لاشتماله على الحكم البالغة التي من جملتها استشهاد المكلفين بذواتها و صفاتها و أحوالها على وجود صانعها و وحدته و علمه و قدرته و اختصاصه بالمعبودية، و صحة أخباره التي من جملتها إحياؤهم بعد الفناء بالحياة الأبدية و مجازاتهم بحسب أعمالهم مما سبق عليهم من المساعي و غير درجات أفراد كل من الفريقين حسب اختلاف طبقات علومهم و عملهم المترتبة على تفاوتهم فيما نصب في المصنوعات من الآيات و الدلائل و الأمارات و المخايل.

أقول: و على التأمل أكثر المحققين، من دون منافاة بينه و بين بعض الأقوال الأخر فتدبر.

في قوله سبحانه «و أجل مسمى» أقوال: ١ ـ عن ابن عباس: أي بوقت معلوم ينتهي فيه ٢ ـ قيل أي و بوقت معلوم توفى فيه كل نفس ما كسبت ٣ ـ عن الجبائي: أي خلق الله تعالى العالم المشهود كله في وقت قدرها اقتضت المصلحة خلقها فيها و لم يخلقها عبثاً ٤ ـ قيل أي خلق ما خلق في وقت سماه لأن يخلق ذلك الشيء فيه ٥ ـ قيل أي و بتقدير أجل معين لابد أن ينتهي و هو يوم القيامة و وقت الحساب و الجزاء.

أقول: و الخامس هو الأنسب بظاهر السياق.

و في قوله عز و جل: «و إن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون» أقوال: ١ ـ قيل إن المراد بلقاء الرب هو الرجوع إليه في المعاد و يوم البعث للحساب و الجزاء، و قد عبر عنه

بالبعث، ليزداد كفرهم به عجباً فكيف يمكن أن يتدبّروا فيه ثمّ لا يستهزئوا به و لذلك أكّده بحرف التأكيد «إنّ»، تنبيهاً إلى أنّ الكفر بالمعاد من شأنه في نفسه أن لا يصدّق به ٢ ـ قيل: هذا بيان مقرّر لما قبله يبيّن أنّ كفرهم غير مقتصر على ما ذكر من الغفلة من أحوال الآخرة و الإعراض عن التفكّر فيما يرشدهم إلى معرفتها من خلق السماوات و الأرض و ما بينهما من المصنوعات بل هم منكرون جاحدون بلقاء حسابه تعالى و جزائه بالبعث، و هم القائلون بأبديّة الدنيا كالملاحدة على السهو.

٣ ـ قيل: إنّ المراد بلقاء ربّهم هو الأجل المسمّى فلا يعترفون به

أقول: و يمكن وجه من دون ترتيب بينها فتأمّل جيّداً

٩ ـ ﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم كانوا أشدّ منهم قوّة و أثاروا الأرض و عمروها أكثر ممّا عمروها و جاءتهم رسلهم بالبيّنات فما كان الله ليظلمهم و لكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾

في قوله تعالى: «و أثاروا الأرض» أقوال: ١ ـ عن مجاهد و السدّي و الكلبي: أي قلبوها و حرثوها لعمارتها و استغلّوها ٢ ـ عن الضحّاك: أي أثاروا جنبات الأرض و أنهارها و زروعها و قال الفرّاء: إثارة الأرض قلبها للزراعة فمعنى «أثاروا الأرض» حرثوها و قلبوها للزرع و الغرس أكثر ممّا حرث أهل مكّة ٣ ـ قيل: أي قلّبوا وجوه الأرض و استخرجوا خباياها ٤ ـ قيل: أي و قلبوا وجه الأرض لاستنباط المياه و استخراج المعادن و زرع البذور و غيرها لأنّ إثارة الأرض قلبها ظهراً لبطن بالحرث و للعمر ٥ ـ عن ابن عبّاس و مقاتل: أي ملكوا الأرض و عمروها ٦ ـ عن ابن عبّاس أيضاً: أي هم أشدّ طلباً للأرض و أبعد ذهاباً في السفر للكسب و التجارة ٧ ـ قيل: أي و بقوا فيها آثاراً

أقول: و المعاني متقاربة من دون ترتيب بينها فتدبّر

و في قوله سبحانه: «و عمروها أكثر ممّا عمروها» أقوال: ١ ـ عن ابن عبّاس: أي بنوا فيها أكثر ممّا بنى فيها أهل مكّة، إذ كانوا هم أكثر أموالاً و أطول أعماراً و أكثر أعداداً،

فحفروا الأنهار، وغرسوا الأشجار، وبنوا الدور، وشيّدوا القصور ثمّ تركوها وصاروا إلى القبور وإلى الهلاك والثبور ٢ـ قيل أي وعمروا الأرض أكثر ممّا عمروها من عمارة أهل مكّة إيّاها فإنّهم أهل وادٍ غير ذي زرع لا بسط لهم في غيرها، فهم أضعف حالاً فيها

٣ـ عن الضحّاك أي عاشوا في الأرض أكثر من عيش هؤلاء لعاقبتهم فيها ٤ـ قيل أي وعمروها بفنون العمارات والزراعات وغرس الأشجار والأبنية وغيرها أكثر من عمارة هؤلاء إيّاها، فإنّ أكثريّة العمارة بالكمّيّة والكيفيّة معاً

٥ـ قيل أي أقاموا بها إقامة أكثر زماناً من إقامة هؤلاء بها ٦ـ قيل أي واوجدوا فيها العمران من فنون العمارات، وأنواع الزراعات، وغرس أنواع الأشجار وغيرها ممّا يعدّ عمارة لها من الشوارع المرصّعة والمناظر المبهجة

أقول: والمعنى هو الأنسب بظاهر الإطلاق فتدبّر

وفي قوله عزّوجلّ «وجاءتهم رسلهم بالبيّنات» أقوال: ١ـ قيل أي بالمعجزات الواضحات والآيات القاهرات، والدلائل الصادرات من عند الله تعالى ٢ـ عن ابن عبّاس أي بالأمر والنهي والعلامات ٣ـ قيل أي بالمعجزات ٤ـ قيل أي بالأحكام

أقول: ولكلّ وجهة من دون تنافٍ بينها فتأمّل جيّداً

١٠ـ (ثمّ كان عاقبة الّذين أساؤا السّوأى أن كذّبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن)

في قوله تعالى: «ثمّ كان عاقبة الّذين أساؤا السّوأى» أقوال: ١ـ قيل أي ثمّ كان آخر أمر الّذين أشركوا بالله سبحانه، عذاب النار لتكذيبهم بآيات الله عزّوجلّ الّتي جاءتهم بها الرسل، و«السّوأى» ههنا جهنّم كما أنّ الحسنى الجنّة، وكانوا بآيات الله يستهزؤن ٢ـ قيل إنّ المراد بـ«السّوأى» الخلّة السيّئة والمعنى كانت السّوأى عاقبة المسيئين لأنّهم كذّبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن ٣ـ قيل أي أساؤا الإساءة

السّوآى. ٤ـقيل- أي الفعلة السّوأى ٥ـقيل أي العقوبة السّوأى وهي أسوأ العقوبات يوم القيامة وهي جهنّم

٦ـقيل أي ثمّ كان العذاب عاقبتهم أمّا في الدّنيا فهم البوار والهلاك، وأمّا في الآخرة فنار لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون وذلك لأنّهم كذّبوا بحجج الله وآياته، وهم أنبياؤه ورسله عليهم السّلام، وسخروا منهم عتوًّا وكبرًا. فعل من زرع الشّوك لم يحصد الورد، ومن استنبت الحنظل لم يقطف الثّمر، ومن سلك طريق الغيّ لم يحلّل ساحة الرّشد ٧ـقيل أي ثمّ كان عاقبة الّذين فعلوا الخطيئة العقوبة أن طبع الله على قلوبهم حتّى كذّبوا بالآيات واستهزؤوا بها ٨ـقيل أي المعاصي ساقتهم إلى الكفر بتكذيب آيات الله والاستهزاء بها

٩ـقيل أي عملوا السّيّء، والسّوآى الخبيثة والخصلة الّتي تسوء صاحبها إذا أدركها والمراد بالسّوآى العذاب والمعنى ثمّ كان سوء العذاب هو الّذي انتهى إليه أمر أولئك الّذين عملوا السّوء لم يكن لهم عاقبة غيرها لتكذيبهم بآيات الله واستهزائهم بها وعن ابن عبّاس وقتادة أي الّذين كفروا جزاؤهم عذاب النّار والمعنى ثمّ كان عاقبة الّذين أساؤوا إلى أنفسهم بالكفر بالله سبحانه، وتكذيب رسله، وارتكاب معاصيه ١٠ـعن ابن عبّاس أيضاً «أساؤوا» أي أشركوا بالله و«السّوأى» أي النّار في الآخرة

١١ـقيل إنّ المراد بالسّوأى العقوبة السّيّئة الّتي هي أسوأ العقوبات في الآخرة وهي النّار الّتي أعدّت للكافرين وكانت النّار عاقبتهم لتكذيبهم بآيات الله واستهزائهم بها، وهي ضدّ الحسنى. كما يقول الشّاعر

أنّى جزوا عامراً سوءاً بفعلهم أم كيف يجزونني السّوأى من الحسنى؟

والمعنى ثمّ كانت السّوأى عاقبة الّذين أساؤوا أي جزاهم الله سوءاً لفعلهم السّيّء كما قال جلّ وعلا «وجزاء سيّئة سيّئة مثلها» (الشّورى ٤٠) وهو من باب المقابلة وذلك لأنّ ما يجزون به، إنّما هو سوء بالنّسبة لهم لأنّه يسوؤهم ويؤذيهم أمّا الجهة الّتي توجّهت به إليهم، فهو ليس منها، وإنّما هو فعلهم، عاد إليهم، فالأمر لا يعدو أن يكون فعل، وردّ فعل! لأنّهم كذّبوا بآيات الله ولم يقفوا عند حدّ التكذيب بها، بل اتّخذوها هزءاً وسخريّة.

و منكرين للبعث و النشأة ـ كان هذا جزاءهم و هم الشقي.

١٢ـ قيل: أي إنهم حفروا الأنهار، و غرسوا الأشجار، و شيّدوا البنيان، و صاروا إلى الهلاك على أسوإ حال بالعصيان، و لم يفكروا في الموت، و إنهم يرجعون من الدنيا و يصيرون إلى الحساب و الجزاء ١٣ـ عن مجاهد: إنّ المراد بالسوأى: الإساءة، و هي جزاء المسيئين.

١٤ـ قيل: إنّ العاقبة بخلافها تختص بالثواب كقوله تعالى: «و العاقبة للمتقين» الأعراف: ١٢٨ و لكن العاقبة قد تستعمل في العقوبة نحو قوله سبحانه: «ثمّ كان عاقبة الذين» كما أنّ العقبى عادة تستعمل في الثواب، و قد تستعمل في العقاب أيضاً كقوله عزّوجلّ: «تلك عقبى الذين اتقوا و عقبى الكافرين النار» الرعد: ٣٥.

١٥ـ قيل: أي «ثمّ كان مآل أمر الذين أساؤوا السوأى» أي: إنّ الإصرار على المعاصي طريق إلى الكفر بالله سبحانه و تكذيب آياته و الاستهزاء بها.

أقول: و الأخير هو الأنسب بظاهر السياق فتدبّر جيّداً

و في قوله عزّوجلّ: «أن كذّبوا بآيات الله» أقوال: ١ـ عن ابن عباس و الكلبي: أي كذّبوا بمحمّد ﷺ و القرآن ٢ـ عن مقاتل: أي كذّبوا بالعذاب أن ينزل بهم ٣ـ عن الضحّاك: أي كذّبوا بمعجزات رسول الله ﷺ ٤ـ قيل: أي جحدوا أدلّته الواضحة و البراهين القاطعة على التوحيد و العدل و النبوّة و الإمامة و المعاد، و لم يؤمنوا بها و كانوا يسخرون منها و يستهزؤون بها ٥ـ قيل: أي كذّبوا بحجج الله تعالى و آياته و هم أنبياؤه و رسله و ما جاؤوا به قومهم من آيات الله تعالى الدالّة على المبدإ و المعاد و صدق رسالتهم من المعجزات و استهزؤوا بها، و سخروا منهم عتوّاً و كبراً و بغياً.

أقول: و التعميم هو الأنسب بظاهر الإطلاق فتأمّل جيّداً

١١ـ (الله يبدؤا الخلق ثمّ يعيده ثمّ إليه ترجعون)

في الآية الكريمة أقوال: ١ـ عن ابن عباس: أي إنه يبدؤا الخلق ـ أي المخلوقين ـ من النطفة، ثمّ يعيده يوم القيامة، ثمّ إليه تردّون أيها الناس في الدار الآخرة، فيجزيكم

تُرجعون ٢ـ قيل أي يبدئ خلق الناس، ثمّ يميتهم بعد الموت في القبر لسؤال نكير و منكر، ثمّ إليه تعالى ترجعون يوم القيامة للبعث و الحساب و الجزاء ٣ـ قيل أي الله يخلق الإنسان ابتداءً ثمّ يعيده بالبعث بعد الموت جديداً كما كان، ثمّ إليه ترجعون أيّها المنكرون للبعث و الحساب و الجزاء و تعرضون عليه، فيجازيكم يوم القيامة بأعمالكم إن خيراً فخيراً و إن شرّاً فشرّ

٤ـ قيل أي من خلق الناس ابتداءً، فلا بدّ أنّه لا يعجز عن الرجعة و الإعادة

٥ـ قيل أي الله بدأ الخلق ابتداءً فأوجدهم بعد أن لم يكونوا معدومين على وجه الاختراع ثمّ يميتهم و يفنيهم بعد وجودهم، ثمّ يعيدهم أحياء كما بدأهم أوّلاً ثمّ ترجعون إلى الله يوم القيامة ليجازيهم على أفعالهم على الطّاعات بالثّواب و على المعاصي بالعقاب ٦ـ قيل أي الله يبدأ خلق الناس ثمّ يعيدهم إذا ماتوا في زمان الرجعة ثمّ إليه ترجعون يوم القيامة ٧ـ قيل أي الله يبدأ الخلق على ما يشاء، ثمّ يعيده إذا مات على ما شاء ٨ـ قيل أي قل يبدأ الخلق كما و خلق الإنسان بدءاً فهو قادر على إعادة خلق الإنسان ثانية للحساب و الجزاء

أقول: و على الخامس أكثر المفسّرين، و في معناه بعض الأقوال الأُخر فتدبّر

١٢ـ (و يوم تقوم السّاعة يبلس المجرمون)

في قوله تعالى: «يبلس المجرمون» أقوال: ١ـ عن ابن عبّاس: أي ييأس المجرمون من كلّ خير و خلاص و نجاة من أهوال يوم القيامة و عذابه ٢ـ قيل أي ايسوا من إقامة الحجّة، و لا يأملون أن يكون لهم حجة على كفرهم و ضلالهم. قال الزّجّاج: المبلس السّاكت المنقطع حجّته فيسكت عن يأس و الابلاس أن يبقى ساكتاً يائساً متحيّراً و ذلك أنّ معبودهم ما كانوا يعبدونه في الدّنيا ... إلى ذلك من الإبلاس بعد ما كانوا يعرفون قطعاً هو الّذي سبب أكاذيبهم و به تمّ تحسّبهم، فيسكتون لانقطاع حجّتهم على ما فعلوه، و لشدّة الأهوال، و انقطاع الأخبار عنهم

٣ـ قيل أي ييئس المجرمون من أن يهتدوا، الإبلاس الناس من رحمة الله و نعمه الّتي

يفيضها على المؤمنين، و في اليأس كلّ الشفاء. ٤ـ قيل أي سكت المجرمون يوم القيامة عن اكتسبوا في الحياة الدّنيا من الجرم و الجناية ٥ـ قيل أي يتحيّرون لأنّ الإبلاس التّحيّر عند لزوم الحجّة، فالمجرم يتحيّر يومئذ لظهور دلائل آيات الآخرة التي تقع عندها على الضّرورة، فيتحيّر أعظم الحيرة

٦ـ عن مجاهد أي يفتضح المجرمون يوم القيامة لأنّ الإبلاس الفضيحة ٧ـ عن مجاهد أيضاً أي يكتئب المجرمون ٨ـ قيل أي يجمد المجرمون في أماكنهم و يخمد حواسّهم، ممّا يطلع عليهم من الأهوال و من العذاب و الهوان و البلاء، فيستولي عليهم الأهوال ممّا يرون من غضب الله سبحانه و عذابه، فيتبيّن لهم و لغيرهم إبلاسهم في ذلك اليوم ٩ـ عن قتادة أي ييأس المجرمون في النّار

أقول و لكلٍّ وجهٌ من دون تناف بينها فتدبّر جيّداً و لا تغفل

١٣ـ و لم يكن لهم من شركآئهم شفعؤا و كانوا بشركائهم كافرين،

في الآية الكريمة أقوال ١ـ عن ابن عبّاس أي و لم يكن لعبدة الأوثان من آلهتهم شفعاء أحد يشفع لهم من عذاب الله و كانوا بعبادتهم لأنفسهم جاحدين، إذ يقولون و الله ربّنا ما كنّا مشركين ٢ـ قيل أي و لم يكن لهم من شركائهم شفعاء أي ممّن أشركوهم بالله سبحانه شافعين يجيرونهم من عذاب الله كما كانوا يزعمون، و كانوا بشركائهم يكفرون بآلهتهم حيث تبرّؤا منهم أو كانوا في الدّنيا كافرين بالله سبحانه بسببهم و المعنى إنّ شفعاءهم لم يشفعوا لعبدتهم مع أنّهم سبب كفرهم و ضلالهم في الدّنيا ٣ـ قيل أي و لم يكن لهؤلاء المشركين ممّا كانوا يعبدونه من دون الله سبحانه من الآلهة المختلفة من الرّؤساء و الملائكة و الأصنام و الأوثان و ما إليها من الأخشاب و الأشجار و الأحجار شفعاؤ و كانوا هم بشركائهم كافرين فيتبرّؤن منهم و يقولون لستم بآلهة لنا، كما أنّ الشّركاء يتبرّؤن منهم

٤ـ قيل أي و لم يكن للمشركين ممّن أشركوهم بالله سبحانه في الوجود، و الإيجاد، و التّدبير و في العبادة و الربوبيّة، و لذا أضيفوا إليهم ٥ـ قيل إنّ الإضافة لإشراكهم إيّاهم بالله

سبحانه في أموالهم والمراد بالشركاء الأوثان إذ كانوا يجعلون لها نصيباً من أموالهم «ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم» النحل ٥٦. ٦ـ عن مقاتل الشركاء الملائكة ٧ـ قيل الشركاء الشياطين ٨ـ قيل الشركاء رؤساؤهم «وقالوا ربّنا إنّا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلّونا السبيلا» الأحزاب ٦٧ «اتّخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله» التوبة ٣١ لم يكن لواحد منهم شفيع فضلاً وكانوا بآلهتهم وشركائهم كافرين حيث تبرّؤوا منهم، ووقفوا على كنه أمرهم

٩ـ عن الجبائي وأبي مسلم أي لم يكن من أوثانهم التي كانوا يعبدونها شفعاء لهم شفعاء يشفع لهم عند الله، أو يدفع عنهم عذاب الله كما زعموا أنّ عبادتهم تقرّبهم إلى الله زلفى، وكان المشركون يوم القيامة يتبرّؤون من الأوثان والأصنام وينكرون كونها آلهة لهم ويقرّون بأنّ الله لا شريك له ١٠ـ قيل أي لم يكن لهؤلاء المجرمين من شركائهم الّذين كانوا يتّبعونهم على ما دعوهم إليه من الضلالة، فشاركوهم في الكفر بالله سبحانه والمعاونة على أذى رسله شفعاء يشفعون لهم عند الله، فيستنقذوهم من عذابه وكانوا شركائهم في الضلالة والمعاونة في الثبات على الشرك وبشركائهم كافرين يجحدون ولايتهم، ويتبرّؤون منهم كما قال تعالى «إذ تبرّأ الّذين اتُّبعوا من الّذين اتَّبعوا ورأوا العذاب وتقطّعت بهم الأسباب وقال الّذين اتّبعوا لو أنّ لنا كرّة فنتبرّأ منهم كما تبرّؤوا منّا» البقرة ١٦٦ـ١٦٧.

١١ـ قيل أي لم يكن لهؤلاء المعاندين عن الآخرة من يشفع لهم يومئذ، ويجيرهم من عذاب الله، وأنّ معبوداتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله قد ضلّت عنهم، وقد كانوا من قبل على يقين بأنّهم سيشفعون لهم عند الله كما قال تعالى حكاية عنهم «ويعبدون من دون الله ما لا يضرّهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله» يونس: ١٨) وكان هؤلاء المشركون من أهل الكفر والضلالة، والبغي والعدوان، والجرم والجناية بما أشركوا هؤلاء الّذين عبدوهم من دون الله فهم بعبادة تلك المعبودات لسوابق الكفر، وكانوا من الكافرين

١٢ـ قيل أي لم يكن في أوثانهم التي كانوا يعبدونها من دون الله، ويزعمون أنّها تشفع لهم عند الله من يشفع لهم، يجحدون شركائهم، وذلك اليوم، إذ حصل لهم المعرفة بالله تعالى ضرورة

١٣ـ قيل: أي و لم يكن لهم من شركائهم شفعاء من الملائكة و الأصنام و الأهوآء، و كانوا بشركائهم كافرين، أي تبرّأت منهم الملائكة، و تبرّأت عنهم الأصنام

أقول: و التعميم هو الأنسب بظاهر الاطلاق و الإضافة فافهم جيّداً

١٤ـ (و يوم تقوم السّاعة يومئذ يتفرّقون)

في قوله تعالى: «يومئذ يتفرّقون» اقوال: ١ـ قيل: أي الخلائق من الإنسان و الحيوان و الجنّ و الشّياطين، يصنّفون فرقاً قبل الحساب ٢ـ قيل: أي النّاس يصنّفون ثلاثة أصناف: أصحاب اليمين، و أصحاب الأعراف، و أصحاب الشّمال، فالأوّلون هم أهل الجنّة، و الآخرون هم أهل النّار، و أصحاب الأعراف بين الجنّة و النّار موقوفون حتّى تجيىء الشّفعاء فيشفعون لهم

٣ـ عن ابن عبّاس: أي النّاس يوم القيامة يتفرّقون بعد الحساب، ففريق في الجنّة و فريق في النّار، فيتميّز يومئذ المؤمنون من الكافرين و تزول هذه التفرّق في الوجود هو الّذي أخذه الله تعالى حجّة على ثبوت البعث و الحساب و الجزاء، فقال: «أم حسب الّذين اجترحوا السّيّئات أن نجعلهم كالّذين آمنوا ...» ٢

و من البديهي أنّ العلاقات بين النّاس في الحياة الدّنيا متنوّعة كثيرة، و مختلفة عديدة اعتقاديّة و رحميّة و اقتصاديّة و ماديّة و فطريّة و دينيّة، و جنسيّة و مهنيّة، و سياسيّة و مذهبيّة، و حربيّة و قوميّة، و ما إليها من العلاقات، أمّا في الدّار الآخرة فلا شيء من ذلك على الإطلاق حيث تذهب كلّ إنسان بعد الحساب إلى منزله: إمّا إلى الجنّة و إمّا إلى النّار و لا ثالث

ففريق منهم أهل الرّحمة و فريق هم أهل النّقمة، فريق في الجنّة و النّعمة و فريق في العذاب و المحنة، فريق في السّرور و الحبور، و فريق في السّعير و الجحيم، فريق في الثّواب، و فريق في العذاب، فريق في التّلاقي و التّوادد، و فريق في العداوة و التّفرّق

عن قتادة: أي فرقة و الله لا اجتماع بعدها. ٤ـ قيل: أي لا يلوي واحد منهم على حاجة غيره و لا يلتفت إليه، و في ذلك إشارة إلى الحثّ على الاستعداد و التّأهّب لذلك اليوم ٥ـ قيل

أي إذا كان بين هؤلاء المشركين وبين معبوداتهم ولاء، هو ولاء التابع للمتبوع ـ ثمّ كان بين بعضهم وبعض اجتماع وائتلاف على عبادة هذه المعبودات والتدافع عنها ودفع كلّ ما يمسّ بها سوء ـ فإنّه يوم القيامة ستنقطع بينهم جميعاً الأسباب، فلا يلتفت المعبودون إلى عابديهم ولا ينظر عابد إلى وجه عابد ولا معبود «لكلّ امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه» (عبس: ٣٧) «ولا يسئل حميم حميماً» (المعارج: ١٠) ٦ ـ فيه أي ويوم تجيء الساعة التي يحشر فيها الخلق إلى الله تعالى فيومئذ يتفرّق أهل الإيمان بالله وأهل الكفر به فأمّا المؤمنون فيوجه بهم ذات اليمين إلى الجنّة ونعيمها وأمّا الكافرون فيوجه بهم ذات الشمال إلى النار وجحيمها، فهنالك يتميّز الخبيث من الطيّب، والمسيء من المحسن، والمشرك من الموحّد، فيصير المؤمنون أصحاب اليمين والمشركون أصحاب الشمال فيتفرّقون تفرّقاً لا اجتماع بعده أبداً، ومن حيث أنّهم اجتمعوا في الدنيا سيتفرّقون يوم القيامة هؤلاء في أعلى علّيين وهؤلاء في أسفل سافلين فالمراد بتفرّقهم اختلافهم في الأحوال والمنازل والمحالّ، وليس المراد بالتفرّق انفصال كلّ فرد من أفراد كلّ فريق، وهذا التفرّق بعد تمام الحساب.

٧ ـ فيه أي يتفرّق المجرمون بعضهم من بعض، وكلّ فرد منهم عن الآخر، فالمراد بالتفرّق هنا انفصال كلّ فرد من المجرمين، وهكذا المؤمنون، إذ يكون كلّ فرد من الفريقين في مكان خاصّ في الجنّة وفي النار. ٨ ـ فيه إيماء إلى أنّ المراد بالتفرّق تفرّقان: أن يتفرّق المؤمنون والكافرون أوّلاً، ثمّ يتفرّق كلّ فرد من الفريقين عن الآخر، إذ يكون لكلّ فرد مكان خاصّ في الجنّة وفي النار.

أقول: وعلى الثالث أكثر المفسّرين، وفي مفاد بعض الأقوال الأخر فتأمّل جيّداً.

١٥ ـ ﴿فأمّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون﴾

في قوله تعالى: «في روضة يحبرون» أقوال: ١ ـ عن مجاهد ومقاتل وقتادة: أي فهم في بستان من بساتين الجنّة ينعّمون ويكرمون. ٢ ـ عن ابن عبّاس والضحّاك: أي فالذين صدقوا بالله ورسوله وأدّوا الفرائض واجتنبوا ما نهاهم عنه ربّهم فهم في روضة لا يقدر

قدرها أحد يكرمون بالتحف. ٣ ـ قيل: أي يسَرّ عليهم كثر النعم ومنه قيل كلّ حبرة تتبعها عبرة. ٤ ـ عن أبي مالك: أي في بساتين الجنة يعظون. ٥ ـ عن السدي: الروضة البستان المتناهي منظراً وطيباً أو هم متنعّمون فيها فهم يفرحون حتى ظهر عليهم حبار نعمتهم. الحبر هو الأثر المستحسن والفرح والسرور.

٦ ـ عن النبي: أي يسرّون سروراً يتبيّن أثره عليهم ومنه الحبرة وهي المسرّة ومنه الحبر العالم، والتحبير التحسين الذي يسرّ به وإنما خصّ ذكر الروضة هنا لأنه لم يكن عند العرب شيء أحسن منظراً ولا أطيب ريحاً من الرياض كما قال الشاعر:

ما روضة من رياض الحزن معشبة ... خضراء جاد عليها مسبل هطل
يضاحك الشمس منها كوكب شرق ... مؤزّر بعميم النبت مكتهل
يوماً بأطيب منها نشر رائحة ... ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل

والحبرة هي السرور والغبطة في الصحاح

فالحمد لله الذي أعطى الحبر ... موالي الحق إن المولى شكر

والروضة عند العرب كلّ أرض ذات نبات وماء، وفي المثل أحسن من بيضة في روضة يريدون بيضة النعامة

٧ ـ قيل الحبر والحبور السرور والغبطة والرضوان والروضة الجنة والمعنى فأمّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لا يغرّهم هذا اليوم ولا يعترّهم التفرّق بذلك مع كلّ مؤمن عمله الذي يؤنسه ويذهب وحشته، ويلازمه طيبه وأمّا ما يرى من ثمرات الإيمان والأعمال الصالحة التي بين يديه، فالمؤمنون يحبرون يومئذ أكرم منزل، إنهم في روضات الجنات، ينعمون بما أعدّ الله تعالى فيها من موائد فضله وإحسانه

٨ ـ عن الزجاج: أي يحسنون إليهم، يقال للعالم حبر، وللمداد حبر لأنه يحسن به الكتابة. ٩ ـ عن مجاهد أيضاً ويحيى ابن أبي كثير: هو لذة السماع في الجنة أي يسمعون الأغاني وأصوات المغنيات. ١٠ ـ قيل: أي فهم في أرض ذات أزهار وأنهار وأشجار يسرّون سروراً تهلّلت له وجوههم ويتنعّمون ويكرمون بالتحف. ١١ ـ عن أبي بكر بن عيّاش: أي يتوّجون على رؤوسهم. ١٢ ـ عن ابن كيسان: أي يحلّون

أقول: و على الأوّل أكثر المفسّرين، و في معناه و لوازم معناه الأقوال الأُخر فتأمّل جيّداً

١٦ـ (وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ لِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ)

في قوله تعالى: «و أمّا الّذين كفروا و كذّبوا بآياتنا و لقاء الآخرة» أقوال: ١ـ عن ابن عبّاس: أي و أمّا الّذين كفروا بالله و كذّبوا محمّداً ﷺ و القرآن و بالبعث بعد الموت ٢ـ قيل: أي و أمّا الّذين كفروا بالله و كذّبوا محمّداً ﷺ و بالبعث و الحساب و الجزاء ٣ـ قيل: أي و أمّا الّذين كفروا بالله و كذّبوا بالقرآن، و بيوم القيامة ٤ـ قيل: أي و أمّا الّذين جحدوا توحيد الله و كذّبوا رسله، و أنكروا البعث بعد الموت و النشور للدّار الآخرة ٥ـ قيل: أي و أمّا الّذين كفروا بالله و رسله، و كذّبوا بالآيات الدّالة على المبدإ و المعاد و الرّسالة، و بالبعث يوم القيامة

أقول: و على الأوّل أكثر المفسّرين و هو الأنسب بظاهر السّياق فتدبّر

و في قوله سبحانه: «في العذاب محضرون» أقوال: ١ـ قيل: أي مساقون إلى نار جهنّم سوقاً، و يدفعون إلى عذابها دفعاً و الإحضار هو إحضار المرء على الحضور فهم بسبب كفرهم و تكذيبهم يحضرهم الله تعالى و يجمعهم فيها ليذوقوا العذاب الّذي كانوا في الدّنيا يكذّبون ٢ـ قيل: أي مقرّبون ٣ـ قيل: أي مجتمعون هم و آلهتهم في عذاب جهنّم ٤ـ قيل: أي هم مدخلون في عذاب الله، و لا يغيبون عنه، و لا يخفّف عنهم فهم في بوار و هلاك و عذاب دائم، فالمراد دوام عذابهم

٥ـ قيل: إنّ الله تعالى يخرج الخلائق يوم الحشر من الأجداث، و يجمعهم لما يريد من مسائلهم كما قال: «إن كانت إلّا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون» يس: ٥٣). ٦ـ قيل: أي فيه محصلون ٧ـ قيل: أي في العذاب مغموسون ٨ـ قيل: أي فيه مجموعون ٩ـ عن ابن عبّاس: أي في النّار معذّبون ١٠ـ عن ابن شجرة: أي في العذاب نازلون و منه قوله تعالى: «إذا حضر أحدكم الموت» البقرة: ١٨٠) أي نزل به

أقول: و على الأوّل أكثر المفسّرين من دون خلاف فيه، بل أكثر الأقوال الأُخر فتأمّل جيّداً

١٧ـ(فسبحان الله حين تمسون و حين تصبحون)

في الآية الكريمة قولان: ١ـ قيل: أمر من الله تعالى عباده بتنزيهه سبحانه و تقديسه و لا يجوز عليه من صفات النقص، و ما في عظمته و ما يختصّ به من صفات الجلال و الكمال و الثناء عليه مساءً و صباحاً أي سبّحوا الله و عظّموه و اشكروا و حمدوه و اذكروه بالدّعاء و العبادة

و إنّ الخطاب دعوة للناس جميعاً مؤمنين و كافرين، فأمّا المؤمنون فقد أوتوا الجنّة و نعيمها، و أمّا الكافرون فقد عذّبوا بالنار، و عليه فالمؤمنون يسبّحون الله على ما أعطاهم من رحمته، و الكافرون يسبّحون بما يدفع عنهم ما أراهم من عذابه

لأنّ المساء الدخول في المساء، و هو مجيء ظلام الليل، و الإصباح نقيضه و هو الدخول في الصباح و هو مجيء ضوء النهار

و قوله تعالى: «حين تمسون» أي تدخلون في المساء «و حين تصبحون» أي تدخلون في الصباح فالمعنى نزّهوا الله حين الصلاة وقت المساء حين يبدأ الليل و ظلامه، و وقت الصباح حين إسفار النهار و ضيائه

من كان صبحه لله بورك له في يومه، و من كان مساؤه بالله بورك له في ليله

و إنّ صباحاً نلتقي في مسائه صباح على قلب الغريب حبيب

شتّان بين عبد صباحه مفتتح بعبادته، و مساؤه مختتم بطاعته، و بين عبد صباحه مفتتح بمشاهدته، و رواحه مفتتح بعزّ قربته

٢ـ عن مجاهد و ابن عبّاس و سعيد بن جبير و الضحّاك و قتادة: إنّ المراد بـ«حين تمسون» صلاة المغرب و العشاء، و «حين تصبحون» صلاة الفجر فالمعنى صلّوا لله تعالى صلاتي المغرب و العشاء و صلاة الفجر

هذا بناءً على أنّ الآية الكريمة نازلة في بيان أوقات الصلوات الخمس، و إرادة الحقّ من

وليتمكّن من تجديد العهد في كلّ يوم و ليلة خمس مرّات فيقف على بساط المناجاة، و يستدرك ما فاته فيما بين الصّلاتين من حوادث الزّلّات... و في تسمية الصّلاة بالتّسبيح لما تضمّنها من ذكر التسبيح من الرّكوع و السّجود، مع أنّ التّسبيح مأخوذ من السّبحة و هي الصّلاة و منه قول رسول الله ﷺ: «تكون لهم سبحة يوم القيامة» أي صلاة

٣ـ قيل: إنّ المراد بالتّسبيح الثّناء بالتّنزيه منه تعالى لا من غيره حتّى يكون المعنى فقولوا سبحان الله و هي خطاب تعليم والمعنى قولوا ذلك، الأمر في هذه التّسبيح لله مرّة حينما تحلّون معاشر النّاس في مساء، و حينما تحضرون في صباح ٤ـ قيل: خطاب للمؤمنين بالأمر بالتّسبيح في تلك الأوقات

أقول: و الأوّل هو الأنسب بظاهر السّياق من دون تنافٍ بينه و بين بعض الأقوال الأخر، فتأمّل جيّداً

١٨ـ(و له الحمد في السّموات و الأرض و عشيّاً و حين تظهرون)

في قوله تعالى: «و له الحمد في السّموات و الأرض» أقوال: ١ـ قيل: و لله وحده الالوهيّة في السّموات و الأرض كقوله تعالى: «و هو الّذي في السّماء إله و في الأرض إله» الزخرف: ٨٤ ٢ـ قيل: أي له الحمد على أهل السّموات و أهل الأرض لأنّهم في نعمه فيجب عليهم الحمد و الثّناء له تعالى وحده ٣ـ قيل: إنّ المراد بالتّحميد هو إنشاء الثّناء و حمد منه تعالى لا من غيره كقوله: «الحمد لله الّذي أنزل على عبده الكتاب» الكهف: ١

٤ـ قيل: تقديره: و قولوا: الحمد لله ٥ـ قيل: إنّ جملة قوله تعالى: «و له الحمد» معترضة بين المعطوف و المعطوف عليه، تنبيهاً على أنّ منافع تسبيحهم كلّها ترجع إلى أنفسهم لا إلى الله سبحانه، فيجب عليهم أن يحمدوه إذ سبّحوه لأجل نعمة هدايتهم إلى التّوفيق للإيمان و صالح الأعمال كقوله تعالى: «يمنّون عليك أن أسلموا قل لا تمنّوا عليّ إسلامكم بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان» الحجرات: ١٧ و أنّ الحمد لله تعالى من نوع تعظيم الله جلّ وعلا و الحضّ على عبادته و دوام نعمته

و قوله تعالى: «و عشيّاً و حين تظهرون» معطوفان على محلّ «حين تمسون» لا على

قوله «في السموات والأرض» حتى يختص المساء والصباح بالتسبيح والسموات والأرض والعشيّ والظهيرة بالتحميد بل الأوقات وما فيها للتسبيح، والأمكنة وما فيها للتحميد

ففي السياق إشارة إلى أنّ ما في السموات والأرض من خلق وأمر هو كلّه لله وحده يستدعي بحسنه حمداً وثناء لله تعالى، وأنّ للإنسان على مرّ الدهور وتغيّر الأزمنة والأوقات من الشرك والعصيان ما ينزّه عنه سبحانه وتعالى

نعم ههنا اعتبار آخر يتداخل فيه التسبيح والتحميد وأنّ الأزمنة والأوقات مع تغيّرها وتصرّمها من جملة ما في السموات والأرض فهي بوجودها مسبّح لله تعالى، بل كلّ ما في السموات والأرض بفقرها الذاتي وحاجتها في وجودها وإدامة حياتها وذلّتها دونه، وبعضها بالنسبة إلى كماله تعالى مسبّحة كما قال «وإن من شيء إلاّ يسبّح بحمده» (الإسراء: ٤٤) ولكن هذا الاعتبار غير منظور إليه فيما نحن فيه من هاتين الآيتين الكريمتين

فالله تعالى هو المحمود بذاته من جميع خلقه بكونه في سكان السموات من الملائكة وفي الأرض من أصناف أهلها

٦ـ قيل: أي الصلاة له تعالى لاختصاصها بقراءة الحمد ٧ـ عن ابن عباس: أي له تعالى الشكر و الطاعة على أهل السموات والأرض

أقول: وعلى الخامس أكثر المفسّرين

وفي قوله عزّ وجلّ «وعشيّاً وحين تظهرون» أقوال: عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد «وعشيّاً» أي صلاة العصر، «وحين تظهرون» أي صلاة الظهر أي في حين تدخلون في الظهيرة وقيل: وقد خصّ صلاة الليل باسم التسبيح، وصلاة النهار باسم الحمد لأنّ الإنسان في النهار متقلّب في أحوال توجب الحمد لله عليها، وفي الليل على أحوال توجب تنزيه الله تعالى من الأسواء فيها فلذلك صار الحمد في النهار أخصّ، فسمّيت به صلاة النهار، والتسبيح بالليل أخصّ، فسمّيت به صلاة الليل

٢ـ قيل: وقت العشيّ حين اشتداد الظلام، ووقت الظهيرة حين اشتداد الضياء كما قال تعالى «والنهار إذا جلاّها والليل إذا يغشاها» (الشمس ٣ـ ٤) وقال «والليل إذا يغشى و

الظّهر» بدعليّ «النصر ۱-۲ و العشيّة من صلاة المغرب إلى العتمة، و «حين تظهرون» أي حين تدخلون في الظّهيرة و هي نصف النّهار، و إنّما خصّ تعالى العشيّ و الإظهار في الذّكر بالحمد و إن كان الحمد واجباً في جميع الأوقات لأنّها أحوال تذكر بإحسان الله، و ذلك أنّ انقضاء إحسان أوّل إلى إحسان يقتضي الحمد عند تمام الإحسان و الأخذ في الآخر كما قال تعالى: «و آخر دعواهم أن الحمد لله ربّ العالمين» يونس ۱۰

۳- قيل العشيّ و العشيّة من زوال الشّمس إلى غروبها لقول الشّاعر

غدوت غدوة سحراً بليل عشيّاً بعد ما انتصف النّهار

و قيل العشيّ هي المساء، و العشيّة أوّل الظّلام بعد مغيب الشّمس، و العشاء آخر النّهار عند ميل الشّمس للغروب و هو مأخوذ من عشى العين، و هو نقص النّور من النّاظر كنقص نور الشّمس ۴- قيل أي وقت العشيّة و هي من بعد الظّهر إلى المغرب

أقول: و على الأوّل أكثر المفسّرين، و في معناه الرّابع

۱۹- (يخرج الحيّ من الميّت و يخرج الميّت من الحيّ و يحيي الأرض بعد موتها و كذلك تخرجون)

في قوله تعالى «يخرج الحيّ من الميّت و يخرج الميّت من الحيّ» أقوال: ۱- عن مجاهد و الحسن و قتادة: أي يخرج المؤمن الحيّ من الكافر الميّت، و يخرج الكافر الميّت من المؤمن الحيّ

قال الله تعالى: «أو من كان ميتاً فأحييناه و جعلنا له نوراً يمشي به في النّاس» الأنعام: ۱۲۲)

۲- عن ابن عبّاس و ابن مسعود: أي يخرج الإنسان و هو الحيّ من النّطفة و هي الميتة و يخرج الميتة و هي النّطفة من الإنسان و هو الحيّ

فالله تعالى قادر على خلق الأشياء المتقابلة بعضها من بعض، فيخرج الإنسان من النّطفة، و الطّائر من البيضة كما يفعل ضدّ هذا، فيخرج النّطفة من الإنسان، و البيضة من الطّائر، و في هذا دلالة على كمال قدرته و بديع صنعه، و كون البيضة و النّطفة كائناً حيّاً

لا تعرفه العرب و لا تعترف به

٣ـ قيل أي و تظهرون وقتاً من بين الوقتين، وقت الغسق من بين وقت البسط و البسط من بين وقت القبض ٤ـ قيل أي يخرج ذوي الحياة من الأرض الميتة ثم يبدّل ذوي الحياة أرضاً ميتة ٥ـ عن ابن عبّاس أيضاً أي يخرج النسمة و الدواب من النطفة و الطير من البيضة و النخل من النواة و يخرج النطفة من النسمة و الدواب و البيض من الطير و النواة من النخيل ٦ـ قيل أي يعقب الحياة بالموت و بالعكس ٧ـ قيل أي يخرج العالم من الجاهل، و يخرج الجاهل من العالم

٨ـ قيل إنّ المراد من يخرج الحيّ من الميت و الميت من الحيّ هو البعث و النشر بقرينة قوله تعالى «و كذلك تخرجون» أي من القبور فالمعنى أنّه بعد النطفة نسبه الإعادة و كذلك ردّ الأرض إلى حالة الخضرة، فالخضرة بعد ذبولها فالمعنى يخرج الإنسان من سنة الموت و هو النوم عند الإصباح، إلى سنة الوجود و هو اليقظة، ثم يخرج الإنسان عند العشاء من اليقظة إلى النوم ٩ـ قيل أي يخرج الإنسان بالصلاة و التسبيح و التحميد من موت الغفلة إلى حياته و من حياته الغفلة إلى موته

أقول: و على الثاني أكثر المفسرين، و البقية من باب الجري و الانطباق من دون نصّ فيها فتأمّل جيداً و اغتنم جداً

و في قوله سبحانه «و يحيي الأرض بعد موتها» أقوال: ١ـ قيل أي يحيي الله تعالى الأرض بالنبات بعد جدوبتها و يخرج زرعها بعد خرابها و ليس المراد من إحياء الأرض حقيقة معناه كما لا يكون الإنسان أسد حقيقة إذ قيل فلان أسد فإنّ المراد هناك هو التشبيه و الاستعارة، فكذلك إحياء الأرض بعد موتها، كأنّها حيّة بالنبات و الزروع التي فيها فحياة الأرض و موتها مجازان ٢ـ قيل أي يحيي الله الأرض بالمطر، و يأتي بالرّبيع بعد وحشة الشتاء، و إحياء الأرض بعد موتها هو انتعاش الأرض و ابتهاجها بالنبات في الربيع و الصيف بعد جمودها في الخريف و الشتاء

٣ـ قيل أي ينبت النبات من الأرض بالمطر بعد يبسها ٤ـ عن ابن عبّاس أي و يحيي الأرض بعد قحطها ٥ـ قيل أي يحيي أرض النفس بنبات الهيئات الفاضلة و الملكات

الحسنة بعد موتها بالملكات الرّذيلة و الهيئات الحسنة و بالعكس

أقول: و على الأوّل جمهور المحقّقين و في معناه كثير الأقوال الأُخر

و في قوله عزّوجلّ: «و كذلك تخرجون» أقوال: ١ـ قيل: أي مثل ما يخرج النّبات من الأرض كذلك يخرجكم الله من قبوركم بالحياة جديداً بعد أن لم تكن كذلك، كذلك تخرجون إلى دار الدّنيا بعد أن لم تكونوا، و يعيدكم من بعد موتكم بعد أن كنتم قد أعدمكم الله فيها فيوم القيامة يحيي الخلائق بعد الموت فلا يشقّ عليه ذلك كما لا يشقّ عليه هذا

٢ـ قيل: أي و يخرجكم بالمطر الّذي يخرج من شجر المستحق كالّذي تحيون به

٣ـ قيل: أي ثمّ يحيي الأرض بإخراج النّبات بعد همودها كذلك يخرجكم بالبعث من بعد موتكم فيخرجكم أحياء من قبوركم إلى موقف الحساب

أقول: و على الأوّل أكثر المفسّرين و في معناه الثّالث

٢٠ـ﴿و من آياته أن خلقكم من تراب ثمّ إذا أنتم بشر تنتشرون﴾

في الآية الكريمة أقوال: ١ـ عن مقاتل و قتادة: أي و من علامات الرّبّ أنّه واحد، و إن لم يروه، و عرفوا توحيده بصنعه أن خلق أصلكم و أباكم آدم من تراب، و أنتم ولده، ثمّ إذا أنتم نسله و ذرّيّته من بعده بشر من لحم و دم منتشرون في أطراف الأرض، و متقلّبون على ظهرها و تتفرّقون في أكنافها

فخلق الله تعالى آدم من التّراب ثمّ جعل من آدم زوجته و ذرّيّته، فذكّرهم نسبتهم لئلّا يفتخروا بآبائهم و طبائعهم المختلفة، و يقال: الأصل تربة، و لكنّ العبرة بالتّربية لا بالتّربة فهلّا ذلكم دلّ على أنّه لا يقدر على ذلك غيره تعالى؟ و أنّه تعالى وحده هو الّذي يستحقّ التّسبيح و التّحميد و العبادة دون غيره من جميع خلقه

٢ـ قيل: إنّ المراد بالخلق من تراب هو إنهاء خلقة الإنسان إلى الأرض، فإنّ مراتب تكوّن الإنسان من ماء مهين و نطفة أو من مضغة أو علقة أو غيرها مركّبات أرضيّة تنتهي إلى العناصر الأرضيّة. و معنى الآية الكريمة: و من الآيات الدّالّة على وحدانيّة الله جلّ و علا في ربوبيّته و ألوهيّته، على جلاله و عظمته، على علمه و حكمته، و على تدبيره و

قدرته أن خلقكم معشر الناس من تركيبات أرضية المترقّبة منها كينونة أرضية ميتة أخرى مثلها، لكن بعد خلقكم دفعة إذا كم تصيرون بشراً ذوي حياة و شعور عقليّ تنتشرون في الأرض في سبيل تدبير أمر الحياة.

فقوله تعالى «ثمّ إذا أنتم بشر تنتشرون» في معنى قوله: «ثمّ أنشأناه خلقاً آخر» المؤمنون (١٤) و إنّ «ثمّ» للتراخي الزمني أي بعد تلك الأطوار التي قصّها علينا في موضع آخر من كونها نطفة، ثمّ علقة، ثمّ مضغة، ثمّ عظماً مجرّداً، ثمّ عظماً مكسوّاً لحماً، فاجأ البشريّة بالإنتشار أي كونكم بما تصيرون بشراً بعد الأطوار كلّها.

٣ـ قيل: أي و من حججه الدالّة على أنّه القادر على ما يشاء من إنشاء و إفناء، و إيجاد و إعدام، و من إخراج الحيّ من الميت، و يخرج الميت من الحيّ، و من إحياء الأرض بعد موتها، و من إخراج الناس من قبورهم بعد موتهم، أن خلقكم من تراب بتغذيتكم بما تطعمون لحوم الحيوان و ألبانها و أسمانها، و إنّما من النبات، و الحيوان غذاؤه النبات، و النبات من التراب، فإنّ النواة لا تصير شجرة إلّا بالتراب الذي تختمر به حتى تنبت فتحمل صالحاً للتغذية، ثمّ بعد إخراجكم منه إذا أنتم بشر تنتشرون في الأرض تتصرّفون فيها في أغراضكم المختلفة و أسفاركم البعيدة، تكدحون و تغدون تحصيل أرزاقكم من فضل ربّكم، و واسع نعمه عليكم.

٤ـ قيل: أي و من آياته أن خلقكم معاشر الناس كلّكم من تراب، و ذلك أنّ التراب أبعد الأشياء عن درجة الأحياء بكثافته و برودته و يبسه، و الحيّ بالحرارة و الرطوبة و بكدورته، و الروح نيّر، و لطفه و خفّة الأرواح و لسكونه، و الحيّ متحرّك حسّاس و هذا لا ينافي قوله عزّ و جلّ «خلق من الماء بشراً» الفرقان: ٥٤، لأنّه أراد الأصل الثاني الذي هو النطفة، أو أراد أنّ أصل البشر في الظاهر هو التراب، و أمّا الماء فللامتزاج، و الهواء فللاستمساك كالزقّ المنفوخ يقوم بالهواء. و «ثمّ» لتبعيد الرتبة، و «إذا» للمفاجأة أي ثمّ فاجأتم وقت كونكم بشراً.

و فيه إشارة إلى مسألة حِكَميّة و هي أنّ الله تعالى خلق أوّلاً إنساناً فيتبعه أنّه حيوان تامّ، لا أنّه خلق أوّلاً حيواناً ثمّ يجعله إنساناً، فخلق الأنواع هو المراد الأوّل ثمّ يكون

الأنواع فيها الأجناس بتلك الإرادة الاولى

و قوله سبحانه «بشراً» يشير إلى القوّة المدركة الّتي تميّز بها البشر، و بها امتاز عن غيره من أنواع الحيوان

و قوله عزّوجلّ: «تنتشرون» يشير إلى القوّة المتحرّكة الّتي بها الحيوان حيوان، فكأنّه أشار إلى فصله و جنسه، و كان الاولى تقديم الجنس على الفصل إلّا أنّه عكس الترتيب لأنّه كأنّه في مقام التعجّب عن مختصّ بالإنسان، فإنّ الحيوان المنتشر من التراب الساكن عجيب أيضاً و الانتشار ربّما يعني التردّد في الحوائج كقوله تعالى: «فانتشروا في الأرض و ابتغوا من فضل الله» الجمعة ١٠ و إنّما يعني البثّ و التفريق كقوله سبحانه: «و بثّ منهما رجالاً كثيراً و نساءً» النساء ١

٥ـ قيل أي و من آياته الظاهرة الدالّة على بعثكم نحو دلالة أوضح من دلالة ما سبق حيث إنّ دلالة بدء خلق الإنسان على إعادته أظهر من دلالة إخراج الحيّ من الميّت، و إخراج الميّت من الحيّ، و من دلالة إحياء الأرض بعد موتها على بعثها أن خلقكم معاشر الناس في ضمن خلق آدم ﴿ع﴾ حيث إنّ خلقه ﴿ع﴾ منطو على خلق ذرّيّته انطواءً إجماليّاً من تراب لم يشمّ رائحة الحياة قطّ، و لا مناسبة بينه و بين ما أنتم عليه في ذاتكم و صفاتكم ثمّ إذا أنتم بشر في الأرض تتصرّفون في أغراضكم و أسفاركم

٦ـ قيل أي و من آياته أن خلقكم من تراب في هذه الحال بعد تكوّنكم من النبات، و النبات يتغذّى من التراب و الهواء و الماء، و أكثر المواد المركّبة فيكم مخلوط مركّب من التراب و الماء و عناصر أخرى، ثمّ بعد خلقكم و بعد كونكم بشراً تنتشرون في أقطار الأرض

٧ـ عن ابن عبّاس أي و من علامات وحدانيّته و قدرته و نبوّة رسوله ﴿ص﴾ أن خلقكم من آدم، و آدم من تراب و أنتم معاشر الناس أولاده، ثمّ إذا أنتم تتمتّعون على وجه الأرض

٨ـ قيل أي و من آياته أن خلقكم من تراب كما خلق آدم ﴿ع﴾ منه حيث إنّ كلّ إنسان من عناصره الترابيّة ٩ـ قيل أي خلقكم معاشر الناس من تراب حيث إنّكم

خُلقهم من ماء مهين لقوله تعالى «ألم يك نطفة من منيّ يمنى» (القيامة ٣٧) و قوله سبحانه «ألم نخلقكم من ماء مهين» (المرسلات ٢٠) و هذا الماء من الغذاء، و الغذاء من الغذاء، و الغذاء يرجع جملتها إلى النّبات، و النّبات من الأرض، فخلق النّاس كلّهم من تراب باعتبار مبدء الحياة و هو أصلها و أساسها

أقول: و يمكن وجه مع ملاحظة معقب في معنى بأدنى تدبّر حتماً و لا نغفل

٢١ـ (و من آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها و جعل بينكم مودّة و رحمة إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون)

في قوله تعالى «و من آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً» أقوال: ١ـ عن قتادة: أي خلقت حوّاء من ضلع آدم عليه السلام. و المعنى: و من حجج الله تعالى و أدلّته على المبدء و المعاد أن خلق لأبيكم آدم من نفسه زوجة ليسكن إليها، إذ خلق حوّاء من ضلع من أضلاع آدم، فخلقت حوّاء من ضلع آدم، و سائر النّاس من نطف الرّجال و النّساء، فكأنّه قال: أن خلق لأجلكم من أنفسكم أزواجاً، فإنّ خلق أصل أزواجكم حوّاء من ضلع آدم عليه السلام فهنّ مخلوقهنّ من أنفسكم، و«من» تبعيضيّة، و الأنفس جمع النفس بمعنى الحقيقة و قيل: النّفس هي الأصل، كذلك، ثمّ تستعمل على وجه التأكيد نحو قولهم: رأيت زيداً نفسه و قد يعبّر بها عن الرّوح و غيرها

٢ـ عن أبي مسلم: أي خلق لكم من شكل أنفسكم و جنسها أزواجاً لا من جنس آخر، و«من» ابتدائيّة، و الأنفس مجاز عن الجنس، و إنّ الشكل إلى الشّكل أميل، و إنّ الجنس إلى الجنس أسكن، و هذا ردّ المثل في الأمر، و ربط الشّكل بالشّكل، لما بين الإنس من جنس واحد من الإناث و الذّكور، و ما بين خلق الجنسين من التنافر

٣ـ عن الجبّائي و البلخي: أي خلق أزواجكم من نطفكم و يدلّ على ذلك قوله تعالى «هو الّذي خلقكم من نفس واحدة و جعل منها زوجها ليسكن إليها فلمّا تغشّاها حملت حملاً خفيفاً» (الأعراف ١٨٩) أنّه يريد بعض الخلق دون بعض. و الزّوجة: هي المرأة الّتي وقع عليها عقد النّكاح، و الزّوج هو الرّجل الّذي وقع له عقد النكاح و قد يقال للمرأة

أيضاً زوج إذ لم تكن للإنسان، لأنهما عضوان في عقد النكاح عليهما. قال الله تعالى «ليسكن إليها و [illegible]» [illegible] ٣٥

٤ـ قيل: أي و من علامات وحدانيته تعالى و قدرته على البعث و الإعادة بعد موتكم أن خلق لأجلكم و لنفعكم من جنسكم [illegible] و [illegible] واحد من الرجل و المرأة مجهز بجهاز التناسل [illegible] بالآخر، و [illegible] أمر التوالد و التناسل، فكلّ واحد منهما ناقص في نفسه مفتقر إلى الآخر، و يحصل من المجموع واحد تام له أن يلد و ينسل و [illegible] الافتقار يتحرك الواحد منهما إلى الآخر حتى إذا اتصل به سكن إليه لأن كلّ ناقص مشتاق إلى كماله و كلّ مفتقر مائل إلى ما يزيل فقره و هذا هو الشبق المودع في كلّ من هذين القرينين

٥ـ قيل: أي أن خلق لكم من جنسكم نساء. ٦ـ عن ابن عباس: أي أن خلق لكم من أنفسكم آدمياً مثلكم. ٧ـ قيل: أي أن خلق لكم من أنفسكم نساء لتسكنوا إليهن من نطف الرجال، و من جنسكم، تبادلكم عطفاً بعطف. ٨ـ قيل: أي و من آياته الدالّة على البعث و الحساب و الجزاء بعد الموت أن خلق لأجلكم من أنفسكم أزواجاً أي تولد الأزواج منكم بأن الذكر و الأنثى يولدان منكم. و قيل: أي [illegible] من أحوال أنفسكم

أقول: و على الثاني جمهور المفسرين و في معناه بعض الأقوال الأخر فتأمل جيداً

و في قوله سبحانه «لتسكنوا إليها» أقوال: ١ـ قيل: أي لتميلوا إليها و تألفوا بها يقال: سكن إليه إذا مال إليه لأن الجنسية علة للضم و [illegible] من دواعي النظام و التعارف، كما أن المخالفة و الاختلاف من أسباب التفرق و التنافر فمن الإنس من جنس واحد ألف و سكون، و [illegible] التنافر و التفرق. ٢ـ قيل: أي لتسكنوا إليها سكون أنس و طمأنينة بأن الزوجة من النفس إذ هي من جنسها و من شكلها فهو أقرب إلى الألفة و الميل بالمودة منها لو كانت من غير جنسها و شكلها، فجعل سكون البعض إلى البعض و هذا في الأشباح و الصور، و أما الأرواح فصحبتها للأشباح كثرة الأوضاع، و أما الأسرار فمتفقة لا تساكن الأطلال، و لا تتدنس بالأغلال

٣ـ قيل: أي لتستقر قلوبكم عندها لأن الرجل إذا طاف البلدان لا يستقر قلبه، فإذا

رجع إلى أهله، اطمأنّ و سكن. ٤ـ قيل: أي لتألفوها. ٥ـ عن ابن عبّاس: أي ليسكن الرّجل إلى زوجته.

أقول: و لكلٍّ وجهٌ، مع أنّ المعاني متقاربة و المآل واحد فتدبّر.

و في قوله عزّوجلّ: «و جعل بينكم مودّة و رحمة» أقوال: ١ـ عن ابن عبّاس و مجاهد و الحسن و عكرمة: أي و جعل بينكم جماعاً و ولداً بواسطة الزّواج، فالمودّة كناية عن الجماع، و الرّحمة كناية عن الولد، و المعنى: و جعل بين الأزواج، إمّا على تغليب الرّجال على النّساء في الخطاب كأكثر الخطابات في القرآن الكريم، أو على حذف طرف معطوف على الطّرف المذكور أي جعل بينكم و بينهنّ كما في قوله تعالى: «لانفرّق بين أحد من رسله» (البقرة: ٢٨٥) أو بين أفراد الجنس أو بين الرّجال و النّساء.

٢ـ قيل: المودّة هي حالة حاجة نفسه إليه، و الرّحمة هي حالة حاجة صاحبه إليه، و قد تفضي المودّة إلى مجرّد الرّحمة، و ذلك إذا خرجت عن محلّ الشّهوة بكبر أو مرض أو خرج عن إمكان رعاية حقّها بكبر أو زمانة أو فقر. ٣ـ قيل: أي جعل بينكم محبّة و رقّة تتعطّف إذ كلّ واحد من الزّوجين يرقّ على الآخر رقّة لعطف عليه بما جعله الله بين كلّ واحد لصاحبه ليتمّ سروره. ٤ـ قيل: المودّة كأنّها الحبّ الظّاهر أثره في مقام العمل، فنسبة المودّة إلى الحبّ كنسبة الخضوع الظّاهر أثره في مقام العمل إلى الخشوع الّذي هو نوع تأثّر نفسانيّ عن العظمة و الكبرياء. و أمّا الرّحمة فنوع تأثّر نفسانيّ عن مشاهدة حرمان المحروم عن الكمال، و حاجته إلى رفع نقيصته تدعو الرّاحم إلى إنجائه من الحرمان و رفع نقصه.

و من أجلى موارد المودّة و الرّحمة المجتمع المنزلي، فإنّ الزّوجين متلازمان بالمودّة و الرّحمة و هما معاً و خاصّة الزّوجة يرحمان الصّغار من الأولاد لما يريان ضعفهم و عجزهم عن القيام بواجب العمل لرفع الحوائج الحيويّة، فيقومان بواجب العمل في حفظهم و حراستهم و تغذيتهم و كسوتهم و إيوائهم و تربيتهم، و لو لا هذه الرّحمة لانقطع النّسل و لم يعش النّوع قطّ. و نظير هذه المودّة و الرّحمة مشهود في المجتمع الكبير المدنيّ بين أفراد المجتمع، فالواحد منهم يأنس بغيره بالمودّة و يرحم المساكين و العجزة و الضّعفاء الّذين

لايستطيعون القيام بواجبات الحياة

٥ ـ قيل: أي جعل الله تعالى بينكم الرّجال والنّساء، التوادّ بسبب الزّواج، فيحصل الإلف بين الزّوجين، ويكون الشّبق في حال القوّة مدعاة لميل كلّ منهما إلى الآخر، سواء أكان ذلك وقت إرادة النّسل أم في غيره لدوام الحياة لمعرفته على أتمّ نظام.

ولمّا كان الشّباب يتوارى بتدرّج، والجمال معه يختفي كذلك وإلى الشّباب يواري معه الجمال، فلا يزال الشّباب في ذبول، والجمال في تغيّر حتّى تجيء الشّيخوخة، وقد تذهب القوّة في الرّجال، والجمال في النّساء، ويستبدل الضّعف وعدم الرّغبة فيها، ولمّا كان ذلك قانوناً مسنوناً خلق الله تعالى منهما الذّرّيّة، والذّكور والإناث فيحصل بينهما الشّفقة والتّحابب والمودّة بالأمر الأشراف وهو تربيته وتحفّظه على الذّرّيّة وحينئذ يظهر نور الرّحمة الّتي كانت مستورة وراء ظلمة الشّبق والشّهوة، فلا تزال الرّحمة تظهر، والشّهوة تختفي حتّى تظهر شمس الحقيقة الواضحة وهي الرّحمة الخالصة بين الزّوجين بعد زوال ذلك الظّلام الحالك الّذي غشي عليهما

وذلك أنّ رحمة الزّوج بزوجته ألّا تكون بمجرّد الشّهوة، ألا ترى أنّهما يتّصلان بدءاً لم يتصافيا ويتحاببا ويتعارفا، فإذا وجدها مريضة أو قبيحة، أو رأته هو كذلك حصل النّفور بدل المودّة، فإذا بدا كبراً لاسيّما إذا كان لهما ذرّيّة فيه يحبّها، ويحبّه، ولو كان بهما مرض، وقد يتّفق كلّ منهما أنّ صاحبه لا حظّ فيه ولا قوّة، فهذا هو الحكمة في التّعبير بالرّحمة بعد المودّة. والمعنى: ومن آيات الله تعالى أنّه خلق لكم أيّها الرّجال من أنفسكم نساء، أنتم وهنّ سواء في الإنسانيّة وفي الخصائص العامّة والغرائز، كلّ نفسه خلقهنّ الله سبحانه بهذا الوصف لتسكنوا إليهنّ فإنّ النّفس ميّالة إلى ما يوافقها ويلائمها، وتلتقي معها في الغرض العام، وهذا معنى قوله عزّ وجلّ «من أنفسكم» والإنسان الّذي يجتمع مع المرأة في الحلال يدرك بوضوح معنى السّكنى إليها، والميل لها والهدوء النّفسيّ عندما يزورها، ومن هنا سمّي المكان الّذي يلتقي فيه الرّجل بالمرأة سكناً ومسكناً لأنّ فيه تسكن النّفس وتهدأ وتطمئنّ الرّجل ويستريح من وعثاء الطّريق، ومشاقّ الحياة الكادحة

٦ ـ قيل المودّة عطف قلوبهم بعضهم على بعض والرّحمة الحبّ بين الزّوج وامرأة و

لم يكن بينهما قرابة، و تحبّ كلّ واحد منهما صاحبه ٧ـ قيل: أي و جعل بينكم مودّة بالصّغير على الكبير، و رحمة بالكبير على الصّغير ٨ـ قيل: أي و جعل بينكم مودّة و رحمة أي الولدان ٩ـ قيل: مودّة و رحمة تعطّف قلوب بعضكم على بعض لم يكن بينكم معرفة و لا سبب يوجب التّحابّ و التّعاطف في القرابة و الرّحم. ١٠ـ قيل: إنّ ابن عبّاس: أي و جعل بين المرأة و الزّوج محبّة للمرأة على زوجها، و رحمة للرّجل على زوجته فيما يتوادّان و يتراحمان، و ما شيء أحبّ إلى أحدهما من الآخر من غير رحم بينهما

و قيل: المودّة حبّ الرّجل امرأته، و الرّحمة رحمته إيّاها أن يصيبها بسوء و يقال: إنّ الرّجل أصله من الأرض، و فيه قوّة الأرض، و فيه الفرج الّذي منه بُدئ خلقه، فيحتاج إلى سكن، و خُلقت المرأة سكنًا للرّجل، قال الله تعالى: «و من آياته أن خلقكم من تراب» و قال: «و من آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها» فأوّل ارتفاق الرّجل بالمرأة سكونه إليها ممّا فيه من غليان القوّة، و ذلك أنّ الفرج إذا حمل فيه هيّج ماء القوّة فإليها يسكن، و بها يتخلّص من الهيج، و للرّجال خُلق النّساء منهنّ قال الله تعالى: «و تذرون ما خلق لكم ربّكم من أزواجكم» فأعلم الله تعالى الرّجال أنّ ذلك الموضع خلق منهنّ للرّجال فعليهنّ بذله في كلّ وقت يدعوهنّ الزّوج، فإن منعته فهي ظالمة، و في حرج عظيم

١١ـ قيل: المودّة المحبّة و الرّحمة الشّفقة و المراد بهما ما كان منهما بعضهما لبعض، أي جعل بينكم بالتّزاوج الّذي شرعه لكم توادًّا و تراحمًا من غير أن يكون بينكم سابقة معرفة و لا مرابطة مصحّحة للتّعاطف من قرابة و رحم ١٢ـ قيل: المودّة و الرّحمة من الله تعالى، و الفرك و هو بغض أحد الزّوجين الآخر من الشّيطان ١٣ـ قيل: أي مودّة بالشّابّة، و رحمة بالعجوز ١٤ـ قيل: هما سببا التّراحم ١٥ـ قيل: إنّ المراد بالمودّة و الرّحمة الشّعور قلبًا واحدًا، و يدًا واحدة على خير الأسرة بصراحة، فتنشأ جماعة لا مشكلات فيها، و لا مشاحنات، و على أيّة حال، فإنّ الحياة الزّوجيّة لا تكون هنيئة مرضيّة عند الزّوجين إلّا إذا نظر كلّ منهما إلى الآخر على أنّه شيء يذكر

أقول: و على الخامس أكثر المفسّرين و في معناه بعض الأقوال الأخر فتأمّل جيّدًا

وفي قوله جلّ وعلا «إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون» أقوال: ١ـ قيل: أي إنّ في صنع الله عزّ وجلّ لدلالات واضحات على وحدانيّته تعالى وعلمه وحكمته لقوم يتدبّرون في حججه وبيّناته فيعلمون ما في ذلك من حكمة وأنّه الإله الذي لا يعجزه شيء أراده ولا يتعذّر عليه فعل شيء شاءه. ٢ـ قيل: أي إنّ في خلق الإنسان من الوالدين به وجعل أحدهما ذكرًا والآخر أنثى به جرى وخروج الولد ضعيفًا من الموضع الضيّق بالنسبة، وجعل المودّة والرحمة بين الزوجين من دون صلة تجمع بينهما بالرابطة وسكون أحدهما بالآخر بالمجانسة.

٣ـ قيل: أي إنّ في خلق الأزواج مستقلّة بمزيد من الدلالات والصفات لقوم يتفكّرون في ذلك فيعتبرون به، وإنّ التفكّر والتأمّل والنظر وحده فالتفكّر في أنّ الأزواج لأيّ شيء خلقت؟ ومن خلقها؟ ومن أنعم عليها؟ ومن جعلها من الحيوان التي يعظم السرور بها؟ وكيف لا يقدر أحد من العباد على ذلك؟ وذلك من أعظم الدلالات على أنّ لها خالقًا حكيمًا، وأنّ خالقها حكيمًا يستحقّ العبادة ولا يستحقّها غيره.

٤ـ قيل: أي إنّ في خلقكم من تراب، وخلق أزواجكم من أنفسكم، وإلقاء المودّة والرحمة في قلوبكم لعبرة لمن تفكّر وتأمّل في تلك الأفعال المبنيّة على الحكم والمصالح أنّهم لم يخلق عبثًا، بل خلقت لأغراض شتّى جليلة فيتفكّر ويتأمّل حتّى يصل إلى معرفتها دون شكّ، فيعقل الرّجحان والنسب السليم.

٥ـ عن ابن عبّاس: أي إنّ فيما خلق الله لعبرًا لقوم يتفكّرون.

٦ـ قيل: أي إنّ في ذلك لعلامات لوحدانيّته لقوم يتفكّرون في حقائقها. ٧ـ قيل: أي إنّ في الآيات التكوينيّة والتدوينيّة والآفاقيّة والأنفسيّة علامات ودلالات على المبدأ والمعاد، فإنّهم إذا تفكّروا في الأصول التكوينيّة والتشريعيّة التي تعطي الإنسان في عقد المجتمع من الذكورة والأنوثة الداعيتين إلى الاجتماع المنزلي، والمودّة والرحمة الباعثتين على الاجتماع المدنيّ، ثمّ ما يترتّب على هذا الاجتماع من بقاء النوع واستكمال الإنسان في حياته الدنيا والأخرى، عثروا من عجائب الآيات الإلهيّة في تدبير أمر هذا النّوع على ما تبهر به عقولهم وتدهش به أحلامهم.

أقول: و التعميم هو الأنسب بظاهر الإطلاق فتدبّر جيّداً

٢٢ـ ﴿و من آياته خلق السّموات و الأرض و اختلاف ألسنتكم و ألوانكم إنّ في ذلك لآيات للعالمين﴾

في قوله تعالى: «و من آياته خلق السّموات و الأرض» أقوال: ١ ـ عن ابن عبّاس: أي و من دلائل وجوده تعالى و وحدانيّته، و آيات قدرته على البعث بعد الموت خلقه تعالى السّموات المزدانة بالكواكب و النجوم الثواقب و انتشارها في رفعة السّموات، الواسعة الأرجاء، و خلق الأرض ذات الجبال الشّامخات و الوديان و البحار و الأنهار و القفار و الحقول و أنواع الأشجار و الأزهار. ٢ ـ قيل: أي و من آيات التوحيد خلق السّموات و الأرض، و إنّهم يعلمون ذلك، لأنّهم معترفون أنّ الله تعالى هو خالق الأشياء كلّها لقوله تعالى: «و لئن سألتهم من خلق السّموات و الأرض ليقولنّ الله» لقمان: ٢٥) «ذلكم الله ربّكم لا إله إلّا هو خالق كلّ شيء» الأنعام: ١٠٢)

٣ ـ قيل: أي و من دلالات و حجج على وحدانيّته جلّ و علا خلق السّموات في علوّها، و الأرض في دنوّها، هذه بنجومها و كواكبها و شمسها و قمرها، و جوّها و شهابها. و هذه بأقطارها و مناكبها، و مائها و مدرها، و أنهارها و أشجارها، و نباتها و جمادها. ٤ ـ قيل: أي و من حججه و أدلّته نصّاً على أنّه لا يعجزه شيء، و أنّه إذا شاء أمات من كان حيّاً من خلقه ثمّ إذا شاء أنشره و أعاده كما كان قبل إماتته إيّاه خلقه السّموات بغير عمد ترونها و خلق الأرض من غير شيء أحدث ذلك منه، بل بقدرته الّتي لا يمتنع معها عليه شيء أراده «أو ليس الّذي خلق السّموات و الأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى و هو الخلّاق العليم إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون» يس: ٨١ـ ٨٢).

٥ ـ قيل: أي و من آياته الدّالّة على توحيده، و وجوب إخلاص العبادة و التّسبيح و التّحميد له، و على قدرته على البعث و الإعادة بعد الموت لفصل القضاء، خلق السّموات و الأرض و ما فيهما من عجائب خلقه و بدائع صنعه من النّجوم و الكواكب و الشّمس و القمر و جريانها في مجاريها على غاية الإتقان و الحكمة و النّظام الّذي يعجز كلّ أحد

عنها، و في الأرض من أنواع الحيوان و أقسام الأشجار و النبات، و أصناف الجمادات التي ينتفع بها و فنون النعم التي يكثر الانتفاع بها.

أقول: و المعاني متقاربة، و المآل واحد.

و في قوله سبحانه: «و اختلاف ألسنتكم» أقوال: ١- عن ابن عبّاس: أي و في اختلاف النّاس و الأمم في اللغات اختلافاً لا حدّ له من العربيّة و العجميّة، و من الفارسيّة و التركيّة، من الانجليزيّة و الأردويّة، من الرّوسيّة و الفرنسيّة و من الصينيّة و غيرها ممّا لا نحصرها و لا نعلمها، لاختلاف اللغات. فإنّ الله تعالى علّم كلّ صنف و قوم لغتهم أو ألهمهم وضعها و أقدرهم عليها.

٢- قيل: أي و في اختلاف النّاس و الأمم في ألسنتهم من جهة الألحان و النّغم و نحو التكلّم و النطق و اللهجة، و الأصوات التي يمتاز بها فرد من غيره و قبيلة من غيرها، و قوم من غيرهم، فإذا تكلّم رجلان أو أكثر بلغة واحدة، فيعرف أحدهما من الآخر، حتى أنّ من كان محجوباً عنهما و لا يبصرهما، فيقول: هذا صوت فلان، و هذا كلام آخر، و فيه حكمة بالغة، و ذلك أنّ الإنسان -فرداً أو مجتمعاً- في حاجة شديدة إلى ما يميّز به بين الأشخاص فيعرف صاحب الحقّ من غيره، و العدوّ من الصّديق، و ذلك قد يكون بالبصر، فحقّق الله تعالى اختلاف الصّور، و قد يكون بالسّمع فحقّق اختلاف الأصوات.

و قد أنشأ الله تعالى الألسنة مختلفة في الشّكل و الهيئة و التّركيب فتختلف نغماتها و أصواتها حتّى أنّه لا تتشابه صوتان من شخصين هما توأمان، فلا تكاد تسمع منطقين متساويين في الكيفيّة من كلّ وجه فالمراد باختلاف الألسنة اختلاف وضعها و هو النّطق و اللحن و اللهجة و تقطيع الأصوات و ما إليها ممّا يمتاز به بعض الأصناف و الأشخاص عن بعض.

٣- قيل: أي و في اختلاف لغات أهل الأرض، و اختلاف تسبيحات الملائكة الّذين هم سكّان السّموات السّبع، و اختلاف لغات أهل الأرض من الجنّ و الإنس و لا شيء من أنواع الحيوان تتفاوت لغاتها كتفاوت لغات الإنسان و غيره من الملائكة و الجنّ، فإن كانت اللغات توقيفيّة من قبل الله تعالى فهو الّذي علّمها و أبدعها، و إن كانت موضعة من

قبل ابتدائه فهو جلّ وعلا الذي شرعه. ٤ـ قيل: أي وفي اختلاف الألسنة التي تشهد الله تعالى، وهي تلفظها بالنطق في الشكل، وحينئذ وبناء الحروف بها فلم تر باختلافها اختلاف مخارجها حتى لا تكاد تختلط لكونها تلتبس

٥ـ قيل: أي وفي اختلاف ألسنتكم، وجنس نطقكم وأشكاله لا اختلاف جرمها، فإنّ التّباين بين أجرامها ليس إلى حدّ يعدّ آية

أقول: وعلى الأوّل أكثر المفسّرين، وفي معناه بعض الأقوال الأخر، ولكنّ المعتمد غير بعيد، فالمعنى حسنٌ والأخير جيّدٌ

وفي قوله عزّ وجلّ ﴿وألوانكم﴾ قولان: ١ـ عن ابن عبّاس: أي وفي اختلاف النّاس والأمم في ألوانهم في الصّور من الحمرة والبياض والصّفرة والسّواد والسّمرة والشّقرة والحمرة فلا تشبه أحد أحداً مع أنّهم في أصل الخلقة واحد بل الأكثر كما تقتضيه الحكمة إذ به يمتاز بعض عن بعض وعليه حكمة حتى لا تشتبه بين النّاس ولا تشتبه مع كثرتهم. ٢ـ قيل: أي وفي اختلاف كلّ فرد من أفراد النّاس حسب اللّون وذوقه ... وفي اختلاف الأفراد في الملامح والأصوات، وحتى الأصابع فليس المراد من اختلاف الألوان اختلاف من الألوان الخفيفة كالبياض والسّواد مثلاً بل المراد أنّ في نوع واحد منه تقع اختلافات، فما ترى أنّ نوع الأبيض من الإنسان يتّفقون جميعاً في البياض ولكن البياض يكون البياض بل لكلّ شخص غير ... بل لكلّ واحد منهم في لونه هيئة غير هيئة الآخر، وهذا هو الآية الإلهيّة

٣ـ قيل: أي وفي اختلاف ألوانكم وألسنتكم اختلافاً به أمكن التّمييز بين الأشخاص في الأصوات والألوان، وهذه نعمة لا غنى عنها في مصالح الخلق ومختلف أغراضهم فلكم أن تميّزوا الأشخاص بالأصوات، وبه يعرف الصّديق من العدوّ، فيتّخذ ما يلزم من العدّة لكلّ منهما كما يميّز بلغاتهم، فيعرف من أيّ الأجناس هي؟ ٤ـ قيل: إنّ المراد بالألوان الضّروب والأنواع، كما يقال: ألوان الحديث وألوان الطّعام. والمعنى وفي اختلافكم في تصوير الأعضاء، وهيئاتها وألوانها وحلاها بحيث وقع التّمايز بين

الأشخاص حتّى أنّ التوأمين مع توافق موادّهما وأسبابهما والأمور الملازمة لهما في التخليق يختلفان في شيء من ذلك لا محالة، وإن كانا في غاية التشابه. ٥ـ قيل: أي وفي اختلاف صوركم وتخطيطها واختلاف ألوانكم وتنويعها.

أقول: وعلى الأوّل أكثر المفسّرين، وفي معناه بعض الأقوال الأخر، ويمكن التعميم عن بعضها كما لا يخفى فتدبّر.

وفي قوله عزّ وجلّ: «إنّ في ذلك لآيات للعالمين» أقوال: ١ـ قيل: أي إنّ في خلق السماوات والأرض واختلاف الألسن والألوان لعلامات واضحات للعلماء الخبراء في علوم الطبيعة فإنّهم يعتبرون بالبحث والتفكّر في تلك الخلقة على ذات خالقها دلالة على أنّ الصانع والإله الواحد مع التنظيم الجاري فيه للأمور إلّا الله جلّ وعلا، ولا يستهدي إلّا الألبّاء، وإنّهم المنتفعون بها دون غيرهم، فكأنّها خلقت لهم دون غيرهم كما قال الله تعالى «هدىً للمتّقين» البقرة: ٢ وإن كان الكتاب المجيد هدى لجميع المكلّفين.

هذا بناء على قراءة كسر اللام في «للعالمين». ٢ـ عن ابن عبّاس: أي إنّ فيما ذكر من اختلاف الألسنة والألوان لعلامات للخلق من الناس والجنّ والإنس على قراءة فتح اللام. ٣ـ قيل: أي إنّ في ما سبق لدلالات على التوحيد لجميع الناس من البرّ والفاجر والمؤمن والكافر... ٤ـ قيل: أي إنّ في ذلك لأدلّة واضحة للمكلّفين.

٥ـ قيل: أي إنّ في اختصاص كلّ شيء من أهل السماوات والأرض بحكمة شاهد عدل، ودليل صدق على أنّها لا تخفى على أفكار المستقصين، وتنادي على نفسها أنّها صنيعة من تقدير العزيز العليم. ٦ـ قيل: أي إنّ فيما ذكر لدلائل لائحة لأولي العلم الذين يتفكّرون فيما خلق الله تعالى، فيعلمون أنّه لم يخلق الخلق عبثاً، بل خلقه لحكمة بالغة فيها عبرة لمن اعتبر، وتذكرة لمن تذكّر. ٧ـ قيل: أي إنّ في خلق جميع ذلك لدلالات واضحات لجميع خلقه الذين خلقهم وأكمل عقولهم.

أقول: وعلى الأوّل جمهور المحقّقين، من دون تنافٍ بينه وبين بعض الأقوال الأخر فتأمّل جيّداً.

٢٣ـ (و من آياته منامكم باللّيل و النّهار و ابتغاؤكم من فضله إنّ في ذلك لآيات لقوم يسمعون)

في الآية الكريمة أقوال: الأوّل: قال الطبرسي: أي و من دلالاته الّتي تدلّ على المبدإ و المعاد، منامكم في الزّمانين لاستراحة البدن و طلب معاشكم و رزقكم فيهما و إنّ النّوم و المنام واحد و المراد من ابتغاء الفضل طلب الرّزق و الفضل الزّيادة على مقدار الحاجة و يطلق على العطيّة لأنّ المعطي إنّما يعطي ما فضل عن مقدار حاجته و إنّ النّوم باللّيل و طلب الرّزق بالنّهار أمران معتادان و قد يكون النّوم بالنّهار و قد يكتسب باللّيل كما يقع من بعض المكتسبين، و قد يخرف من الشّغل، و العمل باللّيل لاسيّما في [illegible] و عدم وفاء نهارهم بأغراضهم، و من ذلك حراسة الحوانيت بالأجرة و كذا قطع البراري في الأسفار ليلاً للتّجارة و كالّذين يمشون في بطون الجبال [illegible] و غيرهم.

٢ـ قال [illegible] أي و من حجج الله تعالى على توحيده منامكم باللّيل و سعيكم في طلب فضل الله و رزقه بالنّهار [illegible] في الزّمانين، و المعنى [illegible] بأنّ كلاًّ من الزّمانين و إن اختصّ بأحدهما فهو صالح للآخر عند الحاجة. ٣ـ قال [illegible] أي و من علامات قدرته تعالى على البعث بعد موتكم نومكم ليلاً و استمراركم فيه، حتّى لا يكون حركة و لا حسّ، و سعيكم للأرزاق نهاراً [illegible] لطلب المعاش و [illegible] فقدّر الله تعالى اللّيل للنّوم و السّكون و الاستراحة و قدّر النّهار للكدّ في سبيل الرّزق و قضاء المصالح و الحوائج المختلفة إنّ في فعل الله تعالى ذلك لعبر و أدلّة لمن يسمعون مواعظه، فيتّعظون بها و يفهمون حججه عليهم على أنّ صانع ذلك لا يعجزه بعث النّاس و إعادتهم بعد موتهم.

٤ـ قال [illegible] أي و من آياته الدّالّة على توحيده و إخلاص العبادة له نومكم باللّيل و النّهار لأنّ في النّوم راحة للأجساد من الكدّ الّذي يلحقها، و التّعب الّذي يصيبها، و طلبكم المعاش و ما ينفعكم ممّا يتفضّل الله به عليكم، إنّ في ذلك لعلامات على وحدانيّة الله تعالى و إخلاص العبادة له، لقوم يسمعون المواعظ و يعتبرون بها. ٥ـ عن [illegible] إنّ المراد بالابتغاء [illegible] فلذلك كان دلالة عامّة دون بعض العباد و لم يكن بعض [illegible] دلالة عليه

لم يكن يقدره و يهديه إلى مرشده و يرشده فيه و يسهله له، إنّ في خلق الله تعالى لدلالات و شواهد على توحيده لقوم يسمعون ذلك سماع تفهّم و اعتبار و استبصار، و يفكرون فيه، و ينتفعون به لأنّ من لا يفكر فيه و لا ينتفع به كأنّه لم يسمعه

و قيل خصّ بقوله «لقوم يسمعون» لأنّ أكثر الناس مستدلّون بالليل كالأموات، و مترددون بالنهار كالبهائم لا يدرون ما هم؟ و ما ذلك؟ لكن من ألقى السمع و هو شهيد سمع الوعظ لله تعالى و لا يغفل عنه لأنّ مرّ الليالي و كرّ الدهور ينادي بلسان الحال الرحيل الرحيل من دار الغرور إلى دار القرار كما قال الله سبحانه «و هو الّذي جعل الليل و النهار خلفة لمن أراد أن يذّكّر أو أراد شكوراً» الفرقان: ٦٢

و قيل إنّ من الأشياء ما يحتاج في معرفته إلى موقف يوقف عليه، و مرشد يرشد إليه، فيفهم إذا سمع من ذلك المرشد، و لمّا كان المنام و الابتغاء مما يكثر منهما من أفعال العباد، فيحتاج معرفة أنّهما من آياته تعالى إلى مرشد يعين الفكر، قال «لقوم يسمعون» فكأنّه قيل «لقوم يسمعون» و يصغون بأفهامهم إلى كلام المرشد الّذي يعين الفكر في أنّ الليل و النهار من آيات الله الدالّة على وحدانيّته و قدرته على الإعادة بعد الموت

٥ ـ عن ابن عبّاس أي و من علامات وحدانيّته و قدرته منامكم بالليل لاستراحة القوى النفسانيّة و تقوى القوى الطبيعيّة، و ابتغاؤكم من رزقه بالنهار، و إنّما ذكرت من الليل و النهار بعلامات و عبّر «لقوم يسمعون» آياته و يطيعونه و قيل أي يسمعون الحقّ فيتّبعونه و قيل أي يسمعون الوعظ فيخافونه و قيل أي يسمعون القرآن فيصدّقونه و قيل أي شأنهم أن يسمعوا الكلام سماع تدبّر و تعقّل، و فيه إشارة إلى ظهور الأمر بحيث يكفي فيه مجرّد استماع لمن له فهم و بصيرة، و لا يحتاج إلى مشاهدة و إن كان مشاهداً

٦ ـ قال الزّمخشري: هذا من باب اللفّ، و ترتيبه: و من آياته منامكم و ابتغاؤكم من فضله بالليل و النهار، إلّا أنّه فصّل بين القرينين الأوّلين بالقرينين الآخرين لأنّهما زمانان، و الزمان و الواقع فيه كشيء واحد مع إعانة اللفّ على الاتّحاد و هذا موافق لقوله تعالى «و جعلنا الليل لباساً و جعلنا النهار معاشاً» النبأ: ١٠ ـ ١١

٧ ـ قيل أي و في خلق الإنسان ذا قوى فعّالة يبعثه إلى طلب الرزق و رفع حوائج

الحياة شبيه بالحركة والسعي فأتى به إلى الإستراحة و السكون برفع متاعب السعي و تجديد نجهد القوى و خصص الليل و النهار، فخصص السعي و السكون والنسب إلى وجود الليل والنهار، فوضح مجاوزته فهما بالأرض والشمس لأن الآيات نافعة من له سمع و ع يعقل ما يسمع فهذا وحده حقاً نافعه ٨ـ قيل أي و من آياته منامكم ليلاً و نهاراً لأن الإنسان قد ينام في النهار لحاجة، و ابتغاؤكم من فضله يعني أنهما ليلاً و نهاراً لأن الانسان قد يسعى لرزقه في الليل

٩ـ قيل أي و من دلائل التوحيد النوم الذي جعله الله راحة لأبدانكم ليلاً، و قد تنامون نهاراً فإذا استيقظتم انتشرتم لطلب رزق الله تعالى إنّ في ذلك لدلالات وإيضاحات على التوحيد لقوم يسمعون ذلك سماع تدبّر، و يتفكّرون فيه فيؤمنون بالمبدإ و المعاد و الحساب والجزاء يوم القيامة فمن لا يسمع ذلك سماع تدبّر و لا يتفكّر فيه فكأنّه لم يسمعه أبداً ١٠ـ قيل أي و من حججه سبحانه عليكم أيّها الناس تقديره تعالى الساعات و الأوقات، وتعاقبها بين الليل و النهار فجعل لكم الليل سكناً تسكنون فيه، و تنامون فيه، و جعل النهار مضيئاً لتصرّفكم في معايشكم و طلبكم فيه من رزق ربكم، إنّ في ذلك لعلامات وإيضاحات على وحدانيته سبحانه و جلاله و عظمته، و نعمه، حكمته، و على تدبيره و حكمته لمن يسمعون حجج الله تعالى سماع تفهّم و استبصار، فيؤمنون بالله عزّوجلّ و رسوله ﴿ﷺ﴾ و ما جاءهم به من عند الله جلّ و علا و باليوم الآخر

أقول و لكلٍّ وجه من دون سابق سبب فتدبّر جيداً

٢٤ـ﴿و من آياته يريكم البرق خوفاً و طمعاً و ينزّل من السّماء ماءً فيحيي به الأرض بعد موتها إنّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾

في الآية الكريمة أقوال: ١ـعن قتادة و الضحّاك أي و من آيات الله على التوحيد و البعث أن يريكم البرق خوفاً للمسافر من الصواعق إذ لا ينتفع بالمطر، و طمعاً في المطر للمقيم و ينزّل من السّماء مطراً فيحيي بالمطر الأرض بالنبات بعد موت الأرض إنّ في ذلك لعلامات لقوم يعقلون عن الله تعالى فيوحّدونه و ذلك أنّهم يستعملون عقولهم في

إسقاط أسبابه و كيفية تكوّنه مظهر من مظاهر قدرة الصانع و علمه و حكمته و تدبيره.

٢ـ قيل: أي و من آياته الدالّة على عظيم قدرة الله تعالى: أنّه هو الّذي يرسل البرق، فيخيف به الناس من جهة و يطمعهم برحمته من جهة اخرى، حيث ينزل الماء على أثره من السماء فيحيي به الأرض بعد جدبها، إنّ في ذلك لآيات لأهل التعقّل فإنّهم يفهمون أنّ هذا كلّه صنعه بهذه المصانع فيستدلّون على عجز الخلق و صدقه.

٣ـ قيل: و من دلالاته على البعث بعد الموت أنّه تعالى يريكم البرق، فتخافون ممّا فيه من الصواعق و من الإحراق، و تطمعون فيما عنده من المطر الّذي ينزل من السماء، فيحيي الأرض الميتة التي لا زرع فيها و لا شجر و لا نبات، إنّ في ذكر البرق هذا لعظة و دليلاً واضحاً على البعث بعد الموت، فإنّ الأرض هامدة لا نبات فيها و لا شجر حتّى ينزل الماء فتهتزّ و تربو و تنبت من كلّ زوج بهيج في أيّام و أسابيع، و الدليل القاطع على قدرة من أحياها على إحياء الإنسان بعد موته حين يقوم الناس لربّ العالمين.

٤ـ قيل: إنّ البرق من حدث في السحاب التي تعلّق به أي عنده يتخوّفون من عذابه ذلك على معصيته و الكفر به، و يطمعون في أن يعقّب ذلك المطر، فينتفعون به و بما ينزل من السماء غيثاً و مطراً فيحيي به الأرض بعد انقطاع الماء عنها و جدوبها و يبسها و دروسها.

٥ـ قيل: أي خوفاً من البرق في السفر، و طمعاً فيه في الحضر، إنّ في خلق الله ذلك دلالات واضحة لقوم يفكّرون فيه، لأنّ من لا يفكّر فيه و لا ينتفع به و إن كان عاقلاً فكأنّه لا عقل له.

٦ـ قيل: أي خوفاً للمسافر يتضرّر من الصواعق، و طمعاً للحاضر من المطر.

٧ـ عن قتادة: خوفاً و من دلالاته أن يريكم البرق يتقدّح من السحاب، يخافه المسافر، و يطمع فيه المقيم ٨ـ عن أبي مسلم: أي خوفاً من الصواعق و الأعاصير، و طمعاً في المطر، و ينزل من السماء غيثاً و مطراً، فيحيي بذلك الماء الأرض بعد انقطاع الماء عنها و جدوبها، إنّ في ذلك لآيات للعقلاء المكلّفين ٩ـ عن يحيى بن سلام: أي خوفاً من البرد أن يهلك الزرع، و طمعاً في المطر أن يحيي الزرع ١٠ـ عن ابن عمر: أي خوفاً أن يكون البرق برقاً خلّباً لا مطر، البرق الخلّب الّذي لا غيث فيه كأنّه خادع و طمعاً أن يكون مطراً

١١ـ عن ابن عبّاس: أي و من علامات وحدانيّة الله و قدرته أن يريكم البرق من السّماء خوفاً للمسافر من المطر أن يؤذيه و طمعاً للمقيم في المطر أن يسقي حرثه و ينزّل من السّماء مطراً فيحيي بالمطر الأرض بعد قحطها و يبوستها إنّ فيما ذكرت من المطر لعلامات و عبراً لقوم يصدقون أنّه من الله.

أقول: و على العاشر أكثر المفسّرين، من دون تناف بينه و بين بعض الأقوال الأخر مناقش جيّدة.

٢٥ـ (و من آياته أن تقوم السّمآء و الأرض بأمره ثمّ إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون)

في الآية الكريمة أقوال: ١ـ عن قتادة: أي و من آيات التّوحيد أن تقوم السّماء و الأرض بأمره أي قامتا بأمره بغير عمد، ثمّ إذا دعاكم من السّماء، فتخرجون من الأرض.

٢ـ قيل: قيام السّماء و الأرض بأمره هو حفظ نظامهما و إمساكهما بغير عمد بأمره أي بقوله تعالى: «كونا قائمتين» و دوامه على هذا النّظام الّذي أوجدهما الله تعالى عليه و أمر الله تعالى هو سلطنته و قدرته، ثمّ إذا دعاكم هذا الأمر الّذي قامت به السّماوات و الأرض من القبور بعد موتكم دعوة واحدة، فإذا أنتم قيام تنظرون. فالبعث بعد الموت بقاء قائم في هذا الوجود أساسه بقاء دوران الكواكب في أفلاكها و اللّيل و النّهار في فلكهما.

٣ـ قيل: إنّ قيامهما بإقامته لهما و إرادته لبقائهما دون زوال، ثمّ خروجكم من القبور بعثه إذا دعاكم من الأرض دعوة واحدة بلا توقّف. ٤ـ قيل: أي و من آياته الدّالّة على البعث بعد الموت أن تقوم السّماء و الأرض بأمره بغير دعامة تدعمهما و لا علاقة تعلّق بهما، بل لأنّ الله تعالى يمسكهما حالاً بعد حال لأعظم دلالة على أنّه لا يتعذّر عليه سواه، ثمّ إذا أخرجكم من الأرض من قبوركم بعد أن كنتم أمواتاً بعثكم يوم الحساب، فعبّر عن ذلك بما هو بمنزلة الدّعاء، و بمنزلة «كن فيكون» في سرعة تأتّي ذلك، و امتناع التّعذّر عليه. و إنّما ذكر هذه المقدورات على خلافها، و عظم شأنها ليدلّ على أنّه القادر الّذي لا يعجزه شيء.

٥ ـ قيل: أي ومن الدلائل الواضحة على قدرته تعالى على ما يشاء قيام السّماء و الأرض، فتثبت بلا عمد بإقامته وتدبيره وحكمته، ولم تسقط المواد كلها في مكان واحد، بل هي تجري في الفضاء، فالأرض تجري، والسحاب تجري حولها، والمواد تتبعها وهي القمر، والسيّارات تجري حول الشمس، والشمس وتوابعها تجري حول كواكب أخرى، وهكذا. وبالجملة إنّ تمسك تلك المواد وقيامها وسيرها وإحكامها من الآيات التي تدلّ على إله واحد، مدبّرها. ولا يزال الأمر هكذا حتّى ينتهي أجل الدنيا، ويختلّ نظام العالم فيتبدّل الأرض غير الأرض، وتدكّ الجبال دكًّا وحينئذ تخرجون من قبوركم سراعًا حينما يدعوكم الله من دعوة فيقول: أيّها الموتى اخرجوا من قبوركم أينما تكونوا لقوله تعالى: «أين ما تكونوا يأت بكم الله جميعًا إنّ الله على كلّ شيء قدير» البقرة: ١٤٨

٦ ـ قيل إنّ المراد بقيام السّمآء والأرض بأمر من الله تعالى ثبوتها على وضعها الطّبيعيّ، وحالها العادية ملائمين لحياة نوع الإنسان، ثمّ ما يعقبهما من حركة وسكون و تغيّر وثبات بأمره تعالى، وقد عرّف أمره بقوله تعالى: «إنّما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون» يس: ٨٢) فتفاد الكون وما فيه في السماوات والأرض بقوة بأمره على أتمّ وجه وأحكمه حتّى إذا حان وقت التدمير في نفخة الصور تنشق به القبور ثم تدعون وتخرجون من باطن الأرض

٧ ـ قيل أي ومن آياته الدالّة على كمال قدرته أن تقوم السّمآء فوق رؤوسكم بغير عمد لا تراه عين وتقوم الأرض على المآء تحت أقدامكم بقدرته، ثمّ إذا دعاكم على صخرة بيت المقدس في الصّور دعوة واحدة من الأرض يا أهل القبور اخرجوا من قبوركم فإذا أنتم تخرجون ٨ ـ عن ابن عبّاس: أي ومن علامات وحدانيّته وقدرته أن تكون السّمآء و الأرض بإذنه ثمّ إذا دعاكم الله تعالى يوم القيامة على لسان إسرافيل دعوة من الصّور إذا أنتم تخرجون من القبور. وذلك حين ينفخ إسرافيل في الصّور بعد ما [illegible] الصّور في الصّور فيخرج الخلائق كلّهم من قبورهم. إذا أنتم تخرجون من الأرض أحياء فخروجهم منها بدعوة من الله تعالى

وقيل إنّه تعالى جعل النفخة دعاءً لأنّ إسرافيل يقول: أجيبوا داعي الله فيدعو بأمر

لله عزّوجلّ و قيل أي أخرجكم من قبوركم بعد أن كنتم أمواتاً فيها، فعبّر عن ذلك بالدّعاء إذ هو غاية السّرعة، و نظيره «كن فيكون» في سرعة تأتّي ذلك و امتناع التعذّر

٩ـ قيل بأمره أي بفعله و إمساكه إلّا أنّ فعل الله تعالى يضاف إليه بلفظ الأمر لأنّه أبلغ في الاقتدار ١٠ـ قيل إنّ المراد بأمره هنا قوانين الطّبيعة و نواميسها لأنّه هو الّذي طبّعها و قنّنها كقوله تعالى: «ممّا عملت أيدينا أنعاماً» يس: ... حيث أطلق أيديه تعالى على الأسباب الطّبيعيّة الّتي تنتهي إليه ١١ـ قيل أي و من آياته قيام السّماء و الأرض على هيئتهما بأمره تعالى إلى أجل مسمّى قدره الله عزّوجلّ لهما، ثمّ إذا دعاكم بعد انقضاء الأجل في الأرض و أنتم في قبوركم دعوة واحدة بأن قال سبحانه أيّتها الموتى أخرجوا، فجاءتم الخروج منها

١٢ـ قيل أي قيامهما و استمساكهما بقدرته بغير عمد، و التّعبير عن القدرة بالأمر للدّلالة على كمال القدرة، الغني عن المبادئ و الأسباب و قيل المراد بقيامهما ثباتهما لأنّه قد بيّن حاله بقوله تعالى: «و من آياته خلق السّماوات و الأرض» و لا إقامتهما بغير مقيم محسوس كما قيل فإنّ ذلك من آيات ... و إنّه قد صرّح به قولاً على ما ذكر في موضع آخر من قوله سبحانه: «خلق السّماوات و الأرض بغير عمد ترونها» لقمان: ١٠ بل قيامهما و بقاؤهما على ما هما عليه إلى أجلهما الّذي أشار إليه بقوله تعالى فيما قبل «ما خلق السّماوات و الأرض و ما بينهما إلّا بالحقّ و أجل مسمّى» قيل بأمره أي بتدبيره و حكمته أي يمسكها بغير عمد لمنافع الخلق و قيل أي بإذنه و قيل أي بأمره ... لا بغير لكمال قيوميّته و جلال قدسه و وفور فيضه و سعة جوده و سبق رحمته

أقول: و على الخامس جمهور المفسّرين، و في معناه أكثر الأقوال الأخر فتدبّر جيّداً

٢٦ـ (و له من في السّماوات و الأرض كلّ له قانتون)

في الآية الكريمة أقوال: ١ـ قيل و لله تعالى خاصّة من في السّماوات من الملائكة و من لا نعلمهم، و في الأرض من الملك و الجنّ و الإنس و غيرهم من أنواع الحيوان و أصناف النّبات، و أقسام الجماد كلّ له مطيعون خاضعون تكويناً، و يعترفون بلسان الحال أو

المقال بأنّ الله تعالى وحده خالقهم ورازقهم ومربّيهم حتى يكفّروا ولما يكن والمتحدّثين عند انقطاع رجائهم عمّا سواه وعند حضور الموت. ٢ـ قيل: المراد به الخصوص، فالمعنى كلّ مؤمن له قانت من الملك والجنّ والإنس سواء كان في السماء أو في الأرض خاضعون أمره تعالى دون غيرهم. ٣ـ عن ابن عبّاس: أي خاضعون لله تعالى في الحياة والنشور و الموت، وهم عاصون له فيما سوى ذلك من العبادة. فالمعنى أنّه تعالى وحده كلّ من في السّموات والأرض من ملك وجنّ وإنس عبد ومملوك له، مطيعون له في الحياة والبقاء، و الفناء والبعث والنشور لا يمتنع عليه شيء من ذلك وإن عصاه بعضهم في غير ذلك من العبادات والأفعال الاختيارية.

٤ـ عن عكرمة والحسن والسّدّي: وله من في السّموات والأرض من خلق جميعًا كلّ له مقرّون بالعبودية قانتون وإن أنكره بعضهم بأنّ الله تعالى ربّهم. ٥ـ قيل: أي كلّ له خاضعون لا يقدرون أن يمتنعوا عمّا خلقهم فكلّ من في السّموات و الأرض، وأعضاء هؤلاء خاضع له. ٦ـ قيل: أي في كلّ شيء دليل على ربوبيته وألوهيته، و هذا أيضًا من آياته، ولكنّه لم يذكر لأنّه قد سبق ذكره مرّات فكأنّه يقول: ومن آياته أنّه وحده من في السّموات والأرض كلّ له منقادون لأفعاله تعالى فيهم لا يمتنعون عنه سبحانه.

وفيه إشارة إلى إحاطة ملكه الحقيقيّ جميع من في السّموات والأرض وهم المحشورون إليه، وذلك لأنّ وجودهم من جميع جهاته قائم به تعالى قيام فقر وحاجة لا استقلال ولا استغناء لهم عنه بوجه من الوجوه، وهذا هو الملك الحقيقيّ الذي أثره جواز تصرّف المالك في ملكه كيف يشاء فله تعالى أن يتصرّف في مملوكه فينقلهم من النشأة الدّنيا إلى النّشأة الآخرة.

وقوله تعالى «كلّ له قانتون» تأكيد لما قبله، وإنّ القنوت هو لزوم الطّاعة التكوينية مع الخضوع دون الطّاعة التشريعية التي يراد حقيقة، وذلك أنّهم الملائكة والجنّ والإنس، فأمّا الملائكة فليس عندهم إلا الخضوع الطّاعة، وأمّا الجنّ والإنس فهم مطيعون منقادون للعلل والأسباب التكوينية، وكلّما احتالوا في إبطال أثر علّة من العلل أو سبب من الأسباب

الكونيّة توسّلوا إلى علّة أخرى، وسبب آخر كونيّ. ثمّ عقيدتهم وإرادتهم كانت [illegible] من الأسباب الكونيّة فلا يكون لأنّه [illegible] في الخارج ولا يتحقّق ممّا شاؤوا إلّا ما أذن فيه وشاءه فهو [illegible] وما [illegible]

٧ ـ قيل أي إنّ من في السموات والأرض من خلق الله مطيع له فيما يريده من حياة وموت، من سعادة وشقاء، من حركة وسكون، وما أشبه وإن عصاه بقوله وفعله فيما يكلّفه باختياره ويؤثره على غيره ٨ ـ قيل أي إنّ له من في السموات والأرض من العقلاء فإنّه يملكهم وغلب التصرّف فيهم وليس لأحد معه فيه ولا اعتراض، وخصّ العقلاء بالذكر لأنّ ما عداهم في حكم التبع ٩ ـ عن مجاهد أي إنّ جميع من في السموات والأرض له مطيعون طاعة انقياد ١٠ ـ عن ابن عبّاس أيضًا أي مصلّون ١١ ـ عن الحسن أي كلّ له قائم بالشهادة أي هم قائمون له تعالى بالشهادة على وحدانيّته جلّ وعلا وقال الإمام عليّ ﴿ع﴾:

وفي كلّ شيء له آية … تدلّ على أنّه واحد

١٢ ـ قيل القنوت الدوام على أمر واحد، فالملائكة وغيرهم من المؤمنين دائمون على أمر واحد في الدلالة لله تعالى في لزوم الطاعة له سبحانه والكافرون وغيرهم من المنافقين والفاسقين دائمون على أمر واحد في الدلالة له تعالى لأنّ منهم من هو خلقته وفعله ومنهم من هو خلقته دون فعله ١٣ ـ عن الحسن أي مطيعون لله طاعة بقاء ووجود فعله فيهم ١٤ ـ عن الربيع بن أنس أي قائمون يوم القيامة بالحساب كما قال تعالى «يوم يقوم الناس لربّ العالمين» ١٥ ـ عن سعيد بن جبير أي مخلصون.

١٦ ـ قيل أي كلّ له مطيعون بالكون وإن كان كفرهم عصيانًا بالسرّ ١٧ ـ قيل أي والله تعالى حقيقة كلّ من في السموات والأرض من الملائكة والثقلين خلقًا وملكًا وتصرّفًا ليس لغيره تعالى شركة في ذلك بوجه من الوجوه، كلّ له جلّ وعلا لا بغيره منقادون لفعله لا يمتنعون عليه سبحانه في شأن من الشؤون، وإن لم ينقد بعضهم لأمره تعالى، فالمراد طاعة الإرادة لا طاعة الأمر بالعبادة ١٨ ـ عن ابن عبّاس أيضًا أي وله عبيد من في السموات والأرض كلّ له مطيعون غير الكفّار

أقول: و على الأوّل جمهور المحقّقين و في معناه بعض الأقوال الأُخر فتدبّر جيّداً

٢٧ـ{و هو الّذي يبدؤا الخلق ثمّ يعيده و هو أهون عليه و له المثل الأعلى في السّموات و الأرض و هو العزيز الحكيم}

و في قوله تعالى: «و هو الّذي يبدؤا الخلق ثمّ يعيده» أقوال: ١ـ عن ابن عبّاس أي و هو الّذي يبدؤا الخلق من النّطفة ثمّ يعيده يوم القيامة ٢ـ قيل أي و هو الّذي يبدؤا خلق آدم من تراب، ثمّ بدأ خلق أولاده من نطفة و لم يكونوا شيئاً ثمّ يبعثهم جميعاً في الآخرة أحياء، فبدء الخلق إنشاؤه ابتداءً من دون مثال سابق و الإعادة إنشاء بعد إنشاء ٣ـ قيل أي و هو تعالى الّذي يخلق الخلق ابتداءً و يميتهم و يحييهم بعد الممات ثمّ يعيدهم يوم القيامة للعرض و الحساب بعد أن أماتهم بعد موتهم. فالحقّ تعالى ما ظهر من بدء خلقه دليلاً على ما خفي من إعادته استدلالاً بالشّاهد على الغائب

٤ـ قيل إنّ المراد بالخلق هنا المخلوقات كلّها و هذا يعني أنّ هذا الوجود كلّه في حركة دائمة و في هدم و بناء مستمرّين، و أنّ هذا النّظام الموجود في كلّ لحظة هو على غير صورته في اللّحظة السّابقة أو اللّاحقة و هذا ما يشير إليه قوله سبحانه: «كلّ شيءٍ هالك إلّا وجهه» القصص ٨٨،

فمعنى الهلاك هنا هو التّحوّل و التّبدّل و تغيير الصّور و الأشكال و ليس معنى الهلاك الفناء المطلق فإنّ المادّة لا تفنى، و إنّما تتبدّل و تتحوّل، و هذا هو رأي المحقّقين و كذلك ما جاء في قوله عزّ و جلّ: «كلّ من عليها فان» الرّحمن ٢٦ هو من هذا المعنى، و أنّ الفناء هو زوال صور الأشياء و قوالبها و حدوث صور و قوالب أُخرى

فعمليّة الخلق مستمرّة دائماً و يقابلها من جهة أُخرى عمليّة الموت أو البلى أو الفناء أو الهلاك و كلّها هنا بمعنى واحد و هو التّحوّل و التّبدّل لا الفناء المطلق الأبدي، و إلى هذا المعنى أشار تعالى بقوله: «كما بدأنا أوّل خلق نعيده وعداً علينا إنّا كنّا فاعلين» الأنبياء ١٠٤).

أقول: و على الثّاني أكثر المفسّرين من دون تنافٍ بينه و بين الأوّل و الثّالث فتدبّر

و في قوله تعالى: «و هو أهون عليه» أقوال: ١ـ عن ابن عبّاس و الحسن و الرّبيع بن

حينئذٍ ليس معنى «أهون» تفضيلاً بل معنى «هيّن» إذ لا يتصوّر في خلق الله تعالى شيءٌ هيّنٌ له بدءً وأهون أخرى، بل كلّ شيءٍ عليه هيّنٌ كما يقال الله أكبر أي كبير لا يدانيه أحد في كبريائه ٢ـ عن ابن عباس رضي الله عنه و عكرمة و مجاهد و قتادة: أي إعادة الخلق بعد مماتهم أهون على الله تعالى و أسهل و أيسر من ابتداء خلقهم ٣ـ قيل أي و هو في المثل أهون عليه عندكم لأنّ ابتداء الشيء أشدّ من إعادته، و البداية على الله هيّن.

٤ـ عن ابن عباس رضي الله عنه و الضحّاك: و هو أهون عليه بالنسبة إليكم بأن يكون هذا من معتقدكم، فمعنى كونه أهون لكم من الأولى في الإعادة إلى ما بينكم و نظرتكم و عقولكم، و القياس على أصولكم من أنّ الإعادة أهون من الابتداء و إلّا فهما عليه سواء لا تفاوت في قدرته الباهرة عليهما حتّى يقع التفضيل بين حدّ كونه عزّ وجلّ «لخلق السموات و الأرض أكبر من خلق الناس» (غافر ٥٧) أي بالإضافة إلى عقول البشر و إدراكهم بأنّه خلق عظيم لا يقدرون عليه و خلق الناس بالنسبة إليه شيء سهل هيّن و إلّا فخلقهما عند الله تعالى على حدّ سواء. فالمعنى و هو أهون عليه عندكم لأنكم أقررتم بأنّه بدء الخلق، فإعادة الشيء عند المخلوقين أهون من ابتدائه فكيف تقرّون بما هو أصعب عندكم و تنكرون ما هو أهون عندكم؟!

٥ـ عن ابن عباس أيضاً: أي و هو أهون من خلق المخلوق لأنّ في الابتداء أولاً من نطفة إلى علقة و من علقة إلى مضغة ثم تنتقل ثم عظام على التدريج، و في الإعادة و الآخرة حال واحدة يعادون دفعة واحدة، و ذلك هو أهون عليه من هذا ٦ـ عن ابن عباس رضي الله عنه أي هيّن عليه إعادته كبدايته ٧ـ قيل إنّ الضمير في «عليه» راجع إلى «الخلق» و هو بمعنى المخلوق فالمعنى و الإعادة على المخلوق أهون من النشأة الأولى إذ يقال له في الإعادة: «كن فيكون» و في النشأة الاولى كان نطفة ثمّ علقة ثمّ مضغة ثمّ عظاماً ثمّ كسي العظام لحماً ثمّ نفخ في الصّور فهذا على المخلوق أصعب و الإنشاء يكون أهون عليه

٨ـ قيل ليس المراد بأهونيّة الفعل أقربيّته إلى الوجود باعتبار كثرة الامور الداعية للفاعل إلى إيجاده، و قوّة اقتضائها تعلّق قدرته به، بل أسهليّة تأتّيه و صدوره عنه عند تعلّق قدرته بوجوده و كونه واحداً بالعدم و لا تفاوت في ذلك بين أن يكون ذلك التعلّق

بطريق الايجاب أو بطريق الإختيار

أقول: وعلى الرّابع أكثر المفسّرين وفي معناه بعض الأقوال الأخر فتأمّل جيّداً

وفي قوله عزّوجلّ «وله المثل الأعلى في السّماوات والأرض» أقوال: ١ـ عن ابن عبّاس أي وله الوصف البديع في السّماوات والأرض وهو «ليس كمثله شيء» تعالى عن الشّبه والنّظير ٢ـ عن قتادة أي هو الّذي لا إله إلّا هو وحده لا شريك له فإنّه دائم في السّماوات والأرض يقول التّشبيه فيه كي يقول الأولى بقوله عزّوجلّ «وهو الّذي في السّماء إله وفي الأرض إله» الزخرف: ٨٤، وأما قيل وله الصّفة العليا لأنّه لا يصفه بها شيء كما يصفه بها الأوّل

٣ـ قيل أي له الوصف بالصّفات المثلى التي ليس لغيره ما يساويه وما يدانيه

٤ـ عن الزّجاج في الكلام تقديم وتأخير بل التّشبيه تشبيه من هو أكثر سعي بالذي هو سيّئه كما قال «وله المثل الأعلى» فذلك تمثيل منه على أنّه مثل ضربه الله تعالى

٥ـ قيل أي وله الصّفة العليا في الوجود حقّ نفسه وفي الجود صفة الكرم، وفي القدرة بوصف الشّمول وفي القدرة بوصف الكمال وفي العلم بعموم التّعلّق وفي الحكم بوجوب التّحقّق وفي المشيئة بوصف النّفوذ وفي القضية بحكم النّفوذ وفي الجبروت بصفة العزّ والجلال، وفي الملكوت بصفة المجد والجمال

٦ـ قيل إنّ في الجملة «وله المثل الأعلى» إشارة إلى قوله سبحانه «وهو أهون عليه» هو من قبيل التّمثيل بضرب هذا المثل لله تقريباً لصورته من أفعال الخلق وتعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً فهو سبحانه «العزيز» الّذي يعلو بعزّته وسلطانه كلّ عزّة وكلّ سلطان، وسبحانه يقدر به كلّ موجود في هذا الوجود «الحكيم» الّذي يقوم عزّته ويعمل سلطانه، ويقضي حكمه بالحكمة والعدل والإحسان ٧ـ عن ابن عبّاس أيضاً أي وله الصّفة العليا بالقدرة على أهل السّماوات والأرض

٨ـ قيل أي كلّ وصف كماليّ يتمثّل به شيء في السّماوات والأرض كالحياة والقدرة، والعلم والحكمة، والملك والعزّة، والجود والكرم والعظمة والكبرياء، وغيرها، فلله أعلى ذلك الوصف وأرفعها من مرتبة تلك الموجودات المحدودة كما قال جلّ وعلا «ولله الأسماء

الحسنى» الأعراف ١٨٠، فكلّ صفة كمالية يتّصف بها شيء ممّا في السّموات والأرض من جمال وكمال، فإنّ الله تعالى أعلاها في متّصف بها من غير تحديد وتحقّقها من غير شوب، و صرفها من غير خلط، فهي جميع ما يتحقّق به من معنى من الصّفات العلى التي لا يشاركه فيها سواه، والأسماء الحسنى التي تفيد التعظيم كالقدّوس والقاهر والرّب والإله

٩ـ قيل: أي هذا المثل مضروب لكم في الأرض، وله المثل الأعلى من هذا المثل، ومن كلّ مثل يضرب في السّموات فيما بين الملائكة كما قال: «ولقد ضربنا للناس»

أقول: وعلى المعنى جمهور المحقّقين، وفي بعضه بعض الأقوال الأخر فتأمّل جيّداً

وفي قوله عزّوجلّ: «وهو العزيز الحكيم» وجوه: ١ـ عن ابن عبّاس: أي وهو العزيز في ملكه وسلطانه، الحكيم في أمره وقضائه ٢ـ قيل: أي وهو القادر الذي لا يعجز عن إبداء وإعادة، الحكيم الذي **يجري الأفعال على مقتضى حكمته** ٣ـ قيل: أي وهو العزيز في انتقامه من أعدائه، الحكيم في تدبير خلقه ٤ـ قيل: أي وهو العزيز لا يغالب و لا يُغلب، الحكيم في تدبيره وتصرّفاته حسبما تقتضيه حكمته وسداده

٥ـ قيل: إنّ الجملة تعليل لقوله تعالى: **«وله المثل الأعلى»** أي إنّه سبحانه عزيز واجد لكلّ ما يفقده غيره، ممتنع من أن يمتنع عليه شيء، حكيم لا يعرض فعله فتور، ولو لم يكن صفة من صفاته مثلاً أعلى ممّا عند غيره من الممكنات كانت محدودة غير مطلقة، ومخلوطة غير صرفة، غير خالية من النّقص والقصور، **فاستذلّه ذاك القصور، فلم يكن عزيزاً على** الإطلاق، وأحدث ذاك النّقص في فعله ثلمة وفتوراً، فلم يكن حكيماً على الإطلاق

أقول: ولكلّ وجهة من دون تنافٍ بينها حسب الاعتبار فتأمّل جيّداً

٢٨ـ (ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم كذلك نفصّل الآيات لقوم يعقلون)

في قوله تعالى: «ضرب لكم مثلاً من أنفسكم» أقوال: ١ـ قيل: أي وصف لكم شبهاً متّخذاً من أنفسكم، منتزعاً من أحوالكم التي لديكم: هل لكم من نوع ما ملكت

عبيدكم من العبيد والإماء من شركاء في ما رزقناكم من الأموال وغيرها، فأنتم وعبيدكم في الرزق سواء فتخافونهم كما تخافون أمثالكم من المالكين والمملوكين من سنن المكتسب ٢ـ عن السدي: هذا مثل ضربه الله تعالى في شرك الآلهة يقول: هل لكم مماليك شركاء في الميراث الذي يرثونه من آبائكم، وإنكم تخافون أن يدخل معكم مملوككم في ذلك الميراث كما تخافون أن يرثه غيركم. لا يكون للمملوك أن يدخل في مواريثكم، فكذلك لا يكون هذا الوثن الذي تعبدونه من دون الله سبحانه أن يدخل في ملكي وإنما هو خلقي وعبدي.

٣ـ قيل: هذا مثل ضربه الله تعالى لبيان بطلان ما يزعم المشركون أن لله سبحانه مما خلق شركاء في الألوهية والربوبية وقد بين المثل في صورة تلتمس الإنكار أي: هل يوجد من مماليككم من العبيد والإماء من يكونون شركاء لكم في الأموال التي رزقناكم، حتى تكونوا معهم مملوكين لكم تملكونهم وما يملكونه، تخافونهم في التصرف في أموالكم بغير إذن منهم ولا رضى كما تخافون الشركاء الأحرار من نوع أنفسكم؟ لا يكون ذلك لكم ولا يجوز أن يكون المملوك شريكاً لمولاه في ماله وإذا لم يجز فكيف يجوز أن يكون بعض من خلقه الله تعالى كالملائكة والجن وغيرهم مما يعبده المشركون شركاء له في ملك من مخلوقيه وآلهة وأرباباً من دونه؟

٤ـ قيل: إن «ضرب» هنا بمعنى «جعل»، والمعنى: جعل لكم أيها المشركون مثلاً كائناً من أنفسكم، وانتزعه من أقرب شيء منكم وهو: هل شركاء فيما رزقناكم كائنون من النوع الذي ملكت أيمانكم، مستقرون لكم من مماليككم من شركاء لكم فيما رزقناكم من الأموال وغيرها. ٥ـ عن قتادة: هذا مثل ضربه الله لمن عدل به شيئاً من خلقه. يقول: أكان أحد منكم مشاركاً مملوكه في ماله ونفسه وفراشه وزوجته؟ فكذلك لا يرضى الله سبحانه أن يعدل به أحد من خلقه في شيء من شؤونه. فالمعنى: كما لا ترضون أن يكون عبيدكم شركاءكم في فرشكم وأزواجكم، كذلك لا ترضون في ربكم الذي خلقكم أن يعدل به أحد من خلقه فيشرك معه في العبادة.

٦ـ قيل: أي بين الله عزّوجلّ إثبات وحدانيته بما يكشفه من ذلك المثل المنتزع من أحوال أنفسكم وأطوارها التي أقرب الأمور إليكم، وبه يستبين مقدار ما أنتم فيه من

انحلال عقيدة الأوثان والأصنام، فيسير سوق إلى الإقلاع عن عبادة من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً. هل ترى أيها الأحرار شركاء معكم عبيدكم وإماءكم في أموالكم فيما رزقناكم في التصرف فيها من غير تفتيش، ولا فضل للأحرار على العبيد؟ لا، لا يتصرفون فيها إلا بإذنكم خوفاً من أن تحبسوهم كما تخاف بعضكم بعضاً، وإذا كنتم لا ترضون بذلك لأنفسكم وأنتم، وهم عبيد الله، فكيف ترضون لرب الأرباب ومالك الرقاب من العبيد والأحرار أن تجعلوا بعض عبيده شركاء له في عبادتكم إياه، وأنتم وهم عبيدي وملكي، وأنتم لا تجعلونهم؟ فأحدكم لا يرضى أن يكون عبده شريكه في التصرف في ماله، فكيف تجعلون لله أنداداً من خلقه؟

٧ - فإن هذا مثل ضربه الله لمشركي مكة به تمثيلاً مع ما جعلوه له شركاء، وهم معترفون بأن شركاءهم من الأصنام والملائكة وغيرها كلهم عبيده وملكه، إذ كانوا يقولون في التلبية والدعاء حين ... : لبيك اللهم لبيك، لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك» ٨ - عن ابن عباس أي: أنكم أيها المكلفون ضرب لكم ذلك المثل من أنفسكم: هل لكم من ما ملكت أيمانكم من عبيدكم وإمائكم من شركاء فيما أعطيناكم من الأولاد والأهل والأموال والأملاك والنعم، هل تشركونهم فيه وأنتم وهم فيه شرع سواء.

٩ - قيل إن «الحرب» هذا المعنى ... ذكره ... ضرب مثلاً ... من أقرب شيء من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم؟ فيجب عليكم أن تقولوا: ليس عبيدنا شركاءنا فيما رزقنا؟ فعند ذلك كيف تتصورون أن ترفعوا نفوسكم عن مشاركة عبيدكم وتجعلوا عبيدي شركاء لي في خلقي؟ فهذا حكمكم فاسد، ولله المثل الأعلى ... فإذا بطلت الشركة بين العبيد وسادتهم فيما يملكه السادة، والخلق كلهم عبيد الله جل وعلا، فبطل أن يكون شيء من العالم شريكاً لله سبحانه في شيء من أفعاله، فلم يبق إلا أنه واحد يستحيل أن يكون له شريك، فإن الشركة تقتضي المعاونة، ونحن مفتقرون إلى معاونة بعضنا بعضاً بالمال والعمل والفكر، والقديم الأزلي منزه عن ذلك كله.

١٠ - قيل: أي من يكون له مملوك لا يكون شريكاً له في ماله، ولا يكون له حرمة

كحرمة سيّده فكيف يجوز أن يكون عباد الله شركاء له سبحانه أو شفعاء عنده بغير إذنه؟ وكيف يجوز أن يكون لهم عظمة مثل عظمة الله حتى يعبدوا كعبادته على أنّ مملوكهم ليس مملوكاً لهم في الحقيقة، بل لاختصاص المنفعة، ولهذا لا يحكم لهم عليهم بالقتل والقطع والمنع من الفرائض وقضاء الحاجة والنوم والأكل والشرب وما يليها. وقد يزول الاختصاص بالبيع والعتق، والموت بالخروج به من ملكه بوجه من الوجوه. وفي قوله تعالى: «فيما رزقناكم» إشارة إلى أنّ الّذي هو لكم ليس في الحقيقة لكم، وإنّما الله استخلفكم فيه ورزقكم من فضله

١١ ـ قيل: أي مثّل لكم أيها المشركون مثلاً من أنفسكم: هل لكم مما ملكت أيمانكم من مماليككم من شركاء فيما رزقناكم من مال، فأنتم فيه سواء؟ ١٢ ـ عن ابن يزيد: أي هل تجد أحداً يجعل عبده شريكاً في ماله، فكيف تعمد أيّها المشرك أنت، وأنت تشهد أنهم عبيدي وخلقي وتجعل لهم نصيباً في عبادتي كيف يكون هذا؟!

أقول: والتاسع هو الأنسب بظاهر السياق وفي معناه ذكر القول الآخر، فتدبّر جيداً

وفي قوله سبحانه «فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم» أقوال: ١ ـ عن ابن عبّاس ومقاتل: أي أتخافون عبيدكم أن يشاركوكم شركة الحرّ، والعبيد كعبيد، أن يرثوكم بعد الموت كما تخافون أن يرثكم الأحرار شركاؤكم في الحرية؟ فقالوا: لا. فقيل: أترضون لله سبحانه شريكاً في ملكه وتكرهونه لأنفسكم وأنتم تأنفون وترفضون أن يكون العبد الّذي تملكونه شريكاً لكم فيما رزقكم الله من مال وغيره، فكيف تجعلون لله شركاء و أنداداً من مخلوقاته؟ تكرهون الشريك وهو مخلوق مثلكم، وترضونه لله الخالق المحيي و المميت

٢ ـ قيل: أي وهل تخافون أن يشارككم مماليككم فيما ترثونه من آبائكم، وفيما حصل لكم من أموالكم تخافون من شركائكم وذوي قرابتكم لأنّ الرّجل يخاف شريكه الحرّ في المال الّذي يكون بينهما أن ينفرد دونه فيه بأمر كما يخاف الرّجل شريكه في الميراث أن يشاركه لأنّه يحبّ أن ينفرد به فهو يخاف شريكه، ومعنى «أنفسكم» أمثالكم من

الأحرار؟ ٣ـ قيل: أي وأنتم وعبيدكم سواء في المخلوقية، ومع ذلك لا ترضونهم شركاء في رزقكم، وهل رضيتم في الله سبحانه شريكاً له في خلقه وملكه؟! ٤ـ قيل: أي فهل أنتم وعبيدكم وإماؤكم فيما أعطيناكم سواء، حتى تكونوا تخافون كخيفتكم أنفسكم أي كما يخاف الأحرار بعضهم من بعض، فتكرهون المساواة في الأموال بينكم وبين العبيد. ٥ـ قيل: أي فهل تهابون العبيد حتى يتصرفون في أموالكم وأملاككم كما تهابون الأحرار لو كانوا شركاء معكم في الأموال والأملاك...؟!

٦ـ عن الزجاج أنه قال في الكلام تقدير أي في ملك ما ملكت أيمانكم تخافون تسوية عبيدكم بكم في الملك ولا يكون المعنى ـ كما زعم بعض ـ تخافون مكاتبتهم وقتلهم لأن ذلك غير مأمون منهم فالمعنى تخافون تسوية عبيدكم إياكم في الملك كخيفتكم المساواة بينكم فهو من باب «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم» البقرة ١٩٤ لأن التسوية بين الأحرار واقعة وفيه أي تخافون المشاركة كما تخافون الأحرار في الملك والمال فالمراد بـ «أنفسكم» الأحرار منهم كقوله تعالى «ظنّ المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً» النور ١٢ أي بأمثالهم والمعنى أنه كما لا يشارك العبدُ الحرَّ في الملك والمال، كذلك لا تشارك هذه الأصنام المنحوتة المخلوقة للخالق القادر المتعال. وكما أنكم لا ترضون من عبيدكم أن يكونوا شركاءكم في أموالكم وأملاككم، فكيف تجعلون لربكم الذي خلقكم أن يكون له شركاء في عبادته؟! ٧ـ عن الكلبي: أي هل لكم مما ملكت أيمانكم من أموالكم وعبيدكم وإمائكم، فأنتم وهم فيه سواء يتصرفون فيه كتصرفكم مع أنهم بشر مثلكم، وأنها معارة لكم، تخافونهم أن يستبدّوا بتصرف فيها بدون رأيكم، خيفةً كائنةً أنفسكم ممن هو من نوعكم يعني الأحرار المشاركين لكم، أي كما يخاف الرجل أبيه وعمّه وأقاربه؟ قالوا: لا. قال: فأنتم لا ترضون هذا لأنفسكم أن يكونوا فيما عندكم يشاركونكم في أموالكم، فكيف ترضون لله ما لا ترضون به لأنفسكم!

٨ـ قيل: أي تخافون المماليك الشركاء أن يستبدّوا في تصرف المال المشترك من غير إذن منهم ورضى كما تخافون أنفسكم من الشركاء الأحرار. ٩ـ قيل: أي في الواحد منا

بعضكم من بعض مشاركة له في المال. خيفة خيفتكم ١٠ـ عن أبي مجلز: أي تخافون عبيدكم أن يشركوكم في أموالكم كما تخافون الشريك من نظرائكم ١١ـ قيل: أي تخافون كخيفتكم أنفسكم في إتلاف المال بإنفاقه ١٢ـ قيل: أي تخافون هؤلاء الشركاء ممّا ملكت أيمانكم أن يقاسموكم أموالكم كما يقاسم بعضكم بعضاً ١٣ـ عن ابن عبّاس: أي عنهم و عبيدكم و إمائكم فيما رزقناكم شركاء تخافون لائمتهم كلائمة آبائكم و أبنائكم و إخوانكم إذ لم تؤدّوا حقوقهم في الميراث؟ فقالوا: لا. قال: فترضون لي ما لا ترضون لأنفسكم تشركون عبيدي في ملكي، و لا تشركون عبيدي فيما رزقتكم

أقول: و لكلٍّ وجهٌ، مع تقارب المعاني، و التعميم غير بعيد فافهم

و في قوله عزّوجلّ: كذلك نفصّل الآيات لقوم يعقلون أقوال: ١ـ عن ابن عبّاس: أي هكذا نبيّن العلامات الدّالّة على التوحيد لقوم يعقلون الأمثال، و يصدّقون بأمثال القرآن فيوحّدون الله تعالى ٢ـ قيل: أي كما ضرب لكم هذه الأدلّة نفصّلها لقوم يعقلون، فيتدبّرون ذلك، و يتفكّرون فيها ٣ـ قيل: أي كذلك نبيّن الأمثال، فإنّ التمثيل ممّا يكشف المعاني و يوضحها لقوم يستعملون عقولهم في تدبّر الأمثال و قيل في تدبّر الأمور كلّها، و يدخل فيها الأمثال دخولاً أوّليّاً، و تخصيصهم بالذكر مع عموم تفصيل الآيات للكلّ لأنّهم المنتفعون بها

٤ـ قيل: أي مثل هذا التفصيل الواضح نبيّن الآيات و نوضحها، لا تفصيلاً أدنى منه، فإنّ التمثيل تصوير للمعاني المعقولة بصورة المحسوس، و إبراز للأوابد المدركات على هيئة المأنوس، فيكون في غاية الإيضاح و البيان لقوم يعقلون الأمثال إذ بها تنكشف المعاني لأرباب العقول دون غيرهم

٥ـ قيل: أي كما بيّنّا لكم أيّها القوم حججنا في هذه الآيات من هذه السورة على قدرتنا ما نشاء من إنشاء ما نشاء، و إفناء ما نحبّ، و إعادة ما نريد إعادته بعد فنائه، و دللنا على أنّه لا تصلح العبادة إلّا للواحد القهّار الّذي بيده ملكوت كلّ شيء كذلك نبيّن حججنا في كلّ حقّ لقوم يعقلون، فيتدبّرونها إذا سمعوها و يعتبرون فيتّعظون بها

أقول: و التعميم هو الأنسب بظاهر الاختلاف فتدبّر

٢٩ـ (بل اتّبع الّذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضلّ الله و ما لهم من ناصرين)

في قوله تعالى: (بل اتّبع الّذين ظلموا أهواءهم بغير علم) أقوال: ١ـ قيل: أي بل اتّبع الّذين ظلموا بالكفر و الشّرك بالله سبحانه هم اتّبعوا أهواءهم في الشّرك و الكفر جاهلين بطلان ما أتوا مكبّين عليه لا يصرفهم عنه صارف لا يكفّهم شيء، فإنّ العالم إذا اتّبع هواه فقد يردعه علمه و الجاهل يهيم على وجهه كالبهيمة الّتي لا يكفّها شيء كما قال الله عزّ و جلّ: «مثل الّذين حمّلوا التّوراة ثمّ لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً» الجمعة: ٥ و قال: «و اتل عليهم نبأ الّذي آتيناه آياتنا... و اتّبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث» الأعراف: ١٧٦

٢ـ قيل: إنّ هؤلاء المشركين لم يتفكّروا في آيات الله الدّالّة على التّوحيد، و لا استعملوا عقولهم في خيرهم و سعادتهم، بل اتّبعوا أهواءهم و شهواتهم بغير علم منهم بصحّة ما يعبدونه

٣ـ قيل: أي و لكن الّذين ظلموا أنفسهم فكفروا بالله اتّبعوا أهواءهم جهلاً منهم بحقّ الله تعالى عليهم، فأشركوا الآلهة و الأوثان في عبادته و لو فكّروا و جعلوا الرّأي و استعملوا العقل في آيات الله تعالى لأرشدهم إلى معرفة الحقّ و وصلوا إلى سبيل الرّشاد و لكن أنّى لهم ذلك؟

٤ـ قيل: أي بل اتّبع الّذين كفروا أهواءهم بعبادة الأوثان و الأصنام و غيرها من الآلهة بغير علم جاءهم من الله تعالى يعلمونه

٥ـ قيل: أي بل اتّبع الّذين ظلموا أنفسهم بالكفر و الشّرك و المعاصي ثمّ اتّبعوا أهواءهم كما اشتهت أنفسهم بغير علم بعاقبة اتّباعهم لأهوائهم. و قيل: أي بغير علم بأصل الإتّباع، بأنّهم قلّدوا أسلافهم و آباءهم، و هم يحسبون أنّهم مهتدون. و قيل: أشدّ الظّلم متابعة الهوى لأنّه قريب من الشّرك. ٦ـ عن ابن عبّاس: أي بل اتّبع الّذين كفروا و هم اليهود و النّصارى و المشركون اتّبعوا أهواءهم، أي ما هم عليه من اليهوديّة و النّصرانيّة و الشّرك بلا علم و لا حجّة. ٧ـ قال: في الكلام تقدير أي و هؤلاء المشركون م

يبنوا شركهم على التعقّل و التفكّر و التدبّر، بل اتّبعوا في ذلك أهواءهم بغير علم من الله تعالى بالوحي، و لا من حجّة في أيديهم من العقل، فلا حجّة لهم في شركهم بالله سبحانه من داخلهم و هي العقل و لا من خارجهم و هي الوحي، فلا حاجز لهم من عذاب الله تعالى

أقول: و على الأخير أكثر المفسّرين، و في معناه أكثر الأقوال الأخر فتأمّل جيّداً

و في قوله سبحانه «فمن يهدي من أضلّ الله» أقوال: ١ ـ عن ابن عبّاس: أي فمن يرشد إلى دين الله من أضلّ الله عن دينه ٢ ـ قيل: أي فمن يقدر على هداية من أضلّ الله تعالى فلا أحد يهديهم، إذ لا يقدر أحد على هداية من أضلّه الله بترتيب الضلالة على كفرهم، و بعادهم عن نور البصيرة بسوء كسبهم فوقعوا في ظلمة الطبيعة باتّباع أهوائهم ٣ ـ قيل: أي فمن يهدي من خلق الله فيه الضلال و جعله كاسباً له باختياره لسوء استعداده و ميله بالفطرة إليه، و علم الله منه ذلك؟

أقول: هذا مذهب جبريّ سيأتي بحثه في محلّه إن شاء الله تعالى فانتظر

٤ ـ عن الجبائي: فمن يهدي إلى الثواب و الجنّة من أضلّه الله عن ذلك ٥ ـ قيل: أي من يهدي إلى الثواب من أضلّه الله عنه ٦ ـ قيل: أي من حكم بهدايته من حكم الله بضلالته

٧ ـ قيل: أي و من يهدي إلى تدبير ضلالتهم بعد ما اتّبعوا أهواءهم مع ظهور الحقّ لهم حيث إنّ اتّباع الهوى يوجب الظلم الموجب للإضلال عن الحقّ ٨ ـ قيل: أي فمن يهدي إلى توحيد الله من أضلّه الله عن توحيده و طرده، و من يرشد إلى الحقّ من خذله الله عزّ و جلّ و لم يلطف به لعلمه أنّه ممّن لا لطف له، فمن يقدر على هداية مثله و يدلّ على أنّ المراد بالإضلال هو الخذلان قوله تعالى: «و ما لهم من ناصرين»

٩ ـ عن أبي مسلم: أي من أضلّ عن الله تعدّى هو حدّ الله و إرادته، و لم ينفع عقله ما نصبه له من الأدلّة، فمن يهديه بعد ذلك و هو من قولهم: ضلّ فلان بعيره أي ضلّ بعيره عنه

١٠ ـ قيل: أي من رآه الله ضالّاً في واقعه و حقيقته، لا من رآه الناس ضالّاً من ظاهر تصرّفاته، و هو في واقعه من المهتدين

أقول: و على الثاني أكثر المفسّرين، و في معناه الثالث، من دون تنافٍ بينها و بين بعض الأقوال الأخر فتدبّر

و في قوله عزّوجلّ: «و ما لهم من ناصرين» أقوال: ١ـ عن ابن عبّاس أي و ما لليهود و النّصارى و المشركين من مانعين من عذاب الله. ٢ـ قيل أي و ما للظّالمين التّابعين لأهوائهم من ناصرين يعصمونهم من الضّلالة، و يحفظونهم عن العذاب. ٣ـ قيل أي ليس لمشركي مكّة من ينصرهم من الخزي و الدّمار و الهلاك في الحياة الدّنيا، و لا يدفع عنهم عذاب الله إذا حلّ بهم يوم القيامة. ٤ـ قيل أي و ليس لهم ناصر ينقذهم من بأس الله و شديد انتقامه إذا حلّ بهم لأنّه ما شاء كان، و ما لم يشأ لم يكن. ٥ـ قيل أي و ما لهم من ناصر يعصمهم من الظّلمة و الضّلالة و العذاب كمن ابتعد عن الهادي فوقع في ظلمة اللّيل، فلا نجاة له من خطر السّبع أو اللصّ.

أقول: و التّعميم هو الأنسب من ظاهر الإطلاق فتأمّل جيّداً.

٣٠ـ «فأقم وجهك للدّين حنيفاً فطرت الله الّتي فطر النّاس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدّين القيّم و لكنّ أكثر النّاس لا يعلمون»

في قوله تعالى: «فأقم وجهك للدّين حنيفاً» أقوال: ١ـ قيل إنّ تقديره إذا تبيّن لك الحقّ و ظهرت الوحدانيّة و ثبت أمر المعاد فأقم أي فدم على دين الإسلام و الاستقامة و الثّبات عليه، و الاهتمام بترتيب أسبابه حتّى تكون غير ملتفت عنه، و معرضاً أمثلاً عن جميع الأديان المحرّفة المنسوخة و الباطلة فهذا تمثيل للإقبال و الاستقامة على الدّين الإسلامي و الاهتمام به، و لا يعرض عن غيره، فإنّ من اهتمّ بشيء قوّم به وجهه و سدّد إليه نظره و أقبل عليه بكلّه.

٢ـ قيل إنّ الكلام متفرّع على معنى الجملة المفهومة من سياق الآيات السّابقة الدّالّ على ما هو الحقّ، و أنّ المشركين لظلمهم اتّبعوا الأهواء، و أعرضوا عن التّعقّل الصّحيح، فأضلّهم الله تعالى و لم يأذن لناصر ينصرهم بالهداية، و لا المنقذ ينقذهم من الكفر و الضّلالة لا أنت و لا غيرك، فاستيئس منهم، و اصرف عنهم نفسك، و من تبعك من المؤمنين و أقم وجهك و من تبعك للدّين، و المراد بإقامة الوجه للدّين الإقبال عليه بالتّوجّه من غير غفلة منه كالمقبل على الشّيء بقصر النّظر فيه بحيث لا يلتفت عنه يميناً و لا شمالاً، و

المراد بالحنيف هو الاعتدال

٣ـ عن ابن عبّاس أي فأقم قصدك و عملك للدّين مستقيماً، و أخلص دينك و عملك لله و استقم على دين الإسلام ٤ـ قيل أي فأقم قصدك للدّين و المعنى كن معتمداً للدّين ٥ـ قيل أي قوّم وجهك للدّين و عدّله، و أثبت و دُم على الاستقامة غير ملتفت عنه يميناً و شمالاً ٦ـ عن سعيد بن جبير أي فأخلص دينك الإسلام ٧ـ قيل أي فأقبل بوجهك إلى الدّين و أقم عليه ظاهراً ٨ـ قيل أي سدّد عملك، فإنّ الوجه ما يتوجّه إليه، و عمل الإنسان و دينه ما يتوجّه إليه الإنسان لتسديده و إقامته إنّ الله تعالى أمر بالتوجّه التامّ إلى الدّين القيّم، و الإعراض عن جميع الأديان الباطلة و الآراء الفاسدة

٩ـ قيل يذكر الوجه و يراد به، فكأنّه قال فأقم الدّين مخلصاً، و إقامة الوجه هو تقويم المقصد و القوّة على الجدّ في أعمال الدّين، و خصّ الوجه بالذكر لأنّه جامع حواسّ الإنسان و أشرفه و الدّين الحنيف هو الإسلام و قيل الدّين هو التوحيد و المعنى أقم للتّوحيد مخلصاً مائلاً إليه، معرضاً عن غيره ١٠ـ قيل أي فسدّد وجهك نحو الوجه الّذي وجّهك إليه ربّك يا محمّد لطاعته، و هي الدّين، مستقيماً لدينه و طاعته ١١ـ قيل إنّ الله تعالى أمر النّاس جميعاً أن يوجّهوا عبادتهم إليه جلّ و علا على الاستقامة دون الإشراك في العبادة، و إنّ الخطاب و إن كان متوجّهاً إلى رسول الله ﷺ ظاهراً، و لكنّه عام يدخل في كلّ مؤمن لقوله تعالى في الآية التالية «منيبين»

١٢ـ قيل أي أخلص قصدك إلى الله، و احفظ عهدك مع الله، و أفرد عملك في سكناتك و حركاتك و جميع تصرّفاتك حيث إنّ إقامة الوجه للدّين هي اتّجاه القاصد إليه بكلّ كيانه من غير التفات إلى شيءٍ غيره و قيل أي فهذّبوا و أعدّوا وجهك لتسمع أحكام الدّين مخلصاً

أقول: و الأوّل هو الأنسب الظاهر للسّياق من دون سابقه و بين أكثر الأقوال الأخر تقابل جيّداً

و في قوله سبحانه: «فطرت الله الّتي فطر النّاس عليها» أقوال ١ـ عن مجاهد و ابن زيد و الزّجّاج و الضّحّاك فطرة الله هي دين الله و هو الإسلام و المعنى اتّبع دين الله و هو

دين الفطرة الإسلامية الحنيفة التي فطر الله تعالى الناس عليها في بطون أمهاتهم وهي فطرة التدين وفكرة الله ووحدانيته والإسلام التسليم له والتمسك بالفطرة ذلك لأنّ الناس خُلقوا له لقوله تعالى: «وما خلقت الجنّ والإنس إلّا ليعبدون» الذاريات: ٥٦ فكلّ مولود مبدأ خلقته على الجبلّة السليمة المهيّئة لقبول الدين، فلو ترك عليها لاستمرّ على لزومها لأنّ هذا الدين حسنه موجود في النفوس السليمة، وإنّما يعدل عنه من يعدل إلى غيره من جهة آفة التربية والتعليم والخبث المؤثر أو الفساد الحاصل ٢ - قيل: أي اتبع ملّة الله و طاعته وعبادته ٣ - عن أبي مسلم: أي اتبع فطرة الله التي فطر الناس عليها لأنّ الله تعالى خلق الخلق للإيمان والمعنى خلق الله سبحانه الخلق للتوحيد والإسلام، واتّبع من الدين ما دلّت عليه فطرة الله، وهو ابتداء خلقه للأشياء لأنّه عزّوجلّ خلقها وركّبها وصوّرها على وجه يدلّ على أنّ لها صانعاً قادراً عليماً حيّاً قديماً واحداً لا تشبهه شيء ولا تشبهه شيء.

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين الإمام علي بن أبي طالب ﴿...﴾: فتعالى الذي أقامها على قوائمها، وبناها على دعائمها، لم يشركه في فطرتها فاطر، ولم يُعنه على جمعها قادر، ولو ضربت في مذاهب فكرك لتبلغ غاياته ما دلّتك الدلالة إلّا على أنّ فاطر النملة هو فاطر النخلة لدقيق تفصيل كلّ شيء، وغامض اختلاف كلّ حيّ» الخطبة ٢٢٠.

٤ - قيل: الفطرة هي الخلقة وتقدير الكلام: الزموا خلقة الله التي خلق البشر عليها و قيل عليكم بها وداوموا عليها ٥ - قيل: أي فطر الله الناس وجبلهم على دين التوحيد و الإسلام، غير منكرين لها لأنّ التوحيد محبوب للعقل مساوق للنظر الصحيح حتّى لو تركوا لما اختاروا عليه ديناً آخر، فخلق الله تعالى الناس مركوز فيهم معرفته كما أشار إليه بقوله عزّوجلّ: «ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولنّ الله» الزخرف: ٩ وعن مكحول: إنّ الفطرة هي معرفة الله ٦ - قيل: إنّ الفطرة إشارة إلى أخذ الميثاق من الذرّ، وهي التوحيد الذي تشهد به العقول السليمة والنظر الصحيح وذلك أنّ الله تعالى خلق الناس وطبعهم على استعداد فطريّ لقبول هذا الدين الإسلاميّ مذ خلقهم الله من آدم جميعاً، يقرّون بذلك لقوله تعالى: «وإذ أخذ ربّك من بني آدم من ظهورهم ذرّيّتهم و

أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا" [الأعراف: ١٧٢]، وهذا قول الله عزّ وجلّ "كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين" [البقرة: ٢١٣] و قبل أن تبع نوح المشرق

٧ - وقيل الفطرة هي الشريعة التي أوجب الله تعالى على الناس التمسك بها فأمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يمضي على شريعته وأن يدع هؤلاء المشركين وما ركسوا فيه

٨ - وقيل الفطرة هي ما أودع الله تعالى في الإنسان من قوى سليمة وطبيعة سليمة في أصل خلقه، تقبل الطيّب وتنفر من الخبيث، وهذا هو ملاك مراد الله الذي ارتضاه لعباده بوصفه الدين إذ قال تعالى فيه "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً" [المائدة: ٣]

وهذه الفطرة قد تعرض لها عوارض كثيرة تسوّد معالمها وتفسد طبيعتها، شأنها في هذا شأن حواس الإنسان من سمع وبصر وذوق ولمس وشمّ، وكما أنه إذا عرضت لشيء من الآفات دواء تداوى به كذلك جعل الله تعالى للفطرة ما تداوى به إذا هي أُصيبت بآفة من الآفات، وذلك بما يحمله رسل الله تعالى من آيات الله جلّ وعلا وما في هذه الآيات من هدى ونور

٩ - وقيل تقدير الكلام أنه هيأهم على الفطرة قبل أن يوجد منهم فعل ولا كسب، لا شرك ولا كفر ولكن سيكون منهم من يتبع الطاعة والحسنات فمنهم من فيهم كفر ومعصية وإساءة، فاعرف بهذه الجملة ما يعلق بها مما يراد بها والحذر مما نُهيت عنه والمعنى أعرف واعلم أنّ فطرة الله التي فطر الناس عليها تجرّدهم عن أفعالهم كالماء الذي في المعدن قبل صبّ اللون أو الملح أو المرّ ونحوها فيه ثم ينقص فيهم ما يكسبون، وإن كان هذا نصاً تقدير الله سبحانه، فطر كلّ أحد على ما علمه أنه يكون في السعادة أو الشقاوة، ولا تبديل لحكمه ولا تحويل لما فطره عليه، فمن علم أنه يكون سعيداً أراد سعادته وأخبر عن سعادته، وخلقه في حكمه سعيداً، ومن علم شقاوته أراد أن يكون شقياً وأخبر عن شقاوته، وخلقه في حكمه شقياً ولا تبديل لحكمه، هذا هو الدين المستقيم والحق الصحيح

١٠ - عن أبي بكر الوراق: فطرة الله هي الفقر والفاقة، فإنّ الإنسان منذ يولد إلى حين

يموت فقير محتاج إلى الله تعالى، و في الآخرة أيضاً. ١١ ـ قيل إنّ تحديد الدّين بالفطرة يقتضي بهذا البيان كلّ إنسان حتّى الكافر أحقّ بشرّ و فجور يودّ تلقّيه و تدفع من أعماقه أن يصون النّاس دمه و ماله و عرضه، و لايمسّه أحد بسوء، و أيضاً تحثّ بغريزته أن يحسنوا إليه، و يتعاونوا معه على خيره و صلاحه. و معنى هذا أنّه يطلب من جميع النّاس أن يكونوا متديّنين من حيث لايشعر لأنّ مهمّة الدّين تقوم أن تحمل كلّ فرد من أفراد الإنسان على أن يستجيب لهذه الفطرة في معاملاته و تصرّفاته مع نفسه و الناس و يتعاون مع الآخرين، و لايتهاون في شيءٍ من حقوقهم كما كان يريد أن لايتهاون أحد في حقوقه.

١٢ ـ قال بعض المعاصرين: الفطرة بناء نوع من الفطر بمعنى الإيجاد و الإبداع، و «فطرة الله» منصوب على الإغراء، أي الزم الفطرة، ففيه إشارة إلى أنّ هذا الدّين يجب إقامة الوجه له هو الّذي يهتف به الخلقة و يهدي إليه الفطرة الإلهيّة الّتي لاتبديل لها.

و ذلك أنّه ليس الدّين إلّا سنّة الحياة و السّبيل الّتي يجب على الإنسان أن يسلكها حتّى يسعد في حياته، فلا غاية للإنسان يسعى إليها إلّا السّعادة، و قد هدى كلّ نوع من أنواع الخليقة إلى سعادته الّتي هي بغية حياته بفطرته و نوع خلقته، و جهّز في وجوده بما هو يناسب غايته من التّجهيز، قال الله تعالى: «ربّنا الّذي أعطى كلّ شيءٍ خلقه ثمّ هدى» طه: ٥٠، و قال: «الّذي خلق فسوّى * و الّذي قدّر فهدى» الأعلى: ٣، فالإنسان كسائر الأنواع المخلوقة مفطور بفطرة تهديه إلى تتميم نواقصه و رفع حوائجه، و يهتف له بما ينفعه و ما يضرّه في حياته، قال تعالى: «و نفسٍ و ما سوّاها * فألهمها فجورها و تقواها» الشّمس: ٨، و هو مع ذلك مجهّز بما يتمّ له به ما عليه أن يقصده من العمل، قال تعالى: «ثمّ السّبيل يسّره» عبس: ٢٠.

فللإنسان فطرة خاصّة تهديه إلى سنّة خاصّة في الحياة و سبيل معيّنة ذات غاية مشخّصة ليس له إلّا أن يسلكها خاصّة، و هو قوله: «فطرة الله الّتي فطر النّاس عليها»، و ليس الإنسان العائش في هذه النّشأة إلّا نوعاً واحداً لايختلف ما ينفعه و ما يضرّه بالنّظر إلى هذه البنية المؤلّفة من روح و بدن، فما للإنسان من جهة أنّه إنسان إلّا سعادة واحدة و شقاء واحد، فمن الضّروريّ حينئذٍ أن يكون تجاه عمله سنّة واحدة ثابتة يهديه إليها هاد

واحد ثابت، وليكن ذاك الهادي هو الفطرة نوع الخلقة، ولذلك عقّب قوله «فطرة الله الّتي فطر النّاس عليها» بقوله «لا تبديل لخلق الله».

فلو اختلفت سعادة الإنسان باختلاف الأفراد لم تنعقد مجتمع واحد صالح يضمن سعادة الأفراد المجتمعين، ولو اختلفت السعادة باختلاف الأقطار الّتي تعيش فيها الأمم المختلفة بمعنى أن يكون الأساس الوحيد للسنّة الاجتماعيّة أعني الدّين هو ما يقتضيه حكم المنطقة كان الإنسان أنواعاً مختلفة باختلاف الأقطار، ولو اختلفت السعادة باختلاف الأزمنة بمعنى أن تكون الأعصار والقرون هي الأساس الوحيد للسنّة الدّينيّة اختلفت نوعيّة كلّ قرن وجيل مع من ورثه من سابقيه وأخلفوه من لاحقيهم، ولم يسر الاجتماع الإنساني سير التكامل ولم تكن الإنسانيّة متوجّهة من النّقص إلى الكمال إذ لا يتحقّق النّقص والكمال إلّا مع أمر مشترك ثابت محفوظ بينهما.

وليس المراد بهذا إنكار أن يكون لاختلاف الأفراد أو الأمكنة أو الأزمنة بعض التأثير في نظام السنّة الدّينيّة في الجملة بل بيان أنّ الأساس للسنّة الدّينيّة هو البنية الإنسانيّة الّتي هي حقيقة واحدة ثابتة مشتركة بين الأفراد فللإنسانيّة سنّة واحدة ثابتة بثبات أساسها الّذي هو الإنسان، وهي الّتي تدير رحى الإنسانيّة مع ما يلحق بها من السنن الجزئيّة المختلفة باختلاف الأفراد أو الأمكنة أو الأزمنة.

وفيه خلط بين الفطرة والعقل، حيث إنّ إنسانيّة الإنسان وسريرته بفطرته وروحه الخاصّ معاً «ونفخت فيه من روحي: ص ٧٢» وفي ذاتها العلم والمعرفة والتوحيد والولاية، والعقل هو المبرز لما في كمون الإنسان وهاديه إليها من داخله، والشّرع هو الهادي من خارجه، كما أنّ حيوانيّة الإنسان وصورته بطبيعته وروحه الحيوانيّ العامّ وفي ذاتها الجهل والسّفاهة والشّرك والعداوة، وهوى النّفس هو الدّاعي إليها من داخلها، والشّيطان على صوره المختلفة، هو المحرّك من خارجها.

ولذلك كان النّاس أمّة واحدة في فطرتهم وروحهم الخاصّ وسريرتهم، ومختلفين في طبيعتهم وروحهم العامّ وصورهم باختلاف صورهم في كلّ ظرف من الظّروف. وهذا لا ينافي كون كلّ شيء ومنه الإنسان مفطوراً على التّوحيد تكويناً، حيث إنّ المراد من

الإنسان و غيره هو الزوج الخاص الذي يقتضي معنى، يسرح فيقال حسنة و غير حسنة و لا تكون من المعاني في الخلقة، من الأفعال.

أقول و على الأول أكثر المفسرين و في معناه أكثر الأقوال الأخر معنى الدين حقاً و مستقيماً فدبّر حنيفاً

و في قوله عزّوجلّ «لا تبديل لخلق الله» أقوال: ١ ـ عن سعيد بن جبير و ابن عبّاس و مجاهد و قتادة و ابن زيد و عكرمة و الضّحّاك و إبراهيم النخعي أي لا تغيير و لا تبديل و لا تحويل لدين الله الّذي فطر الناس عليه من توحيده و عبادته و الإخلاص لعبادته و أمركم بالثبات عليه و إنّ الّلا فهو نفي بمعنى النهي و المعنى فلا تبدّلوا دين الله تعالى بأن تشركوا بالله سبحانه و لا يصلح ذلك و المعنى أن يفعل ٢ ـ قيل أي ما خلق الله الخلق لم يكن لأحد أن يغيّر حقيقته، و المعنى لا تبديل لحقيقته الّتي فطرهم عليه بكون الإيمان الفطري غير كافٍ

٣ ـ قيل هذا خبر يراد به الأمر و تقديره لا تبدّلوا خلق الله وهو الفطرة و لا تفسدوا هذا الخلق السّويّ بما تختارون لأنفسكم من أهواء، بل عليكم بحراسة هذه النّعمة و عرضها على هدى الله تعالى بما تصدّت بها طائفة من الضّلال. ٤ ـ قيل إنّ المراد نفي الخطأ ٥ ـ قيل أي هذه الفطرة لا تبديل لها من جهة الخالق و لا يجيء الأمر على خلاف هذا بوجه فلا يشقى من خلقه سعيداً، و لا يسعد من خلقه شقيّاً فالمعنى لا تبديل لقضاء الله و قدره. ٦ ـ عن عمر بن الخطّاب و ابن عبّاس و عكرمة أي لا تغيير لخلق الله من البهائم بأن تخصى فحولها، فيكون معناه نهيٌ عن خصاء الفحول من الحيوان.

٧ ـ قيل هذه تسلية للرسول ﷺ حيث من قومه، فكأنّه قال إنّهم خلقوا أشقياء و من كتب شقيّاً لم يسعد. ٨ ـ قيل إنّ الخلق لا خروج لهم من عبوديته بخلاف ما ظنت الإنسان فإنّهم يخرجون من بدنهم بالتبليغ و العتق. ٩ ـ قيل أي لا تصحّحه و لا يستقيم لتبديل فطرة الله تعالى بالإخلال بموجبها و عدم ترتيب مقتضيات عليها باتّباع الهوى، و قبول وسوسة الشّياطين. ١٠ ـ قيل أي لا يقدر أحد على أن يغيّر خلق الله تعالى و فطرته سبحانه فلابدّ من حمل التبديل على تبديل نفس الفطرة بإزالتها رأساً، و وضع فطرة

أخرى مكانها، غير مصحّحة لقبول الحقّ و التمكّن من ... ته، إذ دلّت عليه الفطرة، فلا يمكن فيه التّبديل أجل للإنسان أهواء غير مشروعة و شهوات متعلقة مع الفطرة و تعسّف عليها و يمكن لا تمحوها و ستستبقيها من نفسها.

١١ـ قيل إنّ الكلام متعلق بالكفرة بأنه ليس شأنهم و جهة الدّين حنيفاً و هي فطرة الله الّتي فطر النّاس عليها فإنّ هؤلاء الكفرة خلق الله سبحانه لهم الكفر و لا تبديل لخلق الله أي إنّهم لا يفلحون ١٢ـ ... في معنى أي لا تبديل لخلق الله فيما دلّ عليه بمعنى أنّه فطرة الله على وجه يدلّ على صانع حكيم فلا يمكن ... خلقه حيث يغير الله حتّى يبطل وجه الاستدلال ١٣ـ قال الرّازي في تفسيره «و يحتمل أن يقال خلق الله الخلق لعبادته و هم كلّهم عبيده «لا تبديل لخلق» أي ليس كونهم عبيداً مثل كون المملوك عبداً للإنسان فإنّه ينتقل عنه إلى غيره و يخرج عن ملكه بالعتق بل لا خروج للخلق عن العبادة و العبوديّة و هذا لبيان فساد قول من يقول العبادة لتحصيل الكمال، فإذا كمل بالعبادة، فلا يبقى عليه تكليف، و قول المشركين إنّ الناقص لا يصلح لعبادة الله، و إنّما الإنسان عبد الكواكب و الكواكب عبيد الله، و قول النّصارى إنّ عيسى كان حلّ الله فيه، و صار إلهاً فقال «لا تبديل لخلق الله» بل كلّهم عبيد لا خروج لهم عن ذلك» انتهى.

و لا يخفى أنّه مغالطة بين الملك و العبادة التكوينيّتين، و الملك و العبادة التشريعيّتين، فإنّ الملك بمعنى الّذي لا يقبل الانتقال و البطلان هو الملك التكوينيّ بمعنى قيام وجود الأشياء به تعالى، و العبادة الّتي بإزائه عبادة تكوينيّة، و هي خضوع ذوات الأشياء له تعالى و لا يقبل التّبديل، و الترك كما في قوله «و إن من شيء إلّا يسبّح بحمده» الإسراء ٤٤، و أمّا العبادة الدّينيّة الّتي تقبل التبديل و الترك فهي عبادة تشريعيّة بإزاء الملك التشريعيّ المعتبر له تعالى.

و لو دلّ قوله «لا تبديل لخلق الله» على عدم تبديل الملك و العبادة و العبوديّة يدلّ على التكوينيّ منهما و الّذي يدّعيه القائلون بارتفاع التكليف عن الإنسان الكامل أو عبادة الكواكب أو المسيح فإنّما هو التشريعيّ منهما».

١٤ـ قيل إنّ هذا خبر في معنى النّهي التشريعيّ كأنّه سبحانه قال لا تبدّلوا دين الله

بالشرك والتحريف. وذلك أنّ العقل الإنساني كصحيفة بيضاء، فلذلك يمكن ما يراد أن يكتب فيها كالأرض يمكن كلّ ما يغرس فيها فهي تنبت حنظلاً وفاكهة ودواءً وسمّاً، والنفس يردّ عليها الديانات والمعارف فتقبلها والخير أغلب عليها من الشرّ كما أنّ أغلب نبات الأرض يصلح للرّعي والقليل منه سمّ لا ينتفع به، لا تعتبر بالآراء الفاسدة لأنّ عقلهم يقبلها ذلك كالأبوين اليهوديّين أو النصرانيين، ولو ترك العقل وشأنه يعرف أنّه الإله واحد ولم تسقه عقله إلى غير ذلك فإنّ تهيئته لا تدع بالأمر عدّ عنها من الخارج، هكذا صحيفة العقل لا تعتبر بالأمور خارجيّ يضلّها بعد علم

وفيه خلط بين الفطرة والعقل والنفس من جهة، وخلط في ذاتها ومقتضياتها من جهة أخرى، وجهل بين الأمر التكوينيّ والتشريعيّ من جهة ثالثة، وإنّ الفطرة ليست كالأرض، وإنّما هي كالشمس المضيئة الثابتة غير المتغيّرة في حال من الأحوال، وإنّ العقل هو الموصل لضوء الشمس إلى نفسها التي تكون مستعدّة لقبول الضوء وعدمه، فليس في الفطرة والعقل ضلالة أبداً

أقول: والتتبّع هو الحقّ وفي معناه بعض الأقوال الأخر فتأمّل جيّداً وتعمّق جدّاً فإنّ المقام مزالّ الأقدام

وفي قوله تعالى: «ذلك الدّين القيّم» أقوال: ١ ـ قيل: أي التوحيد وهو الدّين المستقيم على فطرة الله التي فطر النّاس عليها. ٢ ـ قيل: أي ما بيّناه من التوحيد والعدل وإخلاص العبادة لله هو الدّين المستقيم الّذي يجب اتّباعه. ٣ ـ عن ابن عبّاس: أي ذلك القضاء القيّم المستقيم. ٤ ـ قيل: أي الحقّ المستقيم لا عوج فيه عن الاستقامة من الحنيفيّة إلى اليهوديّة والنصرانيّة وغيرهما من الضلالات والبدع المبتدعة. ٥ ـ عن مقاتل: أي ذلك الحساب البيّن. ٦ ـ عن بريدة: أي ذلك الحساب القيّم

٧ ـ قيل: أي ذلك الدّين المأمور بإقامة الوجه له هو الدّين المستوي الّذي لا عوج فيه، ولا انحراف عن الحقّ بوجه من الوجوه. ٨ ـ قيل: إشارة إلى لزوم فطرة الله تعالى المستفاد من الإغراء. ٩ ـ قيل: أي ذلك الفطرة هو الدّين القيّم وتذكير «ذلك» باعتبار الخبر أو بتأويل المشار إليه بمذكّر. ١٠ ـ قيل: أي ذلك الدّين القيّم الّذي ينسجم مع الفطرة، وكلّ ما

ينقص عنه و يضطرّ معه فما هو من الدّين القيّم في شيء

أقول: و العاشر هو التّحقيق و الصّواب فتدبّر

و في قوله جلّ و علا «و لكنّ أكثر النّاس لا يعلمون» أقوال: ١ ـ قيل: أي كفّار مكّة لا يعلمون بتوحيد الله لأنّهم عموا أن يروا هذه الحقيقة، و إن منع لعلمهم أنّ هذا الدّين هو الدّين المطلوب للفطرة المتجاوب معها ٢ ـ قيل: أي و لكنّ أكثر النّاس في كلّ ظرف من الظّروف لا يعلمون صحّة ذلك الدّين القيّم لعدولهم عن النّظر فيه ٣ ـ قيل: أي لا يعلمون استقامة هذا الدّين. ٤ ـ قيل: أي لا يعلمون أنّ الدّين لله هو الإسلام، لعدم تدبّرهم في البراهين القاطعة الدّالّة عليه، و لو علموا ذلك حقّاً لاتّبعوه و ما صدّوا النّاس عن الاقتباس من نوره و ما سدّوا الطّرق أي طرق الحقّ منهم عنه.

٥ ـ قيل: أي لا يتفكّرون فيعلمون أنّ لهم خالقاً معبوداً، و أنّ له قدراً سبق قضاؤه و نفذ حكمه ٦ ـ قيل: أي إنّ الكفّار و المشركين و الفجّار و المستكبرين و المنافقين و المجرمين في كلّ زمان و مكان لإعراضهم عن الحقّ و الهدى، و صدّهم عن الصّواب و الرّشاد لا يعلمون أنّ الدّين الّذي أُمرت به محمّد (ص) به بقوله: «فأقم وجهك للدّين حنيفاً» هو الدّين الحقّ دون سائر الأديان و غيره. ٧ ـ قيل: أي لا يعلمون ذلك فيصدّون عنه صدوداً ٨ ـ قيل: أي لا علم لهم أصلاً، و لو علموا لعملوا، دلّ ذلك على أنّ الفعل منزّل منزلة اللازم ٩ ـ قيل: أي و لكنّ أكثر النّاس في كلّ ظرف من الظّروف لا يعلمون أنّ فطرة الله الّتي فطر النّاس عليها هي الدّين الحقّ الثّابت الّذي لا يعتريه باطل أبداً و لا تبديل فيه أصلاً، و هو الإسلام الّذي أكمله الله تعالى يوم الغدير و ارتضاه

أقول: و التّاسع هو الحقّ فتدبّر

٣١ ـ (منيبين إليه و اتّقوه و أقيموا الصّلاة و لا تكونوا من المشركين)

في الآية الكريمة أقوال: ١ ـ عن ابن عبّاس: أي كونوا مؤمنين أي مقبلين إلى الله بالطّاعة، و أطيعوه فيما أمركم به، و أتمّوا الصّلوات الخمس، و لا تكونوا مع المشركين على

دينهم

٢ـ قيل: أي ترجعوا راجعين إلى الله تعالى من الشرك إلى التوحيد و [illegible]
من المعصية إلى الطاعة و [illegible] و لا تكونوا من المشركين
على دينهم ٣ـ قيل: أي راجعين إلى الله سبحانه [illegible]
كشفه ٤ـ عن قتادة: أي تائبين إلى الله من الذنوب ٥ـ قيل: [illegible] حال من «الناس»
في قوله تعالى: «فطر الناس» على أنّه جلّ وعلا فطرهم منيبين تكويناً، فدعاهم إليه
[illegible] التكوين و التشريع. وأنّه أخبر بأنّهم عند الشدّة و البلاء يبيبون إليه
٦ـ قيل: أي راجعين إلى الله عزّ وجلّ بالتوبة و إخلاص العمل مرّة بعد أخرى. و منه
[illegible]
الرسول ﷺ [illegible]
برسول الله ﷺ [illegible]

[illegible]

[illegible]

٧ـ قيل: أي راجعين إلى الله تعالى [illegible] من غير ان تبق باقية، متّصفين بوفاقه،
[illegible]
[illegible]
[illegible] ٨ـ قيل: أي رجعوا إلى [illegible]
٩ـ قيل: أي منقطعين إلى الله تعالى [illegible]
[illegible] و اتّقوا الله من
[illegible] ولا تكونوا من المشركين [illegible] الصّلاة ١٠ـ عن عبد الرحمن بن
زيد: أي مطيعين لله تعالى [illegible]
١١ـ عن يحيى بن سلام [illegible] إلى الله تعالى [illegible]
تعالى به، و أدّوا الصّلاة في أوقاتها

١٢ ـ قيل: تتمّة من كلام سابق أي: يا أيّها النبي ﷺ لا تعتن بشرك المشركين و صلاتهم فإنّهم سيتوبون إلى الله تعالى يوم الضرّ و الضيق، و ذلك دليل على كون فطرة الإنسان هو التوحيد

١٣ ـ قيل: تقديره يا أيّها المؤمنون لا تخرجوا من شرك المشركين فإنّهم ينيبون يوم الشدّة و البلاء إلى الله تعالى

أقول: و الثاني هو الأنسب بظاهر المعنى، من دون سابقه و من كثير الأقوال الأخر فتأمّل جيداً

٣٢ ـ ﴿من الّذين فرّقوا دينهم و كانوا شيعاً كلّ حزب بما لديهم فرحون﴾

في قوله تعالى: «من الّذين فرّقوا دينهم» أقوال: ١ ـ عن ابن عبّاس و مقاتل: أي تركوا دين الإسلام الّذي أُمروا به فجعلوه ذا ملل مختلفة لاختلاف أهوائهم و متابعة شهواتهم و قصور إدراكهم، و ذلك أنّه لم يستقم لهم أنّ الاختلاف في بعض الفروع يوجب الاختلاف في الأصول، فصاروا فرقاً: اليهود و النصارى و سائر أهل الملل و النحل و الناس كانوا أُمّة واحدة، و هي الفطرة المستقيمة، فلمّا اعوجّت فطرتهم بالمعاصي و اتّباع الأهواء صنعوا ديناً بمقدار اعوجاج فطرتهم ٢ ـ قيل: أي اختلفوا في أصول دينهم ٣ ـ قيل: أي اختلفوا في فروع دينهم مع اتّفاقهم في أصول دينهم ٤ ـ قيل: أي فرّقوا دينهم في اعتقاداتهم مع اتّحاد معبودهم

٥ ـ قيل: إنّ قوله تعالى: «من الّذين» بدل من قوله: «من المشركين» بإعادة الجار و فائدة الإبدال التحذير عن الانتماء إلى حزب من أحزاب المشركين ببيان أنّ الكلّ على الضلال المبين و المعنى: إنّ المشركين اختلفوا فيما كانوا يعبدونه على اختلاف أهوائهم من الأوثان و الأصنام على أشكال مختلفة، و من الملائكة و غيرهم من الشمس و النار و ما إليها حسب مشتهياتهم ٦ ـ عن قتادة و معمر: أي افترقت اليهود إحدى و سبعين فرقة، و النصارى اثنين و سبعين فرقة، و المسلمون ثلاثة و سبعين فرقة ٧ ـ عن قتادة أيضاً و الفرّاء: تقدير الكلام و لا تكونوا من المشركين من جملة الّذين فرّقوا دينهم و بدّلوه و

خالفوه فتفرّقوا وكانوا أحزاباً كاليهود والنصارى

٨ ـ قيل: أي أقاموا في دينهم على غير ثقة، وعبدوا الجهل والتقليد، فركنوا إلى ظنونهم، واستوطنوا مركب أوهامهم، وتولّوا من كسب غيرهم، وظنّوا أنّهم على شيء، فإذا انكشف ضباب وقتهم، وانقشع سحاب جحدهم، انقلب فرحهم ترحاً، واستيقنوا أنّهم كانوا في ضلالة، ولم يفرحوا إلّا في أوطان جهالة. ٩ ـ قيل: كلّ من خالف دين الحقّ الّذي أمر الله تعالى به فهو داخل فيه

١٠ ـ قيل: تقديره الّذين تفرّقوا والمتفرّقون جعل أحد الشيئين مفارقاً لصاحبه، وضدّه الجمع، وهو جمع أحد الشيئين إلى صاحبه، فالمفرّقون الّذين جعل أحدهما ليس مع الآخر في معنى ما يدعو إليه العقل وهو منكر بخلاف داعي العقل. والدّين هو العمل الّذي يستحقّ به الجزاء، ودين الإسلام هو العمل الّذي عليه الثواب ولو جمعوا دينهم في أمر الله ونهيه لكانوا مصيبين، ولكنّهم فرّقوا بإخراجه عن حدّ الأمر والنهي من الله وكانوا بذلك مبطلين خارجين عن الحقّ الّذي أمر الله به

١١ ـ قيل: أي من المشركين الّذين بدّلوا دين الفطرة وغيّروه وكانوا في ذلك فرقاً مختلفة كلّها جانبت الحقّ، وركنت إلى الباطل كاليهود والنّصارى والمجوس وعبدة الأوثان وسائر الأديان الباطلة. فهي في الجملة تعريف المشركين بأخصّ صفاتهم في دينهم وهو تفرّقهم في دينهم وعودهم فرقة فرقة، وحزباً وحزباً بعد حزب، وسرور كلّ فرقة وحزب بما عندهم من الدّين الباطل، والسبب في ذلك ما ذكره قبل هذا بقوله تعالى: «بل اتّبع الّذين ظلموا أهواءهم فمن يهدي من أضلّ الله وما لهم من ناصرين»

فبيّن أنّهم بنوا دينهم على أساس الأهواء، وأنّه عزّ وجلّ لا يهديهم ولا هادي غيره، ومن المعلوم أنّ هوى النفس لا يتّفق في النفوس، بل ولا يثبت على حال واحدة دون أن يختلف باختلاف الأحوال، وإذا كان هو الأساس للدّين لم يلبث دون أن يسير بسير الأهواء، ويتحوّل بتحوّلها، ولا فرق في ذلك بين الدّين الباطل، والدّين الحقّ المبنيّ على أساس الهوى، ومن هنا يظهر أنّ النهي عن تفرّق الكلمة في الدّين نهي في الحقيقة عن بناء الدّين على أساس الهوى دون العقل.

١٢ـ قيل: هذا النّهي لأهل القبلة من أصحاب الهوى والبدع، فـ«من الّذين» منقطع عمّا قبله. والمعنى: من المفارقين دينهم، كلّ حزب بصفة كذا.

أقول: وعلى الحادي عشر أكثر المفسّرين، وفي معناه بعض الأقوال الأخر فتأمّل جيّداً.

وفي قوله سبحانه: «وكانوا شيعاً» أقوال: ١ـ عن الكلبي: أي وكانوا فرقاً مختلفة كأهل البدع في هذه الأمّة تخالف كلّ فرقة فرقة أخرى، والشّيع الفرق الّتي يجمع كلّ فريق منها على مذهب، خلاف مذهب الفريق الآخر، وشيعة الحقّ هم الّذين اجتمعوا على الحقّ، وكذلك شيعة أمير المؤمنين علي عليه السلام هم الّذين اجتمعوا معه على الحقّ، وشيعة الباطل هم الّذين اجتمعوا على الباطل كسائر الفرق الإسلاميّة من شيعة أصحاب السّقيفة.

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين أمير المؤمنين علي عليه السلام فيهم: «حتّى يكون بعضكم أئمّة لأهل الضّلالة، وشيعة لأهل الجهالة». ٢ـ قيل: أي فرقاً يتبع كلّ منها إمامها الّذي مهّد لها دينها، وأضلّ دينها وقرّره ووضع أصوله.

٣ـ قيل: أي افترقوا شيعاً وأهواءً في أمر الدّين، فمنهم المعترف بالله مع إشراك غيره به من ملائكة وغير ملائكة، ومنهم الوثني، ومنهم عابد الكواكب، ومنهم عابد النّار وغيرها، لكنّها جميعه لاتّباع أهواء النّفوس ومآربها، وعشق كلّ فرقة بربّها عشق التّعصّب الأعمى والتّلهي عنه. ٤ـ قيل: أي تركوا دينهم الحقّ وصاروا فرق اليهود والنّصارى والمجوس.

أقول: وعلى الثّالث أكثر المفسّرين، وإن كان الجمع غير بعيد.

وفي قوله عزّوجلّ: «كلّ حزب بما لديهم فرحون» أقوال: ١ـ عن ابن عبّاس: أي كلّ أهل دين بما عندهم من الدّين معجبون يرون أنّه حقّ. ٢ـ قيل: أي كلّ حزب بما اختاروه من المسالك والطّرق مسرورون لاعتقادهم أنّه الحقّ، وما سواهم هو الباطل. ٣ـ قيل: أي كلّ حزب بما لديهم من الدّين المعوج المؤسّس على الرّأي الرّائغ، والزّعم الباطل، مسرورون ظنّاً منهم أنّه حقّ، إذ لم يتبيّنوا الحقّ، وعليهم أن يتبيّنوه. ٤ـ عن مقاتل: أي كلّ أهل دين بما عندهم من الدّين راضون، وكلّ قوم تشاكلت قلوبهم و

عباداتهم فهم أحزاب، وإن لم يسمّ بعضهم بعضاً.

٥ـ قيل: أي كلّ فريق بما لديهم فرحون من الاعتقاد الذي يعتقدونه مسرورون به لاعتقادهم أنّه الحقّ دون غيره. ٦ـ قيل: أي كلّ طائفة من هؤلاء الذين فرّقوا دينهم الحقّ، وأحدثوا من البدع ما أحدثوا فرحون بما هم به مستمسكون، ويحسبون أنّ الصواب لا يعدوهم إلى غيرهم من الملل والنحل والمذاهب الأخرى لأنّهم كانوا لم يحققوا نعمه، ولم يطلبوا، كما علموا لكثير من رؤساء الفرق في الأمّة الإسلامية اليوم.

٧ـ قيل: كلّ حزب بما لديهم فرحون: معجبون. ٨ـ قيل: أي راضون بما أعطاهم الله جلّ وعلا قد يكون فرحاً بمعصية، فكم من الناس وقطّاع الطرق وحكّام الجور وغيرهم. ٩ـ قيل: أي أوقعوا فيما بينهم الاختلاف والتنازع وذلك لأنّ طائفة منهم تعبد الذئب وبعضهم تعبد الهوى وبعضهم يريد الجنّة وبعضهم يريد الخلاص من النار وهكذا.

أقول: وعلى الأخير أكثر المفسرين وفي معناه تعرّض الأول الآخر فتأمّل جيداً.

٣٣ـ (وإذا مسّ الناس ضرّ دعوا ربّهم منيبين إليه ثمّ إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربّهم يشركون)

في الآية الكريمة أقوال: ١ـ عن الحسن: أي وإذا أصاب هؤلاء المشركين مرض أو فقر أو شدّة أو قحط أو جدب، دعوا الله وحده، منقطعين عن غيره، راجعين إليه جلّ وعلا، مخلصين له تعالى في الدعاء، ثمّ إذا أذاقهم الله سبحانه من فضله رحمة، خلاصاً من تلك الشدّة بأن عافاهم من المرض أو أغناهم من الفقر أو نجّاهم من الشدّة أو من الخوف أو الاضطراب، نعمة منه تعالى عليهم إذا جماعة منهم أي فريق (بربّهم يشركون) الذي عافاهم، فيعودون إلى عبادة غير الله من الأوثان والأصنام وغيرها خلاف ما يقتضيه العقل في مقابلة النعمة بالشكر، فهؤلاء المشركون عند الشدّة والبلاء يتضرّعون إلى الله جلّ وعلا ويُنيبون إليه، وإذا خلصوا منها، ففريق منهم يرجعون إلى شركهم الأولى، ويشركون به الأوثان والأصنام والكواكب والنجوم والملائكة وما إليها من الآلهة المختلفة

٢ ـ قيل: إنّ الآية الكريمة بصدد بيان فطرة الناس وهي التوحيد وطبيعتهم وهي الشرك، بأنّ الناس حسب فطرتهم وكوامنهم كلّهم عند الشدّة والبلاء يرجعون إلى ما تقتضيه فطرتهم وهو التوحيد والتضرّع والإخلاص، فيتضرّعون إلى الله تعالى وحده ليكشف عنهم الضرّ، وإذا خلصوا من البلاء فالكثير منهم يرجعون إلى ما تقتضيه طبيعتهم وهو الشرك والعصيان والضلال.

٣ ـ قيل: أي إذا أصاب الكفّار والمستكبرين، والفجّار والمجرمين... المحنة، ونالتهم المصيبة ومسّتهم شدّة رجعوا إلى الله بجميعهم به متضرّعين وبلطفه مستجيرين، وعن نعمته مستكشفين، فإذا خلّصهم بكشف ما بهم وتطوّل عليهم بالعطف والرحمة ومنّ عليهم فإذا فريق منهم لا كلّهم مشركون بربّهم فيعودون إلى عاداتهم القديمة في الكفر والعصيان والعدوان إحسانه بالعقوبة والشيطان، هؤلاء ليس لهم عهد ولا وفاء، ولا في مودّتهم صدق وصفاء.

٤ ـ عن ابن عبّاس: أي إذا أصاب أهل مكّة شدّة يدعون إلى الله سبحانه وحده دون الأصنام منيبين إليه لأنّه لا فرج عنهم يدعون الله تعالى برفع الشدّة وكشف ما نزل بهم، ثمّ إذا أصابهم من الله عزّ وجلّ نعمة من سعة في الرزق، والسعة في الخصب والخصب والرخاء يشركون بربّهم في الرخاء، وقد وحّدوه في الضرّاء، ويعبدون به الأصنام.

٥ ـ قيل: إنّ المراد بالناس المؤمنون. ٦ ـ قيل: لمّا وقع على مشركي مكّة بلاء وهو احتباس المطر، جعلوا يدعون الله تعالى وحده، فلمّا يكشف عنهم بمرور القحط، فجماعة منهم عادوا إلى شركهم الشيطاني، وقدموا القرابين إلى أوثانهم عند عطوبه. ٧ ـ قيل: إنّ المراد بالناس طائفة من المشركين لا كلّهم بأنّ طائفة منهم يرجعون عند البلاء إلى الله عزّ وجلّ، وطائفة أخرى منهم يقنطون من رحمة الله عند الشدّة والبلاء.

أقول: والثاني هو الأنسب بظاهر السياق فتدبّر جيّداً.

٣٤ ـ ﴿ليكفروا بما آتيناهم فتمتّعوا فسوف تعلمون﴾

في الآية الكريمة أقوال: ١ ـ عن ابن عبّاس: أي حتّى يكفروا بما أعطيناهم من النعمة

فعيشوا يا أهل مكّة في الدنيا، فسوف تعلمون ماذا يفعل بكم في الآخرة. فاللام في «ليكفروا» بمعنى «حتّى». ٢ـ عن مقاتل أي دعاهم الله تعالى رحمة منه ليكفروا بالذي أعطاهم من الخير، فتمتّعوا قليلاً إلى آجالكم فسوف تعلمون ما يفعل بكم يوم القيامة

٣ـ قيل إنّ النعمة كانت سبيلاً لكفرهم، فكأنّه أعطاهم لذلك كقوله تعالى: «فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوّاً وحزناً» القصص: ٨) فالمعنى: فليكفروا ما شاء لهم كفرهم و ليتمتّعوا بالمال والرخاء من الزمن، فسوف يرون نتيجة هذا الكفر وشؤمه عليهم ووبال تمتّعهم

٤ـ قيل اللام للتعليل، بناءً على أنّ شركهم هو علّة لكفرهم بما آتاهم الله تعالى من نعمه، فهم بهذا الشرك يكفرون نعم الله سبحانه عليهم، ولا يضيفونها إليه جلّ وعلا، بل يجعلونها لمعبوداتهم التي يعبدونها من دون الله، فليتمتّعوا بما هم فيه، وسوف يعلمون ما جرّه عليهم كفرهم وشركهم من بلاء شديد وعذاب أليم. ٥ـ قيل أي عسى فريق سيحدث لهم مثل ما أصابهم، لأنّهم يعودون إلى التضرّع والجؤار فيما كانوا عليه سابقاً من التخشّع، فإذا أشركوهم وعادوهم رجعوا إلى رأس حصائدهم

٦ـ قيل إنّ قوله تعالى «ليكفروا بما آتيناهم» بيان لشركهم بالله سبحانه أنّ فريقاً من الناس يشركون بالله جلّ وعلا ليكفروا بما آتاهم الله عزّوجلّ من نعمه، ثمّ هدّدهم بقوله «فتمتّعوا» أي انتفعوا بهذه النعم المؤقّتة كيف شئتم فسوف تعلمون ما فيه من كفركم ومعصيتكم أي تصيرون في العاقبة إلى عذاب الله وأليم عقابه، فسوف تعلمون عاقبة تمتّعكم ٧ـ قيل إنّ اللام بمعنى «كي» والمعنى فليجحدوا النعمة عليهم والإحسان إليهم كيف شاؤوا، كقوله تعالى «فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر» الكهف: ٢٩) وقوله سبحانه «اعملوا ما شئتم إنّه بما تعملون بصير» فصّلت: ٤٠).

فإنّ لهم يوماً يحاسبهم فيه، يوم يؤخذون بالنواصي ويجرّون بالسلاسل والأغلال، و يقال لهم «ذوقوا ما كنتم تعملون» العنكبوت: ٥٥) فتمتّعوا بما آتيناكم من الرخاء وسعة النعمة في الحياة الدنيا، فما هي إلّا أوقات قصيرة تمضي كلمح البصر، فسوف تعلمون إذا وردتم عليّ ما يصيبكم من شديد عذابي، وعظيم عقابي على كفركم بي في الدنيا

٨ـ قيل اللام للأمر للتهديد، وقوله «فتمتّعوا» مفرّع على «ليكفروا» وهو أمر آخر،

والأمرين جميعاً يلتفت به
أقول: ولكلٍّ وجهةٌ فتأمّل جيّداً.

٣٥ـ (أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلّم بما كانوا به يشركون)

في الآية الكريمة أقوال: ١ ـ عن قتادة والضحّاك والربيع بن أنس: أي أنزلنا على هؤلاء المشركين كتاباً من السّماء فهو ينطق بشركهم أو فيه تصديق لما يقولون، وإرشاد إلى حقيقة ما يدّعون؟ والمقصد الاستفهام، ولكنّ المراد به النفي أي ولم ينزّل عليهم كتاباً بما يقولون، ولا أرسل به رسول من عند الله سبحانه، وإنّما هو شيء فعلوه اتّباعاً لأنفسهم الأمّارة بالسّوء وأهوائهم. ٢ ـ قيل: أي هل أرسلنا عليهم رسولاً يتكلّم بما أرسلناه يدعونه من الإشراك مع الله سبحانه في العبادة؟ فإنّهم لا يقدرون على ذلك ولا يمكنهم ادّعاء رسالة رسول إلى ذلك وإنّما هو شيء فعلوه وجحدوه اتّباعاً منهم لأهوائهم

كأنّه قال: إذا تقرّرت لهم الحجج المذكورة على التّوحيد، فما يقولون في شركهم بالله سبحانه؟ أيتّبعون أهواءهم في شركهم بغير علم؟ أم لهم دليل على ذلك؟ فإذ لم يكن لهم دليل عليه، فهم يتّبعون أهواءهم في ذلك جهلهم، فالسّبب في اتّباعهم لأهوائهم هو جهلهم وسفاهتهم، وإنّ الكلام وإن خرج مخرج الاستفهام ولكنّ المراد به التّبكيت.

٣ ـ قيل: أي بل أنزلت عليهم ملكاً فهو يتكلّم بالبرهان الّذي كانوا به يشركون أو هو يتكلّم بشركهم، فالمراد بالسّلطان ذو السّلطان وهو الملك أو من معه برهان وبناء على هذا المعنى فلا مجاز في الإنزال والتّكلّم. ٤ ـ قيل: أي علّمنا هؤلاء المشركين برهاناً فهو يدلّ أو يشهد على ما كانوا به يشركون أو بشركهم؟ هذا بناء على أنّ «أم» منقطعة والمراد بالإنزال هو الإعلام أو التّعليم مجازاً والمراد بالسّلطان البرهان، وبالتّكلّم الدّلالة والشّهادة مجازاً عقليّاً كما تقول كتابه ناطق بكذا وهذا ممّا نطق به القرآن كقوله تعالى «هذا كتابنا ينطق عليكم بالحقّ» الجاثية: ٢٩.

٥ ـ قيل: أي أم أنزلنا عليهم عذراً بأنّ الّذي هم عليه حقّ وصواب. ٦ ـ عن ابن عبّاس: أي هل أنزلنا على أهل مكّة كتاباً فيه العذر والبرهان من السّماء، فهو يشهد و

ينطق بما كانوا بالله يشركون أي يقولون أنّ الله أمرهم بذلك ٧ ـ عن ابن عباس و الضحّاك سلطاناً أي بل أنزلنا عليهم برهاناً و حجّة مستطيلين تدلّ على ما ذهبوا إليه، فذلك البرهان كأنّه يتكلّم بصحّة شركهم و يحتجّ لهم به؟! و المعنى إنّهم لا يقدرون على تصحيح ذلك و لا يمكنهم ادّعاء برهان و لا حجّة عليه ٨ ـ قيل أي أنزل عليهم آية تدلّ على صحّة شركهم بالله سبحانه و كفرهم بنعمه تعالى

أقول: و التعميم هو الأنسب لظاهر الإطلاق فتأمّل جيّداً

٣٦ ـ ﴿و إذا أذقنا النّاس رحمة فرحوا بها و إن تصبهم سيّئة بما قدّمت أيديهم إذا هم يقنطون﴾

في الآية الكريمة قولان: ١ ـ قيل أي إذا أذقنا كفّار مكّة و غيرهم رحمة فرحوا بها و الرّحمة هي المطر و الصّحّة و الغنى و السّعة في الرّزق و إن تصبهم سيّئة و هي الجوع و الجدب و الفقر و المرض و الشّدّة بسبب معاصيهم التي قدّمتها أيديهم إذا هم يئسون من الرّزق و الرّحمة فالكفّار في كلّ ظرف من الظروف فهم فرحون و بطرون في حالة اليسر و النّعمة و يقنطون و ييأسون في حالة الشّدّة و الفقر، فسبيلهم طوع أهوائهم، فإن كانت نعمة فإلى فرح و إن كانت شدّة فإلى قنوط و يأس و ليس وصف المؤمنين الصّادقين كذلك «لكيلا تأسوا على ما فاتكم و لا تفرحوا بما آتاكم» الحديد: ٢٣.

٢ ـ قيل النّاس هنا هو مطلق النّاس، فإنّ من شأن الإنسان من حيث هو إنسان إذا أذاقه الله تعالى من رحمته، و أفاض عليه من نعمه، فرح و رضي و بطر و إن أصابه سوء بكربة و سيّئة ضلّ و طاف به طائف اليأس و القنوط كقوله تعالى «إنّ الإنسان خلق هلوعاً إذا مسّه الشّرّ جزوعاً و إذا مسّه الخير منوعاً إلّا المصلّين الّذين هم على صلاتهم دائمون» المعارج: ١٩ ـ ٢٣.

و النّاس في هذا درجات متفاوتة فالمؤمنون منهم على حال، غير حال الكفّار و المشركين، و الفجّار و المستكبرين، و المنافقين و الملحدين، و البغاة و الظّالمين، و الطّغاة و المجرمين منهم.

ثمّ إنّ المؤمنين ليسوا كلّهم على حال واحدة بل هم درجات، والدرجة التي يتحقّق بها إيمان المؤمن على صورة سويّة محمودة هي أن لا يستخفّه الفرح إذا أصابته نعمة، ولا يدخل عليه اليأس والقنوط من رحمة الله تعالى إذا مسّه ضرّ أو أصابته سوء فهو على رجاء أبداً من رحمة الله عزّ وجلّ وإنّه ـ وهو في بلاء ـ [illegible] طعمه و[illegible] مؤمن [illegible] فمن شأن المؤمن أن يشكر عند نعمه، ويرجو ربّه عند شدّة.

٣ـ قيل: أي وإذا أذقنا الناس رحمة من عندنا بأن نعمة عليهم بغزارة الأمطار، وتصحيح أجسامهم وبدر أرزاقهم وتكثير مواشيهم وغير ذلك من النعم وإنّهم يفرحون بذلك، ويسرّون، وإن أصابتهم عقوبة من الله تعالى جزاء على ما كسبته أيديهم إذا هم يقنطون من رحمة الله تعالى.

وذلك أنّ الإنسان قد كان في طبيعته الفرح والبطر حين تصيبه النعمة كما حكى الله تعالى عنه: «ليقولنّ ذهب السيّئات عنّي إنّه لفرح فخور» هود.

وإذا أصابته شدّة جهله بحكمة الله وعقوبته ومن ذنبه قنط من رحمة الله وأيس منها فهو كما قيل:

كحمار السوء إن أعلفته ... رمح الناس وإن جاع نهق

وأمّا المؤمنون وعقلاء الناس فإنّهم [illegible] إن أصابتهم ما يصيبهم من خير أو شرّ، علماً منهم أنّ الله حكيم لا يفعل إلّا ما فيه خير بعبده، وفي الحديث الصحيح: «عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاءً إلّا كان خيراً له، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له».

٤ـ قيل: إنّ المراد بالناس في هذه الآية فريق آخر غير فريق المراد بالناس في الآية السابقة، وهو فريق [illegible] في حال، [illegible] في حال أخرى والمعنى: وإذا عرف فريقاً من الناس رحمة أي النعمة والصحّة والثروة والقوّة بطروا بسببها، وإن تصبهم شدّة بسبب شؤم معاصيهم سنن الحياة إذا هم فاجأوا القنوط من رحمته. ٥ـ عن ابن عبّاس: أي وإذا أصبنا كفّار مكّة نعمة عجبوا بها غير شاكرين بها و

وإن تصبهم شدّة ضيق وقحط ومرض بما عملت أيديهم في الشرك إذا هم ييأسون من رحمة الله غير صابرين بها

عن يحيى بن سلام: «رحمة» أي خصب وسعة وعافية. وعن الضحّاك: أي نعمة ومطر وقيل أمن ودعة «وإن تصبهم سيئة» عن مجاهد: أي بلاء وعقوبة. وعن السدّي: أي قحط وانقطاع المطر وشدّة، وسمّيت سيّئة لأنّها تسوء صاحبها «بما قدّمت أيديهم» أي بما عملوا من المعاصي «إذا هم يقنطون» من الرّحمة والفرج. وعن الحسن: إنّ القنوط ترك فرائض الله سبحانه في السّرّ. وعن الجبّائي: أي وإن أصابهم بلاء وعقوبة بذنوبهم التي قدّموها وسمّيت سيّئة توسّعاً لكونه جزاء على السيّئة

٦ - إنّ الآية صفة للكافر الّذي يقنط عند الشدّة، ويبطر عند النّعمة وكثير ممّن لم يرسخ الإيمان في قلوبهم بهذه الصّفة، وأمّا المؤمن حقّاً فيشكر ربّه عند النّعمة، ويرجو فضله عند الشدّة والبلاء.

أقول: والذي هو الأنسب بظاهر السّياق سياقاً على أنّ الآية الكريمة بصدد بيان طبيعة الإنسان بما أنّه إنسان، وبيان أنّ المؤمن على خلاف الكافر على أنّ فطرة المؤمن بالتّبعيّة لعقيدته غالبة على طبيعته، وأنّ طبيعة الكافر بالتّبعيّة لهواه غالبة على فطرته فتدبّر جيّداً واغتنم جداً ولا تغفل

٣٧-(أولم يروا أنّ الله يبسط الرّزق لمن يشاء ويقدر إنّ في ذلك لآيات لقوم يؤمنون)

في الآية الكريمة أقوال: ١ - أي لم يشاهد هؤلاء المشركون ولم ينظروا ولم يعلموا أنّ بسط الرّزق وقدره من الله تعالى؟ فما بالهم لم يشكروا في السّرّاء، ولم يحتسبوا في الضّرّاء كما يفعل المؤمنون؟ فإنّ من فطر هذا الكون لا تزال مشيئته بعباده إلاّ لما هم فيه من الخير كالتّأديب والتّذكير والامتحان، فهو جلّ وعلا كما يربّي عباده بالرّحمة يربّيهم بالتّعذيب، فلو أنّهم شكروا الله جلّ وعلا حين السّرّاء، وتضرّعوا إليه سبحانه في الضّرّاء، لكان خيراً لهم، فيجب عليهم أن يسموا إليه في الشّدّة والرّخاء، ولا يعوقهم عن الإنابة إليه نعمة

بطرهم ولا شدّة تحدث في قلوبهم اليأس، وبل يكونون في الحالين مستبصرين إنه

إنّ في ذلك البسط على من يُبسط له والقدر على من قدر عليه لدلالة واضحة لقوم يؤمنون بالله تعالى، ويصدّقون حججه إذ عرفوها، ويستدلّون بها على كمال علمه وحكمته وتدبيره وقدرته، فيوسّع الرزق ويضيّقه بحسب الأسباب التي هيّأها شرعاً وعقلاً وأمّا المال الحرام فليس من رزق الله سبحانه في شيء

٢ـ قيل أي أولم يفكر الناس جميعاً في كلّ زمان ومكان فيعلموا أنّ الله يوسّع الرزق لمن يشاء ممن يرى صلاحه في ذلك ويضيّق على من يشاء ممن يرى صلاحه في ذلك

وبسط الرزق الزيادة على مقدار القوت منه مما يظهر حاجته، وأصل البسط نشر الشيء عما يظهر به طوله وعرضه، وبسط الرزق مشبّه به إنّ في بسط الرزق لقوم، وتضييقه لقوم آخرين لدلالات لقوم يؤمنون بالله تعالى لأنّهم يعلمون أنّ البسط والتضييق من فعل الله الذي لا يعجزه شيء

وذلك أنّهم يعلمون بل كأنّهم يرون أنّ الرزق الذي يناله الإنسان ويكسبه متوقّف على آلاف من الأسباب والشرائط، ليس الإنسان الذي يراه سعيه إلّا أحد تلك الأسباب، ولا السبب الذي يركن إليه ويطمئن به نفسه إلّا بعض تلك الأسباب، وأنّ الأسباب كلّها تنتهي إلى الله جلّ وعلا فهو الذي يعطي ويمنع، وهو الذي يوسّع ويضيّق، فلا ينبغي للإنسان في البسط والتضييق أن يعلّق نفسه بغير الله تعالى لأنّ ما يسوءه ليس روايته إلّا بالله سبحانه، وما يسرّهم ليس وجوده إلّا من الله تعالى، فالبسط الذي يسرّهم ويؤنسهم منه وجوده والنقص الذي يسوؤهم ويوحشهم من الله وصوابه، فالواجب لزوم ساحة الأسرار، وقطع الأفكار عن الأغيار

٣ـ عن ابن عبّاس أي أولم يعلم كفّار مكّة في التكذيب أنّ الله يوسّع المال على من يشاء، وهو مكرمة منه سبحانه ويقتر على من يشاء، وهو نظر منه إنّ في البسط والتقتير لعلامات وعبر لقوم يؤمنون بمحمّد (ﷺ) وبالقرآن ٤ـ قيل أي أولم ير هؤلاء الذين يفرحون عند الرخاء يصيبهم والخصب، وييأسون من الفرج عند شدّة تنالهم بعيون قلوبهم، فيعلموا أنّ الشدّة والرخاء بيد الله تعالى

أقول: وعلى الثاني [illegible] اختصاص فقط.

٣٨ـ (فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون).

في قوله تعالى «فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل» أقوال: ١ـ عن مجاهد والسدي الخطاب للرسول ﷺ خاصة بعطي ذا قرابته حقوقهم أي حقهم الذي لهم من الأخماس.

والمعنى أعط أيها النبي ﷺ ذوي قرابتك حقوقهم أي حقهم الذي لهم في الأخماس.

٢ـ قيل إن الخطاب وإن كان متوجهاً إلى الرسول ﷺ ولكنه متوجه إلى جميع المكلفين وذو القربى صاحب القرابة من الأقرباء وفي إضافة الحق إلى الضمير دلالة على أن لذي القربى حقاً ثابتاً والظاهر أنه لا يختص بما في القرآن من أن لهم الخمس، واستكشف النبي ﷺ وسبعة عشر ممن كلف بالخمس وأقرباء قرابة النبي ﷺ كما في آية الخمس وآية المودة.

٣ـ قيل أي فآت أيها الرسول ﷺ ذا القربى قرابتك حقه الذي هو فدك وهو فدك لفاطمة الزهراء عليها السلام حقها وعن ابن عباس عن أبي سعيد الخدري لما نزلت هذه الآية أعطى النبي ﷺ فاطمة الزهراء عليها السلام فدكاً وسلمها إليها.

٤ـ قيل الخطاب من الله تعالى لمن [illegible] عليه في هذا الخطاب لكل واحد من المسلمين لإعطاء حقوق ذوي قرابتهم والمسكين وابن السبيل ٥ـ قيل أي فأعط ذا القربى حقه، وحق القرابة هو البر والعطف وصلة الرحم والصدقة وسائر المبرات وأعط المسكين وابن السبيل حقه وحقه أن يتصدق عليه بشيء، وأعط ابن السبيل وهو الضيف النازل، وحقه أن تحسن ضيافته وقيل المسكين هو المحتاج وابن السبيل هو المسافر ذو الحاجة والضيف النازل.

٦ـ قيل أمر موجه للمجتمع بوجوب إعطاء ذي القربى والمساكين وأبناء السبيل حقوقهم والإحسان إليهم والمساكين [illegible] من المسلمين، وابن السبيل هو المسافر ذو الحاجة في سفره وإن كان غنياً في بلده ٧ـ قيل هذه النصيحة تصح عن مقدر تقديره [illegible]

سفره وإن كان غنياً في بلده ٧ـ عن [illegible] فصحّحه [illegible] من مقدار [illegible] عرفت أنّ [illegible] أصحابهم [illegible] من الذنوب [illegible] وإنّ أمره على [illegible] [illegible] و[illegible] الذي [illegible] حقّ الموالد من الآباء و[illegible] الرّحم [illegible] لغير [illegible] وإشراف على [illegible] [illegible] على [illegible] من كلّ علّة، فاشتغال الرّجل براعاة القلب يجعل حقّه [illegible] ٧ـ عن الحسن إنّ المراد بالقربى: قرابة الرّجل وهو أمر بصلة الرّجل بالمال [illegible] وعنه [illegible] «حقّه» المواساة في اليسر [illegible] في العسر.

٧ـ عن [illegible] الرسول ﷺ [illegible] من [illegible] لأقرب [illegible] من ملك صلة الرحم [illegible] لأنهم أحقّ الناس [illegible] إلى ذوي [illegible] من المساكين [illegible] الأسى [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible]

فلا [illegible] [illegible] [illegible]

٨ـ عن [illegible] المراد بالحقّ هو [illegible] معروفه ٩ـ عن [illegible] المراد بالحقّ الحقّ المالي، و[illegible] المراد بذي القربى [illegible] المطّلب أمر الله تعالى رسوله ﷺ [illegible] حقّهم من [illegible] ١٠ـ عن ابن عبّاس [illegible] محمّد [illegible] القربى في الرّحم [illegible] ثلاثة [illegible] فوق ذلك فهو صدقة معروف

أقول: و[illegible] هو مرويّ عن أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين، فرجع إلى [illegible] و[illegible] و[illegible] مفصلاً فانتظر

وفي قوله سبحانه: «ذلك خير للّذين يريدون وجه الله» قولان: ١ـ عن ابن عبّاس أي ذلك الّذي ذكرت من الصّلة و[illegible] والإكرام خير [illegible] وكرامة في الآخرة للّذين يريدون وجه الله [illegible] ٢ـ قيل أي ذلك [illegible] خير من غيره ٣ـ قيل أي ذلك

الإيتاء خير في نفسه من دون مقايسة إلى غيره، أي: ذلك خير عند الله لمن يريد رضاه. ٤ ـ قيل: إنّ «خير» هنا لا يكون لمعنى التفضيل، أي: الإعطاء خير للذين يطلبون ثواب الله وعطاءهم. ٥ ـ قيل: أي: ذلك الإيتاء خير من جميع الذين يريدون ذاته أو جهة قربته، فإنّ من أنفق ليكون من ثوابه رياءً أو سمعة فليس درجته من أنفق رغبة لوجه الله.

٦ ـ قيل: أي: إعطاء الحقّ ذويه أفضل من الإمساك إذا أريد بذلك وجه الله والتقرّب إليه. ٧ ـ قيل: أي: الذي وصف من حسن القرابة والمسكين وابن السبيل ذلك خير من الإمساك عندهم خير للذين يريدون بذلك رضا الله تعالى، فالإنفاق في هذا الوجه هو خير مدّخر للذين يريدون بما أنفقوا وجه الله، ويبتغون مرضاته ويمتثلون أمره، وهم يقصدون بمعروفهم إيّاه تعالى خالصاً، ويقصدون جهة التقرّب إلى الله لا لجهة أخرى، وهؤلاء هم المؤمنون بالله، فأمّا غير المؤمنين فإنّهم إذا أنفقوا في هذا الوجه فلا يسمّون بما أنفقوا خيراً لأنّهم لم ينفقوا ما أنفقوا وهم يتقرّبون إلى الله، مؤمنون به، ممتثلون أمره، وإنّما أنفقوا ما أنفقوا إرضاءً لنزعات نفوسهم ووساوس خواطرهم.

أقول: والثالث هو الأنسب بظاهر الآية وقد مرّ حكمه.

وفي قوله عزّ وجلّ: «وأولئك هم المفلحون» أقوال: ١ ـ عن ابن عبّاس: أي: هم الناجون من السخط والعذاب. ٢ ـ قيل: أي: هم الباقون في النعمة، ويسمّى السحور فلاحاً لأنّه يبقى لبقاء القوّة. ٣ ـ قيل: أي: هم الفائزون بعظيم من الثواب في الآخرة، حيث حصّلوا ما بسط لهم النعيم المقيم في الجنّة.

٤ ـ قيل: أي: هم الفائزون برضاه لأنّهم يريدون بما أنفقوا وجه الله تعالى، فيتقبّل الله سبحانه منهم ما أنفقوا، ويضاعف لهم الجزاء [illegible] كما قال جلّ وعلا: «إنّما يتقبّل الله من المتّقين» المائدة: ٢٧، وقال: «للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلّة أولئك أصحاب الجنّة هم فيها خالدون» يونس: ٢٦) وقال: «وما أموالكم ولا أولادكم بالّتي تقرّبكم عندنا زلفى إلّا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضّعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون» سبأ: ٣٧).

أقول: و على الرّابع أكثر المحقّقين فتأمّل جيّداً

٣٩ـ﴿و ما آتيتم من ربًا ليربوا في أموال النّاس فلايربوا عند الله و ما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فاولئك هم المضعفون﴾

في قوله تعالى «و ما آتيتم من ربًا ليربوا في أموال النّاس فلايربوا عند الله» أقوال

١ـ عن ابن عبّاس و سعيد بن جبير أي أن يدفع الإنسان شيئاً ليعوّض ما هو أكثر منه و هذا ليس بحرام، و لكن لا ثواب له فيما زاد على ما أخذ. و المعنى: و ما أعطيتم من عطيّة أو هديّة أو هبة لتعطوا أكثر منها، فلا ثواب لكم عند الله إذ لم تريدوا بها طاعة الله

و ذلك أنّ الرّبا على قسمين: أحدهما ـ حرام و هو كلّ قرض بشرط أن يؤخذ به أكثر منه أو تجرّ به منفعة فحرام، فإنّه زيادة حاصلة عن العوض في عقد المعاوضة. ثانيهما ـ ليس بحرام و هو أن يهب الإنسان يستدعي به ما هو أكثر أو يهدي هديّة ليهدى له ما هو أكثر منها

فالمراد بالرّبا هنا أن يهب الرّجل غيره هبة أو يهدي له هديّة على قصد أن يعوّضه أكثر منها، و ليس في ذلك أجر و لا وزر. و إنّما سمّاه ربا لأنّه مدفوع لاجتلاب الرّبا و هو الزّيادة، فكان سبباً لها، فسمّي باسمها

عن ابن عبّاس: الرّبا ربوان: ربا لايصحّ و هو ربا البيع، و ربا لابأس به و هو هديّة الرّجل يريد فضلها و إضعافها و عن عكرمة: الرّبا ربوان: ربا حلال و ربا حرام، فأمّا الرّبا الحلال فهو الّذي يُهدى يلتمس ما هو أفضل منه و عن الضّحّاك قوله سبحانه «و ما آتيتم من ربا» هو الرّبا الحلال الّذي يُهدى ليثاب ما هو أفضل منه، لا له و لا عليه، ليس له أجر، و ليس عليه فيه إثم و عن ابن طاووس عن أبيه: إذا أهدى الرّجل هديّة يُهدى له أفضل منها، فليس فيه أجر و لا وزر، و كلّ فعله الفاعل على أنّه حسن للشّهوة، فليس فيه حمد و لا أجر، و شهوته و شهوة غيره في هذا سواء، فلا أجر في هديّة إذ لم يرد بها وجه الله

و قيل: أي و ما أعطيتم شيئاً هبة أو عطيّة أو هديّة لتطلب أكثر منه، فسمّى باسم المطلوب من الزّيادة في المعاملة تريد في أموال المعطين، فلايزكو عند الله لاثواب له

للمعطي، وما استتر من صدقة يريدون بها وجه الله فأولئك هم المضعفون أي [illegible]
[illegible]

٢ عن [illegible] والحسن أنّ المراد به الربا المحرّم [illegible] على الربا لا لأحد منه و
عن السّدي أنّ الآية نزلت في [illegible] ثقيف [illegible] وقد كانت قريش [illegible]

والمعنى وما أعطيتم [illegible] من [illegible] وتركوا في [illegible] فلا يربوا عند
الله ولا [illegible] فيها كقوله تعالى «يمحق الله الربا ويربي الصدقات» [illegible] (٢٧٦) [illegible]
[illegible] على [illegible] وما [illegible] وما [illegible] من [illegible]
[illegible]

في تلخيص البيان [illegible] الشريف الرضي رضوان الله تعالى عليه [illegible] على [illegible]
من [illegible] وهذه [illegible] الذي يعطيه الإنسان [illegible]
لعطية [illegible] على [illegible] و [illegible] بالكثرة و [illegible]
المعطي الذي [illegible] والمعطي [illegible] عنه
هنا [illegible] الذي [illegible]

و معنى قوله تعالى «[illegible] في أموال الناس» أي [illegible] في أموال الناس، وليس
قوله سبحانه هنا بمعنى [illegible] أموال الناس، [illegible] وإنّما المعنى [illegible] هو
[illegible] في أموال الناس، [illegible] الناس [illegible]
[illegible] الكثرة [illegible] في
أموال الناس [illegible] في أموال الناس [illegible] الذي
[illegible] وهذا من غوامض المعاني، ومن [illegible] على [illegible] الزيادة و الكثرة في
كلامهم قول [illegible] الحميري

و [illegible] لأنال [illegible] المسبل [illegible]

يريد [illegible] الكثرة [illegible] انتهى كلامه و رفع مقامه

٣ـ قيل أي ما أعطيتم أيّها النّاس بعضكم بعضاً من عطيّة لتزداد في أموال النّاس
برجوع [illegible] إليه ممّن أعطاه ذلك، فلا يزداد [illegible] عند الله لأنّ صاحبه [illegible] من أعطاه

متبعاً به وجهه تعالى. فالمراد: إن آتيتم هديّة إلى رجل منكم لتثيبوا منه أفضل منها، فلا يربوا عند الله إذ ليس فيه أجر ولا وزر، لأنّكم أعطيتم الهديّة مجرّدة لا لوجه الله. ٤ـ عن ابن عطيّة: أنّ المراد أنّ الرّجل يعطي المحتاج إليه قرضاً لا لتحصيل أجر من الله تعالى، بل طمعاً أن يعينه بنفسه وخدمه، ويعود عليه نفعه، وما جرى مجراها كما يصنعه بعض الأثرياء أو أكثر الأغنياء لتجاري عليه كالاستيلاء والاحترام والتعظيم والمدح والثناء وما إليها، وإن كان لا إثم فيه، فلا أجر فيه ولا زيادة عند الله تعالى

٥ـ قيل: أي إنّ الرّجل يعطي ماله إلى صديقه ليكثر به ماله لا لطلب الأجر من الله تعالى كما كان في الجاهلية يعطي أحدهم ذا قرابته المال يكثّر به ماله. ٦ـ قيل: إنّ بعض النّاس يعطي من ماله، من يريد الرّئاسة والخدمة والحكومة وما إليها كالرّؤساء الجماهير والوكلاء ومن إليهم من أصحاب انتسابه في الانتخابات تقدّمهم على رقابهم ليستنفعوا منهم بعد ما نالوا من الرّئاسة وشوكته وعونها. فالمعنى: وما أعطيتم من عطيّة أو هديّة أو عناية ماليّة لتلتمسوا بها الزّيادة كما يفعل أصحاب الفرص الّذين يعطون للسياسيّين في الانتخابات ويعينونهم بأموالهم ليبالوا بالزّيادة بعد أن نالوا هم بالرّئاسة، وهذا دأب أكثر أصحاب الثّروة في كلّ ظرف من الظّروف

٧ـ عن ابن عبّاس أيضاً ومجاهد ومحمّد بن كعب القرظي: أي ومن أهدى هديّة يريد فضلها وأضعافها بأن تردّ بأكثر منها، فلا ثواب له عند الله، وقد حرّم الله تعالى ذلك على رسوله ﴿ﷺ﴾ على الخصوص كما قال سبحانه «ولا تمنن تستكثر» المدّثر ٦) أي ولا تعط العطاء تريد أكثر منه. والمعنى: وما آتيتم من هديّة تتوقّعون بها مزيد مكافأة تنمو ويزكو يريد بذلك الرّبا في أموال النّاس الّذين تهدونهم إيّاه ثمّ يرجعون إليهم، فلا ثواب عليه من عند الله

٨ـ قيل: المعنى في الآية التزهيد في الرّبا، والتّرغيب في إعطاء الزّكاة. ٩ـ عن الجبائي أيضاً: أي وما آتيتم من ربا لتربوا بذلك أموالكم، وتقصدوا بالرّبا زيادة المال، فلا يربوا لأنّه لا يملكه المربي بل هو لصاحبه، ولا يربوا عند الله لأنّه يستحقّ به العقاب من الخسران والنّيران، وإعطاء المال قد يقع على وجوه كثيرة: فمنه إعطاؤه على وجه الصّدقة، ومنه

إعطاؤه على وجه الهديّة، و منه الصّلة، و منه الودائع و من ذلك قضاء الدّين، و منه [illegible]، و منه الزّكاة، و منه القرض، و منه النّذر و غير ذلك.

١٠ ـ قيل إنّ الرّبا ـ في اللغة ـ نماء المال و زيادته، و ـ في الشّرع ـ هو الفرض في مقابل العوض، و قوله «ليربوا» يشير إلى وجه التّسمية بأنّ ربا المال إنّما يربو و يزداد بما يأكل من أموال النّاس لأنّه إنّما يربو و يزداد من أموال من أخذوه، و يرعى في أموالهم و يبتلعها التهاماً فهو آفة تدخل على الّذين يأخذونه فيفسدها و يعيث فساداً فيه، و يرعى كلّ صالحة منها، و الّذين يقرضون بالرّبا إنّما يجنون على أنفسهم بهذا الوباء الّذي يُدخلونه عليهم و يخلطونه بأموالهم

فالمراد أنّ المال الّذي أتيتم النّاس تريدون في أموالهم لا تريدون به وجه الله ـ بقرينة ذكر إرادة الوجه في مقابله ـ فليس يزيد و ينمو عند الله فلا يقبله الله و لا بركة أي لا تثابون عليه لعدم قصد الوجه، و قد سمّي هذا المال المعطى ربا لأنّه معطى و هو منظور إليه على أنّه يربو و يزيد ثمّ يعود إلى صاحبه أضعافاً مضاعفة و المراد بالزّكاة مطلق الصّدقة أي إعطاء المال لوجه الله من دون تبذير و المضعف ذو الضّعف و المعنى و ما أعطيتم من المال صدقة تريدون وجه الله فأولئك هم الّذين يضاعف لهم مالهم أو ثوابهم

فالمراد بالرّبا و الزّكاة بقرينة المقابلة و ما حفّ بهما من الشّواهد الرّبا الحلال و هو العطيّة من غير قربة، و الصّدقة و هي إعطاء المال مع قصد القربة هذا كلّه على تقدير كون الآية مكّيّة، و أمّا على تقدير كونها مدنيّة فالمراد بالرّبا الرّبا الحرام، و بالزّكاة هي الزّكاة المفروضة و هذه الآية و الّتي قبلها أشبه بالمدنيّات منها بالمكّيّات، و لا اعتبار بما يدّعى من الرّواية أو الإجماع المنقول

١١ ـ عن ابن عبّاس أيضاً أي و ما أعطيتم من عطيّة لتكثروا أموالكم بأموال النّاس بأن يعطوا أفضل ممّا يعطون فلا يكثر عند الله بالتّضعيف و لا عيب بها فإنّها ليست لله تعالى و قيل إنّ المعنى و ما أعطيتم من عطيّة تتوقّعون بها مزيد مكافاة لتربو بذلك أموال النّاس بأن يعطي الرّجل غيره عطيّة ليثيبه أفضل منها، فهذا جائز لا حرمة فيها، و لكن لا ثواب له يوم القيامة و هذا معنى قوله تعالى «فلا يربوا عند الله» أي فلا يكثر عند الله بالتّضعيف و

لا بقبله فإنّ ذلك ليس خالصاً لله، و يلحق بذلك الرّجل يلحق بالرّجل فيخدمه و يسافر معه، فيجعل له ربح ماله لالتماس عونه لا لوجه الله تعالى، فهذا لا ثواب له. و أمّا ما أعطيتم من صدقة تريدون بها وجه الله فيضاعف لهم الثّواب، فيعطون بالحسنة عشر أمثالها.

١٢ـ عن ابن عبّاس أيضاً و النّخعي إنّ الآية نزلت في قوم يعطون قراباتهم و إخوانهم على معنى نفعهم و تمويلهم، و التّفضّل عليهم، و ليزيدوا في أموالهم على جهة النّفع لهم فالمراد بالرّبا العطيّة الّتي تعطى للأقارب للزّيادة في أموالهم. و وجه تسميتها رباً لأنّها سبب للزّيادة. و قيل إنّ المعنى على تفسير الرّبا بالعطيّة لم يرد بذلك الرّبا في جذب أموال النّاس و جلبها كما هو معلوم في الشّريعة بعناوين مختلفة لإخلاص الأموال. ١٣ـ قيل أي ليزيد ذلك الرّبا بسبب أموال النّاس و حصول شيء منها لكم بواسطة العطيّة.

أقول: و الأوّل هو المرويّ عن أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين. و في معناه أكثر الأقوال الأخر فتأمّل جيّداً.

و في قوله سبحانه «و ما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله» أقوال: ١ـ عن ابن عبّاس و مجاهد أي و ما أعطيتم من صدقة، للمساكين و المحتاجين تريدون بها وجه الله خالصاً فأولئك من الّذين يضاعف لهم الثّواب و الجزاء كما قال سبحانه «من ذا الّذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة» (البقرة: ٢٤٥) ٢ـ قيل أي و ما أخرجتموه من مالكم على وجه الزّكاة، و أعطيتموه أهله تريدون بذلك وجه الله و ثوابه و رضاه، و لا تطلبون بها المكافأة و لا الرّبا، فأولئك يضاعف لهم الثّواب و الحسنات كقوله تعالى «من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها» (الأنعام: ١٦٠)

٣ـ قيل المراد الزّكاة بأن تريد بها وجه الله، و لا تستخدم الفقير لما تبرّه به من رافقه، بل أفضل الصّدقة على ذي رحم مبغض عدوّ حتّى يكون إعطاؤه لله تعالى مجرّداً عن كلّ نصيب لك فيه، فهؤلاء هم الّذين يضاعف أجرهم فهم لأنفسهم حيث يخالفونها، و فوّزهم بالعوض من قبل الله تعالى. ثمّ الزّكاة هي التّطهير، و تطهير المال معلوم ببيان الشّريعة في كيفيّة إخراج الزّكاة و أصناف المال و أوصافه. و أمّا زكاة البدن و زكاة القلب و زكاة السّرّ... فكلّ ذلك يجب القيام به

٤ ـ قيل: أي ما يعطى من مال قرضاً حسناً بلا فائدة و لاعوض فهو عمل من أعمال البرّ يتقبّله الله تعالى و يضاعفه للمقرضين، فيبارك عليهم هذا المال في الدنيا، و يجزيهم الجزاء الحسن عليه في الآخرة، هذا إذا كان مراداً به وجه الله، و يُعطى من يد مؤمنة بالله، تريد بهذا القرض، تفريج كرب المكروبين، و سدّ حوائج المحتاجين أمّا إذا كان القرض لغير هذا الوجه فلا مكان له في الصالحات من الأعمال عند الله عزّ و جلّ

أقول: و لكلّ وجهٌ من دون تنافٍ بينها فتدبّر جيّداً

و في قوله عزّ و جلّ: «فأولئك هم المضعفون» أقوال: ١ ـ قيل: أي فأولئك الذين يتصدّقون بأموالهم ملتمسين بذلك وجه الله هم المضعفون، فلهم الضعف من الأجر و الثواب ٢ ـ قيل: «المضعفون» ذووا الأضعاف من الثواب في الآجل، و من المال في العاجل و قيل: أي ذووا الأضعاف من الحسنات و هو التفات عن الخطاب في لفتة للتعظيم فهو أمدح من أن يقال لهم فأنتم المضعفون و المفعول به محذوف أي ثوابهم

٣ ـ عن الكلبي أي يضاعف أموالهم في الدنيا فالمضعف ذو الأضعاف من الحسنات كما أنّ الموسر ذو اليسار، و المقوي ذو القوّة ٤ ـ قيل: المضعفون الذين يجدون من الضعف

٥ ـ عن ابن عبّاس أي فأولئك هم الذين تضعف صدقاتهم في الآخرة، و أكثرت أموالهم في الدّنيا بالحفظ و البركة.

أقول: و على الخامس أكثر المحققين، و في معناه بعض الأقوال الأخر فتأمّل

٤٠ ـ (الله الّذي خلقكم ثمّ رزقكم ثمّ يميتكم ثمّ يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه و تعالى عمّا يشركون)

في الآية الكريمة أقوال: ١ ـ قيل: خطاب للمشركين عامّة أي الله تعالى هو الّذي خلقكم في بطون أمّهاتكم و صوّركم فيها، ثمّ أخرجكم منها، و طلب منكم الإيمان بالله تعالى و العبادة له وحده، ثمّ رزقكم الطيّبات من الرزق، ثمّ طلب منكم الصبر و الطمأنينة في شئون حياتكم، ثمّ يميتكم عند انقضاء مدّتكم، و طلب منكم الاستعداد للموت، ثمّ يحييكم للبعث بعد الموت، و طلب منكم الحجّة و البرهان، هل من بين شركائكم الذين

يعبدونهم أحد يفعل من ذلك الأفعال من شيء، نزّه الله أيّها الرّسول (ص) و قدّسه عمّا يشرك به المشركون في كلّ ظرف ٢ـ عن ابن عبّاس خطاب لمشركي مكّة يعرّفهم بفساد عقيدتهم و خبث صنيعهم أي الله الّذي خلقكم ابتداءً أيّها المشركون و لم تكونوا موجودين، ثمّ هو الّذي رزقكم من أنواع الملاذ و ملّككم التّصرّف فيها و أباحها لكم، ثمّ هو الّذي يميتكم بعد ذلك إذا شاء ليصحّ انتقالكم إلى ما عرّضكم له من الثّواب، ثمّ هو الّذي يحييكم بعد موتكم ليفصل القضاء بين العباد، فيجازيكم على أفعالكم على الطّاعات بالثّواب، و على المعاصي بالعقاب

إذا كان لله سبحانه شركاء بزعمكم، فهل أحد من شركائكم الّذين تعبدونهم من دون الله و تشركونهم به يستطيع أن يفعل شيئاً من ذلك أو يقدر عليه، فيجوز بذلك الإشراك به، و توجّه العبادة إليه؟ هل من شركائكم تلك من له مشاركة في خلقكم؟ و هل من معبوداتكم تلك من له مشاركة في ذلك فتكونون بظنّ أنتم مستفيدين؟ و هل من آلهتكم من له مشاركة في رزقكم؟ و هل من تلك شركائكم تلك يميتكم أو يحييكم بعد موتكم؟؟؟

فإنّ هؤلاء المشركين لا يقدرون على أن يقولوا نعم، إنّما شركاؤنا، و معبوداتنا تقدر على شيء من تلك الأعمال، و إنّما هم يعترفون بعجزها عن ذلك، فعلموا عند ذلك أنّ تلك الآلهة المنحوتة، و تلك المعبودات المختلفة، و تلك الشّركاء المزعومة لا تكون شريكة لله سبحانه في وجوده، و لا في إيجاد العالم، و لا في تدبير نظام الكون، و لا تستحقّ العبادة و قد أضاف الشّركاء إليهم «من شركائهم» لأنّهم كانوا يسمّونهم بالآلهة و الشّركاء، و يجعلون لهم نصيباً من أموالهم

قال الله تعالى: «إن هي إلّا أسماء سمّيتموها أنتم و آباؤكم» النجم: ٢٣)

و قال: «و يجعلون لما لا يعلمون نصيباً ممّا رزقناهم» النحل: ٥٦)

و قال: «و جعلوا لله ممّا ذرأ من الحرث و الأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم و هذا لشركائنا» الأنعام: ١٣٦)

ارتفع و تبرّأ عمّا يشرك به المشركون من الأصنام و الأوثان إذ لا مدخل لها إلى

الالوهية، و إذن فالله وحده هو المتفرّد بها لاشريك له

٣ ـ قيل خطاب للنّاس كافّة أي الله تعالى هو الّذي خلقكم أيّها النّاس و لم تكونوا شيئاً مذكوراً، ثمّ رزقكم بعد انعقاد نطفكم في بطون أمّهاتكم من دم الطّمث إلى أن أخرجكم منها، فيسّر لكم أسباب الأكل و الشّرب من ألبان أمّهاتكم، ثمّ من فنون الطّعام ثمّ أرزاق القلوب و العقول، و الأسرار و الأفكار من الإيمان و العرفان، و أرزاق التّوفيق من العبادات و صالح الأعمال، و أرزاق اللسان من الأذكار و ما إليها، ثمّ يميتكم بسقوط شهواتكم، و يميتكم عن شواهدكم، ثمّ يحييكم بحياة قلوبكم ثمّ يحييكم بربّكم. فلا مكنة لكم في تبديل خلقكم، و لاقدرة لكم على تغيير رزقكم، فالموسّع عليه رزقه بفضله تعالى لابكسب نفسه و المقتّر عليه رزقه بحكمه سبحانه لابعجز نفسه

هل من شركاء هؤلاء المشركين الّذين نسبوهم من الأصنام و الأوثان، أو توهّموهم من جملة الأنام من يفعل شيئاً من ذلك؟ تنزيهاً له، و تقديساً عمّا يشركون به سبحانه من الأنداد و الأضداد، و من الصّاحبة و الأولاد، أفلا تدعو أيّها النّاس إلى ما دعوا إليه هؤلاء المشركون

٤ ـ خطاب للمؤمنين بأنّ الله عزّوجلّ هو الّذي اتّصف بالخالقيّة و الرّازقيّة، و بالإماتة و الإحياء، وصفاً من أوصاف الالوهيّة و الرّبوبيّة. فاسألوا أيّها المؤمنون هؤلاء المشركين هل من الآلهة الّذين تدّعون أنّها آلهة لكم تعبدونها أحد منها أن يفعل شيئاً من الخلق و الرّزق و الإماتة و الإحياء بعد الموت؟ و هل يستطيع منها أحد أن يفعل شيئاً من تلك الأفعال فالله تعالى هو إلهكم و ربّكم لا إله إلاّ هو، فهو منزّه أن يشرك معه في الخلق و الإيجاد و التّدبير، و مقدّس أن يتّحد معه في العبادة سواه، فلا شريك له في الوجود و الايجاد و التّدبير و لا في العبادة

فهو الّذي خلق و أعطى، و هو الّذي أمات و أحيى، و هو الخافض و الرّافع، و الضّارّ و النّافع، و ما من أحد سواه يقدر على ذلك، إذ كلّ ماسواه مخلوق له تعالى و هو خالق كلّ شيئ فكيف تقبلون أيّها المشركون على غيره، و تتذلّلون بذلّ العبوديّة لمخلوق مثلكم؟!

أقول: و التّعميم هو الأنسب بظاهر الإطلاق فتدبّر جيّداً

٤١ـ (ظهر الفساد في البرّ و البحر بما كسبت أيدي النّاس ليذيقهم بعض الّذي عملوا لعلّهم يرجعون)

في قوله تعالى: «ظهر الفساد في البرّ و البحر» أقوال: ١ـ عن ابن عبّاس: أي ظهر نقصان البركة فيهما بفساد أعمال العباد كي يتوبوا ٢ـ عن ابن عبّاس أيضاً و مجاهد و عكرمة: أي بسبب المعصية في البرّ من قتل قابيل أخاه هابيل، و في البحر من جلندا الأزدي إذ أخذ كلّ سفينة غصباً و قال مجاهد: البرّ ظهر الأرض، و البحر هو المعروف لأنّه يؤخذ فيه كلّ سفينة غصباً ففساد البرّ هو قتل قابيل هابيل و الفساد بمعنى القتل كقوله تعالى «ليفسدوا في الأرض» الأعراف ١٢٧) أي ليقتلوا أبناء أهل مصر و فساد البحر هو أخذ الملك السّفن غصباً و قيل: أوّل فساد البرّ كان من قابيل حيث قتل أخاه هابيل و أوّل فساد البحر كان من جلندا ملك عمان إذ أخذ كلّ سفينة غصباً

٣ـ قيل: أي ظهر حكّام الجور و ولاة السّوء في البرّ و البحر ٤ـ قيل: فساد البرّ هو ما يحصل فيه من المخاوف المانعة من سلوكه، و يكون ذلك بخذلان الله تعالى لأهله، و العقاب به، و فساد البحر اضطراب أمره حتّى لا يكون للعباد متصرّف فيه، و كلّ ذلك ليرتدع الخلق عن معاصيه ٥ـ عن قتادة و السّدّي: أي ظهر الفساد في أهل البرّ و البحر، فأهل البرّ أهل البادية و أهل البحر فأهل القرى الّذين على الأنهار العظيمة و سبب الفساد هنا هو الشّرك و هو أعظم الفساد كما قال الله تعالى «لو كان فيهما آلهة إلّا الله لفسدتا» الأنبياء ٢٢) حيث نفى الله سبحانه الشّرك بقوله «سبحانه و تعالى عمّا يشركون»

٦ـ قيل: البرّ الأرض القفر، و البحر المجرى الواسع للماء عذباً كان أو ملحاً، و سمّي البرّ برّاً لأنّه يبرّ بصلاح المقام فيه، خلاف البحر، و منه البرّ لأنّه يبرّ بصلاحه في الغذاء أتمّ الصّلاح

٧ـ عن أبي العالية: البرّ ظهر الأرض، و البحر معروف، و الفساد فيهما ارتكاب المعاصي فيهما فالفساد المعاصي لقوله تعالى «و الله لا يحبّ الفساد» البقرة ٢٠٥) أي لا يحبّ المعصية

٨ـ قيل: تقديره ظهر عقاب الفساد في البرّ والبحر. والظّهور هو خروج الشيء إلى حيث يقع عليه الإحساس، ولعلّه يعمّ له الإدراك به. وقد يظهر الشيء بخروجه عن وعاء، أو وجوده عن عدم، أو ظهوره بدليل. وقيل: بالعدل يسبّب الله الزرع، وعدم الضرع، وبالظّلم يكون القحط وضيق الرزق. ٩ـ عن قتادة أيضاً: البرّ العدى ومواضع القبائل وأهل الصّحاري والعمود، والبحر المدن. وعن عكرمة أيضاً: إنّ العرب تسمّي الأمصار بحاراً لسعتها. والتّقدير مدن البحر كقوله تعالى «واسأل القرية» يوسف ٨٢ أي أهلها. والمراد بالفساد المعاصي من قطع الطّريق والظّلم وغيرها. واللّام في «الفساد» و«البرّ والبحر» كلّها للجنس أي ظهر جنس الفساد في جنس البرّ والبحر. قال قتادة: هذا قبل أن يبعث محمّد ﴿ﷺ﴾ رجع راجعون من النّاس

١٠ـ عن الحسن: أي أفسدهم الله بذنوبهم في بحر الأرض وبرّها بأعمالهم الخبيثة. والمراد بالبحر مدن البحر وقراه الّتي على شاطئه، والبرّ معروف. ١١ـ قيل: البرّ اللسان، والبحر القلب لظهور ما على اللسان وخفاء ما في القلب. ١٢ـ أي إذا كان الأمر كما وصفت ظهرت معاصي الله من قطع السّبيل والظّلم في كلّ مكان من برّ وبحر بسبب ذنوب النّاس وانتشر الظّلم فيها. ١٣ـ عن الضّحّاك: كانت الأرض خضرة مونقة لا يأتي ابن آدم شجرة إلّا وجد عليها ثمرة، وكان ماء البحر عذباً، وكان لا يفترس الأسد البقر، ولا الذّئب الغنم، فلمّا قتل قابيل هابيل اقشعرّ ما في الأرض وشاكت الأشجار وصار ماء البحر ملحاً زعاقاً، وقصد الحيوان بعضه بعضاً

١٤ـ عن مجاهد أيضاً: البرّ البلاد البعيدة من البحر، والسّواحل والمدن الّتي عند البحر والأنهار. ١٥ـ عن زيد بن رفيع: الفساد في البرّ فساد الحيوان إذا لم تمطر، وكذلك هلاك دوابّ البحر بذلك بكثرة الذّنوب والمعاصي. وعن عطيّة العوفي: ظهور الفساد في البرّ قحوط المطر، وفساد البحر إذا قلّ المطر قلّ الغوص. ١٦ـ قيل: أي ظهر الفساد في العالم بالحروب والغارات والجيوش والطّيّارات والسّفن الحربيّة والغوّاصات الحارقة بالسفن، والطّوربيد وقطع الأسلاك البرقيّة أيّام الحرب وما إليها من الأسلحة المبيدة... ١٧ـ عن السّدّي أيضاً: البرّ كلّ قرية نائية عن البحر مثل مكّة والمدينة، والبحر كلّ قرية على

البحر مثل كونه واسعاً و أمثاله.

١٨ ـ عن عطاء: البحر الجزائر، و المراد بظهور الفساد في البرّ و البحر هو ظهور الحوادث و الوقائع و المصائب و البلايا و الشّدائد و ما يليها من الزّلازل و السّيل المخرّب و قطع الأمطار و التّصحّر و الأمراض السّارية، و عجز الأطبّاء عن العلاج، و الموتات الفاجعة، و الحروب و الغارات، و الأساطيل الحربيّة و سحب الجيوش و أسلحة التّدمير و الإبادة، و ارتفاع الأسعار و نحوها من كلّ ما يفسد النّظام الصّالح الجاري على بسط الأرض، سواء كان مستنداً إلى اختيار بعض النّاس أو غير مستند إليه، فكلّ ذلك فساد ظاهر في وجه الكرة الأرضيّة من دون اختصاص بزمان دون زمان و لا بمكان دون مكان، و لا بواقعة دون واقعة. فالمراد بالبرّ و البحر معناهما المعروف، و هو عبارة عن بسط الأرض كلّها.

١٩ ـ قيل: البرّ القفار الّتي لا تجري فيها نهر، و البحر كلّ قرية على شاطئ نهر عظيم.

٢٠ ـ قيل: البرّ أرض مكّة لما وقع فيها القحط بدعاء رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ على قريش لمّا لجّوا في شركهم و أصرّوا على جحودهم و داموا على عنادهم. فقيل: كان ذلك أوائل البعثة و ذلك أنّ كفّار قريش فعلوا ما فعلوا من المعاصي و الإصرار على الشّرك و إيذاء رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ فدعا ﴿ﷺ﴾ عليهم، فقحطوا و حلّ بهم من البلاء ما حلّ. فأخبر اللّه تعالى أنّ ذلك بسبب شركهم و عنادهم و طغيانهم و معاصيهم ليذيقهم بعض الّذي عملوا لعلّهم يرجعون. و قيل: كان في زمان سابق على زمان النّزول أعمّ من أن يكون الزّمان الّذي قبيل البعثة أو بعيدها.

فليس المراد بالبرّ و البحر هنا كلّ برّ و بحر في الدّنيا، بل المراد به حسب ظاهر القحط بدعاء النّبيّ الكريم ﴿ﷺ﴾ فالمعنى: ظهرت عقوبة فساد قريش في مكّة بالقحط و البلاء و الشّدّة.

٢١ ـ قيل: البرّ الفيافي و مواضع القبائل، و البحر السّواحل و المدن الّتي عند البحر و النّهر و الفساد المفسدة ضدّ المصلحة. ٢٢ ـ قيل: إنّ في البرّ إشارة إلى النّفس و في البحر إشارة إلى القلب، و فساد البرّ بأكل الحرام و ارتكاب المحرّمات، و فساد البحر من العقيدة و الأوصاف الذّميمة مثل سوء العزم و الحسد و الحقد و إرادة الشّرّ و الفسق و النّفاق و ما

إليه من رذائل الأخلاق ومفاسدها، وعقد الإصرار على الخطيئات من أعظم فساد القلب كما أنّ العزم على الخيرات قبل فعلها من أعظم الخيرات. ومن جملة الفساد [illegible] والسلب بغير حقّ والانحطاط إلى الرّخص في غير قدر الحدّ، والإغراق في الدّعاوى من غير استحياء من الله تعالى

٢٣ـ قيل أي ظهر ما يعمّ في مختلف نواحي الأرض برّها وبحرها بسبب آثام أهلها من مفسدة وظلم ولهو ولعب وسائر ما يطلق عليه الفساد الّذي هو ضدّ الصّلاح ٢٤ـ قيل فساد البرّ عدوان الأسد على البقر والنمر بعد قتل قابيل هابيل، ولم يكن من قبل كذلك وفساد البحر ملوحة مياه البحار بعد أن كانت عذبة، وخلوّ أصداف اللؤلؤ من اللؤلؤ ٢٥ـ قيل فساد الأرض قحط المطر وبعض الثمار للنّاس، وبعض النبات للدوابّ والوحوش، حيث لا يجري نهر، والبرّ هو البوادي وفساد البحر أي فساد القرى والأرضين المتّصلة بالثمار والزّرع، حتّى القرى والمدائن التي تجري فيها من الأنهار، والبحر كلّ قرية على شاطئ نهر عظيم وقيل البحر نفسه لأنّه إذا لم يكن مطر فلا يخرج منه اللؤلؤ

٢٦ـ عن قتادة أيضاً: أي امتلأت الضّلالة والظّلم والشرك والمعاصي في وجه الأرض كلّها ٢٧ـ عن أبي العالية البرّ الأعضاء، والبحر القلوب والمعنى ظهر الفساد في أعضاء النّاس وفي قلوبهم ٢٨ـ قيل الفساد هنا بمعنى الخراب كقوله تعالى «إنّ الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها» النمل ٣٤ أي خرّبوها وقيل الفساد هنا بمعنى الهلاك لقوله تعالى «لتفسدنّ في الأرض مرّتين» الإسراء ٤ أي لتهلكنّ في الأرض مرّتين كما سمّي العذاب سوءاً وإن كان ذلك حكمة وعدلاً

٢٩ـ قيل أي ظهرت المعاصي والفحشاء والمنكرات والضّلالة والظّلم والغواية في برّ الأرض وبحرها والمراد بالبرّ الفلوات، وبالبحر الأمصار والقرى الّتي على المياه والأنهار لأنّ العرب تسمّي الأمصار بحراً، فيفعلون فيها ما تشتهيه أنفسهم من المعاصي والذّنوب

٣٠ـ قيل البرّ ظهر الأرض من الأمصار والبلاد والقرى، والبحر معروف كما يعمل أهل الشهوات الفحشاء في البرّ صيفاً، وفي البحر شتاءً ٣١ـ قيل أي ظهر الفساد في البرّ

و البحر من الجدب و القحط، و قلّة الرّيع في الزّراعات، و قلّة الرّبح في التّجارات و المعاملات، و وقوع الموتان في النّاس و الدّوابّ، و كثرة الحرق و الغرق و التّصادمات و مفاجأة الموتات و إخفاق الغاصّة، و قلّة صيد الأسماك، و حرمان الصّيّادين عن الصّيد، و محق البركات من كلّ شيء، و قلّة المنافع و كساد التّجارة، و كثرة المضارّ و الإفلاس، و نداء أصحاب الأسواق بعدم الرّبح و كثرة الدّين و الضّرر و كساد الأسعار و قلّة المعاش

٣٢ ـ قيل أي ظهر الفساد في القرى التي على البحر و في سواحله، و في البحر نفسه ٣٣ ـ قيل أي ظهر الفساد بموت البهائم و القحط و الجدوبة و نقص الثّمرات و الشّباب في السّهل و الجبل و البادية و المفازة، و في البحر أي في الرّيف و القرى و العمران ٣٤ ـ عن الفرّاء أي أجدب البرّ و انقطعت مادّة البحر و عوقب بذنوبه بسبب ذنوبهم و قيل إذ انقطع القطر عميت دوابّ البحر، و كان ذلك ليذوقوا الشّدّة في العاجل و قيل البرّ البرّيّة، و البحر الرّيف و المواضع الخصبة، و أصل البرّ من البرّ لأنّه يبرّ بصلاح المقام فيه، و كذلك البرّ لأنّه يبرّ بصلاحه في الغذاء أتمّ صلاح و أصل البحر الشّقّ لأنّه شقّ في الأرض ثمّ كثر حتّى سمّي الماء الملح بحراً. أنشد ثعلب

وقد عاد عذبُ الماء بحراً فزادني على مرضي أن أبحر المشرب العذبُ

أقول: و التّعميم هو الأنسب بظاهر الآية فتدبّر جيّداً

و في قوله سبحانه «بما كسبت أيدي النّاس» أقوال ١ ـ عن ابن عبّاس أي بسبب ما كسبت أيدي كفّار مكّة من الشّرك و الظّلم ٢ ـ عن ابن عبّاس أيضاً أي بسبب قتل قابيل هابيل، و غصب جلندى سفن النّاس في البحر ٣ ـ قيل أي بشؤم معاصي النّاس أو بكسبهم إيّاه و كفرهم، و كثرة المطامع و انهماك المحرّمات و عدم مراقبة الأخلاق، و طرح الأديان وراء ظهورهم و نسيان يوم الحساب، و أطلقت النّفوس من عقالها و عاثت في الأرض فساداً، إذ لا رقيب من وازع نفسيّ و لا حسيب من دين يدفع عاديها و يمنع أذاها.. حيث إنّ بين أعمال النّاس و الحوادث الكونيّة رابطة مستقيمة بتأثّر إحداهما من صلاح الأخرى و فسادها

٤ ـ عن السّدي: أي يخلّي الله بينهم و بين المعاصي جرأة على ما سبق منهم من

المعاصي

قيل: من أذنب ذنباً فجميع الخلائق من الجنّ والإنس والدوابّ والوحوش والطيور والنبات والجماد كلّها خصماؤه يوم القيامة لأنّه يمنع المطر بمعصيته، فيضرّ بأهل البرّ والبحر جميعاً، وبذا قيل: من أكل حراماً فقد خان الناس جميعاً كما أنّ من قتل نفساً فكأنّما قتل الناس جميعاً، ولا يستجاب دعاؤه. ٥- قيل: أي جزاء ما فعله الناس من المعاصي والكفر والفسوق. والكسب هو فعل الشيء لاجتلاب نفع إلى نفس الفاعل أو دفع ضرر عنه، فالقادر لنفسه يقدر على مثله في اختيار لاجتلاب نفع إلى غيره أو دفع ضرر عنه غير أنّه لا يوصف بهذه الصفة وإن قدر على مثله

٦- قيل: أي بما كسبت أيدي الناس ممّا نهاهم الله تعالى عنه، وارتكبوا المعاصي والذنوب، وانهمكوا في الشهوات، وتركوا ما أمرهم الله تعالى من الطاعات وصالح الأعمال

أقول: والتعميم هو الأنسب بظاهر الإطلاق فتأمّل

وفي قوله عزّ وجلّ: «ليذيقهم بعض الّذي عملوا» أقوال: ١- قيل: أي ليذوقوا شيئاً من وبال ما اقترفوه وليكون لهم فيه عبرة وتذكرة، فالمعنى: ليعذّبهم ببعض ذنوبهم في الدنيا، ويدّخر البعض في الآخرة، وتقوى كنايته عن التعذيب، فكأنّه يقول: ليعذّبهم بالجوع والقحط والبلاء في الدنيا. ٢- قيل: ليذيقهم الله وبال بعض أعمالهم في الدنيا قبل أن يعاقبهم بجميعها في الآخرة. ٣- عن ابن عبّاس: أي لكي يصيبهم بعقوبة بعض الّذي عملوا من المعاصي وإنّ الله تعالى يوقعه على بعض العصاة كنوع يؤدّبه ويوقظه عن غفلته

٤- قيل: أي ليصيبهم الله بعقوبة بعض أعمالهم الّتي عملوها من المعاصي فإنّ تمامه في الآخرة، فأذاقهم الله جزاء بعض ما عملوا من المعاصي والآثام

٥- قيل: اللام للغاية أي ظهر ما ظهر من الفساد فيهما لأجل أن يذيقهم الله وبال بعض أعمالهم السيّئة، بل ليذيقهم نفس ما عملوا وقد ظهر على صورة الوبال، وإنّما كان بعض ما عملوا لأنّ الله تعالى برحمته يعفو عن بعض كما قال: «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير» الشورى: ٣٠، فالآية ناظرة إلى الوبال الدنيوي، وإذاقة بعضه

لاكنّه من غير نظر إلى وبال الأعمال الأخروي فما قيل إنّ المراد إذاقة الوبال الدنيوي و تأخير الوبال الأخروي إلى يوم القيامة لا دليل عليه. و لعلّه حمل تقدير الكلام «ليذيقهم بعض جزاء ما عملوا» مع أنّ التقدير «ليذيقهم جزاء بعض ما عملوا» لأنّ الّذي أحوجه إلى تقدير المضاف ـ لو أحوج ـ هو أنّ الراجع إليهم ثانياً في صورة الفساد هو جزاء أعمالهم لا نفس أعمالهم فالّذي أذيقوه هو جزاء بعض ما عملوا لا بعض جزاء ما عملوا

و فيه أنّ قوله تعالى «لعلّهم يرجعون» يدلّ على تأخير الوبال الأخروي إلى يوم القيامة بأنّهم لو لم يرجعوا بعد هذه الإذاقة الدنيويّة لذاقوا الوبال الأخروي، و قد صرّح تعالى بذلك في قوله سبحانه: «و لنذيقنّهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلّهم يرجعون» (السجدة: ٢١) و قد أفاد تعالى أنّ أسباب ذهابهم و محقهم وبال بعض أعمالهم السيّئة في الدنيا قبل أن يعاقبهم بجميعها في الآخرة

٦ ـ قيل: أي ليذيقهم الله بعض الّذي عملوا من سقوط عظيم للشرع من القلب، و عدم التأسّف على ما فاته من الحقّ

أقول: و على الأوّل جمهور المحقّقين و في معناه بعض الأقوال الأخر فتأمّل جيّداً

و في قوله جلّ و علا «لعلّهم يرجعون» أقوال: ١ ـ عن ابن عبّاس و الحسن: أي لكي يرجعوا عن الكفر و المعاصي و الذنوب، فيكشف عنهم العذاب. ٢ ـ عن ابن عبّاس أيضاً: أي لعلّهم يتوبون إلى الله و يثوبون إلى الحقّ، و يتركون معاصي الله، و لا يعودون إلى آثامهم. و عن عبدالله و إبراهيم: أي لعلّهم يتوبون يوم بدر، و يرجعون إلى الحقّ. ٣ ـ قيل: أي ليرجع من يأتي بعدهم عن المعاصي، فلا يذهبوا إلى ما ذهبوا إليه من الشرك و الطّغيان و الكفر و العصيان

٤ ـ قيل: أي ليرجعوا عن المعاصي في المستقبل. تقديره: فعل الله تعالى القحط و الشّدائد و الجدب و قلّة الثمار و هلاك النّفوس عقوبة على معاصيهم ليذيقهم بذلك عقاب بعض ما عملوا من المعاصي ليرجعوا عنها في المستقبل. ليذيقهم عذابه غير أنّه أجرى على بعض العمل لأنّهم يذوقون جزاءه كأنّهم ذاقوه و هذا من الحذف الحسن لأنّه حذف المسبّب و إقامة السبب الّذي أدّى إليه مقامه، ثمّ بيّن تعالى أنّه فعل بهم هذا ليرجعوا عن

معاصيه إلى طاعته

٥ ـ قيل: أي لعلّهم يرجعون عمّا هم عليه من الشّرك والضّلالة والغيّ والغواية إلى التّوحيد والهداية، والإيمان والطاعة، ويثوبون إلى رشدهم ويتذكّرون أنّ هناك يوماً يحاسب النّاس فيه على أعمالهم إن خيراً فخيراً وإن شرّاً فشرّاً، فيحكم العدل على المجتمع البشري، ويشفق القويّ على الضّعيف، ويكون النّاس سواسية في المرافق العامّة، ويصلح المجتمع بقدر الطّاعة البشريّة

أقول: وعلى الأوّل أكثر المفسّرين وفي معناه بعض الأقوال الأخر فتدبّر

٤٢ ـ (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبل كان أكثرهم مشركين)

في الآية الكريمة أقوال: ١ ـ عن ابن عبّاس: أي قل يا محمّد ﷺ لأهل مكّة: سافروا في الأرض متفكّرين كيف كان جزاء الّذين كانوا من قبلكم؟ كيف أهلكهم الله عند تكذيبهم الرّسل، كان أكثرهم مشركين بالله ٢ ـ قيل: أي قل يا أيّها الرّسول ﷺ لهؤلاء المشركين بالله من قومك: سافروا في الأرض، فانظروا كيف كان آخر أمر من كان من قبلكم كقوم نوح ولوط وقوم عاد وثمود وقوم فرعون، كيف أهلكهم الله ودمّر عليهم، كان أكثرهم مشركين فاعتبروا بذلك وإنّ النّظر على وجهين: أحدهما ـ النّظر إلى شيء إذا نظر إليه بعينه ثانيهما ـ النّظر في شيء إذا تفكّر فيه وقال تعالى هنا «فانظروا» ولم يقل إليه ولا فيه، فهو على الأمرين جميعاً

٣ ـ قيل: أي قل لكفّار قريش سيروا للاعتبار بمن قبلكم، واطلبوا الحقّ ببعث الأفكار، فانظروا كيف كانت حال من تقدّمكم من الأشكال والأمثال، فهلكوا بإشراكهم وشؤم معاصيهم، فتروا مساكنهم ومنازلهم خاوية، ثمّ قيسوا عليها حالكم في جميع الأحوال كانوا هم أكثرهم عدداً، ولكن كانوا في التّحصيل قلّتهم وزناً وقدراً و قيل كان المشركون أكثر من أهل سائر الأديان والملل الباطلة كالمعطّلة والمجسّمة وأضرابهم

٤ ـ قيل: أي قل أيها النبي (ﷺ) للمشركين عامّة سيروا في البلاد فانظروا إلى مساكن الكفّار و المشركين، و الفجّار و المستكبرين من قبلكم الّذين كذّبوا رسل الله و جحدوا آياته، كيف أهلكتهم بأنواع العذاب منّا و جعلناهم عبرة و تذكرة لمن بعدهم؟ كان أكثرهم مشركين، فما حلّ بهم من العذاب كان جزاءً وفاقاً لشرك أكثرهم، و معصية بعضهم، و سكوت الآخرين فأهلكنا جميعهم

٥ ـ قيل: أي قل أيها الرسول (ﷺ) للناس جميعاً سيروا في الأرض، فانظروا نظر تعقّل و اعتبار فيه، كيف كان عاقبة الطغاة الجبابرة، و الولاة الظلمة، و الدعاة الكفرة و الملوك الغاشمة و القرون الماضية من قبلكم. كيف أهلكهم الله و دمّرهم تدميراً؟ كيف صارت قصورهم قبورهم و مقاصيرهم قبورهم فلم يبق لهم عين و لا أثر؟ كان أكثرهم مشركين بالله ٦ ـ قيل: أي قل يا أيها النبي (ﷺ) لهؤلاء المشركين و المكذّبين و المنافقين المذبذبين حولك سيروا في البلاد و القرى و الصّحارى، فانظروا مساكن الّذين كفروا بالله من قبلكم، خاوية على عروشها. كيف كان عاقبتهم إذ أهلكناهم بعذاب منّا؟ و لم نجعلهم عبرة لمن بعدهم؟ كان أكثرهم مشركين بالله، فإن لم تؤمنوا بالله تعالى نفعل بكم كما فعلنا بهم

أقول: و التّعميم هو الأنسب بظاهر الإطلاق فتدبّر

٤٣ـ (فأقم وجهك للدّين القيّم من قبل أن يأتي يوم لا مردّ له من الله يومئذ يصّدّعون)

في قوله تعالى: «فأقم وجهك للدّين القيّم» أقوال: ١ ـ قيل: أي اجعل وجهك اتّباع الدّين القيّم البليغ الاستقامة و المراد بأمّته ٢ ـ قيل: الخطاب إلى رسول الله (ﷺ) و إلى أن يلتفت إلى نفسه، و إلى المؤمنين معه و ألّا يشغله أمر هؤلاء المشركين عن طلب النّجاة لنفسه و لمن معه قلباً و قالباً، بالإقبال على الله و إخلاص العمل له، و بذلك يكون مستعدّاً للقاء ربّه على ما يرضي ربّه من قبل أن يجيء يوم الحساب و الجزاء ٣ ـ عن الحسن: الدّين القيّم الطّاعة لله وحده ٤ ـ عن قتادة: الدّين القيّم هو الإسلام ٥ ـ قيل: تفريع على ما سبق أي إذا كان الشّرك و الكفر بالحقّ بهذه المثابة، و به وبال سيلحق بالمتلبّس به فأقم

وجهك للدّين القيّم

٦ـ قيل أي استقم للدّين المستقيم بصاحبه إلى الجنّة أي لا تعدل عنه يميناً و لا شمالاً، فإنّك متى فعلت ذلك أدّاك إلى الجنّة و هو نظير قوله تعالى «ثمّ انصرفوا صرف الله قلوبهم» التوبة: ١٢٧) يجانس فيه للبلاغة، و منه قوله «يوماً تتقلّب فيه القلوب و الأبصار» النور ٣٧، و منه «يمحق الله الرّبا و يربي الصّدقات» البقرة ٢٧٦)

٧ـ قيل الدّين القيّم المستقيم الإسلام الّذي لا ميل فيه عوج عن الحقّ و الهدى

٨ـ قيل أي فاسلك أيّها الرّسول ﷺ الطّريق الّذي رسمه لك ربّك ولا تعدل عنه، واتّباع نهجه القويم، الّذي لا عوج فيه و لا أمت ٩ـ قيل أي اخلص قصدك و صدّق عزمك للدّين القيّم بالموافقة والاتّباع دون الابتداع و الأمر على وجه الابتداع فإن لم يكن من هو إمام وقته، ولم يلتفت الاذكار عمّن هو نفس وقته كان خسرانه أتمّ من ربحه، و نقصانه أعمّ من نفعه ١٠ـ قيل أي أخلص دينك للإسلام و هو الدّين المستقيم ١١ـ قيل أي أقبل بوجهك إلى هذا الدّين ١٢ـ قيل أي اثبت على هذا الدّين

عن ابن عبّاس أي فأقم نفسك و عملك للدّين القيّم أي أخلص دينك و عملك لله و كن على دين الحقّ المستقيم

١٣ـ قيل أي أقبل و توجّه بكلّك على الدّين القيّم و اعمل به و جاهد في سبيله

١٤ـ عن الزّجاج أي أقم قصدك و اجعل جهتك اتّباع الدّين القيّم يعني الإسلام

١٥ـ قيل أي أوضح الحقّ و تابع في الإعذار و اشتغل بما أنت فيه، و لا تحزن عليهم

أقول و على الثّاني أكثر المفسّرين من دون التّنافي بينه و بين بعض الأقوال الأخر فتأمّل جيّداً

و في قوله سبحانه «من قبل أن يأتي يوم لا مردّ له من الله» أقوال ١ـ قيل أي من قبل أن يأتي يوم لا مردّ له، لمجيئه لأنّ الله تعالى قد قضى بمجيئه فهو لا محالة جاء ٢ـ قيل أي من قبل أن يجيئ ذلك اليوم الّذي لا يقدر أن يردّه فلا يملك أحد ردّ هذا اليوم و لا تأخيره عن وقته الموقوت له. ٣ـ قيل: أي يأتي من الله يوم لا يردّه أحد كقوله تعالى «بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردّها» الأنبياء ٤٠) ٤ـ قيل أي يوم لا مردّ له من الله

تعالى أي من قبل أن يأتي يوم لا مردّ له من جهته فإذا لم يردّه الله فلم يمكن لأحد دفعه و قيل أي لا يردّه هو بعد أن جاء به فلا مردّ له من جهته، فلا تقدر نفسه على ردّه فلا دافع له أصلاً

٥ ـ قيل أي من قبل أن يأتي يوم لا خلف لما وعد الله به ٦ ـ عن ابن عباس: أي من قبل أن يأتي يوم القيامة لا مانع له من عذاب الله ٧ ـ قيل أي قبل أن تقف بين يديه تعالى لنقاش الحساب

أقول: و على الرابع أكثر المفسرين و في معناه بعض الأقوال الأخر فتأمّل

و في قوله عزّوجلّ: «يومئذ يصّدّعون» أقوال: ١ ـ عن ابن عباس و ابن زيد و قتادة أي يوم القيامة يتفرّق الناس فريقين فريق في الجنّة يتنعّمون بنعيمها، و فريق في السعير يدعون بعذابها. تصدّع ـ في الأصل ـ تفرّق جزءاً جزءاً، ثم استعمل في مطلق التفرّق فيتفرّق الناس يوم القيامة حسب عقائدهم و سرائرهم و عقائدهم، ففريق في الجنّة يوفى أجر عمله و فريق يُزجى إلى النار فأخرج من الإسلام و عذّب فيه ممّا كسبت يداه

٢ ـ قيل إنّ المراد بتفرّق الناس يوم القيامة تفرّقهم بأشخاصهم لا تفرّق الفريقين كما صرّح به في قوله تعالى «و امتازوا اليوم أيّها المجرمون» يس: ٥٩ و قوله «يوم يكون الناس كالفراش المبثوث» القارعة: ٤ ٣ ـ قيل أي يصير كلّ فرد من الناس من الأخرى بكلّ مقام معلوم إمّا في الجنّة و إمّا في النار فيوم القيامة يتفرّق جماعاتهم فلا يلتفت أحد منهم إلى أحد لقوله عزّوجلّ «يوم يفرّ المرء من أخيه و أمّه و أبيه و صاحبته و بنيه لكلّ امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه» عبس: ٣٤ ـ ٣٧)

أقول: و الآيتان الثالثتان تؤيّدان القول الأوّل، فتأمّل جيّداً

٤٤ ـ (من كفر فعليه كفره و من عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون)

في الآية الكريمة أقوال: ١ ـ عن ابن عبّاس: أي من كفر بالله و جحد نعمه، فعليه جزاء كفره و عقوبته و هي خلود النار، لا على غيره إذ لا يعاقب أحد بذنب غيره بقوله تعالى «و لا تزر وازرة وزر أخرى» الأنعام: ١٦٤) و من وحّد و آمن بالله و عمل بالطاعة فثواب ذلك

واصل إليهم و تتمهّد أحوالهم الحسنة عند الله و قد توسّع بيان من أصلح عمله فكأنّه فرش لنفسه في القبر و القيامة و سوّى مضجعه و مثواه. ٢ـ قيل و من كفر فهو يحمل وزر نفسه و لن يخطى عقاب الله و لا رحمته، و من آمن بالله و أخلص في الآخرة إليه وحده و عمل عملاً صالحاً، فإنّهم يكونون بذلك قد مهّدوا لأنفسهم طريق النّجاة، و نالوا جزاء الله الحسن و فضله

٣ـ قيل أي من أقام وجهه للدّين القيّم، فقد مهّد لنفسه مهاداً طيّباً، و أعدّ الدّار الّتي يرثها في الآخرة، ثمّ من أعرض و كفر فعليه وزر إعراضه و وبال كفره و هو النّار المؤبّدة.

٤ـ قيل أي من كفر بالله فعليه جزاء كفره الّذي سينقلب عليه ناراً يخلد فيها و هذا أحد الفريقين، و من عمل صالحاً بعد الإيمان فلأنفسهم يوطّئون ما يعيشون به، و يجمعون الثّواب و الكرامة في الجنّة و يستقرّون فيها

٥ـ قيل أي من كفر بالله و دنّس نفسه بما عمل من المعاصي و اجترح من الآثام فعليه وحده أوزار كفره و جحوده، و كفرانه بنعمه، و من عمل صالحاً و أطاع الله فيما به أمر، و عنه نهى، فقد أعدّ لنفسه العدّة، و وطّأ لنفسه الفراش حتّى لا ينغّص عليه مضجعه، و لا يقع في عذاب السّعير فهم يوطّئون لأنفسهم في الآخرة فراشاً و مسكناً و قراراً بالعمل الصّالح كما يسوّي الرّاقد مضجعه كيلا يصيبه في مضجعه ما ينغّص عليه مرقده، من نتوء ما يؤذيه، و تمهيد الأمور تسويتها و إصلاحها، و تمهيد العذر بسطه و قبوله

عن مقاتل أي فلأنفسهم يقدّمون و عن مجاهد أي فلأنفسهم يفرشون في القبر، و يسوّون المضاجع فيه و قيل أي فلأنفسهم يفرشون في الجنّة، و يسوّون منازلهم فيها و قيل أي فلأنفسهم يعملون و قيل أي فلأنفسهم يستعدّون من مهد فراشه و طّأه حتّى لا يصيبه ما ينغّص عليه مرقده من نتوء ما يؤذيه و قيل أي فعلى أنفسهم يشفقون من قولهم في المثل أمّ فرشت فأنامت، و ذلك أنّ الإشفاق يلزمه التّمهيد عرفاً و عادة

و قيل أي فلأنفسهم يوطّئون منازلهم ليسلموا من عذاب ربّهم، و ينجوا من عذابه، هذا في الحياة الدّنيا لأنّ العمل الصّالح يستعدّ الإنسان ليستريح في حياته الدّنيا و يتمتّع بأنعم الله تعالى قليلاً أو كثيراً و له الأمن، و الرّاحة و العيش و الفرح و ليس للكافر

عيش هنيء طيّب ولا أمن ولا راحة ولا فرح وإن كان له مال كثير في الحياة الدنيا، فلا راحة ولا أمن ولا عيش في الحياة الدنيا ولا في القبر ولا في الآخرة. وقيل: أي إنّهم يمهدون لأنفسهم الجنّة بسبب أعمالهم الصالحة كما أنّهم يمهدون فرشهم ليوطئوها ولئلا يصيبهم في مضجعهم ما ينغّص عليهم مرقدهم من نتوء وغيره. وقيل: أي ومن عمل صالحاً فلنفسه يطلب الخير، ولها يمهّد مهداً كريماً، ويهيّئ مسكناً مناسباً مع ما قدّم من العمل الصّالح ليستريح فيه إلى الأبد.

أقول: ولكلٍّ وجهٌ والمعاني متقاربة من حيث.

٤٥ـ (ليجزي الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات من فضله إنّه لا يحبّ الكافرين)

في الآية الكريمة أقوال: ١ـ قيل عن ابن عبّاس: أي ليجزي الله الّذين آمنوا بمحمّد ﷺ وبالقرآن، وعملوا الطّاعات فيما بينهم وبين ربّهم من ثوابه وكرامته في الجنّة إنّه سبحانه لا يرضى دين الكافرين. ٢ـ قيل: أي ليجزيهم على قدر استحقاقهم ويزيدهم من فضله، فالفضل هو الزّيادة على الثّواب. وقيل: أي بسبب فضله لأنّه تعالى خلق الإنسان وهداه ومكّنه وأزاح علّته حتّى استحقّ الثّواب. وقيل: أي فضلاً من فضله وثواباً لا ينقطع، وإنّه تعالى لا يحبّ الكافرين فلا رحمة ولا نعمة من جهته سبحانه عليهم فلا خلاص لهم من عذابه ولا مناص من عقابه. فكأنّه قيل: ليعاقب الكافرين.

٣ـ قيل: أي إنّ الله ليجزي الّذين يطيعون الله عزّ وجلّ ويجتنبون معاصيه ثواب الجنّة من فضله على خلقه، وإنّ الفضل هو الإعطاء. إنّه تعالى لا يريد منافع الكافرين ولا ثوابهم ولا كرامتهم، وإنّما يريد عقابهم جزاءً على كفرهم وطغيانهم. ٤ـ قيل: أي إنّ النّاس يوم القيامة يتفرّقون ليجازي الله تعالى المؤمنين بالحسنى من فضله، فيكافئ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله من المنح والعطايا، إنّه عزّ وجلّ يبغض الكافرين، وذلك يستدعي عقابهم بنار جهنّم، هم فيها خالدون. اكتفى عن ذكر جزائهم بالفحوى. ٥ـ قيل: أي النّاس يتفرّقون يوم القيامة لكي يجزي الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات من رزقه. وقيل: من ثوابه، لا يرضى دين الكافرين فيعاقبهم. وقيل: الإثابة

تفضّل محض

أقول: و على الثاني أكثر المفسّرين فتأمّل جيّداً

٤٦ـ (و من آياته أن يرسل الرّياح مبشّرات و ليذيقكم من رحمته و لتجري الفلك بأمره و لتبتغوا من فضله و لعلّكم تشكرون)

و في الآية الكريمة أقوال: ١ـ عن ابن عبّاس و مجاهد و قتادة: أي و من علامات وحدانيّة الله و قدرته أن تعرفوا يا أهل مكّة بوحدانيّته أن يرسل الله الرياح مبشّرات لكم بالمطر

فمن أي يبشّركم بها قبل كون الإستبشار بالمطر بسبب نزوله، و ليذيقكم من نعمته و هو المطر و الخصب و تجري السفن في البحر بالرياح عند هبوبها «و لتجري الفلك بأمره» لأنّ الرّياح قد تهبّ و لا تكون موافقة فلابدّ من إرساء السفن و الإحتباس بحبسها، و ربّما عصفت فأغرقتها بأمره و لتطلبوا بركوب السفن في البحر من رزقه و فضله أي لتطلبوا بالأمطار فيما ترزقونه من فضل الله كلّ ذلك بالرّياح بإذن الله و لكي تشكروا يا أهل مكّة ربّ هذه النّعم الإلهيّة فتوحّدوه و تعبدوه.

٢ـ قيل: أي و من علامات قدرته أن يرسل الله تعالى رياح الرّجاء على قلوب عباده فتكنس عن قلوبهم غبار الخوف و غبار اليأس، ثمّ يرسل عليهم أمطار التوفيق، فتحملهم إلى بساط الجهد و تكرمهم بقوى النّشاط، و يرسل رياح البسط على أرواح الأولياء فتطهّرها من وحشة القبض و تبشّرهم بأنوار الوصال، و يرسل رياح التوحيد فتهبّ على أسرار الأصفياء فتطهّرها من آثار العناء، و تبشّرها بدوام الوصال، فذلك رياح الله و لكن بعد اجتياح عنف

٣ـ قيل: أي و من دلائل التّوحيد أن يرسل الرّياح إليكم أيّها المشركون بالله سبحانه تبشّركم بالأمطار، و ليصيبكم أنواع النّعم المترتّبة على جريان الرّياح كتلقيح الأشجار و دفع العفونات، و تصفية الأهواء و ما يتبع من النّعم الجارية على الخلائق و تجري السّفن بها في البحار بأمره تعالى، و لتطلبوا التجارة في البحار من رزقه الّذي هو من

فضله و لعلكم تشكرون فتستعملوا هذه النعم على الوجه الشرعي، على إبقاء نعمه من جهة و تشكروه بألسنتكم و تذكروه بذكر نعمه عليكم

٤ـ قل أي و من الأدلّة القاطعة على وحدانيّة الله تعالى و البراهين السّاطعة على أنّه ربّ كلّ شيء أنّه وحده يرسل الرّياح مبشّرات بالمطر الّذي به حياة الأرض بعد موتها فيسبب لاستخراج النّبات و نموّ الثّمار و الزّروع فتأكلون منها ما للّذوطاب، و تعيشون بها و دوابكم و أنعامكم فضلاً من ربّكم، و تجري السّفن ماخرة للبحار، حاملة للأقوات و الأمتعة و أنواع التّجارة متنقّلة من قطر إلى قطر، فتنتقل في التّجارة المعمورة من الشّرق إلى الغرب و من الغرب إلى الشّرق و العكس بالعكس فلا تحصل ثروة الشّعوب في معاشهم و يكون، و تقضى حوائج معاشهم و لعلّكم تشكرونه على ما أسدى إليكم من نعمه الوفيرة، و خيراته العميمة الّتي لا تحصى كما قال الله تعالى «و إن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها» (ابراهيم ٣٤)

٥ـ قل أي و من الأدلّة الواضحة على وحدانيّته تعالى و قدرته، و على وجوب إخلاص العبادة لله ان يرسل الرّياح بحكمته الّتي لا يعلمون سرّها إلّا هو و يرسل الرّياح بتحريكها و إجرائها في جهات مختلفة بإرادته و حكمته، تسمّى الجنوبيّة و منها من مطلع سهيل إلى مطلع الثّريّا، و أخرى شمالاً تسمّى الشّماليّة، و منها من مهبّ الشّمس إلى مسقط النّسر الطّائر و ثالثة صبا و هي شرقيّة و منها من مطلع الثّريّا إلى مهبّ الشّمس و رابعة دبور، و هي غربيّة، و منها من مسقط النّسر الطّائر إلى مطلع سهيل

و انّ الثّلاثة الأولى رياح رحمة و نعمة و بها تلقح السّحاب الماطر و تجمعه، فلذلك سمّيت رحمة لتحمّلها النّعمة و الرّابعة و هي الرّيح الغربيّة، و هي ريح نقمة و عذاب و بلاء و على أيّ عقيدة أنّ ريح الجنوب للأمطار و الأنداء، و ريح الشّمال للرّوح، و تقوية الجسم، و ريح الصّبا للإلقاح الأشجار، و ريح الدّبور للعذاب و البلاء، و تعرف بأن تثير غباراً عاصفاً يعمي العيون، و هي أقلّهنّ هبوباً

و قيل: و قد جمعت الرّياح إمّا لأنّ الله تعالى أراد الجنوب و الشّمال و الصّبا، و هي رياح الرّحمة دون الدّبور الّتي هي للعذاب و النّقمة و إمّا لأنّ أكثر الرّياح نافعة، و الضّارّة منها

كالسّموم قليلة جدّاً لا تهبّ إلّا أحياناً، وإمّا لأنّ الرّياح إذا اجتمعت و ترافعت و تراكمت حتّى صارت ريحاً واحداً أضرّت بالأشجار و النّبات و الزّروع و الإنسان فتقلع الأشجار، و تصفرّت النّبات و تجفّ الزّروع، و تحرق الإنسان و إذا تفرّقت و صارت رياحاً اعتدلت و نفعت

فيرسل الله تعالى الرّياح إليكم على حسب ما يريده و يعلم فيه من المصالح، و ذلك لا يقدر عليه غيره سبحانه لأنّ العباد لن يقدروا على حبس الحركة، فلو اجتمع جميع الخلائق من الجنّ و الإنس على أن يردّوا الرّيح إذا هبّت شمالاً إلى كونها جنوباً و بالعكس أو إذا هبّت صباً إلى كونها دبوراً و بالعكس لما قدروا عليه، فمن قدر على ذلك يعلم أنّه قادر لنفسه لا يعجزه شيء، مستحقّ للعبادة خالصة له، و ليذيقكم من رحمته العامّة، و لتجري الفلك بها في البحار بإرادته، و لتطلبوا من رزقه بالتّجارة في البحر لتشكروا الله تعالى أيّها المؤمنون على نعمه عليكم فتعبدوه و تشكروه في كلّ حال من الأحوال

أقول: و التّعميم هو الأنسب بظاهر الإطلاق فيشمل ثلاث معان في كلّ ظرف من الظّروف فتأمّل جيّداً

٤٧ـ (و لقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاؤهم بالبيّنات فانتقمنا من الّذين أجرموا و كان حقّاً علينا نصر المؤمنين)

في الآية الكريمة أقوال: ١ـ قيل: أي و لقد أرسلنا من قبلك يا محمّد ﴿ﷺ﴾ رسلاً إلى أقوامهم الكافرين بالمعجزات الباهرة، فكذّبوهم و جحدوا بالمعجزات فاستحقّوا العذاب، فأوجبنا على أنفسنا أن ننصر المؤمنين من عبادنا و ننجيهم من العذاب و إهلاك مخالفيهم ٢ـ أي و لقد أرسلنا من قبلك يا محمّد ﴿ﷺ﴾ رسلاً إلى أقوامهم فجاؤهم بالأمر و النّهي و الوعد و الوعيد و البشارة و الإنذار فكذّبوهم كما كذّبك قومك، فانتقمنا بالعذاب و البلاء و الهلاك من الّذين كفروا، و كان واجباً علينا نصر المؤمنين بالنّجاة مع رسولهم، و إنّما هو وجوب الكرم لا وجوب اللّزوم

٣ـ قيل: أي و لقد بعثنا أيّها الرّسول ﴿ﷺ﴾ رسلاً من قبلك إلى أقوامهم المشركين كما

أرسلناك إلى قومك عابدي الأوثان والأصنام والآلهة المصنوعة المنحوتة والمتوهمة من دون الله فجاؤهم بالحجج الواضحة على أنهم من عند الله تعالى، وبالبراهين القاطعة على بطلان شركهم بالله سبحانه، فكذبوهم كما كذّب قومك، وردّوا عليهم ما جاؤوهم به من عنده كما ردّوا عليك ما جئتهم به فانتقمنا من الذين أشركوا بالله سبحانه، وأجرموا الآثام، وكسبوا السيئات من أقوامهم بالتدمير والهلاك، ونصرنا الذين آمنوا بالله تعالى وصدقوا رسله، ونحن فاعلون ذلك بمجرمي قومك من المشركين، وهي من تلك سنة الله التي شرعها لعباده ولن تجد لسنة الله تبديلاً

٤ـ قيل: أي ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى بلادهم فمن قابلهم بالتصديق وصل إلى خلاصة التخلص، ومن عارضهم بالجحود أذقناهم عذاب الجحود فانتقمنا من الذين أجرموا وأخذناهم من حيث لم يحتسبوا وسوّلت عليهم ما أتوا وبعثت عليهم ما استحقوا وسقموا، وأخذنا عليهم فحاق بهم ما مكروا وكان حقاً علينا نصر المؤمنين توطئتهم بأعقاب أعدائهم، ولم يلبثوا إلا يسيراً حتى ركبناهم فوق رقابهم، وخرّبنا أوطان أعدائهم، وهدّمنا بنيانهم، وأخذنا بنواصيهم، وعفّيت عليهم ديارهم، ومحونا بقهر التدمير آثارهم، فظلّت سقوفهم كاسفة، ومكثت قبورهم بخضوعهم خاسفة

٥ـ عن ابن عباس: أي ولقد بعثنا من قبلك يا محمد ﴿ص﴾ رسلاً إلى قومهم فجاؤهم بالأمر والنهي والعلامات، فلم يؤمنوا فانتقمنا بالعذاب من الذين أشركوا وكان واجباً علينا نصر المؤمنين مع الرسل بنجاتهم وهلاك أعدائهم... ٦ـ قيل: أي ولقد أرسلنا من قبلك أيها الرسول رسلاً إلى قومهم فجاؤهم بالمعجزات الواضحات والآيات الباهرات والحجج النيرات على صدق رسالتهم، فكذبوهم وجحدوا بآياتنا فاستحقوا العذاب، فعاقبناهم بتكذيبهم وأهلكناهم، ودفعنا السوء والعذاب عن المؤمنين، وكان واجباً علينا نصرهم بإعلاء الحجة ودفع الأعداء عنهم، وبنجاتهم من الهلاك والتدمير والعذاب

٧ـ قيل: أي بالدلائل على صدقهم ونبوتهم، فكذبوهم عتيّاً وعناداً، فأخذهم الله

بدعوتهم، ومنهم من آمن. ٨ـ قيل أي جاء كلّ قوم رسولهم بما خصّه من البيّنات
فموسى ﷺ بإبطال السحر وبالآيات التسع البيّنات، وصالح ﷺ بإخراج الناقة من
الجبل، وعيسى ﷺ بإحياء الموتى، وهكذا حتى ختمت النبوّة بالقرآن الكريم المعجزة
الخالدة وغيرها من المعجزات المتعلّقة بزمانه، فآمن بعض وكذّب بعض، فانتقمنا من
الّذين كذّبوا رسولهم بتدميرهم وكان لازماً منا حقّاً وعدلاً، وكان علينا نصر
المؤمنين لا طبعاً حيث جعلوا مستحقّين على الله تعالى أن ينصرهم فكان لإنجاء لأجل
المؤمنين فيشمل الرّسل عليهم السلام

أقول: والمعنى [illegible] من دون [illegible] فتأمّل جيّداً

٤٨ـ الله الّذي يرسل الرّياح فتثير سحاباً فيبسطه في السّماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون)

في قوله تعالى: فتثير سحاباً فيبسطه في السّماء كيف يشاء أقوال: ١ـ قيل أي الرّياح تدفع السّحاب وتهيّجه فيبسطه الله تعالى السّحاب في جوّ السّماء كيف يشاء إن شاء بسطه مسيرة يوم أو أكثر أو أقلّ، ويجريه إلى أيّ جهة شاء، وإلى أيّ بلد شاء. ٢ـ عن ابن عبّاس: فترفع هذه الرّياح سحاباً ثقالاً بالمطر فتمرّ به لتسحب قدر كما يدرّ اللّقحة و ثجاج مثل العزالي غير أنّه متفرّق من [illegible] فيما ذا رفع. ٣ـ قيل أي فتحرّك الرّياح، وتثير سحاباً ويبسط السّحاب ويكون من فعل الله تعالى، ولكن لمّا كان للسّحاب سبب منه جاز أن ينسب إليه

٣ـ عن السّدي: أي الرّياح تأتي بالسّحاب من بين الخافقين طرف السّماء في جهة العلوّ من الجوّ حتى يلتقيا، فتخرج الرّياح سحاباً ثمّ تنشره فيبسطه الله في السّماء كيف يشاء، فيسيل الماء على السّحاب، ثمّ تمطر السّحاب بعد ذلك. ٤ـ عن قتادة: أي ترفع السّحاب فيجمعه. ٥ـ قيل أي هو الّذي يرسل الرّياح مهبّت، والشّمس تبخر ماء البحار،

فترفع الرياح بهذا البخار إلى الجو ثم تعيده للأرض أمطاراً ٦ ـ قيل أي فيبسطه في السماء كيف يشاء سائراً و واقفاً مطبقاً و غير مطبق من جانب دون جانب إلى غير ذلك ٧ ـ قيل أي فيبسطه في السماء كيف يشاء من قلة و كثرة ٨ ـ قيل أي فيبسط بمعنى ذلك السحاب كيف يشاء في السماء من كثرة و قلة و غير ذلك ٩ ـ قيل أي فيبسطه في السماء بسطاً تاماً متصلاً تارة في سمت السماء لا في نفس السماء كقوله تعالى «و فرعها في السماء» [إبراهيم ٢٤] أي في جهة السماء

١٠ ـ قيل أي الله الذي يرسل رياح عظمته وجوده مبشرات برحمته وجوده ثم تمطر جود نعمه على سرائر عباده بلطفه، و تطوي بساط خدمته من سحاب قربه، و تضرب سرادق هيبته ... أنسه. ثم تتجلى لهم بحقائق قدسه، و ... بعده ... و ... لأنهم ... بكل ... فيعترفون عن ذلك ... و ... من ... لأنه ...

أقول: و على الأول أكثر المفسرين و في بعض الأقوال الأخر تأمل فتدبر

و في قوله عزّ و جلّ «و يجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله» أقوال ١ ـ قيل قطعاً أي و يجعل الله هذا السحاب قطعاً متفرقة تارة أخرى فترى المطر يخرج من بين السحاب في الحالين ٢ ـ قيل طبقات أي و يجعل الله هذا السحاب قطعات متراكمة متراكبة بعضه فوق بعض حتى ينعقد فترى المطر يخرج من بين السحاب ٣ ـ قيل أي يبسطه تارة أخرى و يجعله قطعاً متكاثفة بعضه على بعض، ثم ينسجه و يقطع و يدفع بكل قطعة إلى بلد يريد و حيث إنه يسوقه بناء على مراد المقصود ٤ ـ قيل أي ... بعض ... الشمس فترى ... الوسول ... يخرج المطر من بين السحاب على ... في ... دون ... و ... إن الله تعالى ... السحاب ... لأن المطر ... قبل ... يخرج المطر متصلاً

أقول: و على الثالث أكثر المفسرين من دون ... و ... الأقوال الأخر فتأمل جيداً

و في قوله سبحانه «فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون» أقوال

١ـ قيل: أي فإذا أصاب الله بالمطر من يشآء من عباده يعني بلادهم و أراضيهم إذا هم يستبشرون أي فاجؤوا بمجيء الخصب ٢ـ قيل: أي فإذا أصاب به بعض عباده فرحوا به لحاجتهم إليه ٣ـ قيل: أي يفرحون و يبشّر بعضهم بعضاً به ٤ـ قيل: أي يفرحون بنزول المطر عليهم بعد اليأس و القنوط

أقول: و لكلٍّ وجهٌ فتدبّر

٤٩ـ (و إن كانوا من قبل أن ينزّل عليهم من قبله لمبلسين)

في الآية الكريمة أقوال: ١ـ عن قتادة و الضّحّاك أي و إن كان النّاس من قبل أن ينزل عليهم المطر، من قبل إرسال الرّياح لآيسين قانطين من المطر ٢ـ عن ابن عبّاس أي و قد كان كفّار قريش من قبل أن ينزل عليهم المطر آيسين من نزوله فشاحت بهم على فاقة و حاجة، و وقع منهم موقعاً عظيماً إذ كانوا يترقّبونه في إبّانه، فتأخّر ثمّ مضت مدّة، فلم يقع منها فتأخّر، ثمّ جاءهم بعد اليأس و القنوط و بعد أن كانت أراضيهم هامدة أصبحت، و قد اهتزّت و ربت و أنبتت من كلّ زوج بهيج ٣ـ قيل: تقديره من قبل تنزيل المطر من قبل المطر

٤ـ قيل: و إن كان المشركون من قبل أن ينزّل عليهم المطر، من قبل إنزاله كانوا آيسين «من قبله» تأكيد لـ«من قبل أن ينزّل عليهم»، و فائدة التأكيد هي الإعلام بسرعة تقلّب قلوبهم من اليأس إلى الاستبشار و في التأكيد دلالة على أنّ عهدهم بالمطر قد تطاول، و بعد فاستحكم يأسهم، و تمادى إبلاسهم، فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك ٥ـ قيل: تقديره من قبل تنزيل المطر من قبل أن يزرعوا كانوا مكتئبين حزينين، فقد ظهر الحزن عليهم لاحتباس المطر عنهم و دلّ على زرع المطر إذ بسببه يكون، و دلّ عليه أيضاً: «فرأوه مصفرّاً» ٦ـ قيل: أي من قبل السّحاب، من قبل رؤية السّحاب و بسطه كانوا قانطين، و ذلك أنّ عند رؤية السّحب و هبوب الرّياح قد يرجى المطر، فلا تتحقّق الإبلاس

أقول: و على الرّابع أكثر المفسّرين من دون تنافٍ بينه و بين بعض الأقوال الأخر

فصل

٥٠ـ (فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحي الأرض بعد موتها إنّ ذلك لمحيي الموتى و هو على كلّ شيْ قدير)

في الآية الكريمة أقوال: ١ـ قيل: أي فانظر أيّها الإنسان في أيّ طرف من الظّروف إلى آثار البعث الّذي نبت به ما أنبت من الزّرع والأشجار والثمار، فإنّها أدلّة قاطعة وبراهين ساطعة على قدرة الله جلّ وعلا على إحياء الموتى بعد انفصال أعضائهم، وإذ ثبتت قدرته على إحياء النّبت من الأرض بالبعث ثبتت قدرته على إحياء الأجساد بعد موتها وتفرّقها وتمزّقها إرباً إرباً، فإنّ حكم الأمثال فيما يجوز وفيما لا يجوز واحد. ٢ـ قيل: أي فانظر أيّها السّامع إلى آثار رحمة الله تعالى يعني النّبات وفيه أثر المطر، أنواع النّبات منه الأخضر والأحمر والأصفر وغيرها من الألوان المختلفة كيف يحيي الله تعالى الأرض بعد موتها، حين لم يكن فيها نبات ومن فعل هذا فهو الّذي يحيي الموتى يوم القيامة والمراد بالموتى موتى الإنسان.

٣ـ قيل: إنّ برحمة الله المطر النّازل من السّحاب الّذي تسطه الرّياح، وآثارها ما يترتّب على نزول المطر من النّبات والأشجار والثّمر وهي بعينها آثار حياة الأرض بعد موتها وجدبها، فيحييه الأرض بعد موتها من آثار الرّحمة والمراد بالموتى: موتى الإنسان وغيره من ذوي الحياة بقوله تعالى: «وإذا الوحوش حشرت» (التكوير: ٥). ٤ـ قيل: أي فانظر أيّها الرّسول «ﷺ» إلى آثار رحمة الله الّتي أصاب الله بها من أصاب بها من عباده كيف يحيي الأرض بالنّبات بعد جدوبها، إنّ مثل ذلك يحيي الله الموتى بعد أن كانوا رماداً.

٥ـ عن ابن عبّاس: أي فانظر يا محمّد «ﷺ» إلى قطرات المطر وبعد المطر كيف يحيي الأرض بعد قحطها ويبوستها، إنّ الّذي يحيي الأرض بعد موتها يحيي الموتى للبعث وهو على كلّ شيْ من الموت والإحياء والبعث للخلق قدير. ٦ـ قيل: أي فانظر أيّها المنكر للبعث والحساب بعد الموت إلى نعمة الله تعالى بالمطر كيف يحيي الأرض بعد يبسها بأن نبت شجراً ومرعى، فجعل الله اليبس والجدوبة بمنزلة الموت وظهور النّبات فيها بمنزلة الحياة ليعلموا أنّ الله تعالى يفعل ما ترون وهو الله تعالى لمحيي الموتى في الآخرة بعد كونهم رفاتاً

٦ـ قيل أي فانظر أيها السامع إلى آثار رحمة الله أي سعة كيف يحيي الأرض بأزهارها و أنوارها بعد مجيء الأمطار فتخرج زروعها و أشجارها و يحيي النفوس بعد نفورها، و توقفها للخيرات بعد [illegible] أوصاف [illegible] و يدفع [illegible] عن [illegible] بتركات [illegible] و يحيي القلوب بعد غفلتها [illegible] فتصير القلوب إلى [illegible] التذكر [illegible] و يهدي [illegible] ففيها من [illegible] الأرواح [illegible] و يحيي الأرواح بعد [illegible] [illegible] عن [illegible] و [illegible] بمشام أسرار الكائنة نسيم ما يفيض عليهم من الزيادات، فلا يبق صاحب نفس إلا حظي منه بنصيب، و حتى الأسرار [illegible] في بعض [illegible] [illegible] للغيرية، و لا يبق في الدارين [illegible] و [illegible] من صفات الخلائق [illegible] و [illegible] و [illegible] الحقيقة

٧ـ قيل [illegible] على [illegible] المطر فانظر إلى [illegible] ابدع الأرض بعد موتها و جدبها ٨ـ قيل [illegible] فانظر إلى [illegible] الأرض بعد موتها [illegible] على [illegible] بعد موتهم [illegible] من [illegible] في مواد [illegible] من القوى [illegible] الأرض [illegible] من سوى النباتية و قيل [illegible] يكون [illegible] من اجزاء نباتية تفتتت و تبددت و [illegible] في بعض الأعوام السالفة، فيكون كالإحياء [illegible] باعادة المواد و [illegible] لا [illegible] و قيل هذا احتمال باطل و [illegible]

أقول و على الأول أكثر المحققين و [illegible] الأول [illegible] احتمال [illegible]

٥١ـ (و لئن أرسلنا ريحًا فرأوه مصفرًا لظلّوا من بعده يكفرون)

في الآية الكريمة أقوال. ١ـ عن ابن عباس و الحسن أي [illegible] إلى هؤلاء المشركين ريحًا [illegible] حارة أو باردة على [illegible] أيدي [illegible] و استوى على سوقه، فرأوا الزرع و النبت الذي كان من أثر رحمة الله، قد اصفر من الحر و البرد بعد

[illegible] من بعد ذلك الاستبشار، و [illegible] يجحدون نعم الله [illegible] عليهم ٢ـ قيل أي ولئن أرسلنا ريحا [illegible] فرأوه مصفراً لأنه إذا [illegible] كذلك [illegible] من بعده يكفرون بالله تعالى و نعمه، ولم يرضوا بقضاء الله سبحانه [illegible] من جهل صنيعه وتدبيره و لا يعلم أنه تعالى حكيم لا يفعل إلا الأصلح فيشكر عند النعمة و يصبر عند الشدة

٣ـ قيل أي ولئن أرسلنا ريحا [illegible] زرعهم و [illegible] بالصفار و [illegible] [illegible] من [illegible] الله تعالى [illegible] و [illegible] طرق [illegible] و [illegible] في كل حال، و [illegible] الله سبحانه و يبادرون [illegible] الله [illegible] و [illegible] على بلائه إذ [illegible] و لا يكفرون نعمة [illegible] و لكنهم عكسوا الأمر [illegible]

٤ـ قيل أي [illegible] ٥ـ قيل أي [illegible] ٥ـ قيل أي [illegible] ٦ـ قيل أي [illegible] و يكفرون إذ انقطع عنهم النبات، و يقيمون على كفر [illegible] فإذا محصوا بالبلاء ارتابوا بالخالق و حكمته

٧ـ قيل أي ولئن أرسلنا ريحا [illegible] هؤلاء الذين [illegible] الله [illegible] و [illegible] زروعهم [illegible] من [illegible] مصفرّاً [illegible] الريح التي [illegible] فصار من بعد [illegible] مصفرّاً [illegible] من بعد [illegible] يكفرون بربهم، وقيل من بعد إرسال الريح وقيل: من بعد اصفرار زرعهم يجحدون ما سلف من النعمة بالمطر

أقول: و [illegible] الأخير [illegible]

حسنة.

٥٢ـ ﴿فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصمّ الدعاء إذا ولّوا مدبرين﴾

في الآية الكريمة قولان: ١ـ قيل أي فلا تحزن ولا تغتمّ أيها الرسول ﷺ بهؤلاء الذين تتبدّل بهم الأحوال من اليأس والقنوط، والاستبشار والفرح، وكفرهم بالله وكفرهم بنعمه جلّ وعلا ومن عدم تعقّلهم فيها فإنهم موتى روحاً، وصمّ قلباً ولا يقدرون على سماعهم ما تدعوهم إليه إذا هم أعرضوا عنه إعراضاً لا رجوع عنه. ٢ـ قيل أي فكما لا تسمع الموتى النداء، فكذلك لا تسمع الكفّار الدعاء إذ دعوا إلى الحقّ والهدى والإيمان، ولا تسمع الأصمّ إذا كان مقبلاً فكيف يسمع إذا ولّى مدبراً، فكذلك الكفّار لا يسمعون إذ كانوا مصمّمين على الكفر والضلالة عند تلاوته وتدعوه، فإنهم بمثابة الموتى والأصمّ لا يعيشون روحاً ولا يرون حقاً ولا يسمعون حقّاً ولا يدركون ذلك فيتحدّثون ويكبرون ويضجّون ويصخبون.

والكفّار كالموتى لما سدّوا عن الحقّ والهدى مسامعهم وكالصمّ لا يسمعون الدعاء إذ أعرضوا عنها إعراضاً دائماً. قيل: قيّد الحكم «ولّوا مدبرين» ليكون أشدّ استحالة فإنّ الأصمّ المقبل، وإن لم يسمع الكلام يفطن منه بواسطة الحركات شيئاً.

٣ـ قيل أي كما أنت يا محمد ﷺ لا تسمع الميّت لتعذّر استماعه فكذلك لا تسمع الكفّار ما في القرآن الكريم من حكمه ومواعظه كما لا تسمع الأصمّ المدبر عنك لأنه لا ينتفع به. ٤ـ قيل أي إنك لا تقدر أن تفهم هؤلاء المشركين الذين قد ختم الله على قلوبهم، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة، فسلبهم فهم ما يتلى عليهم من مواعظ تنزيله كما لا تقدر أن تفهم الموتى الذين سلبوا أسماعهم بأن تجعل لهم أسماعهم، ولا تقدر أن تهدي من تصامّوا عن فهم آيات كتابه فتجعلهم يسمعونها ويفهمونها كما لا تقدر أن تسمع الصمّ الدعاء إذا ولّوا عنك مدبرين. ٥ـ عن ابن عبّاس: أي فإنك لا تفقه الموتى كأنه ميّت، ولا تسمع المتصامم دعوتك إلى الحقّ والهدى إذا أعرضوا عن الحقّ والهدى.

٦ـ قيل أي لا تحزن أيها الرسول ﷺ ولا تجزع على عدم إيمان كفّار مكّة المشركين

بالله سبحانه فإنّهم موتى و صمّ، فإنّ من فقد الحياة الأصليّة لم ينتفع بالرُّقى و التمائم، و إذا كان في نشره برد طرش عن سماع الحقيقة فسمع الظاهر لا يفيده، كما جعله فشبّه تعالى هؤلاء الكفّار في ترك تدبّرهم فيما تدعوهم إليه رسول الله ﷺ تارة بالأموات و أخرى بالصمّ لأنّهم لا يريدون أن ينتفعوا بدعاء الداعي لكنّهم لا يسمعونه خصوصاً إذا أعرضوا عن أدلّته ذاهبين إلى الكفر و الضلال و الشرك و الفساد، غير سالكين سبيل الحقّ و الرشاد ۷ ـ قيل: أي إذا و صحب خطاب يا محمّد ﷺ لكنّهم لأنّهم متعبّدة الأسلاف في الكفر و الضلال ما سبب عقولهم، و عميت بصائرهم، فلا تثبت أسماعهم و هذا سهم
أقول: و لكلّ وجهٌ من دون تنافٍ بينها فتدبّر جيّداً

۵۳ ـ (و ما أنت بهاد العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلّا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون)

في الآية الكريمة أقول: ۱ ـ قيل: أي و ما أنت أيّها الرسول ﷺ أن تهدي عمى القلوب و تردعهم عن الضلالة إلى الهدى، و عن الباطل إلى الحقّ، لا تسمع سماع تدبّر و اعتبار و تعقّل و استبصار، و تأمّل و قبول إلّا من يريد الإيمان بالحقّ لوجه الله تعالى و الحقّ، أمّا الانتهازيّون فدينهم في بطونهم و جيوبهم لا في رؤوسهم و قلوبهم ۲ ـ عن ابن عبّاس: أي و ما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم إلى الهدى قيل: سمّاهم عمياً لفقدهم المقصود الحقيقيّ من الإبصار ما تسمع دعوتك إلّا من يؤمن بكتابنا و رسولنا، فهم يصغون إلى أدلّة المبدإ و المعاد، فهم مخلصون له تعالى بالتوحيد و العبادة

۳ ـ قيل: أي ليس في طوقك أن تهدي من أضلّه الله، فتردّه عن ضلالته، بل ذلك إليه وحده، فإنّه يهدي من يشاء و يضلّ من يشاء، و ليس ذلك لأحد سواه. فإنّك لا تسمع السماع الّذي ينتفع به سامعه، فيعيه إلّا من يؤمن بآياتنا لأنّه هو الّذي إذا سمع كتاب الله تدبّره و فهمه و عمل بما فيه، و سعى إلى حدوده الّتي حدّها، فهو مسلم خاضع له، مطيع لأوامره، و تارك لنواهيه ۴ ـ قيل: أي و ما أنت يا محمّد ﷺ بهادي العمي عن

ضلالهم إذ ليس فيهم حيلة أن يبصروا الهداية فإنهم كالعمي لا يهتدون بالأدلة، ولا تقدر على ردّهم عن العمى، ثم يصيروا مستبصرين، فإنك لا تسمع إلا من طلب بصيرة و الهدى، والتصديق بآياتنا لأنهم يستمعون ما تلقيه، ويمتثلون فهم مستجيبون لك ما تدعوهم إليه، وما تأمرهم به وتنهاهم عنه فإنهم يستمعون الحق ويتدبرون المعاني ويعقلون الحجج ويصدقونها

٥ ـ قيل أي وما أنت تهدي العمي إلى الحق، ولا تقدر أن تفهمهم وهم لا يرغبون في طلب الحق وطريقه، ما تسمع إلا من يؤمن بالقرآن فهم مخلصون. قيل أي إنك لا تسمع إلا من يعرف الحق، وقيل [illegible] إلى تفهّم اللفظ وتدبّر المعنى فهم مسلمون لما تأمرهم به وما تنهاهم عنه

٦ ـ قيل أي وما أنت بمسمع [illegible] عن الإيمان [illegible] الحق [illegible] عن ضلالته التي هو عليها [illegible] من يسمع [illegible] فهم مخلصون [illegible]

أقول والمعنى متقارب [illegible]

٥٤ ـ اللهُ الّذي خلقكم من ضعف ثمّ جعل من بعد ضعف قوّة ثمّ جعل من بعد قوّة ضعفاً و شيبة يخلق ما يشاء و هو العليم القدير.

في الآية الكريمة قولان ١ ـ قيل أي إنّ الله الّذي خلقكم أيها الناس من ضعف، يذكر نطفة، محوّلكم إلى أن صرتم [illegible] لا قدرة لكم على دفع [illegible] عنكم ولا على الأكل و المشيْ و البطش، ثمّ جعل لكم من بعد هذا الضعف قوّة [illegible] و [illegible] ثمّ جعل لكم من بعد قوّة، ضعفاً و شيبة في حال [illegible] و الشيب و [illegible] الشعر الأسود، يخلق الله كيف يشاء، وهو العليم [illegible] على [illegible]، فهو يفعل بحسب ما يعلمه من مصالحهم و ما تقتضيه حكمته

٢ ـ عن ابن عبّاس و قتادة أي الله الّذي خلقكم أيها المشركون المنكرون للبعث بعد

موتكم، من أصل ضعيف و هو نطفة مهينة ضعيفة، ثمّ جعل من بعد ضعف هذه الشدّة بتمام خلقته و هو بلوغكم الأشدّ أي كمال القوّة، ثمّ جعل من بعد الشباب الهرم و الشمط، يخلق ما يشاء من الخلق كيف يشاء من القوّة، و هو العليم بتحويل الخلق القدير على ذلك. فيه إخبار عن خلق أنفسهم ليتفكّروا فيه و يعتبروا و يعلموا أنّ الذي خلقهم من ضعف يعيدهم بعد موتهم

٣ـ قيل أي الله الذي خلقكم ضعفاء، و أراد بذلك من طفوليتكم و صغر سنّكم. ثمّ جعلكم أقوياء، و أراد بذلك من شبابكم و كهولتكم. ثمّ جعلكم ضعفاء بعد القوّة و مسنّا، و أراد بذلك من شيخوختكم و هرمكم، فهو خلق ما يشاء على الوجه و الأطوار التي تقتضيها حكمته من ضعف و قوّة و شيبة، فتحوّل خلقه كيف يشاء من حال إلى حال، و هو العليم بالمصالح، القدير على خلق كلّ شيء حسبها. و في الآية تذكير بأطوار خلق الله للناس و تنبيه على قدرة الله جلّ و علا، و تحقيق في تطوّرات خلقه للناس و مقادير أعمارهم، و في كلّ ما يعمله حكمة و غاية

٤ـ قيل أي الله الذي خلقكم أيها المكذّبون من ماء مهين و جعل لكم السمع و الأبصار و الأفئدة، ثمّ جعل لكم قوّة على التصرّف من بعد ضعف الصغر و الطفولة، ثمّ أحدث لكم الضعف بالهرم و الكبر بعد ما كنتم أقوياء في شبابكم، خلق الله ما يشاء من ضعف و قوّة و شباب و شيبة، و هو العليم بتدبير خلقه، القدير على ما يشاء لا يمتنع عليه شيء أراده، فمن كان قادراً على أطوار خلقكم و تطويل عمركم فهو قادر على إعادتكم و بعثكم بعد موتكم لفصل القضاء بينكم.

٥ـ قيل أي الله الذي أظهركم على ضعف الصغر و الطفولية، ثمّ بعده قوّة الشباب، ثمّ ضعف الشيب ثمّ

احسر لأمر ترى ... نضر و اللحد و الثرى

كذلك في ابتداء أمركم يظهركم على وصف ضعف البداية في نعت التردّد و الحيرة في الطلب، ثمّ بعد قوّة توصل في ضعف التوحيد ٦ـ قيل أي الله الذي خلقكم من ضعف العقل لأنّه يشترط بعرفان و بيّنة، ثمّ قوّة السرّ في حال العرفان لأنّه بسطوة الوجود ثمّ

بعده ضعف الخمود، لأنّه الخمود يتلو الوجود و لا يبقى معه أثر

٧ـ قيل: أي الله الّذي خلقكم من حال ضعف من حيث خلقه ثمّ بعده قوّة الوجود ثمّ بعده ضعف المسكنة قال رسول الله ﴿ﷺ﴾ «أحيني مسكيناً و أمتني مسكيناً و احشرني في زمرة المساكين» ٨ـ قيل إنّ الله الّذي خلقكم ضعفاء بدليل «خلق الإنسان ضعيفاً» (النساء ٢٨) فجعل منكم مجبولة على الضّعف، و الضّعف هو أساس أمركم، ثمّ جعل من بعد ضعف قوّة بالبعث الجنسي و قيل أي بعقل الزّوج الّذي يتكم ـ ثمّ جعل من بعد قوّة ضعفاً و شيبة. ثمّ جعل من بعد قوّة ضعفاً و هو الهرم و هو تمام النّقصان، يخلق ما يشاء من قوّة و ضعف، و هو العليم أي البالغ في العلوم بتدبيره القدير البالغ في القدرة على إرادته و قيل أي خلقه من الأشياء الّتي من جنسها ما ذكر من الضّعف و القوّة و الشيبة و خلقها إنّما يعني خلق أسبابها و محلّها و إنّما أحدثها بنفسه

٩ـ قيل أي الله الّذي خلقكم من ضعف و هو ضعف الإدراك و الجسم في الأطفال ثمّ جعل من بعد ضعف، قوّة و هي قوّة الشّباب و زهرة الحياة و رشد الفكر و بلوغ العقل، ثمّ جعل من بعد قوّة ضعفاً و هي ضعف الهرم و فتور الشيخوخة و الكهولة و الغرض من هذا البيان أنّ الإنسان يمرّ بالعديد من الأطوار و الأدوار و لكنّها تذهب بسرعة مع الرّيح و العاقل يستهر فرص الخير و نعمل الصّالح ليوم الخوف الأكبر و حسرته و حزنه

١٠ـ قيل أي الله الّذي أوجدكم أيّها النّاس من تراب، ثمّ بعد مضيّ الزّمان خلقكم من بعض ضعف آخر و هو الضّعف الموجود في الجنين و الطّفل قوّة يتحرّك بها الطّفل في بطن أمّه، و يشرب دم الطّمث، ثمّ بعد الولادة مصّ الثّدي و يدفع الأذى عن نفسه بالبكاء إلى أن يقدر على أكل الغذاء بنفسه، ثمّ مشيّ بعد بقدميه إلى أن يصل إلى القوّة و النشاط في الجسم، ثمّ جعل من بعد قوّة الشّباب ضعفاً آخر و هو ضعف الكهولة و الكبر و الشيخوخة و شيبة و الشّيب و الشيب بياض الشّعر الأسود

١١ـ قيل أي الله الّذي خلقكم من ضعف في البداية و هو ضعف العقل، ثمّ جعل من بعد ضعف، قوّة في العقل بالبراهين و الحجج، ثمّ جعل من بعد قوّة ضعفاً و شيبة في الإيمان لمن كان العقل عقيله، فعقله بعلاقات المقولات، فنظر فيها بداعية الهوى نظر مشوب

بقوة الوهم و الخيال فيقع في ضلالات الشبهات فتزلّ قدمه عن الصراط و تزلّ نفسه

١٢ ـ قيل: أي الله الذي خلقكم من ضعف التردّد و التحيّر في الطلب، ثمّ جعل من بعد ضعف، قوّة في صدق الطلب، ثمّ جعل من بعد قوّة في الطلب ضعفاً في حمل القول الثقيل و هو كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» يخلق الله ما يشاء من الأشياء التي من جملتها ما ركّب من الضعف و القوّة و الشباب و الشيبة فليس هذه صفته بل كلّها منسوبة لله تعالى و إرادته و هو العليم بحقيقة القدير بتحويله من حال إلى حال. و لاحق عليك أنّ النفس ما كانت أمور الإعتبار من نفس غيرهم من تلك ثبات الخير بعدي عن خلق أنفسهم في أطوار مختلفة سعيرة و او سقطوا من معرفة هذه المعرفة و سقطت إلى معرفة الصانع بكمال العلم و القدرة، المنزّه عن الحدوث و الإمكان فتحرّكوا بها إلى طاعة ربّهم

١٣ ـ قيل: إنّ الضعف الأوّل هو ضعف المزاج في فهم أرباب العموم و الخصوص جميعاً، و القوّة بعد الضعف هي قوّة المزاج حسب مفهومها الظاهر عندهم جميعاً، و ينضاف إلى مفهومها الظاهر في فهم أرباب الخصوص قوّة الحال و هي التي يقتضي التصرّف و التأثير في العالم باطنه، و الضعف الثاني ضعف المزاج، فوجب مفهومه الظاهر عند الجميع و ينضاف إليه في فهم أرباب الخصوص ضعف المعرفة بالله أي ضعف حصل بسبب المعرفة، فيضعفه و يخرجه عن قوّته بمرحلة و تردّه إلى ضعفه الأصلي حتّى يضعفه بالقرب الذي هو أصله و يلحقه به، فيرجع إلى ضعفه الأوّل، فلا يقدر على شيء بالتصرّف و التأثير بقوّة همّة

فيصير في نفسه أي في حدّ ذاته مع قطع النظر عن ظهور التصرّفات الإلهيّة منه عند نفسه أي في نظره و اعتقاده كالضعيف عند أمّه الرضيع، فكما أنّه لا يرى لنفسه قوّة و لا قدرة و يكل أمره بالكليّة إلى أمّه التي ترضعه و تربّيه. و كذلك المؤمن العارف حقّاً يأوي إلى الله تعالى و هو خالقه و رازقه و مدبّره و مربّيه، و لذلك قال لوط النبيّ ﴿ﷺ﴾ «لو أنّ لي بكم قوّة أو آوي إلى ركن شديد» هود: ٨٠) يريد القبيلة و قال رسول الله ﴿ﷺ﴾، «رحم الله أخي لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد» يريد ﴿ﷺ﴾ ضعف المعرفة، فـ«ركن شديد» هو الحقّ سبحانه مدبّره و مربّيه

٥٤ . قال [illegible] خلقكم ضعفاء [illegible] ثم جعل [illegible] لا تملكون لأنفسكم نفعاً ولا ضراً ثم جعلكم [illegible] ثم [illegible] من [illegible] متصرف في [illegible] ثم جعلكم ضعفاء [illegible] كونه سبحانه «ومن نعمّره ننكّسه في الخلق» [illegible] ومنكم من يردّ إلى أرذل العمر لكيلا يعلم بعد علم شيئاً [illegible] فهم لا يشيّ [illegible] دون [illegible] شيّ [illegible] من [illegible] ومنهم من [illegible] حتى [illegible] وروحاً وهذا [illegible] على [illegible] ضعف [illegible] العمر «وجعل [illegible] من بعد قوّة ضعفاً وشيبة» وهو [illegible] كما [illegible] مريم ٤

أقول وعلى [illegible] في [illegible] جسمي والروحي الظاهري والباطني [illegible]

٥٥ـ (ويوم تقوم السّاعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون)

في قوله تعالى: «ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة» قول [illegible] عن الكلبي وابن عبّاس ومقاتل [illegible] ويوم تقوم الساعة [illegible] ما [illegible] في قبورهم بعد الموت غير قطعة قليلة من الزمان قدر ساعة واحدة وسمّيت القيامة بالسّاعة لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا، ولأنها تقع بغتة وبديهة، وجرت علَماً كالنّجم للثريّا، والكوكب للزهرة [illegible] غير ساعة [illegible] مدّة مكثهم في البرزخ على طولها، وهم قد [illegible] في الآخرة عن معرفة مدّة مكثهم في ذلك [illegible] لأحد أمرين، إمّا لأنهم كانوا أمواتاً [illegible] وإمّا لأنهم [illegible] من عذاب القبر بالإضافة إلى ما يرون ذلك اليوم [illegible] تحت الأرض، وإن ذلك [illegible] من [illegible] على [illegible]

جهلهم. ٤ـ لا تُسمع عذرتهم ولا تُدفع ضُرّهم وقيل: استقلّوا مدّة مكثهم في القبور كذباً

٢ـ قال أي: ويوم تجيء ساعة البعث، فيبعث الله الخلق من قبورهم يقسم المجرمون الذين يكفرون بآيات الله ويكذبون البعث بعد موتهم، ويكتسبون الآثام في الحياة الدنيا، ما لبثوا في الدنيا غير قدر ساعة، استقلّوا مدّة لبثهم فيها فإنهم يومئذ يندهشون و يدهشون مما يرون من الهول [illegible] الساعة وأهوالها فيتحققون أنهم لم يكن لهم على معارفهم [illegible] الساعة وقيل [illegible] مدّة لبثهم في الدنيا ساعة [illegible] في [illegible] أمرهم و[illegible] في موضع [illegible] و [illegible] على [illegible]

ومن فائدة [illegible] في الدنيا ودوامها وانقطاعها كما قال تعالى: «كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها» [illegible] ساعة من نهار [illegible] فلمعى [illegible] في الدنيا [illegible] ساعة لاستقلالهم مدّة الدنيا ٣ـ قال أي [illegible] في يوم البعث وهو [illegible] و[illegible] على وجه الاستحقاق [illegible] وقد ورد [illegible] في [illegible] من [illegible] ساعة أو يوم وأسبوع وشهر وسنة وقيل [illegible] من هول [illegible] وقيل [illegible]

قال [illegible] يقع منهم [illegible] في [illegible] عقولهم وقيل قال لا يجد أن يقع منهم [illegible] في [illegible] يكونون [illegible] بعد [illegible] عذاب [illegible] وقيل [illegible] لا إضافة إلى مدّة [illegible] يعد أنهم [illegible] في أول وقت الحشر أو في أثنائه أو بعد دخول النار وقيل أي ما لبثوا بعد [illegible] الساعة ثم يسوقون إلى النار وقيل لا [illegible] قبل يوم القيامة، فعلى هذا [illegible] غير ساعة

إن تسأل: كيف يحلفون [illegible] مع أنّ معارفهم يوم القيامة ضرورية؟

تجيب عنه [illegible]

منها: عن أبي علي وأبي مسلم أنّهم يحلفون على الظنّ، وهم لا يعلمون لبثهم في القبور، فكأنّهم قالوا: ما لبثنا غير ساعة في ظنونا.

ومنها: أنّهم استقلّوا الدنيا لما عاينوا من أمر الآخرة فكأنّهم قالوا: ما الدنيا في الآخرة إلّا ساعة فاستقلّوا حياتهم التي عاشوها في الدنيا لما [illegible] الأهوال الكثيرة.

ومنها: عن أبي بكر بن الإخشيد: أنّ ذلك يجوز أن يقع منهم قبل إكمال عقولهم.

أقول: وعلى الثاني أكثر المفسّرين، ولكنّ الجميع غير بعيد فتأمّل جيّداً.

وفي قوله سبحانه: «كذلك كانوا يؤفكون» أقوال: ١- قيل: أي كذبوا في قولهم ما لبثنا في القبر غير ساعة كما كانوا في الدنيا يحلفون على الكذب وهم يعلمون.

٢- قيل: أي يصرفون عن الحقّ والهدى والخير والرشد إلى الضلال والضلالة والشرّ والفساد، فيدعون إلى الحقّ وتقام عليهم الحجج والبراهين الساطعة، [illegible] من القول وزخرفه من الرأي. ٣- قيل: أي مثل ذلك الصرف عن الصدق والتحقيق كانوا يصرفون في الدنيا عنهما ويبنون أمرهم على خلافهما، فيرون الأشياء على غير ما هي عليه ويجحدون البعث والنشور والحساب والجزاء مثل ما حلفوا أنّهم لم يلبثوا فيها إلّا ساعة.

٤- قيل: يعني كما كذبوا في الدنيا بالبعث كذلك يكذبون بقولهم ما لبثنا في القبور غير ساعة. ٥- عن ابن عبّاس: أي كما كانوا يكذبون في الآخرة كانوا يكذبون في الدنيا.

٦- قيل: أي مثل ذلك الإفك بحسب الوقت كانوا يؤفكون في الدنيا اغتراراً بما عدّوه ساعة استقصاراً، والصارف لهم هو الله سبحانه أو الشيطان أو الهوى، وأيّاً ما كان فليس ذاك إلّا لسوء اختيارهم وخبث سرائرهم. ٧- قيل: أي يصرفون عن اتّباع الحقّ كما صرفوا عن الحقّ الصادق في مدّة اللبث.

٨- قيل: أي كما صرفوا عن الحقّ في حلفهم أنّهم ما لبثوا غير ساعة في الدنيا، كذلك كانوا يصرفون عن الحقّ في الدنيا قال الله تعالى: «يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنّهم على شيء ألا إنّهم هم الكاذبون» (المجادلة: ١٨) وقال: «ثمّ لم تكن فتنتهم إلّا أن قالوا والله ربّنا ما كنّا مشركين انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضلّ

عنهم ما كانوا يفترون» الأنعام: ٢٣ ـ ٢٤)

٩ ـ قيل: أي يصرفون، صرفهم جهلهم عن الحقّ في الدارين.

أقول: و على الثاني أكثر المفسّرين، و في معناه بعض الأقوال الأخر فتأمّل جيّداً.

٥٦ ـ (و قال الذين أوتوا العلم و الإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث و لكنّكم كنتم لا تعلمون)

في قوله تعالى: «و قال الذين أوتوا العلم و الإيمان» أقوال: ١ ـ قيل: هم العلماء المؤمنون الصادقون من هذه الأمّة أعطاهم الله العلم بكتابه و هو القرآن الكريم، و وفّقهم للإيمان و ألهمهم العلم بما نصب لهم من الأدلّة الموجبة للعلم و نظروا فيها نظر تدبّر و اعتبار و نظر تفهّم و استبصار فحصل لهم العلم بالله و المعاد فصدقت الصفة في «كتاب» إلى نفسه لما كان هو الذي نصب الأدلّة الدالّة على العلوم و التصديق بالله تعالى و رسوله (صلى الله عليه وآله)

٢ ـ قيل: هم أهل بيت الوحي المعصومون صلوات الله عليهم أجمعين.

٣ ـ عن ابن عبّاس: أي كرّمهم الله بالعلم و هو العلم بالله تعالى و آياته، و الإيمان و هو الإقرار بالتصديق. ٤ ـ عن مقاتل و قتادة و السدي: في الآية تقديم و تأخير أي و قال الذين أوتوا العلم بكتاب الله تعالى و هم الذين يعلمون ما في كتاب الله من العلوم، و الإيمان و هم ملك الموت و أعوانه، و هم الذين يقولون لهؤلاء المنكرين للبعث: إنّ قسمكم هذا حرام كما كان شكّكم في ذلك لأنّكم انصرفتم عن اشتغالكم في البعث و الحساب و الجزاء يوم القيامة فلو حشرتم. ٥ ـ قيل: هم الملائكة و غيرهم من الإنس و الجنّ. ٦ ـ قيل: هم الأنبياء و المرسلون و الأوصياء و المقرّبون. ٧ ـ قيل: هم علماء الأمم. ٨ ـ قيل: هم جميع المؤمنين من الأمم جميعاً. ٩ ـ عن ابن عبّاس أيضاً: هم الملائكة. ١٠ ـ قيل: هم المخلصون في إيمانهم.

أقول: و الثاني هو المرويّ عن مهبط الوحي عليهم السّلام فانتظر.

و في قوله سبحانه: «لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث» أقوال: ١ ـ قيل: أي إنّ لبثكم أيّها المجرمون مذكور ثابت في كتاب الله و ثبته فيه، فصار من محلّ أنّ ثباته في

كتابة كما هي في الكتب كما تقول كتبًا يكون فهو في اللوح المحفوظ أي هو مثبت فيه ٢ـ قيل أي لقد لبثتم في قبوركم على ما في علم كتاب الله ٣ـ قيل أي في خبر كتاب الله ٤ـ قيل هذا رد من العلماء والمؤمنين يوم القيامة على هؤلاء المجرمين المنكرين للبعث بأنكم لبثتم على وجه الأرض وفي بطنها منذ وُلدتم إلى هذا اليوم الذي نحن فيه كلّ ذلك ثابت في كتاب الله ولكنّكم لا تعلمون ذلك

٥ـ قيل يردّ أهل بيت الوحي المعصومون عليهم صلوات الله على الكفّار والمجرمين و الفجّار والمعاندين والمشركين والمنافقين بأنكم لبثتم في الحياة الدنيا وفي عالم البرزخ كلّ ذلك ثابت في كتاب الله تعالى وهو القرآن الكريم، ولكنّكم لا تعلمون ذلك ٦ـ قيل هم الذين حكم لهم بالكتاب بالعلم ٧ـ قيل أي في حكم الله تعالى ٨ـ عن ابن عبّاس أي لقد لبثتم فيما كتبه الله في سابق علمه في قبوركم، وهو قوله تعالى «ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون» المؤمنون: ١٠٠)

٩ـ قيل: أي يقول الله تعالى لهم لقد لبثتم في كتاب الله الذي أخبر به وهو القرآن لا غيره والبعث لا يكون إلّا في المكان، فما لا يكون مشكوك الأمر ولشدة ما يكون لا في مكان، وبذلك يوصف الله بالنطق، ولا يوصف بالكلمات، و«إلى يوم البعث» يعني يوم يبعث الله فيه خلقه ويحشرهم والأصل البعث هو جعل الشيء جاريًا في أمر ومنه انبعث الماء إذا جرى والبعث من بين الأموات إذ خرج خروج الماء، ويوم البعث يوم يخرج الناس من قبورهم إلى أرض المحشر

١٠ـ عن الربيع بن أنس والزجّاج أي لقد لبثتم في علم الله المثبت وهو اللوح المحفوظ، وقضائه وما أوجبه بحكم وكتبه بحكمته لا يعلم مبلغ علمه وقت لبثكم إلّا الله و هذا اللبث في البرزخ إلى يوم القيامة ١١ـ قيل أي فيما كتب الله تعالى ١٢ـ قيل أي لبثكم لبثتم من يوم مماتكم إلى يوم البعث في قبوركم أموات بطيئه للأمد الذي قدّره الله في كتابه و هو الكتب السماوية كلّها

أقول: والخامس هو المرويّ نصًّا

وفي قوله عزّوجلّ «فهذا يوم البعث ولكنّكم كنتم لا تعلمون» أقوال: ١ـ قيل

يقول الله تعالى لهؤلاء المجرمين المنكرين للبعث يوم القيامة: إنكم المنكرون البعث في الحياة الدنيا فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون ذلك في الحياة الدنيا ولا تعترفون به، فقد صار مصيركم إلى النار. ٢- قيل: إن قول هؤلاء العلماء المؤمنين لأولئك الكفار و المشركين: فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون صحة ذلك ولا تصدقون به، وكنتم شاكّين فيه، حتى صار لا علم لكم بهذا اليوم، وذلك نتيجة غفلتكم عن البعث

٣- عن الحسن: أي يقول لهم سبحانه قد تمّ ما حكمنا لكم إلى يوم البعث الذي أنكرتموه في الدنيا، ولكنكم لا تعلمون أن البعث حق لتفريطكم في النظر وغفلتكم عن الأدلة المظهرة عليه، فكنتم تستخفون به وتستهزئون بهذا اليوم فقد تبيّن لكم بطلان إنكاركم

٤- قيل: أي لا تصدقون بهذا اليوم في الحياة الدنيا. ٥- قيل: أي إنكم كنتم في يوم البعث الذي وعدتموه، ولو أنكم تذكرون حقيقة ما كان موقفكم لما غركم من دهشة و هول

٦- قيل: أي يقول أهل الحق والإيمان للمجرمين: أنتم هؤلاء المنكرين للبعث والحساب فهذا يوم البعث الذي أنكرتموه ولكنكم لا تعلمون وقوعه في الدنيا، فلم ينفعكم علمكم به الآن

أقول: والسادس هو المستفاد من الروايات

٥٧- ﴿فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون﴾

في الآية الكريمة أقوال: ١- قيل: فيومئذ أي يوم إذ قامت الساعة وحشر المشركون الكاذبون، وإذ علمهم الذين أوتوا العلم والإيمان، لا ينفع الظالمين معذرتهم، إذ لا يقبل يومئذ من المعتذرين عذر، ولا يطلب منهم أن يمحوا عن أنفسهم ما كان منهم من كفر وضلال وشرك وفساد، وجرم وإنكار وبغي وعناد، وظلم وطغيان وإصرارهم على ذلك وانهماكهم في غيّهم والمعذرة هي إظهار ما يسقط اللائمة، وإنما لا تقبل معذرتهم يومئذ لأنهم مستحقون العقوبة ولا يصح اعتذارهم

٢- قيل: أي فيوم القيامة لا تنفع هؤلاء المجرمين معاذيرهم عمّا فعلوه كفرهم من عصيا

أنّ هذا اليوم كائن، ولا أنّ بعث فيه، ولا هم يرجعون إلى الدنيا ليتوبوا الآن أن التوبة لا تقبل يومئذ، فإنه وقت حساب وجزاء لا وقت عمل ٣ ـ قيل أي فيوم القيامة لا تنفع الظالمين معذرتهم عن ظلمهم، ولا تطلب منهم أن يزيلوا عتاب عن أنفسهم أي لا يدعون إلى ما يقتضي إعتابهم أي إزالة عتبهم من التوبة والإيمان والطاعة كما دعوا إليها في الدنيا من قولهم استعتبني فلان فأعتبته أي استرضاني فأرضيته، فلا تطلب منهم الرجوع إلى ما يرضى به عنهم

٤ ـ عن ابن عباس أي فيوم القيامة لا تنفع الذين أشركوا بالله سبحانه عذرهم من شركهم ولا يطلب منهم الرجوع عنه في ذلك اليوم ليرجعوا إلى التوحيد والطاعة، وإلى الحقّ والهدى، فلا هم يرجعون عن سيئة ولا يردّون إلى الدنيا ٥ ـ قيل أي فيومئذ لا يمكّنون من الاعتذار ولو اعتذروا لم تقبل معذرتهم، ولا تقبل منهم أن يرضوا ربكم بالتوبة والإيمان والطاعة وصالح الأعمال إذ ليس يوم القيامة يوم توبة من الجرائم، ولا تقبل لأنها لا تقبل منهم ٦ ـ قيل أي فيوم القيامة لا عذر يدفع، ولا حجم ينفع إذ لا شيء إلا العمل الصالح، وهم يستقبلون أنهم فلا ينفعهم، فلم يكن للاستعتاب هنا إلا به

٧ ـ قيل أي فيومئذ لا يعاتبون على سيئاتهم بل يعاقبون ٨ ـ قيل أي فيوم يبعثون من قبورهم لا ينفع المنكرين للبعث في الدنيا معاذيرهم بأن يقولوا ما علمنا أنه يكون، ولا أن البعث ولا هم يسترجعون يومئذ عما كانوا ينكرونه ويكذّبون به في الدنيا ٩ ـ قيل أي فيوم القيامة لا ينفع الظالمين اعتذارهم بالقيامة ولا الاعتذار ١٠ ـ قيل لمّا ردّ عليهم العلماء المؤمنون سئلوا الرجوع إلى الدنيا واعتذروا فلم يعذروا ولا يجاب لهم حال من يستعتب ويرجع ١١ ـ قيل أي فيوم القيامة لا يقبل عذر المشركين بأن يقولوا إنا كنا تبعاً لكبرائنا وأشياخنا وآبائنا على الشرك والضلالة «وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها» الأعراف ٢٨، فإنّه لا ينفعهم يوم القيامة، يوم يتبرّأ المتبوعون من أتباعهم ويعترف التابعون من مقلّديهم، والرؤساء من المرؤوسين «إذ تبرّأ الذين اتّبعوا من الذين اتّبعوا ورأوا العذاب...» البقرة: ١٦٧ ـ ١٦٨)

أقول: وعلى الأول أكثر المفسرين، وفي معناه بعض الأقوال الأخر فتأمل جيداً

٥٨ـ (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كلّ مثل ولئن جئتهم بآية ليقولنّ الّذين كفروا إن أنتم إلاّ مبطلون)

في الآية الكريمة أقوال: ١ـ عن ابن عبّاس أي ولقد بيّنّا للناس في هذا القرآن من كلّ وجه، ولئن جئتهم بآية من آيات الله، كما سألوا ليقولنّ كفّار مكّة ما أنتم يا معشر المؤمنين إلاّ كاذبون. ٢ـ قيل: أي ولقد ضربنا للنّاس المكلّفين في هذا القرآن الذي أنزلناه على نبيّنا محمّد ﴿ﷺ﴾ من كلّ مثل ضربناه فيه بكلام مختلف الأساليب لتفهيمهم وإرشادهم وحثّهم به على الحقّ واتّباع الهدى، وعلى قبول الصواب والرّشاد. ثمّ قال لرسوله ﴿ﷺ﴾ ولئن جئتهم يا محمّد ﴿ﷺ﴾ بمعجزة باهرة دالّة على صدق الرّسالة ليقولنّ الّذين كفروا منهم ما أنت يا محمّد ﴿ﷺ﴾ والمؤمنين بك ما أنتم يا محمّد والمؤمنون بك إلاّ مبطلون في دعواكم البعث والنّشور والحساب والجزاء عناداً واستكباراً وجحداً للأمور الواضحة الظّاهرة، فإنّ من كذّب الدّليل الواضح اللائح لا يصعب عليه تكذيب غيره من الدّلائل

قد تنكر العين ضوء الشّمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم

٣ـ قيل: أي ولقد وصفنا للنّاس في هذا القرآن من كلّ شيء وصفة، ولئن جئتهم بآية كما سألوا ليقولنّ مشركو مكّة ما أنت يا محمّد إلاّ كاذب، وليس هذا من الله كما كذّبوا بانشقاق القمر «اقتربت الساعة وانشقّ القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمرّ وكذّبوا واتّبعوا أهواءهم وكلّ أمر مستقرّ» القمر: ١ـ٣ وما أنتم يا معشر المؤمنين محمّد ﴿ﷺ﴾ إلاّ كاذبون، فما جئتمونا فهو باطل، ولا تتّبعون إلاّ الباطل والسّحر لعباد الأنبياء والمرسلين، والدّعاة والمصلحين مبطلون؟ لأنّهم يقطعون سبل الظّلم والجناية، والاستثمار والخيانة والبغي والمعصية، والبغي والعلاقة لنصر على الضّعفاء والمستكبرين، والسّيطرة على الضّعفاء المعذّبين

٤ـ قيل: أي ولقد أوضحنا للنّاس الحقّ وطريق الهدى، وضربنا لهم الأمثال الدّالّة على المبدإ والمعاد وصدق الرّسالة في هذا القرآن، ولئن جئتهم بأيّة آية من الآيات

القرآن وبآية معجزة من المعجزات الخارقة لا يؤمنون بها وليقولن الذين كفروا من فرط عنادهم وعتوهم ولجاجهم وقسوة قلوبهم وشدة عتوهم ما أنت يا محمد والمؤمنون بك إلا مزوّرون

٥- قال أي ولقد وصفنا للناس في هذا القرآن من كل صفة وموعظة وقصة عجيبة الشأن كقصة المبعوثين يوم القيامة وقصتهم وشأنهم في عزهم وطرفهم ولئن جئتهم بآية من آيات القرآن ليقولن الذين كفروا منهم: ما أنتم يا محمد وأصحابك إلا على أساطير الأولين

٦- قال أي ولقد جعلنا لكثير من الناس في هذا القرآن من كل مثل شبيه بشأنهم في البعث والمعاد، وحججًا على عقيدتهم وعظة لهم حتى ما هم عليه من الشرك والفساد ولئن جئتهم يا محمد ﴿بآية﴾ بآية معجزة خارقة من معجزات الرسل وشأنها مثل العصا وانقلابها حية وحق السحر وغيرها لموسى ﴿...﴾ وخروج الناقة من جوف الصخر لصالح ﴿...﴾ وإحياء الموتى لعيسى ﴿...﴾ ونحوها من المعجزات الخارقة للعادات عليهم السلام ليقولن الذين كفروا منهم لك وللمؤمنين بك ما أنت يا محمد والمؤمنون بك إلا أصحاب أساطير وسحر مبين

٧- قال أي ولقد بالغنا في بيان الحكمة في هذا القرآن الذي أنزلناه على نبينا من كل مثل يدلهم على ما يحتاجون إليه ويدعوهم إلى التوحيد وينبههم على الإيمان وصدق الرسالة، وعلى وقوع البعث ولئن جئتهم بآية معجزة خارقة مما اقترحوا ليقولن الذين كفروا منهم: إن أنتم إلا أصحاب الأباطيل ٨- قال أي ولقد قصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشأن كقصص الأنبياء والمرسلين عليهم السلام مع أقوامهم وكقصة المبعوثين يوم القيامة وما كانوا يؤمنون في إنكارهم البعث وما يقال لهم يوم البعث، وما لا ينفع من اعتذارهم ولا يسمع من استعتابهم... ولئن جئتهم بآية من آيات القرآن المجيد أو بكل معجزة من معجزات الرسل عليهم السلام لإثبات المبدإ والمعاد وصدق الرسالة ليقولن الذين كفروا ما أنت يا محمد ولا الذين اتبعوا رسالتك إلا مبطلون

أقول وعلى الثاني أكثر المفسرين، ولكن المعنى هو الأنسب بظاهر الإطلاق فتدبر

حينًا.

٥٩- [كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون]

في الآية الكريمة قولان: ١- قيل: أي هكذا ختم الله على قلوب الذين لا يعلمون توحيد الله ولا يصدقون بالبعث، ولا يؤمنون بمحمد ﷺ. ٢- قيل: أي مثل ذلك الطبع يطبع الله على قلوب الجهلة الذين جهلوا الله تعالى وآياته، ومنها البعث فضلًا عن سواه، وهم مصرّون على جهلهم وارتيابهم، فيمنعهم الله الطاعة [illegible]، حتى تصير [illegible] مقلوبة، فالحقّ باطلًا، والخير شرًّا، والهدى ضلالة.

٣- قيل: أي مثل ما طبع على قلوب هؤلاء الذين قد حكم عليهم بأنهم لا يؤمنون كذلك حكم في كل من لا يؤمن، فإن الطبع علامة جعلها الله تعالى في قلوب الكافرين تعرف بها الملائكة [illegible] المؤمن. ٤- قيل: أي كذلك يختم الله على قلوب الذين لا يعلمون حقيقة ما تأتيهم به من العبرة والعظات والآيات البيّنات، فلا يفقهون عن الله حججه الدالة على وحدانيته وعلى عظمته وجلاله وعلمه وحكمته وعلى تدبيره وقدرته، ولا يفهمون ما يتلى عليهم من آيات القرآن [illegible] لأهوائهم وسوء [illegible]، وما [illegible] من سوء القول، فهم في طغيانهم يعمهون.

٥- قيل: أي مثل ذلك الطبع المحكم يطبع الله على قلوب الذين لا يطلبون العلم، ولا يتحرّون الحق، بل يصرّون على خرافات اعتقدوها، وترّهات ابتدعوها فهم على جهل مركّب فإنهم من لا يدرك الحقّ ويعتقد أنه يدرك الحقّ، [illegible] ما قيل:

قال حمار الحكيم توما ... لو أنصفوني لكنت أركب

لأنني جاهل بسيط ... وصاحبي جاهل مركّب

٧- قيل: أي كذلك يطبع الله على قلوب الذين [illegible] من أهل العلم [illegible] على الكفر والمعصية. ٨- قيل: أي لا يعلمون أنّ جميع الناس على المساواة في الحقوق والواجبات، وأنه لا استعلاء ولا سيطرة على الإطلاق، بل ولا فضل ولا امتياز لأحد إلا بما يقدمه من عمل صالح ومفيد لأخيه

المؤمن ٩ ـ قيل: أي مثل ما طبع الله على قلوب هؤلاء الكافرين الّذين سمّوا المحقّين مبطلين، يطبع الله على قلوب الّذين لايعلمون توحيده.

أقول: و التعميم هو الأنسب بظاهر الإطلاق فتأمّل.

٦٠ ـ (فاصبر إنّ وعد الله حقّ و لايستخفّنّك الّذين لايوقنون)

في الآية الكريمة أقوال: ١ ـ عن الجبائي: أي إذا علمت أنّ حالهم هذه الّتي بيّنها فاصبر على أذى كفّار قومك إنّ وعد الله بالعذاب و التنكيل لأعدائك حقّ لابدّ من إنجازه و لايستخفّنّك كفرهم على الخفّة و العجلة بشدّة الغضب عليهم لكفرهم بآياتك، فتفعل خلاف ما أمرت به من الصبر، فإنّهم لايوقنون بما يتلو عليهم من الآيات البيّنات.

٢ ـ قيل: أي فاصبر يا محمّد ﴿ﷺ﴾ على أذى هؤلاء الكفّار و عنادهم على كفرهم و طغيانهم إنّ وعد الله حقّ فيما وعدك به من النصر و إعزاز دينك و إظهاره على الدين كلّه حقّ لابدّ من إنجازه، و لايستفزّنّك الّذين لايوقنون في عقائدهم فالاستخفاف أصله من الخفّة و طلب الخفّة و المراد به التحوّل من حال إلى حال، و الانتقال من وضع إلى وضع، عند كلّ خاطرة و لأنّه مشتقّ من الخفّة من شيء هدف سهل لكلّ عارض يعرض به، و يريد زحزحته عن موضعه الّذي هو عليه و قيل: «لايستخفّنّك» أي لايحملنّهم أن يؤثّروا فيك فيحرّكوك و يعجلوك في أمرك، فأمر الله تعالى نبيّه ﴿ﷺ﴾ بعدم التأثّر من أهوائهم و القلق في إبلاغ الرّسالة، و بعدم ترك مجال هؤلاء الكفّار ليستخفّوه و يحملوه على العجلة في أمره و قيل: أي لايغضبك

٣ ـ قيل: أي فاصبر يا محمّد ﴿ﷺ﴾ إنّ وعد الله حقّ فيما وعدكم من النصر على عدوّكم و إظهار دين الإسلام، و لايستفزّنّك عن اتّباعك الّذين لايصدّقون به و قيل: أي لايفتننّك الّذين لايوقنون ولم يكونوا أحقّ بك من المؤمنين على أنّه مجاز عن ذلك لأنّ من فتن أحداً استماله إليه حتّى يكون أحقّ به من غيره ٤ ـ قيل: أي فاصبر إنّ وعد الله صدق في العذاب و التنكيل لأعدائك و النصر و التأييد لك و لدينك، و لايحملنّك تكذيبهم و إيذاؤهم لك و أباطيلهم الّتي من جملتها قولهم «إن أنتم إلّا مبطلون» على الخفّة و القلق و

الاضطراب في تبليغ رسالتك فإنّهم شاكّون ضالّون، ولا يستبدع أمثال ذلك منهم أي كن حليماً صبوراً وقوراً. وقيل: لا يستخفّنك، فتدعو عليهم فتعجّل العذاب، فيهلك الذين لا يوقنون بالعذاب. وقيل: الذين لا يوقنون بأنّ وعد الله حقّ

٥ـ قيل: أي فاصبر أيّها الرسول ﴿ﷺ﴾ على ما تواجهه ومن بعثت به من قولهم «إن أنتم إلّا مبطلون» وسائر تهكّماتهم، إنّ وعد الله بنصرك حقّ كما وعدناه بقوله: «وكان حقّاً علينا نصر المؤمنين»، ولا يستخفّنك الذين لا يوقنون بوعد الله. ٦ـ قيل: فاصبر يا محمّد ﴿ﷺ﴾ على ما ينالك والمؤمنين بك من أذى مشركي مكّة وكلّ من سلك مسالكهم في كلّ ظرف من الظروف بعدك، وبلّغهم رسالة ربّك، إنّ وعده الذي وعدك من النصر عليهم والظفر بهم، وتمكينك وتمكين أصحابك المؤمنين وأتباعك الصالحين في الأرض حقّ لا شكّ فيه ولكون لا محالة، ولا يحملنّك ولا يستخفّنّ حلمك ورأيك الذين لا يوقنون بالمعاد ولا يصدّقون بالبعث بعد الممات على خفّة وقلق فيثبّطوك عن أمر الله والقيام بما كلّفك به من تبليغ رسالته

٧ـ قيل: أي فاصبر على أذى مشركي مكّة فإنّ الله ينصرك عليهم، ولا يستفزّونك عن دينك الذين لا يوقنون هو النضر بن الحارث، والخطاب لرسول الله ﴿ﷺ﴾ والمراد أمّته يقال: استخفّ فلان فلاناً: استجهله حتّى حمله على اتّباعه في الغيّ. ٨ـ قيل: أي فاصبر على عداوة الكفّار والمشركين إنّ وعد الله بنصرك وإظهار دينك على الأديان كلّها حقّ، ولا يحملنّك على الخفّة والحرج من كفرهم وعنادهم قوم ضالّون لا يوقنون بأنّهم مبعوثون

٩ـ عن ابن عبّاس: أي فاصبر يا محمّد ﴿ﷺ﴾ إنّ وعد الله بالنصرة والدولة لك وبهلاك أعدائك حقّ كائن صدق، ولا يستزلّنّك عن الإيمان بيوم القيامة الذين يصدّقون به وهم أهل مكّة

أقول: وعلى الثاني أكثر المفسّرين من دون تعرّض لسببه، ومن أكثر الأقوال الأخر، فتدبّر جيّداً

﴿التفسير والتأويل﴾

١ـ (الم)

رمز من الرموز وسرّ من الأسرار وهذه من مفاتيح السور علمها عند الله جلّ وعلا ومن عنده علم الكتاب وهم أهل بيت الوحي المعصومون محمّد وأهل بيته الطاهرة صلوات الله عليهم أجمعين فلا يعلم تأويله إلّا الله سبحانه والراسخون في العلم

قال الله تعالى: «هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أمّ الكتاب وأُخر متشابهات فأمّا الذين في قلوبهم زيغ فيتّبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلّا الله والراسخون في العلم يقولون آمنّا به كلّ من عند ربّنا وما يذّكّر إلّا أولوا الألباب». (آل عمران ـ ٧)

وما ورد في بعض الروايات أو نسبتها لصحابتها فهي من باب التحرّي والاجتهاد فتأمّل ولا تعجل

٢ـ (غُلبت الرّوم)

غُلبت أهل الروم من أهل فارس في عهد رسول الله ﷺ والروم جيل من الناس على ساحل البحر الأبيض المتوسط كانت لهم إمبراطورية واسعة ممتدة إلى الشامات، فوقعت بينهم وبين الفرس حرب طوال في بعض البلاد المتاخمة للحجاز فغلبت كسرى ملك الفرس، قيصر ملك الروم في هزيمة حاسمة

٣ـ (في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون)

غلبت جيش كسرى ملك الفرس جيش قيصر ملك الروم في أدنى الأرض من البلاد

أسلحته لتحرير معركته في الشام وحرر أرضه من احتلال الفرس، وأعلن أن الروم من بعد غلبة أهل فارس إنهم سيغلبون أهل فارس في بضع سنين.

٤ـ(في بضع سنين لله الأمر من قبل و من بعد و يومئذ يفرح المؤمنون)

غلبت أهل الروم على أهل فارس لأنه حدث بين الطرفين القتال في بضع من السنين بعد أن غلبت أهل فارس على أهل الروم، لله تعالى وحده الأمر حين غلبت أهل فارس على أهل الروم، وحين غلبت أهل الروم على أهل فارس. و يفرح المؤمنون يوم غلبة الروم على الفرس لأنها مقدمة لما يستتبع فرحهم و هو فتحهم و غلبتهم من غلبة الروم على الفرس، و هو غلبة المؤمنين على المشركين و على الفرس و الروم كلهم. قال الله تعالى «قل إن الأمر كله لله» (آل عمران ١٥٤) و قال «ألا له الخلق و الأمر» (الأعراف ٥٤)

٥ـ(بنصر الله ينصر من يشاء و هو العزيز الرحيم)

يفرح المؤمنون بنصر الروم على الفرس، لأن غلبة الروم على الفرس مقدمة و فأل حسن لما يستتبع من فرحهم و فتحهم و غلبتهم من غلبة الروم على الفرس و هو نصر المؤمنين على الكفار و المشركين، و نصر أولياء الله تعالى على أعدائه، و نصر عباد الله المخلصين على الفجار و المستكبرين. و إن النصر من الله جل و علا «و ما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم» (الأنفال ١٠) ينصر الله من يشاء من عباده المخلصين على الفساق و المنافقين «و الله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار» (آل عمران ١٣)

و هو «العزيز» ذو القوة و السلطان و الانتقام من المجرمين المعاندين «الرحيم» بالمجاهدين في سبيل الله تعالى بأموالهم و أنفسهم.

قال الله تعالى «فانتقمنا من الذين أجرموا و كان حقاً علينا نصر المؤمنين» (الروم ٤٧)

و قال «و الذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا و إن الله لمع المحسنين» (العنكبوت ٦٩)

٦ـ(وعد الله لا يخلف الله وعده و لكن أكثر الناس لا يعلمون)

وعد الله تعالى أولياءه المؤمنين بالنصر على أعدائه الكافرين في كل طرف من

الظروف، في الحياة الدنيا، و وعدهم بالمغفرة و الرضوان في الدار الآخرة وعداً حتماً مقضيّاً، فإنّ الله سبحانه لا يخلف وعده قطّ.

قال الله تعالى «إنّا لننصر رسلنا و الذين آمنوا في الحياة الدنيا و يوم يقوم الأشهاد» غافر ٥١ و قال «كتب الله لأغلبنّ أنا و رسلي إنّ الله قويّ عزيز» المجادلة ٢١

و قال: «فلا تحسبنّ الله مُخلف وعده رسله إنّ الله عزيز ذو انتقام» إبراهيم ٤٧

و قال: «إنّ الذين قالوا ربّنا الله ثمّ استقاموا تتنزّل عليهم الملائكة ألّا تخافوا و لا تحزنوا و أبشروا بالجنّة الّتي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا و في الآخرة» فصلت ٣٠-٣١) و قال «و لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً» النساء ١٤١ و «و لا تهنوا و لاتحزنوا و أنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين» آل عمران ١٣٩

و قال: «إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم و أموالهم بأنّ لهم الجنّة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون و يقتلون وعداً عليه حقّاً في التوراة و الإنجيل و القرآن و من أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الّذي بايعتم به و ذلك هو الفوز العظيم» التوبة ١١١

و قال «وعد الله حقّاً و من أصدق من الله قيلاً» النساء ١٢٢

و قال «وعد الرّحمن عباده بالغيب إنّه كان وعده مأتيّاً» مريم ٦١

و قوله تعالى «و لكنّ أكثر النّاس لا يعلمون» و لكنّ أكثر النّاس من الكفّار و المنافقين، و الفجّار و المستكبرين، و الفسّاق و المجرمين و الطغاة و الظّالمين في كلّ ظرف من الظّروف لايعلمون أنّ النّصر الإلهي مشروط بالاستعداد النّفسي من الإيمان و الإخلاص، و بالاستعداد الحربيّ و الجهاد في سبيل الله تعالى بالأموال و الأنفس، و سلامة الفطرة و اتّباع العقل السّليم، و استعداد الطّبيعة للفطرة و ترك الهوى

و ذلك أنّ أكثر النّاس في كلّ ظرف، بسبب اتّباعهم لأهوائهم لا يجيبون نداء فطرتهم و لا يستجيبون لدعوة عقولهم لتغلّب طبيعتهم على فطرتهم، و هوى أنفسهم على عقولهم و أفكارهم، فإذاً لا يشعرون و لا يعقلون فلا يؤمنون

قال الله تعالى «و كذلك مكّنّا ليوسف في الأرض و لنعلّمه من تأويل الأحاديث و الله غالب على أمره و لكنّ أكثر النّاس لا يعلمون» يوسف ٢١

و قال: «أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً أم تحسب أنّ أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً» الفرقان: ٤٣-٤٤.

و قال: «إنه الحقّ من ربك و لكنّ أكثر الناس لا يؤمنون» هود: ١٧.

و قال: «و ما يخدعون إلاّ أنفسهم و ما يشعرون - ألا إنّهم هم المفسدون و لكن لا يشعرون - ألا إنّهم هم السفهاء و لكن لا يعلمون - أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم و ما كانوا مهتدين» البقرة: ٩-١٦.

٧- (يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا و هم عن الآخرة هم غافلون)

إنّ أكثر الناس وهم الكفّار والمستكبرون والفجّار والمجرمون والمنافقون والفاسقون، والسفهاء والظالمون في كلّ ظرف من الظروف هم يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا حسباً من لذاتها ومنافعها، وزخارفها وملاذها، وسائر حوائجهم لمواقعة شهواتهم الملائمة لأهوائهم المستدعية لانهماكهم فيها و عكوفهم عليها، و هم بذلك عن حكمة خلقها و مآل أمرها، و عن الآخرة و أهوالها و حسابها و جزائها هم غافلون

غافلون أنّ الدنيا خلقت للإنسان و هي ظرف تكليفه، فإنّها دار عمل له و لا حساب، و لم تخلق الإنسان للدنيا و نصب هي كمالاته، و غافلون أنّهم خلقوا لمحنة، و أنّ الآخرة دار حساب و جزاء، و ظرف لظهور كمالهم و أخطائهم التي اكتسبوها في الحياة الدنيا، و هم غافلون أنّ حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة، و الاشتغال بها يوجب نسيان الآخرة.

في نهج البلاغة: قال مولى الموحدين إمام المتقين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (عليه السلام): «إنّ أولياء الله هم الذين نظروا إلى باطن الدنيا إذا نظر الناس إلى ظاهرها، و اشتغلوا بآجلها إذا اشتغل الناس بعاجلها، فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم، و تركوا منها ما علموا أنّه سيتركهم، و رأوا استكثار غيرهم منها استقلالاً، و دركهم لها فوتاً، أعداء ما سالم الناس، و سلم ما عادى الناس....»

و فيه: قال سيد الوصيين الإمام علي (عليه السلام): «أيّها الغافلون غير المغفول عنهم، و

[illegible]

وقال الله تعالى في هؤلاء الغافلين ووصف غفلتهم عن الآخرة «الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً أولئك في ضلال بعيد» إبراهيم ٣

وقال «إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً» الإنسان ٢٧

وقال «بل تؤثرون الحياة الدنيا» الأعلى ١٦

وقال في تكشف غفلتهم يوم القيامة عن الآخرة وتحسرهم «واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين» الأنبياء ٩٧

وقال «ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد» ق ٢٠ - ٢٢

٨- أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون.

ولم يتفكر هؤلاء بأنفسهم عن حكمة خلقة الدنيا وما فيها، وعن حكمة الآخرة و شوقها وخوفها في أنفسهم التي هي مرآة يرى فيها الإنسان تجلي عظمة الله وجلاله و عزته وتدبيره وقدرته وسعة علمه وحكمته؟ ولم يتفكروا في أنفسهم فيعلموا أن الذي سوّى بينهم في الأحداث من أعمالهم وطوّرهم في أطوار الشعور، وفاوت بينهم في القوى و القدر، ومكّن جوارحهم في أطوار العمر؟ ولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق؟

ولم يتفكروا في آيات الأنفس والآفاق فيرجعوا من غفلتهم بأن خلقهم وتكوينهم وتنظيمهم على هذا النحو الذي لا يعطل شيء منه بأن هذا الوجود قائم على الحق ثابت على الناموس، لا يضطرب ولا يتفرق به السبل ولا يختلف دورانه ولا يصطدم بعضه ببعض، ولا يسير وفق المصادفة العمياء، ولا وفق الهوى المتقلب، إنما يمضي في نظامه الدقيق محكما مقدرا تقديرا؟ ولم يتفكروا في خلق السموات والأرض وما بينهما من عوالم مختلفة عجيبة فيعلموا أنه تعالى لم يخلقها إلا بالحق ولا بالعبث، ولأجل مسمى وينتهي عند أجل مقدر؟ قال الله تعالى: «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق» فصلت ٥٣، فمن نظر إلى نفسه نظرا صحيحا، وقد عرف بعض ما خلقه تعالى من جلال و عظمة، من علم و حكمة، ومن تدبير وقدرة، حتى يخرج من هذا الترب الهامد **هذا الإنسان العاقل،** لما يتفكر أمكنه أن يهتدي إلى هذا النظام **المشهود في أرضه وسمائه، وفيما بينهما لم** يخلق إلا بالحق ولم يخلق باطلا ولهوا ولا عبثا بغير غرض «الذين يذكرون الله قياما و قعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون **في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا»** آل عمران ١٩١ وهذا هو التفكر الذي قال رسول الله ﷺ فيه: **«تفكر ساعة خير من** عبادة سبعين سنة».

قال الله تعالى: «وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا»

ص ٢٧)، وقال «أفحسبتم أنّما خلقناكم عبثاً وأنّكم إلينا لا ترجعون» (المؤمنون ١١٥).

وأنّ كلّ مخلوق في هذا الفضاء هو بعض منه وأنّه لم يستقلّ لنفسه من بناء هذا الوجود أبداً. فكلّ كائن فيه ـ وإن صغر ـ دوره الّذي يقوم به في وحدة النّظام المسك بالوجود، وله فلكه الّذي يدور فيه كما تدور الشّمس والقمر والنّجوم في أفلاكها بالشروق والغروب إلى أجل مسمّى تنتهي إليه عند انتهاء حياة الإنسان في هذا النّظام الّذي خلق للانسان قال الله تعالى «هو الّذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً» (البقرة ٢٩)، وقال «وسخّر لكم ما في السّموات وما في الأرض جميعاً منه إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون» (الجاثية ١٣).

فالنّظام الوجودي باق ما دام الإنسان حيّاً في هذا الوجود المشهود، فإذا انتهت حياة الإنسان فيه، انتهى معه النّظام، وأمّا الإنسان فهو باق في عالم آخر لا يفنى، فإنّه خلق لهذا العالم فهو باق ببقائه وليس له أجل مسمّى.

قال الله تعالى «وإنّ الدّار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون» (العنكبوت ٦٤).

فلا تنتهي حياة هذا الإنسان بنهاية الدّورة القصيرة الّتي يدورها في فلك الوجود، والّتي هي سنوات معدودة يقضيها في هذه الدّنيا، فإنّه لم يخلق على هذه الصّورة المحدودة الّتي استحقّ بها أن يكون خليفة الله في أرضه هذه الدّنيا الدّنيئة، فلن تنتهي حياته بهذه الدّورة القصيرة على الكوكب الأرضي، وإنّما له حياة أخرى أعظم وأبقى.

وذلك أنّ من مقتضيات هذا الحقّ الّذي يقوم عليه هذا النّظام أن يكون هناك آخرة يتمّ فيها الجزاء على العمل، ويفرق بين الإيمان والكفر، والحقّ والباطل، والخير والشّرّ، والإحسان والإساءة، عاقبتها كاملة، بذلك يسير إلى أجله المرسوم وفق الحكمة المدبّرة، وكلّ أمر يجيء في موعده لا يستقدم قطّ ولا يستأخر، وإن لم يعلم الإنسان متى تكون السّاعة، فإنّ ميعادها لا يكون «يومئذ يصدر النّاس أشتاتاً ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرّة شرّاً يره» (الزلزلة ٦ ـ ٨).

وإنّ كثيراً من النّاس في كلّ ظرف من الظّروف لا يؤمنون بالبعث والحساب والجزاء بعد الموت، فلا يصدّقون أنّهم ملاقون ثواب ربّهم وعقابه، يوم يقوم النّاس لربّ العالمين، يجحدون صحّة ذلك ولا يعترفون به، فيكفرون بالمبدإ والمعاد، حيث نشأ كفرهم من

جهلهم بأنفسهم، فإذا عرفوا أنفسهم عرفوا توحيد الله تعالى و لقاء ثوابه و جزائه يوم القيامة إذ «من عرف نفسه فقد عرف ربّه»

٩ـ (أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم كانوا أشدّ منهم قوّة و أثاروا الأرض و عمروها أكثر ممّا عمروها و جاءتهم رسلهم بالبيّنات فما كان الله ليظلمهم و لكن كانوا أنفسهم يظلمون)

فإذا كان هؤلاء المشركون بالله سبحانه، و المكذّبون برسوله ﷺ و الجاحدون بآياته و الغافلون عن الآخرة من كفّار مكّة، و من يسلك مسالكهم في كلّ ظرف من الظروف لا يتدبّرون في نظام الكون و نواميس الوجود، و عجزوا عن التفكير في معرفة النفس فقعدوا في ديارهم و اختبأوا في بيوتهم، و احتجبوا في أماكنهم و لا يتجوّلون في أقطار الأرض و لا يسافرون في جنباتها و لا يسيحون في برّها و بحرها، و لا يسيرون في البلاد التي سلكوها غير مرّة و اتّبعوا آثارهم و خطواتهم، و ينظرون إلى آثار عظمة الله تعالى و جلاله إلى آثار علمه و حكمته و إلى آثار تدبيره و قدرته على الأمم المكذّبة الهالكة من قبلهم كعاد و ثمود و قوم نوح و فرعون و قوم لوط و غيرهم أدنى من أيديهم و تحت أبصارهم و مرآهم و منظرهم من بقايا الأمم الماضية التي كانت تعمر تلك الأطلال البالية، و هذه القرى الغارقة في أحضان البلى؟

كيف كان عاقبة أمرهم في كفرهم و ضلالهم، و تكذيبهم و طغيانهم؟ كانوا هم أشدّ من هؤلاء الكفّار المعاصرين قوّة جسمانيّة و أشدّ بأساً و أكثر أموالاً و عَدَداً و عُدَداً و أطول أعماراً، و أحسن حضارة من العرب، و أقدر منهم على التمتّع بمتاع الدنيا و شهواتها فمرّوا بأخبارهم، و يتفكّروا فيها و يتّعظوا بها، و يعتبروا بهم ليعلموا أنّهم أهلكوا بتكذيبهم رسل الله الّذين أرسلهم الله تعالى إليهم بالدّلائل الواضحة و البراهين القاطعة على المبدأ و المعاد، و على صدقهم من عند الله تعالى. فوقعوا فيهم سوء عاقبة المكذّب المستهزئ، فجحدوا بآيات الله تعالى بسوء اختيارهم و اتّباع أهوائهم، و فرحوا بما أوتوا، و لم يتورّعوا عن ارتكاب السيّئات... فلم تتفتّح بصائرهم لهذه البيّنات، و لم يؤمنوا

بها حتى تغص صدورهم بالنور الذي يكشف الطريق، فمضت فيهم سنة الله تعالى في المكذبين، ولم تنفعهم قوتهم ولا أغنى عنهم علمهم وحضارتهم، فلقوا جزاءهم العادل الذي يستحقونه بما كانوا يظلمون أنفسهم

فأخذهم الله بسوء أعمالهم، وأخذوا بذنوبهم بأنواع العذاب ودمرهم تدميراً، فصاروا كأمس الدابر، ومثلاً يعتبر فيه المعتبرون، وعبرة لا تمنع من سنة الله فيهم ما نزل بهم من غضب الله ونقمته وعذابه، ولا نفعتهم من الله قوتهم وثرواتهم، ولا عددهم وعُدّتهم، ولا حصون مدائنهم فأصبحوا ذكرى للأمم بعدهم

قال الله تعالى: «وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين ... فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» العنكبوت ٣٨ - ٤٠

وقال: «وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً وكنا نحن الوارثين وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون» القصص ٥٨، ٥٩

وقال: «ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون» الأحقاف ٢٧

وقال: «أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون» السجدة ٢٦

وقال: «وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال» إبراهيم ٤٥

وقوله تعالى: «فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» فما كان الله سبحانه ليظلم هؤلاء الكفار والمستكبرين، والفجار والمكذبين من الأمم السابقة بأن يهلكهم من غير جرم، ويدمرهم بدون ذنب، ولا إرسال رسول، ولا إقامة حجة، ويعذبهم بلا استحقاق ابتداء، فهم لم يكونوا في ذلك مظلومين، وإنما كانوا هم يظلمون أنفسهم

إذ جحدوا نعمة الله على [illegible] وكذبوا رسله وكفروا بآياته و
عصوه [illegible] حتى [illegible] حلالا و [illegible]

و [illegible] على [illegible] الحق والهدى، والخير والصلاح و
الفلاح والنجاة [illegible] موضع [illegible] و [illegible]
[illegible]

لا [illegible] مكة و [illegible] في كل [illegible] من [illegible]
[illegible]

وما ورد في اللقاء [illegible]

ومن التأويل [illegible] في [illegible] و [illegible]
[illegible] في جميع [illegible] و [illegible] في [illegible]
[illegible] في [illegible]
[illegible] في [illegible] شهود [illegible] و [illegible]
[illegible] على [illegible] والتحقيق [illegible]
سوى حق

١٠ـ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ.

ثم إن الكفار والمستكبرين والفجار والمكذبين بآيات الله تعالى ورسله من الأمم [illegible] في [illegible] قبل الآخرة ثم كان عاقبة كل من [illegible] في [illegible] من هذه الأمة، عقوبة سيئة وهي عذاب جهنم يوم القيامة، و [illegible] لأنهم كذبوا بآيات الله تعالى الدالة على المبدأ والمعاد، وعلى [illegible] وصدق رسالته وصدق [illegible] من الأئمة، وكانوا يستهزئون بها حيث [illegible] سيئة [illegible]

قال الله تعالى «وجزاء سيئة سيئة مثلها» الشورى [illegible]

وقال «والّذين كسبوا السّيّئات جزاء سيّئة بمثلها» يونس: ٢٧)

وقال «بلى من كسب سيّئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون» البقرة: ٨١)

ولمّا كان الكفر بالله سبحانه وتكذيب رسله وجحد آياته أسوأ الخطيئات وأقبح المعاصي كانت عقوبتها أسوأها وأشدّها.

قال الله تعالى «وقال الّذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلّكم تغلبون فلنذيقنّ الّذين كفروا عذاباً شديداً ولنجزينّهم أسوأ الّذي كانوا يعملون ذلك جزاء أعداء الله النّار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون» فصّلت: ٢٦-٢٨)

١١- (الله يبدؤا الخلق ثمّ يعيده ثمّ إليه ترجعون)

الله تعالى يبدأ إنشاء جميع الخلق منفرداً بإنشائه من دون شريك ولا ظهير فيخلقه من غير شيء بل بقدرته وإرادته ثمّ يعيده إلى ما كان من قبل أن يكون شيئاً مذكوراً ثمّ إلى الله تعالى بعد إفنائه وإعدامه تردّون أيّها النّاس كما بدأكم خلقاً سويّاً فتحشرون يوم القيامة لفصل القضاء بينكم، ليجزي الّذين كفروا بالله وكذّبوا رسله وجحدوا بآياته أسوأ الّذي كانوا يعملون منكم، ويجزي الّذين أحسنوا منكم بالحسنى.

قال الله تعالى «أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثمّ يعيده إنّ ذلك على الله يسير قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثمّ الله ينشئ النّشأة الآخرة إنّ الله على كلّ شيء قدير يعذّب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون» العنكبوت: ١٩-٢١

وقال «إليه مرجعكم جميعاً وعد الله حقّاً إنّه يبدؤا الخلق ثمّ يعيده ليجزي الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات بالقسط والّذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون» يونس: ٤

وقال «منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى» طه: ٥٥

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين الإمام عليّ (عليه السلام): «أنشأ الخلق إنشاء، وابتدأه ابتداء بلا رويّة أجالها، ولا تجربة استفادها، ولا حركة أحدثها، ولا همامة نفس

اضطرب فيه في الخلقة الاولى

وفيه: قال سيد الوصيين أمير المؤمنين الإمام علي (ع): «وعجبت لمن أنكر النشأة الاخرى وهو يرى النشأة الاولى»

وفيه: قال يعسوب الدين إمام المتقين علي بن أبي طالب (ع): «أما بعد فاوصيكم بتقوى الله الذي ابتدأ خلقكم، وإليه يكون معادكم، وبه نجاح طلبتكم، وإليه منتهى رغبتكم، ونحوه قصد سبيلكم، وإليه مرامي مفزعكم» (الخطبة ١٨٩)

١٢ـ(ويوم تقوم السّاعة يبلس المجرمون)

وذكر النبي الأكرم (ص) للنّاس جميعاً يوم تقوم السّاعة الّتي فيها يفصل الله بينهم بعد نشرهم من قبورهم وحشرهم في موقف الحساب «وامتازوا اليوم أيها المجرمون ـ اليوم نختم على أفواههم وتكلّمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون» (يس ٥٩ ـ ٦٥) يسكت المجرمون الذين لم يؤمنوا بالله سبحانه، وكذّبوا برسله، وجحدوا بآياته واستهزؤوا بها، واجترحوا في حياتهم الدنيا مساوي الأعمال، وغفلوا عن الآخرة وحسابها، وجزائها، فهم يومئذ ساكتون سكوت اليائس من رحمة الله عزّوجلّ وفرجه من أهوال يوم القيامة ومفزعاتها، متحيّرون فيما نزل بهم، وقد انقطعت حججهم، وما كانوا يستطيعون أن يعتذروا بما فعلوا، ولا يجدون نصيراً يدفعون به عن أنفسهم ما سيحلّ بهم من الكرب والوبال

قال الله تعالى: «ويوم نحشر من كلّ أمّة فوجاً ممّن يكذّب بآياتنا فهم يوزعون حتّى إذا جاؤوا قال أكذّبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علماً أمّا ذا كنتم تعملون ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون» (النمل: ٨٣ ـ ٨٥)

وقال: «ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأُخذوا من مكان قريب» (سبأ: ٥١)

١٣ـ(ولم يكن لهم من شركائهم شفعاؤا وكانوا بشركائهم كافرين)

ولم يكن لهؤلاء المشركين المجرمين يوم القيامة من شركائهم المختلقة وآلهتهم المتبوعة

من الأصنام والأوثان [illegible] ومن الملائكة والجن [illegible] المسيح ومن الأحبار و
الرهبان والأولياء [illegible] من اتخذ [illegible]
دون الله سبحانه [illegible] فلا ينفعهم
[illegible]
[illegible]
[illegible]
من عبادتهم [illegible]

ولا [illegible]
[illegible]
سبحانه [illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible] ولا ينفعهم و
يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض
سبحانه وتعالى عما يشركون [illegible] ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم
وشركاؤكم فزيلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون فكفى بالله شهيدا بيننا و
بينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين [illegible] ٢٩

وقال [illegible] ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا [illegible]
[illegible]
[illegible]
للذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء (الأنعام [illegible] ١٤٨)

وقال [illegible]
الشعراء ٩١ - ١٠٤)

[illegible] (سبأ ٣٢، ٣٣، ٤١)

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

١٤ـ (ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون)

[illegible]

بأصحاب الشمال إلى النار و عذابها.

قال الله تعالى «و كذلك أوحينا إليك قرآناً عربيّاً لتنذر أمّ القرى و من حولها و تنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنّة و فريق في السعير» الشورى: ٧

و قال «مثل الفريقين كالأعمى و الأصمّ و البصير و السميع هل يستويان مثلاً أفلا تذكّرون» هود: ٢٤

و قال «يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية فأمّا من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤا كتابيه ... و أمّا من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه و لم أدر ما حسابيه ...» الحاقّة: ١٨ ـ ٢٦

و قال «يا أيّها الإنسان إنّك كادح إلى ربّك كدحاً فملاقيه فأمّا من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً و ينقلب إلى أهله مسروراً و أمّا من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعوا ثبوراً و يصلى سعيراً» الانشقاق: ٦ ـ ١٢

و قال «فأمّا من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية و أمّا من خفّت موازينه فأمّه هاوية و ما أدراك ماهيه نار حامية» القارعة: ٦ ـ

و قال «ثمّ كان من الّذين آمنوا و تواصوا بالصبر و تواصوا بالمرحمة أولئك أصحاب الميمنة و الّذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة عليهم نار مؤصدة» البلد: ١٧ ـ ٢٠

و أمّا السابقون المقرّبون فهم غير داخلين في الفريقين بقوله عزّ و جلّ «و كنتم أزواجاً ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة و أصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة و السابقون السابقون أولئك المقرّبون ... فأمّا إن كان من المقرّبين فروح و ريحان و جنّت نعيم و أمّا إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين و أمّا إن كان من المكذّبين الضالّين فنزل من حميم و تصلية جحيم» الواقعة: ٧ ـ ١١ و ٨٨ ـ ٩٤

و ذلك أنّ الناس بالنسبة إلى الكمال الإنسانيّ و سلوك الآخرة على درجات عديدة و مقامات كثيرة يرجع كلّها إلى ثلاثة أقسام كما أشارت إليها آيات الواقعة، و غيرها من الآيات القرآنيّة الكثيرة منها قوله عزّ و جلّ «فمنهم ظالم لنفسه و منهم مقتصد و منهم سابق بالخيرات» فاطر: ٣٢ و السابق بالخيرات هم السابقون المقرّبون، و هم أهل التوحيد

الخالص والعلماء العاملون الأخيار، المتّقون لأنفسهم و الحافظون لدينهم، المخالفون على هواهم، المطيعون مولاهم، حقّ ثبتت فطرتهم على صبغتهم، و المتنزّهون عن الطّريق و السّلوك بوصولهم إلى المقصود بل هم مقصد السّالكين.

قال الله تعالى فيهم: «إنّما يخشى الله من عباده العلماء» (فاطر: ٢٨)

و قال: «و اصبر نفسك مع الّذين يدعون ربّهم بالغداة و العشيّ يريدون وجهه و لا تعد عيناك عنهم» (الكهف: ٢٨)

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﴿ع﴾: «إن شهد لم يُعرف، و إن غاب لم يُفتقد، أولئك مصابيح الهدى و أعلام السّرى، ليسوا بالمساييح، و لا المذاييع البُذُر، أولئك يفتح الله لهم أبواب رحمته و يكشف عنهم ضرّاء نقمته» (الخطبة ١٠٣)

و فيه: قال سيّد الوصيّين، يعسوب الدّين الإمام عليّ ﴿ع﴾ في وصيّته لكميل بن زياد النّخعيّ: «يا كميل، هلك خزّان الأموال و هم أحياء، و العلماء باقون ما بقي الدّهر، أعيانهم مفقودة، و أمثالهم في القلوب موجودة.»

و أمّا أصحاب اليمين فهم أهل السّلوك، و أصحاب العمل الصّالح و هم الأبرار، و هم مراتب على حسب درجات إيمانهم و مراتب صالح أعمالهم، و لهم درجات في مثوباتهم على حسب درجات عملهم، «و لكلّ درجات ممّا عملوا» (الأحقاف: ١٩)

و أمّا أصحاب الشّمال فهم الأشرار، و المقيّدون بالسّلاسل و الأغلال، و لهم أيضاً دركات بحسب دركات الجحيم، و كلّهم في العذاب مشتركون.

قال الله تعالى فيهم: «لكلّ ضعف و لكن لا تعلمون» (الأعراف: ٣٨)

و قال: «فإنّهم يومئذ في العذاب مشتركون» (الصّافّات: ٣٣)

و كلّ من الفرق الثّلاث لابدّ و من أن يرد الجحيم: «و إن منكم إلاّ واردها كان على ربّك حتماً مقضيّاً» (مريم: ٧١)، لكنّ السّابقين المقرّبين يمرّون على الصّراط كالبرق الخاطف من غير أن يصل إليهم زفيرها، و كذلك أصحاب اليمين، و أمّا أصحاب الشّمال فيقيّدون فيها و يعلّقون بسلاسلها «ثمّ ننجّي الّذين اتّقوا و نذر الظّالمين فيها جثيّاً» (مريم: ٧٢)

١٥ـ{فأمّا الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات فهم في روضة يحبرون}

فأمّا الذين آمنوا بالله تعالى وبرسوله ﷺ وباليوم الآخر وعملوا ما أمرهم الله جلّ وعلا به وانتهوا عمّا نهاهم عنه، وتعبّدوا بالطاعات فهم في الجنة وفي روضة من رياض الجنة وعرصاتها التي لا عين رأت ما فيها ولا أذن سمعت، ولا تخطر على قلب بشر، وبأنواع الزهر والثمار والخضرة النضرة، والأنهار والجواري الحسان حيث هم يسعدون، وبأنهار اللبن والماء والعسل المصفّى، والأشربة، وبالحور العين يسكنون ويحبرون ويفرحون ويتنعّمون بما في الجنة ويسرّون ويتلقّون من الله تعالى الأمن ذلك يكرمون

قال الله تعالى {والّذين آمنوا وعملوا الصّالحات في روضات الجنّات لهم ما يشاؤون عند ربّهم ذلك هو الفضل الكبير} [الشورى: ٢٢]،

وقال {فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرّة أعين جزاء بما كانوا يعملون} [السجدة: ١٧]

وقال {يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون الّذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ادخلوا الجنّة أنتم وأزواجكم تحبرون يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين وأنتم فيها خالدون وتلك الجنّة الّتي أورثتموها بما كنتم تعملون لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون} [الزخرف: ٦٨ـ٧٣]

١٦ـ{وأمّا الّذين كفروا وكذّبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون}

وأمّا الذين كفروا بالله سبحانه، وكذّبوا بآياتنا من محمّد رسول الله والقرآن الكريم، وبالبعث والحساب والجزاء بعد الموت فأولئك موصوفون بالكفر والتكذيب بآيات الله عزّ وجلّ ولقاء الآخرة فهم يومئذ يساقون إلى نار جهنّم سوقاً ويدفعون فيها دفعاً، ولا يغيبون عن عذابها أبداً فيحضرون فيها على سوء عاقبتهم وأقوالهم وأفعالهم

قال الله تعالى {فوربّك لنحشرنّهم والشّياطين ثمّ لنحضرنّهم حول جهنّم جثيّاً} [مريم ٦٨]

وقال: ﴿والذين يسعون في آياتنا معاجزين أولئك في العذاب محضرون﴾ (سبأ ٣٨)

١٧ـ ﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون﴾

فإذا كان الأمر كما ذكرت لكم معاشر الناس، فالذي يليق بكم أن توحّدوا الله جلّ وعلا وتعظّموه وتجلّوه وتكبّروه وتعظّموه وتحمدوه وتمجّدوه وتقدّسوه فسبّحوه تسبيحاً يليق بجلاله وقدسه وتنزّهوه عن كلّ ما لا يليق بعظمته من صفات النقص، فسبّحوه حين تدخلون المساء وحين تدخلون الصباح

واعلم أنّ الآية نظيرها في المعنى قوله تعالى: ﴿إنّا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً * لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزّروه وتوقّروه وتسبّحوه بكرة وأصيلاً﴾ (الفتح ٨، ٩)
وقوله عزّ وجلّ: ﴿سبحانه وتعالى عمّا يقولون علوّاً كبيراً﴾ (الإسراء ٤٣)

١٨ـ ﴿وله الحمد في السّموات والأرض وعشيّاً وحين تظهرون﴾

والله تعالى وحده الحمد كلّه في السموات والأرض فإنّه تعالى محمود لذاته، ويحمده من في السموات من الملائكة وصالحو أهل الأرض قال الله تعالى: ﴿تسبّح له السموات السبع والأرض ومن فيهنّ وإن من شيء إلا يسبّح بحمده﴾ وقال: ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتّخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له وليّ من الذلّ وكبّره تكبيراً﴾ (الإسراء ٤٤، ١١١)

وقال: ﴿وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون﴾ (القصص ٧٠)

وقال: ﴿إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإنّ الله لغنيّ حميد﴾ (إبراهيم ٨)
وقال: ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنيّ الحميد﴾ (فاطر ١٥)

فاحمدوا معاشر الناس الله تعالى وحده في كلّ حال على جميع نعمه وآلائه عليكم، فإنّ منافع الحمد وفوائده الدنيوية والأخروية كلّها ترجع إلى أنفسكم، فالله جلّ وعلا غنيّ عمّا سواه، والمفتقر ما سواه إليه في كلّ شأن وحاجة، واحمدوه وقت العصر وحين تدخلون في الظهيرة

في نهج البلاغة: [illegible] «و لا يحمد حامد إلا ربه»
خطبة ١٦

وفيه [illegible]: «الحمد لله كلما وقب ليل و غسق و الحمد لله كلما لاح نجم و خفق و الحمد لله غير مفقود الإنعام و لا مكافأ الإفضال»
خطبة ١٠٠

وفيه [illegible] «[illegible]» [illegible]

وقوله تعالى [illegible]

١٩ـ يخرج الحيّ من الميت و يخرج الميت من الحيّ و يحيي الأرض بعد موتها و كذلك تخرجون،

أي إنه تعالى يخرج [illegible] الحي من [illegible] الميت [illegible] و يخرج [illegible] من [illegible] و يخرج المؤمن الحيّ من [illegible] الكافر [illegible] ذلكم الله [illegible] تؤفكون

و [illegible] في معنى قوله تعالى: «[illegible] يخرج الحيّ من الميت و مخرج الميت من الحيّ ذلكم الله فأنى تؤفكون» [illegible] الأنعام ٩٥ ، ٢٢

و قوله تعالى: «و يحيي الأرض بعد موتها و كذلك تخرجون» و يحيي الله الأرض بالمطر بعد موتها [illegible] و يخرج الزرع بعد [illegible] مثل ذلك الإخراج [illegible] بعد موتكم [illegible] من قبوركم [illegible]

موقف الحساب تفصيل نعقده في الجزء

قال الله سبحانه: «وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون» الأعراف: ٥٧.

وقال: «وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون» يس: ٣٣.

وقال: «والذي نزّل من السماء ماءً بقدر فأنشرنا به بلدة ميتاً كذلك تخرجون» الزخرف: ١١.

وإن هذا العمل دائب لا يتوقف ولا في لحظة واحدة من لحظات الليل والنهار في كل مكان على سطح الأرض، وفي جوف الفضاء، وفي أعماق البحار. ففي كل لحظة وآن يحصل هذا التحوّل في هذه المعجزة الخارقة لا نكاد ننتبه لها لألفة وتكرار. ففي كل لحظة يخرج حيّ من ميت والعكس. وفي كل لحظة تتحرك براعم الملايين من حبات الحنطة أو النواة، فتشقها، وتخرج إلى واجهة الحياة، وفي كل لحظة تجف العود والشجرة لتتحول إلى الهشيم والحطام، ومن خلال الهشيم والحطام توجد حبة جديدة لتكون مهيأة لحياة جديدة، ولا يبقى ولا يوجد إلا الذي يصلح في الحياة ويتغذى به الحيوان والإنسان.

وفي كل لحظة تنبت الحياة في حيوانات شتى وحيوانات في البحر والبر والجو، والجثة التي ترمى في الأرض، وتختلط بالتربة وتتحول العناصر التي هي مادة جديدة لحياة جديدة، وحياة النباتات والحيوان والإنسان، ومثل هذا يتم في أعماق البحار، وفي جو الفضاء على السواء. إنها دورة دائبة عجيبة رهيبة لا يتأملها إلا من يتأمل بعين البصير ويهتدي بهدى القرآن الكريم وبنوره ليستطيع مشاهدة نور الله جلّ وعلا.

وكذلك تخرجون. حيث إن الأمر عادي وواقعي لا غرابة فيه، والناس يشاهدونه مثلما يشاهدون الكون في كل لحظة من لحظات الليل والنهار في كل مكان.

قال الله تعالى: «أولم يروا أنّا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون» السجدة: ٢٧.

٢٠ـ «ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون»

ومن الأدلة الواضحة والبراهين الناصعة والحجج الساطعة على قدرة الله وعظمته أن خلقكم الله تعالى معاشر الناس من طين ميت تراب لا يحس ولا حياة فيه ولا تناسق فيه وبين ما أنتم عليه في ذلكم وصفاتكم من الحس والنطق والشعور والإرادة و الحياة والحركة حسب ما يريد الإنسان حتى يصل إلى تلك المعجزات التي تسمو بتراب لمثل تلك الصور، والتي توجب التأمل في صنع الله تعالى وقدرته على إعادة الإنسان بعد موته، واستجاشة الضمير للتحميد والتسبيح لله تعالى وحده، وتحريك القلب لتمجيد الصانع المتفضل الكريم المتعال.

قال الله تعالى: «يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ... وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج» (الحج ٥)

وقال: «هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون هو الذي يحيي ويميت فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون» (غافر ٦٠ـ٦١)

واعلم أن لخلقة الإنسان في القرآن الكريم أطوارا وصورا حتى يخرج الإنسان إلى هذا العالم، ومن تلك الصور والأطوار أنه تعالى خلقه من الأرض «والله أنبتكم من الأرض نباتا» (نوح ١٧)

ومنها أنه خلقه من تراب الأرض: «ومن آياته أن خلقكم من تراب» (الروم ٢٠)

ومنها أنه خلقه من طين: «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين» (المؤمنون ١٢)

ومنها أنه خلق الإنسان من صلصال كالفخار (الرحمن ١٤)

ومنها أنه تعالى قال: «ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون» (الحجر ٢٦)

ومنها أنه جل وعلا قال: «ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين إلى قدر معلوم فقدرنا فنعم القادرون» (المرسلات ٢٠ـ٢٣)

فمن قدر على ذلك فهو قادر على بعث الإنسان بعد الموت وتفتت أعضائه.

وقد قال الحكماء: إنّ الإنسان مركّب من العناصر الأربعة وهي: أ - التراب ب - الماء ج - الهواء د - النار.

أمّا التراب فأثره في الإنسان هو الثبات، وأمّا الماء فللالتصاق، فإنّ التراب من غير الماء يتفتّت ويتفرّق، وأمّا الهواء فللاستقلال كالزّق المملوء بالهواء، ولولاه لما كان فيه استقلال ولا انتصاب، وأمّا النار فللنضج والالتئام بين الثلاثة.

أقول: ولا شك في هذه المسألة، وعلى ما ثبت أنّ في الإنسان عناصر كثيرة حتى بلغت إلى أكثر من مائة حسب ما ثبت عند العلم، إلا أنّ عناصر كلّها ترجع إلى هذه العناصر الأربعة التي هي محور بحثنا ومنها.

إن تسأل: لو كان الإنسان مركّبًا من العناصر الأربعة فلماذا لم يصرّح الله تعالى بها، وقد صرّح باثنين منها: أحدهما التراب «خلقكم من تراب» وثانيهما الماء «و خلقكم من ماء مهين»؟

نجيب عنه بأجوبة:

منها: أنّ التراب والماء كانا يكفيان عن الهواء والنار؛ لأنّ الهواء للاستقلال والنار للنضج بعد امتزاج التراب بالماء، وبذلك حصلتهما من الهواء والنار.

ومنها: أنّ التراب والماء ظاهران، وأنّ الهواء والنار لا تشاهد بالأبصار.

ومنها: أنّ الله تعالى قد أشار إلى النار والهواء بقوله سبحانه: «خلق الإنسان من صلصال كالفخّار» الرحمن: ١٤ وقوله: «من مارج من نار» «ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون» الحجر: ٢٦، وذلك أنّ الله تعالى بدأ بالخلق وهو خارج من عدم الفخار إلى المادة وهي التراب «خلقكم من تراب»، ثم تحوّل بعضه بوجود الماء إلى المادة الطينية، ثم إنّه بدأ خلق الإنسان الأوّل «طين» «وبدأ خلق الإنسان من طين» السجدة: ٧

وذلك بتعجين التراب بالماء، ثم تركه حتى تغيّر واسودّ، فصار حمأ مسنونًا، حيث إنّ الحمأ هو الطين المتغيّر، والمسنون ما خرج منه الماء حتى خلص عن الأجزاء الطينية لصلبه عن العفونة لقبوله الصورة التي يراد تصويره منه، و

فتحصّل ما يتحلّل منه بالهواء، و يجفّ بالحرارة، فصار كالخزف الّذي يصوّت إذا نقر به، و بهذا يتبيّن لنا ظهور تركّب الإنسان من العناصر الأربعة الممتزجة.

فهذا الإنسان البديع الخلق الجميل الوجه و البديع الشّكل الإنسان لم يكن إلّا من تراب تجمّعت فيه خواصّ الأرض كلّها: سهلها و جبلها، برّها و بحرها، عذبها و أجاجها و عطر الماء، و امتزاج الهواء، و تأثير حرارة نور الشّمس و دورانها حالاً بعد حال سوى حقيقته و نفخت فيه روحه، فكلّ ذلك مقدّمات و أسباب جعلت لإبداع النّظام و إظهار الحسن و الجمال في صورة الإنسان.

قال الله تعالى: «و لقد خلقناكم ثمّ صوّرناكم ثمّ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم» الأعراف

و قال: «الله الّذي جعل لكم الأرض قراراً و السّماء بناءً و صوّركم فأحسن صوركم و رزقكم من الطّيّبات ذلكم الله ربّكم فتبارك الله ربّ العالمين» غافر: ٦٤.

فتدبّروا أيّها النّاس في كلّ ظرف من الظّروف، و في كلّ حال من الأحوال، و في كلّ مكان من الأماكن في نعم الله تعالى و آلائه ظاهرها و باطنها عليكم، تنقلكم من نعمة إلى نعمة و من حسنة و ... إلى ... ارتفعه و تكرمه، لعزّه و سيادته، فصرتم موجودين بعد العدم، و أحياء بعد الموت، و ناطقين بعد السّكوت، و ذوي بصيرة بعد العمى، و أقوياء بعد الضّعف، و عالمين بعد الجهل، و مهتدين بعد الضّلالة، و قادرين بعد العجز، و أغنياء بعد الفقر، تكثّرتم في ذرّيّتكم لا شيء ... على الإنسان حين من الدّهر لم يكن شيئاً مذكوراً ...

و أيّ شيء خُلق من لا شيء؟ و أيّ قوّة من بعده الضّعف؟ ثمّ صار بالله جلّ و علا شيئاً و قوّة، خلقكم من تراب ميّت ذليل، و ماء مهين، و نطفة قذرة بعد بعده الخصّ، فتعرفوا حقيقة ما ... خلقكم، فتعرفوا بها أنفسكم، و إنّما أكمل الله تعالى نعمه عليكم لتعرفوا بها ربّكم، و تعلموا بها عظمته و جلاله، و علمه و حكمته، و تدبيره و قدرته.

و قوله تعالى: «ثمّ إذا أنتم بشر تنتشرون»، أي صرتم بكثرتكم و تنتشرون في أطراف الأرض تتصرّفون فيها في معاشكم. فلم يخلقكم الله سبحانه عبثاً «أفحسبتم أنّما

[illegible] ثم إليه ترجعون [illegible]

قال الله تعالى «وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار» (ص ٢٧)

وقال «وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل» (الحجر ٨٥)

وقال «الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً» (الملك ٢)

وقال «وخلق الله السماوات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون» (الجاثية ٢٢)

٢١- ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودّة ورحمة إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون﴾

ومن آياته [illegible]

قال الله تعالى «هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها» (الأعراف ١٨٩)

وقال «والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيّبات» (النحل ٧٢)

وقال «خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها [illegible] ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون» (الزمر ٦)

وقوله تعالى «وجعل بينكم مودّة ورحمة» وجعل [illegible] بين الزوج والزوجة

مودّة يتوادّون بها و يتواصلون من أجلها و جعل بين الأزواج رحمة بالعطف و الحنوّ، بخلاف سائر الحيوانات فإنّ الأمر معكوس، مع أنّ تعيّش الإنسان متوقّف على التعارف و التعاون المحوج إلى المودّة و الرحمة، و ليس كذلك في الحيوانات، و لولا الزواج و العقد الدائم الذي هو نوع تعهّد و ميثاق بين الزوجين في الإنسانية ما حصلت المودّة و الرحمة فإنّ الحاجة و الدافع الشهوة البهيمة لا توجب ذلك لعطف بعضكم بذلك على بعض إذ كلّ واحد من الزوجين بالعقد الدائم يرى حقّ الآخر فيه فيعطف عليه لما جعله الله عزّوجلّ في قلب كلّ واحد لصاحبه بمقتضى السرور، و لطف كلّ منهما بصاحبه، و الالتحام بينه

و قوله سبحانه: «إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون» إنّ فيما سبق من الآيات التكوينية و التدوينية و الآيات الآفاقية و الأنفسية و ما ذكر من خلق الناس من تراب مبثوث و في خلق أزواجهم من أنفسهم و في خلق الأزواج من جنسه للرجال، و في جعل المودّة و الرحمة بينهم لآيات عظيمة لا يكتنه كنهها بشر، و لا يقدر قدرها، و مشتملة على آيات شتّى كلّها تدلّ على وحدانيته تعالى و جلاله و عظمته، و علمه و حكمته، و تدبيره و قدرته على الاعادة و البعث بعد الموت لفصل القضاء لقوم يتفكّرون في تلك تلك الأفاعيل المبنيّة على الحكم و الأسرار و يعترفون بها بأنّ من خلق الأزواج؟ و من جعلها؟ و من أنعم بها؟ و من جعل بينهم على الأحوال التي تقتضيها السرور بها؟؟؟

٢٢-﴿و من آياته خلق السّموات و الأرض و اختلاف ألسنتكم و ألوانكم إنّ في ذلك لآيات للعالمين﴾

و من آيات الله التكوينية الآفاقية الواضحة على وحدانية الله تعالى و جلاله و عظمته، و علمه و حكمته، و تدبيره و قدرته لا ينكرها حتّى الكافر: خلق السّموات و ما فيها من النجوم و الكواكب و الشّهب و جريها في مجاريها على غاية الاتّساق و أكمل النظام، و خلق الأرض و ما فيها من البحار و الأنهار، و الجبال و الأشجار، و أنواع النبات و الحيوان، و أصناف الجماد و فنون النّعم

قال الله تعالى: «و لئن سألتهم من خلق السّموات و الأرض و سخّر الشّمس و القمر

ليقولنّ الله فأنّى يؤفكون» العنكبوت

وقال «ولئن سألتهم من خلقهم ليقولنّ الله فأنّى يؤفكون» الزخرف ٨٧

وقال «قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون * سيقولون لله قل أفلا تذكّرون * قل من ربّ السموات السبع وربّ العرش العظيم * سيقولون لله قل أفلا تتّقون * قل من بيده ملكوت كلّ شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون * سيقولون لله قل فأنّى تسحرون» المؤمنون ٨٤ - ٨٩

وقال «قل من يرزقكم من السماء والأرض أمّن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحيّ من الميت ويخرج الميت من الحيّ ومن يدبّر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتّقون * فذلكم الله ربكم الحقّ فماذا بعد الحقّ إلا الضلال فأنّى تصرفون» يونس ٣١ - ٣٢

وقوله سبحانه «واختلاف ألسنتكم» من آيات الله الكونية الاجتماعية التي تدعو إلى التأمل في اختلاف اللغات ولم يثبت عند الباحثين عددها، وفي اللغات نحو خمسة آلاف لغة مستعملة إلى يومنا هذا، ويكفي في إثبات ذلك للعصريين صوت الله عليهم ... المختلفة التي لها خصائصها، ومن اختلاف الألسنة في جرس النطق والكتابة وفي جهات الشعوب والقبائل والأفراد، التي تعدد أفراد الشعب في كل طرف من الطرق.

فليس المراد باختلاف الألسنة اختلاف اللغات فقط كما زعمه أكثر المفسرين، بل المراد به الاختلاف في النطق والكلام فلا تشبه لغة أحد لغة الآخر فترى الأمة الواحدة كالعربية مثلاً ولكن لا ترى اثنين يتحدثان بحديث متفق فلا تسمع صوتين متفقين في همس واحد، ولا جهارة واحدة، ولا حدّة ولا رخاوة ولا فصاحة ولا لكنة ولا لحن ولا نظم ولا أسلوب، ولا غير ذلك من صفات النطق وخواصه، ولا أحد من الناس يشبه صوته صوت الآخر مع اتفاق بعضهم في كلامه وصحة كلام الآخر وفصاحته مع أن كل سكان الأرض من أصل واحد ومن أب واحد وامرأة واحدة، فمن الذي أوجد اختلاف اللغات واللهجات ... جعل لكل امرئ في جسمه وصورته وهيئة كلامه ... في نوعه وإن شارك الناس في الجنس والصوت والكلام ولولا ذلك لما ميّز

الأشخاص، فإنّهم بألسنتهم مختلفة، و أصواتهم مختلفة و هيئات حديثهم مختلفة، و باختلافهم في ذلك كلّه نعرّفهم و نعيش معهم و هذه هي الحكمة الإلهيّة المهمّة الدالّة على وحدانيّة الله تعالى و جلاله و عظمته، على تدبيره و قدرته، و على علمه و حكمته

و قوله عزّوجلّ «و ألوانكم» و من آيات الله سبحانه الأنفسيّة الأخرى الدالّة على التوحيد اختلاف ألوانكم و صوركم حيث لا رجل و لا امرأة على بسيط الأرض في شرقها و غربها، و جنوبها و شمالها يشبه لونه و سمته لون الآخر و سمته فترى لونًا واحدًا كالبياض مثلاً و لكن لا ترى وجهين يتّحدان ملامحًا و هكذا سمة الوجوه و خطوطها، و شكل الأعضاء و رسومها حتى التوأمين يختلف أحدهما الآخر قطعًا

فكما لا توجد صورتان متماثلتان من جميع الوجوه لحكمة مظهريّة الأحديّة، و مظهريّة اسم «من» «ليس كمثله شيء» كذلك لا توجد صورتان متماثلتان على هذا المثال

إنّ الله عزّوجلّ خالف بين الصّور و خطوطها، و بين الألوان و تنوّعها من الأحمر و الأبيض، من الأسود و الأصفر و من الأسمر و الأشقر و غيرها من أقسام الألوان و لاختلاف ذلك وقع التعرّف بين الناس في كلّ زمان و مكان إذ لو تشابهت الألوان و تشاكلت و كانت ضربًا واحدًا لوقع التجاهل و الالتباس بينهم، و تعطّلت مصالحهم الفرديّة و الاجتماعيّة

و في ذلك كلّه آيات دالّة على أنّ الصّانع و الإيجاد مع نقطة أخرى في هذه الصنائع التّسامح لا يقوم إلّا بالله جلّ و علا و لا ينتهي إلّا إليه تعالى

فالإنسان كما اختلفت طبائعه و تمايلاته و استعداداته و جميع أحواله اختلفت ألوانه بعدد أفراده في كلّ ظرف، و جرت الألوان شوطًا تجري مع الطبائع و التمايلات و الاستعداد و اللغات و جميع الأحوال كلّها

و من دعاء الإمام السّادس جعفر بن محمّد الصّادق (ع) في الليلة الأخيرة من شعبان المعظّم، و الليلة الأولى من رمضان المبارك: «... أحصيت أعمالهم و قسمت أرزاقهم، و جعلتهم مختلفة ألسنتهم و ألوانهم خلقًا بعد خلق» «فتراهم من بين ... و

السواد، من الحمرة و الصفرة، و من الزرقة و الخضرة، مع كونهم من أولاد رجل واحد، و أمّ واحدة، و يجمعكم نوع واحد و هو الإنسانيّة و فصل واحد و هو الناطقيّة، حتّى صاروا متميّزين في ذات بينهم، فلا يلتبس بعضهم من بعض، و هذا من بديع القدرة ما لا يعقله إلاّ العالمون بمعنى الكون، و لا يفهمه إلاّ المتفكّرون في نواميس الوجود.

و قوله جلّ و علا «إنّ في ذلك لآيات للعالمين» إنّ فيما ذكر من خلق السّموات و الأرض، و اختلاف الألسنة و الألوان لآيات عظيمة و دلالات بيّنة على المبدإ الواحد المتعال، و على المعاد بعد الموت للعلماء المتفكّرين لا للناس كلّهم لأنّ أكثرهم لا يعقلون فلا يعلمون كما قال الله عزّ و جلّ «و تلك الأمثال نضربها للنّاس و ما يعقلها إلاّ العالمون خلق الله السّموات و الأرض بالحقّ إنّ في ذلك لآية للمؤمنين ـ بل أكثرهم لا يعقلون» العنكبوت ٤٣ ـ ٤٤ و ٦٣)

و قال «ما خلق الله ذلك إلاّ بالحقّ يفصّل الآيات لقوم يعلمون ـ إنّ الّذين لا يرجون لقاءنا و رضوا بالحياة الدّنيا و اطمأنّوا بها و الّذين هم عن آياتنا غافلون» يونس ٥ ـ ٧)

و ذلك لأنّ العلماء المتفكّرين في معنى الكون، و نواميس الوجود، يستخرجون من الآيات الكونيّة الأدلّة و الأمثلة من خلق السّموات و الأرض، و اختلاف اللغات و الألحان و اختلاف الصّور و الألوان.

أولئك هم الّذين يذوقون جمال هذا النظام البديع، و تتأثّر به نفوسهم، فيرون وراء هذا الجمال و النّظام و الإبداع شرف قائد أبدع هذه العجائب و نوّع هذه الحركات، و اختصّ كلّ مخلوق بصفات تجعله يتميّز عن سواه فهم حينئذ يدهشون، إذ يرون هذا التغاير و التغاير الجزئي جعل الأجيال تتميّز الأفراد بعضهم من بعض، فالاختلاف إنّما جاء لهدايتنا لمعرفة و فصل الأشياء بعضها من بعض، فالنتيجة من ذلك كلّه هداية عقولنا لمعرفة الأشياء، و معرفتنا لأنفسنا حتّى نعرف ربّنا.

قال الله تعالى «سنريهم آياتنا في الآفاق و في أنفسهم حتّى يتبيّن لهم أنّه الحقّ» فصّلت: ٥٣.

٢٣ـ ﴿ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إنّ في ذلك لآيات لقوم يسمعون﴾

ومن [illegible] على وحدانية الله تعالى وقدرته على البعث والإعادة بعد الموت [illegible] منامكم بالليل والنهار [illegible] في نفسه من [illegible] من [illegible].

قال الله تعالى: «وهو الذي جعل لكم الليل لباسًا والنوم سباتًا وجعل النهار نشورًا» الفرقان ٤٧

وقال: «وجعلنا نومكم سباتًا وجعلنا الليل لباسًا وجعلنا النهار معاشًا» النبأ ٩.

فكان النوم و[illegible] في [illegible] الليل والنهار في [illegible] «وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذّكّر أو أراد شكورا» الفرقان ٦٢.

وفي هذا النوم [illegible] الإنسان على [illegible] النوم [illegible] نعمة الله تعالى عليه [illegible] به، ويجد بالنوم طعمه الهنيء في كيانه كما يجد لليقظة مساغها العذب في كل جارحة من جوارحه [illegible] «هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرًا إنّ في ذلك لآيات لقوم يسمعون» يونس ٦٧ [illegible] و[illegible] [illegible] النوم بغير اختيار صاحبه، ثمّ انتباهه من دون [illegible] على [illegible] وقت نشوره، ثمّ في حال منامه يرى [illegible] كثيرة أمره .. كذلك الميّت في قبره [illegible] الله تعالى هو [illegible] في قبره، و[illegible] من خيره وشرّه، ومن نعيمه وعذابه؟

فالنوم دليل على الموت، وما يرى في المنام دليل على ما بعده في عالم البرزخ، والاستيقاظ بالنهار دليل على البعث بعد الموت.

قال الله تعالى: «الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى

عليها الموت و يرسل الأخرى إلى أجل مسمّى إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون» الزمر ٤٢

و قال: «و هو الذي يتوفّاكم بالليل و يعلم ما جرحتم بالنهار ثمّ يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمّى ثمّ إليه مرجعكم ثمّ ينبّئكم بما كنتم تعملون» الأنعام ٦٠

٢٤ـ «و من آياته يريكم البرق خوفاً و طمعاً و ينزّل من السماء ماءً فيحيي به الأرض بعد موتها إنّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون»

و من آيات الله تبارك و تعالى الدالّة على أنّه هو الحقّ وحده لا شريك له في الخلق و التدبير و قدرته على البعث و الإحياء بعد الموت أنّه يريكم البرق خوفاً من الصواعق، و المطر السوء و الجحف و سدّ الطرق و المضرّ و يطمعون طمعاً في مطر الربيع و ينزّل الله عزّ و جلّ من السماء مطراً نافعاً فيحيي به الأرض بعد يبسها و جفافها

البرق هو النار التي تظهر في الجوّ و حادثة عند السحاب و يتبعها الرعد قال الله تعالى: «هو الذي يريكم البرق خوفاً و طمعاً و ينشئ السحاب الثقال و يسبّح الرعد بحمده و الملائكة من خيفته و يرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء و هم يجادلون في الله و هو شديد المحال» الرعد ١٢-١٣

و قال: «ألم تر أنّ الله يزجي سحاباً ثمّ يؤلّف بينه ثمّ يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله و ينزّل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء و يصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار» النور ٤٣

و قال: «و ترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت و ربت و أنبتت من كلّ زوج بهيج ذلك بأنّ الله هو الحقّ و أنّه يحيي الموتى و أنّه على كلّ شيء قدير و أنّ الساعة آتية لا ريب فيها و أنّ الله يبعث من في القبور» الحج ٥-٧

و قوله تعالى: «إنّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون» إنّ في إراءة البرق خوفاً و طمعاً، و تنزيل الماء من السماء، و إحياء الأرض به بعد موتها لدلالات واضحات على المبدإ و المعاد لمن يعقل فيها، فإنّهم ينظرون في الآيات التكوينية الآفاقية بنظرة التعقّل و التفكّر، و

تفهّم واستبصار، وتدبّر في نظام الكون وبدائعه ينتهون به إلى معرفة صانعه الذي أحسن كلّ شيء خلقه ثمّ هدى، وإلى معرفة مبدإ مرجعه ومآل مرقاه، فكأنّ عقولهم كأنها ثمّ لا عقل فهم بل هم أضلّ سبيلاً إذ لا حسّ للبهائم، ولهم عقول لا يسمعون بها
قال الله تعالى «هو الذي يريكم آياته وينزّل لكم من السّماء رزقاً وما يتذكّر إلّا من ينيب» غافر ١٣، وقال «لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلّ أولئك هم الغافلون» الأعراف ١٧٩

وقال بعض أصحاب التأويل إنّه تلوح في القلوب من البرهان والشواهد في الأمور، ثمّ تختلف بهم الحال، فمن عبد يحصل مقصوده ومن آخر لا يتّفق مراده، والأحوال اللطيفة كالبروق، وإنّها لوائح ثمّ لوامع، ثمّ طوالع ثمّ شوارق ثمّ لوامع تشبه أي سمراً بعضه الأفق والكشف البرق الشديد وقت النهار إلى الليل حتّى بعده الليل فاللوائح في أوائل العلوم، واللوامع من حيث الفهوم، والطوالع من حيث المعارف، والشوارق من حيث التوحيد والله أعلم

٢٥ـ ﴿ومن آياته أن تقوم السّماء والأرض بأمره ثمّ إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون﴾

ومن آيات الله الكونية الموضحة الدالّة على المبدإ والمعاد: أن تقوم السّمآء والأرض بأمره جلّ وعلا خضوعاً له بالطّاعة بغير عمد ترونها إذ هي عمد غير مرئيّة وهي إمساكها على هذا النّظام الجاري بأمره تعالى وأنتم عاجزون عن إدراكها ولا تقدرون على رؤيتها، بل ولكلٍّ عماد غير مرئيّ فعماد الآية يذكره في معنى قوله سبحانه «الله الّذي رفع السّموات بغير عمد ترونها» الرعد ٢،

وقوله عزّ وجلّ «ويمسك السّماء أن تقع على الأرض إلّا بإذنه» الحج ٦٥

وقوله جلّ وعلا «إنّ الله يمسك السّموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده» فاطر ٤١)

فالله تعالى وحده هو مقيمها ويمسكها حالاً فحالاً على هذا النّظام، فإنّه وحده حفظهما و

الشمس إذ لا توجد جاذبية إلّا بوجوده، ولا تبقى إلّا ببقائه، إذ لا يوجد ولا يبقى في نظام الكون إلّا أنه تعالى وحده، فإنّ السموات تحتاج إلى موجد في وجوده، وإلى مبقٍ في بقائه، فالله جلّ وعلا وحده يمنع ويحفظ وينهى أن تضطرب السموات من أماكنها فترتفع أو تنخفض، ويمنع الأرض كذلك فيحفظهما من الزوال، ولولا ذلك فالأجرام هي سابحة في الفضاء تدور حول نفسها وحول الشمس «كلٌّ في فلك يسبحون» يس ٤٠) بسرعة توجب الدهشة

وقوله تعالى «ثمّ إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون» ثمّ إذا دعاكم الله تعالى بعد انقضاء الأجل دعوة واحدة من الأرض أينما تكونون، كما يدرككم الموت أينما تكونون ولو كنتم في بروج مشيّدة، فتقول: ها نحن خرجنا من الأرض، فخاتم الخروج منها سريع.

قال الله تعالى «فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً يومئذ يتّبعون الدّاعي لا عوج له وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلّا همساً» طه ١٠٦ ـ ١٠٨)

وقال «يوم تشقّق الأرض عنهم سراعاً ذلك حشر علينا يسير» ق: ٤٤)

وقال «يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنّهم إلى نصب يوفضون» المعارج ٤٣)

وقال «يوم يدع الدّاع إلى شيء نكر خشّعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنّهم جراد منتشر» القمر ٦ ـ ٧)

ومن تأويل أنّه تعالى نفى هذه الأمور، ويغيّر هذه الأطوار، ويبدّل أحوالاً غير هذه الأحوال بما به تعجب، وإعادته وقتلهم إياه وقدرته الحشر، ومعاقبته في القبر، ثمّ محاسبته بعد النشر

٢٦ـ «وله من في السّموات والأرض كلٌّ له قانتون»

كيف تكفرون بالله سبحانه وتنكرون البعث بعد الموت لفصل القضاء، فالكون هذا الوجود في سمائه وأرضه وما فيهما هو في قبضة قدرته، خاضع لأمر الله تعالى مستجيب له وإنّ الموتى إذ دعوا من الأرض ما كانوا لا يملكون إلّا أن يستجيبوا لما دعاهم إليه «إنّ

كلّ من في السموات والأرض إلاّ آتي الرحمن عبداً لقد أحصاهم وعدّهم عدّاً وكلّهم آتيه
يوم القيامة فرداً» مريم: ٩٣-٩٥

وفي التعبير عمّا في السموات والأرض من مخلوقات بلفظ «من» التي هي لذوي العقول إشارة إلى أنّ كلّ مخلوق ممّا في السموات والأرض كأنّه ذو عقل، فهو خاضع مطيع مستجيب له حيّ ولا حيّ كلّ شيء من مملوك مدبّر وموجّه فهو ساجد لله مطيعة محكومة بقدرته وحكمته وعلمه، فلله تعالى وحده من في السموات والأرض ملكاً وخلقاً وعبيداً ومنه بدأ الأشياء وإليه يعودوا وإليه رجوعها بعد أن خاضع مطيع مستجيب له على قوله في تعبيره وإن كان بعضهم مخالف له في تعبد شخصه

قال الله عزّ وجلّ: «ولله المشرق والمغرب فأينما تولّوا فثمّ وجه الله» وسبّح لله ما في السموات والأرض إنّه قانتون «بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنّما يقول له كن فيكون» حاكمة على السموات والأرض ومستقر وهو من الله البقرة ١١٦-١١٧

٢٧ـ﴿وهو الّذي يبدؤا الخلق ثمّ يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السّموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾

والله تعالى هو الّذي يبدؤا الخلق من غير أصل له ولا شيء فيبدئه بعد أن لم يكن شيئاً، ثمّ يميته بعد ذلك بالموت ثمّ يعيده بعد موته كما بدأه بالخلق أوّل مرّة يوم القيامة

قال الله عزّوجلّ: «يوم نطوي السّماء كطيّ السّجلّ للكتب كما بدأنا أوّل خلق نعيده وعداً علينا إنّا كنّا فاعلين» الأنبياء: ١٠٤

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين عليّ بن أبي طالب ﴿عليه السلام﴾: «أنشأ الخلق إنشاءً، وابتدأه ابتداءً بلا رويّة أجالها، ولا تجربة استفادها، ولا حركة أحدثها، ولا همامة نفس اضطرب فيها» الخطبة ١

وعنه قال الشيخ الصدوق: بعث الّذين من المؤمنين الإمام عليّ ﴿عليه السلام﴾ الحاق

خلاّق على غير مثال خلا من غيره ولا يستعين على خلقها بأحد من خلقه فلا شيء إلاّ الله الواحد القهّار الذي إليه مصير جميع الأمور فلا قدرة منها لشيء من أشياء خلقها، ولا يمتنع منه كل فنائها، ولو قدرت على الامتناع لدام بقاؤها، لا يكاد يخضع شيء منه إذ صنعه، ولم يؤده منها خلق ما برأه وخلقه» (الخطبة ٢٢٨)

وقوله تعالى: «وهو أهون عليه» وعد بالإعادة هي أمر هيّن على الله عزّ وجلّ كما كان الابتداء هيّناً عليه، فالابتداء والإعادة عنده تعالى على حدّ سواء.

فإن الله سبحانه: «أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثمّ يعيده إنّ ذلك على الله يسير» (العنكبوت ١٩) وقال: «زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربّي لتبعثنّ ثمّ لتنبؤنّ بما عملتم وذلك على الله يسير» (التغابن ٧)

فكلّ شيء في قدرته جلّ وعلا، وبقدرته لا يعجزه سبحانه شيء في الأرض ولا في السماء، لا يتكلّف تعالى لأمر جهداً «إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون» (يس ٨٢) يستوي في هذا كبير الأمور وصغيرها، السماوات والأرض ومن فيهنّ هي حسب خطة قدرة الله عزّ وجلّ كذرّة أو بعوضة «ما خلقكم ولا بعثكم إلاّ كنفس واحدة» (لقمان ٢٨)

فهذا التفضيل: «أهون» منظور فيه إلى قدرة الإنسان وإلى ما تعوّد على صنعه من أشياء، حيث إنّ اختراع شيء لا يتوصّل إليه الإنسان إلاّ بعد جهد ومعاناة وتبديل وتغيير وتسوية وحذف وإضافة وتفكّر حتى يستقرّ الشيء على الصورة التي يرتضيها، فإذا انتهى الإنسان إلى تلك الصورة كان خلقها وتركيبها مرّة ثانية هيّناً عنده لا يتكلّف به جهداً، إذ إنّ مثال الصورة قائم بين يديه وحاضر في تفكيره وما عليه إلاّ أن يصنع الأجزاء التي سبقت أشكالها في هذه النسخة، فإذا الصورة قائمة على ما كانت

فالإعادة أسهل على الله سبحانه على حسب ما يدور في عقول المنكرين للبعث، من أنّ من فعل شيئاً مرّة كانت الإعادة أسهل عليه في ظنّهم وتقديرهم، فإنّ إعادة شيء من مادّته الأولى أهون عليهم من إيجاده ابتداءً فلم ذا ينكرون؟ هو تقريب لعقول الجهلة المنكرين للبعث، وإلاّ فكلّ الممكنات بالنظر إلى قدرة الله جلّ وعلا سواء، حيث إنّ التشبيه و

الوعورة على الحقّ المتعال لا تجوز نسبته إليه تعالى، صفته الصفة التي لا تشركه فيها أحد من خلقه إذ صرّح بذلك

في قوله تعالى: «وله المثل الأعلى في السماوات والأرض» وله جلّ وعلا خاصّة الوصف العجيب الشأن كالقدرة العامّة، والحكمة التامّة، وسائر صفات الكمال والجمال الأعلى الذي ليس لغيره ما يدانيه فضلاً عمّا يساويه، إذ كلّ شيء بدءاً وإعادة وبعثاً وإعداماً عنده على شرع سواء، فلا مثل له ولا ند «ليس كمثله شيء» الشورى: ١١ فليس له مثل في ذاته ولا في شيء من صفاته من الوحدانيّة والعلم والحكمة من الجلال والعظمة، من الحسن والعزّة، ومن التدبير والقدرة.

في دعاء الجوشن الكبير: «يا من له المثل الأعلى يا من له الصفات العليا».

وفي نهج البلاغة قال مولى الموحّدين إمام المتّقين عليّ بن أبي طالب (عليه السلام): «وولهت العقول إليه لتجري في كيفيّة صفاته وغمضت مداخل العقول في حيث لا تبلغه الصفات لتنال علم ذاته...»

وقوله سبحانه: «وهو العزيز الحكيم» وهو وحده القادر الذي لا يعجز عن بدء ممكن وإعادته، الحكيم الذي لا يفعل إلّا ما فيه الحكمة والمصلحة والصواب والسداد.

٢٨ـ (ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصّل الآيات لقوم يعقلون)

ضرب الله تعالى لكم أيّها المشركون بالله سبحانه، والمنكرون للبعث بعد موتكم، ضرب لكم مثلاً يتبيّن به بطلان شرككم بالله جلّ وعلا، منتزعاً هذا المثل من أنفسكم وأحوالها لأنّها أقرب الأشياء إليكم، وأعرفها لديكم، وأظهرها دلالة على ما ذكر من بطلان الشرك لكونها بطريق الأولويّة

وهو قوله تعالى: «هل لكم من ما ملكت أيمانكم» هل لكم يا معشر المشركين الأحرار ممّا ملكت من مماليككم من شركاء فيما رزقناكم من العقار والمنقول والنقود و

الدُّور والمواشي وما إليها من الثروة. هل يرضى أحدكم أن يكون مملوكه شريكاً له في ماله الّذي رزقه الله تعالى، فتكونون أنتم المالكون ومماليككم في الأموال والأملاك مستويين تتصرّفون فيها كما أنتم تتصرّفون فيها؟

وقوله عزّوجلّ «تخافونهم كخيفتكم أنفسكم» أي تخافون مماليككم أن يستبدّوا بالتصرّف فيها بدون رأيكم ولا إذنكم ولا رضاكم كما يخاف الأحرار منكم بعضهم من بعض. فإذا كان لكم مماليك لا ترضون بالمساواة بينكم وبينهم في الأموال وفي تصرّف الأملاك وأنتم وهم مثلكم بكلّ وجه ـ إلّا أنّكم في حكم الشرع مالكوهم مالكيّة اعتباريّة ـ فإذا لم ترضوا بذلك لأنفسكم وأنتم الأحرار وهؤلاء المماليك جعلهم الله تعالى خدمة، فكيف ترضون لربّ الأرباب ومالك الرقاب أن تجعلوا عبيده له شركاء أيّ نحو من أنحاء الشرك الشرك في أصل الوجود وفي خلق العالم وفي تدبير نظام الكون وفي العبادة مستقلّة أو رتبة من غير مساواة بينه سبحانه وبينهم في شيء؟

هل يجوز أن يعتذر في وصفه جلّ وعلا أن يساويه عبده؟ وهل يجوز أن يكون مملوكه شريكه وهو في الأصل مخلوق وعبد له تعالى؟ تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً

وقوله جلّ وعلا «كذلك نفصّل الآيات لقوم يعقلون» مثل ذلك التمثيل الواضح المبيّن نبيّنها ونكشف معانيها لقوم يستعملون عقولهم في تدبّر الأمثال، وكانت أنفسهم بأيدي عقولهم، وكانت فطرتهم حاكمة على طبيعتهم، وأهواء نفوسهم مغلوبة لعقولهم، فإنّهم الّذين يستجيبون لدعوة عقولهم، ويتّبعون ما تقتضيه فطرتهم من التوحيد وأمّا غيرهم فيتّبعون أهواءهم

٢٩ـ (بل اتّبع الّذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضلّ الله وما لهم من ناصرين)

إنّ هؤلاء المشركين، وكلّ من سلك مسالكهم في كلّ ظرف من الظروف، لم يستعملوا عقولهم في آيات الله تعالى ولم ينتفعوا بها، ولم يعتبروا بأمثال الله جلّ وعلا ولم يجنوا من ثمرها المبارك الطيّب شيئاً من العلم بحقائق الكون وبمبدأ الوجود، ومن المعرفة بالله

عزّ وجلّ، بل تغلّب على مداركهم سيل من الجهل، واستبدّ بهم الفساد، فأسلموا لأهوائهم التي دفعتهم إلى الشرك والضلالة والكفر والعناد، وإلى الفساد والتعمّق في الإثم، وسيطرت أهواؤهم على عقولهم وسلّطت طبيعتهم على فطرتهم، ومن كان هذا شأنه فهو منقاد إلى قيود هواه، ولا يستجيب إلا لما يستهوي نفسه الأمّارة بالسوء.

قال الله تعالى: «فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنّما يتّبعون أهواءهم ومن أضلّ ممّن اتّبع هواه بغير هدى من الله إنّ الله لا يهدي القوم الظّالمين» (القصص ٥٠).

بل اتّبع الذين ظلموا أهواءهم عن جهل، فهم الذين ظلموا الحقّ والعلم بالشرك حيث جعلوا لله سبحانه شركاء في العبادة، وهم لا يظلمون بذلك إلا أنفسهم، وهذا ظلم عظيم «إنّ الشرك لظلم عظيم» (لقمان ١٣).

وظلموا أنفسهم بالشرك إذ استحقّوا به الخزي والهوان، والهلاك والدّمار في الحياة الدنيا، والنار والعذاب في الدار الآخرة.

قال الله تعالى: «ومن يشرك بالله فكأنّما خرّ من السّماء فتخطفه الطّير أو تهوي به الرّيح في مكان سحيق» (الحج ٣١).

وقال: «سبحان الله عمّا يشركون... وإنّ للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ولكنّ أكثرهم لا يعلمون» (الطور ٤٣، ٤٧).

فهم قد انحرفوا بالشرك المنبعث عن الهوى الناشئ عن الجهل عن طريق الحقّ والهدى، وعن الرّشد والسعادة «ومن يشرك بالله فقد ضلّ ضلالاً بعيداً» (النساء ١١٦) فحرمهم الله تعالى به من التوفيق والسداد والهداية والرّشاد، قال: «وما يضلّ به إلا الفاسقين» (البقرة ٢٦)، وقال: «ويضلّ الله الظّالمين» (إبراهيم ٢٧).

وظلموا بالشرك المجتمع البشري بالفساد والفتنة فيه، وصدّ الناس عن الخير والصّلاح، وعن الكمال والسّعادة.

قال الله تعالى: «سبحانه وتعالى عمّا يشركون ظهر الفساد في البرّ والبحر بما كسبت أيدي النّاس» (الروم ٤٠، ٤١).

وقال حكاية عن مؤمن آل فرعون: «ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النّجاة وتدعونني إلى

النار تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم» غافر ٤١ ـ ٤٢

وفي هذه الظلامات الثلاث هو اتباع المشركين لأهوائهم الناشئ عن الجهل والسفاهة حيث جعلهم أن يحكموا فيما يهوون، ولا يعقلون ما يسمعون، وهذا هو الجهل بالجهل فلا علم لهم ولا حجة تسوقهم إلى منهجهم، وهي الفطرة التي فطر الناس عليها ولا من خارجهم، وهي الوحي السماوي. فمنشأ الشرك هو الجهل المؤدي إلى الشرك الموجب هذه الظلامات والشقاء. قال الله تعالى «أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون» الروم ٣٥

وقوله سبحانه: «فمن يهدي من أضلّ الله» فلا هادي لمن أضله الله من اتبع هواه عن جهل فأشرك بالله سبحانه حيث إن الشرك ظلم عظيم مستتبع لإضلال الله جلّ وعلا «فماذا بعد الحق إلا الضلال» يونس ٣٢

قال الله تعالى «يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضلّ الله الظالمين» إبراهيم ٢٧

وقال «أتريدون أن تهدوا من أضلّ الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً» النساء ٨٨

وقال «وما أنت بهاد العمي عن ضلالتهم» الروم ٥٣

فالجهل هو الموجب لاتباع الناس أهواءهم، واتباع الهوى هو المؤدي إلى الظلم المستتبع لإضلال الله جلّ وعلا، وإذ لا علم لمتبع الهوى، فالجاهل يمشي على غير سواء

وقوله عزّ وجلّ: «وما لهم من ناصرين» فلا ناصر لهم من ضلالته ونقمته والفساد في الحياة الدّنيا ما داموا على الجهل الموجب لاتباع أهوائهم المؤدي إلى الشرك بالله سبحانه، وهو الظلم العظيم المستتبع لإضلال الحق، ولا ناصر ينصرهم من عذاب الله تعالى يوم القيامة

قال الله تعالى «إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودّة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين» العنكبوت ٢٥

٣٠ـ (فأقم وجهك للدّين حنيفاً فطرت الله الّتي فطر النّاس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدّين القيّم ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون)

إذا تبيّن لك الحقّ أيّها الرّسول ﴿صلى الله عليه وآله﴾ ومن تبعك قلباً وقالباً معاً بالآيات الآفاقيّة والأنفسيّة، وبالآيات المفصّلة والأمثال الدّالّة على ... وتوحيده وكبريائه وجلاله وعظمته، وعلمه وحكمته، وتدبيره وقدرته، ووضح لك المعاد بفصل القضاء بين العباد، فأقبل على هذا الدّين بتمام وجودك، ووجّه له وجهك وسدّده إليه مائلاً عن غيره من الأديان الخرافيّة المنسوخة والمحرّفة والعقائد الفاسدة، والمذاهب الضعيفة، والآراء الكاسدة كلّها وهذا الدّين هو دين التّوحيد والعبادة ودين الرّسالة والإمامة ودين المعاد والجزاء، وهو الدّين الإسلاميّ الّذي كمّله الله تعالى يوم الغدير بولاية مولى الموحّدين سيّد الوصيّين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﴿عليه السلام﴾ [illegible] هذه الأئمّة المعصومة، إذ بولايته ﴿عليه السلام﴾ يعرف الله جلّ وعلا، وتبلغ رسالة رسوله ﴿صلى الله عليه وآله﴾

قال الله تعالى «إنّ الدّين عند الله الإسلام» «أفغير دين الله يبغون» «ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين» (آل عمران: ١٩ و ٨٣ و ٨٥)

وقال «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً» «يا أيّها الرّسول بلّغ ما أنزل إليك من ربّك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته» (المائدة: ٣ و ٦٧)

وقوله عزّ وجلّ «فطرت الله الّتي فطر النّاس عليها» فأقم يا أيّها الرّسول ﴿صلى الله عليه وآله﴾ بتمام وجودك لسان هذا الدّين غير منفكّ عن غيره لأنّ حقيقة هذا الدّين وأصولها هي التّوحيد والعدل الإلهي، والرّسالة المحمّديّة ﴿صلى الله عليه وآله﴾ والولاية العلويّة ﴿عليه السلام﴾ والمعاد لفصل القضاء، ثابتة على فطرت الله الّتي فطر النّاس عليها جميعاً. فلا انفكاك بين شريعة الإسلام وفطرة الإنسان، بل لا انفكاك بين شريعة الإسلام وحقيقة العالم ونظام الكون، ولذلك كان العالم كلّه بأرضه وسمائه مسلماً تكويناً

قال الله تعالى «وله أسلم من في السّماوات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون» (آل عمران: ٨٣)

كما كان الأنبياء والمرسلون من آدم إلى خاتم صلوات الله عليهم أجمعين كلّهم مسلمين

يدعون في كلّ ظرف من الظروف بمهم إلى الإسلام الذي بُني على فطرتهم، و ثبتت فطرتهم عليه و وفّق بين نظامي التكوين و التشريع

إنّ الله تعالى لمّا خلق الناس على فطرة التوحيد و شرع لهم الدين سمّاهم المسلمين إذ قال «هو سمّاكم المسلمين من قبل و في هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم و تكونوا شهداء على الناس» الحج: ٧٨) وفقاً بين نظامي التكوين و التشريع

و قد قال الانسان بانسانيته: «إنّي تبت إليك و إنّي من المسلمين» الأحقاف ١٥

قال الله تعالى حكاية عن خليله إبراهيم ﷺ: «ربّنا و اجعلنا مسلمين لك و من ذرّيّتنا أمّة مسلمة لك ـ و وصّى بها إبراهيم بنيه و يعقوب يا بنيّ إنّ الله اصطفى لكم الدين فلا تموتنّ إلّا و أنتم مسلمون أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك و إله آبائك إبراهيم و إسماعيل و إسحاق إلهاً واحداً و نحن له مسلمون تلك أمّة قد خلت» البقرة ١٢٨ ـ ١٣٤)

و قال سبحانه حكاية عن يوسف ﷺ: «توفّني مسلماً و ألحقني بالصالحين» يوسف

و قال: «و قال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكّلوا إن كنتم مسلمين» يونس ٨٤) و قال فرعون حين الغرق: «آمنت أنّه لا إله إلّا الّذي آمنت به بنوا إسرائيل و أنا من المسلمين» يونس ٩٠)

و قال تعالى: «إنّا أنزلنا التوراة فيها هدى و نور يحكم بها النبيّون الّذين أسلموا» المائدة ٤٤)

و قال في إسلام بلقيس: «قالت كأنّه هو و أوتينا العلم من قبلها و كنّا مسلمين ـ قالت ربّ إنّي ظلمت نفسي و أسلمت مع سليمان لله ربّ العالمين» النمل ٤٢ ـ ٤٤)

و قال في إسلام الحواريّين: «و إذ أوحيت إلى الحواريّين أن آمنوا بي و برسولي قالوا آمنّا و اشهد بأنّنا مسلمون» المائدة: ١١١)

و قال «إنّ الدين عند الله الإسلام ـ فإن حاجّوك فقل أسلمت وجهي لله و من اتّبعن و قل للّذين أوتوا الكتاب و الأمّيّين ءأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا ـ قل يا أهل الكتاب

تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألّا نعبد إلّا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا
بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون ... ما كان إبراهيم يهودياً ولا
نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين إنّ أولى الناس بإبراهيم للذين
اتّبعوه وهذا النبيّ والذين آمنوا والله وليّ المؤمنين» آل عمران ١٩ - ٢٠ و ٦٤ - ٦٨.

وقال «قل إنّني هداني ربّي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملّة إبراهيم حنيفاً ... وأنا أوّل
المسلمين» الأنعام ١٦١ - ١٦٣ وقال تعالى حكاية عن حبيب النجّار «وما لي لا أعبد
الذي فطرني وإليه ترجعون» يس ٢٢ فدين الإسلام يعود على أن يكون
الإنسان [illegible] حسب [illegible] الإسلامي في [illegible] من
دون فكاك بينهما آناً ما، وقد أكمله تعالى بولاية [illegible] و
بلّغها رسول الله صلى الله عليه وآله يوم الغدير [illegible] و
[illegible]
[illegible] في الأرض.

وقوله عزّ وجلّ «لا تبديل لخلق الله» لا تغيير لخلق الله جلّ وعلا وهو فطرة
التوحيد أي فطر الناس جميعاً عليها من دون اختلاف بينهم فيها، ولا يمكن الإخلال
بتوحيدهم وعدم ترتيب [illegible] عليها باتّباع الهوى وقبول وسوسة الشيطان وإنّ
الفطرة كالشمس [illegible] لا [illegible] وإن كانت السحاب [illegible] تمنع من
انتشار ضوئها ونورها وحرارتها إلى الأشياء [illegible] وإنّ الناس كلّهم مفطورون على
التوحيد بفطرتهم بحيث لو اجتمعوا جميعاً في مكان واحد في كلّ ظرف من الظروف ما
اختلف اثنان منهم فيه، وهم مختلفون بطبيعتهم بعدد أفرادهم بحيث لو اجتمعوا كلّهم في
مكان واحد ما اتّفق الاثنان منهم على أمر واحد، وقد أرسل الله تعالى رسله المعصومين
صلوات الله عليهم أجمعين ليدعوا الناس إلى ما تقتضيه فطرتهم من التوحيد والطاعة، و
ينهوهم عمّا تقتضيه طبيعتهم من الشرك والعصيان «كان الناس أمّة واحدة فبعث
الله النبيّين مبشّرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحقّ ليحكم بين الناس فيما اختلفوا
فيه» البقرة ٢١٣ [illegible] قال الله تعالى «فإذا ركبوا في

«فلك دعوا الله مخلصين له الدين» العنكبوت ٦٥

وإنّ فطرة الله تعالى هي صبغة الله جلّ وعلا صبغت بها خلقة الإنسان من بدء خلقته «صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون» البقرة ١٣٨

ولذلك نرى أن الغافلين إلى غير الحق جلّ وعلا حتى الكفّار والمشركين والفجّار والملحدين والمعاندين والمستكبرين والمنافقين ... إلى الله عزّ وجلّ «ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولنّ الله» العنكبوت ٦١ وحتى الذي حاجّ إبراهيم «فإنّ الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب» البقرة ٢٥٨ لم ينكر ... «فبهت الذي كفر» ... إلا هو

وذلك أنّ الكلّ مفطور بذاته على العلم البسيط بخالقه ... دونه، وفطروا على محبّته وطلبه ... الإنسان ... «يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه» الانشقاق ٦

وذلك أنّ الله جلّ وعلا هو مقصود الإنسان ... ومعروفه ولا يمكن ... الإنسان ... لكونه ... من الفطرة التوحيد ... عزّ وجلّ من الدين القيّم، فهما شيء واحد لا يمكن ... الإنسان ... هو مقصود ... مركز ... محق ... معرفته

وقوله جلّ وعلا «ذلك الدين القيّم» ... الفطرة التوحيد ... هو الدين القيّم الثابت ... فكأنّهما ... لا انفكاك بينهما ... أحدهما ... الآخر، فهذا الدين ... «وتمّت كلمة ربّك صدقاً وعدلاً لا مبدّل لكلماته» الأنعام ١١٥

قال الله تعالى «إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيّم» يوسف ٤٠

وقوله سبحانه «ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون» أنّ فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لها ... وهي الدين الحق المستقيم الذي لا انحراف به ولا اعوجاج فيه، وهو الثابت الذي لا تشوبه شائبة ... لم

يؤمن به أكثر النّاس حقّاً «وما آمن معه إلّا قليل» هود: ٤٠) حتّى ظهر هذا الدّين القيّم على الأديان كلّها بظهور الحجّة بن الحسن المهديّ الإمام الثّاني عشر عجّل الله تعالى فرجه الشّريف وأرواحنا له الفداء «يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متمّ نوره ولو كره الكافرون هو الّذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدّين كلّه ولو كره المشركون» الصّفّ: ٨ ـ ٩)

٣١ ـ (منيبين إليه واتّقوه وأقيموا الصّلاة ولا تكونوا من المشركين)

فأقم أيّها النّبيّ (ص) أنت ومن تبعك وجهك حنيفاً لله جلّ وعلا راجعين متّجهين إليه، مقيمين وجوهكم للدّين الفطريّ الحقّ الثّابت، محاربين كلّ دين غيره، عالمين أنّه عزّ وجلّ واحد أحد لا شريك له، وهو قادر على البعث والإعادة بعد الموت ليفصل القضاء بين عباده، كما كان قادراً على خلق السّماوات على ارتفاعها وسعتها وما فيها من الكواكب والنّجوم والشّمس والقمر، وقادراً على خلق هذه الأرض على انخفاضها وطولها وعرضها وجبالها وبحارها، وقادراً على خلق النّاس فطرة التّوحيد وهو الدّين القيّم

واتّقوه تعالى فلا تشركوا به سبحانه، واحذروا مخالفته، وارهبوا أن تفرّطوا في طاعته وترتكبوا معصيته، فتخافوا عذابه، وداوموا على إقامة الصّلاة فإنّها عمود الدّين، وهي الّتي تذكّر المؤمن ربّه وتجعله يناجيه في اليوم خمس مرّات، وتنهاه عن الفحشاء والمنكر لأنّها تعوّد النّفس الخضوع، والإخبات له، والرّغبة في الخير والعمل، واحفظوا في امتثال أوامره واجتناب نواهيه، ولا تكونوا من زمرة المشركين بالله سبحانه غيره من أيّ نوع من أنواع الشّرك: الشّرك في أصل الوجود، والشّرك في إيجاد العالم، والشّرك في تدبير نظام الكون، والشّرك في العبادة أن تعبدوا غيره بالاستقلال، أو تريدوا بها سواه رياءً

والآية الكريمة في معنى قوله تعالى «أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السّماء والأرض إنّ في ذلك لآية لكلّ عبد منيب» سبأ: ٩)

وقوله سبحانه: «والّذين اجتنبوا الطّاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى ـ وأنيبوا إلى ربّكم وأسلموا له» (الزمر: ١٧ و ٥٤)

وقوله عزّوجلّ: «وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربّي عليه توكّلت وإليه أنيب فاطر السّماوات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه ليس كمثله شيء» (الشورى: ١٠ ـ ١١)

وقوله جلّ وعلا: «هو الّذي يريكم آياته وينزّل لكم من السّماء رزقاً وما يتذكّر إلّا من ينيب فادعوا الله مخلصين له الدّين ولو كره الكافرون» (غافر: ١٣ ـ ١٤)

وقوله تعالى: «واتّبع سبيل من أناب إليّ ثمّ إليّ مرجعكم فأنبّئكم بما كنتم تعملون» (لقمان: ١٥)

٣٢ـ «من الّذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً كلّ حزب بما لديهم فرحون»

ولا تكونوا أيّها المؤمنون كالمشركين الّذين تركوا دين الفطرة الّتي فطر الله تعالى النّاس عليها ودعاهم إلى هذا الدّين الّذي بني على أساس الفطرة البشريّة وهو الإسلام الّذي أكمله بولاية مولى الموحّدين سيّد الوصيّين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) يوم الغدير، فلا تكونوا من زمرة المشركين الّذين جعلوا أهواءهم آلهة مختلفة لهم حسب خلاف أهوائهم، وصاروا فرقاً مختلفة، كلّ فرقة منهم بما عندهم من الدّين المختلق مسرورون.

إنّ الآية الكريمة في معنى قوله تعالى: «ولا تتّبعوا أهواء قوم قد ضلّوا من قبل وأضلّوا كثيراً وضلّوا عن سواء السّبيل» (المائدة: ٧٧)

وقوله سبحانه: «وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه ولا تتّبعوا السّبل فتفرّق بكم عن سبيله ذلكم وصّاكم به لعلّكم تتّقون ـ إنّ الّذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء إنّما أمرهم إلى الله ثمّ ينبّئهم بما كانوا يفعلون» (الأنعام: ١٥٣ و ١٥٩)

وقوله عزّوجلّ: «أأرباب متفرّقون خير أم الله الواحد القهّار ما تعبدون من دونه إلّا أسماء سمّيتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلّا لله أمر ألّا تعبدوا إلّا

إيّاه ذلك الدين القيّم ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون» [يوسف: ٣٩، ٤٠].

وقوله جلّ وعلا: «واتّخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزًّا * كلّا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدًّا» [مريم: ٨١، ٨٢].

وقوله تعالى: «واتّخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئًا وهم يُخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا ولا يملكون موتًا ولا حياةً ولا نشورًا» [الفرقان: ٣].

وقوله سبحانه: «واتّخذوا من دون الله آلهة لعلّهم يُنصرون * لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جندٌ محضرون» [يس: ٧٤، ٧٥].

وقوله عزّ وجلّ: «وإنّ هذه أمّتكم أمّة واحدة وأنا ربّكم فاتّقون * فتقطّعوا أمرهم بينهم زبرًا كلّ حزب بما لديهم فرحون * فذرهم في غمرتهم حتّى حين» [المؤمنون: ٥٢ - ٥٤].

وقوله جلّ وعلا: «إنّهم اتّخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنّهم مهتدون» [الأعراف: ٣٠].

٣٣ - «وإذا مسّ الناس ضرّ دعوا ربّهم منيبين إليه ثمّ إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربّهم يشركون».

وإذا أصاب الناس في كلّ عصر من العصور شيء من الضرّ والبلاء من فقر، ومرض، وجدب، وقحط، وشدّة، وبلاء، وكارثة، دعوا لكشفها ورفعها بفطرتهم ربّهم الله تعالى، حال كونهم منقطعين بقلوبهم عن غيره، راجعين خاضعين إليه وحده، وأخلصوا لربّهم التوحيد، فعند الشدّة والبلاء تظهر الفطرة الإنسانيّة وهي التوحيد.

ثمّ إذا استجاب دعاءهم، ورفع عنهم البلاء، وكشف عنهم ضرّهم، وأذاقهم من فضله رحمة من صحّة وعافية في الجسم، وسعة في الرزق، وخلاص من البلاء، وخروج من الشدائد، ونعمة في العيش، وراحة في الزوج، وفرج من الشدّة والأحزان، [illegible] إذا فريق من هؤلاء الناس الذين كانوا يدعون الله تعالى وحده، ويعترفون بربوبيّته بفطرتهم عند الشدّة والبلاء، هم يشركون بربّهم فيتّخذون الأنداد والشركاء له سبحانه [illegible] على فطرتهم عند إذاقة النعمة وكشف الضرّ، وإصابة النعمة والرخاء، فيعبدون معه

سبحانه تائبين من ذنوبهم والأصنام من بينهم، لكنهم بعد ذلك يدعون الله تعالى وحده عند البلاء.

قال الله تعالى «وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون» يونس ١٢،

وقال «وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون» النحل ٥٣-٥٤

وقال «وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلا أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا» الإسراء ٦٧-٦٩

وقال «وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور» لقمان ٣٢

وقال «وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله» وقال «فإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون» الزمر ٨ و ٤٩

٣٤ـ «ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون»

يقول الله تعالى هؤلاء، خليق بهم أن يشركوا بالله سبحانه بعد أن كشف الله تعالى عنهم الضر، ليكفروا أي فيجحدوا نعمة الله تعالى التي أنعمها عليهم، فتمتعوا أيها المشركون بالذي أعطيتكم من السعة والرخاء، والخصب والرغد في هذه الحياة الدنيا، واستغلوا نعيمها على أي نحو شئتم، فسوف تعلمون عاقبة شرككم بالله سبحانه وكفرانكم نعم الله جل وعلا عليكم، فلا غرض لهم في شركهم إلا كفران نعمة الله تعالى عليهم.

قال الله تعالى «ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير» البقرة ١٢٦.

وقال «ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ» لقمان ٢٣-٢٤

وقال «ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون» الحجر ٣

وقال «والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم» محمد ﷺ ١٢

٣٥ـ(أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون)

كأنه خطاب للمؤمنين يحكم هؤلاء المشركين فيهم: إنهم أشركوا بالله سبحانه، فما الحجة التي بين أيديهم على شركهم؟ هل أنزل الله تعالى عليهم كتاباً وحججاً بينات تنطق بهذا الشرك الذي هم فيه؟ هل أرسل الله عز وجل رسولاً إليهم يدعوهم إلى هذا الشرك؟ أم أمام هم برهان يستدلون به على شركهم؟ ما برهانهم على هذا؟ وما الحجة لهم على تلك المعبودات التي يعبدون؟ إنهم مطالبون بأن يقيموا على هذه المعبودات حجة من عقل، أو كتاب أو رسول، وإلا فهو الضلال المبين والمصير المشؤوم.

قال الله تعالى «ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به» المؤمنون: ١١٧)

وقال «وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون» الأعراف ٣٣

وقال «ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً وما ليس لهم به علم» الحج ٧١

وقال «أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ـ إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى» النجم ١٩ ـ ٢٣

فهم ساروا بطريقهم على غير التوحيد الذي هو أصل فطرتهم، واتبعوا في استدعوه أهواءهم، وعلى غير شرع من الله تعالى أو حجة قاطعة أو بيان واضح يشهد لهم، فهم خالفوا فطرتهم فغلبت عليهم طبيعتهم، وتركوا عقولهم التي هي حجة عليهم من داخلهم، واتبعوا أهواءهم، وجادلوا شرائعهم التي هي حجة عليهم من خارجهم، و

سيجتنبوا دعوة الشياطين الجن والإنس يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً

قال الله تعالى «شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ـ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون» الأنعام ١١٢، ١٢١

٣٦ـ(وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون)

وإذا أذقنا هؤلاء المشركين وكل من سلك مسلكهم في كل ظرف من الظروف رحمة من صحة وعافية في الجسم، أو سعة في الرزق، أو أمن ودعة وما إليها من متع الحياة الدنيا وزخارفها بطروا بها، وفرحوا بحسب طبعهم، ودون أن يتذكروا بحسب فطرتهم أن هذه الرحمة من عند الله تعالى ويشكروه له جل وعلا، وإن تصبهم مصيبة تسوؤهم من شدة وبلاء، من فاقة وضيق عيش، ومن جدب وقحط ومرض... بسبب ما أسلفوا من سيء الأعمال بينهم وبين الله تعالى، وركبوا من المعاصي، إذا هم ييأسون من الفرج والخير كله، فيعدون المصائب وينسون المواهب ويكفرونها

وهذه حال غير المؤمنين من الكفار والمشركين، والفجار والمستكبرين، والفساق والمنافقين، والظلمة والطاغين، والعصاة والمجرمين لغلبة طبيعتهم على فطرتهم، وأما المؤمنون الصادقون فيشكرون ربهم عند السراء، ويصبرون على الضراء، ويرجون فضله تعالى عند الشدة والبلاء لغلبة فطرتهم على طبيعتهم

قال الله تعالى «ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤوس كفور ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير» هود ٩ ـ ١١

وقال: «وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور» الشورى ٤٨

وقال «ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة

قائمة ولئن رُجعتُ إلى ربّي إنّ لي عنده للحسنى» فصلت ٥٠

وقال «ومن يقنط من رحمة ربّه إلّا الضالّون» الحجر ٥٦

وقال «والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم» العنكبوت ٢٣

٣٧ـ «أوَلم يروا أنّ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنّ في ذلك لآيات لقوم يؤمنون»

إنّهم نسوا ذكر الله [illegible] هؤلاء مسرفون غافلون، هؤلاء مستكبرون الطاغون، وهؤلاء المجرمون [illegible] منهم [illegible] عليهم، [illegible] على [illegible] من [illegible] فهم يائسون قانطون؟ ألم يعلموا أنّ الشدّة والرخاء والسّعة والبلاء، والفقر والغنى بيد الله تعالى دون ما سواه؟ ألم يعلموا أنّ الله عزّ وجلّ وحده يبسط الرزق لمن يشاء فيوسّعه عليه [illegible] و يقدره على من يشاء من عباده فيضيّقه [illegible] ؟؟؟

فيوسّع رزقه لمن يشاء ويضيّقه على من يشاء من عباده [illegible] ويكثر ماله و يعطيه [illegible] على من يشاء منهم فيضيّقه ويقتر [illegible] و [illegible] الأخرى، فالله جلّ وعلا يبسط لحكمة، ويقبض بحسب السّنن والنواميس التي وضعها بين عباده في هذه الحياة الدنيا

قال الله عزّ وجلّ «إنّا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيّهم أحسن عملاً» الكهف ٧

وقال «وهو الذي جعلكم خلائف في الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم» الأنعام ١٦٥

وقال «والله فضّل بعضكم على بعض في الرزق» النحل ٧١

وقال «له مقاليد السماوات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنّه بكلّ شيءٍ عليم» «ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزّل بقدرٍ ما يشاء إنّه بعباده خبير بصير» الشورى ١٢، ٢٧

و قال «و لنبلونّكم بشيء من الخوف و الجوع و نقص من الأموال و الأنفس و الثمرات و بشّر الصّابرين» البقرة: ١٥٥)

و قال «فلا تعجبك أموالهم و لا أولادهم إنّما يريد الله ليعذّبهم بها في الحياة الدّنيا و تزهق أنفسهم و هم كافرون» التوبة: ٥٥)

و قال «أيحسبون أنّما نمدّهم به من مال و بنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون» المؤمنون: ٥٥ـ٥٦)

و قوله سبحانه «إنّ في ذلك لآيات لقوم يؤمنون» إنّ في بسط الرزق و تقديره لحجج الله جلّ و علا على عباده ليبصروا به و يتذكّروا و يعلموا أنّ الرّغبة إليه و الرّهبة منه دون الآلهة المزعومة، و الأصنام المنحوتة، و لعبراً و دلالات على تفرّده عزّ و جلّ بالالوهيّة، و توحّده على الرّبوبيّة لقوم يتدبّرون آياته و يتفكّرون فيها، و ينتفعون بها، فيؤمنون بالحقّ، و يعلمون أنّ الّذي يبسط الرّزق و يقدر هو الله تعالى دون ما سواه.

و يعلمون أنّ البسط قد يكون استدراجاً كما أنّه قد يكون اختباراً، و أنّ القبض قد يكون رفعة و إعظاماً كما أنّه قد يكون ابتلاءً، فليس البسط لعلم الكاسب بوجوه المكاسب، و لا القبض لجهله عنها، فإنّ كثيراً ما يكون العاقل المدبّر القادر ضعيف الرّزق، و يكون الجاهل العاجز واسعة و بسطة في المال. و يعلمون أنّ الرّازق هو الله تعالى وحده و بيده رزق كلّ دابّة و منها هذا الإنسان و أكثر النّاس لا يعلمون ذلك

إنّ الآية الكريمة في معنى قوله سبحانه «أولم يعلموا أنّ الله يبسط الرّزق لمن يشآء و يقدر إنّ في ذلك لآيات لقوم يؤمنون» الزّمر: ٥٢)

و قوله جلّ و علا «قل إنّ ربّي يبسط الرّزق لمن يشاء و يقدر و لكنّ أكثر النّاس لا يعلمون» سبأ: ٣٦)

٣٨ـ (فآت ذا القربى حقّه و المسكين و ابن السّبيل ذلك خير للّذين يريدون وجه الله و اولئك هم المفلحون)

فآت أيّها النّبيّ الكريم ﴿ﷺ﴾ ذا قرابتك الخاصّة منك، حقّه الخاصّ عليك، و ذو

القربى هنا كذي القربى في آيتي الخمس و المودّة «و اعلموا أنّما غنمتم من شيء فأنّ لله خمسه و للرّسول و لذي القربى» (الأنفال: ٤١) و «قل لا أسئلكم عليه أجراً إلّا المودّة في القربى» (الشورى: ٢٣)، و المؤمنون مأمورون بالايتاء تبعاً لرسول الله (ﷺ)

و أعط أيّها الرّسول (ﷺ) و من بعدك حقّ المسكين و هو أسوأ حالاً من الفقير، و أعط ابن السّبيل ما يحتاج إليه في سفره، فإنّهما أحقّ النّاس بالشّفقة و العطف و الإعانة، و ذلك الايتاء و الإعطاء و الإعانة خير في نفسه للمؤمنين الصّادقين الّذين يريدون بذلك، رضا الله تعالى فحسب «و ما لأحد عنده من نعمة تجزى إلّا ابتغاء وجه ربّه الأعلى و لسوف يرضى» (اللّيل: ١٩ - ٢١)

و قال «إنّما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء و لا شكوراً» (الإنسان: ٩)

و إنّ المريد بوجه الله سبحانه هو الّذي يؤثر حقّ الله تعالى على حظّ نفسه، فإيثار المريد وجه الله عزّوجلّ أهمّ من مراعاته حال نفسه، فهمّه في الإحسان إلى ذوي القربى و المساكين و أبناء السّبيل تتقدّم على نظره لنفسه و عياله، و ما يهمّه من حاجته

و قوله تعالى «و أولئك هم المفلحون» أولئك المتّصفون بالإيتاء، المريدون به وجه الله سبحانه هم الفائزون برضا الله جلّ و علا، و رضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم قال الله تعالى «لكن الرّسول و الّذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم و أنفسهم أولئك لهم الخيرات و أولئك هم المفلحون أعدّ الله لهم جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم» (التّوبة: ٨٨ - ٨٩)

و قال «و من يطع الله و رسوله و يخش الله و يتّقه فأولئك هم الفائزون» (النّور: ٥٢)

و قال «و لا يجدون في صدورهم حاجة ممّا أوتوا و يؤثرون على أنفسهم و لو كان بهم خصاصة و من يوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون» (الحشر: ٩)

٣٩- (و ما آتيتم من رباً ليربوا في أموال النّاس فلا يربوا عند الله و ما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون)

و ما أعطيتم أيّها المؤمنون مؤمناً أو مسلماً من هبة أو هديّة أو عطيّة أو قرض و نحوها

طمعاً ـ بغير شرط زيادة وإلّا كان رباً حراماً قطعاً ـ لتعطوا أكثر أو أفضل منها، أو تتوقّعوا من المعطى له خدمة أو سلاماً أو خيراً ما زائداً عن اللياقة أو إعانةً و نحوها... فلا ثواب لكم عند الله تعالى فيها إذ لم تريدوا بها طاعة الله و ابتغاء وجهه جلّ وعلا

و ما أعطيتم الفقراء و المساكين و أبناء السبيل و أمثالهم من المحتاجين ـ من صدقة تريدون بها وجه الله تعالى خالصاً، فأولئك هم الّذين أضعفت صدقاتهم في الدّار الآخرة، وكثرت أموالهم في الحياة الدّنيا بالحفظ و البركة

إنّ الآية الكريمة في معنى قوله تعالى: «يا أيّها الّذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ و الأذى كالّذي ينفق ماله رئاء النّاس و لا يؤمن بالله و اليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيءٍ ممّا كسبوا و الله لا يهدي القوم الكافرين و مثل الّذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله و تثبيتاً من أنفسهم كمثل جنّة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطلّ و الله بما تعملون بصير ـ و ما تنفقوا من خير فلأنفسكم و ما تنفقون إلّا ابتغاء وجه الله ـ الّذين ينفقون أموالهم باللّيل و النّهار سرّاً و علانية فلهم أجرهم عند ربّهم و لا خوف عليهم و لا هم يحزنون» البقرة ٢٦٤ ـ ٢٦٥ و ٢٧٢ و ٢٧٤)

و قوله سبحانه: «الّذي يؤتي ماله يتزكّى و ما لأحد عنده من نعمة تجزى إلّا ابتغاء وجه ربّه الأعلى و لسوف يرضى» الليل ١٨ ـ ٢١)

٤٠ ـ (الله الّذي خلقكم ثمّ رزقكم ثمّ يميتكم ثمّ يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيءٍ سبحانه و تعالى عمّا يشركون)

الله جلّ وعلا هو الّذي خلقكم أيّها النّاس و أنشأ خلقكم و لم تكونوا شيئاً مذكوراً «هل أتى على الإنسان حين من الدّهر لم يكن شيئاً مذكوراً» الإنسان ١) أي قد أتى

ثمّ أطعمكم ما عشتم في الحياة الدّنيا من أنواع نعمه «و لقد كرّمنا بني آدم و حملناهم في البرّ و البحر و رزقناهم من الطّيّبات» الإسراء ٧٠) «فكلوا ممّا رزقكم الله حلالاً طيّباً و اشكروا نعمة الله إن كنتم إيّاه تعبدون» النّحل ١١٤) «و آتاكم من كلّ ما سألتموه و إن

تعدّوا نعمت الله لاتحصوها» (إبراهيم: ٣٤)

و قوله تعالى: «ثمّ يميتكم» هو الّذي يميتكم أيّها النّاس عند انقضاء آجالكم من دون اختيار لكم في موتكم و لا علمكم به «و ما كان لنفس أن تموت إلاّ بإذن الله كتاباً مؤجّلاً» «فادرؤا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين» (آل عمران: ١٤٥ و ١٦٨) «أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيّدة» (النساء: ٧٨) «و ما تدري نفس بأيّ أرض تموت إنّ الله عليم خبير» (لقمان: ٣٤)

و قوله عزّوجلّ: «ثمّ يحييكم» ثمّ هو الله الّذي يحييكم بعد موتكم يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده، فينبّئكم بما عملتم في الحياة الدّنيا من الثّواب لصلاح أعمالكم، و من العقاب لفساد أعمالكم

قال الله تعالى: «هذا يوم الفصل جمعناكم و الأوّلين» (المرسلات: ٣٨)

و قال: «يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التّغابن و من يؤمن بالله و يعمل صالحاً يكفّر عنه سيّئاته و يدخله جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم و الّذين كفروا و كذّبوا بآياتنا أولئك أصحاب النّار خالدين فيها و بئس المصير» (التغابن: ٩ - ١٠).

و قوله جلّ وعلا: «هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء» فيا أيّها النّاس عامّة، و المؤمنون خاصّة أمر المبدإ و المعاد، فسئلوا المشركين في كلّ ظرف من الظّروف هل من بين شركائكم الّذين تدعونهم آلهة على صورها و أشكالها، و هيئاتها و هياكلها أحد أن يفعل من ذلك الأفعال الّتي يفعلها الله تعالى حتّى يصحّ ما دعوتم إليه؟، كلاّ ثمّ كلاّ!

و الجملة في معنى قوله عزّوجلّ: «هل من شركائكم من يبدؤ الخلق ثمّ يعيده قل الله يبدؤا الخلق ثمّ يعيده فأنّي تؤفكون» (يونس: ٣٤)

و قوله جلّ وعلا: «و الّذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً و هم يخلقون» (النحل: ٢٠).

و قوله سبحانه: «أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق

كلّ شيءٍ و هو الواحد القهّار» (الرعد ١٦)

و قوله تعالى «هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الّذين من دونه» (لقمان ١١)

و قوله عزّ و جلّ «قل ادعوا الّذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرّة في السّموات و لا في الأرض و ما لهم فيهما من شرك و ما له منهم من ظهير» (سبأ ٢٢)

و قوله تعالى: «سبحانه و تعالى عمّا يشركون» و إذ ليس من شيء تلك الآلهة المزعومة أحد أن يفعل شيئاً ممّا يفعله الله تعالى، فنزّهوه أيّها النّاس عامّة و المؤمنون خاصّة و قدّسوه عمّا يشرك به تعالى هؤلاء المشركون من الأنداد و الأشباه و الأضداد و ما إليها

قال الله تعالى «قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً سبحانه و تعالى عمّا يقولون علوّاً كبيراً» (الإسراء ٤٢–٤٣)

و قال: «ما اتّخذ الله من ولد و ما كان معه من إله إذاً لذهب كلّ إله بما خلق و لعلا بعضهم على بعض سبحانه و تعالى عمّا يصفون عالم الغيب و الشّهادة فتعالى عمّا يشركون» (المؤمنون ٩١–٩٢)

و قال «فسبحان الّذي بيده ملكوت كلّ شيءٍ و إليه ترجعون» (يس ٨٣).

٤١ـ (ظهر الفساد في البرّ و البحر بما كسبت أيدي النّاس ليذيقهم بعض الّذي عملوا لعلّهم يرجعون)

شاع و فشا و انتشر الفساد على بسيط الأرض من برّها و بحرها

و من البديهة أنّ الفساد ضدّ الصّلاح، فالباطل ضدّ الحقّ، و الضّلالة ضدّ الهداية، و الظّلم ضدّ العدالة، و الشّرّ ضدّ الخير، و الكفر ضدّ الإيمان، و الشّرك ضدّ التّوحيد

و أنّ الشّرّ و ما إليه مبدأ الأمر غير المنتظم كما أنّ الخير و ما إليه مبدأ الأمر المنتظم في الحياة الفرديّة و الأسرويّة و الاجتماعيّة فإذا ظهر الفساد و الشّرّ من جانب العقيدة من الشّرك و الكفر و الضّلالة و ما إليها أو من ناحية العمل من الظّلم و المعصية، و البغي و الجناية و ما إليها ظهر الأمر غير المنتظم في البرّ و البحر

و ذلك أنّ منشأ الخير و ما إليه كلّه هو فطرة التّوحيد الّتي فطر الله جلّ و علا النّاس جميعاً عليها لا اختلاف فيها «فطرت الله الّتي فطر النّاس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدّين القيّم» الرّوم: ٣٠

بحيث لو اجتمع النّاس كلّ زمان و مكان على اختلاف ألوانهم و ألسنتهم و أنواعهم و أصنافهم و طبقاتهم في مكان واحد و زمان واحد، ليس بين اثنين منهم اختلاف في بُعد فطرتهم لانصباغهم فيها جميعاً بصبغة التّوحيد و هي واحدة «صبغة الله و من أحسن من الله صبغة و نحن له عابدون» البقرة: ١٣٩)

فكلّهم في كلّ ظرف من الظّروف في هذا البعد على كلمة التّوحيد و توحيد الكلمة «تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم ألاّ نعبد إلاّ الله و لا نشرك به شيئاً و لا يتّخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله» آل عمران: ٦٤)

فإذا اتّفقوا على هذه الكلمة بشراً معاً كما أنّهم متّفقون عليها تكويناً ينتظم أمر معاشهم و معادهم كلّه، و يتبعهم خير الدّنيا و الآخرة كلّه

قال الله تعالى: «و لو أنّ أهل القرى آمنوا و اتّقوا لفتحنا عليهم بركات من السّماء و الأرض» الأعراف: ٩٦)

و قال: «و لو أنّ أهل الكتاب آمنوا و اتّقوا لكفّرنا عنهم سيّئاتهم و لأدخلناهم جنّات النّعيم و لو أنّهم أقاموا التّوراة و الإنجيل و ما أُنزل إليهم من ربّهم لأكلوا من فوقهم و من تحت أرجلهم» المائدة: ٦٥-٦٦)

و أنّ منشأ الشّرّ و ما إليه كلّه هو طبيعة الإنسان، و هي على بعدها النّاس أجمعين من الأوّلين و الآخرين لا وحدة بينهم فيها، بحيث لو اجتمعوا كلّهم في مكان واحد و زمان لما كان بين الاثنين منهم وفاق فيها، فإذا غلبت طبيعة واحد منهم على فطرته ظهر الأمر غير المنتظم في حياته الفرديّة، و إذا غلبت طبيعة جماعة منهم على فطرتهم ظهر الأمر غير المنتظم في حياتهم الاجتماعيّة

قال الله عزّ و جلّ «و اتّقوا فتنة لا تصيبنّ الّذين ظلموا منكم خاصّة و قاتلوهم حتّى لا تكون فتنة و يكون الدّين كلّه لله - و الّذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلاّ تفعلوه تكن

فتنة في الأرض وفساد كبير» الأنفال: ٢٥ و ٣٩ و ٧٣)

وقال «فليحذر الّذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم» النّور ٦٣)

و إذ عرفت طبيعة كثرة النّاس على فطرتهم ظهر الأمر غير المنتظم على بسيط الأرض في برّها و بحرها من الجدب و قطع المطر، و القحط، و الحروب و الغارات و الحوادث غير المترقّبة و البلايا و الشّدائد و الزلازل و السّيول المخرّبة و الأمراض المسرية و غير القابلة للعلاج و الموتان الفاحشة، و ارتفاع الأمن، و كثرة الخوف و الحرق و الغرق، و محق البركات من كلّ شيء و قلّة المنافع و كثرة المضارّ، و سلطة حكّام الجور، و ولاة البغي على النّاس و هضم حقوقهم، و ما إليها من كلّ ما يفسد النّظام الصّالح الجاري على وجه الأرض سواء كان مستنداً إلى اختيار بعض النّاس أو غير مستند إليه، و إن كان سبب الفساد مستنداً إلى اختيار بعضهم أو كلّهم كما أشار إليه

في قوله تعالى «بما كسبت أيدي النّاس» بسبب أعمالهم الّتي عملوها بسوء اختيارهم من الشّرك و الطّغيان، و الكفر و العصيان، و البغي و العدوان حيث إنّ بين عقائد النّاس و أعمالهم، و الحوادث الكونيّة رابطة مستقيمة يتأثّر إحداهما من صلاح الأخرى و فسادها. فمن زكّى نفسه، و أصلح قلبه و كان اعتقاده حقّاً و عمله صالحاً، فقد أفلح و سعد و نال بخير الدّنيا و الآخرة و فاز فوزاً عظيماً و من دسّى نفسه و أفسد قلبه و كان اعتقاده باطلاً و عمله فاسداً فقد خاب و شقي و عذّب فيهما

قال الله تعالى «و إذا تولّى سعى في الأرض ليفسد فيها و يهلك الحرث و النّسل والله لايحبّ الفساد» البقرة: ٢٠٥)

وقال «و نفس و ما سوّاها فألهمها فجورها و تقواها قد أفلح من زكّاها و قد خاب من دسّاها» الشّمس: ٧ – ١٠)

و قال «ولكن كذّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون» الأعراف ٩٦،

و قال «و من أعرض عن ذكري فإنّ له معيشة ضنكا و نحشره يوم القيامة أعمى - و كذلك نجزي من أسرف و لم يؤمن بآيات ربّه و لعذاب الآخرة أشدّ و أبقى» طه ١٢٤ - ١٢٧)

و قوله عزّوجلّ: «ليذيقهم بعض الّذي عملوا» ليذيق الله تعالى هؤلاء الكفّار و المشركين، و الفجّار و المستكبرين، و الفسّاق و المجرمين، و الطغاة و الظّالمين، ليذيقهم في الحياة الدّنيا شيئاً من وبال ما اقترفوه من الشّرك و الطغيان، و الكفر و العصيان، و البغي و العدوان، فيعذّبهم بأنواع العذاب من الجوع و القحط و البلاء و المرض و الخزي في الدنيا قبل العذاب الأكبر في الدّار الآخرة لتكون لهم فيها عبرة و تذكير «لعلّهم يرجعون» بالتّوبة عن الشّرك إلى التّوحيد عن الكفر إلى الايمان عن الضّلالة إلى الهدى، عن الباطل إلى الحق، عن الغيّ و موقف العناد و اللّجاج و الفساد إلى الطاعة و الصّلاح و الفلاح و عن اتّباع الهوى إلى اتّباع العقل

قال الله تعالى: «و من النّاس من يجادل في الله بغير علم و لا هدى و لا كتاب منير ثاني عطفه ليضلّ عن سبيل الله له في الدّنيا خزي و نذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ذلك بما قدّمت يداك و أنّ الله ليس بظلّام للعبيد» الحج: ٨ ـ ١٠)

و قال: «و لنذيقنّهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلّهم يرجعون» السجدة: ٢١)

و قال: «فكذّب الّذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدّنيا و لعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون» الزّمر: ٢٥ ـ ٢٦

٤٢ـ (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبل كان أكثرهم مشركين)

قل أيّها الرّسول ﷺ هؤلاء المشركين، و لكلّ من يسلك مسالكهم في الشّرك و الضّلالة و الكفر و الغواية و البغي و العصبية و الكبر و الجهالة: سيروا في بلاد الأرض و سافروا في أكنافها، فانظروا نظر اعتبار كيف كانت حال من تقدّمكم من الأشكال و الأمثال؟ كقوم نوح و إبراهيم، و قوم لوط و عاد و ثمود، و قوم فرعون ذي الأوتاد فانظروا نظر استبصار كيف أهلكناهم بأنواع العذاب، فتروا مساكنهم و منازلهم و عروشهم خاوية؟ و كيف كان آخر أمرهم، فأهلكوا بشركهم بالله سبحانه، و كفرهم

برسله، و جحدهم بآياته، و بشؤم معصيتهم و طغيانهم ؟ ثمّ قسوا عنيها حككم في جميع الأحوال

فأهلكناهم جميعاً و جعلناهم عبرة و تذكرة لمن بعدهم إذ كان أكثرهم مشركين بالله سبحانه، و بعضهم كافرين برسله و بعضهم جاحدين بآياته، و بعضهم عاصين لله تعالى و كان الآخرون مشتركين في انتشار الشّرك و الكفر و العصيان بين النّاس

قال الله تعالى «أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم دمّر الله عليهم و للكافرين أمثالها» محمد (ﷺ) ١٠)

و قال «قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين و لا تحزن عليهم و لا تكن في ضيق ممّا يمكرون و يقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الّذي تستعجلون» النمل ٦٩ ـ ٧٢

٤٣ـ (فأقم وجهك للدّين القيّم من قبل أن يأتي يوم لا مردّ له من الله يومئذ يصّدّعون)

فبعد ما تبيّن لك فساد الشّرك، و بأنه الّذي يستحق المتلبّس به و فساد سائر الملل و النّحل الفاسدة، و شؤم معاصي النّاس فأقم وجهك أيّها الرّسول (ﷺ) بالأصالة، و من بعدك من المؤمنين تبعاً و قدوةً في كلّ ظرف من الظّروف بالتّبع لهذا الدّين الّذي يكون قوام إنسانية الإنسان و هويّته به، و هو دين الفطرة الّتي فطر الله تعالى النّاس عليها «فطرت الله الّتي فطر النّاس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدّين القيّم» الرّوم ٣٠) و هو الدّين الإسلامي الّذي أكمله الله جلّ و علا يوم الغدير بولاية مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (ﷺ)

قال الله تعالى «إنّ الدّين عند الله الإسلام ــ و من يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل» آل عمران ١٩ و ٨٥)

و قال «اليوم أكملت لكم دينكم و أتممت عليكم نعمتي و رضيت لكم الإسلام ديناً» المائدة ٣)

فاستقيموا أيّها المؤمنون على هذا الطّريق المستقيم «و أنّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه و لا تتّبعوا السّبل فتفرّق بكم عن سبيله ذلكم وصّاكم به لعلّكم تتّقون» الأنعام: ١٥٣)

فاستقيموا عليه من قبل يوم القيامة الّذي لا مردّ له بتحتّم مجيئه، يومئذ يتفرّق النّاس كلّهم فريقين لا ثالث: فريق هذا الطّريق المستقيم فهم في الجنّة ينعّمون بنعيمها، و فريق تلك السّبل، فهم في السّعير يذوقون أنواع عذابها

قال الله تعالى «و يوم تقوم السّاعة يومئذ يتفرّقون فأمّا الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات فهم في روضة يحبرون و أمّا الّذين كفروا و كذّبوا بآياتنا و لقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون» الرّوم: ١٤ - ١٦) و من هنا نعلم معنى كون سيّد الوصيّين يعسوب الدّين الإمام عليّ (عليه السلام) قسيم الجنّة و النّار

٤٤- (من كفر فعليه كفره و من عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون)

من كفر منكم أيّها النّاس بعد بعث النّبيّ، و إقامة الحجّة و البرهان على المبدأ و المعاد، بالله تعالى و برسوله (صلى الله عليه و آله) و كتابه، فعلى نفسه يعود جزاء كفره، و وبال عاقبته فيلقى الجزاء الّذي يستحقّه من الخزي و الهوان في الدّنيا، و من العذاب و النّار في الآخرة

قال الله تعالى «فأمّا الّذين كفروا فأعذّبهم عذاباً شديداً في الدّنيا و الآخرة و ما لهم من ناصرين» آل عمران: ٥٦)

و قوله تعالى «و من عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون» و من عمل منكم أيّها النّاس عملاً صالحاً بعد الإيمان، و أقام وجهه للدّين حنيفاً، فلأنفسهم يمهدون من العزّة و الفلاح، و الأمن و النّجاح، و العيش الهنيء، و الرّحمة و الفرح و الكرامة و الرّضوان عند الله تعالى في الحياة الدّنيا، و في القبر و عند موقف الحساب و في الجنّة

قال الله عزّ و جلّ «فمن يعمل من الصّالحات و هو مؤمن فلا كفران لسعيه و إنّا له كاتبون - إنّ الّذين سبقت لهم منّا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها و هم في ما اشتهت أنفسهم خالدون لا يحزنهم الفزع الأكبر و تتلقّاهم الملائكة هذا يومكم الّذي

كنتم توعدون» (الأنبياء: ٩٤ و ١٠١ - ١٠٣)

وقال: «من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون» (المائدة: ٦٩)

وقال: «ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين» (آل عمران: ١٣٩)

وقال: «أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزّل به عليكم سلطاناً فأيّ الفريقين أحقّ بالأمن إن كنتم تعلمون الّذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون» (الأنعام: ٨١ - ٨٢)

وقال: «من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياة طيّبة ولنجزينّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون» (النّحل: ٩٧)

وقال: «من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون» (النمل: ٨٩)

وقال: «إنّ الّذين قالوا ربّنا الله ثمّ استقاموا تتنزّل عليهم الملائكة ألاّ تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنّة الّتي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدّنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدّعون» (فصّلت: ٣٠ - ٣١)

٤٥- «ليجزي الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات من فضله إنّه لا يحبّ الكافرين»

كلّ ذلك ليجزي الله تعالى الّذين آمنوا بالله جلّ وعلا ورسوله (ﷺ) وباليوم الآخر، وعملوا الصّالحات فائتمروا بأوامر الله سبحانه وانتهوا عن نواهيه، ليجزيهم على قدر استحقاقهم حسب مراتب إيمانهم ودرجات صالح أعمالهم ويزيدهم من فضله على ما يشاء، إنّ الله سبحانه لا يحبّ الكافرين الّذين طغوا على الله عزّ وجلّ وظلموا أنفسهم وطغوا على النّاس فيعذّبهم الله تعالى عذاباً لكفرهم وطغيانهم وظلمهم وعصيانهم جزاءً وفاقاً.

إنّ الآية الكريمة في معنى قوله تعالى: «ويستجيب الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد» (الشورى: ٢٦).

و قال: «إنّ الّذين يتلون كتاب الله و أقاموا الصّلاة و أنفقوا ممّا رزقناهم سرّاً و علانية يرجون تجارة لن تبور ليوفّيهم أجورهم و يزيدهم من فضله إنّه غفور شكور ـ و الّذين كفروا لهم نار جهنّم لا يقضى عليهم فيموتوا و لا يخفّف عنهم من عذابها كذلك نجزي كلّ كفور» فاطر: ٢٩ ـ ٣٦)

٤٦ـ (و من آياته أن يرسل الرّياح مبشّرات و ليذيقكم من رحمته و لتجري الفلك بأمره و لتبتغوا من فضله و لعلّكم تشكرون)

و من الأدلّة الواضحة الأفقيّة الآفاقيّة الدالّة على وحدانيّته تعالى و جلاله و عظمته، و علمه و حكمته و تدبيره في نظام الكون، و على قدرته على بعث الموتى بعد موتهم أن يرسل رياح الرّحمة إليكم أيّها المستمعون في كلّ طرف من الأطراف رياح رحمته من جهات مختلفة تارة شمالاً، و أخرى جنوباً و ثالثة صباً، يرسلها إليكم لتبشّركم بنعمة عزّوجلّ عليكم و ذلك أنّ الرّياح تحرّك السّحاب و تسير في السّماء ثمّ تقسمه إلى قطع و تدفع بكلّ قطعة إلى بلد دون بلد و تصبّ أيّة سياقة ماء على البلد المقصود، فيهتزّ و يربو و يفرح أهله بعد اليأس و القنوط فكيف بالبشارات كما فيها من الدّلالة عليها

قال الله تعالى: «و هو الّذي يرسل الرّياح بشراً بين يدي رحمته حتّى إذا أقلّت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميّت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كلّ الثّمرات كذلك نخرج الموتى لعلّكم تذكّرون و البلد الطّيّب يخرج نباته بإذن ربّه و الّذي خبث لا يخرج إلّا نكداً كذلك نصرّف الآيات لقوم يشكرون» الأعراف: ٥٧ ـ ٥٨)

و قال: «و أرسلنا الرّياح لواقح فأنزلنا من السّماء ماءً فأسقيناكموه و ما أنتم له بخازنين و إنّا لنحن نحيي و نميت و نحن الوارثون» الحجر: ٢٢ ـ ٢٣)

و قال: «و من يرسل الرّياح بشراً بين يدي رحمته أإله مع الله تعالى الله عمّا يشركون أمّن يبدؤ الخلق ثمّ يعيده و من يرزقكم من السّماء و الأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين» النّمل: ٦٣ ـ ٦٤)

و قوله تعالى: «و ليذيقكم من رحمته» و ليذيقكم الله عزّوجلّ بسبب هذه الرّياح من

رحمته وهي المطر، والخصب التابع لنزول المطر المسبّب عن الرياح فيها حياة الأرض بعد موتها، وبها تلقيح الأشجار وتذرية الحبوب وتنمية النبات، ودفع العفونات وإصلاح الأبدان وتصفية الأجواء، وما إليها من النعم والألطاف الإلهية المترتبة على جريان رياح رحمته على الخلائق

وقوله سبحانه: «ولتجري الفلك بأمره» ولتجري السفن في البحار بهذه الرياح بإرادته جلّ وعلا وجعله الريح على اعتدال وقوام، فالفلك مسخّر لكم بأمره جلّ وعلا

قال الله تعالى: «وسخّر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره» (إبراهيم ٣٢)

وقوله عزّوجلّ: «ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون» ولتطلبوا رزق ربكم من فضله بالتجارة في البحار بإرسال الأمتعة من قطر إلى قطر، والناس من بلد إلى بلد البحر والغوص لإخراج الدرر، وباكتشاف جزر، مع ما في البحار من عجائب آياته الدالّة على وحدانيته الله تعالى وعلمه وحكمته، وجلاله وعظمته وتدبيره وقدرته ففي البحار منافع كثيرة اقتصادية واعتقادية، معنوية ومادية، وخلقية واجتماعية، وحربية وسياسية

ولتشكروا ربكم على تسخير البحار والفلك والرياح لكم وتصرّفكم فيها كيف شئتم، وذهابكم فيها متى أردتم، وعلى ما أفاض عليكم من هذه النعم والمنافع الكثيرة المتنوّعة فتؤمنوا به وتوحّدوه، فتذكّروه بقلوبكم وألسنتكم، وتعبدون وحده، وتأتمروا بما أمركم به، وتنتهوا عمّا نهاكم عنه ولا تشركوا به شيئاً ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها

قال الله تعالى: «والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس» (البقرة ١٦٤)

وقال: «وهو الذي سخّر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلّكم تشكرون» (النحل ١٤)

وقال: «ألم تر أنّ الفلك تجري في البحر بنعمت الله ليريكم من آياته إنّ في ذلك لآيات لكلّ صبّار شكور» (لقمان ٣١)

٤٧ـ﴿و لقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاؤوهم بالبيّنات فانتقمنا من الّذين أجرموا و كان حقّاً علينا نصر المؤمنين﴾

يقسم عزّ و جلاله: إنّا أرسلنا من قبلك يا محمد ﷺ رسلاً في غابر من الأزمنة الطّويلة إلى أقوامهم الكفّار و المشركين، و الفجّار و المستكبرين، و الفسّاق و المجرمين و الطّغاة و الطّاغين فجاءهم رسلنا بالأدلّة الواضحة و البراهين القاطعة و المعجزات الباهرة حسب مقتضيات حوائجهم على صدق رسالتهم و بطلان شرك أقوامهم و كفرهم و ضلالهم و طغيانهم لتتمّ الحجّة عليهم، فآمن برسلنا قليل منهم و كذّبهم الآخرون و أصرّوا على شركهم و استمرّوا على ضلالتهم و تمادوا في عصيانهم

قال الله تعالى «تلك القرى نقصّ عليك من أنبائها و لقد جاءتهم رسلهم بالبيّنات فما كانوا ليؤمنوا بما كذّبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين و ما وجدنا لأكثرهم من عهد و إن وجدنا أكثرهم لفاسقين» الأعراف: ١٠١ ـ ١٠٢)

و قال «و رسلاً قد قصصناهم عليك من قبل و رسلاً لم نقصصهم عليك و كلّم الله موسى تكليماً رسلاً مبشّرين و منذرين لئلاّ يكون للنّاس على الله حجّة بعد الرّسل و كان الله عزيزاً حكيماً» النّساء: ١٦٤ ـ ١٦٥)

و قال «ليهلك من هلك عن بيّنة و يحيى من حيّ عن بيّنة» الأنفال: ٤٢)

و قال «يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم على فترة من الرّسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير و لا نذير فقد جاءكم بشير و نذير ـ و لقد جاءتهم رسلنا بالبيّنات ثمّ إنّ كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون» المائدة: ١٩ و ٣٢).

و قال «جاءتهم رسلهم بالبيّنات فردّوا أيديهم في أفواههم و قالوا إنّا كفرنا بما أرسلتم به و إنّا لفي شكّ ممّا تدعوننا إليه مريب قالت رسلهم أفي الله شكّ فاطر السّماوات و الأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم و يؤخّركم إلى أجل مسمّى قالوا إن أنتم إلاّ بشر مثلنا تريدون أن تصدّونا عمّا كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين ـ فأوحى إليهم ربّهم لنهلكنّ الظّالمين» إبراهيم: ٩ ـ ١٣)

و قال «و لقد أهلكنا القرون من قبلكم لمّا ظلموا و جاءتهم رسلهم بالبيّنات و ما كانوا

ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين ثمّ جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون» يونس: ١٣ ـ ١٤).

و قوله تعالى: «فانتقمنا من الّذين أجرموا» فانتقمنا من الّذين كفروا بالله سبحانه، و كذّبوا رسله وجحدوا بآيات و طغوا و أفسدوا في الأرض، فانتقمنا منهم بأنواع البلاء، و بالخزي و الهوان، و بالتدمير و الهلاك، و نجّينا رسلنا و الّذين آمنوا معهم منها، و نصرناهم على أعدائهم المكذّبين الّذين هم أعداؤنا.

قال الله عزّ و جلّ: «فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقيّة ينهون عن الفساد في الأرض إلّا قليلاً ممّن أنجينا منهم و اتّبع الّذين ظلموا ما أترفوا فيه و كانوا مجرمين و ما كان ربّك ليهلك القرى بظلم و أهلها مصلحون» هود: ١١٦ ـ ١١٧).

و قال: «و من أظلم ممّن ذكّر بآيات ربّه ثمّ أعرض عنها إنّا من المجرمين منتقمون» السجدة: ٢٢)

و قال: «فهل ينتظرون إلّا مثل أيّام الّذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا إنّي معكم من المنتظرين ثمّ ننجّي رسلنا و الّذين آمنوا كذلك حقّاً علينا ننج المؤمنين» يونس: ١٠٢ ـ ١٠٣)

و قوله سبحانه: «و كان حقّاً علينا نصر المؤمنين» و كان حقّاً علينا أن ننصر المؤمنين الّذين هم ينصرون ديننا في كلّ ظرف من الظّروف كما نصرنا رسلنا و الّذين آمنوا معهم من قبلك سنّة الله الّتي شرعها و لن تجد لسنّة الله تبديلاً. فلا تحزن أنت أيّها الرّسول ﴿ﷺ﴾ و الّذين معك قلباً و قالباً من تكذيب الكفّار و المشركين، من وسوسة الفجّار و المستكبرين، من دندنة الفسّاق و المنافقين، من ضلالة الجهّال و المجرمين، و من سفاهة السفلة و المشكّكين.

قال الله تعالى: «قد نعلم إنّه ليحزنك الّذي يقولون فإنّهم لا يكذّبونك و لكنّ الظّالمين بآيات الله يجحدون و لقد كذّبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذّبوا و أوذوا حتّى أتاهم نصرنا و لا مبدّل لكلمات الله و لقد جاءك من نبإى المرسلين و إن كان كبر عليك إعراضهم» الأنعام: ٣٣ ـ ٣٥).

وقال: «فلا تحسبنّ الله مخلف وعده رسله إنّ الله عزيز ذو انتقام» إبراهيم: ٤٧،

وقال: «إنّ الّذين يحادّون الله ورسوله أولئك في الأذلّين كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلي إنّ الله قويّ عزيز» المجادلة: ٢٠-٢١

وقال: «ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنّهم لهم المنصورون وإنّ جندنا لهم الغالبون فتولّ عنهم حتّى حين وأبصرهم فسوف يبصرون» الصافات: ١٧١-١٧٥

وقال: «إنّا لننصر رسلنا والّذين آمنوا في الحياة الدّنيا ويوم يقوم الأشهاد» غافر: ٥١

وقال: «فإمّا نذهبنّ بك فإنّا منهم منتقمون أو نرينّك الّذي وعدناهم فإنّا عليهم مقتدرون» الزخرف: ٤١-٤٢.

٤٨- (الله الّذي يرسل الرّياح فتثير سحاباً فيبسطه في السّماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون)

الله تعالى هو الّذي يرسل الرّياح، فتثير سحاباً ثقالاً وتحرّكه وتدفعه وتهيّجه، وتسوقه من مكان إلى مكان، فيبسط الله عزّ وجلّ ذلك السّحاب في جهة العلوّ من الجوّ كيف يشاء، ويجعل سبحانه هذا السّحاب قطعات متراكبة متراكمة بعضها فوق بعض، وبعضها تارة سائراً وأخرى واقفاً، ثمّ تقسّم الرّياح هذا السّحاب بأمر الله تعالى إلى قطعات، وتدفع بكلّ قطعة إلى بلد، فإذا وصلت إليه، فترى أيّها الرّائي المطر يخرج من خلال السّحاب، ووسطه، فإذا أصاب الله تعالى بذلك المطر من يشاء من عباده، إذا أهل البلد الممطور يستبشرون بنزول المطر عليهم لأنّه مادّة حياتهم، وحياة الحيوان والنّبات، بل حياة الأرض بعد موتها وجفافها، ويتبدّل ما كان من حزنهم وقلقهم ويأسهم قبل نزوله فرحاً وسروراً وتفاؤلاً كان فيه من آثار رحمة الله جلّ وعلا عليهم

قال الله تعالى: «وهو الّذي يرسل الرّياح بشراً بين يدي رحمته حتّى إذا أقلّت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميّت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كلّ الثّمرات كذلك نخرج الموتى لعلّكم تذكّرون» الأعراف: ٥٧.

وقال: «ألم تر أنّ الله يزجي سحاباً ثمّ يؤلّف بينه ثمّ يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزّل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء» النور: ٤٣)

وقال: «والله الّذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميّت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور» فاطر: ٩

٤٩ـ(وإن كانوا من قبل أن ينزّل عليهم من قبله لمبلسين)

وإن كان أهل كلّ بلد من قبل أن ينزّل عليهم المطر من قبل نزوله لقانطين يائسين من المطر

قال الله تعالى: «وهو الّذي ينزّل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الوليّ الحميد» الشورى: ٢٨)

٥٠ـ(فانظر إلى آثار رحمت الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إنّ ذلك لمحيي الموتى وهو على كلّ شيءٍ قدير)

فانظر أيّها الإنسان ـ في كلّ ظرف من الظروف ـ نظر تدبّر واعتبار، نظر تعقّل واستبصار، ونظر تأمّل واستدلال إلى آثار رحمة الله المترتّبة على تنزيل المطر من أنواع النبات والأشجار وأنواع الثمار والأزهار كيف يحيي الله الأرض بعد موتها وجدبها إنّ ذلك العظيم الشأن الّذي ذكر بعض شؤونه كان قادراً على إحياء الأرض بعد موتها لقادر على إحياء الموتى بعض الأعضاء يوم القيامة، إنّ ذلك العظيم الشأن الّذي ذكر بعض شؤونه كان قادراً على إحياء الأرض بعد موتها قادر على إحياء الموتى بعض الأعضاء يوم القيامة، فإنّ نسبة قدرته إلى جميع الممكنات على شرع سواء، وهو جلّ وعلا على كلّ شيءٍ قدير

قال الله تعالى: «ومن آياته أنّك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت وربت إنّ الّذي أحياها لمحيي الموتى إنّه على كلّ شيءٍ قدير» فصّلت: ٣٩)

و قال «و نزّلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنّات و حبّ الحصيد و النخل باسقات لها طلع نضيد رزقاً للعباد و أحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج» ق: ٩ـ ١١)

و قال «و ترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت و ربت و أنبتت من كلّ زوج بهيج ذلك بأنّ الله هو الحقّ و أنّه يحيي الموتى و أنّه على كلّ شيء قدير» الحج: ٥ـ ٦)

و قال «و الله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها إنّ في ذلك لآية لقوم يسمعون» النحل: ٦٥)

و قال «إعلموا أنّ الله يحيي الأرض بعد موتها قد بيّنّا لكم الآيات لعلّكم تعقلون» الحديد: ١٧)

٥١ـ (و لئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفرّاً لظلّوا من بعده يكفرون)

و أقسم بعزّتي و جلالي إنّا إن أرسلنا على هؤلاء المبلسين قبل تنزيل المطر عليهم، و المستبشرين بعد نزوله عليهم ريحاً مفسدة و هي ريح العذاب و الدبور و هي الريح الغربيّة المشؤومة الضارّة، فرأوا زرعهم بها مصفرّاً بعد خضرته و نضرته لظلّوا من بعد استبشارهم و فرحتهم به يكفرون بالله سبحانه و يجحدون ما سلف من نعمه عليهم بالمطر

فللكفّار في ذلك حالات ثلاث: ١ـ أنّهم قبل تنزيل المطر عليهم بالرياح قانطون ٢ـ أنّهم بعد نزوله بالرياح الثلاثة المتقدّمة مستبشرون ٣ـ أنّهم بعد إرسال الريح المشؤومة الغربيّة عليهم كافرون بالله سبحانه و بنعمه جاحدون

و الآية الكريمة في معنى قوله تعالى «كمثل ريح فيها صرّ أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته و ما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون» آل عمران: ١١٧)

و قوله «فلمّا رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم» الأحقاف: ٢٤)

٥٢ـ (فإنّك لا تسمع الموتى و لا تسمع الصمّ الدعاء إذا ولّوا مدبرين)

فيا أيّها الرسول «ﷺ» لا تحزن و لا تجزع لهؤلاء الكفّار و المشركين من قومك و من

بسبب مسالكهم في كلّ ظرف من الظروف، الذين تتبدّل بهم الأحوال من اليأس والقنوط عند عدم نزول المطر، ومن الاستبشار والفرح عند نزوله، ومن الكفر بالله سبحانه والكفران بنعمه عند فساد الزرع بالريح المصفرّة، فترتبط أحوالهم بالريح، فإنّهم موتى روحاً، وصمّ فعلاً، وبذلك يصرّون على كفرهم وضلالهم، وعلى شركهم وفسادهم، وبغيهم وعنادهم، فختم الله على قلوبهم، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة فهم لا يؤمنون. فإنّهم أعرضوا عن الحقّ والهدى والخير والصواب، وأدبروا عن الكمال والرشاد، فإذا أدبروا كأنّهم لا يسمعون أصلاً فلا يسمعهم سمع اعتبار واستبصار إذا دعوا إلى الإيمان، وهم لا يسمعون سماع إفهام وقبول فهم ولا نفع في سماع سوء فهمهم، فدعهم إلى الحقّ والهدى إتماماً للحجّة، فإنّ عليك البلاغ وإن لم يؤمنوا إذ ليس من شرط البلاغ قبول الدعوة.

قال الله تعالى: «ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنّة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن يروا كلّ آية لا يؤمنوا بها حتّى إذا جاؤوك يجادلونك يقول الّذين كفروا إن هذا إلّا أساطير الأوّلين وهم ينهون عنه وينأون عنه وإن يهلكون إلّا أنفسهم وما يشعرون» الأنعام: ٢٥ ـ ٢٦).

وقال: «لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلّ أولئك هم الغافلون» الأعراف: ١٧٩).

وقال: «ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصمّ ولو كانوا لا يعقلون» يونس: ٤٢).

وقال: «أرأيت من اتّخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً أم تحسب أنّ أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلّا كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً» الفرقان: ٤٣ ـ ٤٤).

وقال: «إنّهم عن السمع لمعزولون» الشعراء: ٢١٢).

وقال: «يسمع آيات الله تتلى عليه ثمّ يصرّ مستكبراً كأن لم يسمعها ـ أفرأيت من اتّخذ إلهه هواه وأضلّه الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكّرون» الجاثية: ٨ و ٢٣)

وقال «قل إنما أنذركم بالوحي ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون» الأنبياء ٤٥

وقال «وما أنت بمسمع من في القبور، إن أنت إلا نذير» فاطر ٢٢-٢٣)

وقال «وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ» الأنعام ١٩)

وقال «فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلا البلاغ» الشورى ٤٨

٥٣- (وما أنت بهاد العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون)

وما أنت يا محمد ﷺ بهادي عمي القلوب التي في الصدور عن كفرهم وضلالتهم إلى الإيمان والهدى، عن شركهم وإرشادهم إلى التوحيد والإخلاص، عن معاصيهم وطغيانهم إلى الطاعة والتقوى، وعن اتباعهم لأهوائهم إلى التعمق في نظام التكوين والتمسك بالتوحيد، إذ غلبت طبيعتهم الحيوانية على فطرتهم الإنسانية، فاستحبوا العمى على الهدى، والدنيا على الآخرة، والعذاب على المغفرة، وختموا على أنفسهم على الكفر والعصيان، وأصروا على الشرك والعدوان

قال الله تعالى «فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور» الحج ٤٦)

وقال «فاستحبوا العمى على الهدى - والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد» فصلت ١٧ و ٤٤)

وقال «أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين - صم بكم عمي فهم لا يرجعون - ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون - أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة» البقرة ١٦ و ١٨ و ١٧١ و ١٧٥

وقال «ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون» يونس ٤٣)

وقال «وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً» الكهف ٥٧)

وقال «الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً أولئك في ضلال بعيد» إبراهيم ٣)

و قال: «أفأنت تسمع الصّمّ أو تهدي العمي و من كان في ضلال مبين» الزخرف: ٤٠)
و قال: «جعلوا أصابعهم في آذانهم و استغشوا ثيابهم و أصرّوا و استكبروا استكباراً» نوح: ٧)

و قوله عزّ و جلّ: «إن تسمع إلّا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون» إنّك يا محمّد ﷺ لاتسمع سماع قبول و تفهّم، سماع تعقّل و استبصار، و سماع تدبّر و اعتبار إلّا من سعدت للاهتداء و سماع الحقّ، و من يستعدّ للاستسلام و الإيمان بآياتنا، فهم منقادون لأوامر الله و نواهيه كلّها.

و ذلك أنّ أهل الشرك و الضلال و الكفر و العمى على فريقين: فريق يعرضون عن الحقّ و الهدى و يصرّون على الكفر و العمى فلا حيلة فيهم أن يهتدوا كما أشار تعالى إليهم في صدر الآية، و فريق يقبلون الحقّ و الهدى، و الخير و الرّشاد و إليهم أشار سبحانه في ذيل الآية و في:

قوله تعالى: «الّذين يذكرون الله قياماً و قعوداً و على جنوبهم و يتفكّرون في خلق السّموات و الأرض ربّنا ما خلقت هذا باطلاً... ربّنا إنّنا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربّكم فآمنّا ربّنا فاغفر لنا ذنوبنا و كفّر عنّا سيّئاتنا و توفّنا مع الأبرار» آل عمران: ١٩١ ـ ١٩٣)

و قوله سبحانه: «و إذا سمعوا ما أنزل إلى الرّسول ترى أعينهم تفيض من الدّمع ممّا عرفوا من الحقّ يقولون ربّنا آمنّا فاكتبنا مع الشّاهدين و ما لنا لانؤمن بالله و ما جاءنا من الحقّ و نطمع أن يدخلنا ربّنا مع القوم الصّالحين» المائدة: ٨٣ ـ ٨٤)

و قوله عزّ و جلّ: «ربما يودّ الّذين كفروا لو كانوا مسلمين» الحجر: ٢)

و قوله جلّ و علا: «و إذا يتلى عليهم قالوا آمنّا به إنّه الحقّ من ربّنا إنّا كنّا من قبله مسلمين» القصص: ٥٣)

٥٤ ـ الله الّذي خلقكم من ضعف ثمّ جعل من بعد ضعف قوّة ثمّ جعل من بعد قوّة ضعفاً و شيبة يخلق ما يشآء و هو العليم القدير.

الله تعالى هو الّذي خلقكم أيّها النّاس من مراتب الضّعف من التّراب و الطّين و الماء

مهين، و النّطفة في قرار مكين، ثمّ من ضعف مراحل ظلمات ثلاث في الرّحم حتّى أنشأكم بشراً سويّاً و أخرجكم ضعفاء من بطون أمّهاتكم. ثمّ جعل لكم من بعد مراحل أخرى من الضّعف و هي ضعف الطّفولة جسماً و روحاً إذ لا تقدرون على الأكل و الشّرب و دفع الذّباب و الأذى عنكم، و تظهرون بتلك المراحل من الضّعف بذلك، و لا تقدرون على الأخذ و المشي و النّطق و غيرها من التّصرّفات مراحل من القوّة جسماً و روحاً من الرّشد و الشّباب و البلوغ و العقل و الأخذ و البطش و الحلّ و العقد و ما إليها من التّصرّفات الفرديّة و الاجتماعيّة على أنواعها المختلفة المادّيّة و المعنويّة، الاقتصاديّة و الاعتقاديّة و الدّنيويّة و الاخرويّة

ثمّ جعل لكم من بعد سيركم تلك المراحل من القوّة ضعف الجسم من الكبر و الشّيخوخة، و ضعف الرّوح و العقل و نعمة من الفرح و الكهولة، و هو كم الظّاهرة و الباطنة حيث إنّ الضّعف يقابل القوّة الجسميّة و الرّوحيّة معاً

كلّ ذلك بيد الله جلّ و علا و بإرادته فإنّه تعالى يخلق ما يشاء من الضّعف و القوّة على قسميه الجسميّة و الرّوحيّة بمراتبها و درجاتها و مراحلها و هو وحده العليم بتدبير خلقه، القدير على ما يشاء، و كيف ما يشاء

إنّ الآية الكريمة في معنى قوله تعالى «يا أيّها النّاس إن كنتم في ريب من البعث فإنّا خلقناكم من تراب ثمّ من نطفة ثمّ من علقة ثمّ من مضغة مخلّقة و غير مخلّقة لنبيّن لكم و نقرّ في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمّى ثمّ نخرجكم طفلاً ثمّ لتبلغوا أشدّكم و منكم من يتوفّى و منكم من يردّ إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً» الحجّ: ٥)

و قوله سبحانه «و من نعمّره ننكّسه في الخلق أفلا يعقلون» يس: ٦٨)

و قوله عزّ و جلّ «يخلقكم في بطون أمّهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربّكم له الملك لا إله إلّا هو فأنّى تصرفون» الزّمر: ٦،

و قوله جلّ و علا: «هو الّذي خلقكم من تراب ثمّ من نطفة ثمّ من علقة ثمّ يخرجكم طفلاً ثمّ لتبلغوا أشدّكم ثمّ لتكونوا شيوخاً و منكم من يتوفّى من قبل و لتبلغوا أجلاً مسمّى و لعلّكم تعقلون» الغافر: ٦٧)

وقوله تعالى «ومن آياته أن خلقكم من تراب ثمّ إذا أنتم بشر تنتشرون» (الروم: ٢٠)
وقوله سبحانه «فلينظر الإنسان ممّ خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصّلب والتّرائب إنّه على رجعه لقادر يوم تبلى السّرائر» (الطارق: ٥ ـ ٩).

٥٥ـ (ويوم تقوم السّاعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون)

واذكر يا محمّد ﷺ يوم تقوم السّاعة ـ وهي القيامة ويوم البعث والنّشور لفصل القضاء بين العباد ـ يحلف بعض الكفّار والمشركين والفجّار والمستكبرين والطغاة والمنكرين للبعث والحساب أنّهم لم يلبثوا في حياتهم وموتهم وبرزخهم كلّها مع طولها إلى يوم يبعثون بالنّسبة إلى الآخرة إلاّ مقدار ساعة قصيرة من نهار.

فبعضهم يقولون إلاّ عشرة أيّام، وبعضهم إلاّ يوماً واحداً، وبعضهم بعض يوم.

قال الله تعالى «يوم ينفخ في الصّور ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً يتخافتون بينهم إن لبثتم إلاّ عشراً نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلاّ يوماً» (طه: ١٠٢ ـ ١٠٤).

وقال «يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنّون إن لبثتم إلاّ قليلاً» (الإسراء: ٥٢).

وقال «ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلاّ ساعة من النّهار يتعارفون بينهم» (يونس: ٤٥).

وقال «قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادّين قال إن لبثتم إلاّ قليلاً لو أنّكم كنتم تعلمون» (المؤمنون: ١١٢ ـ ١١٤).

وقال «ولا تستعجل لهم كأنّهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلاّ ساعة من نهار» (الأحقاف: ٣٥).

وقال «يسئلونك عن السّاعة أيّان مرساها ـ كأنّهم يوم يرونها لم يلبثوا إلاّ عشيّة أو ضحاها» (النّازعات: ٤٢ ـ ٤٦).

وقوله عزّ وجلّ: «كذلك كانوا يؤفكون» فها هم أولاء صرفوا في الدّار الآخرة عن حقيقة مدّة مكثهم في الحياة الدّنيا وعالم برزخهم إلى يوم يبعثون كما كانوا يصرفون عن

حقيقة البعث و الحقّ و الهدى في الحياة الدّنيا من أهل الرّحل بل صرف عن الحقّ و الصّدق و الخير

٥٦- «و قال الّذين اوتوا العلم و الإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث و لكنّكم كنتم لاتعلمون»

و قال الّذين اوتوا العلم بالكتاب و هو القرآن المجيد و فهموه و اوتوا الإيمان بالكتاب فائتمروا بما أمرهم الله به و انتهوا عمّا نهاهم عنه و هم أهل بيت الوحي المعصومون صلوات الله عليهم أجمعين أوّلاً و بالأصالة ثمّ العلماء المؤمنون العاملون و المؤمنون الصّادقون ثانياً و بالتّبع دون غيرهم، فهم يقولون يوم القيامة لغيرهم من الكفّار و المشركين، و الفجّار و المستكبرين و المنافقين و المفسدين و الجهلة و الضّالّين: لقد لبثتم هكذا من اللبث في الحياة الدّنيا و في عالم البرزخ إلى يوم البعث كما هو ثابت معلوم من كتاب الله جلّ و علا و يقولون لهم: إن كنتم في شكّ منه فهذا يوم البعث الّذي كنتم تكذّبون به و لاتصدّقونه في الحياة الدّنيا لجهلكم بالكتاب، و هذا الجهل منشأ شرككم بالله سبحانه و كفركم بالله تعالى و تكذيبكم برسوله ﷺ و جحدكم بآياته، و إنكاركم البعث و الحساب و الجزاء و فسادكم في الحرث و النّسل

قال الله تعالى: «بل هو آيات بيّنات في صدور الّذين اوتوا العلم و ما يجحد بآياتنا إلّا الظّالمون» العنكبوت: ٤٩).

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين الإمام عليّ ؑ: «ذلك القرآن فاستنطقوه و لن ينطق و لكن أخبركم عنه، ألا إنّ فيه علم ما يأتي و الحديث عن الماضي» (الخطبة ١٥٧).

و فيه: قال سيّد الوصيّين الإمام عليّ ؑ: «فاسئلوني قبل أن تفقدوني فو الّذي نفسي بيده لاتسئلوني عن شيء فيما بينكم و بين السّاعة و لا عن فئة تهدي مائة و تضلّ مائة إلّا أنبأتكم بناعقها و قائدها و سائقها و مناخ ركابها و محطّ رحالها، و من يقتل من أهلها قتلاً و من يموت منهم موتاً» (الخطبة ٩٢).

وفيه قال الإمام المتقي علي بن أبي طالب (ع): «والله لو شئت أن أخبر كل رجل منكم بمخرجه ومولجه وجميع شأنه لفعلت... أيها الناس إني والله ما أحثكم على طاعة إلا وأسبقكم إليها ولا أنهاكم عن معصية إلا وأتناهى قبلكم عنها» الخطبة ١٧٤)

وفيه قال أمير المؤمنين الإمام علي (ع) في أهل بيت الوحي المعصومين (ع): «فيهم كرائم القرآن وهم كنوز الرحمن إن نطقوا صدقوا وإن صمتوا لم يسبقوا» الخطبة ١٥٣)

وفيه قال مولى الموحدين الإمام علي (ع) في أولياء الله: «... بهم علم الكتاب وبه علموا، وبهم قام الكتاب وبه قاموا

٥٧- «فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون»

فيوم البعث والحساب والجزاء لا ينفع الذين ظلموا على الله سبحانه بالشرك بالله جلّ وعلا، وبتكذيب رسوله (ص) والكفر بآياته، وإنكار البعث، وظلموا المجتمع الإنساني بإفساد الحرث والنسل فيه بسبب شركهم وكفرهم، وظلموا أنفسهم بالخزي والانحطاط، والهوان والهلاك في الحياة الدنيا وبالعذاب والنار في الدار الآخرة فلا يقبل منهم اعتذارهم على الشرك والفساد، والكفر والعناد، ولا يقبل منهم استرضاءهم على المعاصي والجناية والظلم والخيانة، والبغي والغواية لأن التكليف قد زال وقته، حيث إن دار الآخرة دار حساب وجزاء، لا دار توبة واعتذار واسترضاء فإنهم ليسوا ممن يرضى عنهم

قال الله عزّ وجلّ: «يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار» غافر ٥٢)

وقال: «يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون» التحريم ٧

وقال: «ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون» المرسلات ٣٤-٣٦)

وقال: «ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون» الزخرف ٣٩)

وقال «ويوم نبعث من كلّ أمّة شهيداً ثمّ لا يؤذن للّذين كفروا ولاهم يستعتبون» (النحل: ٨٤)

وقال «يومئذ لاتنفع الشّفاعة إلّا من أذن له الرّحمن ورضي له قولاً» (طه: ١٠٩)

وقال «فإنّ الله لا يرضى عن القوم الفاسقين» (التوبة: ٩٦)

٥٨-(ولقد ضربنا للنّاس في هذا القرآن من كلّ مثل ولئن جئتهم بآية ليقولنّ الّذين كفروا إن أنتم إلّا مبطلون)

وأقسم أيّها الرّسول ﷺ بعزّتي وجلالتي أنّا أوضحنا للنّاس جميعاً الحقّ، وبيّنّاه لهم في كلّ طرف من الظّروف، في مجموع هذا القرآن الكريم من كلّ مثل، وضربنا لهم الأمثال وذكرنا الآيات الدالّة والأقيسة الدالّة على المبدإ والمعاد وصدق الرّسالة

قال الله تعالى «وله المثل الأعلى في السّماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ضرب لكم مثلاً من أنفسكم» (الرّوم: ٢٧ - ٢٨)

وقال «كذلك يضرب الله الأمثال للّذين استجابوا لربّهم الحسنى والّذين لم يستجيبوا له لو أنّ لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنّم وبئس المهاد» (الرّعد: ١٧ - ١٨)

وقال «ولقد صرّفنا للنّاس في هذا القرآن من كلّ مثل فأبى أكثر النّاس إلّا كفوراً» (الإسراء: ٨٩)

وقال «وتلك الأمثال نضربها للنّاس وما يعقلها إلّا العالمون» (العنكبوت: ٤٣)

وقال: «ولقد ضربنا للنّاس في هذا القرآن من كلّ مثل لعلّهم يتذكّرون» (الزّمر: ٢٧)

وقال «وتلك الأمثال نضربها للنّاس لعلّهم يتفكّرون» (الحشر: ٢١) كلّ ذلك ليستبينوا الحقّ ويهتدوا إليه ويتّبعوه، ويعرضوا عن الباطل ويتركوه

وقوله تعالى: «ولئن جئتهم بآية ليقولنّ الّذين كفروا إن أنتم إلّا مبطلون» وأقسم بالله جلّ وعلا إنّك أيّها الرّسول ﷺ إن جئت النّاس بأيّة آية من الآيات القرآنيّة أو آية

آية من الآيات الآفاقية و الأنفسية و أنّه معجزة من المعجزات الباهرة الدالّة على المبدأ و المعاد وصدق الرسالة وما بينها ليقولنّ الذين كفروا منهم لفرط عتوّهم واستكبارهم، و شدّة عنادهم و لجاجهم، و قساوة قلوبهم و عمه بصيرتهم لختم الله على قلوبهم الإنسانية مخاطبين لك يا رسول (ﷺ) وللمؤمنين بك ما أنتم إلّا أهل الباطل، فلستم على الحقّ، و لا ما جئتموه بصدق

قال الله تعالى «و ما نرسل المرسلين إلّا مبشّرين و منذرين و يجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحقّ و اتّخذوا آياتي و ما أنذروا هزواً و من أظلم ممّن ذكّر بآيات ربّه فأعرض عنها و نسي ما قدّمت يداه إنّا جعلنا على قلوبهم أكنّة أن يفقهوه و في آذانهم وقراً و إن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً» الكهف: ٥٦ ـ ٥٧)

٥٩ـ (كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون)

مثل ذلك الطبع العجيب على قلوب هؤلاء الكفّار و المشركين و الفجّار و المجرمين و البغاة و الظالمين و الطغاة و المنكرين للبعث الذين يسمّون المحقّين مبطلين و الحقّ باطلاً و الهدي ضلالة و الصّلاح فساداً، و الخير شرّاً، يطبع على قلوب الذين لا يطلبون العلم و لا يتفقّهون في الدين، و لا يتفكّرون في الآيات الآفاقية و الأنفسية و هم عن حقائق الدين و معارف القرآن الكريم و حكم الإسلام و أسراره يكونون غافلين، و على سفاهتهم و جهلهم و رذائلهم مصرّون، و لا يعلمون أنّهم لا يعلمون، و لا يعلمون إلّا من ظاهر الحياة الدنيا، فالجهل هو الموجب لطبع القلوب

قال الله تعالى «يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا و هم عن الآخرة غافلون» الروم: ٧)

و قال «بل أكثرهم لا يعلمون الحقّ فهم معرضون» الأنبياء: ٢٤)

و قال «ألا إنّهم هم السفهاء و لكن لا يعلمون ـ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم و ما كانوا مهتدين» البقرة: ١٣ ـ ١٦)

و قال «ذلك بأنّهم استحبّوا الحياة الدنيا على الآخرة و أنّ الله لا يهدي القوم الكافرين أولئك الذين طبع الله على قلوبهم و سمعهم و أبصارهم و أولئك هم الغافلون لا جرم أنّهم في الآخرة هم الخاسرون» النحل: ١٠٧ ـ ١٠٩)

٦٠ـ «فاصبر إنّ وعد الله حقٌّ و لا يستخفّنّك الّذين لا يوقنون».

إذا علمت أيّها الرّسول ﷺ حال هؤلاء الكفّار و المشركين، و الفسقة و المجرمين، و الطّغاة و الظّالمين، و إصرارهم على كفرهم و ضلالهم، و شركهم و فسادهم و جهلهم و عنادهم و اتّباعهم لأهوائهم و طبع قلوبهم، فاصبر مستعيناً بالله تعالى على احتمال المكروه و الأذى و لا تقم على الانتقام منهم إلى أن تحقّق وعد الله حقّ لا محالة بالنّصر لك و لمن معك حقّاً، و إعزاز دينك و إظهاره على الدّين كلّه، و لا يحملنّك الّذين لا يوقنون بآيات الله جلّ و علا، و لا يؤمنون بالله و رسوله ﷺ و لا بالبعث و الحساب و الجزاء يوم القيامة و لا بما جئتهم به، على الخفّة و الطّيش و القلق و الاضطراب في تبليغ الرّسالة بترك الصّبر. فاصبر لحكم ربّك فإنّك بأعيننا، فاصبر كما صبر أولو العزم من الرّسل، و لا تستعجل و إنّ الله تعالى مع الصّابرين.

فإنّ الله جلّ و علا: «قد نعلم إنّه ليحزنك الّذي يقولون فإنّهم لا يكذّبونك و لكنّ الظّالمين بآيات الله يجحدون و لقد كذّبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذّبوا و أوذوا حتّى أتاهم نصرنا و لا مبدّل لكلمات الله و لقد جاءك من نبأ المرسلين و إن كان كبر عليك إعراضهم» الأنعام: ٣٣ـ٣٥

و قال: «فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرّسل و لا تستعجل لهم كأنّهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلّا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلّا القوم الفاسقون» الأحقاف: ٣٥

و قال: «و اصبر و ما صبرك إلّا بالله و لا تحزن عليهم و لا تك في ضيق ممّا يمكرون» النّحل: ١٢٧)

و قال: «و اصبر لحكم ربّك فإنّك بأعيننا و سبّح بحمد ربّك حين تقوم و من اللّيل فسبّحه و إدبار النّجوم» الطّور: ٤٨ـ٤٩)

و قال: «فاصبر لحكم ربّك و لا تكن كصاحب الحوت إذ نادى و هو مكظوم» القلم: ٤٨).

و قال: «و اصبر على ما يقولون و اهجرهم هجراً جميلاً و ذرني و المكذّبين أولي النّعمة و مهّلهم قليلاً» المزّمّل: ١٠ـ١١).

وقال: «فاصبر إنّ وعد الله حقّ فإمّا نرينّك بعض الذي نعدهم أو نتوفّينّك فإلينا يرجعون» (غافر ١٧)

وقال: «فإمّا نذهبنّ بك فإنّا منهم منتقمون أو نرينّك الذي وعدناهم فإنّا عليهم مقتدرون» (الزخرف ٤١-٤٢)

وقال: «وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابّة من الأرض تكلّمهم أنّ الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون» (النمل ٨٢)

وقال: «وإذا قيل إنّ وعد الله حقّ والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظنّ إلّا ظنّاً وما نحن بمستيقنين وبدا لهم سيّئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون» (الجاثية ٣٢-٣٣)

﴿جملة المعاني﴾

٣٤١٠ـ(الٓمٓ)
رمز من الرموز بين الله تعالى و من عنده علم الكتاب من آل محمد عليهم صلوات الله والمصلّين

٣٤١١ـ(غلبت الرّوم)
غُلِبَتِ أهل الروم من أهل فارس في زمن النّبيّ الكريم ﴿ﷺ﴾

٣٤١٢ـ(في أدنى الأرض و هم من بعد غلبهم سيغلبون)
في أدنى الأرض من البلاد المتاخمة للجزيرة العربيّة في الشّام، و جزيرة الفرات إلى أرض فارس، و أهل الرّوم من بعد غلبة أهل فارس إيّاهم، سيغلبون أهل فارس البتّة

٣٤١٣ـ(في بضع سنين لله الأمر من قبل و من بعد و يومئذ يفرح المؤمنون)
تغلب أهل الرّوم على أهل فارس بين الثّلاث إلى العشر من السّنين بعد أن غلبت أهل فارس على أهل الرّوم. لله تعالى وحده أمر غلبة أهل فارس على أهل الرّوم أوّلاً، ثمّ غلبة أهل الرّوم على أهل فارس، و يفرح المؤمنون يوم غلبة الرّوم على الفرس، فإنّه مقدّمة لغلبة المسلمين على كليهما و على المشركين جميعاً

٣٤١٤ـ(بنصرالله ينصر من يشاء و هو العزيز الرّحيم)

ذلك النصر من الله حقّ و الله ينصر من يشاء من عباده المؤمنين على الكفّار و المشركين، و هو تعالى ذو العزّة و البأس و الانتقام من الكفّار و المجرمين، ذوالرّحمة الخاصّة بالمجاهدين في سبيله بأموالهم و أنفسهم

٣٤١٥ـ(وعدالله لايخلف الله وعده ولكنّ أكثر النّاس لايعلمون)

وعد الله تعالى حقّ يتحقّق لامحالة فإنّ الله سبحانه لايخلف وعده، ولكنّ أكثر النّاس في كلّ ظرف لايعلمون أنّ النّصر الإلهيّ مشروط بشرائط، فإذا تحقّقت الشرائط لابدّ أن يتحقّق المشروط

٣٤١٦ـ(يعلمون ظاهراً من الحياة الدّنيا و هم عن الآخرة هم غافلون)

هؤلاء النّاس يعلمون ظاهراً حقيراً خسيساً من متاع الدّنيا و شهواتها و هم عن عالم الآخرة و أهوالها و حسابها و جزائها غافلون

٣٤١٧ـ(أولم يتفكّروا في أنفسهم ما خلق الله السّموات و الأرض و ما بينهما إلاّ بالحقّ و أجل مسمّى و إنّ كثيراً من النّاس بلقآء ربّهم لكافرون)

أولم يتفكّر هؤلاء الغافلون في أنفسهم الّتي هي مرآة يرى فيها الانسان كمال عظمة الله و جلاله و سعة علمه و حكمته، و تدبيره و قدرته فيعلموا أنّ الله تعالى ما خلق السّموات و الأرض و ما بينهما إلاّ بالحقّ و لأجل ينتهي إليه؟ و إنّ كثيراً من النّاس في كلّ ظرف من الظّروف بلقاء ربّهم يوم القيامة لكافرون، فلا يصدّقون أنّهم ملاقون ثواب ربّهم و عقابه يومئذ بما عملوا في الحياة الدّنيا

٣٤١٨ـ ﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشدّ منهم قوّة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر ممّا عمروها وجاءتهم رسلهم بالبيّنات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾

أولم يسيروا ـ هؤلاء الغافلون ـ عن نظام الكون وتوجيه الوجود في أقطار الأرض وأكنافها فينظروا إلى آثار قدرة الله تعالى على الأمم المكذّبة المهلكة قبلهم كيف كان عاقبة أمرهم في كفرهم وظلمهم. كانوا هم أشدّ من هؤلاء الكفّار المعاصرين قوة جسمانية، وقلّبوا الأرض للزّراعة واستنباط المياه واستخراج المعادن وما إليها، ووجدوا فيها العمران على قوته ونوعه أكثر ممّا عمرها العرب، وجاءتهم رسلهم بالبراهين القاطعة الدّالّة على المبدإ والمعاد وصدق رسالاتهم، فكذّبوهم، فأُخذوا بذنوبهم بأنواع العذاب. فما كان الله سبحانه ليظلم هؤلاء المكذّبين بهلاكهم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون بسوء اختيارهم إذ كذّبوا الرّسل عليهم السلام، فاستحقوا العذاب.

٣٤١٩ـ ﴿ثمّ كان عاقبة الّذين أساؤا السّوأى أن كذّبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن﴾

ثمّ كان عاقبة كلّ من سلك مسلك هؤلاء المكذّبين في الإساءة من هذه الأمّة عقوبة سيّئة وهي عذاب جهنّم يوم القيامة، وذلك بسبب أنّهم كذّبوا آيات الله، وكانوا بها يستهزؤن.

٣٤٢٠ـ ﴿الله يبدؤا الخلق ثمّ يعيده ثمّ إليه ترجعون﴾

الله تعالى يبدأ إنشاء جميع الخلق منفرداً بإنشائه من دون شريك، ثمّ يعيده إلى ما كان من قبل أن يكون شيئاً مذكوراً، ثمّ إلى الله سبحانه بعد بعثه إيّاكم تردّون أيّها النّاس

٣٤٢١ـ (ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون)

واذكر أيها الرسول ﷺ للناس حينما تقوم الساعة يسكت المجرمون سكوت يائس من رحمة الله تعالى، متحيّرون لا ينطقون بها، وقد انقطعت حجتهم وما كانوا يستطيعون أن يعتذروا عما فعلوا

٣٤٢٢ـ (ولم يكن لهم من شركائهم شفعاؤا وكانوا بشركائهم كافرين)

ولم يكن لهؤلاء المشركين المجرمين من شبههم الذين جعلوهم شركاء لله سبحانه شفعاء يشفعون لهم عند الله تعالى، وكانوا هم بشركائهم يومئذ كافرين

٣٤٢٣ـ (ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون)

واذكر أيها الرسول ﷺ للناس أنه يوم القيامة يتفرقون فريقين فريق الإيمان، وفريق الكفر والآثام

٣٤٢٤ـ (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يُحبرون)

فأما الذين آمنوا بالله تعالى ورسوله ﷺ وباليوم الآخر وعملوا الصالحات، فهم في روضة من رياض الجنة يتنعّمون بنعيمها، ويسرّون بأنواع مسرّاتها

٣٤٢٥ـ (وأما الذين كفروا وكذّبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون)

وأمّا الذين كفروا بالله سبحانه وكذّبوا بآياته، وبالبعث والحساب والجزاء، فأولئك الموصوفون بالكفر والتكذيب وبإنكار البعث والحساب والجزاء فهم يومئذ يساقون إلى نار جهنّم سوقاً ولا يغيبون عن عذابها أبداً

٣٤٢٦ـ (فسبحان الله حين تمسون و حين تصبحون)

فقد تبيّن لكم معاشر النّاس بالآيات تكوينه وحدانيّة الله و عظمته فسبّحوه و نزّهوه عن كلّ ما لا يليق بساحة قدسه، و ما ينافي عظمته و جلاله، حين تدخلون المساء، و حين تدخلون الصّباح

٣٤٢٧ـ (و له الحمد في السّموات و الأرض و عشيّاً و حين تظهرون)

ولله تعالى وحده الحمد كلّه في السّموات و الأرض و سبّحوا لله تعالى وقت العصر، و حين تدخلون في الظّهيرة

٣٤٢٨ـ (يخرج الحيّ من الميّت و يخرج الميّت من الحيّ و يحيي الأرض بعد موتها و كذلك تخرجون)

إنّ الله سبحانه يخرج الإنسان الحيّ من التراب الميّت، و المؤمن الحيّ من الكافر الميّت و بالعكس، و هو تعالى يحيي الأرض بالمطر بعد يبسها و جدبها، و كذلك تبعثون بعد موتكم لفصل القضاء

٣٤٢٩ـ (و من آياته أن خلقكم من تراب ثمّ إذا أنتم بشر تنتشرون)

و من الأدلّة الواضحة على المبدإ و المعاد خلقكم الله تعالى معاشر النّاس من خلق ميّت ترابيّ لا حياة به، ثمّ أنتم إذا تستوون كثيرين، و تنتشرون في أكناف الأرض تتصرّفون فيما هو قوام معاشكم

٣٤٣٠ـ﴿و من آيٰته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها و جعل بينكم مودّة و رحمة إنّ في ذلك لآيٰت لقوم يتفكّرون﴾

و من آيات الله الدالّة على وحدانيّته أن خلق الله تعالى لكم من جنسكم أزواجًا لتسكنوا بها و جعل بين الأزواج و الزوجات مودّة تتوادّون بها، و رحمة تتراحمون بها، إنّ فيما سبق من الآيات التكوينيّة و التدوينيّة لعلامات و صفحات على الله لقوم يتفكّرون فيها

٣٤٣١ـ﴿و من آيٰته خلق السّمٰوٰت و الأرض و اختلاف ألسنتكم و ألوانكم إنّ في ذلك لآيٰت للعٰلمين﴾

و من آيات الله التكوينيّة الدالّة على صحّة على وحدانيّته جلّ و علا خلق السموات و ما فيها، و خلق الأرض و ما فيها و اختلاف ألسنتكم في النطق و التكلّم، و اختلاف ألوانكم و صوركم إنّ فيما ذكر لآيات واضحة للعالمين

٣٤٣٢ـ﴿و من آيٰته منامكم باللّيل و النّهار و ابتغاؤكم من فضله إنّ في ذلك لآيٰت لقوم يسمعون﴾

و من آيات الله جلّ و علا نومكم بالليل و النهار، و طلبكم المعاش من فضله ليلاً و نهارًا، إنّ فيها لعلامات لقوم يسمعون الآيات سماع تفهّم و استبصار

٣٤٣٣ـ﴿و من آيٰته يريكم البرق خوفًا و طمعًا و ينزّل من السّماء ماءً فيحيي به الأرض بعد موتها إنّ في ذلك لآيٰت لقوم يعقلون﴾

و من آيات الله التكوينيّة الآفاقيّة يريكم البرق تخافون خوفًا من الصّواعق و

يطمعون طمعاً في المطر، و ينزّل الله تعالى من السماء مطراً نافعاً فيحيى به الأرض بعد يبسها و جمودها، إنّ في ذلك لدلالات واضحات لقوم يعقلون فيها

٣٤٣٤ـ(و من آياته أن تقوم السماء و الأرض بأمره ثمّ إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون)

و من آيات الله تعالى على قدرته و عظمته أن تقوم السماء و الأرض بأمره بغير عمد ترونها، ثمّ إذا دعاكم الله تعالى بعد البعث من الأرض بدعوة واحدة من الأرض، فاجأتم الخروج منها سراعاً

٣٤٣٥ـ(و له من في السموات و الأرض كلّ له قانتون)

كيف تنكرون الله سبحانه و تنكرون البعث بعد الموت مع أن كل هؤلاء الخلق الموجود لله خاضع لأمره جلّ و علا طوعاً و كرهاً

٣٤٣٦ـ(و هو الذي يبدؤ الخلق ثمّ يعيده و هو أهون عليه و له المثل الأعلى في السموات و الأرض و هو العزيز الحكيم)

و الله جلّ و علا هو الذي ينشئ الخلق من دون مثال سابق و هو الذي يعيده بعد موته في دار العقبى، و هذه الإعادة هي هيّنة على الله تعالى، و لله سبحانه الصفات العجيبة الشأن في السموات و الأرض، و هو وحده القادر الذي لا يعجز عن إنشاء ممكن و إعادته الحكيم الذي لا يفعل إلّا ما فيه حكمة بيّنة و مصالح بعيدة

٣٤٣٧ـ(ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من

شركاء في رزقكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون)

[illegible]

٣٤٣٨ـ (بل اتّبع الّذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضلّ الله و ما لهم من ناصرين)

[illegible]

٣٤٣٩ـ (فأقم وجهك للدّين حنيفاً فطرت الله الّتي فطر النّاس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدّين القيّم و لكنّ أكثر النّاس لايعلمون)

[illegible] الإسلامي [illegible] على فطرة الله الّتي فطر النّاس عليها [illegible] لخلق الله و هو فطرة التوحيد و فطرة التوحيد [illegible] الدّين القيّم [illegible] و لكنّ أكثر النّاس [illegible] لايعلمون [illegible] فطرة التوحيد [illegible]

٣٤٤٠ـ(منيبين إليه واتّقوه وأقيموا الصّلاة ولا تكونوا من المشركين)

حالكونكم معشر المؤمنين راجعين متّجهين إلى الله جلّ وعلا وخافوه فلا تشركوا به سبحانه، وداوموا على إقامة الصّلاة وحفظ حدودها، ولا تكونوا من زمرة المشركين بالله تعالى

٣٤٤١ـ(من الّذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً كلّ حزب بما لديهم فرحون)

من الّذين فرّقوا دينهم حسب اختلاف أهوائهم، وصاروا فرقاً مختلفة، كلّ فرقة منهم بما عندهم من الدّين فرحون مسرورون.

٣٤٤٢ـ(وإذا مسّ النّاس ضرّ دعوا ربّهم منيبين إليه ثمّ إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربّهم يشركون)

وإذا أصاب النّاس شيء من الضّرّ والبلاء، دعوا لكشفه بحسب فطرتهم ربّهم الله تعالى حالكونهم منقطعين عن غيره، خاضعين له وحده، ثمّ إذا أذاقهم الله من فضله رحمة، إذا فريق منهم بربّهم يشركون

٣٤٤٣ـ(ليكفروا بما آتيناهم فتمتّعوا فسوف تعلمون)

هم أشركوا بالله سبحانه لكي يجحدوا بنعم الله تعالى عليهم، فتمتّعوا أيّها المشركون فسوف تعلمون عاقبة شرككم بالله جلّ وعلا

٣٤٤٤ـ(أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلّم بما كانوا به يشركون)

هل أنزلنا على هؤلاء المشركين حجّة على شركهم بالله سبحانه، فهي تنطق بهذا الشّرك الّذي هم فيه

٣٤٤٥ـ (و إذا أذقنا النّاس رحمة فرحوا بها و إن تصبهم سيّئة بما قدّمت أيديهم إذا هم يقنطون)

و إذا أذقنا هؤلاء المشركين، و كلّ من يسلك مسالكهم في كلّ ظرف، رحمة فرحوا بها، و إن تصبهم مصيبة سوء بسبب ما أسلفوا من سيّئ أعمالهم، إذا هم ييأسون من الفرج و الخير كلّه

٣٤٤٦ـ (أولم يروا أنّ الله يبسط الرّزق لمن يشاء و يقدر إنّ في ذلك لآيات لقوم يؤمنون)

ألم يعلم هؤلاء المشركون أنّ الله تعالى يبسط الرّزق لمن يشاء، فيوسّعه عليه سبحانه، و يقدره على من يشاء من عباده فيضيّقه عليه، لأنّ كلّ ذلك بعلمه. إنّ في بسط الرّزق و قدره لعلامات دالّة على وحدانيّة الله سبحانه لقوم يؤمنون به

٣٤٤٧ـ (فآت ذا القربى حقّه و المسكين و ابن السّبيل ذلك خير للّذين يريدون وجه الله و أولئك هم المفلحون)

فآت أيّها النّبيّ الكريم «صلّى الله عليه و آله» ذا القرابة منك، حقّه من صلتك و عطائك، و أعط أتباع الرّسول «صلّى الله عليه و آله» و من بعدك حقّ المسكين و ابن السّبيل، ذلك الأداء و الإعطاء خير للمؤمنين المتصدّقين الّذين يريدون بذلك رضا الله تعالى فحسب، و أولئك هم الفائزون برضا الله جلّ و علا

٣٤٤٨ـ (و ما آتيتم من ربًا ليربوا في أموال النّاس فلا يربوا عند الله و ما آتيتم من زكوة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون)

و ما أعطيتم أيّها المؤمنون مؤمناً أو مسلماً من هبة و عوض طمعاً ليعطوا أكثر منه فلا

ثواب لكم عند الله فيه، وما أعطيتم ذوي الحاجات من صدقة تريدون بها وجه الله سبحانه فأولئك هم الذين أضعفت حسناتهم في الدار الآخرة، وكثرت أموالهم في الحياة الدنيا بالحفظ والبركة

٣٤٤٩ـ (الله الّذي خلقكم ثمّ رزقكم ثمّ يميتكم ثمّ يحييكم هل من شركآئكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عمّا يشركون)

الله الّذي خلقكم معشر النّاس وأنشأكم ثمّ رزقكم بأنواع النعم، ثمّ يميتكم عند انقضاء آجالكم، ثمّ يحييكم بعد موتكم ليحاسبكم على أعمالكم، هل من بين شركائكم على خلاف ما ذكرت أحد يفعل فعلاً من هذه الأفعال التي فعلها الله تعالى؟ تنزّه سبحانه و تقدّس عمّا يشركون به

٣٤٥٠ـ (ظهر الفساد في البرّ والبحر بما كسبت أيدي النّاس ليذيقهم بعض الّذي عملوا لعلّهم يرجعون)

ظهر وانتشر الفساد على وجه الأرض من برّها وبحرها بسبب فساد أعمال النّاس ليذيقهم الله تعالى في الحياة الدّنيا بعض العقاب، ولكي يكون لهم في هذه الآلام عبرة لعلّهم يرجعون بالتوبة عن الشّرك والمعصية إلى التّوحيد والطّاعة

٣٤٥١ـ (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبل أكثرهم مشركين)

قل أيّها الرّسول ﷺ لهؤلاء المشركين ونظرائهم سيروا في بلاد الأرض، فانظروا نظر عبرة كيف كانت حال من تقدّمكم من الأمم والأمثال ومآل أمرهم كان أكثرهم مشركين، فأهلكهم الله تعالى بشركهم ومعاصيهم

٣٤٥٢ـ (فأقم وجهك للدّين القيّم من قبل أن يأتي يوم لا مردّ له من الله يومئذ يصّدّعون)

فإذ تبيّن لك فساد الشرك، وبان لك الحقّ فالتحق بالمتلبّس به، أقم وجهك للدّين الّذي يكون قوام إنسانيّة الإنسان، واهتمّ به من قبل مجيء يوم القيامة لا مردّ له من الله لتحتّم مجيئه، يومئذ يتفرّق الناس جميعاً فريقين فريق الكفر والمعصية، وفريق الإيمان والطّاعة

٣٤٥٣ـ (من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون)

من كفر منكم معشر الناس بعد ذلك البيان، فعلى نفسه يعود جزاء كفره، ومن عمل منكم صالحاً بعد الإيمان فلأنفسهم يمهدون من العزّة والأمان

٣٤٥٤ـ (ليجزي الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات من فضله إنّه لا يحبّ الكافرين)

كلّ ذلك ليجزي الله تعالى الّذين آمنوا بالله تعالى ورسوله ﴿ﷺ﴾ وباليوم الآخر وعملوا الصّالحات، على قدر استحقاقهم حسب مراتب إيمانهم، ودرجات صالح أعمالهم، ويزيدهم من فضله على ما يستحقّون، إنّ الله عزّ وجلّ لا يحبّ الكافرين

٣٤٥٥ـ (ومن آياته أن يرسل الرّياح مبشّرات وليذيقكم من رحمته ولتجري الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلّكم تشكرون)

ومن آيات الله الدالّة على وحدانيّته أن يرسل رياح الرّحمة إليكم لتبشّركم بنعمه تعالى عليكم، وليذيقكم الله بسبب هذه الرّياح من رحمته، ولتجري بها السّفن في البحار بأمره سبحانه، ولتطلبوا من فضله رزقكم بالتّجارة في البحار وغيرها، ولعلّكم تشكرون لله تعالى على نعمه عليكم

٣٤٥٦ـ(ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاؤهم بالبيّنات فانتقمنا من الّذين أجرموا وكان حقّاً علينا نصر المؤمنين)

وأُقسم بعزّتي وجلالي لقد أرسلنا من قبلك يا محمد ﷺ رسلاً إلى أقوامهم، فجآؤهم بالأدلّة الواضحة على صدق رسالتهم، فآمن بهم قليل منهم، وكذّبهم الآخرون، فانتقمنا من الّذين كفروا وظلموا وكان حقّاً علينا نصر المؤمنين الّذين هم منتصرون دائماً في كلّ ظرف

٣٤٥٧ـ(الله الّذي يرسل الرّياح فتثير سحاباً فيبسطه في السّماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون)

الله تعالى هو الّذي يرسل الرّياح فتثير سحاباً مآءً وتسوقه من مكان إلى مكان، فيبسط الله سبحانه ذلك السّحاب في جوّ السّماء كيف يشاء، ويجعله قطعات متراكمة بعضها فوق بعض فترى المطر يخرج من خلال السّحاب، فإذا أصاب الله تعالى بذلك المطر من يشاء من عباده إذا هم يفرحون بنزول المطر عليهم

٣٤٥٨ـ(وإن كانوا من قبل أن ينزّل عليهم من قبله لمبلسين)

وإن كان هؤلاء المستبشرون من قبل أن ينزّل عليهم المطر قبل نزوله لبآئسين من نزول المطر عليهم

٣٤٥٩ـ(فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إنّ ذلك لمحيي الموتى وهو على كلّ شيْ قدير)

فانظر أيّها الرّائي نظر تدبّر واستبصار إلى آثار رحمة الله المترتّبة على إنزال المطر من أنواع النبات كيف يحيي الله تعالى الأرض بعد موتها وجفافها، إنّ ذلك العظيم الشّان كان قادراً على إحيآء الموتى لفصل القضآء، وهو على كلّ شيْ قدير

٣٤٦٠ـ (ولئن أرسلنا ريحًا فرأوه مصفرًّا لظلّوا من بعده يكفرون)

وأقسم بعزتي وجلالي لئن أرسلنا إلى هؤلاء الناس من قبل نزول المطر عليهم و المستبشرين بعد نزوله عليهم ريحًا زرعه وهي ريح العذاب والنقمة فرأوا زرعهم به مصفرًّا بعد خضرته ونضارته لظلّوا من بعد ذلك يكفرون بالله سبحانه ويجحدون ما سلف من النعم عليهم بالمطر

٣٤٦١ـ (فإنّك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصمّ الدعاء إذا ولّوا مدبرين)

فلا تحزن بكفر هؤلاء الكافرين وجحودهم نعم الله تعالى عليهم، فإنّهم موتى الروح وصمّ الفطرة، وإنّك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصمّ الدعاء إذا أعرضوا عن الحقّ، وأدبروا عن الهدى مدبرين تمامًا

٣٤٦٢ـ (وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون)

وما أنت أيها الرسول ﷺ بهادي عمي القلوب عن ضلالتهم إلى الهدى، فإنك لاتسمع سماع تدبّر واستبصار إلا من يصدق بآياتنا فهم منقادون لأوامر الله ونواهيه كلّها

٣٤٦٣ـ (الله الّذي خلقكم من ضعف ثمّ جعل من بعد ضعف قوّة ثمّ جعل من بعد قوّة ضعفًا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير)

الله تعالى هو الّذي خلقكم أيها الناس من مراتب الضّعف، ثمّ جعل من بعد طيّ مراحل الضّعف قوّة جسميّة وروحيّة، ثمّ جعل من بعد طيّ مراحل القوّة، ضعف الجسم والعقل من الكبر والكهولة، كلّ ذلك يريده الله تعالى فإنّه يخلق ما يشاء من الضّعف والقوّة، وهو وحده العليم بتدبير خلقه، القدير على ما يشاء وكيف ما يشاء

٣٤٦٤ـ (و يوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون)

و يوم تقوم الساعة فيحصل البعث، يحلف المجرمون أنهم لم يلبثوا في حياتهم في الدنيا و بعد موتهم إلى يوم يبعثون بالنسبة إلى يوم القيامة إلا مدة [illegible] قصيرة من [illegible] فهؤلاء صرفوا يوم القيامة عن حقيقة مدة مكثهم في الدنيا و بعدها إلى يوم البعث كما كانوا يصرفون عن حقيقة البعث في الحياة الدنيا

٣٤٦٥ـ (و قال الذين أوتوا العلم و الإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث و لكنكم كنتم لا تعلمون)

و قال الذين أوتوا العلم بالقرآن الكريم و فهموه و [illegible] به حين يعرضهم من الكفر و المجرمين لقد لبثتم هكذا من السنين في الحياة الدنيا و في عالم البرزخ إلى يوم البعث كما كان معلوماً لنا من كتاب الله تعالى إن كنتم في شك فهذا يوم البعث و لكنكم كنتم لا تعلمون الكتاب فتنكرون البعث لجهلكم بكتاب الله تعالى

٣٤٦٦ـ (فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم و لا هم يستعتبون)

فيوم البعث لا ينفع الذين ظلموا في أنفسهم [illegible] معذرتهم و لا يطلب منهم [illegible] على الشرك و الجهل و البغي و الظلم

٣٤٦٧ـ (و لقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل و لئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون)

و قسماً بعزتي و جلالي لقد أوضحنا الحق للناس جميعاً و بيّنا لهم بياناً وافياً في مجموع هذا القرآن المجيد من كل مثل لإثبات المبدأ و المعاد و صدق الرسالة و لئن جئتهم بآية

من الآيات الحقّة الدالة على صدقك ليقولنّ الذين كفروا منهم لفرط عتوّهم و شدّة عنادهم، و قساوة قلوبهم ما أنتم إلّا في الضلال فيما تدّعون الحقّ، و لا ما جئتموا به بصدق

٣٤٦٨ـ (كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون)

كما طبع الله تعالى على قلوب الكافرين فكذلك نطبع على قلوب الذين لا يعلمون بكتاب الله جلّ وعلا

٣٤٦٩ـ (فاصبر إنّ وعد الله حقّ و لا يستخفّنك الذين لا يوقنون)

إذا عرفت يا محمد ﷺ أحوال الكفّار و المشركين، و الفجّار و المجرمين، و البغاة و الطاغين، و إصرارهم على الكفر و العناد، فاصبر مستعيناً بالله تعالى على احتمال المكروه و الأذى منهم إلى أن يتحقّق وعد الله جلّ و علا، و هو حقّ واقع لا محالة، و لا يستخفّنك الذين لا يوقنون بآيات الله تعالى و لا يؤمنون بالله و رسوله، و ينكرون البعث و الحساب و الجزاء على حقّه، و لا تضطرب في تبليغ رسالته بترك الصبر عليه

﴿بحث دقيق روائي﴾

قال مولى الموحدين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: إنّ لكلّ كتاب صفوة، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجّي".

فلنحصل اللآلئ من الحروف المقطّعة في ذيل بعض سور أسرار بين الله تعالى و رسوله ﴿ﷺ﴾ حسب أنّ لكلّ كتاب سرّاً و سرّ الله تعالى في القرآن مخبّأ بين الحروف المقطّعة.

وفي روضة الكافي [illegible] ٢٩٧، بإسناده عن أبي عبيدة قال سألت أبا جعفر ﴿ع﴾ عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿الم غلبت الروم في أدنى الأرض﴾ قال فقال: يا أبا عبيدة إنّ لهذا تأويلاً لا يعلمه إلاّ الله والراسخون في العلم من آل محمّد صلوات الله عليهم. إنّ رسول الله ﴿ﷺ﴾ لمّا هاجر إلى المدينة و أظهر الإسلام كتب إلى ملك الروم كتاباً، و بعث به مع رسول يدعوه إلى الإسلام، و كتب إلى ملك فارس كتاباً يدعوه إلى الإسلام و بعثه إليه مع رسوله، فأمّا ملك الروم فعظّم كتاب رسول الله ﴿ﷺ﴾ و أكرم رسوله ﴿ﷺ﴾ و أمّا ملك فارس فإنّه استخفّ بكتاب رسول الله ﴿ﷺ﴾ و مزّقه و استخفّ برسوله وكان ملك فارس يومئذ يقاتل ملك الروم وكان المسلمون يهوون أن يغلب ملك الروم ملك فارس، وكانوا لناحيته أرجى منهم لملك فارس.

فلمّا غلب ملك فارس ملك الروم كره ذلك المسلمون و اغتمّوا به فأنزل الله عزّ وجلّ بذلك كتاباً قرآناً ﴿الم غلبت الروم﴾ يعني غلبتها فارس، في أدنى الأرض (وهي الشامات

وما حولها، وهما يعني فارس من بعد غلبهم أي الروم سيغلبون يعني يغلبهم المسلمون، في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء» عزّوجلّ فلمّا غزا المسلمون فارس وافتتحوها فرح المسلمون بنصر الله عزّوجلّ

قال قلت: أليس الله عزّوجلّ يقول: في بضع سنين وقد مضى للمؤمنين سنون كثيرة مع رسول الله (ص) وفي إمارة أبي بكر وإنّما غلب المؤمنون فارس في إمارة عمر؟

فقال: ألم أقل لكم إنّ لهذا تأويلاً وتفسيراً والقرآن يا أبا عبيدة ناسخ ومنسوخ أما تسمع لقول الله عزّوجلّ «لله الأمر من قبل ومن بعد» يعني إليه المشيئة في القول أن يؤخّر ما قدّم ويقدّم ما أخّر في القول إلى يوم يحتم القضاء بنزول النصر فيه على المؤمنين، فذلك قوله عزّوجلّ «ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء» أي يوم يحتم القضاء بالنصر

وفي نور الثقلين عن كتاب الاحتجاج للطبرسي، وقد روينا من طرق عديدة أهل البيت عليهم السلام في سرائرهم ونومهم حتى خرجت منهم إلى عامة مستمعيهم، أنّ قوماً ينتسبون من قريش وليسوا من قريش بحقيقة النسب وهذا مما لا يجوز أن يعرفه إلّا معدن النبوّة، وورثة علم الرسالة وذلك مثل بني أمية ذكروا أنّهم ينتسبوا من قريش، وأنّ أصلهم من الروم وفيهم تأويل هذه الآية «الم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون» معناه أنّهم غلبوا على الملك وسيغلبهم على ذلك بنو العبّاس»

وفي التبيان روي عن النبي (ص) أنّ البضع ما بين الثلاث إلى العشر

وفي نهج البلاغة قال مولى الموحّدين أمير المؤمنين علي (ع): «الحمد لله الذي إليه مصائر الخلق، وعواقب الأمر...»

وفيه: قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع): «إنّ أزمّة الأمور بيدك، ومصادرها عن قضائك...»

وفي المناقب لابن شهر آشوب السروي المازندراني رضوان الله تعالى عليه قال أبو هاشم: سأل محمّد بن صالح أبا محمّد (ع) عن قوله تعالى «لله الأمر من قبل ومن بعد» فقال (ع): له الأمر من قبل أن يأمر به وله الأمر من بعد أن يأمر به بما يشاء»

فقلت في نفسي: هذا قول الله «ألا له الخلق والأمر تبارك الله ربّ العالمين». فأقبل عليّ فقال: هو كما أسررت في نفسك «ألا له الخلق والأمر تبارك الله ربّ العالمين». قلت: أشهد أنّك حجّة الله وابن حجّته في خلقه».

رواه الرّاوندي في «الخرائج» والطّبرسي في «الاحتجاج» وفي «كشف الغمّة» من دلائل الحميري عن الجعفريّ مثله.

وفي تفسير فرات الكوفي بإسناده عن رسول الله ﷺ - في حديث طويل - قال: قال جبرئيل: سمّيت فاطمة في الأرض لأنّها فطمت شيعتها من النّار، وفطموا أعداؤها عن حبّها، وذلك قول الله في كتابه «ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله» بنصر فاطمة عليها السّلام».

وفي تأويل الآيات الظّاهرة بالإسناد عن عباية (عبد الله خ) عن عليّ عليه السّلام في قوله عزّ وجلّ «الم غلبت الرّوم» هي فينا وفي بني أميّة».

وفيه: بالإسناد عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السّلام قال: سألته عن تفسير «الم غلبت الرّوم» قال: هم بنو أميّة، وإنّما أنزلها الله عزّ وجلّ «الم غلبت الرّوم» بنو أميّة «في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله» عند قيام القائم عليه السّلام».

وفي دلائل الإمامة لأبي جعفر محمّد بن جرير الطّبري بإسناده عن يونس بن يعقوب عن أبي عبد الله الصّادق عليه السّلام في قول الله عزّ وجلّ «ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله» قال: «في قبورهم بقيام القائم عليه السّلام».

وفي نهج البلاغة: قال سيّد الوصيّين عليّ بن أبي طالب عليه السّلام: «وارغبوا فيما وعد المتّقين فإنّ وعده أصدق الوعد...».

وفيه: قال يعسوب الدّين الإمام عليّ عليه السّلام: «ونحن على موعود من الله والله منجز وعده وناصر جنده».

وفي مكارم الأخلاق - باب وصيّة النّبيّ ﷺ إلى عبد الله بن مسعود - حديث طويل - قال ﷺ: «يا ابن مسعود ما بغي من يتنعّم في الدّنيا إذا خلّد في النّار «يعلمون

ظاهراً من الحياة الدّنيا وهم عن الآخرة هم غافلون» يبنون الدّور، و يشيدون القصور و يزخرفون المساجد، وليست همّتهم إلّا الدّنيا عاكفون عليها، معتمدون فيها، آلهتهم بطونهم.» الوصيّة

و في تفسير القمّي في قوله تعالى: «يعلمون ظاهراً من الحياة الدّنيا» يعني ما يرونه حاضراً «و هم عن الآخرة هم غافلون» قال: يرون حاضر الدّنيا و يتغافلون عن الآخرة»

و في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين الإمام علي (ع) «إنّ أولياء الله هم الّذين نظروا إلى باطن الدّنيا إذا نظر النّاس إلى ظاهرها، واشتغلوا بآجلها إذا اشتغل النّاس بعاجلها»

و في المجمع: وسئل أبو عبد الله (ع) عن قوله عزّ وجلّ «يعلمون ظاهراً من الحياة الدّنيا» فقال «الزّجر و النّجوم» الزّجر التشاؤم، والتيمّن بالطّير

و في نهج البلاغة قال إمام المتّقين علي بن أبي طالب (ع) «و لو فكّروا في عظيم القدرة، و جسيم النّعمة لرجعوا إلى الطّريق و خافوا عذاب الحريق، ولكن القلوب عليلة، و البصائر مدخولة»

و فيه، قال أمير المؤمنين علي (ع) «رحم الله امرءاً تفكّر فاعتبر، واعتبر، فأبصر، فكأنّ ما هو كائن من الدّنيا عن قليل لم يكن، و كأنّ ما هو كائن من الآخرة عمّا قليل لم يزل، و كلّ معدود منقضٍ و كلّ متوقّع آتٍ و كلّ آتٍ قريب دانٍ»

و في الخصال: «سُئِلَ الصّادق (ع) عن قول الله عزّ وجلّ «أولم يسيروا في الأرض» قال معناه أولم ينظروا في القرآن» قال الصّدوق رحمه الله تعالى عليه كنّى بالسّير في الأرض عن النّظر في القرآن

و في نهج البلاغة: قال سيّد الوصيّين إمام المتّقين علي بن أبي طالب (ع) «فالله الله في عاجل البغي، و آجل وخامة الظّلم، و سوء عاقبة الكبر، فإنّها مصيدة إبليس العظمى، و مكيدته الكبرى الّتي تساور قلوب الرّجال مساورة السّموم القاتلة، فما تكدي أبداً و لا تشوي أحداً، لا عالماً لعلمه، و لا مقلاً في طمره» (خطبة القاصعة ٢٣٤).

وفيه قال أمير المؤمنين للإمام علي (ع) «ومن قرأ القرآن فمات فدخل النار فهو كان ممّن يتّخذ آيات الله هزواً»

وفي تفسير القمّي في قوله تعالى «وكانوا بها يستهزؤن» أي ظلموا واستهزؤا

١١ـ(الله يبدؤا الخلق ثمّ يعيده ثمّ إليه ترجعون)

وفي تفسير القمي وقوله «ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون» أي ييأسوا «ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء» يعني شركاءهم يعبدونهم ويطيعونهم لا يشفعون لهم وقوله «يتفرّقون» قال: إلى الجنّة والنّار»

وفي الخصال عن الإمام أمير المؤمنين علي (ع) قال قال رسول الله (ص) «تقوم الساعة يوم الجمعة بين صلاة الظّهر والعصر»

وعن أبي عبدالله (ع) قال «السبت لنا والأحد لشيعتنا ـ إلى أن قال (ع) ـ وتقوم القيامة يوم الجمعة»

وعن أبي لبابة بن عبدالمنذر قال قال رسول الله (ص) إنّ يوم الجمعة سيّد الأيّام ـ إلى قوله ـ وما من ملك مقرّب ولا سماء ولا أرض ولا رياح ولا جبال ولا برّ ولا بحر إلّا وهنّ يشفقن من يوم الجمعة أن تقوم فيه الساعة»

وفي الصّحيفة السّجّاديّة ـ الرّوضة الرّابعة ـ قال سيّد السّاجدين زين العابدين علي بن الحسين (ع) «اللهمّ وصلّ على التّابعين من يومنا هذا إلى يوم الدّين، وعلى أزواجهم وعلى ذرّيّاتهم وعلى من أطاعك منهم صلاة تعصمهم بها من معصيتك، وتفسح لهم في رياض جنّتك...»

الرّياض جمع روضة، والأصل رواض، فقلبت الواو ياءً لكسر ما قبلها، وهي الموضع المعجب بالزّهور وقيل كلّ أرض ذات نبات وماء ورونق ونضارة وقيل سمّيت بذلك لاستراضة المياه السائلة فيها أي لسكونها بها قال الله تعالى «فهم في روضة يحبرون» أي يسرّون أو ينعّمون»

وفي تفسير القمي «يحبرون» أي يكرمون»

و في المجمع: في روضة يحبرون، قيل يلتذّون بالسّماع

وبالإسناد عن أبي أمامة الباهلي أنّ رسول الله ﷺ قال: «ما من عبد يدخل الجنّة إلّا و يجلس عند رأسه، و عند رجليه ثنتان من الحور العين تغنّيانه بأحسن صوت سمعه الإنس والجنّ، و ليس بمزمار الشّيطان، و لكن بتحميد الله و تقديسه»

و عن أبي الدّرداء قال: كان رسول الله ﷺ يذكّر النّاس فذكر الجنّة و ما فيها من الأزواج و النّعيم، و في القوم أعرابيّ فجثا لركبتيه، و قال: يا رسول الله هل في الجنّة من سماع؟ قال: نعم يا أعرابيّ، إنّ في الجنّة نهرًا حافتاه الأبكار من كلّ بيضاء يتغنّين بأصوات لم تسمع الخلائق بمثلها قطّ، فذلك أفضل نعيم الجنّة. قال الرّاوي: سألت أبا الدّرداء بم يتغنّين؟ قال: بالتّسبيح»

و فيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الجنّة مائة درجة ما بين كلّ درجتين منها كما بين السّماء و الأرض، و الفردوس أعلاها سموًّا و أوسطها محلّة، و منها تتفجّر أنهار الجنّة، فقام إليه رجل و قال: يا رسول الله ﷺ إنّي رجل حبّب إليّ الصّوت، فهل لي في الجنّة صوت حسن؟ فقال: إي و الّذي نفسي بيده إنّ الله تعالى يوحي إلى شجرة في الجنّة أن أسمعي عبادي الّذين اشتغلوا بعبادتي و ذكري عن عزف البرابط و المزامير، فترفع صوتًا لم يسمع الخلائق بمثله قطّ من تسبيح الرّبّ»

و في الدّرّ المنثور عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة قال الله: أين الّذين كانوا ينزّهون أسماعهم و أبصارهم عن مزامير الشّيطان؟ ميّزوهم، فيميّزون في كثب المسك و العنبر، ثمّ يقول للملائكة: أسمعوهم من تسبيحي و تحميدي و تهليلي، قال: فيسبّحون بأصوات لم يسمع السّامعون بمثلها قطّ»

۱۷ـ(فسبحان الله حين تمسون و حين تصبحون)

في أمالي الصّدوق رضوان الله تعالى عليه بإسناده عن الحرث عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (ع) قال: «من قال حين يمسي ثلاث مرّات «فسبحان الله حين تمسون و حين تصبحون و له الحمد في السّماوات و الأرض و عشيًّا و حين تظهرون» لم يفته خير

يكون في تلك ليلته و صرف عنه جميع شرّها و من قال مثل ذلك حين يصبح لم يفته خير يكون في ذلك اليوم، و صرف عنه جميع شرّه»

و في الاختصاص للشيخ المفيد رحمه الله تعالى عليه بإسناده عن الحسين بن عليّ (عليهما السلام) قال: جاء رجل من اليهود إلى النبيّ (صلّى الله عليه و آله) فسأله (صلّى الله عليه و آله) عن مسائل - حديث طويل - إلى أن قال في صلاة المغرب ... فصلّى آدم، فصارت لله عليه ثلاث ركعات، ركعة لخطيئته، و ركعة لخطيئة حوّاء، و ركعة لتوبته ففرض الله عليه و فرض الله على أمّتي هذه الثلاث ركعات و هي الساعة التي يستجاب فيها الدّعوة و وعدني ربّي أن لا يخيب من سأله حين قال: «فسبحان الله حين تمسون و حين تصبحون» الخبر

و في كتاب الأقاليم و البلدان: قال: قال رسول الله (صلّى الله عليه و آله): من قرأ «فسبحان الله حين تمسون و حين تصبحون - إلى - و كذلك تخرجون» كتب له من الحسنات بعدد كلّ ورقة ثلج على جبل ثهلان. قيل: و ما ثهلان يا رسول الله؟ قال: جبل بأرمينية و آذربيجان عليه عين من عيون الجنّة و فيه قبر من قبور الأنبياء»

قال أبو حامد الأندلسيّ: على رأس هذا الجبل عين عظيمة مع غاية ارتفاعه، و هو ذو برد من ماء، ثلج كأنّها تشبه بنقل بشدّة عذوبته، و حول هذا الجبل ماء، و يخرج من عين يصلو نبض لجريه يقصده النّاس لمصالحهم و على هذا الجبل شجر كثير و مرج، و شيء من حشيش لا تأكله بهائم و لا حيوان إلّا مات ساعته»

و عن القزويني أنّه قال: و لقد رأيت الجبل و تناوبت ترعى في هذا الجبل، فأكل فرس من ذلك الحشيش فمرض و ولّت سهرمه كالمطرود.

و في أعلام الدّين عن ابن عبّاس قال: قال رسول الله (صلّى الله عليه و آله): «من قال: «سبحان [فسبحان] الله حين تمسون» يعني صلاتي المغرب و العشاء «و حين تصبحون» صلاة الغداة «و عشيّا» صلاة العصر «و حين تظهرون» صلاة الظّهر، هذه الآية (يعني الآيات) تجمع صلواتكم الخمس. فمن قرأ هذه الثلاث الآيات من سورة «الرّوم» و آخر «الصّافّات» يعني و الثلاث الآيات من آخر سورة «الصّافّات» و هي «سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون و سلام على المرسلين و الحمد لله ربّ العالمين» ثلاث مرّات دبر صلاة

المغرب أدرك ما فاته في يومه ذلك و قبلت صلاته، فإن قرأها دبر كلّ صلاة يصلّيها من فريضة أو تطوّع كتب له من الحسنات عدد نجوم السّماء و قطر المطر، و عدد ورق الشّجر و عدد تراب الأرض، فإذا مات أجري له بكلّ حسنة عشر حسنات في قبره

أقول: إنّ الآيات الثّلاث من سورة الرّوم هي هذه «فسبحان الله حين تمسون و حين تصبحون و له الحمد في السّماوات و الأرض و عشيّاً و حين تظهرون يخرج الحيّ من الميّت و يخرج الميّت من الحيّ و يحيي الأرض بعد موتها و كذلك تخرجون» كما أنّ المراد من آخر الصّافّات هي الآيات الثّلاث من آخرها.

و في البحار باب الأدعية المختصّة بخواتيم الصّلوات ج ٨٣ قال العلّامة المجلسي رضوان الله تعالى عليه بعد ذكر الحديث: و وجدت بخطّ الشّيخ محمّد بن عليّ الجبعيّ رحمه الله قال: قال الشّيخ الشّهيد بن مكّي قدّس الله روحه نقلت من خطّ مغربيّ حدّث معاذ بن المتوكّل عن الإسكندرانيّ عن عبد الله بن المبارك عن عطاء أنّ عليّاً ﷺ لمّا حضرته الوفاة قال لمحسن ابنه ﷺ: أعلّمك شيئاً أخذته من كتاب الله علّمنيه النّبيّ ﷺ فإذا أردت أن تدعو الله به فادع به بعد صلاة الغداة و بعد صلاة العصر، ثمّ سل ما أردت من حوائجك، و اعلم أنّك إذا سألت به وكّل الله به ألف ملك يستغفرون لك و أعطى كلّ ملك قوّة ألف ملك في سرعة الاستغفار و بنى لك ألف قصر في الجنّة، و غفر لك ما غشيت في الدّنيا معتمداً و لا يصيبك فيها فقر و لا حاجة، و لا تسأل أحداً من الدّنيا كائناً ما كان إلّا قضى لك، قل:

«سبحان الله و الحمد لله و لا إله إلّا الله و الله أكبر، و لا حول و لا قوّة إلّا بالله، فسبحان الله حين تمسون و حين تصبحون، و له الحمد في السّماوات و الأرض و عشيّاً و حين تظهرون، يخرج الحيّ من الميّت و يخرج الميّت من الحيّ و يحيي الأرض بعد موتها و كذلك تخرجون سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون و سلام على المرسلين و الحمد لله ربّ العالمين سبحان الله ذي الملك و الملكوت، سبحان الله ذي العزّة و العظمة و الجبروت، سبحان الله الملك الحيّ الّذي لا يموت، سبحان العليّ الأعلى، سبحانه و تعالى، سبحان الملك القدّوس، ربّ الملائكة و الرّوح، اللّهمّ لك الحمد حمداً يصعد و لا ينفد و لك الحمد عليّ و معي و قدّامي و

خلقي، يا الله عشراً، يا رحمان عشراً، يا رحيم عشراً، يا ربّ مثله، يا حيّ يا قيّوم مثله، يا بديع السماوات والأرض مثله، يا ذا الجلال والإكرام مثله، يا حنّان يا منّان مثله، اللهمّ صلّ على محمّد وآل محمّد عشراً، وسل حاجتك»

وفي البحار باب أحكام اليمين والنذر والعهد حديث ٦٥، عن كتاب بيان التنزيل لابن شهرآشوب، وروض الجنان لأبي الفتوح رحمه الله عليهما «روي أنّ رجلاً سأل أبابكر عن الحين، وكان نذر أن لا يكلّم زوجته حيناً، فقال: إلى يوم القيامة لقوله تعالى «ومتاع إلى حين» فسأل عمر فقال: أربعين سنة لقوله تعالى «هل أتى على الإنسان حين من الدهر» فسأل عثمان فقال: سنة لقوله تعالى «تؤتي أكلها كلّ حين» فسأل عليّاً (عليه السلام) فقال: إن نذرت غدوة فتكلّم عشيّة، وإن نذرت عشيّة فتكلّم بكرة لقوله تعالى «فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون» ففرح الرجل، وقال: «الله أعلم حيث يجعل رسالاته»

وفي مفاتيح الجنان في المناجاة الثالثة عشر من مناجاة سيّد الساجدين زين العابدين الإمام عليّ بن الحسين عليهما السلام «أنت المسبّح في كلّ مكان، والمعبود في كلّ زمان، والموجود في كلّ أوان، والمدعوّ بكلّ لسان، والمعظّم في كلّ جنان»

وفي الصحيفة السجّاديّة قال سيّد الساجدين زين العابدين عليّ بن الحسين عليهما السلام «ثمّ له الحمد مكان كلّ نعمة له علينا وعلى جميع عباده الماضين والباقين عدد ما أحاط به علمه من جميع الأشياء، ومكان كلّ واحدة منها عددها أضعافاً مضاعفة أبداً سرمداً إلى يوم القيامة، حمداً لا منتهى لحدّه، ولا حساب لعدده، ولا مبلغ لغايته، ولا انقطاع لأمده، حمداً يكون وصلة إلى طاعته وعفوه، وسبباً إلى رضوانه، وذريعة إلى مغفرته، وطريقاً إلى جنّته، وخفيراً من نقمته، وأمناً من غضبه، وظهيراً على طاعته، وحاجزاً عن معصيته، وعوناً على تأدية حقّه ووظائفه، حمداً نسعد به في السعداء من أوليائه، ونصير به في نظم الشهداء بسيوف أعدائه إنّه وليّ حميد»

قوله (عليه السلام) - «له الحمد» قدّم الخبر لإفادة الاختصاص، والقصر فيه حقيقيّ، والمكان موضع كون الشيء أي موضع كلّ نعمة، والمراد كونه حاصلاً حيث حصلت كلّ

نعمة فيكون كناية مجازاً عن كونه مبدأً لكلّ نعمة وعوضاً عنها، كما تقول: حمداً له مكان دعائي قوتاً مقدمه وعوضاً عنه، وهو حال من المبتدأ، كما في قوله تعالى «وله الحمد في السموات والأرض»

أي الحمد كلّه مختصّ بالله تعالى دون غيره

وفي الصّحيفة: قول الإمام علي بن الحسين عليهما السلام «فلك الحمد على ما وقيتنا من البلاء، ولك الشكر على ما خوّلتنا من النعماء، حمداً يخلّف حمد الحامدين وراءه، حمداً يملأ أرضه وسماءه»

وفي الدرّ المنثور عن معاذ بن أنس عن رسول الله ﷺ «ألا أخبركم لِمَ سمّى الله إبراهيم خليله الذي وفّى؟ لأنّه كان يقول كلّما أصبح وأمسى: فسبحان الله حين تمسون و حين تصبحون وله الحمد في السموات والأرض وعشيّاً وحين تظهرون»

رواه ابن أبي حاتم في تفسيره

١٩ - (يخرج الحيّ من الميّت ويخرج الميّت من الحيّ ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون)

في فروع الكافي: - كتاب الحدود - باب التّحديد - بإسناده عن عبدالرحمن بن الحجّاج عن أبي إبراهيم (ع) في قول الله عزّوجلّ: «يحيي الأرض بعد موتها» قال: ليس يحييها بالقطر، ولكن يبعث الله رجالاً فيحيون العدل فتحيى الأرض لإحياء العدل، و لإقامة الحدّ لله أنفع في الأرض من القطر أربعين صباحاً»

قوله (ع): «ليس يحييها بالقطر» أي ليس يحييها بالقطر فقط

وفي تفسير القمّي: وقوله «يخرج الحيّ من الميّت ويخرج الميّت من الحيّ» قال: يخرج المؤمن من الكافر، ويخرج الكافر من المؤمن، وقوله «ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون» ردّ على الدّهريّة

وفي معاني الأخبار: سئل الحسن بن عليّ بن محمّد (ع) عن الموت ما هو؟ فقال: هو التصديق بما لا يكون، حدّثني أبي عن أبيه عن جدّه عن الصّادق (ع) قال: «إنّ المؤمن إذا

مات لم يكن ميتاً، فإنّ الميّت هو الكافر، إنّ الله عزّوجلّ يقول «يخرج الحيّ من الميّت و يخرج الميّت من الحيّ» يعني المؤمن من الكافر، و الكافر من المؤمن»

و في أصول الكافي ـ كتاب الإيمان و الكفر ـ باب طينة المؤمن و الكافر ـ حديث ٧) بإسناده عن إبراهيم عن أبي عبد الله ﷺ ـ حديث طويل ـ قال: و قال الله عزّوجلّ «يخرج الحيّ من الميّت و يخرج الميّت من الحيّ» فالحيّ المؤمن الّذي يخرج طينته من طينة الكافر، و الميّت الّذي يخرج من الحيّ هو الكافر الّذي يخرج من طينة المؤمن فالحيّ المؤمن، و الميّت الكافر، و ذلك قول الله عزّوجلّ «أو من كان ميتاً فأحييناه» فكان موته اختلاط طينته مع طينة الكافر، و كان حياته حين فرّق الله عزّوجلّ بينهما بكلمته، كذلك يخرج الله عزّوجلّ المؤمن في الميلاد من الظلمة بعد دخوله فيها إلى النور، و يخرج الكافر من النور إلى الظلمة بعد دخوله إلى النور و ذلك قوله عزّوجلّ «لينذر من كان حيّاً و يحقّ القول على الكافرين»

أقول: و قد سمّى الله تعالى الكافر ميتاً لأنّه لا يسمع خطابه، و لا يسمع غيره خطابه، فهو أسوأ حالاً من الميّت، إذ لا يوجد من الميّت ما يعقب عليه، و لا يستضرّ غيره به

و قد سمّي المؤمن حيّاً لأنّه ينتفع به و لغيره منفعته و نفعه في حياته و كذلك سمّي الكافر ميتاً و المؤمن حيّاً في مواضع من القرآن الكريم منها قوله تعالى «فإنّك لا تسمع الموتى» (الروم، ٥٢)

و في إكمال الدّين بإسناده عن حكيمة بنت محمّد بن عليّ بن موسى الرّضا عليهما السلام عمّة أبي محمّد الحسن عليهما السّلام أنّها قالت «كنت عند أبي محمّد ﴿ﷺ﴾ فقال بيتي الليلة عندنا فإنّه سيلد المولود الكريم على الله عزّوجلّ الّذي يحيي الله عزّوجلّ به الأرض بعد موتها، فقلت ممّن يا سيّدي؟ و لست أرى بنرجس شيئاً من أثر الحمل فقال من نرجس لا من غيرها، قالت فوثبت إليها فقلبتها ظهراً لبطن، فلم أر بها أثر الحمل، فعدت إليه ﴿ﷺ﴾ فأخبرته بما فعلت، فتبسّم ثمّ قال لي إذا كان وقت الفجر يظهر لك الحمل لأنّ مثلها مثل أمّ موسى لم يظهر بها الحمل و لم يعلم بها أحد إلى وقت ولادتها لأنّ فرعون كان يشقّ بطون الحبالى في طلب موسى و هذا نظير موسى ﴿ﷺ﴾ ... الحديث

و في وسائل الشيعة ـ باب (١) من أبواب مقدّمات الحدود ـ حديث (٢) بالإسناد عن عبدالرّحمن بن الحجّاج عن أبي إبراهيم (عليه السلام) في قول الله عزّوجلّ «يحيي الأرض بعد موتها» قال ليس يحييها بالقطر و لكن يبعث الله رجالاً فيحيون العدل، فتحيي الأرض لإحياء العدل، و لإقامة حدّ فيه أنفع في الأرض من القطر أربعين صباحاً»

و في البحار ـ باب ما ورد عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في أصناف آيات القرآن و أنواعها و تفسير بعض آياتها ـ حديث طويل ـ إلى أن قال «فردّ الله تعالى عليهم (على الملحدين في دينه) بما يدلّهم على صحّة البعث بعد موتهم و ذلك بقوله «يا أيّها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنّا خلقناكم من تراب ـ لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً» (حج ٥) فأقام سبحانه على الملحدين الدّليل عليهم من أنفسهم ثمّ قال مخبراً لهم «و ترى الأرض هامدة ـ و أنّ الله يبعث من في القبور» (حج ٥ ـ ٧)

و قال سبحانه «و الله الّذي أرسل الرّياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميّت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النّشور» (فاطر ٩) فهذا مثال أقامه الله عزّوجلّ لهم لحجّة في إثبات البعث و النّشور بعد الموت

و قال أيضاً في الرّدّ عليهم «فسبحان الله حين تمسون و حين تصبحون و له الحمد في السّموات و الأرض و عشيّاً و حين تظهرون يخرج الحيّ من الميّت و يخرج الميّت من الحيّ و يحيي الأرض بعد موتها و كذلك تخرجون»

و مثله قوله عزّوجلّ «و من آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً ـ إلى قوله ـ إذا أنتم تخرجون» (الرّوم ٢١ ـ ٢٥)

و احتجّ سبحانه عليهم و أوضح الحجّة و أبان الدّليل، و أثبت البرهان عليهم من أنفسهم، و من الآفاق و من السّموات و الأرض مشاهدة للعيان، و دلائل البرهان و أوضح البيان في تنزيل القرآن، كلّ ذلك دليل على الصّانع القديم المدبّر الحكيم، الخالق العليم الجبّار العظيم، سبحان الله ربّ العالمين» الحديث

و في تفسير القمّي قوله تعالى «و من آياته أن خلقكم من تراب ثمّ إذا أنتم بشر تنتشرون» أي تنتشرون في الأرض ـ إلى قوله «و من آياته أن تقوم السّماء و الأرض

بأمره» قال: يعني السّماء والأرض ههنا «ثمّ إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون» وهو ردّ على أصناف الزّنادقة.

وفي العلل: بإسناده عن عبدالله بن يزيد بن سلام، أنّه سأل رسول الله ﴿ﷺ﴾ فقال: «فأخبرني عن آدم لِمَ سمّي آدم؟ قال: لأنّه خلق من طين الأرض وأديمها، قال: فآدم خلق من الطّين كلّه، أو من طين واحد؟ قال: بل من الطّين كلّه، ولو خلق من طين واحد لما عرف النّاس بعضهم بعضاً، وكانوا على صورة واحدة، قال: فلهم في الدّنيا مثل؟

قال: التّراب فيه أبيض، وفيه أخضر، وفيه أشقر، وفيه أغبر، وفيه أحمر، وفيه أزرق، وفيه عذب، وفيه ملح، وفيه خشن، وفيه ليّن، وفيه أصهب، فلذلك صار النّاس فيهم ليّن، وفيهم خشن، وفيهم أبيض، وفيهم أصفر، وأحمر، وأصهب، وأسود على ألوان التّراب...» الحديث

وفي الكافي: بإسناده عن معاوية بن وهب قال: سمعت أبا عبدالله ﴿ع﴾ يقول: «انصرف رسول الله ﴿ﷺ﴾ من سريّة قد كان أصيب فيها ناس كثير من المسلمين، فاستقبلته النّساء يسألنه عن قتلاهنّ، فدنت منه امرأة فقالت: يا رسول الله ما فعل فلان؟ قال: وما هو منك؟ قالت: أبي، قال: احمدي الله واسترجعي فقد استشهد، ففعلت ذلك، ثمّ قالت: يا رسول الله وما فعل فلان؟ فقال: وما هو منك؟ فقالت: أخي، فقال: احمدي الله واسترجعي فقد استشهد، ففعلت ذلك، ثمّ قالت: يا رسول الله ما فعل فلان؟ فقال: وما هو منك؟ قالت: زوجي، قال: احمدي الله واسترجعي فقد استشهد، فقالت: واويلاه، فقال رسول الله ﴿ﷺ﴾: ما كنت أظنّ أنّ المرأة تجد بزوجها هذا كلّه حتّى رأيت هذه المرأة».

وفيه بإسناده عن معمّر بن خلّاد قال: سمعت أبا الحسن ﴿ع﴾ يقول: قال رسول الله ﴿ﷺ﴾ لابنة جحش: قتل خالك حمزة، قال: فاسترجعت، وقالت: أحتسبه عند الله، ثمّ قال لها: قتل أخوك، فاسترجعت، وقالت: أحتسبه عند الله، ثمّ قال لها: قتل زوجك، فوضعت يدها على رأسها وصرخت، فقال رسول الله ﴿ﷺ﴾: «ما يعدل الزّوج عند المرأة شيء»

قال الله تعالى: «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل

بينكم مودّة ورحمة»

وفي رواية أنّ رجلاً أتى النّبيّ ﷺ فقال: يا نبيّ الله لقد عجبت من أمر، وإنّه لعجب أنّ الرّجل يتزوّج المرأة، وما رآها وما رأته قطّ حتّى إذا ابتنى بها أصبحا، وما شيء أحبّ إلى أحدهما من الآخر؟ فقال رسول الله ﷺ: «وجعل بينكم مودّة ورحمة»

وقد تقدّمت المودّة على الرّحمة لأنّها المقدّمة لذلك، فبين الزّوجين توجد المحبّة والمودّة، وهي تفضي إلى الرّحمة.

إنّ الله تعالى يوجد بين الرّجل والمرأة بالزّواج مودّة ومحبّة وحناناً ورحمة فوثيقة قد تفوق في عواقبها الأخيرة صلات القرابة النّسبيّة، ويوجد بينهما رحمة وشفقة وعطف عميق ليس مقتصراً على الرّغبة الجنسيّة ولا التّكاثر فقط، بل معناه اختلاط الأرواح واتّصال النّفوس والاجتماع لغرض واحد، وهو بناء عشّ الزّوجيّة على أسس كريمة ودعائم قويمة.

٢٢ـ(ومن آياته خلق السّموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إنّ في ذلك لآيات للعالمين)

في اصول الكافي ـ كتاب الحجّة ـ باب معرفة الأئمّة عليهم السّلام أولياءهم ـ (حديث ٣) بإسناده عن عبد الله بن سليمان عن أبي عبد الله ﷺ ـ حديث طويل ـ قال: «إنّ الإمام إذا أبصر إلى الرّجل عرفه، وعرف لونه، وإن سمع كلامه من خلف حائط عرفه وعرف ما هو، إنّ الله يقول: «ومن آياته خلق السّموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إنّ في ذلك لآيات للعالمين» وهم العلماء، فليس يسمع شيئاً من الأمر ينطق به إلّا عرفه، ناج أو هالك، فلذلك يجيبهم بالّذي يجيبهم به»

والمعنى: إنّ في الألسن والألوان المختلفة لآيات وعلامات للعلماء الرّبّانيّين الّذين هم العالمون حقيقة وهم الأئمّة عليهم السّلام يستدلّون بها على إيمان الخلق ونفاقهم ونجاتهم وهلاكهم وسائر صفاتهم، وهذا من غرائب علومهم وشؤونهم صلوات الله عليهم.

وفي توحيد المفضّل: عن الإمام جعفر بن محمّد الصّادق ﷺ قال ـ في الرّدّ على الدّهريّة ـ «تأمّل يا مفضّل ما أنعم الله تقدّست أسماؤه به على الإنسان من هذا النّطق

الّذي يعبّر به عمّا في ضميره، وما يخطر بقلبه ونتيجة فكره، وبه يفهم عن غيره ما في نفسه (وبه يفهم عن غيره ما في نفسه خ) ولولا ذلك كان بمنزلة البهائم المهملة الّتي لا تخبر عن نفسها بشيء، ولا تفهم عن مخبر شيئاً. وكذلك الكتابة الّتي بها تقيّد أخبار الماضين للباقين، وأخبار الباقين للآتين، وبها تخلّد الكتب في العلوم والآداب وغيرها، وبها يحفظ الإنسان ذكر ما يجري بينه وبين غيره من المعاملات والحساب،

ولولاها لانقطع أخبار بعض الأزمنة عن بعض، وأخبار الغائبين عن أوطانهم، ودرست العلوم وضاعت الآداب وعظم ما يدخل على النّاس من الخلل في أمورهم ومعاملاتهم، وما يحتاجون إلى النّظر فيه من أمر دينهم، وما روي لهم ممّا لا يسعهم جهله، ولعلّك تظنّ أنّها ممّا يخلص إليه بالحيلة والفطنة، وليست ممّا أعطيه الإنسان من خلقه وطباعه، وكذلك الكلام إنّما هو شيء يصطلح عليه النّاس فيجري بينهم، ولهذا صار يختلف في الأمم المختلفة بألسن مختلفة، وكذلك الكتابة ككتابة العربيّ والسّريانيّ والعبرانيّ والرّوميّ وغيرها من سائر الكتابة الّتي هي متفرّقة في الأمم إنّما اصطلحوا عليها كما اصطلحوا على الكلام

فيقال لمن ادّعى ذلك: إنّ الإنسان وإن كان له في الأمرين جميعاً فعل أو حيلة، فإنّ الشّيء الّذي يبلغ به ذلك الفعل والحيلة عطيّة وهبة من الله عزّ وجلّ في خلقه، فإنّه لو لم يكن له لسان مهيّأ للكلام وذهن يهتدي به للأمور لم يكن ليتكلّم أبداً، ولو لم يكن له كفّ مهيّأة وأصابع للكتابة لم يكن ليكتب أبداً، واعتبر ذلك من البهائم الّتي لا كلام لها، ولا كتابة فأصل ذلك فطرة الباري جلّ وعزّ وما تفضّل به على خلقه، فمن شكر أثيب، ومن كفر فإنّ الله غنيّ عن العالمين»

وفيه: عن الإمام الصّادق ﴿عليه السلام﴾ قال ـ في الرّدّ على الدّهريّة ـ: «والكرى يقتضي النّوم الّذي فيه راحة البدن، وإجمام قواه ـ إلى أن قال ـ وكذلك لو كان إنّما يصير إلى النّوم بالتّفكّر في حاجته إلى راحة البدن، وإجمام قواه كان عسى أن يتثاقل عن ذلك، فيدفعه حتّى ينهك بدنه»

قوله ﴿عليه السلام﴾: «الكرى» النّعاس، و«الجمام» الرّاحة، و«ينهك» من النّهك الهزال والضّعف

وفي نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين عليّ بن أبي طالب (عليه السلام): «فانظر إلى الشمس والقمر، والنبات والشجر، والماء والحجر، واختلاف هذا الليل والنهار، وتفجّر هذه البحار، وكثرة هذه الجبال، وطول هذه القلال، وتفرّق هذه اللغات، والألسن المختلفات، فالويل لمن أنكر المقدّر، وجحد المدبّر».

وفي تحف العقول في وصيّة الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) لهشام بن الحكم وصفته للعقل - حديث طويل - إلى أن قال: «يا هشام، قد جعل الله جلّ وعزّ دليلاً على معرفته بأنّ لهم مدبّراً - وقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾» الحديث.

وفي الصحيفة السجّاديّة - الروضة السادسة والثلاثون - وكان من دعاء سيّد الساجدين زين العابدين عليّ بن الحسين عليهما السلام إذا نظر إلى السحاب والبرق، وسمع صوت الرعد: «اللهمّ إنّ هذين آيتان من آياتك، وهذين عونان من أعوانك، يبتدران طاعتك برحمة نافعة، أو نقمة ضارّة، فلا تمطرنا بهما مطر السوء، ولا تلبسنا بهما لباس البلاء».

قوله (عليه السلام): «آيتان من آياتك» أي علامتان من علاماتك الدالّة على وحدانيّتك وقدرتك، و«عونان من أعوانك» أي خادمان من خدمك نافذان في أمرك وهو مجاز مرسل من باب إطلاق اسم اللازم على الملزوم لأنّ الخدمة وتنفيذ الأمر لازمان للإعانة والمظاهرة.

وفي أصول الكافي: كتاب العقل والجهل - حديث ١٢، عن هشام بن الحكم قال: قال لي أبو الحسن موسى بن جعفر (عليه السلام) - حديث طويل -: «يا هشام، قد جعل الله ذلك دليلاً على معرفته بأنّ لهم مدبّراً فقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾» الحديث.

وفي رواية عن أبي سعيد الخدري عن النبيّ (صلّى الله عليه وآله) قال: «كلّ قنوت في القرآن فهو طاعة».

وفي الصحيفة السجّاديّة - الروضة التاسعة والأربعون - من دعاء سيّد الساجدين

زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام في دعاء عرفة: «سبحانك خشع لك من جرى في علمك، وخضع لعظمتك ما دون عرشك، وانقاد للتسليم لك كلّ خلقك» انتهى. والمراد خضوعهم بأن كون جميعهم في ملكه وتحت قدرته لا يمتنع عن تصرّفه فيه كيف يشاء، أو طاعتهم له في الحياة والبقاء والموت والبعث وإن عصوا في العبادة، وهذا أحد الأقوال الواردة في قوله تعالى: «وله من في السماوات والأرض كلّ له قانتون» فالكفّار مطيعون يوم القيامة، أو المراد خضوع الجميع طوعاً وكرهاً كما قال سبحانه: «وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً» (آل عمران ٣: ٨٣) أي أخلص له الانقياد، وخضع له بالخضوع كلّ من في السماوات والأرض طائعين وكارهين، فالملائكة والمسلمون المخلصون من أنفسهم ينقادون له طوعاً في جميع الأديان، وينقاد له الضلّال كرهاً في غير الدين من الآلام والمكاره التي تصيبهم لأنّهم لا يمكنهم دفع قضائه وقدره، وأمّا الكافرون فينقادون في الدين كرهاً بالسيف وبمعاينة ما يلجئهم إلى الإسلام، ولطاعته كسوق ... عند المعاينة والإشراف على الموت، ومثل هذه قوله سبحانه: «ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً» (الرعد ١٥).

وفيما ورد في الروضة الشريفة والصحيفة من دعائه عليه السلام في الاعتراف بالتقصير عن تأدية الشكر: «فكلّ البرية معترفة بأنّك غير ظالم لمن عاقبت، وشاهدة بأنّك متفضّل على من عافيت، وكلٌّ مُقِرٌّ على نفسه بالتقصير عمّا استوجبت، فلولا أنّ الشيطان يختدعهم عن طاعتك ما عصاك عاص، ولولا أنّه صوّر لهم الباطل في مثال الحقّ ما ضلّ عن طريقك ضالّ» انتهى.

قوله عليه السلام: «فكلّ» هنا للاستغراق أفراد المضاف إليه، أي كلّ إنسان يعترف بأنّك غير ظالم.

فإن قلت: كيف يصحّ هذا الاستغراق وكثير من الناس لا يعترف بوجوده، وكثير منهم لا يعترف بوحدانيّته فضلاً عن عدله ووجوده؟

قلت: يجاب عنه بأجوبة.

منها: أن يكون الاستغراق عرفيّاً، فالمراد بالبرية الموحّدون منهم

و منها أن تكون حقيقيّة، و المراد بالمعرفة من أن يكون صريحاً و نروماً و حظوراً

أمّا الأوّل فهو الاعتراف من المؤمن بفقدانه تكويناً و تشريعاً و بهما أشار بقوله تعالى «يا أيّها الّذين آمنوا آمنوا بالله و رسوله» (النساء: ١٣٦)

و أمّا الثاني فهو الاستدلال بكلّ أحد مؤمناً كان أو كافراً، حيث إنّ الناس كلّهم خلقوا على فطرة التوحيد «فطرت الله الّتي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله» (الروم: ٣٠) فالناس جميعاً بفطرتهم معترفون بتوحيد الله جلّ و علا، و منقطعون إليه تعالى عند نزول الشدائد بلاء بهم كما قال تعالى في ذلك بقوله «و إذا مسّكم الضّرّ في البحر ضلّ من تدعون إلّا إيّاه» (الإسراء: ٦٧) و هذا من الحقيقة بمعرفة كلّ أحد و لا تجد أحداً إلّا و هو عند انقطاعه إلى خالقه من غير الله و فطرته و إنه يدعوهم بشريعة بقوله جلّ و علا «تعالوا إلى كلمة سوآء بيننا و بينكم ألّا نعبد إلّا الله و لا نشرك به شيئاً» (آل عمران: ٦٤)

و من البداهة أنّ ذات البشر بالضرورة لا تعرف بكون هذا المنقطع عليه و المفروع إليه قادراً غير عاجز و قويّاً غير ضعيف و غنيّاً غير فقير، و عالماً غير جاهل، و مالكاً غير مملوك، و ربّاً غير مربوب، فالعقل يذعن له بأنّ ذاته سخاء حيره على غيره لا عن حاجة به إليه، و لا غرض يعود نفعه عليه، بل هو تفضّل منه و إحسان و من شأنه ذلك، فلا داعي له إلى تقسيم إلى عذاب، سوى العدل، و لا غرض له بعبادة من عباده سوى النفس

و قوله عليه السلام «و كلٌّ مُقِرٌّ على نفسه بالتقصير عمّا استوجبت» أي من الطّاعة و العبادة، و يقرّ أنّه مستحقّ بسبب الفعل أو الحال، فإنّهم و إن بالغوا و اجتهدوا كانوا مقصّرين، غير بالغين كنه عبادته تعالى و حقيقتها، إذ لا قدر لها في جنب نعمه عليهم سابقاً و لاحقاً، بل هي عمل عمّا يجب بعظمته و جلاله و كبريائه و قد كانت الملائكة المقرّبون و الأنبياء و المرسلون و الأوصياء و الأئمّة المعصومون صلوات الله عليهم أجمعين يقولون «سبحانك ما عبدناك حقّ عبادتك...» و «ما عرفناك حقّ معرفتك» فما ظنّك بسواهم؟

و إلى هذا المعنى أشار مولى الموحّدين إمام المتّقين سيّد الوصيّين أمير المؤمنين عليّ بن

أبيطالب (عليه السلام)

في نهج البلاغة: «و والله لو انماثت قلوبكم انمياثاً، وسالت عيونكم من رغبة إليه أو رهبة منه دماً، ثمّ عمّرتم في الدّنيا، ما الدّنيا باقية، ما جزت أعمالكم ـ ولو لم تبقوا شيئاً من جهدكم ـ أنعمه عليكم العظام وهداه إيّاكم للإيمان» الخطبة ٥٢.

فالنّاس كلّهم بفطرتهم موحّدون، ومطيعون لله تعالى، ومعترفون بالتقصير عن أداء ما أوجب الله جلّ وعلا عليهم من الطّاعة والعبادة تجاه ما أنعم عليهم من نعمه، وهم بطبيعتهم مشركون وعاصون، ومستكبرون عن العبادة والطّاعة، وغافلون عن نعم الله تعالى عليهم.

وذلك أنّ الإنسان ذو جانبين: مركّب من الفطرة الّتي منبعها الرّوح المخلوق الإلهي «ونفخت فيه من روحي» ص ٧٢، ومن ذاتها هو العقل الّذي يدعو الإنسان إلى التوحيد والطّاعة، ومن الطبيعة الّتي تكون قواها العناصر وحاملها الرّوح الحيواني، ومن ذاتها هوى النّفس الأمّارة بالسّوء، ومحرّكها الشّيطان في دواعيها.

وقد أشار الإمام زين العابدين عليّ بن الحسين (عليه السلام) إلى الفطرة في أوّل كلامه هذا، وإلى الطّبيعة بقوله (عليه السلام): «فلولا أنّ الشّيطان يختدعهم...»

وذلك أنّ الشّيطان هو جوهر خلقيّ ناريّ، متولّد من طبقة نارية دخانية «وخلق الجانّ من مارج من نار» الرحمن ١٥ و«إبليس كان من الجنّ» الكهف ٥٠ وكان له بعض ملكوتية ظهرت عنه ظلمانية رديّة، شأنه الإغواء، وسبيله الإضلال كما قال تعالى حكاية عنه «فبعزّتك لأغوينّهم أجمعين إلّا عبادك منهم المخلصين» ص: ٨٢ ـ ٨٣) وقوله «ولأضلّنّهم ولأمنّينّهم ولآمرنّهم» النساء ١١٩، وذلك لأنّ سلطته على طبيعة الإنسان المختلفة المشوبة بكلّ شيء موهّم، لا على فطرته الخالصة الموحّدة، فليس للشّيطان فيها سبيل.

ولذلك كان الجهل من صنيعة الإنسان لا من مقتضى فطرته، وهوى النّفس يأمر الإنسان بما تقتضيه طبيعته وهو الشّرك والطّغيان، والكفر والعصيان، وإنّ الشّيطان هو حليف النّفس وقرينها محرّكها في دعوتها، وأمّا تأثيره في النّفس وتحريكه إيّاها إلى ما

تقتضيه طبيعة الإنسان فيما يتعلق بسلطة الشيطان وسرعة نفوذه في عروقه، ولطائف أعضائه وأخلاطه التي هي محالّ الشعور والاعتقاد، واقتداره على إضلاله بالوسوسة والإضلال وإن لحظة في موادّ طبيعة الإنسان أو في الروح الحيوانيّ والقوى الشهوانية للإنسان

وإنّ مؤيّد العقل هو الشرع، ومؤيّد الهوى هو الشيطان، وإنّ قلب الإنسان كالمرآة ذي وجهين بين فطرته وطبيعته، وتنعكس في يمين وجهة القلب بواسطة العقل والشّرع مقتضى الفطرة، وهو التّوحيد والطّاعة، وتنعكس في يسار وجهة القلب بواسطة الهوى وطبيعته مقتضيات الطّبيعة وهي الشرك والغواية، والكفر والضّلالة، والبغي والجناية

فمن استجاب لدعوة العقل ومؤيّده فيؤمن بالله تعالى، ومن تبع هواه وطبيعته فيكفر ويطغى

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين أمير المؤمنين الإمام عليّ ﴿ع﴾: «اللّهمّ داحي المدحوّات وداعم المسموكات وجابل القلوب على فطرتها شقيّها وسعيدها...» الخطبة (٧١)

وفي التّوحيد باب أسماء الله تعالى الحديث ٩ بإسناده عن أبي الصّلت عبد السّلام بن صالح الهرويّ عن عليّ بن موسى الرّضا عن أبيه عن آبائه عن عليّ عليهم السّلام قال: قال رسول الله ﴿ص﴾ في حديث طويل: «الأكرم معناه الكريم، وقد جاء الأعلى في معنى الغلبة، مثل قوله عزّ وجلّ: «وهو القاهر فوق عباده» أي هو القاهر عليهم...» الحديث

وفيه عن الإمام جعفر بن محمّد الصّادق ﴿ع﴾: «ولله المثل الأعلى الّذي لا يشبهه شيء ولا يوصف ولا يتوهّم، فذلك المثل الأعلى»

وفي العيون عن الإمام عليّ بن موسى الرّضا عليه آلاف التّحيّة والثّناء أنّ النّبيّ ﴿ص﴾ قال لعليّ ﴿ع﴾: «وأنت المثل الأعلى»

وفيه: عن عبد الله بن عبّاس قال: «قام رسول الله ﴿ص﴾ فينا خطيباً، فقال في آخر خطبته: «نحن كلمة التّقوى، وسبيل الهدى والمثل الأعلى والحجّة العظمى والعروة الوثقى...» الحديث

و في الزيارة الجامعة الكبيرة: «السلام على أئمة الهدى، و مصابيح الدجى، و أعلام التقى، و ذوي النهى، و أولي الحجى، و كهف الورى، و ورثة الأنبياء، و المثل الأعلى، و الدعوة الحسنى، و حجج الله على أهل الدنيا و الآخرة و الأولى و رحمة الله و بركاته» الزيارة

و في زيارة الإمام الجواد محمد التقي (ع): «... و وحيد الأوصياء في الإخلاص و العبادة، و حجتك العليا، و مثلك الأعلى، و كلمتك الحسنى ...»

و في نهج البلاغة: قال مولى الموحدين أمير المؤمنين الإمام علي (ع) لكميل بن زياد النخعي رضوان الله تعالى عليه ـ في حجج الله تعالى و خلفائه: «... هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة، و باشروا روح اليقين، و استلانوا ما استوعره المترفون، و أنسوا بما استوحش منه الجاهلون، و صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلّقة بالمحلّ الأعلى، اولئك خلفاء الله في أرضه، و الدعاة إلى دينه ...»

و في اصول الكافي ـ كتاب العقل و الجهل حديث ١٢، عن هشام بن الحكم قال: قال لي أبو الحسن موسى بن جعفر (ع) ـ في حديث طويل ـ قال: «... يا هشام، قد جعل الله ذلك دليلاً على معرفته بأنّ لهم مدبّراً فقال: «هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصّل الآيات لقوم يعقلون»

٣٠ـ﴿فأقم وجهك للدّين حنيفاً فطرت الله الّتي فطر النّاس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدّين القيّم ولكنّ أكثر النّاس لايعلمون﴾

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين سيّد الوصيّين الإمام علي (ع): «... فبعث فيهم رسله، و واتر إليهم أنبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته، و يذكّروهم منسيّ نعمته، و يحتجّوا عليهم بالتبليغ، و يثيروا لهم دفائن العقول، و يروهم الآيات المقدّرة ...» الخطبة الاولى

و في اصول الكافي: بإسناده عن الحسين بن نعيم الصّحّاف عن أبي عبدالله (ع) ـ في حديث ـ قال: فقال (ع): «إنّ الله عزّ و جلّ خلق النّاس كلّهم على الفطرة الّتي فطرهم

عليها لا يعرفون إيماناً بشريعة ولا كفراً بجحود، ثمّ بعث الله عزّ وجلّ الرسل تدعو العباد إلى الإيمان به، فمنهم من هدى الله ومنهم من لم يهده»

أقول: إنّ الإنسان بفطرته الروحيّة موحّد مؤمن سعيد، وبها إنسانيّته، ولا اختلاف فيها بين أفراده بحيث لو اجتمعوا كلّهم من الأوّلين والآخرين في مكان واحد وزمان واحد، لكانوا جميعاً موحّدين، وهو بطبيعته الجسمانيّة مشرك كافر شقيّ، وبها له صورة إنسان، وفيها بين أفراده اختلاف بحيث لو اجتمعوا كلّهم في مكان واحد وزمان واحد لا يكون فردان منهم على طبيعة واحدة ولا على صورة واحدة ولا على عقيدة واحدة ولا على هوى نفس واحدة

وهذا الإنسان في جنب فطرته، عقل يدعوه إلى ما تقتضيه فطرته من التوحيد والإيمان والطاعة، وله في جنب طبيعته، هوى نفسه يدعوه إلى ما تقتضيه طبيعته من الشرك والكفر والعصيان، وله نفس ذو وجهين كمرآة ذي جهتين، في إحداهما تنعكس مقتضيات الفطرة، وفي الأخرى تنعكس مقتضيات الطبيعة، فهو بين الداعيين المتضادّين، وبذلك صار مختاراً في اعتقاده وعمله. فلابدّ لهذا الإنسان من شخص ثالث، خارج من ذاته معصوم عن الخطأ والزلل، مؤيّد من عند الله جلّ وعلا ليبيّن لهذا الإنسان ما فيه كماله وسعادته، وما فيه انحطاطه وشقاوته

فمن استمع لهذا النبيّ وتعقّل وغلبت فطرته على طبيعته بحسن اختياره، فهداه الله تعالى إلى صراطه المستقيم، ومن لم يستمع ولم يعقل، وخالفه وغلبت طبيعته على فطرته بسوء اختياره فلم يهده، ويذره في طغيانه يعمه

وفي التوحيد بإسناده عن زرارة قال: قلت لأبي جعفر (عليه السلام): أصلحك الله، قول الله عزّ وجلّ في كتابه «فطرة الله التي فطر الناس عليها»؟ قال: فطرهم على التوحيد عند الميثاق على معرفته، أنّه ربّهم، قلت: وخاطبوه؟ قال: فطأطأ رأسه. ثمّ قال: لولا ذلك لم يعلموا من ربّهم، ولا من رازقهم»

أقول: وفيه دلالة على أنّ العلم لا يحصل إلّا بالفطرة، فلا ينفع الإستدلال ما لم تكن الفطرة باقية بحالها، وأنّ الكافر إنّما يكفر باتّباع الهوى وتقليد الآباء، وغلبة طبيعته على

فطرته، و انعقّب لما عند جمعه من الرّسوم و العقائد الباطلة، و العادات الفاسدة، و الاشتغال بزخارف الدّنيا و انعمّه عن الحقّ و الهدى. و قد أشار رسول الله ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ إلى ذلك بقوله «كلّ مولود يولد على الفطرة حتّى يكون أبواه يهوّدانه أو ينصّرانه» و مع ذلك، فأصل الفطرة باقية لا تزول لأنّها عطيّة ثابتة بقوله تعالى «لا تبديل لخلق الله» و تظهر نورانيّتها بعد رفع الحجب عن القلب و تدعو الإنسان إلى الحقّ.

و في نهج البلاغة: قال يعسوب الدّين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﴿عليه السّلام﴾: و كلمة الإخلاص فإنّها الفطرة.

و في أصول الكافي: كتاب الإيمان و الكفر، باب فطرة الخلق على التّوحيد، حديث ١) بإسناده عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله ﴿عليه السّلام﴾ قال: قلت «فطرة الله الّتي فطر النّاس عليها» قال: التّوحيد.

و فيه بإسناده عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله ﴿عليه السّلام﴾ قال: سألته عن قول الله عزّ و جلّ «فطرة الله الّتي فطر النّاس عليها» ما تلك الفطرة؟ قال: هي الإسلام، فطرهم الله حين أخذ ميثاقهم على التّوحيد قال «ألست بربّكم» و فيه المؤمن و الكافر.

و فيه بإسناده عن زرارة قال: سألت أبا عبد الله ﴿عليه السّلام﴾ عن قول الله عزّ و جلّ «فطرة الله الّتي فطر النّاس عليها» قال: «فطرهم جميعاً على التّوحيد».

و فيه، بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر ﴿عليه السّلام﴾ قال: سألته عن قول الله عزّ و جلّ «حنفاء لله غير مشركين» قال: الحنيفيّة من الفطرة الّتي فطر الله النّاس عليها لا تبديل لخلق الله، قال: فطرهم على المعرفة به. قال زرارة: و سألته عن قول الله عزّ و جلّ «و إذ أخذ ربّك من بني آدم من ظهورهم ذرّيّتهم و أشهدهم على أنفسهم ألست بربّكم قالوا بلى» الآية قال: أخرج من ظهر آدم ذرّيّته إلى يوم القيامة، فخرجوا كالذّرّ فعرّفهم و أراهم نفسه، و لولا ذلك لم يعرف أحد ربّه، و قال: قال رسول الله ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ كلّ مولود يولد على الفطرة، يعني المعرفة بأنّ الله عزّ و جلّ خالقه، كذلك قوله «و لئن سألتهم من خلق السّموات و الأرض ليقولنّ الله».

و في دعائم الإسلام: عن جعفر بن محمّد عليهما السّلام في قول الله عزّ و جلّ «فأقم

وجهك للدّين حنيفاً» قال: أمره أن يقيم وجهه للقبلة حنيفاً ليس فيه شيءٌ من عبادة الأوثان خالصاً مخلصاً»

وفي تفسير القمي بإسناده عن [illegible] عن أبي عبدالله (ع) في قول الله عزّوجلّ «فأقم وجهك للدّين حنيفاً» قال: تقيم للصّلاة لا تلتفت يميناً وشمالاً.

أقول: ومن المحتمل أن يكون المراد بالدّين الصّلاة لأنّها عمود الدّين ومن لوازمه كما عبّر عنها بالإيمان في قوله تعالى: «وما كان الله ليضيع إيمانكم» البقرة ١٤٣، ودلّ على عدم جواز الالتفات بالوجه يميناً وشمالاً، ولا يبعد شمولها لما بين المشرق والمغرب أيضاً عرفاً.

وفي البحار بالإسناد عن [illegible] قال: سمعت أبا عبدالله (ع) يقول: «ما من عبد يقوم إلى الصّلاة فيقبل بوجهه إلى الله إلّا أقبل الله إليه بوجهه، فإن التفت صرف الله وجهه عنه، ولا يحتسب من صلاته إلّا ما أقبل بقلبه إلى الله. ولقد صلّى أبو جعفر (ع) ذات يوم، فوقع على رأسه شيء فلم ينزعه من رأسه حتّى قام إليه جعفر، فنزعه من رأسه تعظيماً لله وإقبالاً على صلاته، وهو قول الله: «فأقم وجهك للدّين حنيفاً» وهي أيضاً في الولاية».

ثمّ قال العلامة المجلسي رحمه الله تعالى عليه: أي هذا ظاهر الآية، وفي باطن الآية فسّر الدّين بالولاية أو المعنى أنّ الحنيف إشارة إلى الولاية»

وفي روضة الكافي بإسناده عن إسماعيل الجعفي عن أبي جعفر (ع) قال: «كانت شريعة نوح صلّى الله عليه أن يعبد الله بالتّوحيد والإخلاص وخلع الأنداد، وهو الفطرة الّتي فطر النّاس عليها...» الحديث

وفي تفسير العيّاشي عن مسعدة عن أبي عبدالله (ع) في قول الله «كان النّاس أمّة واحدة» الآية - حديث طويل - قلت: أفضلالاً كانوا قبل النّبيّين أم على هدى؟ قال: لم يكونوا على هدى، كانوا على فطرة الله الّتي فطرهم عليها لا تبديل لخلق الله، ولم يكونوا ليهتدوا حتّى يهديهم الله، أما تسمع بقول إبراهيم: «ولئن لم يهدني ربّي لأكوننّ من القوم الضّالّين» أي ناسياً للميثاق»

وفي محاسن البرقي بإسناده عن زرارة قال: سألت أبا جعفر (ع) عن قول الله

عزّوجلّ «فطرة الله الّتي فطر النّاس عليها» قال: فطرهم على معرفته أنّه ربّهم، ولولا ذلك لم يعلموا إذا سئلوا من ربّهم ومن رازقهم».

وفي تفسير القمي، في قوله «فأقم وجهك للدّين حنيفاً» أي طاهراً.

وفيه: بإسناده عن أبي بصير عن أبي جعفر (عليه السلام) في قوله «فأقم وجهك للدّين حنيفاً» قال: هي الولاية». وذلك أنّ الله تعالى أمر بتوجيه الوجه إلى الدّين القويم، والإعراض عن جميع الأديان الباطلة والمذاهب الفاسدة، والآراء الكاسدة، ولا ريب أنّ ولاية مولى الموحّدين أمير المؤمنين والأئمة المعصومين عليهم السّلام أعظم أجزائه، بل لا يعرف غيرها إلّا به، ومناسبة التفسير «هي» باعتبار الخبر.

وفيه: عن محمّد بن عليّ بن الحسين عليهم السّلام في قوله «فطرة الله الّتي فطر النّاس عليها» قال: هو لا إله إلّا الله محمّد رسول الله، عليّ أمير المؤمنين وليّ الله إلى ههنا التوحيد.

قال بعض المعاصرين: ومعنى كون الفطرة هي الشّهادات الثّلاث أنّ الإنسان مفطور على الاعتراف بالله لا شريك له بما يجد من حاجته إلى الأسباب المنتهية إلى مدبّرها، وهو التّوحيد، وبما يجد من النّقص المحوج إلى دين يدين به ليكمله، وهو النّبوّة، وبما يجد من الحاجة إلى الدّخول في ولاية الله بتنظيم العمل بالدّين وهو الولاية، والفاتح لها في الإسلام هو عليّ (عليه السلام) وليس معناه أنّ كلّ إنسان حتّى الإنسان الأوّلي يدين بفطرته بخصوص الشّهادات الثّلاث. وإلى هذا يؤول معنى الرّواية السابقة أنّها الولاية فإنّها تستلزم التّوحيد والنّبوّة، وكذا ما مرّ من تفسيره الفطرة بالتّوحيد فإنّ التّوحيد هو القول بوحدانيّة الله تعالى المستجمع لجميع صفات الكمال المستلزمة للمعاد والنّبوّة والولاية فلا تنافي في تفسيرها بالشّهادات الثّلاث والتّوحيد والولاية وغيرها» انتهى كلامه.

أقول: إنّ المستفاد من الآيات الكثيرة والرّوايات المتواترة أنّ الولاية هي روح الرّسالة بحيث لولا الولاية لم تكن الرّسالة متحقّقة إذ قال الله تعالى «يا أيّها الرّسول بلّغ ما أنزل إليك من ربّك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته» المائدة: ٦٧، وأنّ بالولاية كمال الدين الفطرة الّتي فطر الله النّاس عليها، وبها تمام النّعمة الإلهيّة على عباده المؤمنين وبها رضي لهم الإسلام ديناً إذ قال «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم

الإسلام دينًا» (المائدة: ٣) فلا فكاك بين الشهادات الثلاث عند من كان له اتّزانه وحسب لولايته. فمن شكّ في ذلك فهو عديم درايته وخبيث الولادة بلا شكّ ولا ريبة.

وفي الدرّ المنثور عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «فطرة الله التي فطر الناس عليها» قال: دين الله». وهو الدين الإسلاميّ الذي كماله بالولاية كما أنّ تبليغ الرسالة كان بها مع أنّ الإقرار بالرسالة والولاية من شروط التوحيد كما في كتاب التوحيد (باب ثواب الموحّدين والعارفين، حديث ٢٣) بإسناده عن إسحاق بن راهويه قال: لمّا وافى أبو الحسن الرضا ﷺ نيسابور وأراد أن يخرج منها إلى المأمون اجتمع إليه أصحاب الحديث فقالوا له: يابن رسول الله ترحل عنّا ولا تحدّثنا بحديث فنستفيده منك؟ وكان قد قعد في العماريّة فأطلع رأسه، وقال: سمعت أبي موسى بن جعفر يقول: سمعت أبي جعفر بن محمّد يقول: سمعت أبي محمّد بن عليّ يقول: سمعت أبي عليّ بن الحسين يقول: سمعت أبي الحسين بن عليّ بن أبي طالب يقول: سمعت أبي أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: سمعت جبرئيل يقول: سمعت الله جلّ جلاله يقول: لا إله إلّا الله حصني فمن دخل حصني أمن من عذابي»

قال: فلمّا مرّت الراحلة نادانا: «بشروطها وأنا من شروطها»

قال الشيخ الصدوق رحمه الله تعالى عليه: «من شروطها الإقرار للرضا ﷺ بأنّه إمام من قبل الله عزّوجلّ على العباد، مفترض الطاعة عليهم» انتهى كلامه

وفيه (في هذا الباب، حديث ٤) بإسناده عن المفضّل بن عمر قال: قال أبو عبدالله ﷺ: «إنّ الله تبارك وتعالى ضمن للمؤمن ضمانًا، قال: قلت: وما هو؟ قال: ضمن له إن هو أقرّ له بالربوبيّة، ولمحمّد ﷺ بالنبوّة، ولعليّ ﷺ بالإمامة، وأدّى ما افترض عليه أن يسكنه في جواره. قال: قلت: فهذه والله الكرامة التي لا تشبهها كرامة الآدميّين»

ومن البداهة أنّ الفطرة تطلب أن تدور الاعتقادات والحركات على مدار التوحيد وذلك لا يتمّ إلّا بهما

و قد ورد صحيحاً ـ حديث قدسي ـ قال الله عزّوجلّ: «ولاية عليّ بن أبيطالب حصني فمن دخل حصني أمن من عذابي»

و في التّوحيد ـ باب فطرة الله عزّوجلّ الخلق على التّوحيد ـ حديث ١٠ بإسناده عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﴿ﷺ﴾ «لاتضربوا أطفالكم على بكائهم، فإنّ بكائهم أربعة أشهر شهادة أن لاإله إلّا الله و أربعة أشهر الصّلاة على النّبيّ و آله، و أربعة أشهر الدّعاء لوالديه»

أقول: و ذلك أنّ الطّفل في الأربعة أشهر الأولى لايعرف أحداً، بل تعلّق به حاجته، فيطلب بالبكاء رفعها، و الرّافع لها هو الله تعالى، فهو يتضرّع إليه و يشهد له بالوحدانيّة، و في الأربعة أشهر الثّانية يعرف من والديه واسطة ما بينه و بين رافع حاجته من غير أن يعرفهما شخصيهما، و الواسطة بينه و بين ربّه هو النّبيّ و آله صلوات الله عليهم أجمعين، فكأنّه طلب الرّحمة من ربّه بالنّبيّ و آله عليهم السّلام حتّى يصل بتوسّطهم إليه، و في الأربعة أشهر الثّالثة تميّز والديه بشخصيهما عن غيرهما فيكون دعاؤه لهما، و طلب جريان الرّحمة من طريقهما إليه، ففي الحديث لطف الإشارة في كلمة جريان الفيض من مجرى الوسائط فافهم ذلك

و في رواية عن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله ﴿ﷺ﴾ «كلّ مولود يولد على الفطرة حتّى يعرب عنه لسانه، فإذا عبّر عنه لسانه إمّا شاكراً و إمّا كفوراً»

و في جوامع الجامع و منه الحديث ـ حديث قدسيّ ـ «خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشّياطين عن دينهم، و أمروهم أن يشركوا بي غيري»

و في نهج البلاغة عن مولى الموحّدين إمام المتّقين عليّ بن أبيطالب ﴿ﷺ﴾ «إنّ أفضل ما توسّل به المتوسّلون إلى الله سبحانه و تعالى الإيمان به و برسوله، و الجهاد في سبيله فإنّه ذروة الإسلام و كلمة الإخلاص فإنّها الفطرة» الخطبة ١٠٩

و فيه قال سيّد الوصيّين يعسوب الدّين أمير المؤمنين الإمام عليّ ﴿ﷺ﴾ «فإنّي وُلدتُ على الفطرة و سبقت إلى الايمان و الهجرة»

۳۷ـ (فآت ذا القربى حقّه و المسكين و ابن السّبيل ذلك خير للّذين يريدون وجه الله و اولئك هم المفلحون)

في مستدرك الوسائل للعلاّمة المحدّث النّوريّ الطّبرسيّ رضوان الله تعالى عليه ـ كتاب الخمس ـ أبواب قسمة الخمس ـ حديث ۱۰) السّيّد حيدر الآملي في الكشكول عن المفضّل بن عمر قال: قال مولاي الصّادق ﴿ع﴾: لمّا ولّي أبوبكر قال له عمر إنّ النّاس عبيد هذه الدّنيا لا يريدون غيرها، فامنع عن عليّ ﴿ع﴾ الخمس و الفيء و فدكاً، فإنّ شيعته إذا علموا ذلك تركوا عليّاً ﴿ع﴾ رغبة في الدّنيا، و إيثاراً و محاباة عليها، ففعل ذلك، و صرف عنهم جميع ذلك ـ إلى أن قال ـ فقال عليّ ﴿ع﴾ لفاطمة عليها السّلام سيري إلى أبي بكر و ذكّريه فدكاً مع الخمس و الفيء، فسارت فاطمة عليها السّلام إليه و ذكرت فدكاً مع الخمس و الفيء، فقال: هاتي بيّنة يا بنت رسول الله، فقالت له

أمّا فدك فإنّ الله عزّوجلّ أنزل على نبيّه ﴿ص﴾ قرآناً يأمر فيه بأن يؤتيني و ولدي حقّي، قال الله تعالى «فآت ذا القربى حقّه» فكنت أنا و ولدي أقرب الخلائق إلى رسول الله ﴿ص﴾ فنحلني و ولدي فدكاً. فلمّا تلا عليه جبرئيل «و المسكين و ابن السّبيل» قال رسول الله ﴿ص﴾: ما حقّ المسكين و ابن السّبيل؟ فأنزل الله «و اعلموا أنّما غنمتم من شيء فأنّ لله خمسه و للرّسول و لذي القربى و اليتامى و المساكين و ابن السّبيل». فقسّم الخمس خمسة أقسام، فقال «ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله و للرّسول و لذي القربى و اليتامى و المساكين و ابن السّبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم»

فما كان لله فهو لرسوله، و ما كان لرسوله فهو لذي القربى، و نحن ذو القربى، قال الله تعالى «قل لا أسئلكم عليه أجراً إلاّ المودّة في القربى» فنظر أبوبكر إلى عمر، فقال: ما تقول؟ فقال عمر: من ذي القربى، و من اليتامى و المساكين و ابن السّبيل؟ فقالت فاطمة عليها السّلام: اليتامى الّذين يأتمّون بالله و برسوله و بذي القربى، و المساكين الّذين أسكنوا معهم في الدّنيا و الآخرة، و ابن السّبيل الّذي يسلك مسلكهم، قال عمر: فإذاً الفيء و الخمس كلّه لكم و لمواليكم و لأشياعكم.

فقالت فاطمة عليها السّلام: أمّا فدك فأوجبها الله لي و لولدي دون موالينا و شيعتنا، و

أمّا الخمس فقسمه لله و للرّسول و لنا، كما يرى في كتاب الله. فقال عمر: فما لسائر المهاجرين و الأنصار و التّابعين لهم بإحسان؟ فقالت فاطمة عليها السّلام: إن كانوا موالينا و أشياعنا فلهم الصّدقات الّتي قسمها و أوجبها في كتابه، فقال عزّ و جلّ: «إنّما الصّدقات للفقرآء و المساكين و العاملين عليها و المؤلّفة قلوبهم و في الرّقاب» إلى آخر القصّة.

قال عمر: فدك لك خاصّة، و الفيء لكم و لأوليائكم، ما أحسب أنّ أصحاب رسول الله (ﷺ) يرضون بهذا. قالت فاطمة عليها السّلام: فإنّ الله رضي بذلك و رسوله رضي به، و قسم على الموالاة و المتابعة لا على المعاداة و المخالفة. الخبر

و في شواهد التّنزيل للحاكم الحسكاني الحنفي بإسناده عن ابن عبّاس قال: لمّا أنزل الله «و آت ذا القربى حقّه» دعا رسول الله (ﷺ) فاطمة و أعطاها فدكاً و دسّ لصلة القرابة، «و المسكين» الطّوّاف الّذي يسألك، يقول: أطعمه، «و ابن السّبيل» و هو الضّيف، حثّ على ضيافته ثلاثة أيّام و إيّاك يا محمّد إذا فعلت هذا فاعمله لوجه الله «و أولئك هم المفلحون» يعني أنت و من فعل هذا من النّاجين في الآخرة من النّار الفائزين بالجنّة».

في تفسير القمّي في قوله تعالى: «و ما آتيتم من ربا ليربوا في أموال النّاس فلا يربوا عند الله» بإسناده عن حفص بن غياث قال: قال أبو عبد الله (ع): الرّبا رباءان أحدهما حلال و الآخر حرام، فأمّا الحلال فهو أن يقرض الرّجل أخاه قرضاً طمعاً أن يزيده و يعوّضه بأكثر ممّا يأخذه بلا شرط بينهما، فإن أعطاه أكثر ممّا أخذه على غير شرط بينهما فهو مباح له، و ليس له عند الله ثواب فيما أقرضه، و هو قوله: «فلا يربوا عند الله» و أمّا الرّبا الحرام فالرّجل يقرض قرضاً، و يشترط أن يردّ أكثر ممّا أخذه فهذا هو الحرام. و قوله: «و ما آتيتم من زكوة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون» أي ما بررتم به إخوانكم و أقرضتموهم لا طمعاً في زيادة».

و قال الصّادق (ع): «على باب الجنّة مكتوب: القرض بثمانية عشر، و الصّدقة بعشرة».

و في مستدرك الوسائل ـ كتاب التّجارة ـ باب تحريم أجر الفاجرة ـ حديث ١) الجعفريّات بإسناده عن جعفر بن محمّد عن أبيه عن جدّه عليّ بن الحسين عن أبيه عن

عن عليّ بن أبي طالب عليهم السّلام قال «من السّحت ثمن الميتة، وثمن القدح، ومهر البغي، وكسب الحجام، واجر الكاهن وأجر القفيز، وأجر الفرطون والميزان إلاّ قفيزاً يكيله صاحبه أو ميزاناً يزن به صاحبه، وثمن الشّطرنج وثمن النرد، وثمن القرد، وجلود السّباع، وجلود الميتة قبل أن تدبغ، وثمن الكلب، وأجر الشّاعر الّذي لا يعطيك إلاّ بأجر، وأجر صاحب السّجن، وأجر القاضي (القاضي خ)، وثمن الخنزير وأجر القاضي، و أجر السّاحر (الصّاحب خ) واجر الحاسب بين القوم لا يحسب لهم إلاّ بأجر، وأجر القارىء الّذي لا يقرأ القرآن إلاّ بأجر

ولا بأس أن يجرى له من بيت المال وهديّة يهديها إليه تفضّل منه وذلك قوله تعالى «ولا تمنن تستكثر» وهو قوله تعالى «وما آتيتم من ربا ليربوا في أموال النّاس فلا يربوا عند الله» وهي الهديّة يطلب منها من الرّجل أكثر منها والرّشوة في الحكم وعسب الفحل، ولا بأس أن يهدي له المصحف وأجر القاضي لأنّ القاضي يجري عليه من بيت المال، و أجر المؤذّن لأنّ المؤذّن يجري عليه من بيت المال»

قوله «ع» «القفيز» المكيال و «الفرطون» الرّجل [illegible]، و «القدح» من يستمع القمار ويعرفها و «عسب الفحل» الكراء الّذي يؤخذ على تلقيح فحل الحيوانات بالأنثى

وفيه عنه الرّضا «ع» «أو عنه أنّ الرّبا رباءان: ربا يؤكل، وربا لا يؤكل. فأمّا الرّبا الّذي يؤكل، فهو هديتك إلى رجل تطلب الثّواب أفضل منه»

وفي فروع الكافي ـ كتاب المعيشة ـ باب الرّبا ـ حديث ٩ بإسناده عن إبراهيم بن عمر اليمانيّ عن أبي عبدالله «ع» قال: «الرّبا رباءان: ربا يؤكل وربا لا يؤكل فأمّا الّذي يؤكل فهديّتك إلى الرّجل تطلب منه الثّواب أفضل منها، فذلك الرّبا الّذي يؤكل وهو قوله عزّوجلّ «وما آتيتم من ربا ليربوا في أموال النّاس فلا يربوا عند الله» وأمّا الّذي لا يؤكل فهو الرّبا الّذي نهى الله عزّوجلّ عنه وأوعد عليه النّار»

رواه الشّيخ في التّهذيب مثله.

وفيه: بالاسناد عن إبراهيم بن عمر عن أبي عبدالله «ع» في قوله تعالى «وما آتيتم

من ربا ليربوا في أموال النّاس فلا يربو عند الله» قال هو هديتك إلى الرّجل تطلب منه الثّواب أفضل منها فذلك ربا يؤكل» و في الفقيه مثله

و في خطبة الصّدّيقة الطّاهرة فاطمة الزّهراء سلام الله عليها « ففرض الله تعالى الايمان تطهيراً من الشّرك والصّلاة تنزيهاً عن الكبر، والزّكاة زيادة في الرّزق » ملخصة

و في المجمع قال في قوله تعالى «وما آتيتم من ربا ليربوا في أموال النّاس فلا يربوا عند الله» قيل في الرّبا المذكور في الآية قولان أحدهما أنّه ربا حلال و هو أن يعطي الرّجل العطيّة او يهدي الهديّة ليثاب أكثر منها فليس فيه أجر و لا وزر عن ابن عبّاس و طاوس و هو المروي عن أبي جعفر (ع) و القول الآخر أنّه الرّبا المحرّم عن الحسن و الجبائي فعلى هذا يكون كقوله «يمحق الله الرّبا و يربي الصّدقات»

و في رواية: قال الإمام علي (ع): «المواهب ثلاثة موهبة يراد بها وجه الله و موهبة يراد بها وجوه النّاس و موهبة يراد بها الثّواب فموهبة الثّواب يرجع فيها صاحبها إذا لم يثب منها»

و ذلك أنّ الواهب لا يخلو في هبته من ثلاثة أحوال أحدها ـ أن يريد بها وجه الله تعالى، و يبتغي عليها الثّواب منه ثانيها ـ أن يريد بها وجوه النّاس رياء ليحمدوه عليها و يثنوا عليه من أجلها ثالثها ـ أن يريد بها الثّواب من الموهوب له و قال رسول الله (ص) «إنّما الأعمال بالنّيّات» فمن أراد بهبته وجه الله تعالى و ابتغى عليه الثّواب من عنده فله ذلك عند الله بفضله و رحمته قال الله تعالى «وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون»

و كذلك من يصل فرقته ليكونوا أغنياء حتّى لا يكونوا كلاّ على غيره فالنّيّة في ذلك متنوّعة، فإن كان ليتظاهر بذلك دنيا فليس لوجه الله سبحانه و إن كان لما له عليه من حقّ القرابة و بينهما من وشيجة الرّحم فإنّه لوجه الله عزّ و جلّ، و أمّا من أراد بهبته وجوه النّاس رياء و سمعة ليحمدوه عليها و يثنوا عليه من أجلها فلا منفعة له في هبته لا ثواب في الدّنيا و لا أجر في الآخرة

قال الله تعالى «يا أيّها الّذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ و الأذى كالّذي ينفق ماله رئاء النّاس» (البقرة ٢٦٤).

و أمّا من أراد الهبة فتثبت من الموهوب له فله ما أراد بهبته، و له أن يرجع فيها ما لم تتلف بعينها أو عوّضها، فلو وهب أن يرجع إلى هبته إن كانت عينها موجودة و كانت غير معوّضة.

و في مصباح الشريعة عن الإمام جعفر بن محمّد الصّادق (ع) قال: قال رسول الله (ص): الحريص محروم، و مع حرمانه مذموم في أيّ شيء كان و كيف لا يكون محروماً؟ و قد فرّ من وثاق الله و خالف قول الله تعالى حيث يقول «الله الّذي خلقكم ثمّ رزقكم».

و في عيون الأخبار، بإسناده عن ياسر الخادم قال: قلت للرّضا (ع): ما تقول في التّفويض؟ فقال: إنّ الله تبارك و تعالى فوّض إلى نبيّه (ص) أمر دينه، فقال «ما آتاكم الرّسول فخذوه و ما نهاكم عنه فانتهوا» فأمّا الخلق و الرّزق فلا. ثمّ قال (ع): إنّ الله عزّ و جلّ خالق كلّ شيء و هو يقول عزّ و جلّ «الله الّذي خلقكم ثمّ رزقكم ثمّ يميتكم ثمّ يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه و تعالى عمّا يشركون».

٤١ـ {ظهر الفساد في البرّ و البحر بما كسبت أيدي النّاس ليذيقهم بعض الّذي عملوا لعلّهم يرجعون}

في تفسير القمّيّ قوله «ظهر الفساد في البرّ و البحر بما كسبت أيدي النّاس» قال: في البرّ فساد الحيوان إذا لم يمطر، و كذلك هلاك دوابّ البحر بذلك.

و عن الصّادق (ع): «حياة دوابّ البحر بالمطر، فإذا كفّ المطر ظهر الفساد في البرّ و البحر و ذلك إذا كثرت الذّنوب و المعاصي».

و فيه بإسناده عن ميسّر عن أبي جعفر (ع) قال: قلت «ظهر الفساد في البرّ و البحر بما كسبت أيدي النّاس» قال: ذلك و الله يوم قالت الأنصار منّا رجل، و منكم رجل».

في روضة الكافي ـ حديث ١٩) بإسناده عن محمّد بن مسلم عن أبي جعفر (عليه السلام) في قوله عزّوجلّ «ظهر الفساد في البرّ و البحر بما كسبت أيدي النّاس» قال: ذاك و الله حين قالت الأنصار «منّا أمير و منكم أمير»

و فيه: ـ حديث ٣٤٩) بإسناده عن أبي الرّبيع الشّاميّ ـ في حديث ـ قال و سألت أبا عبدالله (عليه السلام) عن قول الله عزّوجلّ «قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبلكم» أمر فقال: عنى بذلك أي انظروا في القرآن فاعلموا كيف كان عاقبة الّذين من قبلكم و ما أخبركم عنه. الحديث

و لا ريب أنّ السبب الأصلي و الباعث الكلّي و الموجب للعمق في غور الأنهار و حبس الأمطار و ظهور الغلاء و الجدب و القحط و سائر علامات الغضب الإلهيّة الشرك بالله سبحانه و شيوع المعصية و كفران النّعمة و التّعدّي في الحقّ و العدوان، و منع الحقوق و التطفيف في المكيال و الميزان، و الظّلم و الغدر، و ترك الأمر بالمعروف و النّهي عن المنكر و نقص المكيال و الميزان و منع الزّكاة و الخمس، و الحكم بغير ما أنزل الله تعالى و ما أشبهها من المعاصي و الذّنوب الّتي تخرق السّتر و تكشف الأسرار و تغضب الجبّار

قال الله عزّوجلّ «إنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم» الرعد

و قال «و لو أنّ أهل القرى آمنوا و اتّقوا لفتحنا عليهم بركات من السّماء و الأرض و لكن كذّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون» الأعراف ٩٦)

و قال «و ضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنّة يأتيها رزقها رغداً من كلّ مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع و الخوف بما كانوا يصنعون» النحل ١١٢) و غيرها من الآيات القرآنية

في نهج البلاغة قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (عليه السلام): «و احذروا ما نزل بالأمم قبلكم من المثلات بسوء الأفعال و ذميم الأعمال فتذكّروا في الخير و الشّرّ أحوالهم و احذروا أن تكونوا أمثالهم» الخطبة القاصعة

و في وسائل الشّيعة ـ كتاب الصلاة ـ باب ٧ ـ من أبواب صلاة الاستسقاء ـ

بحديث ٢)؛

قال رسول الله ﷺ: «إذا غضب الله تبارك و تعالى على أمة و لم ينزل عليها العذاب ـ أي عذاب الاستئصال ـ غلت أسعارها و قصرت أعمارها و لم تربح تجارها و لم تزك ثمارها، و لم تغزر أنهارها، و حبس عنها أمطارها و سلّط عليها أشرارها»

و فيه ـ كتاب الأمر بالمعروف ـ باب ٤١ ـ من أبواب الأمر و النهي ـ الحديث ١: قال رسول الله ﷺ: «خمس إن أدركتموهن فتعوّذوا بالله منهن: لم تظهر الفاحشة في قوم حتّى يعلنوها إلّا ظهر فيهم الطّاعون و الأوجاع الّتي لم تكن في أسلافهم الّذين مضوا، و لم ينقصوا المكيال و الميزان إلّا أخذوا بالسّنين و شدّة المؤونة و جور السّلطان، و لم يمنعوا الزّكاة إلّا منعوا القطر من السّماء، فلولا البهائم لم يمطروا، و لم ينقضوا عهد الله و رسوله ﷺ إلّا سلّط الله عليهم عدوّهم فأخذ بعض ما في أيديهم، و لم يحكموا بغير ما أنزل الله إلّا جعل بأسهم بينهم»

و فيه ـ في هذا الكتاب ـ باب ٣٧ ـ من أبواب الأمر و النهي ـ الحديث ٤: قال الإمام الباقر ﷺ: «أما إنّه ليس سنة أقلّ مطراً من سنة، و لكنّ الله يضعه حيث يشاء، إنّ الله جلّ جلاله إذا عمل قوم بالمعاصي صرف عنهم ما كان قدّر لهم من المطر في تلك السّنة إلى غيرهم و إلى الفيافي و البحار و الجبال»

و فيه ـ عن الإمام جعفر بن محمّد الصّادق ﷺ: «إذا فشت أربعة ظهرت أربعة: إذا فشي الزّنا ظهرت الزّلزلة، و إذا عمل الجور في الحكم احتبس القطر ـ إلى أن قال ـ و إذا منعوا الزّكاة ظهرت الحاجة»

و فيه ـ كتاب الزكاة ـ باب ٣ ـ من أبواب ما تجب فيه الزّكاة ـ الحديث ٢٩: قال الإمام عليّ بن موسى الرّضا ﷺ: «إذا كذبت الولاة حبس المطر، و إذا جار السّلطان هانت الدّولة، و إذا حبست الزّكاة ماتت المواشي»

و فيه ـ كتاب الأمر بالمعروف و النّهي عن المنكر ـ باب ٨ من أبواب الأمر بالمعروف و النّهي عن المنكر ـ الحديث ١ في حديث: إنّ الله تعالى أوحى إلى شعيب: أنّي معذّب أربعين ألفاً من شرار قومك، و ستّين ألفاً من خيارهم، فقال: هؤلاء الأشرار، فما بال

الأخيار؟ قال: إنّهم داهنوا أهل المعاصي و لم يغضبوا لغضبي»

و في دعاء الكميل قال سيّد الوصيّين يعسوب الدّين الإمام عليّ ﴿عليه السلام﴾ «اللّهمّ اغفر لي الذّنوب الّتي تهتك العصم، اللّهمّ اغفر لي الذّنوب الّتي تنزل النّقم، اللّهمّ اغفر لي الذّنوب الّتي تغيّر النّعم، اللّهمّ اغفر لي الذّنوب الّتي تحبس الدّعاء، اللّهمّ اغفر لي الذّنوب الّتي تنزل البلاء...»

و في حديث عقوبات المعاصي: الذّنوب الّتي تغيّر النّعم البغي، و الذّنوب الّتي تورث النّدم القتل، و الّتي تنزل النّقم الظّلم، و الّتي تهتك السّتور شرب الخمر، و الّتي تحبس الرّزق الزّنا، و الّتي تعجّل الفناء قطيعة الرّحم، و الّتي تردّ الدّعاء و تظلم الهواء عقوق الوالدين.

و في نهج البلاغة قال إمام المتّقين عليّ بن أبي طالب ﴿عليه السلام﴾ «ألا و قد أمعنتم في البغي، و أفسدتم في الأرض، مصارحة لله بالمناصبة، و مبارزة للمؤمنين بالمحاربة ـ فالله الله في عاجل البغي، و آجل وخامة الظّلم و سوء عاقبة الكبر» الخطبة القاصعة

و فيه: قال أمير المؤمنين الإمام عليّ ﴿عليه السلام﴾: «و من سلّ سيف البغي قُتِلَ به»

و في خبر: «إنّ أسرع الشّرّ عقوبة البغي»

و في وسائل الشّيعة ـ كتاب الإجارة ـ باب ١٧ ـ الحديث ١ ـ قال أحدهم عليهم السّلام مشيراً إلى فتوى بلغت له عن بعض النّاس: «من هذا و أشباهه تحبس السّماء قطرها» و غيرها من الرّوايات الواردة عن أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين الّتي هي أكثر من أن تحصى

و في البحار: ابن النّعمان، عن داود بن فرقد عن أبي عبدالله ﴿عليه السلام﴾ قال: «إنّ العمل الصّالح ليذهب إلى الجنّة، فيمهد لصاحبه كما يبعث الرّجل غلامه فيفرش له، ثمّ قرأ: «أمّا الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات فلأنفسهم يمهدون» رواه المفيد (في المجلس الثّالث و العشرين) من أماليه

أقول: و ليست هذه العبارة آية في القرآن الكريم، و لولا الاشتباه من النّاسخ أو الرّاوي لذكر الإمام ﴿عليه السلام﴾ معنى الآية الكريمة

و فيه: و من كتاب الشّفاء و الجلاء عن أبي عبدالله ﴿عليه السلام﴾ قال: «إنّ الله عزّ و جلّ

خلق طينة المؤمن من طينة الأنبياء فلا ينجس أبداً و قال إنّ عمل المؤمن يذهب فيمهّد له في الجنّة كما يرسل الرّجل غلامه فيفرش له، ثمّ تلا «و من عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون»

و في المجمع و روى منصور بن حازم عن أبي عبد الله ﴿ع﴾ قال «إنّ العمل الصّالح ليسبق صاحبه إلى الجنّة، فيمهّد له كما يمهّد لأحدكم خادمه فراشه»

و فيه: و جاءت الرّواية عن أمّ الدّرداء أنّها قالت سمعت رسول الله ﴿ص﴾ يقول «ما من امرىء مسلم يردّ عن عرض أخيه إلّا كان حقّاً على الله أن يردّ عنه نار جهنّم يوم القيامة»

و في تفسير القمّي قال ثمّ ذكر عزّوجلّ عظم قدرته و تفضّله على خلقه، فقال «الله الّذي يرسل الرّياح فتثير سحاباً» أي ترفعه «فيبسطه في السّماء كيف يشاء و يجعله كسفاً»

قال بعضه على بعض «فترى الودق» أي المطر «يخرج من خلاله ـ إلى قوله ـ لمبلسين» أي آيسين «فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إنّ ذلك لمحيي الموتى» و هو ردّ على الدّهريّة»

و في الدّرّ المنثور عن أنس بن مالك أنّ رسول الله ﴿ص﴾ ترك قتلى بدر ثلاثاً حتّى جيفوا ثمّ أتاهم، فقام يناديهم، فقال «يا أميّة بن خلف، يا أبا جهل بن هشام، يا عتبة بن ربيعة، هل وجدتم ما وعد ربّكم حقّاً» فسمع عمر صوته ﴿ص﴾، فجاء فقال يا رسول الله تناديهم بعد ثلاث؟ و هل يسمعون؟ يقول الله «إنّك لا تسمع الموتى»؟ فقال ﴿ص﴾ «و الّذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع منهم، و لكنّهم لا يطيقون أن يجيبوا»

و في تفسير القمّي. و قال عليّ بن إبراهيم في قوله «الله الّذي خلقكم من ضعف» يعني من نطفة منتنة ضعيفة «ثمّ جعل من بعد ضعف قوّة ثمّ جعل من بعد قوّة ضعفاً» و هو الكبر

و في الصّحيفة السّجّاديّة ـ الرّوضة التّاسعة ـ قال سيّد السّاجدين زين العابدين الإمام الرّابع عليّ بن الحسين عليهما السّلام «اللّهمّ و إنّك من الضّعف خلقتنا، و على

الوهن بنيتنا، ومن ماء مهين [illegible]

وفي الشرح [illegible] الله تعالى الضّعف [illegible] الإنسان [illegible] و [illegible] فلأنّه [illegible] و [illegible] الأخلاق فلأنّه خلق ضعيفاً عن [illegible] هواه [illegible] لا يصبر عن [illegible] الشهوات ولا يستخدم قواه في [illegible] وعلا [illegible] وخلق الإنسان ضعيفاً [illegible] ٢٨ فإنّ المراد بالضّعف فيه الضّعف عن [illegible] هوى [illegible] و [illegible] في [illegible] ذلك، وإن ذهب إليه بعض المفسّرين، فإنّ [illegible] لا يساعده.

والوهن الضّعف [illegible] الإنسان من الأخلاق [illegible] من الأركان، [illegible] والضّعف [illegible] الأخلاق والوهن [illegible] الّذي هو خير منه

وفي قوله [illegible] «ومن ماء مهين» [illegible] قوله تعالى «وبدأ خلق الإنسان من طين ثمّ جعل نسله من سلالة من ماء مهين» السجدة ٧-٨، وقوله تعالى «ألم نخلقكم من ماء مهين» المرسلات ٢٠ والمهين الحقير الّذي لا يعتنى به والمراد بماء النّطفة.

قال بعض العلماء: «وفي خلق الإنسان ضعيفاً حكمة [illegible] وذلك أنّ الخلقة الإنسانيّة لو لم تكن ذات وهن وقصور في نفسه [illegible] الإنسان في احتياجه في الحالات كلّها إلى خالقه، ولو لم [illegible] و [illegible] الإنسان [illegible] إلى [illegible] فسبحان من جعل الإنسان [illegible]» انتهى كلامه

وفي تفسير القمّي في قوله تعالى: «وقال الّذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث» فإنّ هذه الآية مقدّمة ومؤخّرة وإنّما هي «وقال الّذين أوتوا العلم و

الإيمان في أمّ الكتاب فقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث»

و في اللوامع النّورانيّة عن عبد العزيز بن مسلم عن الرّضا ﴿ﷺ﴾ ـ في حديث وصف الإمام و من له الإمامة، و يستحقّها دون سائر الخلق ـ قال الرّضا ﴿ﷺ﴾: «ثمّ لم تزل في ذرّيّته يعني الإمامة في ذرّيّة إبراهيم الخليل ﴿ﷺ﴾ يرثها بعض عن بعض، قرناً فقرناً حتّى ورّثها الله عزّوجلّ النّبيّ ﴿ﷺ﴾ فقال جلّ و تعالى: «إنّ أولى النّاس بإبراهيم للّذين اتّبعوه و هذا النّبيّ و الّذين آمنوا و الله وليّ المؤمنين» فكانت له خاصّة، فقلّدها رسول الله ﴿ﷺ﴾ عليّاً ﴿ﷺ﴾ بأمر الله عزّوجلّ على رسم ما فرض الله فصارت في ذرّيّته الأصفياء الّذين آتاهم الله العلم و الإيمان بقوله جلّ و علا: «و قال الّذين أوتوا العلم و الإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث» فهي في عليّ ﴿ﷺ﴾ خاصّة إلى يوم القيامة إذ لا نبيّ بعد محمّد ﴿ﷺ﴾»

و في اصول الكافي ـ كتاب الحجّة ـ باب نادر جامع في فضل الإمام و صفاته ـ حديث ۱) مرفوعاً عن عبد العزيز بن مسلم، قال: كنّا مع الرّضا ﴿ﷺ﴾ بمرو فاجتمعنا في الجامع يوم الجمعة في بدء مقدمنا، فأداروا أمر الإمامة و ذكروا كثرة اختلاف النّاس فيها، فدخلت على سيّدي ﴿ﷺ﴾ فأعلمته خوض النّاس فيه، فتبسّم ﴿ﷺ﴾ ثمّ قال ـ حديث طويل ـ «فلم تزل في ذرّيّته يرثها بعض عن بعض قرناً فقرناً حتّى ورّثها الله تعالى النّبيّ ﴿ﷺ﴾ فقال جلّ و تعالى: «إنّ أولى النّاس بإبراهيم للّذين اتّبعوه و هذا النّبيّ و الّذين آمنوا والله وليّ المؤمنين»

فكانت له خاصّة فقلّدها ﴿ﷺ﴾ عليّاً ﴿ﷺ﴾ بأمر الله تعالى على رسم ما فرض الله، فصارت في ذرّيّته الأصفياء الّذين آتاهم الله العلم و الإيمان، بقوله تعالى: «و قال الّذين أوتوا العلم و الإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث» فهي في ولد عليّ ﴿ﷺ﴾ خاصّة إلى يوم القيامة إذ لا نبيّ بعد محمّد ﴿ﷺ﴾ فمن أين يختار هؤلاء الجهّال؟ »

فلا نبيّ بعد محمّد ﴿ﷺ﴾ حتّى تجعل الإمامة في غير ولد عليّ ﴿ﷺ﴾ فالإمامة في ولد عليّ ﴿ﷺ﴾ خاصّة دون غيرهم

و فيه: ـ كتاب الحجّة ـ باب الإشارة و النّصّ على أمير المؤمنين ﴿ﷺ﴾ ـ حديث ۲)

بإسناده عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: سمعته يقول: «لمّا أن قضى محمّد نبوّته، و استكمل أيّامه، أوحى الله تعالى إليه أن يا محمّد قد قضيت نبوّتك و استكملت أيّامك، فاجعل العلم الذي عندك و الإيمان و الاسم الأكبر و ميراث العلم و آثار علم النبوّة في أهل بيتك عند عليّ بن أبي طالب، فإنّي لن أقطع العلم و الإيمان و الاسم الأكبر و ميراث العلم و آثار علم النبوّة من العقب من ذرّيّتك كما لم أقطعها من ذرّيّات الأنبياء»

قوله (عليه السلام): «فاجعل العلم ...» إشارة إلى قوله سبحانه: «و قال الّذين أوتوا العلم و الإيمان» و إلى قوله عزّ و جلّ: «ما كنت تدري ما الكتاب و لا الإيمان» الشورى ٥٢، فالمراد بالعلم العلوم التي أوحى الله تعالى إلى رسوله (صلّى الله عليه و آله) و بالإيمان التصديق بها مع الانقياد المقرون بالإيقان، أو العلوم المتعلّقة بأصول الدين، فيكون تعميماً بعد التخصيص، و المراد بالاسم الأكبر إمّا الاسم الأعظم أو القرآن الكريم أو هو مع سائر الكتب السماويّة الدالّة على الأنبياء عليهم السّلام، فالمراد بالاسم صاحب الاسم، أو هو بمعنى العلامة، و المراد بميراث العلم ما في الخبر الآتي من كتب الأنبياء السابقين فيكون على بعض الوجوه المتقدّمة تأكيداً، أو كتب العلماء السابقين سوى الكتب السماويّة المنزلة

و من المحتمل أن يكون إضافة «ميراث» إلى «العلم» لاميّة فالمراد به العلامة الكبرى، و المراد به التخلّق بأخلاق الله تعالى أي ما أورثه العلم، و المراد به «آثار علم النبوّة» جميع علم النبيّ (صلّى الله عليه و آله) تأكيداً أو كتب الأنبياء عليهم السّلام تأكيداً أو تأسيساً أو آثار الأنبياء سوى العلم من السلاح و العصا و غيرها، أو هي علم الشرائع و الأحكام كلّها، أو إشارة إلى ما تتجدّد لهم من العلوم في ليلة القدر و غيرها، فإنّها من آثار علم النبوّة المترتّبة عليها، فالمراد بجعلها عنده جعله قابلاً و مهيّئاً لذلك

في تفسير الجواهر: قال عليّ بن أبي طالب (عليه السلام): «لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب»

و فيه: قال بعض العلماء: «القرآن يحوي سبعة و سبعين ألف علم، و مائتي علم إذ كلّ كلمة علم»

و فيه: قال ابن مسعود: «من أراد علم الأوّلين و الآخرين فليتدبّر القرآن»

و فيه: قال علي ﴿ﷺ﴾ «من فهم القرآن فسّر به جمل العلم»

ثمّ قال طنطاوي: أشار به إلى أنّ القرآن يشير إلى مجامع العلوم كلّها» و قال: «و بالجملة فالعلوم كلّها داخلة في أفعال الله عزّوجلّ و صفاته، و في القرآن شرح ذاته و أفعاله و صفاته»

٦٠ـ ﴿فاصبر إنّ وعد الله حقّ و لا يستخفّنّك الّذين لا يوقنون﴾

في تفسير القمّيّ: و قوله «فاصبر إنّ وعد الله حقّ و لا يستخفّنّك الّذين لا يوقنون» أي لا يغضبنّك، قال: كان عليّ بن أبي طالب ﴿ﷺ﴾ يصلّي و ابن الكوّاء خلفه، و أمير المؤمنين ﴿ﷺ﴾ يقرأ فقال ابن الكوّاء: «و لقد أوحي إليك و إلى الّذين من قبلك لئن أشركت ليحبطنّ عملك و لتكونّن من الخاسرين» فسكت أمير المؤمنين ﴿ﷺ﴾ حتّى سكت ابن الكوّاء، ثمّ عاد في قراءته حتّى فعل ابن الكوّاء ثلاث مرّات فلمّا كان في الثّالثة قال أمير المؤمنين ﴿ﷺ﴾ «فاصبر إنّ وعد الله حقّ و لا يستخفّنّك الّذين لا يوقنون»

و في مستدرك الوسائل: الجعفريّات أخبرنا محمّد حدّثني موسى، حدّثنا أبي عن أبيه عن جدّه جعفر بن محمّد عن أبيه «أنّ عليّاً عليه السّلام كان يؤمّ النّاس في مسجد الكوفة، فقرأ ابن الكوّا: «و لقد أوحي إليك و إلى الّذين من قبلك لئن أشركت ليحبطنّ عملك و لتكوننّ من الخاسرين» فلمّا قرأ سكت عليّ ﴿ﷺ﴾ فلمّا أتمّ ابن الكوّا الآية و سكت قرأ عليّ ﴿ﷺ﴾ ثمّ عاد ابن الكوّا، و سكت عليّ ﴿ﷺ﴾ ثلاث مرّات، ثمّ قرأ عليّ ﴿ﷺ﴾ الثّالثة «فاصبر إنّ وعدك حقّ و لا يستخفّنّك الّذين لا يوقنون»

و في تفسير المراغي: «أخرج ابن أبي شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و الحاكم و البيهقي أنّ رجلاً من الخوارج نادى عليّاً و هو في صلاة الفجر، فقال: «و لقد أوحي إليك و إلى الّذين من قبلك لئن أشركت ليحبطنّ عملك و لتكوننّ من الخاسرين» فأجابه و هو في الصّلاة «فاصبر إنّ وعد الله حقّ و لا يستخفّنّك الّذين لا يوقنون»

ثمّ قال المراغي: «و لا عجب من صدور مثل هذا الجواب على البديهة من عليّ كرّم الله وجهه و هو مدينة العلم»

وفي المناقب لابن شهرآشوب: الشيرويّ عن ابن بدران رضوان الله تعالى عليه، عن أبي مطهر البصريّ – في حديث – وكان عليّ (عليه السلام) في صلاة الصبح، فقال ابن الكوّاء من خلفه «ولقد أوحي إليك وإلى الّذين من قبلك لئن أشركت ليحبطنّ عملك ولتكوننّ من الخاسرين» فأنصت عليّ (عليه السلام) تعظيماً للقرآن حتّى فرغ من الآية، ثمّ عاد في قراءته، ثمّ أعاد ابن الكوّاء الآية، فأنصت عليّ (عليه السلام) أيضاً، ثمّ قرأ فأعاد ابن الكوّاء، فأنصت عليّ (عليه السلام) ثمّ قال: «فاصبر إنّ وعد الله حقّ ولا يستخفّنّك الّذين لا يوقنون» ثمّ أتمّ السّورة وركع... الحديث.

وفي أصول الكافي (كتاب الحجّة، باب ما يفصل به بين دعوى المحقّ والمبطل في أمر الإمامة، حديث ١٦) بإسناده عن موسى بن بكر بن داب، عمّن حدّثه، عن أبي جعفر (عليه السلام): أنّ زيد بن عليّ بن الحسين (عليه السلام) دخل على أبي جعفر محمّد بن عليّ ومعه كتب من أهل الكوفة يدعونه فيها إلى أنفسهم ويخبرونه باجتماعهم ويأمرونه بالخروج، فقال له أبو جعفر (عليه السلام): هذه الكتب ابتداء منهم أو جواب ما كتبت به إليهم ودعوتهم إليه؟ فقال: بل ابتداء من القوم لمعرفتهم بحقّنا وبقرابتنا من رسول الله (صلى الله عليه وآله) ولما يجدون في كتاب الله عزّ وجلّ من وجوب مودّتنا وفرض طاعتنا، ولما نحن فيه من الضّيق والضّنك والبلاء.

فقال له أبو جعفر (عليه السلام): إنّ الطّاعة مفروضة من الله عزّ وجلّ وسنّة أمضاها في الأوّلين، وكذلك يجريها في الآخرين، والطّاعة لواحد منّا والمودّة للجميع، وأمر الله يجري لأوليائه بحكم موصول، وقضاء مفصول، وحتم مقضيّ، وقدر مقدور، وأجل مسمّى لوقت معلوم «فلا يستخفّنّك الّذين لا يوقنون» إنّهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً، فلا تعجل فإنّ الله لا يعجل لعجلة العباد، ولا تسبقنّ الله فتعجزك البليّة فتصرعك. قال: فغضب زيد عند ذلك... الحديث.

«بحث فقهي قرآني استدلالي»

والكلام في البحث في مقامات و فصول خمسة عشر فصلاً

الفصل الاول: إن بعض الفقهاء استدل بقوله تعالى «فسبحان الله حين تمسون و حين تصبحون وله الحمد في السماوات والأرض وعشيّاً وحين تظهرون» الروم ١٧ - ١٨ على وجوب التسبيح و الحمد في ركوع الصلاة و سجودها، و ذلك أن قوله تعالى «فسبحان الله» خبر في معنى الأمر بتنزيه الله تعالى عما لا يليق بساحة قدسه و على الثناء عليه في الأوقات الأربع التي تظهر فيها قدرته و تتجدد فيها نعمه على عباده

و قوله تعالى «حين تمسون» أي تدخلون في المساء و «حين تصبحون» من الإصباح تدخلون في الصباح، و هما الوقتان الشاهدان على قدرته، حيث إنّ المساء وقت زوال النور بكامل [illegible] في الأفق و زمن [illegible] و الصباح وقت [illegible] النور في زمن [illegible]

و قوله سبحانه «و له الحمد في السماوات و الأرض» أي هو المستحق للحمد من أهلها لإنعامه تعالى عليهم، فعليهم أن يحمدوه وحده، فكلمة حمده معترضة، و «عشيّاً» معطوف على «حين تمسون» أي و في العشيّ، و ترك فيه «حين» لعدم مجيء الفعل منه و «حين تظهرون» أي تدخلون في الظهيرة و هي منتصف النهار

و من المحتمل أن يكون «و له الحمد» منعطفاً على ما قبله و يكون «و عشيّاً» معطوفاً على السماوات و الأرض، فيرجع المعنى إلى و له الحمد في السماوات و الأرض و في العشيّ و

الظّهيرة، فيكون التسبيح متعلّقاً بالمساء والصّباح والحمد بالعشيّ والظّهيرة لأنّ تجدّد النّعمة لأهله في هذين الوقتين أكثر كما أنّ ظهور القدرة والعظمة في المساء والصّباح أظهر

وفي الآيتين الكريمتين دلالة على رجحان تسبيحه وتحميده في هذه الأوقات، فإنّ المراد بالتسبيح والحمد مذكّر مخصوص، غير الصّلاة، وحينئذ فيثبت رجحان التّسبيح والحمد في الرّكوع والسّجود والاستحباب فيما عداهما ويؤيّده ما

في جوامع الجامع «عن النّبي (صلى الله عليه وآله) «من سرّه أن يكتال بالمكيال الأوفى فليقل «فسبحان الله حين تمسون - إلى قوله - وكذلك تخرجون»

وفي عوالي اللئالي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) «من قرأ حين يصبح «فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السّموات والأرض وعشيّاً وحين تظهرون يخرج الحيّ من الميّت ويخرج الميّت من الحيّ ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون» أدرك ما فاته في يومه، ومن قالها حين يمسي أدرك ما فاته في ليلته»

وفي قلائد الدّرر عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) مثله، ولكن بعد قوله تعالى «وكذلك تخرجون» أدرك ما فاته في ليلته، ومن قالها حين يمسي أدرك ما فاته في يومه»

واستدلّ أيضاً بقوله تعالى «حين تمسون وحين تصبحون» على جواز صلاة الصّبح ووجوبها من حين طلوع الفجر الصّادق، على أنّ الصّبح هو ما بين طلوع الفجر الصّادق إلى طلوع الشّمس، وعلى جواز صلاة المغرب ووجوبها من حين دخول المساء بذهاب الحمرة المشرقيّة من قمّة الرّأس إلى نصف الليل، وعدم جوازها قبله، فاللّيل شرعاً ما بين ذهاب الحمرة المشرقيّة إلى طلوع الفجر الثّاني، واليوم شرعاً ما بين طلوع الفجر الثّاني إلى ذهاب الحمرة المشرقيّة، فيقتضي ذلك خروج الصّبح عن مسمّى اللّيل

قال الله تعالى «وكلوا واشربوا حتّى يتبيّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثمّ أتمّوا الصّيام إلى اللّيل» (البقرة ١٨٧)

وإن كان أكثر أصحاب الحرف والصّناعات لمّا كان ابتداء عملهم من طلوع الشّمس إلى غروبها يطلقون اليوم على ما بينهما، كما أنّ أصحاب النّجوم قد يطلقون اليوم على ما بين

طلوع الشّمس إلى غروبها

و استدلّ بالآيتين الكريمتين على وجوب الصّلوات الخمس في كلّ يوم و ليلة، و ذلك أنّ قوله تعالى «حين تمسون» يقتضي المغرب و العشاء الآخرة، و «حين تصبحون» يقتضي صلاة الصّبح، و «عشيّاً» يقتضي صلاة العصر، و «حين تظهرون» يقتضي صلاة الظهر، و إنّما أخّر الظّهر عن العصر لرعاية الفواصل فالمعنى فصلّوا هذه الصّلوات الخمس في كلّ يوم و ليل في أوقاتها

و يؤيّده ما روي عن ابن عبّاس أنّه سئل هل تجد الصّلوات الخمس في القرآن؟ قال نعم و قرأها هاتين الآيتين

و رجّح الشّيخ الطّبرسيّ الماز ندراني في تفسير «مجمع البيان» هذا القول، ثمّ قال و إنّما خصّ صلاة اللّيل باسم التّسبيح، و صلاة النّهار باسم الحمد لأنّ الإنسان في النّهار متقلّب في أحوال توجب الحمد لله عليها، و في اللّيل على أحوال توجب تنزيه الله تعالى من الأسواء فيها فلذلك صار الحمد بالنّهار أخصّ، فسمّيت به صلاة النّهار، و التّسبيح باللّيل أخصّ، فسمّيت به صلاة اللّيل

و الكلام في عطف «عشيّاً» على السّموات و الأرض بما عرفت سابقاً و لكن ثبوت الصّلاة على الوجه المذكور في السّموات غير معلوم أن يقال باشتراك الصّلاة فيهما، و فيه نظر لاقتضائه عطف «عشيّاً و حين تظهرون» على «السّموات» و هو غير مناسب، مع أنّ ثبوت الصّلاة على الوجه المذكور «في السّموات» غير معلوم، فالأولى حمل التّسبيح وحده كناية عن الصّلاة و يكون جملة «و له الحمد» اعتراضيّة، و «عشيّاً» معطوف على «حين تمسون» كما أشرنا إليه سابقاً

لا يقال: يمكن أن يحتجّ بهذه الآية على اختصاص الوجوب في الصّلوات بأوّل الوقت لأنّ المخلوق لا يستحقّ العبادة و كما أنّه منزّه عن صفات المخلوقين كذلك هو متّصف بصفات الكمال الّتي لا يتّصف بها المخلوقون، و من كان كذلك يستحقّ مطلق الحمد و الثّناء و لذلك قرن الحمد بالتّسبيح، و قال «و له الحمد في السّموات و الأرض»

و إنّما خصّ الله تعالى العشيّ و الإظهار في الذّكر بالحمد ـ و إن كان حمده واجباً في جميع

الأوقات لأنّها أحوال تذكر بإحسان الله وذلك أنّ نعت الإحسان أوّل يقتضي الحمد عند تمام الإحسان والأخذ في الآخر كما قال: «وآخر دعواهم أن الحمد لله ربّ العالمين» (يونس: ١٠) انتهى كلامه.

الفصل الثاني: يستدلّ بقوله تعالى: «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودّة ورحمة إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون» (الروم: ٢١) على الحثّ على النكاح والترغيب فيه، وعلى عدم جواز نكاح الكافر للمؤمنة والمؤمن من الكافرة، فإنّ في التزويج ثلاثة: سكون، ومودّة، ورحمة، وهي ممنوعة لمنافاتها للإيمان بقوله سبحانه: «يا أيّها الّذين آمنوا لا تتّخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء تلقون إليهم بالمودّة وقد كفروا بما جاءكم من الحقّ» (الممتحنة: ١) وقوله عزّ وجلّ: «والّذين معه أشدّاء على الكفّار رحماء بينهم» (الفتح: ٢٩).

وأمّا المتعة فتجوز للمؤمن أن يستمتع كافرة، فإنّ المتعة للحاجة وليس فيها سكون ومودّة ورحمة، ولأنّ الولد تابع لوالده في الإيمان.

الفصل الثالث: إنّ كثيراً من الأصوليّين ومن حذا حذوهم استدلّوا بقوله سبحانه: «إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون» و«إنّ في ذلك لآيات للعالمين» و«إنّ في ذلك لآيات لقوم يسمعون» و«إنّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون» و«كذلك نفصّل الآيات لقوم يعقلون» (الروم: ٢١-٢٤ و٢٨) على حجّيّة الدليل العقليّ وترجيحه على الدليل النقليّ في الأصول والفروع، فيجب الاعتماد على الدليل العقليّ، ولا يلزم أن لا يكون العقل معتبراً بوجه من الوجوه، وأنّه حجّة من حجج الله تعالى، وقد صرّح كثير من الآيات القرآنيّة والروايات المستفيضة على مدح العمل بمقتضى العقل وذمّ عكسه.

أقول: ولا ريب أنّ العقل السليم الّذي هو مقتضى الفطرة البشريّة حجّة باطنة من حجج الله تعالى وشرع منير من جهته جلّ وعلا، وهو شرع من داخل كما أنّ الشرع شرع من خارج، ولكن تكون حجّيّته في طول حجّيّة الشرع، حيث إنّ العقول بكونها ذوي مراتب متفاوتة، مختلفة إدراكها، ولذلك يعتريها الخطأ فلابدّ من حجّة أخرى لا يعتريها الخطأ وهو الشرع والدين القيّم الّذي يبيّن للعقل خطأه، فالعقل السليم مع كونه

شرعاً من داخل الإنسان، فقضى شرعاً آخر من خارجه لبيان حقّه، فتأمّل جيّداً و اغتنم جدّاً و لاتغفل فإنّ المقام من مزالّ أقدام الأكابر فضلاً عن الأفاضل

الفصل الرّابع: يستدلّ بقوله عزّوجلّ «ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصّل الآيات لقوم يعقلون» (الروم: ٢٨) على جواز الشركة بين الأحرار من المسلمين على ضروب من الشركة في الأعيان بالميراث كاشتراك الورثة في التّركة، و بالعقد كتملّك جماعة عيناً بالبيع أو الهبة أو الصّدقة أو الوصيّة مشتركة، و بالحيازة كاشتراكهم في الاحتطاب و الاصطياد و نحوهما و من الشركة في المنافع كاشتراكهم في منفعة الوقف، و منفعة العين المستأجرة و غيرهما، و من الشركة في الحقوق كاشتراكهم في حقّ القصاص و حدّ القذف و نحوهما و في الآية الكريمة دلالة على أنّ العبد لايملك إذ أخبر تعالى بأن لامشاركة للعبيد فيما رزقنا الله سبحانه من الأموال. و إنّ الآية الكريمة بعمومها تدلّ على جواز جميع ذلك، و إنّ الخطاب للمسلمين الأحرار، فكأنّه قيل: إنّكم تستقبحون شركة العبيد لساداتهم، و أمّا الأحرار من المسلمين فلا يستقبح شركة بعضهم بعضاً و تدلّ على عدم جوازها بين المسلم و الكافر بقوله عزّوجلّ «يا أيّها الّذين آمنوا لاتتّخذوا عدوّي و عدوّكم أولياء تلقون إليهم بالمودّة» و «يا أيّها الّذين آمنوا لاتتولّوا قوماً غضب الله عليهم» (الممتحنة: ١ و ١٣) و قوله سبحانه: «لاتجد قوماً يؤمنون بالله و اليوم الآخر يوادّون من حادّ الله و رسوله ...» (المجادلة: ٢٢) و غيرها

في فروع الكافي، كتاب المعيشة، باب مشاركة الذّمّي، حديث ١، بإسناده عن ابن رئاب قال: قال أبو عبدالله (عليه السلام): «لاينبغي للرّجل المسلم أن يشارك الذّمّي، و لايبضعه بضاعة، و لايودعه وديعة، و لايصافيه المودّة».

قوله (عليه السلام): «يبضعه» من الإبضاع و هو أن يدفع إلى أحد مالاً يتّجر به، و الرّبح لصاحب المال خاصّة.

و فيه: في هذا الباب، حديث ٢، بإسناده عن السّكوني عن أبي عبدالله (عليه السلام): أنّ أمير المؤمنين صلوات الله عليه كره مشاركة اليهوديّ و النّصرانيّ و المجوسيّ إلاّ أن تكون

تجارة حاضرة لا يغيب عنها المسلم»

وأمّا مشاركة الذمّي وغيره في المزارعة فلا بأس.

ويستدلّ بهذه الآية الكريمة أيضاً على أنّ العبد لا يملك شيئاً ولا يقدر على شيء كما قال تعالى «ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء» (النحل ٧٥) فليس له حقّ ولا شركة في مال مولاه ولا يجوز له التصرّف في مال مولاه ونفسه إلّا بإذن سيّده، فهو من حيث هو عبد لا يقدر على شيء ولا يملكه ولا يتصرّف، وإنّما يقدر عليه مولاه أو أذن له بالتكسّب والتجارة ونحوهما، فيحصل له ذلك كالعبيد بالنسبة إلى الله جلّ وعلا، فلا يملك شيئاً ولا منفعة مستقرّاً ولا ضرّاً إلّا من دون فرق بين ما ملكه المولى، وما حصل بتجارته وأرش الجناية وبين غيرها. فالمملوك لا يكون مالكاً لأنّ مالكيّته لغيره فرع مالكيّته لنفسه، وأنّ ما يكتسبه العبد من فوائد ملك مولاه فيكون تابعاً له، فلا معنى لملك المملوك على وجه يختصّ به دون مولاه، لأنّ نفسه وبدنه وصفاته التي من جملتها سلطنته مملوكة، فسلطان السلطان غالب عليه.

في الجواهر قال «فالحكم على العبد بعدم القدرة على شيء يقتضي نفي القدرة له على الملك الحاصل بواسطة الأسباب الاختياريّة لأنّ الشيء نكرة في سياق النفي، فيكون للعموم، وبدلالة الإخبار على إرادته منه، فيتناول ما ذكرناه، ومتى ثبت منع الملك الاختياري للعبد ثبت منع الملك القهريّ له أيضاً للإجماع كما في مصابيح العلّامة الطباطبائي على نفي التفصيل بهذا الوجه ولقوله تعالى «ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم ممّا ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء» فإنّ الاستفهام فيه إنكاريّ تقتضي امتناع الشركة بين الأحرار والمماليك بوجه، ولو صحّ ملك العبد لأمكن ذلك قطعاً، والمراد من الموصول في قوله «فيما رزقناكم» جنس الأموال التي رزق عباده لا خصوص الأعيان التي رزقها الأحرار.

وعلى كلّ حال ففي الآية إشارة إلى تقرير الامتناع العقليّ في تملّك المماليك، والنصوص الدالّة على أنّ العبد إذا بيع كان ما في يده من المبيع لسيّده إلّا أن يدخل في المبيع أو يشترطه المشتري ولو كان العبد مالكاً لاستمرّ ملكه له بعد البيع، ولم يكن شيء من ذلك

للبائع ولا للمشتري لانتفاء الثمن عنه، ولا كان يستمتع بالمال معه لعدم ممكنته له وهو ظاهر

الفصل الخامس: يستدلّ بقوله تعالى: «فأقم وجهك للدّين حنيفاً» (الروم: ٣٠) على وجوب توجّه المكلّف في الصّلاة نحو القبلة

في التهذيب، بالإسناد عن أبي بصير عن أبي عبد الله ﴿عليه السلام﴾ قال: «سألته عن قول الله تعالى: «فأقم وجهك للدّين حنيفاً» قال: أمره أن يقيم وجهه للقبلة ليس فيه شيءٌ من عبادة الأوثان خالصاً مخلصاً»

الفصل السّادس: يستدلّ بقوله عزّ وجلّ: «من الّذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً كلّ حزب بما لديهم فرحون» (الروم: ٣٢) على النّهي عن التفرقة وتشعيبها في أصول الدّين وفروعه نتيجة لأهواء النّفوس ومآربها، وتمسّك كلّ فرقة برأيها تمسّك التعصّب الأعمى والنّهي عنه، وعلى النّهي عن الاجتهاد النّاشئ عن الهوى، وعلى عدم جواز تقليد غير المعصوم فيما يقول برأيه، وفيما لا يعمل فيه بحقّ قرآنيّ أو حديث ثابت عن أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين، وعلى عدم استقلال العقل في أمور الدّين وعلى حاجته إلى الدّليل النّقليّ الثّابت في مدركاته

الفصل السّابع: إنّ بعض الفقهاء يستدلّ بقوله تعالى: «فآت ذا القربى حقّه» (الروم: ٣٨)

على وجوب نفقة الأقرب الفقراء من الذّكور والإناث، العاجزين عن الكسب، وتخصيصها بالأبوين والأولاد بالإجماع والأصحاب والأخبار. وقال بعضهم: إنّ المراد بذي القربى الفرد الخاصّ من ذوي قربى رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ لإضافة الحقّ إلى الضّمير المفرد «حقّه» العائد إلى «ذا القربى» كما أنّ حقّه حقّ خاصّ، وهذا هو المرويّ عن أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين.

أقول: وهذا هو الحقّ ولنا كلام دقيق علميّ عميق حول الآية الكريمة في البحث الرّوائي، وفي البحث الرّوائي السّابق فراجع، وحول فدك الآتي فانتظر

وقال بعضهم: إنّ المراد بحقّ القربى صلة الرّحم بالنّفس والمال على الوجه الّذي

يليق و يمكن، و إنّ الأمر للوجوب فيجب إعطاء النفقة الواجبة على الأبوين و الأولاد، و المراد بحقّ المسكين و ابن السبيل هو الزكاة على المسكين و ابن السبيل و نحو ذلك ممّا يجب بالشرع و نحوه، فالمراد حقّ المسكين و ابن السبيل الحقّ المالي المفروض

و قال بعضهم إنّ الأمر للرجحان المطلق، فيشمل النفقة الواجبة و المندوبة للأقارب و غيرهم، فيكون للتفضّل و الإحسان من غيرهما و المراد بحقّ ذي القربى صلة الرحم بأنواعها، و في المسكين و ابن السبيل صدقة كانت مفروضة قبل فرض الزكاة أو الزكاة المفروضة، سواء كانت الآية مدنيّة أو مكّيّة، و لا بأس أن يكون النزول سابقاً على الحكم

الفصل الثامن: أن يستدلّ بقوله عزّ و جلّ «ذلك خير للذين يريدون وجه الله و أولئك هم المفلحون» الروم ۳۸ على وجوب النيّة في أداء الحقّ صاحبه و دفعه على سبيل الإخلاص لله تعالى أي إعطاء الحقوق مستحقّها خير لمن يريد رضى الله تعالى وحده، و جهة التقرّب إليه سبحانه من غير رئاء، و لا سمعة فإنّه شرّ لمن يريدهما و أولئك الذين يريدون رضى الله جلّ و علا و التقرّب إليه وحده هم الفائزون برضوان الله و القرب إليه دون غيرهم

الفصل التاسع: يستدلّ بقوله سبحانه «و ما آتيتم من رباً ليربوا في أموال الناس فلا يربو عند الله» الروم ۳۹ و قوله عزّ و جلّ «يمحق الله الربا و يربي الصّدقات» البقرة ۲۷۶) على أنّ الربا على قسمين أحدهما حرام ثانيهما حلال

أمّا الحرام فهو أن يقرض الرجل أخاه المسلم قرضاً و يشترط أن يردّ أكثر ممّا أخذه فهذا هو الحرام

و أمّا الحلال فهو أن يقرض الرجل أخاه المسلم قرضاً طمعاً أن يزيده و يعوّضه بأكثر ممّا يأخذه بدون شرط بينهما، فإن أعطاه أكثر ممّا أخذه بغير شرط بينهما فهو مباح له، و لكن ليس له عند الله ثواب في قرضه، فلا أجر له و لا وزر عليه، و كذلك إذا أهدى إلى الرجل هديّة أو عطيّة طمعاً أن يعوّضه أكثر ممّا وهب أو أفضل من هديته فيثاب أكثر منه، و عطيّة يتوقّع بها مزيد مكافأة، و يسمّيها رباً مجازاً لأنّها سبب للزيادة، و

جذب أموال النّاس و جلبها، أو يقرض قرضاً ليخدمه المديون أو ينفعه في سفره و غيره فيجعل المخدوم له جزاء الخدمة، أو يقرض قرضاً ثمّ يمنّ على المديون و نحو ذلك.

و يستدلّ بقوله سبحانه: «و ما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فاولئك هم المضعفون» (الرّوم ٣٩) على وجوب النيّة في الزّكاة، و دفعها على سبيل الإخلاص لله تعالى و على وجوب قصد الوجه لأنّ إعطاء المال قد يقع على وجوه كثيرة فمنها إعطاؤه على وجه الصّدقة، و منها إعطاؤه على وجه الهديّة، و منها النّفقة، و منها الوديعة، و منها قضاء الدّين، و منها القرض، و منها الهبة و منها الزّكاة و منها النّذر و غير ذلك، و بالنيّة يتميّز بعضها من بعض.

الفصل العاشر: يستدلّ بقوله تعالى: «فانظر إلى آثار رحمت الله كيف يحيي الأرض بعد موتها» (الرّوم ٥٠) على وجوب النّظر في دلائل حدوث العالم، إذ أمر الله تعالى كلّ مكلّف أن ينظر فيها و الأمر للوجوب، و لايجوز التّقليد فيها.

و قد ورد أنّه لمّا نزل قوله تعالى: «إنّ في خلق السّموات و الأرض و اختلاف اللّيل و النّهار لآيات لأولى الألباب» (آل عمران ١٩٠) قال رسول الله ﷺ: «ويل لمن لاكها بين لحييه و لم يتفكّر فيها» فقد توعّد النّبيّ الكريم ﷺ تارك التّفكّر في دلائل التّوحيد و المعرفة بالله تعالى فيكون واجباً، إذ لاوعيد على ترك غير الواجب.

الفصل الحادي عشر: يستدلّ بقوله عزّ و جلّ: «و لقد ضربنا للنّاس في هذا القرآن من كلّ مثل و لئن جئتهم بآية ليقولنّ الّذين كفروا إن أنتم إلّا مبطلون» (الرّوم ٥٨) على حجّيّة ظواهر الكتاب بعد الفحص عن المخصّص أو المقيّد أو المبيّن أو المفسّر أو النّاسخ، و عدم حجّيّتها قبله.

الفصل الثّاني عشر: يستدلّ على جواز قراءة القرآن الكريم في الصّلاة بما ورد من الرّوايات عن الفريقين في قوله تعالى: «فاصبر إنّ وعد الله حقّ و لايستخفّنّك الّذين لايوقنون» (الرّوم ٦٠) سبق ذكر بعضها في البحث الرّوائي فراجع و منها ما في وسائل الشّيعة ـ كتاب الصّلاة ـ باب ٣٤ ـ من أبواب صلاة الجماعة ـ الحديث ٢) بالإسناد عن معاوية بن وهب عن أبي عبدالله ﷺ قال: سألته عن الرّجل يؤمّ القوم،

وأنت لا ترضى به في صلاة تجهر فيها بالقراءة، فقال: قد سمعت كتاب الله يتلى فأنصت له، فقلت: فإنّه يشهد عليّ بالشرك، فقال: إن عصى الله فأطع الله، فرددت عليه فأبى أن يرخّص لي، فقلت له: فصلّ إذن في بيتي ثمّ أخرج إليه، فقال: أنت وذاك، قال: إنّ عليّاً ﴿عليه السلام﴾ كان في صلاة الصبح فقرأ ابن الكوّا وهو خلفه: «ولقد أوحي إليك وإلى الّذين من قبلك لئن أشركت ليحبطنّ عملك ولتكوننّ من الخاسرين»

فأنصت عليّ ﴿عليه السلام﴾ تعظيماً للقرآن حتّى فرغ من الآية، ثمّ عاد في قراءته، ثمّ أعاد ابن الكوّا الآية، فأنصت عليّ ﴿عليه السلام﴾ أيضاً ثمّ قرأ فأعاد ابن الكوّا فأنصت عليّ ﴿عليه السلام﴾ ثمّ قال: «فاصبر إنّ وعد الله حقّ ولا يستخفّنّك الّذين لا يوقنون» ثمّ أتمّ السورة، ثمّ ركع » الحديث.

أقول: وحمل ذلك على التقيّة ـ كما فعل بعض ـ تحكّم

وفي الحدائق: الخامسة قد تقدّم أنّه يستثنى من الكلام المبطل ما إذا كان دعاءً أو ذكراً أو قرآناً ـ إلى أن قال ـ وذكر بعض الأصحاب أنّه يجوز التنبيه بتلاوة القرآن كما لو أراد الإذن لقوم بقوله «ادخلوها بسلام آمنين» الحجر ٤٦) أو لمن أراد التخطّي على البساط بنعله «فاخلع نعليك إنّك بالواد المقدّس طوى» طه ١٢) أو أراد إعطاء كتاب من اسمه يحيى «يا يحيى خذ الكتاب بقوّة» مريم ١٢)

ثمّ قال صاحب الحدائق رضوان الله تعالى عليه «والظاهر أنّ من هذا القبيل ما رواه في الكافي والتهذيب في الموثّق عن عبيد بن زرارة قال «سألت أبا عبد الله ﴿عليه السلام﴾ عن ذكر السورة من الكتاب ندعو بها في الصلاة مثل «قل هو الله أحد»؟ فقال: إذا كنت تدعو بها فلا بأس، فإنّ الظاهر أنّ المراد من الدعاء بها إنّما هو بمعنى الطلب، بمعنى يطلب بها الغير كما أنّه يطلب بالتسبيح كما تقدّم وبعض الأصحاب حمل الدعاء بها في الخبر على القنوت بالقرآن في الصلاة وجعله من قبيل التسبيح الّذي ورد الاجتزاء به في القنوت

وبعض حمله على الدعاء، وأنّه لا يشترط فيه الطلب بمعنى أنّه لا يشترط فيه أن يكون متضمّناً للطلب. وقال في الوافي: لعلّ مراد السائل الرخصة في الإتيان بقراءة القرآن في غير محلّها على وجه الدعاء والتمجيد طلباً لمعناها لا على وجه التلاوة» انتهى

ولكلّ تكلّف بعض من الظاهر ما ذكره، فإنّه معنى صحيح لا يحتاج إلى تكلّف وما ذكره من الأخبار، نعم لو لم يقصد بالتسبيح أو القرآن سوى التفهيم فالظاهر صحّة صلاته، ونقل عن العلاّمة في المنتهى احتمال البطلان.

ولو أتى بمفردات القرآن على غير الترتيب الّذي هي عليه كأن يقول «سلام ادخلوها» فالظاهر ـ كما استظهره بعض الأصحاب ـ البطلان لأنّه ليس بقرآن فيكون كلاماً أجنبيّاً» انتهى كلامه

« بحث عميق علمي مذهبي و دقيق اعتقادي »

واعلم أنّ البحث في المقام يدور حول أربع عشرة بصيرة

البصيرة الأولى أنّ في هذه السورة خمس عشرة آية تدلّ كلّها على المعاد الجسماني و هي آيات (١١_١٢ و ١٤_١٦ و ٢٠ و ٢٥ و ٢٧ و ٤٣_٤٥ و ٥ و ٥٥_٥٧) و ذلك _ إجمالاً _ أنّ إعادة الخلق بعد الابتداء، و إبلاس المجرمين و تفرّق الناس يوم القيامة و إحضار المؤمنين في روضة الجنّة و إحضار الكافرين في نار جهنّم و إخراج الناس من الأرض و تصدّعهم يوم القيامة، و إحياء الأموات، و حلف المجرمين يومئذ، و عدم نفع المعذرة للظالمين و ما إليها كلّ ذلك من أحوال الجسم و عوارضه لا الروح ففي الآيات الكريمة ردّ على منكري المعاد الجسماني كأكثر الفلاسفة، و من سلك مسالكهم الفاسدة.

البصيرة الثانية أنّ في قوله عزّ وجلّ: «أولم يتفكّروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات و الأرض و ما بينهما إلّا بالحقّ و أجل مسمّى و إنّ كثيراً من الناس بلقاء ربّهم لكافرون» الروم: ٨) أمور:

منها أنّ في الآية الكريمة ردّاً على منكري النظر و التفكّر في نظام الكون و نواميس الوجود للمعرفة بالله جلّ و علا، و إن كانت من مقتضيات الفطرة الإنسانيّة، حيث إنّ معرفة النفس اكتسابيّ، بواسطتها يتوصّل إلى معرفة ربّها، و كتبه و رسله و كلّ عالم، و من جهل نفسه، جهل ربّها و ما سواه، و من عرف نفسه، فقد عرف ربّه و عرف الموجودات جميعاً، و لذلك قال الله تعالى: «أولم يتفكّروا في أنفسهم» تنبيهاً على أنّهم لو

تدبّروا أنفسهم و عرفوها و عرفوا أنّهم خلائق للموجودات قبلها و باقيها، و عرفوا بها خالقها كمعرفة بطلوع الشمس يحصل الضوء مقترناً بها و بطلوعها، غير متأخّر عنه بزمان.

و هذا هو الغاية في معرفة الإنسان بربّه إذ لا يمكن فوق هذه المعرفة و إليه أشار مولى الموحّدين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﴿؏﴾ بقوله: «من أمكن لإقامة رسم العبوديّة لا لإدراك الرّبوبيّة» ثمّ سفّه النفس المعتدية و أنشد يقول:

كيفيّة النّفس ليس المرء يدركها   فكيف معرفة الجبّار في القدم؟

هو الّذي أنشأ الأشياء مبتدعاً   فكيف يدركه مستحدث النّسم؟

و قال الله تعالى: «و لا تكونوا كالّذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم» الحشر ١٩ تنبيهاً على أنّهم لو عرفوا أنفسهم لعرفوا الله و لم ينكروا البعث الّذي هو لقاء ربّهم، فلمّا جهلوا بأنفسهم جهلوا بالله تعالى و أنكروا البعث و اللقاء.

فالتفكّر في النفس هو الموجب لمعرفة الله تعالى الحكيم الّذي لا يفعل عبثاً و لا جزافاً، فإنّه خلق العالم كلّه من الأجسام و غيرها للمنافع للمكلّفين، فإذا انتهى التكليف فلا بدّ من تخريب السماوات و الأرض، و انتهاء الأمر إلى حالة الحساب و الجزاء و اللقاء لكيلا تنخرم قاعدة الحكمة و التدبير و رعاية الصّلاح و العدل.

و منها أنّ في الآية الكريمة ردّاً على القائلين بأبديّة المادّة كالفلاسفة على المشهور، و من سلك مسالكهم الواهية المتوهّمة.

و منها: أنّ الأشاعرة قد حملت قوله سبحانه: «بلقاء ربّهم» على الرؤية البصريّة، و هذه عقيدة الأشعري ـ شيخ العامّة ـ في جواز رؤية الله سبحانه بالأبصار، و قد أخذها الوهّابيّة في الصّفات، هي العقيدة السّلفيّة الظّاهريّة، قال شاعرهم:

لله وجه لا يحدّ بصورة   و لربّنا عينان ناظرتان

و له يدان كما يقول إلهنا   و يمينه جلّت عن الأيمان

كلتا يديه يمين و صفهما   فهما على الثّقلين منفقتان

كرسيّه وسع السّماوات العلى   والأرض و هو يضمّه القدمان

والله يصحبك لا كصحبة مسنده … والكف ممتنع على الرجحان

والله ينزل كل حين سمعه … سمعا به الذنب بلا كتمان

فيقول هل من سائل فأجيبه؟ … فأنا قريب أجيب من نادي

أقول إنّ هذه العقيدة الصحيحة عند الشيعة الإمامية الاثني عشرية الحقّة مردودة وذلك أنّ الله سبحانه ليس مادّة ولا مركّبًا من مادّة فليس له تبدّل ولا ارتحال، ولا وجه ولا عينان؛ لأنّ ذلك يدلّ على جزء من كلّ، والله عزّ وجلّ لا يكون كلًّا مركّبًا من أجزاء، ولا لكن مادّة، وإذ كان كذلك فليس تدركه العيون التي خلقت، ولست قادرة إلّا أن ترى ما هو مادّة وما هو في جهة.

وذلك أنّ النظر بالعين عبارة عن انشعاع نوريّ يختلط بالجسم المرئيّ الواقع في جهة مقابلة للرائي، فتنطبع فيه صورته الخارجيّة، وهذا مستحيل على الله سبحانه لأنّه يستدعي تجسيمًا وجهة ومحدوديّة ومؤونة للإبصار لحقيقته، وكلّ ذلك باطل بشأنه عزّ وجلّ في ضرورة العقل السليم ومحكم الكتاب العزيز إذ قال «ليس كمثله شيء» (الشورى ١١).

ولا شكّ أنّ التجسيم والمشابهة تشبيه محض.

وقوله تعالى «لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير» (الأنعام ١٠٣).

ومن البيّن أنّ الإدراك بالبصر يعني النظر بالعين كما أنّ الإدراك بالقلب هو عرفان نفسيّ مجرّد.

في نهج البلاغة قال مولى الموحّدين إمام المتّقين عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) «لا تدركه العيون بمشاهدة العيان ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان» (الخطبة ١٧٨).

وفيه قال سيّد الوصيّين الإمام عليّ (عليه السلام) «فلسنا نعلم كنه عظمتك إلّا أنّا نعلم أنّك حيّ قيّوم لا تأخذك سنة ولا نوم، لم ينته إليك نظر، ولم يدركك بصر» (الخطبة ١٥٩).

وفيه: قال أمير المؤمنين الإمام عليّ (عليه السلام) «ولا تدركه الحواسّ فتحسّه، ولا تلمسه الأيدي فتمسّه...» (الخطبة: ٢٢٨).

وفيه: قال يعسوب الدين الإمام علي (عليه السلام): «هو الله الملك الحق المبين، أحق وأبين مما ترى العيون، لم تبلغه العقول بتحديد فيكون مشبّهاً، ولم تقع عليه الأوهام بتقدير فيكون ممثّلاً...» الخطبة ١٥٤)

وفيه: قال مولى الموحّدين الإمام علي (عليه السلام): «بل ظهر للعقول بما أرانا من علامات التدبير المتقن، والقضاء المبرم، فمن شواهد خلقه خلق السماوات موطّدات بلا عمد، قائمات بلا سند...» الخطبة ١٨١)

وفيه: قال إمام المتقين علي بن أبي طالب (عليه السلام): «فتجلّى لهم سبحانه في كتابه من غير أن يكونوا رأوه بما أراهم من قدرته، وخوّفهم من سطوته، وكيف محق من محق بالمثلات واحتصد من احتصد بالنّقمات...» الخطبة ١٤٧)

فليس المراد باللقاء يوم القيامة رؤيته بعينه يومئذ، وإنّما المراد لقاء جزاء ربّهم وعقابه الّذي كانوا هم ينكرونه في الحياة الدّنيا.

البصيرة الثّالثة: أنّ قوله تعالى: «فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» الروم ٩) ردّاً على الأشاعرة المجبرة الّذين قادهم أبو الحسن الأشعري الّذي اتّبع الشّيطان «ولقد صدّق عليهم إبليس ظنّه فاتّبعوه» سبأ ٢٠) وهم الّذين يقولون بعدم قدرة العباد على فعل ما يريدون، وترك ما يكرهون، ويضيفون الأفعال خيرها وشرّها إلى الله سبحانه، وإنّ العبد تجاه ما يفعله أو يتركه مسلوب الاختيار كأنّه في يد الفاعل وهو الله سبحانه.

قال الله تعالى: «وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها» الأعراف ٢٨)

وقال: «سيقول الّذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرّمنا من شيء» الأنعام ١٤٨)

وقال: «قال ربّ بما أغويتني» الحجر ٣٩)

في التّبيان: قال الشّيخ الطّوسي قدّس سرّه في قوله تعالى: «فما كان الله ليظلمهم» أي بأن يهلكهم من غير استحقاق منهم، وفي ذلك بطلان قول المجبرة إنّ الله يبتدئ خلقه

بالهلاك» انتهى كلامه و رفع مقامه.

و في تفسير النيشابوري قال ـ و هو من أعلام العامّة و مفسّريهم ـ في قوله تعالى «ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» «وضع الأنفس الشريفة في موضع خسيس هو عبادة الأصنام، قال أهل السنّة: هذا الوضع كان بمشيّة الله و إرادته، لكنّه صدر عنهم فأضيف إليهم» انتهى كلامه.

و في تفسير روح المعاني قال الآلوسي مفتي بغداد ـ و هو من أعلام العامّة و مفسّريهم ـ في قوله تعالى «فما كان الله ليظلمهم» قال «أهل السنّة إنّ إهلاكه تعالى من غير جرم ليس من الظلم في شيء لأنّه عزّ و جلّ مالك و المالك يفعل ما يشاء، و النزاع في المسئلة شهير» انتهى كلامه.

البصيرة الرابعة: إنّ بعض أصحابنا استدلّ بقوله تعالى «الله يبدؤا الخلق ثمّ يعيده ثمّ إليه ترجعون» (الروم: ١١) على صحّة الرجعة بأنّ الله عزّ و جلّ ابتدأ خلق الإنسان، ثمّ يعيده بعد إماتته في زمن الرجعة، ثمّ يرجع إلى الله سبحانه يوم القيامة. و استدلّ بعض الآخرين منهم بالآية الكريمة على المسئلة في القبر بأنّ الله تعالى يبدؤا خلق الإنسان، ثمّ يعيده في القبر للمسئلة التي لا خلاف فيها، ثمّ يرجع إلى الله جلّ و علا يوم القيامة للحساب و الجزاء.

البصيرة الخامسة: إنّه يستدلّ بقوله تعالى «يخرج الحيّ من الميّت و يخرج الميّت من الحيّ و يحي الأرض بعد موتها و كذلك تخرجون و من آياته أن خلقكم من تراب ثمّ إذا أنتم بشر تنتشرون ـ و من آياته أن خلق لكم من أنفسكم ـ و له المثل الأعلى في السّموات و الأرض ... فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحي الأرض بعد موتها إنّ ذلك لمحي الموتى و هو على كلّ شيء قدير» (الروم: ١٨ ـ ٢٧ و ٥٠) على صحّة القياس العقلي، و حسن النظر بالأدلّة، و فيها ردّ على الذين يزعمون أنّ النظر باطل، و أمّا دلالة الآيات الكريمة على القياس الشرعيّ فلا.

البصيرة السادسة: أنّ في قوله عزّ و جلّ «و من آياته خلق السّموات و الأرض و اختلاف ألسنتكم و ألوانكم إنّ في ذلك لآيات للعالمين» (الروم: ٢٢) نوراً

منها أنّ في قوله عزّوجلّ «و من آياته خلق السّموات و الأرض» ردّاً على الدّهريّين حيث زعموا أنّ خلق الإنسان و الحيوان بسبب ما في العناصر من الكيفيّات، و لكنّهم عجزوا أن يقولوا إنّ السّموات و الأرض خلقتها بسبب مزج العناصر لأنّها ليست من العناصر

و منها أنّ في قوله سبحانه «و اختلاف ألسنتكم» دلالة على أنّ اللغات كلّها و الألوان أصلها من فعل الله تعالى دون المواضعة، ردّاً على الّذين يزعمون أنّ اللغات مواضعة من فعل الإنسان تدريجاً دون فعل الله عزّوجلّ على أنّه لو كانت الآلات الّتي تتأتّى بها هذه الضّروب لا تقدر على مثلها كانت من الله، جاز أن تضاف اللغات إلى الله سبحانه على ضرب من المجاز

و منها أنّه يستدلّ بقوله تعالى «إنّ في ذلك لآيات للعالمين» على أنّ الله عزّوجلّ يفعل بغرض و حكمة و فائدة و مصلحة لكنّها ترجع إلى المكلّفين، و يرجع نفعها إليهم ردّاً على الأشاعرة الّذين يقولون إنّ الله سبحانه لا يجوز أن يفعل شيئاً لغرض و لا لمصلحة و لا لفائدة و لا لحكمة ترجع إلى المكلّفين، فيكون جميع المنافع الّتي جعلها الله منوطة بالأشياء غير مقصودة و لا مطلوبة لله جلّ و علا، بل وضعها كلّها لغواً و خلق جميعها عبثاً

فلا يكون خلق العين للإبصار، و لا خلق الأذن للسّماع، و لا اللسان للنّطق، و لا اليد للبطش، و لا الرّجل للمشي، و كذا جميع الأعضاء الّتي في الإنسان و غيره من الحيوانات و لا خلق الحرارة في النّار للإحراق، و لا الماء للتّبريد، و لا خلق الشّمس و القمر و النّجوم للإضاءة، و معرفة اللّيل و النّهار و الحساب، و كلّ هذا مبطل للأغراض، و الحكم و المصالح، و يبطل علم الطّبّ بالكلّيّة، فإنّه لم يخلق الأدوية للإصلاح، و يبطل علم الهيئة و غيرها، و يلزم العبث في ذلك كلّه، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً

البصيرة التّاسعة: قال الشّيخ الطّوسي رضوان الله تعالى عليه في التّبيان، في قوله تعالى «و من آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً ـ و من آياته خلق السّموات و الأرض ـ و من آياته منامكم باللّيل و النّهار ـ و من آياته يريكم البرق خوفاً و طمعاً ـ و من آياته أن تقوم السّماء و الأرض بأمره» (الرّوم ٢١ ـ ٢٥) و في الآيات دلالة واضحة

على فساد مذهب القائلين بأنّ المعارف ضرورية، لأنّها لو كانت ضرورية لم يكن للتّنبيه على هذه الأدلّة وجه، ولا فائدة فيه لأنّ ما يعلم ضرورة لا يمكن الاستدلال عليه».

أقول: إنّ الأمر بالتفكّر والتعقّل والتدبّر والنظر في الآيات التكوينية الآفاقية والأنفسيّة والاستدلال بها على التوحيد لا ينافي ضروريّته بالفطرة «فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدّين القيّم ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون» الروم: ٣٠ حيث إنّ العقل غير الفطرة فتدبّر جيّداً واغتنم جدّاً ولا تغفل فإنّ المقام من مزالّ الأقدام، وما يتذكّر إلّا أولوا الألباب.

البصيرة التاسعة: في تفسير النيسابوري - وهو من أعاظم العامّة - قال في قوله تعالى: «ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره» الروم: ٢٥ «واعلم أنّ الأمر عند المعتزلة موافق للإرادة، وعند الأشاعرة ليس كذلك، ولكنّ النزاع في الأمر الذي هو للتكليف لا الذي للتكوين، فإنّ قوله «كن فيكون» موافق للإرادة بالاتفاق» انتهى كلامه.

أقول: وقد أجمعت الأمّة على أنّ الله جلّ وعلا مريد، متكلّم، خالق، رازق، معطي، محيي، مميت، واصطلح المتكلّمون بتسميتها صفات الأفعال، لأنّها صفاته تعالى التي قد يتّصف بها إذا فعلها، وقد لا يتّصف بها إذا لم يفعلها، فالله عزّ وجلّ قد يريد شيئاً فهو مريد له، وقد لا يريده فليس بمريد له، وهو سبحانه قبل أن خلق خلقه لم يكن خالقاً له، ولمّا خلق صحّ إطلاق اسم الخالق عليه تعالى وهكذا.

وقد ذهبت الشيعة الإماميّة الاثنا عشرية خلفاً إلى أنّ مبادئ هذه الصفات غير قائمة بذاته المقدّسة لأنّها أحوال وحوادث، والله جلّ وعلا منزّه أن يكون محلّاً للحوادث.

وذهبت الأشاعرة إلى أنّ مبادئ هذه الصفات قائمة بذاته المقدّسة فهو سبحانه مريد بإرادة زائدة قائمة بذاته، فإرادته قديمة لأنّ الله تعالى بذاته قديمة، فقديم.

وقد أجمعت الأمّة أيضاً على أنّ إرادة الله تعالى نوعان: إرادة تكوينية، وهي متعلّقة بتكوين شيء، وإرادة تشريعية، وهي متعلّقة بطلبه تعالى من عباده فعلاً، وأمرهم بشيء أو نهيهم عن شيء وتركهم فعلاً لمصالح أو مفاسد كامنة وراء التكليف تعود عليهم.

أمّا الأولى: فكقوله تعالى: «ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثمّ إذا دعاكم

دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون» (الروم: ٢٥) وقوله سبحانه «إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون» (يس: ٨٢) وهذه الإرادة لا تتخلّف عن خلق المراد أبداً، فإنّ الله عزّوجلّ إذا أراد شيئاً كان، وما لم يرد لم يكن، فإنّ نفس إرادته جلّ وعلا تكوين شيئ كما هو في خلقه وجوداً، والأمر في قوله تعالى «كن» أمر تكويني أيضاً، حيث إنّ إرادته عزّوجلّ هي نفس فعله، كما أنّ إرادته سبحانه لأفعال عباده أمره بالأفعال.

في أصول الكافي - كتاب التوحيد - باب الإرادة أنّها من صفات الفعل وسائر صفات الفعل - حديث ٣ بإسناده عن صفوان بن يحيى قال: قلت لأبي الحسن (ع) أخبرني عن الإرادة من الله ومن الخلق؟ قال فقال: الإرادة من الخلق الضمير وما يبدو لهم بعد ذلك من الفعل، وأمّا من الله تعالى فإرادته إحداثه لا غير ذلك لأنّه لا يروّي ولا يهمّ ولا يتفكّر، وهذه الصفات منفيّة عنه وهي صفات الخلق فإرادة الله الفعل لا غير ذلك، يقول له كن فيكون بلا لفظ ولا نطق بلسان ولا همّة ولا تفكّر ولا كيف لذلك كما أنّه لا كيف له»

وفيه - في الكتاب والباب، حديث ١ بإسناده عن عاصم بن حميد عن أبي عبدالله (ع) قال: قلت: لم يزل الله مريداً؟ فقال: إنّ المريد لا يكون إلّا المراد معه، لم يزل الله عالماً قادراً ثمّ أراد»

وقد فرّق الإمام (ع) بين العلم والقدرة، وبين الإرادة ردّاً على ما توهّم بعض المتفلسفين من تفسير الإرادة بالعلم والقدرة.

وفيه - في الكتاب والباب، حديث ٢ بإسناده عن بكير بن أعين قال: قلت لأبي عبدالله (ع): علم الله ومشيئته هما مختلفان أو متّفقان؟ فقال: العلم ليس هو المشيئة ألا ترى أنّك تقول: سأفعل كذا إن شاء الله، ولا تقول: سأفعل كذا إن علم الله، فقولك إن شاء الله دليل على أنّه لم يشأ، فإذا شاء كان الذي شاء كما شاء، وعلم الله السابق للمشيئة»

وقد صرّح الإمام (ع) بالفرق بين العلم والمشيئة وهي الإرادة فالعلم من صفات الذات والإرادة من صفات الفعل.

وفيه بإسناده عن محمّد بن مسلم عن أبي عبدالله (ع) قال: «المشيئة محدثة»

وفي كتاب التوحيد - باب صفات الأفعال - بإسناده عن سليمان الجعفري عن الرضا (ع) قال: «المشيئة من صفات الأفعال فمن زعم أنّ الله لم يزل مريداً شائياً فليس بموحّد»

وذلك أنّ الشرط المعتبر تحقّقه في كون الإرادة والمشيئة أزليّتين، فالمراد والمشيء أيضاً يكونان أزليّين، ولا يعقل التأخّر في التقدّم، فيكون ظاهراً شيئاً وأنّهما لمّا لم يكونا عين الذّات، فكونهما دائماً معه جلّ وعلا يوجب إثبات آخرين.

وأمّا الثانية فكقوله عزّ وجلّ: «ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهّركم وليتمّ نعمته عليكم لعلّكم تشكرون» المائدة ٦)

وقوله سبحانه: «يريد الله ليبيّن لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم» النساء ٢٦).

وهذه الإرادة كثيراً ما تتخلّف عن المراد حسب تعصّي العباد وعصيانهم عن أوامره ونواهيه، ولا محذور في ذلك بعد أن كانت الدار دار التكليف والاختبار، إذ لا موقع للتكليف لولا الاختيار المتمكّن في الطاعة والعصيان، والاختيار هو مناط الأوامر والنواهي، وإنّ مصلحة التكليف هي التي تستدعي اختيار العباد في الامتثال والترك تمهيداً لاختبارهم في هذه الحياة «ليميز الله الخبيث من الطيّب» الأنفال ٣٧ «ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتّى يميز الخبيث من الطيّب» آل عمران ١٧٩

وإنّ الفرق بين الإرادتين واضح في روايات أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين منها:

في أصول الكافي - كتاب التوحيد - باب المشيئة والإرادة - حديث ٤ بإسناده عن الفتح بن يزيد الجرجانيّ عن أبي الحسن (ع) قال: «إنّ لله إرادتين ومشيئتين: إرادة حتم وإرادة عزم، ينهى وهو يشاء ويأمر وهو لا يشاء، أو ما رأيت أنّه نهى آدم وزوجته أن يأكلا من الشجرة وشاء ذلك، ولو لم يشأ أن يأكلا لما غلبت مشيئتهما مشيئة الله تعالى وأمر إبراهيم أن يذبح إسحاق (إسماعيل ظ) ولم يشأ أن يذبحه ولو شاء لما غلبت مشيئة إبراهيم مشيئة الله تعالى»

قوله ﴿ﷺ﴾: «نهى وهو شاء» تفسير لقوله ﴿ﷺ﴾ «وأراد وعزم» أي يشاء أن يقع وإن كان نهى عنه في الظاهر بأن لا يقع، فنهيه نهي تشريعيّ أمّا مشيئته فمشيئة تكوينية، وقد مثّل له الإمام ﴿ﷺ﴾ بنهي آدم عن أكل الشجرة، وقد كانت المصلحة تستدعي الأكل منها حيث خلق آدم ﴿ﷺ﴾ ليعيش على الأرض، ويكون خليفة الله فيها، فتختلف إرادته التشريعية عن إرادته التكوينية.

ثمّ قال ﴿ﷺ﴾: «ويأمر وهو لا يشاء» ومثّل بأمره تعالى إبراهيم بذبح ابنه إسماعيل ﴿ﷺ﴾ حيث تخلّف التشريع عن التكوين، وعلى ضوء هذا البيان تندفع شبهات الموهّمين عن كثير من الآيات القرآنية.

منها: قوله عزّوجلّ «ولو شاء الله لجمعهم على الهدى» «ولو شاء الله ما أشركوا» «ولو شاء ربّك ما فعلوه» «قل فلله الحجّة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين» (الأنعام ٣٥ و١٠٧ و١١٢ و١٤٩).

ومنها: قوله جلّ وعلا: «ولو شاء الله لجعلكم أمّة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات» (المائدة ٤٨).

ومنها: قوله تعالى «ولو شاء ربّك لآمن من في الأرض كلّهم جميعاً» (يونس ٩٩).

وغيرها من الآيات الكريمة. فالمشيئة فيها تكوينية، أي لو أراد الله تعالى أن يجعل الناس كلّهم مؤمنين بإرادته التكوينية لفعل، ولم تتخلّف إرادته عن المراد. ولكنّه سبحانه لم يشأ الإيمان إلّا عن اختيارهم بعيداً عن الإجبار، حيث لا تمييز مع الإكراه والإلجاء «لا إكراه في الدّين قد تبيّن الرّشد من الغيّ» (البقرة ٢٥٦).

وبهذا البيان يرتفع إيهام التناقض بين ظاهر هذه الآيات الكريمة، وآيات أخر، جاء فيها أنّ الله عزّوجلّ هدى الناس جميعاً ولا يرضى لعباده الكفر، حيث إنّ هذه الطائفة من الآيات تعني مشيئته تعالى التشريعية أمراً ونهياً، بعثاً وزجراً في هداية شاملة، وإرشاد عام.

كقوله تعالى: «إنّا هديناه السّبيل إمّا شاكراً وإمّا كفوراً» (الإنسان ٣).

وقوله سبحانه: «إن تكفروا فإنّ الله غنيّ عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا

برضه لكم» الزمر ٧)

و قوله عزّ و جلّ: «و أمّا ثمود فهديناهم فاستحبّوا العمى على الهدى» فصلت ١٧)

و قوله جلّ و علا: «و هديناهم إلى صراط مستقيم أولئك الّذين هدى الله فبهداهم اقتده - قل إنّني هداني ربّي إلى صراط مستقيم» الأنعام ٨٧، ٩٠ و ١٦١

و قوله تعالى: «بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان» الحجرات ١٧

و قوله سبحانه: «إنّ هذا القرآن يهدي للّتي هي أقوم» الإسراء ٩

و قوله عزّ و جلّ: «و إنّك لتهدي إلى صراط مستقيم» الشورى ٥٢

البصيرة التاسعة: إنّ الأشاعرة الجبريّة من العامّة تشبّثوا بقوله تعالى: «فمن يهدي من أضلّ الله» الروم ٢٩ على خلق الكفر و الضلال في الكافر و أنّ الكافر مجبور و مكره و مضطرّ على الكفر و الضلال فلا سبيل له إلى حسن طريق الإيمان و الهدى و إنّما هي إرادة الله سبحانه يهدي من يشاء بغير سبب ذاتيّ و يضلّ من يشاء بدون استحقاق موجب لأنّه تعالى يفعل ما يريد، و لا يسأل عمّا يفعل، و هم يسألون.

فالإيمان و الكفر كلاهما من فعل الله سبحانه خلقهما فيمن يشاء من عباده فمن شاء جعله مؤمناً و من شاء جعله كافراً، فمن كان أراد من الكافر الكفر لا قدرة عليه لكنّه أراد أن يكون كافراً، فلم يقدره على الإيمان و بالعكس بالعكس.

في تفسير النيشابوري - و هو من علماء العامّة - قال في قوله تعالى: «فمن يهدي من أضلّ الله» و الإضلال هنا الخلق: إنّ الأشاعرة حملوه على خلق الضلال في المكلّف، و المعتزلة حملوه على الخذلان و منع الألطاف»

و في روح المعاني، قال الآلوسي - مفتي بغداد - في تفسير قوله تعالى: «فمن يهدي من أضلّ الله» أي خلق فيه الضلال»

و في تفسير المراغي قال في قوله تعالى: «فمن يهدي من أضلّ الله» أي فمن يهدي من خلق الله فيه الضلال و جعله كاسباً له باختيار و لسوء استعداده و ميله بفطرته إليه، و علم الله فيه ذلك؟»

و في تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، قال في قوله تعالى: «فمن يهدي من

حسنٌ لله». وفي هذا ردٌّ على القدريّة»

أقول: وقد ذهب أصحابنا إلى أنّ معنى إضلال الله تعالى لمن يشاء، هو خذلانه للعبد المتمرّد الطاغي بتركه نفسه في غيّه وطغيانه، فمثل الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون، فيمسي الإنسان حيرة ويضلّ مع عناده وإصراره على الكفر والضلالة والمعاصي والجهالة، وما يحيط به من مزالق هاوية سحيقة، لا يعرف درب النجاة، وعمته ظلمات السماء والأرض فمثله مثل من لا يعرف الهوى من ذلك لأهديك سواء السبيل، و فاتّبعني أهدك صراطاً مستقيماً ولكنّه لسوء حظّه وإصراره يرفع نفسه علوّاً واستكباراً، فيسقط مع الساقطين بدل أن يهتدي مع المهتدين ويسير مع ركب المؤمنين، وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء» (البقرة: ١٣).

فهم اختاروا ضلالهم ونفورهم بأنفسهم كما في الآية «فلمّا زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين» (الصف: ٥) قال الله عزّوجلّ «سأصرف عن آياتي الذين يتكبّرون في الأرض بغير الحقّ وإن يروا كلّ آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتّخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغيّ يتّخذوه سبيلاً ذلك بأنّهم كذّبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين» (الأعراف: ١٤٦)

وقال «فأمّا الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً» (النساء: ١٧٤)

البصيرة العاشرة: أنّ في قوله تعالى «ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون» «كانوا أشدّ منهم قوّة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر ممّا عمروها» «ذلك الدين القيّم ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون» «قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين» (الروم: ٦ و ٩ و ٣٠ و ٤٢) ردّاً على أصحاب الشقيقة الشخصيّة لشؤمه وذنابهم الذين يدّعون أنّ أكثريّتهم تدلّ على كونهم حقّاً

وقد صرّح كثير من الآيات القرآنيّة بأنّ الأكثريّة التي لا إيمان لأهلها، وأنّها ليست معياراً لحقّانيّة أصحابها كما أنّ كثرة الأموال والأولاد والجاه والرئاسة وما يليها ليست ملاكاً لفضيلة أصحابها في ظرف من الظروف، وأنّ أهل الجنّة قليلون، وأهل النار أكثر

الناس. قال الله تعالى: «و إن تطع أكثر من في الأرض يضلّوك عن سبيل الله إن يتّبعون إلاّ الظنّ و إن هم إلاّ يخرصون» الأنعام: ١١٦)

و قال: «بل أكثرهم لا يعلمون الحقّ فهم معرضون» الأنبياء: ٢٤)

و قال: «لقد جئناكم بالحقّ و لكنّ أكثركم للحقّ كارهون» الزخرف: ٧٨)

و قال: «بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون» البقرة: ٨٨)

و قال: «أ رأيتك هذا الّذي كرّمت عليّ لئن أخّرتن إلى يوم القيامة لأحتنكنّ ذرّيّته إلاّ قليلاً» الإسراء: ٦٢)

و قال: «و ما آمن معه إلاّ قليل» هود: ٤٠)

و قال: «و إنّ كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلاّ الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات و قليل ما هم» ص: ٢٤).

و قال: «و قليل من عبادي الشّكور» سبأ: ١٣).

في كتاب الإيضاح باب الاحتجاج على مخالفي الاحتجاج على الكثرة و الجماعة ما لفظه: «و أمّا ما ذكرتم أنّكم أهل الكثرة و الجماعة، فإنّا وجدنا الكثرة في موارد من كتاب الله تعالى هي المذمومة، و القلّة هي المحمودة. من ذلك قوله تعالى: «و إنّ كثيراً ليضلّون بأهوائهم بغير علم» و قوله عزّ و جلّ: «و ما يؤمن أكثرهم بالله إلاّ و هم مشركون» و قال عزّ و جلّ: «و لا تجد أكثرهم شاكرين» و قوله تعالى: «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله و الله مع الصّابرين» و قوله تعالى: «و إنّ كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلاّ الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات و قليل ما هم» و قوله تعالى: «و ما آمن معه إلاّ قليل» و قوله تعالى: «و قليل من عبادي الشّكور»

و قوله تعالى: «و لو أنّا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلاّ قليل منهم» و قوله جلّ ثناؤه: «قال إنّ الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منّي و من لم يطعمه فإنّه منّي إلاّ من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلاّ قليلاً منهم»

و في كثير من القرآن يحمد فيه القليل و يذمّ الكثير، و من ذمّ الكثير قوله عزّ و جلّ: «و لكنّ أكثر النّاس لا يعلمون» و «لا يشكرون» و «أكثرهم لا يعقلون» و «لا يؤمنون»

ألا ترى أنّ القلّة حمدت، وإنّ حمد الله تعالى أتباع الحقّ وإن قلّوا، وما كانت يد الله على جماعة أهل الباطل قطّ. فإن زعم أنّ يد الله على من قال بقولكم فهذه تسمية جرى رسمون أنّ يد الله على من نسب الحكم إلى غيره، وقد تقدّم كفاية، فهي كلامه ورفع مقامه

في نهج البلاغة قال مولى الموحّدين الإمام علي (ع): «لا يقصّر بهم قلّة عددهم ولا كثرة المكذّبين لهم» الخطبة ١)

وفيه قال إمام المتّقين علي بن أبي طالب (ع): «فلا تغرّنّكم كثرة ما يعجبكم فيها، لقلّة ما يصحبكم منها» الخطبة ١٠٢

وفيه قال سيّد الوصيّين الإمام علي (ع): «إنّ هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا بقلّة، وهو دين الله الذي أظهره، وجنده الذي أعدّه وأمدّه، حتّى بلغ ما بلغ وطلع حيثما طلع..» من كلامه (ع): رقم ١٤٦)

وفيه قال يعسوب الدين الإمام علي (ع): «أيّها النّاس! لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلّة أهله، فإنّ النّاس قد اجتمعوا على مائدة شبعها قصير، وجوعها طويل» من كلامه (ع)، رقم: ١٩٢)

وفيه: قال أمير المؤمنين الإمام علي (ع): «أوصيكم عباد الله بتقوى الله فإنّها حقّ الله عليكم، والموجبة على الله حقّكم ... من قبلها و ... حقّ ... أولئك الأقلّون عدداً وهم أهل صفة الله سبحانه إذ يقول: وقليل من عبادي الشكور» الخطبة ٢٣٣

وفيه: قال مولى الموحّدين الإمام علي (ع): «اعقلوا الدين عقل وعاية ورعاية لا عقل سماع ورواية، فإنّ رواة العلم كثير ورعاته قليل» الخطبة ٢٣٩)

وفيه من كلام سيّد الوصيّين الإمام علي (ع) لكميل بن زياد النّخعي رضوان الله تعالى عليه: «... اللّهمّ بلى، لا تخلو الأرض من قائم لله بحجّة إمّا ظاهراً مشهوراً وإمّا خائفاً مغموراً لئلّا تبطل حجج الله وبيّناته، وكم ذا وأين؟ أولئك والله الأقلّون عدداً والأعظمون عند الله قدراً، يحفظ الله بهم حججه وبيّناته حتّى يودعوها نظراءهم ويزرعوها في قلوب أشباههم...»

الصغيرة الحادية عشر: أنّ الأشاعرة المجبرة و من سلك مسلكهم من المجسّمة و المشبّهة من العامّة يتشبّثون بقوله سبحانه: «يريدون وجه الله» «تريدون وجه الله» (الروم: ٣٨ - ٣٩) لإثبات الوجه كسائر الأعضاء و الجوارح لله سبحانه.

أقول: إنّي أظنّ أنّ خرافة عقائدهم، و شناعة أقاويلهم، و سخافة آرائهم و انحطاط أفكارهم ههنا على حدّ من الوضوح بحيث لا حاجة إلى بيانها، و قد سبق منّا في البحث البياني و في التفسير و التأويل من هذا التفسير أنّ المراد بالوجه في الآيتين الكريمتين هو قصد رضا الله تعالى و التقرّب و الزلفى عند الله جلّ و علا لا الوجه بمعنى العضو المعروف كما توهّمت الأشاعرة و أذنابهم من العامّة.

الصغيرة الثانية عشر: أنّ قوله تعالى: «ظهر الفساد في البرّ و البحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلّهم يرجعون - من كفر فعليه كفره و من عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون ليجزي الذين آمنوا و عملوا الصالحات من فضله إنّه لا يحبّ الكافرين» (الروم: ٤١ - ٤٥) ردّاً على الأشاعرة و من حذا حذوهم في الجبر و نفي الاستطاعة من العبد على اختيار ما يريده و ترك ما يكرهه، فلا إرادة و لا اختيار له في عقائده و أقواله و أفعاله و إنّه يفعل ما يفعل بإرادة الله سبحانه كأنّه جماد في يد الفاعل المختار و هو الله الواحد القهّار الجبّار.

و قد وقفت الشيعة الإماميّة الاثنى عشريّة المحقّة من مسألة الاستطاعة و الاختيار موقفاً قريباً، و قدّسوا ساحة قدسه جلّ و علا أجمل تقديس، في هدى العقل الرشيد، و محكمات الوحي السماوي و الآثار الصحيحة من أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين.

أنّ الله تعالى خلق الكون كلّه لا شريك له في عالم من أجزائه، لا شريك في أصل الوجود، و لا في الإيجاد، و لا في تدبير نظام الكون، و لا في العبادة، و لا إله إلّا هو، و لا خالق سواه، و لا مدبّر إلّا هو، و لا معبود بحقّ إلّا هو، و هو الذي ركّب في كلّ مخلوق صفة، و جعل لكلّ موجود أثراً، و جعل من أوصاف الأشياء و آثارها نوعين:

منها: ما يصدر عنها صدوراً لا باختيارها، و لا هي مقيّدة بإرادتها كطلوع الشمس و

يصرفها، و سبب التسخير و نحوها.

و منها: ما يصدر عنها صدوراً تحت اختيارها، و منشؤه إرادتها، كمشي الدابّة و وقوفها و طلبها الحشيش و نحو ذلك.

و من البداهة أنّ هناك فرقاً ضرورياً بين حركة يد المرتعش بحيث لا تقع تحت اختياره، و حركة يد المسؤول عنها، و كذا بين السقوط حسب الاختيار، و كذا الفرق بين التنفّس و التكلّم، و هكذا بين سائر الأعمال و حقيقتها، حيث إنّ الأوّل ليس اختيارياً، و يكون الثاني اختيارياً، و نعني بالاختياري هو ما إذا شاء الإنسان فعله و إن لم يشأ تركه، والفرق بين الأمرين في غنى عن البيان، كما أنّ الفرق بين تعلّق الإرادة بالعمل الذي يريده، و تعلّق العلم به كما لا يخفى على ذي مسكة و دراية، حيث إنّ الأمر يتعلّق في تحقّق المعلوم، ثمّ الإرادة فهي المؤثّرة على تحقّق المراد و كذا القدرة على العمل هي التي تجعله حسب اختياره إن شاء فعله، و إن لم يشأ تركه، و لا هكذا العلم بالنسبة إلى المعلوم.

و من الواضح أنّ هناك عملاً حسب إرادته ليس بخارج عن اختيار صاحبه حسب إرادته و اختياره، يكون هو المسؤول عنه، حسناً و سيّئاً، مدحاً و ذمّاً، ثواباً و عقاباً، و لا يسأل عنه غيره أبداً، لا يؤخذ أحد بذنب أحد، و الأشرار و لا تزر وازرة وزر أخرى و مصلحة كلّ عمل إنّما ترجع إلى العامل، و مفسدته تعود إليه من خير أو شرّ، من صلاح أو فساد، و من ثواب أو عقاب، و هذا ممّا يشهد به ضرورة العقل و بداهة الوجدان، و عليه صحّ التكليف و التشريع و نسبت عليه فطرة الإنسان، و بعث الرسل و إنزال الكتب، و الأمر و النهي و الوعد و الوعيد، و المثوبة و العقوبة و ما إليها و إلّا كان التكليف لغواً و التشريع باطلاً و البعث عبثاً، و الزجر هواً و لم يكن موقع التحسين أو التقبيح و لا استحقاق جزاء، و لا يصحّ تحسين المحسن على إحسانه نحو أكمدح الجميل على حسن صورته، و هكذا لا يصحّ ذمّ المسيء على إساءته كذمّ الدميم على قبح منظره، و قدح القصير على قصر قامته أو الأعرج على عرج رجله.

و جدير لعاقل أن يسأل الأشاعرة المجبرة: هل تجدون من أنفسكم الفرق بين جود الكريم، و صفاء اللؤلؤ؟ أو بين البخل و سواد الفحم؟؟؟ فإن أجابوا نعم، فنسألهم فإلى

مَن يرجع مدح العود إذا جاد بكريمه؟ وإلى من يعود مدح الشجر إذا حمل النخل؟ فإن قالوا إلى الله سبحانه فيلزمهم أن لم يكن فرق بين الكريم واللئيم إذ كان كرم ذاك ولؤم هذا كلاهما من عند الله تعالى، غير داخلين تحت اختيارهما وإرادتهما، وبالتالي لم يكن فرق بين كرم الكريم وخسّة اللئيم، ولا بين شجر النخل وسواد الفحم، فقد نقضتم ما اعترفتم به أوّلاً فيجب أن يسمّى إن ثبت لهم إنّكم مسلوبو العقول، وفاقدوا الشعور، وفاقدوا الإدراك قبل أن تكونوا مسلوبي الاستطاعة والاختيار والإرادة

وقد دلّ صريح الوحي السّماوي في محكمات آياته الكريمة، والأخبار المتواترة من أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين على صحّة ما يثبت عقيدة الفطرة الإنسانية، وشهدت به العقول السّليمة، واعترفت به أولو الألباب

البصيرة الثّالثة عشر: أنّ العامّة قد تمسّكت بقوله سبحانه «فإنّك لا تسمع الموتى» (الروم: ٥٢) على عدم سماع الميّت، ولذا لا يجب تلقين الميّت في القبر، ولا زيارة أهل القبور

أقول: إنّ الآية الكريمة في صدد بيان موتى القلوب وكدورة الأرواح الذين صدّق عليهم مثّلهم لا أولئك الذين خرجت الأرواح من أجسامهم وهم أحياء، والمؤمنون منهم عند ربّهم يرزقون، قال رسول الله ﷺ في أهل القبور «ما أنتم بأسمع منهم»

نعم ما قال الشّاعر

إنّ السّباع لتهدى في مرابضها ... والنّاس لايهدى من شرّهم أبداً

وفي كون الموتى أحياء، وعذابهم وثوابهم في القبور، وسماعهم، وزيارة قبورهم بحث مفصّلاً في تفسير سورة «التّكاثر» من هذا التّفسير فانظر

البصيرة الرّابعة عشر: إنّ بعض العامّة تمسّك بقوله سبحانه: «ويوم تقوم السّاعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون» (الروم: ٥٥) على نفي عذاب القبر وردّه

أقول: وهذا مردود بما سبق منّا في البحث البياني وفي التّفسير والتّأويل من تفسير هذه السّورة فراجع، وبحث في تفسير سورة التّكاثر فانظر

وفي التّبيان: قال الشّيخ الطّوسي رضوان الله تعالى عليه ـ في تفسير هذه الآية

الكريمة. ومن استدل بها على نفي عذاب القبر فقد غفل لأن المراد أنهم ما لبثوا بعد انقطاع عذاب القبر إلا ساعة» انتهى كلامه.

وفي المجمع قال الشيخ الطبرسي المازندراني رحمه الله تعالى عليه «ومن استدل في هذه الآية على نفي عذاب القبر فقد أبعد لأنه يجوز أن يريدوا أنهم لم يلبثوا بعد عذاب الله إلا ساعة» انتهى كلامه.

وفي تفسير القرطبي قال: «ليس في هذا رد لعذاب القبر إذ كان قد صح عن النبي (ﷺ) من غير طريق أنه تعوذ منه وأمر أن يتعوذ منه» أي من عذاب القبر.

وفي تفسير روح المعاني قال الآلوسي: «واستدل به بعضهم على نفي عذاب القبر وليس بشيء».

وقال بعضهم إن في قوله تعالى «لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث» (الروم ٥٦) رد لقول الكفار واطلاع لهم على مصدوقية الحال».

﴿آراء حول الروم﴾

قال الله تعالى «غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون» الروم ٢-٤

وقد اختلفت كلمات المفسرين والمحدثين والمؤرخين والعلماء في معنى (الروم) ووجه تسميته، وعن سر هذه التسمية ... ونكتفي هنا للاختصار.

في القاموس وشرحه تاج العروس: الروم بالضم: جيل من ولد الروم بن عيصو بن إسحاق ﴿عليه السلام﴾ سمي باسم جدهم. قيل: كان عيصو ... ولد أسمهم الروم فسموا ... فخطئ نسبتهم.

وفي معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي «الروم اسم أعجمي لهذا الجيل من الناس عربته العرب، وسمي باسم جدهم وهو روم بن عيصو بن إسحاق بن إبراهيم ﴿عليه السلام﴾»

وفي تفسير روح البيان «إن الروم الأولين منهم بنو روم بن يونان بن يافث بن نوح ﴿عليه السلام﴾ والفرس ... قوم معروفون نسبة إلى فارس بن سام بن نوح ﴿عليه السلام﴾»

وقال بعض المؤرخين: الروم أمة من الناس كانوا يسكنون شمالي البحر المتوسط وسميتهم بالروم والرومي نسبة إلى مسكنهم الأصلي مدينة (روميه) من مدن إيطاليا، عقد أهلها حلفاً منذ فجر التاريخ (٧٠٠ ق م) فكان منشأ نشاط وحركة ثم تشكل

حصاره وسعة نطاق ممتلكاتها نحو الشرق الأوسط، ثم انقطعت شيئاً فشيئاً وانهارت (٨٥٧هـ) على يد الأتراك العثمانيين نهائياً.

و قال بعضهم: الروم اسم أطلقه العرب على الشعوب اليونانية و يطلق أيضاً على المسيحيين الشرقيين المنشقين عن الكاثوليك، و الأرثوذكس، و الإمبراطورية الرومانية الشرقية عرفت باسم نسبة إلى بيزنطة اسم القسطنطينية القديم حتى أطلق العرب على سكانها الروم، و قد أطلقه البيزنطيون على أنفسهم نسبة إلى الإمبراطورية الرومانية و عاصمتها روما و إلى بيزنطة و عاصمتها القسطنطينية.

و قال بعضهم: الروم جيل من الناس من سكان حوض البحر الأبيض المتوسط كانت لهم إمبراطورية واسعة ممتدة إلى الشامات وقلب آسيا و بين الفرس حروب طويلة في بعض نواحي الشام قريباً من الحجاز فغلبت الفرس و انهزمت الروم.

و قال بعضهم: المراد بأدنى الأرض: قربها، و هي أقرب البلاد من مملكة الروم بالنسبة إلى جزيرة العرب، و هي بعض البلاد الواقعة في المناطق الشرقية من مملكة الروم كدمشق و بيت المقدس و غيرها.

الرومان هم مؤسسو دولة الرومانيين في تاريخهم عناصر مستعمرين و ملوك متطورين من عهد ... الأصول، و ... التشريع و فتح الأقطار، كانوا مستقلين لعظمة أوروبا الحديثة و مدنيتها القديمة، و كان مقر الرومانيين بلاد إيطاليا الحالية، و كان من سكان إيطاليا قوم يقال لهم اللاتينيون ثم امتد سلطانهم ... اللاتين و عم الروم البحر الأبيض المتوسط.

﴿ قمار أبي بكر في غلبة الروم على الفرس ﴾

في تفسير ابن أبي حاتم – وهو من علماء مفسري العامة – المتوفى سنة ٣٢٧ هـ – عن قتادة في قوله: «غلبت الروم في أدنى الأرض» قال: غلبتهم أهل فارس على أدنى أرض الشام «وهم من بعد غلبهم سيغلبون» قال: لما أنزل الله هذه الآيات صدق المسلمون ربهم وعرفوا أن الروم ستظهر على أهل فارس، فاقتمروا هم والمشركون خمس قلائص، وأجلوا بينهم خمس سنين، فولي قمار المسلمين أبو بكر، وولي قمار المشركين أبي بن خلف، وذلك قبل أن ينهى عن القمار، فجاء الأجل ولم تظهر الروم على فارس، فسأل المشركون قمارهم، فذكر ذلك أصحاب النبي (ﷺ) فقال: «لم تكونوا أحقاء أن تؤجلوا أجلاً دون العشر؟ فإن البضع ما بين الثلاث إلى العشر، فزايدوهم ومادّوهم في الأجل»، فأظهر الله الروم على فارس عند رأس السبع من قمارهم الأول، فكان ذلك مرجعهم من الحديبية، وكان مما شدّ الله به الإسلام، فهو قوله: «ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله».

وفي تفسير السمرقندي – وهو من علماء العامة في القرن الرابع – وروى أسباط عن السدي، عن أصحابه قال: اقتتلت فارس والروم، فغلبتهم فارس، ففخر أبو سفيان بن حرب على المسلمين، فلقي أبو بكر أبا سفيان، فقامره على أن الروم ستغلب فارس إلى ثلاث سنين، فقامره على ثلاثة أبكار، ثم أتى النبي (ﷺ) فأخبره، فقال له: «انطلق فزد في الأجل وزد في الثنيين»، فزاده إلى سبع سنين على سبعة أبكار، فالتقى الروم وفارس، فغلبتهم الروم وظهر عليهم هرقل، فجاءه جبرئيل (ع) بهزيمة فارس وظهور الروم

عليهم، و وافق ذلك يوم بدر و ظهور النبي (ﷺ) على المشركين، ففرح المؤمنون بظهورهم على المشركين وظهور أهل الكتاب على أهل الشرك»

أقول: و في هذا المعنى حكايات أخر مختلفة المضامين، و متناقضة الفحوى عن طريق العامّة، أوردناها في كتب التأويل غير مقبولة عندنا.

إذ في بعضها أنّ المقامرة كانت بين المشركين و المسلمين، و كان أبو بكر من قبل المسلمين و أُبيّ من قبل المشركين، و في بعضها بين أبي بكر و المشركين، و في بعضها بين أبي بكر و أُميّة بن خلف كما في الدّر المنثور (ج ٣ ص ١٠٨)، و في بعضها بين الفئتين، و في بعضها بين أبي بكر و أبي سفيان كما في تفسير السمرقندي.

و كذلك الاختلاف في الأجل المضروب و مقداره، و في الخطر و أنّه كان أربعة قلائص، و في بعض الروايات خمس و في بعضها عشر، و في أخرى مائة قلوص، و غيرها من الاختلاف، و لنعرض عن الروايات و نرجع إلى بحث القرآن فنتأمّل جيّداً.

«القتال بين الروم والفارس وسبب غلبة الروم على الفرس»

وقد تضمنت كتب المفسرين والمؤرخين في هذه الحادثة كلامًا كثيرًا نشير إلى ما يسعه المقام، ومن باب الاختصار، وفيه عبرة من العبر ودروس من الدروس وتذكرة لمن يذّكر

في تفسير الطبري عن عكرمة قال: كانت في فارس امرأة لا تلد إلا الملوك الأبطال، فدعاها كسرى فقال: إني أريد أن أبعث إلى الروم جيشًا، وأستعمل عليهم رجلاً من بنيك فأشيري عليّ أيهم أستعمل؟ فقالت: هذا فلان وهو أروغ من ثعلب وأحذر من صقر، وهذا فرخان وهو أنفذ من سنان، وهذا شهربراز وهو أحلم من كذا، فاستعمل أيهم شئت. قال: إني قد استعملت الحليم، فاستعمل شهربراز، فسار إلى الروم بأهل فارس وظهر عليهم فقتلهم وخرب مدائنهم وقطع زيتونهم

ولمّا ظهرت فارس على الروم جلس فرخان يشرب فقال لأصحابه: لقد رأيت كأني جالس على سرير كسرى، فبلغت كسرى فكتب إلى شهربراز: إذا أتاك كتابي فابعث إليّ برأس فرخان، فكتب إليه: أيها الملك إنك لن تجد مثل فرخان، إن له نكاية وصوتًا في العدو فلا تفعل. فكتب إليه: إن في رجال فارس خلفًا منه فعجّل إليّ برأسه، فراجعه فغضب كسرى فلم يجبه وبعث بريدًا إلى أهل فارس: إني قد نزعت عنكم شهربراز واستعملت عليكم فرخان، ثمّ دفع إلى البريد صحيفة صغيرة: إذا ولي فرخان الملك، وانقاد له أخوه

فأعطه هذه

فلمّا قرأ شهربراز الكتاب قال: سمعاً وطاعة، ونزل عن سريره وجلس فرخان، ودفع الصّحيفة إليه قال: ائتوني بشهربراز، فقدمه ليضرب عنقه، قال: لا تعجل حتّى أكتب وصيّتي؟ قال: نعم، فدعا بالسّفط فأعطاه ثلاث صحائف وقال: كلّ هذا راجعت فيك كسرى وأنت أردت أن تقتلني بكتاب واحد؟ فردّ الملك، وكتب شهربراز إلى قيصر ملك الروم: أنّ لي إليك حاجة لا تحملها البرد ولا تبلغها الصّحف فالقني، ولا تلقني إلاّ في خمسين روميّاً فإنّي ألقاك في خمسين فارسيّاً، فأقبل قيصر في خمسمائة ألف روميّ، وجعل يضع العيون بين يديه في الطّرق وخاف أن يكون قد مكر به حتّى أتته عيونه أنّه ليس معه إلاّ الخمسون رجلاً.

ثمّ بسط لهما والتقيا في قبّة ديباج ضربت لهما مع كلّ واحد منهما سكّين فدعيا ترجماناً بينهما، فقال شهربراز: إنّ الّذين خرّبوا مدائنك أنا وأخي بكيدنا وشجاعتنا، وإنّ كسرى حسدنا فأراد أن أقتل أخي فأبيت، ثمّ أمر أخي أن يقتلني فقد خلعناه جميعاً، فنحن نقاتله معك؟ فقال: قد أصبتما. ثمّ أشار أحدهما إلى صاحبه أنّ السّرّ بين اثنين، فإذا جاوز اثنين فشا؟ قال: أجل، فقتلا الترجمان جميعاً بسكّينيهما، فأهلك الله كسرى وجاء الخبر إلى رسول الله ﷺ يوم الحديبية ففرح ومن معه».

وقال بعض المفسّرين: إنّ سبب غلبة الروم على فارس يومئذ أنّ (الشهرمان) وهو القائد الفارسيّ كان قد بطش في الرّوم قتلاً وإهلاكاً، وبينما أخوه (فرخان) يوماً يشرب إذ قال لأصحابه: رأيت كأنّي على سرير كسرى، فبلغ الخبر كسرى، فكتب إلى (شهرمان) أن يقتل أخاه، فأبى وراجعه ثلاث مرات وجعل الأمر لأخيه (فرخان) وأمره بقتل أخيه (شهرمان)، فلمّا قدّمه ليقتل قال له: اصبر، وأراه كتب كسرى إليه ومراجعته إيّاه، فنازل عن الملك وأرجعه إلى أخيه (شهرمان)، وأرسل بدل (الشهرمان) إلى ملك الروم، فقابلا سرّاً وحاربا معاً كسرى فغلبت الرّوم في تلك البلاد، وانكسرت فارس، ثمّ إنّ الروم كانت تملك ريف الشّام، فغزاهم المسلمون، وفتحوا بعض بلادهم في السّنة التاسعة من نزول الآية.

فالرّوم غلبت فارس في أدنى الأرض إليهم ثمّ غلبها الرّوم بعد ذلك ببضع سنين، و غلب الرّوم المشركة بنت بلاد المسلمين بعد نزول الآية ببضع سنين، فلا جرم أنّ الأمرين معجزة، و لا ينافي أحدهما الآخر حيث غلبت الرّوم فارس، و غلب المسلمون الرّوم، و لذلك قرئت الآية بوجهين»

كانت الرّوم و الفرس دولتين مسيطرتين على العالم في ذلك الزّمان إحداهما في الشّرق و هي فارس، و الأخرى في الغرب و هي الرّوم، و قد كانتا تتنازعان السّيادة و الملك على بلاد الشّام و غيرها.

و لمّا كان الرّوم في ذلك الوقت أهل كتاب، دينهم النّصرانيّة، و كان الفرس غير موحّدين ديانتهم المجوسيّة فقد وجد المشركون من أهل مكّة في غلبته التي وقعت بين الدّولتين العظيمتين فرصة لاستعلاء عقيدة الشّرك على عقيدة التّوحيد، و تفاؤلاً بانتصار ملّة الكفر على ملّة الإيمان، و من ثمّ نزلت الآيات من هذه السّورة تبشّر بغلبة أهل الكتاب من الرّوم في بضع سنين غلبة يفرح لها المؤمنون الّذين يودّون انتصار ملّة الإيمان من كلّ دين»

و الرّوم جيل من النّاس على ساحل البحر الأبيض بالمغرب كانت لهم إمبراطوريّة واسعة منبسطة إلى الشّامات، و وقعت بينهم و بين الفرس حروب عوان في بعض نواحي الشّام قريب من الحجاز، فغلبت الفرس و انهزمت»

و في روضة الصّفا ـ مترجماً ـ «لمّا مضى من سلطنة خسرو أربعة عشر سنة، غدر الرّوميون بملكهم و قتلوه مع ابنه بناطوس، و هرب ابنه الآخر إلى خسرو، فجهّز معه ثلاثة رؤساء أولي قدر رفيع مع عسكر عظيم، فدخلوا بلاد الشّام و فلسطين و بيت المقدس، و أسروا من فيها من الأساقفة و غيرهم، و أرسلوا إلى خسرو الصّليب الّذي كان مدفوناً عندهم في تابوت من ذهب، و تسلّطت على الإسكندريّة و بلاد النّوبة إلى أن وصلوا إلى نواحي القسطنطينيّة، و أكثروا الخراب و جهدوا على إطاعة الرّوميّين لابن قيصر، فلم تحصل

قيل إنّ الرّوميّين جعلوا عليهم حاكماً شخصاً اسمه هرقل، و كان سلطاناً عادلاً يخاف

الله تعالى فلمّا بلغ عظيم فارس ما شاع في بلاد الرّوم من النّهب والقتل تضرّع وبكى، وسأل الله تعالى خلاص الروميين، فصادف دعاؤه هدف الإجابة فرأى في تلك الليلة في منامه أنّه قد جيء إليه بكسرى وفي عنقه سلسلة وقيل له: عجّل بمحاربته برويز لأنّه يكون لك الظّفر والنّصرة، فجمع هرقل عسكره من بلاد الرّوم وتوجّه من قسطنطينية إلى نصيبين، فسمع كسرى، فجهّز إلى هرقل اثني عشر ألفاً من أمرائه فقاتلهم هرقل فكسرهم وقتل منهم تسعة آلاف مع رؤسائهم.

وقال بعض المفسّرين: من الثابت في هذا التاريخ أنّه في سنة (٦١٤) من الميلاد كانت تدور معركة بين الفرس والرّوم، وقد هزمت طلائع الفرقة جيش الرّوم، فاستولى الفرس على أنطاكية، وهي من كبريات المدن الشرقية للمملكة الرّومية، ثمّ استولوا بعد ذلك على دمشق، ثمّ على بيت المقدس ذاتها، واستولوا فيها على الصليب، وأحرقوا كنيسة القيامة، وفي عام (٦١٤) وقع بعد بعثة النبيّ «ﷺ» وقبل هجرته «ﷺ».

وطبيعيّ أنّ أنباء هذه المعركة وصلت إلى مكّة في أيّامها، وربّما يكون ذلك بعد عام أو أقلّ من عام، وبالتالي من المفترض أنّه في عام (٦١٥) من الميلاد كان نزول هذه الآيات التي نزلت في أوّل سورة الرّوم تتّفق مع هذه الحادثة ووقعها على المسلمين والمشركين في مكّة، وقد حدّثت الآيات أنّه بعد بضع سنين سيكون الغلب للرّوم، والبضع كان ما بين ثلاث إلى عشر، فاسمع ما جرى، وما تحدّث به صحف التّاريخ الرّومانيّ:

تقول تلك الصّحف: إنّه في سنة (٦٢٢) من الميلاد ـ أي بعد سبع أو ثماني سنين من حرب الرّوم والفرس، بدأت المعارك بين الرّوم والفرس مرّة أخرى، وكان هذا أمراً غير متوقَّع عند من يرقب الأحداث ـ بأنّ ما حدّث به القرآن عن هذين الخصمين يمكن أن يقع على ما أخبر به؛ ومع هذا فإنّ المشركين حين سمعوا نبأ هذه المعركة كانوا يتوقّعون النّصر للفرس، ولهذا فإنّ أبيّ بن خلف حين علم بمخاطرة أبي بكر طلب إلى عبد الله بن أبي بكر أن يكون كفيلاً لأبيه في أداء ما خاطره به إذا غلبت الفرس، وقد قبل عبد الله بن أبي بكر هذا.

وفي عام (٦٢٤) من الميلاد كانت معركة بدر، وحين خرج أميّة بن خلف فيمن خرج من المشركين لحرب النّبيّ «ﷺ» والمسلمين أمسك به عبد الله بن أبي بكر عن الخروج إلاّ

[illegible] كملاً [illegible] عنه [illegible] إذ انهزمت الفرس، وغلبت الروم، [illegible] كملاًله. وهذا يعني أنّ الحرب [illegible] في سنة ٦٢١، [illegible] لم [illegible] قد [illegible] ولكن [illegible] فلم يكن قد وصل إلى أهل مكة

وعلى [illegible] لم يكد المسلمون [illegible] في معركة بدر [illegible] طريقهم إلى المدينة وفي نفوسهم فرحة النصر، وفي [illegible] حتى [illegible] على طريق المدينة [illegible] بين الفرس و الروم، وأن الروم قد هزموا الفرس وأخرجوهم من بيت المقدس، وما استولوا عليه من بلاد الروم كما استولوا على كثير من مدن فارس [illegible] المسلمين بهذا النصر الذي [illegible]

وفي تفسير ابن أبي حاتم عن [illegible] الروم [illegible] رأيت غلبة الرّوم فارس [illegible] وظهورهم على [illegible] العراق كلّ ذلك في خمس عشرة سنة.

﴿حقيقة الفطرة و معناها﴾

قال الله عزّ وجلّ: «فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون منيبين إليه و اتّقوه و أقيموا الصّلاة و لا تكونوا من المشركين» (الروم ٣٠ ـ ٣١).

و قال حكاية عن إبراهيم الخليل الرّحمن ﴿ع﴾: «إنّي وجّهت وجهي للّذي فطر السّموات والأرض حنيفاً و ما أنا من المشركين» (الأنعام ٧٩).

و قال حكاية عنه ﴿ع﴾ أيضاً: «قال بل ربّكم ربّ السّموات و الأرض الّذي فطرهنّ و أنا على ذلكم من الشّاهدين» (الأنبياء ٥٦).

و قال: «و إذ قال إبراهيم لأبيه و قومه إنّني براء ممّا تعبدون إلاّ الّذي فطرني فإنّه سيهدين» (الزخرف ٢٦ ـ ٢٧).

و قال حكاية عن حبيب النّجّار: «و ما لي لا أعبد الّذي فطرني و إليه ترجعون» (يس ٢٢).

و قال حكاية عن هود النّبيّ ﴿ع﴾: «يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجري إلاّ على الّذي فطرني أفلا تعقلون» (هود ٥١).

في نهج البلاغة قال مولى الموحّدين عليّ بن أبي طالب ﴿ع﴾: «فطر الخلائق بقدرته ... فبعث فيهم رسله و واتر إليهم أنبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته، و يذكّروهم منسيّ نعمته، و يحتجّوا عليهم بالتبليغ و يثيروا لهم دفائن العقول و يروهم الآيات المقدّرة ...»

الخطبة الأولى

وفيه قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «فإنّي وُلدتُ على الفطرة وسبقت إلى الإيمان والهجرة» من كلامه عليه السلام لأصحابه رقم ٥٦

وفيه: في خطبة أبو الحسن الإمام علي عليه السلام: «اللّهمّ داحي المدحوّات وداعم المسموكات، وجابل القلوب على فطرتها شقيّها وسعيدها» الخطبة ٧

وفيه قال أمير المؤمنين مخاطباً الإمام علي عليه السلام: «... وكلمة الإخلاص فإنّها الفطرة» الخطبة ٩٠

واعلم أنّ الفطرة هي أهمّ ما يتعلّق بالإنسان وبها إنسانيّته وهويّته، وقد خفيت حقيقتها وتشتّت على الناس فلم يقفوا على معناها حتّى التبس معناها على الحكماء، والمفسّرين، والفقهاء، والمحدّثين، وعلماء الأخلاق والأصوليّين، والعرفاء، والمتكلّمين والأدباء والمؤرّخين، والشعراء، والمحقّقين وقد اختلفت كلماتهم فيها اختلافاً كثيراً نشير إلى أهمّها

فمنهم من قال إنّ الفطرة هي ما يقتضيه الشيء لو خلّي ونفسه وبدون مانع فإذا قيل الصّدق فطريّ في الإنسان أي أنّه لو خلّي ونفسه فإنّ حسب فطرته يقتضي أن يصدق كلامه، وهذه الفطرة قد تدوم كما هو الغالب، وقد يزول عنه بمانع أقوى فيصبح إلى الكذب، كما أنّ للقائل أن يقول سقوط الحجر إلى الأرض طبيعيّ أي الحجر المتحرّك حول الأرض لو خلّي ونفسه فحكمه السّقوط على الأرض وهذا لا يمنع أن يتخلّف عن طبيعته لعارض وبسبب قاسر

وبناءً على هذا فيكون دين الإسلام فطريّاً في الإنسان لا ينافي وجود سبب عارض يقسره يوماً على مخالفة فطرته، وبعبارة أخرى إنّ الفطرة مقتضية لا ضرورة كما صرّح بذلك حديث متواتر عن الشيعة الإماميّة، والعامّة: «كلّ مولود يولد على الفطرة حتّى يكون أبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه»

وأمّا معنى فطريّة دين الإسلام فالراجح أنّه بعنوانه المجموعيّ أي إنّ الإسلام إذا قيس إلى أيّ دين آخر كان هو دين الفطرة دون غيره كما أشار إليه الحديث المتواتر المتقدّم

وممّا يوضّح دين الإسلام بحسب الفطرة أنّ حقيقة الإسلام هو أن يسلم المرء أمره إلى خالقه، وأن يسالم المخلوقين، وهل هذا إلّا مقتضى الفطرة؟

قال الله تعالى: «ومن أحسن دينًا ممّن أسلم وجهه لله وهو محسن» (النساء: ١٢٥) أي المستسلم لله عزّ وجلّ والمسالم لعباده. وقال رسول الله ﴿ﷺ﴾: «المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه».

ثمّ إنّ الإسلام مبنيّ على توحيد الله تعالى في ذاته وصفاته، وتوحيده في عنايته وعبادته، وهل هذا إلّا الفطرة، وبنى شريعته على العدل والإحسان والفضيلة والمحبّة. وكلّها أحكام الفطرة. فالإسلام بهذا المعنى دين الفطرة وشرع الخليقة، وهذا المعنى هو دين الله الحقّ وهو قديم شرّع للبشر من عهد إبراهيم ﴿ﷺ﴾ والّذين من قبله.

قال الله تعالى في إبراهيم ﴿ﷺ﴾: «ما كان إبراهيم يهوديًّا ولا نصرانيًّا ولكن كان حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين» (آل عمران: ٦٧) أي متديّنًا بالدّين الأصليّ أعني به إسلام الفرد نفسه لربّه ومسالمته مع عباده.

ومنهم من قال: الفطرة هي الخلق، قال الله سبحانه: «الحمد لله فاطر السّماوات والأرض» (فاطر: ١) أي خالق السّماوات والأرض على الابتداء والاستقلال. وقال: «فطرت الله الّتي فطر النّاس عليها» (الروم: ٣٠) أي خلقته الّتي خلق النّاس. وهو معنى قول الإمام الصّادق ﴿ﷺ﴾: «فطر الله الخلق على التّوحيد» أي ابتدأهم بالحدوث، وخلقهم للتّوحيد، وعلى أن يوحّدوه، وليس المراد به أنّه أراد منهم التّوحيد، ولو كان الأمر كذلك لما كان مخلوق إلّا موحّدًا، وفي وجود من لا يوحّد الله من المخلوقين دليل على أنّه لم يخلق التّوحيد في الخلق، بل خلقهم ليكتسبوا التّوحيد لقوله تعالى: «وما خلقت الجنّ والإنس إلّا ليعبدون» (الذّاريات: ٥٦)، فبيّن أنّه خلقهم لعبادته ومعنى الخلق ليعبدوه، وفطرهم ليوحّدوه، وإنّما أتي المشركون من قبل أنفسهم، ومن أضلّهم من الجنّ والإنس دون الله سبحانه.

ومنهم من قال: إنّ الطّبيعة كلّ هيئة تقتضيها ذات الإنسان لو خلّيت عن العوارض الغريبة فهي الفطرة الأولى الّتي فطر الله عليها العباد كلّهم والمقتضية كلّ ما تقتضيه بشرط

عارض عرضت، فهي تجري مجرى المرض و الخروج عن الخلقة الطبيعية، فتكون مثل الأبنة إليها كالشهوة الطبيعية التي هي عارضة ناشئة عن المزاج الطبيعي التي لم تحدث إلا لحدوث مرض، و انحراف عن المزاج الأصلي الخلقي و قد ثبت في الحكمة أنّ الطبيعة بسبب عارض غريب تحدث في الجسم مرضاً مزاجاً خاصاً يسمّى مرضاً كما أن بصحته نوعاً من الطبيعة على قانون حركة طبيعية الخاصة بها بسبب ... فتكون كلّ من الحالتين ملائمة له في وقت مخصوص

و قد ورد في الحديث القدسي «إني خلقت عبادي كلهم حنفاء و إنهم أتاهم الشيطان فاجتالهم عن دينهم»

فالطّاعة هي الحنفيّة التي تقتضيها ذواتهم لو لا مسّتهم أيدي الشياطين، فإذا مسّتهم أفسدت عليهم فطرتهم الأصلية ... مضادة لجوهرهم الأصلي الإلهي من الشبهات الظلمانية و ... أنفسهم و ما ... فاحتاجوا إلى رسول مبعوث من الله يتلوا عليهم الآيات و يبيّن لهم ما يذكّرهم عهد ذواتهم من الظلمات إلى النور و تزكية و تصفية الأرحام إلى غير ذلك من ... ليعيدهم إلى فطرتهم الأصلية و تصير فعل الخيرات و العبادات طبيعيّاً لهم بلا كلفة و لا مشقّة

و إلى ذلك أشار بقوله تعالى «و إنّها لكبيرة إلا على الخاشعين» البقرة ٤٥ و هم الّذين باشرت أنوار الحقّ نفوسهم حتّى خشعوا له فإنّ الله تعالى إذا تجلّى لشيء خشع له ثمّ إنّ هذا المرض الّذي عرض لذواتهم، و الخلقة الثانية التي قامت بهم لو لا أن وجدوا من ذواتهم قبولاً لعروضها لهم، و رخصة في لحوقها بهم لم تكونا عارضتين لهم، و لا لاحقتين بهم فإذا كان ممّا يقتضيه ذواتهم أن يلحقهم أمور منافية مضادّة لجواهر ذواتهم ... الأمور اجتمعت فيها جهتان، فكانت ملائمة منافية أمّا كونها ملائمة فلأنّ ذواتهم اقتضتها، و أمّا كونها منافية لهم، فلأنّها اقتضتها على أن تكون منافية لهم، فلو لم تكن منافية لهم لما كان مقتضياً لها، بل كان أمراً آخر و هذا خلف

و منهم من قال الفطرة الخلقة التي يخلق عليها المولود في بطن أمّه، و قول رسول الله (ﷺ) «كلّ مولود يولد على الفطرة» أي الخلقة التي فطر عليها في الرحم من سعادة

أو شقاوة، فإذا ولده يهوديان هوّداه في حكم الدنيا، أو نصرانيان نصّراه في الحكم، أو مجوسيان مجّساه في الحكم وكان حكمه حكم أبويه حتّى يعبّر عنه لسانه، فإن مات قبل بلوغه مات على ما سبق له من الفطرة التي فطر عليها، فهذه فطرة المولود، والفطرة الثانية وهي الكلمة التي يصير بها العبد مسلماً وهي شهادة أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله ﴿ﷺ﴾ جاء بالحقّ من عنده، وأنّ عليّاً أمير المؤمنين وليّ الله ﴿ﷺ﴾ إذ بولايته كمل الدين يوم غدير خمّ بقوله تعالى: «اليوم أكملت لكم دينكم» [المائدة: ٣] فتلك الفطرة للدين.

وقد ورد أنّ من قال الشهادات الثلاث حين موته فإن مات في يومه مات على الفطرة.

ومنهم من قال: إنّ كلّ إنسان فُطر على معرفته بأنّ الله تعالى ربّ كلّ شيء وخالقه ورازقه ومحييه ومميته، فكلّ مولود يولد على الفطرة التي فطر الله عليها بني آدم ﴿ﷺ﴾ حين أخرجهم من صلب آدم كما قال: «وإذ أخذ ربّك من بني آدم من ظهورهم ذرّيّتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربّكم قالوا بلى» [الأعراف: ١٧٢] فالفطرة هي العهد المأخوذ من آدم وذرّيّته لا يقدر أحد أن يغيّره.

فمعنى «كلّ مولود يولد» على معرفة الله تعالى والإقرار به، فلا تجد أحداً إلّا وهو يقرّ بأنّ الله عزّوجلّ صانعه، وإن سمّاه بغير اسمه أو عبد معه غيره.

فالفطرة ـ بالكسر ـ مصدر للنوع من الانفطار وهو عهد الإنسان على نوع مخصوص من الكمال وهو التوحيد، ومعرفة الربوبيّة مأخوذ عليهم مبنى العبوديّة والاستقامة على سبيل العدل.

ومنهم من قال: الفطرة الابتداء والاختراع والفطرة منه الحالة كالجلسة والركبة، والمعنى أنّه يولد على نوع من الجبلّة والطبع المتهيّئ لقبول الدين، فلو ترك عليها لاستمرّ على لزومها ولم يفارقها إلى غيرها، وإنّما يعدل عنه من يعدل لآفة من آفات البشر والتقليد.

وقال بعضهم: الفطرة ما سبق من سعادة أو شقاوة، فمن علم الله سعادته وُلد على

فطرة الإسلام، ومن علم شقاوته ولد على فطرة الكفر، فكيف يتحقّق قوله تعالى: «لا تبديل لخلق الله» وحديث الغلام الذي قتله الخضر ﴿عليه السلام﴾ طبع يوم طبع كافراً يمنع من كون تولّد على فطرة الإسلام.

أُجيب عن الأوّل: بأنّ معنى «لا تبديل» لا تغيّر بمعنى أن يكون بعضهم على فطرة الكفر، وبعضهم على فطرة الإسلام، ويؤيّده قوله ﴿صلى الله عليه وآله﴾: «كلّ مولود يولد على الفطرة» فإنّ المراد بهذه الفطرة هي فطرة الإسلام، وعن الثاني: بأنّ المراد بالطبع حالة ثانية طرأت، وهي التهيّؤ للكفر عن الفطرة التي ولد عليها.

وقال بعضهم: المراد بالفطرة كونه خلق قابلاً للهداية، ومتهيّئاً لها لما أوجد فيه من القوّة القابلة لها، لأنّ فطرة الإسلام والصواب موضوع في العقول، وإنّما يدفع العقول عن إدراكها تغيير الأبوين أو غيرهما. وأُجيب عنه بأنّ حمل الفطرة على الإسلام لا يأباه العقل فالمعنى الفطرة الإسلامية والدين الحقّ، وإنّما أبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أي ينقلانه إلى دينهما.

وهذا التفسير مشكل إن حمل اللفظ على حقيقته فقط لأنّه يلزم منه أن لا يتوارث المشركون مع أولادهم الصغار قبل أن يهوّدوهم وينصّروهم، واللازم منتف، بل الوجه حمله على الحقيقة والمجاز معاً، أمّا حمله على المجاز فعلى ما قبل البلوغ، وذلك أنّ إقامة الأبوين على دينهما سبب لجعل الولد تابعاً لهما، فلمّا كانت الإقامة سبباً جعلت تهويداً و تنصيراً مجازاً، ثمّ أسند إلى الأبوين توبيخاً وتقبيحاً عليهما كأنّه قال: أبواه بإقامتهما على الشرك يجعلانه مشركاً، ويفهم من هذا أنّه لو أقام أحدهما على الشرك وأسلم الآخر لا يكون مشركاً بل مسلماً.

وقوله تعالى: «لا تبديل لخلق الله» أي بأن يكون كلّهم أو بعضهم عند الخلق مشركين، بل كان كلّهم مسلمين مقرّين بالله تعالى، أو قابلين للمعرفة، وأراهم نفسه بالرؤية العقلية الشبيهة بالرؤية لعينه في الظهور لترسخ فيهم معرفته، ويعرفوه في دار التكليف، ولو لا تلك المعرفة الميثاقيّة لما حصلت لهم تلك القابلية.

وإنّ كفّار قريش لم يكونوا منكرين أنّ الصانع هو الله تعالى وحده، بل كانوا يعبدون

لأصنام لزعمهم أنّها شفعاء لهم عند الله، فكلّ كافر لو خلّي و طبعه و ترك تعصّبه و متابعة هواه و تقليد الأسلاف و الآباء لأقرّ بالتوحيد لقوله تعالى «و لئن سألتهم» أي كفّار مكّة «من خلق السموات و الأرض ليقولنّ الله» لفطرهم على المعرفة.

و قال بعض المحقّقين: الدليل على ذلك ما نرى أنّ الناس يتوكّلون بحسب الجبلّة على الله و يتوجّهون توجّهاً غريزيّاً إلى مسبّب الأسباب و مسهّل الأمور الصعاب، و إن لم يتفطّنوا لذلك، و يشهد لهذا قول الله عزّ و جلّ: «قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين بل إيّاه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء و تنسون ما تشركون» (الأنعام: ٤٠-٤١).

و في تفسير الإمام الحسن العسكري ﴿ع﴾: «قد سئل الإمام الصادق ﴿ع﴾ عن الله؟ فقال للسائل: يا عبد الله هل ركبت سفينة قطّ؟ قال: بلى، قال: فهل كسر بك حيث لا سفينة تنجيك و لا سباحة تغنيك؟ قال: بلى، قال: فهل تعلّق قلبك هنالك أنّ شيئاً من الأشياء قادر على أن يخلّصك من ورطتك؟ قال: بلى، قال الصادق ﴿ع﴾: «فذلك الشيء هو الله القادر على الإنجاء حيث لا منجي، و على الإغاثة حيث لا مغيث».

ثمّ إنّ أفهام الناس و عقولهم متفاوتة في قبول مراتب العرفان و تحصيل الاطمئنان كمّاً و كيفاً، شدّة و ضعفاً، و سرعة و بطوءاً، حالاً و علماً و كشفاً و عياناً، و إن كان أصل المعرفة فطريّاً إمّا ضروريّ أو يهتدى إليه بأدنى تنبيه، فلكلّ طريقة هداه الله عزّ و جلّ إليها إن كان من أهل الهداية، و الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق و هم درجات عند الله، يرفع الله الذين آمنوا و الذين أوتوا العلم درجات.

فالناس كلّهم مفطورون على معرفة الله تعالى و الإقرار به، فلا تجد أحداً إلّا و هو يقرّ بأنّ الله عزّ و جلّ صانع له و إن سمّاه بغير اسمه أو عبد معه غيره.

و منهم من قال: إنّ الله جلّ و علا قد فطر عقول الخلق على التوحيد و الإقرار بالصانع في بدء الخلق عند الميثاق، فقلوب الخلق منطبعة بذلك، و إن جحدوه معاندة.

و منهم من قال: ليس معنى الفطرة أن يدرك الإنسان خالقه تلقائيّاً و من غير دليل، و إلّا لم ينكر أحد الله تعالى، و إنّما معنى الفطرة في الإنسان أنّ الله عزّ و جلّ أودع في

الإنسان غريزة الاستعداد لتفهم الدلائل الدالّة على وجوده، و هذا الاستعداد لا يفارق الإنسان بحال، فإن كفر فإنّما يكفر معانداً و متهاوناً بالإعراض عن النظر في الدلائل و الشواهد، فيستحق العقاب. هذا الإعراض لا فرق بينه في نظر العقل بين من ترك العمل بعلمه معتمداً و بين من ترك الحقّ و تبع الباطل جهلاً بهما مع قدرته على معرفتهما و التمييز بين الهدى و الضلال.

و لكنّه ترك تهاوناً و استخفافاً، بل قد حجبت هذا الاستعداد و هذا الإدراك الفطري وراء ستار من التقليد و التربية و الشهوات تماماً كما تحجب السحاب الشمس وراء السحاب، فيحتمل أن يجهل المحجوب أنه كفر بالله سبحانه بعد أن انشغل عنه و انغمس كامن في ذاته، و فطر به في فطرته التي فطره الله عليها، و يوم القيامة تزول الحجب لفطرته و تظهر الحقيقة واضحة للعيان، و لا يبقى مجال للشك و الإنكار.

قال الله تعالى «لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد» ق ٢٢.

و منهم من قال إنّ الفطرة هي التي انحرفت و امتزجت مع ذات الإنسان لا يمكن انفكاكها لأنّها ذاتية، و إن كان قد تعرض عليها جراثيم الأوهام، و لكن لا تبقى متمكنة، و إن تصل عن حدّ لا يمكن أن تسترجع إلى حالتها الأولى كما كان بعض المشركين كذلك و قد أخبر تعالى بذلك و أشار إلى هذه الفطرة بقوله سبحانه «و لئن سألتهم من خلق السماوات و الأرض ليقولنّ الله» المؤمنون ٨٦ و قوله عزّ و جلّ «من ربّ السماوات السبع و ربّ العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون» المؤمنون ٨٧.

و ذلك أنّ الله تعالى فطر الخلق جميعاً على فطرة التوحيد، حتى من خلق مجنوناً مطبقاً مصطلماً لا يفهم شيئاً، ما عرف إلّا الله، و لا يلهج لسانه بأكثر من اسمه المقدّس كما عن عمران بن حصين قال قال رسول الله ﷺ لأبي: يا حصين كم تعبد اليوم إلهاً؟ قال أبي سبعة ستاً في الأرض، و واحداً في السماء. قال: فأيّهم تعدّه لرغبتك و رهبتك؟ قال الذي في السماء. فالإقرار و الاعتراف بخالق الكون فطري ضروري في نفوس البشر، و إن كان لبعض الناس قد يحصل ما يفسد فطرته حتى يحتاج إلى نظر يحصل له به المعرفة، و

لكن لا خلاف في أنّ المعرفة تحصل بالضرورة، وقد تحصل بالنظر لمن يحتاج إلى النظر بعد فساد فطرته، فالنظر قد يحتاج إليه الإنسان ثانياً وبالعرض لا أوّلاً وبالذات.

فيمكن أن يقال: إنّ المعرفة ضرورة من ناحية العقل، واستدلال من جانب الحسّ، فإنّ كلّ مطلوب من العلم إنّما يطلب بالعقل اشتماله في المعقول وإثباته بالحسّ في المحسوس، فجائز أنّ المعرفة تحصل بالاكتساب والاستدلال من ناحية الحسّ بإرشاد الفطرة وإيقاظ العقل بعد فساده، وعدم قدرته بمفرده في الاستدلال، وقد تحصل بالضرورة فإنّ العقل يشهد بحكم صاحبه على الاعتراف بالله تعالى، ويحظر صاحبه من جحده وإنكاره والتشكّك فيه، فالضرورة لازمة بالعقل لأنّ ضرورة العقل ليست كضرورة الحسّ لأنّ ضرورة الحسّ فيها جذب واختيار وحمل وإكراه، وضرورة العقل لطيفة جدّاً لأنّه يعظ ويلاطف ويشفع ويخفف فإنّ الله سبحانه معروف عند العقل بالضرورة والاضطرار، ومستدلّ عند الحسّ.

ومنهم من قال: الفطرة بالكسر مصدر لنوع خاص من الإيجاد وهو إيجاد الإنسان على نوع مخصوص من الكمال وهو التوحيد ومعرفة ربوبيّته مأخوذاً عليهم ميثاق العبوديّة والاستقامة على سنن العدل.

وغيرها من الآراء والأقاويل في الفطرة، وقد سمّيت عندهم الفطرة الإنسانيّة بالطّبيعة الحيوانيّة، وبالعقل والنّفس والرّوح والغريزة والشّعور وما إليها.

أقول: إنّ منشأ الفطرة الإنسانيّة هو الرّوح الخاصّ الإلهيّ الّذي نفخه في الإنسان فقط دون غيره حيث قال: «إذ قال ربّك للملائكة إنّي خالق بشراً من طين فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين» ص ٧١ - ٧٢

فصار هذا المخلوق من الطّين بهذه الرّوح إنساناً، وبهذه الفطرة الناشئة عن هذه الرّوح إنسانيّته، وبهذه الفطرة تصبغ نفسه صبغة التّوحيد والطّاعة، من عرف نفسه فقد عرف ربّه، وبهذه الرّوح والفطرة والصّبغة يمتاز الإنسان من غيره من الحيوان والنّبات والجماد.. وإلّا فكلّ موجود مفطور على التّوحيد، ويعرف خالقه أنّه مخلوق، ويعترف به بلسان تكوينه، ومن هذا المخلوق هو الإنسان

و بهذه الفطرة صار قلب الإنسان ـ كالمرآة ـ ذي جهتين فوجهاه ـ إلى جانب الفطرة التي في ذاتها التوحيد و الطاعة، فمعكسها العقل في هذه الجهة من القلب و جهته الاخرى ـ إلى جانب الطبيعة التي في ذاتها الشرك و الطغيان، فمعكسها هوى النفس الأمّارة بالسّوء في هذه الجهة من القلب

و انّ الإنسان عامّة إنسان، موجود، مخصوص، مختار بين الفطرة و الطبيعة، فيدعوه العقل من إحدى جهتي القلب إلى ما في ذات الفطرة من التّوحيد و الطّاعة، و يدعوه هوى النّفس من جهة أخرى من القلب إلى ما في ذات الطّبيعة من الشّرك و الطّغيان

فمن استجاب دعوة العقل، و لبّى نداءه و تبعه، نوّر قلبه بنور التّوحيد و الطّاعة، و صار أفضل و أشرف من غيره حتّى الملائكة المقرّبين فإنّهم يسجدون له، و من استجاب دعوة هوى نفسه و لبّى نداءه و اتّبعه، سوّد قلبه بظلمة الشّرك و الطّغيان، و صار أذلّ من أخسّ الموجودات و أسفل السّافلين

قال الله عزّ و جلّ «و لقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ـ ثمّ أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين» المؤمنون ١٢ ـ ١٤

و قال «و لقد كرّمنا بني آدم ـ و فضّلناهم على كثير ممّن خلقنا تفضيلاً» الإسراء ٧٠،

و قال «لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثمّ رددناه أسفل سافلين إلّا الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات فلهم أجر غير ممنون» التّين ٤ ـ ٦

فالإنسان موحّد من زاويتين و بعدين، أحدهما ـ تكويناً أي بما أنّه مخلوق كسائر الخلائق جميعاً فلا اختيار له على غيره من هذه الزّاوية

ثانيهما ـ تشريعاً بفطرته و به يمتاز من غيره، و إلى هاتين الزّاويتين أشار تعالى بقوله «يا أيّها الّذين آمنوا آمنوا بالله و رسوله و الكتاب الّذي نزّل على رسوله و الكتاب الّذي أنزل من قبل و من يكفر بالله و ملائكته و كتبه و رسله و اليوم الآخر فقد ضلّ ضلالاً بعيداً» النّساء: ١٣٦)

أي يا أيّها الّذين آمنوا بالله تكويناً كسائر المخلوقات آمنوا بالله و رسوله تشريعاً لتمتازوا على غيركم جميعاً

﴿التّوحيد و الولاية في ذات الفطرة﴾

و اعلم أنّ الروايات الصحيحة في المقام كثيرة نشير إلى ما يسعه المقام، و نحن على جناح الاختصار

في أصول الكافي ـ كتاب الإيمان و الكفر ـ باب فطرة الخلق على التّوحيد ـ بإسناده عن زرارة قال: سألت أبا عبد الله (ع) عن قول الله عزّ و جلّ: «فطرت الله الّتي فطر النّاس عليها» قال: «فطرهم جميعاً على التّوحيد».

و فيه ـ في الكتاب و الباب ـ بإسناده عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله (ع) قال: سألته عن قول الله عزّ و جلّ: «فطرت الله الّتي فطر النّاس عليها» ما تلك الفطرة؟ قال: هي الإسلام، فطرهم الله حين أخذ ميثاقهم على التّوحيد قال: «ألست بربكم»، و فيه المؤمن و الكافر»

و في التّوحيد بإسناده عن زرارة قال: قلت لأبي جعفر (ع): أصلحك الله، قول الله عزّ و جلّ في كتابه: «فطرت الله الّتي فطر النّاس عليها» قال: فطرهم على التّوحيد عند الميثاق على معرفته أنّه ربّهم، قلت: و خاطبوه؟ قال: فطأطأ رأسه ثمّ قال: لو لا ذلك لم يعلموا مَنْ ربّهم و لا مَنْ رازقهم»

و فيه: بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر (ع) قال: سألته عن قول الله عزّ و جلّ: «حنفاء لله غير مشركين به» و عن الحنيفيّة، فقال: هي الفطرة الّتي فطر النّاس عليها لا تبديل لخلق الله. قال: فطرهم الله على المعرفة

قال زرارة: وسألته عن قول الله: «وإذ أخذ ربّك من بني آدم من ظهورهم» الآية، قال: أخرج من ظهر آدم ذرّيّته إلى يوم القيامة، فخرجوا كالذرّ، فعرّفهم وأراهم صنعه، ولولا ذلك لم يعرف أحد ربّه. وقال: قال رسول الله (ص): كلّ مولود يولد على الفطرة، يعني على المعرفة بأنّ الله عزّ وجلّ خالقه، فذلك قوله: «ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولنّ الله».

وفي محاسن البرقي بإسناده عن زرارة قال: سألت أبا عبد الله (ع) عن قول الله: «وإذ أخذ ربّك من بني آدم من ظهورهم ذرّيّتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربّكم قالوا بلى» قال: ثبتت المعرفة في قلوبهم ونسوا الموقف وسيذكرونه يوماً، ولولا ذلك لم يدر أحد من خالقه ولا من رازقه.

وفيه، بإسناده عن زرارة عن أبي عبد الله (ع) في قول الله: «وإذ أخذ ربّك من بني آدم من ظهورهم ذرّيّتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربّكم قالوا بلى» قال: نعم لله الحجّة على جميع خلقه، أخذهم يوم أخذ الميثاق هكذا ـ وقبض يده.

قال ملاّ صدرا في مفاتيح الغيب: إنّ النظر في الأفعال الوجوديّة من حيث ما فيها من المصالح والمنافع، والتدبّر فيها بطريق الإتقان المحكم من المعطي الغنيّ المغني، وهذا يدلّ على أنّ النفوس حين كانت في أصلاب آبائها ناظرة إلى الله تعالى مستفيدة منه مستعينة به بواسطة نقائصها المستدعية للصنع والتكميل، وقد أشار إلى ذلك بقوله تعالى: «ألم تر إلى ربّك كيف مدّ الظلّ» (الفرقان: ٤٥) أي ألم تنظر إلى الذي مدّ الظلّ، مع أنّه متى هذا لا ترى إلّا انبساط الظلّ، وكذا قوله تعالى حكاية عن الذرّيّات المستخرجة من أصلاب أبيهم المقدّس الكائنة في ظهر والدها الأقدس: «ألست بربّكم قالوا بلى» (الأعراف: ١٧٢).

ولو لم يكونوا شاهدين مشاهدين لجماله كيف عرفوا إلهيّته وإقرار ربوبيّته، فضلاً عن كونه ربّاً لهم، وكونهم عبيداً له، حيث في قوله: «بربّكم» ربوبيّته مع إضافته مخصوصة لهم إليهم.

وفي الآية الكريمة دقيقة أخرى، وهي أنّه استفهم منهم الإقرار منهم بربوبيّته لا بوجوده، تنبيهاً على أنّ الإقرار بوجوده مركوز في بداية العقول وأوائل فطر النفوس.

فدلّت لأنّه على أنّ معرفة الصانع غريزيّة معقولة للنفس، ضروريّة بالطّبع للمستقيمة فطرتها، يجب الحمل على من أنكر وجحد وجود الصانع في جميع الشرائع، فإنّه منكر الضروريّات الفطريّة الأوّليّة، وكلّ من جحد الحقّ بوجود كذلك [illegible] فيجب أن تعامل معه معاملة [illegible] بالضرب و [illegible] حتّى يقول الضرب واللاضرب واحد و النار واللانار واحد

فمن أنكر مطلق الوجود فينكر الموجود فدلّ على وجود موجوده، فهذا منكر للوجود موجود لا محالة، فلا يعتدّ على ما قال [illegible] ومن ينكره موجب لإقراره به «فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد» ق ٢٢

فلأنّه دلّت على أنّ النفس كانت مشاهدة لجمال المطلق في عالمها الّذي هو بلدة الحرام، ومدينة السلام، وموطن أنسها الأصلي، ومولد روحها القدسي، ثمّ في هذا العالم الّذي هو دار غربته ووطن غربته و [illegible] بحجبه [illegible] الهوى و [illegible] و أثرت من [illegible] و الأخلاق الخسيسة [illegible]، عميت بصيرته عن رؤية الحقّ ومشاهدة جماله وجلاله، فإنّ [illegible] كالخفاش [illegible] و قرص الشمس [illegible] الشموس [illegible] الأعمى [illegible] قائداً له إلى مقصده الأقصى

و إلى هذا المعنى أشار سيّدنا عليه و آله السلام: «إنّ الله خلق الخلق كلّهم حنفاء فاجتالهم الشياطين» و مثله قوله: «لولا أنّ الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء» و قوله (ص): «كلّ مولود يولد على الفطرة» الحديث

وكلّ هذه رشحات و قطرات من [illegible] هو قوله تعالى «فطرت الله الّتي فطر النّاس عليها» وفطرة الله أصل كلّ فطرة، [illegible] و هي نور الإسلام و صفاء المنّة الحنيفيّة المنزّهة عن النقص و الشين و [illegible] قوله «لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم» صفاء [illegible] من كدورات [illegible] و [illegible] و الذّنوب، منزّهاً عن المعاصي و [illegible] و العيوب «ثمّ رددناه أسفل سافلين» و هو تعلّقه بالقوى و تشبّثه بالآلات و الجوارح البدنيّة

وأمّا قوله ﴿ﷺ﴾: «إنّ الله خلق الخلق في ظلمة ثمّ رشّ عليهم من نوره» فهي خلقة البدن وهي ظلمة محفوفة بنورين: سابق ولاحق، فالنّور السابق هو مبدأ الفطرة، والنّور اللاحق هو ما يلحق بعد تطهيرها عن دنس رذائل النّفسانيّة وأدناس الطّبيعة بالعمل، فيلحق بالعقل بالفعل من جهة الكمال العلمي.

فبهذا التّبيان بان كون معرفة الحقّ الأوّل ضروريّة مستغنية عن البرهان بالفطرة الأصليّة للأرواح، استغناء الصّباح عن المصباح والاستشهاد عليه؛ لأنّه من دأب أصحاب البرهان المتفكّرين في خلق السّموات والأرض، قائلين: «ربّنا ما خلقت هذا باطلاً» وهم أيضاً ممدوحون مدحهم الله تعالى، إلّا أنّ مرتبتهم بعد مرتبة أصحاب المشاهدة والعيان، وهذا المقام هو الّذي قال فيه حكيم العرب وإمام الأولياء ﴿؏﴾: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً» وقال ﴿؏﴾: «ما رأيت شيئاً إلّا ورأيت الله فيه أو قبله» على اختلاف الرّوايتين، وكلاهما صحيح.

وقال آخر: «رأى قلبي ربّي» فالعلم بوجود واجب الوجود إن كان مستفاداً من البرهان فهو اليقين، وإن كان حاصلاً دون مرحمة البرهان يسمّى رؤية ومشاهدة وعياناً وإحساناً كما في قوله ﴿ﷺ﴾: «الإحسان أن تعبد الله كأنّك تراه».

«الفطرة الإنسانية وعالم الذرّ»

واعلم أنّ الله عزّ وجلّ قد بيّن في كتابه الكريم قصة التوحيد من زوايا ثلاث الأولى: من الآفاق، الثانية: من الأنفس، الثالثة: من مرحلة ذاته وهو زاويته عميقة، وهي زاوية الفطرة التي فطر الناس عليها، وأخذ عليهم الميثاق في ذواتهم وذات تكوينهم وهم بعد في عالم الذرّ لا يشاركهم في هذا الميثاق غيرهم من الخلائق وإن كان غيرهم يشاركهم في أنّ كلّ موجود بما أنّه موجود يدلّ على وجود صانعه ويعترف بنفس تكوينه على وحدة خالقه

كــــلّ شيء له آيــــة　　　　تــدلّ عــلى أنّــه واحــد

فالاعتراف بوحدانيّة الله جلّ وعلا وربوبيّته وحده، فطرة خاصّة في الكائن البشري، فطرة خاصّة أودعها الخالق في هذه التكوينة بما أنّه إنسان، وبما فيه من روحه، لا بما أنّه موجود كسائر الموجودات، أودعها في هذه التكوينة الخاصّة وشهدت ذواتها على نفسها بحكم وجودها ذاته قبل تكوّنها، وبحكم ما يستشعره في أعماقها من هذه الحقيقة، فهي هذه الفطرة الخاصّة بالإنسان بما هو إنسان لا يشاركه فيها غيره، ولا تقبل الانفصال عن ذاته «لا تبديل لخلق الله» (الروم ٣٠) وإن غطّت أحيانًا ركام الأباطيل، وسحائب الأوهام على وجه هذه الفطرة

وبذلك تحتاج إلى الرسالات السماويّة المصونة عن الخرافات والأوهام لكشف الأباطيل ورفع الأوهام عن وجه الفطرة، وقد أشار إلى ذلك مولى الموحّدين إمام المتقين

أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب (ع) قوله:

في نهج البلاغة: «فبعث فيهم رسله وواتر إليهم أنبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكّروهم منسيّ نعمته، ويحتجّوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول ويروهم الآيات المقدّرة».

فالرسالات بذكرها وتدبيرها طريق لأصحاب هذه الفطرة، لا يصلون إلى المطلوب إلّا من خلالها، حيث إنّ التوحيد ميثاق معهود من فطرة الناس وجبلّتهم منذ كينونتهم الأولى، وليست كينونة الذات بما هو إنسان ككينونة الموجودات بما هو موجود كسائر الموجودات التي لا تحتاج إلى الرسالات بذكرها وتدبيرها إذ لا تعرض على وجه موجوديّتها بأنّه موجود حجب من الأحجاب غريبة الأوهام وحجب الخرافات حتّى تحتاج إلى من يكشفها عن وجهها، خلاف الإنسان بما أنّه إنسان، وإلى ذلك يشير جلّ وعلا بقوله: «رسلاً مبشّرين ومنذرين لئلّا يكون للناس على الله حجّة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً» (النساء ١٦٥).

فلا حجاب للموجودات بما هو موجود في عقريّة حقيقته، فلا تحتاج إلى هداة يهدونه إليه، خلاف الإنسان بما هو إنسان وهو بحيث فيه عروض الأوهام حجاباً على وجه فطرته.

ولو لا حجب الأوهام والأشخاص والخرافات لاعترف لله وحده بالربوبيّة، ويقرّ له وحده بالعبوديّة، ويشهد له وحده بالوحدانيّة بفطرته، فإنّ حقيقة التوحيد مركوزة في هذه الفطرة قبل تكوّنه وحين تكوّنه وفي الأصلاب والأرحام، ويولد كلّ مولود عليها، فلا يميل عنها قطّ، ولكنّه لا يستطيع على دفع الأوهام عن وجهها عند عروضها عليه، فحينئذ يحتاج إلى الرسالات لرفع الأوهام عن وجهها ومواطنها، ولسداد العقول من ضغط الهوى والضعف والشهوات، فحقيقة التوحيد من حيث الفطرة الإنسانيّة مركوزة في كينونة الإنسان فقط، ولكنّ الإنسان من حيث الوجود فقطعة من قطاع الوجود كلّه، موصولة به غير منقطعة عنه، محكومة بذات الناموس الذي يحكمه، وإنّ ناموس التوحيد الذي يحكم هذا الوجود وضح الأثر في شكل الكون ـ كالمكتوب للكاتب ولسانه الناطق ـ وسمته وتناسق أجزائه وانتظام حركته، واطّراد قوانينه على

مراتبه، متّحد في ذلك.

وذلك أنّ وحدة الجوهر الّذي تتألّف منه ذرّاته وهو الإشعاع الّذي تنتهي إليه المواد جميعاً عند تحطيم ذرّاتها وإطلاق شحناتها دليل لا لبس فيه بوحدة وجود من كتب هذا الكون، مستقرّ في وجوده ناموس التوحيد وخاضعة كغيرها من سائر الموجودات كلّها «ربّنا الّذي أعطى كلّ شيء خلقه ثمّ هدى» [طه: ٥٠] هداها به، بكونها خاضعة لسنّته ونواميسه الّتي لا تحتاج إلى الأسباب «كلّ في فلك يسبحون» [يس: ٤٠] من دون حصر ولا احتساب.

وفي دعاء عرفة لسيّد الشهداء ومولى الأحرار الإمام الحسين بن عليّ عليهما السّلام: «كيف يستدلّ عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟ أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتّى يكون هو المظهر لك؟ متى غبت حتّى تحتاج إلى دليل يدلّ عليك؟ ومتى بعدت حتّى تكون الآثار هي الّتي توصل إليك؟ عميت عين لا تراك ولا تزال عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبّك نصيباً ـ تعرّفت لكلّ شيء فما جهلك شيء ـ تعرّفت إليّ في كلّ شيء فرأيتك ظاهراً في كلّ شيء فأنت الظاهر لكلّ شيء».

وإنّ التوحيد في ذات الله تعالى هو الّذي يهدينا إليه العقل، وتدعو إليه الرسالات

«اشتباه القدماء و المتأخرين في حقيقة الفطرة»

و قد اشتبهت على القدماء و المتأخرين من الفلاسفة و المتكلمين و علماء الأخلاق و الطبيعيين و العرفاء و الإلهيين و غيرهم معرفة أبعاد الإنسان بما يحصل من بُعد وجوده العام على أنّه موجود كسائر الموجودات و ما يحصل من بُعد وجوده الخاص على أنّه إنسان كما اشتبه عليهم أمر فطرة الإنسان و حقيقة طبيعته و غريزته و أنّها شيء واحد كما اشتبه عليهم أمر فطرته نفسه، و ظنّوا أنّها شيء واحد و كذلك اشتبهوا في قياس طبيعة الإنسان بطبيعة غيره من سائر الموجودات.. و هكذا غريزته بغريزة غيره

فقال بعضهم إنّ جميع الخلائق مفطورة و لا فرق في ذلك بين حيوان و إنسان، و لا بين جماد و نبات في أصل الفطرة في معرفة خالقه على ما يناسبه. و لكلّ خلق حال خاصّة جانب به من أصل فطرته، فالحيوان على أنواعها مفطورة على أعمال غرائزها التي فطرها الله تعالى عليها، فالطّير مفطورة على الطّيران، و النّحل مفطورة على الهندسة و قس عليها سائر الحيوانات، و لكنّ الإنسان له فطرة أوسع من فطرة غيره و له الاختيار في إظهار الفطرة حال الاختيار

و بعبارة أُخرى: إنّ الفطرة على قسمين فطرة تظهر من غير اختيار، و هي فطرة جامدة لا تحتاج في ظهورها إلى مفكّر، و لا يتدخّل صاحبها في ظهورها، و فطرة تحتاج إلى مفكّر، و تنمو في صاحبها كلّما فكّر فيها باختياره، و الأوّل لا تحتاج إلى منبّه و لا إلى موقظ، و الثّاني يحتاج إلى موقظ، و من هنا أرسل الله تعالى رسله عليهم السّلام ليوقظوا النّاس

هذه الفطرة، فجاء الدّين لا ليناقضها و يسوقها إلى كمالها

فإنّ الله تعالى في الأولى «أعطى كلّ شيء خلقه ثمّ هدى» فلكلّ حيوان فطرة خاصّة به بحيث تكون تلك الفطرة كافية بسوقه إلى تمامه و خاصّته، فللنحل فطرة يبني بها بيوته و يلاحظ العسل، و يربي ذرّيته و للعنكبوت نسجها الخاصّ بها الذي يكون فيه مأواها، و به يصطاد الذّباب، و غيرها من الحشرات. و هكذا للإنسان فطرة بها يهتدي الطفل إلى ثدي أُمّه و يمسكه و يمصّه، و يبكي عند الجوع و يضحك عند الفرح. و هكذا تسوقه غريزته و فطرته إلى قيامه بشئونه و جميع أعماله و حوائجه

فيستعمل سمعه و بصره و شمّه و ذوقه و لمسه كلّ ذلك بفطرته بغير معلّم يعلّمه، و لا مرشد يرشده، و لا فرق في ذلك بين إنسان اليوم و إنسان الماضي، و إنسان المستقبل، و لا بين هذه الأُمّة و الأمم السّابقة، فلكلّ إنسان كان معبود و صلوات و توجّهات إلى معبود، و إن اختلفوا في الأوصاف و الكيفيّات و العدد، فالإنسان عابد بفطرته في أيّ زمان كان، يستعين في الاستعانة بالذّات الأعلى، و الوجود الأسمى

فللإنسان فطرتان لا بدّ منهما: فطرة في بقاء الجسم و المحافظة على النّسل، فلا رجل و لا امرأة إلّا دأبهما المحافظة على بقاء نسلهما، و تربية أولادهما، و لولا هما لخلت الأرض من نوع الإنسان، و تشاركه في هذه الفطرة الحيوان جميعاً و فطرة في بقاء الرّوح و سعادتها، و آية ذلك ما تراه من حفظ العرض، و الخوف من شماتة، و العار و الخزي و اللّذّة و ما إليها و ذلك يعمّ الإنسان في كلّ ظرف من الظّروف، قديماً و حديثاً

فكما أنّ الإنسان يطلب الرّزق بفطرته، و يحفظ نفسه بفطرته، فهذه فطرة تدعوه إلى أن يحفظ جانب روحه، و ليست هذه في الحيوانات، فإنّ الله تعالى قد هدى كلّ نوع من أنواع الخليقة إلى سعادته التي هي بغية حياته بفطرته و نوع خلقته، و جهّز في وجوده بما يناسب غايته من التجهيز كما قال «ربّنا الّذي أعطى كلّ شيء خلقه ثمّ هدى» طه: ٥٠) و قال: «الّذي خلق فسوّى و الّذي قدّر فهدى» الأعلى ٢ـ٣)

فالإنسان كسائر الأنواع المخلوقة مفطور بفطرة تهديه إلى تتميم نواقصه و رفع حوائجه، و تهتف له بما ينفعه، و ما يضرّه في حياته المادّيّة، و لمّا كان الإنسان مستعداً في

تنمية روحه بشرائع الله تعالى الّتي شرعها لتنمية روحه كما هداه في تنمية جسده، و هذه الهداية التشريعيّة توافق الهداية التكوينيّة، لكنّه مختار في التشريع كما قال تعالى «و نفس و ما سوّاها فألهمها فجورها و تقواها» الشمس ...

و لا يختصّ ذلك بإنسان دون إنسان بل كلّ إنسان مركّب من الجسم و الرّوح، هداه الله بما لا يحتاج في تنميته فيهما إلى تشريع و حكم و هذا هداية تكوينيّة في تنمية جسمه، و يشترك فيها غيره من الحيوان من جهة، و من النّبات من جهة أخرى، و من جماد ثالثة و لا يكون فيها مختارًا، و هداية تشريعيّة في تنمية روحه و هذه تختصّ بالإنسان من حيث هو إنسان، و لا تختلف هذه باختلاف الأفراد و الأزمان و المحيط و الأخلاق و الأعصار و هذه الفطرة توافق الشّريعة الإنسانيّة الّتي هي حقيقته و حقيقة ما به يشترك مع جميع أفراده و هي الّتي تدير عليها رحى الإنسانيّة» انتهى كلامه

أقول: و فيه من الخلط و الاضطراب و الخبط و الالتباس ما لا يخفى على المتدبّر البصير

و قال بعض المتفلسفة: «إنّ جميع الموجودات مجبولة على التّوحيد مجبورة لأجله، لقوله تعالى: «و لئن سألتهم من خلق السّماوات و الأرض ليقولنّ الله» لأنّ هذا إقرار بالألوهيّة من لسان كلّ ما في السّماوات و الأرض من ذوي العقول و غيرهم كما في قوله تعالى «فطرت الله الّتي فطر النّاس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدّين القيّم»

و معلوم أنّ الفطرة هي إقرار كلّ شيء بالألوهيّة و الرّبوبيّة، و بأنّ له خالقًا، و بأنّه مخلوق لنفسه و يشهد بذلك أيضًا قوله: «الحمد لله فاطر السّماوات و الأرض» لأنّهما مجبولتان على الفطرة «الّتي فطر النّاس عليها» لأنّهما مكلّفتان مطيعتان له بقوله «ثمّ استوى إلى السّماء و هي دخان فقال لها و للأرض ائتيا طوعًا أو كرهًا قالتا أتينا طائعين» أي أتينا شاهدين على أنفسنا بأنّك إلهنا و خالقنا، و لأنّه عرفنا بأنّ إلهه كلّ شيء و موجده

و وجه آخر، و هو قوله تعالى «تسبّح له السّماوات السّبع و الأرض و من فيهنّ و إن من شيء إلّا يسبّح بحمده و لكن لا تفقهون تسبيحهم» و التّسبيح للشّيء لا بدّ و أن يكون مؤخّرًا عن معرفته، و معرفته عن وجوده، و على هذا التّقدير لا يوجد شيء إلّا و يكون فيه

هذه الثلاث. العلم بوجود موجده، و العلم بأنّه واحد، و تسبيح له و إذا كان كذلك. فتكون المعرفة الحقيقيّة الجبلّيّة موجودة في كلّ شيء، و المعرفة المبنيّة ليست إلاّ على حسب التّوحيد، لقوله تعالى «و لئن سألتهم من خلق السّموات و الأرض ليقولنّ الله» لأنّها شهادة ذاتيّة. فيكون الكلّ مجبولاً على التّوحيد مخلوقاً لأجله. و هذا هو المطلوب. انتهى كلامه

أقول: هذا كالسّابق أيضاً

و قال بعضهم: إنّ الكمال الّذي أودعه الله تعالى في كلّ جزء أو جزئيّ من هذا العالم الرّحيب بشكل واضح لا مزيد عليه حيث يوحي إلينا أن ليس في الكون المادّي شيء إلاّ و قد بلغ أقصى مرتبة من مراتب الكمال أو هو متكامل، يتابع ما سنّ له من مراتب كماليّة متسلسلة حتّى يبلغ الغاية القصوى من الكمال المحدّد له، مع العلم أنّ في كلّ مرحلة من مراحل الكمال من الدّقّة و الحكمة ما يحيّر الألباب. هذا ما نشاهده في العالم المادّي، و أنّ العالم المادّي مخلوق لله الكامل على الإطلاق، و بما أنّه لا يترشّح من الكامل على الإطلاق إلاّ الكمال، وجب أن يتجلّى الكمال في كلّ زاوية من زوايا هذا الكون مع ارتباط بين أجزائه و الأجزاء، و ارتباط هذا التّكامل، و يظهر أنّ الصّانع له واحد متفرّد في الوحدانيّة لا يشاركه في خلقه إيّاه أحد

إذن يجب أن لا تشذّ عن سنّة الكمال النّفوس هذه النّفوس البشريّة الّتي خلقها الله بإرادته و ركّب فيها توحيده و تقديسه تسبيحه و هو قوله تعالى «فطرت الله الّتي فطر النّاس عليها». فقضيّة توحيد الله تبارك و تعالى أمر فطريّ داخل في ناموس الكمال العامّ من دون أن تحتاج إلى التّمسّك بـ«قاعدة اللّطف» كلّ ذلك لأنّ الكامل على الإطلاق و هو الله تعالى لا يصدر عنه إلاّ الكمال. و من أهمّ نقاط الكمال هذا الإيمان بوحدانيّة الله تعالى و تقديسه و تسبيحه «ألم تر أنّ الله يسبّح له من في السّموات و الأرض و الطّير صافّات كلّ قد علم صلاته و تسبيحه و الله عليم بما يفعلون». و يقول «و هديناه النّجدين» أي طريق الخير و الشّرّ. فقد ألهم الله تعالى طريق الخير و طريق الشّرّ

فالإنسان محكوم لما عليه عليه فطرته أو عقله الباطني قبل بعثة الرّسل. و هكذا أولئك

الّذين لم تصل إليهم الدّعوة الإسلاميّة إنّما قبول الدّعوة الإسلاميّة ذلك لأنّ الإسلام هو دين الله في أرضه منذ أن خلق آدم أوّل الأنبياء «ما كان إبراهيم يهوديّاً و لا نصرانيّاً و لكن كان حنيفاً مسلماً و ما كان من المشركين»

إنّه تعالى يقول «و نفس و ما سوّاها فألهمها فجورها و تقواها» لذلك يرى الفرد في عنفوان حياته، و إن لم تسمعه تعاليم الشّرائع، أنّه ينكمش عند ارتكابه أوّل معصيته و يتردّد و يرتبك، كأنّ قوّة خفيّة تدفعه عن اقتراف الذّنب. كلّ ذلك لأنّ الله أودع في النّفس الإنسانيّة بالفطرة هذا الرّادع النّفسي فالنّفس الإنسانيّة تنكمش عند أوّل معصية، و العقل الطّبيعيّ غير الملوّث بالموبقات يمنعها و يردعها، و لكن هذه النّفس لو تمادت في غيّها و ضلالها و لم ترتدع ابتداءً، فالفطرة تكون محكومة لسلطتها. فيستحب لعقل

فالله تعالى قد غرس أسس التّوحيد في النّفس الإنسانيّة. عملاً بسنّة الكون، فالّذي ينحرف، إنّما ينحرف لظلمات في نفسه، حاصلة من ناحية الذّنوب و عدم القيام بمقتضيات الفطرة، و فطرة النّفس الإنسانيّة أنّ هذه الفطرة قابلة للتحوّل، و ليست كمادّة مسلوبة الاختيار و الإرادة

و انّ سنّة الكمال جارية بأطوارها في الجماد و النّبات و الحيوان و الإنسان، و بما أنّ استكمال الإنساني بما هو إنسان ينحصر في المعارف الإلهيّة و الأخلاق الفاضلة، لذلك غرس الله تعالى أصول المعارف أي التّوحيد و تقديس الله تعالى، الميل إلى العبادة و الخشوع، ذكر الله تعالى في الشّدائد و التّوجّه إليه.. إلى ما هنالك في النّفوس البشريّة تثبيتاً لسنّة الكمال هذه السّنّة الّتي لابدّ و أن تتحقّق في كلّ ما خلق الله تعالى بصورة ضروريّة، و قد أكمل الله ذلك بإرسال الرّسل يهدوا النّاس سواء السّبيل، و يعرّفوهم طرق السّعادة المقرّبة إليه تعالى، و يعلّموهم الحلال و الحرام

فبعث الأنبياء أمر طبيعيّ، لابدّ من تحقّقه عملاً بسنّة الكمال من جانب الله تعالى في هذا الكون أو الوجود، و تحقيقاً للكمال العاملي في الجماد و النّبات و الحيوان و الإنسان و الجنّ و الملائكة.

أقول: و منه ما في التّابعين من الضّعف العلمي و الفتور الفكري، و من الخلط و الالتباس

و قال بعض مدّعي العرفان: إنّ قول رسول الله «ﷺ»: «الطّرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق» أو «بعدد الأنفاس الإلهيّة» إنّ المراد بالأنفاس الإلهيّة الشّئون المتجدّدة منه في كلّ آن على كلّ مظهر «كلّ يوم هو في شأن» الرحمن ٢٩

قال: إنّ الطّريق و القرب من الله تعالى إلى الموجودات خلاف طريق النّاس و قربهم إلى الله سبحانه، لأنّ طريقه و قربه إليهم من حيث الوجود و الإحاطة، و قربهم و طريقهم إليه من حيث السّلوك و الاستعداد، و بينهما بون بعيد لأنّ القرب و الطّريق الّذي هو من طرف الحقّ إليهم و قع أزلاً و أبداً على و تيرة واحدة، لا يختلف فيه شيء و لا يتبدّل «لا تبديل لكلمات الله» بل هو «الآن كما كان» في الأزل «فطرة الله الّتي فطر النّاس عليها لا تبديل لخلق الله» و ليس هذا المعنى مخصوصاً بزمان و لا مكان، و ليس لأحد فيه مزيد على الآخر، و الحجر و المدر و النّبات و الحيوان و الإنسان و الملك فيه على سواء، لأنّ نسبة المحيط إلى النّقاط نسبة واحدة، و نسبة المظهر إلى الظّاهر كذلك

و مثال ذلك قرب المداد بكلّ حرف من حروف هذا الكتاب لأنّه ليس المداد من حيث هو مداد أقرب إلى حرف منه إلى حرف آخر، و إن كان بينهما نسبة بالتّقدّم و التّأخّر بحسب الكتابة

و أمّا القرب و الطّريق الّذي هو من طرف المخلوقات و الموجودات للشّريعة فهو من حيث الاستعداد و السّلوك، و هذا لا يحصل أصلاً إلاّ بعد الاستعداد الذّاتي و السّلوك الحقيقيّ على قربهم و طريقهم إليه بعد الاستعداد الذّاتي يكون بقدر سلوكهم و مجاهدتهم و رياضتهم

فالصّراط المستقيم السّلوكي غير الصّراط المستقيم الوجودي، و هذا لا يصل إليه كلّ أحد، و إن وصل إليه أحد، لا يكون إلاّ بعد مجاهدة شاقّة و رياضة صعبة مع وجود هاد مهديّ و تعرف تحقيق هذا من قرب النّبيّ «ﷺ» ليلة المعراج ـ الّذي كان من حيث السّلوك ـ في قوله تعالى «فكان قاب قوسين أو أدنى» لأنّ هذا القرب قرب لا يمكن أقرب منه، و لا يمكن حصوله لأحد غيره أصلاً، و معلوم أنّ الله سبحانه قال «و نحن أقرب إليه من حبل الوريد» فلو كان هذا القرب كافياً لم يكن النّبيّ «ﷺ» و لا غيره محتاجاً إلى السّلوك و طلب القرب» انتهى كلامه

أقول: و فيه أيضاً ما لا يخفى على أهل الدراية، يظهر بالتدبّر فيما سبق منّا فارجع و تدبّر

و منهم: من قال إنّ جميع الخلائق من الموجودات كلّها على الصراط المستقيم، و إنّ قرب الجميع و بُعده بالنسبة إلى الله متساوٍ، و ليس لأحد مزيّة على الآخر من الأنبياء و الأوصياء و غيرهم من العلماء و العرفاء و الملائكة المقرّبين»

أقول: و هم عطّلوا بذلك جميع الأحكام الشرعيّة و النواميس الإلهيّة، و ما استندوا إلى العلم و العمل، و تمسّكوا بالكشف و غير ذلك و نظروا إلى الجميع بعين واحدة و نظر واحد، و هذا التوهّم من أعظم مهالك النفوس البشريّة، و أكبر المفاسد الدنيويّة أعاذنا الله جلّ وعلا منها

و غير ذلك من الأقاويل الفاسدة و الآراء الكاسدة الناشئة عن الاختلاط و الالتباس بين الفطرة الإنسانيّة و طبيعة الإنسان، و بين العقل و الغريزة و بين ما للإنسان من الفطرة و الطبيعة و الغريزة و العقل و الشعور و الإدراك و ما إليها من القوى الظاهرة و الباطنة و ما يغيره من نوع الموجودات، و عن عدم الانفكاك و الفرق في النظر بين الموجود بما هو موجود، و بما هو إنسان، و غير ذلك من الاشتباه

و من البداهة أنّ الله تعالى خلق الإنسان بالاختيار و لأجله جلّ و علا و خلق غيره للإنسان لا للاختيار فلابدّ لكلّ ما يناسبه، فقال: «هو الّذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ـ و إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم» البقرة ۲۸ ، ۳٤.

و قال: «و هو الّذي جعلكم خلائف الأرض و رفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم» الأنعام: ١٦٥)

و قال: «و سخّر لكم ما في السّموات و ما في الأرض جميعاً منه إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون» الجاثية: ١٣)

و الفرق بين الإنسان و غيره كما ترى، و إن كان كلاهما من خلق الله جلّ وعلا

و بالفطرة الإنسانيّة للإنسان و هويّته و هي واحدة، و بالطّبيعة صورة الإنسان، و هي مختلفة باختلاف صور أفراده

﴿التضادّ بين فطرة الإنسان و طبيعته للاختيار﴾

قال الله عزّ وجلّ «إنّا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيّهم أحسن عملاً» (الكهف ٧) و اعلم أنّ الإنسان بما هو إنسان ـ بغضّ النظر عن كونه موجوداً كسائر الموجودات، يدلّ كلّ موجود بوجوده على وجود موجده، كما أنّ الكتاب يدلّ على كاتبه، و البناء على بانيه، وكلّ مصنوع على صانعه ـ مفطور على التوحيد، و هذه الفطرة الإنسانيّة ـ و لا الموجوديّة ـ ناشئة عن الروح الخاصّ الإلهيّ الذي نفخه الله تعالى في الإنسان دون غيره

إذ قال «فإذا سوّيته و نفخت فيه من روحي» (ص ٧٢)

فالإنسان كلّه ـ بما أنّه إنسان ـ بسبب هذه الروح من الواحد الأحد الصمد ـ مفطور على كلمة التوحيد «فاعلم أنّه لا إله إلاّ الله» (محمد ﷺ ١٩) و قال رسول الله ﷺ «قولوا لا إله إلاّ الله تفلحوا» و على توحيد الكلمة «تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم ألاّ نعبد إلاّ الله و لا نشرك به شيئاً ـ و اعتصموا بحبل الله جميعاً و لا تفرّقوا» (آل عمران ٦٤ ـ ١٠٣)

فالناس جميعاً في كلّ عرف من الظروف متّحدون فيها من حيث الفطرة بوحدة فطرتهم و ذلك أنّهم لو اجتمعوا ـ آدم فمن دونه من أولاده ـ في زمان واحد و مكان واحد، لما اختلف اثنان منهم فيها من حيث الفطرة، و هم مختلفون في طبائعهم لاختلافها بحيث لو أنّ كلّهم من آدم (ع) إلى آخر ولده اجتمعوا في زمان واحد و مكان واحد لما اتّفق اثنان منهم في طبيعتهما لأنّ طبيعتهما مختلفتان باختلاف صورتيهما و هكذا

وذلك أنّ فطرة الإنسان تُبنى على الوحدة لوحدة منشئها وهو الرّوح الخاصّ الإلهي «ونفخت فيه من روحي» ففطرته واحدة، وبُنيت طبيعته على الاختلاف لاختلاف منشأها وهو السّلالة من طين «لقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين» المؤمنون ١٢ فصورته مختلفة لاختلاف منشئه، فطبيعة النّاس مختلفة باختلاف صورهم، فوقع الإنسان بين الفطرة الموحّدة والطّبيعة المختلفة بالاختيار، والإنسان مختار بينهما، وليس هكذا غيره من الموجودات، فالسّعيد سعيد من حيث الفطرة في بطن أُمّه، والشّقيّ شقيّ من حيث الطّبيعة في بطن أُمّه

من دون إشكال في الرّواية المصحّحة سنداً ودلالة وجهةً كما توهّم من لم يعرف فطرته ولا طبيعته

فالإنسان بفطرته وطبيعته صار مختاراً بين الإيمان والكفر بين الحقّ والباطل بين الخير والشّرّ وبين التقوى والفجور من دون إجبار «ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها» الشّمس ٧ ـ ١٠)

في الاحتجاج ـ فيما احتجّ به الإمام الصّادق ﴿ع﴾ على الزّنديق ـ «... قال (الزّنديق): فأخبرني عن الله عزّوجلّ كيف لم يخلق الخلق كلّهم مطيعين موحّدين وكان على ذلك قادراً؟

قال ﴿ع﴾: لو خلقهم مطيعين لم يكن لهم ثواب لأنّ الطّاعة إذا ما كانت فعلهم لم يكن جنّة ولا نار، ولكن خلق خلقه فأمرهم بطاعته، ونهاهم عن معصيته، واحتجّ عليهم برسله وقطع عذرهم بكتبه ليكونوا هم الّذين يطيعون ويعصون، ويستوجبون بطاعتهم له الثّواب، وبمعصيتهم إيّاه العقاب

قال: فالعمل الصّالح من العبد هو فعله، والعمل الشّرّ من العبد هو فعله؟

قال ﴿ع﴾: العمل الصّالح من العبد بفعله والله به أمره، والعمل الشّرّ من العبد بفعله، والله عنه نهاه.

قال: أليس فعله بالآلة الّتي ركّبها فيه؟

قال ﴿ع﴾: نعم ولكن بالآلة الّتي عمل بها الخير قدر على الشّرّ الّذي نهاه عنه

قال: فما للعبد من الأمر شيء؟

قال: ما نهاه الله عن شيء و قد علم أنّه يطيق تركه، و لا أمره بشيء إلاّ و قد علم أنّه يستطيع فعله، لأنّه ليس من صفته الجور و العبث و الظّلم و تكليف العباد ما لا يطيقون. الحديث

و قد سُئِلَ عن الجبري مَن يفعل فعل الحق؟ قال: الله. سُئِلَ مَنِ المُحِق؟ قال: الله. سُئِلَ من يفعل الباطل؟ قال: الله. سُئِلَ مَنِ المُبطِل؟ سكت و لم يقل.

﴿ فطرة التوحيد و توحيد الفطرة عند الولادة ﴾

واعلم أنّ فطرة التّوحيد، و توحيد الفطرة، مع كلّ إنسان بما هو إنسان عند نفخ الرّوح الخاصّ الإلهي فيه، فيولد على فطرة التّوحيد و توحيد الفطرة وهما مستمرّان باستمرار الإنسان، حيث إنّ واقع الإنسان يشهد على الوجود الواجب قبل أن يكشفه عقله و يبيّنه رسول من الله تعالى

ففطرة الإنسان وحدها كافية للاستدلال على صانع العالم، على خالق هذا المشهد العظيم، على واجب الوجود، و على المدبّر الحكيم لنظام الكون، لأنّ الإنسان بفطرته في أيّ صقع من أصقاع الأرض يعيش يهتدي على ذلك، وهنا يستوي الطّفل و الشّابّ و الشّيخ، والجاهل والعالم، و الذّكر و الأنثى و ... و لو وقف النّاس جميعاً عند هذا الحدّ من الاعتقاد و الاعتراف بالخالق لما اختلفوا في أديانهم، و لا اشتركوا في مدركاتهم، و لما تعدّدوا دينين، فضلاً عن الأديان لأنّ الدّين هو الفطرة، و الفطرة هي الدّين، و هما توأمان يرتضعان من ثدي واحد و هو الرّوح الخاصّ الإلهي «و نفخت فيه من روحي» ص ٧٢ فهما متّحدان لا انفكاك بينهما و النّاس كلّهم متّحدون فيهما غير مختلفين، فإنّ الإنسان بما هو إنسان لا انفكاك بينه و بين فطرة التّوحيد، و توحيد الفطرة

و لكنّ النّاس بسبب سوء التّربية و التّعليم و سوء الاختيار و ما إليها تغلب طبيعتهم على فطرتهم فيختلفون، فيحتاج إلى الرّسالات السّماويّة لرفع اختلافهم و حسن تربيتهم و تعليمهم و إلى ذلك كلّه تشير الرّوايات المتواترة معنىً الواردة عن العترة الطّاهرة

فريق غلبت فطرتهم على ضعفتهم، و فريق غلبت طبيعتهم على فطرتهم

في وسائل الشّيعة: كتاب الجهاد - باب ٤٨ - باب شرائط الذمّة - حديث ۳، علل الشرائع: عن الفقيه و العلل بإسناده عن فضيل بن عثمان بن الأعور عن أبي عبدالله ﴿ع﴾ أنّه قال «ما من مولود يولد إلّا على الفطرة، فأبواه اللذان يهوّدانه و ينصّرانه و يمجّسانه» الحديث

و في اصول الكافي - كتاب الإيمان و الكفر - باب فطرة الخلق على التوحيد - حديث ۳) بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر ﴿ع﴾ - إلى أن قال - قال رسول الله ﴿ص﴾ «كلّ مولود يولد على الفطرة يعني المعرفة بأنّ الله عزّ و جلّ خالقه، كذلك قوله «و لئن سألتهم من خلق السّموات و الأرض ليقولنّ الله»

و في سفينة البحار - حرف الفاء - كلمة فطر - باب فطرة الله سبحانه - «قال النّبيّ ﴿ص﴾ كلّ مولود يولد على الفطرة حتّى يكون أبواه يهوّدانه و ينصّرانه»

و في مجمع البحرين و في الحديث المشهور عن النبيّ «كلّ مولود يولد على الفطرة حتّى يكون أبواه يهوّدانه و ينصّرانه و يمجّسانه» و الفطرة بالكسر الخلقة، و هي من الفطر كالخلقة من الخلق في أنّها للحالة، ثمّ إنّها جعلت للخلقة القابلة لدين الحقّ على الخصوص، و المعنى كلّ مولود يولد على معرفة الله تعالى و الإقرار به، فلا تجد أحداً إلّا و هو يقرّ بأنّ له صانعاً، و إن سمّاه بغير اسمه و عبد معه غيره فلو ترك عليها لاستمرّ على لزومها و إنّما يعدل عنها لآفة من التّضليل كالتّهويد و التّنصير و التمجيس و قوله «حتّى يهوّدانه» أي ينقلانه إلى دينهم

ثمّ قال: و قال بعض المتبحّرين و يشكل هذا التفسير إن حمل اللفظ على حقيقته فقط لأنّه يلزم منه أن لا يتوارث المشركون مع أولادهم الصّغار قبل أن يهوّدوهم و ينصّروهم و يمجّسوهم، و اللازم باطل. بل الوجه حمله على الحقيقة و المجاز معاً، ثمّ حمله على المجاز فعلى ما قبل البلوغ و ذلك أنّ إقامة الأبوين على دينهما سبب جعل الولد تابعاً لهما، فلمّا كانت الإقامة سبباً جعل تهويداً و تنصيراً أو تمجيساً مجازاً، ثمّ أسند إلى الأبوين توبيخاً لهما و تقبيحاً عليهما، فكأنّه قال و إنّما أبواه بإقامتهما على الشّرك يجعلانه مشركاً كأنفسهم و يفهم

من هذا أنّه لو قام أحدهما على الشّرك و أسلم الآخر لا يكون مشركاً و لا مسلماً، و أمّا حمله على الحقيقة فمعنى ما بعد البلوغ لوجود الكفر من الأولاد» انتهى كلامه.

و فيه، و في الحديث: «إنّ الله خلق النّاس كلّهم على الفطرة الّتي فطرهم عليها لا يعرفون إيماناً بشريعة و لا كفراً بجحود، ثمّ بعث الله الرّسل تدعو العباد إلى الإيمان»

و في البحار ـ كتاب التوحيد، باب ١١ ـ الدّين الحنيف و الفطرة، حديث ٢٢) نقلاً عن كتاب عوالي اللئالي لابن أبي جمهور، قال النّبيّ ﴿ﷺ﴾: كلّ مولود يولد على الفطرة حتّى يكون أبواه يهوّدانه و ينصّرانه»

قال العلاّمة المجلسي رضوان الله تعالى عليه: قال السّيّد المرتضى رحمه الله في كتاب الغرر و الدّرر ـ بعد نقل بعض التّأويلات عن المخالفين في هذا الخبر ـ و الصّحيح في تأويله أنّ قوله: «يولد على الفطرة» يحتمل أمرين

أحدهما ـ أن تكون الفطرة ههنا الدّين، و تكون «على» بمعنى اللام، فكأنّه ﴿ﷺ﴾ قال: كلّ مولود يولد للدّين، و من أجل الدّين، لأنّ الله تعالى لم يخلق من يبلغه مبلغ المكلّفين إلاّ ليعبده، فينتفع بعبادته، يشهد بذلك قوله تعالى: «و ما خلقت الجنّ و الإنس إلاّ ليعبدون» الذاريات ٥٦ و الدّليل على أنّ «على» يقوم مقام اللام ما حكاه يعقوب بن السّكّيت عن أبي يزيد عن العرب أنّهم يقولون: صف عليّ كذا و كذا حتّى أعرفه بمعنى صف لي، و يقولون: ما أغظك عليّ يريدون ما أغظك لي، و العرب تقيم بعض الصّفات مقام بعض

و إنّما ساغ أن يريد بالفطرة الّتي هي الخلقة في اللّغة الدّين من حيث كان هو المقصود بها، و قد يجري على الشّيء اسم ما له به هذا الضّرب من التّعلّق و الاختصاص، و على هذا يتأوّل قوله تعالى: «فأقم وجهك للدّين حنيفاً فطرت الله الّتي فطر النّاس عليها» أراد دين الله الّذي خلق الخلق له، و قوله تعالى: «لا تبديل لخلق الله» أراد به أنّ ما خلق الله العباد له من العبادة و الطّاعة، ليس ممّا يتغيّر و يختلف حتّى يخلق قوماً للطّاعة، و آخرين للمعصية و يجوز أن يريد بذلك الأمر و إن كان ظاهره ظاهر الخبر، فكأنّه قال: لا تبدّلوا ما خلقكم الله له من الدّين و الطّاعة بأن تعصوا و تخالفوا

و الوجه الآخر في تأويل قوله ﷺ: «الفطرة» أن يكون المراد به الخلقة و تكون لفظة «على» على ظاهرها و لم يُرَد بها غيرها، و يكون المعنى: كلّ مولود يولد على الخلقة الدّالّة على وحدانيّة الله تعالى و عبادته و الإيمان به، لأنّه جلّ و عزّ قد صوّر الخلق، و خلقهم على وجه يقتضي النّظر فيه معرفته و الإيمان به، و إن لم ينظروا و يعرفوا، فكأنّه ﷺ قال: إنّ كلّ مخلوق و مولود فهو يدلّ بصورته و خلقته على عبادة الله تعالى، و إن عدل بعضهم فصار يهوديّاً و نصرانيّاً. و هذا الوجه أيضاً يحتمله قوله تعالى «فطرة الله الّتي فطر النّاس عليها».

و إذا ثبت ما ذكرناه في معنى الفطرة فقوله ﷺ: «حتّى يكون أبواه يهوّدانه و ينصّرانه» يحتمل وجهين:

أحدهما: أنّ من كان يهوديّاً أو نصرانيّاً ممّن خلقته لعبادتي و ديني، فإنّما جعله أبواه كذلك، أو من جرى مجراهما ممّن أوقع له الشّبهة، و قلّده الضّلال عن الدّين، و إنّما خصّ الأبوين لأنّ الأولاد في الأكثر ينشؤون على مذاهب آبائهم، و يألفون أديانهم و نحلهم، و يكون الغرض بالكلام تنزيه الله تعالى عن ضلال العباد و كفرهم، و أنّه إنّما خلقهم للإيمان فصدّهم عنه آباؤهم، أو من جرى مجراهم.

و الوجه الآخر أن يكون معنى «يهوّدانه و ينصّرانه» أي يلحقانه بأحكامهما لأنّ أطفال أهل الذّمّة قد ألحق الشّرع أحكامهم بأحكامهم، فكأنّه ﷺ قال: لا تتوهّموا من حيث لحقت أحكام اليهود و النّصارى أطفالهم أنّهم خلقوا لدينهم، بل لم يخلقوا إلّا للإيمان و الدّين الصّحيح لكنّ آباءهم هم الّذين أدخلوهم في أحكامهم و عبّر عن إدخالهم في أحكامهم بقوله: «يهوّدانه و ينصّرانه».

و في رواية مشهورة عن رسول الله ﷺ: «لا تضربوا أطفالكم على بكائهم فإنّ بكاءهم أربعة أشهر: أشهد أن لا إله إلّا الله، و أربعة أشهر الصّلاة على النّبيّ و آله، و أربعة أشهر الدّعاء لوالديه».

و قال بعض المحقّقين: الحقّ الحقيق بالتّصديق أنّ التّصديق بوجوده تعالى أمر فطريّ، و لذا ترى النّاس عند الوقوع في الأهوال و صعاب الأحوال، يتوكّلون بحسب

لجئه إلى الله و سيوجّهون توجّهاً غريزيّاً إلى مسبّب الأسباب و مسهّل الامور الصّعاب، و إن لم يتفطّنوا لذلك و يشهد لهذا قول الله عزّوجلّ: «و لئن سألتهم من خلق السّموات و الأرض ليقولنّ الله» و قوله «قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم السّاعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين بل إيّاه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء و تنسون ما تشركون» (الأنعام ٤٠-٤١)

و قال السّيّد ابن طاووس في جملة وصاياه لولده: «إنّي وجدت كثيراً ممّن رأيته و سمعت به من علماء الإسلام قد ضيّقوا على الأنام ما كان سهّله الله جلّ جلاله و رسوله ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ من معرفة مولاهم، و مالك دنياهم و آخرتهم، فإنّك تجد كتب الله عزّوجلّ السّالفة و القرآن الشّريف مملوّة من التّنبيهات على الدّلالات على معرفة محدث الحادثات، و مغيّر المتغيّرات و مقلّب الأوقات، و ترى علوم سيّدنا خاتم الأنبياء و علوم من سلف من الأنبياء على سبيل كتب الله جلّ جلاله المنزّلة عليهم في التّنبيه اللطيف و التّشريف بالتّكليف

و مضى على ذلك الصّدر الأوّل من علماء المسلمين إلى أواخر من كان ظاهراً من الأئمّة المعصومين عليهم السّلام، فإنّك تجد من نفسك بغير إشكال أنّك لم تخلق جسدك و لا روحك و صورتك و لا عقلك، و لا ما خرج عن اختيارك من الآمال و الأحوال و الآجال، و لا خلق ذلك أبوك و لا أمّك و لا من تقلّبت بينهم من الآباء و الأمّهات لأنّك تعلم يقيناً أنّهم كانوا عاجزين عن هذه المقامات، و لو كان لهم قدرة على تلك المهمّات لما كان قد حيل بينهم و بين المرادات، و صاروا من الأموات فما بقي مندوحة أبداً عن واحد منزّه عن إمكان المحدثات، خلق هذه الموجودات و إنّما تحتاج أن تعلم ما هو عليه جلّ جلاله من الصّفات و لأجل شهادة العقول الصّريحة و الأفهام الصّحيحة بالتّصديق بالصّانع أطبقوا جميعاً على فاطر و خالق، و إن اختلفوا في ماهيّته و حقيقة ذاته، و في صفاته بحسب اختلاف الطّرق.» انتهى كلامه و رفع مقامه

و في رواية: قال موسى ﴿عليه السلام﴾: «يا ربّ أيّ الأعمال أفضل عندك؟ قال: حبّ الأطفال، فإنّي فطرتهم على توحيدي فإن أمتّهم أدخلتهم برحمتي جنّتي»

وفي الحديث القدسي: قال الله عزّ وجلّ: «خلقت عبادي حنفاء، فاجتالتهم الشياطين عن دينهم وأمروهم أن يشركوا بي غيري»

قال الله تعالى: «وإنّ الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنّكم لمشركون» الأنعام: ١٢١.

ومن المعلوم اليقين أنّ كلّ مولود يولد متديّناً ومن أهل التديّن، وما خلق الله تعالى الإنسان إلّا لمعرفته وعبادته، وأنّ التوحيد والطّاعة في كمون ذاته.

وقد ورد: أنّ يوماً سأل إبراهيم عليه السلام أمّه في الغار، فقال لأمّه: من ربّي؟ قالت: أبوك. قال: من ربّ أبي؟ قالت: لا أدري. فبعد أن تمّ هذا، وقد جاء مع أمّه في داره، فرأى أباه، قال: يا أبه من ربّي؟ قال: أمّك. قال: فمن ربّ أمّي؟ قال: أنا. قال: فمن ربّك؟ قال: نمرود. قال: فمن ربّ نمرود؟ قال: هو مستغن عن ربّ. قال: هل هو إنسان مثلنا؟ قال: بلى. قال: فمن ربّه؟ فلطمه لطمة، وقال له: اسكت»

قال الله تعالى: «واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون» الشعراء: ٦٩ ـ ٧٠.

وقال: «وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنّني براء ممّا تعبدون إلّا الّذي فطرني فإنّه سيهدين وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلّهم يرجعون» الزخرف: ٢٦ ـ ٢٨.

وقال: «إنّ إبراهيم كان أمّة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين» النحل: ١٢٠.

وقال: «وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتّخذ أصناماً آلهة إنّي أراك وقومك في ضلال مبين» الأنعام: ٧٤.

وقد ورد أنّ آزر كان عمّ إبراهيم عليه السلام ولم يكن أباه، وقد وُلد إبراهيم في الغار على فطرة التّوحيد، فحفظه الله تعالى من دنس أبويه «كلّ مولود يولد على الفطرة حتّى يكون أبواه»

ولقد حثّت الأنبياء والمرسلون الّذين كانوا معصومين عن السّهو والخطأ، وعن الذّنب والطّغيان هداية عامّة النّاس الّذين هم غير معصومين، إلى ما في كمونهم من فطرة التّوحيد والطّاعة كهداية الأمّ ولدها لتعلّق ثديها، وإن كان الطّفل من فطرته، ولكنّه يحتاج

في هديه وهواه، ولا يأكل شيئاً كلما أخذ بيده حتى أصابعه، فيتحسّس كما ثدي أمّه

وفي الدرّ المنثور: عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «ما من مولود إلّا يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه وينصّرانه ويمجّسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسّون فيها من جدعاء»

وفيه عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «كلّ مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه وينصّرانه كما تنتج الإبل من بهيمة جمعاء هل تحسّ من جدعاء قالوا يا رسول الله أفرأيت من يموت وهو صغير؟ قال الله أعلم بما كانوا عاملين» أي يذهب إلى أنهم إنما يولدون على ما يصيرون إليه من إسلام أو كفر

وفيه عن الأسود بن سريع أنّ رسول الله ﷺ بعث سرية إلى خيبر، فقاتلوا المشركين، فانتهى بهم القتل إلى الذرّية فلما جاؤوا قال النبي ﷺ ما حملكم على قتل الذرّية؟ قالوا يا رسول الله إنما كانوا أولاد المشركين. قال وهل خياركم إلّا أولاد المشركين، والذي نفسي بيده ما من نسمة تولد إلّا على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها»

وفي الجامع الصغير قال رسول الله ﷺ «كلّ مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه يهوّدانه وينصّرانه ويمجّسانه»

ومثله في كشف الخفاء (ج ٢ ص ١٢٥)

وفي الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ثبت في الصحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «ما من مولود إلّا يولد على الفطرة ـ وفي رواية على هذه الملّة ـ أبواه يهوّدانه وينصّرانه ويمجّسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسّون فيها من جدعاء»

قوله ﷺ «جمعاء» أي سليمة من العيوب، مجتمعة الأعضاء، كاملها «هل تحسّون فيها من جدعاء» يعني مقطوعة الأذن

مثّل ﷺ فطرة بني آدم بالبهائم لأنّها تولد كاملة الخلق ليس فيها نقصان ثمّ تقطع آذانها بعد وأنوفها، فيقال هذه بحائر وهذه سوائب قال الله تعالى «ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام» (المائدة ١٠٣) فكذلك فطرة الإنسان حين ولادته ليس له يهودية ولا نصرانية ولا مجوسية ولا غيرها، بل هو موحّد في عمق ذاته،

فإذا وُلِدَ فأبواه يهوّدانه

فكما أنّ البهيمة تلد ولدها كامل الخلقة، سليماً من الآفات، بحيث لو تُرك على أصل تلك الخلقة لبقي كاملاً بريئاً من العيوب، لكن تُصرِّف فيه فيُجدع أذنه و يُوسم وجهه فتطرأ عليه الآفات و النقائص فيخرج عن الأصل كذلك الإنسان في بُعد فطرته فحصل التحوّل و عمّ الشقاء من الأمراض التي تعرض عليهم و عليهنّ، و ليس من طبيعة الذكور و الاناث

و قال بعض العرفاء: إنّ الإنسان بما هو إنسان إذا طالع أوان صباوته، و قرأ صفحات فطرته حال بلوغه أنّه من لطم على وجهه لطمة و هو صبيّ ينادي فطرته على أربعة امور ليست في غيره من الحيوان

الأوّل: ينادي و يدعو خالقه القادر العليم المتعال بالبكاء و التضرّع

الثاني: ينادي بحضور التكليف للإنسان

الثالث: ينادي بلزوم دار الجزاء و العقاب و الثواب

الرابع: ينادي وجود النبيّ و الرسول من الله تعالى يبلغ التكليف إلى عباده

أمّا دلالة الفطرة عند اللطمة على نداء الخالق، فإنّ الصبيّ عند وقوع اللطمة على وجهه يصيح و يقول لماذا ضربتني، فيتوجّه إلى الخالق القادر العليم المتعال، و من هنا يوجد الأمر والنهي و التكليف بأنّ الإنسان لم يخلق بطلاقة العنان، حتّى يفعل ما يشاء، و أمّا دلالتها على لزوم دار الجزاء، فإنّه يطلب الجزاء، و يدعو خالقه أن يجازي من لطمه على وجهه في دار الآخرة بما فعل به الآن. و أمّا دلالتها على احتياج الإنسان إلى النبيّ و الرسول من الله تعالى فإنّ الإنسان يفتقر في فهم الأحكام و بيان كيفيّتها إلى من هو أعلم بها

«أنواع الصّفات النّفسانيّة»

واعلم أنّ الصفات النفسانية للإنسان بحسب الكلّ على نوعين:

النّوع الأوّل: ذاتيّة لا يحتاج في حصولها إلى معلم ولا معلّم ولا تربية ولا تنفكّ عن ذات الإنسان ولا تفارقه أبدًا، مركوزة في نفسه، سارية فيه سريان الماء في العود الأخضر، والكهرباء في كل جسم جامد وغير وسائل، وهي على قسمين:

أحدهما ـ فطرته على التّوحيد والانقطاع لله جلّ وعلا.

ثانيهما ـ طبيعته كحبّ الوالد لولده، وميل الإنسان إلى الغذاء، والتّوالد والتّناسل، وخوفه من الموت ونحوها.

ولكن يمكن أن يعرض على كلا النّوعين عوارض تمنعهما عن ظهورهما، فبعد رفعها يظهران بعد خفاء.

فالتّوحيد ذاتيّ فطريّ كما أنّ محبّة الوالد لولده ذاتيّة طبيعيّة لا تحتاج في حصولها إلى معلّم ولا تربية، فلو ترك الطّفل وشأنه لعرف وحدانيّة الله تعالى والانقطاع بفطرته، فإنّ الإذعان بالوحدانيّة والانقطاع لله تعالى فطرة بشريّة.

إن تسئل إن كان التّوحيد ذاتيًّا للإنسان، فلا يحتاج إلى رسول من الله تعالى يدعوه إليه؟

تجيب عنه: بأنّ الله عزّ وجلّ أرسل رسله لبيان مقتضى الفطرة، ولمنع عروض العوارض الّتي تمنع عن ظهور مقتضاها، ولرفع تلك العوارض بعد عروضها عنها، وليبيّن

أحكام الفطرة

في نهج البلاغة قال مولى الموحّدين إمام المتّقين علي بن أبي طالب ﴿ع﴾ «فبعث فيهم رسله و واتر إليهم أنبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته».

قال الله عزّ وجلّ «وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاّ نوحي إليه أنّه لا إله إلاّ أنا فاعبدون» الأنبياء: ٢٥)

النوع الثاني: عارضيّة تحتاج في حصولها إلى تعلّم و تعليم و تربية كالعلم و الحكمة و ما إليهما نعت و إثبات

قال الله تعالى «كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلوا عليكم آياتنا و يزكّيكم و يعلّمكم الكتاب و الحكمة و يعلّمكم ما لم تكونوا تعلمون» البقرة ١٥١)

و إن كانت موجبات لعوارض تلائمي تمنع من ظهور الفطرة و إشراقها كالسّحاب التي تمنع عن إشراق الشمس على الآفاق و أهمّها خمسة أمور

ألف: سوء نيّات الوالدين قبل انعقاد النّطفة و حين انعقادها إلى ولادة الإنسان

ب: أكل الحرام مطلقاً

ج: سوء التّربية و التّعليم

د: المحيط الفاسد

هـ: اتّباع الهوى بعد البلوغ

و ذلك أنّ لكلّ واحد من هذه الامور تأثيراً عميقاً في منع ظهور الفطرة و إشراقها و تبدّل مقتضياتها إلى إحدى جهتي القلب و نحوه

حيث أنّ للقلب جهتين جهة الفطرة الإنسانيّة و جهة طبيعته مع أنّ القلب كصحيفة بيضاء نقيّة مستعدّة للانتقاش على كلّ جهة من ناحية الفطرة نورانيّة من الطّاعة فيستنير نورها أو من ناحية الطّبيعة من الشّرك و الطّغيان فيسودّ و يظلم متأثّراً بظلامها

و بعبارة أخرى: إنّ طبيعة النفس كطبيعة الماء الصّافي الزّلال الّذي لا لون و لا رائحة و لا طعم له، بل لونه و رائحته و طعمه بما يصبّ فيه، من اللّون و الطّعم و الرّائحة فيصيبه في سقيّة النجار الحرف فينطبق بذات فطرة الله سبحانه و صبغته «قال

النّبيّ (صلّى الله عليه وآله) «كلّ مولود يولد على الفطرة حتّى يكون أبواه يهوّدانه و ينصّرانه» قال: و قوله (صلّى الله عليه وآله) «أبواه يهوّدانه و ينصّرانه» خصّ الأبوين لأنّ الأولاد في الأكثر ينشأون على مذهب آبائهم، و يأنسون أديانهم و عقائدهم، و يكون الغرض تنزيه الله تعالى عن ضلال العباد و كفرهم».

و في النّهاية: قال في قوله (صلّى الله عليه وآله) «كلّ مولود يولد على الفطرة»: الفطر: الابتداء و الاختراع، و الفطرة منه الحالة كالجلسة و الرّكبة و المعنى أنّه يولد على نوع من الجبلّة و الطّبع المتهيّئ لقبول الدّين، فلو ترك عليها لاستمرّ على لزومها و لم يفارقها إلى غيرها، و إنّما يعدل عنه من يعدل لآفة من آفات البشر و التقليد، ثمّ تمثّل بأولاد اليهود و النّصارى في اتّباعهم لآبائهم، و الميل إلى أديانهم، عن مقتضى الفطرة السّليمة.

و قيل: معناه كلّ مولود يولد على معرفة الله و الإقرار به، فلا تجد أحداً إلّا و هو يقرّ بأنّ الله صانعه، و إن سمّاه بغير اسمه، أو عبد معه غيره. و منه حديث حذيفة «على غير فطرة محمّد» أراد دين الإسلام الّذي هو منسوب إليه» انتهى

«فطرة التّوحيد، و صبغة القلب»

قال الله تعالى «صبغة الله و من أحسن من الله صبغة و نحن له عابدون» بقرة ١٣٨)

واعلم أنّ العقل في ذاته مصبوغ بصبغة تقتضيه فطرة الإنسان وهي التّوحيد و الطّاعة لله جلّ وعلا وحده.

و في اصول الكافي: ـ كتاب العقل و الجهل ـ حديث ١ و ٢٦، باسناده عن محمّد بن مسلم عن أبي جعفر «عليه السلام» قال: لمّا خلق الله العقل استنطقه، ثمّ قال له: أقبل فأقبل ثمّ قال له: أدبر فأدبر. » الحديث

و أنّ القلب الآدمي كالماء الصّافي الزّلال غير مصبوغ في ذاته بصبغة، بل يستعدّ لقبول صبغة تقتضيها الفطرة الإنسانيّة وهي التّوحيد والطّاعة، وصبغة تقتضيها طبيعة الإنسان، وهي الكفر والطّغيان، وأنّ الإنسان مختار بين فطرته و طبيعته، و أنّ له عقلاً يدعوه إلى ما تقتضيه فطرته، و هوىً يدعوه إلى ما تقتضيه طبيعته، فمن تبع عقله، أصبغ قلبه بصبغة التّوحيد و الطّاعة، و من اتّبع هواه، أصبغ قلبه بصبغة الشّرك و الطّغيان.

و في اصول الكافي: ـ كتاب الايمان و الكفر ـ باب في أنّ الصّبغة هي الإسلام ـ باسناده عن عبدالله بن سنان، عن أبي عبدالله «عليه السلام» في قول الله عزّ وجلّ «صبغة الله و من أحسن من الله صبغة» قال: الإسلام. و قال في قوله عزّ وجلّ «فقد استمسك بالعروة الوثقى» قال: هي الايمان بالله وحده لاشريك له»

وفيه ـ باسناده عن حمران عن أبي عبدالله «عليه السلام» في قول الله عزّ وجلّ «صبغة الله و من

أحسن من الله صبغة، قال: الصّبغة هي الإسلام»

و فيه بإسناده عن محمّد بن مسلم عن أحدهما عليهما السلام في قوله الله عزّوجلّ «صبغة الله و من أحسن من الله صبغة» قال: الصّبغة هي الإسلام، و قال في قوله عزّوجلّ «فمن يكفر بالطّاغوت و يؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى» قال: هي الإيمان»

قوله ﴿تعالى﴾ «فمن يكفر بالطّاغوت» فسّر الطّاغوت في الأخبار بالشّيطان، و بأئمّة الضّلال و الأولى التّعميم ليشمل كلّ من عبد من دون الله من صنم أو صادّ عن سبيل الله

و قوله ﴿تعالى﴾ «و يؤمن بالله» أي بالتّوحيد و تصديق الرّسل و أوصيائهم و قوله ﴿تعالى﴾ «فقد استمسك بالعروة الوثقى» أي طلب الإمساك من نفسه بالحبل الوثيق و هي مستعار لمستمسك الحقّ من النّظر الصّحيح، و الدّين القويم، «لا انفصام لها» أي لا انقطاع لها

و قد ورد في كثير من الأخبار: أنّ المراد بالطّاغوت المتصدّين للخلافة من أصحاب السّقيفة للصّحيفة المشؤومة و هم أبوبكر بن أبي قحافة، و عمر بن الخطّاب، و عثمان بن عفّان

و المعنى: من رفض متابعة هؤلاء الثّلاث، غاصبي الخلافة من أئمّة الضّلال و الفساد، و آمن بما جاء من عند الله تعالى في أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﴿ع﴾ و الأوصياء المعصومين من بعده صلوات الله عليهم أجمعين فقد آمن بالله وحده لا شريك له، و إلّا فهو مشرك كما روي في معاني الأخبار عن رسول الله ﴿ص﴾ «من أحبّ أن يستمسك بالعروة الوثقى الّتي لا انفصام لها فليستمسك بولاية أخي و وصيّي عليّ بن أبي طالب ﴿ع﴾ فإنّه لا يهلك من أحبّه و تولّاه، و لا ينجو من أبغضه و عاداه» و قال الإمام الباقر ﴿ع﴾ «إنّ العروة الوثقى هي مودّتنا أهل البيت»

و في معاني الأخبار بإسناده عن أبان عن أبي عبدالله ﴿ع﴾ في قول الله عزّوجلّ «صبغة الله و من أحسن من الله صبغة» قال: هي الإسلام»

و في تفسير أنوار التّنزيل قال البيضاوي في قوله تعالى «صبغة الله» أي صبغنا الله صبغته و هي فطرة الله الّتي فطر النّاس عليها، فإنّها حلية الإنسان، كما أنّ الصّبغة حلية المصبوغ، أو هدانا هدايته، و أرشدنا حجّته، أو طهّر قلوبنا بالإيمان تطهيره، و سمّاه صبغة

لأنّه ظهر أثره عليهم ظهور الصبغ على المصبوغ، و تداخل في قلوبهم تداخل الصبغ الثوب، أو للمشاكلة فإنّ النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر، يسمّونه المعموديّة (المعموديّة ح)، و يقولون هو تطهير لهم، و به تحقّق نصرانيّتهم، و نصبها على أنّه مصدر مؤكّد لقوله «آمنّا» وقيل على الإغراء و قيل على البدل من «ملّة ابراهيم»

و قوله تعالى «و من أحسن من الله صبغة» لا صبغة أحسن من صبغته «و نحن له عابدون» تعريض بهم أي لا نشرك به كشرككم.

و في التبيان و قال قتادة: اليهود تصبغ أبناءها يهوداً و النصارى تصبغ أبناءها نصارى - فهذا غير المعنى الّذي ذكرناه أوّلاً - و معناه أنّهم يلقّنون أولادهم اليهوديّة و النصرانيّة، فيصبغونهم بذلك لما يشربون قلوبهم منه فقيل صبغة الله التي أمر بها و رضيها يعني الشريعة لا صبغتكم و قال الجبائي سمّي الدين صبغة لأنّه هيئة تظهر بالمشاهدة من أثر الطهارة و الصلاة و غير ذلك من الآثار الجميلة التي هي كالصبغة.

و قيل، صبغة الله إبداع الممكنات و إخراجها من العدم إلى الوجود و إعطاء كلّ ما يليق به من الصفات و الغايات و غيرها.

و في متشابه القرآن و مختلفه لابن شهر آشوب السّروي المازندراني رضوان الله تعالى عليه: و روي عن النبيّ ﷺ كلّ مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه و ينصّرانه و يمجّسانه. الخبر

فاختلف الناس في ذلك فروي أنّه ﷺ قال التوحيد و قال أبو عبيدة صبغة الله دين الله و فطرته التي فطر الناس عليها و قال الفرّاء نصب صبغة الله لأنّ اليهود و النصارى كانوا يصبغون أولادهم فيقول الله عزّ و جلّ الزموا صبغة الله و قال بعضهم كانت النصارى إذا ولد لهم ولد صبغوه في ماء نهر الأردن، و كان ذلك لهم بمنزلة الختان للمسلمين، و يزعم النصارى أنّ المسيح صبغه يوحنّا المعمدان، و كان يسمّى هذا الفعل المعموديّة

قال ابن حمّاد

يقولون في الله غير الجميل　　　فقد ألحدوا فيه ما وحّدوه

ينسبون له قبيح أفعالهم — تنزّه عنها العليّ النّزيه
وقالوا يعذّبنا في المعاد — على فعله جلّ من جوّزوه

وفي تفسير فرات الكوفي: كتاب الحجّة — باب فيه نكت ونتف من التنزيل في الولاية – حديث ٥٣ – بإسناده عن عبدالله بن عبد الفارسيّ عن محمّد بن عليّ عن أبي عبدالله ﴿ع﴾ في قوله تعالى «صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة» قال: «صبغة أميرالمؤمنين (المؤمنون خ) بالولاية في الميثاق»

وفي اصول الكافي: كتاب الحجّة — باب فيه نكت ونتف من التنزيل في الولاية – حديث ٥٣ – بإسناده عن عبدالرّحمن بن كثير عن أبي عبدالله ﴿ع﴾ في قوله تعالى «صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة» قال: صبغ المؤمنين (المؤمنون خ) بالولاية في الميثاق»

﴿الإسلام ودين الفطرة﴾

قال الله تعالى: «فأقم وجهك للدّين حنيفاً فطرة الله الّتي فطر النّاس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدّين القيّم ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون» (الروم: ٣٠)، وقد سمّي الفطرة ديناً لكونهما متّحدين وعدم انفكاك أحدهما عن الآخر.

وقال: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً» (المائدة: ٣)

وقال: «إنّ الدّين عند الله الإسلام ـ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين» (آل عمران: ١٩ و ٨٥)

الفطرة هي صفاء الملّة الحنيفة، ونور الإسلام الولائيّ والدّين الّذي أكمله الله جلّ وعلا يوم غدير خمّ بولاية مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب ﴿عليه السلام﴾ وهذا الدّين الولائيّ هو المرضيّ عند الله عزّوجلّ لا غيره، فإنّ هذا الدّين وحده مقبول عندالله تعالى غير منفيّ ولا منكر، بحيث لو ترك الشّخص وشأنه لما اختار غير هذا الدّين الولائيّ ديناً له، لأنّه وحده دين الفطرة، مبنيّ على فطرة التّوحيد، وتوحيد الفطرة.

دين يخاطب العقل، وضمير الإنسان، ويسير مع حاجات النّفوس السّليمة في كلّ أصوله وفروعه، وفي جميع أحكامه وضوابطه، هذا هو دين الفطرة الاولى، ومن غوى من النّاس فإنّه يكون بوسوسة الشّيطان وتأثير الإنسان الّذي يعاشره في بيئته وحاضنه بويه

و من البداهة أنّ الإنسان قبل بعثة خاتم الأنبياء و سيّد المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين كان على غاية الكفر و ضلاله على نهاية الغي و الغواية، على منتهى الجمود و الاستعباد، و على ذلك الانحطاط و الجهالة

في نهج البلاغة: قال بعض خطبه الّتي سمّاه الوصيّ الإمام علي ﴿عليه السلام﴾ «إن الله بعث محمّداً ﴿صلى الله عليه وآله﴾ نذيراً للعالمين و أميناً على التنزيل، و أنتم معشر العرب على شرّ دين و في شرّ دار، منيخون بين حجارة خشن، و حيّات صمّ، تشربون الكدر، و تأكلون الجشب و تسفكون دماءكم و تقطعون أرحامكم، الأصنام فيكم منصوبة و الآثام بكم معصوبة» خطبة ٢٦

فظهر خاتم النبيّين الّذي هو وسيلة النجاة، و الوسيلة العظمى، و الواسطة الكبرى لإسعاد الناس هادياً إلى أعلى درجات المدنيّة و الارتقاء و السّعادة، فأكمل للإنسان حاجاته الضروريّة على نهج مشروع، و ما أسرع ما وصل به إلى أرفع مراتب الكمال و السّعادة فإنّ كلّ من يمعن نظره و يحكم وجدانه فيما كان عليه الإنسان قبل بعثته ثمّ يتأمّل في حال الإنسان و رقيّه بعدها لا يسعه إلّا أنّه يرى ما بين الحالين من بون بعيد، و الفرق الّذي لا يمكن تقييسه و تقريبه

إنّ الله عزّ و جلّ لمّا ألبس خاتم رسله محمّداً ﴿صلى الله عليه وآله﴾ لباس الرّسالة، و رداء النّبوّة أمره أن يعرف الناس خالقهم، و يصحّح عقائدهم، و يبطل عبادتهم الأوثان و الأصنام و الشمس و القمر و النجوم و النار و الحجر و الخشب و ما إليها. و يدعوهم إلى سبيل الخير و الصّلاح، إلى سبيل الحقّ و الهدى إلى سبيل السّعادة و الفلاح، و إلى سبيل الحرّية و الكمال في ظلّ العبوديّة لله تعالى وحده و لا يمكن استمرار هذه الدعوة بعده ﴿صلى الله عليه وآله﴾ إلّا بولاية من يقوم مقامه ﴿صلى الله عليه وآله﴾ في جميع الفضائل الأخلاقيّة و الكمالات النفسيّة إلّا النبوّة فلا يمكن ظهور الفطرة و بروز الإنسانيّة إلّا بهذه الولاية

و لذلك أمر الله تعالى رسوله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ بتبليغها يوم الغدير في حجّة الوداع قبل سبعين يوماً من وفاته ﴿صلى الله عليه وآله﴾ بحيث لو لم يبلّغها يومئذ لم يبلّغ رسالته أصلاً، و قد صرّح بذلك في قوله «يا أيّها الرّسول بلّغ ما أُنزل إليك من ربّك و إن لم تفعل فما بلّغت رسالته» المائدة ٦٧

وذلك أنّ الرسالة بمنزلة المسكن الّذي لابدّ لحفظه من ساكن، وإنّ الولاية هي ساكن الرسالة، ولولا السّاكن لخرب المسكن بعد حين قطعاً.

ولذلك أناط جلّ وعلا كمال الدّين الإسلاميّ وإتمام النعمة به بهذه الولاية، بحيث لولاها لما كانت الرّسالة، ولا الدّين كاملاً، ولا الإسلام مرضيّاً عند الله تعالى.

فتدبّروا يا معشر العامّة عامّة في ذلك، واعلموا أنّ هؤلاء الطواغيت الثلاث وأذنابهم المشؤومة، والمستمسكين بعروتهم الوثقى التي لا انفصام لها، هي ولاية مولى الموحّدين سيّد الوصيّين يعسوب الدّين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب و الأئمّة المعصومين من ولده صلوات الله عليهم أجمعين ولا تغترّوا ولا تكونوا ممّن يقول الله جلّ وعلا: «ويوم يعضّ الظّالم على يديه يقول يا ليتني اتّخذت مع الرّسول سبيلاً يا ويلتى ليتني لم أتّخذ فلاناً خليلاً لقد أضلّني عن الذّكر بعد إذ جاءني وكان الشّيطان للإنسان خذولاً» الفرقان: ٢٧-٢٩، وقوله تعالى: «حتّى إذا ادّاركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربّنا هؤلاء أضلّونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النّار قال لكلٍّ ضعف ولكن لا تعلمون» الأعراف: ٣٨، وقوله سبحانه: «وقالوا ربّنا إنّا أطعنا سادتنا و كبراءنا فأضلّونا السّبيلا ربّنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً» الأحزاب: ٦٧-٦٨.

وقد قال مولى الموحّدين الإمام عليّ (عليه السلام) في هؤلاء الطّواغيت في نهج البلاغة: «اتّخذوا الشّيطان لأمرهم ملاكاً، واتّخذهم له أشراكاً، فباض و فرّخ في صدورهم، ودبّ ودرج في حجورهم، فنظر بأعينهم، ونطق بألسنتهم، فركب بهم الزّلل، وزيّن لهم الخطل، فعل من قد شركه الشّيطان في سلطانه، ونطق بالباطل على لسانه» الخطبة: ٧.

وفيه: قال الإمام عليّ أمير المؤمنين (عليه السلام) فيهم: «حتّى إذا قبض الله رسوله (صلّى الله عليه وآله) رجع قوم على الأعقاب، وغالتهم السّبل، واتّكلوا على الولائج، ووصلوا غير الرّحم، وهجروا السّبب الّذي أمروا بمودّته، ونقلوا البناء عن رصّ أساسه، فبنوه في غير موضعه، معادن كلّ خطيئة، وأبواب كلّ ضارب في غمرة، قد ماروا في الحيرة، وذهلوا في السّكرة

على سنّة من آل فرعون من منقطع إلى الدنيا راكن، أو مفارق لدين مباين» الخطبة: ٥٠

و فيه: ـ فيما كتبه الإمام عليّ (عليه السلام) لمالك الأشتر النّخعيّ رضوان الله تعالى عليه ـ لمّا ولاّه على مصر ـ: «... فإنّ هذا الدّين قد كان أسيراً في أيدي الأشرار يُعمل فيه بالهوى و تُطلب به الدّنيا...»

و فيه: قال أمير المؤمنين الإمام عليّ (عليه السلام) فيهم: «... فاعتمدوا على بصائركم و لتصدق نيّاتكم في جهاد عدوّكم. فو الذي لا إله إلاّ هو إنّي لعلى جادّة الحقّ و إنّهم لعلى مزلّة الباطل...» الخطبة: ١٨٨)

فيا معشر العامّة! ألكم بعد هذا البيان البيّن عذر عند الله يعصم حكمه؟! «لِمَ تلبسون الحقّ بالباطل و تكتمون الحقّ و أنتم تعلمون» (آل عمران: ٧١)؟ «و لا تلبسوا الحقّ بالباطل و تكتموا الحقّ و أنتم تعلمون، إنّ الّذين يكتمون ما أنزلنا من البيّنات و الهدى من بعد ما بيّنّاه للنّاس في الكتاب أولئك يلعنهم الله و يلعنهم اللاّعنون إلاّ الّذين تابوا و أصلحوا و بيّنوا فأولئك أتوب عليهم و أنا التّوّاب الرّحيم» (البقرة: ٤٢، ١٥٩ ـ ١٦٠).

و لعمري إنّه ليس لي غرض من هذا إلاّ بيان الحقّ و إحقاقه و إتمام الحجّة عليكم يا معشر العامّة، و لله درّ الشاعر:

إذا أنت لم تلبس ثياباً من التّقى عريت و إن وارى القميص قميص

لا فرق إذا وقعت الجاهليّة و عصبيّتها على وجه فطرة الإنسانيّة، و انحراف الإنسان عن صراطها في هذا الزّمان، و زمان الجاهليّة كانوا عراة من الإيمان و الإنسانيّة لأنّ انقلاب الأمور في هذا الزّمان يساوي حذو النّعل بالنّعل انقلاب الأمور في ذلك الزّمان، و من هنا يعلم ربط معنى كمال الدّين بالولاية، و كيف يمكن عدم الولاية مع الإيمان، و عدم الإيمان هو سلب الفطرة الإنسانيّة؟!

فالفطرة و الإنسانيّة و الدّين الإسلاميّ و الولاية العلويّة هذه الأربعة كلّها شيء واحد لا انفكاك بينها قطّ، فمن لا دين له فهو مسلوب الفطرة و الإنسانيّة و الهويّة و الولاية و هكذا و العكس بالعكس، و من يرى الدّين أفيوناً فهو في نفسه الخبيثة أفيون للفرد، و ضدّ الإنسانيّة، و ذئب الجماعة البشريّة و أضلّ سبيلاً من البهائم

وثبت أنّ هذا الحيوان ذو رحلتين وهذا الأفيون الفرديّ والاجتماعي لا يختلف التشريع فقط، بل هو صدا التكوين والتشريع معاً، ولا فرق بينهما في أيّ ظرف من الظروف، فكلّ تشريع لا ينطبق على التكوين فهو ليس بتشريع، فالتشريع في جميع أبعاده منطبق على التكوين وإن كان أكثر النّاس لا يعلمون ذلك، وقد صرّح بذلك في قوله تعالى «ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون» (الروم: ٣٠) فالشّريعة مستمرّة باستمرار الفطرة الإنسانيّة حذو النّعل بالنعل من آدم إلى آخر ولده

«الفطرة والولاية»

في اصول الكافي باب فيه نكت ونتف من التنزيل في الولاية حديث ٣٥ بإسناده عن أبي جعفر (ع) في قوله تعالى «فأقم وجهك للدّين حنيفاً» قال: هي الولاية»

وفيه: الكتاب والباب حديث ٤٢ بإسناده عن عبدالرحمن بن كثير عن أبي عبدالله (ع) في قول الله عزّوجلّ «إنّ الّذين آمنوا ثمّ كفروا ثمّ آمنوا ثمّ كفروا ثمّ ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم» قال: نزلت في فلان وفلان وفلان آمنوا بالنّبيّ (ص) في أوّل الأمر، وكفروا حيث عرضت عليهم الولاية حين قال النّبيّ (ص): من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه» ثمّ آمنوا بالبيعة لأمير المؤمنين (ع) ثمّ كفروا حيث مضى رسول الله (ص) فلم يقرّوا بالبيعة، ثمّ ازدادوا كفراً بأخذهم من بايعه بالبيعة لهم فهؤلاء لم يبق فيهم من الايمان شيء.

وفيه وبهذا الاسناد عن أبي عبدالله (ع) في قول الله تعالى «إنّ الّذين ارتدّوا على أدبارهم من بعد ما تبيّن لهم الهدى» فلان وفلان وفلان، ارتدّوا عن الايمان في ترك ولاية أمير المؤمنين (ع) قلت قوله تعالى «ذلك بأنّهم قالوا للّذين كرهوا ما نزّل الله سنطيعكم في بعض الأمر»؟

قال: نزلت والله فيهما وفي أتباعهما وهو قول الله عزّوجلّ الّذي نزل به جبرئيل (ع) على محمّد (ص) «ذلك بأنّهم قالوا للّذين كرهوا ما نزّل الله في عليّ (ع) «سنطيعكم

في بعض الأمر» قال: دعوا بني أُميّة إلى ميثاقهم ألا يصيّروا الأمر فينا بعد النّبيّ ﷺ ولا يعطونا من الخمس شيئاً، وقوله: «كرهوا ما نزّل الله» والذي نزّل الله ما افترض على خلقه من ولاية أمير المؤمنين ﷺ وكان معهم أبو عبيدة وكان كاتبهم فأنزل الله «أم أبرموا أمراً فإنّا مبرمون أم يحسبون أنّا لا نسمع سرّهم ونجواهم» الآية.

أقول: إنّ قوله تعالى «إنّ الذين آمنوا ثمّ كفروا» إلى قوله «لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً» في سورة النساء ١٣٦ وقوله سبحانه «لن تقبل توبتهم» قبله «إنّ الذين كفروا بعد إيمانهم ثمّ ازدادوا كفراً» وبعده «وأولئك هم الضّالّون» في سورة آل عمران ٩٠.

وهذا تنبيه على أنّ مورد الآيتين شيء واحد، وأنّ كلّ واحد منهما مفسّر للآخر لأنّ قوله تعالى «لن تقبل توبتهم» وقع موقع «لم يكن الله ليغفر لهم» لإفادته مفاده فضمّ الإمام ﷺ جزءاً من إحدى الآيتين إلى جزء من الأخرى ليتّحد مفادهما.

وقوله ﷺ: «أخذهم من بايعه بالبيعة» يحتمل أن يكون المراد بالموصول «من» أمير المؤمنين ﷺ والضمير المستتر في «بايعه» راجع إلى أبي بكر والضمير البارز إلى الموصول «من»، ويحتمل أن يكون المستتر راجعاً إلى الموصول والبارز إلى الإمام عليّ ﷺ أي أخذوا الذين بايعوا أمير المؤمنين ﷺ يوم الغدير بالبيعة لأبي بكر يوم السقيفة المشؤومة.

وقوله ﷺ: «فلان وفلان وفلان» في هذه الكنايات وجهان: أحدهما ـ أن يكون المراد بها بعض بني أُميّة كعثمان بن عفّان وأبي سفيان ومعاوية عليهم الهاوية والنيران، فالمراد بالذين كرهوا ما نزّل الله أبو بكر وعمر وأبو عبيدة من أصحاب السقيفة المشؤومة، فإنّ ظاهر السياق يدلّ على هذا، فالضمير راجع إلى «الذين ارتدّوا» ثانيهما ـ أن يكون المراد بها أبا بكر وعمر وأبا عبيدة والضمير «قالوا» راجعاً إلى بني أُميّة بعد ما كتب عند الرسول، والمراد بالذين كرهوا هم الذين ارتدّوا فيكون من قبيل المظهر في موضع المضمر، نزلت والله فيهما أي في أبي بكر وعمر وهو تفسير للذين كرهوا.

وقوله ﷺ: «وهو قول الله» تفسير ما نزّل الله، والضمير «دعوا» راجع إليهما ومردتهما، و«قالوا» أي هما ومردتهما.

و قوله تعالى «في بعض الأمر» تعلّهم لم يجترئوا أن يبايعوهم في منع الولاية، ولكنّهم بايعوهم في منع الإرث والخمس وغصب فدك، ثمّ أطاعوهم في الامور كلّها

و في تفسير فرات الكوفي: بإسناده عن ابان بن تغلب قال قلت لأبي جعفر «ع» في قول الله تبارك و تعالى «الّذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون» قال «ع» يا ابان أنتم تقولون هو الشّرك بالله، و نحن نقول هذه الآية نزلت في أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب «ع» و أهل بيته، لأنّهم لم يشركوا بالله طرفة عين قطّ و لم يعبدوا اللّات و العزّى، و هو أوّل من صلّى مع النّبيّ «ص» و هو أوّل من صدّقه فهذه الآية نزلت فيه»

و في روضة الكافي حديث ٤٧١، بإسناده عن زرارة قال حدّثني أبو الخطّاب في أحسن ما يكون حالاً قال سألت أبا عبدالله «ع» عن قول الله عزّوجلّ «وإذا ذكر الله وحده اشمأزّت قلوب الّذين لا يؤمنون بالآخرة» فقال وإذا ذكر الله وحده بطاعة من أمر الله بطاعته من آل محمّد اشمأزّت قلوب الّذين لا يؤمنون بالآخرة و «إذا ذكر الّذين» لم يأمر الله بطاعتهم «إذا هم يستبشرون»

و في تفسير القمي في قوله تعالى «واذكروا نعمة الله عليكم و ميثاقه الّذي واثقكم به» قال لمّا أخذ رسول الله «ص» الميثاق عليهم بالولاية قالوا سمعنا وأطعنا ثمّ نقضوا ميثاقه»

و في المجمع قال الطّبرسيّ المرحوم رضوان الله تعالى عليه قيل في الميثاق أقوال

أحدها ـ أنّ معناه ما أخذ عليهم رسول الله «ص» عند إسلامهم و بيعتهم بأن يطيعوا الله في كلّ ما يفرضه عليهم

و ثانيها ـ أنّه ما بيّن لهم في حجّة الوداع من تحريم المحرّمات و كيفيّة الطّهارة و فرض الولاية، و غير ذلك عن أبي الجارود عن أبي جعفر «ع»

و ثالثها ـ أنّه بيعة العقبة و بيعة الرّضوان

و رابعها ـ أنّه ميثاق الأرواح

و في اصول الكافي ـ كتاب الحجّة ـ باب فيه نكت و نتف من التّنزيل في الولاية ـ

حديث ٣) بإسناده عن عبدالرّحمن بن كثير عن أبي عبدالله (ع) في قول الله عزّوجلّ «والّذين آمنوا و لم يلبسوا إيمانهم بظلم» قال: بما جاء به محمّد (ص) من الولاية و لم يخلطوها بولاية فلان و فلان، فهو الملبس بالظلم».

و في كنز الفوائد بإسناده عن عيسى بن داود عن أبي الحسن موسى بن جعفر عن أبيه عليهما السّلام في قول الله عزّوجلّ «فالّذين آمنوا و عملوا الصّالحات لهم مغفرة و رزق كريم» قال: أولئك آل محمّد عليهم السّلام «والّذين سعوا» في قطع مودّة آل محمّد (ص) «معاجزين أولئك أصحاب الجحيم» قال: هي الأربعة نفر: يعني التيميّ و العديّ و الأمويّين»

أقول: إنّ المراد بالتيميّ هو أبوبكر بن أبي قحافة، و بالعديّ هو عمر بن الخطّاب، وبالأمويّين، عثمان بن عفّان و معاوية بن أبي سفيان عليهم اللعنة و النّار

و في المناقب لابن شهر آشوب السّروي المازندراني رضوان الله تعالى عليه «الرّضا عن أبيه عن جدّه عليهم السّلام في قوله تعالى «فطرة الله الّتي فطر النّاس عليها» قال: هو التوحيد و محمّد رسول الله (ص) و عليّ أمير المؤمنين (ع) إلى ههنا التوحيد»

و في تفسير الثّعلبي عن أبي عبد الله الجدليّ قال أمير المؤمنين (ع) في قوله «من جاء بالحسنة فله خير منها و من جاء بالسّيّئة فلا يجزى إلّا مثلها» ألا أنبّئك بالحسنة الّتي من جاء بها دخل الجنّة، و السّيّئة الّتي من جاء بها أكبّه الله في النّار و لم يقبل معها عملاً؟ قلت: بلى، قال: الحسنة حبّنا، و السّيّئة بغضنا.

و في كتاب التّوحيد بإسناده عن عبدالرّحمن بن كثير عن أبي عبد الله (ع) في قوله الله عزّوجلّ «فطرة الله الّتي فطر النّاس عليها» قال: التّوحيد، محمّد رسول الله (ص) و عليّ أمير المؤمنين (ع)».

و لعمري إنّه لايمكن الوصول إلى المعرفة بالله عزّوجلّ و برسوله (ص) بتركيب المقدّمات و الحدود و الاصطلاحات العلميّة الجافّة، و لا بحافظة الضّوابط القياسيّة، و مراعاة القوانين التّصوّريّة و التّصديقيّة و ما إليها إلّا بالولاية لمولى الموحّدين يعسوب الدّين، سيّد الوصيّين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (ع) فإنّ ولايته هي الفطرة الإنسانيّة و هويّة الإنسان و أساس الإسلام

«الولاية و أساس الإسلام»

قال الله عزّوجلّ: «اليوم أكملت لكم دينكم و أتممت عليكم نعمتي و رضيت لكم الإسلام ديناً» «يا أيّها الرّسول بلّغ ما أُنزل إليك من ربّك و إن لم تفعل فما بلّغت رسالته»

المائدة: ٣، ٦٧

و من البديهة لمن له دراية و طلب الولاية، و الفطرة السّليمة عن حجب الطّبيعة أنّ الولاية لمولى الموحّدين أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب «ع» هي أساس الدّين الإسلامي الّذي بُني على فطرة الإنسان و إنسانيّته و هويّته أتى بها جميع الأنبياء و المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين، و أنّ الولاية هي منسجمة كلّ الانسجام مع هذه الفطرة الّتي في ذاتها كمال الإنسان و سعادته و خيره و صلاحه و فلاحه، و في ذاتها لتجنّب عمّا فيه انحطاط الإنسان و سقوطه و شرّه و فساده و خسرانه، و أنّ العقل السّليم غير مغلوب الهوى يهدي الإنسان إلى ما في ذات الفطرة، و الولاية مبيّنتها و حافظها من طغيان عوامل غريبة عنها عليها

و قال بعض المحقّقين: إنّ الفطرة هي الخلقة الإنسانيّة الجامعة بين الحياتين الجسمانيّة و الرّوحانيّة و الاستعداد الّذي أودع الله عزّوجلّ في الإنسان لمعرفة عالم الشّهادة و عالم الغيب، و لمعرفة الدّين المطلق الّذي هو الشّعور الوجداني بسلطان غيبيّ فوق قوى الكون و النّفس و الأسباب الّتي قام بها نظام كلّ شيء في العالم، و هو فاطر السّموات و الأرض و ما فيها و ما بينهما، و المصدر الّذي ينبع و تصدر لمحرّكين شعور

[illegible]

لكريم كيف بنى الإسلام على أساس الفطرة الإنسانية، والعقل السليم، و يوجّه الإنسان قدماً بعد قدم، مرحلة بعد مرحلة مرّة بعد أخرى إلى التعقل تارة، و إلى التفكّر أخرى، و إلى النّظر ثالثة، و إلى التدبّر رابعة في جميع شئونه من الاصول و الفروع كلّها

و لا يقبل الله سبحانه دينا في القرآن الكريم إلاّ أن يكون أساسه الفطرة وبنائه العقل و النّظر والتفكّر و التدبّر واخترته في كلّ ذلك التصديق كما أنّ قواعده العلم و الحكمة و الحجّة و البرهان، و العقل و الوجدان، و منع الإنسان عن قبول شيئ لا يكون موقناً بالعلم كما قال الله عزّوجلّ: «ولا تقفُ ما ليس لك به علم» الإسراء: ٣٦)

و قد انحصر قبول الأصول و الفروع في الدّين بالعلم، و بيّن الله سبحانه المفاضلة بين العلم و الجهل بقوله تعالى «هل يستوي الّذين يعلمون و الّذين لا يعلمون إنّما يتذكّر أولو الألباب» الزّمر: ٩)

و لا ريب أنّ تحصيل دين الإسلام بالفطرة و العقل و العلم إذ قال «يرفع الله الّذين آمنوا منكم و الّذين أوتوا العلم درجات» المجادلة: ١١)

و لا يكون قواعد غير دين الإسلام على الفطرة و العقل و لا العلم كما قال الله تعالى «ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين» الأحقاف: ٤)

و قال «و ما يتبع أكثرهم إلاّ ظنّاً إنّ الظّنّ لا يغني من الحقّ شيئاً» يونس: ٣٦)

و قال «وما لهم به من علم إن يتّبعون إلاّ الظّنّ و إنّ الظّنّ لا يغني من الحقّ شيئاً» النّجم: ٢٨)

و قال «و أن تقولوا على الله ما لا تعلمون» الأعراف: ٣٣)

فالدّين الإسلاميّ يكذّب كلّ شيئ لم تكن قواعده علماً من الأصول و الفروع و ما يتعلّق بالدّنيا و الآخرة، و كذلك تكون مباني دين الإسلام الحكمة إذ قال تعالى «ادع إلى سبيل ربّك بالحكمة و الموعظة الحسنة» النّحل: ١٢٥) و قال «ذلك ممّا أوحى إليك ربّك من الحكمة» الإسراء: ٣٩) و قال «هو الّذي بعث في الأمّيّين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته و يزكّيهم و يعلّمهم الكتاب و الحكمة و إن كانوا من قبل لفي ضلال مبين» الجمعة: ٢)، و قال «يؤتي الحكمة من يشاء و من يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً و ما يذّكّر إلاّ أولو

الألباب» بقرة ٢٦٩) وقال «وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلّمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً» النّساء ١١٣)

فإنّ عمد دين الإسلام في العصر الحاضر كان بيانه على الحكمة وإن كان جميع الأنبياء والمرسلين على ذلك، ولكن ضيّعها أقوامهم من بعدهم باتّباع حجب الأوهام والخرافات والأباطيل على وجه فطرتهم وتبعهم لأهوائهم فحجبت فطرتهم وسلبت عنهم عقولهم وغربت عنهم العلم والحكمة والفكر والنّظر والتدبّر والتجربة في أمر الدّين عن هؤلاء الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين

فألبس هؤلاء الأقوام دينهم الزّيغ والجهل والكذب واتّباع الظنّ والتقليد. ولو لا الإسلام ما عرف الإنسان أنّ الأنبياء والرّسل عليهم السلام جاؤوا معروفين بالعلم والعقل والحكم والفكر والنّظر لأنّ أديانهم بعد تبدّل أقوامهم لا تعرّفهم بذلك، بل تعرّفهم بأضدادها. وكذلك تكون أساسه الحجّة والبرهان لقوله تعالى «يا أيّها النّاس قد جاءكم برهان من ربّكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً» نساء ١٧٤) ولم كان لسائر الأديان المحرّفة المنسوبة برهان على ما هؤلاء المدّعون عليه لقوله سبحانه «ونزعنا من كلّ أمّة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أنّ الحقّ لله وضلّ عنهم ما كانوا يفترون» القصص ٧٥)

ودرجة كلّ أمّة على حجّتهم القاطعة في دينهم كما قال جلّ وعلا «وتلك حجّتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إنّ ربّك حكيم عليم» الأنعام ٨٣)

ولا شأن لمن ليس له في دينه حجّة ولا برهان لقوله عزّ وجلّ «الّذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتاً عند الله وعند الّذين آمنوا كذلك يطبع الله على كلّ قلب متكبّر جبّار - إنّ الّذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلاّ كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنّه هو السّميع البصير» غافر ٣٥ و ٥٦)

وهم كانوا يقلّدون آباءهم وكبرائهم ورؤسائهم وقادتهم المنهمكين في حبّ الدّنيا وزخارفها ورئاستها وشهواتها من غير تمييز بين الحقّ والباطل، بين الخير والشرّ، بين الصلاح والفساد، بين الكمال والانحطاط، بين الحسن والقبيح، وبين السّعادة والشّقاء

[illegible]

[illegible]

في نهج البلاغة [illegible]

[illegible]

«الفطرة و أقسام الهداية»

قال الله جلّ و علا حكاية عن موسى (عليه السلام): «قال ربّنا الّذي أعطى كلّ شيءٍ خلقه ثمّ هدى» طه: ٥٠)

و قال: «إنّا هديناه السّبيل إمّا شاكراً و إمّا كفوراً»

و قال: «و نفسٍ و ما سوّاها فألهمها فجورها و تقواها» الشّمس: ٧ ـ ٨)

و قال: «ألم نجعل له عينين و لساناً و شفتين و هديناه النّجدين» البلد: ٨ ـ ١٠)

و قال: «قل إنّني هداني ربّي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملّة إبراهيم حنيفاً و ما كان من المشركين» الأنعام: ١٦١)

و قال: «فأقم وجهك للدّين حنيفاً فطرت الله الّتي فطر النّاس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدّين القيّم ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون» الرّوم: ٣٠)

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين عليّ بن أبي طالب (عليه السلام): «فهل هداك لاجترار الغذاء من ثدي أمّك؟ و عرّفك عند الحاجة مواضع طلبك و إرادتك؟» الخطبة: ١٦٢)

و فيه: قال أمير المؤمنين الإمام عليّ (عليه السلام): «و أشهد أن لا إله إلاّ الله شهادة إيمان و إيقان و إخلاص و إذعان و أشهد أنّ محمّداً عبده و رسوله أرسله و أعلام الهدى دارسة، و مناهج الدّين طامسة، فصدع بالحقّ، و نصح للخلق، و هدى إلى الرّشد و أمر بالقصد (صلّى الله عليه و آله)» الخطبة: ١٨٦)

و فيه قال سيّد الوصيّين الإمام عليّ (عليه السلام): «و اعلموا أنّ عباد الله المستحفظين علمه، يصونون مصونه، و يفجّرون عيونه، يتواصلون بالولاية، و يتلاقون بالمحبّة، و يتساقون بكأس رويّة، و يصدرون بريّة، لا تشوبهم الرّيبة، و لا تسرع فيهم الغيبة، على ذلك عقد خلقهم و أخلاقهم، فعليه يتحابّون، و به يتواصلون، فطوبى لذي قلب سليم أطاع من يهديه، و تجنّب من يرديه، و أصاب سبيل السّلامة ببصر من بصّره، و طاعة هادٍ أمره، و بادر الهدى قبل أن تغلق أبوابه، و تقطع أسبابه، و استفتح التّوبة، و أماط الحوبة، فقد أقيم على الطّريق، و هدي نهج السّبيل» خطبة ٢١٥)

و اعلم أنّ المستفاد من الآيات الكريمة القرآنيّة، و الرّوايات الواردة عن أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين أنّ الله عزّ و جلّ قد هدى خلقه بستّة أنواع من الهداية

الأولى: هداية تكوينيّة عامّة يشترك فيها كلّ ما سوى الله جلّ و علا من الملائكة و الجنّ و الإنس و الحيوان و النّبات و الجماد على اختلافها و هذه الهداية تتكامل إمّا دفعة مقرونة بخلقها كالملائكة و الأرواح و العقول و النطف، و إمّا تتكامل تدريجاً كلّاً بحسبه

قال الله عزّ و جلّ حكاية عن موسى (عليه السلام): «قال ربّنا الّذي أعطى كلّ شيء خلقه ثمّ هدى» طه: ٥٠)

و قال «إن كلّ من في السّموات و الأرض إلّا آتي الرّحمن عبداً» مريم ٩٣.

و قال «تسبّح له السّموات السّبع و الأرض و من فيهنّ و إن من شيء إلّا يسبّح بحمده و لكن لا تفقهون تسبيحهم» الإسراء: ٤٤)

و قال «و هو الّذي خلق اللّيل و النّهار و الشّمس و القمر كلّ في فلك يسبحون» الأنبياء:٣٣)

الثّانية: هداية الغريزة الّتي أودعها الله تعالى في الجنّ و الإنس و الحيوان، و بها التّوالد و التّناسل، و تداوم الأنواع كلّاً بحسبه

الثّالثة: هداية الحواسّ من السّمع و البصر و الشّمّ و الذّوق و اللّمس، و بها تداوم الحياة يشترك فيها الإنسان و الجنّ و الحيوان كلّاً بحسبه

الرابعة [illegible]

الخامسة [illegible] وهي [illegible]

السادسة [illegible] وهي [illegible]

[illegible]

و [illegible]

في نهج البلاغة [illegible]

[illegible]

وفيه [illegible]

[illegible]

وفيه [illegible]

[illegible]

وفيه [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

الف [illegible] إلى تتكوّن و تتكامل تدريجاً سواء كانت [illegible]

[illegible]

لا يستأخر من لدن حركة النوع في وجوده إلى أن تنتهي إلى كماله، فبسبب ربطه بالتكوينية يرتبط بها بعض المراتب ببعض بحيث لا يتخطى ولا يسقط إلى غير مكانه، ومن هنا يستنتج أنّ للنوع غاية تكوينية يتوجّه إليها من أوّل وجوده حتّى يبلغها

فالجوزة الواحدة مثلاً إذا استقرّت في الأرض استقراراً يهيّؤها للنموّ على اجتماع ممّا يتوقّف عليه النموّ من العلل والشرائط كالرطوبة والحرارة وغيرهما أخذت لتها في النموّ وشقّ القشر وشرع في الازدياد من أقطار جسمه، ولم يزل يزيد وينمو حتّى يصل إلى حدّ يعود فيه شجرة قويّة خضراء مثمرة، ولا يختلف حاله في مسيره هذا التكوينيّ وهو في أوّل وجوده قاصد قصداً تكوينيّاً إلى غايته التكوينيّة الّتي هي مرتبة الشجرة الكاملة المثمرة

وكذا الواحد من نوع الحيوان كالواحد من الضأن مثلاً في أنّه في أوّل تكوّنه جنيناً متوجّهة إلى غايته النوعيّة الّتي هي مرتبة الضائنة الكاملة الّتي لها خواصّها، فلا يضلّ عن سبيلها التكوينيّة المختصّة بها إلى سبيل غيرها، ولا ينسى غايتها يوماً، فتنتهي إلى غير غايتها كغاية الفيلة مثلاً أو غاية شجرة الجوز مثلاً، فكلّ نوع من الأنواع التكوينيّة له مسير خاصّ في استكمال الوجود ذو مراتب خاصّة مترتّبة بعضها على بعض تنتهي إلى مرتبة هي غاية النوع دائماً يطلبها طلباً تكوينيّاً بحركته التكوينيّة، والنوع في وجوده مجهّز بما هو وسيلة حركته وبلوغه إلى غايته

وهذا التوجّه التكوينيّ لاستناده إلى الله سبحانه هداية عامّة إلهيّة، وهي كما عرفت لا تضلّ ولا تخطئ في تسيير كلّ نوع مسيره التكوينيّ وسوقه إلى غايته الوجوديّة بالاستكمال التدريجيّ وبإعمال قواه وأدواته الّتي جهّز بها لتسهيل مسيره إلى غايته

قال تعالى «ربّنا الّذي أعطى كلّ شيء خلقه ثمّ هدى» طه ٥٠) وقال «الّذي خلق فسوّى والّذي قدّر فهدى والّذي أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى» الأعلى ٢ ـ ٥)

ب: نوع الإنسان غير مستثنى من كلّيّة الحكم المذكور أعني شمول الهداية العامّة له، فنحن نعلم أنّ النطفة الإنسانيّة من حين تشرع في التكوّن متوجّهة إلى مرتبة إنسان تامّ كامل له آثاره وخواصّه، قد قطع في مسيره مراحل الجنينيّة والطفوليّة والمراهقة و

الشباب و الكهولة و الشيب.

غير أنّ الإنسان يفارق سائر الأنواع الحيوانيّة و النباتيّة و غيرها فيما نعلم في أمر و هو أنّه لسعة حاجته الكمالية و كثرة نواقصه الوجودية لا يقدر على تتميم نواقصه الوجودية و رفع حوائجه الحيوية وحده بمعنى أنّ الواحد من الإنسان لا يتمّ له حياته الإنسانية و هو وحده بل يحتاج إلى اجتماع منزليّ ثمّ اجتماع مدنيّ يجتمع فيه مع غيره، بالازدواج و التعاون و التعاضد، فيسعى الكلّ جميعاً للكلّ ثمّ يقسم الحاصل من عملهم بين الكلّ، فيذهب كلّ بنصيبه على قدر زنته الاجتماعية.

و ذلك أنّ المدنيّة ليست طبيعيّة للإنسان بمعنى أن تبعث إليه من ناحية طبيعته الإنسانية ابتداءً، بل له طبيعة مستخدمة لغيره لنفع نفسه ما وجد إليه سبيلاً، فهو يستخدم الأمور الطبيعية، ثمّ أقسام النبات و الحيوان في سبيل مقاصده الحيويّة، فهو باستخدام فرد مثله أو أفراد أمثاله أجرى، لكنّه يجد سائر الأفراد أمثاله في الأميال و المقاصد، و في الجهازات و القوى، فيضطرّ إلى المسالمة و أن يسلّم لهم حقوقاً مثل ما يراه لنفسه.

و ينتهي هذا التضارب بين المنافع أن يشترك البعض مع البعض في العمل التعاوني، ثمّ يقتسم الحاصل من الأعمال بين الجميع و يعطي منه لكلّ ما يستحقّه. و كيف كان فالمجتمع الإنسانيّ لا يتمّ انعقاده و لا يعمر إلّا بأصول علمية و قوانين اجتماعية يحترمها الكلّ، و حافظ يحفظها من الضيعة و يجريها في المجتمع و عند ذلك تطيب لهم العيشة، و تشرف عليهم السعادة.

أمّا الأصول العلمية فهي معرفته بما لا غنى عنه من الوجود من الحقيقة، و ما عليه الإنسان من حيث مبدئه و منتهاه، فإنّ المذاهب المختلفة مؤثّرة في خصوص السنن المعمول بها في المجتمعات، فالمعتقدون في الإنسان أنّه مادّيّ محض ليس له من الحياة إلّا الحياة المعجّلة المؤجّلة بالموت، و أن ليس في دار الوجود إلّا السبب المادّيّ الكائن الفاسد يخطّون سنن اجتماعهم بحيث تؤدّيهم إلى اللذائذ المحسوسة، و الكمالات المادّيّة ما وراءها شيء.

«الدّعوة الإسلاميّة وبناء أحكام الإسلام على الفطرة الإنسانيّة»

ومن ثمّ فهو يمكن لذي مسكة ودراية وطيب ولادة أنه كيف أنّ حقيقة الدّين الإسلامي تبتني على الفطرة الإنسانيّة من دون مكابرة منها قطّ، كذلك دعوته وأحكامه كلّها تبتني عليها. وقد أشار تعالى إلى ذلك كلّه بقوله جلّ وعلا «فأقم وجهك للدّين حنيفاً فطرت الله التي فطر النّاس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدّين القيّم ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون منيبين إليه واتّقوه وأقيموا الصّلاة ولا تكونوا من المشركين» (الروم ٣٠-٣١)

وقوله عزّ وجلّ «قل إنّني هداني ربّي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين قل إنّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله ربّ العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أوّل المسلمين» (الأنعام ١٦١-١٦٣)

وقوله سبحانه «قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتّبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين» (يوسف ١٠٨)

وبذلك كمال الإنسان، وهذا هو المائز بين الإنسان وغيره من الحيوان والنّبات والجماد

وذلك أنّ كلّ نوع من أنواع الموجودات إنساناً كان أو حيواناً، نباتاً كان أو جماداً له

غاية كمالية، و هو متوجّه إليها، و يسعى نحوها، طالب لها بحركة وجوديّة تناسب وجوده، و لا يقف و لا يسكن عنها حتّى ينال بها إلّا أن يمنعه عن ذلك مانع، يمنعه عن الوصول إليها، و يزاحمه، فيبطل قبل الوصول إلى غاية وجوده و أمنيّة تكوّنه، كما أنّ الشجرة تقف عن الرّشد و النموّ قبل أن تبلغ غايتها بسبب آفات تعرض عليها، و تمنعها عن الوصول إلى غايتها

هذا في ناحية الوجود، و منه الإنسان و هو شارك غيره من الموجودات كلّها في هذه الجهة من غير حقّ له على غيره، و لكن للإنسان جهة أخرى يمتاز بها عمّا سواه من الحيوان و النبات و الجماد، و هي غاية كماليّة معنويّة روحانيّة لا يمكن الوصول إليها إلّا تحت القوانين و الأحكام المكتسبة الخاصّة به مجموعة من أفراد المجتمع، و هي ترشد الإنسان و تدعوه إلى هذه الغاية الروحانيّة، فلو أقيمت على ما ينبغي أن تقام، أصلحت المجتمع، و نفعت الأفراد كلّهم و كانت المطلوب، و لو تركت لفسدت العالم الإنساني روحاً و معنويّاً، و يصل فساده إلى عالمه المادّي.

و لا ريب أنّ الفطرة الإنسانيّة تقتضي سلامة الإنسان في الحياة الدنيا، و بقائه في الدّار الآخرة فتحكم عليه بأن لا تفكّ هذه السلامة و ذلك لبقاء الأمّة و هو الدّين، و لا يمكن إلّا من طريق رسالة إلهيّة، وحي سماويّ عندها نور و ما تعلّم به الإنسان

فمن تفكّر في الدعوة الإسلاميّة و تعاليم الإسلام، و في أحكامه كلّها من أوامره و نواهيه يجدها منسجمة كلّ الانسجام مع فطرة الإنسان لو لم تسترها حجب الخرافات و الأوهام

فانظر كيف كانت دعوته باللطف و اللين تارة «ادْعُ إلى سبيل ربّك بالحكمة و الموعظة الحسنة» النحل: ١٢٥) «فبما رحمة من الله لنت لهم» آل عمران: ١٥٩) و بالعنف و الإنذار و الشدّة تارة أخرى حسب ما يقتضيه الحال «يا أيّها النّبيّ جاهد الكفّار و المنافقين و اغلظ عليهم» التوبة: ٧٣) «و أنذر عشيرتك الأقربين و اخفض جناحك لمن اتّبعك من المؤمنين» الشعراء: ٢١٤ـ٢١٥) حيث كان بعض النّاس معاندين، فيستعمل أنواع التهديد و التخويف و الإنذار مرّة، و يحاربه أخرى ليثني عزمه و يرجعه عن دعوته

[illegible]

[illegible] كلّ من له طيب و لادة اوّلاً، و له ملكة و دراية بالمزايا [illegible]

[illegible] عجز افصح [illegible] لقد جمع اسباب سعادة الدّنيا و الاخرة، و لو بحثنا في اصوله [illegible] الّتي اثبتها، والفروع والأحكا[illegible] الفردية و الاجتماعية، الدّنيوية و الأخروية [illegible] والحياة الإنسانيّة على وجه الأرض، فإنّه الكتاب [illegible] في بقاء حياته و تهذيب اخلاقه، و بلوغه الكمال [illegible]

[illegible]

الاعتقادية أولاً ثم بالفروع والأحكام ثانياً من الأعمال الشخصية البدنية الفردية من الصلاة والصوم والحج والجهاد أولاً، ثم بالأعمال المالية من الخمس والزكاة لإعلاء كلمة الحق وإحقاقه، وإبطال الشرك والكفر والباطل، والاجتناب عن أضدادها ثانياً، ثم يأمر بالأخلاق الحسنة والخصال الحميدة، وبكل ما يكفل للبشر خيره وصلاحه وسعادته في الدنيا والآخرة ثالثاً

فإنه يأمر بالعدل والإحسان، يأمر بالصدق والأمانة، يأمر بالوفاء بالعهد والقناعة، يأمر بالمروءة والرأفة، ويأمر بصيانة العرض والشرف والكرامة الإنسانية

وينهى في مقابلها عن الظلم والإساءة، ينهى عن الكذب والخيانة، ينهى عن النقض بالعهد والإسراف، ينهى عن الإجحاف والسفه، وينهى عن هتك العرض والشرف والكرامة الإنسانية

ويأمر بالتواضع وحسن المعاشرة والتعاون وحسن الخلق والتشكر، والأمر بالمعروف، وإصلاح ذات البين، والإحسان بالوالدين، والترغيب في طلب العلم والسعي وراء المعيشة

وينهى في مقابلها عن التكبر وسوء المعاشرة والتشاجر وسيئ الخلق والكفران والمناهي والإفساد بين الناس والإساءة بالوالدين والتساهل في طلب العلم والكسل و يأمر بعيادة المريض، وقبول النصيحة والتواصي بالحق والصبر، والاعتراف بالجهل واحترام أهل العلم واتباع الحق، والتأني في الأمور وملاحظة الأنام، ورعاية المحتاجين، وحب الخير والشجاعة والعفو والإحسان، والاعتناء بالطهارة والنظافة، والحلم والصبر، وعدم الغش وعدم الغدر والسخاء، ومعرفة الحقوق والثبات والاستقامة عند مشكلات الأمور، والتعلم والتعليم والعفة والإخلاص وعلو الهمة والاعتراف بالتقصير والتوبة والإذعان للحق والإنصاف وينهى في مقابلها

ويأمر بالدلالة على الخير وفصل الخصومة ومجانبة الهزل، والسعي لتهذيب النفس وصلة الرحم وحفظ الجنة وأداء الدين، والتزام الجمعة، وتوقير الكبير والرأفة بالصغير وما إليها من الفضائل الأخلاقية والكمالات النفسانية

و نهى عن الأفعال القبيحة و الأخلاق الرّديئة الّتي ثبت بالتّجارب العديدة أنّها مضرّة بالإنسان، و مفسدة لمعاشه و الاجتماع، و معاده و مفاد الاجتماع من الزّنا و اللّواط و شرب الخمر و أكل الرّبا و البغي و الحسد و البغض و الحقد و الحرص و الغيبة و النّميمة و الرّشوة و سوء الظّنّ و سوء النّيّة و قتل النّفس و عقوق الوالدين و الرّياء و البخل و إعانة الظّلم و المكر و الحيلة و الغرور و الغصب و كتمان الشّهادة الحقّ و شهادة الزّور و القمار و التّجسّس و التّفاخر، و تطفيف الكيل و الميزان، و احتكار الطّعام و عدم إعانة المحتاجين و قطع المودّة و التّعادي

و في القرآن الكريم ما هو متعلّق بسياسة الإسلام و عمران البلاد و رقيّها، و فيه ما يحفظ أمن الرّعايا و استقرارهم، و فيه ما يتعلّق بتقسيم المواريث و إيتاء كلّ ذي حقّ حقّه و فيه تعاليم و أحكام و معارف و حِكَم لا توجد في كتب سماويّة

فكلّ ذي عقل متين، و قلب سليم و وجدان صحيح إذا تدبّر في القرآن الكريم يجد الدّين الإسلاميّ واسعاً في جميع جهاته بقدر سعة العقل، و امتداد الفكر إلى يوم البعث و الحساب، و يجده متكفّلاً بجميع حقوق البشر بعد بيانها على مقتضى الفطرة البشريّة، و كم حقائق لم تكشف عنه بعد لعدم وصول العقل و الفكر إلى حدّ يقدر أن يكشفها إلّا بعد سير الزّمان و ارتقاء الفكر و بلوغ الكمال و اتّساع العلوم و الفنون

و في القرآن الكريم من أحكام حفظ الصّحّة و رعاية أسبابه، و فيه بيان أحوال الأمم الماضية و أخبارهم بأبدع أسلوب و أعلاه بلاغة و إعجازاً، و أنّه يؤثّر على نفوس البشر تأثيراً لا يوجد في كتاب من كتب سماويّة، و لا في كتاب من كتب الحكماء و الفلاسفة و المتكلّمين و العرفاء و علماء الأخلاق، و لا في كتاب من كتب تأريخيّة و سياسيّة و اجتماعيّة و ما إليها بأيّ لغة كانت

و أنّه يصوّر حقائق الكون و نواميس الوجود بكلام موجز كأنّ تلك الحقائق مشاهدة ملموسة و إنّ كثيراً من المعارف الرّفيعة و الفنون العالية و التّعاليم العميقة و الحِكَم الدّقيقة في القرآن المجيد لم تدركها العقول بعد، ستدركها مع ما حوتها من الأسرار على

مرور العصور و الأزمان

إنّ الله عزّ وجلّ يهدي بهذه الآية الكريمة «فأقم وجهك للدّين حنيفاً فطرت الله الّتي فطر النّاس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدّين القيّم» (الروم: ٣٠) ربط بين الفطرة الإنسانيّة و طبيعة هذا الدّين كلتاهما من صنع الله تعالى، موافقتان لناموس الوجود، و كلاهما متناسق مع الآخر في طبيعته و اتّجاهه. و جعل الله سبحانه هذه الفطرة من الدّين. «الدّين ـ ذلك الدّين» و هذا وحده يشير إلى أنّ الفطرة في عمق الدّين، و أنّها هو الدّين نفسه، و أنّ الدّين هو الفطرة نفسها كالإنسان المركّب من الرّوح و الجسم، فليس الجسم بنفسه بغير روح، و لا الرّوح بغير جسم. فكما أنّ استمرار حياة جسم الإنسان باستمرار تركيبهما معاً كذلك حياة إنسانيّة الإنسان باستمرار معيّة الفطرة و الدّين معاً. فالفطرة بغير دين كالجسم الميّت بغير روح، و الدّين بغير فطرة كالرّوح بغير جسم

و لذلك قال الله عزّ وجلّ في الّذين لا دين لهم «إن هم إلّا كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً» (الفرقان: ٤٤)

و ذلك أنّ الأنعام بطبيعتها لا تقتحم ما يضرّها، و لا تأكل ما يهلكها، و لا تشرب ما يفسدها. فالأنعام لا تتخلّف عن طبيعتها و أمّا الكافرون و الّذين لا يكون لهم دين الله الحقّ فلا يتورّعون عن اقتحام ما يضرّهم و يهدم سعادتهم، و يأكلون ما يهلك أنفسهم، و يشربون ما يفسد أجسامهم و عقولهم ... و الكافرون و من إليهم، يتخلّفون عن فطرتهم فالّذين لا يتديّنون بدين الحقّ، و لا يتعهّدون بأحكامه أولئك كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً، فضلاً عن الّذين يرون الدّين الإسلاميّ أفيوناً للجوامع البشريّة، فذرهم في حماقتهم و جهالتهم و بلادتهم... يعمهون

إنّ الله عزّ وجلّ خلق فطرة الإنسان و خلق قلبه و جعله مستعدّاً لقبول مقتضيات الفطرة، و هو الّذي أنزل إليه هذا الدّين ليحكمه و يصرفه و يطبّب له من المرض، و يقوّمه من الانحراف، و هو تعالى أعلم بمن خلق و ما خلق، و هو اللّطيف الخبير، و الفطرة ثابتة، و

الذي ثبت إلا بعد من خلق به.

وقد عرفت النفوس عن فطرة لم يرقها بعد الأهم الدين الإسلامي المتسق مع الفطرة فطرة الإيمان وفطرة الوجود ولكن بدا لدى النفس الأوهام والعادات والتقاليد المحسنة ولم تسلبها الأهواء والأغراض والخرافات فلا تقتضي بالأمر هو الحق حسب هو حق بعد من سنن نفسه بين يديه وتعطي دائراً وبين يكذب وتعطى دنيا للحق تصدق على يكذب بالأمر.

﴿ النّفس والفطرة ﴾

قال الله تعالى: ﴿ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها﴾ الشمس . . .

واعلم أنّ المراد بهذه النّفس هي النّفس المستعدة لا النّفس المتعمدة، وهي نفس كريمة رفيعة الإحساسات دقيقة الشعور، حتى لو خلقت شريرة لانقادت بالعفو عن خطيئاتها و تقف عند حدّ توبة لا تتعداه [illegible]، [illegible] لا يرضى سوى [illegible] على تلك الأعمال وحسنات تبوؤها في أعلى الأفق بعيدة [illegible] لا [illegible] التي تعض ب تتوق إليه وتسمو من صنوف الكمال والجمال، وتعمه [illegible] عموم [illegible] الوجود محسوس عن مضطرب حوادثه ومختلف حالاتها، [illegible] على حقيقة فلا تعمها قشور الأمور ولا ظواهر الشؤون

فهي تميل إلى شرف الأخلاق، وتهيم بحب [illegible] لاتصافه بها [illegible]، وتكره من ترمى إليه، وتجعله أبعد ما يكون [illegible] على نقصان الفضل وتشفق على [illegible] وتود لو شيء من نعيم تريد [illegible] أن الله الرحمن الرحيم، وأكرم الأكرمين وأسمع السامعين، وأبصر الناظرين، وأحكم الحاكمين وأسرع الحاسبين، وخير الغافرين [illegible] تأبى جرأة كمثل على جهل الجاهل وغرور المغرور، وميل المائل وضلالة الضال، و[illegible]

هذه النّفس مستعدّة للتزكية وقبول الحكمة، وتعشق الكمال وتحنّ إلى [illegible] وتهوى الجمال، وتسمو شوقاً لاستمراره، وتحنّ لنفسه وتستهدف للوصول إلى غاياتها، وتشعر

بجلالة العلوم و المعرفة، و تتضرّم للتبحّر في لججها

هذه النفس تنظر إلى أديم السماء الناصع و الشمس في أفقه لألائها، فتتأمّل في علائق أشعّتها، فتودّ أن تنفذ إلى سرّ هذه الأضواء الضخمة، فترتدّ أنوار الشمس حسرى، تذرف دموع الحرقة، و تسكب عبرة الخيبة، لأنّها عجزت من ذلك قوّة أقوى من قوّة البصر بما لا يقدّر و هي قوّة البصيرة، فتصعد على أجنحة التأمّل و الاعتبار، تطير من أفق إلى أفق، و من سماء إلى سماء، و إلى أين؟ عند ذلك تصيح هل من نهاية؟ هل من غاية؟ هل من حدّ يقف التصوّر عنده؟ هل من تخم يرتدّ الفكر بعده؟

هذه النفس تنهزم من عالم الحسّ فتعتريها دهشة القصور، و وحشة التقصير، فتميل للغوص فيما تقدّم به من حجمها بإدراك سرّها، فتنزل إلى عالمها في سويداء فؤادها، و تقطع دونها علائق المحسوسات و شواغلها، فتغوص في غمار معانيها على قدر ما تسمح لها به قواها، فلا تجد نهاية ترتدّ دونها، و لا غاية تقف أمامها، فتقف حسرى لا تحير جواباً و لا تستطيع خطاباً، ثمّ ترتدّ إلى حالها الأولى حائرة بين عالمين لا نهائيين، عالم تحيط به، و عالم في داخلها هي محيطة به، لا تدري أيّهما أجلّ صاحبه، فلا تسلو بعد ذلك عمّا يساورها من أرق و ضجر، و ما يلابسها من همّ و سهر لفوات مطلوبها و عجزها عن نيل بغيتها

هذه النفس لا تقنع بعد هاتين الخيبتين اللتين صادفتهما بدوام السكينة و المعيشة كما تحبّ، و لو على غير طمأنينة، هيهات! بل لا تزال تترامى طوراً في مهايع هذه اللانهاية الشهويّة، و أخرى في مضارب هذه اللانهاية الفؤاديّة، و كلّما خيّبت ظنّ، و لكن لا آيس ليائس، و تحنّ إلى مطلوب، و لو لم يكن متميّزاً

هذه النفس الكريمة الحيّة المضطربة لا تطمئنّ إلّا إذا وجدت العقيدة الحقّة، و لا ترتاح إلّا إذا سلكت مناهجها الرشيدة الّتي تقتضيها الفطرة

هذه النفس في كمال خلقها، و استعدادها لكمال تحتاج لغاية كاملة تركز فيها نهايات أخلاقها، و تجمع فيه تصاعدات عواطفها و إحساساتها، و هذه الغاية لا تقنعها، لما اتّصفت به من العلوّ عن المحسوسات و الماديّات، إلّا إذا كانت أعلى من كلّ خيال يضطرب في ذهنها، و أسمى من كلّ كمال يجيش في صدورها، و ليس كذلك إلّا الله تعالى وحده فهو

وحده كلّ الكمال وغاية الجلال، ونهاية الجمال، سبحانه وتعالى

هذه النفس الكريمة في لطافتها ورحمتها، ورقّة عواطفها وجمال جوهرها، تنظر إلى نظام الكون ونواميس الوجود، فيشقّ عليها أن تعتقده خالياً من إله رحيم ينشر على المخلوقات أشعّة رحمته، ويدبّر أمورها بحوله وقوّته، ويفيض على أصنافها من فيوضات عنايته ورأفته

هذه النفس الزّكيّة لو اتّفق وأقنعها مقنع جدلاً بعدم العقيدة الحقّة، اضطربت وتألّمت، وتخبّطت وتوجّعت، ولا تزال كذلك حتّى تعود سلامة العقيدة الحقّة على صدرها، وتحسّ برغدها في روحها، وإلّا عاشت معيشة متشتّتة لا يرتاح لها بال، ولا يقرّ لها قرار

هذه النفس الطّاهرة الزّكيّة الكريمة هي النّفس الإنسانيّة السّالمة من آفات النقص، وعوارض الخداع وشوائب الأوهام والأباطيل والخرافات، فهي تطلب العقيدة الحقّة، تؤدّي وظيفتها الّتي خلقت لها، كما تؤدّي الأذن وظيفتها بسمع الأصوات، وتؤدّي العين وظيفتها بإبصار المبصرات، وبدرك الألوان والأشكال، وتؤدّي الشامّة وظيفتها بإدراك الرّوائح. وهكذا سائر الحواسّ والقوى الظّاهرة والباطنة كلّها بحسبها

إذا تقرّر هذا فما فائدة البرهان الفلسفيّ الجافّ لمثل هذه النّفس المؤمنة بالفطرة الّتي فطرها عليها، وليست في حاجة إليه بوجه من الوجوه؟ وهذه النّفس المزكّاة لا تنتظر البرهان ممّا لا يوافق ذهنها لتؤمن بخالقها، فهي مؤمنة به بفطرتها، بل هي ذاتها أصرح البراهين على وجود مبدعها، فلا ترى في البراهين الفلسفيّة المغلقة إلّا إضاعة الوقت والفرصة فيما لا يجدي ولا ينفع، بل ربّما عدّتها ضرراً على العقيدة الحقّة لإغلاقها وإغماضها في طرق الاستدلال، وسلوكها مسالك الخفاء في أمر هو من الوضوح بحيث لا يحتاج إلّا إلى محض استلفات كقوله تعالى «أفي الله شكّ فاطر السّموات والأرض» إبراهيم ١٠) وقوله سبحانه «كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم» البقرة ٢٨) وقوله عزّوجلّ «قل أغير الله أبغي ربّاً وهو ربّ كلّ شيء» الأنعام ١٦٤) وقوله جلّ وعلا «أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السّموات والأرض» آل عمران ٨٣) فإنّ دين الله تعالى يبيّن ما تقتضيه الفطرة

و إنّ المراد من كون الدّين فطريّاً للإنسان أنّه مستعدّ له بالفطرة أي إذا لم تصحب الأوهام و الخرافات و الأباطيل بعد ولادته على وجه فطرته، و كان سليم القلب، صحيح الفؤاد، حاصلاً على شروط الإنسانيّة يوصل بمحض قواه و مواهبه الذّاتيّة إلى الدّين المطلق الحقّ، و هو الخضوع لقيّوم السّماوات و الأرض و لا يميل إلى الأوهام و الأباطيل و الخرافات و يعتقد بها كأكثر النّاس في كلّ ظرف من الظّروف.

قال الله تعالى «المر تلك آيات الكتاب و الّذي أنزل إليك من ربّك الحقّ و لكنّ أكثر النّاس لا يؤمنون» الرعد ١

و قال «لقد جئناكم بالحقّ و لكنّ أكثركم للحقّ كارهون» الزخرف ٧٨

و قال: «و قليل من عبادي الشّكور» سبأ ١٣

فالإنسان مفطور على الدّين و مائل له بالفطرة بأنّه لو عزل عن النّاس بعد ولادته و لم يسمع أقوالهم و لم يتأثّر بعقائدهم، و لم يحصل حوله ما غيّرهم عمّا هم عليه من حيث الدّين بالمرّة كإبراهيم خليل الرّحمن ﷺ، فهو مفطور على الدّين كما أنّه مطبوع على مصّ ثدي أمّه، و لكن تظهر مفطوريّته على الدّين بعد الظّهور حين بلوغه سنّ التّمييز فإنّه متى بلغ سنّ التّمييز أخذ ينظر في الأشياء المحيطة به نظر المميّز المستنتج، فيستعرض تلك النّقط اللّامعة في وسط ذلك الأديم الأزرق، ثمّ يرمي به إلى الأرض، و يستجلي بدائع الأشجار و غرائب الأزهار و عجائب الأطيار... كما استعرض إبراهيم ﷺ

قال الله تعالى «و كذلك نري إبراهيم ملكوت السّماوات و الأرض و ليكون من الموقنين فلمّا جنّ عليه اللّيل رأى كوكباً قال هذا ربّي فلمّا أفل قال لا أحبّ الآفلين فلمّا رأى القمر بازغاً قال هذا ربّي فلمّا أفل قال لئن لم يهدني ربّي لأكوننّ من القوم الضّالّين فلمّا رأى الشّمس بازغة قال هذا ربّي هذا أكبر فلمّا أفلت قال يا قوم إنّي بريء ممّا تشركون إنّي وجّهت وجهي للّذي فطر السّماوات و الأرض حنيفاً و ما أنا من المشركين» الأنعام ٧٥-٧٩

و قال «سنريهم آياتنا في الآفاق و في أنفسهم حتّى يتبيّن لهم أنّه الحقّ» فصّلت ٥٣، فيؤوب الإنسان إلى ذاته، فيسئل نفسه عن منشئها و أصلها، و كيفيّة تولّدها و تكوّنها، و

هكذا، ثمّ يترقّى في النّظر والاستدلال يترقّى سنّه، وتوالى المناظر والمشاهد على فكره، و يؤوب شيئ من العلم والفحص في كلّ مرّة، حتّى ينتهي به النّظر إلى أصل الكون ومبدئه، و كيفيّة تصرّفه وتدبيره، فلا يبارح نفسه من الحكم الثابت أبدي لا يعتريه شكّ، ولا يشوبه تردّد بأنّ له متصرّفاً قويّاً، وعليماً حكيماً، ومدبّراً غالباً، يهيمن عليه ويقوم بشؤونه. وكما أنّه جزء من الكون يرى أنّه هو أيضاً خضع لذلك القويّ القادر قيّوم السّموات والأرض «الله لا إله إلّا هو الحيّ القيّوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السّموات وما في الأرض» (البقرة: ٢٥٥)

فمتى صاحبت إليه آفة أو مسّته بردة أو ألمّ به مخافة، وجد نفسه مفطورة على الشّكوى لخالقه وخالق الكون، ومفاعته ثمّ حسن في سريرته، وتجول في سويداء ضميره، فبدا الخلق، ومن ثمّ صاحبت هذه الحالة متى اضطربت نفسه، وخشيت هو جسمه، وتمادت به حوادثه وتغيّرت حسّيّته وعقيدته وسئل نفسه عن مصيره وتهاويه، وألمّ به من الأرق والتّململ، وذهب بفكره في مناحي هذا الكون مفكّراً مستدلّاً، ثمّ عاد والعقيدة بالخلود ألصق به من نفسه

هذه أمور لا يعتريها شكّ، فإنّ التّديّن عند الإنسان بما هو إنسان، وهو ما يحسّ به كلّ فرد من الإنسان في نفسه، وإن كان ربّما يعتري على فطرته أوهام، فحينئذ لا يحسّ بالتّديّن، بل قد ينكره قبل أن يقع في معرض الهلاك والآلام

«ظهور الفطرة بعد اختفائها عند خطر الهلاكة»

قال الله عزّ وجلّ «قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين بل إيّاه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون ـ قل من ينجّيكم من ظلمات البرّ والبحر تدعونه تضرّعاً وخفية لئن أنجانا من هذه لنكوننّ من الشاكرين قل الله ينجّيكم منها ومن كلّ كرب ثمّ أنتم تشركون» الأنعام: ٤٠-٤١ و ٦٢-٦٣)

وقال «ربّكم الّذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله إنّه كان بكم رحيماً وإذا مسّكم الضرّ في البحر ضلّ من تدعون إلّا إيّاه فلمّا نجّاكم إلى البرّ أعرضتم وكان الإنسان كفوراً» الإسراء: ٦٦-٦٧)

واعلم أنّ في الآيات الكريمة إشارة إلى دليل الفطرة وظهورها في حالاتها الواسعة المتحلّلة عن كلّ سبب مادّيّ.

وذلك أنّ الآيات تعرّف الإنسان ربّه عند ما غشيه العذاب أو فجأته الساعة أو ظلمات البرّ والبحر أو مسّه الضرّ، أنّه تعالى هو الّذي ينجيه حينما يضلّ عنه كلّ شيء ـ حتّى نفسه ـ فلا ملجأ ولا مهرب ولا منجى إلّا هو، وأنّ الإنسان في سائر الأحوال والأحيان يظنّ أنّ هناك في الكائنات المادّيّة ملاجئ ومراجع يلجأ إليها عند البأساء والضرّاء، حتّى إذا أتاه الخطر، وأحاط به الضرّ ونشر حبائله شاملة لا تبقي له راحة ولا تذر ـ فعند ذلك ضلّ كلّ هذه الأمور ينحو نحوه الفطرة وهو الله عزّ وجلّ وحده.

وهي السبيل إلى معرفة الله تعالى الّتي تعمّ كافّة الناس من عالمهم وجاهلهم، من

مؤمنهم وكافرهم، من غنيّهم وفقيرهم، من أسودهم وأبيضهم من سفهائهم وعقلائهم، من صغيرهم وكبيرهم، من ذكرهم وأنثاهم. هذه سبيل لا تحتاج إلى دراسة أيّ كتاب، ولا إلى سلوك مسالك صعبة غامضة فلسفيّة ولا إلى طرق عميقة تختلج فيها الشكوك والارتياب. سبيل يبرهن له القرآن الكريم بلسان الفطرة في كونه تتجلّى بأنّها الّتي خلقه بالحقّ عندما يحيط بالإنسان الخطر من كلّ جانب ـ دون أن يجد إلى النجاة سبيلاً ـ فحينئذ يتعلّق قلب الإنسان بنقطة مرموزة لا يعرفها ولا يستطيع أن يعرفها، لأنّه يجدها حينما يفقد علاقات الكون أجمع من نفسه حيث لا يبصره، ولا يستطيع أن يبصره سواه ـ فهو إذاً يقطع رجاءه عن كلّ شيء ـ ويبقى متعلّقاً بهذه النقطة المرموزة.

فالتصديق والإذعان والاعتراف بوجود خالق مقتدر أوحد متعال أمر فطريّ يظهر عند خطر هلاكه، والوقوع في الأهوال وصعاب الأحوال يتكلّم به الإنسان بما هو إنسان، ويتوجّه توجّهاً فطريّاً إلى مسبّب الأسباب ومسهّل الأمور الصعاب، وإن لم يفطن بذلك.

في تفسير الإمام الحسن العسكري (ع): أنّه سئل الإمام الصادق (ع) عن الله فقال (ع) للسائل: يا عبد الله هل ركبت سفينة قطّ؟ قال: بلى. قال: فهل كسرت بك حيث لا سفينة تنجيك ولا سباحة تغنيك؟ قال: بلى. قال: فهل تعلّق قلبك هنالك أنّ شيئاً من الأشياء قادر على أن يخلّصك من ورطتك؟ قال: بلى. قال الصادق (ع): فذلك الشيء هو الله القادر على الإنجاء حين لا منجي، وعلى الإغاثة حين لا مغيث».

وذلك أنّ الإنسان إذا ركب السفينة ووجد الريح طيّبة موافقة للمقصود، وكذلك إذا ركب الطيّارة، والوسائل الحديثة والنقليّة المرسومة في اليوم، فهو ما لم يقع على خطر ينشغل بالفرح والسرور غافلاً عن الله تعالى، وهذا حال أكثر الناس في كلّ ظرف من الظروف، حتّى قد يعترض ويستشكل على الله جلّ وعلا في بعض الأمور، ويهين بالمؤمنين، ويشتغل باللهو واللعب والفحشاء والمنكرات. ولكنّه إذا ظهرت علامات الخطر والهلاك دفعة فحدثت الرياح العاصفة الشديدة، وتعقّبها الأمواج العظيمة في البحار من كلّ جانب، فحصل له الظنّ بالهلاك، تبدّل حوله لشابهه من الراحة و

الشرور والاعتراض والاستشكال إلى هذه الأحوال المخوفة والالتجاء والابتهال

وكذلك إذا سار مع الطيّارة في الجوّ فظنّ سقوطها، أو مع القطار والسيّارة، فتوجّه بالرعد والبرق وعدم انضباط الأوضاع الجوّيّة وزوال الشمس وانسداد الطريق وانهدام الجبال، والسقوط في الأنهار و... تحت سيطرة شعوره، وارتفع حجب الأوهام والأباطيل والخرافات عن وجه فطرته فتوجّه إلى الله تعالى وحده، ويتضرّع ويدعوه وحده ولا يسمّي غيره، إذ لا أحد غيره يقدر عليه غير الله تعالى فيستطيع رحمته عمّا سواه، فيصير نفسه ووجهه وشعوره وجميع حواسّه وجوارحه في باطنه وظاهره وأسباطه كلّها متوجّهة إلى الله جلّ وعلا وحده، ولا يسمّي غيره.

ولكنّه لمّا نجّاه الله تعالى من هذه الشدّة المضطربة والبلاء ووصل إلى الساحل أو نجى من خطر الهلاكة في البرّ نسي الله جلّ وعلا، ونسي الخلاص والنجاة الذي منّ الله تعالى بها عليه فيعود إلى حالته الأولى من الاعتقاد الباطل والاعتراضات الواهية واللهو واللعب كما أنّه إذا تبهّت في ظلم الناس لم يعرف الله تعالى بينما لو ظلمه آخرون ارتفع صوته وتوجّه إلى الله تعالى وتضرّع إليه.

وفي رواية قال رجل لجعفر بن محمّد الصادق (عليه السلام): اذكر لي دليلاً على إثبات الصانع؟ فقال (عليه السلام): أخبرني عن حرفتك؟ فقال: أنا رجل تاجر في البحر، فقال: صف لي كيفيّة حالك؟ فقال: ركبت البحر، فانكسرت سفينته، وبقيت على لوح واحد من ألواحها وجاءت الرياح العاصفة فقال (عليه السلام): هل وجدت في قلبك تضرّعاً ودعاءً؟ فقال: نعم، فقال (عليه السلام): فإلهك هو الذي تضرّعت إليه في ذلك الوقت»

فالإنسان كما تبيّن من ذلك أنّه على حجّة بيّنة في عمق وجوده وذاته متواجدة في شتّى الألوان تدلّه على الله جلّ وعلا، وهو تشهده الفطرة الإنسانيّة بالإضافة إلى آياته وهدايته بواسطة العقل من داخله وشتّى الرسالات السماويّة بعنوان الحجّة عليه «فلله الحجّة البالغة» تبلغ كلّ عالم وجاهل، وكلّ ذي شعور له أدنى شعور فكلّ من يشعر بنفسه ثمّ يرى أنّه لم يكن ثمّ حدث: «هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً» الإنسان

(١)

وهذا يكشف بوضوح أنّ الأمر ليس كما يدّعيه الملاحدة أنّه ليس من جبلّة الإنسان وإنّما يتعلّمه في الحياة.

فالحكمة لله تعالى شأنه تكون بأنّ لكلّ نفس سبيلاً إلى ربّه في عمق ذاته، ويؤيّده عقله سواء أكان في أدنى مراتب العقل والعلم أم أعلاها، ويثبّته به الرّسالات السّماويّة، فالطّرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق.

فالإنسان هو إنسان في كينونته الحقيقيّة وعظمته وربوبيته يجد نفسه محاطة عن يمينه في يمّ محيط مسيطر عليه: من البراهين السّاطعة والأدلّة القاطعة والحجج الواضحة على وجود إله الكون، لا يستطيع أن يتخلّى عن تلك البراهين والأدلّة والحجج. وكما أنّ الله عزّ وجلّ إله الكلّ، فلابدّ للكلّ أن يجدوا سبيلاً إلى معرفته، وتلك هي آثار وجوده سبحانه وبراهينه السّاطعة في الآفاق، وهي كذلك سوى نفس الإنسان وفي أنفسهم تدلّهم على ربّهم: «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتّى يتبيّن لهم أنّه الحقّ» فصّلت ٥٣ إنّ الآيات الآفاقيّة هي الحقيقة الخارجة عن أنفسهم، والزّوجيّة الخارجة عن زوجها، وإنّ الآيات الأنفسيّة هي الفطرة والعقل والحكمة التي صنع الله، وإنّ كلّ الآيتين تكشفهما شواهد الألوهيّة لله جلّ وعلا.

﴿العقل والشرع توأمان يرتضعان من لبن واحد وهو الفطرة﴾

واعلم أنّ العقل وإن كان في طول الشرع لإمكان وقوع الخطأ في إدراك العقل دون الشرع، ولكنّهما كالتوأمين اللذين يرتضعان من لبن واحد وهو فطرة الله التي فطر النّاس عليها

ولذلك قيل «إنّ العقل شرع وحجّة إلهيّة على الإنسان في داخله، والشّرع عقل وحجّة إلهيّة على الإنسان في خارجه»

فلا يكون كلّ واحد منهما مستغنياً عن الآخر، وإنّ العقل يهدي الإنسان إلى ما تقتضيه الفطرة إجمالاً، وإنّ الشّرع يبيّنه من دون خطأ تفصيلاً

وقد قال المحقّقون المدقّقون إنّ الشّرع لن يهتدى إلّا بالعقل، والعقل لن يستقلّ إلّا بالشّرع، وإنّ العقل كالأسّ، والشّرع كالبناء، ولن يغني أسّ ما لم يكن بناء، ولن يثبت بناء ما لم يكن له أسّ، وكلاهما يدلّان على الدين إجمالاً وتفصيلاً

وإنّ العقل كالبصر، والشّرع كالشّعاع، ولن يغني البصر ما لم يكن له شعاع من خارج، ولن يغني الشّعاع ما لم يكن له بصر فلهذا قال الله سبحانه «قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتّبع رضوانه سبل السّلام ويخرجهم من الظّلمات إلى النّور بإذنه» المائدة ١٥-١٦)

وإنّ العقل كالسّراج والشّرع كالزّيت الّذي يمدّه، فما لم يكن زيت لم يشتعل السّراج وما لم يكن السّراج لم يضيء الزّيت، وعلى هذا نبّه جلّ وعلا بقوله «الله نور السّموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ـ نور على نور» (النور: ٣٥)

وإنّ الشّرع عقل من خارج، والعقل شرع من داخل، وهما متعاضدان، بل متّحدان، ولكون الشّرع عقلاً من خارج، سلب الله عزّوجلّ اسم العقل من الكافر والمنافق والعاصي... في مواضع من القرآن الكريم

منها: قوله تعالى «صمّ بكم عميٌ فهم لا يعقلون» (البقرة: ١٧١)

ومنها: قوله سبحانه «إنّ الّذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون» (الحجرات: ٤)

ومنها: قوله عزّوجلّ «وإذا ناديتم إلى الصّلاة اتّخذوها هزواً ولعباً ذلك بأنّهم قوم لا يعقلون» (المائدة: ٥٨)

ولكون العقل شرعاً من داخل، قال الله جلّ وعلا «ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصّل الآيات لقوم يعقلون» (الروم: ٢٨)

وإنّ العقل إذا فقد الشّرع، عجز عن أكثر الأمور كما عجزت العين عند فقد النّور

وإنّ العقل بنفسه قليل الغناء، لا يكاد يتوصّل إلاّ إلى معرفة كلّيّات الشّيء دون جزئيّاته، وإنّ الشّرع يعرف ويبيّن للعقل كلّيّات الشّيء وجزئيّاته. فالعقل يعلم ـ مثلاً ـ جملة حسن اعتقاد الحقّ، وقول الصّدق، وتعاطي الجميل، وحسن استعمال المعدلة وملازمة العفّة والإحسان والمعروف وما إليها من غير أن يعرف ذلك في شيء شيء، وأمّا الشّرع فيعرف كلّيّات الشّيء وجزئيّاته، ويبيّن ما الّذي يجب أن يعتقد في شيء شيء، وما الّذي هو معدلة في شيء شيء، وإنّ العقل لا يعرف ـ مثلاً ـ أنّ لحم الخنزير والدّم والخمر محرّمة، وأنّه يجب أن يتحاشى من تناول الطّعام في وقت معلوم، ولا يعرف أن لا ينكح ذوات المحارم، وأن لا يجامع المرأة في حال الحيض وأن لا يزني ونحوها فلا سبيل إليها إلاّ الشّرع

والشّرع نظام الاعتقادات الصّحيحة والأفعال المستقيمة، والدّالّ على مصالح الدّنيا و الآخرة، ومن عدل عنه فقد ضلّ سواء السّبيل، ولأجل أنّه لا سبيل للعقل إلى معرفة ذلك

قال الله عزّوجلّ: «وما كنّا معذّبين حتّى نبعث رسولاً» (الإسراء ١٥)

وقال «ولو أنّا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربّنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتّبع آياتك من قبل أن نذلّ ونخزى» (طه ١٣٤)

وقال «رسلاً مبشّرين ومنذرين لئلاّ يكون للنّاس على الله حجّة بعد الرّسل وكان الله عزيزاً حكيماً» (النساء ١٦٥)

وإلى العقل والشّرع أشار بالفضل والرّحمة بقوله «ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتّبعتم الشّيطان إلاّ قليلاً» (النساء ٨٣) والمراد بالفضل «المصطفين الأخيار» (ص ٤٧)

«الفرق بين الفطرة والغريزة ورفع الاشتباه بينهما»

وقد اشتبه على الخواصّ فضلاً عن العوام، فطرة الإنسان بغريزته فخلطوا بينهما، وقد سبق منّا في بحث «الفطرة وأقسام الهداية» أنّ الغريزة مشتركة بين الإنسان والحيوان، وبها التوالد والتناسل، وتداوم الأنواع، وتعيش بها الإنسان والحيوان ومنشأها الرّوح الحيوانيّة وأنّ الفطرة تختصّ بالإنسان، وبها إنسانيّة الإنسان وهويّته ومنشأها روح خاصّ إلهيّ «ونفخت فيه من روحي»، فالغريزة حياة الإنسان الحيوانيّة، وبالفطرة حياة إنسانيّة الإنسان الرّوحيّة، ولذلك يمكن تغيير الغريزة، ولا يمكن تغيير الفطرة أبداً «فطرت الله الّتي فطر النّاس عليها لا تبديل لخلق الله» الروم ٣٠.

فينبغي البحث ـ وإن كان إجمالاً ـ حول الغريزة لرفع الإبهام والاشتباه في فصول

ألف. تعريف الدّافع الغريزي

الأمر الغريزي بوجه عام ـ قدرة كان أم سلوكاً أو دافعاً ـ هو ما ينتقل عن طريق الوراثة فلا يحتاج الفرد إلى تعلّمه واكتسابه، أمّا المكتسب فهو كلّ ما ينجم عن تغيير الأمر الغريزي وتعديله عن طريق النشاط التلقائي للفرد أو عن طريق الخبرة والممارسة والتّدريب. إذن ماذا نعني حين نقول إنّ الجوع أو العطش أو الشّهوة أو التعب وما إليها دوافع غريزيّة، وإنّ عاطفة الشّفقة أو الشّعور بالنّقص أو الميل إلى جمع طوابع البريد دوافع مكتسبة؟

وقد قال المحقّقون: إنّ الدّافع استعداد مركّب من عدّة عناصر ١ ـ مثير يستثيره

٢ـ سلوك يصدر عنه ٣ـ هدف يرمي إليه

والدافع الغريزي ـ في صورته التامة وعناصره الثلاثة، عند الإنسان على الأقل ـ هو ما كان مثيره غريزياً وهدفه غريزياً، أما السلوك الذي يصدر عنه، فعلى الإنسان أن يتعلّمه في الأعمّ الأغلب من الأحيان. فالجوع مثيره الغريزي تقلص العضلات الملساء للمعدة، وهدفه إكمال حالة نقص غذائيّ في الجسم، وكلّ من المثير والهدف غريزيّ. أمّا طريقة إرضاء الجوع فعلى الإنسان أن يتعلّمها، ولذا تختلف طرق النّاس في تناول الطّعام وفي نوع الأطعمة التي يأكلونها، حتّى الطّفل الوليد الّذي يرضع لأوّل مرّة فهو يحرّك شفتيه، ويقوم بعمليّة الامتصاص، لكنّه يمص كلّ شيء يوضع في فمه، سواء كان قطعة من القطن أو الخشب أو الشّعر أو ثدي أمّه، فمتى أمسك بالثّدي ورضعه، فأشبع جوعه عرف، فتعلم أنّ هذا هو الطّريق الوحيد لإشباعه.

أمّا عاطفة الشّفقة، وهي دافع مكتسب، فمثيرها مكتسب هو رؤية الضّعيف أو العاجز أو المحروم، وهدفها مكتسب أيضاً وهو معونة هؤلاء. إنّها دافع يحتاج إلى وقت قد يكون طويلاً لاكتسابه كما تتطلب مستوى خاصّاً من النّضج العقليّ، لذا فهو لا ينضج ولا يستوي إلاّ في مرحلة المراهقة، وبعد خبرات عدّة يمرّ بها الفرد، يشعر في بعضها بألم الفقير فيشقى، ويشعر في بعضها الآخر بما يقدمه إليهم من معونة فيسعد. بل قد يعجز بعض النّاس عن اكتساب هذا الدّافع إطلاقاً. كذلك الحبّ في الميل إلى جمع طوابع البريد، فالإنسان لا يولد مزوداً بهذا الدّافع بل يكتسبه عن طريق خبرته واتّصاله بالبيئة.

ب: علائم الدّافع الغريزي:

للدّافع الغريزي علائم

منها: ما يميّز الدّافع الغريزي، هو ظهوره منذ الولادة أو في سنّ مبكرة، أي قبل أن يفيد الفرد من الخبرة والتّعلّم كالجوع والعطش ونحوهما.

ومنها: أن يكون الدّافع عامّاً مشتركاً بين أفراد النّوع الواحد جميعاً مهما اختلفت بيئاتهم وحضاراتهم كالدّافع الجنسيّ ودافع الأمومة، في حين أنّ الدّافع المكتسب يكون خاصّاً بفرد أو بجماعة من الأفراد. غير أنّ هذا المعيار يجب ألاّ يؤخذ على إطلاقه، إذ قد

يكون الدّافع مكتسباً بالرّغم من شيوعه بين النّاس جميعاً على اختلاف حضاراتهم، كالدّافع الاجتماعي ـ في نظر كثير من المتأخّرين ـ و هو الدّافع الّذي يبدو في ميل الإنسان إلى الاجتماع بين جنسه و العيش في جماعات

و منها: اشتراك الإنسان مع الحيوانات الأخرى في بعض الدّوافع كثيراً ما يتّخذ علامة على غريزيّة هذه الدّوافع كدوافع الجوع و العطش و النّوم و الدّافع الجنسيّ، و دافع الاستطلاع و دافع اللّعب

و منها: و هي أهمّ علامة على الدّافع الغريزي ـ ثبات هدفه الطّبيعيّ بالرّغم من تغيّر السّلوك الّذي يحقّق هذا الهدف حتّى نستطيع أن نعرّف الدّافع الغريزي بأنّه كلّ ما يدفع الفرد ـ إنساناً كان أم حيواناً ـ إلى التماس أهداف طبيعيّة موروثة أي مقرّرة من قبل في غريزته، محفورة في جهازه العصبيّ. قد سمّيت الدّوافع الغريزيّة بالغرائز (Instincts) و قد يكون السّلوك الصّادر عن الغرائز غريزيّاً جامداً موحّد الصّورة كما هي الحال عند أغلب الحيوانات مثل بناء العشّ عند الطّيور، و هجرة الأسماك، و ادّخار الطّعام عند النّمل، أو يكون هذا السّلوك مكتسباً كأغلب سلوك الإنسان المنبعث عن دوافعه الغريزيّة

أثر البيئة و التّعلّم

الواقع أنّ ما يرثه الإنسان لا يعدو أن يكون استعدادات عامّة غاية في العموم تدفعه إلى التماس غايات طبيعيّة معيّنة، و تثيرها مثيرات غريزيّة، محدودة العدد إلى حدّ كبير، فهو يرث استعداداً عامّاً للخوف و الابتعاد عمّا يؤذي، و هو استعداد تثيره عند الطّفل الرّضيع فئة محدودة من المثيرات الغريزيّة كالألم الجسميّ، و الأصوات العالية، و الأحداث المفاجئة، و الإزاحة المفاجئة للطّفل. و لكن الفرد عن طريق النّضج و التّعلّم يكتسب مخاوف نوعيّة لأعداد هائلة كالخوف من الظّلام، و من الوحدة، و من الموت، و من القانون، كما يعبّر عن مخاوفه بطرق أخرى غير الطّريقة الغريزيّة للتّعبير عنه

غير أنّ هدف هذا الدّافع الفطري يبقى ثابتاً على الدّوام لا يصيبه تغيير ـ هو الظّفر بالأمن و الابتعاد عمّا يؤذي. كذلك فهو يرث استعداداً عامّاً للغضب ممّا يقيّد حركاته و يعترض سلوكه، و طريقته الغريزيّة في التّعبير عن غضبه هي تحطيم العائق و تهشيمه،

لكن عن طريق النّضج و التّعلّم منذ بدء العمر يكتسب مواصفات كثيرة كالتعصّب للحقّ و للكرامة و للمبدأ. كما يتعلّم طرقاً أخرى مهذبة للتّعبير عن غضبه، غير أنّ هدف هذا الدّافع الغريزي يبقى ثابتاً على الدّوام لا يصيبه تغيير، هو مقاومة و استبعاد ما يقيّد الحركة و الحرّيّة بوجه عامّ، و قل مثل ذلك في دافع الجوع. فمثيره الغريزي هو تقلّص العضلات الملساء للمعدة، و لكنّ الفرد عن طريق التّعلّم يكتسب مثيرات جديدة للجوع منها الأماكن و الأوقات الّتي اعتاد أن يتناول فيها طعامه، فإذا حان وقت الغداء شعر بالجوع حتّى إن لم تكن به حاجة حقيقيّة إلى الطّعام، هذا إلى ما يكتسبه من طرق خاصّة لتناول الطّعام، و ما يألفه من أطعمة خاصّة، غير أنّ هدف هذا الدّافع الغريزي يبقى ثابتاً على الدّوام لا يناله تغيير، هو إكمال حاجة النّقص الجسمي

و بعبارة أخرى، أنّ الدّافع الغريزي يتحوّر من ناحية مثيراته، و من ناحية السّلوك الصّادر عنه بتأثير عاملي النّضج و التّعلّم مع بقاء هدفه ثابتاً. و من هنا نرى أنّه يندر أو يستحيل أن نرى دافعاً غريزياً خالصاً عند الرّاشد الكبير من بني آدم، أي لا يتضمّن عناصر مكتسبة

و بعبارة ثالثة أنّ كلّ دافع عند الرّاشد الكبير غريزيّ و مكتسب في آن واحد، و قد حدا هذا ببعض العلماء إلى القول بأنّه من العبث محاولة التّمييز بين الدّافع الغريزيّ و الدّافع المكتسب. غير أنّ فريقاً آخر يرون أنّ الدّافع الغريزي هو ما كان هدفه غريزيّاً، حتّى إن حملت مثيراته، مثيرات مكتسبة إلى جانب المثيرات الغريزيّة، و حتّى إن اختلف السّلوك الصّادر عنه عن السّلوك البدائي له. و مع هذا الفريق، نصنّف الدّوافع الغريزيّة على التّرتيب التّالي

ج ـ تصنيف الدّوافع الغريزيّة

منها: دوافع تكفل المحافظة على بقاء الفرد، و تسمّى بالحاجات العضويّة أو الفسيولوجيّة كالجوع و العطش و النّوم و ما إليها

و منها: دوافع تكفل المحافظة على بقاء النّوع، و هي الدّافع الجنسيّ و دافع الأمومة

و منها: دوافع الطّوارئ، و هي دوافع وثيقة الصّلة بالمحافظة على بقاء الفرد و بقاء

النّوع، وهي دافع الحرب، ودافع المقاتلة

ومنها: دوافع تمكّن الفرد من التعرّف على البيئة وتساعده على التكيّف معها للحياة، دافع الاستطلاع، ودافع اللعب

ولا يخفى على الباحثين الخبراء أنّ الغريزة تختلف اختلافاً كثيراً، وأنّ للحضارة فيها تأثيراً هامّاً دون الفطرة، حيث إنّ الطعام -مثلاً- من الغرائز، تختلف طرق تناوله ومقداره ومكانه وموضعه وعدد الوجبات اليوميّة وألوانه والأطعمة المحرّمة باختلاف الجماعات البشريّة. فمن الشعوب من يشعر أفراده بالجوع مرّتين كلّ يوم، ومنها ما يشعر به خمس مرّات، ومنها ما يشعر به ثلاث مرّات، أي إنّ الشعور بالجوع لا تثيره الحركات الانقباضيّة للمعدة أو حاجة الجسم إلى المواد الغذائيّة بقدر ما تثيره عادات الجماعة. ومن الشعوب من يعاف أفراده من مجرّد التفكير في أكل الضفادع أو الثعابين أو الجراد أو القرود أو الحشرات أو العقارب وما يشبهها في حين أنّ جماعات أخرى تقبل على هذه الأطعمة وتعتبرها غذاءً مباركاً. والمسلمون يأكلون لحم البقر الذي يحرّم الهندوس أكله، وقد كان الصينيّون يفضّلون أكل البيض الفاسد، ويعزفون من شرب اللبن بنفور شديد وهكذا.

الدّافع الجنسيّ:

من أقوى الدوافع لدى الإنسان وأكثرها تأثيراً في سلوكه وصحّته النفسيّة، غير أنّ تعقّد الطبيعة البشريّة وكثرة القيود التي تفرضها المجتمعات المتحضّرة على هذا الدافع وملابساته تجعل دراسته وتحليله عند الإنسان أمراً عسيراً، لذا بدأ الباحثون بدراسته في صورته البسيطة عند الحيوان

لقد اتّضح أنّ نشاط هذا الدافع لدى الحيوان يتوقّف على هرمونات -وهي موادّ كيماويّة ذات فاعليّة شديدة تفرزها الغدد الصمّاء بمقادير ضئيلة لكنّها كبيرة الأثر، وقد ثبت أنّ للهرمونات أثراً عميقاً في النموّ الجسميّ والجنسيّ والانفعاليّ- تفرزها الغدد الجنسيّة عند الذكور والمبيضان عند الإناث، كما اتّضح أنّ إزالة المبيض عند إناث بعض الحيوانات يزيل الاهتمام الجنسيّ لديها، ولكن هذا الاهتمام يمكن أن يعود متى حقنت الأنثى بخلاصة الهرمونات الجنسيّة

والمعروف أنّ إناث الحيوانات تمرّ بأطوار من النشاط والتحفّز الجنسيّ تعقبها أُخرى من الفتور أو الخمول الجنسيّ، وقد دلّت التجارب الفسيولوجيّة على أنّ الهرمون الجنسي الأنثوي لا يفرز إلّا أثناء طور التحفّز الجنسي فقط.

كذلك الحال عند الإنسان فقد وجد أنّ إزالة المبيض لدى البنات قبيل البلوغ يحول دون ظهور الصفات الجنسيّة الثانويّة، كما يؤدّي إلى اختلال الدافع الجنسيّ برمّته. كذلك الحال عند الفتيان لدى خصيهم في سنّ مبكّرة.

إنّ الغريزة الجنسيّة دافع غريزيّ لدى الأطفال، ولا نقصد بالجنسيّة اللفظة قدر انطباقها على التناسل والتكاثر، وعلى الاختصاص والتمييز بين مجموعة الميول الجنسيّة، وضروب السلوك الجنسيّة التي توجد لدى الطفل منذ ولادته، والتي تبدو بصورة يمكن ملاحظتها عنده ابتداءً من اليوم الثالث والرابع من عمره، إذ تبدو لدى الطفل في بعض الأيّام من هياج جنسيّ ونهوض ذكر المذكّر، وتلذّذ من لمس أعضائه الجنسيّة ومن عبث جنسيّ بين الصغار، وعند تقمّص الآخر، وحبّ ارتداء ملابس خاصّة ولعبة العريس والعروس شائعة بين الأطفال.

د ـ دافع الأُمومة:

إنّ حماية الصغار والالتصاق بها وإطعامها وسرعة العودة إليها عند فراقها ظاهرة مشاهدة من أنواع الحيوانات إذ يقوم أحد الوالدين بهذه المهمّة حتّى يشتدّ عود الصغار بعض الشيء، فعند بعض الأسماك يقوم أحد الوالدين بهذه الوظيفة، وعند الطيور غالباً ما يتعاون الوالدان معاً عليها، وأمّا عند الثدييات فتقع هذه المهمّة على عاتق الأُمّ دائماً، ولكنّها تنتهي مدّة الحضانة بعد مدّة من الأيّام أو الأسابيع أو الشهور أو السنين، ولكن غريزة الأُمومة باقية، وحماية الأُمّ الإنسانيّة لولدها يدفعه عوامل نفسيّة واجتماعيّة ليست هذه بعضها من أنواع الحيوانات، ولكن هذه الغريزة الحيوانيّة، وفوقها الغريزة الإنسانيّة تغيّرت بل فسدت في كثير من النساء الغربيّة واللاتي سلكن مسالكهنّ في طلاقة العنان، وفي الغربيّة الحيوانيّة من كشف العورات

وإنّهنّ أخسّ وأدنى من أنواع الحيوانات كلّها لأنّ هؤلاء النساء كلّهنّ من التابعات و

المتبوعات خرجن عن الغريزة الحيوانية وهي حب التوالد والتناسل والتكاثر وحماية الصغار فضلاً عن الغريزة الإنسانية

وقد صرّح كثير من النساء في أمريكا أنهن لا يحببن أن يكنّ أمهات، وقد صرّح كثير من الحوامل في أمريكا أنهن كنّ يرجون أن لا يكنّ حوامل، وأنهن حملن لا بإرادتهن، بل حملن لرغبة أزواجهن في بقاء الأسرة، وقد صرّح كثير من الأمهات أنهن لا يحببن أولادهن

ومن الأسف أن بعض نساء المسلمين من البلاد الإسلامية يقلّدن النساء الغربيات في خلافة الفطرة والخروج عن حدّ الإنسانية، بل الانحطاط إلى ما دون الحدّ البهيمي والحيواني، والوضع المتساوي المؤسف لذلك أن قادة البلاد الإسلامية ورؤساء دولهم يشوّقون المسلمين والمسلمات على إفساد الغريزة ... في زمانهم وأسوأ من ذلك كلّه أن بعض العلماء المؤمنين يسكتون والعوامل الأخرى يوجّهون تلك الجنايات ويؤكّدونها باسم الإسلام خذلهم الله الواحد القهّار

﴿ آيتا فدك في القرآن الكريم و فدك في نهج البلاغة ﴾

واعلم أنّ أهمّية قضيّة فدك هي عين أهمّية قضيّة الخلافة بعد وفاة رسول الله (ﷺ) على حدّ سواء، إذ كان غصب فدك لاستمرار غصب الخلافة، فالبحث حول فدك هو البحث حول الخلافة نفسها من دون انفكاك بينهما، فإذا نسيت قضيّة فدك، تنسى قضيّة الخلافة بغير شبهة، فما قضيّة فدك كما زعم بعض الخمول الجهلة لعلّة بالأحساب، والعوامل الأخيرة للأعداء، المنتشرة بين الناس العامّة، ويعقلون هذه الفكرة الشيطانية و يلقونها إلى عامّة الناس، حتّى إلى بعض الخواصّ البليد لأبناء فكرة الخلافة وفدك كانت الخلافة وفدك ـ كالإنسان المركّب من الجسم والروح ـ أساسي الإسلام روحاً وماديّاً لا انفكاك بينهما، لانهدم الإسلام كما لا انفكاك بين الجسم والروح لا بقاء للإنسان، فإذا تبيّن لك أمر فدك تبيّن لك أمر الخلافة قطعاً ولهذه الأهمّية نزلت آية فدك مرّتين في سورتين من القرآن الكريم لئلاّ تنسى قضيّتها.

قال الله عزّوجلّ «فآت ذا القربى حقّه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون» (الروم ٣٨)

وقال «وآت ذا القربى حقّه والمسكين وابن السبيل ولا تبذّر تبذيراً» (الإسراء ٢٦)

وفي نهج البلاغة من كتاب مولى الموحّدين، سيّد الوصيّين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (ع) إلى عثمان بن حُنيف الأنصاري وهو عامله على البصرة ـ

«بلى كانت في أيدينا فدك من كلّ ما أظلّته السماء، فشحّت عليها نفوس قوم، وسخت

عنها نفوس قوم آخرين، و نعم الحكم الله» «مع الكتاب ٤٥».

و قد تواترت الرّوايات الواردة عن أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين أنّ الآيتين نزلتا في أمر فدك، و في نزول الآيتين فيها دلالة واضحة على أهمّيّة موضوعها و تأكيد أمر القربى، و لو سلّمنا أنّ الآيتين كانتا مكّيّتين فقد شرّع أمرها قبل الهجرة لهذه الأهمّيّة و التّأكيد كما أنّ آية المودّة «قل لا أسئلكم عليه أجراً إلاّ المودّة في القربى» في سورة «الشّورى»، و هي مكّيّة لتأكيد أمر القربى

و لا يخفى على القارئ الخبير أنّ سورة «الإسراء» هي السّورة الخمسون نزولاً، و سورة «الشّورى» هي السّورة الثّانية و السّتّون نزولاً و سورة «الرّوم» هي السّورة الرّابعة و الثّمانون نزولاً، فكلّها مكّيّة بلا خلاف، و لكن كثيراً من مفسّري العامّة يقولون إنّ آية فدك في سورة «الإسراء» مدنيّة إذ لا يجوز أن تكون الآية المدنيّة في السّورة المكّيّة

فالقول بأنّ سورتي «الإسراء» و «الرّوم» مكّيّتان و أنّ فدك إنّما فتحت مع خيبر سنة سبع من الهجرة، فلا يمكن الجمع مردود لما ذكرناه آنفاً

فكذلك توهّم بعض مفسّري العامّة: «أنّ سورة «الإسراء» نزلت في وقت كان فيه معظم أقارب النّبيّ «ﷺ» كفّاراً، و لم تكن قرية فدك قد فتحت لأنّ ذلك إنّما تمّ في السّنة السّابعة من الهجرة، و لم يثبت أنّ النّبيّ «ﷺ» أعطاها فاطمة «ع» [illegible]»

فإنّه مردود بنفس كلامه في أوّل هذه السّورة بأنّه «قد روي أنّ الآيات (٢٦ و ٣٢ و ٣٣ و ٥٧ و ٧٣ و ٨٠) مدنيّات ثمّ قال «و لقد ذكر المصحف الّذي نعتمده أنّ الآيات (٢٦ و ٣٢ و ٣٣) من السّلسلة مدنيّات ثمّ قال: و لمّا كانت جملة «ذا القربى» في الآية (٢٦) فإنّما نرجّح أنّ رواية مدنيّتها قد لفقت لتأييد التّأويل الشّيعي لجملة»

أقول: و لا خلاف بين العامّة أنّه ليس المراد بالقربى في آية المودّة أبا لهب و أبا سفيان و أتباعهم و أصحابهم، و قد نزلت آية المودّة في سورة «الشّورى» و هي مكّيّة، و قد كان معظم أقارب النّبيّ «ﷺ» كفّاراً، فليس المراد بالقربى في آية المودّة، و لا في آيتي فدك أقارب النّبيّ الكريم عموماً كما توهّم هذا المفتري

و في تفسير الكشّاف: قال سورة «الإسراء» مكّيّة إلاّ الآيات (٢٦ و ٣٢ و ٣٣ و

٥٧، ومن آية ٧٣ ـ إلى غاية ـ ٨٠، وقد ذكرت كثير من مفسّري العامّة منهم في تفسير الجلالين «سورة الإسراء مكّيّة إلّا الآيات ٢٦ و ٣٢ و ٥٧، ومن آية ٧٣ ـ إلى غاية ـ ٨٠، فمدنيّة»

وفي تفسير روح المعاني «وعن الحسن أنّ السورة مكّيّة إلّا خمس آيات «ولا تقتلوا النفس» الآية و«ولا تقربوا الزنا» الآية و«أولئك الذين يدعون» الآية و«أقم الصلاة» الآية و«وآت ذا القربى حقّه» الآية وقال مقاتل إلّا ثماني آيات قوله تعالى: «وإن كانوا ليفتنونك ـ إلى آخرهنّ»

أقول ولا يخفى على من له أدنى تأمّل أنّ كثيراً من السور المكّيّة تكون فيها آيات مدنيّة وبالعكس، وأنّ الاسمين مبنيّان على الغالب

وقال بعض المعاصرين إنّ المراد بقوله تعالى «ذا القربى» صاحب القرابة الأدنى، والأدنى والأولى بالرسول ﷺ فاطمة وقد أُمر أن يؤتي حقّه روحيّاً ومالياً كما أنّ فدك لأقرب ذوي قرباه فاطمة سلام الله عليها وحتّى فيها خبر «فاطمة بضعة منّي وأنا منها، فمن آذاها فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله» فهو مؤونة مالية لكي تستغني هي وزوجها، والأئمّة المعصومون عليهم السلام من ولدها، معونة في بثّ الرسالة الإسلامية ومعونة روحيّة تعرفها بها الأمّة المرحومة

وإنّه عليّ ﷺ حقّ في حقّه من تقربته في حصّته وحصانته لحدّ قال «ولدني رسول الله ﷺ» وزوّجه بضعته فاطمة بل لم يحقّ لها غيره، ولم يحقّ له غيرها، ثمّ آتاه حقّ الوصاية والخلافة

كما وفي عترته المعصومين عليهم السلام حقوقهم أن جعلهم خلفاءه من بعده بعضهم بعض، إنّ ذوي القربى المأمور بإيتائهم في القرآن كثيرون حيث يؤمر المكلّفون بإيتائهم والإنفاق عليهم، ولكن ذي القربى المأمور بإيتائه في أمر شخصيّ ليس إلّا هنا «سورة الإسراء» وفي الروم ومكّيّة الآية في السورتين لا تنافي القرابة الخاصّة، حيث أخذ في الابتداء من مكّة لعليّ وفاطمة عليها السلام تربويّاً، وحقّ المدينة ابتداءً لفدكها وخلافته ﷺ أو تكون إحداهما مكّيّة، والأخرى مدنيّة، ومكّيّة السورة لا تنافي مدنيّة

أبداً وإيابه منها

ولا نجد في آيات ذوي القربى ـ كما نتمنى ولمن كان من الثقلين ـ حقاً خاصاً لذي القربى إلا فيها «سورة الإسراء» وفي الروم في خصوص قربى الرسول (ص) إذ فيهم حق خاص ليس لسائر ذوي القربى من بعد، بعدما عبّر عنه هنا بـ«حقه» في آيات إلا بمط المودة «إلا المودة في القربى» ما يختصهم بحق لا يشركهم فيه أحد من العالمين، فليس إذاً من الحقوق المالية فقط، حيث يشركهم غيرهم كما في آيات ذوي القربى أم من ذا؟

فإنما هو حق من حيث الرسالة الإسلامية هو استمراريتها في خلافتها المجيدة، مهما شمل نطاقه حقاً مالكاً محدداً ممثله الطاهرة سلام الله عليها كفدك هي بلغتها وبلغة زوجها وأولادها المعصومين صلوات الله عليهم حيث كانوا ثبت الرسالة فإن دنياهم آخرة» انتهى كلامه

في تفسير العياشي عن عبد الرحمن عن أبي عبد الله (ع) قال: لما أنزل الله «فآت ذا القربى حقه والمسكين» قال رسول الله (ص): يا جبرئيل قد عرفت المسكين، فمن ذوي القربى؟ قال: هم أقاربك، فدعا حسناً وحسيناً وفاطمة فقال: إن ربي أمرني أن أعطيكم مما أفاء عليّ، قال: أعطيتكم فدكاً»

وفيه عن أبان بن تغلب قال: قلت لأبي عبد الله (ع): كان رسول الله (ص) أعطى فاطمة (ع) فدكاً؟ قال: كان وقفها، فأنزل الله «وآت ذا القربى حقه» فأعطاها رسول الله (ص) حقها، قلت: رسول الله (ص) أعطاها؟ قال: بل الله أعطاها»

وفيه عن أبان بن تغلب قال: قلت لأبي عبد الله (ع): أكان رسول الله أعطى فاطمة فدكاً؟ قال: كان لها من الله.

وفيه عن عطية العوفي قال: لما افتتح رسول الله (ص) خيبر، وأفاء الله عليه فدك، وأنزل عليه «وآت ذا القربى حقه» قال: يا فاطمة لك فدك»

وفيه عن أبي الطفيل عن علي (ع) قال: قال يوم الشورى: أفيكم أحد تم نوره من السماء حين قال «وآت ذا القربى حقه والمسكين»؟ قالوا: لا»

وفي التبيان: قال الشيخ الطوسي رضوان الله تعالى عليه في قوله سبحانه «وآت ذا

«القربى حقّه» و هو أمر من الله لنبيّه ﴿ﷺ﴾ أن يعطي ذوي القربى حقوقهم التي جعلها الله لهم فروي عن ابن عبّاس والحسن أنّهم قرابة الإنسان و قال عليّ بن الحسين ﴿ع﴾ هم قرابة الرّسول ﴿ﷺ﴾ و هو الّذي رواه أصحابنا و روي أنّه لمّا نزلت هذه الآية استدعى النّبيّ ﴿ﷺ﴾ فاطمة ﴿ع﴾ و أعطاها فدك و سلّمه إليها، و كان وكلاؤها فيها طول حياة النّبيّ ﴿ﷺ﴾ فلمّا مضى النّبيّ ﴿ﷺ﴾ أخذها أبو بكر، و دفعها عن النّحلة و القصّة في ذلك مشهورة، فلمّا لم تقبل بيّنتها، و لا قبل دعواها طالبت بالميراث لأنّ من له الحقّ إذا منع منه من وجه، جاز له أن يتوصّل إليه بوجه آخر، فقال لها سمعت رسول الله ﴿ﷺ﴾ يقول «نحن معاشر الأنبياء لا نورّث ما تركناه صدقة» فمنعها الميراث أيضاً، و كلامها في ذلك مشهور»

و في تفسير القمّي في قوله تعالى «و آت ذا القربى حقّه و المسكين و ابن السّبيل» يعني قرابة رسول الله ﴿ﷺ﴾ و نزلت في فاطمة ﴿ع﴾ فجعل لها فدك، و المسكين من ولد فاطمة و ابن السّبيل من آل محمّد و ولد فاطمة»

و في تفسير كشف الأسرار، قال السّدّي في قوله تعالى «و آت ذا القربى حقّه» يعني ذا القربى من رسول الله ﴿ﷺ﴾ في النّسب، و به ذهب عليّ بن الحسين بن عليّ ﴿ع﴾ روي أنّ عليّ بن الحسين ﴿ع﴾ قال لرجل من أهل الشّام أقرأت القرآن؟ قال نعم، قال أفما قرأت في سورة بني إسرائيل «و آت ذا القربى حقّه» قال و إنّكم للقرابة الّذي أمر الله أن يؤتى حقّه؟ قال: نعم»

و في شواهد التّنزيل للحاكم الحسكاني الحنفي ـ و هو من أعلام العامّة في القرن الخامس ـ بإسناده عن أبي سعيد قال لمّا نزلت «و آت ذا القربى حقّه» أعطى رسول الله ﴿ﷺ﴾ فاطمة فدكاً»

و فيه، بإسناده عن أبي سعيد قال لمّا نزلت هذه الآية «و آت ذا القربى حقّه» دعا النّبيّ ﴿ﷺ﴾ فاطمة و أعطاها فدكاً»

و فيه، بإسناده عن أبي سعيد الخدري قال لمّا نزلت على رسول الله ﴿ﷺ﴾ «و آت ذا القربى حقّه» دعا فاطمة فأعطاها فدكاً، و العوالي، و قال هذا قسم قسمه الله لك بعقبك»

وفيه: بإسناده عن أبان بن تغلب عن جعفر بن محمّد عن أبيه عن عليّ بن الحسين عن أبيه عن عليّ ﴿عليه السلام﴾ قال: لمّا نزلت «وآت ذا القربى حقّه» دعا رسول الله فاطمة عليها السلام فأعطاها فدكاً»

وفي الدرّ المنثور: أخرج البزّار وأبو يعلى وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: لمّا نزلت هذه الآية «وآت ذا القربى حقّه» دعا رسول الله ﴿صلّى الله عليه وآله﴾ فاطمة فأعطاها فدكاً»

وفيه: وأخرج ابن مردويه عن ابن عبّاس قال: لمّا نزلت «وآت ذا القربى حقّه» أقطع رسول الله ﴿صلّى الله عليه وآله﴾ فاطمة فدكاً»

وفي معارج النبوّة: ج ١ ص ٢٢٦ للكاشفي المكّي الكاشفي ـ وهو من أعلام العامّة ـ «لمّا نزل جبرئيل إلى رسول الله ﴿صلّى الله عليه وآله﴾ بقوله تعالى «وآت ذا القربى حقّه» قال رسول الله ﴿صلّى الله عليه وآله﴾: من ذو القربى؟ وما حقّه؟ قال: هي فاطمة فأعطها فدكاً»

وفي تفسير الثعلبي: بإسناده عن عليّ بن الحسين ﴿عليه السلام﴾ قال: «نحن ذو القربى»

وفي تفسير الطبري: بإسناده عن السدّي عن أبي الديلم قال: قال عليّ بن الحسين ﴿عليه السلام﴾ لرجل من أهل الشام: أقرأت القرآن؟ قال: نعم، قال: أفما قرأت في بني إسرائيل: «وآت ذا القربى حقّه»؟ قال: وإنّكم للقرابة التي أمر الله جلّ ثناؤه أن يؤتى حقّه؟ قال: نعم»

وفي كتاب مناقب الإمام أمير المؤمنين ﴿عليه السلام﴾ للحافظ محمّد بن سليمان الكوفي ـ وهو من أعلام القرن الثالث ـ حديث ٦٧٤) بإسناده عن أبان بن تغلب عن جعفر بن محمّد قال: لمّا نزلت هذه الآية «وآت ذا القربى حقّه» (الإسراء: ٢٦) قال: دعا رسول الله ﴿صلّى الله عليه وآله﴾ فاطمة فأعطاها فدكاً»

وفي روح المعاني: قال الآلوسي مفتي بغداد في تفسير قوله تعالى «وآت ذا القربى» أي ذا القرابة منك «حقّه» الثابت له»

ثمّ قال: «وقيل: المراد بذي القربى أقارب الرسول ﴿صلّى الله عليه وآله﴾ وروي ذلك عن السدّي، وأخرج ابن جرير عن عليّ بن الحسين رضي الله تعالى عنهما أنّه قال لرجل من أهل الشام

أقرأت القرآن؟ قال: نعم. قال: أفما قرأت في بني إسرائيل: «وآت ذا القربى حقّه»؟ قال: و إنّكم للقرابة الّتي أمر الله تعالى أن يؤتى حقّه؟ قال: نعم. و رواه الشّيعة عن الصّادق رضي الله تعالى عنه. و حقّهم توقيرهم و إعظامهم. خمس. و ضعف بأنّه لا قرينة على التّخصيص. و أجيب بأنّ العطف قرينة و فيه نظر. و ما أخرجه البزّار و أبو يعلى و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري من أنّه لمّا نزلت هذه الآية دعا رسول الله ﴿ﷺ﴾ فاطمة فأعطاها فدك لا يدلّ على تخصيص الخطاب به عليه الصّلاة و السّلام على أنّ في القلب من صحّته شيئاً بناءً على أنّ السّورة مكّيّة. و ليست هذه الآية من المستثنيات. و فدك لم تكن إذ ذاك تحت تصرّف رسول الله ﴿ﷺ﴾ بل طلبها رضي الله تعالى عنها ذلك إرثاً بعد وفاته عليه الصّلاة و السّلام كما هو المشهور ربّما يقول بصحّته كما لا يخفى» انتهى كلامه.

أقول: إنّ تشكيك الآلوسي مردود بوجوه:

منها أنّه لا منافاة بين مدنيّة الآية و مكّيّة السّورة و بالعكس، فإنّ كثيراً من الآيات المدنيّة جاءت في السّور المكّيّة، و بالعكس.

و منها أنّ الآلوسي ذكر في أوّل تفسير سورة الإسراء عن الحسن و قتادة أنّ هذه الآية «و آت ذا القربى حقّه» من المستثنيات فكأنّه نسي ما ذكره.

و منها أنّه لمّا كانت الآية مدنيّة، شرع حكم فدك بعد الهجرة لأهمّيّة أمر القربى و تأكيده.

و منها أنّ أبا بكر لمّا لم يمض هبته المتصدّقة لفاطمة الزّهراء سلام الله عليها، و لا قبل دعواها طالبت بالميراث، و ذلك يجوز لأنّ من له الحقّ إذا منع منه من وجه جاز له أن يتوصّل إليه بوجه آخر.

و في تفسير المجمع: و قيل: إنّ المراد قرابة الرّسول ﴿ﷺ﴾ عن السّدّي قال: إنّ عليّ بن الحسين ﴿ع﴾ قال لرجل من أهل الشّام حين بعث به ﴿ﷺ﴾ عبيد الله بن زياد إلى يزيد بن معاوية: أقرأت القرآن؟ قال: نعم. قال: أما قرأت «و آت ذا القربى حقّه»؟ قال: و إنّكم ذو القربى الّذي أمر الله أن يؤتى حقّه؟ قال: نعم». و هو الّذي رواه أصحابنا عن الصّادقين

عليهما السلام. وأخبرنا الشريف أبو محمد مهدي بن نزار الحسيني قراءة قال حدثنا أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله الحسكاني قال حدثنا الحاكم أبو أحمد أبو محمد قال حدثنا [عبد الله] عمر بن أحمد بن عثمان ببغداد شفاهاً قال أخبرني عمر بن الحسن بن علي بن مالك قال حدثنا جعفر بن محمد الأحمسي قال حدثنا حسن بن حسين قال حدثنا أبو معمر سعيد بن خثيم وعلي بن القاسم الكندي ويحيى بن يعلى وعلي بن مسهر عن فضيل بن مرزوق عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري قال لما نزل قوله «وآت ذا القربى حقّه» أعطى رسول الله (ص) فاطمة فدكاً قال عبد الرحمن بن صالح كتب المأمون إلى عبد الله بن موسى يسأله عن قصة فدك، فكتب إليه عبد الله بهذا الحديث رواه الفضيل بن مرزوق عن عطية، فردّ المأمون فدكاً إلى ولد فاطمة (ع)»

وفي العيون في باب ذكر مجلس الإمام علي بن موسى الرضا (ع) مع المأمون في الفرق بين العترة والأمة - بإسناده عن الريّان بن الصلت - حديث طويل - وفيه قالت العلماء: أخبرنا هل فسّر الله تعالى الاصطفاء في الكتاب؟ فقال الرضا (ع): فسّر الاصطفاء في الظاهر سوى الباطن في اثني عشر موطناً وموضعاً، فأول ذلك قوله عزّ وجلّ ... إلى أن قال (ع): .. والآية الخامسة قول الله تعالى: «وآت ذا القربى حقّه» خصوصيّة خصّهم الله العزيز الجبّار بها، واصطفاهم على الأمة فلما نزلت هذه الآية على رسول الله (ص) قال: ادعوا لي فاطمة، فدعيت له، فقال (ص): يا فاطمة قالت: لبّيك يا رسول الله (ص)، فقال: هذه فدك هي مما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب، وهي لي خاصّة دون المسلمين، وقد جعلتها لك لما أمرني الله به، فخذيها لك ولولدك. فهذه الخامسة ... الحديث

قوله (ص): «لم يوجف» من الإيجاف: السير الشديد. قال الله تعالى: «وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب» الحشر: ٦) أي والذي أرجعه الله تعالى وردّه على رسوله (ص) من أموال بني النضير - ولم يأخذ أحد من أموال الكفار من غير قتال وذلك خاصة لرسول الله (ص) - فلم تسيروا أيها المؤمنون مسيرة على ما أفاء الله تعالى تحتاج إلى ركوب فرس ولا إبل، ولم تتحمّلوا عليه إذ كان القوم قريباً منكم،

فتسير إليهم بأنفسكم، و قد استسلموا لكم بغير قتال، فهم عصموا أموالهم بالمال و أنفسه عنهم

و في أصول الكافي بإسناده عن عبد الحميد بن أبي الدّيلم عن أبي عبد الله (عليه السلام) - حديث طويل - قال (عليه السلام): فقال جلّ ذكره «و آت ذا القربى حقّه» و كان عليّ (عليه السلام) و كان حقّه الوصيّة التي جعلت له، و الاسم الأكبر و ميراث العلم و آثار علم النبوّة»

أقول: قال الفيض رحمه الله تعالى عليه في تفسير «الصافي» بعد نقل هذا الحديث: أقول لا تنافي بين هذا الحديث و الأحاديث السابقة، و لا بينهما و بين تفسيري العامّة و لا بين تفسيريهم كما يظهر للمتدبّر العارف بمخاطبات القرآن، و معنى الحقوق و من الّذي له الحقّ و من الّذي لا حقّ له و الحمد لله» انتهى كلامه

﴿معنى فدك و مكانها﴾

في لسان العرب: فَدَكَ القُطْن تفديكاً: نفشه. فدكٌ: موضع بالحجاز. الأزهري: فدك قرية بخيبر، وقيل بناحية الحجاز فيها عين و نخل أفاءها الله على نبيه ﴿ص﴾.

و في قاموس اللغة و تاج العروس: فدك ـ محرّكة ـ بخيبر، فيها نخل و عين أفاءها الله على نبيه ﴿ص﴾.

و في أقرب الموارد: فدك: نفش نفشه. و فدك فلانٌ القطن: جعله ينفشه. فدك: اسم قرية بخيبر.

و في مجمع البحرين: فدك ـ بفتحتين ـ قرية من قرى اليهود بينها و بين مدينة النبي ﴿ص﴾ يومان، و بينها و بين خيبر دون مرحلة، و هي مما أفاء الله على رسوله ﴿ص﴾، منصرف و غير منصرف، و كانت لرسول الله ﴿ص﴾ لأنّه فتحها هو و أمير المؤمنين ﴿ع﴾، لم يكن معهما أحد فزال عنها حكم الفيء، و لزمها اسم الأنفال.

فلمّا نزل «وآت ذا القربى حقّه» أي أعط فاطمة ﴿ع﴾ فدكاً، أعطاها رسول الله ﴿ص﴾ إيّاها، و كانت في يد فاطمة ﴿ع﴾ إلى أن توفّي رسول الله ﴿ص﴾ فأخذت من فاطمة ﴿ع﴾ بالقهر و الغلبة، و قد حدّها عليّ ﴿ع﴾: حدّ منها جبل أحد، و حدّ منها عريش مصر، و حدّ منها سيف البحر، و حدّ منها دومة الجندل يعني الجوف».

عن أبي بصير عن أبي عبد الله ﴿ع﴾ قال: قلت له: لِمَ لم يأخذ أمير المؤمنين ﴿ع﴾ فدك لمّا ولي الناس، و لأيّ علّة تركها؟ فقال: لأنّ الظالم و المظلوم قد كانا قدما على الله تعالى،

فأثاب الله المظلوم، وعاقب الظالم، فكره أن يسترجع شيئاً قد غضب عليه غاصبه، وأثاب عليه المغصوب»

وقال الإمام موسى بن جعفر (؏) ـ في عدم استرجاع أمير المؤمنين الإمام عليّ (؏) فدك في خلافته ـ: «لأنّا أهل بيت لا نأخذ حقوقنا ممّن ظلمنا إلاّ هو ـ يعني الله تعالى ـ ونحن أولياء المؤمنين، إنّما نحكم لهم، ونأخذ حقوقهم ممّن ظلمهم ولا نأخذ لأنفسنا»

وفي معجم البلدان: فدك ـ بالتحريك ـ وآخره كاف، قال ابن دريد: فدكتُ القطن تفديكاً إذا نفشته، وفدك قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان، وقيل ثلاثة، أفاءها الله على رسوله (ﷺ) في سنة سبع صلحاً، وذلك أنّ النبيّ (ﷺ) لمّا نزل خيبر، وفتح حصونها، ولم يبق إلاّ ثلث، واشتدّ بهم الحصار، راسلوا رسول الله (ﷺ) يسألونه أن ينزلهم على الجلاء وفعل، وبلغ ذلك أهل فدك، فأرسلوا إلى رسول الله (ﷺ) أن يصالحهم على النصف من ثمارهم وأموالهم فأجابهم إلى ذلك، فهي ممّا لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب فكانت خالصة لرسول الله (ﷺ)، وفيها عين فوّارة ونخل كثيرة، وهي التي قالت فاطمة رضي الله عنها إنّ رسول الله (ﷺ) نحلنيها، فقال أبو بكر أريد لذلك شهوداً، ولها قصّة»

والمعلوم أنّ فدك كانت أرضاً زراعية واسعة يهودية تقع بالقرب من خيبر يسكنها طائفة من اليهود حتى السنة السابعة حيث قذف الله تعالى بالرعب في قلوب أهليها فصالحوا رسول الله (ﷺ) على النصف من فدك أو كلّها، فصارت ملكاً لرسول الله (ﷺ) خاصّة لأنّها لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب ثمّ أهداها لابنته الصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء سلام الله عليها بأمر من الله تعالى مرّتين، وكانت بيدها في عهد أبيها وبعد وفاته (ﷺ) وكانت وضعت عليها وكيلاً عنها فانتزعها أبو بكر ابن أبي قحافة غصباً وظلماً وطرد وكيلها قهراً وجبراً بعد قلائل من أيّام وفاة رسول الله (ﷺ). فكانت فدك غير خيبر ولا قرية من قرى خيبر كما زعم بعضهم

وفي فتوح البلدان للبلاذري قال: «لمّا فتح رسول الله (ﷺ) خيبر ولم يبق غير

ثلاثة حصون، خاف اليهود خوفاً شديداً، فصالحوا النبيّ ﴿ﷺ﴾ على الجلاء، و حقن الدّماء، و قبل النبيّ ﴿ﷺ﴾ منهم ولمّا سمع أهل فدك ذلك أرسل رئيسهم يوشع بن نون اليهودي إلى رسول الله ﴿ﷺ﴾ فصالح على أن يعطيه فدك و يؤمنه قومه، و على أن يعملوا بها في أعمالهم بأن يكون لهم نصف الثمر، ثم إن شاء رسول الله ﴿ﷺ﴾ أقرّهم و إن شاء أجلاهم فرضي ﴿ﷺ﴾ و كانت فدك خالصة لرسول الله ﴿ﷺ﴾ لأنّها ممّا أفاء الله به على رسوله ﴿ﷺ﴾ حيث لم يوجف عليها بخيل و لا ركاب».

و في معجم البلدان لياقوت الحموي، قال ـ في مادّة فدك ـ أصحّ ما ورد عندي في فدك ما ذكره أحمد بن جابر البلاذري في كتاب الفتوح له (أي فتوح البلدان ص ٣٦)، فإنّه قال: بعث رسول الله ﴿ﷺ﴾ بعد منصرفه من خيبر إلى أرض فدك مُحَيِّصة بن مسعود، و رئيس فدك يومئذ يوشع بن نون اليهودي يدعوهم إلى الإسلام فوجدهم مرعوبين خائفين لما بلغهم من أخذ خيبر، فصالحوه على نصف الأرض بتربتها، فقبل ذلك منهم و أمضاه رسول الله ﴿ﷺ﴾ و صار خالصاً له لأنّه لم يوجف عليه بخيل و لا ركاب فكان يصرف ما يأتيه منها في أبناء السبيل.

أقول: حتى أمر الله تعالى بإيتاء رسول الله ﴿ﷺ﴾ فدكاً لابنته فاطمة الزهراء سلام الله عليها، إذ كانت حقّاً لها.

و قيل: فدك واحة في الحجاز على مقربة من خيبر، كان أهلها من المزارعين اليهود اشتهرت قديماً بثمرها و قمحها، أرسل النبيّ ﴿ﷺ﴾ عليّاً ﴿ﷺ﴾ على رأس مائة من رجاله لإخضاعهم، ثمّ صالحهم على أملاكهم سنة (٧ هـ) فوهبها لفاطمة الزهراء ﴿ﷺ﴾ و جعلت فاطمة عاملها فيها، و بعد وفاة الرسول ﴿ﷺ﴾ طرد عاملها و صادروها.

و في اللمعة البيضاء في شرح خطبة الزهراء سلام الله عليها ـ فصل في ذكر فدك و العوالي ـ قال: «و أمّا الكلام في ذكر فدك و العوالي و غصبهما عنها سلام الله عليها فهو أنّ العوالي جمع العالية، و هي من الأراضي في شهرة لعرفته ـ على ما في الصّحاح ـ ما فوق نجد إلى أرض تهامة و إلى ما وراء مكّة و هي الحجاز و ما والاها، و النسبة إليها عاليّ، و يقال أيضاً عُلْويّ على غير قياس، يقال عالي الرّجل و أعلى إذا أتى عالية نجد، و كذا في

خرج معه، وقال في المجمع: والعوالي في الحديث: العالية والعوالي، وهي قرى بأعلى أراضي المدينة، وأدناها من المدينة على أربعة أميال، وأبعدها من جهة نجد ثمانية أميال، و [illegible] على غير قياس، [illegible] وبين المدينة ثلاثة أميال.

وفي المغرب: العوالي: موضع على نصف فرسخ من المدينة. وقال في النهاية: وذكر العالية والعوالي في غير موضع من الحديث، وهي أماكن بأعلى أراضي المدينة، والنسبة إليها علويّ على غير قياس، وأدناها من المدينة على أربعة أميال، وأبعدها من جهة نجد ثمانية أميال، ومنه [illegible]

قال صاحب اللمعة البيضاء: والظاهر من الأخبار [illegible] تسمّى العوالي [illegible] دون سائر المسلمين [illegible] فدك [illegible] النبي ﷺ [illegible] في حياته [illegible] ولمّا غصبوا فدك [illegible] في الأخبار [illegible] فدك [illegible] في خصوص [illegible] الكلام في تحقيق حال فدك [illegible] في [illegible]

وفي اللمعة البيضاء: وروي أن النبي ﷺ لما فتح خيبر [illegible] فصالح أهلها معه ﷺ على أن يكون نصف أرضها لرسول الله ﷺ مع النخيل والأشجار النابتة الموجودة فيها، فصالح ﷺ معهم على هذا، فنزل جبرئيل ﷺ بقوله تعالى: «فآت ذا القربى حقه» فقال ﷺ: من ذا القربى؟ وما حقه؟ قال جبرئيل: ذا القربى فاطمة ﷺ، وحقها ما كان لك من أراضي فدك وحوائطها، فكتب ﷺ بذلك صكّاً ووثيقة وأعطاها فاطمة ﷺ، وهذه الوثيقة هي التي أتت بها فاطمة إلى أبي بكر حين غصب فدك بعد رسول الله ﷺ.

وفيه: وروي عن [illegible] ﷺ أنه لما فرغ النبي ﷺ من أمر خيبر أراد أن يرسل

[illegible]

٧) وذلك قوله: «فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكنّ الله يسلّط رسله على من يشاء» الحشر ٦ ولم يعرف المسلمون ولم يطؤوها ولكنّ الله أفاءها على رسوله ﴿ﷺ﴾ وطوّف به جبرئيل في دورها وحيطانها، وغلّق الباب ودفع المفاتيح إليه، فجعلها رسول الله ﴿ﷺ﴾ في غلاف سيفه وهو معلّق بالرّحل، ثمّ ركب، وطويت له الأرض كطيّ الثّوب، ثمّ أتاهم فأتاهم (جاءهم خ) رسول الله ﴿ﷺ﴾ وهم على مجالسهم، ولم يتفرّقوا ولم يبرحوا، فقال رسول الله ﴿ﷺ﴾: قد انتهيت إلى فدك، وإنّي قد أفاءها الله عليّ. فغمز المنافقون بعضهم بعضاً، فقال رسول الله ﴿ﷺ﴾: هذه مفاتيح فدك. ثمّ أخرج (أخرجها خ) من غلاف سيفه، ثمّ ركب رسول الله ﴿ﷺ﴾ وركب معه النّاس، فلمّا دخلوا المدينة دخل ﴿ﷺ﴾ على فاطمة ﴿عليها السلام﴾، وقال: يا بنيّة إنّ الله قد أفاء على أبيك بفدك واختصّه بها، فهي له خاصّة دون المسلمين (المؤمنين خ)، أفعل بها ما أشاء، وإنّه قد كان لأمّك خديجة على أبيك مهر، وإنّ أباك قد جعلها لك بذلك وأنحلتكها تكون لك (أو أعطيتكها لك خ) (وأعطيها لك خ) ولولدك بعدك.

فدعا بأديم عكاظيّ، ودعا عليّ بن أبي طالب ﴿عليه السلام﴾ فقال: اكتب لفاطمة ﴿عليها السلام﴾ بفدك نحلة من رسول الله ﴿ﷺ﴾ فشهد على ذلك عليّ بن أبي طالب ﴿عليه السلام﴾ ومولى لرسول الله وأمّ أيمن، فقال رسول الله ﴿ﷺ﴾: إنّ أمّ أيمن امرأة من أهل الجنّة، وجاء أهل فدك إلى النّبيّ ﴿ﷺ﴾ فقاطعهم على أربعة وعشرين ألف دينار في كلّ سنة».

وفي رواية أخرى: سبعين ألف دينار.

وفي شرح ابن أبي الحديد: قال ـ بعد ذكر مصالحة فدك مع أهلها على النّصف ـ فلم يزل الأمر كذلك حتّى أخرجهم عمر وأجلاهم بعد أن عوّضهم عن النّصف الآخر الّذي كان لهم عوضاً من إبل وغيرها.

وفي المناقب لابن شهر آشوب السّرويّ المازندرانيّ رضوان الله تعالى عليه: نزل النّبيّ ﴿ﷺ﴾ على فدك يحاربهم، ثمّ قال لهم: وما يؤمنكم أن تكونوا آمنين في هذا الحصن وأمضي إلى حصونكم فأفتحها؟ فقالوا: إنّها مقفلة وعليها من يمنع عنها، ومفاتيحها عندنا، فقال ﴿ﷺ﴾: إنّ مفاتيحها دُفعت إليّ. ثمّ أخرجها وأراها القوم، فاتّهموا ديّانهم أنّه صبا ـ

أي من ـ إلى دين محمّد، و دفع المسيح إليه، فخفت أنّ المسيح عبده، و كتب في سفط ـ أي في ثوب صغير ـ في صندوق في بيت مقفل عليه، فلمّا فتّش عنها فقدت، فقال الدّيان لقد أخرجتها و قرأت عليها من التوراة و خشيت من سحره، و أعلم الآن أنّه ليس بساحر و أنّ أمره لعظيم.

فرجعوا إلى النبيّ ﴿ﷺ﴾ و قالوا: من أعطاكها؟ قال: أعطاني الذي أعطى موسى الألواح جبرئيل. فتشهّد الدّيان، ثمّ فتحوا الباب و خرجوا إلى رسول الله ﴿ﷺ﴾ و أسلم منهم فأقرّهم في بيوتهم، و أخذ منهم أخماسهم فنزل «و آت ذا القربى حقّه» قال: و ما هو؟ قال: أعط فاطمة فدكاً و هي من ميراثها من أمّها خديجة، و من أختها هند بنت أبي هالة. فحمل إليها النبيّ ﴿ﷺ﴾ ما أخذ منه، و أخبرها بالآية، فقالت: لست أحدث فيها حدثاً و أنت حيّ، أنت أولى بي من نفسي و مالي لك. فقال: أكره أن يجعلوها عليكِ سُبّة، فيمنعوك إيّاها من بعدي.

فقالت: أنفذ فيها أمرك. فجمع الناس إلى منزلها و أخبرهم أنّ هذا المال لفاطمة ﴿ع﴾ ففرّقه فيهم، و كان كلّ سنة كذلك، و يأخذ منه قوتها، فلمّا دنت وفاته دفعه إليها».

قوله: «سُبّة» العار.

و في تفسير فرات الكوفي بإسناده عن عبيد بن يحيى، قال: سئل محمّد بن الحسن رجل حضرنا، فقلت: جعلت فداك كان من أمر فدك دون المؤمنين على وجهه، ففسّرها لي؟ قال: نعم، لمّا نزل جبرئيل ﴿ع﴾ على رسول الله ﴿ﷺ﴾ شدّ رسول الله ﴿ﷺ﴾ سلاحه و أسرج دابّته، و شدّ عليّ ﴿ع﴾ سلاحه و أسرج دابّته، ثمّ توجّها في جوف الليل، و عليّ ﴿ع﴾ لا يعلم حيث يريد رسول الله ﴿ﷺ﴾ حتّى انتهيا إلى فدك. فقال له رسول الله ﴿ﷺ﴾: يا عليّ، تحملني أو أحملك؟ فقال عليّ ﴿ع﴾: أحملك يا رسول الله ﴿ﷺ﴾. فقال رسول الله ﴿ﷺ﴾: يا عليّ، بل أنا أحملك لأنّي أطول بك (أي أقدر أن أحملك مع قيام صلبي) و لا تطول بي.

فحمل رسول الله ﴿ﷺ﴾ عليّاً ﴿ع﴾ على كتفه، ثمّ قام به، فلم يزل يطول حتّى علا عليّ ﴿ع﴾ على سور الحصن، فصعد عليّ ﴿ع﴾ على الحصن و معه سيف

رسول الله ﷺ وأتى على الحصن وكثر، فنادى أهل الحصن إلى باب الحصن هربًا، حتى فتحوه وخرجوا منه فاستقبلهم رسول الله ﷺ فجمعهم ونزل على أمنهم، فقتل عليّ ﷺ عاديه عشر من عظمائهم وكبرائهم، وأعطى الذين عاقدهم، وساق رسول الله ﷺ ذراريهم ومن بقي منهم وغنائمهم فحملوها يحملون على رقابهم إلى المدينة فلم يوجف فيها غير رسول الله ﷺ فهي له ولذريته خاصة دون المؤمنين»

وفيه عن الحسين بن سعيد معنعنًا عن أبي سعيد قال: لما نزلت هذه الآية «وآت ذا القربى حقه» دعا النبي ﷺ فاطمة ﷺ فأعطاها فدكًا فكلها لم يوجف عليه أصحاب النبي ﷺ بخيل ولا ركاب فهو لرسول الله ﷺ خاصة فلفعله حيث شاء وفدك مما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب

وفيه جعفر بن محمد الفزاري معنعنًا عن ابن عباس في قوله تعالى «وآت ذا القربى حقه» وذلك حين جعل رسول الله ﷺ سهم ذي القربى من سبعة، فكانوا يأخذونه على عهد رسول الله ﷺ حتى توفي ثم حجب الخمس عن قرابته فلم يأخذوه.

وفي سعد السعود للسيد ابن طاووس قدس سره: روي من تفسير محمد بن العباس بن علي بن مروان فإنه روى حديث فدك في تفسير قوله تعالى «وآت ذا القربى حقه» عن عشرين طريقًا

وقال بعض المعاصرين: إن فدك هي مزرعة كبيرة ذات عيون كثيرة بعيدة عن المدينة المنورة ١٤٠ كيلومترًا، وسمّي في الوقت الحاضر «الحائط»، وكانا نصفها لعائلة حويطة، وقد صالح أهلها اليهود رسول الله ﷺ بهذه الأرض ليكفّ عن قتالهم كما في المغازي ج ٢ ص ٧٠٦ وفتوح البلدان ص ٤٣ وسيرة ابن هشام ج ٣ ص ٣٦٨ و غيرها.

وقد أمر الله عزّ وجلّ رسوله ﷺ أن يهب هذه الأرض بقطعة الصدقة لبضعته الطاهرة فاطمة الزهراء سلام الله عليها بقوله تعالى «وآت ذا القربى حقه» كما ورد في كتب التفسير العامة وغيرها وسنشير إلى بعضها في تفسير سورة «الفتح» تحت عنوان «فتح خيبر وقصة فدك» إن شاء الله تعالى فانتظر

وفي كامل البهائي عن محمد بن جرير الطبري ـ وهو من أعلام العرب شيخ المفسرين ـ أنّه روى في من كتاب ... ثاني عشر في حديث طويل ... عن الواقدي وهو من أعلام العامة ـ عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: سمعت عمر يقول: لمّا توفّي الرّسول خرجت أنا و أبو بكر، وعليّ بن أبي طالب ﷺ وهو في بيت فاطمة، وعنده المهاجرون، قال عمر فقلت يا عليّ ما ذا تقول؟ قال: أقول خيراً، نحن أولى برسول الله وما ترك، فقلت والّذي بخيبر؟ قال: نعم، فقلت والّذي بفدك؟ قال: نعم، فقلت كلّا والّذي نفسي بيده حتّى تحزّوا رقابنا بالمناشير»

قول عمر «والّذي بخيبر» هو قول كان يعتقده ... سلام الله عليها

وقوله «حتّى تحزّوا رقابنا بالمناشير» أي حتّى تقطعوا ... المنشار ـ جمع المنشار ـ آلة ... ينشر بها الخشب ونحوه ...

وفيه قال ابن عبّاس: كنت يوماً عند أبي بكر، وكان عمر حاضراً، فقال: لا يدخل الآن أحد علينا، فدخل شيخ طويل القامة حسن الوجه عليه رداء أحمر وبيده عصاه، وفي رجليه نعلان، فقال: السّلام ... أبو بكر ... فجلس، فقال: يا بني من أهل الحجاز ... من ... ومن ... فأنا ... أحده ... ما ... حتّى ... الرّسول ﷺ حتّى يرى نفسه ...؟ فقال أبو بكر «لا ... » وقال عمر ... رسول الله ...

فقال الشيخ «... » ...

فقال أبو بكر ...

... فلم أجده ... ولم ... أحد ... ولا من خرج ... أبو بكر، وقال لعمر «... رأيت وسمعت»؟ فقال عمر: يا أبا بكر الّذي أصابنا في وادٍ ... من ... ويضلّه» فإذاً هتف ... يقول

يا من ... لا ... ... على آل ...

أتجعل الخضر ابليساً لقد ذهبت / بك المذاهب من بين المذاهب
عن الشهود و قد دلّت على فدك / بنت الرسول أمساً غير معيوب
الله يعلم أنّ الحقّ حقّهم / لا حقّ لهم و لا حقّ لغاصب
و قد شهدت أخا تيم و صحبه / للأصلح الهادي القوم بمذهب
لا يعلمن أخا تيم بأنّ حسن / ما خصّه الله من بين الوصيّين
خصّ النبيّ عليّاً يوم فارقه / بالعلم و الحلم و القرآن و الأدب

فخاف أبو بكر و عمر خوفاً شديداً فبدأ خطاب رسول أمير المؤمنين الإمام علي ﴿ع﴾ فقال لابن عبّاس: «أخبرني عنك»

فأحلفه أبو بكر أن لا يذكر هذا الشعر لأحد

قال ابن عبّاس: أتيت أمير المؤمنين عليّاً ﴿ع﴾ فلمّا رآني تبسّم حتّى رؤيت نواجذه ثمّ قال «يا بن عمّ بالرحم و القرابة» هل حفظت هذه الأبيات أو لا؟ فقلت: نعم الأبيات، فبيّن الإمام علي ﴿ع﴾ هذه القصة و قرأ الأبيات فقال: كان هذا الشيخ أخي الخضر ﴿ع﴾

فقال «ما أشبه أحد بأحد كما شبّه أبو بكر بعمر، و ما عادى أحد قوماً أشدّ من معاداة عمر لأهل بيت الرسول ﴿ص﴾ قال الله تعالى: «و يوم يعضّ الظالم على يديه يقول يا ليتني اتّخذت مع الرسول سبيلاً» الفرقان ٢٩)

و في رواية أخرى هتف هاتف من زاوية بيت أبي بكر

عدلتم أخا تيم على كلّ ملحد / و جرتم على آل النبيّ محمّد
و أغضبتم مع عدي و زهرة / و افتخرتم عزّاً من سلالة أحمد
في فدك شئت بنت محمّد / حبستموها تعظم دون تيم بمشهد
لأسرع ما بدّلتم و نقضتم / عهودكم يا قوم قوم بعد مؤكّد

و في كتاب السقيفة و فدك لأبي بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري البصري ـ المتوفّى ـ ٣٢٣ هـ ـ و هو من أقدم أعلام العامّة ـ قال في القسم الثاني من الكتاب ـ ما

لفظه «حدّثني أبو زيد عمر بن شبّة، قال: حدّثنا حبّان بن بشر، قال: حدّثنا يحيى بن آدم، قال: أخبرنا ابن أبي زائدة، عن محمّد بن إسحاق، عن الزّهري، قال: بقيت بقيّة من أهل خيبر تحصّنوا فسألوا رسول الله ﴿ﷺ﴾ أن يحقن دماءهم و يسيّرهم، ففعل، فسمع ذلك أهل فدك فنزلوا على مثل ذلك، و كانت للنّبيّ ﴿ﷺ﴾ خاصّة لأنّه لم يوجف عليها بخيل و لا ركاب»

و فيه، و روى أحمد بن إسحاق أنّ رسول الله ﴿ﷺ﴾ لمّا فرغ من خيبر قذف الله الرّعب في قلوب أهل فدك، فبعثوا إلى رسول الله ﴿ﷺ﴾ فصالحوه على النّصف من فدك، فقدمت عليهم رسلهم بخيبر أو بالطّريق أو بعد ما أقام بالمدينة، فقبل ذلك منهم و كانت فدك لرسول الله ﴿ﷺ﴾ خالصة له لأنّه لم يوجف عليها بخيل و لا ركاب»

أقول: و بناءً على هذا فقد كانت فدك خالصة لرسول الله ﴿ﷺ﴾ ما كانت من فيء للمسلمين، فأعطاها رسول الله ﴿ﷺ﴾ بنته الصّدّيقة الطّاهرة الزّاكية المرضيّة فاطمة الزّهراء سلام الله عليها بأمر الله جلّ وعلا فلمّا استبدّ أبو بكر بن أبي قحافة بالخلافة غصبها من بنت الرّسول فدكاً، كما قد غصب الخلافة المنصوصة لأهله، و نقض عهد الله تعالى و رسوله ﴿ﷺ﴾ فهو سوّى بين غصب فدك و بين منع أهل بيت الوحي عليهم السّلام من الخمس و الإرث(٢) فمن زعم ذلك فهو ممّن فقد المسكة و الدّراية، و إنّ حديث الولادة و السّريرة و لقد اتّفقت كلمات المحدّثين على أنّ فدك كانت خالصة رسول الله ﴿ﷺ﴾ فقط، و أنّه ﴿ﷺ﴾ منحها في سنة السّابعة من الهجرة بنته الصّدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها بأمر الله جلّ و علا، فتصبح فدك خارجة من الإرث، مع أنّ فاطمة الزّهراء عليها سلام الله تصرّفت بها إلى حين وفاة رسول الله ﴿ﷺ﴾ و بعدها إلى أن غصبت.

و لعمري إنّ هؤلاء الخلفاء الغاصبين و أصحابه الكاذبين من أظهر مصاديق قوله تعالى «هم الّذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتّى ينفضّوا» المنافقون (٧)

بعد وفاة رسول الله ﷺ [illegible]

هؤلاء [illegible]

[illegible] رسول الله ﷺ [illegible]

[illegible]

[illegible]

وهؤلاء [illegible] أهل بيت الوحي المعصومين عليهم السلام [illegible] فاطمة الزهراء سلام الله عليها و [illegible] الكريم ﷺ

أقول ولا [illegible]

[illegible] الحقّ في [illegible]

وأنّ الإرث بموت المورّث يتعلّق بالوارث [illegible]

[illegible] ٢٦ و [illegible]

و فيه نهج البلاغة [illegible]

و في معجم البلدان [illegible]

﴿سبب غصب فدك﴾

قال الله تعالى «هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا» المنافقون: ٧)

ومن قطع الأرزاق وقدم الوساوس لتحكيم المستبدين وافتخار المستكبرين، وإشقاء المظلومين، وإسعاد المعتدين، وإضعاف المحرومين لمنع دعوة الدعاة وإصلاح المصلحين وأتباعهم هو التحريم الاقتصادي عليهم في كل ظرف من الظروف، ومبدأ ذلك كله هو المثل كما كتب أبو يحيى جعفر بن يحيى البصري عمّا سمعه ابن أبي الحديد في شرحه (ج ١٦، ص ٢٠٥) ويصير عمر بن الخطاب «الملك عقيم» والملك لا يعرف شيئاً في نظام التكوين والتبيين لوجود الإنسان ولا يفهم غيره ولا يتحمّله وهذا هو لسبب التوحيد لغصب فدك ومنع الإرث والنهي عن الخمس وهضم حقوق أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين بإشارة الغاصب الثاني عمر بن الخطاب على صديقه أبي بكر الغاصب الأول

إنّ الكلام طويل لا يسعه المقام ونحن على جناح الاختصار فنكتفي ببعض ما جاء في البحار: كتاب الفتن والمحن ج ٢٩ ص ٥ - احتجاج أمير المؤمنين ﴿عليه السلام﴾ على أبي بكر وغيره في أمر البيعة - حديث ٤٠)

وروى العلاّمة في كشكوله - المنسوب إليه - عن المفضّل بن عمر قال: قال مولاي جعفر الصّادق ﴿عليه السلام﴾ «لمّا ولي أبوبكر بن أبي قحافة قال له عمر إنّ النّاس عبيد هذه

لأنّهم لا يريدون إلّا الدنيا، فيخرجها فامنع عن عليّ وأهل بيته الخمس والفيء وفدكاً فإنّ شيعته إذا علموا ذلك تركوا عليّاً، وأقبلوا إليك رغبة في الدنيا وإيثاراً ومحاماة عليها. ففعل أبو بكر ذلك، وصرف عنهم جميع ذلك.

فلمّا قام أبو بكر بن أبي قحافة مناديه: أبو بكر أمر مناديه: من كان له عند رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ دين أو عدة فليأتني حتّى أقضيه، وأنجز لجابر بن عبد الله، ولجرير بن عبدالله البجلي.

قال: قال عليّ ﴿عليه السلام﴾ لفاطمة ﴿عليها السلام﴾: صيري إلى أبي بكر وذكّريه فدكاً، فصارت فاطمة إليه وذكرت له فدكاً مع الخمس والفيء، فقال: هاتي بيّنة يا بنت رسول الله. فقالت: أمّا فدك فإنّ الله عزّ وجلّ أنزل على نبيّه قرآناً يأمر فيه بأن يؤتيني وولدي حقّي، قال الله تعالى: «فآت ذا القربى حقّه» (الروم: ٣٨)

فكنت أنا وولدي أقرب الخلائق إلى رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ فنحلني وولدي فدكاً، فلمّا تلا عليه جبرئيل عليه السلام «والمسكين وابن السبيل» قال رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾: ما حقّ المسكين وابن السبيل؟ فأنزل الله تعالى: «واعلموا أنّما غنمتم من شيء فأنّ لله خمسه وللرّسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل» (الأنفال: ٤١)

فقسّم الخمس على خمسة أقسام، فقال «ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرّسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السّبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم» (الحشر: ٧)

فما كان لله فهو لرسوله، وما لرسول الله فهو لذي القربى، ونحن ذو القربى، قال الله تعالى «قل لا أسئلكم عليه أجراً إلّا المودّة في القربى» (الشورى: ٢٣)

فنظر أبو بكر بن أبي قحافة إلى عمر بن الخطّاب، وقال: ما تقول؟ فقال عمر: ومن اليتامى والمساكين وأبناء السّبيل؟ فقالت فاطمة ﴿عليها السلام﴾: اليتامى الّذين يأتمّون (يؤمنون خ) بالله وبرسوله وبذي القربى، والمساكين الّذين أسكنوا معهم في الدّنيا والآخرة، وابن السّبيل الّذي يسلك مسلكهم.

قال عمر: فإذاً الخمس والفيء كلّه لكم ولمواليكم وأشياعكم؟!

فقالت فاطمة (ع): إنّ فدك هو وهبه الله لي ولولدي دون موالينا وشيعتنا وإنّ الخمس يقسمه الله لنا ولموالينا وأشياعنا كما يقرأ في كتاب الله

قال عمر: فما لسائر المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان؟

قالت فاطمة (ع): إن كانوا من موالينا وأشياعنا فلهم الصدقات التي قسمها الله وأوجبها في كتابه، فقال الله عزّوجلّ: ﴿إنّما الصّدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلّفة قلوبهم وفي الرّقاب...﴾ (التوبة: ٦٠) إلى آخر القصّة

قال عمر: فدك لكِ خاصّة، والفيء لكم ولأوليائكم؟ ما أحسب أصحاب رسول الله يرضون بهذا!!

قالت فاطمة (ع): فإنّ الله عزّوجلّ رضي بذلك، ورسوله رضي به (له خ) وقسم على الموالاة والمتابعة لا على المعاداة والمخالفة، ومن عادانا فقد عادى الله، ومن خالفنا فقد خالف الله، ومن خالف الله فقد استوجب من الله العذاب الأليم، والعقاب الشديد في الدنيا والآخرة

فقال عمر: هاتي بيّنة يا بنت محمّد على ما تدّعين؟

فقالت فاطمة سلام الله عليها: قد صدّقتم جابر بن عبد الله وجرير بن عبد الله ولم تسألوهما البيّنة وبيّنتي في كتاب الله

فقال عمر: إنّ جابراً وجريراً ذكرا أمراً هيّناً وأنت تدّعين أمراً عظيماً يقع به الرّدّة من المهاجرين والأنصار!

فقالت (ع): إنّ المهاجرين برسول الله وأهل بيت رسول الله هاجروا إلى دينه، والأنصار بالإيمان بالله ورسوله (برسوله خ) وبذي القربى أحسنوا، فلا هجرة إلّا إلينا، ولا نصرة إلّا لنا ولا اتّباع (اتّباع خ) بإحسان إلّا بنا، ومن ارتدّ عنّا فإلى الجاهليّة

فقال لها (ع) عمر: دعينا من أباطيلك، وأحضرينا من يشهد لك بما تقولين!

فبعثت (ع) إلى عليّ والحسن والحسين وأمّ أيمن وأسماء بنت عميس ـ وكانت تحت أبي بكر بن أبي قحافة ـ فأقبلوا إلى أبي بكر، وشهدوا لها بجميع ما قالت وادّعت

فقال عمر: أمّا عليّ فزوجها، وأمّا الحسن والحسين ابناها (ابناؤها خ) وأمّا أمّ أيمن

هؤلاء. وأمّا أسماء بنت عميس فقد كانت تحت جعفر بن أبي طالب، فهي تشهد لبني هاشم، وقد كانت تخدم فاطمة. وكلّ هؤلاء يجرّون إلى أنفسهم!

فقال عليّ ﴿عليه السلام﴾: أمّا فاطمة فبضعة من رسول الله ﴿ﷺ﴾ ومن آذاها فقد آذى رسول الله ﴿ﷺ﴾ ومن كذّبها فقد كذّب رسول الله، وأمّا الحسن والحسين فابنا رسول الله ﴿ﷺ﴾ وسيّدا شباب أهل الجنّة، من كذّبهما فقد كذّب رسول الله ﴿ﷺ﴾ إذ كان من أهل (إذ كان أهل خ) الجنّة صادقين، وأمّا أنا فقد قال رسول الله ﴿ﷺ﴾: أنت منّي وأنا منك، وأنت أخي في الدنيا والآخرة، والرادّ عليك هو الرادّ عليّ، ومن أطاعك فقد أطاعني، ومن عصاك فقد عصاني، وأمّا أمّ أيمن فقد شهد لها رسول الله ﴿ﷺ﴾ بالجنّة، ودعا لأسماء بنت عميس وذرّيّتها.

فقال عمر: أنتم كما وصفتم أنفسكم، ولكن شهادة الجارّ إلى نفسه لا تقبل.

فقال عليّ ﴿عليه السلام﴾: إذا كنّا نحن كما تعرفون ولا تنكرون، وشهادتنا لأنفسنا لا تقبل، وشهادة رسول الله لا تقبل، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، إذا ادّعينا لأنفسنا تسألنا البيّنة؟! فما من معين يعين، وقد وثبتم على سلطان الله وسلطان رسوله فأخرجتموه من بيته إلى بيت غيره من غير بيّنة ولا حجّة «وسيعلم الّذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون».

ثمّ قال لفاطمة: انصرفي حتّى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين».

قال المفضّل: قال مولاي جعفر الصادق ﴿عليه السلام﴾: «كلّ ظلامة حدثت في الإسلام أو تحدث، وكلّ دم مسفوك حرام، ومنكر مشهور (المشهود خ) وأمر غير محمود، فوزره في عنقهما وأعناق من شايعهما وتابعهما ورضي بولايتهما إلى يوم القيامة».

ثمّ قال العلّامة المجلسيّ رحمه الله تعالى عليه في بيان الرواية:

يظهر من هذا الخبر أنّ لذي القربى حقّين: حقّاً مختصّاً وحقّاً مشتركاً، والأخير سمّي به مع الآية الأولى التي فيها خمس، فلمّا سألوا عن حقّ المساكين وابن السبيل أراد به الخمس ليتبيّن أنّ اشتراكهما إنّما هو في الخمس لا في سائر الفيء، فلا ينافي اختصاص فدك بهم عليهم السلام.

وأمّا تفسيرها ﴿عليها السلام﴾ اليتامى بالّذين يأتمّون، فلعلّ المعنى أنّ المراد بهم يتامى الشيعة

لا مطلق الأبناء، فلا يكون التعارض بين أنّ اليتيم مشتقّ من الإيتام لاختلاف بناء الكلمتين، مع أنّه يحتمل أن يكون مبنيّاً على الاشتقاق الكبير، ويحتمل أن يكون تأويلاً لطيفاً لأنّه من المراد باليتيم من انقطع عن والديه الروحانيّين ـ أي النبيّ والإمام عليهما السلام من الشيعة موافقاً للأخبار الكثيرة الواردة في ذلك، وأمّا ما فسّرت به المسكين فلا يساوق ثناء لأنّ المسكين والمسكن والمستكين متساوقة في الاشتقاق وهو على وزن مفعيل، يقال: تمسكن كما يقال تمدرع وتمندل

وابن السبيل أظهر فيه أنّه فسّره بسالك الحقّ وبقيد الشرط للمستحقّين بأنّه يدلّ ظاهراً على عدم اختصاص الخمس ببني هاشم ـ كما هو مذهب أكثر العامّة ـ فيمكن أن يكون هذا على سبيل التنزّل وأن يكون المراد أنّه غير شامل جميع بني هاشم بل مختصّ بمن كان منهم تابعاً للحقّ» انتهى كلامه

أقول: وفي بعض النسخ «يؤمنون» بدل «يتّقون»، وقوله عليه السلام: «وآت الخمس فقسّمه الله له ولمواليه وأتباعه، وفسّره على الموالاة والمتابعة لا على المعاداة والمفاصلة» دلالة على اختصاص الخمس بالشيعة دون غيرهم، وقد ثبت عن الإمام جعفر الصادق (ع) أنّه قال: «أبحنا لشيعتنا» أي الخمس بعنوان المطلق من سهم السادة و الإمام (ع) يختصّ بالشيعة فلا يجوز أن يعطى الخمس لغيرهم، وإن جاز أن يعطى الصدقة والزكاة بغير الشيعة من فرق المسلمين ما لم يكونوا معاندين

وقوله (ع): «كلّ ظلامة حدثت في الإسلام أو تحدث» إشارة إلى غصب أمير المؤمنين الإمام عليّ (ع)

في نهج البلاغة: «حتّى إذا قبض الله رسوله (ص) رجع قوم على الأعقاب، و غالتهم السبل واتّكلوا على الولائج، ووصلوا غير الرحم، وهجروا السبب الذي أمروا بمودّته، ونقلوا البناء عن رصّ أساسه، فبنوه في غير موضعه، معادن كلّ خطيئة، وأبواب كلّ ضارب في غمرة...» الخطبة: ١٥٠)

وقال بعض المعاصرين ـ ناصحاً منّا ـ وقد كان أمير المؤمنين الإمام عليّ (ع) الذي يرغم معارضة الهاشميّين مصدر رعب شديد في نفوس الغاصبين لأنّ طروقه الخاصّة

كانت تمدّه بقوّة على نوعين من العمل الإيجابي ضدّ الحكومة الغاصبة

أحدهما: تصميم الأحزاب المناوئة إلى جانب كالأمويين والمغيرة بن شعبة وأمثالهم ممّن كانوا قد بدؤوا يعرضون أصواتهم للبيع ويفاوضون الجهات المختلفة في أشهر نشوئها لتصحيح الأمر كما هو ظاهر من كلمات أبي سفيان التي واجه بها خلافة السّقيفة الشحيحة المشؤومة يوم وصوله إلى المدينة وحديثه مع عليّ بن أبي طالب ﴿؏﴾ وتحريضه له على الثورة وميله إلى جانب أبي بكر الغاصب وسكوته عن المعارضة حين تنازل له أبو بكر عن أموال المسلمين التي كان قد جباها في سفره، وموقف عتاب بن أسيد وهو عامل رسول الله ﴿ﷺ﴾ على مكّة حين وفاة رسول الله ﴿ﷺ﴾ فهو استخفى يوم ذاك وإذن فقد كان هوى المناوئين منسوباً على طائفة من الناس يومئذ ومن الواضح أنّ أمير المؤمنين عليّاً ﴿؏﴾ كان متمكّناً من استخراج عطفهم ضدّ خليفة رسول الله ﴿ﷺ﴾ من الخمس وغلاّب الرؤساء في المدينة وغيرها التي كانت ذات شأن كبير.

ثانيهما: أنّ المقاومة التي كان أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﴿؏﴾ مزوداً بمكنتها بالمحاجّة القويّة التي تهدّ بها بناء السّقيفة بعد وفاة رسول الله ﴿ﷺ﴾ «احتجّوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة» على حدّ تعبير الإمام في كلامه ﴿؏﴾ [66].

فإنّ الفكرة العامّة يومئذ التي اجتمعت على تقديس أهل بيت الوحي المعصومين عليهم السلام، والاعتراف لهم بالامتياز العظيم لقربهم من رسول الله ﴿ﷺ﴾ كانت سنداً قويّاً للمعارضة

وقد رأى أبو بكر الغاصب بمشورة خليفته عمر بن الخطّاب أنّ الموقف المادّي لأهل بيت الوحي عليهم السلام حرج جدّاً لأنّ أطراف المملكة التي تجبى منها الأموال لا تخضع للحكم الغاصب الجديد، لأنّها ستعرف دعائم حكومته الغاصبة في العاصمة والمدينة، ولم تخضع له خضوعاً جامعاً بعد، وحتى كان أبو سفيان ومن يحذو حذوه قد باع صوته للحكومة الغاصبة، فمن الممكن أن يفسخ المعاملة إذا عرض عليه شخص آخر ثمناً أكثر منه ربحاً، وهذا ما كان يستطيع الإمام عليّ ﴿؏﴾ أن يقوم به في كلّ حين، فيجب والحالة هذه أن تنتزع من الإمام عليّ ﴿؏﴾ الذي لم يكن مهيّأً للمقابلة في تلك

[illegible] خطر الحدّي على مصالح الحزب الحاكم [illegible] المعارضين على إنشاء حزب من [illegible]

[illegible] الحاكم الغاصب منطبقاً على طبيعة السياسة التي [illegible] عمر بن الخطّاب صوت الحزب الأموي [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] قد صارت من نصيب بطنه وحدها [illegible] رسول الله (ﷺ) وكان أهل بيته يطالبون بها؟

[illegible] مرتدّون

إلغاء الملكية الفردية و مصادرة أموال أهل بيت النبوّة؛

و نظير ما ذكرناه رأي أبي بكر و خليفته عمر بن الخطاب فيه أمران:

الأوّل: إلغاء الأخذ بالخمس في خلافته فأسقطه في خلافته هو و عثمان بن عفان بعدهما من دون عرض هذه فهم هذا من قول ... من ... أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﴿عليه السلام﴾

الثاني: إلغاء الملكية الفردية في مصادرة ... أموال النبي في ... فدك، ... و ... عمر ... و لا ... النبي ... و ... على ... حال ... بن ... و ... في ... بن ... من ... أبي بكر و عمر ... علي ... من ... عمر بن ... في ... أبي ... عمر بن الخطاب ... رسول الله ﴿...﴾ ...

و نذكر هنا رأي ...

الأولى ... أبي بكر ... مع ... المؤمنين ... علي ﴿...﴾ ... من ... و ... عمر بن الخطاب ... المعصومين صلوات الله عليهم ... و ... فاطمة الزهراء ﴿...﴾ و ... و ... من ... و ... و ... من ... عمر ... من أهل بيت النبوّة ...

و من ... و ... من عمر بن الخطاب من ... و ... أبي بكر بن أبي قحافة ... ﴿...﴾ ... في أهل بيت الوحي المعصومين عليهم السلام.

الثانية: أبو بكر ... من بني هاشم في ... من ... الحكم ... و لا ... و لم ... من ... الإسلامية ... مع ... الأمويين في ... عظيماً و ... من ... و ... بين عمر بن الخطاب و عبد الله بن عبّاس ... عمر بن الخطاب ... من ...

يخشى إذا صار الهاشميون ولاة على أقطار المملكة الإسلامية أن يقوى، وهم كذلك، فيحدث في أمر الخلافة ما لا يريد.

ومن عرف رأي عمر أن نظر ست من بيوت أتباعه إلى التسلّط بالولاية في الأقطار الإسلامية يجتذبهم نحو الخلافة والمركز الأعلى، ولاحظ أنّ الأمويين ذوي الألوان السياسيّة الواضحة كان فيهم ولاة أحسنوا اقتدارهم في مجالات الإدارة زمن أبي بكر وعمر، وأضاف إلى ذلك أنه كان يعلم علم اليقين بعد تدبير الشورى التي ابتكرها عمر سوف تجعل عثمان بن عفان خليفة يتّصل بشخصه مهمّة وتقدير تاريخيّ يدل على صحّة عدة من الظواهر وهو أن الخصمين الأوّلين كانا تحت تسلّط الأموي سياسة معاوية، وهذا يعني عدم الجسم أن يكون كيان سياسي من جديد للأمويّين خصوم بني هاشم لتقدّمهم معاً، تقدم المناصب بني هاشم في رعاية أمويّ وتطوّر المعارضة الفردية لبيت هاشميّ إلى معارضة بيت مستعدّ للشرع، والمنافسة تكمل استعداد.

ومن شأن هذه المعارضة أنها تقوى وتنمو لأنها تتمثّل في شخص من في بيت كبير، ومن هنا يظهر أنّ سياسة أبي بكر وخليفته عمر هي التي وضعت حجر الأساس لملك بني أُمية حتّى تصبح ضد البيت الهاشمي لعليّ بن أبيطالب وآله عليهم السلام على طول الخطّ، وهذا هو السرّ السياسي الذي غفل عنه الباحثون في قصة الشورى، وقد جاء عن عمر أنّه هدّد الستّة الذين أوكل إليهم أمر الخلافة بمعاوية وتنبأ لهم بأنّه سيملك الأمر، فتتحوّل الخلافة بالشخصية التي كان يريدها.

الثّالثة: عزل الحزب الحاكم الغاصب خالد بن سعيد بن العاص عن قيادة الجيش الذي وجّهه لفتح الشام بعد أن أسندها إليه، لا لشيء إلا لأنّ عمر بن الخطّاب نبّهه إلى نزعته الهاشمية وميله إلى أهل بيت النبوّة المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين وذكره بموقفه تجاههم بعد وفاة رسول الله ﴿ﷺ﴾

الرّابعة: قصّة الشّورى العُمريّة الّتي نزل فيها عمر بن الخطّاب بأمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب ﴿ع﴾ إلى صف أشخاص خمسة لا يكافئونه ﴿ع﴾ في شيء من معانيه المحمّدية، وقد كان الزّبير وهو أحد الخمسة يرى يوم توفّي رسول الله ﴿ﷺ﴾ أنّ الخلافة

حقّ شرعيّ لعليّ بن أبي طالب (ع) فلاحظ كيف انتزع عمر بن الخطّاب هذا الرّأي من عقله وأعدّه لنفسه بعد حين إذ جعله أحد السّتّة الّذين منهم عليّ بن أبي طالب (ع)

وإذن فقد كان الحزب الحاكم [illegible] يحاول أن يساوي بين بني هاشم وسائر النّاس ويرتفع برسول الله (ص) عن الاختصاص بهم ليشرع بذلك الفكرة الّتي كانت تراود الهاشميّين بعد وفاته على المعارضة، ومن ضمان الحزب الحاكم لمناصب إلى أنّ عليّاً (ع) لا يثور عليه في تلك السّاعة لحرصه على الإسلام فهو لا يأمن من انتفاضته (ع) بعد ذلك في كلّ حين، ومن الطّبيعيّ أن يسرع الحزب إلى الإجهاز على كلّ قوّته المادّية والمعنويّة [illegible] قبل أن يسوقه إلى حرب [illegible]

وبذلك وقف أبو بكر بعد ذلك بإشارة عمر بن الخطّاب موقفه السّلبيّ المعروف من الصّدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها في قضيّة فدك فهو موقف يلتقي فيه الغرضان، ويركز على الخطّين الأساسيين لسياسته لأنّ الدّواعي الّتي دعته إلى غصب فدك كانت تدعوه إلى الاستمرار على نفس الخطّة ليسلب بذلك من خصمه الثّروة الّتي كانت سلاحاً قويّاً في عرف الحكّام الجبابرة في كلّ ظرف من الظّروف [illegible] والأمر الّذي كان يمنعه عن تسليم فدك للصّدّيقة الزّهراء (ع) بعد أن أعطته الوعد القاطع بأن تصرف منتوجاتها في سبيل الخير، ووجوه المصلحة العامّة، إلاّ أنّه خاف منها أن تفسّر وعدها بما يتّفق مع صرفها لغلّات فدك في المجالات السّياسيّة وما الّذي [illegible] على رضا الصّدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها بتشريك ما في حقّها، ونصب المصلحة إذا صحّ أنّ فدكاً ملك للمسلمين سوى أنّه أراد أن يقوى بها خلافته

وبعد فإنّنا إذا عرفنا أنّ الصّدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها كانت سنداً قويّاً لقرينها عليّ بن أبي طالب عليهما السّلام في دعوته إلى نفسه، ودليلاً يحتجّ به أنصار الإمام عليّ (ع) على أحقّيّته بأمر الخلافة فمن الواضح أنّ أبا بكر بإشارة عقله المنفصل عمر بن الخطّاب كان موفّقاً كلّ التّوفيق في موقفه تجاه دعوى فاطمة الزّهراء (ع) للنّحلة، وجارياً على المنهج السّياسيّ الّذي كان يفرضه عليه الظّرف الدّقيق إذ اغتنم الفرصة المناسبة لإفهام المسلمين بصورة لبقة، وعلى أسلوب غير مباشر بأنّ فاطمة امرأة من

الـ... و لا يصحّ أن يوجد ... و دعوتها ... في ... كذلك ... من موضوع ... و أنّها إذا كانت ... ليس ... حق، في المملكة ... روحها المملكة الإسلامية كلّها و ليس له فيها حق

و قال الإمام الصّادق «ع» للمفضّل بن عمر: لمّا بويع أبوبكر أشار عليه عمر بمنع عليّ و أهل بيته الخمس و الفيء و فدك، فإنّ شيعته إذا علموا ذلك تركوه و أقبلوا ... عنه في ... فصرفهم أبوبكر عن جميع ما هو لهم»

و قال بعض الباحثين: «و ... حر و هو ... المطهر بالنبوّة ... أهل البيت ... عن ... و قطع ... من ... إلى ...»

و قال بعضهم: «و ... أن يكون ... و الأخرى ... في ... على ... ثمّ يذكر ... عليهم السلام ... حتّى ... و موقفه ... لا ... و أنّه كان ... في موقفه هذا كما يقولون، ... أن ... حدود الله ... و تعالى في كثير أو قليل

و إنّ موقفه ... الزّهراء «ع» ... في ... و ... على دائرة ... دولة النّبيّ «ص» ... و ... من الأحلام ضحك لها أبوبكر كثيراً و سعى في سبيلها كثيراً ...»

و بكلمة واحدة إنّ فدك لا ... في أيدي أعدآء الله و أعدآء رسوله «ص» و أعداء أهل بيته الطّاهرين عليهم السلام ... في هدم كيان الإسلام و إذلال المسلمين

« قصة إيمانية من فدك »

واعلم أنّ [illegible] لو [illegible] بعض هذا [illegible] عن [illegible] و[illegible]
حقوق أهل البيت [illegible] و[illegible] خلافته و[illegible]
حرمات أهل البيت [illegible] وحب الدنيا و
الرئاسة وحب [illegible] و[illegible] ولا [illegible] ولا [illegible]، وكل [illegible]
[illegible] ولا [illegible] غيره.

وأنّ الملك لا يعرف الحق ولا العدل، ولا يخضع لدى الرغبة ولا الرهبة، ولا الرئاسة حتى يقول رسول الله [illegible] «[illegible] بعدي [illegible]» [illegible] ٢٩

وأنّ حب الدنيا [illegible] ولا [illegible] ولا النبوّة والأبوّة والأخوّة، ولا العمومة ولا [illegible] ولا [illegible] ولا [illegible]، وأنّ حب الرئاسة لا [illegible] و[illegible] ولا [illegible] و[illegible] و[illegible] و[illegible] كل شيء [illegible].

وقد صرّح بذلك عمر بن الخطاب بقوله «الملك عقيم» [illegible] على شيء هذه هي طبيعة الملك، وحب الدنيا وحب الرئاسة في كل ظرف من الظروف إلا أن يكون الملك خادماً للدين فحينئذ يكون الدنيا مزرعة للآخرة، وتكون الرئاسة لإحقاق الحق وإبطال الباطل حقاً لا شعاراً.

في نهج البلاغة قال المولى الموحدين يعسوب الدين إمام المتقين أمير المؤمنين

علي بن أبي طالب (ع) بذي قار وهو يخصف نعله: «والله لهي أحب إليّ من إمرتكم إلّا أن أُقيم حقّاً أو أدفع باطلاً» نهج البلاغة، الخطبة ٣٣.

ولا يسعنا المقام الخوض في بحث فدك تفصيلاً، بل نشير إلى قصته إجمالاً:

لمّا توفّي رسول الله (ص) وتشكّلت السقيفة التآمرية المشؤومة من دون حضور علي، بتدبير ثلاثة نفر: أبي بكر بن أبي قحافة وعمر بن الخطاب وأبي عبيدة الجراح حقّاً للشور، ونُصب أبو بكر من جانب خليفة عمر، وصاحبها أبي عبيدة، ثمّ عمدوا إلى جماعة، فعمّ أبو بكر، ودعوا الناس إلى بيعته، وبايع بعضهم جهلاً، وبعضهم طمعاً، وبعضهم كرهاً، ومنع أهل بيت الوحي المعصومون عليهم السلام، وبعض من لا يقبل بخلافته، فأحسّ الحزب الحاكم بالخطر، فابتدأ أبو بكر ظاهراً وعمر بن الخطاب واقعاً ومن وراء الحجاب، بتقوية أنفسهم وتخدير أفكار الأمة، وجعلوا لحفظهم معارضة لهم تكون وسيلة لوضعهم اليد على أهمّ مواردهم الاقتصادية وهي «فدك» و«العوالي» وما أفاء الله تعالى على رسوله (ص) في المدينة، وما بقي من سهم رسول الله (ص) من خمس وسهم ذي القربى والخمس...

وقد كانت الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها صاحبة النصيب الأكبر في ذلك، ومن هنا تقدّمت لتطلب بحقّها في ثلاث دعاوٍ متلاحقة وهي: دعوى النحلة، ودعوى الميراث، ودعوى سهم ذي القربى، ولكنّ الغاصبين أخذوا الاحتياطات لكي يمنعوا الصدّيقة عن حقّها، وغصب الخلافة مع نصّ النصوص المتكررة يسهل عليه غصب ما سواها مهما كان بيد الصدّيقة الطاهرة (ع) من مستمسكات وشواهد، ومهما كان لديها من شهود إثبات، ولا يسهل علينا بعد مضي أربعة عشر قرناً معرفة ملابسات هذه الدعوى تفصيلاً نظراً لقلّة ما بأيدينا من أخبار تلك الحقبة والسبب يعود إلى ثلاثة أمور:

الأوّل: أنّ العصر والحكم كانا تحت سلطة الغاصب.

الثّاني: أنّ المؤرّخين يكتبون ما يريد الحكّام الجابرة غالباً، ولا يكتبون ما هو الواقع وما وقع حقّاً.

الثّالث: أنّ الكتّاب يعرضون عن ذكر أمثال تلك الأمور، ويخفون معالمها إمّا رغبة أو

رهبة، فلم يصل إلينا من أخبارها إلا النزر اليسير مع تلاعب الأيدي والأهواء فيها

فلا بدّ للمحقّق البارع المريد للحقّ والواقع من بذل الجهد للكشف عن الحقيقة، و لمعرفة ذي الحقّ في المنازعات التي جرت بين الصدّيقة الطاهرة عليها سلام الله وغاصبي حقوقها عنادًا على الأحب و ... في هذا الباب ويسدّد إلى نحو عدالة شرعته الحاكمة في مثل هذه المنازعات وإن ذهبت عن معتقده مخالفة لغيره، وتطوّعت المستكبرة.

فنأتي ذكر هذه الدعاوى للصدّيقة الطاهرة ﴿ع﴾ حسب ترتيبها التاريخي، وقد أوردها بعض المحقّقين مذكورة مع تصحيح منّا:

١ ـ دعوى النحلة

وكانت تدور دعوى النحلة حول فدك بأنّ رسول الله ﴿ﷺ﴾ أعطاها إيّاها سلام الله عليها في حياته ﴿ﷺ﴾ وهي قرية تبعد عن المدينة مسافة يومين أو ثلاثة، أرضها زراعية خصبة، فيها عين فوّارة، ونخيل كثيرة يقدّر عائدها بالنخيل المكنوفة في التمر استنادًا للمصادر التاريخية وقد وردت في بعضها أنّ (٢٤) ألف دينار في السنة و الثاني ٧٠ ألف، ويمكن توجيه الاختلاف لاختلاف السنين في كمّيّة الثمر.

كانت جماعة من اليهود يسكنون فدك ويستثمرونها حتّى السنة السابعة للهجرة، فلمّا حارب رسول الله ﴿ﷺ﴾ يهود خيبر لنقضهم عهود المصالحة المبرمة بينهم وبين رسول الله ﴿ﷺ﴾ وفتح حصونهم وبقي حصنان أو ثلاثة منها لم يفتح، حاصرهم النبيّ ﴿ﷺ﴾ فلمّا اشتدّ بهم الحصار، أرسلوا إلى رسول الله ﴿ﷺ﴾ على أن يؤمنهم على حياتهم، ويتركوا له حصونهم وأرضهم، فقبل النبيّ الكريم ﴿ﷺ﴾ بعرضهم هذا فأخلوا حصونهم وتركوها للمسلمين.

وبما أنّ الانتصار الذي أحرزه المسلمون يوم خيبر أرعب أهل فدك كما أنّ الأنباء فيه الأخيرة من رسول الله ﴿ﷺ﴾ وأهل الحصون، فتحطّمت الآمال عندهم، وبعد لمّا جاءهم رسول النبيّ ﴿ﷺ﴾ بعد ذلك يدعوهم إلى الإسلام أبوا أن يسلموا، ولكنّهم استعدّوا أن يقدّموا نصف أرضهم لرسول الله ﴿ﷺ﴾ مع الاحتفاظ لأنفسهم بالنصف الآخر على أن يعملوا في أرضهم وأرض النبيّ الكريم، ومتى ما شاء رسول الله ﴿ﷺ﴾ أن يجليهم عن

أرضهم فعلى مثل ما فعل [illegible] عليهم وأرضهم، فصارت فدك ملكاً لرسول الله (ص) لأنّه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب، «وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكنّ الله يسلّط رسله على من يشاء والله على كلّ شيءٍ قدير» الحشر (٦).

فكان رسول الله (ص) يتصرّف في فدك حتى نزلت آية: «وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل» الروم ٣٨.

فاستوضح رسول الله (ص) من جبرئيل مراد الآية فقال له: أعط فاطمة الزهراء سلام الله عليها فدكاً لتكون ملكاً لها ولأولادها، وذلك عوض ما بذلته أمّها خديجة الكبرى (رض) من أموالها وجهودها في سبيل الإسلام [illegible] حتى.

فدعا رسول الله (ص) فاطمة الزهراء سلام الله عليها وأعطاها فدكاً وسلّمها لها، فكانت ملكاً لها في حياة النبي (ص) [illegible] ملكاً لفاطمة الزهراء (ع) تتصرّف فيها تصرّف المالك بملكه، وبقي الأمر هكذا حتى توفي النبي (ص) واستولى أبو بكر بالقهر على الخلافة الإسلامية فانتزع فدك من يد [illegible] وأخرج عمالها من يد [illegible] فاطمة الزهراء سلام الله عليها [illegible] على [illegible] و [illegible] من [illegible]

فطلب أبو بكر منها ـ خلافاً للعقل والشرع ـ البيّنة على دعواها مع أنّها صلوات الله عليها صاحبة اليد، والمتصرّف [illegible] شرعيّة وعرفيّة [illegible] على الملكيّة، وليس على صاحب اليد البيّنة بل البيّنة على المدّعي، وهو غير صاحب اليد، واليمين على من أنكر، وهو صاحب اليد [illegible] مدّعى عليه [illegible] على أنّ [illegible] الصدّيقة الطاهرة عليها سلام الله [illegible] في قوله عزّ وجلّ: «فآت ذا القربى حقّه» الروم ٣٨.

وفي شواهد التنزيل للحاكم الحسكاني الحنفي ـ وهو من أعلام العامّة في القرن الخامس ـ بإسناده عن أبي سعيد الخدري قال: لمّا نزلت على رسول الله (ص) «وآت ذا القربى حقّه» دعا فاطمة فأعطاها فدكاً و [illegible] وقال: هذا قسم قسمه الله لك ولعقبك».

و في الدرّ المنثور للسيوطي الشافعي ـ و هو من أعاظم العامّة في القرن العاشر ـ و أخرج ابن مردويه عن ابن عبّاس قال: لمّا نزلت «و آت ذا القربى حقّه» أقطع رسول الله ﴿ﷺ﴾ فاطمة فدك، و من شكّ أنّ الإعطاء و الإقطاع يدلّان على التمليك و ثبوته. كما نشهد على أنّ فدك كانت للصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها دعواها النحلة و العطيّة. و هي سيّدة نساء العالمين من الأوّلين و الآخرين و أكملهنّ و بشهادة نفس رسول الله ﴿ﷺ﴾ و أفضلهنّ لأنّها بضعة المصطفى ﴿ﷺ﴾ و لأنّ هذه لا تترك إلّا بالنصّ، فلو لم يكن صاحبه سند ذلك لكفت الحجّة و لزم للغاصب دعواها بلا كلفة، و لم يحتج إلى طلب البيّنة.

على أنّ البيّنة طريق ظنّيّ مجعول لإثبات ما يحتمل ثبوته و عدمه، فلا مورد لها مع القطع و اليقين المستفاد في عصمة من قول سيّدة النساء بعصمة رسول الله ﴿ﷺ﴾ التي طهّرها الله تعالى و جعلها من أهل آية التطهير ﴿ ﴾ لأنّ القطع طريق ذاتيّ إلى الواقع لا بجعل جاعل، فلا يمكن رفع طريقيّته أو جعل طريق ظاهريّ على خلافه. فالمقطوع من فاطمة الزهراء سلام الله عليها أنّها صادقة في جميع مراحلها، و قد شهد الله تعالى و رسوله ﴿ﷺ﴾ لها ﴿ﷺ﴾ بالصدق و لا يسعه إسلام أن أحداً يقول فاطمة الزهراء كاذبة.

و قد كان الغاصب الأوّل و هو أبو بكر بن أبي قحافة يعلم كما يعلم بأنّ فاطمة الزهراء سلام الله عليها صادقة، و لكنّه مع هذا طالبها بالبيّنة و جعلها مدّعية بعد أن كانت صاحبة اليد و التصرّف، و أنّها مدّعى عليها و لكنّ الحقّ مع العترة الطاهرة لا يعرف غيرها و لا [illegible] و يقول «[illegible] في حقّ [illegible] و في حقّ [illegible]»

و دعوى القويّ كدعوى الضعيف — حسن الظنّ و البتّ بالبرهان

فاضطرّت الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها حينئذ أن تقيم البيّنة على [illegible]

و هنا روايات كثيرة واردة عن الفريقين تصرّح بأنّ فاطمة الزهراء ﴿ﷺ﴾ أحضرت الشهود عند أبي بكر غاصب فدك عدّة مرّات، و كانوا يختلفون من حيث تعدّد المصاديق على أن كانت للصدّيقة الطاهرة ﴿ﷺ﴾ و أنّها مكتوبة في حياة رسول الله ﴿ﷺ﴾ فدك لها.

عمر الشهود الثلاث الذين شهدوا على ذلك وهم: الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب و الحسنان عليهم السلام، و رباح مولى رسول الله ﷺ و أم أيمن و أم سلمة و أسماء بنت عميس و أم كلثوم - و في كل مرة ردّ أبو بكر الشهود بحجة من الحجج

في المرّة الاولى قدّمت فاطمة الزهراء سلام الله عليها عليّاً و أم أيمن شاهدين لها فقال لها أبو بكر: أبرجل و امرأة تستحقّينها؟ و في رواية: قد علمت يا بنت رسول الله ﷺ أنه لا يجوز إلّا شهادة رجل و امرأتين؛ و قد كانت الحجّة الظاهرة معهم على ما يبدو، أنّ المحاكمات العادية تحتاج إلى شهادة رجلين أو رجل و امرأتين، و لكن القضية لم تكن كسائر القضايا والمحاكمات، ليس هذا حصراً في دعوى حتى تحتاج إلى ما تحتاج إليه سائر الخصومات، بل هي قضية شخصية فإنما كانت تحتاج إلى شاهد واحد مصدّق قوله سلام الله عليه فإنّ المفروض بأبي بكر أن يكون حاكماً و قاضياً لا أن يكون طرفاً في النزاع و خصماً له، و لكنّ المغتصب غاصب في كل شيء جعل نفسه خصماً و حكماً في آن واحد فاستحالت الحجّة الظاهرة [illegible] حجته في ردّه شهود أبي بكر

في المرّة الثانية قدمت أمير المؤمنين عليّاً ﷺ و أم أيمن و أسماء بنت عميس و الحسنين عليهما السلام، و هنا جاء أبو بكر و صاحبه عمر بن الخطاب [illegible] و [illegible]، [illegible] ولا استخلص من الموقف و تهرّب من الحق فالتجأ إلى المغالطة فجرحها الشهود قائلين إنّ علياً زوجها، و الحسنين ابناها، و هم يجرّون إلى أنفسهم، و أمّا أسماء بنت عميس - كانت تحت جعفر بن أبي طالب - فهي تشهد لبني هاشم، و أمّا أم أيمن فامرأة أعجمية لا تفصح

و لو سلّمنا مقالتهما في الزوج و الفرع - أي الولد - و لكنّ أمير المؤمنين و الحسنين عليهم السلام ليسوا موضع تهمة، و لن يشهدوا زوراً ليجرّوا إلى أنفسهم، فهم من أهل بيت النبوّة الذين أذهب الله عنهم الرجس و طهّرهم تطهيراً، و هم ممّن باهل بهم رسول الله ﷺ نصارى نجران بأمر الله تعالى «فقل تعالوا ندع أبناءنا و أبناءكم و نساءنا و نساءكم و أنفسنا و أنفسكم ثمّ نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين» آل عمران (٦٠)

وهم الذين نزلت في حقهم هذه الآية، و كانت في بيته، و شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة، و فضائلهم لا تحصى، فهل يجوز لمسلم أن يتهمهم بالباطل و الكذب على رسوله ﷺ و الانحراف عن الحق من أجل أنفسهم. و هل يشك أحد في صدق الإمام علي ﷺ و علمه و تقواه و زهده و ورعه و هو القائل: «والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلته، وإنّ دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها، ما لعليّ و لنعيم يفنى و لذة لا تبقى» من كلامه ﷺ رقم ٢٢٤.

وهو القائل في النعل التي لا قيمة لها: «والله لهي أحب إليّ من إمرتكم إلا أن أقيم حقاً أو أدفع باطلاً» الخطبة ٣٣.

وهو القائل: «والله لدنياكم هذه أهون في عيني من عراق خنزير في يد مجذوم» نهج البلاغة من قصار كلماته ﷺ، رقم ٢٣٦.

وفي نهج البلاغة من كتاب له ﷺ إلى بعض عماله لما خان بيت المال: «والله لو أنّ الحسن والحسين فعلا مثل الذي فعلت ما كانت لهما عندي هوادة، ولا ظفرا مني بإرادة حتى آخذ الحقّ منهما، وأزيل الباطل عن مظلمتهما، وأقسم بالله ربّ العالمين ما يسرّني أنّ ما أخذته من أموالهم حلال لي أتركه ميراثاً لمن بعدي» الكتاب ٤١.

وكلّ الناس حتى أعداؤه وأشدهم عداوة له معاوية بن أبي سفيان جميعاً يعرفون عنه ﷺ الأمانة والورع والتقوى، وأنه لا يناقض فعله قوله.

وأمّا مقالة أبي بكر و جماعة عمر في الحسنين بأنهما طفلان لا يعتمد على شهادتهما، وأنهما يميلان بالهوى ويجرّان إلى نفسيهما، فتكذيب لقول الله جلّ وعلا و رسوله ﷺ.

و ذلك أنّ الله تعالى أنزل آيات كثيرة في شأنهما تدل على عصمتهما عن السهو والخطأ، فضلاً عن الكذب والهوى.

منها آية المباهلة إذ أخذهما رسول الله ﷺ للمباهلة مع نصارى نجران بأمر الله تعالى.

ومنها: بيعة رسول الله ﷺ لهما، ولم يبايع صبياً في ظاهر الحال غيرهما

و منها: أنه تجب قبول شهادتهما على جنسهما مع ظاهر مقبولة فيهما، ولم يدل دليل في مثلها «و [illegible]» [illegible] فعقيدتهما لأنه مع نفيهما وأمّهما عليهما السلام نقص سنّهما لا يؤثر في صدق قولهما وقبول شهادتهما، كما ثبتت شهادة عيسى بن مريم عليهما السلام لأمّه وهو كان في المهد صبيًّا «يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمّك بغيًّا فأشارت إليه قالوا كيف نكلّم من كان في المهد صبيًّا قال إنّي عبد الله آتاني الكتاب وجعلني [illegible] ذلك عيسى بن مريم قول الحقّ الذي فيه يمترون» مريم ٢٨-٣٤

و أنّ رسول الله (ﷺ) قبل شهادة الحسنين عليهما السلام و [illegible] من العقود و شرطها البلوغ، فهل يرى أنّ رسول الله (ﷺ) لا يعلم هذا الشرط؟ إنّه عليم به، ولكن قبل سمعهما لأنّ هذا حكمٌ خاصّ؟ و الشهادة دون سنّ البلوغ، وإذا ثبت [illegible] فالأحرى أن تقبل شهادتهما مع أنّ سنّهما عند الشهادة كان أكثر من سنّهما عند [illegible]

و أمّا [illegible] امرأة التي شهد رسول الله (ﷺ) بأنّها من أهل الجنّة، فقد [illegible] فهل [illegible] شهادتها؟ و هل [illegible] حقّه؟

و أمّا [illegible] امرأة [illegible] التي شهد رسول الله (ﷺ) بأنّها من أهل الخير وأهل الجنّة فقد [illegible] شهادتها [illegible] فهل من شروط الشّهادة العربيّة و الفصاحة؟ و هل الصّدق عند العرب فحسب؟ و [illegible] لا تقبل شهادتهم؟ [illegible] لا يقبل إسلام غير العرب، [illegible] الإسلام [illegible] العرب فقط

نعم إنّ أبابكر و عمر من العرب [illegible] هذا القرآن العربيّ [illegible] هم به النّبيّ العجميّ [illegible] و لو كان هذا القرآن عجميًّا [illegible] هم به النّبيّ العربيّ لما آمنوا بها لكون الأعجميّ في أحدهما وأمّا الأعاجم فيؤمنون بهما وإن كانا كلاهما غير أعجميّ «و لو جعلناه قرآنا أعجميًّا لقالوا لولا فصّلت آياته، أعجميّ و عربيّ» فصّلت ٤٤

«و لو نزّلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين» الشّعراء: ١٩٨ - ١٩٩،

فيها لم يخرج من الفرقة الجاهلية قط

و إلى موقفها [illegible] شريف مكة بقوته

ثمّ قالت فنحلة لي من والـ ... دي المصطفى فلم ينحلاها

فأقامت بها شهوداً فقالوا ... بعلها شاهد لها و ابناها

لم يجيزوا شهادة ابني رسول ... الله هادي الأنام إذ ناصباها

لم يكن صادقاً عليّ، و لا فاطمة ... عندهم و لا ولداها

كان أتقى لله منهم عتيق ... قبح القائل المحال و شاها

و أخيراً جمع الشهود على ادعائهم [illegible] من ردّ شهادتهم و تجريح أبي بكر و صاحبه عمر إيّاهم ثمّ [illegible] الآخرين الذين يعلمون بإعطاء رسول الله (ص) فدكاً لابنته الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها أن يمتنعوا من الشهادة كأبي سعيد الخدري و ابن عباس و غيرهما الذين رووا أنّ النبيّ الأكرم (ص) أعطى فاطمة الزّهراء (س) فدكاً و ذلك خوفاً من أبي بكر و عمر و [illegible] و من [illegible] على أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين و علماً بأنّ شهادتهم سترد كما ردّت شهادة أمير المؤمنين إمام المتقين [illegible] سبطي رسول الله سيّدي شباب أهل الجنّة عليهم السلام و أمّ أيمن و [illegible] و لا يبعد أن يكون ذلك موجباً [illegible] كثير من المهاجرين و الأنصار نصرة الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها [illegible] منهم، و إن كان تركهم عن موجبة [illegible] العقل [illegible] و الشرع المبين.

و لكن فاطمة الزّهراء (س) لم تكفّ عن مطالبتها [illegible] و هادفة إقامة الحجّة على غاصبيها، و قطع عذر المعتذرين، و [illegible] الغاصبين و خيانتهم و كفرهم و ضلالتهم و ظلمهم و غوايتهم، للآتين [illegible] لهم، و [illegible] كي لا يكون لهم عليها سلام الله عليها حجّة بعد ذلك، فعادت على أبي بكر مرّة ثالثة و في هذه المرّة لمّا رأى رأس العاصين أبو بكر إلحاحها (س) الشديد أراد أن يوصد الباب في وجهها، و يقطع خطّ العودة لتكفّ عن الطّلب فقال لها (س) كما في شرح النهج لابن أبي الحديد (ج ١٦، ص ٢١٤) نقلاً عن كتاب السقيفة و فدك ص ١٠٢ للجوهري «إنّ هذا المال

لم يكن للنبيّ، و إنّما كان مالاً من أموال المسلمين يحمل النبيّ به الرّجال، و ينفقه في سبيل الله، فلمّا توفّي ولّيته كما كان يليه»

إذن فدك على رأي أبي بكر ليست ملك رسول الله «ﷺ» حتّى يعطيها لمن يشاء، بل هي ملك للمسلمين جميعاً، و معنى ذلك أنّ الصّدّيقة الطّاهرة «ﷺ» لو أقامت ألف بيّنة و شاهد على أنّ رسول الله «ﷺ» أعطاها فدكاً لا يعترف أبوبكر بذلك، لحجّة أنّها ليست لرسول الله «ﷺ» و ليس له أن يعطيها لفاطمة الزّهراء «ﷺ»

و هذا خروج صريح على حكم الله تعالى إذ يقول «و ما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل و لا ركاب و لكنّ الله يسلّط رسله على من يشاء و الله على كلّ شيء قدير» الحشر: ٦)

إنّ الله عزّوجلّ جعل فدك لرسوله «ﷺ» و أبوبكر نفى ذلك «و من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ـ و من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظّالمون ـ و من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون» المائدة: ٤٤ ـ ٤٥ و ٤٧)

و إذا صحّ ما تقول به أبوبكر إنّ هذا المال لم يكن لرسول الله «ﷺ» و إنّما كان مالاً من أموال المسلمين فلماذا لم يردّ الصّدّيقة الطّاهرة سلام‌الله‌عليها من أوّل وهلة بهذا الكلام؟ و لماذا طالبها بالبيّنة؟ ثمّ لماذا اتّهم الشّهود؟

و لمّا بلغ الأمر إلى هذا الحدّ انسحبت فاطمة الزّهراء «ﷺ» من الميدان، و ذهبت تشكو حالها إلى ابن عمّها أميرالمؤمنين عليّ عليه‌السلام؟ قائلة «هذا ابن أبي قحافة يبتزّني نحلة أبي و بلغة ابني، لقد أجهد في خصامي، و ألدّ في كلامي »

٢ ـ دعوى الميراث:

و قد كانت دعوى الميراث تدور حول ثلاثة أمور هي: ما أفاء الله تعالى على رسوله «ﷺ» في المدينة، و ما بقي من خمس رسول الله «ﷺ» بخيبر إذ كان لرسول الله «ﷺ» ثلاث صفايا بنو النّضير، و خيبر و فدك

ألف: فدك. طالبته الصّدّيقة الطّاهرة سلام‌الله‌عليها إرثاً بعد ما أخفقت في الحصول عليها نحلة، و لصاحب الحقّ أن يسلك أيّ طريق مشروع يوصله إلى حقّه حتّى إذ

تعدّدت الدعاوي عنده، وهذا شيء يجيزه الشرع والقانون المدنيّ. فعلى اعتبار أنّ فدكاً كانت ممّا أفاء الله تعالى به على رسوله ﴿ﷺ﴾ فإذ لم تنتقل في حياته ﴿ﷺ﴾ إلى ابنته الصدّيقة الطاهرة عليها سلام الله حسب زعم أبي بكر فلا بدّ أن تنتقل إليها بعد وفاته بالميراث لأنّها الوارثة الشرعية الوحيدة لأبيها رسول الله ﴿ﷺ﴾ على رأي الشيعة، أو أنّ العبّاس يشاركها على رأي العامّة القائلين بالتعصيب

ب: ما أفاء الله تعالى على رسوله ﴿ﷺ﴾ في المدينة أو ما كان له ﴿ﷺ﴾ بالمدينة أو ما يعبّر عنه بصدقة النبيّ الكريم ﴿ﷺ﴾ بالمدينة - إذ كانت له ﴿ﷺ﴾ أموال في المدينة أفاءها الله عزّوجلّ عليه، وهي الحوائط السبعة التي وهبها مخيريق اليهودي من بني النضير يوم أُحُد لرسول الله ﴿ﷺ﴾

قال السمهودي في (وفاء الوفا ج ٢، ص ١٥٣) قال المجد: قال الواقدي كان مخيريق أحد بني النضير حبراً عالماً، فآمن بالنبيّ ﴿ﷺ﴾ وجعل ماله - وهو سبع حوائط - لرسول الله ﴿ﷺ﴾

وقد روى ابن زبالة عن محمّد بن كعب أنّ صدقات رسول الله ﴿ﷺ﴾ كانت أموالاً لمخيريق اليهودي فلمّا كان يوم أُحد قال لليهود: ألا تنصرون محمّداً؟ والله إنّكم لتعلمون أنّ نصرته حقّ، قالوا: اليوم السبت، قال: فلا سبت لكم، وأخذ سيفه فمضى مع النبيّ ﴿ﷺ﴾ فقاتل حتّى أثخنته الجراح، فلمّا حضرته الوفاة قال: أموالي إلى محمّد ﴿ﷺ﴾ يضعها حيث يشاء، وكان ذا مال، فهي عامّة صدقات النبيّ ﴿ﷺ﴾

والأموال هذه التي أوصى بها هي بساتين سبع وهي الدلال، وبرقة، والصافية، والمثيب، ومشربة أمّ إبراهيم، والأعواف، وحسنى، وأوقفها النبيّ ﴿ﷺ﴾ على خصوص الصدّيقة الطاهرة صلوات الله عليها وكان يأخذ منها لأضيافه وحوائجه، وعند وفاتها أوصت بهذه البساتين، وكلّ ما كان لها من مال إلى أمير المؤمنين ﴿عليه السلام﴾

وقال: مخيريق سابق اليهود، وسلمان سابق فارس، وبلال سابق الحبشة. وقد ثبت عن الفريقين أنّ رسول الله ﴿ﷺ﴾ أعطى فاطمة الزهراء سلام الله عليها الحوائط السبعة وأوقفها عليها، ولكنّ أبا بكر استولى عليها قهراً كما استولى على فدك كذلك. فطالبت

للصدّيقة الطاهرة (ع) بها ميراثاً من أبيها رسول الله (ص) مع أنّ النبي الكريم (ص) أوقفها عليها في حياته، ثم ملّكها إيّاها في حياته (ص)، ولكنّها طالبت بها ميراثاً بعد أن لم تستطع الحصول عليها عن طريق النحلة.

ج ـ ما بقي من سهم رسول الله (ص) في خيبر بعد أن ... أبا بكر لم يعط حقّ الله تعالى و رسوله (ص) في غنيمة بدر ... «واعلموا أنّما غنمتم من شيء فأنّ لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل» (الأنفال ٤١).

ومن جملة ما غنمه المسلمون أموال يهود خيبر فأخذ رسول الله (ص) سهمه وسهم الله تعالى وسهم ذي القربى، وأعطى المسلمين سهامهم.

في تاريخ الطبري (ج ٣ ص ٩ ...) قال: كانت المقاسم من أموال خيبر على الشقّ، ونطاة، والكتيبة، فكانت الشقّ ونطاة في سهمان المسلمين، وكانت الكتيبة خمس الله عزّ وجلّ وخمس النبي (ص) وسهم ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، والنبي (ص) قد عيّن ... وبذلك فقد خصّص الكتيبة ... عن سهام المحاربين ... النبي (ص) وذوو ... خاصة الكتيبة لسهم خمسه، وفاطمة الزهراء (ع) في خمس خيبر حقّان: حقّ من حيث أنّها من ذرية رسول الله (ص) وحقّ من جهة ميراثها لحقّه، وقد استولى قهراً على خمس خيبر كلّه، فنهبها الحقّين.

وإنّ ما بقي من سهم رسول الله (ص) في خيبر لم يختصّ بالصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها وحدها، بل يعمّ ورثة رسول الله (ص) جميعاً، وقد طالبت زوجات النبي (ص) أبا بكر حقّهنّ من سهم رسول الله (ص) فقد روى ياقوت الحموي عن عروة ابن الزبير أنّ أزواج رسول الله (ص) أرسلن عثمان بن عفّان إلى أبي بكر يسألن مواريثهنّ من سهم رسول الله (ص) فقال أبو بكر: سمعت رسول الله (ص) يقول: «نحن معاشر الأنبياء لا نورّث ما تركناه صدقة» إنّما هذا المال لآل محمّد لنائبتهم وضيفهم، فإذا متُّ فهو إلى وليّ الأمر من بعدي.

ولا يخفى أنّ أزواج النبي الكريم (ص) لم يطالبن بفدك ولا الحوائط السبعة ميراثاً لأنّهنّ يعلمن أنّها كانت لفاطمة الزهراء (ع)، ومطالبتها بها عن طريق الإرث

دافعة بمحصول عنهما، ولا تقدر ملكهما فاطمة الزهراء سلام الله عليها في حياة رسول الله ﴿ﷺ﴾

وعلى كل حال إن دعوى العرب قد تدور حول هذه الأشياء الثلاثة، وطلبت الصديقة الطاهرة ﴿ﷺ﴾ بها منفردة ومجتمعة، وكانت تارة تجيء مع عمها العباس وتارة وحدها، فمرة طلبت فدك وحدها، وثانية طالبت بسهم رسول الله ﴿ﷺ﴾ وحده، وثالثة طلبت فدك وسهم رسول الله ﴿ﷺ﴾ معاً، ورابعة طلبت فدك وسهم رسول الله ﴿ﷺ﴾ وما أفاء الله عليه في المدينة مجتمعة، وفي كل مرة كان أبو بكر يردها بحديث يختلق عن رسول الله ﴿ﷺ﴾ بلفظ يختلف.

فمرة يقول لها: إني سمعت رسول الله يقول: إن النبي لا يورث. كما في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١، ص ٢١٩.

ومرة أخرى يقول لها: إن رسول الله قال: لا نورث، ما تركناه صدقة، إنما يأكل آل محمد من هذا المال. أو في هذا المال. كما في شرح نهج البلاغة ج ٦، ص ٢١٨.

وثالثة يقول لها: «سمعت رسول الله يقول: إنما هي طعمة أطعمنيها الله، فإذا مت كانت بين المسلمين» كما في شرح نهج البلاغة ج ٣، ص ١٢٥) أو «إنما هي طعمة أطعمنيها الله في حياتي فإذا مت فهي بين المسلمين» كما في فتوح البلدان للبلاذري ص ٣٨.

ورابعة يقول لها ﴿ﷺ﴾: «حدثني رسول الله أن الله يطعم النبي الطعمة ما كان حياً فإذا قبضه الله إليه رفعت» كما في شرح نهج البلاغة ج ٦، ص ٢٣٣)

وخامسة يقول لها ﴿ﷺ﴾: إني سمعت رسول الله يقول: إذا أطعم الله نبياً طعمة ثم قبضه كانت للذي بعده، فلما وليت رأيت أن أرده على المسلمين» كما في كنز العمال ج ٣، ص ١٢٠)

وسادسة يقول لها: «سمعت رسول الله ﴿ﷺ﴾ يقول: إن الله إذا أطعم نبياً طعمة فهي للذي يقوم بعده» كما في شرح الحديد (ج ١٦، ص ٢١٩) وسنن أبي داود باب صفايا رسول الله من كتاب الخراج.

وسابعة يقول لها: «سمعت رسول الله يقول: نحن معاشر الأنبياء لا نورث ذهباً ولا

فضّة ولا داراً ولا عقاراً، وإنّما نورث الكتاب والحكمة والعلم والنبوّة، وما كان لنا من طعمة فلوليّ الأمر بعدنا أن يحكم فيه بحكمه»

وهكذا حاول التأكيد على أنّ النبيّ (ﷺ) لا يورث وما تركه صدقة، ومعنى ذلك أنّ الأموال التي كانت تحت يد رسول الله (ﷺ) كانت طعمة له في حياته، وكان يتصرّف فيها بملاحظة أنّه وليّ أمر المسلمين لا أنّها ملكه الشخصيّ، وسيكون أمرها من بعده إلى وليّ الأمر الذي يقوم بعده، ولا تصل إلى ورثته لأنّه ما كان يملكها. وقد رأى أبو بكر بملاحظة أنّه وليّ الأمر أن يردّها إلى المسلمين، وهنا يتناقض الحديث الذي رواه عن رسول الله (ﷺ) «إنّما هي طعمة أطعمنيها الله فإذا متّ كانت بين المسلمين» ففي هذا الحديث يخبر النبيّ (ﷺ) أنّها للمسلمين من بعده وفي ذاك الحديث يخبر النبيّ (ﷺ) بأنّها لوليّ الأمر من بعده يحكم فيها بحكمه، وقد رأى ردّها إلى المسلمين لا إعطاءها للمسلمين، فكأنّ رسول الله (ﷺ) كان قد أخذها من المسلمين وأبو بكر ردّها عليهم

وإذا كانت تركة رسول الله (ﷺ) طعمة له في حياته، وأمرها إلى وليّ الأمر أو إلى المسلمين من بعده فهذا تحدّي صريح لاحتجاجات الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها واستدلالاتها بثبوت التوارث بين الأنبياء عليهم السلام وأولادهم، ففاطمة الزهراء (ﷺ) قد قدّمت ألف دليل على أنّ الأنبياء عليهم السلام يورثون لا تحصل على شيء من تركة أبيها، وإذن فهذه محاولة من أبي بكر الغاصب في صدّ الصدّيقة الطاهرة صلوات الله عليها عن حقّها في الميراث بعد أن أتبعها في غصبها وعنادها مع الرجل تماماً كما كان في أمر النحلة، فهناك بمجرّد أن أكملت شهود الإثبات، اتّهم الشهود وسدّ باب النحلة بقوله «إنّ هذا المال لم يكن للنبيّ (ﷺ) وإنّما كان أموالاً من المسلمين»

وهنا لمّا فندت مزاعم أبي بكر الغاصب في عدم التوارث بين الأنبياء وأولادهم سدّ باب الإرث بقوله «سمعت رسول الله يقول إنّما هي طعمة أطعمنيها الله في حياتي، فإذا متّ فهي بين المسلمين» «وما كان لنا من طعمة فلوليّ الأمر بعدنا أن يحكم فيها بحكمه»

وماذا تقول الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها حينئذ؟ تقول حاشا النبيّ أن يقول هذا؟ فما دليلها على ذلك؟ أو تقول لأبي بكر الغاصب ـ وهو يقول ألا إنّ في الحقّ أن تأخذه وفي

الحقّ أن تتركه وتمنعه، فاصبر مغموماً أو مُتْ متأسّفاً ـ وتقول للحاكم لمن غصب ـ أنت تكذب على رسول الله، فما حجّتها؟

لذا انسحبت من الميدان مهيضة الجناح، تذرف دموع الأسى، شاكية حالها إلى أبيها رسول الله (ﷺ) قائلة:

قد كان بعدك أنباء وهنبثة	لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب
إنّا فقدناك فقد الأرض وابلها	واختلّ قومك فاشهدهم فقد نكبوا
أبدت رجال لنا نجوى صدورهم	لما مضيت وحالت دونك الترب

وقد أجاد الشاعر الكبير قتادة بن إدريس شريف مكّة في وصفه مصائب الصدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها بإرثها من أبيها، وجواب الغاصبين لها واحتجاجها عليهم قائلاً:

وأتت فاطم تطالب بالإرث	من المصطفى فما ورّثاها
ليت شعري لم خولفت سنن القر	آن فيها والله قد أبداها
رضي النّاس إذ تلوها بما لم	يرض فيها النّبيّ حين تلاها
نسخت آية المواريث منها	أم هما بعد فرضها بدّلاها
أم ترى آية المودّة لم تأ	ت بودّ الزّهراء في قرباها
ثمّ قالا أبوك جاء بهذا	حجّة من عنادهم نصباها
قال للأنبياء حكم بأن لا يورثوا	في القديم وانتهراها
أفبنت النّبيّ لم تدر إن كا	ن نبيّ الهدى بذلك فاها
بضعة من محمّد خالفت ما قا	ل حاشاها مولانا حاشاها
سمعته يقول ذاك وجاءت	تطلب الإرث ضلّة وسفاها
هي كانت لله أتقى وكانت	أفضل الخلق عفّة ونزاها
أو تقول النّبيّ قد خالف القر	آن ويح الأخبار ممّن رواها
سل بإبطال قولهم سورة النّمل	وسل مريم الّتي قبل طاها
فهما ينبئان عن إرث يحيى	وسليمان من أراد انتباها
فدعت واشتكت إلى الله من ذاك	وفاضت بدمعها مقلتاها

٣ــ دعوى سهم ذوي القربى:

في شرح ابن أبي الحديد (ج ١٦، ص ٢٣٠) قال ابن أبي الحديد: «واعلم أنّ الناس يظنّون أنّ نزاع فاطمة أبابكر كان في أمرين: في الميراث والنحلة، وقد وجدتُ في الحديث أنّها نازعت في أمر ثالث، ومنعها أبوبكر إيّاه أيضاً وهو سهم ذوي القربى».

وفيه بإسناده عن أنس بن مالك أنّ فاطمة (عليها السلام) أتت أبابكر فقالت: لقد علمت الّذي ظلمتنا عنه أهل البيت من الصدقات، وما أفاء الله علينا من الغنائم في القرآن من سهم ذوي القربى، ثمّ قرأت عليه قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى﴾ الآية.

فقال لها أبوبكر: بأبي أنت وأمّي، وأنا وولدك، وعليّ السمع والطاعة لكتاب الله، ولحقّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وحقّ قرابته، وأنا أقرأ من كتاب الله الّذي تقرئين منه، ولم يبلغ علمي منه أنّ هذا السهم من الخمس يسلّم إليكم كاملاً. قالت: أفلك هو ولأقربائك؟ قال: لا، بل أنفق عليكم منه، وأصرف الباقي في مصالح المسلمين. قالت: ليس هذا حكم الله تعالى. قال: هذا حكم الله، فإن كان رسول الله عهد إليك في هذا عهداً وأوجبه لكم حقّاً صدّقتك وسلّمته كلّه إليك وإلى أهلك. قالت: إنّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) لم يعهد إليّ في ذلك شيئاً، إلّا أنّي سمعته يقول لمّا أنزلت هذه الآية: «أبشروا آل محمّد فقد جاءكم الغنى».

قال أبوبكر: لم يبلغ علمي من هذه الآية أن أسلّم إليكم هذا السهم كلّه كاملاً، ولكن لكم الغنى الّذي يغنيكم، ويفضل عنكم، وهذا عمر بن الخطّاب وأبو عبيدة بن الجرّاح فاسئليهم عن ذلك وانظري هل يوافقك على ما طلبتِ أحد منهم؟ فانصرفت إلى عمر فقالت له مثل ما قالت لأبي بكر، فقال لها مثل ما قاله لها أبوبكر، فعجبت فاطمة (عليها السلام) من ذلك، وتظنّت أنّهما كانا قد تذاكرا ذلك واجتمعا عليه».

أقول: انظر وتدبّر فيما نقله في الخبر طيّب الولادة ثمّ احكم فإنّك ذو حجى:

ألف. كيف كذّب أبوبكر بن أبي قحافة بصراحة قوله «هذا حكم الله» قول الصدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها «ليس هذا حكم الله تعالى» وجعلها أجنبيّة عن فهم كتاب الله جلّ وعلا؟

س: كيف قدّم أبو بكر اسمي على سيّد خلقه و قوت الملكوت؟

ج: كيف أخذ فيهم كتاب الله عزّوجلّ و معي ثلاثة رسول الله ﴿ﷺ﴾ إلى عمر بن الخطّاب خليفة، و أبي عبيدة حفّار القبور عمّهما؟ الذين عقّق بهم الثلاثة معي الجماعة في سقيفة لبني ساعدة المشؤومة، و صارت مراتب أصحاب الجماعة إلى يومنا هذا.

و إنّ الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها تعجّبت من تواطؤ الثلاثة حزب الشيطان و تذاكرهم و اجتماعهم على ذلك و علمت بذلك

و قد أشار مولى الموحّدين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﴿ع﴾ إلى ذلك بقوله

في نهج البلاغة: «اتّخذوا الشيطان لأمرهم ملاكاً، و اتّخذهم له أشراكاً فباض و فرّخ في صدورهم، و دبّ و درج في حجورهم، فنظر بأعينهم و نطق بألسنتهم، فركب بهم الزلل، و زيّن لهم الخطل، فعل من قد شركه الشيطان في سلطانه، و نطق بالباطل على لسانه» الخطبة: ٧)

و فيه قال مولى المتّقين الإمام عليّ ﴿ع﴾: «ألا و إنّ الشيطان قد جمع حزبه و استجلب خيله و رَجِلَهُ...» الخطبة: ١٠)

نعم! تقدّمت الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها إلى أبي بكر لغصب بدعوى ثالثة و هي المطالبة بسهم ذوي القربى من الخمس بعد أن المنصوص عليه في القرآن الكريم بقوله تعالى «و اعلموا أنّما غنمتم من شيء فأنّ لله خمسه و للرّسول و لذي القربى...» الأنفال: ٤١)

فقد فرض الله عزّوجلّ في هذه الآية لذوي القربى حقّاً في الخمس قصره عليهم كما أنّ رسول الله ﴿ﷺ﴾ كان خصّ أقرباءه بسهم من الخمس، و خصّ نفسه بسهم آخر، و قد قسّم أموال خيبر و أعطى المسلمين حقّهم، و جعل الكتيبة خمس الله و خمس النبيّ ﴿ﷺ﴾ و سهم ذوي القربى و اليتامى و المساكين و ابن السبيل ذكره الطبري في تاريخه (ج ٣، ص ٩٠)

و في مسند أحمد (ج ١، ص ٨٣) روى أنّ النبيّ ﴿ﷺ﴾ لم يقسم لبني عبد شمس و لا لبني نوفل من الخمس شيئاً كما كان يقسم لبني هاشم و بني المطلب، و أنّ أبا بكر لم يكن

يعطي قربى رسول‌الله (ﷺ) كما كان رسول‌الله (ﷺ) يعطيهم»

و في تفسير الكشّاف ـ في تفسير آية الخمس ـ عن ابن عبّاس أنّه «أي الخمس ـ على ستّة أسهم لله و لرسوله (ﷺ) سهمان، و سهم لأقاربه، حتّى قبض (ﷺ) فأجرى أبوبكر الخمس على ثلاثة، و كذلك روي عن عمر و بعده من الخلفاء» قال الزّمخشري «و روى أنّ أبابكر قد منع بني هاشم من الخمس، و جعلهم كغيرهم من يتامى المسلمين و مساكينهم و أبناء السّبيل منهم»

و في شرح ابن أبي الحديد (ج ١٦، ص ٢٣١) عن عروة، قال «أرادت فاطمة أبابكر على فدك و سهم ذوي القربى، فأبى عليها، و جعلهما في مال الله تعالى»

و فيه، «أنّ أبابكر منع فاطمة و بني هاشم سهم ذوي القربى، و جعله في سبيل الله في السّلاح و الكُراع»

فتقدّمت الصّدّيقة الطّاهرة عليها سلام‌الله مطالبة سهم ذوي القربى و لها (ﷺ) في الخمس حقّان حقّ من جهة ميراثها لسهم أبيها رسول‌الله، و حقّ من جهة سهم ذوي القربى، و أنّها شريكة رسول‌الله (ﷺ) في الخمس، و قد منعها أبوبكر اغتصب الحقّين معاً

فطالبت الصّدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها أبابكر اغتصب سهم ذي القربى، و استدلّت بآية الخمس على ذلك، و لكنّ الملك عقيم و حبّ الشّيء يُعمي و يصمّ لا يعرف الخالق، فضلاً عن المخلوق

و بعد هذه المواقف الثّلاثة تأكّدت الصّدّيقة الطّاهرة سلام‌الله عليها أنّ هناك خطّة مدبّرة ضدّها و ضدّ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليهما السلام و ضدّ بني هاشم جميعاً، فهجرت أبابكر بعد أن غضبت على أبي‌بكر و صاحبه عمر بن الخطّاب الّذي ساعده ضدّها، و ماتت ساخطة عليهما بعد ما أوصت بدفنها ليلاً و أن لا يحضرا جنازتها و لا الصّلاة عليها

هذه خلاصة لما جرى بين أبي‌بكر بن أبي قحافة الغاصب، و الصّدّيقة الطّاهرة فاطمة الزّهراء سلام‌الله عليها من منازعات في الأيّام القلائل الّتي عاشتها بعده

رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ بعد أبيه ﴿عليه السلام﴾ ولم يسبق النزاع بشهادة فاطمة الزهراء سلام الله عليها، بل بقي مستمراً على أثر التاريخ الإسلامي، بين ورثة الصدّيقة الطاهرة عليهم السلام في الحق، وورثة أبي بكر في الحكم، وبين أنصارهما من جهة ثالثة.

وفي شرح ابن أبي الحديد قال: «وحديث فدك وحضور فاطمة عند أبي بكر كان بعد عشرة أيام من وفاة رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾».

قال بعض الأعلام: إنّ عصمة الزهراء سلام الله عليها إن كانت مطلقة غير ثابتة فلا حاجة بها إلى الشهود، فإنّ المستحق للتركة لا يفتقر إلى الشاهد إلّا إذا لم يعرف صحّة نسبه واعتزائه إلى الدارج، وما أظنّهم شكّوا في نسب فاطمة وكونها ابنة النبي ﴿صلى الله عليه وآله﴾ وإن كانت تطلب فدكاً وتدّعي أنّ أباها أعطاها إيّاها احتاجت إلى إقامة البيّنة، ولم يبق ما رواه أبو بكر من قوله «نحن معاشر الأنبياء لا نورّث» معنى، وهذا واضح جداً.

وإنّ أبا بكر ما كان عارفاً بالمسائل الشرعيّة، فإنّ طلبه البيّنة من الصدّيقة الطاهرة ﴿عليها السلام﴾ كان غلطاً من جهة الأصول والقواعد الفرعيّة، وإنّه ما كان يعرف الفرق بين المدّعي والمنكر، وإنّ جرحه شهود الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها مع جرح مثل طلبه منها البيّنة وكذا نقله الرواية التي تمسّك بها في نفي توريث الأنبياء عليهم السلام لم يكن له وجه بالمرّة، وكان أبو بكر غاصباً حقّها ظالماً عليها لحبّ الملك والرئاسة، وحبّ الشيء يعمي ويصمّ.

وقد ثبت أنّ رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ أعطى فدكاً فاطمة الزهراء ﴿عليها السلام﴾ وأقبضها إيّاها، وكانت في تصرّف وكيلها، وقد ادّعتها الصدّيقة الطاهرة ﴿عليها السلام﴾ بعد وفاة رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ على وجه الاستحقاق، وشهد المعصوم وغيره بذلك فإن كانت هبة قبل القبض تبطل بموت الواهب كما هو المشهور، فقد ثبت القبض، وإلّا فلا حاجة إليه في إثبات المدّعى.

وفي نهج البلاغة: قال سيّد الوصيّين الإمام علي ﴿عليه السلام﴾: «بلى كانت في أيدينا فدك ...».

وحينئذ فكيف كان أبو بكر يطلب البيّنة من المتصرّف المنكر، وإنّما كانت البيّنة وظيفة أبي بكر وهي من القواعد الضروريّة الشرعيّة الواضحة عند جميع أهل الملل والنحل التي

يحكم على منكرها بالكفر والضلالة، والنفي والجحد والظلم والحيف، لأنّ البيّنة على المدّعي واليمين على من أنكر.

وقد ثبت بالآيات القرآنيّة والروايات المتواترة من الفريقين عصمة الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها، والمعصوم إذا ادّعى شيئاً فلابدّ أن يسلّم إليه، وليس لحاكم أن يحكم بمجرّد دعوى المعصوم وأن يثبت صدقه، ويردّه ما دلّ على أنّ الحاكم يحكم بعلمه أيضاً، وقد اتّفق الفريقان على رواية قصّة خزيمة بن ثابت وتسميته بذي الشهادتين لمّا شهد للنبيّ ﴿ﷺ﴾ بدعوى ردّ فيها الأعرابيّ الذي اشتراه من رجل فادّعى الرجل نقده وجحود قيمته، وقال خزيمة: أنا أشهد بذلك فقال له النبيّ ﴿ﷺ﴾: من أين علمت وما حضرت ذلك؟ قال: لا ولكن علمت ذلك من حيث إنّك رسول الله ﴿ﷺ﴾ فقال ﴿ﷺ﴾: قد أجزت شهادتك وجعلتها شهادتين ولذلك سمّي بذي الشهادتين.

وقد ثبت أيضاً أنّ أمير المؤمنين عليه ﴿السلام﴾ خطّأ شريحاً في طلب البيّنة منه على درع طلحة، وقال: إنّ إمام المسلمين يؤتمن من أمورهم على ما هو أعظم من ذلك، وأخذ ما ادّعاه من درع طلحة بغير حكم شريح.

في شرح ابن أبي الحديد قال: وسألت المتكلّم من متكلّمي الإماميّة يعرف بعليّ بن تقي من بلدة النيل: وهل كانت فدك إلّا نخلاً يسيراً وعقاراً ليس بذلك الخطير؟

فقال لي: ليس الأمر كذلك، بل كانت جليلة جدّاً وكان فيها من النخل نحو ما بالكوفة الآن من النخل، وما قصد أبو بكر وعمر بمنع فاطمة عنها إلّا أن لا يتقوّى عليّ بحاصلها وغلّتها على المنازعة في الخلافة.

وقال أيضاً: وسألت عليّ بن الفارقي مدرّس المدرسة الغربيّة ببغداد فقلت له: «أكانت فاطمة صادقة؟ قال: نعم، قلت: فلم لم يدفع إليها أبو بكر فدكاً وهي عنده صادقة، فتبسّم ثمّ قال كلاماً لطيفاً مستحسناً مع ناموسه وحرمته وقلّة دعابته، قال: لو أعطاها اليوم فدكاً بمجرّد دعواها لجاءت إليه غداً وادّعت لزوجها الخلافة، وزحزحته عن مقامه ولم يكن يمكنه الاعتذار بشيء لأنّه يكون قد سجّل على نفسه بأنّها صادقة فيما تدّعي».

وفيه: قال ابن أبي الحديد: وقال لي علويّ من الحلّة يعرف بعليّ بن مهنّأ ذكيّ ذو فضائل: ما تظنّ قصد أبي بكر وعمر بمنع فاطمة فدك؟ قلت: ما قصدا؟ قال: أرادا ألّا

تُظهِر لعليٍّ ـ وهو المتعصّب للخلافة ـ رقّة ولين وخذلان، ولا يرى عندهما خَوَراً، فإنّما تمزح بالمزح»

الخَوَر: الفتور والضعف

في كتاب «ثمّ اهتديت» للدكتور محمّد التيجاني السماوي ـ وهو من أعاظم متفكّري العامّة المعاصر المستبصر أخيراً ـ في نشيب الثاني من أسباب استبصاره ـ ما لفظه «٢ ـ خلاف فاطمة مع أبي بكر وهذا موضوع يكاد يُجمع على صحّته المؤرّخون، فلا يسع المنصف العاقل إلاّ أن يحكم بخطأ أبي بكر بعد ما يعترف بظلمه وحيفه على سيّدة النساء، لأنّ من يتتبّع هذه المأساة ويطّلع على جوانبها يعلم علم اليقين أنّ أبا بكر تعمّد إيذاء الزهراء وتكذيبها لئلاّ تحتجّ عليه بنصوص الغدير وغيرها على خلافة زوجها وابن عمّها عليّ وقد قرأنا قرائن عديدة على ذلك منها ما أخرجه المؤرّخون من أنّها سلام الله عليها خرجت تطوف على مجالس الأنصار وتطلب منهم النصرة والبيعة لابن عمّها فكانوا يقولون: يا بنت رسول الله قد مضت بيعتنا لهذا الرجل ولو أنّ زوجك وابن عمّك سبق إلينا قبل أبي بكر ما عدلنا به، فيقول عليّ كرّم الله وجهه: أفكنت أدع رسول الله (ص) في بيته لم أدفنه وأخرج أنازع الناس سلطانه؟ فقالت فاطمة: ما صنع أبو الحسن إلاّ ما كان ينبغي له ولقد صنعوا ما الله حسيبهم وطالبهم.

ولو كان أبو بكر مخطئاً عن حسن نيّة وعلى اشتباه لأقنعته فاطمة الزهراء، ولكنّها غضبت عليه، ولم تكلّمه حتّى ماتت لأنّه ردّ في كلّ مرّة دعواها ولم يقبل شهادتها، ولا شهادة زوجها، ولكلّ هذا اشتدّ غضبها حتّى أنّها لم تأذن له بحضور جنازتها حسب وصيّتها لزوجها بأن يدفنها في الليل سرّاً». انتهى كلامه

﴿إخراج وكيل الصدّيقة الطّاهرة ؏ من فدك وغصبها وردّ شهادة شهودها، وقبول شهادة عائشة وعمر﴾

واعلم أنّ فدكاً قرية في الحجاز بينها وبين المدينة (١٤٠) كيلومتراً وهي أرض يهوديّة، كانت تسكنها طائفة من اليهود حتّى السنة السابعة حين قذف الله بالرّعب في قلوب أهلها، فصالحوا رسول الله ﴿ﷺ﴾ على النّصف من فدك، وروي أنّه صالحهم عليها كلّها، فصارت ملكاً لرسول الله ﴿ﷺ﴾ خاصّة لأنّها لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب، ثمّ آتاها بنتها فاطمة الزّهراء سلام الله عليها بأمر من الله تعالى مرّتين «فآت ذا القربى حقّه» (الرّوم ٣٨) و «وآت ذا القربى حقّه» (الإسراء ٢٦) وقد كانت بيد الصدّيقة الطّاهرة تحت تصرّفها ﴿؏﴾ في عهد أبيها وبعد وفاته ﴿ﷺ﴾ وكانت وضعت عليها وكيلاً عنها حتّى طرد أبوبكر وكيلها ﴿؏﴾ وانتزعها غصباً

في كتاب الاختصاص عن عبدالله بن سنان عن أبي عبدالله ﴿؏﴾ قال: لمّا قبض رسول الله ﴿ﷺ﴾ وجلس أبوبكر مجلسه، بعث إلى وكيل فاطمة صلوات الله عليها فأخرجه من فدك، فأتته فاطمة ﴿؏﴾ فقالت: يا أبابكر! ادّعيت أنّك خليفة أبي، و جلست مجلسه، وأنّك بعثت إلى وكيلي فأخرجته من فدك، وقد تعلم أنّ رسول الله ﴿ﷺ﴾ صدّق بها عليّ، وأنّ لي بذلك شهوداً، فقال لها: إنّ النّبيّ ﴿ﷺ﴾ لا يورث

فرجعت إلى عليّ ﴿ع﴾ فأخبرته، فقال: إرجعي إليه وقولي له: زعمت أنّ النبيّ ﴿ﷺ﴾ لا يورث «وورث سليمانُ داود» النمل ١٦، وورث يحيى زكريّا، وكيف لا أرث أنا أبي؟ فقال: أنت معلّمة، قالت: وإن كنتُ معلّمة فإنّما علّمني ابن عمّي وبعلي.

فقال أبو بكر: فإنّ عائشة تشهد وعمر أنّهما سمعا رسول الله ﴿ﷺ﴾ وهو يقول: إنّ النبيّ لا يورث.

فقالت: هذه أوّل شهادة زور شهدا بها في الإسلام، ثمّ قالت: فإنّ فدك إنّما هي صدّق بها عليّ رسول الله ﴿ﷺ﴾ ولي بذلك بيّنة.

فقال لها: هلمّي ببيّنتك، قال: فجاءت بأمّ أيمن وعليّ عليه السلام، فقال أبو بكر: يا أمّ أيمن إنّك سمعت من رسول الله ﴿ﷺ﴾ يقول في فاطمة؟

فقالت: سمعت رسول الله ﴿ﷺ﴾ يقول: إنّ فاطمة سيّدة نساء أهل الجنّة، ثمّ قالت أمّ أيمن: فمن كانت سيّدة نساء أهل الجنّة تدّعي ما ليس لها؟! وأنا امرأة من أهل الجنّة ما كنت لأشهد بما لم أكن سمعتُ، ما كنت لأشهد إلّا بما سمعتُ من رسول الله ﴿ﷺ﴾. فقال عمر: دعينا يا أمّ أيمن من هذه القصص، بأيّ شيء تشهدين؟

فقالت: كنتُ جالسة في بيت فاطمة ﴿ع﴾ ورسول الله ﴿ﷺ﴾ جالس حتّى نزل عليه جبرئيل فقال: يا محمّد! قم فإنّ الله تبارك وتعالى أمرني أن أخطّ لك فدكاً بجناحي، فقام رسول الله ﴿ﷺ﴾ مع جبرئيل ﴿ع﴾ فما لبث أن رجع فقالت فاطمة ﴿ع﴾: يا أبة أين ذهبتَ؟ فقال: خطّ جبرئيل ﴿ع﴾ لي فدكاً بجناحه وحدّ لي حدودها، فقالت: يا أبة، إنّي أخاف العيلة والحاجة من بعدك، فصدّق بها عليّ، فقال: هي صدقة عليكِ، فقبضتها، قالت: نعم، فقال رسول الله ﴿ﷺ﴾: يا أمّ أيمن اشهدي، ويا عليّ اشهد.

فقال عمر: أنت امرأة ولا نجيز شهادة امرأة وحدها، وأمّا عليّ فيجرّ إلى نفسه.

قال: فقامت مغضبة وقالت: اللّهمّ! إنّهما ظلما ابنة محمّد نبيّك حقّها، فاشدد وطأتك عليهما، ثمّ خرجت، وحملها عليّ على أتان عليه كساء له خمل، فدار بها أربعين صباحاً في بيوت المهاجرين والأنصار والحسن والحسين عليهما السلام معها وهي تقول: يا معشر المهاجرين والأنصار انصروا الله فإنّي ابنة نبيّكم، وقد بايعتم رسول الله ﴿ﷺ﴾

يوم بايعتموه أن تمنعوه وذريته مما تمنعون منه أنفسكم وذراريكم، ففوا لرسول الله (صلى الله عليه وآله) ببيعتكم. قال: فما أعانها أحد ولا أجابها ولا نصرها.

قال: فانتهت إلى معاذ بن جبل، فقالت: يا معاذ بن جبل، إني قد جئتك مستنصرة، وقد بايعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) على أن تنصره وذريته، وتمنعه مما تمنع منه نفسك وذريتك، وإن أبا بكر قد غصبني على فدك وأخرج وكيلي منها. قال: فمعي غيري؟ قالت: لا، ما أجابني أحد. قال: فأين أبلغ أنا من نصرتك؟ قال: فخرجت من عنده، ودخل ابنه، فقال: ما جاء بابنة محمد إليك؟ قال: جاءت تطلب نصرتي على أبي بكر فإنه أخذ منها فدك. قال: فما أجبتها به؟ قال: قلت: وما يبلغ من نصرتي أنا وحدي. قال: فأبيت أن تنصرها؟ قال: نعم. قال: فأي شيء قالت لك؟

قال: قالت لي: والله لأنازعنك الفصيح من رأسي حتى أرد على رسول الله (صلى الله عليه وآله). قال: فقال: أنا والله لأنازعنك الفصيح من رأسي حتى أرد على رسول الله (صلى الله عليه وآله) إذ لم تجب ابنة محمد (صلى الله عليه وآله).

قال: وخرجت فاطمة صلوات الله عليها من عنده وهي تقول: والله لا أكلمك كلمة حتى نجتمع أنا وأنت عند رسول الله (صلى الله عليه وآله)، ثم انصرفت.

فقال علي (عليه السلام) لها: ائتي أبا بكر وحده فإنه أرق من الآخر، وقولي له: ادعيت مجلس أبي وأنك خليفته وجلست مجلسه، ولو كانت فدك لك ثم استوهبتها منك لوجب ردها علي. فلما أتته وقالت له ذلك، قال: صدقت. قال: فدعا بكتاب فكتبه لها برد فدك. قال: فخرجت (عليها السلام) والكتاب معها، فلقيها عمر فقال: يا بنت محمد، ما هذا الكتاب الذي معك؟ فقالت: كتاب كتبه لي أبو بكر برد فدك. فقال: هلميه إلي، فأبت أن تدفعه إليه، فرفسها برجله، وكانت (عليها السلام) حاملة بابن اسمه المحسن، فأسقطت المحسن من بطنها، ثم لطمها، فكأني أنظر إلى قرط في أذنها حين نقفت، ثم أخذ الكتاب فخرقه.

فمضت ومكثت خمسة وسبعين يوماً مريضة مما ضربها عمر، ثم قبضت. فلما حضرتها الوفاة دعت علياً صلوات الله عليه، فقالت: إما تضمن وإلا أوصيت إلى ابن الزبير. فقال علي (عليه السلام): أنا أضمن وصيتك يا بنت محمد. قالت: سألتك بحق رسول الله (صلى الله عليه وآله) إذا أنا

بتُّ أن لا يشهداني و لا يصلّيا عليّ، قال: ففعل ذلك

فلمّا قُبضت صلوات الله عليها، دفنها ليلاً في بيتها، و أصبح أهل المدينة يريدون حضور جنازتها، و أبوبكر و عمر كذلك، فخرج إليهما عليّ ﴿ع﴾ فقالا له: ما فعلت بابنة محمّد؟! أخذت في جهازها يا أبا الحسن؟ فقال عليّ ﴿ع﴾: قد و الله دفنتها، قالا: فما حملك على أن دفنتها و لم تعلمنا بموتها؟ قال: هي أمرتني

فقال عمر: و الله لقد هممت بنبشها و الصّلاة عليها، فقال عليّ صلوات الله عليه: أما و الله ما دام قلبي بين جوانحي و ذوالفقار في يدي إنّك لا تصلُ إلى نبشها، فأنت أعلم، فقال أبوبكر: اذهب، فإنّه أحقّ بها منّا و انصرف النّاس»

و قد روى الواقعة جماعة من أعلام العامة و جملة أسفارهم في مآخذهم المعتبرة عندهم

منهم: الحاكم في (المستدرك، ج ٣، ص ١٦٣)

و منهم: ابن قتيبة في (الإمامة و السّياسة ج ١، ص ١٤)

و منهم: ابن عبد البرّ الاندلسي في (الاستيعاب ج ٢، ص ٧٥١)

و منهم: ابن حجر العسقلاني في (الإصابة ج ٤، ص ٣٧٨ و ٣٨٠)

و منهم: ابن الأثير في (اسد الغابة، ج ٥، ص ٢٥٤)

و منهم: القسطلاني في (إرشاد السّاري ج ٦، ص ٣٦٢)

و منهم: عمر رضا كحالة في (أعلام النساء ج ٣، ص ١٢١٤)

و منهم: القاضي الدّيار بكري في (تاريخ الخميس ج ١، ص ٣١٣)

و منهم: الجاحظ في (رسائله: ص ٣٠٠)

و منهم: الخوارزمي في (المقتل: ج ١، ص ٨٣)

و منهم: أبونعيم الإصبهاني في (حلية الأولياء ج ٢، ص ٤٣)

و غيرهم تركناهم روماً للاختصار

قولها ﴿ع﴾: «فاشتدّ و طأتك عليها»

الوطء - في الأصل - الدّوس بالقدم، و سمّي به الغزو و القتل لأنّ من يطأ على الشّيء

برجله فقد استقصى في إهلاكه و إهانته و منه الحديث «اللّهمّ اشدد وطأتك على مُضر» أي خذهم أخذاً شديداً

الخَمَل: هُدْبُ القطيفة و نحوها

و قولها(عليها السلام): «لأُثار عنك النصيح» أي لا نصح عن المراد أي تكلمه من رأسه، فإنّ محلّ الكلام في الرأس و المراد بالنصيح اللسان

و «نُفِثَتْ» كُسِرَ دماغها من لطم عمر بن الخطّاب اللّعين

و قوله(عليه السلام): «جوانحي» الجوانح الضلوع تحت الترائب ممّا يلي الصدر، جمع الجانحة

فانظر أيّها القارئ كيف يتّخذ ابنته عائشة و حليفه عمر بن الخطّاب شاهدين على مدّعاه، و يردّ عمر ـ مع كونه شاهداً مجعولاً ـ شهادة اُمّ أيمن و أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب(عليه السلام)

و في الاحتجاج، ـ باب احتجاج أمير المؤمنين(عليه السلام) على أبي بكر و عمر لمّا منعا فاطمة الزّهراء(عليها السلام) فدك بالكتاب و السنّة ـ عن حمّاد بن عثمان عن أبي عبدالله(عليه السلام) قال: لمّا بويع أبوبكر و استقام له الأمر على جميع المهاجرين و الأنصار بعث إلى فدك من أخرج وكيل فاطمة(عليها السلام) بنت رسول الله منها، فجاءت فاطمة الزهراء(عليها السلام) إلى أبي بكر ثمّ قالت: لِمَ تمنعني ميراثي من أبي رسول الله(صلى الله عليه وآله) و أخرجتَ وكيلي من فدك، و قد جعلها لي رسول الله(صلى الله عليه وآله) بأمر الله تعالى؟

فقال: هاتي على ذلك بشهود، فجاءت باُمّ أيمن، فقالت له اُمّ أيمن: لا أشهد يا أبابكر حتّى أحتجّ عليك بما قال رسول الله(صلى الله عليه وآله)، أنشدك بالله ألستَ تعلم أنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله) قال: «اُمّ أيمن امرأة من أهل الجنّة»؟ فقال: بلى، قالت: فأشهد أنّ الله عزّوجلّ أوحى إلى رسول الله(صلى الله عليه وآله): «و آت ذا القربى حقّه» فجعل فدكاً لها طعمة بأمر الله. فجاء عليّ(عليه السلام) فشهد بمثل ذلك، فكتب لها كتاباً و دفعه إليها، فدخل عمر فقال: ما هذا الكتاب؟ فقال: إنّ فاطمة(عليها السلام) ادّعت في فدك، و شهدت لها اُمّ أيمن و عليّ(عليه السلام) فكتبته لها. فأخذ عمر الكتاب من فاطمة، فتفل فيه و مزّقه، فخرجت فاطمة(عليها السلام) تبكي

فلمّا كان بعد ذلك جاء عليّ (ع) إلى أبي بكر و هو في المسجد و حوله المهاجرون و الأنصار، فقال يا أبا بكر! لِمَ منعت فاطمة ميراثها من رسول الله (ﷺ)؟ و قد ملكته في حياة رسول الله (ﷺ) فقال أبو بكر هذا فيءٌ للمسلمين، فإن أقامت شهوداً أنّ رسول الله جعله لها و إلّا فلا حقّ لها فيه، فقال أمير المؤمنين (ع) يا أبا بكر تحكم فينا بخلاف حكم الله في المسلمين؟ قال لا قال فإن كان في يد المسلمين شيءٌ يملكونه، ثمّ ادّعيتُ أنا فيه من تسأل البيّنة؟ قال إيّاك أسأل البيّنة؟ قال فما بال فاطمة سألتها البيّنة على ما في يديها؟ و قد ملكته في حياة رسول الله (ﷺ) و بعده، و لم تسأل المسلمين بيّنة على ما ادّعوا شهوداً، كما سألتني على ما ادّعيت عليهم؟ فسكت أبو بكر

فقال عمر يا عليّ دعنا من كلامك، فإنّا لا نقوى على حجّتك، فإن أتيت بشهود عدول، و إلّا فهو فيءٌ للمسلمين لا حقّ لك و لا لفاطمة فيه، فقال أمير المؤمنين (ع) يا أبا بكر تقرأ كتاب الله؟ قال نعم قال أخبرني عن قول الله عزّ و جلّ «إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرّجس أهل البيت و يطهّركم تطهيراً» فيمن نزلت؟ فينا أم في غيرنا؟ قال بل فيكم، قال فلو أنّ شهوداً شهدوا على فاطمة بنت رسول الله (ﷺ) بفاحشة ما كنت صانعاً بها؟ قال كنت أقيم عليها الحدّ، كما أقيمه على نساء المسلمين، قال إذن كنت عند الله من الكافرين، قال: و لِمَ؟

قال لأنّك رددتَ شهادة الله لها بالطّهارة، و قبلتَ شهادة النّاس عليها، كما رددت حكم الله و حكم رسوله، أن جعل لها فدكاً قد قبضته في حياته، ثمّ قبلتَ شهادة أعرابيّ بائل على عقبيه عليها، و أخذت منها فدكاً و زعمت أنّه فيءٌ للمسلمين، و قد قال رسول الله (ﷺ) «البيّنة على المدّعي و اليمين على المدّعى عليه» فرددتَ قول رسول الله (ﷺ) «البيّنة على من ادّعى، و اليمين على من ادّعي عليه» قال فدمدم النّاس و أنكروا، و نظر بعضهم إلى بعض، و قالوا «صدق و الله عليّ بن أبي طالب (ع) و رجع إلى منزله»

ثمّ دخلت فاطمة المسجد، و طافت بقبر أبيها و هي تقول

قد كان بعدك أنباء و هنبثة   لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب

الأبيات... رواه القمي في تفسيره

قوله (ع): «كي يستنسى على ما ادعت عليهم» إن الصديقة الطاهرة (ع) كانت صاحبة اليد، والمسلمون يمثلون دور المدعي

وفي تفسير العياشي عن جميل بن دراج عن أبي عبد الله (ع) قال «أتت فاطمة (ع) أبا بكر تريد فدك، قال هاتي أسود أو أحمر يشهد بذلك. قال فأتت بأم أيمن، فقال لها بم تشهدين؟ قالت أشهد أن جبرئيل أتى محمداً فقال إن الله يقول «وآت ذا القربى حقه» فلم يدر محمد (ص) من هم؟ فقال يا جبرئيل سل ربك من هم؟ فقال فاطمة ذو القربى، فأعطاها فدكاً. فزعموا أن عمر محى الصحيفة وقد كان كتبها أبو بكر»

وفي اللمعة البيضاء «اشتهر في روايات الخاصة والعامة أن أبا بكر أرسل إلى فدك وأخرج وكلاءها منها، وقد حاج علي (ع) مع أبي بكر في ذلك في اليوم الثاني من مجيء فاطمة (ع) إلى أبي بكر ممطالبه في أمر فدك ورجوعها آيسة»

ولقد كانت للصديقة الطاهرة سلام الله عليها وسمة مكتوبة في أيام رسول الله (ص) فدكاً لها عند الشهود الثمان الذين شهدوا على ذلك وهم

١ ـ مولى الموحدين إمام المتقين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)

٢ ـ سبط النبي الحسن بن علي صلوات الله عليهم

٣ ـ سيد الشهداء والأحرار وسيد شباب أهل الجنة الحسين بن علي عليهما السلام

٤ ـ رباح مولى رسول الله (ص)

٥ ـ أم أيمن وهي من نساء أهل الجنة بشهادة رسول الله (ص) ولا يكون الكاذب من أهل الجنة

٦ ـ أم سلمة، وقد كانت مسلمة بين أهل الملة في الدين والفضيلة

٧ ـ أسماء بنت عميس وهي امرأة صالحة خادمة للصديقة الطاهرة سلام الله عليها

٨ ـ أم كلثوم

في الخرائج ـ باب فدك ـ عن أبي عبد الله (ع) ـ حديث طويل ـ قال (ع) «فدعا رسول الله (ص) بأديم عكاظي، ودعا علي بن أبي طالب (ع) فقال اكتب لفاطمة بفدك

حلة من رسول الله ﴿ﷺ﴾ و شهد على ذلك عليّ بن أبي طالب و مولى رسول الله و أمّ أيمن، فقال رسول الله ﴿ﷺ﴾ إنّ أمّ أيمن امرأة من أهل الجنّة»

الأديم: الجلد المدبوغ. و «عكاظي» نسبة إلى سوق عكاظ، لأنّه يحمل إليه فيباع هناك.

و في الكشكول المنسوب لحيدر الآملي (ص ٢٠٤ - ٢٠٥)، أنّه بعد ما تكلّمت فاطمة ﴿ع﴾ بما تكلّمت قال لها عمر: دعينا عن الخطب و الخطابة من يشهد لك بقولك؟ فبعثت إلى عليّ و الحسن و الحسين عليهم السّلام و أمّ أيمن و أسماء بنت عميس و كانت تحت أبي بكر بن أبي قحافة، فأقبلوا إلى أبي بكر و شهدوا لها بجميع ما قالت و ادّعته

فقال: أمّا عليّ فزوجها، و أمّا الحسن و الحسين فابناها، و أمّا أمّ أيمن فمولاتها، و أمّا أسماء بنت عميس فهي كانت تحت جعفر بن أبي طالب، فهي تشهد لبني هاشم، و قد كانت تخدم فاطمة، و كلّ هؤلاء يجرّون إلى أنفسهم

و في بعضها: أنّه قال لفاطمة ﴿ع﴾: أمّا عليّ فهو زوجك فهو جارّ النّار إلى قرصه، و الحسنان ولداك، و أمّ أيمن جاريتك و محبّتك، و أسماء كانت قبل ذلك زوجة ابن عمّك جعفر، و تحبّ بني هاشم و أنت منهم

فقال عليّ ﴿ع﴾: أمّا فاطمة فبضعة من رسول الله ﴿ﷺ﴾ من آذاها فقد آذاه، و من كذّبها فقد كذّبه، و الحسنان سبطاه و سيّدا شباب أهل الجنّة، و قال لي رسول الله ﴿ﷺ﴾: أنت منّي و أنا منك، من ردّك فقد ردّني، و من أطاعك فقد أطاعني، و أمّا أمّ أيمن فشهد لها النّبيّ ﴿ﷺ﴾ بأنّها من أهل الجنّة و لا يكون الكاذب من أهل الجنّة»

﴿لماذا مزّق عمر بن الخطّاب سند فدك؟﴾

وقد دار بين الصّدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها وبين أبي بكر لغصب حوار طويل كانت نتيجته أن تمسّكت فاطمة الزّهراء ﴿عليها السلام﴾ بالكتاب الكريم والسّنّة الثّابتة لأنّ الله تعالى أفاء فدكاً على أبيها، ورسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ آتاها إيّاها بأمر الله جلّ وعلا، وتشبّث أبو بكر برأي عمر بن الخطّاب. ولمّا أُفحم أبو بكر بالكتاب والسّنّة حاول استرضاء الصّدّيقة الطّاهرة صلوات الله عليها ولذا كتب أنّ فدكاً لها ﴿عليها السلام﴾ ولكن عمر منعه من ذلك ومزّق كتابه.

في السّيرة الحلبيّة (ج ٣، ص ٣٩١) قال: «إنّ فاطمة بنت رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ جاءت إلى أبي بكر وهو على المنبر، فقالت: يا أبا بكر أفي كتاب الله أن ترث ابنتك ولا أرث أبي؟ فاستعبر أبو بكر باكياً، ثمّ نزل فكتب لها بفدك، ودخل عليه عمر، فقال: ما هذا؟ فقال: كتاب كتبته لفاطمة بميراثها من أبيها. فقال عمر: فمن ماذا تنفق على المسلمين، وقد حاربتك العرب كما ترى، ثمّ أخذ عمر الكتاب فشقّه»

ولا يخفى على القارئ الخبير أنّ قوله «كتاب كتبته لفاطمة بميراثها من أبيها» ناطق بأنّ الّذي ردّه إلى فاطمة هو ميراثها الّذي منعه عنها ابتداءً، فكيف يجتمع المنع أوّلاً، والإعطاء ثانياً من باب الإرث؟ أم كيف يجتمع ذلك مع ما رواه من حديث «نورّث، ما تركناه صدقة»؟

في المجالس السّنيّة (ج ٥، ص ٩٤ طبعة بيروت) للسّيّد محسن الأمين عن كتاب

سليم بن قيس الهلالي بسنده عن ابن عبّاس «إنّ فاطمة ﴿؏﴾ بلغها أنّ أبابكر قبض فدكاً، فخرجت في نساء بني هاشم حتّى دخلت على أبي بكر، فقالت: أتريد أن تأخذ منّي أرضاً جعلها لي رسول‌الله ﴿ﷺ﴾؟

فدعا بدواة ليكتب لها. فدخل عمر فقال: يا خليفة رسول‌الله لا تكتب لها حتّى تقيم البيّنة بما تدّعي. فقالت فاطمة سلام‌الله عليها: عليّ و أمّ أيمن يشهدان بذلك. فقال عمر: لا نقبل شهادة امرأة أعجمية لا تفصح، و أمّا عليّ فيجرّ النّار إلى قرصه.»

و في اللمعة البيضاء، و في بعض الأخبار «إنّ عمر أخذ الكتاب فمالته فمنعته، فدفع بيده في صدرها، و أخذ الصّحيفة فخرقها أو خرقها بعد أن تفل فيها، فدعت عليه السلام عليه، و قالت: بقر الله بطنك كما بقرت كتابي هذا. فخرجت ﴿؏﴾ تبكي. فلمّا كان بعد ذلك جاء عليّ ﴿؏﴾ إلى أبي بكر و هو في المسجد و حوله المهاجرون و الأنصار و حاجّه في أمر فدك»

و في مصباح الأنوار: عن الصّادق ﴿؏﴾ قال: دخلت فاطمة ﴿؏﴾ على أبي بكر فسألته فدكاً قال أبوبكر: النّبيّ لا يورّث. فقالت: قد قال الله تعالى «و ورث سليمان داود» فلمّا حاجّته، أمر أن يكتب لها و شهد عليّ بن أبي طالب ﴿؏﴾ و أمّ أيمن قال: فخرجت فاطمة ﴿؏﴾ فاستقبلها عمر، فقال: من أين جئت يا بنت رسول‌الله؟ قالت: من عند أبي‌بكر من شأن فدك، قد كتب لي بها، فقال عمر: هاتي الكتاب، فأعطته فبصق فيه و محاه.»

أقول: و يمكن الجمع بين الرّوايات إمّا باختلاف الدّعاوي من النّحلة و الميراث و سهم ذوي القربى، و إمّا باختلاف موارد الرّجوع.

و أمّا منع عمر بن الخطّاب، خليفة أبابكر من الكتابة أو تمزيقه كتابه و نحوه فظاهر لا يخفى على من له الدّراية و طيب الولادة.

و ذلك أنّ فدكاً كانت لها قيمتان كبيرتان.

الاولى: قيمة معنويّة في النّظر الإسلاميّ كما تدلّ عليها الآيات القرآنيّة والرّوايات الكثيرة سبق ذكر بعضها، و يأتي بعضها الآخر في خلال العناوين المستقبلة و قصيدة دعبل

الخزاعي أبي أنشدها حينما ردّ المأمون فدكاً، مطلعها

أصبح وجه الزّمان قد ضحكا بردّ مأمون هاشم فدكا

الثانية: قيمة ماديّة فإنّها لم تكن أرضاً صغيرة أو مزرعاً متواضعاً كما يوهم بعضهم، بل كانت تدرّ على صاحبها أموالاً طائلة تشكّل ثروة مهمّة ترتفع إلى عدد عائديه، تدلّ عليها أمور

ألف: أنّ أبا بكر أخذ فدكاً من الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها غصباً للتحريم الاقتصاديّ على أهل بيت الوحي المعصومين عليهم السلام بإشارة عمر بن الخطّاب كما سبق ذكره في «سبب غصب فدك» فراجع

ب: أنّ عمر بن الخطّاب منع أبا بكر ابن أبي قحافة من ترك فدك للصدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها لضعف المالية العامّة مع احتياجها إلى التّقوية لسدّ الموقف من حروب الرّدة وثورات العصاة، ومن الواضح أنّ أرضاً يستعان بحاصلاتها على سدّ الميزانيّة الدّولية وتقوية ماليّتها في ظروف حرجة كظروف الثّورات والحروب الدّاخلية والخارجيّة لا بدّ وأن تكون ذات نتاج عظيمة

ج: مقالة أبي بكر بن أبي قحافة التي افتعلها للرّد على الصدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها في محاورة معها حول فدك: إنّ هذا المال لم يكن للنّبيّ «ﷺ» وإنّما كان مالاً من أموال المسلمين يحمل النّبيّ «ﷺ» به الرّجال وينفقه في سبيل الله، فإنّ تحميل الرّجال لا يكون إلّا بمال كثير تتقوّم به نفقات الجيش

د: أنّ معاوية بن أبي سفيان قد قسم فدكاً ثلاثة أقسام وقد أعطى لكلّ من يزيد ابنه، ومروان بن الحكم، وعمرو بن عثمان ثلثاً، وهذا يدلّ بوضوح على مدى الثروة المجتناة من أرض فدك، فإنّها بلا شكّ ثروة عظيمة تصلح لأن توزّع على أمراء ثلاثة من أصحاب الثّراء العريض والأموال الطّائلة

هـ: وقد عبّر عن فدك بقرية بالحجاز كما في معجم البلدان، وبقرية من قرى اليهود كما في مجمع البحرين، وقدّر بعض نخيلها بنخل الكوفة في القرن السّادس الهجري كما في شرح النهج لابن أبي الحديد

وفي أصول الكافي كتاب الحجة، باب الفيء والأنفال وتفسير الخمس وحدوده، بإسناده عن علي بن أسباط قال: لما ورد أبو الحسن موسى (عليه السلام) على المهدي رآه يردّ المظالم فقال: يا أمير المؤمنين ما بال مظلمتنا لا تُردّ؟ فقال له: وما ذاك يا أبا الحسن؟ قال: إنّ الله تبارك وتعالى لمّا فتح على نبيّه (صلى الله عليه وآله) فدك وما والاها، لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب، فأنزل الله على نبيّه (صلى الله عليه وآله) «وآت ذا القربى حقّه» فلم يدر رسول الله (صلى الله عليه وآله) من هم، فراجع في ذلك جبرئيل وراجع جبرئيل (عليه السلام) ربّه، فأوحى الله إليه أن ادفع فدك إلى فاطمة (عليها السلام)، فدعاها رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقال لها: يا فاطمة إنّ الله أمرني أن أدفع إليك فدك، فقالت: قد قبلت يا رسول الله من الله ومنك.

فلم يزل وكلاؤها فيها حياة رسول الله (صلى الله عليه وآله) فلمّا ولي أبو بكر أخرج عنها وكلاءها، فأتته فسألته أن يردّها عليها، فقال لها: ائتيني بأسود أو أحمر يشهد لك بذلك، فجاءت بأمير المؤمنين (عليه السلام) وأمّ أيمن فشهدا لها، فكتب لها بترك التعرّض، فخرجت والكتاب معها، فلقيها عمر فقال: ما هذا معك يا بنت محمّد؟ قالت: كتاب كتبه لي ابن أبي قحافة، قال: أرينيه، فأبت، فانتزعه من يدها ونظر فيه، ثمّ تفل فيه ومحاه وخرقه، فقال لها: هذا لم يوجف عليه أبوك بخيل ولا ركاب؟

فضعي الحبال في رقابنا، فقال له المهديّ: يا أبا الحسن حُدّها لي؟ فقال: حدٌّ منها جبل أُحُد، وحدٌّ منها عريش مصر، وحدٌّ منها سيف البحر، وحدٌّ منها دومة الجندل، فقال له: كلّ هذا؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين هذا كلّه، إنّ هذا كلّه ممّا لم يوجف على أهله رسول الله (صلى الله عليه وآله) بخيل ولا ركاب، فقال: كثير، وأنظر فيه».

قوله: «فضعي الحبال» كناية عن عدم قبول الحكّام بأنّه قال ذلك تحقيراً وتعجيزاً شأنها، أو قوله تقريعاً على الحمل بزعمه، والمعنى: أنت إذا أعطيت ذلك وضعت الحبال على رقابنا بالعبوديّة، فجعلتنا عبيداً لك، أو المعنى: أنّك إذا حكمت على ما لم يوجف عليها أبوك بخيل بأنّها ملكك فاحكمي على رقابنا أيضاً بالملكيّة.

وفي قوله: «أبوك» إهانة وتعريض لرسول الله (صلى الله عليه وآله) أيضاً.

وفي كتاب الشافي للسيّد المرتضى رضوان الله تعالى عليه: وقد رُوي أنّ أبا بكر لمّا

شهد أمير المؤمنين ﴿ع﴾ كتب تسليم فدك إليها ﴿عليها السلام﴾، فاعترض عمر قضيته و خرّق ما كتبه

و فيه روى إبراهيم بن السعيد الثقفي عن إبراهيم بن ميمون، قال حدّثنا عيسى بن عبد الله بن محمّد بن عليّ بن أبي طالب ﴿ع﴾ عن أبيه عن جدّه عن عليّ ﴿ع﴾ قال جاءت فاطمة ﴿عليها السلام﴾ إلى أبي بكر، و قالت إنّ أبي أعطاني فدك، و عليّ و أمّ أيمن يشهدان، فقال ما كنت لتقولي على أبيك إلاّ الحقّ قد أعطيتكها، و دعا بصحيفة من أدم فكتب لها فيها، فخرجت فلقيت عُمر، فقال من أين جئت يا فاطمة؟ قالت جئت من عند أبي بكر، أخبرته أنّ رسول الله ﴿ص﴾ أعطاني فدك و أنّ عليّاً و أمّ أيمن يشهدان لي بذلك، فأعطانيها، و كتبها لي. فأخذ عمر منها الكتاب، ثمّ رجع إلى أبي بكر، فقال أعطيتَ فاطمة فدك، و كتبتَ بها لها؟ قال نعم، فقال إنّ عليّاً يجرّ إلى نفسه، و أمّ أيمن امرأة، و بصق في الكتاب فمحاه و خرّقه»

و قد رُوِيَ هذا المعنى من طرق مختلفة على وجوه مختلفة، فمن أراد الوقوف عليها و استقصاءها أخذها من مواضعها

و ليس لهم أن يقولوا إنّها أخبار آحاد لأنّها و إن كانت كذلك فأقلّ أحوالها أن توجب الظنّ و تمنع من القطع على خلاف معناها. و ليس لهم أن يقولوا كيف يسلّم إليها فدك و هو يروي عن الرسول «إنّ ما خلّفناه صدقة»؟ و ذلك لأنّه لا تنافي بين الأمرين لأنّه إنّما سلّمها على ما وردت به الرواية على سبيل النّحلة، فلمّا وقعت المطالبة بالميراث روى الخبر في معنى الميراث، فلا اختلاف بين الأمرين» انتهى كلامه رفع مقامه

أقول هذه القصّة شبيهة لقصّة مسجد قباء، و جفاء رسول الله ﴿ص﴾ فيه بعد موته، و توبيخه أبا بكر على ما فعله بعد وفاته ﴿ص﴾ و تصميمه على إرجاع الخلافة إلى أهلها الإمام عليّ ﴿ع﴾ و لكن عمر بن الخطّاب وسوسه و منعه من ذلك.

و من هذين الموقفين و عشرات المواقف الأخر يظهر أنّ عمر بن الخطّاب كان عقل منفصل لأبي بكر، و ما كان له رأي مستقلّ و لا إرادة ثابتة، و إنّما كان آلة بيد عمر يلعب بها كيفما يشاء

﴿خطبة كاملة للصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء صلوات الله عليها﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

(وقد رتبناها على ستة عشر فصلاً)

١ – روى عبدالله بن الحسن عليه السلام بإسناده عن آبائه عليهم السلام أنه لما أجمع أبو بكر على منع فاطمة عليها السلام فدك، وبلغها ذلك، لاثت خمارها على رأسها، واشتملت بجلبابها، وأقبلت في لمة من حفدتها ونساء قومها، تطأ ذيولها، ما تخرم مشيتها مشية رسول الله صلى الله عليه وآله، حتى دخلت على أبي بكر وهو في حشد من المهاجرين والأنصار وغيرهم فنيطت دونها ملاءة، فجلست، ثم أنت أنة أجهش القوم لها بالبكاء، فارتج المجلس، ثم أمهلت هنيئة حتى إذا سكن نشيج القوم، وهدأت فورتهم، افتتحت الكلام بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسول الله، فعاد القوم في بكائهم، فلما أمسكوا عادت في كلامها، فقالت عليها السلام:

٢ – «الحمد لله على ما أنعم، وله الشكر على ما ألهم، والثناء بما قدم، من عموم نعم ابتدأها، وسبوغ آلاء أسداها، وتمام منن والاها، جم عن الإحصاء عددها، ونأى عن الجزاء أمدها، وتفاوت عن الإدراك أبدها، وندبهم لاستزادتها بالشكر لاتصالها، واستحمد إلى الخلائق بإجزالها، وثنى بالندب إلى أمثالها

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، كلمة جعل الإخلاص تأويلها، وضمّن القلوب موصولها، وأنار في الفكر معقولها، الممتنع من الأبصار رؤيته، ومن الألسن صفته، ومن الأوهام كيفيته، ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها، وأنشأها بلا احتذاء أمثلة امتثلها، كوّنها بقدرته، وذرأها بمشيته، من غير حاجة منه إلى تكوينها، ولا فائدة له في تصويرها، إلا تثبيتاً لحكمته، وتنبيهاً على طاعته، وإظهاراً لقدرته، وتعبداً لبريته، وإعزازاً لدعوته، ثم جعل الثواب على طاعته، ووضع العقاب على معصيته، ذيادة لعباده عن نقمته، وحياشة منه إلى جنته»

٣ – «وأشهد أن أبي محمداً صلى الله عليه وآله عبده ورسوله، اختاره وانتجبه قبل أن أرسله، وسماه قبل أن اجتبله، واصطفاه قبل أن ابتعثه، إذ الخلائق بالغيب مكنونة، وبستر الأهاويل مصونة، وبنهاية العدم مقرونة، علماً من الله تعالى بمآيل الأمور، وإحاطة بحوادث الدهور، ومعرفة بمواقع المقدور، ابتعثه الله تعالى إتماماً لأمره، وعزيمة على إمضاء حكمه، وإنفاذاً لمقادير حتمه

فرأى الأمم فرقاً في أديانها، عكفاً على نيرانها، عابدة لأوثانها، منكرة لله مع عرفانها، فأنار الله بمحمد صلى الله عليه وآله ظلمها، وكشف عن القلوب بهمها، وجلى عن الأبصار غممها، وقام في الناس بالهداية، وأنقذهم من الغواية، وبصّرهم من العماية، وهداهم إلى الدين القويم، ودعاهم إلى الطريق المستقيم

٤ – «ثم قبضه الله إليه قبض رأفة واختيار، ورغبة وإيثار، فمحمد صلى الله عليه وآله عن تعب هذه الدار في راحة، قد حفّ بالملائكة الأبرار، ورضوان الرب الغفار، ومجاورة الملك الجبار، صلى الله على أبي نبيه وأمينه على الوحي، وصفيه وخيرته من الخلق ورضيه، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته»

٥ – «ثم التفتت إلى أهل المجلس وقالت:

«أنتم عباد الله نصب أمره ونهيه، وحملة دينه ووحيه، وأمناء الله على أنفسكم، وبلغاؤه إلى الأمم، وزعيم حق له فيكم، وعهد قدمه إليكم، وبقية استخلفها عليكم: كتاب الله الناطق، والقرآن الصادق، والنور الساطع، والضياء اللامع، بيّنة بصائره، منكشفة

سرائره، منجلية ظواهره، مغتبطة به أشياعه، قائد إلى الرضوان اتّباعه، مؤدٍّ إلى النجاة استماعه، به تنال حجج الله المنوّرة، وعزائمه المفسّرة، ومحارمه المحذّرة، وبيّناته الجالية، وبراهينه الكافية، وفضائله المندوبة، ورخصه الموهوبة، وشرائعه المكتوبة»

٦– «فجعل الله الإيمان تطهيراً لكم من الشرك، والصلاة تنزيهاً لكم عن الكبر، والزكاة تزكية للنفس ونماءً في الرزق، والصيام تثبيتاً للإخلاص، والحجّ تشييداً للدين، والعدل تنسيقاً للقلوب، وطاعتنا نظاماً للملّة، وإمامتنا أماناً من الفرقة، والجهاد عزّاً للإسلام، والصبر معونة على استيجاب الأجر، والأمر بالمعروف مصلحة للعامّة، وبرّ الوالدين وقاية من السخط، وصلة الأرحام منسأة في العمر ومنماة للعدد، والقصاص حقناً للدماء، والوفاء بالنذر تعريضاً للمغفرة، وتوفية المكاييل والموازين تغييراً للبخس، والنهي عن شرب الخمر تنزيهاً عن الرجس، واجتناب القذف حجاباً عن اللعنة، وترك السرقة إيجاباً للعفّة، وحرّم الله الشرك إخلاصاً له بالربوبيّة. «فاتّقوا الله حقّ تقاته ولا تموتنّ إلّا وأنتم مسلمون»، وأطيعوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، فإنّه «إنّما يخشى الله من عباده العلماء».

٧– «ثمّ قالت: «أيّها الناس! اعلموا أنّي فاطمة، وأبي محمّد صلى الله عليه وآله، أقول عوداً وبدءاً، ولا أقول ما أقول غلطاً، ولا أفعل ما أفعل شططاً «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتّم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم»، فإن تعزوه وتعرفوه تجدوه أبي دون نسائكم، وأخا ابن عمّي دون رجالكم، ولنعم المعزيّ إليه صلى الله عليه وآله، فبلّغ الرسالة صادعاً بالنذارة، مائلاً عن مدرجة المشركين، ضارباً ثبجهم، آخذاً بأكظامهم، داعياً إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة، يكسر الأصنام، وينكث الهام، حتّى انهزم الجمع وولّوا الدبر، حتّى تفرّى الليل عن صبحه، وأسفر الحقّ عن محضه، ونطق زعيم الدين، وخرست شقاشق الشياطين، وطاح وشيظ النفاق، وانحلّت عقد الكفر والشقاق، وفهتم بكلمة الإخلاص في نفر من البيض الخماص»

٨– «وكنتم على شفا حفرة من النار، مذقة الشارب، ونهزة الطامع، وقبسة العجلان، وموطئ الأقدام، تشربون الطرق، وتقتاتون الورق، أذلّة خاسئين، «تخافون

أن يتخطفكم الناس من حولكم

فأنقذكم الله تبارك وتعالى بمحمد صلى الله عليه وآله بعد اللتيا والتي، وبعد أن مني ببهم الرجال وذؤبان العرب ومردة أهل الكتاب، «كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله» أو نجم قرن للشيطان، أو فغرت فاغرة من المشركين قذف أخاه في لهواتها، فلا ينكفئ حتى يطأ صماخها بأخمصه، ويخمد لهبها بسيفه، مكدوداً في ذات الله، مجتهداً في أمر الله، قريباً من رسول الله، سيداً أولياء الله، مشمراً ناصحاً، مجداً كادحاً، لا تأخذه في الله لومة لائم، وأنتم في رفاهية (فكهون ح) من العيش، وادعون فاكهون آمنون، تتربصون بنا الدوائر، وتتوكفون الأخبار، وتنكصون عند النزال، وتفرون عند القتال»

٩ - «فلما اختار الله لنبيه دار أنبيائه ومأوى أصفيائه، ظهر فيكم حسيكة النفاق، وسمل جلباب الدين، ونطق كاظم الغاوين، ونبغ خامل الأقلين، وهدر فنيق المبطلين فخطر في عرصاتكم، وأطلع الشيطان رأسه من مغرزه هاتفاً بكم، فألفاكم لدعوته مستجيبين، وللغرة فيه ملاحظين، ثم استنهضكم فوجدكم خفافاً، وأحمشكم فألفاكم غضاباً، فوسمتم غير إبلكم، وأوردتم غير شربكم، هذا والعهد قريب، والكلم رحيب، والجرح لما يندمل، والرسول لما يقبر، ابتداراً زعمتم خوف الفتنة «ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين»

فهيهات منكم، وكيف بكم؟ وأنى تؤفكون؟ وكتاب الله بين أظهركم، أموره ظاهرة، وأحكامه زاهرة، وأعلامه باهرة، وزواجره لائحة، وأوامره واضحة، قد خلفتموه وراء ظهوركم، أرغبة عنه تريدون؟ أم بغيره تحكمون؟ «بئس للظالمين بدلاً» «ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين». ثم لم تلبثوا إلا ريث أن تسكن نفرتها، ويسلس قيادها ثم أخذتم تورون وقدتها، وتهيجون جمرتها، وتستجيبون لهتاف الشيطان الغوي، وإطفاء نور الدين الجلي، وإخماد سنن النبي الصفي، تسرون حسواً في ارتغاء، وتمشون لأهله وولده في الخمر والضراء، ونصبر منكم على مثل حز المدى، ووخز السنان في الحشا، وأنتم تزعمون أن لا إرث لنا، «أفحكم الجاهلية تبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون» أفلا تعلمون؟ بلى تجلى لكم كالشمس الضاحية أني ابنته»

١٠ – «أيُّها المسلمون أأُغلَبُ على إرثيه؟ يا ابن أبي قحافة أفي كتاب الله أن ترث أباك، ولا أرث أبي؟ «لقد جئتَ شيئاً فريّاً». أفعلى عمدٍ تركتم كتاب الله، ونبذتموه وراء ظهوركم، إذ يقول: «وورث سليمانُ داود»، وقال فيما اقتصّ من خبر يحيى بن زكريا عليهما السلام إذ قال: «ربِّ هب لي من لدنك وليّاً يرثني ويرث من آل يعقوب» وقال: «وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله» وقال: «يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظّ الأنثيين» وقال: «إن ترك خيراً الوصيّة للوالدين والأقربين بالمعروف حقّاً على المتّقين»، وزعمتم ألا حظوة لي، ولا إرث من أبي لا رحم بيننا!

أفخصّكم الله بآية أخرج منها أبي؟ أم هل تقولون إنّ أهل ملّتين لا يتوارثان؟ أو لستُ أنا وأبي من أهل ملّة واحدة؟ أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمّي؟»

١١ – «فدونكها مخطومة مرحولة، تلقاك يوم حشرك. فنعم الحكم الله، والزعيم محمّد، والموعد القيامة، وعند الساعة ما تخسرون، ولا ينفعكم إذ تندمون، «ولكلّ نبأ مستقرّ وسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحلّ عليه عذاب مقيم»

١٢ – «ثمّ رمت بطرفها نحو الأنصار فقالت: يا معشر النقيبة، وأعضاد الملّة، وأنصار، حَضَنة الإسلام! ما هذه الغميزة في حقّي؟ والسِّنة عن ظلامتي؟ أما كان رسول الله صلّى الله عليه وآله أبي يقول «المرء يُحفظ في ولده»؟ سرعان ما أحدثتم، وعجلان ذا إهالة، ولكم طاقة بما أحاول، وقوّة على ما أطلب وأزاول. أتقولون مات محمّد صلّى الله عليه وآله؟! فخطبٌ جليل استوسع وهنه، واستنهر فتقه، وانفتق رتقه، وأظلمت الأرض لغيبته، وكسفت الشمس والقمر، وانتثرت النجوم لمصيبته، وأكدت الآمال، وخشعت الجبال، وأضيع الحريم، وأزيلت الحرمة عند مماته. فتلك والله النازلة الكبرى، والمصيبة العظمى، لا مثلها نازلة ولا بائقة عاجلة أعلن بها كتاب الله جلّ ثناؤه في أفنيتكم في ممساكم ومصبحكم يهتف في أفنيتكم هتافاً وصراخاً وتلاوةً وإلحاناً، ولقبله ما حلّ بأنبياء الله ورسله، حكمٌ فصلٌ وقضاءٌ حتمٌ «وما محمّدٌ إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئاً»

وسيجزي الله الشاكرين»

١٣ - «أيها بني قيلة أأهضم تراث أبيه وأنتم بمرأى مني ومسمع، ومنتدى ومجمع؟ تلبسكم الدعوة، وتشملكم الخبرة، وأنتم ذوو العدد والعدة، والأداة والقوة، وعندكم السلاح والجنة، توافيكم الدعوة فلا تجيبون، وتأتيكم الصرخة فلا تغيثون، وأنتم موصوفون بالكفاح، معروفون بالخير والصلاح، والنخبة التي انتخبت، والخيرة التي اختيرت، قاتلتم العرب، وتحملتم الكد والتعب، وناطحتم الأمم، وكافحتم البهم، فلا نبرح أو تبرحون، نأمركم فتأتمرون، حتى إذا دارت بنا رحى الإسلام، ودر حلب الأيام، وخضعت نعرة الشرك، وسكنت فورة الإفك، وخمدت نيران الكفر، وهدأت دعوة الهرج، واستوسق نظام الدين، فأنى حزتم بعد البيان؟ وأسررتم بعد الإعلان؟ ونكصتم بعد الإقدام؟ وأشركتم بعد الإيمان؟ «ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدؤوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين»

ألا قد أرى أن قد أخلدتم إلى الخفض، وأبعدتم من هو أحق بالبسط والقبض، وخلوتم بالدعة، ونجوتم من الضيق بالسعة، فمججتم ما وعيتم، ودسعتم الذي تسوغتم «فإن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا فإن الله لغني حميد»

١٤ - ألا وقد قلت ما قلت هذا على معرفة مني بالخذلة التي خامرتكم والغدرة التي استشعرتها قلوبكم ولكنها فيضة النفس، ونفثة الغيظ، وخور القناة، وبثة الصدور، وتقدمة الحجة

فدونكموها فاحتقبوها دبرة الظهر، نقبة الخف، باقية العار، موسومة بغضب الله وشنار الأبد، موصولة بنار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة فبعين الله ما تفعلون «وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون» وأنا ابنة نذير لكم بين يدي عذاب شديد، «فاعملوا إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون»

فأجابها أبو بكر عبد الله بن عثمان، فقال: يا ابنة رسول الله، لقد كان أبوك بالمؤمنين عطوفا كريما، رؤوفا رحيما، وعلى الكافرين عذابا أليما وعقابا عظيما، فإن عزوناه وجدناه

وأباك دون النساء، وأخا لبعلك دون الأخلاء، آثره على كل حميم، وساعده في كل أمر جسيم، لا يحبكم إلا كل سعيد، ولا يبغضكم إلا كل شقي، فأنتم عترة رسول الله صلى الله عليه وآله الطيبون، والخيرة المنتجبون، على الخير أدلتنا، وإلى الجنة مسالكنا، وأنت - يا خيرة النساء، وابنة خير الأنبياء - صادقة في قولك، سابقة في وفور عقلك، غير مردودة عن حقك، ولا مصدودة عن صدقك، والله ما عدوت رأي رسول الله صلى الله عليه وآله ولا عملت إلا بإذنه، وإن الرائد لا يكذب أهله، وإني أشهد الله وكفى به شهيداً أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ذهباً ولا فضة ولا داراً ولا عقاراً، وإنما نورث الكتب والحكمة، والعلم والنبوة، وما كان لنا من طعمة فلولي الأمر بعدنا أن يحكم فيه بحكمه»

وقد جعلنا ما حاولته في الكراع والسلاح يقتتل (يقاتل خ) به المسلمون، ويجاهدون الكفار، ويجالدون (يجادلون خ) المردة ثم الفجار، وذلك بإجماع من المسلمين لم أنفرد به وحدي، ولم أستبد بما كان الرأي فيه عندي، وهذه حالي، ومالي هي لك وبين يديك، لا تزوي (لا تزوى خ) عنك ولا ندخر دونك وأنت سيدة أمة أبيك، والشجرة الطيبة لبنيك، لا يدفع ما لك من فضلك، ولا يوضع من فرعك وأصلك، حكمك نافذ فيما ملكت يداي، فهل ترين أن أخالف في ذلك أباك صلى الله عليه وآله؟»

١٥ - **فقالت** عليها السلام: «سبحان الله! ما كان رسول الله صلى الله عليه وآله عن كتاب الله صادفاً، ولا لأحكامه مخالفاً، بل كان يتبع أثره، ويقفو سوره، أفتجمعون إلى الغدر اعتلالاً عليه بالزور، وهذا بعد وفاته شبيه بما بغي (بُغِيَ خ) له من الغوائل في حياته، هذا كتاب الله حكماً عدلاً، وناطقاً فصلاً، يقول: «يرثني ويرث من آل يعقوب»، ويقول «وورث سليمان داود»، فبين عز وجل فيما وزع عليه من الأقساط، وشرع من الفرائض والميراث، وأباح من حظ الذكران والإناث ما أزاح علة المبطلين، وأزال التظني والشبهات في الغابرين، كلا «بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون»

فقال أبو بكر: صدق الله ورسوله، وصدقت ابنته، أنت معدن الحكمة، وموطن

الهدى والرحمة، وركن الدين وعين الحجة، لا أبعد صوابك، ولا أنكر خطابك، هؤلاء المسلمون بيني وبينك، قلدوني ما تقلدت، وباتفاق منهم أخذت ما أخذت غير مكابر ولا مستبد ولا مستأثر، وهم بذلك شهود».

١٦ - فالتفتت فاطمة عليها السلام **وقالت:** معاشر الناس المسرعة إلى قيل الباطل، المغضية على الفعل القبيح الخاسر، «أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها» «كلا بل ران على قلوبكم» ما أسأتم من أعمالكم، فأخذ بسمعكم وأبصاركم، ولبئس ما تأولتم، وساء ما به أشرتم، وشر ما منه اعتضتم، لتجدن والله محمله ثقيلاً، وغبه وبيلاً، إذا كشف لكم الغطاء، وبان ما وراءه الضراء، «وبدا لكم من ربكم ما لم تكونوا تحتسبون» و«خسر هنالك المبطلون».

ثم عطفت على قبر النبي صلى الله عليه وآله **وقالت:**

قد كان بعدك أنباء وهنبثة ... لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب
إنا فقدناك فقد الأرض وابلها ... واختل قومك فاشهدهم وقد نكبوا
وكل أهل له قربى ومنزلة ... عند الإله على الأدنين مقترب
أبدت رجال لنا نجوى صدورهم ... لما مضيت وحالت دونك الترب
تجهمتنا رجال واستخف بنا ... لما فقدت وكل الأرض مغتصب
وكنت بدراً ونوراً يستضاء به ... عليك تنزل من ذي العزة الكتب
وكان جبريل بالآيات يؤنسنا ... فقد فقدت فكل الخير محتجب
فليت قبلك كان الموت صادفنا ... لما مضيت وحالت دونك الكثب
إنا رزئنا بما لم يرز ذو شجن ... من البرية لا عجم ولا عرب
سيعلم المتولي ظلم حامتنا ... يوم القيامة أنى سوف ينقلب
وسوف نبكيك ما عشنا وما بقيت ... لنا العيون بتهمال له سكب
وقد رزينا به محضاً خليقته ... صافي الضرائب والأعراق والنسب
فأنت خير عباد الله كلهم ... وأصدق الناس حين الصدق والكذب
وكان جبريل روح القدس زائرنا ... فغاب عنا فكل الخير محتجب

ضَاقَتْ عَلَيَّ بِلادِي بَعْدَ مَا رَحُبَتْ		وَسِيمَ سِبْطَاكَ خَسْفاً فِيهِ لِي نَصَبُ

فَأَنْتَ وَاللَّهِ خَيْرُ الْخَلْقِ كُلِّهِمُ		وَأَصْدَقُ النَّاسِ حِينَ الصِّدْقِ وَالْكَذِبُ

ثُمَّ انْكَفَأَتْ عَلَيْهَا السَّلامُ وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلامُ يَتَوَقَّعُ رُجُوعَهَا إِلَيْهِ، وَيَتَطَلَّعُ طُلُوعَهَا عَلَيْهِ، فَلَمَّا اسْتَقَرَّتْ بِهَا الدَّارُ قَالَتْ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلامُ: يَا ابْنَ أَبِي طَالِبٍ! اشْتَمَلْتَ شِمْلَةَ الْجَنِينِ، وَقَعَدْتَ حُجْرَةَ الظَّنِينِ، نَقَضْتَ قَادِمَةَ الْأَجْدَلِ، فَخَانَكَ رِيشُ الْأَعْزَلِ، هَذَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ يَبْتَزُّنِي نُحَيْلَةَ أَبِي وَبُلْغَةَ ابْنَيَّ، لَقَدْ أَجْهَرَ فِي خِصَامِي، وَأَلْفَيْتُهُ أَلَدَّ فِي كَلامِي، حَتَّى حَبَسَتْنِي قَيْلَةُ نَصْرَهَا، وَالْمُهَاجِرَةُ وَصْلَهَا، وَغَضَّتِ الْجَمَاعَةُ دُونِي طَرْفَهَا فَلا دَافِعَ وَلا مَانِعَ، خَرَجْتُ كَاظِمَةً، وَعُدْتُ رَاغِمَةً، أَضْرَعْتَ خَدَّكَ يَوْمَ أَضَعْتَ حَدَّكَ، افْتَرَسْتَ الذِّئَابَ، وَافْتَرَشْتَ التُّرَابَ، مَا كَفَفْتَ قَائِلاً، وَلا أَغْنَيْتَ بَاطِلاً (طَائِلاً)، وَلا خِيَارَ لِي، لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَنِيئَتِي وَدُونَ ذِلَّتِي، عَذِيرِيَ اللَّهُ مِنْكَ عَادِياً وَمِنْكَ حَامِياً، وَيْلايَ فِي كُلِّ شَارِقٍ، مَاتَ الْعَمَدُ، وَوَهَنَ الْعَضُدُ، شَكْوَايَ إِلَى أَبِي، وَعَدْوَايَ إِلَى رَبِّي، اللَّهُمَّ أَنْتَ أَشَدُّ قُوَّةً وَحَوْلاً، وَأَحَدُّ بَأْساً وَتَنْكِيلاً.

فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلامُ: لا وَيْلَ عَلَيْكِ، الْوَيْلُ لِشَانِئِكِ، نَهْنِهِي عَنْ وَجْدِكِ يَا ابْنَةَ الصَّفْوَةِ وَبَقِيَّةَ النُّبُوَّةِ، فَمَا وَنَيْتُ عَنْ دِينِي، وَلا أَخْطَأْتُ مَقْدُورِي، فَإِنْ كُنْتِ تُرِيدِينَ الْبُلْغَةَ فَرِزْقُكِ مَضْمُونٌ، وَكَفِيلُكِ مَأْمُونٌ، وَمَا أَعَدَّ لَكِ أَفْضَلُ مِمَّا قُطِعَ عَنْكِ، فَاحْتَسِبِي اللَّهَ. فَقَالَتْ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَأَمْسَكَتْ».

﴿خطبة الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها حول فدك اجمالاً﴾

وقد اتّفق الفريقان على خطبة الصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء صلوات الله تعالى عليها حيث ألقتها بمشهد من الصحابة في مسجد النبي ﴿صلى الله عليه وآله﴾، ومنهم أبو بكر بن أبي قحافة وأوردوها في مجاميعهم ومسانيدهم لشهرتها عندهم على طريقي الإجمال والتفصيل، فنسعى ذكرها بكلا الوجهين ثمّ شرحها إجمالاً

١ ـ في كتاب السقيفة وفدك للجوهري البصري قال: «حدّثني محمّد بن زكريا قال حدّثني جعفر بن محمد بن عمارة الكندي، قال حدّثني أبي، عن الحسين بن صالح بن حي، قال حدّثني رجلان من بني هاشم، عن زينب بنت علي بن أبي طالب ﴿عليه السلام﴾ قال وقال جعفر بن محمّد بن علي بن الحسين عن أبيه، وحدّثني عثمان بن عمران العجيفي، عن نائل بن نجيح بن عمير بن شمر، عن جابر بن الجعفي عن أبي جعفر محمد بن علي ﴿عليه السلام﴾

قال الجوهري وحدّثني أحمد بن محمد بن يزيد عن عبدالله بن محمّد بن سليمان عن أبيه، عن عبدالله بن الحسن بن الحسن، قالوا جميعاً

«لمّا بلغ فاطمة ﴿عليها السلام﴾ إجماع أبي بكر على منعها فدك، لاثت خمارها، وأقبلت في لمّة من حفدتها ونساء قومها تطأ في ذيولها، ما تخرم مشيتها مشية رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ حتى دخلت على أبي بكر، وقد حشد الناس من المهاجرين والأنصار، فضرب بينها وبينهم

رَيطة بيضاء، و قال بعضهم: قبطيّة، و قالوا: قطنيّة ـ بالكسر و الضمّ ـ ثمّ أنّت أنّة أجهش لها القوم بالبكاء، ثمّ أمهلت طويلاً حتّى سكنوا من فورتهم ثمّ قالت:

«أبتدئ بحمد من هو أولى بالحمد و الطّول و المجد، الحمد لله على ما أنعم، و له الشّكر بما ألهم»

و ذكر خطبة طويلة جيّدة، قالت في آخرها:

«فاتّقوا الله حقّ تقاته» و أطيعوه فيما أمركم به، «فإنّما يخشى الله من عباده العلماء»، و احمدوا الله الّذي لعظمته و نوره يبتغي من في السّموات و الأرض إليه الوسيلة و نحن وسيلته في خلقه، و نحن خاصّته و محلّ قدسه، و نحن حجّته في غيبه، و نحن ورثة أنبيائه، ثمّ قالت: أنا فاطمة ابنة محمّد، أقول عوداً على بدء، و ما أقول ذلك سرفاً و لا شططاً، فاسمعوا بأسماع واعية و قلوب راعية. ثمّ قالت: «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتّم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم».

فإن تعزوه تجدوه أبي دون آبائكم و أخا ابن عمّي دون رجالكم. ثمّ ذكرت كلاماً طويلاً نذكره فيما بعد في الفصل الثّاني، تقول في آخره:

«ثمّ أنتم الآن تزعمون أن لا إرث لي، «أفحكم الجاهليّة يبغون، و من أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون»

أيها معاشر المسلمين، أبتزّ إرث أبي؟ أبى الله أن ترث يا ابن أبي قحافة أباك و لا أرث أبي، لقد جئت شيئاً فريّاً، فدونكها مخطومة مرحولة تلقاك يوم حشرك، فنعم الحكم الله، و الزّعيم محمّد، و الموعد القيامة، و عند السّاعة يخسر المبطلون، و لكلّ نبإ مستقرّ و سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه و يحلّ عليه عذاب مقيم، ثمّ انكفأت إلى قبر أبيها، فتمثّلت بقول هند بنت أثاثة (و هي بنت أثاثة بن عبد المطّلب، شاعرة من شواعر العرب أسلمت و بايعت رسول الله ﴿ﷺ﴾)،

قد كان بعدك أنباء و هنبثة — لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب
أبدت رجال لنا نجوى صدورهم — لمّا مضيت و حالت دونك الكثب
تجهّمتنا رجال و استخفّ بنا — إذ غبت عنّا فنحن اليوم نغتصب

قولها (عليها السلام) «هينمة» صوت خفيّ.

قال: ولم ير الناس أكثر باكٍ ولا باكية منهم يومئذ، ثمّ عدلت إلى مسجد الأنصار، فقالت: يا معشر البقيّة، وأعضاد الملّة، وحضنة الإسلام، ما هذه الفترة عن نصرتي، والونية عن معونتي، والغمزة في حقّي، والسِّنة عن ظلامتي! أما كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: «المرء يُحفَظُ في ولده»؟ سرعان ما أحدثتم، وعجلان ما أتيتم، ألِانْ مات رسول الله (صلى الله عليه وآله) أمتّم دينه؟ ها إنّ موته لعمري خطبٌ جليل، استوسع وهنُه، واستبهم فتقُه، وفُقِد راتقه، وأظلمت الأرض له، وخشعت الجبال، وأكْدَت الآمال، أُضيع بعده الحريم، وهتكت الحرمة، وأُذيلت المصونة، وتلك نازلة أعلن بها كتاب الله قبل موته، وأنبأكم بها قبل وفاته، فقال: «وما محمّد إلّا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين».

إيهاً بني قيلة، اهتضم تراث أبي، وأنتم بمرأى ومسمع، تبلغكم الدعوة، ويشملكم الصوت، وفيكم العُدّة والعدد، ولكم الدار والجنن، وأنتم نخبة الله التي انتخب، وخيرته التي اختار، باديتم العرب، وبادهتم الأمور، وكافحتم البهم حتّى دارت بكم رحى الإسلام، ودرّ حلبه، وخبت نيران الحرب، وسكنت فورة الشرك، وهدأت دعوة الهرج، واستوثق نظام الدين، أفتأخّرتم بعد الإقدام؟ ونكصتم بعد الشدّة؟ وجبنتم بعد الشجاعة؟ عن قوم نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم، فقاتلوا أئمّة الكفر إنّهم لا أيمان لهم لعلّهم ينتهون.

ألا وقد أرى أن قد أخلدتم إلى الخفض، وركنتم إلى الدعة، فجحدتم الذي وعيتم، وسغتم الذي سوّغتم، وإن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإنّ الله لغنيّ حميد. ألا وقد قلتُ لكم ما قلت على معرفة منّي بالخذلة التي خامرتكم، وخور القناة، وضعف اليقين، فدونكموها فاحتووها مدبرة الظهر، ناقبة الخفّ، باقية العار، موسومة الشعار، موصولة بنار الله الموقدة التي تطّلع على الأفئدة، فبعين الله ما تعملون «وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون».

أقول: رواه بعينه جماعة من أعلام الأمّة وحملة آثارهم في مآخذهم المعتبرة عندهم

منهم: أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر المعروف بابن طيفور المتوفى سنة ٢٨٠ هـ.ق، في كتاب (بلاغات النسآء: ص ١٤) أوردها تفصيلاً

ومنهم: ابن أبي الحديد في شرح كتاب أمير المؤمنين الإمام علي «عليه السلام» إلى عثمان بن حنيف الأنصاري وكان عامله على البصرة (ج ١٦، ص ٢١١ ط دار إحياء الكتب العربية بيروت سنة ١٩٦٢ م) ذكرها اجمالاً

ومنهم: عمر رضا كحالة في (أعلام النساء ج ٣، ص ١٢٠٨ ط دمشق) روى الحديث بعين ما في (بلاغات النسآء) وغيرهم تركناهم روماً للاختصار

ولا يخفى على من له دراية وحسب أولاده أنّ الصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء سلام الله عليها لم تتوقّف في طريق الحقّ وجهادها رغم ما أوجده رؤساء المنافقين المعاندين على الإسلام والمؤمنين من الموانع والمتاعب لتقطعه أمامها، فقد قامت سلام الله عليها بفضح شدّة كفرهم ونفاقهم وقساوة قلوبهم، وجرائمهم المنكرة التي قام بها مدّعو الخلافة بعد رسول الله «صلى الله عليه وآله» وأعلنت للمسلمين ولكلّ الناس في كلّ طرف من الظروف كفر هؤلاء المدّعين الغاصبين وقساوة قلوبهم وابتعادهم عن الدين وانحرافهم عن الإسلام، وأوضحت حقيقة الإيمان وحكمة الإسلام وعلل أحكامه في فصول من خطبتها التي ألقتها في مسجد النبيّ «صلى الله عليه وآله» عند من الصحابة ومنهم أبوبكر بن أبي قحافة أوّل غاصب لحقّ أهل بيت الوحي المعصومين وتمادي بظلمهم وهضم حقوقهم صلوات الله عليهم أجمعين

وقد كانت هذه الخطبة في المسجد النبويّ «صلى الله عليه وآله» أوّل خطوة لها سلام الله عليها، وإنّ هذه الخطوة وإن لم تثمر ثمارها في ساعتها الفوريّة للكبت الذي كانت عليه أجواء المدينة آنذاك، والإرهاب الذي أوجده عمر بن الخطّاب حليف أبي بكر بن أبي قحافة، منذ اللحظات الأولى من اغتصاب الخلافة، وخبط الناس في الأزقّة وجرّهم سحباً إلى أبي بكر للبيعة وسلب القدرة من المسلمين على التفكير أحياناً كما أشارت الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها في خطبتها إلى هذه الحالة المرهقة، ولكن هذه الخطوة سجّلت

باستمرار حياة الإنسان على بسيط الأرض، و تفضح هؤلاء الغاصبين، و تثير العامّة على أتباعهم في كلّ ظرف من الظروف

و لقد كانت الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها خطوة أُخرى خطتها في سبيل فضح هؤلاء الغاصبين المتآمرين المستبدّين، و هي بكاؤها ﴿عليها السلام﴾ بغير انقطاع، و هو أقلّ ما يمكن لمظلوم التظلّم به، و كان داعياً للتساؤل عن سبب البكاء، خصوصاً حين كان مصدره بضعة رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ و حبيبته و ابنته الوحيدة التي خلّفها في أُمّته. و لقد كادت أن تفلح لو لا أنّ القوم منعوها حتّى من البكاء، و سألوا أمير المؤمنين عليّاً ﴿عليه السلام﴾ أن يمنعها عن البكاء، أو أن تقتصر على البكاء إمّا ليلاً و إمّا نهاراً

و لمّا عرض الإمام عليّ ﴿عليه السلام﴾ الأمر عليها أبت ذلك، فلم تمنعها سلام الله عليها من البكاء، فكانت تخرج إلى خارج المدينة و تستظلّ بظلّ أراكة و تبكي، فعمد القوم إلى الأراكة و قطعوها ليلاً، فبنى أمير المؤمنين عليّ ﴿عليه السلام﴾ لها بيتاً من جريد النخل في البقيع، سمّاه «بيت الأحزان». قال السمهودي في (تاريخ المدينة ج ٣، ص ٩٥): الغزالي ذكر استحباب الصلاة في مسجد فاطمة ﴿عليها السلام﴾ بالبقيع و قال غيره: إنّه المعروف ببيت الحزن لأنّ فاطمة عليها سلام الله أقامت به أيّام حزنها على أبيها

و للصدّيقة الطاهرة صلوات الله عليها خطوة ثالثة في تظلّمها من هؤلاء الجبابرة الغاصبين كانت مقاطعة الظالمين و عدم رضاها بإظهار سخطها أو حضورهم جنازتها، و إظهار عدم رضاها عنهم، و سخطها عنهم في حياتها

و هذه الخطوة كانت صرخة خالدة في وجه هؤلاء الظالمين المستكبرين و ما لم يكن لأيّ منهم يشكّ فيه، و قد عرّض به شاعر أهل البيت بقوله

و لأيّ الأُمور تُدفن ليلاً ... بضعة المصطفى و يعفى ثراها

«حكمة خطبة الصدّيقة الطّاهرة (ع)
وأهدافها ونتائجها»

قال الله تعالى «وما محمّد إلاّ رسول قد خلت من قبله الرّسل أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم» (آل عمران: ١٤٤)

في نهج البلاغة قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (ع): «حتّى إذا قبض الله رسوله (ص) رجع قوم على الأعقاب وغالتهم السّبل واتّكلوا على الولائج، ووصلوا غير الرّحم وهجروا السّبب الّذي أُمروا بمودّته ونقلوا البناء عن رصّ أساسه، فبنوه في غير موضعه» (الخطبة ١٥٠)

وقد ذكر بعض الكتّاب والمؤرّخين والخطباء والمحقّقين أهدافاً استهدفتها الصدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها في إيراد الخطبة بمسجد أبيها النّبيّ الكريم (ص) بعد عشرة أيّام من وفاته بأمر إمامها أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (ع)، ترجع أكثرها إلى الأمور المادّيّة من فدك والإرث والخمس وما يشبهها وفي ما يرجع إلى غصب خلافة زوجها الإمام عليّ (ع) وقد غفلوا عن حكمها الأصيلة الواضحة، وأهدافها الأساسيّة للطّاهرة من وراء خطبتها وهي:

ألف: أنّ فاطمة الزّهراء صلوات الله عليها قد بيّنت حقيقة التّوحيد للنّاس كافّة في كلّ ظرف من الظّروف، ولم تقتصر على خصوص في هذا الظّرف المضطرب المنقلب كأنّها

كأنّها تدعو أوّلاً الناس جميعاً و منهم الحاضرون إلى التوحيد إذ أحسّت أنّ التوحيد في خطر عظيم بالسقيفة التي هي مبدأ انقلاب الأصحاب و ارتدادهم على أعقابهم إلى الشرك و الجاهلية

ب. أنّها قرنت رسالة أبيها و حكمة رسالته ﴿ﷺ﴾ إذ أحسّت أيضاً أنّها كالتوحيد في خطر عظيم بها، فدعت الناس و الحاضرين إليها

ج. أنّها ذكرت وفاة النبيّ رافعةً شبهة وجدها عمر بن الخطّاب في أذهان المسلمين يوم وفاته ﴿ﷺ﴾ بأنّه حيّ لم يمت

د. و وصفت ﴿ع﴾ أنّهم لمّا رأوا رسول الله ﴿ﷺ﴾ خلّف فيهم ما خلّفت الأنبياء في أممهم فلم يتركهم هملاً بغير طريق واضح و لا علم قائم، فدعتهم إلى التمسّك بالثقلين العمل بكتاب الله و اتّباع سنّته

ه. أشارت سلام الله عليها إلى حكمة الأحكام و علل الشرائع، و دعتهم إلى طاعة الله تعالى فيما أمرهم به و ما نهاهم عنه إذ عدوّهم نفسٌ و هوى

و. عرّفت نفسها و نسبها، و فضل أبيها، و جهاده، و نجاته ﴿ﷺ﴾ للناس من الذلّة و الانحطاط و الخزي و الهوان

ز. أشارت إلى خطط المنافقين قبل الإسلام و تعاملهم مع نبيّها رسول الله ﴿ﷺ﴾ و إلى فضل زوجها أمير المؤمنين الإمام عليّ بن أبي طالب ﴿ع﴾

ح. أخذت الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها تذكر خطابات المنافقين باسم الصحابة و فتنتهم و ارتدادهم عن الدين و اتّباعهم الشيطان بعد وفاة أبيها رسول الله ﴿ﷺ﴾

ط. استشهدت على حقّانيتها بعد وفاة رسول الله ﴿ﷺ﴾ بغصبهم إرثها و فدكها مستدلّة على إثباتها لها بالآيات القرآنية

ي. هدّدت فاطمة الزهراء سلام الله عليها أصحاب السقيفة الشنيعة المشؤومة و أوعدتها بنار جهنّم و عذابها

ك. و تحنّنت ﴿ع﴾ الأنصار على تركهم نصرتها إذ استنصرت منهم لمّا غصب حقّها و هتكت حرمتها

ل: بيّنت سلام الله عليها ارتداد أصحاب السقيفة و مرتدّيهم بعد الإيمان بأحسن بيان
أنّ الصدّيقة الطاهرة صلوات الله عليها قد أتمّت الحجّة على الغاصبين عامّة، و على
الأنصار خاصّة حيث أسمعتهم الحجّة بعد بعد

هذه الأمور هي حِكَم خطبتها ﴿عليها السلام﴾ و أهدافها و نتائجها لا يستعدّ الجوّ المضطرب يوم ذاك بورود أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﴿عليه السلام﴾ في ميدان النضال المذهبي و الديني، و لكنّ الجوّ لم يكن بعدُ غير مستعدّ لغربته الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها فأفرغت ما في الحقائق الدينيّة و المعارف الإسلاميّة و حِكَم أمر يتّهمها التي أخذها أبو بكر و صاحبه عمر بن الخطّاب لهواً و لعباً، و ذريعة لنيلها ... و ... ، و سيصبح أبي بكر على مسمع و مرأى من المسلمين محضرة الكتاب ... و ... غاصب و بطلان خلافته بدءاً

و قد ذكر كثير من الباحثين حول فدك و شارحي خطبة الصدّيقة الطاهرة ﴿عليها السلام﴾ أهدافاً لها في ... و ... أهدافاً، و بيّن حكمة و أهداف و أسباب ما ذكره أيضاً و ما ذكروه شواهد على الأهداف، فنشير إلى أهمّها

فقال بعضهم: إنّ من الأهداف أنّ فاطمة الزهراء سلام الله عليها أرادت بخطبتها استرجاع حقّها المغصوب، و هذا أمر طبيعيّ لكلّ إنسان، غُصب حقّه أن يطالب به بالطرق المشروعة

و منها أنّ الحزب الحاكم الغاصب قد استولى على جميع الحقوق السياسيّة و الاقتصاديّة لبني هاشم، و ألغى جميع امتيازاتهم المادّيّة و المعنويّة، فهذا عمر بن الخطّاب يقول لابن عبّاس: أتدري ما منع قومكم (أي قريش) منكم بعد محمّد ﴿صلّى الله عليه و آله﴾؟ كرهوا أن يجمعوا لكم النبوّة و الخلافة، و تتبجّحوا على قومكم، بجحاً بجحاً، فاختارت قريش لأنفسها فأصابت و وُفّقت. هذا بالنسبة للخلافة، و أمّا بالنسبة للأموال فقد منعوا بني هاشم فدك و الميراث و الخمس – أي سهم ذوي القربى – و اعتبروهم كسائر الناس

و كان بنو هاشم و في مقدّمتهم عليّ ﴿عليه السلام﴾ لا يقدرون على المطالبة بحقوقهم المغصوبة بأنفسهم، فتطلب الزهراء ﴿عليها السلام﴾ من نفسها مطالبة بحقّ بني هاشم و حقّها، و مدافعة عنهم اعتماداً على فضلها و شرفها و قربها من رسول الله ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ و استنادً إلى أبوّتها حيث

لتسبّبت فدك من الرحال في بعض المواقف، و معلوم أنّ الزهراء ﴿عليها السلام﴾ إذا استردّت حقوقها استردّت جميع حقوق بني هاشم معها.

و منها أنّ فاطمة الزهراء سلام الله عليها استهدفت من مطالبتها الحثيثة بفدك فسح المجال أمامها للمطالبة بحقّ زوجها المغلوب على أمره، و الواقع أنّ فدكاً صارت تتمشّى مع الخلافة جنباً إلى جنب كي صار لها عنوان كبير وسعة في المعنى، فلم تبق فدك قرية زراعية محدودة بحدودها في عصر رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ بل صار معناها الخلافة و الرقعة الإسلامية بكاملها.

و ممّا يدلّ على هذا تحديد الأئمّة لفدك، فقد حدّدها عليّ ﴿عليه السلام﴾ في زمانه «حدٌّ منها جبل أُحُد، و حدٌّ منها عريش مصر، و حدٌّ منها سيف البحر، و حدٌّ منها دومة الجندل» و هذه الحدود التقريبية للعالم الإسلامي آنذاك.

أمّا الإمام الكاظم ﴿عليه السلام﴾ فقد حدّدها لهارون الرشيد بعد أن ألحّ عليه الرشيد أن يأخذ فدكاً، فقال له الإمام: ما آخذها إلّا بحدودها. قال الرشيد: و ما حدودها؟ قال: الحدّ الأوّل عدن، و الحدّ الثاني سمرقند، و الحدّ الثالث أفريقية، و الحدّ الرابع سيف البحر ممّا يلي الخزر و أرمينية. فقال له الرشيد: فلم يبق لنا شيء فتحوّل في مجلسي» أي أنّك طالبت بالرقعة الإسلامية في عصر العباسيين بكاملها. فقال الإمام: قد أعلمتك أنّي إن حدّدتها لم تردّها.

ففدك تعبير ثانٍ عن الخلافة الإسلامية، و الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها جعلت فدكاً مقدّمة للوصول إلى الخلافة، فأرادت استرداد الخلافة عن طريق استرداد فدك.

و منها أنّ فاطمة الزهراء سلام الله عليها أرادت بمنازعة أبي بكر إظهار حقيقته و حال أصحابه للناس، و كشفهم على حقيقتهم ليهلك من هلك عن بيّنة و يحيى من حيّ عن بيّنة، و لا يفضحه الرسول حقّ قدره، و خشي شيئاً من أن تنقلب الذئب على أبي بكر حرصاً على الدنيا، و لا سيّما أنّ النبيّ ﴿صلى الله عليه و آله﴾ أخبرها بقرب موتها و سرعة لحوقها به، و قد علم منها عليّ ﴿عليه السلام﴾ عن منازعة أبي بكر في فدك، و هو القائل «و ما أصنع بفدك و غير فدك، و النفس مظانّها في غد جدث» و لم تكن فاطمة الزهراء سلام الله عليها أقلّ من عليّ ﴿عليه السلام﴾

تُقىً و زهداً في الدنيا، ثمّ إنّ علياً ﴿ع﴾ كان بإمكانه أن يعوّض الصدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها عن ما غصب منها ممّا تملكه من الأموال، و يمنعها من الهوان، لكنّه عاش الزّهد بنفسه و بأهل بيته و هما أكثر فيهم من فدك، و قد جعلها عليه سلام الله فيما ولي به وقفاً على الفقراء، و كان واردها السنوي ٧٤ ألف درهم.

و هذا النصّ هو السبب في حمل عليّ ﴿ع﴾ فاطمة الزّهراء سلام الله عليها على ناقة، و المرور بها على دور المهاجرين و الأنصار، و مخاطبتهم بحقّها مع علمهم بحدّ لاتهم، كلّ ذلك لاطّلاع النّاس أبد الدّهر على حقيقة الأمر و ظهور حال الغاصبين، و حال أصحابهم.

و قال بعضهم إنّه يعترض البعض على موقف فاطمة ﴿ع﴾، فيقول: لماذا إذن تقف فاطمة سلام الله عليها هذا الموقف الصّعب في مطالبتها بفدك فلو لم يكن هناك هدف آخر يتبعه من ورائه لما طالبت هذه المطالبة الحقيقية به.

و الأجل أن نقرّر الحقائق التي دفعت الصدّيقة فاطمة الزّهراء ﴿ع﴾ للمطالبة بفدك نضع أمامك النّقاط الآتية:

ألف: إنّ فاطمة الزّهراء سلام الله عليها رأت أنّ التّأميم لفدك قد هيّأ لها فرصة ذهبية في الإدلاء برأيها حول الحكومة القائمة و كان لابدّ لها أن تدلي بنظر حقّها أمام الجماهير، و قد هيّأت لها قضية فدك هذه الملابسات المناسبة، فحضرت دار الحكومة في المسجد النّبويّ ﴿ص﴾ و ألقت خطبتها التي لا تنطوي على أيّ لبس أو غموض.

ب: تبيان أحقّيّة عليّ بن أبي طالب ﴿ع﴾ في قيادة الأمّة بعد رسول الله ﴿ص﴾ و قد تجلّى ذلك في خطبتها التي ألقتها في مسجد أبيها ﴿ص﴾ على مسمع و مرأى من المسلمين، و بضمنهم الحكومة الجديدة، فكان من بعض أقوالها: «أم أنتم أعلم بخصوص القرآن و عمومه من أبي و ابن عمّي؟» و قولها ﴿ع﴾: «و أبعدتم من هو أحقّ بالبسط و القبض» حيث أوضحت أنّ عليّاً ﴿ع﴾ أعلم النّاس بعد رسول الله ﴿ص﴾ بمعرفة الرّسالة و أحكامها و قوانينها، و هو لذلك أحقّ برعاية شئون الأمّة التي صنعها الوحي المقدّس السّماويّ.

ج- كشف عيوب الحكومة الجديدة على الشرع المقدّس واجتهاداتهم التي لا علاقة لها بالهدف الرسالي. وهذه النقاط الثلاث هي التي استهدفتها فاطمة الزهراء سلام الله عليها في مقالتها للخليفة بعد ذلك نفس عمر، وليس هناك وراء ذلك هدف مادّي رخيص، كما يعتقد البعض من مؤرّخي حياتها فهي -بعمر الحق- قد تصرّفت بما من شأنه أن يحفظ الرسالة من ضياع الأهداف التي تبنّاها بوقوعه بيد أصحاب الحكومة الجديدة، فأخذت من ذلك خير فرصة لخدمة المبدأ وإبقاء الحجّة على الأمّة تأدية لمسؤوليته، ونصرة للرسالة، وحفظاً لبيضة الإسلام

حكمة سكوت أمير المؤمنين الإمام عليّ ﴿ع﴾

ومنهم من يقول: لم يكن من المعقول أن يخاف أمير المؤمنين الإمام عليّ ﴿ع﴾ على كرامة حبيبه وأخيه رسول الله ﴿ص﴾ من النقص وهي أغلى عنده من كلّ نفس -إذ جاهر بخصوص النبيّ الكريم ﴿ص﴾ وهو ﴿ع﴾ لم ينس موقف عمر بن الخطاب من رسول الله ﴿ص﴾ حين طلب دواة ليكتب كتاباً لا تضلّ الناس بعده، فقال عمر «إنّ النبيّ ليهجر» أو «قد غلب عليه الوجع» وقد اعترف فيما بعد لابن عبّاس بأنّ رسول الله ﴿ص﴾ كان يريد أن يعيّن عليّاً للخلافة وقد صدّه عن ذلك خوفاً من الفتنة

سواء كان رسول الله ﴿ص﴾ يريد أن يقرّر حقّ عليّ ﴿ع﴾ في الخلافة أم لا، فإنّ المهمّ أن نتأمّل موقف عمر من الفتنة فهو إذ كان معتقداً بأنّ رسول الله ﴿ص﴾ وجهاً لوجهه مما نزّهه عنه نصّ القرآن الكريم ويأمر المؤمنين بإطاعته «وما ينطق عن الهوى إن هو إلّا وحي يوحى» (النجم: ٣-٤) و«ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا» (الحشر ٧) و«يا أيّها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول -من يطع الرسول فقد أطاع الله» (النساء ٥٩، ٨٠) إلّا أن نقول إنّ عمر لم يؤمن بالله تعالى ورسوله ﴿ص﴾ طرفة عين أبداً وهو الحقّ الذي لا ريب فيه -فلا تشمله الخطاب

ومما نزّهه ﴿ص﴾ عنه ضرورة الإسلام خوفاً من الفتنة، فالذي منعه عن اتّهام الآخر له ﴿ص﴾ بعد وفاته، مهما تلطّف في تقديره فلا يقلّ عن دعوى أنّ رسول الله ﴿ص﴾ لم يصدر عن أمر الله في موضوع الخلافة، وترك الموضوع فلم يعيّنه ﴿ص﴾ أو استخلف

عليّاً بوحي من عاطفته، بل كان هذا أولى من تلك المعارضة لأنّ القضيّة التي تقوم بدعوى على النصّ أشدّ ممّا كان يرافقه عمر من ضجيج في إنكار رسول الله ﷺ قد خلّف نصّاً محرّراً بإمامة عليّ بن أبي طالب (ع) بعينه للجميع.

وإذا كان رسول الله ﷺ قد ترك التصريح بخلافة عليّ بن أبي طالب (ع) في آخر ساعة من عمره لمقاومة عمر بن الخطّاب فقط، فمن المفهوم أن يترك الوصيّ الاحتجاج بالنصوص خوفاً من مقاومة أشدّ، لا ينبغي أن يفوته.

فسكوت الإمام أمير المؤمنين عليّ (ع) عن النصّ إلى حين كان يعرضه عليه

ألف: أنّه (ع) لم يكن يجد في رجالات تلك الساعة من يطمئنّ إلى شهادته بذلك، والدليل على ذلك ترك نصرة الأنصار لفاطمة الزهراء سلام الله عليها حين استنصرت منهم.

ب: أنّ الاعتراض بالنصوص كان من الحريّ به أن يفتح أنظار المعارضين إلى قيمتها المادّيّة، فيستعملون شتّى الأساليب لخنقها.

ج: أنّ معنى الاعتراض هو التهيّؤ للثورة بأوسع معانيها، وهذا ما لم يكن يريده الإمام (ع).

د: أنّ اتّهام عمر وإهانته لرسول الله ﷺ في آخر ساعاته، عرّف عليّاً (ع) مقدار تفاني الحزب الحاكم المتشدّد في سبيل مركزهم، ومدى استعدادهم لتأييدها، والمدافعة عنها، وجعله يخاف من أن ينكر شيئاً من ذلك فيما إذا أعلن عن نصوص إمامته.

فانتهى الإمام عليّ (ع) إلى قرار حاسم وهو ترك الثورة، وعدم التسلّح بالنصوص في وجه الحزب الحاكم لتسقطه جهراً أو علانية إلّا إذا اطمأنّ إلى قدرته على تجسيد الرأي العام ضدّ أبي بكر وخليفته عمر وعثمان، وهذا ما أخذ يحاوله عليّ (ع) في محنته تلك، فبدأ يطوف سرّاً على زعماء المسلمين ورجالات المدينة يعظهم ويذكّرهم ببراهين الحقّ وآياته، وإلى جانب قرينته الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها تعزّز موقفه وتشاركه في جهاده السرّي، ولم يكن يقصد بذلك التصوّر إنشاء حزب تتهيّأ له القيام به لأنّا نعرف أنّ عليّاً (ع) كان له حزب من الأنصار هتف باسمه، وحاول الالتفاف حوله، وإنّما أراد

أن تمهد تلك المشكلات لإخراج الناس عنه

وهنا تتجلى مشكلة تلك محاولة التصدّي في الشخصية المعنوية الجديدة، فإنّ الدور الفاطمي الذي رسم هارون النبوّة خطوطه بإتقان كان متفقاً مع ذلك الخطوات الملقى في عاتقه، وجدير بأن يقلب الموقف على أبي بكر الغاصب، وينهي خلافته كما ينهي العصبة المتمثلة لا كما يعوض حكم مركز على القوة والعدّة والعدد

وكان الدور الفاطمي يتلخص في أن تطالب الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها أبا بكر الغاصب بما انتزعه منها من أموال، وتجعل هذه المطالبة وسيلة للمناقشة في المسألة الأساسية وأعني بها مسألة الخلافة وإفهام الناس بأنّ الصحابة الّذي عدلوا بها عن إمام المتقين علي بن أبي طالب «عليه السلام» إلى أبي بكر الغاصب ذلك خطّه هوس و…، ولحظة عاطفة وخداع و… وأنهم بذلك الخطة … كتاب ربهم … غير …، وعدلوا البناء عن رصّ أساسه، فبنوه في غير موضعه

ولمّا اختمرت الفكرة في ذهن الصدّيقة الطاهرة عليها سلام الله اندفعت لتصحيح أوضاع الشريعة، وتمسح عن الحكم الإسلامي الذي وضعت قواعده الأولى في السقيفة المشؤومة، أو الحل الذي تضع به على طريق … أبي بكر … بالحجة لتشهر و تعيش بكرامة الوحي المساوي و… بتدبير الرفق، واتهام نتائج المعركة الانتخابية التي خرج منها أبو بكر خليفة مخالفة للكتاب والسنة والصواب والرشاد

وقد توفّرت في الصدّيقة الطاهرة ناحيتان لا تتهيأ لأمير المؤمنين الإمام علي «عليه السلام» فيما لو وقف موقفها «عليها السلام»

الأولى أنّ الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها كانت أقدر من قرينها الإمام علي «عليه السلام» بظروف محيطها الخاصّة وبما كسبته من أبيها على استثارة العواطف وإيصال المسلمين سلك من كهرباء الروح بأنها لعظيم «صلى الله عليه وآله» وكريمة العزّة، وتجميد مشاعرهم لقضايا أهل بيت النبوّة المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين

الثانية: أنّ فاطمة الزهراء عليها سلام الله مهما تجد لمنازعتها من أشكال، فلن تكتسب لون الحرب المسلحة التي تتطلب رعاً يهمس عليها ما دامت امرأة، وما دام

هارون النبوّة الإمام عليّ ﴿ع﴾ في بيته معتكفاً هادئة لكي أعصابها حتى تجمع الناس عليه، و مراقباً للموقف ليدخل فيه متى شاء متزعّماً للثورة إذا بلغت حدّها الأعلى أو مهدئاً ملطّفاً إذا لم تهيّأ له الظرف الذي يريده. فالصدّيقة الطاهرة صلوات الله عليها مهمتها أن تحقق مقاصد جهاد على أبي بكر الغاصب الخائن، و لكن لا تخرج عن دائرة الاعتدال و النزاع و لا تجرّ إلى فتنة و شقاق.

و إذن فقد أراد أمير المؤمنين الإمام علي ﴿ع﴾ أن يسمع الناس يومئذ صوته من فم الصدّيقة الطاهرة صلوات الله عليها و بقي هو بعيداً عن ميدان المعركة ينتظر اللحظة المناسبة للاستفادة منها و الفرصة التي يدخل فيها حول الموقف، و أراد أيضاً أن يقدم للأمّة القرآن كلّه في المناسبة الخاصة برهاناً على بطلان خلافة أبي بكر الغاصب الخائن و قد تمّ للإمام ما أراده حيث عبّرت الصدّيقة الطاهرة ﴿ع﴾ عن الحقّ العلوي بصراحة و أوضحت فيه أنواعاً من الجمال و الكمال و تتلخّص المعارضة الفاطمية في عدّة مظاهر

ألف. إرسالها ﴿ع﴾ رسولاً يطالب أبا بكر الغاصب الخائن في مسائل الميراث، و يطالب بحقوقها، و هذه هي الخطوة الأولى التي سلكتها فاطمة الزهراء سلام الله عليها تمهيداً لمباشرتها للعمل بنفسها

ب. مواجهتها ﴿ع﴾ بنفسها لأبي بكر الخائن في اجتماع خاص و قد أرادت بتلك المقابلة أن تشتدّ في طلب حقوقها من الخمس و فدك و غيرهما لتعرف مدى استعداد أبي بكر الخائن للمقاومة و خوفه

ج. خطبتها ﴿ع﴾ في مسجد النبي ﴿ص﴾ بعد عشرة أيام من وفاة أبيها

د. خطابها سلام الله عليها الذي ألقته على نساء المهاجرين و الأنصار حين اجتمعن عندها

هـ. حديثها ﴿ع﴾ مع أبي بكر و عمر حينما زاراها معتذرين منها ظاهراً و لكن قصدهما خدعة و تحقيق لعامّة الناس، و لما كانت الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها عالمة بما نوياه أعلنت غضبها عليهما و أنهما أغضبا الله جلّ و علا و رسوله ﴿ص﴾ بما في ضميريهما و مقالتيهما و ما فعلاه.

و وصيّتها سلام الله عليها بأن لا يحضر تجهيزها و دفنها أبو بكر و عمر و من يحذو حذوهما من أصحاب السقيفة المشؤومة و مريديهم، و قد كانت هذه الوصيّة الإعلان الأخير من فاطمة الزهراء عن غضبها على الحزب الحاكم الغاصب و قد ماتت ﴿ﷺ﴾ ساخطة على أبي بكر و عمر غاضبة، و على أذنابهما عاتبة.

و قد فشلت الحركة الفاطمية بمعنى و نجحت بمعنى آخر

فشلت لأنّها لم تطح بحكومة أبي بكر الغاصبة في زحفها الأخير المظفّر الذي قامت به في اليوم العاشر من وفاة رسول الله ﴿ﷺ﴾ و لكنّ الأمر الذي لا ريب فيه أنّ شخصيّة أبي بكر كانت من أهمّ الأسباب التي أدّت إلى فشلها لأنّه من أصحاب المواهب المتناسبة، و قد عالج الموقف بلباقة ملحوظة عندما خاطبته فاطمة الزهراء سلام الله عليها من كلام وجّهته إلى الأنصار من خطبتها بعد انتهائها من خطبتها في مسجد النبي ﴿ﷺ﴾ فبدا أبو بكر بدور رقّة في جوابه للصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها و إذا به يطوي نفسه على نار متأجّجة سيدلع بعد خروج فاطمة الزهراء سلام الله عليها من المسجد، فيقول «ما هذه الرّعة إلى كلّ قالة إنّما هو ثعالة شهيده ذنبه» فبيّن هذا الانقلاب من اللين و الهدوء إلى الغضب الثائر مدينا على مقدار ما أوتي من سيطرة على مشاعره و قدرته على مسايرة الظرف، و تمثيل الدور المناسب في كلّ حين من جهة، و ما في ضميره من الكفر و النفاق و البغي و العصيان، و الحقد و العدوان جرت على فلتات لسانه من جهة أخرى

و نجحت معارضة الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها لأنّها جهرت بالحقّ بقوّة ظاهرة، و أضافت إلى طاقتها على الصمود في ميدان النضال لدعم خلافة سيّدها، و قد سجّلت هذا النجاح في حركتها كلّها و في محاورتها مع أبي بكر و عمر عندما زاراها بصورة خاصّة إذ قالت لهما: أرأيتكما إن حدّثتكما حديثاً عن رسول الله ﴿ﷺ﴾ تعرفانه و تفعلان به؟ فقالا نعم. فقالت: نشدتكما الله ألم تسمعا من رسول الله ﴿ﷺ﴾ يقول رضا فاطمة من رضاي، و سخط فاطمة من سخطي، فمن أحبّ فاطمة فقد أحبّني، و من أرضى فاطمة فقد أرضاني، و من أسخط فاطمة فقد أسخطني؟ قالا نعم سمعناه من رسول الله ﴿ﷺ﴾. قالت فإنّي أُشهد الله و ملائكته أنّكما أسخطتماني، و ما أرضيتماني، و لئن لقيت النبيّ ﴿ﷺ﴾ لأشكونّكما

عند الله

و تصوّر لنا هذه الأحاديث مدى اهتمامها بالتركيز لا على حقّها و محاورتها فحسب و نحلتها، و توضيح أفكارها، و وجهة نظرها سلام الله عليها، فإنّها كانت تعتقد أنّ النتيجة التي حصلت عليها هي الخطر المؤكّد في جانب العقيدة و تبيين بأنّ أبا بكر و عمر قد استحقّا غضب الله تعالى و رسوله (ﷺ) بإغضابها و إيذائها لأنّهما يغضبان بغضبها، و يستحقّان السخط بنصّ الأحاديث النبويّة الصحيحة، فلا يجوز أن يكون خليفة الله سبحانه و رسوله (ﷺ)، و قد قال الله تعالى: «لا ينال عهدي الظالمين» البقرة: ١٢٤ و قال «إنّ الّذين يؤذون الله و رسوله لعنهم الله في الدنيا و الآخرة و أعدّ لهم عذاباً مهيناً» الأحزاب: ٥٧ و قال «يا أيّها الّذين آمنوا لا تتولّوا قوماً غضب الله عليهم» الممتحنة: ١٣، و قال: «و من يحلل عليه غضبي فقد هوى» طه: ٨١

و منهم من قال إنّ الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها قد ذهبت و توجّهت نحو مسجد النبيّ (ﷺ) لأجل المطالبة بحقّها، إنّها لم تذهب إلى دار أبي بكر ليقع الحوار بينها و بينه فقط، بل اختارت المكان الأنسب و هو المركز الإسلامي يومذاك، و مجمع المسلمين حينذاك و هو مسجد النبيّ (ﷺ) كما و أنّها اختارت الزمن المناسب أيضاً ليكون المسجد غاصّاً بالناس على اختلاف طبقاتهم من المهاجرين و الأنصار، و لم تخرج وحدها من بيتها إلى المسجد إنّما خرجت مع جماعة من النساء، و كأنّها في مسيرة نسائيّة، و قبل ذلك قد تقرّر اختيار موضع من المسجد لجلوس بضعة رسول الله و حبيبته، و علّقوا ستراً لتجلس الصدّيقة الطاهرة صلوات الله عليها خلف الستر، فإنّها مخدّرة المخدّرات، و سيّدة المخدّرات، كانت هذه النقاط مهمّة جدّاً و تعمّد أبو بكر لاستماع احتجاج سيّدة نساء العالمين، و أنّه أفصح من نطق بالضاد، و أعلم امرأة في العالم كلّه

﴿محتويات خطبة فدك و مجرياتها﴾

واعلم أنّ في محتويات خطبة فدك و مجرياتها كلمات عميقة من الأعاظم نشير إلى ما يسعه المقام و نحن على جناح الاختصار.

منهم السيّد حسن الأمين قال في الجزء الثاني من دائرة المعارف الإسلاميّة الشيعيّة: «تعتبر هذه الخطبة من أعلى البيان العربي، و قد بدأتها فاطمة بالتوجّه إلى الله و الدعوة إليه، ثمّ بالتوجّه إلى النبيّ أبيها، و ما كان عليه الناس قبله من جهل و وثنيّة و فساد، و ما دعاهم إليه من خير و توحيد، ثمّ موته و قد أدّى رسالته ﴿ﷺ﴾.

ثمّ توجّهت إلى الحاضرين، فتحدّثت عن القرآن و ما دعاهم إليه و حثّهم عليه و عرضت لمبادئ الإسلام كلّها و لحكمة تشريعها و دعتهم إلى التمسّك بها و الحفاظ عليها.

ثمّ أشارت إلى ما عاناه النبيّ ﴿ﷺ﴾ في سبيل دعوته و ما تحمّل في سبيلها من أذى، و ما كان عليه الناس قبل الإسلام من التفرّق و الاختلاف و ضيق العيش، و كيف كانوا خاضعين للظالمين و المستبدّين، و كيف صدع النبيّ ﴿ﷺ﴾ بدعوته فتحدّت الحشود لقتاله و القضاء عليه، و كيف كان يوجّه ربيبه و ابن عمّه عليّاً ﴿؏﴾ لكلّ ملمّة معرّضاً إيّاه للمخاطر و الأهوال، و كيف كان عليّ ﴿؏﴾ يخلص لمحمّد ﴿ﷺ﴾ و للإسلام، فلا يتوانى و لا يتراجع، و كيف أنّه لم يكد النبيّ ﴿ﷺ﴾ يموت حتّى برز ذوو الأضغان بأضغانهم، ثمّ كيف ترك النبيّ ﴿ﷺ﴾ ملقى بين يدي أهله لم يدفن و انصرف عنه المنصرفون ليسارعوا

على تولّي الخلافة بعده

وهنا تبلغ فاطمة (عليها السلام) في خطبتها بموقف عظيم ما [illegible] به [illegible] الإنساني من [illegible] سيصير إليه أمر المسلمين من بعده، ووقوع في الفتن بعد أن تمّ الاستيلاء على الخلافة بالصورة التي تمّ عليها، وبعد أن كانت الفتنة هي وحدها التي [illegible] فتقول فاطمة سلام الله عليها: إنّهم يدّعون أنّهم فعلوا ما فعلوه خوف الفتنة، وتردّ عليهم بأنّهم في [illegible] قد سقطوا في [illegible] مستشهدة بالآية الكريمة: «ألا في الفتنة سقطوا».

ثمّ استنكرت [illegible] ما فعلوه من مصادرة [illegible] ومنعها من أن ترث أباها فقالت: «وأنتم الآن تزعمون أن لا إرث لي من أبي [illegible] أيّها المسلمون أغلب على إرثي؟ يا ابن أبي قحافة، أفي كتاب الله أن ترث أباك ولا أرث أبي؟».

ثمّ استدلّت بالآيات القرآنية التي صرّحت بتوريث الأقرباء عامّة، وبتوريث الأنبياء خاصّة، وقالت: «أزعمتم أن لا حظوة لي ولا إرث لي من أبي ولا رحم بيننا؟ أفخصّكم الله بآية أخرج منها أبي؟ أم تقولون أهل ملّتين لا يتوارثان؟ أولست أنا وأبي من أهل ملّة واحدة؟ أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمّي؟».

واستمرّت في خطبتها شارحة موقفها مستنكرة، وختمت خطبتها منوّهة بأنّها [illegible] وهي تعلم أنّهم لن يستجيبوا لها ولكن لا بدّ من أن تلقي حجّتها.

وحذّرت الناس بعد ذلك [illegible] ما سيصيرون إليه من الإذلال من بعد، [illegible] ستنتهي إليه حال الحكم والحكّام فيه بعد أن جرى ما جرى عليها في [illegible]:

«وأبشروا بسيف صارم، وسطوة معتدٍ غاشم، وهرج دائم شامل، واستبداد من الظالمين يدع فيئكم زهيداً، وجمعكم حصيداً، فيا حسرة عليكم».

وقد كانت في هذه الأقوال من [illegible] الناس [illegible] وصدقتهم فراستها و[illegible] فتحقّق جميع ما تنبّأت به، فبعد أن كان الإسلام نوراً [illegible] وحكماً في أشرف درجات الحكم وأعظمها في تحقيق العدل الاجتماعي والمساواة، عاد الإسلام حكماً مستبدّاً [illegible] يتحكّم فيه فرد واحد [illegible] الناس و[illegible] وكراماتهم.

ويكون أنّ المدينة نفسها التي تعالى فيها صوت فاطمة مندّداً محذّراً قد شهدت من

«السيف الصارم، وسطوة المعتدي الغاشم» ومن أخرج الشامتين من آبائهم، واستبداد الظالمين
ما تركت فيهم رشيداً وجعلتهم حصيداً» على حدّ تعبير فاطمة، فقد أنزلها يزيد بن معاوية
بجنوده في وقعة الحرّة ثلاثة أيّام، يقتلون وينهبون ويدنّون ويهتكون الأعراض، و
يرغمون أبناء الذين حذّرتهم فاطمة ـ يرغمونهم على أن يبايعوا مسلم بن عقبة على أنّهم
عبيد أرقّاء ليزيد بن معاوية، ومن رفض هذه البيعة قتل

بل لقد امتدّت العنا بكثيرين من الذين سمعوا كلام الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها
امتدّت بهم لحد، فبايعوا هذه البيعة وخضعوا لتلك الفظائع

ومن قبل أُصيبت أسرة أبي بكر نفسه، أُصيب عبد الرحمن بن أبي بكر بسطوة المعتدين
الغاشمين، واستبداد الظالمين فأهين وروّع، وسبّه مروان بن الحكم لأنّه اعترض على بيعة
يزيد، وقال هذه سنّة هرقل وقيصر، فسبّه مروان بأقبح القول، وحاولت عائشة
الدفاع عن أخيها فشتمها مروان وشتمت أباه، وقال له معاوية هممت بأن أقتلك وقال
له لا تظهر لأهل الشام فإنّي أخشى عليك منهم، فاضطرّ للاستتار والتواري، ولم يلبث
أن مات مقهوراً مهاناً وربما مسموماً

كما أُصيب أخوه محمد بن أبي بكر بظلم الظالمين فقتلوه أشنع قتلة وأُصيبت بهم أسرة
عمر بن الخطاب، أُصيب عبد الله بن عمر فأذلّوه وأرغموه على بيعة يزيد ثمّ على يد
الحجّاج لعبد الملك ثمّ شتمه الحجّاج وأهانه ثمّ أرسل له من اغتاله كما كان قد قتل في صفّ
الظالمين ابن عمر الآخر عبيد الله

وأُصيبت من بعد أسماء بنت أبي بكر بالذلّ على أيدي الظالمين، وأُصيب على أيديهم
سبط أبي بكر ابنها عبد الله فقتلوه وصلبوه وهي تسمع وترى

وبلغ عدد الذين قتلوا في المدينة في وقعة الحرّة ممّن سمع قول فاطمة من المهاجرين و
الأنصار والقرشيين نيف وسبعمائة رجل منهم معقل بن سنان حامل لواء قومه يوم فتح
النبيّ (ﷺ) مكّة ومنهم عبد الله بن زيد قاتل مسيلمة، هذا عدا عمّن عذّبوه مثل أبي سعيد
الخدري الذي نتفوا لحيته

وأمّا من غير المهاجرين والأنصار والقرشيين أي من أبناء الذين سمعوا قول الصدّيقة

الطّاهرة ﴿ﷺ﴾ فقد قتل من يزيد على عشرة آلاف بينهم زيد بن عبد الرّحمن بن عوف، و أمّا من بقي حيّاً فقد أرغم على البيعة على أنّه عبد رقيق ليزيد

و هذا ما جرى كلّه في مدينة واحدة، هي مدينة الرّسول ﴿ﷺ﴾ و في حادثة واحدة، هي وقعة الحرّة، و على يد حاكم واحد، هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان عليهم اللعنة، و لنا أن نشير إلى ما جرى قبل ذلك و بعد ذلك، مثل قتل عبد الرّحمن بن خالد بن الوليد بالسّمّ

هكذا كانت فاطمة سلام الله عليها في ساعات النّزع و الشّدائد صائبة بعيدة النّظر، صحيحة الاستنتاج، قويّة التفكير، فتحقّق كلّ ما حذّرت منه و نبّهت إليه» انتهى كلامه

﴿خطبة الصدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها حول فدك تفصيلاً و شرحها إجمالاً﴾

و اعلم أنّ خطبة الصدّيقة الطّاهرة فاطمة الزّهراء صلوات الله عليها تنطوي على فصول من الأصول الاعتقاديّة المهمّة و الفروع الإسلاميّة السّامية، و من المعارف الدّينيّة العالية و الحكم و الأسرار و اللّطائف الّتي حيّرت ألباب البلغاء، و أفصح الفصحاء، و عجزت عن إدراك كنهها و الوصول إلى دقائقها عقول الحكماء و المتكلّمين، و ألباب الأذكياء و المحقّقين

و من هنا قد ذهل أهل الفنّ و الدّراية الكاملة أنّ خطبة الصدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها تضاهي، بل تداني خطبة زوجها مولى الموحّدين سيّد الوصيّين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﴿عليه السلام﴾ و لذلك ما كان فوقها في سمتها إلّا الإمام عليّ ﴿عليه السلام﴾

أمّا الفصول فهي

الفصل الأوّل في خروج الصدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها من بيتها و هو جار مسجد أبيها لا يفصل بينهما سوى جدار واحد، كانت تصحبها معها نسوة من قومها و حفدتها، داخلة من أبواب المتّصل به أو من أبواب أخرى - و هو الأظهر - تنبيهاً للنّاس و كسب انتباههم باجتيازها في الطّريق مع هؤلاء النّسوة لتجتمعوا في مسجد النّبيّ ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ و يتهافتوا حيث ينتهي بها السّير بقصد التّعرّف على ما تريده و تعزم عليه من قول أو فعل، و

بهذا تكون المحاكمة علنيّة تعيها أسماع عامّة المسلمين في ذلك الوسط المضطرب.

في الاحتجاج للطبرسي رضوان الله تعالى عليه: روى عبد الله بن الحسن بإسناده عن آبائه عليهم السلام أنّه لمّا أجمع أبو بكر و عمر على منع فاطمة (عليها السلام) فدكْ، و بلغها ذلك، لاثت خمارها على رأسها، و اشتملت بجلبابها، و أقبلت في لمّة من حفدتها و نساء قومها، تطأ ذيولها، ما تخرم مشيتها مشية رسول الله (صلى الله عليه وآله) حتّى دخلت على أبي بكر و هو في حشد من المهاجرين و الأنصار و غيرهم، فنيطت دونها مُلاءة، فجلست ثمّ أنّت أنّة أجهش القومُ لها بالبكاء، فارتجّ المجلس، ثمّ أمهلت هنيّة حتّى إذا سكن نشيج القوم و هدأت فورتهم، افتتحت الكلام بحمد الله و الثناء عليه و الصلاة على رسوله، فعاد القوم في بكائهم، فلمّا أمسكوا عادت في كلامها فقالت (عليها السلام):

الشّرح: عبد الله هو عبد الله المحض بن الحسن المثنّى بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب (عليهم السلام) و قد سمّي المحض لأنّ أباه الحسن بن الحسن (ع) و أمّه فاطمة بنت الحسين (ع) و كان يشبه رسول الله (ص) و جمع في حكمه شيئه و معرفته عمله و «لاثت خمارها» شدّت الخمار و هو المقنعة على رأسها و «اشتملت بجلبابها» تغطّت بالملحفة و الإزار و «اللمّة» الجماعة «حفدتها» أعوانها و خدمها و «تطأ ذيولها» كانت أثوابها طويلة تستر قدميها و «ما تخرم مشيتها مشية رسول الله (ص)» لم تنقص مشيتها عن مشية أبيها من حيث الوقار و السكينة، كأنّها هي أبيها و «الحشد» الجماعة، «فنيطت دونها ملاءة» فعلّقت بينها (ع) و بين القوم ستر و جمعه «الملاءة» الإزار و الريطة.

و «أجهش» من الجهش، أن يفزع الإنسان إلى غيره و هو مع ذلك يريد البكاء كالصبيّ يفزع إلى أمّه، «فارتجّ المجلس» اضطرب و «الهنيّة» في نسخة «هنيهة» أي صبرت زماناً قليلاً، و «نشيج القوم» النشيج صوت معه توجّع و بكاء كما يردّد الصبيّ بكاءه في صدره، و «هدأت» سكنت «فورتهم» شدّتهم و اضطرابهم.

الفصل الثّاني: في الحمد لله تعالى على نعمه و بيان حقيقة التوحيد، و حكمة الخلق إذ قالت عليها سلام الله «ابتدئ بحمد من هو أولى بالحمد و الطَّول و المجد»، الحمد لله على

ما أنعم، وله الشّكر على ما ألهم، والثّناء بما قدّم، من عموم نعم ابتدأها، وسبوغ آلاء أسداها، وتمام منن والاها، جمّ عن الإحصاء عددها، ونأى عن الجزاء أمدها، وتفاوت عن الإدراك أبدها، وندبهم لاستزادتها بالشّكر لاتّصالها، واستحمد إلى الخلائق بإجزالها، وثنّى بالنّدب إلى أمثالها.

وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، كلمة جعل الإخلاص تأويلها، وضمّن القلوب موصولها، وأنار في التّفكّر معقولها، الممتنع من الأبصار رؤيته، ومن الألسن صفته، ومن الأوهام كيفيّته، ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها، وأنشأها بلا احتذاء أمثلة امتثلها، كوّنها بقدرته، وذرأها بمشيّته، من غير حاجة منه إلى تكوينها، ولا فائدة له في تصويرها، إلاّ تثبيتاً لحكمته، وتنبيهاً على طاعته، وإظهاراً لقدرته، تعبّداً لبريّته، وإعزازاً لدعوته، ثمّ جعل الثّواب على طاعته، ووضع العقاب على معصيته، ذيادة لعباده من نقمته، وحياشة منه لهم إلى جنّته»

الشّرح: «من عموم نعم ابتدأها» أي نعم أعطاها عباده قبل أن يستحقّوها، و«سبوغ آلاء» كمال نعماء أعطاها، و«أسداها» أعطاها، و«والاها» تابعها بإعطاء نعمة بعد أخرى بلا فصل، فتستمرّ النّعمة من دون انقطاع، و«جمّ» كثر، و«نأى عن الجزاء أمدها» بَعُدَ عن الجزاء بالشّكر غايتها، و«تفاوت عن الإدراك أبدها» بَعُدَ عن الإدراك آخرها لعدم الانتهاء لها، و«ندبهم» دعاهم ورغّبهم في استزادة النّعمة بسبب الشّكر لتكون النّعمة مستمرّة لهم، غير منقطعة عنهم، و«استحمد إلى الخلائق بإجزالها»: طلب منهم الحمد بسبب إجزال النّعم وإكمالها عليهم، و«ثنّى بالنّدب إلى أمثالها»: بعد أن أكمل لهم النّعم الدّنيويّة بشكرهم له تعالى وحده، دعاهم ورغّبهم في تحصيل أمثالها من النّعم الأخرويّة بطاعتهم له عزّ وجلّ.

قوله (عليها السلام): «جعل الإخلاص تأويلها»: جعل الإخلاص في التّوحيد والطّاعة تأويل كلمة التّوحيد، و«ضمّن القلوب موصولها»: جعل القلوب واعية حقيقة معنى كلمة التّوحيد، و«أنار في الفكر معقولها»: أوضح في الأذهان ما يتعقّل من كلمة التّوحيد بالتّفكّر في الآيات الآفاقيّة والأنفسيّة، فيعرف الله سبحانه بها، و«ابتدع الأشياء»: أحدثها و

خلقها ولم تك مذكوراً، و«أنشأها بلا احتذاء أمثلة امتثلها»: لم يخلقها على وفق صنع غيره. و«ذرأها»: خلقها، و«تنبيهاً على طاعته»: لأنّ ذوي العقول يتنبّهون بمشاهدة نظام الكون وأنواع الخلائق أنّ خالقها والمنعم بها، والمدبّر لها هو واجب الوجود مستحق للعبادة، و«تعبّداً لبريّته»: خلق الإنس ليعبده، و«إعزازاً لدعوته»: خلق الأشياء ليعلم ويظهر دعوة الأنبياء إليه بالاستدلال بها، و«ذيادة لعباده عن نقمته»: دفعاً لعباده عن نقمته، و«حياشة لهم إلى جنّته»: سوقهم إلى جنّته.

الفصل الثالث في رسالة النبي (ص) وحكمة الرسالة فقالت صلوات الله عليها

«وأشهد أنّ أبي محمداً (ص) عبده ورسوله، اختاره وانتجبه قبل أن أرسله، وسمّاه قبل أن اجتباه، واصطفاه قبل أن ابتعثه، إذ الخلائق بالغيب مكنونة، وبستر الأهاويل مصونة، وبنهاية العدم مقرونة، علماً من الله تعالى بمآيل الأمور، وإحاطة بحوادث الدهور، ومعرفة بمواقع الأمور. ابتعثه الله تعالى إتماماً لأمره، وعزيمة على إمضاء حكمه، وإنفاذاً لمقادير حتمه، فرأى الأمم فرقاً في أديانها، عكّفاً على نيرانها، عابدة لأوثانها، منكرة لله مع عرفانها، فأنار الله بأبي محمد (ص) ظلمها، وكشف عن القلوب بهمها، وجلى عن الأبصار غممها، وقام في الناس بالهداية، فأنقذهم من الغواية، وبصّرهم من العماية، وهداهم إلى الدين القويم، ودعاهم إلى الطريق المستقيم»

الشرح: «انتجبه»: استخلصه من [illegible] الخليقة، و«اجتباه»: اختاره، و«اصطفاه»: [illegible] ببعثه، و«اصطفاه»: [illegible] خلّصه من كدورات الذنوب. «قبل أن ابتعثه»: أرسله، و«مكنونة»: مستورة. وكون الخلائق بالغيب مكنونة، كناية عن كونها معدومة. وفي «بستر الأهاويل مصونة» وجوه:

أحدها ـ كناية عن كون الأشياء معدومة بتقريب أنّ ظلمات العدم كانت أموراً موحشة مفزعة لمن رام أن يدخلها، ويطّلع على الأشياء التي كانت فيها فصارت محفوظة عن وصول الأيدي إليها بما دونها من الظلمات الحاجبة الموحشة المفزعة، والإضافة في «ستر الأهاويل» بيانيّة أو ظرفيّة.

ثانيها ـ أنّ المراد بالستر ستر العدم، أو حجب الأصلاب والأرحام، ونسبته إلى

الأهواء لما يحول الأشياء في سبل الأحوال من موانع الوجود وعوائقه

ثالثها ـ أن يكون المراد بها كلمات مطوية على الأهواء بستر العدم، إذ هي إنّما تحققها بعد الوجود وعلى التقدير بالأهواء من قبيل التعبير عن درجات العدم بالستور والظلمات و«عقد» سرد على من جهل من طريق الحق عنه وعرف و «بلج» يتبع أمور الحق من الاعتراف من الحقّ والهدى، ومن الاستقامة والرشاد، و «عوذ بت الدهور» الحادثات الواقعة في الأزمنة المختلفة، والعلامات الواضحة الحق في كفرهم وضلالتهم وشركهم وحيرتهم وبغيهم وغوايتهم الموجبة لبعث الرسول يتلو عليهم آيات الله ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة

وقوله ﷺ «معرفة بمواقع المقادير» المراد من «المقدور» الأمور المقدورة، مفرد في معنى الجمع بالعبارة، بل هو موضوعة التي يستوي فيها المفرد والتّثنية والجمع والمذكّر والمؤنّث، معنىً وضميراً فهو بمعنى الجمع بالعبارة جمعه بلفظ «مواقع» مع أنّ معرفة الله تعالى لا تنحصر بموقع شيء واحد مقدور بل هو جلّ وعلا يعرف موقع جميع الأمور المقدّرة، فيضع كلّ شيء موضعه بمقتضى حكمته، أو المراد معرفته تعالى بما يصلح وينبغي من أزمنة الأمور الممكنة المقدورة والمكتسبة ومن المحتمل أن يكون المراد بالمقدور المقدّر، و«إتمام الأمر» أي المحكمة التي تحمل الأشياء الحسنة وهي تحصيل معرفته وعبادته والفوز بدرجات الجنّة والفيوض الأخرويّة

وقوله ﷺ «عزيمة» من العزم هو المؤكّد الإرادة و«مقادير حتمه» من إضافة الموصوف إلى صفته أي مقاديره المحتومة «عُكّفاً على نيرانها» منفصل والتي تليها بذكر بعضها، و«عُكّفاً» مثل «شُهّد» و«عُتّب» جمع عاكف مأخوذ من عكف على الشيء أقبل عليه مواظباً ولازمه ومنه الاعتكاف وهو اللبث في المسجد الجامع ثلاثة أيام فصاعداً بعبادة مع الشّرائط المقرّرة «والأوثان» جمع وثن بمعنى الصّنم وهو المصنوع من خشب أو حجر أو غيرهما بدون صفة الصورة لمجرّده أو معه والصّنم هو المتّخذ من الجواهر المدنيّة التي تذوب

وقولها ﷺ «منكرة لله مع عرفانها» الإنكار في الأصل ـ عدم المعرفة، ولكن

المراد منه هو لازمه وهو الجحود فيكون المعنى من باب «يعرفون نعمت الله ثمّ ينكرونها» (النحل ٣٠). ومن المحتمل أن يكون المراد جحودهم لمعرفة الله تعالى من حيث فطرتهم، فإنّ المعرفة بالله جلّ وعلا فطريّة «فطرت الله التي فطر الناس عليها» (الروم ٣٠) والشقاء أخرجهم عن الفطرة والدلائل الواضحة على وجود الواجب تعالى.

والفقرة الأولى من هذه الفقرات الثلاث مبيّنة لاختلاف الفرق في أديانهم إشارة إلى عبدة النار كالمجوس والثانية إلى عبدة الأصنام كأكثر الأعراب الجاهلية والثالثة جامعة بينهما كبعض طوائف العرب وغيرهم ومبيّنة لحقيقة الإنكار مع إثبات المعرفة فيها مبالغة في الإنكار عليهم. ومن المحتمل أن تكون الثالثة إشارة إلى فرقة أخرى وهي الملاحدة كالفرقة الطبائعية والدهريين والطبيعيين.

وقولها ﷺ «ظلمها» جمع ظلمة، والمراد إزالتها بالنور، ولمّا كانت الظلمة هي ظلمة الجهل والضلالة والكفر والغواية التي أحاطت بهم كان النور هو نور العلم والهداية ونور الإيمان والطاعة، وضمير التأنيث راجع إلى الفرق والأمم. و«بُهَمها» جمع البُهْمة كغُرَف وغرفة، المشكلات من الأمور ومبهماتها من الأصول الاعتقادية والفروع الدينيّة، ومن الأمور الدنيّة والدنيوية. وكشفها عبارة عن تبيينها بسبب الوحي وسنّته ﷺ وإزالة المشكلات بما تفضّل الله به ﷺ من أمر الدنيا والآخرة.

وقولها ﷺ «وجلّى عن الأبصار غممها» من الجلاء بمعنى الكشف والإيضاح، و«الغمم» جمع الغمّة المبهم الملتبس المستور، تقول: غممت الشيء إذا غطّيته وسترته، و«الغواية» الانهماك في الباطل والجهل والكفر والضلالة، و«العماية» كناية عن الانحراف وعدم الاهتداء. وإنّ الفقرات الثلاث ناظرة إلى الفقرات الثلاث السابقة باللفّ والنشر المرتّب حيث إنّ الفقرة الأولى ناظرة إلى إنارة الظلم والإنقاذ من الغواية ناظرة إلى كشف البهم عن القلوب، والتبصير عن العماية ناظرة إلى جلاء الغمم عن الأبصار «فاعتبروا يا أولي الأبصار».

الفصل الرابع في وفاة أبيها رسول الله ﷺ فقالت ﷺ:

ثمّ قبضه الله إليه قبض رأفة واختيار ورغبة وإيثار فمحمّد ﷺ من

بعث أبي ح، هذه الدار في راحة (في راحة عن تعب هذه الدار) موضوعٌ عنه أعباء الأوزار، ومحفوفٌ بالملائكة الأبرار ح، قد حُفّ بالملائكة الأبرار ورضوان الربّ الغفّار، ومجاورة الملك الجبّار، صلّى الله على أبي نبيّه وأمينه على الوحي، وصفيّه وخيرته من الخلق ورضيّه، والسّلام عليه ورحمة الله وبركاته»

الشّرح: «فقبضه الله إليه» أخذ روحه ﴿...﴾ رفعه إلى قربه، «قبض رأفة» وهي أرقّ من الرحمة، و «اختيار» من الله تعالى له ﴿...﴾ ما هو خير له أو اختيار منه ﴿...﴾ و «رغبة» منه بغير كره وإجبار و «إيثار» كمال ميل وإرادة، و «إيثار» تقديم واستفضال و «عن تعب هذه الدار» عن مشقّة الدنيا ورحمتها، و «أعباء الأوزار» حمل أثقال الذنب وشدائده «قد حُفّ» أحيط «بالملائكة الأبرار» فإنّهم أحاطوا به من كلّ جانب، وقاموا في خدمته وتوقيره وتعظيم شأنه والانقياد لأمره ونهيه و «رضيّه» مرضيّه، فكان الله تعالى راضياً عنه ﴿...﴾ فهو كان مرضيّاً عند الله جلّ وعلا وبالعكس

الفصل الخامس في ... ... على ... ... و... الحقّ وإبطال الباطل

«ثمّ التفتت إلى أهل المجلس وقالت

أنتم عباد الله نُصُبُ أمره ونهيه، وحملةُ دينه ووحيه، وأُمناء الله على أنفسكم، وبلغاؤه إلى الأُمم، زعيمُ حقٍّ له فيكم، وعهدٌ قدّمه إليكم، وبقيّة استخلفها عليكم

كتاب الله النّاطق، والقرآن الصّادق، والنّور السّاطع، والضّياء اللّامع، بيّنة بصائره، منكشفة سرائره، متجلّية (منجلية ح) ظواهره، مُغتبطة به أشياعه، قائد إلى الرّضوان أتباعه، مؤدٍّ إلى النّجاة استماعه، به تنال حجج الله المنوّرة، وعزائمه المفسّرة، ومحارمُهُ المحذّرة، وبيّناته الجالية، وبراهينه الكافية، وفضائله المندوبة، ورُخَصُهُ الموهوبة، وشرائعه المكتوبة»

الشّرح: «عباد الله» يا عباد الله، وقع المنادى بين المبتدأ والخبر تنبيهاً على أنّ المطلب الّذي يلقى إليهم ويخاطبهم أمر خطير، فليتنبّهوا عليه لئلّا يذهب عليهم ولا يفوت عنهم بسبب الغفلة عن بيانه و «نُصُبُ أمره» عَلَمُ أمره أي نصبكم الله تعالى لأن أمركم

بأوامره ونهاكم عن نواهيه، ثمّ نيابة عن غيركم، وحملة دينه ووحيه، أي إنّ الله تعالى قد حمّلكم التكاليف الدينية أصولها وفروعها عليكم، فأنتم حاملون لها، ومخاطبون لأحكام أوامره ونواهيه بنفسكم لعلكم أن تبلغوه سبحانه في مرتبته ومنهاكم عنه بلسان رسوله ﴿ﷺ﴾ الذي لا ينطق عن الهوى «وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا» الحشر: ٧)

وقوله ﴿ع﴾ «أمناء الله على أنفسكم» أي أنفسكم ودائع الله تعالى عندكم، وأنتم أمناؤه عليها فلا يجوز لكم الخيانة على ودائع الله سبحانه بأن تتركوا أوامره ونواهيه، فتوقعوها في الهلكة وتضيّعوها بالخيانة والمعصية، فعليكم أن تهذّبوها بالتوحيد ولطاعة الله تعالى، وتزكّوها باتّباع هدى أوليائه وأئمّة الهدى المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين و«بلغاؤه إلى الأمم» أي أنكم تبلغون أصول الشريعة الإسلامية وفروعها، معارفها وحكمها وتؤدّونها إلى سائر الناس من أهل الإسلام وغيرهم لأنكم أدركتم صحبة النبيّ الكريم ﴿ﷺ﴾ وأخذتم منه ﴿ﷺ﴾ هذه الشريعة كلّها

وقد قال الله عزّ وجلّ يوم الغدير لكم «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا» المائدة: ٣ وقد قال رسول الله ﴿ﷺ﴾ يومئذ «ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب»، فهذه الشريعة مستمرّة باستمرار حياة الإنسان على بسيط الأرض إلى يوم القيامة

وقوله ﴿ع﴾ «زعيم حقّ له فيكم» كفيل حقّ لله جلّ وعلا بينكم، وهو أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب ﴿ع﴾ و«عهدٌ قدّمه إليكم» هذه الكفالة والزعامة لأمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب ﴿ع﴾ عليكم عهد إلهيّ قدّمه رسول الله ﴿ﷺ﴾ يوم الغدير إليكم، فكفيل الحقّ وزعيمه بينكم، من اتّبعه هدى ومن تخلّف عنه غوى و«بقيّة استخلفها» بقيّة الرّجل: ما يخلّفه في أهله، وبقيّة رسول الله ﴿ﷺ﴾ استخلفها بين أمّته شيئان لا يفترقان حتّى يردا الحوض أحدهما ـ القرآن الكريم ثانيهما ـ أهل بيته ﴿ع﴾ وهما الثّقلان المشهوران حيث قال ﴿ﷺ﴾ «إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبدا أحدهما أكبر من الآخر وهو

كتاب الله فإنّه حبل ممدود من السماء إليكم طرف منه بيد الله، و الآخر بأيديكم، فحملها الله تعالى معاً من دون فكاك بينهما كالإنسان المركّب من الجسم و الروح ـ حقيقته من جانبه، و بانت عن رسوله ﷺ عليكم و فيكم، بيّن لكم الأصول و الفروع من الأحكام و الفرائض و السنن و الآداب و المعارف و الحكم و حقائق نظامي التكوين و التشريع.

و قولها ﷺ: «كتاب الله الناطق» بيان «بقيّة» و المراد من «كتاب الله الناطق» هو الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﷺ و الأئمّة المعصومون عليهم السلام من ولده.

في نهج البلاغة قال مولى الموحّدين إمام المتّقين عليّ ﷺ: «ذلك القرآن فاستنطقوه و لن ينطق و لكن أخبركم عنه» الخطبة ١٥٧.

و فيه قال سيّد الوصيّين الإمام عليّ ﷺ: «و هذا القرآن إنّما هو خطّ مسطور بين الدفّتين لا ينطق بلسان، و لابدّ له من ترجمان، و إنّما ينطق عنه الرّجال ـ إلى أن قال ـ فإذا حُكم بالصدق في كتاب الله فنحن أحقّ الناس به، و إن حُكم بسنّة رسول الله ﷺ فنحن أولاهم به.» من كلامه ﷺ: رقم ١٢٥)

و في كشف الغمّة (ج ٢، ص ١١٠) و في رواية أحمد بن أبي طاهر «و بقيّة استخلفها عليكم و معنا كتاب الله»

و قولها ﷺ: «النور الساطع» الساطع: اللامع المرتفع، و «الضياء اللامع» المضيء بحيث أنّه يكاد يخطف بالأبصار لشدّة ضوئه، و كثرة لمعانه و «بيّنة بصائره» الحجج الموجودة في القرآن الكريم و براهينه القاطعة على المبدأ و المعاد، و صحّة حكمها بكم غير خفيّة عنكم و أنّ فدكاً ممّا أفاء الله على رسوله ﷺ بغير إيجاف خيل و لا ركاب، و أنّ رسول الله ﷺ أعطاها لها بحكم آتِ ذوي القربى، و كذا الأمر في أمر الخلافة لقوله تعالى «إنّما وليّكم الله و رسوله و الّذين آمنوا» المائدة ٥٥ و قوله عزّوجلّ «قل لا أسئلكم عليه أجراً إلّا المودّة في القربى» الشورى ٢٣ و غير ذلك من الأمور التي يجب فيها الحجّة و اتّضحت بها الحجّة «ليهلك من هلك عن بيّنة و يحيى من حيّ عن بيّنة» الأنفال ٤٢.

و قولها ﷺ: «منكشفة سرائره» إنّ المراد من سرائر القرآن الكريم هي ما أشار إليه

الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﴿عليه السلام﴾ في نهج البلاغة بقوله: «ألا إنّ فيه علم ما يأتي، والحديث عن الماضي، ودواء دائكم، ونظم ما بينكم...» الخطبة: ١٥٧) والمراد بانكشاف أسراره وضوحها عند حملة القرآن الكريم و أهله وهم أهل بيت الوحي المعصومون صلوات الله عليهم أجمعين لأنّهم كانوا «شجرة النبوّة، ومحطّ الرسالة، ومختلف الملائكة و معادن العلم و ينابيع الحكم» (نهج ج ١٠٩) «مصحّبة ظواهره» أي واضحة ظواهر القرآن الكريم لمن تدبّر فيه، و المراد بظواهره آياته ومحكماته عدا تأويلاته «هو الّذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أمّ الكتاب و أخر متشابهات... وما يعلم تأويله إلاّ الله و الرّاسخون في العلم» آل عمران ٧.

و قوله ﴿عليه السلام﴾ «مغتبطة به أشياعه» مغتبطة أي متمنّى أمره مثل حال المغبوط من غير أن يريد زوالها منه، والمعنى: إنّ العاملين بالقرآن الكريم مغبوطون في الدنيا والآخرة بحسن حالهم فيهما بسبب اتّباعهم وعملهم بهذا القرآن المجيد و «قائد إلى الرضوان اتّباعه» أي نفس العمل بالقرآن المجيد واتّباعه هو يقود العامل به و المتّبع له إلى الجنّة، و «مؤدّ إلى النجاة إسماعه» أي نفس تلاوة القرآن الكريم وإسماعه للناس ينتهي إلى النجاة من الهلاك والعذاب، كما أنّ الاستماع المتعقّب بالاتّباع ينتهي إلى حفظ المستمع والعامل به إلى النجاة من الكفر و الضّلالة، و الخلاص من حيرة الجهالة، والوصول إلى دار الكرامة

و قوله ﴿عليه السلام﴾ «به تنال حجج الله المنوّرة» إنّ المراد من «حجج الله» هي البراهين القاطعة، و الأدلّة الواضحة الدالّة على الأصول الاعتقاديّة الحقيقة المعلومة، و على الأحكام الشرعيّة المعلومة، و المراد من كونها منوّرة أي واضحة مبيّنة عند أصحاب الدّراية، و «عزائمه المفسّرة» أي فرائضه و سننه، فسّرها بيانًا أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين

في نهج البلاغة قال سيّد الموحّدين يعسوب الدّين الإمام علي ﴿عليه السلام﴾ «فبعثه ﴿صلّى الله عليه وآله﴾ إليه كريمًا، وخلّف فيكم ما خلّفت الأنبياء في أممها، إذ لم يتركوهم هملاً بغير طريق واضح، ولا علم قائم، كتاب ربّكم مبيّنًا حلاله وحرامه، وفرائضه وفضائله، وناسخه ومنسوخه، ورخصه وعزائمه، وخاصّه وعامّه، وعبره وأمثاله، و

مرسله ومحدوده، ومحكمه ومتشابهه، مفسّراً مجمله ومبيّناً غوامضه» الخطبة الأولى

وفيه قال أمير المؤمنين الإمام عليّ عليه السلام: «فأين تذهبون؟ وأنّى تؤفكون؟ والأعلام قائمة، والآيات واضحة، والمنار منصوبة فأين يُتاه بكم؟ بل كيف تعمهون وبينكم عترة نبيّكم؟ وهم أزمّة الحقّ، وأعلام الدّين، وألسنة الصّدق، فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن وردوهم ورود الهيم العطاش ... فلا تقولوا بما لا تعرفون، فإنّ أكثر الحقّ فيما تنكرون، واعذروا من لا حجّة لكم عليه، وهو أنا. ألم أعمل فيكم بالثقل الأكبر وأترك فيكم الثقل الأصغر وركزت فيكم راية الإيمان، ووقفتكم على حدود الحلال والحرام» (خطبة: ٨٦)

وقوله عليه السلام «ومحارمه المحذّرة» حذّركم عنها القرآن الكريم وأهل بيت الوحي المعصومين عليهم السلام حذّروكم من محارم القرآن المجيد.

في نهج البلاغة من أمير المؤمنين الإمام عليّ عليه السلام «وأنهى إليكم على لسانه محابّه من الأعمال ومكارهه، ونواهيه وأوامره، فألقى إليكم المعذرة، واتّخذ عليكم الحجّة، وقدّم إليكم بالوعيد، وأنذركم بين يدي عذاب شديد» خطبة ٨٥

وقوله عليه السلام «وبيّناته المجلّاة» أي وآياته التكوينيّة والتدوينيّة، والآفاقيّة والأنفسيّة، ودلائله على ما يعتقده العقلاء من التوحيد والطّاعة لله جلّ وعلا وصحّة كلّ ما يدلّ عليها، وبراهينه المكشوفة لمن نظر فيها نظر عبرة واستبصار، و «فضائله المندوبة» المدعوّ إليها، وهي الأمور الصّالحة شرعاً التي حثّ على فعلها مرغوباً، وقد دعا الله تعالى عباده إليها دعوة غير ملزمة كالنّوافل وما إليها... و «رُخَصه الموهوبة» أي مباحاته الموهوبة، وفي وصف المباحات بها إشارة إلى أنّها ممّا أعطاها الله سبحانه لعباده من باب العطيّة لئلّا يكون لهم حرج في فعلها وتركها، فيكونوا في سعة من الأمر.

وقوله عليه السلام «وشرائعه المكتوبة» أي وشرائع القرآن الكريم المقرّرة بأنّها واجبة لا تتغيّر أبداً فإنّ حلاله حلال إلى يوم القيامة، وحرامه حرام إلى يوم القيامة فتستمرّ شرائعه باستمرار الحياة الإنسانيّة على بسيط الأرض، وبهذه الشّرائع عقدت إنسانيّة الإنسان وهويّته لأنّ هذه الشّريعة المحمّديّة هي الفطرة الإنسانيّة قال الله تعالى

«فأقم وجهك للدّين حنيفاً فطرت الله الّتي فطر النّاس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدّين القيّم و لكنّ أكثر النّاس لا يعلمون» (الرّوم: ٣٠)

و قد تبيّن ممّا شرّعه الله تعالى لعباده من الدّين سرّ جعله مشبهاً بمورد الماء فمن ورده و أخذ منه ما تقتضيه فطرته من التّوحيد و اتّبعه كتب به حياة و بستانه جنّته

و قد أشار إلى ذلك كلّه مولى الموحّدين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (ع) بقوله في نهج البلاغة: «بعثه بالنّور المضيء، و البرهان الجليّ، و المنهاج البادي، و الكتاب الهادي، أسرته خير أسرة، و شجرته خير شجرة، أغصانها معتدلة، و ثمارها متهدّلة، مولده بمكّة، و هجرته بطيبة، علا بها ذكره، و امتدّ منها صوته، أرسله بحجّة كافية، و موعظة شافية، و دعوة متلافية، أظهر به الشّرائع المجهولة، و قمع به البدع المدخولة، و بيّن به الأحكام المفصولة، فمن يبتغ غير الإسلام ديناً تتحقّق شقوته، و تنفصم عروته، و تعظم كبوته، و يكن مآبه إلى الحزن الطّويل، و العذاب الوبيل» (الخطبة ١٦٠)

و فيه قال سيّد الوصيّين الإمام عليّ (ع): «إنّ الله تعالى خصّكم بالإسلام، و استخلصكم له، و ذلك لأنّه اسم سلامة و جماع كرامة، اصطفى الله تعالى منهجه، و بيّن حججه، من ظاهر علم و باطن حكم، لا تفنى غرائبه، و لا تنقضي عجائبه، فيه مرابيع النّعم و مصابيح الظّلم، لا تفتح الخيرات إلّا بمفاتيحه، و لا تكشف الظّلمات إلّا بمصابيحه، قد أحمى حماه، و أرعى مرعاه، فيه شفاء المشتفي، و كفاية المكتفي» (الخطبة ١٥٢)

و فيه قال إمام المتّقين عليّ بن أبي طالب (ع): «ثمّ إنّ هذا الإسلام دين الله الّذي اصطفاه لنفسه، و اصطنعه على عينه، و أصفاه خيرة خلقه، و أقام دعائمه على محبّته، أذلّ الأديان بعزّته، و وضع الملل برفعه، و أهان أعداءه بكرامته، و خذل محادّيه بنصره، و هدم أركان الضّلالة بركنه، و سقى من عطش من حياضه، و أتأق الحياض بمواتحه، ثمّ جعله لا انفصام لعروته، و لا فكّ لحلقته، و لا انهدام لأساسه، و لا زوال لدعائمه، و لا انقلاع لشجرته، و لا انقطاع لمدّته، و لا عفاء لشرائعه و لا جذّ لفروعه، و لا ضنك لطرقه» (الخطبة ١٨٩)

و فيه قال يعسوب الدّين الإمام عليّ (ع): «فالقرآن آمر زاجر، و صامت ناطق،

حجّة لله على خلقه أخذ عليه ميثاقهم، وارتهن عليه أعمارهم، أتمّ به نوره، وأكمل به دينه، وقبض نبيّه (ﷺ) وقد فرغ إلى الخلق من أحكام الهدى به، فعظّموا منه سبحانه ما عظّم من نفسه، فإنّه لم يُخْفِ عنكم شيئاً من دينه، ولم يترك شيئاً رضيه أو كرهه إلاّ وجعل له علماً بادياً، وآية محكمة، تزجر عنه أو تدعو إليه، فرضاه فيما بقي واحد، وسخطه فيما بقي واحد» (الخطبة ١٨٢)

الفصل السادس: في حكمة الإيمان وعلل التشريع في بيان فاطمة سلام الله عليها

«فجعل الله الإيمان تطهيراً لكم من الشرك، والصلاة تنزيهاً لكم عن الكبر، والزكاة تزكية للنفس، ونماءً في الرزق، والصيام تثبيتاً للإخلاص، والحجّ تشييداً للدين، والعدل تنسيقاً للقلوب، وطاعتنا نظاماً للملّة، وإمامتنا أماناً من الفرقة، والجهاد عزّاً للإسلام، والصبر معونة على استيجاب الأجر، والأمر بالمعروف مصلحة للعامّة، وبرّ الوالدين وقاية من السخط، وصلة الأرحام منسأة في العمر ومنماة للعدد، والقصاص حقناً للدماء، والوفاء بالنذر تعريضاً للمغفرة، وتوفية المكاييل والموازين تغييراً للبخس، والنهي عن شرب الخمر تنزيهاً عن الرجس، واجتناب القذف حجاباً عن اللعنة، وترك السرقة إيجاباً للعفّة، وحرّم الله الشرك إخلاصاً له بالربوبيّة، فاتّقوا الله حقّ تقاته ولا تموتنّ إلاّ وأنتم مسلمون، وأطيعوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، فإنّه إنّما يخشى الله من عباده العلماء»

الشرح: إنّ الإيمان ينصرف بإطلاقه بنحو يشتمل على القول بأصول الدين الخمسة

١ـ التوحيد ٢ـ العدل الإلهي ٣ـ النبوّة ٤ـ الإمامة ٥ـ والمعاد وما يتعلّق بها ولوازمها من الفروع العشرة

ألف: الصلاة ب: الصوم ج: الخمس د: الزكاة هـ: الحجّ و: الجهاد ز: الأمر بالمعروف ح: النهي عن المنكر ط: التولّي لأهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين ي: التبرّي من أعداء الله جلّ وعلا، وأعداء أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين

كما أنّ الشرك يشمل لجميع أقسامه الخمسة

١ـ الشّرك بالله سبحانه في أصل الوجود «لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا» (الأنبياء ٢٢)

٢ـ الشّرك بالله تعالى في إيجاد العالم «ما اتّخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كلّ إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عمّا يصفون» (المؤمنون ٩١)

٣ـ الشّرك بالله عزّ وجلّ في تدبير شؤون الكون «إنّ ربّكم الله الّذي خلق السّموات والأرض في ستّة أيّام ثمّ استوى على العرش يدبّر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربّكم فاعبدوه أفلا تذكّرون» (يونس ٣)

٤ـ الشّرك بالله جلّ وعلا في العبادة «والّذين اتّخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زلفى» (الزمر ٣)

٥ـ الشّرك الخفيّ وهو الرّياء في الأعمال العباديّة «والّذين ينفقون أموالهم رئاء النّاس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشّيطان له قريناً فساء قريناً ـ وإذا قاموا إلى الصّلاة قاموا كسالى يراؤون النّاس ولا يذكرون الله إلا قليلاً» (النساء ٣٨ و ١٤٢)

فلا يتحقّق الإخلاص حقّاً إلا بالاعتقاد بالأصول الخمسة والالتزام بالفروع العشرة، والاجتناب عن الخمسة الأخيرة.

وإنّ الإخلاص يطهّر الإنسان من الأدناس الظّاهريّة والباطنيّة، والأرجاس النّفسانيّة والجسمانيّة.

وقوله عليها السلام «والصّلاة تنزيهاً لكم عن الكبر»

وذلك أنّ الصّلاة الّتي تنهى الإنسان عن الفحشاء والمنكر لما فيها من الاستكانة والتذلّل والخضوع والخشوع تدفع التكبّر والاستبداد والتعظّم والترفّع عن المصلّي

فإنّها قربة وذكر ... وإنّها نسك وشكر

فيها مثول العبد للمعبود ... بين الرّكوع منه والسّجود

وقوله سلام الله عليها «والزّكاة تزكية للنّفس ونماء في الرّزق»

وذلك أنّ زكاة الأموال وأداء حقّ المحتاجين منها، وإنفاقها في سبيل الله تعالى يوجب تطهير النّفس الإنسانيّة وتزكيتها من الأخلاق الرّذيلة والصّفات الذّميمة النّاشئة من

الشّحّ والبخل وشره الطّبع وبذيّ الكلام، وتزيل عنه دنس الذّنوب، وتعيدها فضيلة الكرم والسّخاوة، وتوجب البركة في المال والتّنمية، والزّيادة في الرّزق.

قال الله تعالى «خذ من أموالهم صدقة تطهّرهم وتزكّيهم بها» التّوبة ١٠٣.

وقال: «وما أُمروا إلّا ليعبدوا الله مخلصين له الدّين حنفاء ويقيموا الصّلاة ويؤتوا الزّكاة وذلك دين القيّمة» البيّنة ٥.

وقال: «ورحمتي وسعت كلّ شيء فسأكتبها للّذين يتّقون ويؤتون الزّكاة والّذين هم بآياتنا يؤمنون» الأعراف ١٥٦.

وقال: «وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون» الرّوم ٣٩.

و قولها صلوات الله عليها: «والصّيام تثبيتاً للإخلاص»

إنّ الصّيام - في الأصل - الإمساك والسّكوت مطلقاً، وفي الشّرع هو الإمساك عن المفطرات المخصوصة مع النّيّة عزماً من الفجر إلى الّليل، والصّوم هو الموجب لتثبيت الإخلاص وإبقائه، وله آثار كثيرة جسميّة وروحيّة، وفوائده واضحة لمن أرادها في محلّه.

منها أنّه سبب لضعف القوى البدنيّة الموجبة لتقويتها، وتقوية القوى الرّوحيّة والإرادة وكسر الشّهوات النّفسانيّة، وموجب لتصفية النّفس وتزكيتها عن دنس الذّنوب، وتخليتها عن قذارة التّرفّع والتّعظّم وعن رجس التّكبّر والاستبداد، وموجب لجلاء الحواسّ الظّاهرة والباطنة عن الكدورات المعرفيّة، ولاشتماله على الجوع يوجب لكسر سورة الشّيطان وجموده المتمدّد في أرض البدن الآدميّ، ولكونه أمراً عدميّاً لا يظهر لغير الله تعالى فهو أبعد من الرّياء، وأقرب إلى الإخلاص.

و قولها سلام الله عليها: «والحجّ تشييداً للدّين»

وذلك أنّ الحجّ الحقيقيّ - لا الصّوريّ - هو الموجب لتقوية الدّين الإسلاميّ ونشره في العالم، وسبب اتّحاد المسلمين على كلمة التّوحيد وتوحيد الكلمة، وخروجهم من صورة الإسلام إلى سيرته وحقيقته، وسلوكهم على صراط مستقيم واحد أمرهم الله تعالى باتّباعه، واجتنابهم عن التّحزّب والتّشتّت والتّفرقة الّتي نهاهم الله عزّ وجلّ عنها في قوله

جلّ وعلا «وانّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه ولا تتّبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله ذلكم وصّاكم به لعلّكم تتّقون» الأنعام ١٥٣).

و في **عيون الأخبار**: بإسناده عن فضل بن شاذان، عن عليّ بن موسى الرّضا عليه [illegible] قال - في حديث طويل -: «إنّما أمروا بالحجّ لعلّة الوفادة إلى الله عزّوجلّ وطلب الزيادة والخروج من كلّ ما اقترف العبد تائباً ممّا مضى، مستأنفاً لما يستقبل مع ما فيه من إخراج الأموال، وتعب الأبدان والاشتغال عن الأهل والولد، وحظر الأنفس عن اللذّات، شاخصاً في الحرّ والبرد، ثابتاً على ذلك دائماً مع الخضوع والاستكانة والتذلّل، مع ما في ذلك لجميع الخلق من المنافع لجميع من في شرق الارض وغربها، ومن في البرّ والبحر ممّن حجّ وممّن لم يحجّ، من بين تاجر وجالب وبائع ومشتري، وكاسب ومسكين، ومكار، وفقير وقضاء حوائج أهل الأطراف في المواضع الممكن لهم الاجتماع فيه

مع ما فيه من التفقّه ونقل أخبار الأئمّة عليهم السلام إلى كلّ صقع وناحية كما قال الله عزّوجلّ «فلولا نفر من كلّ فرقة منهم طائفة ليتفقّهوا في الدّين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلّهم يحذرون» و «ليشهدوا منافع لهم».

و قولها (عليها السلام): «والعدل تنسيقاً للقلوب»

إنّ العدل هو الاعتدال في الامور النفسيّة والسلوكيّة، والفرديّة والاجتماعيّة والأخلاقيّة، والسياسيّة جميعاً، وهو الموجب لتنظيم عقد الإسلام وكيان المسلمين، وتأليف قلوبهم بين أئمّة المؤمنين وأتباعهم، وحاجته في موسم الحجّ وبهم العدل تنسيق في الاعتقاد والتوحيد. آيات صريحات وجداً [illegible]

قال الله تعالى «إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان» النحل ٩٠.

وقال «وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إنّ الله نعمّا يعظكم به» «يا أيّها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيّاً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتّبعوا الهوى أن تعدلوا» النساء ٥٨ و ١٣٥).

وقال «يا أيّها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنّكم شنآن قوم

على ألاّ تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى و اتّقوا الله إنّ الله خبير بما تعملون» (المائدة ٨)

و قال «و إذا قلتم فاعدلوا و لو كان ذا قربى» (الأنعام ١٥٢)

و قولها سلام الله عليها: «و طاعتنا نظاماً للملّة و إمامتنا أماناً من الفرقة»

و ذلك أنّ طاعة أهل بيت النبوّة المعصومين من الخطأ و الجهالة، و السّهو و الغواية و من البغي و الخيانة، هي طاعة رسول الله ﴿ﷺ﴾ و طاعة الرّسول ﴿ﷺ﴾ هي طاعة الله جلّ و علا أمر الله تعالى المؤمنين في كلّ ظرف من الظّروف بها في قوله: «يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا الله و اطيعوا الرّسول و اولى الأمر منكم ـ من يطع الرّسول فقد أطاع الله» (النساء ٥٩ و ٨٠)

فطاعة أهل بيت النبوّة تنظّم امور الملّة الاسلاميّة في طريقها المستقيمة و لا تنحرف عن جادّة الحقّ و الهدى لأنّها العروة الوثقى لا انفصام لها «فمن يكفر بالطّاغوت و يؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها» (البقرة ٢٥٦) «و اعتصموا بحبل الله جميعاً و لا تفرّقوا و اذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً» (آل عمران ١٠٣) إذ تمّت هذه النّعمة عليهم يوم الغدير بولاية مولى الموحّدين إمام المتّقين عليّ بن أبي طالب ﴿ﷺ﴾ «و أتممت عليكم نعمتي» (المائدة ٣)

و بهذه الطّاعة، و بتمام هذه النّعمة تنظّم الشعوب و الأفكار من التشتّت و الفرقة بالأهواء المختلفة، و الميل إلى أئمّة الكفر و الضّلالة، و الظّلم و الغواية، فلا تبقى في أودية الحيرة و الجهالة، بخلاف إمامة أئمّة الحقّ و الهدى و الخير و الفلاح، فإنّها أمان للنّاس من الانحطاط و الفرقة

في نهج البلاغة: قال سيّد الوصيّين إمام المتّقين عليّ بن أبي طالب ﴿ﷺ﴾ «و الإمامة نظاماً للأمّة، و الطاعة تعظيماً للإمامة» من كلمات قصاره ﴿ﷺ﴾ (رقم ٢٤٤)

و قولها صلوات الله عليها: «و الجهاد عزّاً للإسلام»

و ذلك أنّ الجهاد في سبيل الله بالأموال و الأنفس موجب لعزّة الإسلام و غلبة المسلمين على الكفّار و المشركين و الفجّار و المستكبرين

قال الله تعالى: «يا أيّها الّذين آمنوا اتّقوا الله و ابتغوا إليه الوسيلة و جاهدوا في سبيله

لعلّكم تفلحون» (المائدة: ٣٥)

في نهج البلاغة قال مولى الموحّدين إمام المتّقين عليّ بن أبي طالب (ع): «أمّا بعد فإنّ الجهاد باب من أبواب الجنّة فتحه الله لخاصّة أوليائه، وهو لباس التقوى، ودرع الله الحصينة، وجنّته الوثيقة، فمن تركه رغبةً عنه ألبسه الله ثوب الذلّ وشمله البلاء، وديّث بالصَّغار والقماءة، وضُرب على قلبه بالإسهاب، وأُديل الحقّ منه بتضييع الجهاد، وسيم الخسف ومُنع النَّصَف» (خطبة ٢٧)

وفيه قال سيّد الوصيّين الإمام عليّ (ع): «إنّ أفضل ما توسّل به المتوسّلون إلى الله سبحانه وتعالى الإيمان به وبرسوله، والجهاد في سبيله فإنّه ذروة الإسلام» (خطبة ١٠٩) أي أعلاه لأنّه ما لم تتحصّن دار الإسلام وكان المسلمون بالجهاد فلا يتمكّنون على القيام بالوظائف، فكأنّ الجهاد في الإسلام بمنزلة الرأس من البدن.

وقوله (ع): «والصّبر معونة على استيجاب الأجر»

الصبر هو حمل النفس على تحمّل مشقّة فعل الطاعات وحبسها على ترك ما لا يرضيه من جميع المشتهيات وحبسها عن الذنوب والمعاصي والمقاومة بالمكاره الواردة عليها والثبات عنده فالصبر سبب لفعل الواجبات وإتيان الطاعات، وترك المحرّمات صغيرها وكبيرها فالصبر خير معين للإنسان في استجلاب الأجر وسعادة الدنيا والآخرة.

قال مولى الموحّدين أمير المؤمنين الإمام عليّ (ع): «اصبروا أنفسكم على فعل الطاعات، وصونوها عن دنس السيّئات تجدوا حلاوة الإيمان»

وقوله (ع): «والأمر بالمعروف مصلحة للعامّة»

والأمر بالمعروف الّذي قرّره الله عزّ وجلّ وأوجبه مصلحة للناس جميعًا، إذ لولا الأمر بالمعروف لاختلّ أمور الدّين من جهة فساد الفاسقين والمفسدين، والعصاة والظالمين من شياطين الإنس والجنّ، وتعطّل أمور الدنيا أيضًا بوقوع الاختلال بين الناس، ولم ينتظم أمر المعاش الّذي هو المقدّمة لأمر المعاد وكذلك النّهي عن المنكر، حيث إنّ كلًّا منهما مستلزم للآخر، فصلاح كافّة الناس وخير معاشهم، ونفع معادهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة أن يأمروا بأوامر الله تعالى وينتهوا عن نواهيه

في نهج البلاغة قال الإمام المتّقين علي بن أبي طالب عليه السلام: «فإنّ الله سبحانه لم يلعن القرن الماضي بين أيديكم إلّا لتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلعن الله السفهاء لركوب المعاصي والحلماء لترك التناهي» الخطبة ٢٣٤.

وفيه قال في سند الوصيّة الإمام علي عليه السلام: «لا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيولّى عليكم شراركم ثمّ تدعون فلا يستجاب لكم».

وقولها سلام الله عليها: «وبرّ الوالدين وقاية من السخط».

وذلك أنّ الإحسان بالوالدين والشفقة بهما وملاحظة حقوقهما ورفع قدرهما والتشكّر عن زحماتهما يوجب وقاية أولاده من سخط الوالدين وحفظه من سخط الله تعالى وغضبه.

قال الله عزّ وجلّ: «وقضى ربّك ألّا تعبدوا إلّا إيّاه وبالوالدين إحساناً إمّا يبلغنّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفّ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً واخفض لهما جناح الذلّ من الرحمة وقل ربّ ارحمهما كما ربّياني صغيراً» الإسراء ٢٣-٢٤.

وفي جامع السّعادات قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من أصبح مرضيّاً لأبويه أصبح له بابان مفتوحان إلى الجنّة، ومن أمسى فمثل ذلك، وإن كان واحداً فواحد، وإن غضبا وإن غضبا وإن غضبا، ومن أصبح مسخطاً لأبويه أصبح له بابان مفتوحان إلى النّار، ومن أمسى مثل ذلك، وإن كان واحداً فواحد، وإن ظلما وإن ظلما وإن ظلما».

وقولها صلوات الله عليها: «وصلة الأرحام منسأة في العمر ومنماة للعدد».

وذلك أنّ صلة الأرحام من الإحسان إلى الأقرباء والعشائر والاتّصال بهم والعطف معهم ولو بطعام أو سلام أو كلام وحسن مقال وفعال وتفقّد ونحوها يوجب تأخير الأجل وزيادة في العمر، ويوجب كثرة الأولاد والأموال والأنصار والأعوان في الدنيا كما أنّ قطعها يدع الديار بلاقع من أهلها.

في نهج البلاغة قال في سند الوصيّة المعروف للإمام علي عليه السلام: «وصلة الرحم فإنّها مثراة في المال ومنسأة في الأجل» الخطبة ١٠٩.

قال الله تعالى: «واتّقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إنّ الله كان عليكم رقيباً» النساء ١.

و قال «و الّذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ـ أولئك لهم عقبى الدّار ـ و الّذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه و يقطعون ما أمر الله به أن يوصل و يفسدون في الأرض أولئك لهم اللّعنة و لهم سوء الدّار» الرّعد: ٢١ ـ ٢٥)

و قولها سلام الله عليها: «و القصاص حقناً للدّماء»

القصاص من القصّ ـ في اللغة ـ: القطع، و في الشرع القصاص عن المقتول هو أخذ عوضه و بدله من القاتل، كأنّه يقطعه منه أو لأنّ القصاص يتبع أثر الجاني، فيفعل مثل فعله من الجرح أو القتل

إنّ الله تعالى جعل القصاص سبباً لحفظ الدّماء، و قال: «و لكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلّكم تتّقون» البقرة: ١٧٩

و ذلك لأنّ الإنسان إذا علم أنّه متى قتل نفساً قُتل به قصاصاً كان ذلك داعياً إلى أن لا يقدم على القتل، فارتفع بالقتل الّذي هو القصاص كثير من قتل النّاس بعضهم لبعض، و كان ارتفاع ذلك حياة لهم، فالقتل بالقصاص سبب للحياة، على خلاف القتل بغير القصاص، فإنّ القتل قد يكون أدعى للقتل، و هو القتل الّذي لا يكون على وجه القصاص، فشرّعت إقامة الحدود إعظاماً للمحارم، و ذلك لأنّه إذا أقيمت الحدود امتنع كثير من النّاس عن المعاصي الّتي تجب الحدود فيها، و ظهر قبح تلك المعاصي عند عامّة النّاس، فيكونوا إلى تركها أقرب

و قولها (عليها السلام): «و الوفاء بالنّذر تعريضاً للمغفرة»

النّذر ـ في الأصل ـ الوعد، و في الشرع التزام المكلّف بفعل مشروع أو ترك غير مشروع تركه متقرّباً إلى الله تعالى فلا نذر في معصيته تعالى، و يردّ كمن نذر ـ مثلاً ـ بترك فريضة، أو بارتكاب معصية

الوفاء بالنّذر هو العمل بما تعهّد به، فمن نذر صوم يوم يجوز فيه، يجب عليه الوفاء، فليصم يومئذ، و من نذر الإنفاق، يجب عليه أن ينفق ما تعهّد به

و إنّ الوفاء بالنّذر سبب للمغفرة، و ذلك لأنّ الله تعالى يغفر ذنوب النّاذر، فإنّ الحسنات يذهبن السّيّئات، و التخصيص بالنّذر لعلّه من جهة زيادة مطلوبيّة الوفاء بالنّذر و العمل

على حقّه في المغفرة، فالوفاء بالنذر يجعل الناذر في معرض المغفرة، فتعرّض للمغفرة به و تحفظ به

قال الله تعالى: «وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإنّ الله يعلمه و ما للظالمين من أنصار» البقرة ٢٧٠،

و قال: «وليوفوا نذورهم» الحج ٢٩

و قال: «يوفون بالنذر و يخافون يوماً كان شرّه مستطيراً» الإنسان ٧

و قولها صلوات الله عليها: «و توفية المكاييل و الموازين تغييراً للبخس»

التوفية: الإكمال و أداء كلّ شيء على ما ينبغي. و المكاييل جمع المكيال، و هو آلة الكيل و الموازين جمع ميزان و هو آلة الوزن. و التغيير: إزالة الشيء عن حاله و مكانه، و تبديله بأيّ وجه غير الأوّل. و البخس: النقص.

إنّ الله تعالى أمر عباده بتوفية المكاييل و الموازين و أداء كلّ شيء على ما ينبغي، لأنّها مزيلة و مغيّرة للبخس اي انّها مقدّرة من جانب الله سبحانه فلا ينقص منها فلا ينقص الكيل و الوزن، فإنّ التوفية توجب البركة و زيادة المال و إنّ النقص يوجب الفساد في الأرض. قال الله عزّوجلّ: «فأوفوا الكيل و الميزان و لا تبخسوا الناس أشياءهم و لا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين» الأعراف ٨٥،

و قال: «و لا تنقصوا المكيال و الميزان - أوفوا المكيال و الميزان بالقسط و لا تبخسوا الناس أشياءهم و لا تعثوا في الأرض مفسدين»

و قال: «أوفوا الكيل و لا تكونوا من المخسرين و زنوا بالقسطاس المستقيم» الشعراء ١٨١، ١٨٢،

و في الآيات الكريمة لطائف لا تخفى على القارئ الخبير فتأمّل جيّداً

و قولها عليها آلاف التحيّة و الثناء: «و النهي عن شرب الخمر تنزيهاً عن الرجس»

النهي - في الأصل - التحريم، و في الشرع خلاف الأمر و هو المنع و الزجر و الشرب - بالضمّ - اسم معروف و الخمر - في الأصل - الستر، و في الشرع كلّ شراب مسكر

يتخذ غالباً من العنب، فلا تختصّ بعصير العنب

في فروع الكافي: كتاب الأشربة، باب ما يتخذ منه الخمر، الحديث ١ بإسناده عن عبد الرحمن بن الحجاج عن أبي عبد الله ﴿ع﴾ قال: قال رسول الله ﴿ص﴾: «الخمر من خمسة: العصير من الكرم، والنقيع من الزبيب، والبتع من العسل، والمزر من الشعير، والنبيذ من التمر»

وسمّي خمراً لستره العقل، ومنه الخمار لأنّه يستر رأس المرأة

في نهج البلاغة في قول أمير المؤمنين الإمام علي ﴿ع﴾: «وترك شرب الخمر تحصيناً للعقل» من كلمات قصار ﴿ع﴾ ٦٠ ص ٢٤٤

وروى «أنّ ملكاً خيّر رجلاً بين أن يجامع أمّه أو يقتل نفساً مؤمناً أو يشرب الخمر حتّى يسكر، فرأى أنّ الخمر أهونها، فشرب حتّى سكر، فلمّا علته قام إلى أمّه فواقعها، وقام إلى تلك النفس المؤمنة فقتلها» ثمّ قال ﴿ع﴾: «الخمر مجمع الإثم، الخمر أمّ المعاصي»

الرجس كلّ ما يجب الاجتناب والتنزّه عنه، عيناً كالقذر والنجس، أو حكماً

قال الله تعالى: «إنّما الذين آمنوا إنّما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلّكم تفلحون» المائدة ٩٠،

وقال: «وأمّا الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم» التوبة ١٢٥،

وقوله ﴿ص﴾: «واجتناب القذف حجاباً عن اللعنة»

الاجتناب عن الشيء الابتعاد عنه «فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور» الحج ٣٠

والقذف الرمي والإلقاء والإسراع والشتم، يقال: قذفت بالحجارة رميت بها، و«قذف في قلوبهم الرعب» الحشر ٢

والحجاب الستر والمنع، فإنّ الحجاب يمنع المشاهدة «فاسألوهنّ من وراء حجاب» الأحزاب ٥٣

وقيل للبوّاب حجّاب وحاجب فإنّه يمنع من الدخول، ونعني الطرد والبعد عن

رحمة الله تعالى - «ألا لعنة الله على الظالمين» هود ١٨

وقولها صلوات الله عليها: «وترك السرقة إيجاباً للعفة»

إن الله تعالى جعل ترك السرقة إيجاباً للعفة عن التصرف في أموال الناس، وذلك أن العفة خلق شريف، والطمع خلق دنيء، فحرّم السرقة ليمرّن الناس على ذلك الخلق الشريف، ويجتنبوا ذلك الخلق الذميم، في عدم الطمع في أموال الناس

وفي نهج البلاغة في سنة توجيهات الإمام علي (ع): «ومجانبة السرقة إيجاباً للعفة»

وقولها سلام الله عليها: «وحرّم الله الشرك إخلاصاً له بالربوبية» «فاتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون» «وأطيعوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه فإنه إنما يخشى الله من عباده العلماء»

السرقة هو العمل الشنيع تموت معه الأمانة ويستوجب فعله العقاب

في نهج البلاغة قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) في صفة الدنيا: «ما أصف من دار أولها عناء، وآخرها فناء، في حلالها حساب، وفي حرامها عقاب» من كلامه (ع) رقم ٨١

الشرك على خمسة أنحاء، سبق ذكرها آنفاً، ومن لم يشرك بالله سبحانه مع جميع أنحاء الشرك، فقد أخلص لله بالربوبية، وكان ممن يعبد الله مخلصاً له الدين «هو الله ربي ولا أشرك بربي أحداً» و«ولا يشرك بعبادة ربه أحداً» الكهف ٣٨ و ١١٠ «فاعبد الله مخلصاً له الدين» الزمر ٢

في نهج البلاغة قال مولى الموحدين الإمام علي (ع): «واعلموا أن يسير الرياء شرك» الخطبة ١٩٥

الفصل التاسع: في تعريف نفسها سلام الله عليها، وبيان فضل أبيها وعظمة رسالته (ص): ثم قالت (ع)

«أيها الناس اعلموا أني فاطمة وأبي محمد (ص) أقول عوداً وبدواً، ولا أقول ما أقول غلطاً، ولا أفعل ما أفعل شططاً «لقد جاءكم رسول من أنفسكم

عزيز عليه ما عنتّم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم» فإن تعزوه و تعرفوه تجدوه أبي دون نسائكم، و أخا ابن عمّي دون رجالكم، و لنعم المعزيّ إليه ﴿ﷺ﴾

فبلّغ الرسالة صادعاً بالنذارة، مائلاً عن مدرجة المشركين، ضارباً ثبجهم، آخذاً بأكظامهم، داعياً إلى سبيل ربّه بالحكمة و الموعظة الحسنة، يكسر الأصنام، و ينكث الهام، حتّى انهزم الجمع و ولّوا الدبر، حتّى تفرّى الليل عن صبحه، و أسفر الحقّ عن محضه، و نطق زعيم الدين، و خرست شقاشق الشياطين، و طاح وشيظ النفاق، و انحلّت عُقَدُ الكفر و الشقاق، و فُهْتُم بكلمة الإخلاص في نفر من البيض الخماص»

الشرح

قوله ﴿ﷺ﴾ «أقول عوداً و بدءاً» أي أقول هذه الكلمة أوّلاً و آخراً، و أعود إليها مرّة بعد أخرى و لا أتركها بل ألازمها و أكرّرها، و في أقرب الموارد: عوداً و بدءاً، و عوده أحده ـ أي دون هذه الكلمة التي هي حقّ ثابت ـ أي حقيقة هذه الكلمة حقّة ثالثها ـ أي حقيقة هي حقّة رابعها ـ أي قولي حقّة من دون أي لا أشكّ في فاطمة أنّي قال فيها النبيّ ﴿ﷺ﴾ «فاطمة بضعة منّي» ثمّ لا أشكّ في نسب محمّد ﴿ﷺ﴾ و هو أبي، فلا تنكروا أمر ثلّة و عصمته في حقّ

و قولها سلام الله عليها: «و لا أقول ما أقول غلطاً» الغلط كلام خطأ يقع بالخلط و الالتباس لا يعرف وجه صواب فيه

في نهج البلاغة: «إن أمر المؤمنين لأبي عليّ ﴿ﷺ﴾ ـ في صحيفة ـ «فإن أكن بما أجلب فيه ليلتبس الأمر و يقع الشكّ» من كلامه ﴿ﷺ﴾ رقم ٧٣

و قولها صلوات الله عليها: «و لا أفعل ما أفعل شططاً»

الشطط ـ في الأصل ـ البعد، و الذي مصدر قولك شطّت الدار بعدت، ثمّ استعمل في البعد المعنوي، و التعدّي عن الحقّ و مجاوزة الحدّ و القدر في كلّ شيء و شطّ فلان في حكمه و أشطّ: إذا جار، و منه قوله تعالى: «فاحكم بيننا بالحقّ و لا تشطط» ص ٢٢)

و المراد من الشطط في قولها ﴿ﷺ﴾: أنّي لا أطلب فدكاً و لا أفعل فيها من المنازعة من باب التعدّي عن الحقّ و التجاوز عن القدر بل هي حقّ لازم على أن أطلبه و لا يسوغ لي أن أتركه.

ثمّ قرأت قوله تعالى: «لقد جاءكم رسول من أنفسكم» أي من جنسكم البشر، ثمّ من العرب، ثمّ من بني إسماعيل، ثمّ من أهل مكّة، ولم يزل ﴿ﷺ﴾ من نكاح طيّب لم يصبه شيء من ولادة الجاهليّة.

فالمعنى: إنّ الله تعالى قد منّ عليكم بكون رسوله ﴿ﷺ﴾ وهو نبيّ منكم، لأنّكم إذا عرفتم مولده ومنشأه وشاهدتموه صغيراً وكبيراً، وعرفتم حاله في صدقه وأمانته ووفائه، ولم تعثروا منه على شيء يوجب نقصاً فيه، فالحريّ أن تكونوا أسرع إلى القبول منه والانقياد له.

«عزيز عليه ما عنتّم» أي: شديد شاقّ عليه ﴿ﷺ﴾ عنتكم ولقاؤكم المكروه، وما يلحقكم من الضرر بترك الإيمان، ومعنى «حريص عليكم» حال كونه ﴿ﷺ﴾ حريصاً على إيمانكم وصلاح شأنكم، حتّى لا يخرج أحد منكم عن دينه أبدى جهده به ﴿ﷺ﴾ «بالمؤمنين رؤوف رحيم» منكم ومن غيركم.

وقولها ﴿عليها السلام﴾: «فإن تعزوه» أي إنّكم إن نسبتم رسول الله ﴿ﷺ﴾ وعرفتموه «تجدوه أبي دون نسائكم وأخا ابن عمّي دون رجالكم» أي شرف الانتساب إلى رسول الله ﴿ﷺ﴾ هو مخصوص بنا نساءً ورجالاً لا لكم، ولا هو مشترك بيننا وبينكم، فلم تعرفوا مرتبتنا، وتغتصبون حقّ خلافتنا وتعترضون في فدك التي نحلها أبي بأمر الله تعالى «وآت ذا القربى حقّه»، وذكر الأخوّة في مقام ذكر النسب استطراد.

وقولها سلام الله عليها: «ولنعم المعزيّ إليه» أي إنّ نسبتي إلى رسول الله ﴿ﷺ﴾ وانتسابي فإنّ مخصوصة بتلك النسبة من بين النساء لأنّه أبي دون نسائكم.

وقولها صلوات الله عليها: «فبلّغ بالرسالة صادعاً بالنذارة» فبلّغ أبي رسول الله ﴿ﷺ﴾ رسالته، وأظهر وأعلن ما أمره الله تعالى به. «فاصدع بما تؤمر» الحجر ٩٤، وأنذر الناس وخوّفهم عن عقابه. فكان شأنه ﴿ﷺ﴾ الهداية إلى الحق والصواب، والإنذار عن الباطل واتّباع الهوى، قال الله تعالى: «إنّما أنت منذر ولكلّ قوم هاد» الرعد ٧، والنذارة ما ينذر به من الإنذار بمعنى الإعلام على وجه التخويف.

وقولها ﴿ﷺ﴾: «مائلاً عن مدرجة المشركين» أي معرضاً عن مسلك المشركين

الباطل، و مذهبهم الفاسد «و أعرض عن المشركين» (الحجر ٩٤).

و قولها سلام الله عليها «ضارباً ثبجهم» الثبج ـ في الأصل ـ ما بين الكاهل و الظهر، ثبج الشيء وسطه و معظمه، و ثبج البحر معظم مائها.

و المراد من ثبج المشركين معظم جماعتهم عدداً و عُدداً، أو المراد أعاظمهم و رؤساؤهم أي أنّ رسول الله ﴿ﷺ﴾ أضرب عن طريقتهم الضلالة، و ضربهم على آخرهم على مناخرهم فأهلكهم و قمعهم و صرعهم و صرمهم.

و قولها صلوات الله عليها «آخذاً بكظامهم» الأكظام ـ جمع الكَظَم ـ و هو مخرج النَّفَس من الحلق، و كظم الغيظ تجرّعه، و احتمال الضّر عليه، و هو قادر على إمضائه، كأنّه يدخله من مخرج نفسه إلى صدره فلا يظهر أثره.

قال الله تعالى «و الكاظمين الغيظ» (آل عمران ١٣٤) أي الحابسين غيظهم المجترّ عليه

و المراد أنّ رسول الله ﴿ﷺ﴾ كان شديداً صلباً في تبليغ الرّسالة و أمر الدّين، فلا يبالي بكثرة المشركين، و لا يداريهم في أمر الدّعوة إلى كلمة التّوحيد و توحيد الكلمة، و المجاهدة في سبيل الله تعالى مع الخاصّ و العامّ.

قال الله عزّ و جلّ «فلذلك فادع و استقم كما أُمرت و لا تتّبع أهواءهم و قل آمنت بما أنزل الله من كتاب و أُمرت لأعدل بينكم الله ربّنا و ربّكم» (الشورى ١٥).

و قولها ﴿ﷺ﴾ «داعياً إلى ربّه بالحكمة و الموعظة الحسنة» إشارة إلى قوله تعالى خطاباً لرسوله ﴿ﷺ﴾ «ادع إلى سبيل ربّك بالحكمة و الموعظة الحسنة و جادلهم بالّتي هي أحسن» (النحل ١٢٥) فكان رسول الله ﴿ﷺ﴾ يدعو الخواصّ بالحكمة و هي البراهين القاطعة، و يدعو العوامّ بالموعظة الحسنة و هي الخطابات المقنعة و العبر النّافعة، و بالمجادلة الّتي هي أحسن لإلزام المعاندين الجاحدين بالمقدّمات المشهورة و المسلّمة.

و قولها سلام الله عليها: «يكسر (بفتح ح، و (سكون ح) و (تعدّ ح)) الأصنام و ينكت (بكسر ح) الهام» كان رسول الله ﴿ﷺ﴾ يكسر أصنام المشركين، و ينكت رؤساءهم و يقمعهم و يذلّهم أو يلقي الأصنام على رؤوسها يقال نكته على هامته إذا ألقاه على رأسه.

و قولها ﴿ﷺ﴾: «حتّى انهزم الجمع و ولّوا الدّبر»

الانهزام من الهزم ـ في الأصل: التكسير. يقال: هزمت الحشيش هزماً، وهزمت القوم هزماً: كسرتهم فانكسروا، و«فهزموهم بإذن الله» (البقرة: ٢٥١) أي كسروهم، وهزم الأحزاب وحده: كسرهم. و«الجمع» الجماعة. و«تولّيه» من تولّى الإعراض عنه. و«الدُّبر» خلاف القُبُل. وتولية الدبر كناية عن الإدبار والانصراف. وهزيمة الجماعة وتولية الدبر للمشركين كما أخبر الله تعالى رسوله (ص) بهزيمتهم في قوله: «سيهزم الجمع ويولّون الدبر» (القمر: ٤٥).

وقولها سلام الله عليها: «حتى تفرّى الليل عن صبحه» تفرّى ـ من الفري ـ: الكشف والشقّ. والمعنى: تفرّى الليل عن صبحه: انكشف. كأنّ الليل شيء ينشقّ فيظهر من بين شقّه وجه الصبح، وضوء الصباح.

والمراد به (ص): ظلمة الجاهلية التي ... وتحقّق النور الذي ظهر بظهوره (ص) والصبح في المعنى: زال ... رسول الله (ص) ظلمة الجاهلية ببعثه، وطلع بطلوعه صبح الشريعة الغرّاء.

في نهج البلاغة: قال مولى الموحدين أمير المؤمنين الإمام علي (ع) ـ في ذكر النبي الكريم (ص) ـ: «اختاره من شجرة الأنبياء، ومشكاة الضياء، وذؤابة العلياء، وسرّة البطحاء، ومصابيح الظلمة، وينابيع الحكمة» (الخطبة ١٠٨).

وقولها صلوات الله عليها: «وأسفر الحقّ عن محضه».

الإسفار: الانكشاف. يقال: أسفر الصبح إذا انكشف وأضاء. قال الله تعالى: «والصبح إذا أسفر» (المدثر: ٣٤) وأسفر الوجه إذا علاه جمال.

في نهج البلاغة: قال سيّد الوصيّين الإمام علي (ع) ـ في وصيّته لابنه الحسن (ع) كتبها إليه ـ: «رويداً يُسفِرُ الظلامُ كأن قد وردت الأظعانُ..» من كتبه (ع) (٣١) أي ينكشف الظلام.

المحض: الخالص الذي لا يشوبه شيء. إسفار الحقّ عن محضه: انكشافه عن خالصه حتّى ظهر خالصه. شبّه ظاهر الحقّ بالقشرات والمحض باللبّ، وأنّ رسول الله (ص) أظهر حقيقة الحقّ، وأزال الستر عن وجه باطنه، حتى ظهر لبّه وباطنه وخالصه.

في نهج البلاغة: قال إمام المتقين علي بن أبي طالب (ع) ـ لبعض أصحابه ـ: «إنّ

ترتفع عنّا وعنهم محنُ البلوى أحملهم من الحقّ على محضه» من كلامه (ع) رقم ١٦١

وقولها (ع): «وأنطق زعيم الدّين»

الزعيم لقوم سيّدهم والمتكلّم عنهم من الزعامة بمعنى السيادة والزّعيم الكفيل كقوله تعالى حكاية عن مسؤول الملك: «وأنا به زعيم» يوسف ٧٢ أي كفيل ولعلّ المعنى الأوّل متفرّع منه، لكونه زعيمه كفيله

والمعنى: وانطلق رسول الله (ص) بالحقّ والظهور، وهو زعيم الدّين وكفيله

في عوالي اللآلي: روى أبو أمامة الباهلي: أنّ النّبيّ (ص) خطب يوم فتح مكّة فقال «العارية مردودة، والمنحة مردودة، والدّين مقضيّ، والزّعيم غارم» أي ضامن و كفيل.

وقولها عليها آلاف التّحيّة والثناء «وخرست شقاشق الشّياطين»

خرس الإنسان منع الكلام خلقة، وأخرسه الله تعالى لا يستطيع أن يتكلّم، وسحابة خرساء ليس فيها رعد ولا برق

في نهج البلاغة قال مولى الموحّدين الإمام عليّ (ع): «الفقرُ يُخرِسُ الفَطِنَ عن حجّته» من كلمات قصاره رقم ٣

وفيه قال إمام المتّقين عليّ بن أبيطالب (ع) ـ في الموتى ـ: «ولكنّهم سُقُوا كأساً بدّلتهم بالنّطق خَرَساً ـ وخرسوا عن جواب السّائلين عنه» من كلامه (ع) رقم ٢١٢

وفيه: «وقد جمع النّاس وحضّهم على الجهاد فسكتوا مليّاً فقال (ع): مُخرَسون أنتم؟» من كلامه (ع) رقم ١

الشّقاشق ـ جمع الشِّقشِقة ـ وهي شيء كالرّئة يخرجها البعير من فيه إذا هاج

وإذا قالوا للخطيب ذو شقشقة فإنّما يشبّه بالفحل، وشقشق الفحل هدر، و العصفور تشقشق في صوته شبّه فصيح المنطق بالفحل الهادر، ولسانه بشقشقته

ونسبها إلى الشّيطان لما يدخله من الكذب والباطل وكونه لا يبالي بما قال

إنّ المراد من شقاشق الشّياطين ألسنة المشركين الّذين كانوا يصوّتون بالأباطيل في الاُمور الدّينيّة

و الخطبة الشقشقية هي الثالثة من خطب أمير المؤمنين الإمام علي ﴿عليه السلام﴾ في نهج البلاغة، و قد سمّيت بذلك لقوله ﴿عليه السلام﴾ في آخرها: «هيهات يا ابن عبّاس تلك شقشقة هدرت ثمّ قرّت»

و قولها سلام الله عليها «و طاح و سيظ النّفاق»

طاح فلان هلك أو أشرف على الهلاك. و طاح في الأرض سقط و قطع أعضائه

في نهج البلاغة: قال أمير المؤمنين الإمام علي ﴿عليه السلام﴾ «قد طوّحت بكم الدار» أي أهلكتكم الدّنيا

و فيه قال سيّد الوصيّين الإمام علي ﴿عليه السلام﴾ «و نظم نشو العدو و الأعداء» أي تقطع الوشيظ الرّذل و الشقّه من النّاس و بنو فلان وسيظة في قومهم هم حشوتهم و النّفاق فعل المنافق لأنّه يتظاهر بما لا يعتقد به فيتظاهر بالإسلام، و يبطن بالكفر

و المراد أنّه هلك من جهة ظهور النّبيّ ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ و قوّة الإسلام و مجاهدة أهل الإيمان، القوم الأراذل الّذين احتقروا النّفاق، أو هلك أشراف أهل النّفاق و رؤوسهم، أو هلك الكفّار و المنافقون الّذين توغّلوا في الكفر و النّفاق

و قولها صلوات الله عليها «و انحلّت عُقد الكفر و الشّقاق»

الانحلال ـ من الحلّ ـ: خلاف العَقد

في نهج البلاغة: قال إمام المتّقين علي بن أبي طالب ﴿عليه السلام﴾ ـ في بني أُميّة ـ «و لا عقداً إلاّ حلّوه»

و فيه: قال أمير المؤمنين الإمام علي ﴿عليه السلام﴾ ـ في الشيطان ـ «إنّ الشيطان يُسنّي لكم طُرُقه، و يريد أن يحلّ دينكم عُقدة عُقدة...» من كلامه ﴿عليه السلام﴾ رقم: ١٢٠)

و العُقد ـ جمع العُقدة ـ ما يُعقد به. قال الله تعالى حكاية عن موسى ﴿عليه السلام﴾ «و احلل عقدة من لساني» طه. ٢٧)

و الشّقاق ـ من الشقّ ـ المعاداة لانشقاق بينهما. قال الله تعالى «و إن خفتم شقاق بينهما» النساء ٣٥) أو لكون من المتنازعين في شقّ أي طرف، غير شقّ الآخر. قال الله تعالى «و من يشاقق الرّسول من بعد ما تبيّن له الهدى و يتّبع غير سبيل المؤمنين نولّه ما تولّى و

نصله جهنّم و ساءت مصيراً»(النساء: ١١٥)

في نهج البلاغة قال سيّد الوصيّين الإمام عليّ ﴿ع﴾ ـ في ذمّ البصرة و أهلها ـ «كنتم جند المرأة، و أتباع البهيمة، رغا فأجبتم، و عُقر فهربتم، أخلاقكم دقاق، و عهدكم شقاق، و دينكم نفاق، و ماؤكم زعاق» من كلامه ﴿ع﴾ رقم: ١٣)

و معنى قوله سلام الله عليه «و انحلّت عقد الكفر و الشّقاق» و انحلّت و اضمحلّت أعلام المعاندة و الشّقاق، فلم يبق في ديارهم ديّار، و لا من دمنها آثار، و ذلك الأسباب الّتي من جهتها استحكمت آثار الكفر و الشّقاق قد ذهبت و ضعفت حتّى اضمحلّت فإنّ الانحلال كناية عن الوهن و الضّعف و الفتور، و العقد كناية عن الاستحكام، فالانحلال بمنزلة النّقض، و العقد بمنزلة الإبرام.

و قوله ﴿ع﴾ «و فُهتُم بكلمة الإخلاص»

فاه فلان بالكلام لفظ به تفوّه بفمه

في نهج البلاغة قال إمام المتّقين عليّ ﴿ع﴾ «قلب الأحمق في فيه و لسان العاقل في قلبه» و في الخبر «و لمّا نفوّه تشبع» دخل في فوّه، فشبّهه بالفم لأنّه أوّل ما يدخل منه إلى الجوف المفوّه البليغ المنطيق

في الإختصاص: ـ في حديث الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﴿ع﴾ «و إن جامعتها ليلة الجمعة و كان بينكما ولد يكون خطيباً قوّالاً مفوّهاً»

و معنى الجملة و تفطّنتم بكلمة الإخلاص و هي كلمة التّوحيد «لا إله إلاّ الله» و فيه تعريض بأنّه لم تكن كلمة التّوحيد ثابتة في قلوبكم، و لمّا يدخل الإيمان فيها كقوله تعالى «قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا و لكن قولوا أسلمنا و لمّا يدخل الإيمان في قلوبكم» الحجرات: ١٤)

و قوله صلوات الله عليه «في نفر من البيض الخِماص»

النّفر هم رهط الإنسان و عشيرته، إسم جمع يقع على جماعة من الرّجال خاصّة، و لا واحد من لفظه

قال الله عزّ و جلّ «فلو لا نفر من كلّ فرقة منهم طائفة ليتفقّهوا في الدّين» التّوبة: ١٢٢)

و البيض – جمع أبيض و بيضاء – خلاف الأسود، من الناس و غيرهم

في نهج البلاغة قال مولى الموحّدين أمير المؤمنين الإمام علي ﴿ع﴾ – في وصف الملائكة – : «فهي كرايات بيض قد نفذت في مخارق الهواء» الخطبة ٩٠

الخماص – جمع خميص – ضامر البطن من الخماصة و هي دقّة البطن خِلقةً أو من جهة خلوّها عن الطعام و نحوه. يقال فلان خميص البطن من أموال الناس بالباطل

في اصول الكافي بإسناده عن ابن أبي يعفور عن أبي عبد الله ﴿ع﴾ قال: «إنّ شيعة علي ﴿ع﴾ كانوا خمص البطون» كناية عن قلّة الأكل أو كثرة الصوم، أو لعفّة عن أكل أموال الناس بالباطل أي عفيف عنها

و في البيض الخماص وجوه منها: هم أهل بيت النبوّة عليهم السلام و يؤيّده ما في كشف الغمّة: في مدح من البيض الخماص الذين أذهب الله عنهم الرجس و طهّرهم تطهيراً، و وصفهم بالبيض لبياض وجوههم و كناية عن شرفهم و عزّهم عن غيرهم من قبيل وصف الرجل بالأغرّ، و هو البياض في جبهته و أحسابهم، أو هو البياض طينتهم و خلوص نسبهم، و المراد بالخماص كونهم ضامري البطون بالصوم و قلّة الأكل، أو لعفّتهم عن أكل أموال الناس بالباطل

و منها: أنّ الأمر من حكم كسان النبي صلوات الله تعالى عليه و عترته و يقال لأهل فارس البيض لغلبة البياض على ألوانهم و من هم الذين تعتب في أمورهم العفّة، كما يقال لأهل الشام الحمر لحمرة ألوانهم و غلبة الذهب في أموالهم

و الظاهر عندنا نوع من التخصيص في المخاطبين، فيكون المراد بهم غير الراسخين المتمسكين في الإيمان، و البيض الخماص كناية، و حرف «في» حينئذ للمصاحبة بمعنى «مع» و يجوز حمل الخطاب عامّاً، و «في» بمعنى «على» بتقدير معنى الاشتمال

الفصل الثامن: في انحطاط المخاطبين قبل الإسلام، و نجاتهم من الانحطاط بأبيها و فضل زوجها عليهم السلام، و كنتم على شفا حفرة من النار مذقة الشارب، و نهزة الطامع، و قبسة العجلان، و موطئ الأقدام، تشربون الطرق، و تقتاتون الورق [illegible] أذلّة خاسئين، تخافون أن يتخطّفكم الناس من حولكم» فأنقذكم الله تبارك و تعالى

محمّد ﴿ص﴾ بعد اللّتيا والّتي، وبعد أن مُني ببُهم الرّجال وذؤبان العرب، ومردة أهل الكتاب «كلّما أوقدوا نارًا للحرب أطفأها الله» أو نجم قرنٌ للشّيطان، أو فغرت فاغرة من المشركين قذف أخاه في لهواتها، فلا ينكفئ حتّى يطأ صماخها بأخمصه، ويُخمد لهبها بسيفه، مكدودًا في ذات الله، مجتهدًا في أمر الله، قريبًا من رسول الله، سيّدًا في أولياء الله، مشمّرًا ناصحًا مجدًّا كادحًا، لا تأخذه في الله لومة لائم.

وأنتم في رفاهية من العيش، وادعون فاكهون آمنون، تتربّصون بنا الدّوائر، وتتوكّفون الأخبار، وتنكصون عند النّزال، وتفرّون عند القتال»

الشّرح: شفا كلّ شيء طرفه وشفيره.

وكنتم معشر النّاس على شفا حفرة من نار جهنّم مشرفين على دخولها، وتهوون فيها بشرككم وعقائدكم بكفركم وضلالتكم، وبعملكم وأفعالكم فلو أدرككم الموت في تلك الأحوال لوقعتم في نار جهنّم، فما بقي بينكم وبينها إلّا الموت.

فأشارت لقصّتهم بهذه الجملة الزّهراء سلام الله عليها إلى قوله: «واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرّقوا واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانًا وكنتم على شفا حفرة من النّار فأنقذكم منها» آل عمران ١٠٣. بأن أرسل إليكم محمّدًا رسوله ﴿ص﴾ فهداكم إلى الحقّ والرّشاد والخير والصّلاح، ودعاكم إلى الإيمان ونجّاكم من النّار، فصرتم بعيدين منها.

قال الله تعالى: «فأنقذكم منها» مع أنّهم لم يدخلوا فيها بعد، لكونهم بمنزلة من دخل فيها من حيث استحقاقهم الدّخول وإشرافهم عليها.

في روضة الكافي بإسناده عن محمّد بن محمّد بن خالد عن أبيه عن أبي عبد الله ﴿ع﴾ قوله تعالى: «وكنتم على شفا حفرة من النّار فأنقذكم منها» بمحمّد ﴿ص﴾ هكذا والله نزل بها جبرئيل ﴿ع﴾ على محمّد ﴿ص﴾».

وقولها صلوات الله عليها «مذقة الشّارب»

الذّوق في الأصل: إدراك طعم الشّيء وسطحه بالرّطوبة المنبثّة بالعصب المفروش على عضل اللّسان، وقد يطلق على نفس تلك القوّة، وعلى القوّة المدركة الّتي لها اختصاص

بإدراك لطائف الكلام، و وجوه محاسنه الخفيّة. و يقال: ذاق ما عنده خبرته و جرّبته و أذاقه الله وبال أمره: أصابه.

قال الله تعالى: «ثمّ إذا أذاقهم منه رحمة... و إذا أذقنا النّاس رحمة فرحوا بها... ليذيقهم بعض الّذي عملوا» (الروم: ٣٣ و ٣٦ و ٤١)

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين عليّ بن أبي طالب (عليه السلام): «و السّادس أن تذيق الجسم ألم الطّاعة كما أذقته حلاوة المعصية»

و «مُذقة الشّارب»: شربته، و هو ما يذاق و يشرب بسهولة، مثل الغُرفة بمعنى ما يُغرَف. و المراد من كونهم مذقة الشّارب كونهم ممّن يشربهم النّاس بسهولة. و المُذقة شربة اللبن الممزوج بالماء.

و قولها سلام الله عليها: «و نُهزة الطّامع»

نهز فلان رأسه حرّكه و نحضه دفعها في الشّعر و نهز بيده ينهض ليتناوله. النُّهزة الفرصة، و انتهز الفرصة اغتنمها و بادر وثبها. و نُهزة الفرصة محلّ الحركة و العمل بالشّيء، و زمان المهلة، و نفس المهمة.

في نهج البلاغة عن سيّد الوصيّين الإمام عليّ (عليه السلام): «فانتهزوا فُرَص الخير» أي اغتنموها.

و فيه عن الإمام المتّقين عليّ بن أبي طالب (عليه السلام): «و ينتهزوا فُرَصتها من لا حريجة له في الدّين» أي يبادر إلى افتراصها، و يغتنمها من ليس لديه حرج في الدّين.

و فيه قال أمير المؤمنين عليّ (عليه السلام): «حطام نهب» الانتهاز: الاختلاس، أي المال يختلسه. و المراد من كون المشركين نهزة الطّامع كونهم محلّ نهزته كناية عن قلّتهم و ذلّتهم أي كنتم أذلّاء قليلين يكاد أن يخطفكم النّاس بسهولة.

و قولها (عليها السلام): «و قبسة العجلان»

القُبسة شعلة من نار تقتبس من معظمها، الاقتباس: الأخذ منها.

قال الله تعالى: «إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إنّي آنست نارا لعلّي آتيكم منها بقبس أو أجد على النّار هدى» (طه: ١٠)

و قال: «يوم يقول المنافقون و المنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم» (الحديد: ١٣)

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين الإمام علي (عليه السلام): «و آخر قد تسمّى عالماً و ليس به، فاقتبس جهائل من جهّال و أضاليل من ضلّال» (الخطبة ٨٦).

و فيه قال سيّد الوصيّين الإمام علي (عليه السلام): «حتّى أورى قبس القابس» (الخطبة ٧١) أي أظهر نوراً من الحقّ لطالبه و القابس طالب النار و آخذها، و كذلك المقتبس و قد يستعار لطالب العلم.

و فيه قال إمام المتّقين علي بن أبي طالب (عليه السلام): «و إنّه لمقتبس المرتاد في مدّة الأجل، و مضطرب المهل» (الخطبة ١٢)

و «العجلان» صفة من العجلة و إضافة «قبسة» إلى «العجلان» بيان لقلّة المشركين و حقارتهم و مخاطبتهم أي كنتم قبسة العجلان، مختصّ لا معنى لكم، يكاد أن يخطفكم الناس بسهولة و «قبسة العجلان» الشعلة من النار التي يأخذها الرجل العاجل مثلٌ في الاستعجال.

و قولها عليها آلاف التحيّة و الثناء: «و موطئ الأقدام»

مثل مشهور في الانحطاط و الحقارة و الذلّة و المغلوبيّة و الأقدام جمع القدم، و موطئها محلّ وطئها.

قال الله تعالى: «و لا يطئون موطئاً يغيظ الكفّار» (التوبة ١٢٠)

و في نهج البلاغة قال إمام المتّقين علي بن أبي طالب (عليه السلام) ـ في الكفّار و المشركين ـ «اتّخذهم إبليس مطايا ضلال ـ فجعلكم مرمى نبله و موطئ قدمه و مأخذ يده» (الخطبة ٢٣٤)

و قولها (عليها السلام): «تشربون الطّرق»

الطّرق ماء السّماء الذي تبول به الإبل و تبعر و تجول فيه

إنّ في الخطبة إشارة إلى قول مولى الموحّدين أمير المؤمنين الإمام علي (عليه السلام)

في نهج البلاغة: «تشربون الكدر» (الخطبة ٢٦) أي تشربون الكدر قبل البعثة

وقولها سلام الله عليها: «وتقتاتون القِدّ» أو الورق»

الاقتيات: اتخاذ القوت لنفسه و«القِدّ»: سيرٌ يُقدّ من جلد غير مدبوغ، كناية عن كون أكلهم الأشياء الخشنة كالورق والقدّ كون شربهم من الماء الخبيثة كالنقيع والطرق والمراد من الجملة وصفهم بخباثة المشرب وخشونة المأكل بعد ما قد يصل بهم إلى ما يصح في دفع جوعهم لفقرهم وقلة ذات يدهم وخوفهم من الأعادي.

والمراد من الورق ورق الشجر والمراد بالقدّ ... جلد غير مدبوغ و ... في الشمس وفي الخطبة الشقشقية ... أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ

في نهج البلاغة: «ولا تكون حشيش»

وقولها سلام الله عليها: «أذلة خاسئين»

كنتم يا معشر الناس قبل بعثة النبي محمد ﷺ أذلّاء ... من كل حجر وصوب وبعثه في ...

في نهج البلاغة قال مولى الموحدين أمير المؤمنين الإمام علي ﷺ في ذكر رسول الله ﷺ: «دفن الله به الضغائن، وأطفأ به الثوائر، ألّف به إخوانًا، وفرّق به أقرانًا، أعزّ به الذلة، وأذلّ به العزة» الخطبة ٩٥

وقولها ﷺ: «تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم»

التخطّف: استلاب الشيء بسرعة، وأخذه بسرعة من خطف الشيء ... بسرعة

قال الله تعالى: «إلا من خطف الخطفة» الصافات: ١٠ ... من كلام الملائكة ... ونتخطّف الناس من ...

في نهج البلاغة من كتاب له ﷺ إلى بعض عماله:

«فلما أمكنتك الشدّة في خيانة الأمة أسرعت الكرّة، وعاجلت الوثبة، واختطفت ما قدرت عليه من أموالهم المصونة لأراملهم وأيتامهم اختطاف الذئب الأزلّ دامية المعزى الكسيرة» الكتاب ٤١

و«من حولكم» أي من حولكم ... كناية عن الجماعة والأخذ على الوجه الأكمل

و كلامها (ع) مقتبس من قوله عزّ و جلّ: «و اذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطّفكم النّاس فآواكم و أيّدكم بنصره و رزقكم من الطّيّبات لعلّكم تشكرون» (الأنفال ٢٦).

في البحار قال المجلسي رحمه الله تعالى عليه: «و في نهج البلاغة عن أميرالمؤمنين (ع): أنّ العرب في بيت لا يدفع عن حوزته، و المراد بالنّاس سائر العرب أو الأعم»

و قولها عليها سلام الله: «فأنقذكم الله تبارك و تعالى بمحمّد (ص)»

إشارة إلى قول مولى الموحّدين بأنّه المنقذ للأمّة علي (ع)

في نهج البلاغة: «إلى أن بعث الله سبحانه محمّداً رسول الله (ص) لإنجاز عدته و تمام نبوّته... فهداهم به من الضّلالة و أنقذهم بمكانه من الجهالة» (الخطبة الأولى)

و قولها صلوات الله عليها: «بعد اللّتيا و الّتي»

«اللّتيا» تصغير الّتي، و هما كنايتان عن الدّاهية الصّغيرة و الكبيرة، و قد كنّي عن الكبيرة بلفظ التّصغير تشبيهاً بالحيّة فإنّها إذا كثر سمّها صغرت لأنّ السّمّ يأكل الجسد، حيث إنّ السّمّ يشرب ماء البدن

و قال ابن ميثم في شرح نهج البلاغة: اللّتيا و الّتي كمثل، و أصله أنّ رجلاً تزوّج امرأة قصيرة سيّئة الخلق فقاسى منها شدائد فطلّقها، و تزوّج طويلة بعد ذلك، فقاسى منها أضعاف ذلك فطلّقها، ثمّ قيل له: هل تزوّج؟ فقال: بعد اللّتيا و الّتي لا أتزوّج أبداً

و قيل إنّ اللّتيا كناية عن الحقيرة و الّتي كناية عن العظيمة، و المراد بعد نقضه الصّغيرة و الطّويلة نظير قولهم قصيرة و طويلة، كناية عن الإجمال بعد التفصيل، و التقصير بعد التطويل

و قولها (ع): «و بعد أن مُني ببهم الرّجال»

مُني - مجهول - بلي

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين علي بن أبي طالب (ع): «فمُني النّاس لعمر الله بخبط و شماس» (خطبة الشقشقية) أي ابتلي النّاس بعد رسول الله (ص)

يسير على غير جادّة الحقّ، و يحار عن الهدى

و «البُهَم» جمع بُهْمَة ـ كغُرَف و غُرْفة ـ و هو الشجاع الّذي لا يُهتدى، و من أين يُؤتى و البُهَم الشجعان منهم لأنّهم لشدّة بأسهم لا يُدرى من أين يُؤتون و منه أمرٌ مُبْهَم لا مأتى له

في نهج البلاغة قال سيّد الوصيّين الإمام عليّ (ع): «صدّ الشرور بالعظيمة و الوضوح بالبُهْمَة...» الخطبة: ٢٢٨.

و قولها عليها سلام الله: «و ذؤبان العرب»

«ذؤبان» جمع ذئب، أي لصوص العرب و صعاليكهم الّذين يتلصّصون لا أمان لهم، و لا اعتماد عليهم، و يسلبون من الناس أموالهم تشبيهاً بالذئب في تلك الأوصاف

في نهج البلاغة قال مولى الموحّدين إمام المتّقين عليّ بن أبي طالب (ع): «و كان أهل ذلك الزمان ذئاباً» الخطبة: ١٠٧

و قولها عليها السلام: «و مردة أهل الكتاب»

مردة ـ جمع مارد ـ من مَرَد على فهو مارد قال الله تعالى: «مردوا على النفاق» التوبة: ١٠١

أي عتوا و استمرّوا عليه و منه المريد بمعنى العاتي في قوله سبحانه «شيطان مريد» الحجّ: ٣

و يعني العاري عن الخير، و الظاهر أنّه من قولهم شجرة مرداء إذا سقط ورقها، و ظهرت عيدانها، و رملة مرداء لا نبت فيها، و مكان أمرد لا نبات فيه، و غصن أمرد لا ورق عليه، و غلام أمرد لا شعر في وجهه

و مَرُدَ الرجل ـ من باب كرم ـ مرادة صار عاتياً شديداً

و المراد من مردة أهل الكتاب عتاتهم المتكبّرون المتجاوزون عن الحدّ الّذي قرّروا عليه و المراد من أهل الكتاب هم اليهود و النصارى و المجوس

في فروع الكافي ـ كتاب الزكاة ـ باب صدقة أهل الجزية ـ حديث: ٤ «سُئل أبو عبدالله (ع) عن المجوس أكان لهم نبيّ؟ فقال: نعم أما بلغك كتاب رسول الله (ص) إلى

أهل مكة أن أسلموا وإلّا نابذتكم بحرب، فكتبوا إلى رسول الله (ص) أن خذ منّا الجزية ودعنا على عبادة الأوثان، فكتب إليهم النبي (ص) إنّي لست آخذ الجزية إلّا من أهل الكتاب، فكتبوا إليه يريدون بذلك تكذيبه: زعمت أنّك لا تأخذ الجزية إلّا من أهل الكتاب، ثمّ أخذت الجزية من مجوس هجر، فكتب إليهم النبي (ص) أنّ المجوس كان لهم نبيّ فقتلوه وكتاب أحرقوه، أتاهم نبيّهم بكتابهم في اثني عشر ألف جلد ثور»

قوله (ع): «هجر» بلد بقرب المدينة وقيل موضع بالبحرين.

وفي التواريخ أنّ نبيّ المجوس كان يسمّى زردشت الحكيم المعروف، وقد سبق منّا تعريفه في تفسير سورة «الحج» فراجع.

وقولها عليها السلام: «كلّما أوقدوا نارًا للحرب أطفأها الله» (الآية من سورة المائدة 64)

الايقاد: الإشعال، من أوقدت النار: أشعلتها، والوقود: ما توقد به كالحطب ونحوه.

والمعنى: لأنّه تكريمه كلّما أوقد هؤلاء المشركون نار الحرب مع النبي رسول الله (ص) أطفأها الله تعالى ببعض نصره من عنده، كإطفاء النار بالماء، وقد أشار الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) إلى ذلك في كتبه إلى معاوية

في نهج البلاغة: «فأراد قومنا قتل نبيّنا، واجتياح أصلنا، وهمّوا بنا الهموم، وفعلوا بنا الأفاعيل، ومنعونا العذب، وأحلسونا الخوف، واضطرّونا إلى جبل وعر، وأوقدوا لنا نار الحرب، فعزم الله لنا على الذبّ عن حوزته، والرمي من وراء حرمته» (رقم الكتاب 9)

وقولها سلام الله عليها: «أو نجم قرن للشيطان»

نَجَمَ الشيء: طلع وظهر.

في نهج البلاغة قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع): «فنجمت الحال من السرّ الخفيّ إلى الأمر الجليّ، واستفحل سلطانه عليكم، ودقّ عمود دينكم» (خطبة القاصعة 234)

يقال فلان منجم الباطل والضلالة أي منشؤهما ومظهرهما

والمراد بقرن الغوة وقرن الشيطان جنوده وأعوانه، والمراد به وأتباعه والمعنى واحد

في نهج البلاغة في سند توصيف الإمام علي (ع): «وأوصيكم بتقوى الذي أعذر بما أنذر، واحتج بما نهج، وحذركم عدواً نفذ في الصدور خفياً، ونفث في الآذان نجياً، فأضل وأردى، ووعد فمنّى، وزين سيئات الجرائم، وهوّن موبقات العظائم، حتى إذا استدرج قرينته واستغلق رهينته، أنكر ما زين، واستعظم ما هوّن، وحذّر ما أمّن» (الخطبة ٨٢)

وقولها عليها السّلام: «أو فغرت فاغرة من المشركين»

فغر فلان فاه: فتحه، وفغر النجم: ظهر ظهوراً، وطلع في ...، لأن الثريا إذا كانت ... من نظر إليه فغر فاه

وفي حديث موسى (ع): «فإذا هي حية عظيمة فاغرة فاها»

وفي مستدرك الوسائل عن رسول الله (ص): «إن الأفعى لترحل فاغرة فاها إلى ربه يقول اللهم ارحمني، وعزتك غضبت»

فاغرة من المشركين: طائفة العادية العاتية منهم، تشبيهاً بالحية أو بالسّبع

والمعنى انفتحت وظهرت طائفة عاتية طاغية عادية من المشركين فيها

في نهج البلاغة - لما استشار أمير المؤمنين الإمام علي (ع) في الخروج للقتال -: «قد فغرت فاغرته، وثقلت في الأرض وطأته، بعيد الجولة، عظيم الصّولة.» (الخطبة ١٣٨)

وقولها سلام الله عليها: «قذف أخاه في لهواتها»

القذف: الرمي بالحجارة، كما أن الحذف يستعمل في الحصى. يقال: هم بين قاذف وحاذف. وقذف المحصنة: رماها بالفاحشة. وقذف بقوله: تكلم به من غير تدبر ولا تأمل. قال الله تعالى: «بل نقذف بالحق على الباطل» (الأنبياء: ١٨) أي نلقي به في ... وقذف الماء في الإناء: طرحه فيه. قال سبحانه: «فاقذفيه في التابوت» (طه: ٣٩) أي ضعيه وألقيه فيه

اللهوات جمع لهاة، وهي اللحمة الحمراء المشرفة على الحلق في أقصى سقف الفم

في نهج البلاغة قال مولى الموحدين أمير المؤمنين الإمام علي ﴿ع﴾ «وكلّم موسى تكليماً وأراه من آياته عظيماً بلا جوارح ولا أدوات ولا نطق ولا لهوات» الخطبة ١٨٢

وفيه من كتابه ﴿ع﴾ إلى بعض عماله «وشُدّ بها عقد شعر غوف» نهج كتاب ٤٦

اللُّهْوَة ما يلقيه الطّاحن في فم الرّحى بيده

وقولها ﴿ع﴾ «وقذف أخاه» تعني به زوجها أمير المؤمنين علي ﴿ع﴾ والمراد أنّ رسول الله ﴿ص﴾ كلّما أرادت طائفة عادية من المشركين ... عليه ... عليها وعرضه لمهالك

وقولها صلوات الله عليها «فلا ينكفئ حتى يطأ جناحها بأخمصه»

لا ينكفئ الرجوع من مكان كذا ... ونحوها ... إلى ... ويكفو ... الإناء ... ولده إذا كبته ... ومنه ...

في نهج البلاغة قال مولى الموحدين أمير المؤمنين الإمام علي ﴿ع﴾ «أيها الناس سيأتي عليكم زمان يكفأ فيه الإسلام كما يكفأ الإناء بما فيه» الخطبة ١٠٣ أي ... فيه الإسلام

وفيه عن الإمام المتقين الإمام علي ﴿ع﴾ «... فإنكم مردودون ... تكفؤوا الإسلام على وجهه ...» الخطبة ٢٣٤ ... الإسلام

وفي حديث الوضوء «... محمد بن الحنفية بالماء فأكفأ بيده على يده اليمنى ...

عليها وكفأت ... ملتفته ...

وطئ الشيء ... وقولها ﴿ع﴾ «حتى يطأ جناحها» حتى يدوس الإمام علي ﴿ع﴾ جناح فتنة المشركين

وفي نسخة «صماخها» الصماخ ثقب الأذن والأذن نفسها أيضاً

وفي حديث الإمام علي ﴿ع﴾ «وما ضعفت لا ... صماخ الأسماع»

الأخمص ما لا يصيب الأرض من باطن القدم عند المشي وخمص القدم خمصاً إذا

ارتفعت عن الأرض فلم تمسّه، خمص فلان إذا جاع فهو خميص، ووطء الشيء بالأخمص عبارة عن القهر والغلبة على أتمّ وجه.

ومعنى «يطأ عقبه» أمير المؤمنين ﴿ع﴾ لا يرجع عن حرب المشركين حتى يدوس هامهم بأخمص قدمه.

أي لا يرجع بغير قهر وغلبة عليهم على أتمّ وجه.

وقولها ﴿ع﴾: «ومخمود لهب سيفه»

الخمود: سكون لهب النار من خمدت النار: سكن لهبها ولم يطفأ جمرها، ويقول: أخمدتها أنا: سكّنتها. وخمد المريض: أغمي عليه أو مات، لخمود نار روحه، كقوله تعالى: «فإذا هم خامدون» يس ٢٩ أي ميتون. وخمود لهب سيفه موته وسكونه عن الحركة.

في نهج البلاغة قال مولى الموحدين إمام المتقين علي بن أبي طالب ﴿ع﴾ ـ في وصف القرآن الكريم ـ: «وفرقاناً لا يخمد برهانه، وتبياناً لا تهدم أركانه» الخطبة ١٨٩.

اللهب اتّقاد النار، والتهبت النار واستلهبت: اتّقدت، ولهيبها: وقدها.

في نهج البلاغة قال أمير المؤمنين الإمام علي ﴿ع﴾ ـ في ذمّ الدنيا ـ: «ونار شديد كَلَبُها، عالٍ لَجَبُها، ساطع لهبها، متغيّظ زفيرها، متأجّج سعيرها، بعيد خمودها، ذاكٍ وقودها.» الخطبة ٢٣٢.

وخمود لهب سيفه للمشركين كناية عن سكون سيف أمير المؤمنين ﴿ع﴾ وسعاره بعد شهادته، فإنّه وحده من بين الأصحاب كان يسكّن لهب الفتنة ويشعل نارها التي يوقدها المشركون مرّة بعد أخرى.

وقولها صلوات الله عليها: «مكدوداً في ذات الله»

«مكدوداً» حال من «أخاه» أو من ضميره، وكذا ما بعده من الأوصاف المنصوبة. المكدود من بلغه التعب والأذى من الكدّ، يعني الشدّة في طلب الرزق والعمل وطلب الكسب ونحوها. وكددت الرجل: أتعبته، المكدود: المتعب.

والمراد بذات الله تعالى أمره ودينه وكلّ ما يتعلّق به جلّ وعلا، وإنّ الذات المطلق المحض يطلق على ذات الله سبحانه المستجمع لجميع صفات الكمال، وإطلاق ذات الله مثل إطلاق جنب الله ووجه الله عزّ وجلّ.

و قد وقع إطلاق ذات الله في خطب أهل بيت الوحي المعصومين، و في الأخبار و الأدعية الواردة عنهم عليهم السلام كثير.

في المناقب لابن شهر آشوب السّروي المازندراني رضوان الله تعالى عليه «الحلية كعب بن عجرة عن أبيه قال النبي ﴿ﷺ﴾ «لا تسبّوا عليّاً فإنّه ممسوسٌ في ذات الله»

و في قوله ﴿ﷺ﴾ «ممسوس» وجوه منها: إنّه يتحمّل الأذى و الشدّة و التعب في رضا الله جلّ و علا و قربه. و منها: أنّه ﴿ﷺ﴾ لشدّة محبّته لله تعالى و تفانيه لرضاه كأنّه ممسوس أي مجنون كما ورد في صفات المؤمن «يحسبهم الجاهل مجانين» و منها: أن يكون المراد بالممسوس، المخلوط و الممزوج مجازاً أي خالطت محبّته تعالى لحمه و دمه فمن سبّه ﴿ﷺ﴾ فكأنّه سبّ الله سبحانه

في نهج البلاغة في مدح بعض أصحاب الإمام علي ﴿ﷺ﴾ «ما أخوف بعده و هو على ذات الله عامل» من كلامه ﴿ﷺ﴾ في ٢٠٤

و قولها ﴿ﷺ﴾: «مجتهد في أمر الله»

الاجتهاد مبالغة في الجدّ و في «أمر الله» وجوه منها: أنّ المراد من «أمر الله» أحكامه مطلقاً من أوامره و نواهيه. و منها: أن يكون المراد به رضاه الله تعالى. و منها: كلّ ما يتعلّق بالله جلّ و علا فهو أمر الله تعالى. و قد كان أمير المؤمنين ﴿ﷺ﴾ مجتهداً في ذلك كلّه

في نهج البلاغة. قال مولى الموحّدين إمام المتّقين عليّ بن أبي طالب ﴿ﷺ﴾ «إنّه ليس على الإمام إلّا ما حمّل من أمر ربّه: الإبلاغ في الموعظة، و الاجتهاد في النصيحة، و الإحياء للسنّة، و إقامة الحدود على مستحقّيها و إصدار السُّهمان على أهلها» الخطبة ١٠٤)

و فيه. قال سيّد الوصيّين الإمام علي ﴿ﷺ﴾ «فعليكم بالجدّ و الاجتهاد، و التأهّب و الاستعداد، و التزوّد في منزل الزاد» الخطبة ٢٣٠)

و فيه: قال يعسوب الدين إمام المتّقين علي ﴿ﷺ﴾ «فليس أحد و إن اشتدّ على رضا الله حرصه، و طال في العمل اجتهاده، ببالغ حقيقة ما الله أهله من الطاعة له، و لكن من واجب حقوق الله على العباد النصيحة بمبلغ جهدهم، و التعاون على إقامة الحقّ بينهم» الخطبة ٢٠٧)

و قولها سلام الله عليها: «قريباً من رسول الله»

و ذلك أنّ الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي‌طالب ﴿ع﴾ كان أقرب الناس إلى رسول الله ﴿ﷺ﴾ بالقرب الصّوري من حيث النسب و المصاهرة، و بالقرب المعنوي من حيث الشّرف و الطاعة و المنزلة

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبي‌طالب ﴿ع﴾ «و قد علمتم موضعي من رسول الله ﴿ﷺ﴾ بالقرابة القريبة، و المنزلة الخصيصة، وضعني في حجره و أنا وليد، يضمّني إلى صدره، و يكنفني في فراشه، و يمسّني جسده، و يشمّني عرفه، و كان يمضغ الشّيء ثمّ يلقمنيه، و ما وجد لي كذبة في قول، و لا خطلة في فعل، و لقد قرن الله به ﴿ﷺ﴾ من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم، و محاسن أخلاق العالم ليله و نهاره، و لقد كنت أتّبعه اتّباع الفصيل أثر أمّه، يرفع لي في كلّ يوم من أخلاقه علماً، و يأمرني بالاقتداء به، و لقد كان يجاور في كلّ سنة بحراء، فأراه و لا يراه غيري، و لم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله ﴿ﷺ﴾ و خديجة و أنا ثالثهما، أرى نور الوحي و الرّسالة، و أشمّ ريح النبوّة

و لقد سمعت رنّة الشّيطان حين نزل الوحي عليه ﴿ﷺ﴾ فقلت: يا رسول الله ما هذه الرّنّة؟ فقال: هذا الشّيطان قد أيس من عبادته، إنّك تسمع ما أسمع، و ترى ما أرى، إلّا أنّك لست بنبيّ، و لكنّك لوزير، و إنّك لعلى خير» الخطبة القاصعة ٢٣٤

و فيه: من كتاب سيّد الوصيّين الإمام عليّ ﴿ع﴾ إلى معاوية بن أبي‌سفيان جواباً و هو من محاسن الكتب: «... فإسلامنا ما قد سُمع، و جاهليّتنا لا تُدفع، و كتاب الله يجمع لنا ما شذّ عنّا و هو قوله سبحانه «و أولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله» و قوله تعالى «إنّ أولى الناس بإبراهيم للّذين اتّبعوه و هذا النّبيّ و الّذين آمنوا و الله وليّ المؤمنين» فنحن مرّة أولى بالقرابة، و تارة أولى بالطّاعة ...» رقم الكتاب ٢٨

و فيه: قال أمير المؤمنين الإمام عليّ ﴿ع﴾ «وا عجباً أتكون الخلافة بالصّحابة، و لا تكون بالصّحابة و القرابة؟!

و روي له شعر في هذا المعنى و هو

فإن كنتَ بالشورى ملكتَ أُمورهم فكيف بهذا والمشيرون غُيَّبُ
وإن كنتَ بالقربى حججتَ خصيمهم فغيرك أولى بالنبيِّ وأقربُ

و قولها عليها آلاف التحيّة و الثناء: «سيّدُ أولياء الله»

بالنّصب، نعت من «أخاه» و بالجرّ، وصف «رسول الله» و في رواية ابن أبي طاهر «سيّد في أولياء الله» يكون حالاً راجعاً لأمير المؤمنين «ع». و بالإضافة لا يكون حالاً كما زعمه أكثر الشارحين، فإنّ الحال نكرة، و الإضافة تفيد التعريف فلا يكون المعرفة حالاً.

و قد كان الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب «ع» سيّد الأولياء و سيّد الأوصياء كما كان رسول الله «ص» سيّد الأنبياء و خاتم المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين

كيف لا و قد نزلت فيه وحده «ع» انّه لولاية تعالى الأئمة المؤمنة «إنّما وليّكم الله و رسوله و الّذين آمنوا الّذين يقيمون الصّلاة و يؤتون الزّكاة و هم راكعون» (المائدة ٥٥).

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين عليّ بن أبي طالب «ع» «إنّ أولياء الله هم الّذين نظروا إلى باطن الدّنيا إذا نظر النّاس إلى ظاهرها، و اشتغلوا بآجلها إذا اشتغل النّاس بعاجلها. فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم، و تركوا منها ما علموا أنّه سيتركهم، و رأوا استكثار غيرهم منها استقلالاً، و دركهم لها فوتاً، أعداء ما سالم النّاس، و سلم ما عادى النّاس، بهم عُلِمَ الكتاب و به علموا، و بهم قام الكتاب و به قاموا، و لا يرون مرجوّاً فوق ما يرجون، و لا مخوفاً فوق ما يخافون» من قصار كلماته «ع» (رقم ٤٣٢).

و لا ريب أنّ هؤلاء الّذين عرّفهم الإمام عليّ «ع» أولياء الله تعالى كان هو «ع» سيّدهم

و قولها سلام الله عليها: «مُشمّراً ناصحاً»

«مُشمّراً» إسم فاعل من التّشمير في الأمر الجدّ و الاهتمام فيه

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين الإمام عليّ «ع» «اتّقوا الله تقيّة من شمّر تجريداً و جدّ تشميراً» من كتاب قصاره «ع» رقم (٢١٠) و أصله من شمّر إزاره عن ساقه تشميراً، رفعه

و فيه قال أمير المؤمنين الإمام علي (ع): «و قارب من خطوه و شمّر من ثوبه» الخطبة ٣٢)

ثمّ نقول شمّر في أمره خفّ و أسرع و جدّ و نقول شمّرت الشيء أرسلته و شمّر للأمر و تشمّر تهيّأ و قد كان أمير المؤمنين علي (ع) مهيّأً و مجدّاً في الحقّ و العمل به، بحيث يدور معه حيث دار

و فيه قال سيّد الوصيّين الإمام علي (ع): «و مضى على بصيرته، و شمّر حرب من حاربك» من كتابه (ع) رقم ٣٤

النُّصْحُ خلاف الغشّ، و هو الإخلاص و الصدق في النيّة و العمل و نحوها

في نهج البلاغة قال إمام المتّقين علي بن أبي طالب (ع): «و اعلموا أنّ هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغشّ» الخطبة ١٦٥)

و قد كان الإمام علي (ع) ناصحاً كنصح القرآن الكريم، إذ كان هو مع القرآن، و القرآن معه من دون تفكيك و لا فرق بينهما قطّ

في نهج البلاغة: قال سيّد الوصيّين يعسوب الدين علي بن أبي طالب (ع): «إنّه ليس على الإمام إلّا ما حُمّل من أمر ربّه: الإبلاغ في الموعظة، و الاجتهاد في النصيحة، و الإحياء للسنّة، و إقامة الحدود على مستحقّيها، و إصدار السُّهمان على أهلها» الخطبة ١٠٤)

و قوله صلوات الله عليه: «مُجدّاً كادحاً»

المجدّ ـ اسم فاعل ـ من أجدّ بمعنى جدّ و اجتهد في الحقّ و إحقاقه

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين الإمام علي (ع): «و لا يُدرَكُ الحقّ إلّا بالجدّ» الخطبة: ٢٩).

و فيه قال سيّد الوصيّين الإمام علي (ع): «فعليكم بالجدّ و الاجتهاد، و التأهّب و الاستعداد و التزوّد في منزل الزاد» الخطبة ٢٢١

الكادح ـ اسم فاعل ـ من الكدح: السعي في العمل و يجيء بمعنى الخدش و التكسّب أيضاً

يقال فلان يكدح في كذا أي يكدّ.

قال الله تعالى: «إنّك كادح إلى ربّك كدحاً» [الانشقاق ٦] أي إنّك ساعٍ في هذه الحياة إلى ربّك سعياً بالعمل، فلا بدّ لك من متاع الدنيا وشهواتها.

في نهج البلاغة: قال إمام المتقين عليّ بن أبي طالب عليه السلام في التحذير عن الدنيا: «فاحذروها حذر الشفيق الناصح والمجدّ الكادح» الخطبة ١٦٠.

و قولها عليها آلاف التحيّة و الثناء: «و أنتم في رفاهية من العيش»

الرفاهية: الاتّساع من الله بعيش التنعّم والخير، وهو في رفاهية من العيش أي سعة، ورفه: أخصب عيشه وسعة من الرزق.

والعيش: الحياة، المعيشة: المكتسب من المعيشة، وقد يطلق المعيشة والعيش على الاشتغال بأسباب العيش والمعيشة، والمعاش: الزمان أو المكسب أي ما به العيش به والمعيشة الحياة، والمراد أنّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام كان هكذا أحواله، فكنتم معشر الناس في سعة من العيش ورخاء من الحياة.

و قولها سلام الله عليها: «وادعون فاكهون آمنون»

وادعون: جمع وادع من الدعة أي السعة والخفض والسكون، ودع الرجل فهو وديع ساكن، يقال: فلان بلغ الدعة، ودعة من عز كتفه، وتدع تعني بدر، مأخوذ من الدعة، فإنّ السكون يستلزم الترك والمفارقة والهجر، والوادعون: المرتاحون.

الفاكهة: المطايبة والمزح والمزاح من فكه الرجل فهو فكه إذا كان طيّب النفس مزّاحاً، وتفكّه: تعجّب الأشر والبطر.

قال الله تعالى: «ونعمة كانوا فيها فاكهين» [الدخان ٢٧] أي ومن عيش كانوا فيه ناعمين متمتّعين من النعمة وسعة العيش.

الآمنون المطمئنّون، فكأنّ هؤلاء الناس حين خاطبتهم الصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء سلام الله عليها هم يدركون الإسلام وصاحب الرسالة والمهتدين بهديهم، متنعّمين بما هم عليه من النعمة وسعة العيش مرتاحين مطمئنّين.

و قولها عليها السلام: «تتربّصون بنا الدوائر»

التربّص الانتظار يقال تربّصت قدوم زيد انتظرته متوقّعاً ذلك، و منه المتربّص للمحتكر، و أصله من قولهم ربص بالمكان إذا لزمه و قام به

قال الله تعالى «للّذين يؤلون من نسائهم تربّص أربعة أشهر» البقرة ٢٢٦) أي تمكّث أربعة أشهر و قال «قل كلّ متربّص» طه ١٣٥) أي منتظر للعاقبة

تربّص الدّوائر تربّص نزولها، و الدّوائر جمع الدّائرة و هي صروف الزّمان و حوادث الأيّام، و العواقب المذمومة لكونها دائرة على الإنسان و محيطة به، و أكثر ما تستعمل الدّائر في تحوّل النّعمة إلى النّقمة، و الرّخاء إلى الشّدّة، و الخير إلى الشّرّ، و كلّ ما فيه دائرة سوء

و دارت عليه الدّوائر نزلت عليه الدّواهي، و الدّائرة هي الهزيمة و السّوء يقال عليهم دائرة السّوء و في الحديث فيجعل الدّائرة عليهم أي الدّولة بالغلبة و النّصرة

قال الله تعالى «و من الأعراب من يتّخذ ما ينفق مغرماً و يتربّص بكم الدّوائر عليهم دائرة السّوء» التّوبة ٩٨)

في نهج البلاغة ـ و من كتاب مولى الموحّدين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﴿ﷺ﴾ كتبه إلى أهل الأمصار يقتصّ فيه ما جرى بينه و بين أهل صفّين ـ «... حتّى إذا قامت عليهم الحجّة، و انقطعت منهم المعذرة، فمن تمّ على ذلك منهم فهو الّذي أنقذه الله من الهلكة، و من لجّ و تمادى فهو الرّاكس الّذي ران الله على قلبه، و صارت دائرة السّوء على رأسه» رقم الكتاب: ٥٨).

و المراد من قولها عليها السّلام «تتربّصون بنا الدّوائر» أي كنتم تنتظرون نزول البلايا علينا، و زوال النّعمة عنّا

و قولها سلام الله عليها: «و تتوكّفون الأخبار»

التوكّف التّوقّع، من الوكف الوقوع، من قولهم وكف المطر وقع، فيقال توكّفه انتظر وقوعه، و توكّف الخبر إذا انتظر طلوعه و وصوله و الأخبار جمع الخبر

و المراد بالأخبار هنا أنّكم تنتظرون أخبار البلايا و المصائب و الفتن و النّوائب و الحوادث و الشّدائد النّازلة بنا

و قولها صلوات الله عليها: «و تنكصون عند النزال»

النكوص الإحجام و التأخّر عن الشيء و الرّجوع إلى وراء قهقرى يقال نكص على عقبيه: يرجع القهقرى

قال الله تعالى «قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون» المؤمنون ٦٦)

و النّزال المنازعة و المنازلة و هو أن ينزل القرنان عن إبلهما إلى خيلهما فيتضاربا

و المراد أنكم معشر النّاس المدّعون الصّحبة من رسول الله (ﷺ) كنتم ترجعون و تتأخّرون عند مشاهدة ميدان الجدال و مضارب الأبطال

قال الله تعالى فيهم «و إذ زيّن لهم الشّيطان أعمالهم و قال لا غالب لكم اليوم من النّاس و إنّي جار لكم فلمّا تراءت الفئتان نكص على عقبيه و قال إنّي بريء منكم إنّي أرى ما لا ترون» الأنفال ٤٨)

في نهج البلاغة: «من كتاب ينكد لوصيّ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (ع) إلى معاوية بن أبي سفيان ... « فحاروا عن وجههم و نكصوا على أعقابهم و تولّوا على أدبارهم و عوّلوا على أحسابهم...» رقم الكتاب: ٣٢)

و فيه: و قال مولى الموحّدين إمام المتّقين عليّ (ع): «و لقد علم المستحفظون من أصحاب محمّد (ﷺ) أنّي لم أردّ على رسول الله و لا على رسوله ساعة قطّ، و لقد واسيته بنفسي في المواطن التي تنكص فيها الأبطال، و تتأخّر فيها الأقدام...» خطبة ١٨٨)

و قولها سلام الله عليها: «و تفرّون عند القتال»

الفرار من القتال هو الهزيمة

و المراد من تلك الفقرات أنّ هؤلاء المدّعين للصّحبة و الخلافة و مردتهم هم لم يزالوا منافقين و قد كانوا هم في زمن رسول الله (ﷺ) عن الجهاد ناكبين، و عن النّهوض إلى النّزال قاعدين لأنّهم لم يؤمنوا طرفة عين أبداً، و قد تظاهروا بالإسلام لغصب الخلافة و إمارة الرّسالة، و ارتكاب الجناية

قال الله تعالى فيهم «و يقول الّذين آمنوا لولا نزّلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة و

ذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشيّ عليه من الموت فأولى لهم ـ فهل عسيتم إن تولّيتم أن تفسدوا في الأرض وتقطّعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمّهم وأعمى أبصارهم» محمد (ص): ٢٠ ـ ٢٢

وقال: «أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ـ وطائفة قد أهمّتهم أنفسهم يظنّون بالله غير الحقّ ظنّ الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إنّ الأمر كلّه لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحّص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور ـ وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالاً لاتّبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون ـ الذين قال لهم الناس إنّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم» آل عمران: ١٤٤ و ١٥٤ و ١٦٧ و ١٧٣)

من الذين كانوا يفرّون يوم أحد؟؟؟

الفصل التاسع في خطاب المنافقين باسم الصحابة وفسقهم وإضلالهم الناس وتبعهم الشيطان بعد وفاة رسول الله (ص)

قالت الصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها آلاف التحيّة والثناء:

«فلمّا اختار الله لنبيّه دار أنبيائه، ومأوى أصفيائه، ظهر فيكم حَسَكَةُ (حسيكة ح) النفاق، وسمل جلباب الدين، ونطق كاظم الغاوين، ونبغ خامل الأقلّين، وهدر فنيق المبطلين، فخطر في عرصاتكم، وأطلع الشيطان رأسه من مغرزه، هاتفاً بكم، فألفاكم لدعوته مستجيبين، وللغرّة فيه ملاحظين، ثمّ استنهضكم، فوجدكم خفافاً، وأحمشكم فألفاكم غضاباً، فوسمتم غير إبلكم، ووردتم غير شربكم، هذا والعهد قريب، والكلم رحيب، والجرح لمّا يندمل، والرسول لمّا يقبر، ابتداراً زعمتم خوف الفتنة، ألا في الفتنة سقطوا، وإنّ جهنّم لمحيطة بالكافرين.

فهيهات منكم! وكيف بكم؟ وأنّى تؤفكون؟ وكتاب الله بين أظهركم، أموره ظاهرة، وأحكامه زاهرة، وأعلامه باهرة، وزواجره لائحة، وأوامره واضحة، وقد خلّفتموه وراء

ظهوركم، رغبة عنه تريدون؟ أم بغيره تحكمون؟ بئس للظالمين بدلاً، ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين. ثمّ لم تلبثوا إلّا ريث أن تسكن نفرتها، ويسلس قيادها، ثمّ أخذتم تورون وقدتها، وتهيّجون جمرتها، وتستجيبون لهتاف الشيطان الغويّ، وإطفاء أنوار الدين الجليّ، وإهمال سنن النبيّ الصفيّ، تسرّون حسواً في ارتغاء، وتمشون لأهله وولده في الخمر والضرّاء، ونصبر منكم على مثل حزّ المدى، ووخز السنان في الحشا، وأنتم تزعمون ألّا إرث لنا، أفحكم الجاهليّة تبغون، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون؟ أفلا تعلمون؟ بلى تجلّى لكم كالشمس الضاحية أنّي ابنته.

الشّرح: إنّ المراد من «درجاته ومنازل جنّاته» هي الجنّة ودرجاتها العالية منها ممّا يليق بالأنبياء والأصفياء عليهم آلاف التّحيّة والثّناء.

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين أمير المؤمنين علي (ع) ـ في صفة الجنّة ـ «درجات متفاضلات ومنازل متفاوتات» الخطبة ٨٤

وفيه عن أمير المؤمنين الإمام علي (ع): «فاختار سبحانه لمحمّد (ص) لقاءه، ورضي له ما عنده، وأكرمه عن دار الدنيا، ورغب به عن مقارنة البلوى، فقبضه (ص) إليه كريماً» الخطبة (١)

وفيه عن سيّد الوصيّين يعسوب الدين الإمام علي (ع): «ومن يتّق الله يجعل له مخرجاً من الفتن، ونوراً من الظلم، ويخلّده فيما اشتهت نفسه، وينزله منزل الكرامة عنده، في دار اصطنعها لنفسه، ظلّها عرشه، ونورها بهجته، وزوّارها ملائكته، ورفقاؤها رسله، فبادروا بأعمالكم تكونوا مع جيران الله في داره، رافق بهم رسله، وأزارهم ملائكته، وأكرم أسماعهم أن تسمع حسيس نار أبداً، وصان أجسادهم أن تلقى لغوباً ونصباً. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم» الخطبة ١٨٣

وقولها صلوات الله عليها «ظهر فيكم حسكة النّفاق»

الحسكة والحسيكة ضغن وعداوة وحقد، استعارة من حسك السّعدان، وهي عشبة شوكتها مدحرجة، وهي شوكة صلبة معروفة

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين عليّ بن أبي طالب ﴿عليه السلام﴾: «والله لأن أبيت على حَسَكِ السَّعْدانِ مُسَهَّداً، أو أُجَرّ في الأغلال مصفّداً...» من كلامه ﴿عليه السلام﴾ رقم ٢١٥).

يقال حَسَكَ الصّدر على فلان صار عليه ذا عداوة وضغن وحقد، وإطلاق الحَسَكة على العداوة لأنّها تؤثّر في النفس وتؤذيه كالشَّوكة، والمراد من «حسكة النّفاق» العداوة الحاصلة به، وهذه على سبيل الاستعارة والإضافة بيانيّة.

ولا يخفى على من له أدنى مسكة ودراية وطيب ولادة أنّه ظهر فيمن خاطبهم الصّدّيقة الطّاهرة فاطمة الزّهراء سلام الله عليها من الحقد والعداوة والأضغان ما انطوت عليه نفوسهم من الشّرور. وقد استعارت فاطمة سلام الله عليها من قول العرب «حسكة السّعدانة» وهي كناية عن شدّة كفرهم ونفاقهم ونهاية بغيهم وقسوة قلوبهم. وهذه الفقرة من الصّدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها الّتي لا تنطق عن الهوى، ولا تنطق من مطلق الظّنون تثبت أنّ المقصودين في الخطاب كانوا منافقين ومع النّفاق عامّة من عدم الخشوع والقسوة على أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين.

ولكن ظهر هذا النّفاق من رأسهم عمر بن الخطّاب عند احتضار رسول الله ﴿صلّى الله عليه وآله﴾ إذ نسبه ﴿صلّى الله عليه وآله﴾ إلى الهذيان بقوله «إنّ هذا الرّجل ليهجر» ثمّ ظهر منه ومن أذنابه تمام الظّهور عند وفاة رسول الله ﴿صلّى الله عليه وآله﴾.

وقولها سلام الله عليها: «وسَمَلَ جِلْبابُ الدّين»

سَمَلَ الثّوبُ صار خَلَقاً، والجِلْباب: المِلْحَفة. وقيل: ثوب واسع للمرأة غير الملحفة، يغطّي البدن، وقيل: إزار ورداء، وقيل: كالمقنعة تغطّي به المرأة رأسها وصدرها وظهرها، وقيل: مطلق اللباس الشّامل للإزار والمقنعة الّتي تستتر بها المرأة أو الرّجل.

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين الإمام عليّ ﴿عليه السلام﴾: «سترني عنكم جِلْبابُ الدّين» (الخطبة ٤).

والمراد من قولها ﴿عليها السلام﴾ «وسمل جلباب الدّين» أنّه أصبح جلباب الدّين الإسلامي من لباسه بالياً وبعبارة أخرى أصبحت ثياب الدّين كالأسمال البالية والثّياب الممزّقة

بسبب ظهور نفاق هؤلاء الّذين عند وفاة رسول الله (ﷺ) وقد أشار إمام المتّقين عليّ بن أبي‌طالب (ﷺ) إلى هذا المعنى بقوله

في نهج البلاغة: «حتّى إذا قبض الله رسوله (ﷺ) رجع قوم على الأعقاب، وغالتهم السّبل، و اتّكلوا على الولائج، و وصلوا غير الرّحم، و هجروا السّبب الّذي أمروا بمودّته، و نقلوا البناء عن رصّ أساسه، فبنوه في غير موضعه. معادن كلّ خطيئة، و أبواب كلّ ضارب في غمرة. قد ماروا في الحيرة، و ذهلوا في السّكرة على سنّة من آل فرعون من منقطع إلى الدّنيا راكن أو مفارق للدّين مباين» (خطبة ۱۵۰)

و قولها عليها السّلام: «و نطق كاظم الغاوين»

كظم الغيظ أمسك ما في نفسه عن صفح أو غيظ أو خوف. الكظوم السّكوت. الكاظم السّاكت الصّامت الخامل. و المراد هنا السّاكت من جهة الخوف عن غضب رسول الله (ﷺ) المطّلع بعداوته و الكاظم غيظه من جهة مهابته.

الغاوون الضّالّون المنهمكون في الجهل و الضّلال، فسّروا بقوم وصفوا عدلاً يعني حلالاً و حراماً بألسنتهم، ثمّ خالفوه إلى غيره.

و المراد من الفقرة حتّى نطق عند وفاة رسول الله (ﷺ) كلّ من كان يكظم غيظه، و هو كلّ من كان غاوياً و منافقاً و خارجاً عن منهج رسول الله (ﷺ) إلّا أنّه كان يخاف الجهار و قمع نفسه، و إبراز ما في قلبه من شدّة الكفر و النّفاق، و من الغيظ و العداوة على أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين لسطوة رسول الله (ﷺ) و عظمته، فلمّا سمل جلباب الدّين أظهر هؤلاء المنافقون ما في صدورهم من الحقد و الضّغن و العداوة و شدّة الكفر و النّفاق

و قولها صلوات الله عليها: «و نبغ خامل الأقلّين»

نبغ الشّيء ظهر بعد خفائه و نبغ ظهر من خفي صوته و نبغ فيهم النّفاق إذا ظهر ما كانوا يخفونه من النّفاق و اشتهروا به و منه ابن النّابغة لعمرو بن العاص لظهورها في الزّنا و شهرتها

في نهج البلاغة. قال مولى الموحّدين الإمام عليّ (ﷺ): «و أفرطت بقوم من الجهل

بالله في ذلهم معاوية و مؤدّبهم ابن النابغة» الخطبة ١٠٩

الخامل: من خفي ذكره و صوته، و كل شيء خفي لا حركة له، مأخوذ من خمل المنزل خمولاً إذا عفي و درس.

في نهج البلاغة: قال سيّد الوصيّين الإمام علي عليه السلام: «فهدى خامل و نعمى شامل» الخطبة ٢

و ذكروا له خاملاً مخففاً و هو خلافه.

و الأقلّين الأذلّين: الأرذلون من القوم، و الساقطون من الناس الذين ليس لهم شرف و لا كرامة.

و معنى الفقرة: و نطق ظهر من خفي صوته في زمن رسول الله صلّى الله عليه و آله، و هو في قلّة عدد في قومه، و ضعف في قدرته، و هو ليس له ظهور و لا قيمة، فظهر لا حسب له و لا نسب، فظهر بعد وفاته صلّى الله عليه و آله، و فعل ما لا يخطر ببال أحد كما صرّح الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في كتابه إلى مالك الأشتر النخعي رضوان الله تعالى عليه.

في نهج البلاغة: «فلمّا مضى صلّى الله عليه و آله تنازع المسلمون الأمر من بعده، فوالله ما كان يلقى في روعي و لا يخطر ببالي أنّ العرب تزعج هذا الأمر من بعده صلّى الله عليه و آله عن أهل بيته، و لا أنّهم منحّوه عنّي من بعده» الرسالة ٦٢

و قولها عليها سلام الله: «و هدر فنيق المبطلين»

هدر البعير: ردّد صوته في حنجرته، و هدر الحمام: سجع، و الفنيق: الفحل المكرّم من الإبل الذي لا يركب و لا يهان لكرامته على أهله، و منه فنق الرجل: تنعّم.

و معنى الفقرة: أنّه لمّا مات رسول الله صلّى الله عليه و آله أخذ أهل الباطل و المنافقون يردّدون الباطل كما يردّد البعير في صوته، فأظهروا أحقادهم و نفاقهم، و نطقوا بالباطل الذي كانوا ساكتين به من هيبة رسول الله صلّى الله عليه و آله و قدرته، و قد أشار الإمام علي عليه السلام إلى ذلك بقوله

في نهج البلاغة: «قد خاضوا بحار الفتن، و أخذوا بالبدع دون السنن، و أرز المؤمنون، و نطق الضالّون المكذّبون...» الخطبة ١٥٣

وقوله عليها صلوات الله: «فخطر في عرصاتكم»

خطر البعير بذنبه إذا حرّكه ورفعه مرّة بعد مرّة وضرب به فخذيه، ومنه قول الحجّاج لمّا نصب المنجنيق على الكعبة «خطّارة كالجمل الفنيق» شبّه رميها بخطران الفنيق، وخطران الرّجل اهتزازه في مشيه وتبختره. وفلان يخطر في مشيته. يتمايل ويمشي مشية المعجب بنفسه.

والعرصة كلّ بقعة بين الدّور واسعة ليس فيها شيء من بناء وغيره، وجمعها عرصات.

ومعنى المراد أنّ الشّيطان ردّد وأظهر ذنبه المحتجز الّذي غاب في مكمنه في عرصاتكم يا معشر المهاجرين والأنصار، وهو كناية عن تمركز أغراض الشّيطان في نفوسهم واستحكامه في قلوبهم.

في نهج البلاغة قال سيّد الوصيّين الإمام عليّ عليه السلام: مضى الرّجس، ونُصر الشّيطان، وخُذل الإيمان فانهارت دعائمه، وتنكّرت معالمه، ودرست سبله، وعفت شُرُكه. أطاعوا الشّيطان فسلكوا مسالكه، ووردوا مناهله، بهم سارت أعلامه، وقام لواؤه» خطبة ٢.

وقولها عليها السلام: «وأطلع الشّيطان رأسه من مغرزه»

مَغرز الرّأس ما يختفي فيه من غرز الشّيء بالإبرة أدخلها فيه.

والمراد من الفقرة أنّ الشّيطان قد ظهر من مكانه المختفي به الّذي كان مختفياً فيه، خوفاً من الحقّ، وذلك حينما انقلب النّاس من الحقّ إلى الباطل، فظهر الشّيطان على صورة الإنسان وأظهر مقاصده فبايع أبا بكر على منبر رسول الله صلى الله عليه وآله يوم وفاته.

في نهج البلاغة قال إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام فيهم: «اتّخذوا الشّيطان لأمرهم ملاكاً، واتّخذهم له أشراكاً، فباض وفرّخ في صدورهم، ودبّ ودرج في حجورهم، فنظر بأعينهم، ونطق بألسنتهم، فركب بهم الزّلل، وزيّن لهم الخطل، فعل من قد شرّكه الشّيطان في سلطانه، ونطق بالباطل على لسانه» خطبة ٧.

وقولها سلام الله عليها: «هاتفاً بكم»

الهاتف الصائح، من الهتاف الصياح من هتف به صاح به و دعاه، و هتفت الحمامة صوّتت، و هتف به هاتف: سمع صوته و لم ير شخصه

و في حديث حنين «اهتف بالأنصار» أي نادهم و ادعهم و في حديث بدر «فجعل يهتف بربّه» أي يدعوه و يناشده

و المعنى: خالكم الشيطان ينادي بكم نادياً عالياً صوته في مسجد النبي (ص) و يدعوكم إلى البيعة لأبي بكر بن أبي قحافة

و قولها صلوات الله عليها: «فألفاكم لدعوته مستجيبين»

فوجدكم الشيطان معشر المهاجرين و الأنصار لدعوته مستجيبين و منه قوله تعالى «إنّهم ألفوا آباءهم ضالّين» (الصافات ٦٩) فوجدهم الشيطان مطيعين لأمره، ممتثلين لغرضه و كيف لا يهتف بهم الشيطان و لا ينادي بهم بصوت عال و لا يدعوهم إلى البيعة لأبي بكر بن أبي قحافة في مسجد النبي (ص) و قد استجابت نفوسهم له و عرف دعوته حين أعرضوا عن الحقّ من خلافة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (ع) يوم الغدير، بعد أن عقدوها و بايعوه عليها يومئذ على غير هدى و لا سبيل واضح، و طريق مستقيم، و أظهروها في السقيفة السخيفة المشؤومة في أوّل يوم وفاة رسول الله (ص)

فلمّا وجدهم الشيطان في إعراضهم عن الحقّ و انهماكهم في الباطل مستعدّين لندائه دعاهم لأمره فاستجابوا له

و في نهج البلاغة قال [illegible] الإمام علي (ع) «اتّخذهم إبليس مطايا ضلال، و جنداً بهم يصول على النّاس، و تراجمة ينطق على ألسنتهم، استراقاً لعقولكم و دخولاً في عيونكم، و نفثاً في أسماعكم، فجعلكم مرمى نبله، و موطئ قدمه و مأخذ يده» (خطبة القاصعة ٢٣٤)

و قوله عليه السّلام «و للغرّة فيه ملاحظين»

الغرّة الاغترار و الانخداع و الغفلة من الغرور، و رجل غرّ و غرير: غير مجرّب، غافل عن الدّنيا و دناءتها و تقلّبها على أهلها، و غرّه فلان أوقعه في غفلة، فهو مغرور، و اغترّ بشيء خُدِع به، و اغترّه أتاه على غفلة

في نهج البلاغة ـ من أمير المؤمنين الإمام عليّ ﴿ع﴾ إلى زياد بن أبيه وقد بلغه ﴿ع﴾ أنّ معاوية كتب إليه يريد خديعته باستلحاقه ـ: «وقد عرفتُ أنّ معاوية كتب إليك يستزلّ لبّك، ويستفلّ غربك، فاحذره، فإنّما هو الشيطان، يأتي المرء من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ليقتحم غفلته ويستلب غرّته» رقم الكتاب ٤٤)

الغرور: الشيطان لأنّه يغرّ الإنسان في عقيدته، ومنه قوله سبحانه «ولا يغرّنّكم بالله الغرور» لقمان: ٣٣)

وكلّ ما يوجب الغفلة للإنسان عن الله تعالى وعن سبيله وعن الحقّ وأهله فهو غرور ولو كان هو العلم والعبادة، والأولاد ومتاع الدنيا ونعمها والجاه والمقام والرئاسة وما إليها. وملاحظة الشيء مراعاته، من اللحظ واللحاظ ـ بفتحهما ـ النظر بمؤخّر العين ممّا يلي الصّدغ عن يمين وشمال، وهو اللحاظ، ويكون عند تعلّق القلب بشيء. واللحاظ ـ مصدر ـ لاحظ: نظر إليه بمؤخّر عينه. ملاحظين: ناظرين وراغبين. والضمير في «فيه» راجع إلى الشيطان.

ومعنى الفقرة أنّ الشيطان لمّا وجدكم معشر الأنصار والمهاجرين ملاحظين لأمور الدنيا من السلطة والملك وحبّ الرئاسة والإمارة على المسلمين دعاكم لأمره من خلع وصيّ رسول الله ﴿ص﴾ وغصب الخلافة، وترك منهج الحقّ وراء ظهوركم لسرعة قبولكم للانخداع إليه كالّذي كان مطمع نظره أن يغترّ بأباطيله.

وقولها سلام الله عليها: «ثمّ استنهضكم فوجدكم خفافاً»

النّهوض: القيام، نهض للكذا وإلى كذا: قام إليه أو به، ونهض من مكانه: ارتفع عنه، ونهض إلى العدوّ: أسرع إليه، ونهض إلى فلان: تحرّك إليه بالقيام، استنهضه للأمر: أمره بالقيام إليه. الاستنهاض: طلب النهوض.

الخفاف ـ جمع خفيف ـ: خلاف الثقيل.

ومعنى الفقرة: ثمّ طلب الشيطان نهوضكم وقيامكم لأمره، ومساعدتكم لأغراضه، فوجدكم خفافاً مسرعين إليه بغير تثاقل منكم ولا تأخير.

وإلى هذا المعنى أشار الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﴿ع﴾

في نهج البلاغة: «ألا و إنّ الشيطان قد جمع حزبه، و استجلب خيله و رجله، و إنّ معي لبصيرتي ما لبّست على نفسي و لا لُبّس عليّ» الخطبة ١٠

و فيه: «ردّهم على أعقابهم و استحثّوا على أعمالهم و رفع لهم علمُ الجنّة و النار فصرفوا عن الجنّة وجوههم، و أقبلوا إلى النار بأعمالهم، و دعاهم ربّهم فنفروا و ولّوا، و دعاهم الشيطان فاستجابوا و أقبلوا» الخطبة ١٤٤

و فيه «فإنّهم حزب الشيطان، و حمة النيران، ولئك حزب الشيطان ألا إنّ حزب الشيطان هم الخاسرون» الخطبة ١٩٤

و قوله صلوات الله عليها: «و أحمشكم فألفاكم غضاباً»

الإحماش التهييج و الإغضاب، أحمشه فلان إذا هيّجه و أغضبه و أحمشه على القتال حرّضه عليه و أغضبه على أعدائه، و أحمش الشيء أشعله، و حمش النار أشعلها، و حمش فلان أي غضب، و احتمش الديكان اقتتلا، و حمش الغلام أسرع غضباً، و قولهم أحمش فلان الناس أسرعهم غضباً

في نهج البلاغة قال مولى الموحّدين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﴿عليه السلام﴾: «أما دين يجمعكم، و لا حميّة تحمشكم» الخطبة ٣٩

و معنى الفقرة أنّ الشيطان حملكم و هيّجكم على الغضب و العداوة و الأفعال و الأحقاد و البغضاء و غصب خلافة أهل بيت الوحي المعصومين عليهم السلام فوجدكم مغضبين عليهم لغصبه عليهم، فأصبحتم مطيعين له في ذلك و منقادين له في جميع الأحوال و أنكم لتسلّمكم الرئاسة و الإمارة و الخلافة و عزل صاحب الحقّ عن منصبه لا تبالون عن ارتكاب أيّ جناية و خيانة و مخالفة عن أمر الله تعالى و رسوله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ و عن الظلم و البغي على أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين

و قوله ﴿عليها السلام﴾: «و وسمتم غير إبلكم»

الوسم أثر الكيّ، يقال: وسمه جعل عليه علامة و العلامة كونه بالكيّ و الاسم السمة و هي العلامة، و منه الموسم لأنّه معلمٌ يجتمع إليه الناس للحجّ و العمرة

و الاسم لأنّه سمة للمسمّى قال الله تعالى: «إنّ في ذلك لآيات للمتوسّمين» الحجر ٧٥

أي المتفرّسين

و معنى الفقرة مخاطبة معاشر الأنصار والمهاجرين السمة والعلامة على غير إبلكم السائرة على طريق الحق، و هو كناية عن مشاهدة معالم الحق في رحال الباطل والضلال، و أخذهم ما ليس لهم بحق من الخلافة و الإمامة و ميراث النبوة

و قد أشار الإمام أمير المؤمنين علي «ع» إلى هذا المعنى بقوله

في نهج البلاغة: «و وصلوا غير الرحم و هجروا السبب الذي أمروا بمودته و نقلوا البناء عن رص أساسه، فبنوه في غير موضعه.» الخطبة: ١٥٠

و قولها سلام الله عليها: «و وردتم غير شربكم»

الورود حضور الماء للشرب، خلاف الصدور، و الإيراد الإحضار

و الشرب هو الحظ و النصيب من الماء، و يطلق أيضاً على المشرب، و هو محل الشرب

و المعنى أنكم وردتم على ماء غير مشربكم، و هو غير ما جعله الله تعالى لكم، فإنه جعل لكم الشرب لسعادتكم الشارب من النهر الأصفى، و العذب و الفرات الذي لا خبطة فيه و لا كدر و لا تعكر، و المراد بالمعنى الأخص الذي شربتموه غير ماء الإمامة الصالحة التي تأخذكم إلى المحجة البيضاء، فصيرتم الإمامة خلافة دنيوية، و رئاسة سياسية من غير معرفة بشئون الإمامة الإلهية التي هي حفظ و دفع الإسلام و معارف القرآن الكريم، و إلا بقي الإسلام جسداً بلا روح

و إلى هذا المعنى أشار سيد الوصيين الإمام علي «ع» بقوله

في نهج البلاغة «أثاروا نحلاً و خرقوا محلاً و تركوا صافياً و شربوا آجناً» الخطبة ٤٤

و قولها «ع»: «هذا و العهد قريب»

«هذا» أي خذوا هذا الذي ذكرته و ذكرتكموه، و تذكروا عنه أو تذكروا ما فعلتموه خلافكم عهد النبي الكريم «ص» قريب، و تستعمل «هذا» في مثل هذا المقام لفصل الخطاب

و العهد بمعنى الوصية و التقدم إلى المرء في الشيء، و بمعنى الميثاق، و العهد الذمة، و يقال عهدي به قريب أي لقائي إياه.

و معنى الفقرة: تكف معاشر الأنصار و المهاجرين فعلمتم بتلك الأمور المنكرة و تكلمتم بتلك الجرأة و الخشونة، و خالفتم رسول الله ﷺ فيما نقضتم العهد بكم من بعض مدّة مديدة سنة و سنتين

فنكثتم ما كنتم عقدتم من عهد رسول الله ﷺ و حققتم ما رمى إليه النبي الكريم ﷺ و العهد به ﷺ قريب و قد شاهدتم أمير المؤمنين الإمام علي ﷺ إلى هذا المعنى عند دفن الصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء سلام الله عليها بقوله

في نهج البلاغة: «و ستنبئك ابنتك بتظافر أمتك على هضمها، فأحفها السؤال و استخبرها الحال هذا و لم يطل العهد، و لم يخلُ منك الذكر» (من كلامه ﷺ رقم ٩٣)

و قد شاهدت عليها السلام أنّ وصيّة رسول الله ﷺ كانت عهداً و عقداً لا يحلّ لأحد من المسلمين حلّه، فقد عبّرت سلام الله عليها عن خلافة أمير المؤمنين الإمام علي ﷺ بنقض العهد و هو أنّه لما كانت محدّدة و صية و لما كانت عقداً و معاهدة و ميثاقاً و كل ميثاق مع الله و رسوله عليهم السلام لا يجوز لأحد حلّه و نقضه، بحسب المطامع النفسانية، و المصالح الدنيوية و الأغراض الشخصية

فهنا تصف سلام الله عليها قد جعل المسلمين حتى نقضوا عهد أسس الإسلام، و توجه الخطاب إليهم و بعنف، و الإحتجاج على حقوق بلا ترخيص تسمى أنّه إذا كان العهد برسول الله ﷺ قريباً و قد حصلت هذه الردة عن الحق و الهدى، و تعطيل معالم الدين و الصلاح، و ظهور رايات الردة و الضلالة فكيف سيصبح حال الإسلام و المسلمين إذا بعُد العهد برسول الله ﷺ في حين تكون حيلة الأمة و ترتيبه إلى الأمم كلّها حاضرها و مستقبلها

و قولها ﷺ: «و الكلم رحيب»

لكلم الجرح من يوهم كلمه جرحه و رحل الدين مجروح

في نهج البلاغة قال سيّد الوصيين الإمام علي ﷺ «فصيّرها (الخلافة) في حوزة خشناء، يغلظ كلمها و يخشن مسّها» (الخطبة ٣)

و من هذه المادة الكلمة و الكلام باعتبار التأثير في المخاطب و عمره كما قيل

...حب الشيء فيها ... و لا ... من خرج ...

الرحب: الواسع و الوسع

في نهج البلاغة ـ من كتاب أمير المؤمنين الإمام علي ﷺ إلى بعض عمّاله ـ «فحمّله إلى الحجر رحب ...، ...» و يقال:

رحب المكان: اتّسع و رجل رحب الذراعين: واسع القوّة و القدرة و البطش عند الحوادث و الشدائد، رحب الراحة: كثير العطاء.

و المقصود من الفقرة أنّ ما حصل من خرج ... بعد وفاة رسول الله ﷺ لم يلتئم بعد، و قد عقدتم و أحكمتم أمر الباطل و ... و ... و ...، و إنّ الخرق ... النبيّ الأكرم ﷺ واسع عظيم على الأمّة الإسلاميّة، و هذا الخرق شامل للأمّة جميعاً ... و ...، و ... و ...، و أنّ هذا المصاب الجلل، و الخطب الجسيم، و ... العظيمة التي لا ... شيء و لن ... الأجيال كلّها، و ... أن يكون ... عظيم و ... لا ... فأنّى تؤفكون؟

و قولها صلوات الله عليها: «و الجرح لمّا يندمل»

الجرح: ... و الاندمال: ... من قولك ... و اندمل الجرح: التأم و صلح.

و مقصود الفقرة: أنّكم معشر الأنصار و المهاجرين قد ... ، ... يكون جرح وفاة رسول الله ﷺ لم يبرأ و لم يندمل بعد، و ... لم تصلح ... بعد ... سكون ... و ... ، و ... ، و قد نقضتم عهد الله تعالى في خليفة رسول الله ﷺ الذي ... بأمر الله جلّ و علا و أكمل به دينكم، و أتمّ به نعمته عليكم، و رضي به لكم الإسلام ديناً، و ... الأمّة الإسلاميّة إذ خاطب رسول الله ﷺ أمّته قائلاً: «ألست أولى بكم من أنفسكم؟» قالوا: اللهمّ بلى! فقال: «اللهمّ من كنت مولاه فعليّ مولاه، اللهمّ وال من والاه و عاد من عاداه، و انصر من نصره، و اخذل من خذله!»

وقولها (ﷺ): «والرسول لمّا يُقبر»

أي ورسول الله (ﷺ) لم يُدفن بعد [illegible] أي [illegible] الخلافة عن

الإمام أمير المؤمنين (ﷺ) [illegible] قبل أن يُقبر رسول الله (ﷺ) ويُدفن

والمقصود الفقرة [illegible]

[illegible] في حين أنّ رسول الله (ﷺ) بعد لم يُدفن، فنكثتم قبل أن نغسل النبيّ (ﷺ)

وقبل أن يدرج في أكفانه [illegible] على حقّ [illegible]

[illegible] على الخلافة وحبّ الرئاسة، [illegible] أمير المؤمنين

عليّ (ﷺ) [illegible] هذا الأمر، [illegible] والإسلام لا [illegible]

[illegible] الزعامة و[illegible] والرئاسة، ولكن قد كشفت أعمالكم هذه عن سوء سريرتكم و

قبح نيّاتكم، وخبث باطنكم وتصميمكم على الشرور

وقولها سلام الله عليها: «[illegible] خوف الفتنة»

[illegible] و

[illegible] إلى هوى أنفسكم وحبّ الرئاسة [illegible] على المسلمين و

[illegible] عن الشريعة [illegible] الأمّة المسلمة، والتفرقة بينهم لنيلكم بالخلافة

[illegible] وإظهاركم النفاق واللجاجة، والعناد والعداوة

لأهل بيت النبوّة [illegible] خوف الفتنة [illegible]

[illegible]

عرضكم في [illegible] الأمّة [illegible] الخلافة عن أهلها، [illegible]

[illegible] كلّ خطيئة و[illegible]

[illegible] معاندة و[illegible] مفاسد [illegible]

ومفاسد أخلاقية و[illegible]

فكأنّ ما جرى منكم [illegible] الشهوات وحبّ الرئاسة والسيطرة

والإمارة على المسلمين [illegible] اعتذرتم عن [illegible] لحبّ [illegible]

الدنيا [illegible] في أمّة رسول الله (ﷺ) فإنّ هذا هو عين الوقوع في

النفس، والشغوف فيها، ونسيان دفع النفس وزجرها، فإنه كان جهلاً ألبتة بالعدل، وسدّاً لباب الإنصاف والمروّة لما فيه من تقديم رأيكم الباطل الفاسد على حكم الله جلّ وعلا ورسوله ﴿ص﴾ الحق «ولو اتّبع الحقّ أهواءهم لفسدت السّماوات والأرض ومن فيهنّ» المؤمنون: ٧١

ولو أنكم كنتم مؤمنين حقاً لأطعتم الله تعالى ورسوله ﴿ص﴾ وأهل بيته المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين الذين ارتضاهم الله بفضله، ولما خاصمتم مع الأئمة، فإنكم بعملكم هذا غررتم الخلافة التي لا تعزّ منه على صلاح الزمن، وشرعتم من أنفسكم في الدين حكماً، وجعلتم الخلافة بالمشاركة، بالمخالفة والاستبداد، والخلافة حقٌّ لبعض الناس وأنه حاجته على حسب شهواتكم وأهوائكم وأهدافكم وأغراضكم الفاسدة، فقد جعلتم الحقّ يدور مدار شهواتكم وأهوائكم وأغراضكم.

في نهج البلاغة: قال سيد الوصيين إمام المتقين عليّ بن أبي طالب ﴿ع﴾: «اللّهمّ إني أستعديك على قريش ومن أعانهم، فإنهم قد قطعوا رحمي وأكفؤوا إنائي وأجمعوا على منازعتي حقاً كنت أولى به من غيري، وقالوا: ألا إنّ في الحقّ أن تأخذه، وفي الحقّ أن تمنعه، فاصبر مغموماً أو مت متأسفاً» من كلامه ﴿ع﴾ ٢٠٨

وابتعدتم عن عرض الله تعالى ورسوله ﴿ص﴾ فوقعتم في فتن لها خطبها عظيم عظّم الله عزّوجلّ في خلقه وأحكامه في بريّته بترككم حقيقته التي عيّنه الله تعالى لكم وزعمتم أنكم الحق، وسميتم الحقّ بالباطل والباطل الحقّ وأنتم تعلمون.

وفيه: قال مولى الموحدين الإمام عليّ ﴿ع﴾: «إنما بدء وقوع الفتن أهواء تتّبع، وأحكام تبتدع، يخالف فيها كتاب الله، ويتولّى عليها رجال رجالاً على غير دين الله، فلو أنّ الباطل خلص من مزاج الحقّ لم يخف على المرتادين، ولو أنّ الحقّ خلص من لبس الباطل انقطعت عنه ألسن المعاندين، ولكن يؤخذ من هذا ضغث، ومن هذا ضغث، فيمزجان فهنالك يستولي الشيطان على أوليائه، وينجو الذين سبقت لهم من الله الحسنى» الخطبة ٥٠، وقد أخبر رسول الله ﴿ص﴾ بهذه الفتنة بعد وفاته كما

في نهج البلاغة ـ من كلام أمير المؤمنين الإمام عليّ ﴿ع﴾ حين خاطب به أهل

البصرة على جهة اقتصاص الملاحم ... وقام إليه (عليه السلام) رجل، وقال: أخبرنا عن الفتنة وهل سألت عنها رسول الله (صلى الله عليه وآله)؟ فقال (عليه السلام): لما أنزل الله سبحانه قوله: «الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون» علمت أن الفتنة لا تنزل بنا و رسول الله (صلى الله عليه وآله) بين أظهرنا، فقلت

يا رسول الله ما هذه الفتنة التي أخبرك الله بها؟ فقال: يا علي إن أمتي سيفتنون من بعدي ... من كلامه (عليه السلام) ... ١٥٥

فكم من كلمة حق أريد بها باطل، وكم من كلمة عدل وصلاح ضيعتها أيادي البغي والجهالة، والظلم والعداوة فأصبحت تروى أحاديث مضللة، وقد تسارعت الفتنة بعد ظهوره فأضحت الزهراء سلام الله عليها في حصر ... مرج بالحق و حصر التقوى ... الإخلاص وحصر ... ، فقد يصل أمره إلى مرحلة حدث فيها فرعون من أن يقتل موسى (عليه السلام) بعنوان الدين والخوف على الناس «وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد» غافر: ٢٦)

فالحكم بالجور بعنوانه أخف خطراً من جور ... تحت ستار ... ثم قرأت (عليها السلام) قوله تعالى: «ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين» التوبة ٤٩

ألا إن أصحاب السقيفة ... أمر ... وخطبة ... إلى ... لعامة ... في ... تركتم كتاب الله جل وعلا ... ركبه، و ... حرمات ... بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين ... و ... و ... و ... وإن جهنم لمحيطة بكم لما ... عن أمر الله تعالى و رسوله (صلى الله عليه وآله) و ... في ...

و قولها صلوات الله عليها: «فهيهات منكم وكيف بكم وأنى تؤفكون؟»

«هيهات» اسم فعل بمعنى بعُد وفيه مع البعد معنى التعجب

في نهج البلاغة ــ ومن كتاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) إلى معاوية بن أبي سفيان ... وما للطلقاء وأبناء الطلقاء، والتمييز بين المهاجرين الأولين و ترتيب

درجاتهم و تعرف صفاتهم. هيهات! لقد خلق الله أنفساً منها و خلق الحكم فيها من عنده المحكم لها.» رقم الكتاب: ٢٨)

و منه قوله تعالى «هيهات هيهات لما توعدون» المؤمنون ٣٦

فالمعنى بعدت هذه الأمور منكم معاشر الأنصار و المهاجرين فكيف يمكن أن تصدر هي منكم مع أن كتاب الله عزوجل بين أظهركم

و «أنّى» استعملت هنا في التعجب، و كيف يمكن أن تحدث منكم؟ و كيف تستحكم هذه الأمور؟ و كيف تسير بكم؟ و أنّى تؤفكون: إلى أين تصرفون؟ إلى أين تعرضون؟ و إلى أين تصرفكم أنفسكم بأهوائها الضالة مع أن كتاب الله بين أيديكم؟ و فيه تبيان كل شيء و هو هدى للمتقين

فمعنى الفقرات الثلاث: أنكم بعدتم عن الحق و الهدى و عن الخير و الصلاح و عن واقع كلمة «لا إله إلا الله» و «محمد رسول الله» فضلاً عن «علي ولي الله»

و قد أرادت الصديقة الطاهرة سلام الله عليها من كلمة «كيف» التعجب مما يكون، و استغراباً منهم كلّ ذلك مع دعواهم الإسلام و سيرهم على سنته، و هم يشاهدون الكتاب و السنّة، و ما فيهما من التصريح بخلافة أهل البيت أولي الحق المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين و ولايتهم، و أنهم هم القائمون مقام الرسول (ﷺ) في تشريعه و أحكامه فالقرآن الكريم دالّ على ثبوت الإمامة بعد الرسالة و أن الرسالة و الإمامة توأمان يرتفعان من بين واحد، و لذا قال الله تعالى «يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك و إن لم تفعل فما بلّغت رسالته» المائدة ٦٧

فلولا الإمامة و استمرارها حتى في الأئمة الطاهرين لا ذهبت متاعب الرسالة أدراج الرياح إذ وقعت بأيدي بعض المتسلطين و المتغلبين الجاهلين و بعض الظالمين.. فإلى أين قد أخذ بكم الشيطان؟!

و في ذلك توبيخ لهم على عدم تدبّرهم لآيات القرآن و براهينه القاطعة على أنّ في عترة رسول الله (ﷺ) الوراثة و الخلافة، و أنّ الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (ع) هو المقدّم على غيرهم جميعاً في أمر الإمامة و الخلافة و الولاية

في نهج البلاغة: قال سيّد الوصيّين الإمام علي (ع): «و لهم خصائص حقّ الولاية و فيهم الوصيّة و الوراثة» الخطبة الثانية.

و فيه- قال مولى الموحّدين أمير المؤمنين الإمام علي (ع): «فأين تذهبون؟ و أنّى تؤفكون؟ و الأعلام قائمة و الآيات واضحة و المنار منصوبة فأين يُتاه بكم؟ بل كيف تعمهون و بينكم عترة نبيّكم؟ و هم أزمّة الحقّ و أعلام الدّين، و ألسنة الصّدق، فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن، و ردوهم ورود الهيم العطاش» الخطبة ٨٦.

و قولها (ع): «و كتاب الله بين أظهركم»

يقال: فلان بين أظهر قومه و بين ظهرانيهم، أي مقيم بينهم، محفوف من جانبيه أو من جوانبه بهم.

و معنى الفقرة: حال كون كتاب الله و هو القرآن الكريم و آياته البيّنة الواضحة، و براهينه القاطعة، و حججه الظّاهرة، و دلائله السّاطعة، و ما فيه من الوعد و الوعيد، و البشارة و الإنذار بينكم ناطق لا يعيى لسانه

في نهج البلاغة: قال سيّد الوصيّين الإمام علي (ع): «و كتاب الله بين أظهركم ناطق لا يعيى لسانه و بيت لا تُهدم أركانه، و عزّ لا تُهزم أعوانه» الخطبة ١٣٣.

و أنتم تدّعون العمل به في أقوالكم و أفعالكم فكيف تجعلون هذا الكتاب وراء ظهوركم و تتركون العمل به، فأصبح القرآن الكريم شيئاً منسيّاً كأنّه ما جاء، و لم يبشّر به رسول الله (ص)؟

و قد أرادت الصّدّيقة الطّاهرة فاطمة الزّهراء سلام الله عليها بكلامها هذا أنّهم جعلوا القرآن الكريم وراء ظهورهم كقوله تعالى: «فنبذوه وراء ظهورهم و اشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون لا تحسبنّ الّذين يفرحون بما أتوا و يحبّون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنّهم بمفازة من العذاب و لهم عذاب أليم» آل عمران: ١٨٧-١٨٨.

في نهج البلاغة: قال أمير المؤمنين الإمام علي (ع): «نبذتم خلفكم الحقّ وراء ظهوركم، و قطعتم الأدنى، و وصلتم الأبعد» الخطبة ١٦٥.

و قولها سلام الله عليها: «أموره ظاهرة»

الأمور: جمع الأمر بمعنى الشأن و الحال و نحوها ظاهرة لا تخفى على من يتدبّر فيه حقّ تدبّر

في نهج البلاغة عن مولى الموحّدين الإمام المتّقين عليّ بن أبي طالب (ع): «ثمّ أنزل عليه الكتاب نوراً لا تطفأ مصابيحه، و سراجاً لا يخبو توقّده، و بحراً لا يدرك قعره، و منهاجاً لا يضلّ نهجه، و شعاعاً لا يظلم ضوؤه، و فرقاناً لا يخمد برهانه، و بنياناً لا تهدم أركانه...» الخطبة: ١٨٩)

و قولها صلوات الله عليها: «و أحكامه زاهرة»:

الأحكام جمع الحكم، و هو بوجه الخطاب نحو الأمر و نفس الكلام الموجّه إليه و المعنى المندمج في الخطاب المؤدّى باللفظ و الكتاب

و الزّاهرة: المتلألئة المشرقة من زهر السّراج و القمر و الوجه [illegible] و زهر النبت و [illegible] تلألأ

في نهج البلاغة عن سيّد الوصيّين الإمام عليّ (ع): «فهو مصباح الهدى في قلبه» الخطبة ٩٦

و معنى الفقرة و أحكام القرآن الكريم من حلاله و حرامه و أمره و نواهيه، من وعده و وعيده، و من تبشيره و إنذاره كالعلم المرفوع في الشوارع و في قمّة و رأس الجبل الشّاهق الّذي ينظر إليه القريب و البعيد متلألئة مشرقة

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين الإمام عليّ (ع): «فقبضه (ص) إليه كريماً و خلّف فيكم ما خلّفت الأنبياء في أممها إذ لم يتركوهم هملاً بغير طريق واضح و لا علم قائم، كتاب ربّكم مبيّناً حلاله و حرامه، و فرائضه و فضائله، و ناسخه و منسوخه...» الخطبة الأولى

و قولها عليها سلام الله: «و أعلامه باهرة»

الأعلام جمع العلم و هو العلامة الّتي يعلم بها الشّيء، و ينصب في الشوارع، و يطلق بهذه المناسبة على الجبل و على رأس الجبل الشّاهق، و على الرّاية و اللواء و نحوها

و الباهر هو الغالب نوره و ضياؤه

في نهج البلاغة قال مولى الموحدين الإمام علي ﴿ع﴾: «فسبحان الذي بهرت العقول عن وصف خلق جلّاه للعيون فأدركته محدوداً مكيّفاً» الخطبة ٦٤)

و معنى الفقرة: و جلاء القرآن الكريم سوره و صفاته عليه على كلّ علم سواه.

في نهج البلاغة قال إمام المتقين أمير المؤمنين علي ﴿ع﴾: «ثمّ أنزل عليه الكتاب نوراً لا تطفأ مصابيحه... فهو معدن الإيمان و بحبوحته... و منازل لا يضلّ نهجها المسافرون وأعلام لا يعمى عنها السائرون.» الخطبة: ١٨٩)

و قولها عليها صلوات الله: «و زواجره لائحة»

الزواجر جمع الزاجر و المراد بها النواهي بقرينة ذكر الأوامر بعد ذلك، و اللائحة الواضحة و المعنى: و النواهي في القرآن الكريم مبيّنة واضحة لا تخفى على من له أدنى فهم و طيب الولادة

في نهج البلاغة: قال أمير المؤمنين الإمام علي ﴿ع﴾: «فالقرآن آمر زاجر، و صامت ناطق، حجّة الله على خلقه أخذ عليه ميثاقهم و ارتهن عليهم أنفسهم أتمّ نوره و أكمل به دينه» الخطبة ١٨٣

و قولها ﴿ع﴾: «و أوامره واضحة»

و أوامر القرآن الكريم مبيّنة، واضحة لا تخفى على أحد منهم

في نهج البلاغة قال يعسوب الدين الإمام علي ﴿ع﴾: «كتاب ربّكم فيكم مبيّناً حلاله و حرامه، و فرائضه و فضائله... و بين مثبت في الكتاب فرضه...» الخطبة الأولى

و فيه من كتاب أمير المؤمنين الإمام علي ﴿ع﴾ كتبه لمالك الأشتر النخعي رضوان الله تعالى عليه: «أمره بتقوى الله و إيثار طاعته، و اتّباع ما أمر به في كتابه من فرائضه و سننه التي لا يسعد أحد إلا باتّباعها، و لا يشقى إلا مع جحودها و إضاعتها» نهج الكتاب ٥٣)

و قولها صلوات الله عليها: «و قد خلّفتموه وراء ظهوركم»

تلك الصفات النيّرة و النعوت التي جمعها القرآن الكريم، و قد تركتموه و نبذتموه وراء ظهوركم و اشتريتم به ثمناً قليلاً فبئس ما اشتريتم بسوء

و قولها (ع) «أرغبة عنه تريدون»؟

الاستفهام توبيخي و الرغبة عن شيء الإعراض و الإدبار عنه

و معنى الفقرة أنّ الصدّيقة الطّاهرة فاطمة الزّهراء سلام الله عليها قد أنكرت على أصحاب السّقيفة السّخيفة المشؤومة و أذنابها و وبّختهم بقولها (ع) أترغبون عن هذا القرآن الكريم؟! و تعرضون عنه؟ أفٍّ لكم!

و قولها سلام الله عليها «أم بغيره تحكمون»؟

أو بغير حكم هذا القرآن الكريم و هو حكم الله جلّ و علا تحكمون طبقاً لأهوائكم و آرائكم و شهواتكم. و هذا أيضاً توبيخ في غاية الأمر من فضلكم كما فعلتم، فعليكم الذمّ و التّوبيخ و العقاب فيما فعلتم

و الفقرة في معنى قوله تعالى: «أفحكم الجاهلية يبغون و من أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون» (المائدة: ٥٠) و قوله سبحانه: «أفغير الله أبتغي حكماً و هو الّذي أنزل إليكم الكتاب مفصّلاً» (الأنعام: ١١٤) و قوله عزّ و جلّ: «الّذين يستحبّون الحياة الدّنيا على الآخرة و يصدّون عن سبيل الله و يبغونها عوجاً أولئك في ضلال بعيد» (إبراهيم: ٣) و قوله جلّ و علا: «أولئك يعرضون على ربّهم و يقول الأشهاد هؤلاء الّذين كذبوا على ربّهم ألا لعنة الله على الظّالمين الّذين يصدّون عن سبيل الله و يبغونها عوجاً و هم بالآخرة هم كافرون» (هود: ١٨-١٩)

و قوله تعالى: «بئس للظّالمين بدلاً» (الكهف: ٥٠)

فبئس البدل الّذي اخترتموه و جعلتموه بدلاً من كتاب الله تعالى من الحكم الباطل المستوجب لدخول النّار و العذاب الأليم و غضب الملك الجبّار

و قوله عزّ و جلّ: «و من يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه و هو في الآخرة من الخاسرين» (آل عمران: ٨٥)

و من يبتغ ديناً غير الإسلام و حكماً غير ما حكم به القرآن الكريم من الأحكام، فأولئك هم المعتدون الكافرون الظّالمون الفاسقون و لن يقبل ذلك منهم في الآخرة و أولئك هم الخاسرون

قال الله تعالى «و من يعص الله و رسوله و يتعدّ حدوده يدخله ناراً خالداً فيها و له عذاب مهين» النّساء: ١٤)

و قال: «و من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ـ و من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظّالمون ـ و من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون» المائدة: ٤٤ـ٤٥ و ٤٧)

في نهج البلاغة قال مولى الموحّدين سيّد الوصيّين الإمام علي (عليه السلام): «فمن يتبع غير الإسلام ديناً تتحقّق شقوته، و تنفصم عروته، و تعظم كبوته، و يكن مآبه إلى الحزن الطّويل و العذاب الوبيل» خطبة: ١٦١

و قولها عليها صلوات الله: «ثمّ لم تلبثوا إلّا ريث أن تسكن نفرتها»

اللبث من لبث بالمكان: مكث و توقّف، قال الله تعالى: «للبث في بطنه إلى يوم يبعثون» الصّافّات: ١٤٤) أي مكث.

الرّيث: الإبطاء، و راث علينا خبر فلان إذا أبطأ، و استرثت خبر إذا استبطأته، و الرّيث: هو قدره.

في نهج البلاغة قال أمير المؤمنين الإمام علي (عليه السلام): «لم يعترض دونه ريثُ المبطئ، و لا أناة المتلكّئ» خطبة: ٩

النّفرة ـ بكسر النّون و فتحها ـ: الوحشة و الذّهاب من الأمر الوحش إذا ذهب و لم يكن معتاداً

و نفرت الدّابّة: جزعت و تباعدت.

في نهج البلاغة قال سيّد الوصيّين الإمام علي (عليه السلام): «و دعاهم ربّهم فنفروا و ولّوا، و دعاهم الشّيطان فاستجابوا و أقبلوا» الخطبة: ١٤٤)

و معنى الفقرة: ثمّ لم تلبثوا بعد ... إلى ذهاب أثر مصيبة وفاة رسول الله (صلّى الله عليه و آله) زمناً قليلاً حتّى تغتصبوا الخلافة، و تقتمصوا بها، فلبستموها بلا استحقاق لكم، و هو ثوب من به لأهليّة لخلافته و للإمامة و الولاية الإلهيّة على المجتمع البشري و لستم بأهله. فلمّا استقرّ أمر الخلافة ـ في قلّ زمان خدعته و فتنته ـ و تقلّدتم حملها الصّعب الّذي لا يكاد يسهل

و يمهد لكم [illegible] لمثل هذه [illegible] سهلت لكم [illegible] الانحراف عن الصراط المستقيم

و قولها سلام الله عليها: «وَيَسْلَسَ قيادها»

السلس: السهولة و لين في عمل، و السلس: السهل [illegible] سلس سهل و لان و في الحديث «إن الحور [illegible]»

و [illegible] السلس [illegible] في [illegible] و [illegible]

[illegible] خلاف [illegible] من حبل و غيره يقال: فلان سلس القياد لين سهل الانقياد و قد [illegible] الخلافة [illegible] في [illegible] بأذيالها [illegible] التي [illegible]

و معنى الفقرة: و لكم لم تصبروا إلاّ بقدر أن يسهل لكم قياد هذه الفتنة و هي الخلافة المغصوبة [illegible]، و [illegible] لكم [illegible] التي لا يكاد [illegible] و يمهد لكم

و قولها (عليها السلام): «ثمّ أخذتم تورون وقدتها»

الإيراء ـ مصدر أورى ـ من ورى [illegible] و [illegible] التي تظهر نارة سريعاً

و يقال فلان [illegible] سريعاً

قال الله تعالى: «أفرأيتم النار التي تورون» الواقعة ٧١

في نهج البلاغة «حتى أورى قبس القابس و أضاء الطريق للخابط» الخطبة ٧١

أي حتى أظهر نوراً [illegible] و هدى، كأنه مأخوذ من [illegible] شيء من وراء شيء.

كما يقال تواري العرض أي غاب

و [illegible] و [illegible] و [illegible]

و معنى الفقرة: ثمّ شرعتم [illegible] و [illegible] الفتنة [illegible] و [illegible] لكم الخلافة المغصوبة لأبي بكر بن أبي قحافة لا صلاحية له لها أصلاً

و قد صرّح [illegible] الإمام علي (عليه السلام) [illegible] في قوله

في نهج البلاغة «أما و الله لقد تقمّصها ابن أبي قحافة، و إنّه ليعلم أنّ محلّي منها محلّ

القطب من الرحى، ينحدر عني السيل، ولا يرقى إليّ الطير» الخطبة الشقشقية.

وقولها سلام الله عليها: «وتهيجون جمرتها»

التهييج الإثارة، والجمرة النار المتوقدة من الحطب، فإذا برد فهو فحم، جمرة النار القطعة الملتهبة.

والمعنى: وأنتم تثيرون شرارة هذه الفتنة يوم السقيفة، وتبعدون أمر الخلافة عن أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين.

وقولها صلوات الله عليها: «وتستجيبون لهتاف الشيطان الغويّ»

وأنتم معشر الأنصار والمهاجرين من أصحاب السقيفة الشجرة المشؤومة، لذلك تستجيبون في كلّ ظرف من الظروف إلى نداء الشيطان، دعوة الشيطان المغويّ لكم إلى إيقاد الفتنة وإخراج نارها، وتهييج جمرتها وإثارة شرارها حتى بعد خمودها، فتستمرّون غصب الخلافة زمناً بعد زمن.

فقد أخبرت الصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء سلام الله عليها بقولها هذا عن مستقبل أمر الخلافة واستمرار غصبها.

وقولها (عليها السلام): «وإطفاء نور الدين الجليّ»

الإطفاء مصدر أطفأ، من طفأت النار: إسكانها وإخمادها وإسكاتها، ومنه أطفأت الفتنة: أسكنتها وأسكتها على سبيل الاستعارة.

قال الله تعالى: «يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم» الصف ٨، أي إسكانه وإخماده، وهو تهكّم بهم لإرادتهم إبطال الدين الإسلاميّ الحقّ ورجوعهم إلى شركهم السابق بقوله تعالى: «أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم» آل عمران ١٤٤.

فالمعنى: إنّكم اتّبعتم الشيطان، واستجبتم دعوته لكم إلى إيقاد الفتنة واستمرارها، حتى تريدوا إطفاء نور الدين الإسلاميّ الحقّ.

في نهج البلاغة، عن مولى الموحّدين إمام المتّقين عليّ بن أبي طالب (عليه السلام): «حاول القوم إطفاء نور الله من مصباحه، وسدّ فوّاره من ينبوعه» الخطبة ١٦٢.

وقولها سلام الله عليها: «وإهمال (إخماد خ) (إهماد خ) سنن النبيّ الصفيّ»

الإهمال للشيء: تركه سُدًى، والمُهمَل لم يُستعمل عمداً أو نسياناً، وأهمل أمره لم يُحكِمه

والمهمل من الكلام خلاف المستعمل، وهملت الإبل: تركها سُدًى مسيّبة ليلاً ونهاراً

وتهامل في شيء: تكاسل فيه وتوانى. الهُمّال: الأرض التي لا يعرف أحد

إحداث الشيء وحدوثه، المعنى: إحداثه بكيفيّته

والشُّبَه جمع شُبْهة وهي غير معلومة، شبّهت بالإبل، فتُسند إليها الإهمال، أو شبّهت بالأنوار فتُسند إليها الإطفاء.

الصّفو نقيض الكدر، وصفوة من كلّ شيء خالصه، وصفو الخالص من كلّ شيء و خياره الصافي، شيء نقيّ صافٍ بلا غمّ ولا كدر

والمعنى: وحاولتم إهمال سنن النبيّ المصطفى ﷺ وبدعتم البدع، فجعلتم سنّته مهملة

في نهج البلاغة من كتاب لأمير المؤمنين الإمام علي ﷺ: «قد خاضوا بحار الفتن، وأخذوا بالبدع دون السنن، وأرز المؤمنون، ونطق الضالّون المكذّبون» الخطبة ٥٣

وفيه من كتاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ كتبه لمالك الأشتر النخعي رضوان الله تعالى عليه لمّا ولّاه على مصر: «... فإنّ هذا الدين قد كان أسيراً في أيدي الأشرار، يُعمل فيه بالهوى، وتُطلب به الدنيا ...» رقم الكتاب: ٥٣)

وقولها صلوات الله عليها: «تُسِرّون حسواً في ارتغاء»

الإسرار: ضدّ الإعلان من السرّ، وهو الأمر الخفيّ والخفيّ، والمراد به إخفاء الشيء

الحسو: شرب مرق وغيره شيئاً فشيئاً، من حسا يحسو، تحسّى: شرب قليلاً قليلاً، ومن أمثالهم: نوم كحسو الطير، إذا نام قليلاً، يشبه بجرع الطير في سرعته ابتعاضه أو في كونه قليلاً قليلاً

الارتغاء: هو شرب الرّغوة، وهي زبدة اللبن المشوب بالماء

وهذه الجملة «تسرّون حسواً في ارتغاء» مثل يضرب لمن يظهر أمراً ويريد غيره، و من باب المثال كي يقولون: يأخذ الشخص اللبن، فيظهر أنّه يريد الرّغوة فقط، ولا يريد غيرها فيشربه، وهو ينال من اللبن شيئاً بعد شيء

و معنى الفقرة: أنكم تظهرون الشيء بلسان [illegible] لا تريدون [illegible] و [illegible]

و قولها عليها السّلام: «و تمشون لأهله و ولده في الخمر و الضّرّاء»

الخَمَر ما يسترك من شجر و غيره كأنّه مشتقّ من خمر بمعنى ستر. يقال دخل فلان في خمار النّاس ما يواريه و يستره منهم

الضَّرّاء بتخفيف الرّاء: الاستخفاء، و الشّجر الملتفّ في الوادي [illegible] من [illegible] صاحبه و خدعه يدبّ له الضَّرّاء و يمشي له الخمر

الظّاهر أنّ الضّمير في «أهله و ولده» يعود على [illegible]

و معنى الفقرة أنّكم أصحاب [illegible] و [illegible] [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

و قولها سلام الله عليها «و نصبر [illegible] منكم على مثل حزّ المدى»

الحزّ: القطع، أو قطع الشّيء من غير إبانة [illegible]

المُدى جمع المدية و هي الشّفرة و السّكّين لأنّه يقطع مدى عمر الإنسان [illegible] قريب للمعقول بالمحسوس

و المعنى: [illegible] منكم و صبرنا [illegible] على قطع [illegible] السّكّين

و قد أشار أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﷺ في هذا المعنى بقوله

في نهج البلاغة: «اللّهمّ إنّي أستعديك على قريش و من أعانهم، فإنّهم قد قطعوا رحمي ... و صبرت من كظم الغيظ على أمرّ من العلقم، و آلم للقلب من حزّ الشّفار» من كلامه ﷺ رقم: ٢٠٨)

و قولها صلوات الله عليها «و وخز السنان في الحشا»

الوخز: الطعن بالرمح و نحوه لا يكون نافذاً، و وخزه بالخنجر طعنه نحو لا نفاذ

السنان: حديدة حادة في رأس الرمح

الحشا: المعاء، و ما اضطمّت عليه الضلوع، و جمعه: أحشاء، و الحشا كناية عن الجوف

و المعنى: أنّا نصبر على حرارة هي من حزّ ضربكم علينا في غصب حق الوصي المعصوم مثل حالة من يقع وخز السنان منه في الحشا

و هذا إشارة إلى شدّة الآلام التي أصابت أهل البيت لما غصب حق الوصي المعصوم صلوات الله عليهم أجمعين بما شاهدوه من غصب حقهم بعد رسول الله ﷺ في الخطر باسم الله سبحانه و باسم الدين

و إلى هذا المعنى قد أشار مولى الموحّدين إمام المتّقين علي بن أبي طالب ﷺ بقوله في نهج البلاغة: «فرأيت أنّ الصبر على هاتا أحجى، فصبرت و في العين قذى و في الحلق شجا، أرى تراثي نهباً» الخطبة الشقشقية

و قولها سلام الله عليها: «و أنتم الآن تزعمون أن لا إرث لنا».

الإرث: استحقاق مال الميت بموته على النحو المقرّر في الشريعة الإلهية

الوارث: يطلق على من له الإرث، جمعه الورثة

الميراث و التّراث: يطلقان على ما يخلفه الميّت لورثته

المورِّث: هو الميت

الموروث: هو المال

و قد توجّهت الصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء الراضية المرضية سلام الله عليها في خطابها إلى أبي بكر بن أبي قحافة و أذنابه من أصحاب السقيفة المشؤومة و مرديها فقالت: أنتم الآن يا أصحاب السقيفة و مرديها من المهاجرين و الأنصار تزعمون أن لا إرث لنا أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين؟!

ثمّ قرأت قول الله عزّوجلّ

«أفحكم الجاهلية يبغون و من أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون» المائدة: ٥٠.

فليس هذا الحكم منكم إلّا الرجوع إلى أحكام الجاهلية، فإنّ حكمكم هذا لا يرجع إلى شريعة من الشرائع السماوية لأنّ كلّ من لا بدّ بعد وفاة صاحبه أن يرجع إلى وارثه، فمن أحسن من الله تعالى حكماً لقوم يؤمنون بالله عزّوجلّ، و يوقنون بيوم البعث و الحساب و الجزاء، و يعملون بما شرعه الله جلّ وعلا لهم على لسان نبيّه (ص)

و قولها صلوات الله عليها: «أفلا تعلمون؟ بلى تجلّى لكم كالشمس الضاحية أنّي ابنته»

الضاحية: الظاهرة البيّنة التي لا تخفى، كناية عن الأمر الواضح الّذي لا شبهة فيه، و الشمس الضاحية: الواضحة في ضحو النهار، و ضحوة النهار: بعد طلوع الشمس ثمّ بعده الضحى، و هي حين تشرق الشمس، ثمّ الضحاء، و هو عند ارتفاع النهار الأعلى

و ضحى الطريق إذا ظهر، و ضحيت للشمس ضحاً، إذا برزت للشمس، و منه قوله تعالى «و الشمس و ضحاها» الشمس: ١.

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (ع): «فعرفت ترى الضاحي من حرّ الشمس فتظلّه» من كلامه (ع) رقم ٢١٤

«أفلا تعلمون» إنكار من الصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء سلام الله عليها على أصحاب السقيفة و مريديهم، و توبيخ لهم.

و المعنى: أفلا تعلمون أنّ فدك كانت إرثاً من رسول الله (ص) لي، فهي ميراث ورثته (ص) و قد علمتم و وضح لكم ذلك كالشمس حينما تكون في وقت الضحى، قد تجلّى بها كلّ شيء و تعدم بها كلّ ظلام، كما أنّكم تعلمون علماً أنّي ابنته (ص) مثل ما ترون الشمس الضاحية

و لعلّ الترقّي بملاحظة أنّكم تعلمون أنّ فدكاً كانت إرثاً لي من رسول الله (ص) علم اليقين، تعلمون أنّي ابنته (ص) عين اليقين، فهو ترقّ من علم اليقين في أمر فدك إلى عين اليقين في كونها سلام الله عليها ابنة رسول الله (ص)، و عين اليقين هو أعلى من علم اليقين

و في البحار: قال العلّامة المجلسي رضوان الله تعالى عليه: و اعلم أنّه قد وردت

الروايات المتضافرة التي سنعرف بعضها في محلها، ادّعت أنّ فدك كانت نحلة لها من رسول الله ﷺ. فعلى هذا تعرّضت صلوات الله عليها في هذه الخطبة لتلك الدعوى بأنّها عن طريق الإرث إذ كانت نحلة بعد ما ردّ أبو بكر شهادة أمير المؤمنين عليه السلام، ومن شهد معه. وقد كانت تأتي بما تقول والحاضرون معتقدين بصدقه متمسّكة بحديث الميراث لكونه من ضروريات الدين. انتهى كلامه. وقال بعض المحقّقين: ويكون مسألة الميراث من المسلّمات في شرائع الأوّلين والآخرين، بل بين أهل كلّ مذهب ودين ولو من غير المليّين

الفصل العاشر: في استدلال الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها على إثبات الإرث و فدك لها بالآيات القرآنية. فقالت ﷺ

«أيّها المسلمون! أأغلَبُ على إرثيه وأنا بنته؟!
يا ابن أبي قحافة! أفي كتاب الله أن ترث أباك ولا أرث أبي؟
«لقد جئت شيئاً فريّاً»

أفعلى عمد تركتم كتاب الله، ونبذتموه وراء ظهوركم؟ إذ يقول «وورث سليمان داود» وقال فيما اقتصّ من خبر يحيى بن زكريا عليهما السلام إذ قال «فهب لي من لدنك وليّاً يرثني ويرث من آل يعقوب» وقال «وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله» وقال: «يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظّ الأنثيين» وقال «إن ترك خيراً الوصيّة للوالدين والأقربين بالمعروف حقّاً على المتّقين»

وزعمتم أن لا حظوة لي، ولا إرث من أبي، ولا رحم بيننا؟!
أفخصّكم الله بآية أخرج أبي منها؟ أم هل تقولون إنّ أهل ملّتين لا يتوارثان؟!
أو لست أنا وأبي من أهل ملّة واحدة؟ أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمّي؟»

الشرح: إنّ الصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء سلام الله عليها خاطبتهم خطاب توبيخ وإنكار، ولم تقل «أيّها المؤمنون» بسبب أنّ الإيمان لم يدخل في قلوبهم، فإنّهم لو كانوا مؤمنين ما فعلوا ما فعلوه. وقد حذفت حرف النداء عمداً ثم

الاستفهام توبيخيّ إنكاريّ، والمعنويّة على نفي أحده من صفحته ظهرٌ وخورٌ و عهرٌ وعته بلا وجه مسوّغ

وفي بعض النسخ «إيهاً» بدل «إيّ» و«إرثيه» والهاء في «إرثيه» للسكت و المقصود إرثي كقوله تعالى «هاؤم اقرؤوا كتابيه إنّي ظننت أنّي ملاقٍ حسابيه» الحاقة: ١٩ - ٢٠ وبعد هذه الهاء هاء الوقف تثبت في الوقف وتسقط في الوصل والهاء في «إرثه» على ما في بعض النسخ ترجع إلى رسول الله ﷺ.

والمعنى: يا أيّها الذين يقولون بأفواهكم آمنّا، ولم يدخل الإيمان في قلوبكم كما قال الله تعالى فيهم «يا أيّها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنّا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم» المائدة: ٤١

أفي الإنصاف أن أُغلب على إرثي وبمسمع منكم، وأنتم تعلمون بوقوع الأمر كالشمس في رابعة النهار؟!

ثمّ توجّهت الصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء سلام الله عليها في خطابها إلى أبي بكر فقالت «يا ابن أبي قحافة» حيث ادّعى على لسان رسول الله ﷺ «إنّا معاشر الأنبياء لا نورّث» فذكرت هذه الآيات الشريفة لردّ دعوى أبي بكر فكان على أبي بكر أن يقيم الدليل على تخصيص هذه العمومات «أفي كتاب الله أن ترث أباك ولا أرث أبي؟» ويبيّن حكمت بها بالأحكام بغير ما أنزل الله، وخلاف ما أنزل الله تعالى «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ـ هم الظالمون ـ هم الفاسقون» المائدة: ٤٤ ـ ٤٥ و ٤٧) وفضلاً عن خلاف حقّ ما نزل به جبرئيل سلام

قولها ﷺ: «لقد جئت شيئاً فريّاً» الفريّ ـ من الفرية ـ الكذب عن عمد، ومنه الافتراء.

هذا تكذيب صريح من الصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء سلام الله عليها لأبي بكر في نسبته هذا الكلام «إنّا معاشر الأنبياء لا نورّث» إلى رسول الله ﷺ.

والمعنى: إنّك يا أبا بكر قد جئت بنسبتك هذا الكلام الكذب إلى رسول الله ﷺ أمراً منكراً قبيحاً وكذباً عظيماً بديعاً

و قولها صلوات الله عليها: «أفعلى عمد تركتم كتاب الله و نبذتموه وراء ظهوركم»؟ خطاب لأذناب أبي بكر من أصحاب السقيفة شجرته الشؤمة و مردتها، بعد أن نسب ﴿صلى الله عليه و آله﴾ الكذب العظيم عن عمد لأبي بكر

و هذا الاستفهام تقريري، إذ لا يمكن كذبهم هذا عن سهو بعد وضوح أمر الشريعة المحمّدية و شيوع التوارث بعمومات مدلّه عليه من الكتاب المبين و السنّة الثابتة و العقل السليم و الإجماع التامّ

و قولها ﴿عليها السلام﴾: «إذ يقول: «و ورث سليمان داود»» ... كيف نسبت إلى أبي بكر هذا الكذب إلى رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ حين يقول الله تعالى في القرآن الكريم: «و ورث سليمان داود» و قال فيما اقتصّ من خبر زكريّا ﴿ع﴾ إذ قال: «فهب لي من لدنك وليّا يرثني و يرث من آل يعقوب» مريم: ٦ و قال: «و أولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله» الأنفال: ٧٥ و قال: «يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظّ الأنثيين» النساء: ١١ و قال: «إن ترك خيرا الوصيّة للوالدين و الأقربين بالمعروف حقّا على المتّقين» البقرة: ١٨٠

و قولها ﴿عليها السلام﴾: «و زعمتم أن لا حظوة لي و لا إرث من أبي و لا رحم بيننا؟!»

لا يخفى على القارئ غير المغترّ أنّ هؤلاء الخاصين من أصحاب السقيفة الشجرة الشؤمة و مردتها لم يزعموا ذلك، بل إنّهم زعموا قرابة فاطمة الزهراء سلام الله عليها من أبيها، و زعموا أنّ لها إرثا من أبيها ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و أنّ الرحم محقّق بينهما، و لكنّهم لمّا لم يعملوا بعلمهم بل خالفوا عن مقتضى ما زعموا أنزلتهم فاطمة الزهراء صلوات الله عليها منزلة الجاهل و هذا من بلاغة الكلام بحسب مقتضى الحال و المقام

و الحِظوة ـ بكسر الحاء و ضمّها ـ المكانة و المنزلة و الحظوة و الحرمة عند الناس يقال: حظيت المرأة عند زوجها إذا دنت من قلبه، و حظي فلان عند الناس إذا أحبّوه، و رفعوا منزلته، فحظو حرمته، و حظّيته على فلان فضّلته عليه، و حظي بالمال و الرزق و العلم نال حظّا منه، و الحظوة النصيب

و في تعقيب نافلة المغرب: «و ما يقرّب منه و يُحظي عندك» أي ما يوجب لي الحظّ عندك

و قوله سلام الله عليها «أفخصّكم الله بآية أخرج منها أبي؟»

الاستفهام توبيخيّ إنكاريّ بأنّ آيات الإرث بعمومها تشمل جميع المكلّفين و لا تخصّص فيها بآية أخرى تشمله إلى الأنبياء و المرسلين و إلى خاتم النّبيّين صلوات الله عليهم أجمعين فحينئذ لابدّ من أن تكون آيات الإرث مخصوصة بالأمّة، و يكون النّبيّ (ﷺ) خارجاً عنها داخل في آية أخرى فتكون عندئذ مورّثات من خصائص النّبيّ (ﷺ) ولا حجّة على ذلك اصلاً عقلاً و نقلاً، و إنّ جعل رسول الله (ﷺ) مع بنته الصّدّيقة الطّاهرة فاطمة الزّهراء سلام الله عليها من أهل ملّتين مختلفتين

يجعلهما من ملّة الإسلام و الأخرى من ملّة الكفر معاذ الله من ذلك حتّى لا يرث أحدهما من الآخر كما هو المقرّر في الشّريعة عند اختلاف المتوارثين في الدّين و الملّة و هذا بعيد ظاهر البطلان و قد أشارت الصّدّيقة الطّاهرة سلام الله إلى الشّق الثّاني

بقولها عليها السّلام «أم هل تقولون إنّ أهل ملّتين لا يتوارثان؟»

أم تقولون بأنّ أصحاب السّقيفة المشؤومة و مرتدّيهم من المهاجرين و الأنصار يعتقدون في بكر بن أبي قحافة إنّ في رسول الله (ﷺ) و بنته من أهل ملّتين مختلفتين و إنّ أهل ملّتين مختلفتين لا يتوارثان؟ فما لكم!

و قولها سلام الله عليها «أو لست أنا و أبي من أهل ملّة واحدة؟»

ناظر إلى ردّ الفقرة الثّانية على سبيل التّوبيخ و التّقرير، فإنّ النّفي في الشّق الثّاني

و قولها صلوات الله عليها «أم أنتم أعلم بخصوص القرآن و عمومه من أبي و ابن عمّي؟»

ناظر إلى ردّ الفقرة الأولى من باب الحثّ و النّشر المشوّش و هو كون عمومات الإرث مخصّص لوجب على رسول الله (ﷺ) و أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (ع) و صيّه أن يعلمانه و يعلّمان الأمّة و يبيّناه لهم و حيث أنّه ليس كذلك مع أنّه لم يخطر هذه المسألة ببال أحد قبل هذه المرحلة و في الجملة توبيخ و إنكار من جهة و تقرير و إثبات من جهة أخرى، فإنّ الصّدّيقة الطّاهرة فاطمة الزّهراء سلام الله عليها تعلم بالقرآن الكريم من هؤلاء القوم الجاهلين الغافلة من أصحاب السّقيفة المشؤومة و أنت أعلم بالقرآن المجيد

لأبيها محمد ﷺ و ابن عمّها امير المؤمنين علي ﷺ [illegible]

الفصل الحاديعشر: في تهديد أصحاب السقيفه و اذنابهم بنار جهنم و عذابها

فقالت صلوات‌الله عليها

«فدونكها مخطومة مرحولة تلقاك يوم حشرك فنعم الحكم الله و الزعيم محمد ﷺ و الموعد القيامة، و عند الساعة ما تخسرون، و لا ينفعكم إذ تندمون، و لكلّ نبأ مستقرّ و سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه و يحلّ عليه عذاب مقيم»

الشرح: «دون» إسم فعل بمعنى خذ، و ضمير الخطاب لأحد لأبي بكر بن أبي قحافه أوّل الغاصبين و الضمير في «دونكها» يرجع إلى فدك المذكور عنها سابقاً، و الأمر بأخذها تهديد له كقوله عزوجلّ: «اعملوا ما شئتم إنّه بما تعملون بصير» فصلت: ٤٠

مخطومة - من الخطام - كلّ ما يدخل في انف البعير ليقاد به، و هو الزمام، و منه مخطومة: مزمومة. يقال: خطمت البعير: زممته و سمّي به لأنّه يقع على خطم و هو الأنف و ما يليه

مرحولة - من الرّحل - للناقة كالسرج للفرس و رحل البعير شدّ على ظهره الرّحل و قد شبّهت الصدّيقة الطاهرة سلام‌الله عليها فدك في كونها مسلّمة لا يعارضه في أخذها أحد بالناقة المنقادة المهيّأة للركوب

و ذلك أنّ فاطمة الزهراء صلوات‌الله عليها لمّا اعترضت و بيّنت أصحاب السقيفه لسخيفة المشؤومة و ذنبهم غاصبة، خطبت و وجّهت الخطاب على فدك و ارثها، غاصب فدك و الخلافة و هو ابوبكر بن ابي قحافة الذي جلس في غير موضعه الذي ليس له زوراً و تزويراً و بهتاناً و فرية، قالت له: فدونك يا ابابكر هذه الغصبة التي لا تنسى على مضيّ الأعصار، و لا تخفى على ممرّ الأجيال، و اغتصابك لي ارثي و هي فدك مخطومة كما يخطم الجمل المقود، مرحولة قد هيّئ سرجها لك على وجه أن تركب الناقة، و عليها رحلها و سرجها، و بذلك جعل زمامها بيدك لما عارضت من موافقة المهاجرين و الأنصار لك ضعفاً منهم بالمال و الجاه و السلطان

و أعدّ ذلك أبوبكر بهذا التحريم الاقتصادي و الاغتصاب المالي لفدك و منع الإرث و

النّهي عن الخمس بعد اغتصابه للخلافة حذراً من أن يكون أهل فدك و إدرارها عوناً و الخمس نصراً لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب و لابنة رسول الله فاطمة الزّهراء صلوات الله عليهم أجمعين و عضداً للحقّ على الباطل و أعواناً لخليفة رسول الله الواقعي ضدّ المدّعين كما أنّه ذنب لا يُغتفر للناكثين و أعوان المستكبرين في كلّ طرف من الظروف ولقد ردّ أبو بكر شهادة الشّهود الذين جاءت بهم، و قد كان ذلك يعدّ عملاً آخر يضاف إلى أعمال أبي بكر الّتي تخطّى فيها كتاب الله تعالى و سنّة رسوله ﷺ فادّعى حديثاً كذباً و بهتاناً و فرية في باب المواريث

و أمّا الأمر بردّ شهادة الشّهود الّذين كانوا هم مؤيّدين من عند الله تعالى و عند رسوله ﷺ و هم سيّدا الوصيّين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب و سبطا رسول الله الحسن و الحسين عليهم صلوات الله و الذّاكرين و أئمّته و لا لشيء إلّا بسبب عصبيّتهم، و خلاف القاعدة في باب الملكيّة و هي قاعدة اليد مع أنّ فدك كانت حقّاً للصّدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها آتاها إيّاها رسول الله ﷺ بأمر منه جلّ و علا «فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ» (الروم ٣٨) و كانت الصّدّيقة الطّاهرة (عليها السلام) مستولية على فدك في زمن رسول الله ﷺ

و قولها (عليها السلام): «تلقاك يوم حشرك»

خطاب لأبي بكر بن أبي قحافة أوّل الغاصبين فدك و خلافة أي خذ فدك يا أبا بكر لتخاصمك يوم حشرك، فتصيبك حرقتك، أو أنّ أهل بيت الوحي المعصومين تلقاك يوم حشرك فتخاصمك في عرصة المحشر

و قولها صلوات الله عليها «فنعم الحَكَمُ الله»

فنعم الحكم و الحاكم بين أهل بيت الوحي المعصومين، و بين هؤلاء القوم الغاصبين الجائرين المزوّرين في كلّ قصّة، هو الله تعالى يوم القيامة

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) ـ في أمر فدك ـ «بلى كانت في أيدينا فدك من كلّ ما أظلّته السّماء، فشحّت عليها نفوس قوم، و سخت عنها نفوس قوم آخرين، و نعم الحكم الله» من كتابه (عليه السلام) رقم ٤٥

و فيه ـ و من كلام أمير المؤمنين الإمام عليّ (عليه السلام) لبعض أصحابه و قد سأله كيف

دفعكم يوم حكمكم عن هذا الحق و [illegible] حقٌ [illegible] (ﷺ) «[illegible] أثبت الحقّ
الوصيين، تزيلُ في [illegible] و [illegible] ظلمهم و حقّ السنة، و [illegible] عليهم
أمّا الاستبداد علينا بهذا [illegible] و نحن الأعلون نسبًا و الأشدّون برسول الله (ﷺ) نوطًا
فإنّها كانت أثرةٌ شحّت عليها نفوس قوم و سخت عنها نفوس آخرين، و الحكمُ الله و
المعود إليه يوم القيامة.» رقم كلامه (ع) [illegible]

و قولها (ع): «و الزعيمُ محمّدٌ (ﷺ)»

يومئذ محمّد رسول الله (ﷺ) [illegible] حيث لا أحد في عالم التكوين و
عوالم الإمكان أقوى منه و لا أعلى مرتبة عند الله تعالى، و لا تضيع ظلامته شيئًا من [illegible]

و قولها صلوات الله عليها: «الموعد القيامة»

و موعدكم يوم القيامة حيث يحشر فيه الأولون و الآخرون فيقتصّ فيه للمظلوم من
الظالم فإنّ الله تعالى لبالمرصاد، يوم يقتصّ من [illegible]

و قولها سلام الله عليها: «و عند الساعة يخسرون»

و يوم القيامة تظهر خسرانكم، و [illegible] [illegible]، و عصيانكم، و [illegible]
[illegible]

في نهج البلاغة عن مولى الموحّدين أمير المؤمنين الإمام علي (ع) - في كلمة
تشرح [illegible] - «[illegible] في موقف العرض و الحساب، و موضع الثواب و
العقاب، إذ وقع الأمر بفصل [illegible]، و [illegible] على ذلك [illegible]
خرج من أسر الهوى، و [illegible] من علائق الدنيا

و قولها (ع): «و لا ينفعكم إذ تندمون»

و لا ينفعكم الندم يوم القيامة [illegible] و [illegible] إذ تندمون يومئذ [illegible]
[illegible] في [illegible] من غصب فدك و منع الإرث و نهي عن الخمس، و من غصب
الخلافة، و من هتك حرمات أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين و
الظلم عليهم، و من مخالفتكم عن أوامر الله تعالى و رسوله (ﷺ) و من تضييع دينكم
[illegible] برئاسة الدنيا و متاعها و شهواتها و زخارفها

قال الله تعالى «ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون» (الزخرف: ٣٩)

وفي نهج البلاغة قال سيد الوصيين أمير المؤمنين الإمام علي ﴿عليه السلام﴾ «ألا وإنه لا ينفعكم بعد تضييع دينكم شيء حافظتم عليه من أمر دنياكم» (خطبة ٢٠٢)

ثم حذرت الصديقة الطاهرة سلام الله عليها بقوله تعالى «ولكل نبإ مستقر وسوف تعلمون» (الأنعام: ٦٧)، وقوله سبحانه «من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم» (الزمر: ٤٠).

ولتعلمن يا أصحاب السقيفة المشؤومة وأذنابهم، نبأ ذلك بعد حين، ولكل نبإ من نبإ العذاب أو الإيعاد به الذي تنبئكم به وقت مستقر ووقوع، وسوف تعلمون عند وقوعه من يأتيه من قبل الله تعالى، عذاب يذله ويهينه في الحياة الدنيا والبرزخ ويوم القيامة، ويفتضح بما كان عليه من كفر وضلال، من بغي وفساد، من ظلم وعناد، ومن يحل عليه وينزل به عذاب دائم لا مفر منه في دار الآخرة فيبقى فيه أبداً.

قال الله تعالى «وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا إن الظالمين في عذاب مقيم» (الشورى: ٤٤-٤٥)

وينطبق كلام إمام المتقين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﴿عليه السلام﴾ في ذم أهل العراق على هؤلاء القوم من أصحاب السقيفة وأذنابهم إذ ردوا شهادة مولى الموحدين المعصومين الذين في أمر فدك والإرث والخمس والخلافة وغيرها إذ ردوا تكذيباً بقول الشاهد

في نهج البلاغة «وقد بلغني أنكم تقولون: علي يكذب. قاتلكم الله، فعلى من أكذب؟ أعلى الله؟ فأنا أول من آمن به! أم على نبيه؟ فأنا أول من صدقه! كلا والله، لكنها لهجة غبتم عنها، ولم تكونوا من أهلها، ويل أمه كيلاً بغير ثمن لو كان له وعاء، ولتعلمن نبأه بعد حين» رقم كلامه ﴿عليه السلام﴾ (٧٠)

الفصل الثاني عشر في توبيخ الأنصار بعدما سكتوا عما سمعوا من كلام الصديقة الطاهرة سلام الله عليها حين غصب حقها وهتك حرمتها

«ثمّ رمت بطرفها نحو الأنصار فقالت: يا معشر الفتية وأعضاد الملّة، وحضنة الإسلام، ما هذه الغميزة في حقّي؟ والسِنة عن ظلامتي؟ أما كان رسول الله صلى الله عليه وآله أبي يقول: «المرء يحفظ في ولده» سرعان ما أحدثتم، وعجلان ذا إهالة ولكم طاقة بما أحاول، وقوّة على ما أطلب وأزاول. أتقولون مات محمّد صلى الله عليه وآله؟ فخطب جليل استوسع وهنه، واستنهر فتقه، وانفتق رتقه، وأظلمت الأرض لغيبته، وكسفت الشمس والقمر، وانتثرت النجوم لمصيبته، وأكدت الآمال، وخشعت الجبال، وأضيع الحريم، وأزيلت الحرمة عند مماته، فتلك والله النازلة الكبرى والمصيبة العظمى، لا مثلها نازلة، ولا بائقة عاجلة، أعلن بها كتاب الله جلّ ثناؤه في أفنيتكم وفي ممساكم، ومصبحكم، يهتف في أفنيتكم هتافاً وصراخاً وتلاوة وإلحاناً، ولقبله ما حلّ بأنبياء الله ورسله، حكمٌ فصلٌ وقضاءٌ حتمٌ، وما محمّد إلّا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين»

الشرح: ثمّ وجهت نظرها نحو الأنصار، وفي بعض النسخ «ثمّ رمت...» إذا انتظر به، والرمي بالعين كناية عن النظر إلى الشيء، والطرف: العين، والنظر من زاوية العين، وصرفت عيني عن فلان إذا نظرت ثمّ غمضت، والنحو: الطرف والمقصود، والمعشر: الجماعة مطلقاً، والفتية جمع الفتى... الفتية هنا الشجعان أهل النجدة والقوة والعزم منهم.

والمعنى: ثمّ وجهت الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها بنظرها نحو الأنصار، فقالت: أخاطبكم يا معشر الفتية الفتية المتصفة بصفة الشجاعة.

وقوله عليها السلام: «وأعضاد الملّة»

الأعضاد جمع العضد: الأعوان، والعضد: عظم معروف ما بين الكتف والمرفق الذي هو سبب قوّة الإنسان على الأعمال، فيقال: عضده كنصره وأعانه لفظاً ومعنىً قال الله تعالى: «وما كنت متّخذ المضلّين عضداً» كما... أي عوناً وناصراً وفلان عضدي، معتمدي على سبيل الاستعارة.

و في الدّعاء «انت عضدي» اي انت المقوّي و الناصر

في نهج البلاغة، قال مولى الموحّدين امام المتّقين امير المؤمنين علي بن ابي طالب ﴿ع﴾ «و انا من رسول الله كالصّنو من الصّنو، و الذّراع من العضد» من كتابه ﴿ع﴾ ك ٤٥

و معنى الفقرة الأولى ... [illegible] ... للإسلام و ناصره

و قوله سلام الله عليه و ... [illegible] ... الإسلام

الأنصار ... [illegible] ... حسبه إلى ... [illegible] ...

و المقصود ... [illegible] ... الإسلام و ...

و قوله ﴿ع﴾ ... [illegible] ... في حق؟»

... [illegible] ... بعين أو حاجب، ... [illegible] ... عن شؤم و ... [illegible] ... في مشيها غمزا و هو شبه العرج، فيكون ... [illegible] ... في مثل ... [illegible]

في نهج البلاغة ... [illegible] ... ﴿ع﴾ «لم يكن لأحد فيّ مهمز و لا لقائل فيّ مغمز»

و المعنى ... [illegible] ... في الدّفع عن حقّ، و ... [illegible] ... تركه

و قوله سلام الله عليه ... [illegible] ... ظلامتي

السِّنَة أوّل النّوم، و النّوم الخفيف

قال الله تعالى «لا تأخذه سِنة و لا نوم» البقرة ٢٥٥

الظُّلامة ما ... [illegible] ... و قهر و ... [illegible] ... المظلوم

و ... [illegible] ... النّوم، و هي أوّل ... [illegible] ... النّوم أي ...

أضاليكم من عدم الأعقاب في حقّ؟ [illegible] و [illegible] من الحقّ كذهوب الأعقاب، و [illegible]

والغرض [illegible] الأنصار [illegible] وقولها عليها السلام: «عن ظُلامتي» عن ظلمي فهو مصدر [illegible]

وقولها صلوات الله عليها: «[illegible] رسول الله [illegible] [illegible] المرء يحفظ في ولده»؟ أي قد صحّ الخبر عن نبيّكم واتّضح قوله [illegible] [illegible] المرء يحفظ في ولده [illegible] حاله، [illegible] في خصوص [illegible] لأجله [illegible] تعالى [illegible] على ذلك ما في قصّة موسى مع الخضر عليهما السلام في [illegible] الّذي كان [illegible] فقال له موسى [illegible] لاتّخذت عليه أجراً إلى أن [illegible] الخضر [illegible] في جوابه «وأمّا الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربّك أن يبلغا أشدّهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربّك وما فعلته عن أمري» [illegible] ٨٢

وقد كان بينهما وبين أبيهما سبعمأة سنة

في فروع الكافي [illegible] كتاب النكاح [illegible] من عفّ عن حرم الناس عفّ عن حرمه [illegible] حديث [illegible] [illegible] [illegible] قال: أوحى الله [illegible] إلى موسى [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ولده [illegible] [illegible] كما تدين تدان»

وفي تفسير العيّاشي: عن الإمام جعفر بن محمّد الصّادق [illegible] «إنّ الله يحفظ ولد المؤمن إلى ألف سنة»

وفيه: عن أبي عبدالله [illegible]: «إنّ الله ليصلح بصلاح الرّجل المؤمن ولده، وولد ولده [illegible] [illegible] في حفظ الله لكرامته على الله»

والحال [illegible] رسول الله [illegible] [illegible] و [illegible] [illegible] بينكم [illegible] «فاطمة بضعة منّي، من آذاها فقد آذاني» فكيف حفظكم [illegible] أمّة [illegible]

الأنبياء و سيّد المرسلين ... المقصود في هذه الفقرة ... [illegible] من الأوّلين و الآخرين

و قولها سلام الله عليها: سرعان ما أحدثتم.

سُرعان: مثلّثة السين، اسم فعل بمعنى سرُع، و فيه معنى التعجّب أي ما أسرعكم أيها الأنصار إلى تصديق ما أحدثه أصحاب السقيفة الشقيقة المشؤومة بعد رسول الله ﴿ﷺ﴾ من غصب الخلافة من أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب ﴿ﷺ﴾ و غصبها و المبادرة إلى ... الإمامة التي لا يكمل الدين الإسلامي و لا تتمّ النعمة الإلهية بغيرها، و لا يرضى الله تعالى الإسلام ديناً، و لا ينفع ... الأنبياء و لا ... النبوّة إلّا بغيرها؟ و ما أسرعكم أيها الأنصار إلى ... أصحاب السقيفة في البدع و ... الشيطان، و ... و ... من أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين و رفض الأحكام الإلهية و هضم حقوق عترة رسول الله ﴿ﷺ﴾ و الظلم عليهم و ... و هتك حرماتهم ... و لم يذهب ... النبي الأكرم ﴿ﷺ﴾ من بينه؟!

و ما أسرعكم إلى هذه ... من ... رسول الله ﴿ﷺ﴾ مع قرب عهدكم به و عدم ... ما أوصاكم به رسول الله ﴿ﷺ﴾ في أهل بيته المعصومين عليهم السلام و قدرتكم على نصرتهم و أخذ حقّهم من هؤلاء الغاصبين؟؟؟!!!

و قولها صلوات الله عليها: «و عجلان ذا إهالة»

عَجْلان: اسم فعل بمعنى عجل، و فيه معنى التعجّب أي ما أعجلكم، و «ذا» ... على «عجلان» و «إهالة» و هي الشحم أو ... عجل ... الإهالة.

و «عجلان ذا إهالة» مثل مضروب في ... التي ... من ... و أصله أنّ رجلاً كانت له نعجة ... و كان ... يسيل ... من ... فقيل له: ما هذا ... ؟ قال: عَجْلان ذا إهالة، أي هي ... شحم ... من جوفها، و ... لكثرة دسمها

و مقصود الفقرة ... أيها الأنصار أصبحتم ... بعد تصديقكم أصحاب

الشقة الصحيحة فيما أحدثوه؟ أي وما عجلكم إلى هذه النكبة المعورة؟

ومن المحتمل أن يكون المراد بجعل محصلاً ما يترتّب على هذه البدع وترك النصّ و نقض العهود بعد رسول الله ﷺ من المفاسد الدينية والدنيوية والأخلاقية و الاجتماعية، وذهاب الآثار النبوية، وانحطاط المسلمين، وذهاب ريحهم واستثمار منابعهم الاقتصادية.

وقولها عليها صلوات الله: «ولكم خامدة الأحوال».

واعلم أنّ لكم ضعفة ونفرة في خصوص ما طلبت من إحقاق حقّي واحدة من هؤلاء الصحابة، فهم كلهم ساكتون لا يتحركون بتحركوني ولا يحدّثهم حقّي، ولا يعينوني في استرداد ما غصبه.

وقولها ﷺ: «ونفرة عني ما طلبت وأردت».

ولكم أيها الأنصار نفرة في خصوص ما طلبت وقصدت من ظلامتي، فلماذا لا تنصروني على إحقاق حقّي ولا تعينوني على أحد من هؤلاء الظالمين لظلمه؟

وقولها ﷺ: «أتقولون مات محمد ﷺ».

يا معشر الأنصار أتزعمون وتقولون إنّ محمداً ﷺ مات، وإنكم بعد موته لا تلاقونه ولا ترونه أبداً؟ كلا فإنّ الموت انتقال من دار الدنيا إلى دار الآخرة، فليست هديته ﷺ في البرزخ ويوم القيامة، فيخاصمكم فيما تعملون، وسيرى حقّي من الغاصبين فإنّه يرى منه في البرزخ ويوم القيامة، أو تظنون أنّه لا يرى أعمالكم و أفعالكم، ولا يسمع أقوالكم وإنّه هو ناظر إليكم مشرف عليكم، يرى ويسمع وهو بمرأى منه ومسمع.

قال الله تعالى: «ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نردّ ولا نكذّب بآيات ربّنا و نكون من المؤمنين بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه وإنّهم لكاذبون» «ولو ترى إذ الظّالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحقّ وكنتم عن آياته تستكبرون» (الأنعام ٢٧-٢٨ و ٩٣) وقال: «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله و

المؤمنون و سيردون إلى عالم الغيب و الشهادة فيحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون» سبأ ٥،
في نهج البلاغة قال مولى الموحدين إمام المتقين علي بن أبي طالب (ع): «أيها الناس خذوها عن خاتم النبيين (ص): إنه يموت من مات منا وليس بميت، ويبلى من بلي منا وليس ببال، فلا تقولوا بما لا تعرفون فإن أكثر الحق فيما تنكرون» الخطبة ٨٦،

و قولها عليها آلاف التحية و الثناء: «فخطبٌ جليلٌ»

الخطب: الشأن العظيم، و الأمر الخطير، سمي به لكثرة التخاطب فيه، جمعه خطوب

و في نهج البلاغة قال مولى الموحدين أمير المؤمنين (ع): «الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح، و الحدث الجليل» الخطبة ٣٥

و فيه قال مولى الموحدين أمير المؤمنين (ع): «أما بعد فإن الله لم يقصم جبّاري دهر قط إلا بعد تمهيل و رخاء، و لم يجبر عظم أحد من الأمم إلا بعد أزل و بلاء، و في دون ما استقبلتم من عتب و ما استدبرتم من خطب معتبر» الخطبة ٨٨

و فيه قال أمير المؤمنين إمام المتقين (ع): «و لو قد فقدتموني و نزلت بكم كرائه الأمور، و حوازب الخطوب، لأطرق كثير من السائلين، و فشل كثير من المسؤولين» الخطبة ٩٢

و فيه قال يعسوب الدين أمير المؤمنين (ع): «و لعمري و الله إنه لخطبٌ يستفرغ العجب، و يكثر الأود، حاول القوم إطفاء نور الله من مصباحه و سد فوّاره من ينبوعه» من كلامه (ع) رقم ٦

و فيه: قال إمام المتقين علي بن أبي طالب (ع) فيما كتبه للأشتر النخعي: «و اردد إلى الله و رسوله ما يضلعك من الخطوب و يشتبه عليك من الأمور، فقد قال الله سبحانه لقوم أحب إرشادهم: «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله و أطيعوا الرسول و أولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله و الرسول» فالرد إلى الله الأخذ بمحكم كتابه، و الرد إلى الرسول الأخذ بسنته الجامعة غير المفرقة» نهج البلاغة الكتاب ٥٣

و قولها عليها السلام: «استوسع وهيُهُ، و فتقُهُ»

الاستيساع: غاية السّعة، مثل الاتّساع من وسع يسع سعةً و المعنى: اتّسع ضعف الإسلام بسبب ترككم نصرة الحقّ و أهله غاية الاتّساع

الوَهْن: الضَّعف وهن فلان: ضعُفَ في العقل أو الرّأي أو الأمر، أو العمل أو البدن قال الله تعالى: «و لا تهنوا و لا تحزنوا و أنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين» (آل عمران: ١٣٩)

في نهج البلاغة قال مولى الموحّدين الإمام عليّ ﴿ع﴾: «أيّها النّاس لو لم تتخاذلوا عن نصر الحقّ و لم تهنوا عن توهين الباطل لم يطمع فيكم من ليس مثلكم، و لم يقو من قوي عليكم...» (الخطبة: ١٦٥).

الوَهْي: الشّقّ و الخرق يقال: وهى الثّوب إذا بلي و تخرّق و استرسل و وهى الرّجل: حمق

و المعنى: اتّسع شقّ الإسلام و خرق توهينه بالسّقيفة المشؤومة و جنايات أهلها، و بسكوتكم معشر الأنصار عنها

و قولها عليها السّلام: «و استنهر فتقه و انفتق رتقه»

الفتق: الشّقّ و الخرق فتق الثّوب: نقض خياطته حتّى فصل بعضه عن بعض، فتفتّق: انشقّ. الفتق: خلاف الرّتق و هو الالتئام

قال الله تعالى: «أو لم ير الّذين كفروا أنّ السّماوات و الأرض كانتا رتقاً ففتقناهما» (الأنبياء: ٣٠)

و في نهج البلاغة قال سيّد الوصيّين الإمام عليّ ﴿ع﴾ في وصف رسول الله ﴿ص﴾: «فصدع بما أُمر به، و بلّغ رسالات ربّه فلمّ الله به الصّدع، و رتق به الفتق...» (الخطبة ٢٣٢)

و في البحار ـ في أدعية ليالي القدر و الأحياء ـ عن أمير المؤمنين ﴿ع﴾: «الحمد لله ربّ العالمين و صلّى الله على أطيب المرسلين، محمّد بن عبدالله المنتجب الفاتق الرّاتق...» يعني: فاتق الشّرك و الطّغيان و الجور و العدوان و ممزّقها، و راتق الخلل الّذي في الدّين و في الدّعاء: «اللّهمّ ارتق فتقنا» أي: أصلح مفاسد أمورنا

و المعنى: الفرقة، و اتّسع شقّ الدّين الإسلاميّ، و شقّ التئامه بالسّقيفة السّخيفة المشؤومة و جنايات أصحابها و إغماضكم عنها

وقيل: إنّ الضمائر الثلاثة (وهنه، وفتقه، ورتقه) راجعة إلى الخطب الجليل، وهذا غير وجيه.

وقولها سلام الله عليها: «وأظلمت الأرض لغيبته»

وأظلمت الأرض لغيبة رسول الله صلى الله عليه وآله، لأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان سراجاً منيراً ونوراً للعقول والأفكار، وحين غاب كثرت الظلم.

قال الله تعالى: «يا أيّها النّبيّ إنّا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً» الأحزاب ٤٥-٤٦.

وفي نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين عليّ بن أبي طالب عليه السلام في وصف النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله: «فهو إمام من اتّقى، وبصيرة من اهتدى، سراج لمع ضوؤه، وشهاب سطع نوره» الخطبة ٩٣.

ولمّا غاب رسول الله صلى الله عليه وآله وغربت سيرته وسنّته المشرقة المشعّة النيّرة، أظلمت الأرض لغيبته ورجعت الأرض إلى ما كانت قبله بلا نور.

في نهج البلاغة قال سيّد الوصيّين الإمام عليّ عليه السلام: «حتّى إذا قبض الله رسوله صلى الله عليه وآله رجع قوم على الأعقاب وغالتهم السّبل واتّكلوا على الولائج» الخطبة ١٥٠.

وفيه قال يعسوب الدين الإمام عليّ عليه السلام: «أرسله على حين فترة من الرّسل، وطول هجعة من الأمم، واعتزام من الفتن، وانتشار من الأمور، وتلظٍّ من الحروب، والدّنيا كاسفة النّور، ظاهرة الغرور» الخطبة ٨٩.

وقولها سلام الله عليها: «وكسفت الشمس والقمر»

وذهب نورهما على ما ينبغي لهما وكما علمته من تأثيرهما على العقول والأنفس، وعلى الأشياء المادّيّة والأجسام.

وقولها صلوات الله عليها: «وانتثرت النجوم لمصيبته»

وتكدّرت النجوم لمصيبة رسول الله صلى الله عليه وآله تبعاً لها، وقد انكسفت الشمس لمصيبة يحيى بن زكريّا ولمصيبة سيّد الشهداء الحسين بن عليّ عليهما صلوات الله.

وقوله عليه أفضل صلوات الله: «وأكدت الآمال»

الإكداء ـ من بكدية ـ الأرض تصلبه، وأكدى الشيء إذا بلغ إلى الصلب، ومنه أكدى الرجل إذا قلّ خيره.

قال الله تعالى «وأعطى قليلاً وأكدى» (النجم ٣٤) أي أعطى من قبل قليلاً من ماله، ثمّ أمسك وقطع العطاء.

في نهج البلاغة قال مولى الموحدين الإمام علي (ع) ـ في وصف المؤمن ـ «إن قل رئي من أكدى» من كلمة له (ع) رقم ٣٥٦

وفيه: قال سيد الوصيين الإمام المتقي علي بن أبي طالب (ع): «الحمد لله الذي لا يفرة المنع والجمود، ولا يكديه الإعطاء والجود» (الخطبة ٩١)

والمقصود العترة والمقصود الأكدى بعد موت رسول الله (ص) وقلّ خيرها، ولم يبق خير بعده، وكذلك لم تكن له من العطاء الخير.

وقوله سلام الله عليه «وخشعت الجبال»

وخشوع الجبال كناية عن خرابها بعد موت رسول الله (ص) وأن بعده (ع) أحق بالجهاد فأصبحت خاشعة ساكنة، وكناية عن تضعضع الحال بعد موت الرسالة كالجبل ساكنة من حلال حال أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين

في نهج البلاغة قال أمير المؤمنين الإمام علي (ع) ـ في أهل بيت الوحي المعصومين عليهم السلام ـ «هم موضع سرّه ولجأ أمره وعيبة علمه، وموئل حكمه، وكهوف كتبه وجبال دينه، بهم أقام انحناء ظهره وأذهب ارتعاد فرائصه» (الخطبة ٢)

وقوله صلوات الله عليه «وأضيع الحريم وأزيلت الحرمة عند مماته»

الحريم ما حميه الرجل وقاتل عنه والحرمة ما لا يحلّ انتهاكه

والمعنى وأضيع حريم أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين، وانتهكت حرمتهم وأزيلت وذهبت عند موت رسول الله (ص) بأيدي أصحاب السقيفة المشؤومة وأذنابهم

في نهج البلاغة قال مولى الموحدين سيد الوصيين الإمام علي (ع) «والناس

يستحلّون الحرام، و يستذلّون الحكيم، يحيون على فترة، و يموتون على كفرة» الخطبة (١٥١)

و فيه قول إمام المتقين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع): «ألا و إنكم قد نفضتم أيديكم من حبل الطاعة، و ثلمتم حصن الله المضروب عليكم بأحكام الجاهلية، و إنّ الله سبحانه قد امتنّ على جماعة هذه الأمّة فيما عقد بينهم من حبل هذه الألفة التي ينتقلون في ظلّها و يأوون إلى كنفها بنعمة لا يعرف أحد من المخلوقين لها قيمة لأنّها أرجح من كلّ ثمن، و أجلّ من كلّ خطر.

و اعلموا أنّكم صرتم بعد الهجرة أعراباً، و بعد الموالاة أحزاباً، ما تتعلّقون من الإسلام إلّا باسمه، و لا تعرفون من الإيمان إلّا رسمه» الخطبة القاصعة رقم ٢٣٤

و قولها عليها السلام: «تلك و الله النازلة الكبرى»

«تلك» إشارة إلى مصيبة وفاة رسول الله (ص) و النازلة هي المصيبة الشديدة وصفت بالكبرى

و قولها سلام الله عليها: «و المصيبة العظمى لا مثلها نازلة و لا بائقة عاجلة»

البائقة: الداهية، جمعها: بوائق

و المعنى و مصيبة وفاة رسول الله (ص) هي المصيبة العظمى التي ليس مثلها نازلة و لا حادثة داهية عاجلة أي أسرع نزولها عن أيامها في ظاهر العرف و العادة

و قولها عليها السلام: «أعلن بها كتاب الله جلّ ثناؤه في أفنيتكم و في ممساكم و مصبحكم»

الأفنية جمع فناء الدار أي العرصة المتّسعة أمامها، و فناء الكعبة سعة أمامها

و الممسى و المصبح مصدران يأتيان للزمان و المكان من الإمساء و الإصباح

و المعنى. و قد أعلن بهذه الحادثة العظمى كتاب الله جلّ و علا أي أخبر بها قبل وقوعها، إذ قال «إنّك ميّت و إنّهم ميّتون» الزمر ٣٠) و قال «و ما محمّد إلّا رسول قد خلت من قبله الرسل» آل عمران ١٤٤) و أنتم معشر الأنصار و المهاجرين تسمعون ذلك في مساكم و صباحكم

و قولها صلوات الله عليها «يهتف في أفنيتكم هتافاً و صُراخاً و تلاوة و إلحاناً»

هتف الصبيّ من قولك سمعتُ هاتفاً يهتف إذا كنت تسمع الصّوت و لا تبصر أحداً والصُّراخ الصّوت الشّديد يقال مررت بفلان، فإذا له صُراخ كصراخ الثكلى أي مثل صوت بكائها يكون مشتملاً في الشدّة التلاوة القراءة و منه ما

في جامع الأخبار: قال رسول الله ﷺ «ربّ تال القرآن و القرآن يلعنه»

الإلحان الإبهام. ألحنه القول: أفهمه

و مقصود الفقرة: تقرءة هذا القرآن و تتلى في بيوتكم و سككم كناية عن غاية الشيوع قراءة بأنحاء مختلفة، فيقرأه بعضهم على الصّوت الخفيّ الضّعيف، و بعضهم على الصّوت الشّديد القويّ و بعضهم على نحو التلاوة المعهودة و بعضهم على نحو الإلحان باختلاف القُرّآء و التّالين في الصّوت و الحالة و نهجه

و قولها سلام الله عليها «و لقبله ما حلّ بأنبياء الله و رسله حكم فصل و قضاء حتم»

و إنّ رسول الله ﷺ قبل الموت الّذي حلّ بأنبياء الله و رسله صلوات الله عليهم أجمعين، و هذا الموت هو حكم فصل لا مردّ له و قضاء حتم ما كان يتخلّف في مادّة أحد، و لا تتطرّق إليه التّبدّلات ثمّ قرأت الصّدّيقة الطّاهرة الرّاضية المرضيّة فاطمة الزّهراء عليها آلاف التّحيّة و الثّناء قوله تعالى

«و ما محمّد إلّا رسول قد خلت من قبله الرّسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم و من ينقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئاً و سيجزي الله الشّاكرين» آل عمران: ۱٤٤ أي كان أمر موت رسول الله ﷺ معلوماً محقّقاً قطعاً، و ما قرّر الله عزّوجلّ لأحد من خلائقه الحياة الأبديّة، فليس أمر الموت غريباً بالنّسبة إلى رسول الله ﷺ و لا يدلّ دلّت على بطلان نبوّته، و ما أتى به من شريعته، فما لكم ترتدّون على أدباركم و تنقلبون على أعقابكم، و ما لكم كيف تحكمون؟ ألكم كتاب فيه تدرسون أنّ لكم لما تخيّرون

و اعلم أنّ في المقام كلمات و نظرات للمحقّقين من القدماء و المتأخّرين لا تخلو من لطائف و نكات فنشير إلى أهمّها

فمنهم من قال إنّ الشبهة العارضة للمخاطبين فوت رسول الله ﷺ إنّما لعدم اختتام
العمل بأوامره وحفظ حرمته في أهل بيته المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين
لغيبته ﷺ فإنّ معقول العصمة [illegible] على رعاية الحاضر أكثر من الغائب وكما إذا
غاب عن أبصارهم ذهب كلامه عن أسماعهم و[illegible] عن قلوبهم، فدفعتها الصدّيقة
الطاهرة عليها السلام بما أشارت إليه من علم الله تعالى بوقوع تلك الحادثة الهائلة قبل
وقوعها وأنّ الموت ممّا قدّر على الخاصّ من أنبياء الله تعالى ورسله، [illegible] حين
[illegible] لفظة [illegible]

ويمكن أن يكون معنى الكلام [illegible] مات محمّد ﷺ وبعد موته ليس له حرمة و
لا مانع عمّا نريد، ولا نخاف أحداً في ترك [illegible] الزجر عن النواهي و
يكون الجواب ما يستفاد من حكاية قوله تعالى «أفإن مات أو قتل» لكن لا يكون حينئذ
لحديث إعلان الله سبحانه وإخباره بموت رسوله ﷺ مدخل في الجواب إلّا بتكلّف

ويمكن أن يكون شبهتهم [illegible] الموت على رسول الله ﷺ ولا يبعد استبعاد في
أذهانهم [illegible] عمر بن الخطّاب [illegible] حين
أوجده في موته ﷺ [illegible] في الأعيان،
فلذلك [illegible] وما بعده ظاهر

وعلى أيّ تقدير لا يكون قولها سلام الله عليها «فخطب جليل» داخلاً في الجواب، و
لا معولاً [illegible] بل هو كلام مستأنف لبثّ الحزن و
الشكوى، بل يكون الجواب ما بعد قولها عليها السلام «فتلك والله النازلة الكبرى»

ويحتمل أن يكون [illegible] فيكون حاصل شبهتهم أنّ موته ﷺ وهو أعظم
الدواهي قد وقع، فلا يبالى بما وقع بعده من المحظورات، فلذلك لم يهتمّوا باستدراكها و
الانتصاف ممّن ظلمها، ولمّا تضمّن ما زعموه كون وفاة رسول الله ﷺ أعظم المصائب
سلّمت عليها السلام أوّلاً في مقام الجواب تلك المقدّمة لكونه محض الحقّ، ثمّ نبّهت عليها
السلام على خطئهم في أنّه مستلزم لقلّة المبالاة بما وقع، والقعود عن نصرة الحقّ، و
عدم اتّباع أوامره بقولها «أفعلى كتاب الله [illegible]» إلى آخر الكلام

فيكون حاصل الجواب أنّ الله قد أعلمكم بها قبل الوقوع، وأخبركم بأنّها سنّة ماضية في السلف من أنبيائه، وحذّركم عن الانقلاب على أعقابكم لئلا تتركوا العمل بما أمركم الله به بعد وقوعها، ولا تهنوا عن نصرة الحقّ وقمع الباطل، وفي استلزامها لتشتّت الأُمّة دلالة على أنّ كونها أعظم المصائب ممّا يؤكّد وجوب النصرة، فإنّ المصيبة بها عظيمة ولا يتدارك فيها بغيري، فمن ترتّب عليه بعض آثاره المكذّبين فهو بالرجوع عن الحقّ و أُخرى، ويحتمل أن يكون الوقوف عليها للإشارة إلى حكمة أُخرى فحفظ حسن من أُخرى، فالجواب فيكون تشبيههم ببعض الوجوه المذكورة، والمركّب من بعضها مع بعض.

وحاصل الجواب حينئذ أنّه إذ يرى بعض الناس التزلزل والتكذيب، وقد ذكر الله تعالى أخبركم به، وأمركم بالارتداد بعد هلاكه عن أعقابكم، فكيف لو حصل عندكم دفع الفتنة عنّي ولقبه بنصرتي، ولعلّ الأنسب بها توجيه ما في الرواية من أن حضور من فيه الـ بعث بالرسالة على ما كتب له ... ودون ذلك.

ومنهم من قال: معنى قولها: أن لا يكون التشبيه بالرجعة مخصوصاً مقصوراً على أحد الوجوه المذكورة، بل يكون التشبيه ببعضها بعضها والآخر ببعضها، ويكون كلّ مقدّمة من مقدّمات الجواب مشيرة إلى دفع واحدة منها.

وقال العلّامة المجلسي رضوان الله تعالى عليه: ويحتمل أن لا يكون هذه شبهة حقيقية، بل يكون الغرض أنّه ليس لهم في هذا الأمر شبهة حجّة وتمسّك إلّا أن يتمسّك أحد بأمثال تلك الأمور الباطلة الواهية التي لا تخفى على أحد بطلانها، وهذا شائع في الاحتجاج.

وقال بعض المعاصرين: إنّ الصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء سلام الله عليها أشارت إلى أنّ الناس تبّاع الغلبة والقوّة والقدرة، وأنّهم لا يلحظون الحقّ بما هو حقّ، بل إنّما يلحظون الحاضر القوي المتمكّن ويستسلمون للغالب، ولو كان الغالب على الحقّ والحاضر على الباطل، فإنّ النفوس الضعيفة والنفوس المطبوعة على حبّ الشهوات والميول والنزعات تدور حول مصالحها الدنيوية.

فأشارت سلام الله عليها إلى أنّ الله تعالى قد أعلمكم قبل وقوعكم في الفتن وقبل

عاديكم في الغيّ بجهالة، إنّكم بأنّ محمّداً ﷺ إن مات أو قتل تنقلبون على أعقابكم، و تعودون في الجاهليّة الأولى، و تتركون النّهج المستقيم و طريقة الأنبياء عليهم السلام و هذه المصيبة الكبرى في دينكم، و الفتنة الّتي لا تحدث أعظم منها خطراً

و غيرها من الأقاويل و الآراء الّتي لا فائدة لذكرها

أقول: إنّ الشّبهة العارضة هؤلاء لخصيص حقيقته، و كذلك مستندها ضعف الإيمان من بعضهم، و فقده تماماً من الآخرين، فإنّ المؤمن حقّاً قلباً و قالباً لا تعتريه شبهة و لا شكّ، و خاصّة في الأصول الاعتقاديّة و لا يخاف غير الله تعالى و لا لومة لائم و لذلك قد ثبت ارتداد النّاس بعد رسول الله ﷺ إلّا ثلاثاً إلى ستّ

و هذه النّكتة الدّقيقة و اللّطيفة نفهمها من خطبتها المقدّسة الطّاهرة سلام الله عليها بالنّاس «يا أيّها النّاس» و بوصف الإسلام «أيّها المسلمون» دون الإيمان إذ لمّا يدخل في قلوبهم قال الله عزّ و جلّ فيهم «قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا و لكن قولوا أسلمنا و لمّا يدخل الإيمان في قلوبكم» الحجرات: ١٤)

و قال «يا أيّها الرّسول لا يحزنك الّذين يسارعون في الكفر من الّذين قالوا آمنّا بأفواههم و لم تؤمن قلوبهم» المائدة: ٤١)

و قال «لا يستأذنك الّذين يؤمنون بالله و اليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم و أنفسهم والله عليم بالمتّقين إنّما يستأذنك الّذين لا يؤمنون بالله و اليوم الآخر و ارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يتردّدون» التوبة: ٤٤-٤٥

و قال في المؤمنين حقّاً «إنّما المؤمنون الّذين آمنوا بالله و رسوله ثمّ لم يرتابوا و جاهدوا بأموالهم و أنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصّادقون» الحجرات: ١٥)

و قال «الّذين قال لهم النّاس إنّ النّاس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً و قالوا حسبنا الله و نعم الوكيل» آل عمران: ٧٤)

و قال «إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم و أموالهم بأنّ لهم الجنّة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون و يقتلون وعداً عليه حقّاً في التّوراة و الإنجيل و القرآن و من أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الّذي بايعتم به و ذلك هو الفوز العظيم التّائبون العابدون الحامدون السّائحون الرّاكعون السّاجدون الآمرون بالمعروف و النّاهون عن المنكر و الحافظون

لحدود الله و بشّر المؤمنين» (التوبة ١١١ ـ ١١٢) و تلك من صفات الايمان و مظاهره لا الإسلام

و قال: «و من يعمل من الصالحات و هو مؤمن فلا يخاف ظلماً و لا هضماً» (طه ١١٢)

و قال: «يا أيها الذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم و يحبّونه أذلّة على المؤمنين أعزّة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله و لا يخافون لومة لائم» (المائدة ٥٤)

و في الخبر الصحيح عن جعفر بن محمّد الصادق (ع): «إنّ المؤمن أشدّ من زبر الحديد، إنّ زبر الحديد إذا دخل النار تغيّر، و إنّ المؤمن لو قُتل ثمّ نُشر ثمّ قُتل لم يتغيّر قلبه»

الفصل الثالث عشر في الارتداد بعد الايمان

قالت الصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء صلوات الله عليها:

«ايهاً بني قيلة أأُهضم تراث أبي و أنتم بمرأى منّي و مسمع و منتدى و مجمع؟ تلبسكم الدعوة، و تشملكم الخبرة، و أنتم ذوو العدد و العدّة، و الأداة و القوّة، و عندكم السلاح و الجنّة، توافيكم الدعوة فلا تجيبون، و تأتيكم الصرخة فلا تغيثون، و أنتم موصوفون بالكفاح، معروفون بالخير و الصلاح، و النخبة التي انتخبت، و الخيرة التي اختيرت، قاتلتم العرب، و تحمّلتم الكدّ و التعب، و ناطحتم الأمم، و كافحتم البهم، لا نبرح أو تبرحون، نأمركم فتأتمرون، حتّى إذا دارت بنا رحى الإسلام، و درّ حلب الأيّام، و خضعت ثغرة الشرك، و سكنت فورة الإفك، و خمدت نيران الكفر، و هدأت دعوة الهرج، و استوسق نظام الدين.

فأنّى حرتم بعد البيان؟ و أسررتم بعد الإعلان؟ و نكصتم بعد الإقدام؟ و أشركتم بعد الإيمان؟ بؤساً لقوم نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم، و همّوا بإخراج الرسول، و هم بدؤوكم أوّل مرّة، أتخشونهم؟ فالله أحقّ أن تخشوه إن كنتم مؤمنين.

ألا و قد أرى أن قد أخلدتم إلى الخفض، و أبعدتم من هو أحقّ بالبسط و القبض، و خلوتم بالدعة، و نجوتم بالضيق من السعة، فمججتم ما وعيتم، و دسعتم الذي تسوّغتم، فإن تكفروا أنتم و من في الأرض جميعاً فإنّ الله لغنيّ حميد»

الشَّرح: «أنَّى» بفتح الهمزة والنون، بمعنى بَعُدَ الأمر وهيهات أن يكون شيءٌ هذا إذا أردت البعد، و«إيهٍ» بكسر الهمزة والتنوين بمعنى كفّ، و«كُفَّ عنّا» إذا أردت الكفّ عن الحديث، و«بنو قيلة» الأوس والخزرج [illegible] الأنصار [illegible] لجميع الأنصار، و«قيلة» اسم [illegible] وهي [illegible]

وقال بعض المعاصرين: إنّ [illegible] خطبتها الشريفة سلام الله عليها [illegible] بالخطاب عيّرت عنهم بمعشر الفتية [illegible] [illegible] من [illegible] وهو [illegible] [illegible] [illegible] شوهدوا في [illegible] من [illegible] [illegible] [illegible] والعدول عن منازل الكرام [illegible] [illegible] [illegible] مستحقّ [illegible] [illegible] [illegible] إلى أنّهم أصبحوا [illegible] في [illegible] [illegible] بالزوج [illegible] في [illegible]

نعم [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] رجال [illegible] [illegible] من [illegible] [illegible] الله عليها [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] في [illegible] من [illegible] إلى [illegible] من [illegible] [illegible] من [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] والأحق إذا [illegible] [illegible]

الاولى [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] كان [illegible] [illegible] و[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] إلى مرحلة من الانحطاط و[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] على [illegible] كما [illegible] [illegible] [illegible] إلى مرحلة [illegible] المعاصي واللهو و[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] عمّا هو [illegible] إلّا إذا سمع [illegible] عمر بن الخطّاب [illegible] [illegible] [illegible] من [illegible] [illegible]

الثانية هي [illegible] [illegible] إذا [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] هو التطبيق

الفتحتح للكبر ، ب على صغر شأن كقول القائل

نحب قتل فلان أو حبسه وإبعاده لأنّه خطر على الإسلام والمسلمين، فيجب على الجميع كافة بذل جهودهم لتعين حفظ مصلحة الإسلام والمسلمين في حين أن الأمر هو حفظ سلطة الجائرين، فقد خاف فرعون من موسى ﷺ أن يبدّل دين الناس ويزيد بن معاوية بن أبي سفيان حفظهم لحكومة و ... من سلب الأمر الحسين بن علي بن أبي طالب ﷺ أن يشقّ عصا المسلمين، ويسعى في الأرض فساداً ومعاوية من حُجر بن عديّ

فالقضيّة الكبرى ... هي ... و ... و ... و ... وتطبيق ... و ... حسب الأهواء، و ... و ... من ... رسول الله ﷺ من ... و ... حتى ... و ... الأمر لا ... و ... عمر بن الخطّاب رسول الله ﷺ

و ... أن ... الإسلام ... الشامية، ولا يكون أيضاً خطراً على الحكّام الجائرين و ... من ... جانبهم.

وقولها سلام الله عليها «أهضم تراث أبي؟»

هضم الشيء ... كسرته، وهضمه حقّه واهتضمه، إذا ظلمه وكسر عليه حقّه، وهضمه دفعه عن حقّه وعن موضعه

قال الله تعالى «فلا يخاف ظلماً ولا هضماً» طه ...

الهضم والمهتضم المظلوم

التّراث الميراث وأصل التاء فيه واو ... وراث

والمعنى أُظلم من حقّي من ميراث أبي

وقولها صلوات الله عليها «وأنتم بمرأى منّي ومسمع ومبتدى ومجمع»

المنتدى مجلس القوم من النّدوة بمعنى المشورة، والمنتدى محلّ المشورة، ويسمّى به المجلس، فيقال دار النّدوة أي دار المشورة، فيكون المجمع كالتفسير له

و غرض الفقرة: و أنتم أيّها الأنصار حاضرون في مجلس الشّكاية مع هؤلاء القوم الغاصبين الظّالمين الهاتكين لحرمة أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين بحيث تروني مهضومة و تنظرون و تبصرون الحالة و الكيفية و ما نالني من المظلومية، و تسمعون كلامي و ظُلامتي و عدوان القوم عليّ

و قيل أي بحيث أراكم و أسمعكم كلامي و صوتي و صراخي في تظلّمي

و قيل إنّ الغرض هو الاحتجاج عليهم بالاجتماع الّذي هو من أسباب القدرة على دفع الظّلم

و قولها عليها السّلام: «تلبسكم الدّعوة»

الدّعوة المرّة من الدّعاء أي نداء المظلوم للنّصرة

و **المعنى**: و تغطّيكم و تحيط بكم دعوتي من جميع جهاتكم إلى الحقّ و إحقاقه، و قد كنتم حملة الحقّ من قبل

و قولها سلام الله عليها: «و تشملكم الخبرة»

الخبرة بضمّ الخاء و كسرها و سكون الباء: العلم بالشيء و المراد علمهم بمظلومية الصّدّيقة الطّاهرة و هضم حقّها و هتك حرمتها صلوات الله عليها

و التّعبير باللّبس في الدّعوة، و بالشّمول في الخبرة للمبالغة و للتّصريح بأنّ دعوتها قد عمّتهم جميعاً، و ليس من قبيل الحكم على جماعة بحكم البعض أو الأكثر

و **المعنى**: و يشملكم الانتصار منكم و لابدّ لي من ترك نصرتي و ما فيه من الإخبار بالحقّ و الواقع، فلاعذر لأحد منكم بعد اليوم

و قولها عليها السّلام: «و أنتم ذوو العدد و العدّة»

كونهم ذوي العدد كناية عن كثرتهم و الألف و اللام فيه يحتمل الجنس أو للاستغراق أي أنتم ذوو العدد الكامل، و العدد لا يكون بدون المعدود

و العُدّة: الاستعداد و القابلية مالاً، أو جسماً أو روحاً، أو علماً

و **المعنى**: و أنتم أيّها الأنصار قادرون على إحقاق الحقّ و إعانة المظلوم لكثرة عددكم، و ما لديكم من القوّة و القابلية علمياً و مالياً، و جسمياً و روحياً

و قوله صلوات الله عليها «والأداة والقوّة»

الأداة الآلة والوسيلة، جمعها الأدوات و الأداة على كلّ ما يؤدّى به إيداءً يد قوّاه عليه، و أعانه، و تأتي في أخذ للدّهر أداته و المراد من القوّة أسباب العمل ماديّة أو معنويّة

والمعنى: وأنتم الأنصار تملكون أدوات القدرة والقوّة في المجتمع الإسلامي تقدرون على إعانتي، و نصرة عليّ، و دفع الظالمين و قطع أيديهم

و قوله سلام الله عليها «وعندكم السّلاح والجُنّة»

السّلاح آلة الحرب والجُنّة الجنّ و هو ما يستتر به كالسّلاح، والترس، يستتر حامله ومنه الجنين في الرّحم لاستتاره

والمعنى: وعندكم الأنصار السّلاح لإحقاق الحقّ و إعانة المظلوم، و دفع الظّلم و عندكم الوسيلة للتّترّس و التحصّن من عدوان المعتدين

و قولها صلوات الله عليها «توافيكم الدّعوة فلا تجيبون»

الموافاة الدّعوة، كناية عن بلوغها لهم

والمعنى: يبلغكم دعوة الحقّ فلا تنصرون لها و لا تجيبونها

و قوله عليها السلام «وتأتيكم الصّرخة فلا تغيثون»

إتيان الصّرخة كناية عن بلوغها لهم

والمعنى: يصلكم نداء المظلومين الّذين لا يرتدّون في ظلامتهم فلا تغيثونهم

والفقرات في معنى قول أمير المؤمنين الإمام عليّ بن أبي طالب (ع)

في نهج البلاغة: «مُنيتُ بمن لا يطيع إذا أمرتُ، و لا يجيبُ إذا دعوتُ، لا أبا لكم ما تنتظرون بنصركم ربّكم؟ أما دين يجمعكم، و لا حميّة تُحمِشُكم، أقوم فيكم مستصرخاً و أناديكم متغوّثاً فلا تسمعون لي قولي، و لا تطيعون لي أمراً» الخطبة ٣٩

و قولها سلام الله عليها: «وأنتم موصوفون بالكفاح»

الكفاح استقبال العدوّ في الحرب بغير تُرس و لا جُنّة يقال: فلان يكافح الأمور باشرها بنفسه المكافحة المدافعة تلقاء الوجه كأنّهم في الحرب استقبلوهم بوجوههم ليس دونها تُرس و لا غيره و كفحته كفاحاً: واجهته بغير حجاب

و المعنى و أنتم معشر الأنصار موصوفون بالشجاعة و بسالته في الحرب و غيره

و قولها عليها السلام: «معروفون بالخير و الصلاح»

إشارة إلى معروفيّتهم بالخير العقائديّ و الصلاح العمليّ

و قولها عليها صلوات الله: «و النجبة التي انتجبت»

النجبة: المنتجب المنتقى من الشيء و المختار من الناس، و المراد أنّ الأنصار منتجبون انتجبهم رسول الله لحمل رسالته و الدفاع عنه و نصرة النبيّ ﷺ، و لذا سمّوا بالأنصار

و قولها سلام الله عليها: «و الخيرة التي اخترت لنا أهل البيت»

الخيرة: المنتقى من الشيء و المختار من الناس و المراد أنّ الأنصار مختارون اختارهم رسول الله ﷺ لنصرتنا أهل البيت أو الوصيّ المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين، و ... و ... لم ... المدح ... لا لكلّ واحد و واحد من ... فلا تنافي ... مذمومًا مطرودًا عن قرب ... الله مردود

و قولها عليها السلام: «قاتلتم العرب»

تقرير لوجه المدح المشتمل على ... مقاتلة العرب المشركين و الكفّار و المستكبرين و الكفّار لأجل الدين و إعلاء كلمة الله تعالى و نصرة رسوله ﷺ.

و قولها سلام الله عليها: «و تحمّلتم الكدّ و التعب»

الكدّ: الشدّة في العمل، التعب: ضدّ الراحة، أي تحمّلتم الكدّ و التعب في مجاهدة الكفّار و المشركين

و في الجملة إشارة إلى مواقف الأنصار و سابقتهم في الحروب و الدفاع عن الإسلام بكلّ جدّ في عهد رسول الله ﷺ.

و قولها صلوات الله عليها: «و ناطحتم الأمم»

المناطحة من نطح الكبش: ضربه بقرنه، و تناطحت الكباش: تضاربت بقرونها و قد يكنّى بالنطاح و المناطحة عن المقابلة و المواجهة

الأمم جمع الأمّة، و المراد من الأمم هنا القبائل و الجماعات و الأحزاب المختلفة و الملل المختلفة كاليهود و النصارى و غيرهما

والمراد من صفحة الأمم [illegible] و [illegible] كما يدفع الكبش فريسة بقرنه

وقولها عليها السلام «وبُهَم العرب»

البُهَم جمع البُهمة وهي مشكلات الأمور والشجعان

في نهج البلاغة [illegible] «[illegible] الفرسان» [illegible] و الموضوع «البُهمة» صفحة ٣٢٦

والمراد من البُهَم في هذه الفقرة الشجعان والأبطال، [illegible] يتعرض بدافع من عداوته والأحقاد

والمعنى و [illegible] الشجعان والأبطال والفرسان

وقولها عليها السلام «[illegible] لا نبرح أو تبرحون نأمركم فتأتمرون»

«أو تبرحون» معطوف على منفي في «لا نبرح» [illegible] أحد الأمرين و [illegible] إلاّ [illegible] فالمعنى لا نبرح و لا تبرحون نأمركم فتأتمرون أي كنّا [illegible] وكنتم لأوامرنا مطيعين

وفي الفقرة إشارة إلى ما كان عليه الأنصار في عهد رسول الله ﷺ من الاستمرار والثبات على [illegible] وأهل بيته المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين

وقولها عليها السلام «حتى إذا دارت بنا رحى الإسلام»

[illegible] رحى الإسلام [illegible] أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين

والمعنى حتى [illegible] أمر الإسلام و [illegible]

وقد [illegible] إلى هذا المعنى بقولها في أوائل هذه الخطبة «و [illegible] من الفرقة»

و ذلك أنّ طاعة أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين الّذين هم الثقل الثاني للرّسالة نظام الملّة [illegible] الإسلام [illegible] واقع الإسلام بعيداً عن الإفراط والتفريط و [illegible] من التفرّق العقائدي والتشتت العملي في مسيرة

لكمال الإنسان فما حصل من الشتات والتفرقة والجهل والتطاحن بين المسلمين كلّها نتيجة بعد التخلّف عن الطاعة والإمامة لأهل بيت الوحي صلوات الله عليهم أجمعين، وعن ترك التمسّك بهم الذين هم العروة الوثقى وحبل الله أمر الله تعالى عباده بالتمسّك والاعتصام بهم فقال: «واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا» آل عمران ١٠٣

في نهج البلاغة قال مولى الموحّدين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﴿عليه السلام﴾: «أمّا بعد فإنّ الله سبحانه بعث محمّداً ﴿صلى الله عليه وآله﴾ وليس أحد من العرب يقرأ كتاباً، ولا يدّعي نبوّة ولا وحياً، فقاتل بمن أطاعه من عصاه، يسوقهم إلى منجاتهم، ويبادر بهم الساعة أن تنزل بهم، يحسر الحسير، ويقف الكسير، فيقيم عليه حتّى يلحقه غايته إلّا هالكاً لا خير فيه، حتّى أراهم منجاتهم وبوّأهم محلّتهم فاستدارت رحاهم واستقامت قناتهم، وايم الله لقد كنتُ من ساقتها حتّى تولّت بحذافيرها، واستوسقت في قيادها، ما ضعفتُ ولا جبنتُ ولا خنتُ ولا وهنتُ...» الخطبة ١٠٣)

وقولها سلام الله عليها: «ودرّ حلب الأيّام»

درّ اللبن: إذا زاد وكثر جريانه في الضرع والمدرار: الكثير منه وهو كثير الدرور قال الله تعالى: «يرسل السماء عليكم مدراراً» نوح ١١

والحلْب بالفتح والسكون: استخراج ما في الضرع من اللبن و بالتحريك: اللبن المحلوب، كأنّه مصدر بمعنى المفعول

ومقصود الفقرة أنّه كثرت فيوضات الله تعالى على الأنام، وظهرت للناس منافع الأيّام أو كناية عن الخيرات التي أعقبت نشر الإسلام من الفتوحات والغنائم، وبسط الدعوة في بسيط الأرض، وانتشار عرف الحقّ والعدل

وقولها صلوات الله عليها: «وخضعت ثغرة الشرك»

الثغرة ـ مثلّثة الثاء ـ ثغرة النحر بين الترقوتين، كناية عن العنق، والمقصود خضوع رقاب أهل الشرك على سبيل المبالغة، أو أنّ خضوع ثغرة الشرك كناية عن سقوطها على الأرض أي جثمه وسقوطه كالحيوان المتساقط على الأرض كقول أمير المؤمنين الإمام عليّ ﴿عليه السلام﴾: «أنا وضعت في الصغر بكلاكل العرب، وكسرت نواجم قرون ربيعة و

مُضَر...» نهج البلاغة: الخطبة القاصعة: ٢٣٤)

أي صدورهم

الثُّغرة: الثلمة ـ و الثغر جمعه الثغور ـ المكان الذي يخاف منه هجوم العدوّ

في نهج البلاغة: ـ من كتاب أمير المؤمنين الإمام علي «ع» لبعض عمّاله ـ «و أسدّ به لهاة الثَّغر المخوف...» رقم الكتاب: ٤٦)

و فيه ـ من كتاب سيّد الوصيّين الإمام علي «ع» إلى المنذر بن الجارود العبدي ـ «و من كان بصفتك فليس بأهل أن يُسدّ به ثغرٌ أو يُنفذ به أمرٌ...» رقم الكتاب: ٧١)

و هدف الفقرة: الكناية عمّا حصل للكفّار و المشركين و الفجّار و المستكبرين من ذلّ واستسلام لقوّة الفتوح الإسلامية

و قولها عليها سلام الله: «و سكنت فورة الإفك»

الفورة ـ من الحرّ و الغضب ـ حدّته؛ من فار القدر غلت و ارتفع ما فيها و فار الماء نبع من الأرض و جرى. الفوّارة ـ مؤنث فوّار ـ فتحة ـ فتحات متسائلة ـ ينبع الماء بقوّة صاعداً

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين الإمام علي «ع» «و حاول القوم إطفاء نور الله من مصباحه، و سدّ فوّاره من ينبوعه» من كلامه «ع» رقم ١٦٠)

الإفك: الكذب و فورة الإفك غليانه و هيجانه

وغرض الفقرة: كما أخرس نداء الإسلام نعرة الشرك و الطغيان، أسكت أصوات الكذب و المكر و الافتراء و البهتان

و قولها عليها أفضل صلوات الله: «و خمدت نيران الكفر»

و سكنت نيران الكفر التي كانوا يوقدونها في كلّ حين و حين ضدّ الإسلام و المسلمين، و لكن لم تطفأ جمرها و فيه إشعار ببقاء بعضهم، و بقاء مادّة الكفر و الطغيان، و البغي و العصيان، و الظلم و العدوان في قلوبهم، تشتعل يوماً ما كما اشتعلت منذ وفاة رسول الله «ص» بل في احتضاره «ص» و في قصّة إمارة أسامة

و قولها عليها السلام: «و هدأت دعوة الهرج»

هدأت: سكنت، و أهدأته: أسكنته، و تقول: أهدأت الصبيّ إذا جعلت تضرب بكفّك عليه و تسكّنه لينام

والهرج: الفتنة والاختلاط والقتل. هرج الناس: اختلطوا واضطربوا، وظهرت الفتنة والفساد بينهم. وأصل الهرج: الكثرة، والاتساع. وفي الحديث: الهرجُ القتل.

ومعنى الفقرة: وسكنت تدعوه إلى القتل والضلال والفتنة والفساد سواطع الإسلام.

وقولها سلام الله عليها: «واستوسق نظام الدين»

استوسق: اجتمع وانضمّ من الوسق، وهو ضمّ الشيء إلى الشيء، واتّساق الشيء: انتظامه واستواؤه وانقياده واستحكامه. واستوسق الأمر: انتظم، واستوسق له الأمر: أمكنه وانقاد له.

وغرض الفقرة: وأصبح الدين موضع الإسلام، مستحكم النظام، لأنّ باستحكام نظام الحق والعدل موت الباطل والبغي، ولا تمكين إلا به الباطل ونهاية للتعصّب والحقد والحسد والجهل الحاكم على مجتمع البشرية لا موقع للإسلام، وهو الولاية والإمامة لأهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين لا للأدعياء، والشعارات بغير شعور، ولا بالحزبيات المزيفة والمؤتمرات ومجالس الغدر، بروح الوعي والأخلاق الإسلامية ضد الكفر والعصيان، ضد الظلم والطغيان، وضد البغي والعدوان.

في نهج البلاغة: قال سيد الوصيين الإمام علي (ع): «واستوسقت في قيادها ما ضعُفتُ ولا جبُنتُ ولا خُنتُ ولا وهنتُ» (خطبة ١٠٣)

وقولها صلوات الله عليها: «فأنّى جُرتُم (حِزتُم خ) (جزتم خ) بعد البيان؟»

أنّى: ظرف مكان بمعنى أين، وقد يكون بمعنى كيف، وجرتم من جار الرجل إذا سار سيرًا ليّنًا وساق، أي فأنّى سِرتم وسُقتم بعد بيان الحال، ووضوح سبيل المبدأ والمآل.

وفي نسخة «حِرتم» أي فكيف تحيّرتم في أمركم بعد عرفانكم للحقّ وثباتكم من أجل تحقيقه.

في نهج البلاغة: قال إمام المتّقين عليّ بن أبي طالب (ع): «قد ماروا في الحيرة...» (خطبة ١٥٠)

و فيه عن الإمام علي ﴿ع﴾ للحارث: «يا حار، إنك نظرت تحتك و لم تنظر فوقك فحرت...» من قصار كلماته ﴿ع﴾ رقم: ٢٥٤).

و في نسخة «جرتم» من الجور و هو الميل عن القصد و العدول عن الطريق أي ما ذا تركتم سبيل الحقّ و الهدى بعد ما تبيّن لكم.

و قولها عليها السلام: «و أسررتم بعد الإعلان؟»

و كيف أسررتم كلمة الإيمان أي تركتم العمل بها، و نسيتم مقتضاها بعد أن أعلنتم بها في زمن رسول الله ﴿ص﴾ و كيف أصبحتم تخفون ما تعلمون من الحقّ بعدما كنتم معلنين بالحقّ لا تتردّدون في نصرته

و قولها عليها أفضل صلوات الله: «و نكصتم بعد الإقدام؟»

النكوص: الرجوع إلى خلف. نكص على عقبيه: رجع عمّا كان عليه، إلى ما كان عليه من قبل

في نهج البلاغة ـ في كتاب مولى الموحّدين أمير المؤمنين الإمام علي ﴿ع﴾ إلى معاوية بن أبي سفيان ـ: «و نكصوا على أعقابهم و تولّوا على أدبارهم» (رقم الكتاب ٣٢)

و معنى الفقرة: و كيف رجعتم معشر الأنصار عن الإسلام إلى القهقرى؟ و تراجعتم إلى الوراء بعد الإقدام و الثبات من أجل الحقّ و الهدى؟ أو كيف رجعتم عن مجاهدة أعداء الله بعد أن أقدمتم على ذلك في عهد رسول الله ﴿ص﴾؟

و قولها عليها أكمل تحيّات الله: «و أشركتم بعد الإيمان؟»

و لا يخفى على القارئ الخبير أنّ للشرك مفهوماً خاصاً على أنحائه الخمسة: الشرك في الوجود الواجب، و في إيجاد العالَم، و في تدبير نظام الكون، و في العبادة لغير الله، و رئاءً، و ليس غرضها مراداً هنا، و له مفهوماً عاماً و هو إطاعة غير الله تعالى و غير من أمر الله تعالى بطاعته، فمن تبع الأهواء و الشهوات و تنازل عن أمر الخالق من أجل إرضاء الحكّام الجائرين كان مشركاً لأنّ ذاك يعبد صنماً، و هذا يعبد حاكماً أو مالاً أو جاهاً و هكذا

و قوله عليها السلام: «بؤساً لقوم نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم...»

بؤس: شدّة و فقر و خوف و عذاب ـ منصوب على المصدر ـ من بئس يبأس: اشتدّ. و أبأس الرجل: حلّت به الشدّة، و نزلت به الشدائد

في نهج البلاغة: قال أمير المؤمنين الإمام عليّ (عليه السلام) ـ و قد مرّ بقتلى الخوارج يوم النهروان ـ «بؤساً لكم لقد ضرّكم من غرّكم!...»

نكث العهد: نقضه. و الأيمان جمع اليمين و هو القسم، و يستعمل في مطلق العهد و المعاهدة و لعلّه المراد ههنا

و الفقرة مقتبسة من قوله تعالى: «ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم و همّوا بإخراج الرسول و هم بدؤوكم أوّل مرّة أتخشونهم فالله أحقّ أن تخشوه إن كنتم مؤمنين» التوبة ١٣.

و في شأن نزول الآية اختلاف

فقيل: إنّها نزلت في مشركي قريش

و قيل: نزلت في اليهود الذين نقضوا العهد مع رسول الله (ﷺ) و أعانوا الأحزاب في غزوة الخندق، و همّوا بإخراج الرسول (ﷺ) من المدينة

فأشارت الصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء سلام الله عليها إلى هذه الآية لمناسبة الحكم و الموضوع، لأنّ جمعاً من المشركين و اليهود نقضوا العهد و همّوا بإخراج الرسول (ﷺ)، و أنّ جمعاً من المنقلبين على أعقابهم نقضوا العهد، فارتدّوا عن واقع الإسلام علماً و عملاً و همّوا بإخراج الرسالة باسم الرسالة عن كلّ قيمها لأنّ الرسالة إذا فقدت التفسير و التأويل الصحيح، و كان التطبيق كذلك على طبق الأهواء النفسانية و الأغراض الشخصية و الميول السلطانية، لم تكن رسالة الإسلام

فقاتلوا أيّها الأنصار أئمّة هؤلاء البغاة الغاصبين الناكثين لحرمات أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين أتخشونهم و هم بدؤوكم أوّل مرّة بنقض ما عاهدوا الله جلّ و علا و رسوله (ﷺ) عليه، فالله أحقّ أن تخشوه إن كنتم مؤمنين

فالغرض التحريض بوجوب قتال أصحاب السقيفة الشخصية المشؤومة الغاصبين للإمامة، الخائنين في حقّ الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها الناكثين لما عهد إليهم رسول

الله (صلى الله عليه وآله) في وصيّته و ذوي قرباه و أهل بيته المعصومين عليهم صلوات الله كما وجب بأمره تعالى قتال من نزلت فيهم الآية.

و من المحتمل أن يكون المراد بـ«قوماً» الغاصبين حقّ أهل بيت الوحي عليهم السلام فالمراد بنكثهم أيمانهم نقض ما عهدوا إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) حين بايعوه من الامتثال له في أوامره و الانقياد عن نواهيه، و أن لا يضمروا لآله (صلى الله عليه وآله) العداوة و البغضاء فنقضوه و نقضوا ما أمرهم به، و المراد بقصدهم إخراج الرّسول (صلى الله عليه وآله) عزمهم على إخراج من هو كنفس رسول الله (صلى الله عليه وآله) و قائم مقامه بأمر الله تعالى و أمره من مقام خلافته، و على إبطال أوامره و وصاياه في أهل بيته الّذي نزل منزلة إخراجه من مستقرّه.

و لا يبعد تعميم الآية حسب ما ذكرناه و بين كلّ ما ذكرنا من الوجوه، و لكنّه لا يكون فيه غلط، بل هو أحد مصاديقها إلّا أن يكون المورد خاصّاً و ما ذكرنا أوّلاً أو بعضاً هو المقصد، فقول الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها «توبّخ بكم المعشر الأنصار ألا تقاتلون قوماً نقضوا على أعقابهم فنكثوا أيمانهم الّتي عاهدوا الله و رسوله (صلى الله عليه وآله) عليها يوم بيعة الغدير، و همّوا بإخراج رسول شرح الرّسالة و بيانه و كتفه بضعفه عن مقامه الّذي عيّنه الله تعالى له و قد تقمّصوا من الخلافة غصباً و هم بدؤكم أوّل مرّة بالانقلاب و نقض العهد أتخشونهم، فالله أحقّ أن تخشوه إن كنتم مؤمنين».

و قولها عليها أكمل تحيّات الله: «ألا و قد أرى أن قد أخلدتم إلى الخفض»

الرّؤية هنا بمعنى العلم أو النّظر بالعين.

أخلد إليه: ركن و مال إليه من خلد بالمكان إذا أقام به.

قال الله تعالى: «ولكنّه أخلد إلى الأرض و اتّبع هواه» (الأعراف: ١٧٦) أي مال إليها.

في نهج البلاغة قال في خطبة المنسوب إلى عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) ـ في ذمّ الدّنيا ـ «فقد رأيتم تنكّرها لمن دان لها و آثرها و أخلد إليها حتّى ظعنوا عنها لفراق الأبد» (الخطبة ١١٠)

الخفض: الراحة وسعة العيش، والمراد به هنا الاستراحة بترك منازعة الأنصار مع أصحاب السقيفة لتنحيتهم الشرعية غاصبي الخلافة و فدك، و مانعي الإرث و الخمس، و

المنتهكين لحرمات أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين، و بما لفراغ من التكاليف إن لم يكن لإمام أمير المؤمنين علي ﴿ع﴾ دفع الخلافة لأمرهم بعد خلاف أبي بكر بن أبي قحافة أول غاصب للخلافة، و مقدم غاصبيه و أعوانه لمساهمته في دين الله جلّ وعلا، أو الاستبداد في أكل مال الله تعالى و مال رسوله ﴿ص﴾ و غصب فدك و الخلافة من آل الله تعالى، نظير ما أشار إليه سيد الوصيين علي بن أبي طالب ﴿ع﴾ بقوله

في نهج البلاغة: «يخضمون مال الله خضم الإبل نبتة الربيع» الخطبة الشقشقية ٣

و معنى الفقرة: ألا و إني أراكم معشر الأنصار بدلاً من القيام بالحق تمدي كسلم تومون به و بعد ما تحملتم من الكد و التعب من أجله أصبحتم محتاجين للراحة، و ترك القيام بالحق!

و قولها عليها أفضل صلوات الله «و أبعد من هو أحق بالبسط و القبض»

البسط ـ مادياً و معنوياً ـ خلاف القبض كما أن قبض الشيء بيده أمسكه بيده خلاف بسطه و نشره قال الله تعالى «والله يقبض و يبسط» البقرة ٢٤٥ أي يضيّق على قوم و يوسّع على قوم

و في نهج البلاغة عن إمام المتقين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﴿ع﴾ «ما هي إلاّ الكوفة أقبضها و أبسطها ..» الخطبة: ٢٥)

قبض الطائر و بسط جمع جناحه و بسطه

إنما المراد ممن هو أحق بالبسط و القبض هو سيد الوصيين الإمام علي ﴿ع﴾ و صيغة التفضيل مثلها في قوله عزّوجلّ «قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون» الفرقان ١٥)

مع أنه لاخير في المفضّل عليه و هو المشبّه، بل هو شرّ

و ذلك أنّ صيغة التفضيل مالم تعرف «من» و لم تدخل فيها اللام، كانت للتقديس و التمييز لا للمقايسة و الموازنة والمفاضلة كما توهّمه أكثر الناس بل أكثر الخواصّ

فالبسط و القبض حقّ خاص بعد وفاة رسول الله ﴿ص﴾ لأمير المؤمنين الإمام علي ﴿ع﴾ و بعده من يقوم مقامه من أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم

بخصّ، ثمّ لعلماء العاملين مع الشرائط اللازمة في زمن غيبة وليّ الأمر الحجّة بن الحسن العسكري عجّل الله تعالى فرجه الشريف. فالإمام أمير المؤمنين هو أسوة القسط و القصد و معياره و مقياسه و ميزانه في الدّين الاسلامي لا يقاس به أحد من هذه الأُمّة.

في نهج البلاغة: قال إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﴿عليه السلام﴾ «لا يقاس بآل محمّد ﴿صلى الله عليه وآله﴾ من هذه الامة أحد، و لا يسوّى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً، هم أساس الدّين و عماد اليقين، إليهم يفيء الغالي، و بهم يلحق التالي، و لهم خصائص حقّ الولاية، و فيهم الوصيّة و الوراثة، الآن إذ رجع الحقّ إلى أهله، و نُقل إلى منتقله» (الخطبة الثّانية)

وفي الفقرة: إشارة إلى اختصاص نقد الحقّ من لا انفكاك منها، و إلى أنّ غيره لا يستطيع على تطبيق القانون الإسلامي لم يعرفوا ذا القسط و القصد، الواضع للأُمور مواضعها علماً و عملاً، و هو إمام المتّقين أمير المؤمنين وصيّ رسول ربّ العالمين.

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين عليّ بن أبي طالب ﴿عليه السلام﴾ «تالله لقد عُلّمتُ تبليغ الرسالات و إتمام العدات و تمام الكلمات، و عندنا أهل البيت أبواب الحكم وضياء الأمر ألا و إنّ شرائع الدّين واحدة، و سبله قاصدة، من أخذ بها لحق و غنم و من وقف عنها ضلّ و ندم» (من كلامه ﴿عليه السلام﴾ رقم ١٢٠)

و قولها عليها السلام: «و خلوتم بالدّعة»

خلوت بالشيء انفردت به، و اجتمعت معه في خلوة. و الدّعة الرّاحة و السّكون.

في نهج البلاغة: قال سيّد الوصيّين الإمام عليّ ﴿عليه السلام﴾ «و كأنّي أنظر إليكم تكشّون كشيش الضّباب، لا تأخذون حقّاً و لا تمنعون ضيماً، قد خُلّيتم و الطّريق، فالنّجاة للمقتحم، و الهلكة للمتلوّم» من كلامه ﴿عليه السلام﴾، ١٢٣).

و فيه: قال يعسوب الدّين الإمام عليّ ﴿عليه السلام﴾ «و أريح الدّعة معها الأمان من الشّر» من قصار كلماته ﴿عليه السلام﴾ رقم ٣٦)

و معنى الفقرة: و انفردتم بالرّاحة و لست هي براحة إذ يعقبها العقاب.

و قولها سلام الله عليها: «و نجوتم بالضّيق من السّعة (من الضّيق بالسّعة خ)»

فعلى الأوّل و هو أنّكم تصبون للعيش في الحياة الدنيا من سعته في الدار الآخرة «الّذين يستحبّون الحياة الدنيا على الآخرة» إبراهيم: ٣، «بل تؤثرون الحياة الدنيا و الآخرة خير و أبقى» الأعلى: ١٦-١٧، «ما عندكم ينفد و ما عند الله باق» النحل: ٩٦،

و **على الثّاني** و هو أنّكم من ثقل التكاسل عن نصرته من الشهوات و الملاعب في الدعة و عدم تحمّل المسؤوليّة، لأنّ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (ع) لا عصبيّة عنده في المال و الجاه، و لا اعتبار عنده لشرف الرّجل، و إنّما هو عون المظلوم و لو كان عبداً حبشيّاً و خصم الظّالم و لو كان سيّداً قرشيّاً، فلا مصانعة و لا مجاملة و لا مداهنة و لا هوادة في تطبيق قانون العدل عند إمام المتّقين عليّ بن أبي طالب (ع) و ليس عنده شراء الضمائر الرّجل بموطئ الحكم و الرّئاسة، و قد استوحش من حكم ابن أبي طالب (ع) المارقون و القاسطون و الناكثون، و المنافقون الّذين يظهرون الإيمان و يبطنون الكفر بالله سبحانه و عداوة رسوله (ص) و هتك حرمة أهل بيته المعصومين عليهم السّلام و إهانة شيعتهم

و قولها صلوات الله عليها: «فمججتم ما وعيتم»

مجّ الرّجلُ الشّراب من فيه: رمى به، و منه: مججته إذا قذفته و ألقيته كرهه، و في الحديث «إنّه أخذ حسوة من ماء فمجّها في بئر، ففاضت بالماء الرّواء» أي صبّها

و عيتم حفظتم من وعى الشّيء: حفظه، و منه الوعاء للظّرف لأنّه يحفظ ما فيه

و **معنى الفقرة** فرميتم معشر الأنصار بعد وفاة رسول الله (ص) ما جمعتموه و حفظتموه في عهده (ص)

و هذا من باب تقريب المعقول بالمحسوس، أي ماء الحياة و هو الدّين الإسلامي السّامي الّذي حفظتموه و اجتمعتم تحت رايته (ص) بالعدل و الإحسان و الإخاء، و الحياة فيه من الزّمن «استجيبوا لله و للرّسول إذا دعاكم لما يحييكم» الأنفال: ٢٤، رميتموه و نبذتموه وراء ظهوركم، و أصبحتم لا تعرفونه حين استجبتم لنداء الشّيطان و دخلتم في فتنة السقيفة المشؤومة فأصابكم نارها و شرارها و مججتم ما وعيتموه بتعاونكم عن إخراج الإيمان من قلوبكم الّذي حفظتموه فيها، فطرحتموه منها إلى الخارج أي تركتموه و رأيتموه

بالارتداد، فيكون ذلك إشارة إلى ارتدادهم إلى أعقابهم كما يدل عليه نصّ استشهادها سلام الله عليها بقوله تعالى «إن تكفروا» وكما في الخبر الصحيح «ارتدّ الناس بعد رسول الله (ص) إلّا ثلاثة أو أربعة أو سبعة»، و يدلّ عليه الأبيات المذكورة بعد

و قولها صلوات الله عليها: «و دَسَعتُم الذي تسوّغتُم»

الدّسع الدّفع و القيء، و إخراج البعير جرّته من جوفه إلى فمه. الدسعة الدفعة

و ساغ الشّرب: سهل مدخله في الحلق، و سوّغه: شربه بسهولة

في نهج البلاغة: قال سيّد الموحّدين الإمام عليّ (ع): «و عرّفتُكُم ما أنكرتم و سوّغتُكُم ما مججتم لو كان الأعمى يلحظ أو النائم يستيقظ» خطبة ١٧٩.

و معنى الفقرة: و دفعتم و قئتم بعد وفاة رسول الله (ص) ما شربتموه بسهولة و لذّة في عهده (ص)

و هذا النصّ من باب تقريب المعقول بالمحسوس، و المراد: أنّكم معشر الأنصار تسوّغتم شراب ماء الحياة بسهولة و لذّة في زمن رسول الله (ص)، و هو كناية عن استسلامهم لمنهج الحقّ، فهدى حينما حثّهم داعي الله تعالى بكلّ واقعهم، و لكنّهم لمّا ركنوا إلى الدنس طمعوا و خافوا هدير الشيطان فضحوا بشؤون ما كان مستقرّاً في ضمائرهم من تأييد الحقّ

ثمّ استشهدت الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها على ارتدادهم أوّلاً بقوله تعالى حكاية عن موسى (ع) لقومه «إن تكفروا أنتم و من في الأرض جميعاً فإنّ الله لغنيّ حميد» (إبراهيم: ٨) و لإلقاء نظر الجمع الساري في كلّ طرف من الظروف ثانياً في حكمة التشريع إجمالاً

أمّا الأوّل فحاصله: أنّكم معشر الأنصار قد تركتم الإمام بالحقّ المنصوص من الله جلّ وعلا، و المنصوب من رسول الله (ص)، فخلعتم ربقة من رقابكم إذ رضيتم بيعة أبي بكر بن أبي قحافة غاصب الخلافة، فتركتم أنّ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (ع) لا يتهاون و لا يجامل و لا يداهن في دين الله تعالى مع أحد، و لا تأخذه في الله لومة لائم، و يأمركم بتحمّل الشدائد في الجهاد و غيره لسعادتكم، و ترك ما تشتهون من زخارف

لئلا يسلبكم نعم الآخرة الأبدية، و يسمّر أيديكم بالشقوة، و لا يفضل أحد على أحد إلاّ بالتقوى رجلاً كان أو امرأة، عبداً كان أو حرّاً، ذكراً كان أو أنثى، أبيض كان أو أسود، فإنّ ملاك الكرامة عنده ما هو عند الله تعالى نفسه و هو التقوى و أمّا أبو بكر فكان رجلاً سلس القياد، مذهبي في الدين و سبيل بكلّ أبواب الرحمة للعباد، فلما رفضتم الإيمان، و خرجتم عن طاعة الله جلّ و علا إلى طاعة الشيطان بقيادة أبي بكر، و لا يعود وباله إلاّ عليكم

و أمّا الثاني: فإنّ الله عزّ و جلّ قد شرع الأديان ليأخذ بيدي الإنسان إلى غاياته الكمالية لطفاً منه تعالى. و ليس هناك من حكم شرعه الله عزّ و جلّ يرجع نفعه إليه سبحانه فإنّه هو الغنيّ المطلق و الحميد المطلق، فكلّ ما شرعه من حكم إنّما هو عبادة نظرية أو عملية تأخذ بالإنسان إلى مدارج الكمال حتّى يصل الكمال، فإنّها أداة علم يتمكّن بواسطتها الإنسان من تطهير نفسه من العجب، و التكبّر ليتمكّن من مشاهدة الواقع كما هو عليه، و من شاهد الواقع عرف نفسه و من عرف نفسه فقد عرف ربّه، و من عرف ربّه عرف واقع الكمال و لانهاية الوجود، و من عرف الكمال حقّ معرفته و من أحبّ الكمال سار بكلّ واقعه بجوانحه و جوارحه إليه

و من طلب العرفان من نفسه، و لم يعتبر أنّه مستكمل في عرفانه يجد واسع فإنّ الكمال مطلوب لكلّ موجود فضلاً عن الإنسان

و في كلام الصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء سلام الله عليها صراحة بأنّ من لم يعرف الدين من باب مدينة علم الأنبياء و المرسلين، و راح يطلب الشرح و التفسير من أبواب الظالمين كان حقّاً من الكافرين و إن تكلّم بالإسلام بالشهادتين لأنّ للدين الحقّ مراتب، فأوّل مراتب القول بكلمة «لا إله إلاّ الله» و «محمّد رسول الله» الذي به يصحّ إطلاق الإسلام على الإنسان، فيصبح مسلماً، ثمّ يأتي دور عالم المعنى و هو الاستسلام بروح التسليم الذي لا يحصل عمقه في النفوس إلاّ بواسطة متابعة هدى الأنبياء و الأوصياء صلوات الله عليهم أجمعين

و ليس من العجيب أن تنتصر راية الأنبياء ذاتاً ثمّ تنتصب بالتمرّد و الطغيان و الظلم و

العدوان، والفكر والعصيان، جنباً مع الهدى والوحي، لأن مقتضى الفطرة وهداية العقل وحسن الإسلام والعدل والدفاع عن المظلوم ودفع الظالم والمنابع كلها تستدعي عامة الناس وتدفع ملتهم إلى جوهر شعوب مضطهدة لكن بعد انتصار أصل دعوة الحق تأتي مرحلة حمل الكتاب والعدل والإسلام روح الأمة وفيها المخرجين، فيهيء الظهور وسبب الاختلاف في اتحاد الظلم والعدوان من كل الأنفس من المظلومين والظالمين ضد الطغيان، وتنسق الصفوف التي كسبت بالأمس مرحلة وحدة ظلم الظالم، فتحقق مرة ثانية أقلية تعشق الحكم والسلطان وأكثرية تعيش الاضطهاد والحرمان.

وبالجملة لا بد من الكفاح في ميادين الجهاد الأصغر وهو الجهاد بالسيف واللسان ضد الكفر والطغيان الذي قد عمّ زمانه لعدد من المظلومين على خلاف مراتب إيمانهم والجهاد الأكبر وهو جهاد النفس حتى تصبح على الإسلام الذي ما حصل إلا به إلا النادر من البشر لكونه جهاداً مع الخلائق ضد نوازع الأكبر فلم يكن الانتكاص على العقب في ميادين الجهاد الأكبر مختصاً بالماضي وإن كان هم وسائمة منقلبين على أعقابهم!

قال الله تعالى: «أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين» العنكبوت ٢ ـ ٣.

وقال سيد الوصيين الإمام علي عليه السلام: «عند الامتحان يكرم الرجل أو يهان».

الفصل الرابع عشر في بيان تقدمة فاطمة سلام الله عليها الحجة على الأنصار فقالت عليها السلام:

«ألا وقد قلتُ ما قلت هذا على معرفة مني بالخذلة التي خامرتكم والغدرة التي استشعرتها قلوبكم، ولكنها فيضة النفس، ونفثة الغيظ، وخور القناة، وبثة الصدر، وتقدمة الحجة، فدونكموها فاحتقبوها دبرة الظهر، نقبة الخف، باقية العار، موسومة بغضب الجبار وشنار الأبد، موصولة بنار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة، فبعين الله ما تفعلون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، وأنا ابنة نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فاعملوا إنا عاملون، وانتظروا إنا منتظرون».

الشرح: «ألا» حرف تنبيه، و«قد» حرف تحقيق، جاءت سلام الله عليها بها للتحذير

الشّديد، مشيرة إلى علمها التّام، إنّما من دأب عدم عالم العصمة وبقائه ودراسة روح الإيمان من كبد سلام الله عليها حائلة لنفي الحجّة على الزّعم من عمّها بخذلة الّتي خالطت نفوسهم

الخذلة ترك النّصرة، من خذله إذا ترك عونه ونصرته، وتخاذلوا خذل بعضهم بعضاً ومنه الخذلان في مقابل التّوفيق

في نهج البلاغة قال أمير المؤمنين الإمام عليّ (عليه السلام) «فتواكلتم وتخاذلتم حتّى شُنّت عليكم الغارات» الخطبة ٢٦)

وفي نسخة «الجذلة» الفرحة والمسرّة

في نهج البلاغة قال سيّد الموحّدين الإمام عليّ (عليه السلام) - في وصف آدم (عليه السلام) - «و استبدل بالجذل وجلاً...» الخطبة الأولى)

«خامر نفسكم» من المخامرة المخالطة والمداخلة والمخادعة

ومعنى الفقرة: الفرحة والمسرّة خالطتكم وخامرتكم وخادعتكم

وقولها سلام الله عليها: «والغدرة الّتي استشعرتها قلوبكم»

الغدر نقض العهد ضدّ الوفاء

في نهج البلاغة قال مولى الموحّدين الإمام عليّ (عليه السلام) «الوفاء لأهل الغدر، غدرٌ عند الله، والغدر بأهل الغدر وفاء عند الله» من قصار كلماته (عليه السلام) رقم ٢٥

غدر الرّجل وبه خانه، ونقض عهده

في نهج البلاغة قال سيّد الوصيّين الإمام عليّ (عليه السلام) «والله ما معاوية بأدهى منّي، ولكنّه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى النّاس» من كلامه (عليه السلام) رقم ١٩١)

وفيه: قال أمير المؤمنين الإمام عليّ (عليه السلام) في مروان بن الحكم - «لو بايعني بيده لغدر بسبّته» من كلامه (عليه السلام) رقم: ٧٢)

استشعرت لبست، واستشعر الثّوب لبسه متّصلاً ببدنه من الشّعار بمعنى الثّوب الملاصق بالبدن مشتقّاً من الشّعر، مقابلاً للدّثار بمعنى الثّوب الّذي فوق الملاصق له. يقال جعل فلان هذا العمل شعاراً ودثاراً لنفسه ملازماً له في ظاهره وباطنه أي لازمه وزاوله

و في نهج البلاغة قال أمير المؤمنين الإمام علي (ع) - لأصحابه في بعض أيام صفين - «معاشر المسلمين استشعروا الخشية، و تجلببوا السكينة...» من كلامه (ع) رقم ٦٥

و فيه: «واستشعروا الصبر فإنه أدعى إلى النصر» الخطبة ٢٦ أي لازموه و زاولوه و قد شربت القلوب هذه الصفة فأشارت فاطمة الزهراء سلام الله عليها في هذه الجملة أيضاً إلى ما تعلم من ملاصقة الغدر و ارتباطه الشديد بنفوسهم من بعدما خضعوا لنداء أصحاب السقيفة المشؤومة و هدير الشيطان حتى أصبح الغدر شعاراً لبست القلوب

و قولها صلوات الله عليها «و لكنها فيضة النفس»

الفيض - في الأصل -: كثرة الماء و سيلانه يقال فاضت عينه أي سال دمعها بكثرة و فاض الخبر أي شاع و منه الخبر المستفيض أي بثلاثة طرق أو أكثر و فاض صدره بالسرّ باح به و أظهره و فاضت نفسه خرجت روحه و فاض الكذب كثر

في نهج البلاغة: قال سيد الوصيين الإمام علي (ع) «و [illegible] و غاض الصدق وفاض الكذب...» الخطبة ١٠٧)

و المراد من الفيضة هنا ما أوجبته النفس بعد تحمّلها على ضغطه من الهموم و الآلام ففيه إشارة إلى عدم الصمود و الهموم و الآلام عن حدّها و طلبها عن مرحلة إمكان الكتمان

و معنى الفقرة إني أظهرت هذا لكي أنفّس، و هو المصدر المكنون في معنى الاستملاء الهمّ و غمّه العزيز حتى يروّح نفسي من سورتها، و لأني عارفة بأنكم خاذلون لي، و تاركون لنصرتي، و غادرون بي لكون الغدر شعاركم، و عدم أنس الوفاء بقلوبكم، فكلّ ما قلت في خطابي هذا ما كان لرجاء النصرة منكم بعد معرفتي بنفوسكم، و لكن كان ذلك تعبيراً عن ألم أصبح متجاوزاً حدّ الصبر و الفيض هو الإباحة و البيان لما في الصدر من هموم و الآلام كما تفيض الإناء إذا امتلأ، و الفيض هو تجاوز الماء عن حدّه و طغيانه

و قولها عليها سلام الله «و نفثة الغيظ»

النّفث - بالضمّ - شبيه بالنفخ و هو أقل من التفل

في نهج البلاغة قال أمير المؤمنين الإمام علي (ع): «و الجهاد في سبيل الله عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا كنفثة في بحر لجّيّ» من قصار كلماته رقم ٣٦٦

و النفث كالتفل الذي يرمي به من الفم، و يدلّ على فرجة الجوف ومنه نفثة المصدور، تأوّه من به وجع الصدر أي من في صدره داء، موضع ظاهري أو باطني و قد يكون للمغتاظ يتنفّس عن تسكّن حرّ نفسه و ضغطة من داء الغضب ومنه نفث ما في النفس من الغضب

نفث: ألقى بفمه، ومنه النفاثات في العقد: السواحر

في نهج البلاغة قال إمام المتقين علي بن أبي طالب (ع): «إنّ الشيطان يُسنّي لكم طرقه و يريد أن يحلّ دينكم عقدةً عقدةً، و يعطيكم بالجماعة الفرقة، و بالفرقة الفتنة، فاصدفوا عن نزغاته و نفثاته» من كلامه (ع) رقم ١٢١

و قولها سلام الله عليها: «و خَوَرُ القناة»

الخَوَر: الضعف و الفتور من خار يخور و رجل خوّار: ضعيف و منكسر

في نهج البلاغة قال مولى الموحّدين الإمام علي (ع) «في ذمّ أصحابه - و إذا دعوتكم لم تجيبوا، إن أُمهلتم خضتم، و إن حوربتم خرتم» الخطبة ١٧٩، أي ضعفتم

القناة: جمعها قنا: الرمح و قيل كلّ عصا مستوية أو معوّجة

في نهج البلاغة قال سيد الوصيين الإمام علي (ع): «لا تُغمَزُ لهم قناةٌ و لا تُقرع لهم صفاة» الخطبة القاصعة ٢٣٤

خور القناة: إشارة إلى ضعف النفس عن تحمّله من الشدائد و الهموم و الآلام، و كتمان الصدر

و قولها صلوات الله عليها: «و بثّة الصدر»

البثّ: النشر و الإظهار و البسط و منه بثّ الخبر: أذاعه و نشره

في نهج البلاغة قال سيد الوصيين الإمام علي (ع): «أيّها الناس إنّي قد بثثت لكم المواعظ التي وعظ بها الأنبياء أممهم» الخطبة ١٨

و فيه: قال إمام المتّقين علي بن أبي طالب (ع): «... و بثثتُ إليهم الآلاء، فلا

يصدرون الحقّ من الباطل» من كلامه ﴿ص﴾ رقم ١٦٣)

وبثّ الشيءَ فرّقه، والغُبارَ هيّجه، ومنه قوله عزّ وجلّ «كالفراش المبثوث» القارعة ٤

ومعنى الهمّ الّذي لا يقدر صاحبه على كتمانه، فيبثّه أي يفرّقه ويظهره

قال الله تعالى حكاية عن يعقوب النبي ﴿ع﴾ «إنّما أشكو بثّي وحزني إلى الله» يوسف ٨٦)

ونفثة الصدر إشارة إلى شدّة الهموم والغموم والآلام التي لا يمكن كتمانها ولو كتمت لظهرت أيضاً على قسمات الوجه

وقولها عليها السلام: «وتَقدِمةُ الحُجّة»

تقدمة الحجّة إعلام الأمر قبل وقت الحاجة قطعاً للأعذار والتعلّة

وغرض الفقرة أنّ الصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها أفضل صلوات الله وأكمل تحيّاته، كأنّها تقول للأنصار: إنّ استنصاري منكم معشر الأنصار وتظلّمي لديكم، وإنّما قلته لكم لم يكن رجاءً للعون والمظاهرة، والنصر والمعونة لأنّي عالمة عارفة أنّكم لا تنصروني لضعفكم وفتوركم وفشلكم وذهاب ريحكم باتّباعكم أهواء أصحاب السقيفة المشؤومة، واستجابتكم لدعوة المتصدّين لبيعة أبي بكر بن أبي قحافة

وإنّما هي نفثة المتنفّس، وبثّة المغضب، وإتماماً للحجّة عليكم قبل يوم القيامة بإيضاح الحجّة لئلّا تقولوا يوم القيامة «إنّا كنّا عن هذا غافلين» الأعراف ١٧٢ وبحقيقة الحقّ جاهلين أو عنها ساهين أو لها ناسين

ولم أرد أيضاً معرفة الحقّ لنفسه، لتحتجّ به على الآخرين لأنّ الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها لم تترك شيئاً أصوليّاً من شؤون الرسالة والإمامة، ولا ما هو المنشأ لجنايات أصحاب السقيفة الشيطانية المشؤومة ومردتهم إلّا بيّنتها بالأدلّة الواضحة، وأوضحتها بالبراهين القاطعة. فماذا بعد بيان الحقّ إلّا الضلال المبين

وقولها سلام الله عليها «فدونكموها فاحتقبوها دَبِرةَ الظَّهر»

«دونكم» اسم فعل، و ضمير الجمع مخاطب بالأخذ للأنصار من أصحاب السّقيفة السّخيفة المشؤومة، و ضمير التأنيث يرجع إلى الخلافة المغصوبة المدلول عليها بالمقام

الحقبُ - جمعه أحقابٌ - حبل يشدّ به الرّحل إلى بطن البعير. يقال أحقبت البعير و احتقبته: شددته به، و هيّأته للركوب. و كلّ ما شُدّ في مؤخّر رحل أو قتب، فقد حُقب أو احتُقب. و منه قيل احتقب فلانٌ الإثم كأنّه جمعه، و احتمله من خلفه و حمله على ظهره و

الدَّبَرة: الجرح في ظهر البعير

و معنى الفقرة خذوا معشر الأنصار هذه الخلافة المغصوبة بعد أن أتممت عليكم الحجّة، فاحملوها على ظهوركم

و إسناد الاحتقاب إلى الخلافة تشبيه لها بالناقة

فقد شبّهت بضعة المصطفى الطّاهرة سلام الله عليها هذه الخلافة المغصوبة بناقة حينما يستظلّ بظلّ سلطان جائر فيتّخذ حمولة، و اغتصبوها من ذويها فلم يتمّ الستر على الحجّة لنصبه، و اركبوا عليها و شدّوا عليها حقائبكم مهيّئة للركوب عليها، و احتقبوها، و اعطوا بها حتّى تكون هذه الناقة مجروحة الظّهر

و في الجملة إشارة إلى أنّ هذه الخلافة خلافة مشؤومة تحمل عليهم الأخطار و الشدائد و الذّلّة و الهوان، و الجروح و الآلام في الدّنيا و الآخرة

و قولها صلوات الله عليها: «نقبة الخفّ»

النَّقَبُ: رِقّةُ خُفّ البعير. و نقب خُفّ البعير: رقّ و ثقب، و نقب الحائط: خرقه و نقب الخفّ الملبوس: خرّقه، و نقبةُ الخفّ: رقيقه

في نهج البلاغة - في وصيّة كان يوصي بها أمير المؤمنين الإمام عليّ (ع) لمن كان يستعمله على الصّدقات - «و ليُرفّهْ على اللاغب، و ليستأنِ بالنّقب و الظّالع» (من كتابه (ع) رقم: ٢٥)

و في «نقبة الخفّ» إشارة إلى رقّة جوف الخلافة المغصوبة المشبّهة بالنّاقة، و المراد أنّها إضافة على ظهرها المقروح، ضعيفة الأقدام متزلزلة المعوجّة

و قولها عليها السلام: «باقية العار»

أي يبقى عار هذه الخلافة المغصوبة لأصحابها وأذنابها إلى يوم القيامة، العار الباقي عيب شنيع لا يكون في معرض الزوال.

في نهج البلاغة قال مولى الموحدين الإمام علي عليه السلام: «واعلموا أنكم صرتم بعد الهجرة أعراباً، وبعد الموالاة أحزاباً، ما تتعلقون من الإسلام إلا باسمه، ولا تعرفون من الإيمان إلا رسمه، تقولون النار ولا العار، كأنكم تريدون أن تكفئوا الإسلام على وجهه انتهاكاً لحريمه، ونقضاً لميثاقه الذي وضعه الله لكم حرماً في أرضه وأمناً بين خلقه» (الخطبة القاصعة ٢٣٤)

وفيه، من كتاب إمام المتقين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام إلى طلحة والزبير: «فارجعا أيها الشيخان عن رأيكما، فإنّ الآن أعظم أمركما العار من قبل أن يتجمع العار والنار والسلام» (رقم الكتاب ٥٤)

وقولها سلام الله عليها: «موسومة بغضب الجبار»

من علائم عار هذه الخلافة المغصوبة لأصحابها وأذنابها أنها موسومة بغضب الجبار.

موسومة: معلومة، من وسمته إذا أثرت فيه بسمة وكيّ.

في نهج البلاغة قال سيد الموحدين الإمام علي عليه السلام: «وضرب العلامة لمتوسّمها» (الخطبة ١٠٧)

وقولها عليها السلام: «وشنار الأبد»

الشّنار: العيب والعار.

ومعنى الفقرة: وعلى هذه الخلافة المغصوبة التي ركبتموها ـ كالنّاقة المعيوبة ظهراً وخفّاً ـ سمة غضب الله جلّ وعلا والعار الأبدي المستمر بعذاب السّرمدي، متّصلة «بنار الله الموقدة التي تطّلع على الأفئدة» نار الله الموقدة ليست ناراً تحرق أجسام أصحاب السّقيفة المتخلفة المشؤومة وأذنابهم وتكسر عظامهم وتأكل لحومهم فحسب أو تتعدى بالجسد، إنّما هي نار تحرق أرواحهم وأجسامهم، نار تحرق قلوبهم وقوالبهم، نار تشرف عليهم فتبلغ ألمها وحريقها قلوبهم فتحرقها، وتتغلّب على أفئدتهم وتقهرها، نار تصل بإحراقها وحرارتها إلى قلوب هؤلاء الغاصبين للخلافة، الهاتكين لحرمة أهل بيت الوحي

المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين، و حرمة شيعتهم المخلصين، و لم تدخل في أصحاب هؤلاء الغاصبين و المشككين، و تابعهم حتّى تصل إلى أيديهم التي هي أقسى ما في الأرض، فيكون دينه ديناً لأولئك، و هم يولون صوب أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله بهضم حقوقهم و إيذائهم و هتك حرماتهم و إيذاء شيعتهم المخلصين.

و قولها عليها أفضل صلوات الله: «فاعملوا إنا عاملون»

كناية عن أنّ الله تعالى يرى ما تعملون كما يرى أحدكم فعل الآخر الذي يعمله في حضوره.

فما تعملون و ما تضمرون من هذه و ستكشف لله حق، فلا تظهر و لا تخف فهو تعالى عالم بضمائركم و ما في صدوركم.

قال الله تعالى: «قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله» آل عمران: ٢٩

و قال: «والله يعلم ما تصنعون» العنكبوت: ٤٥)

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين الإمام علي عليه السلام: «فاتقوا الله الذي أنتم بعينه، و نواصيكم بيده، و تقلّبكم في قبضته، إن أسررتم علمه، و إن أعلنتم كتبه» الخطبة ١٨٢)

و فيه قال سيّد الوصيّين الإمام علي عليه السلام: «و اتقوا مدارج الشيطان، و مهابط العدوان، و لا تُدخلوا بُطُونَكُمْ لُعَقَ الحرام، فإنكم بعين من حرّم عليكم المعصية، و سهّل لكم سبيل الطّاعة» الخطبة: ١٥١)

«و سيعلم الّذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون» الشعراء: ٢٢٧

و ستعلمون إلى أيّ منقلب من غضب الله تعالى و عذابه، و من قهره و عقابه ترجعون يوم القيامة.

و قولها عليها السلام: «و أنا ابنة نذير لكم بين يدي عذاب شديد»

إنّ الصدّيقة الطّاهرة فاطمة الزهراء سلام الله عليها تذكّر أصحاب السقيفة التحيفة المشؤومة و أذنابهم بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله من الإنذار بعذاب الله الشديد للمتخلّف عن منهج الرّسالة إتماماً للحجّة عليهم.

فقالت عليها السلام: أنا ابنة من أنذركم بعذاب الله في ظلمكم على أهل بيته ﷺ و هضم حقوقهم و هتك حرمتهم و قد أوصى ما أوصى بكم فيهم و تجاه أحقاد أتباعه عليكم

و قولها سلام الله عليها: «فاعملوا إنّا عاملون»

الأمر للتهديد اقتباس من قوله تعالى: «و قل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنّا عاملون» هود: ١٢١) «اعملوا ما شئتم إنّه بما تعملون بصير» فصلت: ٤٠) و حسب مكانتكم في كلّ حال مدبر. فاعملوا إنّا عاملون بما يلي حقوق ما فرّط به من الصبر و التحمّل على ذلك باسم الأمّة و بمصلحته و الإسلام، و إنّ الإسلام سيكم و من أعمالكم ترى، فاعملوا ما هو شأن الكفر و العصيان و الظلم و العدوان و البغي و الطغيان فإنّا عاملون ما هو شأن الصبر، و سنن الحقّ و الثبات لإقامة الحقّ مهما كلّف من صعاب الامور و التضحيات

«و انتظروا إنّا منتظرون» هود: ١٢٢

الأمر للتهديد كذلك و المعنى و انتظروا يا أصحاب السقيفة التحصيل لسقيفة و أذنابها، نتائج الظلم و العدوان و عواقب الكفر و الطغيان، و مآل أمر الخروج عن منهج الحقّ و الهدى في الحياة الدنيا و البرزخ و يوم الرجعة و يوم القيامة، كما أنّا منتظرون نتائج الصبر و الثبات و الرحمة الإلهية كذلك

جواب أبي بكر ابن أبي قحافة، خدعة و فرية على رسول الله ﷺ

«فأجابها أبو بكر عبد الله بن عثمان، و قال: يا بنت (ابنة خ) رسول الله لقد كان أبوك بالمؤمنين عطوفاً كريماً، رؤوفاً رحيماً، و على الكافرين عذاباً أليماً، و عقاباً عظيماً، إن عزوناه (نسبناه خ) وجدناه أباك دون النساء، و أخا بعلك (أخاً لبعلك خ) دون الأخلاء، آثره على كلّ حميم، و ساعده في كلّ أمر جسيم، لا يحبّكم إلّا (كلّ خ) سعيد، و لا يبغضكم إلّا (كلّ خ) شقيّ بعيد، فأنتم عترة رسول الله الطيّبون، (و خ) الخيرة المنتجبون، على الخير أدلّتنا، و إلى الجنّة مسالكنا، و أنت يا خيرة النساء، و ابنة خير الأنبياء، صادقة في قولك سابقة في وفور عقلك، غير مردودة عن حقّك و لا مصدودة عن صدقك

والله ما عدوتُ رأي رسول الله (ص) ولا عملتُ إلا بإذنه، وإنّ الرائد لا يكذب أهلَه، وإني أُشهِدُ الله وكفى به شهيداً أني سمعت رسول الله (ص) يقول: «نحن معاشر الأنبياء لا نورّث ذهباً ولا فضة ولا داراً ولا عقاراً، وإنما نورّث الكتب والحكمة والعلم والنبوّة، وما كان لنا من طعمة فلوليّ (فلولي خ) الأمر بعدنا أن يحكم فيه بحكمه»

وقد جعلنا ما حاولته في الكُراع والسلاح، يقاتل بها المسلمون ويجاهدون الكفّار، و(يجالدون خ) يجالدون المردة ثمّ الفجّار، وذلك بإجماع من المسلمين لم أتفرد به وحدي، ولم أستبدّ بما كان الرأي فيه عندي، وهذه حالي ومالي، هي لكِ وبين يديكِ، لا تُزوى عنكِ، ولا تدّخر (تُدَّخَرُ خ) دونكِ، وأنتِ سيدة أمة أبيكِ، والشجرة الطيبة لبنيكِ، لا ندفع (نُدفَعُ خ) ما لكِ من فضلكِ، ولا يوضعُ في (من خ) فرعكِ وأصلكِ، حكمكِ نافذ فيما ملكت يداي، فهل ترين أن أخالفَ في ذلك أباكِ (ص)؟

الشرح: لا يبعد أن يكون قول أبي بكر «لقد كان أبوكِ بالمؤمنين عطوفاً كريماً» إشارة إلى أنه يريد عليكِ أيضاً أن تكوني كذلك في العطوفة والكرامة، فيكون هذا الكلام خدعة لعامة الناس، ولفت نظرهم إلى الأساس، وتشبيه أنّ فدك كانت مال المؤمنين حقاً على سبيل الاستحقاق فلا يسترجعن لحقّهم، وكوني على حال الملاطفة بهم والعطوفة معهم كما كان أبوكِ نبيّ الرحمة، حيث كان لا يأخذ شيئاً من حقوقهم، ولا يطمع فيما كان لهم.

ومن المحتمل أن يكون كلامه هذا تعريضاً في الحاضرين الذين كانوا يطلبون الخلافة، ويدرون الأخرى بأنه لم يأخذ فدكاً لأجلهم سواء كان حقاً أم باطلاً، وأنه بصدد إصلاح حالهم، فيعاونوه على المسألة ويخرج عن قلوبهم تأثير كلماتها عليها السلام فيه، وموعظتها للكافة وبثّ نحيبها الواقعة التي أثّرت في تلك القلوب القاسية. وعلى أيّ تقدير، فلا يخلو كلامه هذا من مكر وكيد وخديعة وسياسة شيطانية في الواقع وإن كان ظاهره تصديقاً لقولها فيما مرّ من قولها سلام الله عليها: «لقد جاءكم رسول من أنفسكم».

قوله: «إن عزوناه ـ أي نسبناه ـ وجدناه أباكِ دون النساء» جواب ناظر إلى قولها عليها السلام فيما مرّ: «تعزوه تجدوه أبي».

وقوله: «وأخا إلفكِ دون الأخلاء».

الإلف. «الأليف بمعنى المألوف، و هو الزّوج لأنّه يألف زوجه و بالعكس

و قوله: «آثره على كلّ حميم»

اختاره و قدّمه على كلّ قريب و هذا ناظر إلى قولها سلام الله عليها «فدك نحلة في حياتها...»

و قوله: «صادقة في قولك»

و لا يبعد أن يكون تصديقاً لتصديقه الظاهر سلام الله عليها في كونها بنت رسول الله ﷺ و هذا لا يتنافى في غصب فدك أو يكون تصديقاً مطلقاً كما يظهر من كلامه

و قوله: «غير مردودة عن حقّك»

لا يبعد أن يكون مراده أن لا حقّ لك في فدك حتّى يردّك عن حقّك، فيكون من باب السّالبة بانتفاء الموضوع أي غير لا تخصّصك في فدك أو يكون مراده أنّ فدك حقّك، و لا نمنعك عنها إلّا لما سنبيّنه لك

و قوله: «و لا مصدودة عن صدقك»

أي غير مصروفة عن صدقك، و مع ذلك نكذّبك فيما تقولين لأنّك مخطئة في المسألة، و حسب صحّة الإرث من الأنبياء، و أنتِ غير مطّلعة على حقيقة الأمر، و ما سمعناه من أبيك أنّه لا نورّث

و قوله: «و الله ما عدوت أمر رسول الله»

أي ما تجاوزته. هذا تكذيب للصدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها في دعوى فدك، نعم المدّعي الطّاغي لا يبالي

و قوله: «و لا عملت إلّا بإذنه»

أي برأيه و قوله و هذا كذب محض لا يخفى على من له أدنى مسكة و درايه و طيب ولادة

و قوله: «و الرّائد لا يكذب أهله»

الرّائد الّذي يتقدّم القوم يبصر لهم الكلأ و مساقط الغيث، و «الرّائد لا يكذب أهله» مَثَلٌ أي الأمين لا يخون

إنّ أبابكر استشهد بهذا المثل في صدق خبره الذي أورده عن رسول الله (ص) و جعل نفسه، لاحتياله الخلافة التي هي الرئاسة العامة عن أهله، الرائد الذي لا يكذب أهله من مصاحبيه و غيرهم بالتصدّق في المرجعة، و هذا نصّ خدعة و مكر و تسويل شيطانه، و بإيقاع الشكّ في الناس و التشبيه و التلبيس

و قوله: «و إنّي أشهد الله و كفى به شهيداً»

أي أجعله شاهداً لقولي هذا و كفى به شهيداً أي إن كنت في قولي هذا كاذباً فهو يكافيني و يجازيني

و هذا كلّه من سحر نفسه و سعيه لأغراضه من الشهوة و الشهرة و الرئاسة و متاع الدنيا و القيادة على المتدينين

و قوله: «إنّي سمعت رسول الله (ص) يقول»

يدلّ على أنّه لم يسمع هذا الحديث من أحد بل اختلقه بنفسه و عملائه، و إلّا لكان الظاهر الحال و المقام أن يستشهد كلّ من سمع هذا الحديث المختلق لو كان هناك سامع آخر

و إن ورد ما يقاربه أو أمثاله من حيث المعنى و اللفظ عن الإمام أبي عبدالله جعفر بن محمّد الصادق (ع)

في اصول الكافي كتاب فضل العلم باب صفة العلم و فضله و فضل العلماء حديث ٢)

بإسناده عن أبي البختري عن أبي عبدالله (ع) قال: «إنّ العلماء ورثة الأنبياء و ذلك أنّ الأنبياء لم يورّثوا درهماً و لا ديناراً، و إنّما أورثوا أحاديث من أحاديثهم فمن أخذ بشيء منها فقد أخذ حظّاً وافراً، فانظروا علمكم هذا عمّن تأخذونه، فإنّ فينا أهل البيت في كلّ خلف عدولاً ينفون عنه تحريف الغالين و انتحال المبطلين و تأويل الجاهلين».

و لكنّه لا يدلّ على أنّ الأنبياء و المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين لا يورّثون درهماً و لا ديناراً، و إنّما يورّثون العلم و الحكمة، فمن أخذ منهما فقد أخذ حظّاً وافراً، قال الله تعالى «و من يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً و ما يذّكّر إلّا أولوا الألباب» بقره، ٢٦٩،

و إنّ العلماء ورثة الأنبياء من هذه الجهة، و ليس معناه إلّا أنّه ليس من شأن الأنبياء

عليهم السلام جمع الزخارف الدنيوية حتّى تكون هي لورثتهم، وإنّما شأنهم توريث العلم والحكمة وتزكية النفوس، وهو كذلك، ولذا لم يكن الأنبياء عليهم صلوات الله طالبين لجمع متاع الدنيا وحطامها وشهواتها وزخارفها، وكانوا يكتفون بالفقر والقناعة، وخشونة المأكل والمشرب والملبس والمسكن.

ولا يدلّ ذلك على أنّه إذا كان للأنبياء مال، ولو على نحو الكفاية أو أكثر منها لا يكون لورثته، كما أنّ ليس من شأن العلماء أن يطلبوا الدنيا ويجمعوا زخارفها، وإنّما شأنهم جمع العلم والحكمة والعمل، لا يدلّ على أنّه إن كان للعلماء مال، وكانت لهم أملاك أو كثير منها إذا ماتوا لم يكن لورثتهم.

فالخبر المذكور من باب كلمة حقّ يراد بها الباطل، فأراد أبو بكر بهذا الخبر إلقاء معنى باطل في قلوب الناس، وهذا الذي يخفى به قوله: وما كان لنا من طعمة فهذه الطعمة زيادة من أبي بكر ألحقها بأصل الخبر على تقدير صحته لتكون صارفة عن المعنى الظاهر العرفيّ الذي ذكرنا إلى المعنى الذي صرّح به، مع أنّه يمكن أن يكون المراد من الطعمة ما يكون في أيديهم من بيت المال الذي ما كان منه بهذه الخصيصة كما هو ظاهر الطعمة لأنّ من معانيها إذا نقل الأخص من الرجل أنّه طعمة له، وإن تطلق الطعمة على ما كان للشخص بالعرض لا بالأصالة.

ثمّ إنّ وليّ الأمر بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) من كان؟ وهل كان بأمر الله تعالى ونصب رسوله (صلى الله عليه وآله) لا احتياج في ردّ هذه الشبهة من نفسه والتصريح والتحرير في استخلافه شخصه لتولّيه، ثمّ دعوته نفسه التي إلى ما هوت أنفسهم ورغّبهم الشيطان، ثمّ إذا كان لوليّ الأمر أن يحكم فيه بحكمه فله أن يحكم في فدك بأن تكون لأهل بيت رسول الله (صلى الله عليه وآله) حفظاً لحقّ النبيّ الكريم في ولده وعترته وجبراً لخواطرهم، وملاحظة ما سمعوه مراراً من رسول الله (صلى الله عليه وآله) «فاطمة بضعة منّي، من آذاها فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله»، وتصديقاً لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) الذي قال فيه النبيّ الكريم (صلى الله عليه وآله) مرّة بعد أخرى «الحقّ مع عليّ، وعليّ مع الحقّ، يدور معه حيثما دار»

نقل العلّامة المجاهد السيّد عبد الحسين شرف الدين رضوان الله تعالى عليه في كتابه

لتحليل «النص و الاجتهاد» ص ١٢٣ ـ ١٢٤، من الأستاذ المصري المعاصر محمود أبو ريه ما لفظه

قال «بقي أمر لابدّ أن نقول فيه كلمة صريحة، ذلك هو موقف أبي بكر من فاطمة رضي الله عنها بنت رسول الله ﴿ﷺ﴾ و ما فعل معها في ميراث أبيها. لأنّا إذا سلّمنا بأنّ خبر الآحاد الظنّي يخصّص الكتاب القطعي، و أنّه قد ثبت أنّ النبيّ ﴿ﷺ﴾ قد قال «إنّه لا يورّث» و أنّه لا تخصيص في عموم هذا الخبر، فإنّ أبابكر كان يسعه أن يعطي فاطمة رضي الله عنها بعض تركة أبيها ﴿ﷺ﴾ كأن يخصّها بفدك، و هذا من حقّه الّذي ليس يعارضه فيه أحد، إذ يجوز للخليفة أن يخصّ من يشاء بما يشاء».

قال محمود أبو ريه «و قد خصّ هو نفسه الزبير بن العوام، و محمّد بن مسلمة و غيرهما ببعض متروكات النبيّ ﴿ﷺ﴾ على أنّ فدك هذه التي منعها أبوبكر، لم يلبث أن أقطعها الخليفة عثمان لمروان» هذا كلامه بنصّه

ثمّ عقب السيّد شرف الدين رحمه الله تعالى عليه قائلاً: «و نقل ابن أبي الحديد عن بعض السلف كلاماً مضمونه العتب على الخليفتين، و التعجّب منهما في موقفهما مع الزهراء بعد أبيها ﴿ﷺ﴾ فقالوا في آخره: و قد كان الأجمل بهما أن يكرما عنها الركبان من بنت رسول الله ﴿ﷺ﴾ فضلاً عن الدين»

فذيّله ابن أبي الحديد بقوله: «هذا الكتاب لا جواب عنه»

و قوله: «و قد جعلنا ما حاوته في الكراع و السلاح»

أي ما طالبته منّا و هو فدك و غيرها من الكراع و هو ما دون الكعب من الدوابّ و ما دون الركبة من الإنسان، و سمّي به الخيل خاصّة و قد يطلق على مطلق الدوابّ «و السلاح» آلة الحرب أي صرفناه في هذه الأشياء، الّتي هي مقدّمة القتال و الجهاد مع الكفّار، و أسباب المجادلة مع المردة الفجّار

و قوله «و ذلك بإجماع من المسلمين»

ظاهره أنّ منع فدك عن الصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء سلام الله عليها و البناء على صرفها في مقدّمات المجاهدة مع الكفّار و المجادلة مع الفجّار إنّما كان هو بإجماع المسلمين، و

أنّه لم ينفرد به وحده، و أنّه لم يستند أي لم ينفرد أيضاً أبو بكر بالرأي فيه عنده أي لم يفعله هو وحده، بل المسلمون الّذين هم مرادنا اتّفقوا على هذه المقدّمة.

و الظاهر استناده إلى الرأي مع إجماع المسلمين عدم استناده إلى الرواية المذكورة، و إلّا فكيف الاطمئنان باستناده إليها وحدها، بعدم مدخليته إليه و إجماع المسلمين على منع الإرث عن أولاد الأنبياء و المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين و ردّ عمومات القرآن الكريم و إطلاقاته في التوارث مطلقاً، و لا بعد في ذلك إذ ليس تلك الدعوة حقيقة، و سيأتي ما يؤيّد ذلك حيث إنّ أبابكر استند في قضية الصديقة الطاهرة سلام الله عليها في مسألة التوارث و استند غصب فدك و أخذها منها إلى اتّفاق المسلمين على ذلك.

ثمّ في ذكر إجماع المسلمين إيهام لهم أنّه لا يفعل شيئاً بدون مصالحهم و بدون مشاورتهم - و إن كان مشيرهم و قائدهم عمر بن الخطّاب وحده - ليكون ذلك سبباً لاستقامتهم في إقامة تلك الخلافة الباطلة المغصوبة المتوجّهة حتّى يستقيم به أمر الرئاسة الّتي تظاهر لأجلها بالإسلام.

فكان ملاك غصب فدك هو ملاك غصب الخلافة و هو إجماع المسلمين لا الرواية، والمراد من هذا الإجماع الكاذب هو توافق أبي بكر بن أبي قحافة، و عمر بن الخطّاب على سبقها بالخلافة واحداً بعد واحد و إن تبع من تبع من تقدّمهم و تخلّفه و التكبّر و الضلالة و البغي و الخيانة.

و قد أشار مولى الموحّدين سيّد الوصيّين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب «عليه السلام» إلى ذلك بقوله

في نهج البلاغة: «حتّى مضى الأوّل لسبيله، فأدلى بها إلى ابن الخطّاب بعده - فيا عجباً بينا هو يستقيلها في حياته، إذ عقدها لآخر بعد وفاته لشدّ ما تشطّرا ضرعيها» الخطبة الثالثة المعروفة بالشقشقية.

قال بعض المعاصرين: خطر ببالي، و أنا أفكّر في قول أبي بكر غاصب الخلافة «و ذلك بإجماع المسلمين، لم أتفرّد به» و قوله في آخر الحديث الّذي تفرّد بسمعه عن النبيّ «صلّى الله عليه و آله»: «و ما كان من طعمة فلوليّ أن يحكم فيه بحكمه» نعم خطر ببالي و أنا أفكّر في

هذين الفريقين، وما يدرى كيف فدك من حقّ المسلمين حتّى يؤخذ رأيهم فيه أم من حقّه الخاصّ حتّى حكم فيه بحكمه كما جاء في ذيل الحديث الّذي استنكرته الصّدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها وعبّرت به كذباً وزوراً وافتراءً على رسول الله ﴿ﷺ﴾ عملاً منهم لمّا أجمعوا على الغدر بذرّيّته كما اعتبرته طعناً في عصمته ﴿ﷺ﴾ لو صدر ذلك منه. وجمع ذلك كلّه في جوابها لأبي بكر «سبحان الله ما كان أبي رسول الله ﴿ﷺ﴾ عن كتاب الله صادفاً، ولا لأحكامه مخالفاً، بل كان يتبع أثره ويقفو سوره. أفتجمعون إلى الغدر اعتلالاً عليه بالزّور، وهذا بعد وفاته شبيه بما بغي له من الغوائل في حياته».

ثمّ إن كان من حقّه الخاصّ فبعد [illegible] ... [illegible] لا ... [illegible] نبيّه ﴿ﷺ﴾ وإن كان من حقّ المسلمين لكان اللّازم أن يؤخذ رأيهم أوّلاً في إعطائه إيّاها.

نعم خطر ببالي وأنا أُجيل الفكر في هذا وشبهه قول الشّاعر [illegible] من قصيدته العصماء في رثاء سيّدة النّساء سلام الله عليها، والّتي يقول في أوّلها:

ما [illegible] عتاب عنها [illegible] ... و [illegible] من [illegible]

[illegible] ... [illegible] فلا [illegible]

إلى أن يقول:

[illegible] ... [illegible]

و [illegible] ... [illegible]

والفكر في [illegible] ... [illegible]

[illegible] من الحقّ و [illegible] ... [illegible] ولا [illegible]

والّتي يقول فيها:

وأتت فاطمة [illegible] ... من المصطفى [illegible] ورثها

إلى أن قال ـ وهو محلّ الشّاهد ـ:

أترى المسلمين كانوا يلومو ... نها في العطاء لو أعطاها

كان تحت الخضراء بنت نبيّ ... صادق ناطق أمين سواها

بنت من؟ أمّ من؟ حليلة من؟ ... [illegible] طلمها و اذاها

و قوله: «و هذه حقي و مالي هي لك و بين يديك».

إشارة إلى ما كان له في نفسه ممّا ملكه بيده و المراد من الخال الخالصة و المال و نحوهما، فالمراد به أنسبهما، فيكون عطف المال عليه من عطف الخاص على العام، و المراد به الحقوق المتعلقة بالأموال الخارجية و هو المقدار الذي هذه حقه في حق الناس و الأموال الموجودة عند كلها [illegible] أو في [illegible]

و قوله: «لا أوثر عليك و لا أدّخر دونك».

أي لا أمنعك و لا أتصرّف و لا أدّخر دونك أي لا أمنع عنك منك، أي جميعك متصرّفه فيه، فتصرّف كيف شئت و أيّ شيء لا تقصدينك في ذلك و الحال أنك سيّدة الأمّة و شجرة لطيفة [illegible] لأئمّة عليهم السلام لا يمنع و لا يصحّ منع شيء من أن تتصرّف فيه مثل مالك.

و قوله: «و لا يوضع في فرعك و أصلك».

أي لا نحطّ درجتك، و لا ننكر فضل أصولك و جدّتك و فروعك و أولادك.

و قوله: «حكمك نافذ فيما ملكت يداي فهل ترين أن أخالف في ذلك أباك؟»

أي حكمك نافذ في جميع ما ملكته يداي و مع هذا كلّه فهل ترين أن أخالف في ذلك أباك؟ و هذا كلّه كيد سياسي و خدعة شيطانية و تمويع الناس في شبهة أنّي لا أمنعك فدك من جهة دنيوية، و إنّما هو من جهة حكم الشّريعة بذلك، و أنا راض بأن أترك جميع ما أملكه لأجل فاطمة بلا منع و لا [illegible]، و لا أعد و لا [illegible] و لا أعرض دنيويته و هو من يرضى أن يترك شيئاً ممّا سقط عليه غصباً و عدواناً و عرضاً دنيوياً ألا أن أردّ فدك

فانظر و تدبّر في تكيد السياسي و تخيل الشيطانية التي أعملها أبو بكر بن أبي قحافة في أثناء الكلمات المذكورة، ثمّ انظر إلى وقاحته في بيان هذه الأكذوبة و ما بها بعدها التفصيل في مجمع عامّة و الخاصّة، و مواجهته بها مع هذه المعصومة المطهّرة الصّدّيقة العالمة بالجهر و العلانية، و بما كان و ما يكون إلى يوم القيامة، ثمّ تدبّر تصديق أبي بكر للصّدّيقة الطّاهرة فاطمة الزّهراء سلام الله عليها في القول، و في نهاية يكون أهل البيت الوحي عليهم السلام دلائل الحقّ و الهدى، و مصابيح الجنّة و الرّضوان، و منعهم عمّا ادّعوا لأنفسهم ممّا

حصّة لله تعالى و رسوله ﴿ﷺ﴾ منهم مع العلم بعدم فقههم، و بقي ثبوت حقّهم و هذا دأب الحكّام الجبّارين و الفقهاء الضّالّين في كلّ ظرف من الظّروف، و لاسيّما هذا الختّار العنيد الّذي يتظاهر بالإسلام بين هذه الخلافة و هو لا يؤمن طرفة عين أبداً.

و لبعض المعاصرين حول كلمات أبي بكر بن أبي قحافة، نظرات نشير إليها تمحيصاً و تنقيحاً منّا: «و من المعلوم أنّ العقل و العدل و الإسلام كلّها يضع الأشياء مواضعها من أجل بلوغ الغاية الحقيقة الّتي كان الخلق و الإيجاد و الفطرة الإنسانيّة و الرّسالة و الإمامة من أجلها، و هي طيّ مدارج الكمال و نيل المعرفة الإلهيّة و الوصول، و الأمن في جواره سبحانه تحت ظلّ رحمته و فضله.

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﴿ﷺ﴾ ـ في وصف العاقل ـ: «هو الّذي يضع الشّيء مواضعه. فقيل: فصف لنا الجاهل؟ فقال: قد فعلت».

يعني أنّ الجاهل هو الّذي لا يضع الشّيء مواضعه فكأنّ ترك صفته، صفة له، إذ كان الجاهل خلاف وصف العاقل.

و فيه: قال سيّد الوصيّين الإمام عليّ ﴿ﷺ﴾: «العدل يضع الأمور مواضعها.»

و قال أمير المؤمنين الإمام عليّ ﴿ﷺ﴾ ـ في وصف العقل ـ: «العقل ما عُبد به الرّحمن و اكتسب به الجنان»، و قد سمّيت نعمة العقل جانبه.

و أمّا الجهل و الهوى و الشّهوة و الشّيطان كلّها يضع الأشياء مواضعها بلحاظ الغايات الطّبيعيّة المادّيّة الصّوريّة لإرضاء النّفس الأمّارة بالسّوء، و هذا هو المتحقّق من عامّة السّاسة الّذين يتّبعون الهدف على إرضاء عامّة النّاس.

و قد سمّيت مردة الجهل عامّة.

و من جملة السّاسة أبوبكر بن أبي قحافة فقال ما قاله لإرضاء عامّة النّاس في قوله خطاباً للصّدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها: فقد كان أبوك بالمؤمنين عطوفاً كريماً، رؤوفاً رحيماً، على الكافرين عذاباً أليماً و عقاباً عظيماً. فإنّ كلامه هذا من أبلغ الكلام الّذي يحمل عند السّذّج من عامّة النّاس على المدح و التّكريم منه للرّسالة الّتي يناط بعضها ببعض الجبّار، و عند العرفاء و الخاصّة على التّعريض و الذّمّ من أنّه كان يسعى للصّدّيقة

الطّاهرة الزّاكية المرضيّة صلوات الله عليها كي كان أبوها ﴿ﷺ﴾ رحمة للعالمين أن تكون كذلك لا أن تدّعي أموال المسلمين و تريد اختصاصها بنفسها هذا كلّه سياسيّ و خدعة شيطانيّة. ثمّ حذّر أُسّ الفتنات العامّة للنّاس بزوج الزّهراء و تندّمه، و عملاً عليهم لا اعتراف بالمسلّمات مهيّئة النّفوس بقول ما هو محض تخريج رجع قائلاً «إن تعزوه و تعرفوه تجده» أي رسول الله ﴿ﷺ﴾ «أباك دون النّساء، و أخا إلفك» و هو عليّ بن أبي طالب ﴿ﷺ﴾ «دون الأخلّاء» مظهراً بذلك عدم الخلاف مع عليها السّلام فيما تعرّضت إليه في خطبتها

ثمّ أخذ أبو بكر بعد ذلك بإثبات المسلّمات الأُخر الّتي تطرّقت لها سلام الله عليها في خطبتها بأنّ زوجها السّلام، و بنوّة أهل بيت رسول الله ﴿ﷺ﴾ الكرام و استغلّها للرّوح من أجل تمييعها الشّأنيّة و الخلاف و بيان أنّ ما عطفت عليها تكلّمت سلام الله عليها تلك الخطبة البليغة لفظاً و معنىً، و ذلك بوضع أساس قاعدة ركيزة يتمكّن من خلالها القيام بضرب كلّما بدء من غصب الخلافة فقال «آثره على كلّ حميم و ساعده في أمر جسيم لا يحبّكم إلّا كلّ سعيد و لا يبغضكم إلّا كلّ شقيّ بعيد فأنتم عترة رسول الله الطّيّبون، الخيرة المنتجبون، على الخير أدلّتنا، و إلى الجنّة مسالكنا، و أنت يا خيرة النّساء، و ابنة خير الأنبياء، صادقة في قولك»

فمن هذه الجمل، و حاصله هذه الجملة الأخيرة عبارة الإبهام و عدم تمويه الغلس، و إثبات حقّ فيما يسرّ ملأ الشّرع بنفسه الرّدّ على ما ذهب المشرّع فيه من حصول الانقلاب بعد رسول الله ﴿ﷺ﴾ عن وقع الرّسالة، و اغتصاب الإمامة من أهلها، و تصدير أموال الصّدّيقة الطّاهرة عليها السّلام، و تحريم الاقتصادي على أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين و لو بعد الشّبهة من أنّ سلام الله عليها و إن كان حاشاها من الكذب و لكن قد أخطأت في المصداق، فظنّت أنّ الرّسول ﴿ﷺ﴾ كبقيّة النّاس في حكم المواريث

ثمّ استمرّ كيد السّياسي و خدعته الشّيطانيّة، فقال «سابقة في وفور عقلك، غير مردودة عن حقّك، و لا مصدودة عن صدقك» فكانت هذه تكليمات لتحريف أذهان عامّة النّاس عن الانقلاب الّذي حصل عن الرّسالة و اغتصاب الإمامة الّتي تطرّقت للصّدّيقة

الطّاهرة صلوات الله عليها بنصب الخطاب على التّرجيع المدوّي، ثمّ يأخذ بتحقيق سبك الرّدّ بالنظر المدقّق على بنت رسول الله ﷺ من أنّها تتّهمه بالكذب من أسنده إلى حضرة في المصدّق فقال:

«والله ما عدوت رأي رسول الله ولا عملت إلّا بإذنه، وإنّ الرّائد لا يكذب أهله، وإنّي أشهد الله وكفى به شهيداً أنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: نحن معاشر الأنبياء لا نورّث ذهباً ولا فضّة ولا داراً ولا عقاراً، وإنّما نورّث الكتاب والحكمة والعلم والنّبوّة» وإنّما هو تدلّى بحدّة قوله بمعرفته الكلام ومساقط الغيث، وهذه إشارة إلى أنّ المؤمن لا يعول بتحمّل ما ذكر من قول رسول الله ﷺ من الأحاديث مقبولاً ولولا ذلك لشدّد التّدبير فيه لدفعه تعصّياً في سبيل خواتيم السّرائر.

وما كان هذا الخبر ولا مسنده يخلو بقوله ما كان بطعنه في الأمر بعد أن حكم فيه بحكم، فهذا ما ادّعى، لأنّ صدر الحديث لا يسبق جراح الأنبياء عليهم صلوات الله عن حكم المواريث، بل إنّه سيق لما هو شأن الأنبياء وحلاله تدبّرهم في حياتهم الدّنيا، وإنّ مثل هذا الكلام من أبي بكر نصّاً على خلاف ما عند باب التقسيم من صيرورة الخصم قاصّاً وكونه غير محتاج إلى دليل وبيّنة في ادّعى من عدم توريث الأنبياء عليهم السّلام بعد كونه مخالفاً لعموم القرآن الكريم وخصوصه.

وبيان لو كان الأمر كما يدّعي أبوبكر من كون عدم التّوريث لمعاشر الأنبياء صلوات الله عليهم خصّص حكماً بهتاناً لما احتاج إلى تحصيل الإجماع من المسلمين واستعطاف قلوبهم بأنّه قد جعل ما حاوله في الكراع والسّلاح لمصلحة عامّة النّاس، وأنّ مثل هذه التّوجيهات لاغتصاب الأموال وهضم الحقوق قد اعتادها الحكّام الجائرون عندما يطمعون في مال خاصّ أو يرون مصلحة لهم في ذلك.

ثمّ جاء بالتّحسين كلمة بهام وتقدير قائلاً: أنت سيّدة أمّة أبيك، والشّجرة الطّيّبة لبنيك» فلست أدري كيف تكون فاطمة الزّهراء سلام الله عليها باعتراف أبي بكر، سيّدة أمّة أبيها وهي تطمع في أموال المسلمين؟ ولا تعرف الصّدّيقة الطّاهرة عليها السّلام أحكام الرّسالة كما زعم الخليفة الغاصب ذلك.

قوله «لا يُدفع ما لك من فضلك و لا يوضع في فرعك و أصلك»
المراد من الفرع الأولاد و من الأصل الأجداد
و قوله «حكمك نافذ فيما ملكت يداي»
جاء مثل هذه الكلمات الخادعة يبيّن الأجنبيّة منه بالمسلّمات والضّروريّات من الإسلام على المسلّمات التي لا تردّد فيها، و أنّ الصّدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها عارفة بنهج الإسلام الّذي جاء به أبوها ﴿ﷺ﴾ بقوله «فهل ترى أن أخالف في ذلك أباك»؟

الفصل الخامس عشر في ردّ الصّدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها، قول أبي بكر و خدعة فدك صلوات الله عليها

«سبحان الله ما كان أبي رسول الله ﴿ﷺ﴾ عن كتاب الله صادفاً، و لا لأحكامه مخالفاً، بل كان يتّبع أثره، و يقفو سوره، أفتجمعون إلى الغدر اعتلالاً عليه بالزّور، و هذا بعد وفاته شبيه بما بُغي له من الغوائل في حياته، هذا كتاب الله حكماً عدلاً، و ناطقاً فصلاً يقول «يرثني و يرث من آل يعقوب» و يقول «و ورث سليمان داود» و بيّن الله عزّ و جلّ فيما وزّع من الأقساط، و شرّع من الفرائض و الميراث، و أباح من حظّ الذّكران و الإناث ما أزاح علّة المبطلين، و أزال التّظنّي و الشّبهات في الغابرين، كلاّ «بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل و الله المستعان على ما تصفون»

الشّرح: التّسبيح هو التّنزيه و التّقديس من كلّ نقص و عيب، و هذا ثناء خاصّ لله تعالى و قولنا «سبحان الله» إشارة إلى الصّفات السّلبيّة من حيث السّلب كما أنّ «الحمد لله» إشارة إلى الصّفات الثّبوتيّة من حيث الإثبات، و من باب أنّ التّطهير و التّخلية مقدّمة على الطّهارة و التّحلية، قدّم «سبحان الله» في الأذكار غالباً على «الحمد لله» كما في التّسبيحات الأربعة و غيرها، و الصّادف المعرض عنه، صدف عن الحقّ أي أعرض عنه.

و إنّ «سبحان الله» قد يستعمل في مقام التّذكّر المطلق و قد يستعمل في مقام التّعجّب و المراد به في الخطبة التّعجّب.

فتقول الصّدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها ردّاً على أبي بكر و مغالطاته و خدعه و كيده السّياسي من باب التّعجّب: سبحان الله تنزيهاً لساحة رسول الله ﴿ﷺ﴾ من مثل ذلك

الأقاويل و الاعتراضات الّتي سمعها نبيه ﷺ من أبي بكر بن أبي قحافة، المتوجهة لكون رسول الله ﷺ معرضاً عن كتاب الله جلّ و علا فيما حكم به من عموم حكم المواريث أو كون المراد أنّ مثل النسب متوجه لكونه ﷺ متساهلاً و معرضاً عن توضيح الرسالة و تبليغ تفاصيلها حتّى تشتبه على من هم أقرب الناس منه كعليّ بن أبي طالب و فاطمة الزهراء سلام الله عليهما في مرحلة تبليغ الأمر بالرسالة بأن لا يدري بها إلّا شخص واحد كأبي بكر الّذي لا يرتقي إلى مرتبة الإمام عليّ بن أبي طالب ﷺ علماً و عملاً

و قولها عليها أفضل صلوات الله: «بل كان يتّبع أثره»

الاتّباع هو المتابعة و الأثر ما بقي من رسم الشيء

و معنى الفقرة: بل كان رسول الله ﷺ يتّبع ما أُوحي الله تعالى إليه و يبيّنه للناس من دون تساهل

قال الله تعالى: «قل إنّما أتّبع ما يوحى إليّ من ربّي هذا بصائر من ربّكم و هدى و رحمة لقوم يؤمنون» الأعراف: ٢٠٣)

و قال: «قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا و من اتّبعني» يوسف: ١٠٨

و قال: «قل إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يحببكم الله و يغفر لكم ذنوبكم» آل عمران: ٣١

في نهج البلاغة قال أمير المؤمنين الإمام عليّ بن أبي طالب ﷺ: «و أشهد أنّ محمّداً عبده و رسوله أرسله بالدّين المشهور، و العلم المأثور، و الكتاب المسطور، و النّور الساطع، و الضّياء اللّامع، و الأمر الصّادع، إزاحة للشّبهات، و احتجاجاً بالبيّنات» (الخطبة الثانية)

و فيه قال مولى الموحّدين سيّد الوصيّين الإمام عليّ ﷺ: «أفأمرهم الله تعالى بالاختلاف فأطاعوه؟ أم نهاهم عنه فعصوه؟ أم أنزل الله سبحانه ديناً ناقصاً فاستعان بهم على إتمامه؟ أم كانوا شركاء له، فلهم أن يقولوا و عليه أن يرضى؟ أم أنزل الله سبحانه ديناً تامّاً فقصّر الرسول ﷺ عن تبليغه و أدائه؟» الخطبة ١٨

و فيه قال يعسوب الدّين الإمام عليّ ﷺ: «و أنزل عليكم الكتاب تبياناً لكلّ شيء، و عمّر فيكم نبيّه أزماناً حتّى أكمل له و لكم فيما أنزل من كتابه دينه الّذي رضي

سنته و نهى إليكم على لسانه محارمه من الأعمال و مكارهه، و نواهيه و أوامره، فألقى إليكم المعذرة و اتخذ عندكم الحجة. صفحة ١٩٥

و قولها عليها أكمل تحيات الله: «و يقفو سُوَرَهُ»

القفو الاتباع من قفوت أثره تبعته

و السُّور كلّ مرتفع عالٍ و منه سور المدينة و المقصود هنا ... في القرآن الكريم

و معنى الفقرة و كان رسول الله ﷺ يتبع كلّ عالٍ من معالي القرآن المجيد و لا يتركه قطّ

و قولها سلام الله عليها: «أفتجمعون إلى الغدر اعتلالاً عليه بالزور»

الغدر خلاف الوفاء و إنّ أخذ فدك و منع الإرث و النهي عن الخمس، و غصب الخلافة و غيرها من جنايات أصحاب السقيفة المشؤومة و مردتهم كلّها كانت غدراً بالنسبة إلى أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين

الاعتلال إبداء العلّة و الاعتذار و الزور هو الكذب

و ذلك أنّهم أضافوا إلى ذلك الغدر الكبير، إبداء العلّة و الاعتذار بالكذب، حيث وضعوا رواية مجعولة مجهولة و أسندوها إليه ﷺ في غصب فدك، و كذا روايتهم المجعولة في الخلافة حيث ذكروا أنّ الخلافة لأمير المؤمنين الإمام علي ﷺ و أسندوا إلى ما ... من أنّ الأمر في ذلك إلى الأمّة، حيث إنّ الكاذب يتوسّل لتصحيح كذبه إلى الأكاذيب

فقالت الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها لأصحاب السقيفة المشؤومة و مردتهم و قائدهم أبوبكر بن أبي قحافة توبيخاً لهم: هل كفاكم الغدر بالرسالة و الإمامة و اغتصاب الأموال و هضم حقوق أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين حتّى أخذتم تضيفون إلى ذلك الغدر لتوجيه أعمالكم الأكاذيب و الافتراءات

و معنى الفقرة أفٍّ لكم! أتجمعون هذه الكلمات المفتريات وسيلة للاعتذار عمّا ارتكبتم من الكفر و العصيان، من الظلم و العدوان، و من البغي و الطغيان فتحتجّون عليها، فأنتم أهل الجماعة على بثّ الكلمات لا على كلمة الإسلام من كلمة التوحيد و توحيد الكلمة

و قولها عليها سلام الله: «و هذه البصائر به شبهة» تعني به من الفوائل في حياته،

الفوائل جمع غائلة وهي الحادثة المهلكة من غالَه إذا أهلكه، وغائلة الشرّ: (دبيبه)

وأخذه فهو حَوب. والمراد من الفوائل هنا الحوادث والمكائد وهي المهلكات.

و قد أشارت الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها إنّ هذه الحوادث و الفوائل لم تكن

حادثة في عهد الرسول والرسول ﷺ بل هي مشابهة للتي كانت تجري في عهد رسول

الله ﷺ

و معنى الفقرة: و هذه الأمور الّتي صدرت من القوم بعد ارتحاله إلى أهل بيت الوحي المعصومين

صلوات الله عليهم أجمعين بعد وفاة رسول الله ﷺ بصائر لما تعني به أي طلب به من

أهل الكتاب من الفوائل و المهلكات في حياته ﷺ حيث عملوا على عداوته،

وسعوا في هلاكه ﷺ و سيتضح هذا بيانه في التعليق و الشرح

و ليس هذا بعيد من هؤلاء المنافقين من هذه الأمّة التي سنتهم الغدر حتى ما أسعر به

موسى ﷺ و هذا هو الذي يشعر به قولكم

و قولها عليها صلوات الله: «هذا كتاب الله حكماً عدلاً، و ناطقاً فصلاً، يقول

«يرثني و يرث من آل يعقوب» مريم: ٦ و يقول: «و ورث سليمان داود» النمل: ١٦

يظهر أنّه بيّن من كتاب الله حجّته و استشهد على ذلك للوراثة

إنّ هذا كتاب الله تعالى عادل لا يجور و لا يحيف و إنّه حكم بالحقّ و الصواب و هو

الناطق بكلّ حكم، والفاصل الممتاز حكمه كلّ شيء لأنّه فصل الخطاب لقول فيه، حكاية

عن زكريا النبيّ ﷺ

«يرثني و يرث من آل يعقوب» مريم: ٦ كما دلّ جريان أحكام الميراث بين الأنبياء

عليهم السلام و ورثتهم بغير فرق في حكم التوارث بينهم و بين الأمّة

قال الله تعالى: «إنّا أنزلنا إليك الكتاب بالحقّ لتحكم بين الناس بما أراك الله» النساء: ١٠٥.

و قال: «فاحكم بينهم بما أنزل الله» المائدة: ٤٩

و قال: «أفغير الله أبتغي حكماً و هو الّذي أنزل إليكم الكتاب مفصّلاً» الأنعام: ١١٤

و قال: «إنّه لقول فصل و ما هو بالهزل» الطارق: ١٣ ـ ١٤

في نهج البلاغة قال مولى الموحّدين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «إنّ الله بعث رسولاً هادياً بكتاب ناطق وأمر قائم، لا يهلك عنه إلّا هالك» الخطبة ١٦١.

وفيه قال سيّد الوصيّين الإمام عليّ عليه السلام: «وكتاب الله بين أظهركم ناطق لا يعيى لسانه، وبيت لا تهدم أركانه، وعزّ لا تهزم أعوانه» الخطبة ١٣٣.

وفيه قال يعسوب الدّين أمير المؤمنين الإمام عليّ عليه السلام: «فالقرآن آمر زاجر، وصامت ناطق، حجّة الله على خلقه، أخذ عليه ميثاقهم، وارتهن عليه أنفسهم، أتمّ نوره، وأكمل به دينه، وقبض نبيّه صلى الله عليه وآله وقد فرغ إلى الخلق من أحكام الهدى به، فعظّموا منه سبحانه ما عظّم من نفسه، فإنّه لم يخف عنكم شيئاً من دينه، ولم يترك شيئاً رضيه أو كرهه إلّا وجعل له علماً بادياً، وآية محكمة، تزجر عنه، أو تدعو إليه، فرضاه فيما بقي واحد، وسخطه فيما بقي واحد» الخطبة ١٨٣.

وفيه قال مولى الموحّدين الإمام عليّ عليه السلام في وصف القرآن الكريم: «... وهُدىً لمن ائتمّ به، وعذراً لمن انتحله، وبرهاناً لمن تكلّم به، وشاهداً لمن خاصم به، وفلجاً لمن حاجّ به، وحاملاً لمن حمله، ومطيّة لمن أعمله، وآية لمن توسّم، وجنّة لمن استلأم، وعلماً لمن وعى، وحديثاً لمن روى، وحكماً لمن قضى» الخطبة: ١٨٩)

وقوله صلوات الله عليها: [illegible] الأقساط»

التوزيع: التقسيم من وزّعه قسّمه وفرّقه، وتوزّعوه فيما بينهم: قسّموه، أصله من وزع فلاناً كفّه ومنعه، وأنّ التقسيم يوجب كفّ كلّ من الشريكين عن التصرّف في غير ما اختصّ به.

والأقساط ـ جمع القِسْط ـ: الحصّة والنصيب، وأصله القسط بمعنى العدل، لأنّه تمييز الحصص والأنصباء.

قال الله تعالى: «وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إنّ الله يحبّ المقسطين» المائدة: ٤٢

وإنّ العمدة في مقام بيان الحصص والأنصباء وأحكام المواريث

قال الله تعالى: «يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظّ الأُنثيين... تلك حدود الله ـ و

من يعص الله ورسوله ويتعدّ حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين» النساء: ١
٤

وفي نهج البلاغة قال سيّد الوصيّين الإمام علي ﴿ع﴾: «ويقسم ورّاثكم فيقتسمون تراثكم بين حميم خاصّ لم ينفع، وقريب محزون لم يمنع ـ أصبحت مساكنهم أجداثاً وأموالهم ميراثاً» الخطبة ٢٢١

وقوله عليه السلام: «وشرّع من فرائضه ومواريثه وأباح من حظّ الذكران والإناث ما أزاح به علّة المتعلّلين».

الفرائض: جمع الفريضة بمعنى المفروضة أي الحصّة المفروضة من الفرض بمعنى التقدير والمفروض يطلق على الواجب غالباً لأنّه الفرد الأكمل، وقد يستعمل في غير الواجب.

وأباح الشيء جعله مباحاً وحلالاً، من البوح بمعنى الإشاعة أباحه وشاعه وأباحه بذّر ساحته. الذكران: جمع ذكر كالذكور، والإناث جمع الأنثى خلاف الذكر.

الإزاحة: الإزالة والإذهاب والإبعاد من زاح الشيء ذهب وبعد.

والمراد من علّة المتعلّلين عللهم التي يتعلّلون بها لإيقاع الشبهة في حكم الله أو صحّته وإنّ هذه الفقرة في معنى الفقرة السابقة.

والمعنى: إنّ الله تعالى قسّم حظوظ الورثة وعيّن مقدارها وبيّنها مفصّلاً في كتابه المجيد وبيان رسوله ﴿ﷺ﴾ ما أزال به علّة المتعلّلين في تعدّدها، فلا يكون في أحكام الميراث إبهام فلا تجري فيها شبهة.

في نهج البلاغة: وروي أنّه ذُكر عند عمر بن الخطّاب في أيّامه حَلْيُ الكعبة وكثرته، فقال قوم: لو أخذته فجهّزت به جيوش المسلمين كان أعظم للأجر، وما تصنع الكعبة بالحَلْي؟ فهمّ عمر بذلك وسأل عنه أمير المؤمنين عليه السلام فقال:

«إنّ القرآن أُنزل على النبي ﴿ﷺ﴾ والأموال أربعة: أموال المسلمين فقسّمها بين الورثة في الفرائض، والفيء فقسّمه على مستحقّيه، والخمس فوضعه الله حيث وضعه، والصدقات فجعلها الله حيث جعلها، وكان حَلْيُ الكعبة فيها يومئذ، فتركه الله على حاله ولم

يتركه نسياناً، و لم يخف عليه مكانه، فأقرّه حيث أقرّه الله و رسوله،

فقال له عمر: لولاك لافتضحنا و ... خفي عليه من بعد رسول الله ﴿ﷺ﴾ رقم ٣٦٣)

و قولها صلوات الله عليها: «و أنتم تحتي و تشتهبن في تعيرين»

التقيّ هو ... و ضده التقيّ و هو كناية عن الشبهة و هي الاشتباه و يطلق على ما يوجب الاشتباه و الشبهات كالعطف التفسيري «التقيّ»

المعروف لا يليق ... من غير ... و يطلق ... على ... و المحي ... فهو من الاجتهاد ... من ... الأمر بعد رسول الله ﴿ﷺ﴾ و بعد نزول القرآن ... في حكم ... يوم القيامة ... بعد ...

و قولها سلام الله عليها «كلاّ بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل و الله المستعان على ما تصفون»

كلاّ: كلمة زجر و ردع أي ليس ... و الأمر بخلافه كما تقولون أو كما تظنون ... عمّا تعملون ... الأمر كما تظنون ... تكذبون عمداً أو ... في ... بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً هو ما ... عنه و ... إليه، ... من الله عزّ و جلّ

قال الله تعالى فيهم «إنّ الذين ارتدّوا على أدبارهم من بعد ما تبيّن لهم الهدى الشّيطان سوّل لهم و أملى لهم ذلك بأنّهم قالوا للّذين كرهوا ما نزّل الله سنطيعكم في بعض الأمر و الله يعلم إسرارهم» محمّد﴿ﷺ﴾: ٢٥ ـ ٢٦)

التسويل ... النفس ... و ... ليفعله أو يقوله أو هو تقدير معنى في النفس على الطمع في تمامه ... الشيطان ... شيء ... الشيطان أي ... و سوّلت له نفسه كذا زيّنته له، و سهّلته له و هوّنته

«فصبر جميل» أي فصبري صبر جميل أو الصبر الجميل أولى من الجزع الّذي لا يغني شيئاً و ذلك إذا كان الصّبر لوجه الله تعالى، و ... صاحبه

«والله المستعان على ما تصفون... في ... والعترة في معنى قول مولى ... المتقين ... سطوس» ﴿...﴾

في نهج البلاغة «اللهم إني أستعديك على قريش ومن أعانهم، فإنهم قطعوا رحمي، وصغّروا عظيم منزلتي، وأجمعوا على منازعتي أمراً هو لي، ثم قالوا: ألا إن في الحق أن تأخذه، وفي الحق أن تتركه» الخطبة

اعتراف أبي بكر بن أبي قحافة بحقانية أهل بيت النبوة

فقال أبو بكر:

«صدق الله وصدق رسوله وصدقت ابنته، أنت معدن الحكمة، وموطن الهدى والرحمة، وركن الدين، وعين الحجة، لا أبعد صوابك ولا أنكر خطابك، هؤلاء المسلمون بيني وبينك قلّدوني ما تقلّدت، وباتفاق منهم أخذت ما أخذت غير مكابر ولا مستبد ولا مستأثر، وهم بذلك شهود»

بعد ما سدّت ... الزهراء سلام الله عليها جميع الأبواب على أبي بكر بن أبي قحافة ... الشجاعة المشهورة ... خلافته في ... من الادعاءات ... ولم يبق ... من شيء إلا ... وقد أصبح أمر ... وأصبح الذي ... الناس ... وعلمه على أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين ... من المسلمين، ولكنه مع ذلك ... إلى ... فطرت ... الذي كان ... معدن العلم وبيت النبوة ... المطهر ... حصن ... الأنبياء والأوصياء والصالحين ... من ... والخوف والاضطهاد، فالآن بعد اليأس من ... والمصانعة و...

«هؤلاء المسلمون بيني وبينك قلّدوني ما تقلّدت، وباتفاق منهم أخذت ما أخذت غير مكابر ولا مستبد ولا مستأثر، وهم بذلك شهود»

نعم هنا يكون الجواب أنهم لم يدفعوا التصديق بالله تعالى ورسوله ﷺ، والتصديق بأنه الرسالة وركن الدين، وموطن الهدى والرحمة، وعين الحكمة التي هي منبع الصواب ومادّة الاستيلاء

قوله «معدن الحكمة»

معدن الشيء محلّ إقامته من عدن بالمكان إذا أقام به، ومنه قوله تعالى «جنّات عدن» الرعد ٢٣ لكونها محلّ إقامة أهلها وخلودهم فيها، ومنه معدن الذهب والفضّة ونحوهما لاستقرار الفلزّ فيه بلا تغيّر وتحرّك وزوال ولا تبدّل حتى في نفسه

وقوله «ركن الدين»

أي قوام الدين فإنّ الشيء لا يقوم بدون ركن فهو الذي يقوم به ركنه

وقوله «عين الحكمة»

أي حقيقتها وما هو منها أي الصحيح منها حقًّا

وقوله «لا أعدّ صوابك»

أي إنّ ما تقولين صواب لا خطأ بلا شكّ ولا مراء

وقوله «ولا أنكر خطابك»

أي أقرّ وأعترف بما تقولين به وتحكمين فيه من صحّته بوجوب الاستماع وكذا به أبيك، وأمر ثابت وبكل هؤلاء المسلمين حاضرون بيني وبينك، ويشهدون على مقولتي وقوله بك، هم قلّدوني الخلافة التي تطلبها لأنّهم جعلوا الخلافة في عنقي فلا أدع التي جعل على العنق، وما تدعين منهم أخذت ما أخذت من فدك، وغصبت الخلافة بأنّهم رأوا ذلك مصلحة، وأنفقت ما أخذوه على تلك المصلحة التي هي حفظ المسلمين، فعلت ذلك بإشارة منهم

وهذا إقرار واعتراف من أبي بكر بن أبي قحافة بصراحة بأنّ أمر الخلافة وأخذ فدك لم يكن من جانب الله سبحانه وتعالى ولا بإذن من رسول الله ﷺ، ولا بحكمه ولا على طبق الكتاب والسنّة، وإنّما كان ذلك من جهة آراء نفر دعته جماعة من المنافقين وحزب أهوائهم وهم أصحاب السقيفة المشؤومة كانوا في بدء أمرها ثلاثة نفر

١ ـ أبوبكر بن أبي قحافة ٢ ـ حبيبة عمر بن الخطّاب ٣ ـ عصبتها أبو عبيدة الجرّاح حفر القبور

ثمّ عمر ثمّ أنّ الجماعة بايعوا أبابكر

و قوله: منكر

المكابرة المعاندة أي لم يكن ذلك على سبيل المعاندة بل كان باتّفاق هؤلاء الجماعة و تراضيهم

و قوله: مستبدّ و لا مستأثر

الاستبداد: الانفراد به و الاستئثار: تخصيص المرء نفسه بالحسن الشيء دون غيره من استأثر بالشيء على الغير: استبدّ به و خصّ به نفسه

و المعنى ما كنت أنا مستبدّاً و منفرداً بنصبهم بالرأي و بل فعلت ما فعلت مع اتّفاق هؤلاء الجماعة و هم شهود على ذلك

الفصل السادس عشر في توبيخ الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها لأذناب السقيفة المشؤمة و وعظها عليها السلام في الناس و غيره

«معاشر الناس المسرعة إلى قيل الباطل، المغضية على الفعل القبيح الخاسر، أفلا تتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها؟ كلّا بل ران على قلوبكم ما أسأتم من أعمالكم، فأخذ بسمعكم و أبصاركم، و لبئس ما تأوّلتم، و ساء ما به أشرتم، و شرّ ما منه اعتضتم، لتجدنّ و الله محمله ثقيلاً، و غبّه وبيلاً، إذا كُشف لكم الغطاء، و بان ما وراءه الضرّاء، و بدا لكم من ربّكم ما لم تكونوا تحتسبون و خسر هنالك المبطلون»

الشرح: القيل هو القول، و كذا القول، و المراد من «الباطل» الشخص الباطل في فعله و قوله و اعتقاده باطل، غير مطابق بالحقّ الواقع و لا يبعد أن يكون التعبير بكلمة «القيل» للإشارة إلى أنّ ما لا واقع له من القول فهو في حكم المجهول، و السند المتزلزل بإزاء ما هو الحقّ من القول المستند إلى الله سبحانه، و أوليآئه المعلوم صلاحه ظاهراً و باطناً، الحسن انتسابه إلى أهله في الدنيا و الآخرة

قولها سلام الله عليها: «مُغضية على مثل قسح الخاسر»

الإغضاء: إدناء الجفون، ومنه قول الفرزدق في الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام:

يُغضي حياءً، ويُغضى من مهابته ... فما يُكلَّم إلّا حين يبتسم

أغضى المرءُ: سكن بصره من كل شيء. ويقال: **فلان أغضى على الأمر: سكت عنه و** صبر عليه، وأغضى عينه: طبق جفنيه **حتّى لا يبصر شيئاً، وأغضى على القذى: إذا** صبر وأمسك عنه عفواً ورضي به.

في نهج البلاغة قال سيّد الوصيّين أمير المؤمنين عليه السلام: «أغضي على القذى، ولألم ... رضيت به ...» من الخطبة ... ص ٢٠٤.

وفيه، قال إمام المتّقين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «فأغضيت على القذى، وجرعت ريقي على الشجى، وصبرت من كظم الغيظ على أمرّ من العلقم، وآلم للقلب من حزّ الشفار» من كلامه عليه السلام ص ٣٠٨.

ومعنى الفقرة أنّ هؤلاء الناس الذين سارعوا إلى البيعة لأبي بكر وآل غصب الخلافة وفدك سكتوا على هذه الخيانة والجناية وهتك حرمة لأهل بيت الوحي المعصومين عليهم السلام وهضم حقوقهم، ورضوا بفعله، فصحّ أنّ هؤلاء هم مثل الخاسر صاحب الأيدي المقدودة، وأنّ الناس سكتوا عن فعله، وأنّهم طبقوا جفونهم كأنّهم لا يبصرون شيئاً، كأنّهم خسروا في الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين.

وقولها صلوات الله عليها: «أفلا تتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها؟»

هذا اقتباس من قوله تعالى: ﴿أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ محمد (٤٧): ٢٤، مع تغيير الغيبة إلى الخطاب بملاحظة مقام المحاورة.

وقد روي عن الإمامين الصادق والكاظم عليهما السلام في الآية الكريمة أنّ المعنى: أفلا يتدبّرون القرآن فيقضوا ما عليهم من الحق.

وهذا المعنى بملاحظة مضمون الحديث عن الإمام المعصوم عليه السلام.

والمورد من أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين أنّ معنى القرآن

عام لكلّ ما مضى و ما يأتي إلى يوم القيامة و لأسعد بقراءة القرآن الكريم، و لم يبق فيه حجّة و لا برهان و بيان و تبيان. فالمراد أنّ هؤلاء النّاس من المراد المتّقية المستحيية المشؤومة و أذناب أصحابها لو تدبّروا القرآن الكريم لعرفوا ما فيه من نعم بدائعه و فروعه و معارفه و حِكَمه و مسائله و معانيه و حكموا به و لو على أنفسهم، و لكنّهم لم يتدبّروه و لو عرفوا ما فيه و لكن لم يعملوا به لكنّهم على شرع سواء، فصاروا جميعًا بمنزلة الجاهل بغير المتدبّر فيه، و يوبّخون على ترك تدبّرهم فيه و ترك عملهم به من باب تنزيل العالم غير العامل بعلمه منزلة الجاهل

و تنكير القلوب لإرادة قلوب هؤلاء المرادة و من عدو حذوهم في كلّ ظرف من الظّروف إلى يوم القيامة من خلفهم و أمثالهم، و من المحتمل أن يكون التّنكير لتحقير هذه القلوب القاسية أي هذه القلوب الغير المتدبّرة في القرآن الكريم قلوب منكرة، و محقّرة مستنكرة.

و قولها عليها السلام: «كلّا بل ران على قلوبكم»

اقتباس من قوله جلّ وعلا «كلّا بل ران على قلوبهم» المطفّفين ١٤ و وجه الالتفات فيه ما سبق. الرّين الطّبع و التّغطية، و أصله الغلبة يقال: ران هو و على قلبه غلب عليه من الرّين و هي الخمرة تغلبت على العقل و أطلق الرّين على الدّنس تغلّب على الشّيء

و المعنى: غلب على قلوبكم بسبب اتّباعكم لأصحاب السّقيفة استحيتهم المشؤومة، الرّين و هو السّحاب الكثيف، فستر قلوبكم سحاب ظلمه و ضلالته، فلا ترى في مرآتها وجه الحقّ و الهدى، وجه الصّواب و الفلاح و وجه الرّشاد و الكمال بعلّة ظلمة الهوى عليها إذا غلبت طبيعتهم على فطرتهم، و هو الّذي على قلوبهم.

في نهج البلاغة - من كتاب إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﷺ إلى أهل الأمصار - «... و من لجّ و تمادى فهو الرّاكس الّذي ران الله على قلبه، و صارت دائرة السّوء على رأسه» نهج الكتاب ٥٨

و قولها سلام الله عليها: «ما أسأتم من أعمالكم»

إشارة إلى سبب الرّين على قلوبهم و هو أعمالهم السّيّئة كما في قوله تعالى «كلّا بل ران

على قلوبهم ما كانوا يكسبون» (المطففين: ١٤)

و قولها عليها السلام: «فأخذ بسمعكم و أبصاركم»

فأخذ هذا الرّين بسمع قلوبكم و أبصارها لما حجب عنها، و لأخذ كما به عن قلبه و سمعه عن عمله، فلا تسمع الحقّ، و لا تبصر الهدى، فإذاً يكون لهم قلوب لا يفقهون بها، و لهم آذان لا يسمعون و لهم أعين لا يبصرون أولئك كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً

و ذلك أنّهم لم يعملوا بعد وفاة رسول الله ﷺ كما عملوا في حياته، و لم يتأثّروا بما سمعوا من تظلّم الصّدّيقة الطّاهرة فاطمة الزّهراء عليها صلوات الله في حضورهم، و لم ينصروها إذا استنصرتهم

و قولها أفضل صلوات الله عليها: «و بئس ما تأوّلتم»

التأوّل و التّأويل: الإرجاع من الأوّل بمعنى الرّجوع من آل إليه الأمر إذا رجع و منه المآل للمعاد و التأويل: الانتهاء و التّأويل ـ في الاصطلاح ـ حمل اللفظ على غير المعنى الظّاهريّ و هو على قسمين

الأوّل: هو حمل اللفظ على ما به معناه المقصود منه و هي حقيقة خفيّة على النّاس إلّا الله تعالى و الرّاسخين في العلم كما في القرآن الكريم

قال الله عزّ و جلّ: «و ما يعلم تأويله إلّا الله و الرّاسخون في العلم» (آل عمران: ٧)

الثّاني: هو حمل اللفظ على الأمثال و الأهواء المتشابهة كالتأويلات التي تُعطى في كلّ طرف من الظّروف

في نهج البلاغة: فمن كتاب مولى الموحّدين الإمام المتّقي عليّ بن أبي طالب ﷺ إلى معاوية بن أبي سفيان: «فعدوت على طلب الدّنيا بتأويل القرآن» (رقم الكتاب ٥٥)

و قد أشار الإمام عليّ ﷺ إلى ذلك الصّنف من المتأوّلين بقوله

في نهج البلاغة: «يعطف الهوى على الهدى إذا عطفوا الهدى على الهوى، و يعطف الرّأي على القرآن إذا عطفوا القرآن على الرّأي» (الخطبة ١٣٩)

و فيه: قال مولى الموحّدين الإمام عليّ ﷺ: «فيمن يسمّى عالماً و ليس بعالم ...»

و آخر قد تسمّى عالماً و ليس به، فاقتبس جهائل من جهّال، و أضاليل من ضلّال، و

نصب للناس أشراكاً من حبائل غرور. وقول زور، قد حمل الكذب على [illegible]، و عطف الحق على [illegible] وقال للناس من عقله [illegible] ويهوي [illegible]، يقول قف عند الشبهات وفيها وقع، و يقول أعتزل البدع، وبينها اضطجع، فالصورة صورة إنسان، و القلب قلب حيوان، لا يعرف باب الهدى فيتبعه، و لا باب العمى فيصدّ عنه فذلك ميت الأحياء » الخطبة ٨٦

و معنى الفقرة و جعل الله طاعتكم ... [illegible] و حفظ الشريعة و صرفها عن وجوهها، و [illegible] ... ولكم و [illegible] و هو ولكم [illegible] و [illegible] الشخصية

و قولها سلام الله عليها « و [illegible] ... »

لا [illegible] لأمر بالحسن و [illegible]

و معنى الفقرة و [illegible] من أمر الخلافة إلى أبي بكر بن أبي قحافة فإنّ أمر الخلافة والإمامة من الحق الذي لا يجوز [illegible] و [illegible] الرسول ﷺ و [illegible] من شؤون الناس و اختيارهم

و قال الله تعالى لإبراهيم « إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين » البقرة ١٢٤

و قال « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » المائدة ٦٧

و قال « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً » الأحزاب ٣٦

و قولها عليها السلام « و [illegible] ... »

« شرّ » [illegible] ... و [illegible] و الخلافة

والمعنى و [illegible] من علي بن أبي طالب ﷺ و هو الخلافة

و على [illegible] من [illegible] و هو أحد [illegible]

و المعنى [illegible] من الخلافة إلى أبي بكر بن أبي قحافة، عوضاً عما [illegible]

خلافة علي بن أبي طالب ﴿ع﴾

تبيّن الأمر الباطل الذي أخذتموه حيث عرفتم أنكم تركتم الحق إذ تركتم الحق، و أخذتم بدله شيئاً من الباطل و هو غصب فدك و الخلافة التي معدودة من بعد فيما لو أخذوا الحق و هو فدك و الخلافة من غاصبيها، و استقرّوا بهذا الحقّ لكان نافعاً لهم في الدنيا و الآخرة

و من المحتمل أن يكون المراد من الباطل الذي اعتقدتموه من ظاهر القرآن الكريم و محكمه حيث تركتم ظاهره، و اتخذتم بدلها المعاني المؤوّلة المرجوحة المحدودة بمجرّد الاشتهاء و استحسان الآراء، بل حمل الكتاب على الأميال و الأهواء النفسانية و جعل الأحاديث و ما شابه

و قولها صلوات الله عليها: «ستحملون و الله محمله ثقيلاً و غبّه وبيلاً إذا كشف لكم الغطاء»

تحمل ـ كتحمّل ـ مصدر، حمل الشيء على ظهره و نقل حمله كناية عن كثرة الأوزار. قال الله تعالى: «و ليحملنّ أثقالهم و أثقالاً مع أثقالهم» العنكبوت ١٣،

الغِبّ: العاقبة كالمغبّة. و أصله فعل شيء يوماً، و تركه يوماً آخر

الوبال ـ في الأصل ـ الثقل و المكروه، و في اصطلاح الشرع عذاب الآخرة و العذاب الوبيل: الشديد الثقيل و منه الوبل للمطر الشديد

و معنى الفقرة: أقسم بالله جلّ و علا لكم معاشر المسلمين ستحملون محمل هذا المغصوب و وزره ثقيلاً، و عاقبته عذاباً وبيلاً إذا كشف لكم الغطاء يوم القيامة

و قولها عليها السلام: «و بان ما وراءه الضرّاء»

و ظهر لكم بعد كشف الغطاء عنكم، من الشدّة و العذاب يومئذ لأصحاب الصحيفة المشؤومة بما فعلوه من غصب فدك و الخلافة و لكم معاشر المسلمين الذين أعنتموهم على ظلمهم و جناياتهم و بغيهم و خياناتهم

و قولها صلوات الله عليها: «و بدا لكم من ربكم ما لم تكونوا تحتسبون»

و ظهر لكم من صنوف الجزاء و العذاب يوم القيامة ما لم تكونوا تنتظرونه، و لا تظنّونه، واصلاً إليكم، و لم يكن في حسبانكم

وقولها سلام الله عليها: «وخسر هنالك المبطلون»

اقتباس من قوله عزّوجلّ «فإذا جاء أمر الله قضي بالحقّ وخسر هنالك المبطلون» غافر ٧٨

فإذا جاء أمر الله تعالى حكم بينها وبين هؤلاء الغاصبين من أصحاب السقيفة وأذنابهم بالحقّ، وخسر يومئذٍ كلّ من كان يسعى في إبطال الحقّ وإعلاء الباطل

ولعمري إنّ هذه الخطبة الشريفة سلّطت بمعرفة الحقّ والهدى وحدّدت الباطل والضلال، وميّزت الحقّ من الباطل، والخير من الشرّ، والصلاح من الفساد.. وأنّها بجملتها تنادي بأنّها لم تكن من كلام بشر عادي غير معصوم وإنّها في الفصاحة والبلاغة ما بلغ

فيا لله هدى من استهدى، وخذلان من كره الحقّ وعصمه، وذلّ من حمى الظلم وعيّنه، وتعس من استحقّ نقمة إلى يوم القيامة لأنّ لعنة الله على القوم الظالمين، ومن في زمرتهم من المعينين لهم

التجاء الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها إلى قبر أبيها بعد يأسها من إحقاق حقّها

ثمّ عطفت عليها السلام على قبر النبي ﷺ وقالت:

قد كان بعدك أنباء وهنبثة ... لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب
إنّا فقدناك فقد الأرض وابلها ... واختلّ قومك فاشهدهم ولا تغب
وكلّ أهل له قربى ومنزلة ... عند الإله على الأدنين مقترب
أبدت رجال لنا نجوى صدورهم ... لمّا مضيت وحالت دونك الترب
تجهّمتنا رجال واستخفّ بنا ... لمّا فقدت وكلّ الإرث مغتصب
وكنت بدراً ونوراً يستضاء به ... عليك تنزل من ذي العزّة الكتب
وكان جبريل بالآيات يؤنسنا ... فقد فقدت وكلّ الخير محتجب
ضاقت عليّ بلادي بعد ما رحبت ... وسيم سبطاك خسفاً فيه لي نصب
فليت قبلك كان الموت صادفنا ... لمّا مضيت وحالت دونك الكثب

فقد رزئنا بما لم يرزه ذو شجنٍ ... من البرية لا عجمٌ ولا عربُ
وقد رزينا به محضاً خليقته ... صافي الضرائب والأعراق والنسبُ
فأنتَ خير عباد الله كلّهمُ ... وأصدق الناس حين الصدق والكذبُ
فسوف نبكيك ما عشنا وما بقيت ... منا العيون بتهمالٍ له سكبُ
سيعلمُ المتولّي ظُلمَ حامتنا ... يوم القيامة أنّى سوف ينقلبُ

وفي أمالي المفيد رضوان الله تعالى عليه عن زينب بنت أمير المؤمنين عليهما السلام قالت: لما اجتمع رأي أبي بكر على منع فاطمة فدك والعوالي، وأيست من إجابته لها عدلت إلى قبر أبيها، فألقت نفسها عليه، وشكت إليه ما فعله القوم بها، وبكت حتى بلّت تربته بدموعها وندبته، ثم قالت في آخر ندبتها:

قد كان بعدك أنباء وهنبثةٌ

في كشف الغمة بعد ذكر الأبيات قال: ذكرت ذلك وما كتبه من هذا النحو.

وفي نسبة الأبيات اختلاف لا بأس به. ذكرها جماعة من علماء العامة وحملة أخبارهم. راجع صحيح البخاري ج ٣ ص ٣٥ باب غزوة خيبر، و ج ٢ ص ١٠٦، وصحيح مسلم ج ٢ ص ٩٢ وشرح البخاري للعيني ج ١ ص ٣٢٣ و(تيسير الوصول ص ١٩٨) و(مسند أحمد ج ١ ص ٤) و(طبقات ابن سعد ص ٣١٣) و(... ج ٢ ص ٣٠) و(كنز العمال ج ٣ ص ١٢٥) و(وفاء الوفا ج ٢ ص ١٦٠) و(فتوح البلدان ص ٣٨) و(معجم البلدان ج ٦ ص ٣٤٣) و(السيرة الحلبية ج ٣ ص ٤٠٠) و(شرح النهج لابن أبي الحديد ج ٣ ص ٨٦) و(ج ٤ ص ٨١) و(تفسير الرازي ج ٣ ص ٢٣٠ و ج ٨ ص ٣٨٦) و(تفسير النيسابوري غرائب القرآن على هامش تفسير الطبري ج ٤ ص ١٩٠) وغيرها من كتب التفسير والحديث والتاريخ والسيرة.

الشرح

قولها صلوات الله عليها: «قد كان بعدك أنباء وهنبثة»

الأنباء: جمع نبأ: الخبر، والمراد من الأنباء في البيت هي الأقاويل المفتريات، والأخبار الغير المؤلمة والوقائع المؤلمة، والحوادث الشديدة بعد وفاة رسول الله ﷺ

من غصب خلافته و فدك و هتك حرمة أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين و هجوم بيتهم و حرق دارهم و استخفاف حقهم بعد رسول الله ﷺ و ضربها و تهديدها و الحوادث و المرارات المفصّلة على ذلك

و الهنبثة جمع هنابث، هي الأمور الشداد المختلفة و الاختلاط في القول

و قد أشار إلى ذلك مولى الموحدين مع المتقين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ في نهج البلاغة «و ستنبئك ابنتك بتضافر أمتك على هضمها، فأحفها السؤال، و استخبرها الحال» (نهج البلاغة ﷺ خطبة ﷺ رقم ١٩٣)

و قوله عليه السلام «لو كان شاهدها لم تكثر الخُطَب»

الشُهود الحضور، و الخُطَب جمع خُطبة و هي مجموعة كلام خاطب بها جماعة من الناس أو مقتبس بكلام مخصوص به، و المراد الخُطَب هنا هي الأقاويل المختلفة التي أثارها كمكالمة المقدّمة الطاهرة سلام الله عليها مع هؤلاء الجماعة من أصحاب السقيفة المخالفة لشريعته و مرادهم المكالمات المختلفة في مجالس متعددة، و مواجهتهم بها سلام الله عليها بالأجوبة المختلفة المتضادة الباطلة الكاذبة

و معنى الفقرة لو كان رسول الله ﷺ شاهداً حاضراً بيننا الآن لما وقع هذه الهنبثة، لم وقعت و لا تكثرت بل كان يعرف عدوهم و صديقهم و ما كان الأحوال بذلك و لم يحصل الاختلاف بالأقوال المختلفة المتضادة

و قوله سلام الله عليها «إنّا فقدناك فقد الأرض وابلها»

الفقد غيبة الشيء و عدمه بعد وجوده، من فقد فلان الشيء غاب عنه و عدمه و منه قوله تعالى «قالوا نفقد صُواع الملك» يوسف ٧٢

في نهج البلاغة قال سيد الوصيين الإمام علي ﷺ «فاسئلوني قبل أن تفقدوني، و لو قد فقدتموني و نزلت بكم كرائه الأمور و حوازب الخطوب لأطرق كثير من السائلين، و فشل كثير من المسؤولين» خطبة ٩٢

و تفقّده طلبه عند غيبته

الوابل المطر الشديد

قال الله تعالى: «و مثل الّذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله و تثبيتاً من أنفسهم كمثل جنّة بربوة أصابها وابل فآتت أُكلها ضعفين» البقرة ۲۶۵.

و في نهج البلاغة: عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي‌طالب (ع) ـ في الاستسقاء ـ: «و انشر علينا رحمتك بالسّحاب المنبعق، و الرّبيع المغدق، و النّبات المونق، سحّاً وابلاً، تحيي به ما قد مات، و تردّ به ما قد فات» الخطبة ۱۱۵.

و في الفقرة إشارة إلى شدّة الميل إلى الخاصّ، و غاية الاحتياج إليه لنهاية الرّغبة في فقده.

في نهج البلاغة: قال يعسوب الدّين إمام المتّقين عليّ (ع): «و كنه عظم عذر الشّيء لسامعين فيه عَظُمت آثاره به عنده» من قصار كلماته (ع) رقم ۲۶۶.

و قولها عليها أفضل صلوات الله: «... و اختلّ عنك فاشهدهم و لا تغب و قد نكصوا».

لاختلال ـ من الخلل ـ الفرجة بين الشّيئين الموجبة للانفصام.

في نهج البلاغة: قال أمير المؤمنين عليّ (ع): «الحلم غطاء ساتر، و العقل حسام قاطع، فاستر خلل خُلقك بحلمك، و قاتل هواك بعقلك» من قصار كلماته (ع) رقم ۴۱۶.

و إنّ الأمر بالشّهادة استدعاء، و النّهي عن الغيبة للتحذّر عنها.

و معنى الفقرة: و اختلّت بعدك يا رسول الله (ص) و تشتّت نظام المسلمين و تفرّق أُمورهم بسبب غصب الخلافة من أهلها، و غصب فدك و النّهي عن الخمس و حرمان الإرث على أهل بيتك و هتك حرمتهم و أبنائهم، فاشهدهم و لاتغب فإنّك شهيد عليهم و لاتغب عنهم في الدّنيا و الآخرة.

قال الله تعالى: «إنّا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم» المزّمّل ۱۵.

و قال: «هو سمّاكم المسلمين من قبل و في هذا ليكون الرّسول شهيداً عليكم و تكونوا شهداء على النّاس» الحجّ ۷۸.

و قال: «و يوم نبعث في كلّ أُمّة شهيداً عليهم من أنفسهم و جئنا بك شهيداً على

هؤلاء» النحل: ٨٩).

و في بعض النسخ: «و قد نكبوا» من النكب المثل، من نكب عن طريق عدل و مال عنه

و معنى الفقرة: قد لزم شهودك و حضورك لأنّ جماعة من أصحابك قد نكبوا عن الصّراط المستقيم، و انحرفوا عن جادّة الحقّ و الهدى، و أعرضوا عن الصّواب و الرّشاد لتردّهم من الغواية و الضّلالة إلى الكمال و الإنسانيّة

في نهج البلاغة، قال سيّد الوصيّين أمير المؤمنين الإمام عليّ «ع» ـ في الخوارج لمّا أنكروا تحكيم الرّجال، و يذمّ فيه أصحابه في التّحكيم ـ «فأين يتاه بكم؟ و من أين أتيتم؟! استعدّوا للمسير إلى قوم حيارى عن الحقّ لا يبصرونه، و موزعين بالجور لا يعدلون به، جفاةٍ عن الكتاب نُكُب عن الطّريق. » من كلامه «ع» رقم ١٢٥).

و في كشف الغمّة: «و اختلّ قومك لمّا غبت و انقلبوا» أي انقلبوا على أعقابهم راجعين إلى حالة الكفر و الضّلالة، و الشّرك و الجاهليّة و البغي و الحمية

و قولها عليها السلام: «و كلّ أهل له قربى و منزلة»

القربى ـ في الأصل ـ القرابة مطلقاً، مصدر، و قد تطلق على القرابة في الرّحم من قرب من الشّيء إذا دنا منه. و المنزلة: المرتبة و الدّرجة، جمعها منازل

في نهج البلاغة: قال أمير المؤمنين الإمام عليّ «ع» «فقلت يا رسول الله «ص» بأيّ المنازل أُنزِلهمْ عند ذلك؟ أبمنزلة ردّةٍ أم بمنزلة فتنة؟ فقال بمنزلة فتنة» من كلامه «ع»: ١٥٥).

و معنى الفقرة: و كلّ أهل كانت له مزيّة و زيادة على غيره من الأقربين عند الله سبحانه

و قولها صلوات الله عليها: «عند الإله على الأدنين مقترب»

الأدنين هم الأقربون و اقترب تقارب و إنّ المستفاد من الفقرة أنّ أقارب الرّجل صنفان صنف له قربى و منزلة باطنيّة، و صنف ليس كذلك، و الصّنف الأوّل أشدّ قرباً عند الله تعالى بالنّسبة إلى الصّنف الثّاني

و المراد من هذه الفقرة و ما قبلها أنّ الصّدّيقة الطّاهرة فاطمة الزّهراء سلام الله عليها تقول إنّا أهل بيت لنا قرابة و منزلة في أرفع موقع و علاقة بالنّسب إلى رسول الله ﴿ﷺ﴾ فنحن أقرب من سائر أقارب رسول الله ﴿ﷺ﴾ و من الأجانب بالنّسبة إلى رسول الله ﴿ﷺ﴾ و إلى الله سبحانه، فلابدّ أن تكون لنا الوراثة و الخلافة.

و في الفقرتين تعريض لما فعله أصحاب السّقيفة السّخيفة المشؤومة و مردتها كما مرّت إليه الإشارة و أنّهم فعلوا خلاف ما قرّره الله تعالى و حكموا بغير ما أنزل الله جلّ وعلا

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين الإمام عليّ ﴿ع﴾ في أصحاب السّقيفة «زرعوا الفجور و سقوه الغرور و حصدوا الثّبور لايقاس بآل محمّد ﴿ﷺ﴾ من هذه الأمّة أحد، و لايسوّى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً، هم أساس الدّين، و عماد اليقين، إليهم يفيئ الغالي، و بهم يلحق التّالي، و لهم خصائص حقّ الولاية و فيهم الوصيّة و الوراثة الآن إذ رجع الحقّ إلى أهله و نقل إلى منتقله» الخطبة: ٢

و فيه: قال سيّد الوصيّين الإمام عليّ ﴿ع﴾ ـ في المتخلّفين عن الحقّ و المائلين إلى الباطل ـ «و قطعتم الأدنى، و وصلتم الأبعد، و اعلموا أنّكم إن اتّبعتم الدّاعي لكم سلك بكم منهاج الرّسول، و كفيتم مؤونة الاعتساف، و نبذتم الثّقل الفادح عن الأعناق» الخطبة: ١٦٥

و قولها صلوات الله عليها. «أَبْدَتْ رِجَالٌ لَنا نَجْوى صُدُورِهِمْ»

الإبداء: الإظهار، خلاف الإسرار، من بدا له الأمر ظهر له

النّجوى: اسم من نجوته إذا ساررته، من نجا تخلّص، و نجوى صدورهم ما أضمروه في نفوسهم من الضغن و العداوة لأهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين

قال الله تعالى ـ في المنافقين ـ «ألم تر إلى الّذين نهوا عن النّجوى ثمّ يعودون لما نهوا عنه و يتناجون بالإثم و العدوان و معصيت الرّسول» المجادلة: ٨

و قد أشارت الصّدّيقة الطّاهرة فاطمة الزّهراء سلام الله عليها بقولها هذا إلى قوله جلّ وعلا «إنّ الّذين ارتدّوا على أدبارهم من بعد ما تبيّن لهم الهدى الشّيطان سوّل لهم و أملى لهم ذلك بأنّهم قالوا للّذين كرهوا ما نزّل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم

إسرارهم الذين ستملكونه فيحكمكم بحكمهم وعروج أصحابكم» محمّد ﴿ﷺ﴾ ٢٥ - ٣٧)

ومعنى الفقرة: أظهرت رجال - وهم أصحاب السقيفة - المتجهّمة المشؤومة ومردتها - بعد وفاة رسول الله ﴿ﷺ﴾ حقدهم وحسدهم وضغينتهم وعداوتهم لأهل بيت الوحي عليهم السلام التي أضمروها، ولم يتمكّنوا من إظهارها في حياة رسول الله ﴿ﷺ﴾

وقولها سلام الله عليها: «لمّا مضيتَ وحالتْ دونك التُّربُ»

المضيّ كناية عن الموت

في نهج البلاغة: قال سيّد الوصيّين الإمام عليّ ﴿ع﴾ في وصف الأنبياء عليهم السلام: «كلّما مضى منهم سلفٌ قام منهم بدين الله خلفٌ» (الخطبة ٩٣) أي كلّما مات من الأنبياء

وفيه: من كتاب إمام المتّقين عليّ بن أبي طالب ﴿ع﴾ إلى أهل مصر مع مالك الأشتر رضوان الله تعالى عليه - «فلمّا مضى ﴿ﷺ﴾ تنازع المسلمون الأمر من بعده» (الكتاب: ٦٤) أي فلمّا مات رسول الله ﴿ﷺ﴾

وحالتْ: صارت حائلة مانعة من حال فلان بيني وبين فلان صار حاجزاً بيني وبينه مانعاً لي عن رؤيته أو عن وصوله

في نهج البلاغة: قال يعسوب الدين أمير المؤمنين الإمام عليّ ﴿ع﴾: «وربّما طلبتُ حقّاً لي وأنتم تحولون بيني وبينه» (الخطبة ١٧)

ودونك: أي منك أو عنك أو بمعنى قبلك قبل الوصول إليك

والتُّربُ جمع التُّربة وهي التراب وقد أنّث الفعل «حالت» باعتبار جمع فاعل الفعل «التُّرب» كما يقال: قالت الرجال

وقولها عليها السلام: «تجهّمتْ رجالٌ واستُخفّ بنا»

التجهّم: الاستقبال بالوجه الكريه والعبوس، من جهمت الرجل وتجهّمته إذا كلحت في وجهه

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين الإمام عليّ ﴿ع﴾: «قد درست منار الهدى وظهرت أعلام الردى، فهي متجهّمة لأهلها، عابسة في وجه طالبها، ثمرها الفتنة» (الخطبة

٨٨) أي كالحة في وجوههم

و في نسخة «تهجّماً» في الهجوم أي تهجّمت عليه من هجمت على شيء و تهجّمت عليه أتيته بغتة

في نهج البلاغة ـ في وصيّة سيّد الوصيّين الإمام علي ﴿ع﴾ لابنه الحسن ﴿ع﴾ ـ «فليس شيء أكره بينهم و لا أقطع عنهم من مقارفة ما كانوا فيه أو ما يهجمون عليه و يصيرون إليه» الوصيّة رقم الكتاب ٣١)

و هجم فلان طرده و الهجوم الريح الشديدة تقلع البيوت و الأشجار فهذه تبيّن دخول أصحاب السقيفة الشنيعة المشؤومة في بيت فاطمة الطاهرة سلام الله عليها كالريح الشديدة التي تقلع البيوت و تسري الأموال كناية عن هتك حرمات أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين و بانتهاك حرماتهم و هضم حقوقهم

الاستخفاف كناية عن الاستحقار و المعنى حصل بعد وفاة رسول الله ﴿ص﴾ بالنسبة إلينا الاستخفاف من جانب أصحاب السقيفة الذين كانوا هم مستحقّين أن يستخفّ بهم لجهلهم و ضلالتهم و ظلمهم و عداوتهم و جرائمهم و جناياتهم

في نهج البلاغة في نعوت الناس قال الإمام علي ﴿ع﴾: «قد استهوتهم الأهواء، و استزلّتهم الكبرياء، و استخفّتهم الجاهليّة الجهلاء...» الخطبة: ٩٤)

و معنى الفقرة أنّ أصحاب السقيفة و مرتديها واجهونا بالوجه الكريه، و بالشدّة و الغلظة، أو هجموا على بيت الوحي و النبوّة هجمة عدائية و حقّرونا و لم يجعلوا لنا حرمةً و لا وزناً

و قولها صلوات الله عليها: «لمّا فُقِدتَ و كلُّ الإرث (الأرض خ) مُغتصبُ»

الفقد: غيب الشيء و عدمه بعد وجوده

الاغتصاب الغصب يعني المغصوب و في «كلّ الإرث» دلالة على أنّ أصحاب السقيفة الشنيعة المشؤومة لم يغصبوا فدكاً و العوالي فقط، بل غصبوا حقوق أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين مادّيها و معنويها من أموالهم كلّها منها فدك و العوالي، و من الخلافة

و معنى الفقرة: و لمّا غيبت عنّا يا رسول الله «ﷺ» بالموت، غصب أصحاب السّقيفة منّا ما ورثناه من المال و الخلافة

و في نسخة «و كلّ الأرض مغتصبة» و ذلك أنّ الأرض كلّها كانت لأهل بيت الوحي المعصومين عليهم السّلام كما قال الإمام السّابع موسى بن جعفر «ﷺ» لهارون الرّشيد، فاغتصبها أصحاب السّقيفة و بذلك صارت معادن كلّ خطيئة على وجه الأرض إلى يوم القيامة، و قد أشار إلى ذلك يعسوب الدّين الإمام عليّ «ﷺ» بقوله

في نهج البلاغة: «حتّى إذا قبض الله رسوله «ﷺ» رجع قوم على الأعقاب، و غالتهم السّبل، و اتّكلوا على الولائج، و وصلوا غير الرّحم، و هجروا السّبب الّذي أمروا بمودّته، و نقلوا البناء عن رصّ أساسه، فبنوه في غير موضعه، معادن كلّ خطيئة، و أبواب كلّ ضارب في غمرة ..» الخطبة: ١٥٠)

و قولها سلام الله عليها: «و كنت بدراً و نوراً يستضاء به»

و كنت يا رسول الله «ﷺ» بدراً ـ كالقمر في ليلة البدر ـ و نوراً ـ كالشّمس في رابعة النّهار يستضاء بك ليلاً و نهاراً في ظلم الشّرك و الطّغيان، و الإثم و العدوان، و الكفر و العصيان، و في ظلم الضّلالة و الجهالة، و العداوة و اللّجاجة

قال الله تعالى «يا أيّها النّبيّ إنّا أرسلناك شاهداً و مبشّراً و نذيراً و داعياً إلى الله بإذنه و سراجاً منيراً» الأحزاب ٤٥ ـ ٤٦)

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين عليّ بن أبي طالب «ﷺ» في وصف رسول الله «ﷺ» «فهو إمام من اتّقى، و بصيرة من اهتدى، سراج لمع ضوؤه، و شهاب سطع نوره ..» الخطبة ٩٣)

و قولها عليها صلوات الله: «عليك ينزل [ينزل ح] من ذي العزّة الكتب»

إنّ في المراد من ذي العزّة وجوهاً

منها: أنّ الله عزّ و جلّ عزّة كاملة و حقيقها و جميع أفرادها، قال الله تعالى «فإنّ العزّة لله جميعاً» النّساء: ١٣٩).

منها: أنّ المراد من العزّة الصّفة الجماليّة أو الجلاليّة أو كلتاهما

و الكتب: جمع الكتاب، و في جمعها وجوه:

منها: أنّ كلّ سورة من القرآن الكريم أو كلّ آية من آياته كأنّه على حدة

و منها: أنّ المراد بالكتب أحكامها الإلهيّة مطلقاً، فإنّ القرآن المجيد مشتمل على جميع ما في الكتب الماضية السّماوية كما في الأخبار الصّحيحة المرويّة عن أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين

و منها: أنّ المراد جنس الكتب من باب فلان يركب الخيل، و هو يركب واحدة منها، أي يركب من هذا الجنس.

و منها: أنّ اللام في «الكتب» للجنس و العهد مع اعتبار معنى الكمال كقولك زيد الرّجل أي الرّجل الكامل في الرّجوليّة

و معنى الفقرة: عليك يا أبتاه نزل الآيات القرآنية من الله جلّ وعلا، و بيّن لك الحلال و الحرام، و قد كنت أنت أعلم بأحكام الله تعالى و قرّرت لنا ما قرّرت من الوراثة و الخلافة بأمر الله عزّوجلّ، فكان على أمّتك أن يتّبعوك في كلّ طرف من الظّروف، و لاينكصوا عن الحقّ بعد الإقدام، و لكنّ أصحاب السّقيفة السّخيفة الشّؤمة هم غيّروا كتاب الله و بدّلوا سنّتك و غصبوا منّا الوراثة و الخلافة و هتكوا حرماتك و فعلوا ما لم تفعل أمّة نبيّ بأهل بيت نبيّهم

و قولها عليها السلام: «فقد كان جبرئيل بالآيات يؤنسنا»

إنّ المراد بالآيات: آيات القرآن الكريم و الايناس إعطاء الأنس و إذهاب الوحشة و الدّهشة

و معنى الفقرة: قد كان جبرئيل يجيئك بالآيات القرآنية على سبيل الوحي، و نحن قد اعتدنا بذلك، و استأنسنا به في عمرنا عن سائر الأنام، و زلنا بذلك عن مصادهة المصائب و الآلام و وحشة الأوجاع و الأسقام، فقد فقدت الآيات، و انقطع عنّا نزول الوحي بعد وفاتك

و قولها صلوات الله عليها: «فقد فُقِدْتَ فكلّ الخير مُحْتَجَبُ»

فلمّا غبتَ عنّا يا أبتاه بالوفاة، احتجب عنّا كلّ الخير إذ كنت معدن كلّ خير و أصل كلّ رحمة كما في زيارة الجامعة الكبيرة «إن ذُكِرَ الخيرُ كنتم أوّله و آخره و أصله و فرعه...»

و قولها صلوات الله عليها: «ضاقت عليّ بلادي (بلاد الله خ) بعد ما رحبت»

الضّيق: خلاف السّعة

في نهج البلاغة: قال سيّد الوصيّين الإمام عليّ (عليه السلام): «و قدّر الأرزاق فكثّرها و قلّلها، و قسّمها على الضّيق و السّعة» (الخطبة ٩٠)

و البلاد جمع البلد، و إضافته إلى الله كما في بعض النّسخ ظاهر و أمّا إضافته إلى ياء التكلّم فإشارة إلى قولها عليها السلام «و كلّ الأرض مغتصب».

و «رحبت» وسعت

و الفقرة كناية عن الاستراحة و عدم السّعة أو عدم الأمن من الخوف و الدهشة و الوحشة و ضرر الأعداء و القتلة

قال الله تعالى: «و ضاقت عليكم الأرض بما رحبت» (التوبة ٢٥) أي لم تجدوا في الأرض موضع قرار تطمئنّون إليه، و تسكن نفوسكم من الخوف و الوحشة و الدّهشة

و قولها عليها أفضل صلوات الله: «و سيم سبطاك خسفاً فيه لي نصب»

«سيم» فعل ماضي مبنيّ للمفعول من سام: أراده عليه و اشتطّ، و المراد من السّبطين هنا الحسنان عليهما السلام، و الخسف الذّلّة أي يكلّفهما له و النّصب التّعب

قال الله تعالى: «لا يمسّنا فيها نصب» (فاطر ٣٥) أي تعب

و المراد من الفقرة أنّه أراد أصحاب السّقيفة المشؤومة خسف سبطيك يا رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهما الحسنان و ذلّهما، و هو سبب لتعبي و نصبي لما يدخل عليّ من همّ و الحزن و الغمّ الشّديد الحاصل لي من هذه الجهة

و قولها صلوات الله عليها: «فليت قبلك كان الموت صادفنا»

صادف: وجد ولقي، من صادفت الضّالّة: وجدتها

و معنى الفقرة: فليت قبل موتك يا رسول الله (صلى الله عليه وآله) كنّا نموت

و فيها دلالة على نهاية ظلم أصحاب السّقيفة المشؤومة على أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين و هتك حرمتهم

و قولها سلام الله عليها: «لمّا قضيت و حالت دونك الكثب»

القضاء هنا الموت أي لمّا متّ يا أبتاه، و الكثب جمع كثيب و هو التّلّ من الرّمل، كناية

عن التّراب في تراب القبر، أو كنت الأرض مطلقاً لبُعد الفاصلة الظّاهريّة أيضاً في بعض الأوقات بين الأحباء، و قبور الموتى

و معنى الفقرة: أنّه عند غيبتك بالموت يا رسول الله ﴿ﷺ﴾ تمنّينا أن كنّا متنا من قبلك، و لم نر الدّنيا و هي خالية منك

فالمصرع الثّاني جواب «لمّا» بالتّشديد، و «أن» فيه مخفّفة، و المصرع الثّاني في موضع تعليل للتّمنّي السّابق

و قولها عليها السلام: «إنّا رُزئنا بما لم يُرزأ ذو شجن»

الرُّزْء: المصيبة العظمى بفقد الأعزّة، و في أصل اللّغة معنى النّقص، يقال: رزأ الرّجل مالَهُ: أصاب منه شيئاً مهما كان أي نقصه، و الرّزيّة: المصيبة لعظمه، و أصلها الرّزيئة ـ كفعيلة بمعنى فاعلة ـ قلبت الهمزة ياءً و أُدغِمَتْ

و رُزئنا فعل ماضٍ للمتكلّم مع الغير، مبنيّ للمفعول، و الشّجن: الحُزْن الشّديد، جمعه أشجان

و معنى الفقرة: نحن أهل بيت الوحي المعصومون قد أُصبنا بفقدك يا رسول الله ﴿ﷺ﴾ بمصيبة عظمى لم يُصَب بها ذو حُزْن شديد

في نهج البلاغة عن سيّد الوصيّين الإمام عليّ ﴿ﷺ﴾ في ذمّ صاحب الدّنيا: «... و من استشعر الشّغف بها ملأت ضميرهُ أشجاناً» من قصار كلماته ﴿ﷺ﴾ رقم ٣٥٩)

و قولها صلوات الله عليها: «من البريّة لا عُجْمٌ و لا عربٌ»

البريّة: الخلق، و البَري: الخالق، و العُجْمُ و العَجَمُ: خلاف العرب، فالعجم من ليس بعرب مطلقاً، و ذلك أنّ العرب طائفة مخصوصة، و لهم لغة مخصوصة من حيث النّوع، و إن اختلفت أشخاص بعض اللّغات و اللّهجات و الألحان في تلك اللّغة المخصوصة باختلاف الطّوائف و القبائل و الفِرَق، و العجم خلاف العرب و ليست العجم طائفة مخصوصة، و لا لها لهجة مخصوصة، بل الفارس على اختلافهم في اللّحن طائفة من العجم، و التّرك على اختلافهم في اللّهجة طائفة من العجم، و الهندي طائفة و هكذا

قال الله تعالى ـ في تقسيم النّاس على قسمين العرب و العجم: «و لو جعلناه قرآناً

أعجمياً لقالوا لولا فصّلت آياته ءأعجميّ و عربيّ قل هو للّذين آمنوا هدى و شفاء»
فصّلت: ٤٤)

و معنى الفقرة: أنّ هذه المصيبة العظمى الّتي أصابتنا، لم تُصب أحداً من الخلق لا من العجم و لا من العرب، فإنّ مصيبة موت رسول الله «ﷺ» و هتك حرمات أهل بيته المعصومين عليهم السلام بعد موته «ﷺ» و غصب خلافتهم و هضم حقوقهم، لها صدمات شديدة مخصوصة بأهل بيت الوحي صلوات الله عليهم أجمعين، غير صدماتها الشاملة لأهل الإسلام كلّهم، بل للمجتمع البشري جميعاً إلى يوم القيامة من الخزي و الذلّة، و الفساد و الضّلالة و الانحطاط و الهلاكة، و من العذاب و النّار.

و قولها سلام الله عليها: «و قدرُ بيانه محضاً خليقتُهُ»

المحض: صفة بمعنى الخالص. و الخليقة: الطّبيعة يكون الإنسان مخلوقاً عليها مادّياً. و هي ناشئة من أصل الطّينة. و أمّا الفطرة فهي باقية من تبدّل. فالمصيبة على الطّبيعة لا على الفطرة.

و معنى الفقرة: و قد أُصبنا أهل بيت الوحي بموت رسول الله «ﷺ» خالصاً طبيعته.

و قولها سلام الله عليها: «صدق الضّرائب و الأعراق و النّسب»

الضّرائب: جمع الضّريبة بمعنى السّجيّة و الطّبيعة. يقال: هذه ضريبته الّتي ضُرِبَ عليها أي طُبِعَ. و الضّريب: الصّنف و الشّكل و المثل من النّاس.

في نهج البلاغة: قال سيّد الوصيّين الإمام عليّ «ﷺ» في اختلاف النّاس في طينتهم ـ: «و معروف الضّريبة منكر الجليّة...» الخطبة: ٢٢٥)

الأعراق: جمع العرق و هو أصل كلّ شيء، و منه عروق الإنسان لأنّ جسد الإنسان مبنيّ عليها فهي أصل له.

في نهج البلاغة: قال أمير المؤمنين الإمام عليّ «ﷺ»: «الحمد لله الّذي لم يُصبح بي ميّتاً و لا سقيماً و لا مضروباً على عروق بسوء...» الخطبة: ٢٠٦)

و من المحتمل أن يكون المراد من «الأعراق» هنا الأصول من الآباء و الأجداد و الأمّهات و الجدّات.

النّسب: هو الرّبط الحاصل من ملاحظة حال الشّيء مع شيء آخر، ثمّ غلب استعماله

على ملاحظة أحد مع الآخر بسبب التولّد و القرابة

و من المحتمل أن يكون المراد من النّسب أيضاً الأُصول أي الآباء و الأجداد، و أن يكون المراد من صفاء الخليقة و الضّريبة، صفاء نفس طويّته، و من صفاء عرقه و نسبه، صفاء أُصوله. أو المراد من صفاء الخليقة صفاء أخلاقه و من صفاء عرقه و نسبه، صفاء اصوله، أو المراد من صفاء الخليقة صفاء أخلاقه، و صفاء الضّريبة طبيعة نفسه، و من العرق أصله، و من النّسب، النّسبة الملحوظة بين الأصل و الفرع

و **مقصود الفقرة** أنّ طبيعة نفس رسول الله ﴿ﷺ﴾ و طينته صافية، و أصلاب أجداده كريمة، و أرحام امّهاته طاهرة

و قد أشار إلى ذلك مولى الموحّدين يعسوب الدّين الإمام علي ﴿ع﴾ بقوله في وصف الأنبياء

في نهج البلاغة «فاستودعهم في أفضل مستودع، و أقرّهم في خير مستقرّ، تناسختهم كرائم الأصلاب إلى مطهّرات الأرحام» (خطبة ٩٣)

و فيه قال سيّد الوصيّين الإمام علي ﴿ع﴾ ـ في وصف أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين ـ «و نحن الأعلون نسباً، و الأشدّون برسول الله ﴿ﷺ﴾ نوطاً.» (من كلامه ﴿ع﴾ رقم ١٦١)

و قولها سلام الله عليها: «فأنْتَ خيرُ عِبادِ الله كُلِّهِمُ»

فأنت يا رسول الله ﴿ﷺ﴾ خير عباد الله جميعاً من الأوّلين و الآخرين

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين الإمام علي ﴿ع﴾ «و أشهد أنّ محمّداً عبده و رسوله، و سيّد عباده، كلّما نسخ الله الخلق فرقتين جعله في خيرهما، لم يُسْهِم فيه عاهر، و لاضَرَبَ فيه فاجر» (خطبة ٢٠٥)

و فيه قال سيّد الوصيّين الإمام علي ﴿ع﴾ ـ في وصف رسول الله ﴿ﷺ﴾ ـ «خير البريّة طفلاً، و أنجبها كهلاً، و أطهر المطهّرين شيمة، و أجود المستمطرين ديمة» (الخطبة ١٠٤)

و فيه: قال يعسوب الدّين أمير المؤمنين الإمام عليّ ﴿ع﴾ «مستقرّه خير مستقرّ، و

منبته أشرف منبت، في معدن الكرم، و معاهد السلامة ... محصنة ...

و قوله عليه السلام: «و صدق الناس حيث الصدق و الكذب»

«حيث» يجوز إضافته إلى المفرد، و لكن الغالب إضافته إلى الجملة، و قد رفع «الكذب» هنا مضروراً في قافية و يجوز رفع «الصدق» و «الكذب» على الابتداء و الخبر محذوف أي موجودان، أو معرضان أو مذكوران و يجوز أن يكون نائب فاعل لمحذوف أي حيث يذكر الصدق و الكذب

و مقصود الفقرة أنّ ما ذكر من صفات الشخصيّة و نعته، و غرضه ... أن لا يصدر منه الكذب، فإنّه حسبه الصدق ... فإنّ رديفه الكذب من الصفات المذمومة القبيحة في غاية ... لا يليق أن يصدر من مثل النبيّ صلى الله عليه و آله و ... و ... ، فكلّ ما قاله و قرّرته في أمر الخلافة و الوراثة حقّ لا ريب فيه، و إن كذّبت بعده أصحاب السّقيفة السّخيفة المشؤومة و مردتها السّفلة الجهلة

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين الإمام عليّ عليه السلام: «و ارغبوا فيما وعد المتّقين فإنّ وعده أصدق الوعد، و اقتدوا بهدي نبيّكم فإنّه أفضل الهدى، و استنّوا بسنّته فإنّها أهدى السّنن.» (الخطبة: ١٠٩)

و قوله صلوات الله عليها: «فسوف تبكيك العين ما عشت و ما بقيت»

فسوف تبكيك العين، و تبكي على أهل بيت رسول الله صلى الله عليه و آله ما مضى و ما بقيت من أيّام عمرها في الحياة لما ... بعدك و ما وقع علينا بعدك من أصحاب السّقيفة السّخيفة المشؤومة و أذنابهم من هتك حرماتنا و غصب حقوق أهل البيت المعصومين و غصب الخلافة

و قولها سلام الله عليها: «إنّ العيون بتهمال لنا تسكب»

التّهمال: من همل عينه: فاضت و سالت دموعاً بغير اختيار

في نهج البلاغة: قال إمام المتّقين عليّ بن أبيطالب عليه السلام ـ في وصف المتّقين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله الصّادقين ـ: «إذا ذكر الله هملت أعينهم حتّى تبلّ جيوبهم...»

من كلامه (ع) رقم ٩٦

و أهملت الشيء: إذا تركته، و منه أهملت الماشية: سرحتها و رعت بغير راع ليلاً و نهاراً و أهملتها: أرسلتها، و أهملت الأمر: تركته

السَّكْبُ: من سكبت الماء: صببته، و سكب الماء بنفسه: صبّ. السكب الهطلان الدائم، و من مثل الشديد الجري

و معنى الفقرة: إنّ أهل بيت الوحي المعصومين يعلون حتى يرسلوا الدموع و يصبّونها بغير اختيار، لفقد رسول الله (ص) و ما وقع عليهم بعد وفاته (ص)

و لذلك إنّ الصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها أفضل صلوات الله و أكمل تحيّاته بأشعارها التي رثت بها أباها رسول الله (ص):

ماذا على من شمّ تربة أحمد … أن لا يشمّ مدى الزمان غواليا

صبّت عليّ مصائب لو أنّها … صبّت على الأيّام صرن لياليا

و قولها سلام الله عليها: سلبه المولى حقّه حقّه:

المولّى: المتشرّع المتولّي من ولّي الأمر ... و المولّى المتقدّم على أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين هو أبو بكر بن أبي قحافة، ثمّ خليفته عمر بن الخطّاب

و حامّة الرجل: خاصّته و ذكرت من الحمم بمعنى القرب و الحميم في النسب للضرورة

في نهج البلاغة قال أمير المؤمنين الإمام علي (ع): «و بعث وُرّاثكم يقتسمون تراثكم بين حميم خاصّ لم ينفع، و قريب محزون لم يمنع» (الخطبة ٢٣).

و فيه - من كتاب عهد الوصيّ الإمام علي (ع) لمالك الأشتر النخعي رحمة الله تعالى عليه -: «و لا تُقْطِعَنَّ لأحد من حاشيتك و حامّتك قطيعة» (رقم الكتاب ٥٣)

و في النهاية لابن الأثير الجزري - في معنى حمم - قال: و في الحديث «اللهمّ هؤلاء أهل بيتي و حامّتي، أذهب عنهم الرجس و طهّرهم تطهيراً» حامّة الإنسان: خاصّته و من يقرب منه، و هو الحميم أيضاً.

و معنى الفقرة: سيعلم كلّ من تولّى و أقدم و باشر و أعانه إلى الآن و هو أبوبكر بن أبي قحافة و حليفه عمر بن الخطّاب و أذنابهم، و من يتولّى و يقدم و يباشر و يعينه بعد ذلك إلى يوم القيامة على ظلم أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين.

و قولها صلوات الله عليها: «يَوْمَ الْقِيامَةِ أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ»

كلّهم يعلمون يوم القيامة أين مرجعهم و مأواهم.

إشارة إلى قوله عزّوجلّ: «وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ» الشعراء: ٢٢٧)

فسحقاً سحقاً لابن أبي قحافة، و ويلاً و ويلاً لابن صهّاك الحبشيّة، و العجب كلّ العجب أنّ الصدّيقة الطّاهرة بنت خير الأنبياء و المرسلين، فاطمة الزّهراء، سيّدة نساء العالمين تخرج من بيتها لطلب حقّها أو نصح النبيّ الّذي آتاها إيّاها رسول الله ﴿ﷺ﴾ بأمر الله العزيز الحكيم، فلا ينصرها أحد من الأنصار و المهاجرين، و لا من سائر المسلمين، و بنت أبي بكر بن أبي قحافة زوجة عبدالله بن جدعان تخرج إلى قتال مولى الموحّدين إمام المتّقين يعسوب الدّين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب ﴿ﷺ﴾ فيجتمع لنصرها جنود مجنّدة من الصّحابة و التّابعين، و عساكر مجتمعة من المردة و الشّياطين.

و لنعم ما قال أبوبكر بن قريعة في أبيات له:

يا من يسائل دائباً	عن كلّ معضلة سخيفة
لاتكشفنّ مغطّأً	فلربّما كشفت جيفة
و لربّ مستور بدا	كالطّبل من تحت القطيفة
لولا حدود صوارم	أمضى مضاربها الخليفة
لنشرت من أسرار آ	لِ محمّد نكتاً لطيفة
يغنيكم عمّا رواه	مالك و أبو حنيفة
و أريتكم أنّ الحسين أصيب	ب في يوم السّقيفة
و لأيّ شيء ألحدت	في اللّيل فاطمة العفيفة

ولمّـــــا جحت شــــيعتكم		عـــن طـــيّ حجرها المنيفة
واهاً لــــــــت محـــمّد		مـــــات بـــعضها أسيفة
إنّ الجـــــــواب لحـــــاضر		لكــــنّي أخـــــمه خــــيفة

و **في البحار**: قال العلاّمة المجلسي رضوان الله تعالى عليه «و كفى بهذه الخطبة بيّنة على كفرهم و نفاقهم» ثمّ ذكر مقالة أبي بكر التي تدلّ على كفره و نفاقه بصورة واضحة و هي

﴿إهانة أبي بكر وكفره﴾

ولا ريب أن من عادى أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين فقد كفر وقد صرّح أعاظم العامّة وحملة أسفارهم ونقلة آثارهم أن الصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء سلام الله عليها لمّا ألقت خطبتها في مجلس أبي بكر بن أبي قحافة وخليفته عمر بن الخطّاب وأذنابهما من المهاجرين والأنصار بمسجد النبي ﴿ﷺ﴾ فأهان أبو بكر ابن أبي قحافة أهل بيت الوحي المعصومين عليهم السلام غاية الإهانة، ومن هؤلاء الأعاظم العلامة الثقة ابن أبي الحديد المعتزلي

في شرح نهج البلاغة في شرح كتاب أمير المؤمنين الإمام علي ﴿ع﴾ إلى عثمان بن حنيف الأنصاري رقم الكتاب: ٤٥)

قال ابن أبي الحديد: قال أبو بكر: وحدّثني محمّد بن زكريّا، قال: حدّثنا جعفر بن محمّد بن عمارة بالإسناد الأوّل قال: فلمّا سمع أبو بكر خطبتها شقّ عليه مقالتها، فصعد المنبر، وقال: أيّها النّاس، ما هذه الرِّعة إلى كلّ قالة! أين كانت هذه الأمانيّ في عهد رسول الله ﴿ﷺ﴾! ألا من سمع فليقل، ومن شهد فليتكلّم، إنّما هو ثعالة شهيده ذنبه، مُرِبٌّ لكلّ فتنة، هو الّذي يقول: كرّوها جذعة بعد ما هرمت، يستعينون بالضّعفة، ويستنصرون بالنّساء، كأمّ طحال أحبّ أهلها إليها البغي. ألا إنّي لو أشاء أن

أقول لقلتُ، ولو قلتُ لبحتُ، إني ساكت ما تركت»

ثمّ التفت إلى الأنصار فقال: قد بلغني يا معشر الأنصار مقالة سفهائكم، وأحقّ من لزم عهد رسول الله ﷺ أنتم، فقد جاءكم، فآويتم ونصرتم، ألا إني لستُ باسطاً يداً ولا لساناً على من لم يستحقّ ذلك منّا»

ثمّ نزل، فانصرفت فاطمة عليها السلام إلى منزلها» رواه الجوهري البصري في (السقيفة وفدك)، وغيره من أعلام العامّة وجملة أحبارهم. ثمّ قال ابن أبي الحديد: «قلتُ: قرأتُ هذا الكلام على النّقيب أبي يحيى جعفر بن يحيى بن أبي زيد البصريّ، وقلت له: بمن يعرّض؟ فقال: بل يصرّح. قلتُ: لو صرّح لم أسألك. فضحك، وقال: بعليّ بن أبي طالب ﵇. قلت: هذا الكلام كلّه لعليّ يقوله! قال: نعم إنّه المُلك يا بُنيّ. قلت: فما مقالة الأنصار؟ قال: هتفوا بذكر عليّ، فخاف من اضطراب الأمر عليهم، فنهاهم. فسألته عن غريبه، فقال:

أمّا الرِّعة بالتخفيف أي الاستماع والإصغاء، والقالة القول، وثُعالة اسم الثعلب، علمٌ غيرُ مصروف، مثل ذُؤالة للذئب، وشهيده ذنبه، أي لا شاهد له على ما يدّعي إلّا بعضه وجزء منه، وأصله مَثَلٌ قالوا: إنّ الثّعلب أراد أن يُغري الأسد بالذّئب، فقال: إنّه قد أكل الشاة الّتي كنت قد أعددتها لنفسك، وكنت حاضراً، قال: فمن يشهد لك بذلك؟ فرفع ذنبه وعليه دمٌ، وكان الأسد قد افتقد الشّاة فقبل شهادته، وقتل الذّئب.

ومُرِبّ ملازم، أربّ بالمكان، وكرّوها جذعة أعيدوها إلى الحال الأولى، يعني الفتنة والهرج، وأُمّ طحال امرأة بغيٌ في الجاهليّة، ويضرب بها المثل، فيقال: أزنى من أُمّ طحال»

انتهى كلامه.

أقول: يجب على الفقهاء والمجتهدين، والعلمآء العاملين، والخطبآء والدّعاة الصّالحين، والكتّاب المحقّقين وعلى المؤمنين جميعاً أن يعقلوا هذا الحديث المؤلم الحزين ويذكروه بنصّه ليرسموا للنّاس كلّهم في كلّ عصر من العصور مدى صنع حبّ الدّنيا والرّئاسة بالإنسان، ويبيّنوا ما كان عليه أبو بكر ابن أبي قحافة من الجسارة والجرأة على

بتكذيب الله جلّ وعلا وتكذيب كتابه ورسوله ﷺ فمن ورد من الآيات المشرّفة و الروايات المتواترة في فضائل مولى الموحّدين إمام المتقين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، و مناقب الصدّيقة الطاهرة بضعة رسول الله فاطمة الزهراء وطهارتهم صلوات الله عليهم أجمعين

يشتمل ما كان عليه أبو بكر من الإهانة وهتك حرمات أهل بيت النبوّة المعصومين عليهم السلام، فحرقه بابه وآذاه وغصب عليهم الخلافة كيف عن قائدهم عن نفس رسول الله ﷺ الذي صرّح به الله عزّ وجلّ في قوله «أنفسنا وأنفسكم» [illegible] [illegible] وفرض لكلّ سنة وهرج وبالمرء [illegible] في لطاهته، و [illegible] الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها [illegible] و [illegible] ثم زكّى نفسه عن مقالة السوء فمن لا يستحقّها [illegible] قال فيمن كان يستحقّه

ولو لم يكن بعد المعادات ولا [illegible] لكفى [illegible] أوّل المؤمنين وآخرهم، ولم يحن في [illegible] يكون كافرا

ومعرفته [illegible] قول من سبّ في كفر أبي بكر ابن أبي قحافة، و ضلالته [illegible] عليه فهو إمّا كافر أو منافق أو ولد زنا، أو ولد حيض، و [illegible] من معرفة [illegible] ما يلي

وفي هذا الشرح روى [illegible] عن أبي بكر بن الجوهري البصري بإسناده إلى عليّ بن [illegible] رواية المفضّل [illegible]

هوى [illegible] ولا ‌‌ رضى بشتم أبي بكر ولا عمرا
ولا [illegible] لم يعطي فدكا ‌‌ بنت النبيّ ولا ميراثها كفرا
الله يعلم [illegible] ‌‌ يوم القيامة من عذر إذا اعتذرا

قال [illegible] فقال لي أبو الحسن أتقول بأنّه ما أكفرهما في هذا الشعر؟ قلت نعم قال كذلك هو

وقد كتب الشيخ [illegible] الجزائري إلى الشيخ البهائي رحمه الله تعالى عليهما

«ما تقول سيّدي وسندي ومن [illegible] بعد الله و [illegible] لست [illegible] و [illegible] في هذه

الأبيات لبعض النّواصب بتّر الله أعمارهم و خرّب ديارهم «أتهوى عليّاً أمير المؤمنين» إلى آخر الأبيات الثّلاثة؟ فما المأمول من أنفسكم الشّريفة، و ألطافكم الطّاهرة أن يشرّفوا خادمكم بجواب منظوم يكسر سورة هذه النّواصب.

فأجابه الشّيخ بهاء الدين رضوان الله تعالى عليه بقوله:

الحمد لله وحده أيّها الأخ الأفضل، المحقّق الأوحد الألمعيّ الذّكيّ، أطال الله بقاءك و أدام في معارج العزّ ارتقاءك، عرفت ما هدر به هذا المخذول، فقابلت الحسك بالشّوك، و صففت أقول:

يا أيّها المدّعي حبّ الوصيّ و لم ... تسمح بسبّ أبي بكر و لا عمرا
كذبت والله في دعوى محبّته ... تبّت يداك ستصلى في غدٍ سقرا
فكيف تهوي أمير المؤمنين و قد ... أراك في سبّ من عاداه مفتكرا
فإن تكن صادقاً فيما نطقت به ... فابرأ إلى الله ممّن خان أو غدرا
و أنكر النّصّ في خمّ و بيعته ... و قال إنّ رسول الله قد هجرا
أتيت تبغي قيام العذر في فدك ... أتحسب الأمر بالتّمويه مستترا
إن كان في غصب حقّ الطّهر فاطمة ... سيقبل العذر ممّن جاء معتذرا
فكلّ ذنب له عذر غداة غد ... و كلّ ظلم يرى في الحشر مغتفرا
فلا تقولوا لمن أيّامه صرفت ... في سبّ شيخكم قد ضلّ أو كفرا
بل سامحوه و قولوا لا نؤاخذه ... عسى يكون له عذر إذا عثرا
فكيف و العذر مثل الشّمس إذ طلعت ... و الأمر متّضح كالصّبح إذ ظهرا
لكنّ إبليس أغواكم و صيّركم ... عمياً و صمّاً فلا سمعاً ولا بصرا

كيف يقول أبو بكر و صاحبه عمر بن الخطّاب و أذنابهما حتّى اليوم إنّ فاطمة الزّهراء، سلام الله عليها قد ضلّت في دعواها، و ادّعت باطلاً، و طلبت محالاً و أرادت ظلم جميع المسلمين و ماتت مصرّة على ذلك، و هي سيّدة نساء العالمين و سيّدة نساء أهل الجنّة و بضعة رسول الله ﴿ﷺ﴾ و أمّ أبيها و غيرها من فضائلها لا تحصى رووا في صحاحهم و مسانيدهم و مآخذهم و أسفارهم لا يشكّ فيها إلّا من كان فاقد الدّراية، و خبيث الولادة، و مطبوع الضّلالة

و كذلك الإمام علي بن أبي طالب ﴿عليه السلام﴾ كيف يجرّ إلى بيعته عندهم في شهادته للصدّيقة الطاهرة عليها السلام و هو من أحد الثقلين الذين لا يفترقون كتاب الله، و أنّ التمسك بهم يؤمن من الكفر و الضلالة، و النجاة و الغواية، و من الدمار و الهلاك، فكان الإمام علي ﴿عليه السلام﴾ تارة شاهداً لفاطمة الزهراء عليها السلام، و أخرى موقفاً له على الغصب على أبي بكر بن أبي قحافة، و دفعها تلك، و ما عمل به أبو بكر، و لم يستر صحبه في مدّة حياتها و هي غضبة عليهم و أذيّتهم و هي أذيّة لرسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ كما رووه، و أنّ ذلك كلّه تشهد منهم صريحة بضلال أبي بكر بن أبي قحافة و خروجه عن حدود الإسلام، و فضيحته بين الأنام

في رجال الكشّي حدّثني حمدويه و إبراهيم، قالا حدّثنا محمّد بن عبد الحميد العطّار عن أبي جميلة عن الحارث بن المغيرة عن الورد بن زيد قال قلت لأبي جعفر [الإمام الباقر ﴿عليه السلام﴾ جعلني الله فداك قدم الكميت فقال ادخله، فسأله الكميت عن الشيخين؟ فقال له أبو جعفر ﴿عليه السلام﴾ «ما أهريق دم، و لا حكم بحكم غير موافق لحكم الله و حكم رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ و حكم علي ﴿عليه السلام﴾ إلّا و هو في أعناقهما» فقال الكميت «الله أكبر الله أكبر حسبي، حسبي»

طاهر بن عيسى قال حدّثني جعفر بن أحمد قال حدّثني أبو الحسن صالح بن أبي حمّاد الرّازي، قال حدّثنا محمّد بن الوليد الخزّاز عن يونس بن يعقوب قال أنشد الكميت أبا عبد الله شعره

أخلص الله لي هواي فما أغرق نزعاً و ما تطيش سهامي

فقال أبو عبد الله ﴿عليه السلام﴾ لا تقل هكذا، و لكن قل قد أغرق نزعاً و ما تطيش سهامي

نصر بن الصباح قال حدّثني إسحاق بن محمد البصري، قال حدّثني محمد بن جمهور العمي قال حدّثنا موسى بن بشار الوشّاء، عن داود بن النعمان قال دخل الكميت فأنشده و ذكر نحوه ثمّ قال في آخره إنّ الله عزّ و جلّ يحبّ معالي الأمور، و يكره سفسافها (سفالها)

فقال الكميت: يا سيدي أسألك عن مسألة، وكان متكئاً فاستوى جالساً وكسر في صدره وسادة ثم قال: سل، فقال: أسألك عن الرجلين؟ فقال: يا كميت بن زيد ما أهريق في الإسلام محجمة من دم ولا اكتسب مال من غير حله ولا نكح فرج حرام إلا وذلك في أعناقهما إلى يوم يقوم قائمنا، ونحن معاشر بني هاشم نأمر كبارنا وصغارنا بسبهما والبراءة منهما.

﴿ردّ أمّ سلمة رضي الله عنها أقاويل أبي بكر في الصدّيقة الطّاهرة عليها السلام﴾

في الدّرّ النّظيم في مناقب الأئمّة اللهاميم للشيخ جمال الدين الشامي تلميذ المحقق الحلّي المتوفّى ٦٧٦هـ قال بعد خطبة فاطمة ﴿عليها السلام﴾ في المسجد وكلام أبي بكر:

«فقالت أمّ سلمة رضي الله عنها حين سمعت ما جرى لفاطمة عليها السلام: ألمثل فاطمة بنت رسول الله يقال هذا القول؟!

هي والله الحوراء بين الإنس، والنفس للنفس، ربيت في حجور الأتقياء، وتناولتها أيدي الملائكة، ونمت في حجور الطاهرات، ونشأت خير منشأ، وربيت خير مربى، أتزعمون أنّ رسول الله حرّم عليها ميراثها ولم يعلمها، وقد قال الله تعالى: «وأنذر عشيرتك الأقربين» (الشعراء: ٢١٤)؟

أفأنذرها وخالفت متطلّبه، وهي خيرة النسوان، وأمّ سادة الشبان، وعديلة مريم، تمّت بأبيها رسالات ربّه؟!

فوالله لقد كان يشفق عليها من الحرّ والقرّ، ويوسّدها يمينه، ويلحفها بشماله، رويداً ورسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ بمرأى منكم، وعلى الله تردون، وواهاً لكم فسوف تعلمون».

قال: فحرّمت عطاءها تلك السنة.

نعم! إنّ الاستبداد وحبّ الرئاسة إذا كانا يجرّان صاحبهما إلى أن يقتل مولى الموحّدين

إمام المتّقين سيّد الوصيّين، يعسوب الدّين أمير المؤمنين [illegible] الذي قال فيه رسول الله ﴿ﷺ﴾ «اللهمّ أدر الحقّ معه حيث دار» وغيره من النصوص [illegible] ما ذكره من تعابير تكشف عن شركه وجاهليّته، عن كفره وضلالته [illegible] [illegible] [illegible] وعلا [illegible] [illegible] [illegible] المشتكي وكذلك [illegible] عمر بن الخطّاب [illegible] رسول الله ﴿ﷺ﴾ [illegible] فقال عمر «إنّ هذا [illegible] ليهجر» [illegible] جلّ وعلا «وما ينطق عن الهوى إن هو إلّا وحي يوحى» النجم ٣-٤ [illegible]

[illegible] الصدّيقة الطّاهرة فاطمة الزّهراء سلام الله عليها من [illegible] وإسقاط جنينها، وهتك حرماتها وما إليها من [illegible]

فاقض ما أنت قاضٍ

﴿رجوع الصدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها إلى بيتها و خطابها لأمير المؤمنين الإمام عليّ عليه السلام﴾

ثمّ انكفأت عليها السلام و أمير المؤمنين عليه السلام يتوقّع رجوعها إليه، و يتطلّع طلوعها عليه فلمّا استقرّت بها الدّار قالت لأمير المؤمنين عليه السلام:

«يا ابن أبي طالب اشتملت شملة الجنين، و قعدت حجرة الظّنين، نقضت قادمة الأجدل، فخانك ريش الأعزل، هذا ابن أبي قحافة يبتزّني نحيلة أبي و بلغة ابنيّ، لقد أجهد (أجهر خ) في خصامي، و ألفيته ألدّ في كلامي حتّى حبستني قيلة نصرها، و المهاجرة وصلها، و غضّت الجماعة دوني طرفها، فلا دافع و لا مانع، خرجت كاظمة و عدت راغمة، أضرعت خدّك يوم أضعت حدّك، افترست الذّئاب، و افترشت التّراب، ما كففت قائلاً، و لا أغنيت طائلاً (باطلاً خ)، و لا خيار لي، ليتني متّ قبل هنيئتي (هنيّتي خ) و دون ذلّتي (زلّتي خ)، عذيري الله منك (منه خ) عادياً، و منك حامياً، و يلاي في كلّ شارق، و يلاي في كلّ غارب، مات العمد و وهن (وهت خ) العضد، شكواي إلى أبي و عدواي إلى ربّي، اللّهمّ إنّك أشدّ منهم قوّة و حولاً، و أشدّ (أحدّ خ) بأساً و تنكيلاً»

الشّرح: الانكفاء: الانصراف و الرّجوع من كفأت القوم إذا أرادوا وجهاً فصرفتهم إلى غيره فانكفئوا و رجعوا. كفأ الرّجل: طرده، و كفأ الرّجل عن القصد: جار، و كفأ الإناء: أماله و قلبه ليصبّ ما فيه.

في نهج البلاغة قال مولى الموحّدين أمير المؤمنين الإمام عليّ ﴿عليه السلام﴾: «اللّهمّ إنّي أستعديك على قريش ومن أعانهم، فإنّهم قد قطعوا رحمي، وأكفؤوا إنائي، وأجمعوا على منازعتي حقًّا كنت أولى به من غيري» (من كلامه ﴿عليه السلام﴾ رقم ٢٠٨).

التوقّع: الانتظار، وفيه معنى طلب وقوع الشّيء، والتطلّع مستعمل للانتظار، فاستعمل فيه بهذه المناسبة وفي المادّة معنى الميل والرّغبة.

والتّطلّع: الإشراف، مستعار من طلوع الكوكب ونحوه من الأفق وغيره، وطلعت على القوم غبت عنهم، وتطلّع: تطلّب النّظر، وطلعت الجبل علوته، واطّلعت على باطن أمره: أشرفت عليه وعلمت به، وهو مأخوذ من معنى طلب العلوّ الملازم للعلوّ المستلزم للإشراف.

والمعنى: ثمّ رجعت الصدّيقة الطّاهرة فاطمة الزّهراء سلام الله عليها من مسجد النّبيّ الكريم ﴿صلى الله عليه وآله﴾ إلى بيتها، حال كون أمير المؤمنين الإمام عليّ ﴿عليه السلام﴾ يتتظر رجوعها إليه.

وفي الجملة دلالة على أنّه كان خروجها لإقامة الحجّة وإتمامها على أصحاب السّقيفة المشؤومة والذّئاب وأتباعهم بأمر من أمير المؤمنين الإمام عليّ ﴿عليه السلام﴾.

وانتظار الطّلوع كناية عن ظهور شيء من علو، ففيه إشارة إلى أنّه برجوعها كان علم البيان والحجّة كالشّمس الّتي بطلوعها تنجلي صور الأشياء.

فلمّا سكنت الدّار أو سكنت هي وهي تعني الصدّيقة الطّاهرة عليها صلوات الله، وهذا على سبيل الكناية فكأنّ الدّار كانت مضطربة لخروجها عليها السلام منها، وفيه استعارة حيث إنّ السّفينة ونحوها في الماء إذا كانت خالية لاشيء فيها كانت مضطربة خفيفة، فإذا ألقي فيها بعض الأشياء الثّقيلة، واستقرّت فيها استقرّت السّفينة لثقلها، ثمّ يكنّى عن كون الشّيء في شيء مستقرًّا به في سببه.

ومن المحتمل أن يكون هذا على سبيل القلب، وهذا شائع فالمعنى فلمّا استقرّت هي في الدّار كما يقال: استقرّت نوى القوم، واستقرّت بهم النّوى أي أقاموا.

وقولها سلام الله عليها: «يابن أبي طالب اشتملت شملة الجنين».

ولا يخفى على القارئ الخبير أنّ تعبير الصدّيقة للخطاب عن مجراه الطّبيعي ـ كما قال بعض

للعاصرين من «يا أمير المؤمنين» أو «يابن العمّ» أو «يا علي» أو «يا أبا الحسن» أو «يا أبا تراب...» إلى (يابن أبي طالب) يحكي عن أروع صور التعارف للمسلمين لواقع الأمر حسبما تتبدّل الأزمنة والأمكنة طبقاً للظروف الخاصّة.

نعم! قد كان يجري الخطاب فيما بين هذا الزوج النبوي بتبادل الكلمات بين الزوجين المثاليين في جميع ظروف المدينة بأعذب كلمات الودّ والحنان، ولكن حسبما يختلف الموقف فيصبح أحد الزوجين يعتب على صاحبه عتباً، فهل يكشف خروج الخطاب عن كون أحد الزوجين يتكلّم بما هو شأن زوجته في ما هو شأن الجندي بإزاء الأمر، وأنّ جندي هو أطوع من جندي السلام لقادة الإيمان؟!

فقد كانت الصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء صلوات الله عليها تربّي الأجيال بالخلق الكريم لتميّز الناس الخطاب عند اختلاف الأحوال والمقامات. فمثلاً يود أيّ عاطف أنه بما أنت في الظروف العادية يكون من الواجب عليه إذا أصبح جندياً في ساحات القتال والأب آمراً أن يخاطبه كبقية أفراد الجيش بـ«مولاي» أو «سيدي» أو «يا أمير» ولا يعطي نفسه في مقام الانقياد خصوصيته على الآخرين.

وكذلك الزوجة قد تعيش مع زوجها في أحسن أنواع الكلمات وأعذبها ولكن يجب عليها أن لا تخرج عن حدود الزوجية، وأخرى لعلّه للاجتماعية، فإذا كان الزوج ممثّلاً أو ذا مسؤولية خاصّة كان من الواجب عليها أيضاً أن تخاطبه بما يجب خطابه به عند الظروف الاجتماعية الخاصّة.

وهنا الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها التي أصبحت في مثل هذه المخاطبة تعيش حالة المسؤولية وحق التكليف بأمر من أمير المؤمنين الإمام علي (عليه السلام) حيث نراها ترسم للأجيال اختلاف موارد الخطاب بين الزوجة والزوج، وبين المأمور والآمر وما ينبغي من اختلاف الكلمات في المقامين. فقد أصبح الخطاب «يابن أبي طالب» يرسم مدى الانقياد عند الإحساس بالمسؤولية وليس كما زعم كثير من الأجلّة أنّ الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها بهذا الخطاب رسمت تألّماً من موقف الإمام علي (عليه السلام) بإزاء ما حصل من الانقلاب عقيب رحيل رسول الله الأعظم (صلى الله عليه وآله) بل كان خطابها هذا يرسم غاية

الخضوع، و نهاية الاستسلام من بعد ما نزلت بهما معرفة بقيّة الناس، فهو خطاب خضوع و استسلام لا خطاب تألّم و عتاب.

أجل! ليس كمثل الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها تعلم و الائمّة من لا يعرف مواضع الأمور و موارد القبض و البسط، و هي المستمرة نور الرسالة و الولاية، و نور النبوّة و الإمامة. فلا تجاوز عن الحدود و لا تعتب إلّا لله تعالى فليس في خطابها خطاب بدءاً أو ختاماً ما فيه عتب على ساحة مجد الأئمّة و محلّ الرحمن، و هي المستمدّة نور العصمة الطريّة و العصمة من زوجها أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (ع) فلم تخرجها عواصف الآلام عن حدّ الميزان، و لو في خطبتها لكمالتها و الحقّ الرفيع كما أن ليس كمثل مولى الموحّدين الإمام عليّ (ع) من عطف موارد مصدور.

مضافاً على ذلك أنّه لم يكن هناك حجاب بين بضعة الرسالة سلام الله عليها و مشعل استمرار الشريعة بياناً و تطبيقاً و هو إمام المتّقين (ع) حتّى تدعي بحجة رسول الله (ص) مما جرى من الانقلاب على الأعقاب بعد وفاة رسول الله (ص) و هي العارفة بخصوصيات الكتاب الكريم، فكيف يعقل في حقّ الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها أن تتوقّع عتاباً و نقداً ما من أمير المؤمنين الإمام و في حقّ الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها أن تتوقّع عتاباً و نقداً من أمير المؤمنين الإمام عليّ (ع) كما هو عليه، و الحال أنّ المعرفة و الحكمة تقتضي ذلك أنّ الأئمّة الحقيقيّين هم المقدّمون في جميع ساحات الشرف و الكرامة على غيرهم، و أنّهم أمام الصفّ الأوّل قبضاً و بسطاً.

و الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها إذن تتّبع خطوات الإمام على قدر ما يرسمه لها إمامها عليّ بن أبي طالب (ع) فلا أنضر ولد في شعب أبي طالب عليه السلام كان عليّ الثابت في ميادين الشرف و الكرامة و القيام بالسيف مما لا يكون إلّا انتحاراً و قس على ذلك، و من تأمّل في خطبة الصدّيقة الطاهرة صلوات الله عليها بدءاً أو ختاماً يلمس بوضوح أنّها سلام الله عليها إنّما خرجت بأمر أمير المؤمنين الإمام عليّ (ع) لترسم حقيقة الإسلام للمسلمين جميعاً في كلّ ظرف من الظروف، و تحذّر مغبّة الانقلاب على الأعقاب، و تقيم الحجّة على الناس كافّة و على المسلمين خاصّة ليهلك من هلك عن بيّنة و

يخفى من حقّ علي وبيته في حين أنّها كانت تعلم ما تضمره من أخرى والهوى، والذلّ و الضلال

فقد كانت خطبة الزهراء الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها الأنموذجي لعارف مسلم مطلع قدر التبصر والبسط سور الرسالة من مظاهر التشريعة، وميزان نطقها قالته لعزّ الميامين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﴿عليه السلام﴾ وما كان كلامها عليها السلام بحثّ إمامها عليٌّ ﴿عليه السلام﴾ على الثبات كما كان عليه، ولم تعمل في طيّاته العتاب واللوم بعد عرفانها بحقائق الأمور بل بما حملته كلامها لترسم للأجيال مدى اعتقاد الصدّيقة الطاهرة بمنزلة إمامها عليّ عليه السلام عند تلك الأمور وموقفها من إمامها عليهما السلام، بحيث هي أنّها قامت بوظيفتها من حين خروجها من بيتها إلى المسجد إلى زمن رجوعها إلى بيتها بكلّ ما يتطلّب الرسالة من بيان وشرح بعض التشريع وتوبيخ للمنقلبين على الأعقاب وكشف هويّاتهم، وبيان أطماعهم بالزعامة الدنيوية وعدوانهم على الأموال وهضم حقوق أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين وعدوانهم على أهم الرسالة الإسلام لتبيّن أم لا؟

وتمهيد لشرح معرفة خطبة فدك وضعها الأوصياء بعد الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين هي شرح الرسالة وبيانها بكلّ تطويرها ورسم كيفية تطبيق كبرياتها على صغرياتها، سواء في الدين والحكومة ذلك الرسول به وليس من وظيفتهم كما زعم بعض الأحمقية بيان الرسالة من بعض جوانبها كالعبادات والمعاملات والطهارة والنجاسة مثلاً، وترك بقية جوانب الرسالة التي هي كسلسلة واحدة مترابطة، كي ولا إنه ليس من وظيفة الأوصياء المعصومين عليهم السلام فضلاً عن نصب العلماء إذ لم يطلب منهم الأئمة التطبيق، القيام بنقص زمة الأمور

نعم! لو جانب النّاس بريد حيث السلاح لوجب على المعصوم ﴿عليه السلام﴾ حسبما يجد مصدراً على إقامة الحقّ أن يقيمه ويبيّنه بقول الكفر والضلال، والشرك والنّفاق والظّلم و الفساد

ولمّا كان المبادئ الجهاد أبواب قد تسدُّ بعضها ولا تشرع بالنّسبة لإنسان خاصّ، و

كان عدم التّشريع لبعض الأبواب لا يرى عدم تشريعها بنحو الإطلاق، بل قد يكون من لم تشرع في حقّه بعض الأبواب كالجهاد فيكشف هو بجهاده الفوائد ببناء الرّسالة كالصّدّيقة الطّاهرة فاطمة الزّهراء سلام الله عليها في دورها الجهادي في ميادين البيان و إقامة الحجّة بعد أصل التّشريع الذي لم يرد له مورد بتمامه في عهد رسول الله ﴿ﷺ﴾ قامت سلام الله عليها بهذا الموقف العظيم

فيا لله كم هيئت الدنيا لطلّابها و الأوهام على أربابها حتى شوهد فيها مثل هذه الطّامّة الكبرى التي كانت نتيجة الانقلاب على الأعقاب بعد رسول الله ﴿ﷺ﴾ و هي جعل الأسماع تمجّ نداء السّلام و الإيمان من أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب و الصّدّيقة الطّاهرة صلوات الله عليهما و شرع مشتبه نداء الباطل باسم الحقّ حتى جاء على إثره في وقعة الجمل و النّهروان و صفّين، فبعد هذا التّمهيد أقول

قولها صلوات الله عليها «اشتملت شملة الجنين»

شمل بالثّوب إذا أداره بالشّخص على جسده كلّه، من شملهم الأمر إذا عمّهم، و الشِّملة ـ بكسر الشّين و سكون الميم ـ هيئة الاشتمال، و ـ بالفتح ـ ما يشتمل به و المقصود هنا مشيمة الجنين و هي محلّ الولد في الرّحم، و يطلق عليه لأنّه مستور في البطن، و الجنين يطلق على المقبور، و ضرب الشّملة تضيق الكساء الذي يشتمل به

فلله كرم الله ذكره بأنّه من مدح عظيم من سيّدة نساء العالمين لعارفة مقام الإمامة و الولاية لمثل الطّولة و الثّبات و الشّرف في ساحات الجهاد و النّصب، و مثل كفّ النّفس عن دنيا الأوهام و زخارفها بصفقات ثلاث لا رجعة بعدها أصل العظماء يعرفهم العظماء، فقد وجّهت الصّدّيقة الطّاهرة صلوات الله عليها بعد أداء الوظيفة، و هي تحمل كلّ الإجلال و الإكبار لإمامها أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السّلام مخاطبة إيّاه لتخفّف عنه ﴿ﷺ﴾ من ثقل الإمامة كما كانت تصنع ذلك بالنّسبة إلى رسول الله ﴿ﷺ﴾ لتخفّف عنه ألم ثقل النّبوّة فقالت «اشتملت شملة الجنين» أي أنت من يتحمّل الأذى لمرضاة الله عزّ و جلّ و يشتمل شملة الجنين لا يكون لأنظار النّاس جالساً حجرة الظّنين فهذا نسيجه ما احترته بعبارتك يا ابن أبي طالب تشكو عين نساء في ذات الله جلّ و علا

أي اشتملت شملة الحسين بالإشارة إلى أنّه اشتغل بعد الثورة بإرادة واختيار منه لا لقصور أو تقصير، وهو ثوب يؤكّد به على الذنب والجرائم منه في ذلك حبّ الزعامة والشخصيّة، وأنّه القادر على تصدّي الأمور ووضع الذنب والتغالب والتذنّب في مجالسهم كما كان من ذي قبل حيثما كانت توظيفه هي الاعتداء لضرب أو بادانه عوه على وجه الأرض، ولكنّك الآن يابن أبي طالب تتحمّل بكلّ إرادة وصبر أن تكون بنظر المعاصرين والمعتبرين حالك حجرة الطين، لم يأخذك في الله لومة لائم حيثما أصبح الشباب بنظر وتحمّل الأذى والعدوان لحفظ الرسالة، ولفسح المجال أمام نشرته طبقاً للحكمة الإلهيّة لتسيير البشريّة جبلة الاختيار والاعتبار وإن ظنّ لو مع جهلهم أنّه تسلّق الأمر

ولأنّه ليس من وظيفتك تنوع الإقدام نقض أزمّة الأمور إن لم تطلب منك الناس ذلك فلذ حقّ هؤلاء المتقمّصين للخلافة، وجميع الأنصار بل إنّه لم يبق منهم مبعوث، ونحن أنّك بعدها اشتملت شملة الحسين

نعم! لقد قمت يابن أبي طالب، يابن الشرف والكرامة، يابن المجد والسعادة، ويابن الثبات والاستقامة اشتملت ثوب الابتعاد عن عامة الذنب ومطامعها لتعيش نزيهاً طاهراً عن كلّ معلة عدم انصياع الشخصيّة، وقد أشار مولى الموحّدين الإمام المتّقين عليّ بن أبي طالب (ع) إلى هذا المعنى بقوله

في نهج البلاغة ومن خطبة له (ع) عند خروجه لقتال أهل البصرة. قال عبد الله بن العباس دخلت على أمير المؤمنين (ع) بذي قار وهو يخصف نعله فقال لي ما قيمة هذه النعل؟ فقلت لا قيمة لها، فقال (ع) «والله لهي أحبّ إليّ من إمرتكم إلّا أن أقيم حقّاً أو أدفع باطلاً» الخطبة ٣٣

وفيه: قال سيّد الوصيّين الإمام عليّ (ع) «والله لأن أبيت على حسك السعدان مسهّداً، وأجرّ في الأغلال مصفّداً أحبّ إليّ من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد، وغاصباً لشيء من الحطام والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلته، وإنّ دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها» من كلامه (ع) رقم ٢٠٥

وفيه قال يعسوب الدّين الإمام علي (ع): «إنّ الله تعالى فرض على أئمّة الحقّ أن يقدّروا أنفسهم بضعفة النّاس كيلا يتبيّغ بالفقير فقره» من كلامه (ع) رقم: ٢٠٠)

وفيه من كتاب الإمام المتّقي عليّ بن أبي طالب (ع) إلى عثمان بن حنيف الأنصاري وهو عامله على البصرة وقد بلغه (ع) أنّه دُعي إلى وليمة قوم من أهلها فمضى إليها ـ «ألا وإنّ لكلّ مأموم إماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه. ألا وإنّ إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه، ومن طعمه بقرصيه. ألا وإنّكم لا تقدرون على ذلك، ولكن أعينوني بورعٍ واجتهاد وعفّة وسداد، فوالله ما كنزت من دنياكم تبراً ولا ادّخرت من غنائمها وفراً، ولا أعددت لبالي ثوبي طمراً» (من الكتاب ٤٥).

فشبّهت الصدّيقة الطّاهرة الزّاكية المرضيّة سلام الله عليها بعلها عليّاً (ع) بمن هو في بطن أمّه لم يذق طعم الدّنيا ليرغب فيها، فلم يفكّر فيها طرفة عين فضلاً عن كونه مدفوعاً محفّظاً بنفس رغبة أمورها، فيكون مضمون الخطبة كناية عن الطّالب، وإن كان في الدّنيا يكنّه كمن لم يولد بعدُ ولم يدخل فيها، أو شبّهته بالمقبور الّذي قد انفصل عن الدّنيا فأصبح لا يفكّر إلّا في الرّحمة والقرب الإلهي.

فالّذي على الفرضين سواء أردت تشبيه الجنين أو المقبور إنّما هو كناية عن مدى عمق انقطاع إمام المتّقين عليّ بن أبي طالب (ع) عن الدّنيا وما فيها حتّى الصدّيقة الطّاهرة فاطمة الزّهراء سلام الله عليها سواء كان هذا الانقطاع عن الدّنيا يحسب له المدح بأن يقال في حقّه إنّه شجاع مقدام أو كان يحسب عليه الذّمّ بنظر القاصرين والمقصّرين بأن يقال إنّه أصبح جالساً حجرة الظّنين

وهذا معنى محض الفناء في ذات الله سبحانه بحيث لم تأخذه في الله لومة لائم وإنّه معون

في نهج البلاغة: «هيهات بعد اللّتيّا والّتي والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطّفل بثدي أمّه» من كلامه (ع) رقم ٥. فلا تغرّها مدح المادحين، ولا يضعفها ذمّ الذّامّين وهو يقول

في نهج البلاغة «فلا تكلّموني بما تكلّم به الجبابرة، ولا تتحفّظوا منّي بما يتحفّظ به

عبدٌ مثلي لا يدري، ولا تخالطوني بالمصانعة ـ فإنّما أنا وأنتم عبيد مملوكون لربّ لا ربّ غيره...» الخطبة: ٢٠٧)

فإذن لم يكن هذا الكلام من فاطمة الطاهرة صلوات الله عليها عبثاً ولا غرضاً على عدم كما زعم بعض لأنه صدر تعالياً عن الأغراض ... فيصبح معنى كلام فاطمة الزهراء الصدّيقة المرضيّة عليها السلام: إنّك يا بن أبي طالب كما لم تكن ... ولم يدخل في الدنيا أو كما خرج عنها من دون أن تعلّق بها» وهذه غاية المدح لإنسان بل غاية الكمال الإنساني.

وقولها صلوات الله عليها: «قعدت حجرة الظنين»

حُجرة: حظيرة الإبل، ومنه حجرة الدار، وهي المكان الذي يحجر فيه ويطّلع الغنم.

ومقصود الصدّيقة: قعدت عن الشرف والإباء لمرضاة الله جلّ وعلا منازل المتّهمين بانتظار هؤلاء الحمقى الجهلة والانهزاميين البطلة، راضياً في جنب الله تعالى أن ينسب إليك الضعف وعدم الشجاعة في مورد التّهمة.

وقد أشار أمير المؤمنين الإمام عليّ ﴿عليه السلام﴾ إلى هذا المعنى بقوله في نهج البلاغة: «فإن أقل يقولوا: حرص على الملك، وإن أسكت يقولوا: جزع من الموت ... بل اندمجت على مكنون علم لو بحت به لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطّوي البعيدة» (من كلامه ﴿عليه السلام﴾ رقم ٥)

وفيه قال إمام المتّقين عليّ بن أبي طالب ﴿عليه السلام﴾: «والله ما معاوية بأدهى منّي، ولكنّه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس» (من كلامه ﴿عليه السلام﴾ رقم ٢٠٠).

وقولها سلام الله عليها: «فنقضت قادمة الأجدل»

النّقض: ضدّ الإبرام والإحكام.

القادمة: واحدة قوادم الطّير، وهي مقاديم ريش الطائر، وهي عشرة في كلّ جناح قادمة، وأصلها فاعلة من قدم يقدم قدوماً، سمّيت لكونها متقدّمة، وهي خلاف الخوافي، جمع الخافية وهي صغار الرّيش المختفية تحت القوادم وخلفها، وإنّ الخوافي قوّة للقوادم

في نهج البلاغة قال سيّد الوصيّين الإمام عليّ (ع): «و لا أمسى منهم في جناح أمن إلّا أصبح على قوادم خوف» (الخطبة ١١١).

الأجدل: الصّقر لدى بكسر الطيور، و هو من الجدل بمعنى القوّة و الاستحكام. جدل الشيء: صلب و قوي، فهو جدل و جدل: قويّ شديد. و سمّي الأجدل بذلك لاستحكام عضلاته و قوّته و شدّته بالنّسبة إلى الطّيور من جنسه.

و غرض الفقرة: أنّ الصّدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها دعت لأمير المؤمنين إمام المتّقين عليّ بن أبي طالب (ع) بأن ينصرف و يثبت، لأنّ من أمر يوم الإبرام، و لأنّ من نقض يوم النّقض مرضاة لله جلّ و علا، لا بدّ و أن تنظر عاقبة أصحاب السّقيفة المشئومة و أذنابهم حيثما يفترسوا القوّة الّتي ذهبت بها الذّئاب و الثّعالب.

و قد أشار الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (ع) إلى وقوع ما أخبرت به الصّدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها من جنايات أصحاب السّقيفة و ذهابهم بقوّته.

في نهج البلاغة: «حتّى إذا قبض الله رسوله (ص) رجع قوم على الأعقاب، و غالتهم السّبل، و اتّكلوا على الولائج، و وصلوا غير الرّحم، و هجروا السّبب الّذي أمروا بمودّته، و نقلوا البناء عن رصّ أساسه، فبنوه في غير موضعه» (الخطبة ١٥٠).

و قوله عليها السّلام: «فخانت رسن الأعزل»

«فخانت» من الخيانة، يقال: فلان خان عهده: نقضه، و خان الأمانة: أي لم يحفظها و لم يعطها. و في بعض النّسخ «فخاتت» من خات البازي و خاتت إلى الطّير إذا انقضّ على فريسته ليأخذه، و خاتت العقاب إذا انقضّت فسمعت صوت انقضاضها.

الأعزل: من لا سلاح معه، كأنّه في معزل من معركة القتال من اعتزله بمعنى الانقطاع عن الخلق، و عدم الأنس معهم، و عدم الدّخول في زمرتهم.

في نهج البلاغة ـ من كتاب سيّد الوصيّين الإمام عليّ (ع) إلى معاوية بن أبي سفيان عليهما الهاوية و النّيران ـ «و لعمري إنّي كنت في عزلة عنه» (رقم الكتاب ٦).

و يطلق المعتزل على كلّ من انقطع من شيء عسكريّ أو معنويّ و قيل الأعزل: الأرذل و هو من باب الكناية.

و غرض الفقرة: أنّ من نقض السّلاح و قوّة كلّ من شرائع المسلمة أن تخونه عامّة

للناس كل صحابة سقيفة ودائهم، لأنّ المحنة ما اعتمدت في طول تاريخها إلا تأييد القوي محقّاً كان أو مبطلاً.

ولكنّ الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها قالت لأمير المؤمنين «ع»: إنّك يابن أبيطالب لم تقعد قعدة الأجدل من القوّة والاستلاب لمرضاة الله عزّوجلّ حقيقةً تقدّم للأحسن، وجرى مع روح الأحسن والأحسن، وحفظاً لكيان الإسلام ونواميس المسلمين ولكون التحفظ بعض أزمّة الأمور للناس وظيفة الأئمة كان الظهور بهذا الضعف لمرضاة الله تعالى ... أي من بعض قادمة الأجدل لمرضاة الله تعالى ... الأرذل والأوباش من الناس عليه.

ففي هذه الكلمات ... في ... من ... عصمة على الشباب.

وقولها عليها السلام: هذا ابن أبي قحافة

جعل المقارنة بين ابن أبي طالب وهو علي «ع» وابن أبي قحافة وهو أبو بكر، وكذا بين ابن أبي طالب وابن أبي قحافة يعرف مدى الفارق من ... ومصدره ... فكأنّ الصدّيقة الطاهرة ... حتّى يلاحظ شرف ... عند ... رسول الله «ص» فضلاً عن ... الرسالة.

فجعل المقارنة من باب التعجّب من أنّه كيف يصح بين ابن أبي طالب صاحب ... في هذا الحقّ من ... وبين ابن أبي قحافة ... عبدالله بن جدعان، ومن كان ... عليه الإمام علي «ع» وهو فارّ من المعركة، فيقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «ع» في حقّه وحق الفارّين من مثله: «والله ما أنتم بأحق من هؤلاء ... في هذا المحل الأخير في ... والمراد من «هؤلاء» هم المشركون.

وقولها عليها أفضل صلوات الله: «يبتزّني نحلة أبي»:

... واحد ... بقهر وغلبة ... وبزّه ... لشيء منه، أخذه بجفاء وقهر.

في نهج البلاغة ـ من كتاب مولى الموحّدين الإمام علي «ع» إلى معاوية بن أبي سفيان عليهما ... «وبإسناك ... علائقك، وابتزازك لما اختزن دونك

برزٌ من الحق، و جحود ذلك هو أكبر الذنب من الحمق و ذمّك كما عدوّ عداء سمعت و مُلئ به صدرك. (رقم المكتوب ٦٥)

النِّحلة ـ بالكسر ـ من نحلَ المرأة: أعطاها مهرها.

قال الله تعالى: «و آتوا النّسآء صدُقاتهنّ نحلة» (النساء، ٤) فهو للنساء عطيّة من الله تعالى على استحقاقهنّ لها مقابلة البضع.

النِّحلة: العطيّة الإلهيّة على سبيل الاستحقاق و من دون مطالبة، من نَحَلَ الرّجُلَ: أعطاه شيئاً باستحقاق، من دون عوض و لا مطالبة، ففي المادّة معنى الإعطاء باستحقاق بغير مطالبة و لا عوض.

و في هذا المعنى أشار تعالى بقوله: «فآت ذا القربى حقّه» (الروم ٣٨)

و فيه دلالة واضحة على أنّ الصّدّيقة الطّاهرة فاطمة الزّهراء سلام الله عليها كانت مالكة فدك في عهد رسول الله صلّى الله عليه وآله ﴿ﷺ﴾ و إنّما تطوّر مجرى النّزاع إلى الميراث بعد إنكار أبي بكر النّحلة من رسول الله ﴿ﷺ﴾ لابنته الزّهراء صلوات الله عليها. و لمّا أنكر أبوبكر النّحلة أوّلاً لمصالح السّياسة، و بعد إقامة البيّنة على النّحلة راح ينكر الميراث لمعاشر الأنبياء عليهم السلام، و بعد تفنيد دليله من قبل الصّدّيقة الطّاهرة عليها السلام على إنكار التوارث بين الأنبياء، و ورثتهم استند إلى ما استند إليه الحكّام الجبابرة و الطّواغيت الباغية على طول التّاريخ و هو «و أنه الشّيء يحوز به الحكم»

و قولها عليها السلام: «و بُلْغَةَ ابنَيّ»

البُلْغة: ما يُتبلّغ به من العيش و يكتفى به و لا يفضل، و هو سبب بلوغ العمر إلى غايته، و الأجل إلى النّهاية.

و «ابنيّ» إمّا بتخفيف الياء، فالمراد به الحسن، و إمّا بتشديدها على التّثنية، و المراد بهما الحسن و الحسين عليهما السلام.

و مقصود الفقرة: إنّ هذا أبابكر بن أبي قحافة يسلبني شيئاً كان حقّاً لي أعطانيه رسول الله ﴿ﷺ﴾ بأمر من الله جلّ و علا ليكون لولدي الحسن و الحسين يبلغان به غايته، و غاية العظماء هي الكمال و خدمة الشّريعة بجميع الوسائل المؤدّية إلى تلك الغاية، و من

حمله الوثائق بذل المال في سبيل الحقّ والهدى، والخير والصلاح، والرشاد والفلاح ليتوصّل به المؤمنون إلى غاياتهم

فكانت فدك والعوالي من جملة الأرصدة المالية التي جعلها رسول الله ﴿ﷺ﴾ بأمر من الله تعالى لأهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين ليستعينوا بها على تلك المرامي لتحقيق معالي الرسالة، وما كان خلفهم ليستغنوا بها، فهم أغنى وأجلّ من ذلك، ومما يؤيد كون المراد بوقوع غاية تلك بتلك التحفة هو جعلها للإمامين الحسن والحسين عليهما السلام والأكثر بعدها لجميع ذرّيّة الصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء صلوات الله عليهم أجمعين

وقولها صلوات الله عليها: «لقد أجهد (أجهر خ.ل) في خصامي»

«أجهد»: جدّ وبالغ في العناد والعداوة. و«أجهر»: ظهر وأعلن بكلّ وضوح الخصام: من المخاصمة والتخاصم

وعرض الفقرة أنّ الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها تقول: إنّ أبا بكر بن أبي قحافة مع ما كان به من نهاية الرذالة والدناءة قد بالغ في نهاية الوقاحة والسعي على التشفّي في المخاصمة وأظهر لي العناد والعداوة والمشاجرة، وأعلن معي في المقابلة بين هؤلاء الخصام المجتمعين من سفلة الصحابة عنده في مسجد النبي رسول الله ﴿ﷺ﴾

نعم! وقد أعلن أبو بكر بوضوح وبالغ في مخاصمة بضعة رسول الله ﴿ﷺ﴾ وعداوتها، وأظهر في مسجد أبيها جميع مكنون سرّه الذي كان بعضه ظاهرًا حياة رسول الله ﴿ﷺ﴾ من العناد والعداوة والحقد والعداوة لأهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين، وسحق كلّ القيم والموازين والإنسانية تحت قدميه في مسجد النبيّ الكريم ﴿ﷺ﴾

ومن الواضح لمن له دراية وطيب الولادة أنّ هذه الكلمات من الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها تقرير وبيان لما جرى في مسجد النبيّ الكريم ﴿ﷺ﴾ بحضرة مولى الموحّدين سيّد الوصيّين الإمام عليّ ﴿ع﴾ بعد تقدّم تلك المهمّة بأمر منه ﴿ع﴾ وليس فيه شيء من العتاب أو التحريض على القيام كما زعم أكثر شارحيها السطحيين غير المتعمّقين

و قولها عليها السّلام: «و نقمته ألدّ في كلامي»

«نقمته»: وجدته.

في نهج البلاغة عن إمام المتقين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع): «و لألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز» ألفيته: أي وجدته.

و«ألدّ»: شديد الخصومة و بيّنها، و ليس «ألدّ» فعلاً ماضياً، فإنّ فعله على بناء مجرّد قال الله تعالى: «و يشهد الله على ما في قلبه و هو ألدّ الخصام» البقرة ٢٠٤ أي شديد المخاصمة و العناد، و العداوة و التحجج بين المتخاصمين.

و «في» للظرفية أو السببية و قد أضيف «كلام» إلى ياء المتكلم.

و معنى الفقرة: و لقد وجدته أنكر شديد الخصومة و العناد و العداوة و التحجج في كلّ ما أقول من الحقّ و الصواب.

و قد أشار الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) إلى هذا المعنى بقوله:

في نهج البلاغة: «ملكتني عيني و أنا جالس، فسنح لي رسول الله (ص) فقلت يا رسول الله (ص) ماذا لقيت من أمتك من الأود و اللدد، فقال (ص): ادع عليهم، فقلت: أبدلني الله بهم خيراً منهم، و أبدلهم بي شراً لهم منّي» من كلامه (ع) رقم ٦٩ يعني بالأود الاعوجاج، و باللّدد: الخصام.

و قولها سلام الله عليها: «حتى حبستني قيلة نصرها و المهاجرة وصلها».

الحبس: المنع حبستني أي حبست عني، و منعت عني نصرها أي لم تنصرني.

و قيلة: هي إسم جدّة تنتمي الأوس و الخزرج من الأنصار.

و المهاجرة: أي الطائفة المهاجرة على حذف الموصوف و المراد بالمهاجرة المهاجرون و المراد بوصلها عونها فإنّ الإعانة تستلزم المواصلة الظاهرية و الباطنية، و علاقته ترك الإعانة.

و المراد من قيلة أبناء قيلة، و هم الأوس و الخزرج، فموقع النصر من الأنصار، و الوصل من المهاجرين للإشارة إلى أنّ الموقع من الأنصار لما كانوا عليه من الدين أن ينصروا الحقّ، و لكنّهم ما قاموا بوظيفتهم الدينيّة، و أمّا المهاجرون فكان الموقع منهم مع

غضّ النظر عن الذين أن يقوموا بصلة الرّحم بدفع ظلامتي، فهم ما أدّوا هذا الحقّ أيضاً، فلم يتم التواصل عن المهاجرة بشارة إلى قطع صلة الرّحم وقد أخبر تعالى بذلك في قوله «فهل عسيتم إن تولّيتم أن تفسدوا في الأرض و تقطّعوا أرحامكم» محمد ﴿ﷺ﴾ ٢٢)

في نهج البلاغة قال الإمام علي ﴿ع﴾: «و صلوا صلة الرّحم» الخطبة ٥٠، فبيّنت الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها حتّى كلّ من تخلّى عنها كان يجب عليهم القيام به.

و قولها سلام الله عليها «و غضّت الجماعة دوني طرفها»

غضّة خفضه، من غضّ الرّجل طرفه و صوته خفضه و الطّرف العين و غضّ الطرف كناية عن الإعراض و عدم الاعتناء.

و لم تدع الجماعة جماعة الأنصار و المهاجرين. فأشارت الصدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها إلى أنّ هؤلاء الجماعة في بداية الأمر إرضاءً للسلطات امتنعوا من النّصرة وصلة الرّحم، و لكنّهم لمّا رأوا شدّة مخاصمة أبي بكر، و إصراره على الفساد و استمرار عدوانه حتّى بلغ بهم الأمر إلى مرحلة طلب عدم الدفاع، لم يحصلوا على رضى الخليفة لأنّ النّاس في كلّ طرف من الظروف على دين ملوكهم «و الدّين لعق على ألسنتهم فإذا محّصوا بالبلاء قلّ الديّانون».

و قولها عليها السلام «فلا دافع و لا مانع»

إجمالاً و تفصيلاً بعد التفصيل و تبيان ثبوت الصدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها أمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﴿ع﴾ شرحت فيه نتائج خطبتها، و مدى تأثيرها في نفوس أصحاب السقيفة الشخصية المؤمنة و أذنابهم، مشيرة إلى أنّ هؤلاء الجماعة قد استحوذ عليهم الشيطان و صدّق عليهم إبليس ظنّه فاتّبعوه فأنساهم ذكر الله العظيم، فلا دافع يدفع عن حقّها و عن حقّ أمير المؤمنين علي ﴿ع﴾ و عن تعاليم الرّسالة الحقّة و لا مانع يمنع سطوة المعتدين.

فتقول فاطمة الزهراء سلام الله عليها لإمامها علي ﴿ع﴾: لم أجد أحداً من المهاجرين و الأنصار يدفع عنّي بغي الظالمين الأعداء، و لا أحداً منهم يمنعهم عنّي و يعينني في هذه الدعوى

و قولها صلوات الله عليها «خرجت كاظمة، و عدت راغمة»

واستمرار الشرح تابع للمهمّة التي قامت بها الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها تقول خرجت من بيتي إلى محلّ تبليغ الإبلاغ و إحقاق حقوق المسلمين و هو مسجد أبي رسول الله ﷺ لأتظلّم و إحقاق حقّي و أنا كاظمة للغيظ، فاردة على شدّة الألم، متجرّعة له، و إذا بي أرجع من هذا المحلّ العظيم الذي أحسبه مأوى للأملاك حتّى أصبحت مقهورة مغلوبة على حقّي فأبقيت بين يدي المسلمين و المظلومين ... كانت ثبوت الله جلّ و علا تحت التظلّم و العدوان، و البغي و الغصب، و منتهى الأمر، و الهوان

و قولها صلوات الله عليها «أضرعت خدّك يوم أضعت حدّك»

أضرعت - من ضرع الرجل ضراعة - خضع و ذلّ، و أضرعه غيره، و تضرّع إلى الله تعالى ابتهل إليه و استذلّ، و الضراعة في الخدّ لأنّ ظهر فرده و وضع الخدّ على التراب أو لأنّ الذلّ و الخضوع ظهوران في الوجه غالبًا و معنى أضعت حدّك لمرضاة الله جلّ و علا و إضاعة الشيء و تضييعه إهماله و تركه و تعطيله و حدّ الرجل قدره و خطره و بأسه و تأتي بمعنى البأس و الشدّة و الحصر و بعض ... و بمعنى الذي تمثل بين الشيئين و منتهى الشيء و في بعض النسخ «جدّك» بمعنى الاجتهاد

فتقول الصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء سلام الله عليها يا بن أبي طالب لقد ضعفت بانتظار ... لدى ... و أضعفت مرتبة الاجتماعية ببعض القوّة بحيث كان البعض حيث الرجل الإلهيّ أو يوم أضعت حدّك و اجتهدت في بعض الأمور لمرضاة الله عزّوجلّ، و من ضيع ذلك في جنب الله سبحانه فلابدّ و أن ينتظر هذه العقبات من هؤلاء الجهلة الطغمة، و عدم الاعتناء من عامة الناس الجهلة

أو تقول فاطمة الزهراء عليها السلام يا بن أبي طالب لقد ضعفت في جنب الله جلّ و علا، و ضعفت القوّة حيث كان بعض القوّة عين الصلاح، فضرعت خدّك و صرت عند عامة الناس و جهّالهم لأنّ الحدود المرتبة و القدر يمكن أن يأخذ بعضه بنظر من الإنسان من القدرة و القوّة و الجد و الاجتهاد ... لدى، فتلك من عظم الأمر إلى أن في ذات الله عزّوجلّ لأنّه العزّ و الكرامة و الشرف

فقد كانت هذه الفقرة أيضاً من الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها تسلية و مواساة مع أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﴿ع﴾ و بتعبير آخر تعظيماً و تجليلاً له ﴿ع﴾

و قولها سلام الله عليها: «افترست الذئاب و افترشت التراب»

فرس الأسد فريسته من باب ضرب و افترسها: اصطادها و دقّ عنقها، فهي فريسة و مفترسة أي مدقوقة العنق

و ظاهر الفقرتين بيان مقطعين من تركك الخلافة التي كانت هي فريستك، حتّى افترستها الذئاب، و أخذها الأراذل، و أنت أسد الله الغالب المفترس للذئاب، و قعدت عن طلب الخلافة، و لزمت الأرض، و قنعت بالغبراء البسيطة عن البسط و الفرش الرّفيعة كلّ ذلك في الواقع لمرضاة الله تعالى و حفظ كيان الإسلام و المسلمين

ففي الفقرة الأولى إشارة إلى أنّ عليّ بن أبي طالب ﴿ع﴾ الأسد الّذي كانت أبطال العرب و أسودها عنده كالذئاب يفترسها فلا يرى لها عزّة و لا قدرة

و في الثانية إشارة إلى ما كان عليه مولى المتّقين عليّ ﴿ع﴾ من التذلّل و الخشوع و التواضع في جنب الله عزّ و جلّ فهو بإزاء المعتدين أسد و بإزاء الحقّ تعالى تمام الضعة و الذلّ

فمراد الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها أنّك من عظيم حلمك لا تصيد الذئاب مرضاة لله تعالى، و جعلت النفس في منتهى التواضع و الخضوع و الذلّ في جنب الله سبحانه أيضاً

نعم! هكذا هم العظماء، عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم، فأنت يابن أبي طالب المفترس للذئاب و المفترش التراب في آن واحد، كلّ ذلك لمرضاة الله جلّ و علا. فلم تنسحب من الذئاب لقصور أو تقصير، و إنّما أصبحت الذئاب أسوداً حين علمت منك الموقف و عدم التصدّي للخلافة لمرضاة الله عزّ و جلّ، و من يصنع هذا لابدّ و أن ينتظر تعدّي المعتدين

و قولها عليها السلام: «ما كففت قائلاً و لا أغنيت طائلاً»

الكفّ: المنع، يقال: كفّه إذا منعه، و منه الكفّ للراحة لأنّه يمنع بها الأعداء

الإغناء: الإجزاء و الكفاية، من غني الرّجل إذا صار كافياً [illegible] فحصل

به الاستنكاف عن الغير، و حاجته عدم الحاجة

و ظاهر المعنى ما كففت قائلاً، و لا أغنيت شيئاً نافعاً و في بعض النسخ «و لا أغنيت باطلاً» أي و لا دفعت باطلاً و لا منعته

و لكن الواقع هو شرح نتائج المهمّة التي قامت الصدّيقة الطّاهرة بها لإتمامها عليها السلام فتقول إنّني انطلقت في خروجي هذا ما تمكّنت من كفّ و منع قائل عن عدوانه، و لا عن صرف مقبل عن باطله فما تمكّنت من نيل ما تؤول بالنفع، و المراد من النفع الهدف الذي هو الكذب المعنوي و هدف المقبل للعود عن عدوانه و بطلانه و إلاّ فكلّ كلامها سلام الله عليها نفع و إقامة حجّة و قطع عذر

و قولها صلوات الله عليها «و لا خيار لي»

و لا اختيار لي أي لا قوّة و لا قدرة لي على دفع هؤلاء الأعداء الغاصبين المعتدين أو أنّه لا اختيار لي لست مع وجود الأزواج، فإنّ الأمور بأيديهم

و غرض الفقرة عدم تأمّر أمير المؤمنين الإمام عليّ ﷺ فتقول الصدّيقة الطّاهرة عليها السلام ﷺ و عدم كفّ هؤلاء الكذّاب المعتدي عن الغرور، و عدم منع المبطل للعود كان بعدم القدرة الظاهرة على دفع الأمور و المقصّر متى حين تتّخذ هذه المهمّة و التكليف الذي قامت به من خطبتها أو تقول سلام الله عليها ﷺ معذرة في الاختيار في بعض أئمّة الأمور، وإلاّ فالأخذ والإحاطة و الأنوار التي استقت بها من نور الإمامة لكن هؤلاء ... من ... فعلوا ما فعلوا

و قولها عليها السلام «ليتني متّ قبل هنيئتي و دون ذلّتي»

الهنيئة الفرح من هنأ فلان فرح، الأمر، و هنيئة عزّة متعة، مبادئة معنى الضدّ و المراد بها هو المعنى الثاني أي عزّتي و المعنى ليتني متّ قبل عزّي بوفاة أبي رسول الله ﷺ و لم يقع علينا أهل بيت الوحي المعصومين تلك الحوادث المؤلمة

و في بعض النسخ «هنيئتي» و الهنية بالفتح الاعداد في الرمي و التكون، يقال «مشى على هنيته على رسله» و المعنى ليتني متّ من قبل هذا اليوم الذي لا بدّ لنا فيه من الصبر على ظلم أصحاب السقيفة المشؤومة و هتك حرمتهم و جناياتهم و إهانتهم لأهل

بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين، فأصبحت فيه مجبورة على السكوت على ما يفعلون من الظلم و العدوان و تغيير موازين الشريعة و نهب تراثها الّذي شاده رسول الله (ﷺ)

و في بعض النسخ «هيتني» من الهنة ـ بكسر الهاء ـ أي مهيتي من الهون بمعنى الحقارة فالمعنى ليتني متّ قبل هذا اليوم الّذي أصابتني فيه تلك المهانة، و لم أر هذه الاستكانة و الإهانة و لم أر فيه سحق الدّين و القيم باسم الدّين و القيم بقول أهله استخفّ به من الهون بمعنى الذّل و الضعف

و «دون» بمعنى عند و «ذلّتي» من الذلّة و في بعض النسخ «زلّتي» من زلقت في طين و نطق إذا زلقت، و يكون بمعنى السقطة و المراد بها عدم القدرة على دفع الظّلم

و قولها سلام الله عليها: «عذيري الله منه عادياً و منك حامياً»

العذير العاذر كالسميع بمعنى السامع يقال: عذيرك من فلان أي هات من يعذرك لأجل إساءته إليه أي يثبت معذوراً إن أسأت إليه و يكون هات من يعذرك أي من يقبل عذرك أي يقبل عذرك في ذلك لعدم علمه بحقيقة الحال، فيكون عذيرك مفعولاً لمحذوف و منه قول أمير المؤمنين الإمام علي (ع) في ابن ملجم المرادي لعنه الله:

أريد حياته، و يريد قتلي   عذيرك من خليلك من مراد

و العذر ما يدفع به اللوم، و العاذر صاحب العذر، و قيل العذر من الأضداد و كذلك العذير، و المعنى فيهما هو الّذي كما هو المراد هنا و «عذيري» و «الله» هما مرفوعان مبتداء و خبر أي الله قابل عذري حالكوني من أبي بكر عدوّ لكونه عدوّ الله و عدوّ رسوله (ﷺ) و عدوّ أهل بيت الوحي المعصومين عليهم السلام، و حالكوني حامياً لك يا ابن أبي طالب من غصب حقّك و هتك حرمتك

و في الفقرة أقوال: الأوّل إنّ الله تعالى يقبل عذري ممّا نسبته في ابن أبي قحافة في هذه الخطبة المثبتة لكفره بين القوم و ما تفوّهوا في المقالة، و في انتقامي فيه يوم الرجعة و يوم القيامة لكونه عادياً عليّ، غاصباً حقّي، هاتكاً لحرمتي و «عادياً» حال أو تمييز من ضمير «منه» و حالكونك حامياً لي فكان أبو بكر عادياً، و كنت أنت حامياً

الثاني إنّ الله عزّ و جلّ هو العالم بعذري في ما كنت تكلّمت به من كلام شديد و توبيخ بالنسبة إلى ابن أبي قحافة بما ارتكب من الظلم و العدوان و البغي و الطغيان، و النكر و العصيان، و إن كنت بنظر العامّة لست معذورة في مثل هذا الخطاب لأتباعهم له في سيّئاته. كما و أنّ الله جلّ و علا يعلم عذري بالنسبة إلى من هو المدافع و الحامي عنّي، و هو ابن أبي طالب لأنّه تعالى هو العالم بما دلّت من العهد في تنفيذ ما أمرني به، فلا يعني ما لم أقصر في القيام بالتكليف و هو جلّ و علا الشاهد على ما أقول، و هو القائل عن الصادقين

الثّالث إنّ الله جلّ و علا عرف عذري بالنسبة إليك حين يكون بعيداً عن نصرتي، و حالكونك مخاصماً مدافعاً عنّي لأنّي ما كنت بالنسبة إليك يابن أبي طالب لأتّهم الرجل في الحالين لما أعلم من الواقع

الرّابع إنّ الله سبحانه هو العالم بعذر الصادقين، فإنّك معذور يابن أبي طالب حين يكون مصروفاً عن نصرتي، و حالكونك مخاصماً عنّي لأنّ انصرافك عن نصرتي و دفاعك عنّي هو عين الحقّ و الصّواب لاختلاف الأحوال و المقامات و الموارد فعفّتك و إبرامك عين الثبات و السّلام

الخامس إنّ الله تعالى هو يعلم بأعذاري بالنسبة إلى خطابي الشديد الّذي وجّهته إليك يابن أبي قحافة حين يكون لم تنصر الحقّ بل تركت نصرة بيتي، و كذا حالكونك أظهرت نفسك خداعاً لتري المؤيّدين و المناصرين لي فإنّك يابن أبي قحافة غلبت أو تظاهرت بالدّفاع عنّي، و ما كنت لأطيعك فيك في واقع الأمر، و عليه فالله عزّ و جلّ هو العالم بعذري و ما هو المسوّغ لي أن أخاطبك يابن أبي قحافة بهذا الخطاب الشديد لأنّه ما كان إلّا كشفاً لنفس الأمر و الواقع

و قولها سلام الله عليها «ويلاي في كلّ شارق و ويلاي في كلّ غارب»

ويل: كلمة مثل ويح إلّا أنّها كلمة عذاب يقال ويله، و ويلك، و ويلي، و قد تستعمل لإظهار شدّة الألم و الحزن، و قد يستعمل على الشدّة و الضرّ و الشرّ و يقال في النّدبة ويلاه قيل. وَيلاي هو جمع فيه بين ألف النّدبة و ياء المتكلّم، فأتى به بصيغة التثنية

فيكون تكرير المنوين وهو مبتدء و ما عرف خبره أو خبر لمحذوف، أو الخبر محذوف

و الشارق الشمس كذا تغرب في عند كل شروق و طلوع صباح كل يوم، و عند كل غروب و مساء كل ليل

و معنى الفقرة مع شدائد في كل شروق و غروب، و فيها إشارة إلى أنه برحيل رسول الله ﴿ﷺ﴾ لابد و أن ينتظر ما تفعل هؤلاء السّفلة الجابرة من جناية و خيانة، و لانأمل إلا توالي الشدائد وحدوث البدع في الدين في كل صباح و مساء

و قولها عليها السلام: «فقد بعد العمد و وهن العضد»

العمد ما يقوم عليه سقف البيت و غيره و العمد المستند عمد القوم سيدهم و سندهم، عميد الأمر قوامه و العمد من يعتمد عليه في الأمور و هنا كناية عن رسول الله ﴿ﷺ﴾

الوهن الضعف و في بعض النسخ «وهنت» أي ذاب و هنت الشيء ذاب ذوبا شديداً العضد من المرفق إلى الكتف و المراد من العضد هنا هو أمير المؤمنين الإمام علي ﴿ع﴾ و وهن العضد كناية عن شدة ضعف أهل بيت الوحي المعصومين عليهم السلام بعد رسول الله ﴿ﷺ﴾

في نهج البلاغة من كتاب مولى الموحدين سيد الوصيين علي بن أبيطالب ﴿ع﴾ إلى عثمان بن حنيف الأنصاري ... و أنا من رسول الله كالضوء من الضوء و الذراع من العضد » نهج كتاب ٤٥

و في الفقرة بيان أحوال أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين بعد وفاة رسول الله ﴿ﷺ﴾

و قولها صلوات الله عليها: «شكواي إلى أبي»

الشكوى اسم، من شكوت فلاناً شكاية

شكايتي عن جنايات أصحاب السقيفة المشؤمة، و جناياتهم و ظلمهم و بغيهم علينا أهل بيت الوحي المعصومين عليهم السلام إلى أبي رسول الله ﴿ﷺ﴾

و قولها عليه السلام «و عدواي إلى ربي»

العدواى: طلبك إلى والٍ ليعديك على من ظلمك

و المعنى: و تشكّي إلى ربّي لأنّك أنت يا ربّ أنصف شديد ظلامتي و حزني و لأنّ الحقّ أصبح لا ناصر له من المهاجرين و الأنصار و أنا من يريد نصره فلا قدرة له على ذلك فقد أصبحت أنتصر للحقّ الذي لا ناصر له من أمّة بقدرتك المتعال

و قولها صلوات الله عليها «اللّهمّ أنت أشدّ قوّة و حولاً، و أحدّ بأساً و تنكيلاً»

الحول: القوّة، الحيلة و الدّفع و المنع، و الكلّ هنا صحيح

و الأحدّ: الأشدّ حدّة، قوّة و نفعاً

و البأس: العذاب، و يطلق على الشّدّة في الحرب و نحو ذلك

و التّنكيل: العذاب و العقوبة، و جعل الرّجل نكالاً و عبرة لغيره و أصله من نَكِلَ ـ بالكسر ـ بمعنى قيّد و التّنكيل تعذيب عقوبة بقطع يد أو رِجل أو غيرهما ممّا يشهر به فيكون عبرة لغيره

في نهج البلاغة: عن سيّد الوصيّين الإمام عليّ ﴿ع﴾ «فاعتبروا بما أصاب الأمم المستكبرين من قبلكم من بأس الله و صولاته و وقائعه و مثلاته» الخطبة القاصعة ٢٣٤)

و معنى الفقرة: اللّهمّ إنّك أشدّ قوّة و حولاً من هؤلاء الغاصبين لحقوق آل الله جلّ و علا و المتكبّرين لحرمات أهل بيت رسول الله ﴿ص﴾ و أشدّ عذاباً و عقوبة لأصحاب السّقيفة المشؤومة و أذناب بني أميّة

في نهج البلاغة: قال يعسوب الدّين إمام المتّقين عليّ بن أبي طالب ﴿ع﴾ «يوم المظلوم على الظّالم أشدّ من يوم الظّالم على المظلوم» قصار كلماته ﴿ع﴾ رقم ٢٣٣)

و فيه: قال سيّد الوصيّين الإمام عليّ ﴿ع﴾ «يوم العدل على الظّالم أشدّ من يوم الجور على المظلوم» من قصار كلماته: رقم: ٣٣٤)

إن تسئل: أنّ اعتراض الصّدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها على إمام المتّقين عليّ بن أبي طالب ﴿ع﴾ في ترك التّعرّض لمخالفيه و عدم نصرتها في حقّها فدك و تحصّنه منها ـ مع علمها بإمامته، و وجوب اتّباعه و عصمته، و أنّه لم يفعل شيئاً إلّا بأمر الله تعالى و وصيّة رسوله ﴿ص﴾ ـ ممّا ينافي عصمتها و جلالة قدرها؟

نجيب عنه بأجوبة

منها أنّ الصدّيقة الطاهرة عليها السلام قد تظاهرت بهذه الكلمات شدّة غضبها و سخطها على أبي بكر و خليفته عمر بن الخطّاب و ذمّهما، و أنّهما بإيذائهم إيّاها عليها سلام الله تعالى آذوا الله و رسوله (ﷺ) إذ ثبت بالتواتر أنّ من أغضب فاطمة الزهراء فقد أغضب رسول الله (ﷺ) و من أغضبه فقد أغضب الله، و من آذاها فقد آذى رسول الله و من آذى رسول الله، فقد آذى الله و من آذى الله فمأواه جهنّم.

قال الله تعالى: «إنّ الذين يؤذون الله و رسوله لعنهم الله في الدنيا و الآخرة و أعدّ لهم عذاباً مهيناً و الذين يؤذون المؤمنين و المؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً و إثماً مبيناً» الأحزاب: ٥٧ - ٥٨)

و منها أنّ هذه الكلمات صدرت منها صلوات الله عليها لبعض المصالح و لم تكن واقعاً منكرة لما فعله بل كانت راضية و إنّما كان غرضها أن تبيّن قبح أفعالهم و شناعة أفعالهم، و خبث سرائرهم و كفرهم و نفاقهم و أنّ سكوته عليه السلام ليس لرضاه بما هم عليه من الكفر و الطغيان، و الظلم و العدوان، و البغي و العصيان

و مثل هذا كثيراً ما يقع في المعاتبات و المحاورات. كما أنّ ملكاً يعاتب بعض خواصّه في أمر بعض الرعايا، مع علمه ببراءته من ظلمهم و جناياتهم، ليظهر لهم عظم جرمهم، و أنّه ممّا استوجب به أخصّ النّاس بالملك منه المعاتبة

و نظير ذلك ما فعله موسى (ع) ـ لمّا رجع إلى قومه غضبان أسفاً ـ من إلقائه الألواح و أخذه برأس أخيه يجرّه إليه، و لم يكن غرضه الإنكار على هارون و هو رسول الله، بل كلاهما رسولا ربّ العالمين، و إنّما أراد بذلك أن يعرّف القوم عظم جرمهم و جناياتهم، و شدّة ظلمهم و جنايتهم على خليفة موسى بعد غيابه، و هكذا فعل أصحاب السقيفة بوصيّ رسول الله (ﷺ) بعد وفاته (ﷺ)

قال الله تعالى خطاباً لموسى و هارون عليهما السلام «اذهبا إلى فرعون إنّه طغى ـ فأتياه فقولا إنّا رسولا ربّك...» طه: ٤٣ - ٥٠)

و قال: «و قال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي و أصلح و لا تتّبع سبيل المفسدين» و لمّا رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال بئسما خلفتموني من بعدي

أعجلتم أمر ربّكم و ألقى الألواح و أخذ برأس أخيه يجرّه إليه قال ابن أمّ إنّ القوم استضعفوني و كادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء و لا تجعلني مع القوم الظّالمين» (الأعراف: ١٤٢ ـ ١٥٠)

إن قيل: إنّ طلب الحقّ و المساهمة فيه و إن لم يكن منافياً للعصمة، و لكن زهدها صلوات الله عليها و تركها الدّنيا و عدم اعتدادها بنعيمها و لذّاتها و كمال عرفانها و نفيها نعماء الدّنيا، و توجّه نفسها القدسيّة و انصراف همّتها العالية إلى النّشآت المعنويّة و الدّرجات الأخرويّة، لا يناسب مثل هذا الاهتمام في أمر فدك و الخروج إلى مجمع النّاس، و المنازعة مع المنافقين في تحصيله؟

نجيب عنه بوجوه.

أحدها ـ أنّ سكوت المظلوم عن ظلم الظّالم ظلم على غيره، فإنّه يوجب تجرّي الظّالم على ظلمه على غيره

قال الله تعالى: «لا يحبّ الله الجهر بالسّوء من القول إلّا من ظُلم و كان الله سميعاً عليماً» (النّساء: ١٤٨)

و قال: «و لمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل إنّما السّبيل على الّذين يظلمون النّاس و يبغون في الأرض بغير الحقّ أولئك لهم عذاب أليم» (الشّورى: ٤١ ـ ٤٢)

ثانيها ـ أنّ اعتراض الصّدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها على هؤلاء الظّلمة العاصين، و تنصّرها من الأنصار و المهاجرين إتمام حجّة على الحاضرين و على الآتين، و قطع معذرة عنهم أجمعين، إلى يوم الدّين، فإنّها عليها السّلام علمت ظلم هؤلاء و انصراف من هؤلاء فلم ينصروها، فلولا الاعتراض و الانتصار لكان ظلمهم و جناياتهم و بغيهم و خياناتهم مكتومة، مستورة إلى يوم القيامة

ثالثها: أنّ ذلك لم يكن حقّاً مخصوصاً بالصّدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها فحسب، بل كان أولادها البررة الكرام مشاركين لها فيه، فلم يكن يجوز لها المداهنة و المساهلة و

الخامسة والخيانة وعدم الثلاثة في ذلك لتصير سبباً لتضييع حقوق جماعة من الأئمة الأعلام والأشراف لكونه فمن كان غصبت منه لكن فدكه تركه وترفّع عنه وعدم تأثّر من فوته

رابعها — أن تلك الأمور لم تكن لحبّه فدك وحبّ الدنيا بل كان هدفها سلام الله عليها إظهار ظلمهم وجورهم، وكفرهم ونفاقهم، وهذا كان من أهمّ أمور الدين وأعظم الحقوق على المسلمين، ويؤيد ذلك أنها عليها السلام قد صرّحت في آخر كلامها بـ قولها: قلت ما قلت على معرفة منّي بالخذلة

﴿تسلية الإمام أمير المؤمنين
للصدّيقة الطّاهرة سلام الله عليهما﴾

فقال الإمام أمير المؤمنين ﷺ: «لا ويل لكِ، بل الويل لشانئكِ، ثمّ نهنهي عن وجدكِ يا ابنة الصّفوة، وبقيّة النّبوّة، فما ونيتُ عن ديني، ولا أخطأتُ مقدوري، فإن كنت تريدين البلغة فرزقك مضمون، وكفيلك مأمون، وما أُعدّ لك أفضل ممّا قُطع عنك، فاحتسبي الله، فقالت: حسبي الله وأمسكت»

الشّرح: هذا جواب لقول الصّدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها «وويلاي» وأمثاله.

وقوله ﷺ: «لا ويل لكِ، بل الويل لشانئكِ»

الشّانئ: المبغض، من شنأه: أبغضه وعاداه، ومنه قوله تعالى: «ولا يجرمنّكم شنآن قوم» المائدة ٢

الويل لشانئك أي العذاب والشّرّ لمبغضك قال الله تعالى: «إنّ شانئك هو الأبتر» (الكوثر ٣) أي عدوّك المبغض

وقد أشار الإمام أمير المؤمنين علي ﷺ إلى أنّ الويل ليس على المظلوم ومن تحمّل حزن المصائب بنفسه، بل إنّ الويل والخزي الدّائم واللعن الأبد للظّالم ومن باع آخرته بدنياه، فاشترى العذاب وخزي الخلود وغضب الجبّار، وهم أعداؤك المغتصبون منك تراث رسول الله ﷺ

و قوله (ع): «ثمّ تنهنهي عن وجدك يا ابنة الصفوة»

تنهنهي عن وجدك من نهنه الثوب أي نسجه و حققه، و ثوبٌ منهنهٌ أي خفيف النسج، و من نهنه الرجل عن الشيء كفّه، كفّ عن حركة و خلق من غضب و المنهنهة الذي يكفّ غيره عن الشيء.

في نهج البلاغة في قول المولى الموحّد بن الإمام عليّ (ع): «و من كان مظلوماً فقد ينبغي له أن يكون من المنهنهين عنه و المعينين له» (من كلامه (ع) ١٧٣)

الوجد: الغضب و الحزن من وجد عليه إذا غضب عليه و الاسم منه الوجدان، و المراد بالوجدان الشيء في النفس من الغضب و الحزن و ما شابههما.

و الصّفوة خلاف الكدر، و صفوة الشيء خالصه و خياره، و المراد بالصفوة: و مستخلصه و محمّد رسول الله (ص) صفوة الله تعالى من خلقه و مصطفاه، و يطلق على كلّ نبيّ عموماً و على محمّد (ص) خصوصاً قال الله تعالى: «و إنّهم عندنا لمن المصطفين الأخيار» (ص ٤٧)

و المراد هنا محمّد رسول الله (ص) لأنّه الفرد الأكمل فينصرف الإطلاق إليه، و لاستجماع وجوده الشريف.

في نهج البلاغة في سيّد الموحّدين الإمام عليّ (ع): «و أشهد أنّ محمّداً عبده و رسوله و نجيبه و صفوته لا يوازى فضله و لا يجبر فقده» (الخطبة ٥)

و معنى الفقرة: كفّي نفسك عن الغضب و الحزن يا بنت الصفوة و الرحمة، و خذي بالتجلّد و التصبّر كما هو دأبك يا بنت صفوة الله تعالى، فإنّ الله تعالى يحكم بيننا و بين هؤلاء الغاصبين ظلمة و هو خير الحاكمين.

فهذه خطابات تسلية من أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب للصدّيقة الطّاهرة فاطمة الزّهراء سلام الله عليهما و طلب منها التحمّل للمشاقّ في سبيل الله تعالى و حفظ الحقّ

ثمّ أخذ الإمام سيّد الوصيّين (ع) يبيّن ما هو الواجب عليه من الموقف تجاه الأحداث الجارية بتسيير المنافقين و أصحابه بعد وفاة رسول الله (ص) و أنّه (ع) قد قام بكلّ ما كان عليه من التكليف كما هي عليها السلام تعلم بذلك فقال (ع):

«فما ونيتُ عن ديني و لا أخطأتُ مقدوري»

الونى: الضعف و الفتور و التعب و الكلال

الإحطاء عن الشيء: التجاوز منه إلى غيره و هو خطأ عنه متجاوز إلى ما بعده

المقدور: هو ما يكون تحت قدرة الإنسان أي ما تتسع قدرته به من الأفعال، و لو يعني بالأفعال فإن الأفعال هي متعلق القدرة

و معنى الفقرتين: ما عجزت عن القيام بأمري هذا، و لا فرطت فيما دخل تحت قدرتي أي ليس في قدرته على دفع تلك الحوادث المؤلمة ما يرى حتى رسول الله (ص) من قبل هؤلاء القوم الضالين المضلين المشركين و رأيتهم تمادوا حتى تميز الخبيث من الطيب، فليس مع هذا كله عجز عن المقدور أي في هذا الأمر على تلك المصلحة التي أمرني رسول الله (ص) بالقعود عن طلب الأمر الظاهر و هي الأحرى تلك المصلحة، فلست قادراً على إيجاد حول لي و تلك رسول الله (ص) لما وصاني به مولاي النبي الكريم (ص)

فلا كسلت و لا تعبت و لا فترت و لا جبنت و لا ضعفت و لا تعمدت و لو ضعفت في أمري من حيث الظاهر و القصور

في نهج البلاغة: قال مولى الموحدين يعسوب الدين الإمام علي (ع): «و ايم الله لقد كنت من ساقتها حتى تولت بحذافيرها و استوسقت في قيادها، ما ضعفت و لا جبنت و لا خنت و لا وهنت» الخطبة ٣

فقال أمير المؤمنين الإمام علي (ع) مقتدياً به ظاهراً سلام الله عليه هذا الكلام من باب التأكيد ما هي عادته به، و من باب «فذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين» و لأجل التسلية من بعده (ص) بنفس كما أنه يعيش في زمن تلك الحوادث المؤلمة فلا يرى له ضعف و لم يهن في وظيفته الدينية و لم يخطئ في مورد قدرته ينبغي بالحق

و قوله (ع): «فإن كنت بالدين البلغة فالرزق مقصود»

البلغة: ما يتبلغ به من العيش و هو قدر المكتفي و الكفاف في أمر المعيشة، فالبلغة للكفاف، و الرزق المقصود، و به مرزوق نسبي الرزق

في نهج البلاغة قال سيد الوصيين الإمام علي (ع): «قسم أرزاقهم و قدر أقواتهم» الخطبة ١٩٠

عرض الفقرة أن شيعة أمير المؤمنين يتوصّلون إلى إحقاق الحقّ و إقامته بولايته هذه الأموال التي غصبها أبو بكر من فاطمة فإنّه حقّ وكلا يعطي الناس على قدر شأنهم، و قد ضيّع مصالحهم، و إن ضيّعت عليهم ثواب العمل، ثواب عظيم عند الله تعالى بتصديق نبيّه بينهم لإقامة كلّ حقّ و إزالة كلّ باطل

و قوله ﴿ﷺ﴾: «و كفيلك مأمون»

الكفيل هو الضامن يقال مع الفرق بين الضمان و الكفالة فإنّ الضمان يكون بالمال، و الكفالة تكون بالنفس فيقول الضامن من فلان إذا ضمنت ذمّته و يقول الكفيل به إذا ضمنت نفسه، فالضمان انتقال ما في ذمّة المضمون عنه، و الكفالة التزام بنفس المكفول به قال الله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ (آل عمران ٣٧) ولم يقل ضمنها و لايشترط في الضمان أن يعرف الضامن المضمون له فيجوز أن يضمن عمّن لا يعرفه و يشترط في الكفالة أن يعرف الكفيل المكفول به فلا يجوز أن يكفل من لا يعرفه لأنّه إذا لم يعرفه لم يتمكّن من تسليمه و لايصحّ أن يؤدّي عنه إن لم يعرفه

و المأمون هو الذي لا يتطرّق إلى قوله و وعده احتمال الكذب و الخلف فيه و عده و كلمه مع تحقّق الأمانة إذ لا يتطرّق إليه سبحانه زوال و لا فناء لأنّه الأزليّ الأبديّ الذي لم يزل و لايزال من دون تغيّر الأحوال

قال أمير المؤمنين الإمام عليّ ﴿ﷺ﴾ مخاطبة لفاطمة الطاهرة سلام الله عليها و هي عازمة على ترك العيش لتذكّر و لاجتهاد المواساة معها و التسلية لها لأمر بات أنّها لم تعش عرفان هذا الموقع ... إنّ الله عزّوجلّ كفيل بك، هو مأمون لا يتطرّق إليه سبحانه زوال و لا فناء

و قوله ﴿ﷺ﴾: «و ما أعدّ لك أفضل ممّا قطع عنك»

الإعداد: التهيئة و إعداد الشيء عدّه

و معنى الفقرة: و ما هيّأه الله لك من نعم الأبدي الذي لا بعد في الدار الآخرة و من الشفاعة الكبرى لأمّة أبيك و شيعة بعلك و ذريّتك و عترتك أفضل ممّا قطع عنك هؤلاء الظلمة الخونة و غصبوا منك من فدك و العوالي و الإرث و اغتصبوا منّي من الخلافة

و قوله ﴿ﷺ﴾: «فاحتسبي الله»

لاحتساب الاعتداد و يقال لمن نوى بعمله وجه الله سبحانه احتسبَهُ

و معنى الفقرة بالصورة التي نسبه رسول الله ﷺ عند خروجه الله جلّ وعلا على هذا الظلم و العدوان و ادّخرت ثوابه عند الله تعالى أو توكّلت على الله. و قول حسبي الله

فقالت سلام الله عليها «حسبي الله» و سكتت صلوات الله عليها حيث عن الكلام و سكتت

و لا يبعد أن يكون هذا خبراً و إنّما قصدت من إعلانه بيان ظهور سلام الله عليها بما حصل لها هذه من الظلامات لأنّه عن منهج الحقّ و الهدى بعد رحيل رسول الله ﷺ و ضياع التراث الذي بذل النبيّ الكريم ﷺ كلّ الجهد لحفظه. و من باب «فلعلّك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً» الكهف ٦ أي قاتلها و عطفاً عليهم أنّهم كيف أصبحوا ضالّين بعد هدايته؟!

«جملة من مصادر الخطبة الفدكيّة عند الفريقين»

ومن الشواهد أنّ الخطبة الفدكيّة التي خطبتها الصّدّيقة الطّاهرة فاطمة الزّهراء سلام الله عليها متواترة لا يشكّ فيها إلّا من كان مسلوب العقل والدّراية، ومشكوك النّسب والولادة، ومفتون بكفر وضلاله. وقد رواها الفريقان في مجاميعهم المعتبرة عندهم بأسانيد عديدة على نسق الإجمال والتفصيل، وقد أفردوها بكتب عديدة ورسائل جمّة، فنشير إلى ما تيسّر منها وهي على نحو الاختصار:

١ـ كتاب «بلاغات النساء» لابن طيفور المتوفّى ٢٨٠ هـ

٢ـ كتاب «فدك» لأبي إسحاق إبراهيم الثقفي المتوفّى ٢٨٣ هـ

٣ـ كتاب «السقيفة وفدك» لأبي بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري البصري البغدادي المتوفّى ٣٢٣ هـ

٤ـ كتاب «فدك» لأبي طالب عبيد الله بن أبي زيد أحمد بن يعقوب بن نصر الأنباري المتوفّى ٣٥٦ هـ

٥ـ كتاب «كلام فاطمة عليها السلام في فدك» لأبي الفرج الأصفهاني من ولد مروان آخر خلفاء الأمويّة، صاحب كتاب «الأغاني» المتوفّى: (٣٥٦ هـ)

٦ـ كتاب «شرح الأخبار» للقاضي أبي حنيفة النعمان بن محمّد التميمي المغربي المتوفّى ٣٦٣ هـ

٧ـ كتاب «فدك» لأبي الحسن مظفّر بن محمّد بن أحمد البلخيّ الخراساني المتكلّم

المشهور المتوفى ٣٦٧ هـ

٨ـ كتاب «فدك» أو رسالة في قصة فدك لجعفر بن بكر بن جعفر الحسني، وفيها حكايته وخطبة الزهراء سلام الله عليها

٩ـ كتاب «فدك والخمس» لمشايخ الشريف أبي محمد الأطروش الحسن بن علي بن الحسن، جد الشريف المرتضى لأمه

١٠ـ كتاب «فدك» والكلام فيه لشيخ المتكلمين أبي جعفر الحلبي في الخمس، وهو عمدة للشيخ المفيد في أوائل أمره وعده من تلامذة المتكلمين الشيعة

١١ـ كتاب «الشافي» للسيد المرتضى رضوان الله تعالى عليه

١٢ـ كتاب «قرب الإسناد» للحميري

١٣ـ كتاب «المناقب» لابن مردويه

١٤ـ كتاب «الاحتجاج» لأبي منصور الطبرسي أحمد بن علي رضوان الله تعالى عليه من علماء القرن السادس والسابع

١٥ـ كتاب «أمالي الشيخ المفيد في مجلس الخامس»

١٦ـ كتاب «دلائل النبوة» للبيهقي

١٧ـ كتاب «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي

١٨ـ كتاب «معجم البلدان» مادة فدك لياقوت الحموي الرومي المتوفى ٦٢٦ هـ

١٩ـ كتاب «كامل البهائي» ويقال له «كامل السقيفة» لعماد الدين حسن بن علي المشهور بعماد الدين الطبري رحمة الله تعالى عليه وقد فرغ من تأليف هذا الكتاب الشريف عام ٦٧٥ هـ

٢٠ـ كتاب «شرح نهج البلاغة» (ج ١٦ ص ٢١٠) طبع مصر سنة ٩٦٣ م، لابن أبي الحديد المعتزلي المتوفى (٦٥٦ هـ)

٢١ـ كتاب «مروج الذهب» ج ٢ ص ٣١١ للمسعودي

٢٢ـ كتاب «النهاية» لابن الأثير الجزري في مادة «لمة»

٢٣ـ كتاب «لسان العرب» لابن منظور في مادة لمّ

٢٤ـ كتاب «الفصول المختارة من العيون والمحاسن» للسيد الشريف المرتضى رحمه الله تعالى عليه

٢٥ـ رسالة حول حديث «نحن معاشر الأنبياء لا نورّث» للشيخ المفيد رضوان الله تعالى عليه

٢٦ـ كتاب «كشف الغمة» لعليّ بن عيسى الإربليّ المتوفّى ٦٩٣ هـ.

٢٧ـ كتاب «اللآلي المصنوعة» للسيوطي الشافعي

٢٨ـ كتاب «المناقب» لابن شهرآشوب السروي المازندراني رحمة الله تعالى عليه (المتوفّى ٥٨٨ هـ)

٢٩ـ كتاب «نهج الحقّ وكشف الصدق» للعلامة الحلّي رضوان الله تعالى عليه المتوفّى (٧٢٦ هـ)

٣٠ـ كتاب «إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل» للقاضي الشهيد نور الله الحسيني المرعشي الشّهيد في بلاد الهند عام (١٠١٩ هـ)

٣١ـ كتاب «معاني ما في خطبة الزهراء عليها السلام» للحافظ أبي بكر الجوهري

٣٢ـ كتاب «أعلام النساء» ج ٤ ص ١١٦ لعمر رضا كحالة

٣٣ـ كتاب «فدك عنه» لعبد المتعال المصري

٣٤ـ كتاب «بحار الأنوار» ج ٢٩ ص ٢١٥ (الطبع الجديد) للعلامة المجلسي رحمه الله تعالى عليه وفيه قال: اعلم أنّ هذه الخطبة من الخطب المشهورة التي رواها الخاصّة والعامّة بأسانيد متظافرة. وإنّا أوردنا الأسانيد فيها، ثمّ روى هذه الخطبة بأسانيد جمّة. روى الصّدوق رحمه الله تعالى عليه بعض فقراتها المتعلّقة بالعلل في «علل الشّرائع» بإسناده عن زينب بنت عليّ (عليهما السلام)

٣٥ـ كتاب «أهل البيت» ص ١٥٧ لتوفيق أبي علم قال: «وخطبة الزهراء رضوان الله عليها كما ترى أهل البيت حظّاً عظيماً من الفصاحة والبلاغة، فكلامها مناسب النظم متشاكل الأطراف، تعبث لعذوبة نغمته وتجذب النّفوس بمحكم أدائه ومبانيه، فهي في البيان من أعرق الخطباء مادّة، وأطولهم باعاً، وأفصحهم سليقة، وأسرعهم خاطراً وإنّه

لسبق ذلك وخاصّة في خطبتها وكلامها في بيعة أبي بكر وخلافها معه في شأن فدك، ثم نقل الخطبة، وقال بعد نقلها: والمشهور عن السيّدة الزهراء رضي الله عنها أنّها كانت قوية المعارضة، خطيبة بارعة الأداء، عرفت المدافعة هزّت القلوب والمشاعر. وأنّ خطبتها على جمهرة من المهاجرين والأنصار، إنّه على لسان بديهتها وحضور ذهنها.

٣٦ـ كتاب «النصّ والاجتهاد» للسيّد عبدالحسين شرف الدين رضوان الله تعالى عليه قال: «كشف من بني عليّ وفاطمة عليها السلام يروي خطبتها في ذلك اليوم لمن بعده، ومن بعده رواها لمن بعده حتى انتهت إلينا بالتعاقب، فنحن العلويون نرويها عن آبائنا وآباؤنا يروونها عن أبنائهم، وهكذا كانت الحال في جميع الأجيال إلى زمن الأئمة من أبناء عليّ وفاطمة عليها السلام، وذكرها في كتاب «الاحتجاج» الطبرسي، وفي «بحار الأنوار»، وقد أخرجها من أثبات الجمهور وأعلامهم أبوبكر أحمد بن عبدالعزيز الجوهري في كتاب السقيفة وفدك بطرق وأسانيد تنتهي بعضها إلى أئمة أهل البيت عليّ وفاطمة عليها السلام.

وبعضها إلى الإمام أبي جعفر محمّد الباقر ـ ـ وبعضها إلى عبدالله بن الحسن بن الحسن يرفعونها جميعاً إلى الزهراء سلام الله عليها كما في ص ١٠٦ من المجلد الرابع من شرح النهج الحميدي، وأخرجها أيضاً أبو عبيدالله محمد بن عمران المرزباني بالإسناد إلى عروة بن الزبير عن عائشة يرفعها إلى الزهراء عليها سلام الله كما في ص ٩٣ من المجلّد الرابع من شرح النهج وأخرجها المرزباني أيضاً كما في (ص ٩٤) من المجلّد المذكور بالإسناد إلى أبي الحسن زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبيطالب، عن أبيه عن جدّه يبلغ بها فاطمة عليها السلام، وبالإسناد عن زيد أنّه قال: «رأيت مشايخ آل أبي طالب يروونها عن آبائهم، ويعلّمونها أولادهم» انتهى كلامه.

٣٧ـ كتاب «فدك نحلة» للمولوي اللاهوري.

٣٨ـ كتاب «فدك» لعبد الرحمن بن كثير الهاشمي.

٣٩ـ كتاب «فدك» لأبي الحسن يحيى بن زكريا الترماشيري صاحب كتاب «شمس المذهب».

٤٠ـ رسالة فدك للسيد علي بن ... الرضوي ... المتوفى ٢٥٩ هـ

٤١ـ كتاب «اللمعة البيضاء في شرح خطبة الزهراء سلام الله عليها» للمحقق البارع آية الله الشيخ محمد علي القرجه داغي التبريزي المتوفى (... ٣١ ... هـ)

٤٢ـ كتاب «فدك» للعلامة المحقق الشيخ عبد الحسين الأميني رحمه الله تعالى عليه

٤٣ـ كتاب «الدرة البيضاء في شرح خطبة الزهراء عليها السلام» للسيد محمد تقي القمي (٣٠٤ هـ)

٤٤ـ كتاب «هدى الملة إلى أن فدك من النحلة» للسيد محمد حسن بن ... آقا مير الموسوي القزويني الحائري ... سنة ٣٩٢ هـ المتوفى ٣٨ هـ

٤٥ـ كتاب «فدك في التاريخ» للسيد الشهيد آية الله محمد باقر الصدر رضوان الله تعالى عليه

٤٦ـ كتاب «دلائل الصدق» للمحقق الكبير آية الله الشيخ محمد حسن المظفر رحمه الله تعالى عليه

٤٧ـ كتاب «شرح خطبة السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام» للمحقق العلامة آية الله العظمى الشيخ محمد طاهر آل شبير الخاقاني رحمه الله تعالى عليه

٤٨ـ كتاب «فاطمة الزهراء عليها السلام من المهد إلى اللحد» للمحقق الحاج السيد كاظم القزويني رحمه الله تعالى عليه

٤٩ـ كتاب «ظلامات فاطمة الزهراء عليها السلام في السنة والآثار» للفاضل المتتبع الشيخ عبد الكريم العقيلي

٥٠ـ كتاب «إحراق بيت فاطمة عليها السلام في الكتب المعتبرة عند أهل السنة» للمحقق الشيخ حسين غيب غلامي

٥١ـ كتاب «علي عليه السلام و مناوئوه» للدكتور نوري جعفر

و غيرهم تركناهم روماً للاختصار

﴿ محتوى الخطبة الفدكيّة و لزوم تعليمها و تعلّمها على أبناء الامّة المسلمة في كلّ ظرف من الظّروف ﴾

و من تدبّر فيما بيّنّاه بدقّة و حسب ما ذكرناه أنّ هذه الخطبة الشّريفة بحسب الأسرار و الدّقائق المعصومة في خطبتها الطّاهرة فاطمة الزّهراء سلام الله عليها بحسب كل رغم قلّة سطورها حروفها، و أنّها تحتوي الأصول الاعتقاديّة العميقة الخمسة التّوحيد، و العدل و النّبوّة و الإمامة و المعاد و حكمها، و معالم فروع الإسلاميّة الدّقيقة و المعارف الشّامخة القرآنيّة، و الأسرار الكونيّة السّماويّة، و الدّستورات الأخلاقيّة الأسريّة و الفرديّة و الاجتماعيّة و السّياسيّة الإلهيّة في نظامي التّكوين و التّدوين

و لعمري إنّ فيها دروساً قيّمة للنّاس كافّة و للمسلمين جميعاً، و للعلماء و المصلحين، و القادة و الحقوقيين خاصّة و المحقّقين و المخبرين و الفقهاء و المفكّرين بالأخصّ في كلّ ظرف من الظّروف، و يجب على الفقهاء و المراجع الدّينيّة، و العلماء الأعلام، و الفضلاء الكرام، و المدرّسين أن يدرّسوها و يعلّموها، و يجب على الطّلاب و المحصّلين أن يتعلّموها، و على الخطباء أن يذكّروها للنّاس على منابرهم و في نصائحهم و مواعظهم، و على آحاد المؤمنين و الأسر و البيوت و الجماعات المسلمة أن يمارسوها درساً و تدريساً و مدارسة حفظاً و علماً و عملاً

ولعمري إنّ فيها لكرامات عظيمة ومنافع كثيرة وفوائد دينية وأخروية، وبركات كثيرة لا تحصى في هذه المختصر.

ونشير إلى كلمات بعض الأعاظم في شأنها:

في كشف الغمّة قال المحقق الإربلي: «وكانت خطبتها أبلغ البلغاء، وفخر الفصحاء، سمعت منها من التصرّف فيها وكيف هذه عليها السلام عنها. وقال: فإنّها من محاسن الخطب وبدائعها، عليها مسحة من نور النبوّة، وفيها عبقة من أرج الرسالة».

وفي البحار: قال العلامة المجلسي رضوان الله تعالى عليه: «ولنوضح تلك الخطبة الغرّاء الساطعة عن سيّدة النساء صلوات الله عليها التي تحيّر من العجب منها والإعجاب بها أحلام الفصحاء والبلغاء».

وفي الدرّة البيضاء في شرح خطبة فاطمة الزهراء عليها السلام: قال المحقق العلامة محمّد تقي الرضوي القمّي رحمه الله تعالى عليه المتوفّى (١٣٤٤ هـ): «إنّي كنت في سالف الزمن مولعاً بالنظر في الخطبة المشهورة الغرّاء خطبة سيّدة النساء وحبيبة سيّد الأنبياء وحبيبة سيّد الأوصياء، اللامعة الساطعة في يوم الغرّاء، فاطمة الزهراء عليها من الله آلاف التحيّة والثناء، التي عجزت عن إتيان مثلها أو ما يدانيها ألسن الأدباء والبلغاء، وعن إدراك نكاتها والوصول إلى دقائقها عقول الحكماء وألباب الأذكياء، كيف لا؟ وقد فرغت من لسان العصمة الإلهية، وتلألأت عن مشكاة النبوّة المصطفوية، واستطرقت من مجرى الأسرار المرتضوية، واستنارت من زهرة الزهراء الزكية، وانبعثت من منبع ينابيع الحكمة الربّانية».

وفي اللمعة البيضاء في شرح خطبة الزهراء عليها السلام للمحقّق البارع محمّد علي بن أحمد القراجه داغي التبريزي المتوفّى (١٣١٠ هـ) قال في مقدّمة كتابه: «اعلم أنّ هذه الخطبة الغرّاء، والدرّة البيضاء، خطبة في نهاية الفصاحة، وغاية البلاغة، من حيث عذوبة ألفاظها الكاملة، وغرابة مضامينها الشافية، وجزالة معانيها الوافية مع ما عليها من البهاء والجلالة والرونق والملاحة، بحيث لو خوطب بها الجبال الشامخة رأيتها خاشعة متصدّعة، ولكن لم تؤثّر في تلك القلوب القاسية التي كانت كالحجارة أو أشدّ قسوة

و هي كلام دون كلام الخالق و فوق كلام المخلوق و هي موضع مثل ما في شعره ...
و استمدّ الفزع و الفخر و ينتهي إلى سائر الكتاب الفصحاء سيما بكونها صادرة من
المشكاة في عصره لعظمة ذرّيته و سببها صادرة من نور النبوّة و نبعة من رفيع
الرسالة، و حقّ لها أن تكون نهجاً لما بها من الفصاحة و البلاغة و الآثار البليغة
مؤثّرة، فإنّها صادرة من فلذة الرسول صلّى الله عليه و آله سلالة النبوّة و عصارة النبوّة، الصدّيقة
الكبرى، و ربيبة الحوراء ... ثقلاً ... فاطمة
الزّهراء صلوات الله عليها».

و في المراجعات: قال المحقّق عبد الحسين شرف الدين ... رسول الله
صلّى الله عليه و آله و الزهراء ... خطبتها ... و خطبتها في ... أهل
بيت ... و لا ذهم ... قلوبهم حقّ المعرفة».

و قال بعض المعاصرين إنّ الصدّيقة الطاهرة ... خطبت خطبة ... عظيمة
مشتملة على الاحتجاج في الكلام، و الخوض في ... و ... عن العاطفة و ...
و ... و التوسيع في ... كلّ ... لا يلائم عظمتها و شخصيّتها الفذّة، و مكانتها
السامية، و ... هذه الخطبة معجزة خالدة ... للصدّيقة الزهراء سلام الله عليها و ...
... تدلّ على ... عظيم من ... و ... لا ... سمع
بها الصدّيقة الطاهرة صلوات الله عليها

و أمّا الفصاحة و البلاغة و حلاوة ... و ... و قوّة الحجّة و متانة
الدليل، و ... الكلام و ... و ... و ... و التركيز على
الهدف و تنوّع البحث... ما لا يخفى على أهل البلاغة و ... و أصحاب الدراسة و
العرفان، و ذوي الحكمة و الكلام.

﴿هل بايعت فاطمة الزهراء عليها السلام أبا بكر﴾
أم ماتت بغير إمام أو ماتت ساخطة على أبي بكر و عمر؟

و لا شك أن الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها ماتت شهيدة بعد فلان من وفاة أبيها ﷺ و قد وردت عليها من [illegible] و لا سيّما ضربها و إسقاط جنينها و إحراق دارها من جانب أبي بكر بن أبي قحافة و عمر بن الخطاب و عمالهما الأشقياء على أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين و الزعماء بينهم أسر ... و المنافقين المنقلبين على أعقابهم

و هنا سؤال هل بايعت الصدّيقة الطاهرة الشهيدة صلوات الله عليها أبا بكر في بيت الإمام؟ أم ماتت بغير إمام؟ أو ماتت ساخطة على أبي بكر و صاحبه عمر بن الخطاب؟

و قد تواترت الروايات عن الفريقين «من مات و ليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية» و في بعضها «من مات بغير إمام مات ميتة جاهلية» كما في الصحيح البخاري، كتاب الفتن، باب سترون بعدي أموراً تنكرونها ج ١ ص ١١١، صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين ج ٤ ص ١٥١٧، و مسند أحمد ج ٣ ص ٤٤٦، و غيرها من صحاح العامة و مسانيدهم و مآخذهم المعتبرة عندهم لا يسعنا المقام بذكرها و نحن على جناح الاختصار

و لا ريب أن الإمام هنا، الإمام المفترض الطاعة حسب ما ثبت في شريعة خاتم

الأنبياء وسيّدة المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين وقد تواترت النصوص بذلك فرواه و
لاخلاف في ذلك بأنّ فاطمة الزهراء ابنة المرسلة سلام الله عليها ماتت غاضبة على أبي بكر
طرفة عين أبداً، وماتت وهي واجدة عليهما وهي غاضبة ساخطة عليه وعلى خليفته عمر بن
الخطاب وأخرتهما، فإن صحّت خلافة أبي بكر فإنّها ماتت ميتة جاهلية، فكيف إذ هي
«سيّدة نساء العالمين» و«سيّدة نساء أهل الجنّة»؟

وأين ستكون على نساء المؤمنات في الجنّة وموته جاهلية، وعلى ضوء هذا
البرهان لا يمكن تصحيح خلافته من دون رضاها ثمّ لا يمكن القول بأنّها صلوات الله عليها
ماتت من دون بيعة إمام ناطق بالحق فلا بدّ لها من إمام، وأنّها هي المعيار في تصحيح
الأمور الاعتقادية بين الأمة ... بالنصوص المتظافرة عنها السلام وإنّها هي ملاك الأمور [illegible]
لأنّها «سيّدة نساء العالمين»

وقد صرّحت روايات الصحيحة بواسطة طرق عديدة أنّ فاطمة الزهراء عليها
السلام استمرّت على الغضب والسخط على أبي بكر وعمر حتّى ماتت

منها ما رواه مسلم في صحيحه ج ١٢ ص ٦٠ باب الجهاد، حكم الفيء وأبو داود في
صحيحه ج ٣ ص ١٤٢ حديث ٢٩٦١ «... أنّ فاطمة بنت رسول الله ﴿ﷺ﴾ سألت
أبابكر بعد وفاة رسول الله ﴿ﷺ﴾ أن يقسم لها ميراثها ممّا ترك رسول الله ﴿ﷺ﴾ ممّا
أفاء الله عليه، فقال: أبوبكر إنّ رسول الله قال: لانورث ما تركناه صدقة، فغضبت فاطمة
فهجرته، فلم تزل بذلك حتّى توفّيت»

رواه غيرهم تركناهم روماً للاختصار

وفي كتاب السقيفة وفدك لأبي بكر احمد بن عبدالعزيز الجوهري البصري
المتوفى (٣٢٣هـ) ـ وهو من أقدم أعلام العامّة ـ بإسناده عن داود بن المبارك، قال: أتينا
عبد الله بن موسى بن عبد الله بن حسن بن الحسن ونحن راجعون من الحجّ في جماعة،
فسألناه عن مسائل، وكنت أحد من سأله، فسألته عن أبي بكر وعمر فقال: سئل جدّي
عبدالله بن الحسن بن الحسن عن هذه المسألة فقال: كانت أمّي صدّيقة بنت نبيّ مرسل،
فماتت وهي غضبى على إنسان أي أبي بكر، فنحن غضاب لغضبها، وإذا رضيت رضينا»

رواه ابن أبي الحديد في شرح النهج ج ١ ص ٢٣٢ ط. [illegible] سنة ١٩٦٢ م.

وفي الطرائف للسيد ابن طاوس رحمه الله تعالى [illegible] ٣٩ [illegible] إلى الزهراء ﷺ [illegible] عائشة [illegible] الزهراء ﷺ [illegible] أبي بكر [illegible] والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر [illegible] وهي عليها ساخطة [illegible]

وفي الأنوار النعمانية [illegible] ص ٩٣ قال المحقق [illegible] الموسوي الجزائري [illegible] في هذه الأحاديث أن فاطمة عليها السلام هجرت أبابكر [illegible] من الدنيا غاضبة عليهما مع أن مسلماً روى في صحيحه في الجزء الرابع من [illegible] ورواه أيضاً مسلم في صحيحه في الجزء الرابع من [illegible] ورواه الحميدي في الجمع بين الصحيحين [illegible] في الجزء الثالث [illegible] عن رسول الله ﷺ قال: فاطمة بضعة مني من أغضبها فقد أغضبني [illegible] قال فاطمة سيدة نساء أهل الجنة.

ثم قال السيد [illegible] سمعت من شيخنا [illegible] قدس الله روحه [illegible] علماء [illegible] والشيخ البهائي رحمه الله تعالى [illegible] قدس الله [illegible] في الشيخين؟ فقال له البهائي [illegible] فقال [illegible] يقولون

إن مسلماً روى في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: من آذى فاطمة فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله فقد كفر، وروى أيضاً مسلم بعد هذا الحديث [illegible] أن فاطمة عليها السلام خرجت من الدنيا وهي غاضبة على أبي بكر وعمر، فما أدري ما التوفيق بين هذين الحديثين؟ [illegible]

لصحّ جزاء ذلك تعالمه. وقال الشوشتري رحمه الله تعالى عليه: ثمّ قال بعد أن أثر القصّة بكذب في نقل الأحاديث: ثمّ رجعه طاعن بالكتاب، فوجدت بين الخبرين أكثر من خمسة أوراق، هذا عبارة عن معارضة الحديثين»

وقد تضافرت النّصوص الصّحيحة على تواتر أنّ الصّدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها كانت ساخطة عليهم، حاكمة بكفرهم وضلالهم وظلمهم وفسادهم وبغيهم وعنادهم، غير مذعنة بإمامتهم ولا مطيعة لهم، وأنّها قد استمرّت على تلك الحالة حتّى سبقت إلى كرامة الله تعالى ورضوانه.

فمن قال بإمامة أبي بكر وصواب خلافته لا محيص له عن القول بأنّ سيّدة نساء العالمين، ومن طهّرها الله تعالى في كتابه من كلّ رجس، وقال رسول الله ﷺ في فضلها ما قال، قد ماتت ميتة جاهليّة وميتة كفر وضلال ونفاق وشقاق، ولا شكّ كافراً ملحداً أو فاسقاً زنديقاً يرضى بهذا القول الشنيع مع أنّه قد ثبت بالآيات القرآنيّة والرّوايات المتواترة، وبالإجماع والضّرورة، كونها سلام الله عليها معصومة عن كلّ خطأ ومعصية، ومطهّرة عن كلّ رجس وقذارة ألبتّة.

وما جرى في قصّة فدك وصدر عنها من الإنكار على أبي بكر ومجاهرتها بالحكم بكفره وضلالته وظلمه وغصبه، وبغيه وعدوانه، وكفر من حذو حذوه من أصحاب السّقيفة المشؤومة وأذنابهم وأشياعهم، وبدعتهم تصريحاً وتلويحاً، وسخطها وغضبها على أبي بكر وخليفته عمر بن الخطّاب، وهجرتها وترك كلامها عنهما حتّى ماتت. لو كانت تلك معصية على خلاف الشّريعة والفطرة لكانت من الفضائح الظّاهرة الّتي قد أعلنت بها على رؤوس الأشهاد، وأيّ ذنب أظهر وأفحش من مثل هذا الرّدّ والإنكار على الخليفة المفترض الطّاعة على العالمين بزعمهم؟!

فلا محيص لهم عن القول ببطلان خلافة خليفتهم المنصوب بحسب بعض سفلة الأمّة وأراذلهم وأوباشهم تبعاً لأغراضهم الفاسدة، وأهوائهم الكاسدة، تحرّزاً عن إسناد هذه المعصية الكبرى إلى سيّدة النّساء. فظهر ممّا ذكر بطلان دعوى أبي بكر في فدك والخلافة، وأنّه لم يكن له حقّ فيهما ولو قدر قلامة، ولا يليق للخلافة، ونال بها ظلماً كما اعترف هو

نفسه ويقول: «إنّ ليتني كنت تبنة في لبنة» ويقول: «فلوددت، فلوددت أني»
كما في الشمائل، نقلاً عن ص ٤٤ و ٨ للجوهري المصري، وفي الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج
ص ٢٠ ويقول لما نظر إلى طائر على شجرة: «طوبى لك يا طائر تأكل الثمر، وتقع على
الشجر وما من حساب ولا عقاب عليك، ولوددت أني شجرة على جانب الطريق مرّ
عليّ جمل فأخذني وأخرجني في بعره ولم أكن من البشر» ويقول: «ليت أمي لم تلدني،
ليتني كنت تبنة في لبنة» رواه ونقله جماعة من علماء العامة وحفظة أسفارهم في
مآخذهم المعتبرة.

منهم ابن تيمية في منهاج السنة ج ٣، ص ٢٠

ومنهم الطبري في الرياض النضرة ج ص ٣٤، وغيرهم تركناهم رعايةً
للاختصار.

وفي كتاب ثم اهتديت ص ٤ (١) للدكتور محمد التيجاني السماوي ـ وهو من أعلام
المفكّرين العامّة في عصرنا هذا وقد استبصر ـ وهو يقول: «فها هو البخاري يخرج في باب
مناقب قرابة رسول الله ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: فاطمة بضعة مني فمن أغضبها
أغضبني» كما أخرج في باب غزوة خيبر، عن عائشة أنّ فاطمة عليها السلام بنت النبيّ
أرسلت إلى أبي بكر تسأله ميراثها من رسول الله فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة منه
شيئاً، فوجدت فاطمة على أبي بكر في ذلك فهجرته فلم تكلّمه حتى توفيت» صحيح
البخاري ج ٣ ص ٣٩ رواه جماعة من علماء العامة وحفظة أسفارهم تركناهم رعاية
للاختصار.

«فوجدت» غضبت

ثمّ قال التيجاني: «والنتيجة في النهاية هي واحدة ذكرها البخاري باختصار، وذكرها
ابن قتيبة بشيء من التفصيل، ألا وهي أنّ رسول الله ﷺ يغضب لغضب فاطمة ويرضى
لرضاها، وأنّ فاطمة ماتت وهي غاضبة على أبي بكر وعمر.

وقال: وإذا كان البخاري قد قال: ماتت وهي واجدة (أي غاضبة) على أبي بكر فلم
تكلّمه حتى توفيت، فالمعنى واحد كما لا يخفى، وإذا كانت فاطمة سيّدة نساء العالمين كما

صرّح بذلك البخاري في كتاب الاستئذان، باب من ناجى بين يدي الناس. و إذا كانت فاطمة هي المرادة بوحدها في هذه الآية التي أذهب الله عنها الرجس و طهّرها تطهيراً، فلا يكون غضبها بغير الحقّ، و بذلك غضبت لله و رسوله بغضبها و قد حاول أبوبكر أن ينال رضا الله تعالى من سخطه و سخطت بنت فاطمة ثمّ استحبّ أبوبكر أن كان حتّى كذّب نفسه أن يرضيها و هي تقول: والله لأدعونّ الله عليك في كلّ صلاة أصلّيها، فخرج أبوبكر يبكي و يقول: لا حاجة لي في بيعتكم، أقيلوني بيعتي».

ثمّ قال: غير أنّ كثيراً من المؤرّخين و من علماء السنّة يعترفون بأنّ فاطمة عليها السلام خاصمت أبابكر في قضيّة النحلة و الإرث و سهم ذي القربى، فردّت دعواها حتّى ماتت و هي غاضبة عليه، إلّا أنّهم يمرّون بهذه الأحداث مرور الكرام، و لا يريدون التكلّم فيها حفاظاً على كرامة أبي بكر كما هي عادتهم في كلّ ما يمسّه من قريب أو بعيد، و من عجيب ما قرأته في هذا الموضوع قول بعضهم بعد ما ذكر خلافة بين الخليفتين قال: «حاشى لفاطمة من أن تدّعي ما ليس لها بحقّ» و «حاشى لأبي بكر من أن يمنعها حقّها».

و بهذه السفسطة ظنّ هذا العالم أنّه حلّ المشكلة، و أقنع الباحثين. و كلامه هذا كقول القائل «حاشى للقرآن الكريم أن يقول غير الحقّ» و «حاشى لبني إسرائيل أن يعبدوا العجل» لقد ابتلينا بعلماء يقولون ما لا يعقلون، و يؤمنون بالشيء و نقيضه في نفس الوقت، و الحال يقتضي أنّ فاطمة إدّعت، و أبابكر رفض دعواها، فإمّا أن تكون كاذبة و العياذ بالله «حاشاها»، و إمّا أن يكون أبوبكر ظالماً لها و ليس هناك حلّاً ثالثاً للقضيّة كما يريدها علماؤنا

و قال: و إذا امتنع بالأدلّة العقليّة و النقليّة أن تكون سيّدة النساء كاذبة لما ثبت عن أبيها رسول الله (ص) قوله: «فاطمة بضعة منّي من آذاها فقد آذاني» و من البديهي أنّ الّذي يكذب لا يستحقّ مثل هذا النصّ من قبل الرسول (ص) فالحديث بذاته دالّ على عصمتها من الكذب و غيره من الفواحش، كما أنّ آية التطهير دالّة هي الأخرى على عصمتها، و قد نزلت فيها و في بعلها و ابنيها بشهادة عائشة نفسها كما في صحيح مسلم ج ٧ ص ١٢ و ٣٠، فلم يبق إذن إلّا أن يعترف العقلاء بأنّها ظُلمت فليس تكذيبها في

دعواها إلّا أمراً ميسوراً لمن يتتبع حرفها، ثم خرج المحققون في بيتها لتعصبهم

ولكنّ هذا تراه صلوات الله عليها لم تأذن لهما في الدخول عليها عند ما استأذنها أبو بكر وعمر، ولمّا أدخلهما عليّ ﷺ أدارت بوجهها إلى الحائط، وما رضيت أن تنظر إليهما كما (في تاريخ الخميس ج ١ ص ٢٠)، وقد توفيت ودفنت في الليل سرّاً بوصية منها حتى لا يحضر جنازتها أحد منهم كما (في صحيح البخاري ج ٣ ص ٣٩) وبقي قبر بنت الرسول ﷺ مجهولاً حتى يوم الناس هذا. وإني أتساءل لماذا سكت علماؤنا عن هذه الحقائق، ولا يريدون البحث فيها، ولا حتى ذكرها، ويصوّرون لنا صحابة رسول الله ﷺ وكأنّهم ملائكة لا يخطئون ولا يذنبون؟» انتهى كلامه

﴿غصب فدك و غضب فاطمة الزهراء عليها السلام على غاصبها﴾

و لا أعلم خلافاً فيما بين المؤالف و المخالف أنّ فدك كانت خالصة لرسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ ثمّ وهبته لابنته الطاهرة فاطمة الزهراء سلام الله عليها بأمر من الله تعالى في حياته ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و فدك كانت بيدها تتصرّف فيها في عهد أبيها و بعد وفاته، فغصبها أبو بكر بن أبي قحافة بمشورة عمر بن الخطّاب لما سبق منّا من سبب غصبها، فغضبت عليهما فاطمة الزهراء سلام الله عليها، و ماتت شهيدة، ساخطة عليهما

في نهج البلاغة: - من كتاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إلى عثمان بن حنيف الأنصاري و كان عامله على البصرة - «... بلى كانت في أيدينا فدك من كلّ ما أظلّته السماء، فشحّت عليها نفوس قوم، و سخت عنها نفوس آخرين، و نعم الحكم الله ...»

قال ابن أبي الحديد المعتزلي - و لعمري هو من أشدّ أعداء أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين و شيعتهم و لكنّه ذئب تلبّس جلد الكبش - في شرح الكتاب: «و بلى كانت في أيدينا فدك، فشحّت عليها نفوس قوم أي بخلت، و سخت عنها نفوس آخرين أي سامحت و أغضت و ليس يعني ههنا بالسخاء إلّا هذا، لا السخاء الحقيقي لأنّه عليه السلام و أهله لم يسمحوا بفدك إلّا غصباً و قسراً و قد قال هذه الألفاظ في موضع آخر فيما تقدّم، و هو يعني الخلافة بعد وفاة رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ ثمّ قال «و نعم

الحكم لله، الحكم لك، وهذا الكلام كلام منتظم»

وفي تفسير فرات الكوفي في قوله تعالى «وآت ذا القربى حقّه» ولمّا جعل رسول الله ﷺ سهم ذي القربى لقرابته وأعطى فدك لفاطمة وأبنائها فكانوا على ذلك على عهد النبيّ ﷺ حتّى توفّي ثمّ أخرجوها عن قرابته.

وقد صرّح أعلام العامّة والخاصّة وأئمّة الآثار والأخبار الواردة من الفريقين، بالنصوص والآثار المتظافرة من طرقهم حيث لا يخفى منها على أحد من أهل الدراية والرواية، ولكن ضلّت وكذّبت أنّ فدك كانت لرسول الله ﷺ خاصّة دون سائر المسلمين عامّة، ثمّ إنّ أبا بكر غصبه وحقّه منعه الطاهرة سلام الله عليها بعد رسول الله ﷺ وأنّها في حياته أمرت بها من الله تعالى وذلك في هذه الحضرة فيه منها وكتبها لها ثمّ غصبها الأجلاف وفعصبت عنه لأمر و بكون أبو هذا عليها السلام بعد رسول الله ﷺ والثابت عندنا في ذلك كانت بحقّها لها وقد كانت سلام الله عليها محقّة في دعوى فدك إمّا نحلة أو عطيّة أو حقّاً أو إرثاً، وأنّ أبا بكر غصبها وساعده عمر بن الخطّاب في غصب الخلافة منهم لا شيء لأغراض دنيويّة دعتهم إلى ذلك، فأغشت أبصارهما وأعمت أنظارهما، وإنّما جعلا غصبها مقدّمة لاستحكام غصب الخلافة فكانت هي مظلومة في ذلك مغصوبة في حقّها كبعلها في حقّه.

وفي شرح الأخبار للقاضي أبي حنيفة النعمان بن محمّد التميمي المغربي المتوفّى ٣٦٣هـ، بلفظه «فاطمة صلوات الله عليها وهي غصبت على حقّها لم يعطه وجحدا معروفها واحتجّوا من حقّها، واستقرّ بهم منه عند أخذ نحلتها ومن أجل ذلك منعهم الصلاة عليها ووصّت أن تدفن ليلاً حتّى لا يحضروا ذلك ولم يشهدها غير علي ﷺ وخاصّته وذلك لما كان من مرضها» انتهى كلامه

وفيه أيضاً وعن محمّد بن سلام بن سيار الكوفي يرفعه إلى علي عليه السلام أنّه لمّا أمر أبو بكر بأخذ فدك من يديها، وقد كان رسول الله ﷺ أقطعها إيّاها لمّا أمر الله

عزّ وجلّ «وآت ذا القربى حقّه» فكانت ممّا أفاء الله عزّ وجلّ عليه، فقال أبو بكر: هي لرسول الله ﴿ﷺ﴾ فشهد عليّ ﴿ع﴾ وأمّ أيمن ـ وهي ممّن شهد له رسول الله ﴿ﷺ﴾ بالجنّة ـ أنّ رسول الله ﴿ﷺ﴾ أعطاها ذلك فاطمة عليها السلام، فردّ أبو بكر شهادتهما، وقال: عليّ جارّ إلى نفسه، وشهادة أمّ أيمن وحدها لا تجوز.

فقالت فاطمة عليها السلام: إن لم يكن ذلك، فميراثي من رسول الله ﴿ﷺ﴾ فقال: إنّ الأنبياء لا يورّثون.

ثمّ قال أبو حنيفة: وهذا خلاف كتاب الله عزّ وجلّ لأنّه يقول جلّ من قائل «وورث سليمان داود» وقال حكاية عن زكريّا ﴿ع﴾ «فهب لي من لدنك وليّاً يرثني ويرث من آل يعقوب» وذكر فرض المواريث فذكر أنّه لم يستثن فيها أحداً، فخرجت صلوات الله عليها في ذلك إلى مجلس أبي بكر واحتجّت بما عليه، فلم ينصرف إلى قولها، واستنصرت الأمّة فلم تجد لها ناصراً، فسلّمت ولم تؤثر خصاماً، وأخلّ بها في الاستئثار على حقّها وسببها، لزمت فراشها أسفاً وكمداً حتّى لحقت برسول الله ﴿ﷺ﴾ بعد سبعين يوماً من وفاته غمّاً وحزناً عليه، وهي ساخطة على الأمّة لم تنصفها بما لها والتزمته من حقّ نحلها وسببها» انتهى كلامه.

نعم وقد أجمل أبو حنيفة الكلام هنا ولكن ليس ملازمتها الفراش ما ذكره فحسب، بل ولها علل أخرى أفادها الشاعر في بيانها حيث قال:

وللسياط رنّة صداها ... في مسمع الدهر فما أشجاها

والأثر الباقي كمثل الدملج ... في عضد الزهراء أقوى الحجج

ومن سواد متنها اسودّ الفضا ... يا ساعد الله الإمام المرتضى

ولست أدري خبر المسمار ... سل صدرها خزانة الأسرار

وفي جنين المجد ما يدمي الحشى ... وهل لهم إخفاء أمر قد فشا

والباب والجدار والدماء ... شهود صدق ما به خفاء

لقد جنى الجاني على جنبها | فاندكّ خلقاً من جنبها
ورضّ تلك الأضلع الزكيّة | رزيّة ما مثلها رزيّة
وجاور الخدّ بلطم الخدّ | شلّت يد الطغيان والتعدّي
فاحمرّت العين وعين المعرفة | تذرف بالدمع على تلك الصفة
ولا تزال الشمس تطلع من سحير | إلا بصفعة غير مقتدر
أهكذا يصنع بابنة النبي | حرصاً على الملك فيا للعجب

وللحجة الفاضل السيد ... التي حدث بها فرحة آية الله العظمى الحاج السيد صدر الدين الصدر رحمه الله تعالى عليه المتوفى سنة ١٣٧٣ هـ في رثاء الصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها أفضل صلوات الله وأكمل تحياته

يا حسين الحبيب جرد المهند | وبكت دار علمها الدهر جارا
ورسوم الغرب من هنها | وغدت بعدهم قفراً مزارا
حكم الدهر على تلك الربى | فانجلت والدهر لا يرعى ذمار
كيف يرجو سلماً من دهر عتى | أهل بيت الوحي قد سنّ المغار
لم يخلف أحمد إلّا ابنة | وبكم أوصى إلى القوم مرار
كابدت بعد أبيها محنة | عقبت لو مسّت الطور لمار
هل تراهم أدركوا من أحمد | بعده في آله الأطهار ثار
غصبوها حقّها جهراً ومن | عجب أن تغصب الزهراء جهار
من لها إذ بكت ودمعها | قائلاً فلتبك ليلاً أو نهارا
ويلهم ما ضرّهم لو تركوا | بضعة المختار تبكي فصار؟
من شقى في ظلمها؟ من زعمها؟ | من على فاطمة الزهراء جار؟
من عدا ظلماً على الدار التي؟ | خدمتها الإنس والجنّ مرارا
طال ما الأملاك فيها أصبحت | تلثم الأعتاب منها والجدارا

و مس الـ ر ها سحو ورى   مس عن أعسامه اصره ـر ؟

و النبيّ المصطفى كم حـ نه ؟   بعصب لإد من الزهـر ، صر را

و عسيه هـحم القـوم و م   تك لاس لا و ســدها لحـيارا

لست أنسـ ها و ب هـو ف   د وراء ســب كي تـوارا

فـتك الرحمن عن ب ت ولا   سمس عنها حرى ة و حارا

لا سلي كـف رضو صـعه   و ــس ثـب عنه و لحد را

و ستس أعـدامه عن محس   كـيف فيه دمـه راح حـدرا

و سـس نولو فـرضه لـ   سدت وعس له سكب خمر را

و هـل لسم مو سوط؟   فعدى في صدرها يدرك ثارا

﴿عصمة فاطمة الزّهراء سلام الله عليها و ردّ دعواها ضدّان لايجتمعان﴾

قال الله تعالى: «إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرّجس أهل البيت و يطهّركم تطهيراً» (الأحزاب: ٣٣)

و قد نصّ الكتاب الكريم و السّنّة النبويّة، و شهدت ضرورة العقل، و أجمعت الأُمّة على عصمة الصدّيقة الطّاهرة فاطمة الزّهراء سيّدة نساء العالمين صلوات الله و سلامه عليها عن الخطأ و الزّلل عمداً و سهواً، فإذاً وجب قبول قولها، فردّ دعواها في فدك و الإرث و الخمس ضدّان لايجتمعان، و الاعتذار بما صنعوا ردّ على الله تعالى و رسوله صلى الله عليه و آله

في الفصول المختارة من العيون و المحاسن قال الشّيخ المفيد رضوان الله تعالى عليه ـ في إثبات الحكم بقول فاطمة عليها السّلام ـ قد ثبت عصمة فاطمة عليها السلام بإجماع الأُمّة على ذلك فتيا مطلقة، و إجماعهم على أنّه لو شهد عليها شهود بما يوجب إقامة الحدّ من المنافي للعصمة لكان الشّهود مبطلين في شهادتهم، و وجب على الأُمّة تكذيبهم، و على السّلطان عقوبتهم، فإنّ الله تعالى قد دلّ على ذلك بقوله: «إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرّجس أهل البيت و يطهّركم تطهيراً» و لا خلاف بين نقلة الآثار أنّ فاطمة عليها السلام كانت من أهل هذه الآية، و قد بيّنّا فيما سلف أنّ ذهاب الرّجس عن

أهل البيت الذين عنوا بالخطاب يوجب عصمتهم، و لإجماع الأمّة أيضاً على قول النبي ﴿ﷺ﴾: «من آذى فاطمة فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله عزّوجلّ»

فلولا أنّ فاطمة عليها السلام كانت معصومة من الخطأ، مبرّأة من الزلل لجاز منها وقوع ما يجب أذاها به بالأدب و العقوبة، ولو وجب ذلك لوجب أذاها، و لو جاز وجوب أذاها لجاز أذى رسول الله ﴿ﷺ﴾ و الأذى لله عزّوجلّ فلمّا بطل ذلك دلّ على أنّها عليها السلام كانت معصومة حسب ما ذكرناه، و إذا ثبتت عصمة فاطمة عليها السلام وجب القطع بقولها، و استغنت عن الشهود في دعواها لأنّ المدّعي إنّما افتقر للشهود لارتفاع العصمة عنه، و جواز ادّعائه الباطل فيستظهر بالشهود على قوله لئلاّ يطمع كثير من الناس في أموال غيرهم و جحد الحقوق الواجبة عليهم و إذا كانت العصمة مغنية عن الشهادة وجب القطع على قول فاطمة عليها السلام و على ظلم مانعها فدكً و مطالبتها بالبيّنة عليها

و يكشف عن صحة ما ذكرناه أنّ الشاهدين إنّما يقبل قولهما على الظاهر مع جواز أن يكونا كاذبين فيما شهدا به، و ليس يصحّ الاستظهار على قول من قد أمن منه الكذب بقول من لا يؤمن عليه ذلك كما لا يصحّ الاستظهار على قول المؤمن بقول الكافر، و على قول العدل البرّ بقول الفاسق الفاجر

و يدلّ أيضاً على ذلك أنّ النبي ﴿ﷺ﴾ استشهد على قوله، فشهد خزيمة بن ثابت في ناقة نازعه فيها منازع، فقال له النبي ﴿ﷺ﴾ من أين علمت يا خزيمة أنّ هذه الناقة لي؟ أشهدتَ شراي لها؟ فقال: لا و لكنّي علمت أنّها لك من حيث علمتُ أنّك رسول الله، فأجاز النبي ﴿ﷺ﴾ شهادته كشهادة رجلين، و حكم بقوله. فلولا أنّ العصمة دليل الصدق، و تغني عن الاستشهاد لما حكم النبي ﴿ﷺ﴾ بقول خزيمة بن ثابت وحده وصوّبه في الشهادة له على ما لم يره و لم يحضره باستدلاله عليه بدليل نبوّته و صدقه على الله سبحانه فيما أدّاه إلى بريّته

و إذا وجب قبول قول فاطمة عليها السلام بدلائل صدقها، و استغنت عن الشهود لها، ثبت أنّ من منع حقّها و أوجب الشهود على صحة قولها قد جار في حكمه و ظلم في فعله، و آذى الله تعالى و رسوله ﴿ﷺ﴾ بأذاه لفاطمة عليها السلام و قد قال الله جلّ و علا «إنّ

الّذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدّنيا والآخرة وأعدّ لهم عذاباً مهيناً» الأحزاب ٥٧.

وفي رسالة حول حديث «نحن معاشر الأنبياء لا نورّث» للشيخ المفيد رحمه الله تعالى عليه قال: «لمّا لحق الرسول الأعظم ﷺ بالرفيق الأعلى خلّف من الورثة بنته الوحيدة فاطمة الزهراء سلام الله عليها وزوجات عدّة.

وكانت فدك ممّا أفاء الله على رسوله ﷺ من قرى خيبر، فنحلها الرسول ﷺ ابنته الزهراء، وكانت يدها على فدك طوال حياة الرسول أبيها، ولمّا استولى أبوبكر على أريكة الخلافة انتزع فدكاً من فاطمة عليها السلام واستولى عليها غصباً، فادّعت فاطمة عليها السلام على أبي بكر، وطلب منها الشهود، فشهد زوجها أمير المؤمنين عليّ ﷺ وابناها الحسن والحسين سبطا رسول الله وسيّدا شباب أهل الجنّة، وأمّ أيمن حاضنة رسول الله ﷺ على أنّ أباها نحلها فدكاً.

فردّ أبوبكر دعواها وردّ شهادة شهودها، فادّعت الزهراء عليها السلام على أبي بكر دعوى ثانية، وطالبت بإرثها من أبيها رسول الله ﷺ من سائر الأملاك التي كانت لرسول الله بنصّ القرآن، لأنّها ممّا أفاء الله على رسوله، فردّ أبوبكر دعواها هذه أيضاً بحديث رواه هو وحده: أنّ النبيّ ﷺ قال: «نحن معاشر الأنبياء لا نورّث ما تركناه صدقة»، فادّعى أنّ النبيّ لا يورث مالاً ولا تركة، وأنّ كلّ مخلّفاته صدقة.

ومع أنّ هذا الخبر وحده لم تعرفه ولم تسمعه ولم تروه بوصفه حديثاً غير أبي بكر، ومع أنّ الأولى بسماعه وروايته لو كان النبيّ ﷺ قاله هم أهل بيته وبنته الزهراء، فالأحقّ لأنّهم هم محلّ الابتلاء بمؤدّاه، وهم المحتاجون إلى معرفة حكمه، فكان على النبيّ أن يسمعهم به، لا أن يقوله لأبي بكر الّذي لا يرث من النبيّ شيئاً، مع هذا فقد فرض أبوبكر رأيه على الزهراء عليها السلام وأخذ منها فدكاً، وقد احتجّت الزهراء على أبي بكر في هذا الرأي المنافي لصريح القرآن حيث نصّ على توريث الأنبياء أولادهم كما دلّ على اختلاق هذا الخبر الّذي نسب عدم الإرث إلى الأنبياء.

ولقد مضى الشرع على تلقيه وجوزه لأن سكوت الأئمة حول هذا الخبر لو وجد لم تمض بعد

فالقراءة المعروفة حتى عند المبتدعين أن كلمة «صدقة» هل تقرأ بالنصب على أنها لو صح لكلمة «ما» الذي هو مفعول قوله «لا نورث» فالمعنى أنا لا نورث المتروكات التي كانت صدقة فغير الصدقات مما تركه النبي ﷺ من ممتلكاته يمكن أن تورث، وهي تقرأ بالرفع على أنها خبر لكلمة «ما» فتكون جملة «ما تركناه صدقة» مستأنفة

والرفع يناسب مذهب أبي بكر وعمر، والنصب يوافق رأي الشيعة الذين يزعمون أن الأنبياء حالهم كسائر الناس في توريث ما يخلفون، لأن ذلك عندهم من المعتقدات بأنها لا صحة لها من المستحقين، وقد ذكر بعض العلماء الخلاف في إعراب «صدقة» فانظر الإبلاغ مفصلًا في عرض ص ٥

وخصص الشيخ المفيد رسالته يذكر فيها تشنيع الإمامية في رد هذا الخبر ورد الاستدلال به على نفي الإرث عن الأنبياء.

فذكر وجوهًا ومقاطع من النقض والإبرام.

الأول أن قراءة النصب تدل على عموم النفي، وقراءة الرفع تمنع من العموم، فتخالف النفي الذي جاء على العموم، وما يوافق ظاهر النفي أولى بالحق مما خالفه

الثاني اعترض العلامة على النصب بأنه لا يصح إذ معنى الخبر على ذلك أن ما كان صدقة وتركه ميتًا فهو لا يورث، وهذا ليس حكمًا خاصًا بالنبي ﷺ بل الخلق كلهم محكومون بذلك، فمن ترك صدقة لم يدخل في تركته، وما تركه منه دون وقف فلا فائدة للخبر؟

وأجاب الشيخ المفيد عن هذا الاعتراض بأن تخصيص الأنبياء بالذكر في الخبر ليس من أجل اختصاص الحكم بهم، بل هو حكم عام، وإنما ذكر الأنبياء هنا للتعبير عن أولوية الأنبياء بالعمل به، وأنهم أولى الخلق به وأحق، وإن كان سائر المكلفين كذلك

وهذا نظير قوله تعالى «إنما أنت منذر من يخشاها» مع أن النبي منذر كل الناس من يخشاها ومن لا يخشاها، ولكن لما أن من يخشاها أحق بالإنذار لمكان سعادته منه،

استحقّ ذكره هذه الأولويّة.

ثمّ ذكر بعد ذلك آخر هذه الآية وأمثلة عرفيّة تجري عليها.

الثالث: أنّ للخبر وجهاً آخر في التفسير، وهو أنّ المراد أنّ ما نتركه صدقةً لا يصبح لأولادنا، ولا يكون أولادنا مصداقاً لذلك العنوان، حتّى لو صاروا فقراء وصدق عليهم عنوان المستحقّ للصدقات، فيكون هذا الحكم خاصّاً بالأنبياء، وأولادهم خلافاً لغير الأنبياء، فإنّهم لو تركوا الصدقات فهي ـ وإن كانت لا تدخل في الإرث ـ إلّا أنّ أولادهم لو أصبحوا فقراء، أو صدق عليهم عنوان المستحقّ كانوا من الصدقات بذلك العنوان.

فمعنى «لا نورّث» في الخبر أي لا نصير بين ورثتنا على كلّ حال، وإطلاق كلمة «الإرث» ومشتقّاتها بهذا المعنى أمر متعارف في اللغة، وإن لم يكن من مخلّفات الميّت كما قال الله تعالى: «وأورثكم أرضهم وديارهم» (الأحزاب: ٢٧) أي أوصلها إليكم، فإنّ ذلك لم يكن بالتوارث الشرعي.

الرابع: أنّ للخبر لفظاً آخر لم يرد فيه احتمال النصب وهو «نحن معاشر الأنبياء لا نورّث ما تركناه فهو صدقة» وقد جعل بعض العامّة هذا اللفظ دليلاً على صحّة الرفع في اللفظ السابق وبطلان التأويل المبني على النصب.

وهذا مردود بأنّ الخبر على هذا اللفظ وإن كان لا يحتمل النصب بل الرفع فقط، إلّا أنّ له معنى محتملاً لا يتوقّف على التأويل المتقدّم، وهو أنّ الذي نتركه من أموالنا وحقوقنا على الآخرين، التي أسقطناها عن ذممهم، وتصدّقنا بها عليهم، فلم نطالب بها في حياتنا ولم نستنجزها فلم نأخذها، فهي صدقة على من هي في ذمّته بعد موتنا، ولا تدخل في مخلّفاتنا ولا ممّا نورّثه لوارثينا، فليست من تركتنا، وليس لورثتنا أن يأخذوه.

وهذا المعنى موافق لعموم القرآن وظاهر السنّة خلافاً للمعنى الذي يريده العامّة من أنّ الأنبياء لا يرث منهم مطلقاً فهو مخالف لظاهر الآيات القرآنية الدالّة على توريث الأنبياء، وحمل السنّة على وفاق القرآن أولى.

ولا يخفى أنّ الشيخ رضوان الله تعالى عليه تصدّى لهذا الخبر من جهة تحليله، والردّ

عليه من إيراد المحتملات، و لكنّه لم يتعرّض للنقض عليه بما ورد من الآيات القرآنيّة و السنّة القطعيّة و السيرة المستمرّة الدالّة على بطلان ما يريده بعلمه، و كذلك لم يتعرّض للردّ عليه بأنّ الجهة حيث إنّه لم يثبت من غير طريق أبي بكر الّذي هو طرف في تلك الدّعوى، و إنّه لا يشبه بكلام المعصوم، و سنتعرّض إلى ذلك بصورة عابرة إن شاء الله تعالى.

و قال **بعض المعاصرين**: إنّ الصّدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها إذا كانت أرفع من كلّ تهمة، فما حاجتها إلى البيّنة؟ و هل يمنع التشريعات المعمول بها في الإسلام عن أن يحكم الحاكم استناداً إلى علمه؟ و إذا كان يمنع عن ذلك فهل معنى هذا أن يجوز في عرف الدّين سلب الشّيء من المالك؟ هذه أسئلة و معها أسئلة أخرى نضعها في المسألة تتطلب جواباً علميّاً، و بحثاً على ضوء أساليب الاستدلال في الإسلام.

و من البداهة أنّ ترك موقف أبي بكر و الصّدّيقة الطّاهرة عليها السلام معاً أمر غير ممكن، لأنّ الأمر في صدر عهدها لو كان مقتصراً على مطالبة فاطمة الزّهراء سلام الله عليها و امتناع أبي بكر عن تسليمها له لعدم وجود مستمسك شرعيّ يحكم بواسطته لها بما تدّعيه، و انتهاء المطالبة إلى هذا الحدّ لأمكن أن نقول: إنّ الصّدّيقة الطّاهرة عليها السلام صاحبة حقّها في نفس الأمر و الواقع، و إنّ أبا بكر إنّما منع عن تسليمه لها لعدم تهيّؤ المدرك الشّرعي الّذي تثبت به الدّعوى في ركب مطالبتها لأنّها طرف فيها لا تستحقّ فدكاً بحسب النّظام القضائي و سنن الشّرع، و لكنّا نعلم أنّ الخصومة بينهما حدث شكل لا نعلمه حتّى بلغت مبلغ الاتّهام الصّريح من الصّدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها و أقسمت على المقاطعة.

و إذن فنحن بين نتيجتين: إحداهما أن نعترف بأنّ الصّدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها قد ذهبت بأطماعها إلى ما ليس لها بحقّ في عرف القضاء الإسلامي و النّظام الشّرعي و إن كانت تملكها في واقع الأمر، و أخرى أن نلقي التّهمة على أبي بكر و نقول إنّه قد منعها حقّها الّذي كان يجب عليه أن يعطيها إيّاه، أو نحكم بها بذلك على فرق علميّ بين التّقديرين يتّضح في بعض الفصول الآتية. فتنزيه فاطمة الزّهراء سلام الله عليها عن أن تطلب طلباً لا يرضى به حدود الشّرع، و الامتناع لأبي بكر عن أن يمنعها حقّها الّذي تستحقّه عليها تمت

المحدود لا يخصّص إلّا بدليل موافق للمخصّص

و بالجملة إنّ أحد المخصّصين كان في مسألة عدّة بحثٌ في موقفه بحسب موازين الشّريعة سنذكره و ما يناسبها فقط

و في الطّرائف للسّيّد بن طاووس رضوان الله تعالى عليه قال: قال عبد المحمود و علماء أهل البيت عليهم السّلام لا يحصى عددهم و عدد شيعتهم إلّا الله تعالى، و ما رأيت و لا سمعت عنهم أنّهم مختلفون في أنّ أبا بكر و عمر ظلما أمّهم فاطمة عليها السلام ظلماً عظيماً

﴿ لماذا قبلت شهادة ذي الشهادتين في قضيّة الناقة
و ردّت شهادة الإمام عليّ عليه السلام في قصّة فدك؟ ﴾

قال الله تعالى خطاباً لرسوله ﴿ﷺ﴾ «فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا و أبناءكم و نساءنا و نساءكم و أنفسنا و أنفسكم ثمّ نبتهل فنجعل لعنت الله على الكاذبين» آل عمران: ٦١)

و لقد ثبت بالتواتر و إجماع الأمّة قبول شهادة خزيمة في ناقة رسول الله ﴿ﷺ﴾ و لماذا لم يقبل أبوبكر شهادة مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﴿عليه السلام﴾ و لقد تضافرت النصوص عن طريق العامّة في صحاحهم و مسانيدهم و تفاسيرهم و سيرهم و مآخذهم المعتبرة عندهم أنّ آية المباهلة نزلت في شأن الخمسة الطيّبة صلوات الله عليهم أجمعين بحيث تعدها من الضروريات الأوّلية بكمال الوضوح و غاية الاشتهار لسنا بذكرها في المقام إذ أوردناها في محلّها

و من البداهة أنّ هذه الآية الكريمة من غرر الآيات القرآنية بشأن العترة الكرام من آل الكساء عليهم أفضل صلوات الله و أكمل تحيّاته، حيث تعبر عن عليّ بن أبي طالب ﴿عليه السلام﴾ بـ«أنفسنا» و عن فاطمة الزهراء عليها السلام بـ«نساءنا» و عن الحسنين عليهما السلام بـ«أبناءنا» تدلّ على أخصّ الاختصاصات لهؤلاء بالنسبة للقدسية الإلهية، و بالنبوة السماوية المحمّدية

في تفسير روح المعاني لمفتي بغداد، محمود الآلوسي قال ـ في تفسير الآية الكريمة ـ «وفي هذه القصّة أوضح دليل على نبوّته (ﷺ) وإلّا لما امتنعوا عن مباهلته، ودلالتها على فضل آل الله ورسوله (ﷺ) ممّا لا يمتري فيها مؤمن»

وفي تفسير كشف الأسرار للميبدي: «إنّ أهل المباهلة كانوا خمسة: محمّد المصطفى، عليّ المرتضى، فاطمة الزهراء، حسن المجتبى، حسين الشهيد بكربلاء عليهم السلام، فذهبوا إلى الصحراء فجعل رسول الله (ﷺ) هؤلاء الأربعة تحت الكساء، ثمّ قال: اللهمّ إنّ هؤلاء أهلي، فنزل جبرئيل وقال: يا محمّد وأنا من أهلكم؟ قال (ﷺ): يا جبرئيل وأنت منّا، فرجع جبرئيل إلى السماء وافتخر على الملائكة، ويقول: من مثلي؟ وأنا في السماء طاووس الملائكة، وفي الأرض من أهل محمّد (ﷺ)»

ونحن نرى أنّ الله سبحانه قد عدّ ـ صراحةً ـ عليّ بن أبي طالب (ع) نفس رسوله (ﷺ) فما بال [illegible] أصحاب السقيفة المشؤومة إنّهم في شكّ ويتردّدون في ذلك ـ بعد مضيّ أكثر من أربعة عشر قرناً من نزول الآية الكريمة، وقصّة السقيفة التي كانت مبدأ انحطاط المسلمين ووقفة الإسلام في نشره والعمل به إلى يومنا هذا؟ وإذا كان عليّ بن أبي طالب (ع) نفس رسول الله (ﷺ) بنصّ القرآن الكريم أوليس ردّ شهادة عليّ بن أبي طالب (ع) في قصّة فدك مثلاً وفي غيرها ردّاً لشهادة رسول الله (ﷺ) بنفسه على حدّ سواء؟ وليس ردّ شهادة رسول الله (ﷺ) ردّاً لشهادة الله جلّ وعلا بعينها؟

وكيف نقبل شهادة ذي الشهادتين في قصّة ناقة رسول الله (ﷺ) وتُردّ شهادة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (ع) في فدك رسول الله (ﷺ) التي أعطاها فاطمة الزهراء سلام الله عليها بنصّ من كتاب الله «فآت ذا القربى حقّه» (الروم: ٣٨) و«آت ذا القربى حقّه» (الإسراء: ٢٦)؟؟؟!!!

وفي الطرائف للسيّد ابن طاووس رضوان الله تعالى عليه ـ حديث ٣٤٩: إنّ جماعة من ولد الحسن والحسين عليهما السلام رفعوا قصّة فدك إلى المأمون الخليفة العبّاسي من بني العبّاس يذكرون أنّ فدك والعوالي كانت لأمّهم فاطمة بنت محمّد (ﷺ) نبيّهم وأنّ

أبا بكر أخرج وكلاءها عنها بغير حقّ، و سمع المأمون مقالتهم و كشف ظلامتهم، فأحضر المأمون مائتي رجل من علماء الحجاز و العراق و غيرهم و هو يؤكّد عليهم في أداء الأمانة و اتّباع الصّدق، و عرّفهم ما ذكره ورثة فاطمة في قصّتهم و سألهم عمّا عندهم من الحديث الصّحيح في ذلك

فروى غير واحد منهم عن بشير بن الوليد و الواقدي و بشر بن غياث في حديث يرفعونه إلى محمّد ﴿ﷺ﴾ أنّهم لمّا فتح خيبر اصطفى لنفسه قرى من قرى اليهود، فنزل عليه جبرئيل ﴿ع﴾ بهذه الآية «و آت ذا القربى حقّه» فقال محمّد ﴿ﷺ﴾ و من ذو القربى و ما حقّه؟ قال: فاطمة عليها السلام تدفع إليها فدك، فدفع إليها فدك ثمّ أعطاها العوالي بعد ذلك، فاستغلّتها حتّى توفّي أبوها محمّد ﴿ﷺ﴾ فلمّا بويع أبو بكر منعها أبو بكر منها فكلّمته فاطمة عليها السلام في ردّ فدك و العوالي عليها، و قالت له إنّها لي و إنّ أبي دفعها إليّ فقال أبو بكر و لا أمنعك ما دفع إليك أبوك

فأراد أن يكتب لها كتاباً فاستوقفه عمر بن الخطّاب، و قال إنّها امرأة فادعها بالبيّنة على ما ادّعت فأمر أبو بكر أن تفعل فجاءت بأمّ أيمن و أسماء بنت عميس مع عليّ بن أبي طالب ﴿ع﴾ فشهدوا لها جميعاً بذلك، فكتب لها أبو بكر، فبلغ ذلك عمر، فأتاه فأخبره أبو بكر الخبر، فأخذ الصّحيفة فمحاها، فقال إنّ فاطمة امرأة و عليّ بن أبي طالب زوجها و هو جارّ إلى نفسه، و لا يكون بشهادة امرأتين دون رجل

فأرسل أبو بكر إلى فاطمة عليها السلام فأعلمها بذلك، فحلفت بالله الّذي لا إله إلّا هو أنّهم ما شهدوا إلّا بالحقّ، فقال أبو بكر فلعلّ أن تكوني صادقة، و لكن احضري شاهداً لا يجرّ إلى نفسه، فقالت فاطمة ألم تسمعا من أبي رسول الله ﴿ﷺ﴾ يقول أسماء بنت عميس و أمّ أيمن من أهل الجنّة؟ فقالا بلى، فقالت امرأتان من أهل الجنّة تشهدان بباطل؟ فانصرفت صارخة تنادي أباها، و تقول قد أخبرني أبي أنّي أوّل من يلحق به، فو الله لأشكونّهما، فلم تلبث أن مرضت فأوصت عليّاً أن لا يصلّيا عليها و هجرتهما، فلم تكلّمهما حتّى ماتت، فدفنها عليه السلام و العبّاس ليلاً

فدفع المأمون الجماعة عن مجلسه ذلك اليوم، ثمّ أحضر في اليوم الآخر ألف رجل من

أهل الفقه و العلم، و شرح لهم الحال و أمرهم بتقوى الله و مراقبته، فتناظروا و استظهروا ثمّ افترقوا فرقتين، فقالت طائفة منهم: الزوج عندنا جارّ إلى نفسه فلا شهادة له و لكنّا نرى يمين فاطمة قد أوجبت لها ما ادّعت مع شهادة الامرأتين، و قالت طائفة: نرى اليمين مع الشهادة لا توجب حكماً، و لكن شهادة الزوج عندنا جائزة و لا نراه جارّاً إلى نفسه فقد وجب بشهادته مع شهادة الامرأتين لفاطمة عليها السلام ما ادّعت، فكان اختلاف الطائفتين إجماعاً منهم على استحقاق فاطمة عليها السلام فدك و العوالي

فسألهم المأمون بعد ذلك عن فضائل عليّ بن أبي‌طالب ﴿ع﴾ فذكروا منها طرفاً جليلة قد تضمّنته رسالة المأمون، و سألهم عن فاطمة عليها السلام فرووا لها عن أبيها فضائل جميلة، و سألهم عن أمّ أيمن و أسماء بنت عميس فرووا عن نبيّهم محمّد ﴿ص﴾ أنّهما من أهل الجنّة فقال المأمون: أيجوز أن يقال أو يعتقد أنّ عليّ بن أبي‌طالب مع ورعه و زهده يشهد لفاطمة بغير حقّ؟ و قد شهد الله تعالى و رسوله بهذه الفضائل له، أو يجوز مع علمه و فضله أن يقال إنّه يمشي في شهادة و هو يجهل الحكم فيها؟!

و هل يجوز أن يقال إنّ فاطمة مع طهارتها و عصمتها و أنّها سيّدة نساء العالمين و سيّدة نساء أهل الجنّة كما رويتم تطلب شيئاً ليس لها تظلم فيه جميع المسلمين و تقسم عليه بالله الّذي لا إله إلّا هو؟ أو يجوز أن يقال عن أمّ أيمن و أسماء بنت عميس أنّهما شهدتا بالزّور و هما من أهل الجنّة؟ إنّ الطعن على فاطمة و شهودها طعن على كتاب الله و إلحاد في دين الله، حاشا أن يكون ذلك كذلك

ثمّ عارضهم المأمون بحديث رووه أنّ عليّ بن أبي‌طالب ﴿ع﴾ أقام منادياً بعد وفاة محمّد ﴿ص﴾ نبيّهم ينادي من كان له على رسول الله ﴿ص﴾ دين أو عدة فليحضر، فحضر جماعة فأعطاهم عليّ بن أبي‌طالب ﴿ع﴾ ما ذكروه بغير بيّنة، و أنّ أبابكر أمر منادياً ينادي بمثل ذلك فحضر جرير بن عبدالله و ادّعى على نبيّهم عدة فأعطاها أبوبكر بغير بيّنة، و حضر جابر بن عبدالله و ذكر أنّ نبيّهم وعده أن يحثو له ثلاث حثوات من مال البحرين، فلمّا قدم مال البحرين بعد وفاة نبيّهم أعطاه أبوبكر الثلاث حثوات بدعواه بغير بيّنة

و فيه: قال عبدالمحمود: و قد ذكر الحميدي هذا الحديث في الجمع بين الصحيحين في

الحديث التّاسع من أفراد مسلم من مسند جابر، وأنّ جابراً قال بعددها، فإذا هي خمسمائة، فقال أبو بكر: خذ مثليها» راجع صحيح مسلم ج ٤ ص ١٨٠٦

قال رواة رسالة المأمون فعجب المأمون من ذلك وقال: أما كانت فاطمة وشهودها يجرون مجرى جرير بن عبد الله، وجابر بن عبد الله؟

ثمّ تقدم بسطر في رسالة مشهورة، وأمر أن تقرأ بالموسم على رؤوس الأشهاد، وجعل فدك والعوالي في يد محمّد بن يحيى بن الحسين بن عليّ بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب ﴿ع﴾ يعمرها ويستغلّها ويقسّم دخلها بين ورثة فاطمة بنت محمّد ﴿ﷺ﴾ بينهم» انتهى كلامه

أقول: لو كان المأمون مستبصراً لردّ الخلافة إلى إمام الناس عليّ بن موسى الرّضا عليه آلاف التّحيّة والثّناء، ولكنّ الملك عقيم

﴿ لماذا تردّ شهادة الإمام عليّ (ع) و هو أصدق النّاس بل هو ميزان الصّداقة؟ ﴾

قال الله تعالى «يا أيّها الّذين آمنوا اتّقوا الله و كونوا مع الصّادقين» توبه ٩

في نهج البلاغة قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب ﴿ع﴾ و الّذي بعثه بالحقّ، واصطفاه على الخلق، ما أنطق إلّا صادقاً و قد عهد إليّ بذلك كلّه» الخطبة ٧٤)

و قد تضافرت النّصوص عن الفريقين أنّ الآية الكريمة قد نزلت في شأن أمير المؤمنين الإمام عليّ ﴿ع﴾ كما أنّ الأئمّة قد أوردها بعضهم في مآخذهم و أسفارهم نشير إلى ما يسعه المقام و نحن على جناح الاختصار

١ـ روى الثعلبي في (تفسيره ص ٢١٩) عن ابن عبّاس أنّه قال في هذه الآية «اتّقوا الله و كونوا مع الصّادقين» مع عليّ بن أبيطالب و أصحابه

٢ـ روى الكنجي الشّافعيّ في (كفاية الطّالب ص ١٠ ط الغري) عن أبي جعفر ﴿ع﴾ في قوله عزّوجلّ «يا أيّها الّذين آمنوا اتّقوا الله و كونوا مع الصّادقين» قال مع عليّ بن أبيطالب ﴿ع﴾

٣ـ روى سبط ابن الجوزي في (التذكرة ص ٢٠ ط النّجف) ما لفظه. قال علماء السّير معناه كونوا مع عليّ ﴿ع﴾ و أهل بيته قال ابن عبّاس عليّ ﴿ع﴾ سيّد الصّادقين.

٤ـ ما رواه السيوطي في تفسيره (الدرّ المنثور ج ٣ ص ٢٩٠ ط مصر)

٥ـ ما رواه الكشفي الترمذي في (المناقب المرتضوية ص ٤٣ ط بمبئي عظمة محمدي)

٦ـ ما رواه الشوكاني في تفسيره (ج ٢ ص ٣٩٥ ط مصطفى الحلبي بمصر)

٧ـ روى الآلوسي في تفسيره (روح المعاني ج ١١ ص ٤١ ط المنيرية بمصر) ما لفظه أخرج ابن مردويه عن ابن عبّاس وابن عساكر عن أبي جعفر أنّ المراد «كونوا مع عليّ كرّم الله وجهه بالخلافة»

٨ـ ما رواه القندوزي الحنفي في (ينابيع المودّة ص ١١٩ ط إسلامبول) عن عدّة

٩ـ ما رواه الكشفي الترمذي في (المناقب المرتضوية ص ٥٣ ط بمبئي عظمة محمدي) نقل عن المحدّث الحنبلي وابن مردويه عن ابن عبّاس رضي الله عنه أنّ الآية نزلت في حقّ النبيّ ﴿ﷺ﴾ وعليّ ﴿ع﴾

١٠ـ ما رواه الحاكم الحسكاني الحنفي في (شواهد التنزيل ج ١ ص ٢٥٩)

وغيرهم تركناهم روماً للاختصار

أقول: وقد سبق منّا في تفسير هذه الآية في سورة «التوبة» أنّ المراد بالكون مع أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﴿ع﴾ ليس هو الحضور الخارجي بالضرورة، وإنّما المراد اتّباعه في كلّ ما يرد به الاتّباع ونفس شرعه في حياته وبعد شهادته ﴿ع﴾ لاقتضاء الإطلاق له، وأنّ الآية الكريمة تدلّ على عصمة أمير المؤمنين ﴿ع﴾ لوصفها له بالصدق في الأعمال والأقوال كما يقتضيه الإطلاق، ولقبح الأمر باتّباع من لا يؤمن عليه مخالفة أحكام الله عمداً أو خطأً، ولزوم اجتماع الضدّين وجوب الاتّباع وحرمته لو فعل المعصية

وإنّ المراد بالمخاطبين المؤمنين بالاتّباع في قوله جلّ وعلا «يا أيّها الّذين آمنوا اتّقوا الله وكونوا مع الصادقين» هم جميع المؤمنين في كلّ ظرف من الظروف، لا خصوص المؤمنين في زمان حياته

ونستفيد من الآية الكريمة ومجموع تلك الروايات كون وجود معصوم واجب الاتّباع في كلّ ظرف من الظروف، فكان هو محمّد رسول الله ﴿ﷺ﴾ في عهده، وعليّ ﴿ع﴾ في

حياته، و الأئمّة الطاهرين من بعده كما تقتضيه أيضاً كون الصّادقين صيغة جمع

و يؤيّد ذلك ما في (ينابيع المودّة) عن موفّق ابن أحمد بسنده عن ابن عبّاس قال «الصّادقون محمّد و أهل بيته» كما ورد عن طريق الباقر و الصّادق و الرّضا عليهم السلام «الصّادقون هم الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام» فتدلّ الآية ـ مع بيانها بالرّوايات ـ على وجوب الكون مع الأفراد الصّادقين المعصومين و اتّباعهم في كلّ ظرف من الظّروف، و هو المطلوب، و نحن اليوم متّبعون لإمام زماننا الثّاني عشر المهدي المنتظر الحجّة بن الحسن العسكري عجّل الله تعالى فرجه الشريف بالإقرار بإمامته، و الأخذ بأحكامه، و إن لم نجتمع معه و نسعد بطلعته ظاهراً

و تدلّ الآية الكريمة على وجود الصّادق المعصوم بعد رسول الله ﴿ص﴾ إلى ظهور المهديّ المنتظر أرواحنا له الفداء، إذ لا مناص من وجود الصّادق المعصوم الّذي أمر الله تعالى المؤمنين باتّباعه لقول رسول الله ﴿ص﴾ «لو لا الحجّة لساخت الأرض بأهلها»

و في أصول الكافي ج ١ بإسناده عن بريد بن معاوية العجليّ قال سألت أبا جعفر ﴿ع﴾ عن قول الله عزّ و جلّ «اتّقوا الله و كونوا مع الصّادقين» قال إيّانا عنى»

و فيه: بإسناده عن ابن أبي نصر عن أبي الحسن الرّضا ﴿ع﴾ قال سألته عن قول الله عزّ و جلّ «يا أيّها الّذين آمنوا اتّقوا الله و كونوا مع الصّادقين» قال الصّادقون هم الأئمّة و الصّدّيقون بطاعتهم»

و قال الله تعالى «و الّذين آمنوا بالله و رسله أولئك هم الصّدّيقون و الشّهداء عند ربّهم» الحديد: ١٩)

روى أحمد بن حنبل في كتاب الفضائل ـ من فضائل عليّ ﴿ع﴾ حديث ١٥٤ و ٣٣٩، أنّ الآية نزلت في عليّ ﴿ع﴾ و في المنهاج للسّنّة ج ٤ ص ٦٠)

و روى الحاكم الحسكاني الحنفي في (شواهد التنزيل ج ٢ ص ٢٢٣) بإسناده عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبيه قال قال رسول الله ﴿ص﴾ «الصّدّيقون ثلاثة حبيب النّجّار مؤمن آل ياسين، و حزبيل (حزقيل) مؤمن آل فرعون، و عليّ بن أبيطالب ﴿ع﴾ الثّالث و هو أفضلهم»

أورده جماعة من أعلام العامة وجمعة أكابرهم في صحاحهم ومسانيدهم ومآخذهم المعتبرة عندهم الآن: عليّ بن أبي طالب عليه السلام هو الصدّيق الأكبر والفاروق بين الحقّ والباطل، ويعسوب المؤمنين، [illegible] ووصيّ رسول ربّ العالمين

كما قال ﴿ﷺ﴾: «سيكون من بعدي فتنة، فإذا كان ذلك، فالزموا عليّ بن أبي طالب ﴿عليه السلام﴾، فإنّه أوّل من آمن بي وأوّل من يصافحني، وهو الصدّيق الأكبر، وهو فاروق هذه الأمّة، وهو يعسوب المؤمنين، والمال يعسوب المنافقين»

رواه جماعة من أعلامهم

منهم: ابن حجر الهيتمي في (الإصابة ج ٤ ص ١٧١)

ومنهم ابن الأثير الجزري في (أسد الغابة ج ٥ ص ٢٨٧)

ومنهم ابن عبد البرّ في (الاستيعاب ج ٢ ص ٦٥٦) وغيرهم

وروى المناوي في فيض القدير ج ٤ ص ٣٥٨ عن أبي ذر الغفاري وسلمان الفارسيّ قالا: «أخذ النبي بيد عليّ فقال إنّ هذا أوّل من آمن بي وهذا أوّل من يصافحني يوم القيامة، وهذا الصدّيق الأكبر وهذا فاروق هذه الأمّة، يفرق بين الحقّ والباطل وهذا يعسوب المؤمنين، والمال يعسوب الظّالمين»

رواه جماعة من أعاظمهم:

منهم الطبراني والبزار عن أبي ذر وسلمان

ومنهم الهيثمي في (مجمع الزوائد ج ٩ ص ٢)

ومنهم المتّقي الهندي في (كنز العمال ج ٦ ص ١٥٦) وغيرهم

وروى أعلام العامة أنّ عليّ بن أبي طالب ﴿عليه السلام﴾ كان متّصفاً بهذه الكلمات عن النبيّ الكريم ﴿ﷺ﴾ في ضمن روايات أُخر راجع (الرياض النضرة ج ٢ ص ١٥٥ و ١٥٧ و ١٥٨) و(خصائص النسائي ص ٣) و(تاريخ الطبري ج ٢ ص ٥٦) و(كنز العمال ج ٦ ص ٤٠٥) و(ميزان الاعتدال ج ١ ص ٤١٧) و(معارف ابن قتيبة ص ٧٢)

ولا يخفى على من له الدّراية وطيب الولادة أنّ الصدّيق والفاروق صفتان من صفات أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﴿عليه السلام﴾ سرق أصحاب السقيفة الشنيعة المشؤومة ومردتهم

الصدّيق، ونحلوه إلى أبي بكر لكذّاب فيما صدّقه وسرقوا لقباً ووصفاً الفاروق من الإمام علي ﴿ع﴾ ونحلوه إلى عمر بن الخطّاب المفرّق بين ذرّيته ساداته عليهم ويقول الفرّق بعده»

وقال الطبري في المنتخب، من كتاب ذيل المذيل) المطبوع في ذيل تاريخه ص ١٩

قال ابن سعد أخبرنا يعقوب بن إبراهيم بن سعد عن أبيه عن صالح بن كيسان، قال قال ابن شهاب: بلغنا أنّ أهل الكتاب كانوا أوّل من قال لعمر الفاروق وكان المسلمون يأثرون ذلك من قولهم، وما بلغنا أنّ رسول الله ﴿ص﴾ ذكر من ذلك شيئاً

وفي الطّرائف قال عبد المحمود: ومن طرائف ما رأيت من مناقضتهم في ذلك أنّ أبابكر وعمر يردّان شهادة عليّ بن أبيطالب ﴿ع﴾ ويقولان إنّه جارٌّ إلى نفسه، وقد عرف أهل العلم، والعارفون بأحوال الإسلام أنّ عليّ بن أبيطالب ﴿ع﴾ ما كان طالباً للدّنيا، ولا راغباً فيها ولا متكلّاً عليها كما فعل أبوبكر وعمر حتّى يقال إنّه جارٌّ إلى نفسه»

ومن طريف ذلك أن يكون أبوبكر قد علم بذلك ثمّ يشهد لعليّ بن أبيطالب ﴿ع﴾ على لسان رسولهم على ما ذكروه في صحاحهم، وقد علمت مخالفته أنّ عليّ بن أبيطالب ﴿ع﴾ ممدوح مزكّى في حياته وبعد وفاته، وأنّه أفضل الصحابة، فمن جاز الشكّ في عليّ ﴿ع﴾ الموصوف بتلك الصّفات فإنّه هو الشكّ في أنفسهم، وإنّه يلزم الرّواية، والتكذيب لأنفسهم في صحاحهم، وفي أهل الإسلام الذي مدحوه.

ومن طريف ذلك أن يسقط شهادة عليّ ﴿ع﴾ بدعوى أنّه جارٌّ إلى نفسه، ويشهد أبوبكر أنّ ميراث محمّد ﴿ص﴾ للمسلمين، وقد كان أبوبكر من المسلمين فله في ميراثه حصّة، ولكلّ من وافقه في الشّهادة بذلك، فكيف لا يكونون جارّين إلى أنفسهم؟ وكيف لا يبطل شهادة أبي بكر وهو في ذلك خال برغبة أنّه وكيل المسلمين وشاهد لهم، وشاهد لنفسه ومدّع لثبوت يده على فدك والعوالي، ولا يكون بعض هذه الأمور القادحة في الشّهادات مبطلاً لشهادته، ولا جارّاً إلى نفسه، ولا مسقطاً لروايته، إنّ ذلك من طرائف ما ادّعاه المسلمون، وعجائب الشيء الماضي

و فيه قال عبدالمحمود فهل ترى عذراً في منع فاطمة عليها السلام من فدك؟ و هل تراهم إلّا قد شهدوا بتصديقها ثمّ منعوها و كذّبوها؟ و هل ترى شكّاً في براءة الشيعة من ظالمها و دافعها من حقّها؟

و من طريف مناقضتهم أيضاً في ذلك و إقرارهم بطهارة حجّة الله و حجّة رسوله و حجّة فاطمة عليها السلام، و ما تعلّقهم في غيرها بمثل ما عذّرهم في منع فاطمة من فدك

و من طريف مناقضتهم أنّ ما رواه أبوبكر بن مردويه في كتابه بإسناده قال كان أصحاب محمّد ﷺ يقولون أفضلهم عمر فقال عليّ ﷺ يكتم ذلك خيرهم و أعلمهم. هذا لفظ الحديث. و من طريف مناقضتهم أنّ في ذلك رووا في صحاحهم بأنّ عليّاً أقضاهم و أعلمهم

و قد ذكر الحميدي في كتاب الجمع بين الصحيحين في الحديث الأوّل من أفراد البخاري في مسند أُبيّ بن كعب طرفاً من ذلك، و رووا في صحاحهم كون عمر يقول لا أعاش عمر لمعضلة ليس لها ابوالحسن يعني عليّاً ﷺ و قوله لولا عليّ لهلك عمر

فكيف يقال عن عليّ ﷺ و هو بهذه الصفة و هذه الأوصاف و قد سمع من الأمانة و الورع و الزهادة إلى هذه الغاية، أنّه يترك زوجته المعظّمة في الإسلام تطلب حكماً و شيئاً لا تستحقّه، و لا يحلّ لها به شهادة شهودها و أنّه حتّى لا يحلّ شهادته في ذلك، ثمّ يشهد لها ثمّ يوافقها و يعاضدها في الحياة و يزكّيها بعد الوفاة

و من طريف ما تجدّد في هذا المعنى أنّ فاطمة بنت نبيّهم مشهود لها بالعصمة، و أنّها سيّدة نساء أهل الجنّة، يكذّبونها و يكذّبون شهودها و يطعنون فيهم و فيها مع ما تقدّم في رواياتهم من مدائح الله و رسوله لهم، و يدّعي أبو صهيب مولى بني جدعان بيتين و حجرة من بيوت نبيّهم و حجرة به، و يصدّقون ذلك بغير و قوله ما تقدّم يقتضي أن يكون لهم حقّ فيما ادّعوه لظهر فيعطون ذلك بشهادة عبد الله بن عمر وحده، و لا ينكر ذلك مسلم منهم، و

لا يجري عند هؤلاء الأربعة المذاهب حال فاطمة وشهودها مجرى عبدالله بن عمر وحده وقد روى الحديث في ذلك جماعة

ورواه الحميدي في مسند عبد الله بن عمر في الحديث الثامن والثلاثين من أفراد البخاري من كتاب الجمع بين الصحيحين بهذه الألفاظ إن بني صهيب مولى بني جدعان ادعوا بيتين وحجرة أن رسول الله ﷺ أعطى ذلك صهيباً فقال مروان من يشهد لكم على ذلك؟ قالوا عبد الله بن عمر، فشهد لهم بذلك فقضى مروان بشهادته وحده لهم

﴿عمر بن الخطّاب واختلاق حديث عدم توريث الأنبياء عليهم السلام﴾

ولا يخفى على من له أدنى تدبّر وبصيرة أنّه كان من دأب عمر بن الخطّاب وديدن حليفه أبي بكر بن أبي قحافة جعل الخبر واختلاق الحديث ووضع الرواية لنفسهما ولمآربهما وأحزابهما كأنس بن مالك وأبي هريرة وأبي عبيدة الجرّاح حفّار القبور وكثير من أصحابهم. ومن تلك الأحاديث المختلقة حديث عدم توريث الأنبياء عليهم السلام.

في الفصول المختارة من العيون والمحاسن للسيد المرتضى رضوان الله تعالى عليه سئل هشام بن الحكم رحمه الله عمّا يرويه العامّة من قول أمير المؤمنين ﴿ع﴾ لمّا قبض عمر، وقد دخل عليه وهو مسجّى: «لوددت أن ألقى الله بصحيفة هذا المسجّى» وفي حديث آخر لهم: «إنّي لأرجو أن ألقى الله بصحيفة هذا المسجّى»

فقال هشام: هذا حديث غير ثابت ولا معروف الإسناد، وإنّما حصل من جهة القصّاص وأصحاب الطرقات، ولو ثبت لكان المعنى فيه معروفاً، وذلك أنّ عمر واطأ أبا بكر والمغيرة وسالماً مولى أبي حذيفة وأبا عبيدة على كتب صحيفة بينهم، يتعاقدون فيها على أنّه إذا مات رسول الله ﴿ص﴾ لم يورّثوا أحداً من أهل بيته، ولم يولّوهم مقامه من بعده، فكانت الصحيفة لعمر، إذ كان عماد القوم، والصحيفة التي ودّ أمير المؤمنين ﴿ع﴾ ورجا أن يلقى الله بها هي هذه الصحيفة ليخاصمه بها ويحتجّ عليه بمضمّنها

و الدليل على ذلك ما رواه ثعلبة عن أبيّ بن كعب أنه كان يقول في مسجد رسول الله ﷺ بعد أن أفضى الأمر إلى أبي بكر بصوت يسمعه أهل المسجد «ألا هلك أهل العقدة، و الله ما آسى عليهم، إنما آسى على من يضلّون من الناس. فقيل له يا صاحب رسول الله من هؤلاء أهل العقدة؟ و ما عقدتهم؟ فقال: قوم تعاقدوا بينهم إن مات رسول الله لم يورّثوا أحداً من أهل بيته و لا يولّوهم مقامه، أما و الله لئن عشت إلى يوم الجمعة لأقومنّ فيهم مقاماً أبيّن به للناس أمرهم، قال: فما أتت عليه الجمعة»

و في كتاب السقيفة و فدك ص ١٠١ للجوهري البصري المتوفى ٣٢٣ هـ، بإسناده عن عوانة بن الحكم قال: لما كلّمت فاطمة عليها السلام أبابكر بما كلّمته به، حمد أبوبكر الله و أثنى عليه و صلّى على رسوله ثم قال: «يا خيرة النساء، و ابنة خير الآباء، و الله ما عدوت رأي رسول الله ﷺ و ما عملت إلا بأمره و إن الرائد لا يكذب أهله و قد قلت فأبلغت، و أغلظت فأهجرت فغفر الله لنا و لك. أما بعد فقد دفعت آلة رسول الله و دابّته و حذاءه إلى عليّ ﷺ و أما سوى ذلك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنا معاشر الأنبياء لا نورّث ذهباً و لا فضّة و لا أرضاً و لا عقاراً و لا داراً و لكنّا نورّث الإيمان و الحكمة و العلم و السنّة فقد عملت بما أمرني، و نصحت له و ما توفيقي إلا بالله عليه توكّلت و إليه أنيب»

أقول: و لا أظنّ أن يشتبه على من له أدنى تأمّل ضعف مقولته، إنّ مفاده أنّ أبابكر بن أبي قحافة هذه مقعده عن رسول الله ﷺ و مقرّراً على سنّة النبيّ الأعظم ﷺ فإنّ جميع المعارف الإسلامية و الأحكام الدينية من الأوامر و النواهي و الحكم الشرعية و السنّة المحمّدية ثبتت و ظهرت واضحة على عهد رسول الله ﷺ فكيف لم يثبت أوّل الحكم المتعلّق برسول الله ﷺ و أهل بيته المعصومين في حياته، و لم تظهر هذه المقالة إلا بعد وفاته ﷺ و الناقل لها هو أبوبكر وحده، فكأنّ أهل بيته كانوا أجانب عمّا تعلّق بهم، و هل أنّ رسول الله ﷺ لا سمح الله تعالى أتى بخلاف ما جاء به القرآن الكريم و هو يقول «قل ما يكون لي أن أبدّله من تلقاء نفسي إن أتّبع إلا ما يوحى إليّ» يونس: ١٥)

كما قلت و استشهدت الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها بالآيات القرآنية على ما ذكرت

في نهج البلاغة قال مولى الموحدين ومولى المتقين إمام المؤمنين علي بن أبي طالب ﴿ع﴾ «فقبضه إليه كريماً ﴿ص﴾ وخلّف فيكم ما خلّفت الأنبياء في أممها إذ لم يتركوهم هملاً بغير طريق واضح ولا علم قائم: كتاب ربكم فيكم مبيّناً حلاله وحرامه، وفرائضه وفضائله، وناسخه ومنسوخه، ورُخَصه وعزائمه وخاصّه وعامّه، وعِبَره وأمثاله، ومرسله ومحدوده، ومحكمه ومتشابهه، مُفسّراً مجمله، ومبيّناً غوامضه بين مأخوذ ميثاق علمه، وموسّع على العباد في جهله، وبين مُثبتٍ في الكتاب فرضه، ومعلوم في السنّة نسخه، وواجب في السنّة أخذه، ومرخّص في الكتاب تركه» (الخطبة الأولى)

وفيه في سند وصيته بعنوان تقوى الله يقول ﴿ع﴾: «وأنزل عليكم الكتاب تبياناً لكلّ شيءٍ، وعمّر فيكم نبيّه أزماناً حتى أكمل له ولكم فيما أنزل من كتابه دينه الذي رضي لنفسه، وأنهى إليكم على لسانه محابّه من الأعمال ومكارهه ونواهيه وأوامره» (الخطبة ٨٥)

وفيه عن أمير المؤمنين الإمام علي ﴿ع﴾: «أفأمرهم الله تعالى بالاختلاف فأطاعوه؟ أم نهاهم عنه فعصوه؟ أم أنزل الله سبحانه ديناً ناقصاً فاستعان بهم على إتمامه؟ أم كانوا شركاء له فلهم أن يقولوا وعليه أن يرضى؟ أم أنزل الله سبحانه ديناً تامّاً فقصّر الرسول ﴿ص﴾ عن تبليغه وأدائه؟ والله سبحانه يقول: ما فرّطنا في الكتاب من شيءٍ، وقال فيه تبيان كلّ شيءٍ» (الخطبة ١٨)

وكيف أخرج أبو بكر؟ وبأيّ دليل وسنّة، بغلة رسول الله ﴿ص﴾ ودابّته وحذاءه من ضمن الإرث ودفعها إلى عليّ بن أبيطالب ﴿ع﴾؟

وعلى حدّ قول أبي بكر أنّ حجرة النبيّ ، هل طالبت الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها ما ليس لها حقّ فيه؟ وعلى حدّ قوله إنّ فاطمة الزهراء عليها السلام ورثت أعيان رسول الله ﴿ص﴾ وعلمه وحكمته وسنّته، وأنّها وارثته في جميع ذلك. هل يمكن أن تدّعي ما ليس لها بحقّ؟! وهل يجوز لأبي بكر على حدّ قوله هذا أن يقول في حقّ حجرة النبيّ، وارثة أعيان أبيها وعلمه وحكمته وسنّته: أغلطت أو هجرت. معاذ الله لما أولك ؟

فتصدّى أبو بكر بإشارة خليفته عمر بن الخطّاب للردّ على الصدّيقة الطّاهرة سلام الله

عليها في موضوع فدك من ناحية الميراث في حديث انفرد بذكره على ما سبق، هو «نحن معاشر الأنبياء لا نورّث ما تركناه صدقة»

وفي شرح ابن أبي الحديد عن أبي الطفيل قال: أرسلت فاطمة إلى أبي بكر «أنتَ وَرِثتَ رسول الله ﴿ﷺ﴾ أم أهله؟ قال: بل أهله».

قال ابن أبي الحديد: وفي هذا الحديث عجب، لأنها قالت له: أنت ورثت رسول الله ﴿ﷺ﴾ أم أهله؟ قال: بل أهله. وهذا تصريح بأنّه ﴿ﷺ﴾ موروث يرثه أهله، وهو خلاف قوله: «لا نورّث».

وقال: «المشهور أنّه لم يرو حديث انتفاء الإرث إلّا أبو بكر وحده» وقال ابن أبي الحديد: «أكثر الروايات أنّه لم يرو هذا الخبر إلّا أبو بكر وحده ذكر ذلك معظم المحدّثين حتّى أنّ الفقهاء أطبقوا على ذلك في احتجاجهم في الخبر برواية الصحابي الواحد، وقال شيخنا أبو عليّ: لا تقبل في الرواية إلّا رواية اثنين، فخالفه المتكلّمون والفقهاء كلّهم، واحتجّوا بقبول الصحابة رواية أبي بكر وحده «نحن معاشر الأنبياء لا نورّث» حتّى أنّ بعض أصحاب أبي عليّ تكلّف لذلك جواباً، فقال: قد روي أنّ أبا بكر يوم حاجّ فاطمة قال: أنشد الله امرءاً سمع من رسول الله ﴿ﷺ﴾ في هذا شيئاً فروى مالك بن أوس بن الحدثان أنّه سمعه من رسول الله ﴿ﷺ﴾ وستأتي بعض ما يردّه لعدم تفرّد أبي بكر في هذا الخبر، بنقل حسبه عمر بحضور عليّ والعبّاس وغيرهما وهو ممّا رواه البخاري في (أوائل كتاب النفقات - وفي باب فرض الخمس من كتاب الجهاد - وفي باب حديث بني النضير من كتاب المغازي، ومسلم في (صحيحه - كتاب الجهاد - باب حكم الفيء) والألفاظ متقاربة، وهو من الكذب الصريح لأمور

أحدها - أنّه صرّح بأنّ عمر ناشد القوم، ومن جملتهم عثمان، فشهدوا بأنّ رسول الله ﴿ﷺ﴾ قال «لا نورّث»، وهو مناف لما رواه البخاري - في أثر حديث بني النَّضير - عن عائشة أنّها قالت أرسل أزواج النبيّ ﴿ﷺ﴾ عثمان إلى أبي بكر يسألنه ثمنهنّ ممّا أفاء الله على رسوله! فكنت أنا أردّهنّ الحديث فإنّه يقتضي أن يكون عثمان جاهلاً بذلك، وإلّا لامتنع أن يكون رسولاً لهنّ إلّا أن نظنّ بالقوم فيه السوء

ثانيها ـ أنّه لو كان نحو ما ادّعاه لما ... عمر ... أبو بكر ... تردّد أبو بكر بروايته ... منعه ... فاطمة عليها سلام الله ... الخبر ... وشهادتهم لعمر ... عن أبي بكر وهو بيّن الخروج.

ثالثها ـ أنّ الحديث الذي رواه البخاري ... أنّ أمير المؤمنين عليه السلام والعبّاس طلبا من عمر الميراث حيث يقول في حديثهما: «جئتني وتسألني ... وجئتماني تسألني يا عبّاس نصيبك من ابن أخيك، وجاءني هذا يريد نصيب امرأته من أبيها، فقلت لكما: إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال: لا نورث ما تركناه صدقة».

ويقرب منه ما في الحديث الآخر، فكيف يتصوّر أن يطلبا من عمر الميراث وهما يعلمان أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله لا يورّث، وهو من الكذب المستبشع ... وكونه من طلب المستحيل ... أنّ أبا بكر قد حكم ... ولو كان ... عمر، فكيف يطلبان منه الميراث ومع ذلك فكيف دفع ... عمر ... عملاً بقوله وعمل رسول الله صلّى الله عليه وآله وأبي بكر ... الميراث ... بحكم الله صلّى الله عليه وآله ... فيكون قدحاً في عمر.

رابعها ـ أنّ أمير المؤمنين والعبّاس لو سمعا من النبيّ صلّى الله عليه وآله ما رواه أبو بكر حتّى قرّره به عمر فكيف يقول لهما عمر كما في حديث مسلم: رأيتما أبا بكر كاذباً آثماً غادراً خائناً، ورأيتماني كاذباً آثماً غادراً خائناً.

خامسها ـ أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لو سمع ذلك فَلِمَ أمر الصدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها أن تطلب ما لا حقّ لها فيه؟ أو سكت عن ذلك عنها، راضياً بأن تغصب مال المسلمين؟ أو أعانها على باطل ... ما ليس لها فيه حقّ؟ فيكون ... كاذباً ... شهادته في الطاهرة، فلا مندوحة لمن صدّق الله ورسوله صلّى الله عليه وآله إلّا القول بكذب هذه الأحاديث واختلاقها.

سادسها ـ أنّه ذكر في حديث مسلم ... عمر ... بعده ... أنّ العبّاس قال لعمر: اقضِ بيني وبين هذا الكاذب الآثم الغادر الخائن، وهذا ممّا لا يتصوّر صدوره من العبّاس إذ كيف ينسب عليّاً إلى الكذب والغدر والخيانة، وهو يعلم

أنّه ﴿ﷺ﴾ نقض النبيّ الأمين ﴿ﷺ﴾، و أنّ ما يصحّ به يشهد به بطلانه؟ و كيف يسنده، و قد علم أنّ من سنّة سنّة الله و رسوله ﴿ﷺ﴾ فهمها الأوّل يكون كافراً مخالفاً لما علم، و ثبت بالضرورة، و للعبّاس حقّ قدر أو على شيء من ذلك فلا بدّ أن يكون هذا القول مكذوباً على العبّاس من المدّعين الذين يريدون سنّة الأئمّة حقّ المعصومين، و وضعوا هذا الحديث لإصلاح حال أبي بكر و عمر من دون نهيه و لا ذمّه و لا عتابه.

و لعمري إنّي لا أظنّ أنّ مسلماً من له أدنى مسكة و دراية و فضل و ذكاء في تفرّد أبي بكر أي مخالفة و أوّل غاصب مخالفة مهدة تزويره حتّى لا يعتمد عليه، و كيف يمكن أن يخفى على نزاهة و الهدى ﴿ﷺ﴾ هذا الحكم مثل هو على الأساس به و هم أهل بيته المعصومين و ورثته و يعرف به أحد واحد حتّى يعتبر نفسه و الشقاق و الخلاف بين بيته الطاهرة، و من بين أمر الأمّة بأن ما كان عاصي عليه، و هو قد قال في حقّها «إنّ الله يغضب لغضبها و يرضى لرضاها» و «يؤذيني ما آذاها»؟

فكان هذا البيان لغضبها مع ذلك الإجحاف عليها سبباً لاختلاف الأمّة و انعقاد الشقاق بين الأبد لأنّهم بين ناصر لها و قاطع لمن ظلمها، و بين ناصر لأبي بكر و راضٍ بعمله، و كيف يتصوّر أن يخفي رسول الله ﴿ﷺ﴾ هذا الحكم عن أهله و نفسه، و يأتي ما دينه مثله، و من عنده علم الكتاب و يظهر لغيره؟ ليت شعري! ألم تكن لرسول الله ﴿ﷺ﴾ (العياذ بالله) رأفة على بضعته و روحه التي بين جنبيه فيعلمها حكمها و يمنعها عن الخروج في المحفل مطالبة بما لا تستحقّ به و يعود بالفشل راغمة مهضومة، هيهات هيهات! أما أظنّ مؤمناً برسول الله ﴿ﷺ﴾ عارفاً بشأنه، بل ما أظنّ من له أدنى مسكة و دراية و طيب ولادة أن يلتزم بصحّة هذا الخبر المختلق و أمثاله مع هذه المفاسد.

قال بعض مردة السقيفة إنّ حجّيّة خبر الواحد و الترجيح كما لا حاجة بنا إليه ههنا لأنّ أبا بكر كان حاكماً بما سمعه من رسول الله ﴿ﷺ﴾ فلا شبهة عنده في سنده و علم أيضاً دلالته على ما فهمه عنه من المعنى لانتفاء الاحتمالات التي يمكن تطرّقها إليه بقرينة الحال، فصار عنده دليلاً قطعيّاً مخصّصاً للعمومات الواردة في بيان الإرث.

و هذا مردود بوجوه منها أنّ دعوى الحكومة لأبي بكر في المقام خطأ فإنّه ادّعاه

بغير دليل بل مخالف للكتاب و السنّة و صريح العقل. و منها: أنّ أبابكر هو خصم بحث لاستحقاقه هذه الصّدقة، و إن فرض عدمه، لأنّها من الصّدقات بالمعنى الأعمّ الّتي ادّعاه الخصم، بل أبوبكر أظهر النّاس خصومة لأنّه يزعم أنّ أمر صدقات النبي ﷺ راجع إلى وليّ الأمر بعده و أنّه وليّه.

و منها: أنّا لو سلّمنا أنّ له الحكومة و إن كان خصماً فالحديث الّذي استند إليه في الحكم عليها ليس قطعيّ الدّلالة لاحتمال أن يريد به النبي ﷺ أنّ معاشر الأنبياء لا نترك شيئاً من المال بعد الموت بل نصرفه في وجوه البرّ في حياتنا من شأن جمع أهل الدنيا كالملوك، و ما نتركه بعدنا إنّما هو من مال الصّدقات الّتي لنا الولاية عليها، و حينئذ لو بقي شيء من مال عند النبي ﷺ فسبيله الصّرف في وجوه البرّ، فلا يمكن أن يكون إرثاً تورثه، و قوّى هذا البعض هذا الاحتمال بأنّ النبي لم يكن ظاهر حاله أن يترك مالاً إلى آخره رحمه الله بحيث إذ لا دليل على وجود تركة مالية له لو لا حمل أبي بكر على الصّحّة، و هو ليس أولى بالحمل على الصّحّة من أهل بيت النّبوّة المطهّرين لحديثه.

نعم، لا ينكر ظهور حديثه في مطلوبه لكنّه لو صحّ لا يصلح لمعارضة ظهور الآيات الكريمة في توريث الأنبياء، و لاسيّما ما تعرّض منها لإرث الأنبياء بخصوصهم.

و قال هذا البعض أيضاً: إن قيل إنّ أبابكر لا يسمع منه هذا الخبر لأنّه كان غريماً لأنّ الصّدقة تعود إليه قلنا: إنّه ليس شهادة و إنّما هو رواية و الفرق بين الشّهادة و الرواية أنّ الشّهادة لا تسمع من الغريم الّذي يجرّ النّفع إلى نفسه، و الرّواية ليست كذلك.

أقول: و هذا أيضاً مردود، حيث إنّ الرّواية إذا كانت لإثبات الحكم مدّعاه هو و بها تلحقه تهمة جرّ النّفع إلى نفسه كالشّاهد.

و قد تفرّد أبوبكر كذلك بذكر حديث آخر عندما اختلف المسلمون في محلّ دفن رسول الله ﷺ فقال: سمعت رسول الله يقول «ما قبض نبيّ إلّا دفن حيث قبض» في حين أنّ التّاريخ ـ على ما في تاريخ الطّبري ـ يخبرنا أنّ كثيراً من أنبياء بني إسرائيل قد دفنوا في غير الأماكن الّتي قبضوا فيها.

و قد استغربت الصّدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها من حديث نفي الإرث أشدّ

الاسراف و قد كانت فاطمة الزهراء عليها السلام من دون ريب أولى من غيرها بسماعه، لأنّ رسول الله (ص) خصّها عليها السلام أكثر ممّا خصّ أبابكر، كما أنّ عليّاً أمير المؤمنين (ع) لم يسمعه كذلك مثنى؟ أفهل تكتّمه لفاطمة الطاهرة صلوات الله عليها لم تخرج من بيتها إلى أبي بكر في مسجد النبي (ص) مطالبة فدكاً من فدك، لا يسمع من عليّ (ع) و أذن منه بل بأمر منه (ع) كذلك

لماذا خصّ رسول الله (ص) بهذا الحديث إلى أبي بكر دون أهل بيته المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين فضلاً عن سائر المسلمين، و قبل أن يصبح أبوبكر طرفاً في النزاع على هذا الميراث الذي تطالب بحظها فاطمة الزهراء عليها السلام و سببه هذا الانفصال؟

و في الغدير ج ٧ ص ١٩٠ في المظهر الرابع من مظاهر علم أبي بكر قال: ممّا رواه في الإرث عمر عن مالك بن أوس بن الحدثان فيما حسبما أخرجه البخاري في ص ٩ أنّه خصيصة أبي بكر، و هي من الأدلّة و صحة على علميّته، و هو يعتقد في صحيحه (٢)، ثمّ رواها عليّ (ع) و العباس و عثمان و عبد الرحمن بن عوف و الزبير و سعد و أمهات المؤمنين، و قال كلّهم كانوا يعلمون أنّ النبي (ص) قال ذلك و إنّ أبابكر لم يتفرّد باستحضاره و لا أنّه استحضره الباقون

ما هذا التهافت بين كلامي الرجل؟ و ما أجهله أخبر عمّا حدّثه وراه؟ و هل الأدلّة مترشّحة من محض الاستحضار أولاً؟ و سائر ما يشهد به؟ و كلّ منها كما ترى لا يفيد مرتبة إلّا في الحفظ دون العلم

ثمّ لو كان رسول الله (ص) قال ذلك لوجب أن يفسّره إلى آله و ذويه الذين يدّعون الوراثة منه لتقطع معاذيرهم في ذلك بتخصيص عمومات الإرث من آي القرآن الكريم و السنّة الشريفة، فلا يكون هناك صخب و حوار يعقبهما حقّ واجب، و لا تموت بضعته الطاهرة و هي واجدة ساخطة على أصحاب أبيها و يكون ذلك كلّه مثاراً للبغضاء و العداء في الأجيال المتعاقبة بين أشياع كلّ من الفريقين، و قد بُعث هو (ص) لكسح تلكم المعرّات و عقد الإخاء بين الأمم و الأفراد

ألم يكن (ص) على بصيرة ممّا يحدث بعده من الفتن الناشئة من عدم عرفان أهله و

دونه على هذا الحكم المختصّ به ﴿ﷺ﴾ المختفي شرعه للإرث؟ حاشاه و عنده علم المنايا و البلايا و القضايا و الفتن و الملاحم

و هل ترى أنّ دعوى الصدّيق الأكبر أمير المؤمنين و حليلته الصدّيقة الكبرى صلوات الله عليهما و ردّهما على أبي بكر ما استولت عليه يداه ممّا تركه النبيّ ﴿ﷺ﴾ من ماله كانت بعد علم و تصديق منهما بسنّة لم يروها سواه صفحاً منهما عنها لاقتضاء حكمة لديهما؟ و كانت عن جهل منهما لما حدّثه أبو بكر؟ حتى تقدّس ساحتهما عن جهل بالكتاب و السنّة و عن علم بسنّة ثابتة و الصّفح عنها، و عن جهل يربكهما في المراء

و لقد يصدّق أبو بكر في دعواه شذّة عن الكتاب و السنّة في لا يعلم الأمر قبل ورثته ﴿ﷺ﴾ و وصيّه لدى هتف ﴿ﷺ﴾ به و يوقف به من بدء دعوته في الأمانة و المعصمة؟ و لم يكن ذلك و منه بدعوى الصدّيقة، زوجها تظاهر بكون فدك نحلة لها من رسول الله ﴿ﷺ﴾ و هي لا تعلم الأمر منهما؟ و في ما ثبت من خطوته عن أنّه قال قالت فاطمة لأبي بكر إنّ رسول الله ﴿ﷺ﴾ جعل لي فدك فأعطني إيّاها، و شهد لها عليّ بن أبي طالب فسألها شاهداً آخر، فشهدت لها أمّ أيمن، فقال قد علمت يا بنت رسول الله أنّه لا تجوز إلّا رجلين أو رجل و امرأتين و انصرفت

و في رواية خالد بن طهمان أنّ فاطمة رضي الله عنها قالت لأبي بكر أعطني فدك فقد جعلها رسول الله ﴿ﷺ﴾ لي فسألها البيّنة، فجاءت بأمّ أيمن و رباح مولى النبيّ ﴿ﷺ﴾ فشهدا لها بذلك، فقال إنّ هذا الأمر لا تجوز فيه إلّا شهادة رجل و امرأتين

ثمّ متى كان غضب الصدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها؟ و هي الّتي جاء فيها عن أبيها الأقدس «إنّ الله يرضى لرضاها و يغضب لغضبها» من حكم صدع به والدها و ما ينطق عن الهوى إن هو إلّا وحي يوحى؟ و حاشاها ثمّ لأنّ ذلك الحكم الثابت رواه عنه صدّيق أمين تريد نقض حكم الشّريعة و نقضه، و هي مصدّقة له؟ حاشا ساحة العصمة الطّاهرة بنصّ آية التّطهير عن هذه الجرأة، فلم يبق إلّا الشقّ الثالث و هو أنّها كانت تتّهم الرّاوي، أو تعتقد خللاً في الرّواية، و تراه حكماً خلاف الكتاب و السنّة

و هذا الّذي دعاها إلى أن لاثت خمارها على رأسها و اشتملت جلبابها، و أقبلت في

لمّة من حفدتها ونساء قومها تطأ ذيولها، ما تخرم مشيتها مشية رسول الله، حتّى دخلت على أبي بكر وهو في حشد من المهاجرين والأنصار وغيرهم، فنيطت دونها ملاءة، ثمّ أنّت أنّة أجهش لها القوم بالبكاء، وارتجّ المجلس، ثمّ أمهلت هنيهة حتّى إذا سكن نشيج القوم وهدأت فورتهم افتتحت كلامها بالحمد لله عزّوجلّ والثناء عليه، والصّلاة على رسول الله ﷺ ثمّ قالت ما قالت وفيما قالت:

أفأنتم الآن تزعمون أن لا إرث لنا، أفحكم الجاهليّة تبغون؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون؟ يا ابن أبي قحافة أترث أباك ولا أرث أبي؟ لقد جئت شيئاً فريّاً، فدونكها مخطومة مرحولة تلقاك يوم حشرك، فنعم الحكم الله، والزّعيم محمّد، والموعد القيامة، وعند السّاعة يخسر المبطلون. ثمّ انكفأت إلى قبر أبيها ﷺ فقالت:

قد كان بعدك أنباء وهنبثة ... لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب

إنّا فقدناك فقد الأرض وابلها ... واختلّ قومك فاشهدهم ولا تغب

فليت بعدك كان الموت صادفنا ... لمّا قضيت وحالت دونك الكثب

وهذه الّتي تركها ساخطة على من حبسها وتدعو عليه بعد كلّ صلاة حتّى لفظت نفسها الأخيرة صلّى الله عليها.

وفي الطّرائف قال السّيّد ابن طاووس رحمه الله تعالى عليه: فمن ذلك ما رواه البخاري في صحيحه ج ٥ ص ١١ عن عائشة أنّ فاطمة عليها السلام بنت رسول الله ﷺ أرسلت إلى أبي بكر تسأله ميراثها من رسول الله ممّا أفاء الله عليه بالمدينة وفدك وما بقي من خمس خيبر، فقال أبو بكر إنّ رسول الله ﷺ قال: «نحن معاشر الأنبياء لانورّث ما تركناه فهو صدقة.» الرواية.

وما رواه مسلم في صحيحه ج ٣ ص ١٣٨٠ بإسناده أنّ فاطمة بنت رسول الله ﷺ أرسلت إلى أبي بكر تسأله ميراثها من رسول الله ﷺ ممّا أفاء الله عليه بالمدينة وفدك وما بقي من خمس خيبر، فقال أبو بكر إنّ رسول الله قال: «لانورّث ما تركناه صدقة» الرواية.

قال عبد المحمود في هذين الحديثين عدّة طرائف

فمن طرائف ذلك أنهم سمّوا محمداً نبيّهم ﷺ إلى أنه أهمل أهل بيته الذين قال الله تعالى عنهم «وأنذر عشيرتك الأقربين» الشعراء ٢١٤، وقال في سورة «يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة» التحريم ٦

ومع هذا يقولون أنه لم ينذر عشيرته، ولا وقى أهله ولا عرّفهم أنهم لا يرثونه ولا عرّف عمّه ﷺ ولا العباس ولا أحداً من بني هاشم ولا أزواجه، ولا أصحابه، ولا أحد منهم بذلك مدة حياة نبيّهم ولا بعد وفاته حتى خرج بعضهم يطلب ميراثه، وبعضهم يرضى بذلك الطلب، وسكتوا وسكتت بنته فاطمة المعظمة سيدة نساء العالمين، فطلبت على قولهم ظلم جميع المسلمين

لا سيما وقد روى الحميدي في الجمع بين الصحيحين في مسند أبي بكر من المتفق عليه في الحديث السادس أن فاطمة عليها السلام والعباس أتيا أبابكر يلتمسان ميراثهما من رسول الله ﷺ وهما حينئذ يطلبان أرضه من فدك وسهمه من خيبر. الحديث في صحيح مسلم ج ٣ ص ٣٦

وروى أيضاً الحميدي في الجمع بين الصحيحين من مسند عائشة في الحديث الثالث والأربعين من المتفق عليه أنها قالت إن أزواج النبي ﷺ حين توفي رسول الله ﷺ أردن أن يبعثن عثمان بن عفان إلى أبي بكر فيسألنه ميراثهن. الحديث في صحيح مسلم ج ٣ ص ٣٧٩

قال عبد المحمود كيف يقبل العقول ويصدّق العارفون أن نبيّهم يعلم أنه لا يورّث ويكتم ذلك عن ورثته وبنته وخاصّته أن ذلك كذلك، ويصح على أنه قد كان موروثاً على العموم، وأنهم دفعوا فاطمة عليها السلام وذرّيته بالمحال الذي لا يخفى على أهل الاعتبار والدين

ومن طرائف ذلك أن يكون بنو هاشم وزوجته وبنته مشاركين لمحمد ﷺ نبيّهم في سرّه وجهره، ومطّلعين على أحواله، ويستر عنهم أنهم لا يستحقون ميراثه، ويعلم ذلك أبوبكر ومن وافقه من الأباعد، ويستر عمّن هو من بني هاشم من الاختصاص به والمخالطة له ليلاً ونهاراً وسرّاً وجهراً، إن ذلك من طرائف ما يدل على هؤلاء القوم من ارتكاب المحال

هل ترك رسول الله ﷺ الوصية؟ فإن ترك الوصية للأقربين، وأوصى للأغراب، خلافاً لكتاب الله جلّ وعلا إذ يقول: «كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين» (البقرة: ١٨٠).

ومن طريف ذلك أنّ محمداً ﷺ نبيّهم يمنع الغاصبين من الشفقة على الأباعد وقد وصفه كتاب الله جلّ وعلا إذ يقول: «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتّم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم» (التوبة: ١٢٨)، فيصفه الله بهذه الرأفة والرحمة و يشهدون بتصديق ذلك، فكيف يقال عن هذا الشفيق الرؤوف الرحيم أنه ترك الشفقة على مثل ابنته وعمّه وزوجته وبني هاشم وهو يعرفهم أنهم لا يستحقون ميراثه ويعرف بذلك الأباعد حتى جرى ما جرى، إنّ ذلك من عجيب المناقضات وطريف الضلالات.

ومن طريف ذلك أنّ أبا بكر قد قسم في الخمس المذكور أنه لا يغيّر ما كان من ذلك على عهد رسول الله ﷺ، وقد روى الحميدي في الجمع بين الصحيحين من مسند جبير بن مطعم في الحديث الثالث من أفراد البخاري (ج ٤ ص ٥٥) قال: جاء جبير بن مطعم وعثمان بن عفان إلى النبي ﷺ يكلّمانه فيما قسم من خمس خيبر من بني هاشم وبني عبد المطلب، فقالا: يا رسول الله قسمت لإخواننا بني عبد المطلب ولم تعطنا شيئاً، وقرابتنا مثل قرابتهم منك. فقال رسول الله ﷺ: إنما بنو هاشم وعبد المطلب شيء واحد. قال جبير: ولم يقسم رسول الله لبني عبد شمس ولا لبني نوفل من ذلك الخمس شيئاً. وزاد حرملة عن ابن وهب عن يونس، عن ابن شهاب: وكان أبو بكر يقسم الخمس نحو قسم النبي ﷺ غير أنه لم يكن يعطي قرابة رسول الله كما كان رسول الله يعطيهم.

ثم رأيت في نسخة الحميدي وقد هذه ألفاظها، ثم قال: «أعطه كان يريدهم» قال ابن شهاب: وكان عمر يعطيهم منه وعثمان بعده.

قال عبد المحمود بن داود: وقد سطرت واستعظمت من أبي بكر ودفعه لفاطمة عليها السلام أنه يعمل في خمس خيبر كما عمل رسول الله ﷺ وأنه لا يغيّر ذلك، ثم شهادتهم على أبي بكر في هذا الحديث الصحيح أنه غيّر ذلك، وما كان يقسم خمس خيبر

بعد نبيّهم محمّد ﴿ﷺ﴾ في قرابته كما كان يقسمها نبيّهم في حياته، وهذا من عظائم الأمور التي تدلّ على سوء الحال للغاصبين والمرتضين بالأمور المذكورة.

ومن طرائف ذلك اعتذار الحميدي لأبي بكر وقوله «إنّه كان يرى لهم» فهب أنّه كان يرى لهم أنّ ذلك خلاف ما كان يفعل رسول الله في الخمس حسب، أما كان لأبي بكر أن يفعل ذلك فهلّا أعطى فاطمة عليها السلام فدكاً والعوالي والنحلة التي يرد بها قرابة نبيّهم بعد وفاته، وغير ما ذكرناه لا نعرف من عذر له. فما لهؤلاء المسلمين عقول يفكّرون في متناقضات هذا المنقول

ومن طرائف الحديثين المذكورين اللذين رووه وصحّحوه في ضدّ ذلك ما رواه الحميدي في الجمع بين الصحيحين في الحديث الحادي والثلاثين من المتّفق عليه من مسند عبد الله بن عبّاس في جواب ما كتب إليه نجدة بن عامر الحروري وهو من رؤساء الخوارج، قال: وكتبت تسألني عن الخمس لمن هو؟ وإنّا كنّا نقول هو لنا، فأبى علينا قومنا ذلك. رواه مسلم في صحيحه ج ٣ ص ٤٤٤

قال عبد المحمود: فهذه شهادة عبد الله بن عبّاس فيما صحّحوه أنّ فاطمة وعليّاً والحسنين عليهم السلام قد منعوا من الخمس، وفي ذلك ما فيه لمن كان له قلب عاقل ونظر فاضل. ومن طرائف الحديثين المذكورين أنّهم قد صحّحوا أنّ فاطمة بنت نبيّهم هجرت أبا بكر وأنّه أغضبها، وتأذّت بذلك وثبتت على هجرانها له ستّة أشهر حتّى ماتت.

في صحيح مسلم ج ٤ ص ١٩٠٣ قال رسول الله ﴿ﷺ﴾: «إنّما فاطمة بضعة منّي، يؤذيني ما آذاها» وفي صحيح البخاري ج ٥ ص ٣٦ قال رسول الله ﴿ﷺ﴾: «فاطمة بضعة منّي فمن أغضبها أغضبني»

ومن العجائب أنّ أصحاب الصحاح الستّة السنّية وأئمّتهم يشهدون بصحّة هذه الروايات ثمّ يهوّنون ما جرى على الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها من المظالم الثلاث فليتهم حيث هان عندهم ثلمها وظلمها كانوا تركوا الروايات بتركيها أو ليتهم حيث صحّحوا ما رووه في تعظيمها في الدنيا والآخرة كانوا قد استعظموا ظلمها

وما تقولون لو أن محمداً ﷺ حضر الآن وهو يشكي ويقول ما يقول ويخطب في مسجده ﷺ كان يغضب غضبه كما رووه في صحاحهم ومسانيدهم أو كان يرضى عنهم؟

ولا أظن أن شيئاً من ذلك يرضيه وذريته وأولاده أنه ﷺ كان يشق عليه غضبها ويهجر من يهجرها، ويستعطف يده عليها على من يؤذيها ويظلمها ويكسر ضلعها و هضم حقها وهتك حرمتها وإسقاط جنينها وحرق بابها فما ظنك بغير الزهراء، المشفق على غيرها، فهل لو هو رسول الله ﷺ في زماننا ويكون لك فيه أسوة حسنة، أو تكون في زمرة من أغضبها وأغضبه

﴿ عدم توريث الأنبياء عليهم السلام حديث مختلق و وجه منافاته للكتاب و السنّة ﴾

قال الله عزّ و جلّ: «يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظّ الأنثيين ... تلك حدود الله و من يطع الله و رسوله يدخله جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها و ذلك الفوز العظيم و من يعص الله و رسوله و يتعدّ حدوده يدخله ناراً خالداً فيها و له عذاب مهين» (النساء: ١١ ـ ١٤)

و قال: «إن ترك خيراً الوصيّة للوالدين و الأقربين بالمعروف حقّاً على المتّقين فمن بدّله بعد ما سمعه فإنّما إثمه على الذين يبدّلونه إنّ الله سميع عليم» (البقرة: ١٨٠ ـ ١٨١)

و قال: «و أولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إنّ الله بكلّ شيء عليم» (الأنفال: ٧٥)

و قال حكاية عن زكريّا ﴿عليه السلام﴾: «و إنّي خفت الموالي من ورائي و كانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك وليّاً يرثني و يرث من آل يعقوب و اجعله ربّ رضيّاً» (مريم: ٥ ـ ٦)

و قال: «و زكريّا إذ نادى ربّه ربّ لا تذرني فرداً» (الأنبياء: ٨٩)

و قال: «و ورث سليمان داود» (النمل: ١٦)

و قال: «و ما يعلم تأويله إلّا الله و الرّاسخون في العلم» (آل عمران: ٧)

في نهج البلاغة قال مولى الموحّدين يعسوب الدين الإمام عليّ ﴿عليه السلام﴾: «أين الذين

وزعموا أنّهم الراسخون في العلم دوننا؟ كذباً وبغياً علينا» نهج البلاغة، الخطبة ٤٤.

وفيه قال سيّد الوصيّين إمام المتّقين عليّ بن أبي طالب ﷺ: «فأين تذهبون؟ وأنّى تؤفكون؟ والأعلام قائمة! والآيات واضحة! والمنار منصوبة! فأين يُتاه بكم؟ بل كيف تعمهون وبينكم عترة نبيّكم؟ وهم أزمّة الحقّ وأعلام الدين وألسنة الصدق، فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن، وردوهم ورود الهيم العطاش ـ فلا تقولوا بما لا تعرفون، فإنّ أكثر الحقّ فيما تنكرون، وأعذروا من لا حجّة لكم عليه، وأنا هو. ألم أعمل فيكم بالثقل الأكبر، وأترك فيكم الثقل الأصغر، وركزت فيكم راية الإيمان ووقفتكم على حدود الحلال والحرام» نهج البلاغة، الخطبة ٨٦.

ومن المؤلم لمن له أدنى مسكة ودراية، وفقاهة وفطنة ولادة، أنّ حديث عدم توريث الأنبياء عليهم السلام الذي تفرّد به أبو بكر بن أبي قحافة غاصب فدك والخلافة مناف للكتاب والسنّة وسيرة الناس، وجميع الأمم وضرورة العقل جميعاً، ولكنّ الاستبداد بالرأي وحبّ الملك والرئاسة، والشهوة الحادّة والمقام والاشتهار والعصبيّة الجاهليّة لا تخضع ولا تعترف بشيء من ذلك كلّه، لأنّ حبّ الشيء يُعمي ويُصمّ.

وإنّي لا أظنّ أنّ أصحاب السقيفة المشؤومة وأذنابهم إلى يومنا هذا لا يعلمون ذلك، بل هم لا يعترفون بذلك لأمن رحمة الله تعالى ونجاة من حفرة الكفر والضلالة، من لجّة الانحطاط والدناءة، ومن ورطة الجهل والخيانة ككثير من المستبصرين في طيلة تاريخ الإسلام.

في تفسير العيّاشي عن أبي جميلة المفضّل بن صالح عن بعض أصحابه عن أحدهما عليهما السلام قال: «إنّ فاطمة عليها السلام انطلقت إلى أبي بكر فطلبت ميراثها من نبيّ الله ﷺ فقال: إنّ نبيّ الله لا يورّث، فقالت: أكفرت بالله وكذّبت بكتابه؟ قال الله تعالى: «يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظّ الأنثيين»

وفي تفسير التبيان: قال الشيخ الطوسي قدّس سرّه في قوله تعالى: «وإن كانت واحدة فلها النصف» يدلّ على أنّ فاطمة عليها السلام كانت مستحقّة للميراث لأنّه عام في كلّ بنت»

و في تفسير الفخر الرازي روي أنّ فاطمة عليها السلام لمّا طلبت الميراث و منعوها منه احتجّوا بقوله ﷺ «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة» فعند هذا احتجّت فاطمة عليها السلام بعموم قوله تعالى «للذكر مثل حظّ الأنثيين» و كأنّها أشارت إلى أنّ عموم القرآن لا يجوز تخصيصه بخبر الواحد.

ثمّ قال الفخر إنّ الشيعة قالوا إنّه غير جائز من ثلاثة وجوه:

أحدها ـ أنّه على خلاف قوله تعالى حكاية عن زكريّا ﷺ «يرثني و يرث من آل يعقوب» [مريم: ٦] و قوله تعالى «و ورث سليمان داود» [النمل: ١٦] قالوا و لا يمكن حمل ذلك على وراثة العلم و الدين لأنّ ذلك لا يكون وراثة في الحقيقة بل يكون كسباً جديداً مبتدأً، إنّما التوريث لا يتحقّق إلّا في المال على سبيل الحقيقة.

و ثانيها ـ أنّ المحتاج إلى معرفة هذه المسألة ما كان إلّا فاطمة و عليّ و العبّاس، و هؤلاء كانوا من أكابر الزهّاد و العلماء و أهل الدين و أمّا أبوبكر فإنّه ما كان محتاجاً إلى معرفة هذه المسألة البتّة لأنّه ما كان ممّن يخطر بباله أنّه يرث من الرسول ﷺ فكيف يليق بالرسول ﷺ أن يبلّغ هذه المسألة إلى من لا حاجة به إليها و لا يبلّغها إلى من له إلى معرفتها أشدّ الحاجة.

و ثالثها ـ يحتمل أنّ قوله «ما تركناه صدقة» صلة لقوله «لا نورث» و التقدير أنّ الشيء الّذي تركناه صدقة، فذلك الشيء لا يورث.

فإن قيل: فعلى هذا التقدير لا يبقى للرسول خاصّيّة في ذلك؟

قلنا: بل تبقى الخاصّيّة لاحتمال أنّ الأنبياء إذا عزموا على التصدّق بشيء، فبمجرّد العزم يخرج ذلك عن ملكهم، و لا يرثه وارث عنهم، و هذا المعنى مفقود في حقّ غيرهم.

ثمّ قال الفخر إنّ من الأحاديث المشهورة عن رسول الله ﷺ إذا روي لكم عنّي حديث فاعرضوه على كتاب الله فإن وافقه فاقبلوه و إلّا فردّوه.

ثمّ قال إنّ هذا الخبر يقتضي أن لا يقبل خبر الواحد إلّا عند موافقته للكتاب.

و في صحيح البخاري في غزوة خيبر و في صحيح مسلم ـ كتاب الجهاد ـ باب قول النبيّ ﷺ «لا نورث ما تركناه صدقة» عن عائشة «إنّ فاطمة بنت رسول الله

أرسلت إلى أبي بكر تسأله ميراثها من رسول الله ﴿ﷺ﴾ مما أفاء الله عليه بالمدينة وفدك وما بقي من خمس خيبر، فقال أبو بكر إن رسول الله ﴿ﷺ﴾ قال لا نورث ما تركناه صدقة إنما يأكل آل محمد في هذا المال، وإني والله لا أغير شيئاً من صدقة رسول الله عن حالها التي كانت عليها في عهد رسول الله ولأعملن فيها بما عمل به رسول الله ﴿ﷺ﴾ فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة شيئاً فوجدت من ذلك على أبي بكر وهجرته فلم تكلمه حتى توفيت»

رواه أبو بكر الجوهري البصري في كتاب السقيفة وفدك ونقله ابن أبي الحديد في شرح النهج وغيرهما.

وفي صحيح مسلم في باب الجهاد عن عائشة «أن فاطمة سألت أبا بكر بعد وفاة رسول الله ﴿ﷺ﴾ أن يقسم لها ميراثها مما ترك رسول الله ﴿ﷺ﴾ مما أفاء الله عليه، فقال لها أبو بكر إن رسول الله ﴿ﷺ﴾ قال لا نورث ما تركنا صدقة، وكانت فاطمة تسأل أبا بكر نصيبها مما ترك رسول الله ﴿ﷺ﴾ من خيبر وفدك وصدقته بالمدينة، فأبى أبو بكر عليها ذلك، وقال لست تاركاً شيئاً كان رسول الله ﴿ﷺ﴾ يعمل به إلا عملت به فإني أخشى أن تركت شيئاً من أمره أن أزيغ، فأما صدقته بالمدينة فدفعها عمر إلى علي وعباس، فغلبه عليها علي، وأما خيبر وفدك فأمسكهما عمر وقال هما صدقة رسول الله ﴿ﷺ﴾ كانتا لحقوقه التي تعروه ونوائبه وأمرهما إلى من ولي الأمر قال فهما على ذلك إلى اليوم»

ولا يخفى على المتدبر في هذين الخبرين دلالة على أن متروكات النبي ﴿ﷺ﴾ كانت صدقة في أيامه، وهذا مستفاد من كلام أبي بكر فلا يعتمد عليه لأن متروكات النبي ﴿ﷺ﴾ لو كانت من الصدقات في زمانه لما كان محل لروايته «أن الأنبياء لا يورثون» إذ لا ميراث حتى يحتاج إلى رواية هذا الحديث، وإن كان تمسكاً برسول الله ﴿ﷺ﴾ كان خوف أبي بكر من مخالفة عمل النبي ﴿ﷺ﴾ تقشفاً كذباً لأن عمل رسول الله ﴿ﷺ﴾ حيث وقع كان بنحو الملك، فلا يلزم أبا بكر أن يعمل كعمله ولو صارت برغم أذناب أصحاب السقيفة المشؤومة صدقة من سائر صدقات المسلمين التي يجوز لأبي بكر أن يخصص بعضهم فيها كما خص هو علياً بسلاح النبي ﴿ﷺ﴾ وبغلته بعنوان النحلة كما

ادّعوه، وخصّ عمر علياً و العبّاس بصدقة المدينة و بذلك نقض أبابكر و جماعته عمر قد اعتقد فدكاً و خيبر طعمة لأنفسهما، و منع فاطمة الزهراء سلام الله عليها فدكاً و سهمها من خيبر.

قال بعض أذناب السّقيفة: إنّ المراد من الميراث الوارد في النّصوص على أنّ الأنبياء يورّثون كقوله تعالى: «و ورث سليمان داود» (النمل: ١٦) هو ميراث العلم و النّبوّة و الحكمة، كما أنّ المراد من الميراث في دعاء زكريّا ﴿ع﴾ هو ميراث النّبوّة و الحبورة و إلّا لم يستجب دعاؤه لأنّ يحيى قتل قبل زكريّا فلا يصحّ حمله على إرث المال و هو لم يرث منه.

أقول: و هذا مردود فإنّه مخالف للظاهر و غير صحيح عقلاً لأنّ سليمان كان نبيّاً في حياة أبيه داود عليهما السّلام فكيف يرث منه النّبوّة التي سبقت بالوراثة، و كذا العلم لقوله سبحانه: «و لقد آتينا داود و سليمان علماً» «و ورث سليمان داود» (النمل: ١٥-١٦) فإنّه يدلّ على أنّ كلاً منهما قد أوتي علماً لا أخذه بالوراثة، و قد قال تعالى: «ففهّمناها سليمان» (الأنبياء: ٧٩) فقوله عزّوجلّ «و ورث» يدلّ على أنّه ورثه من أمر آخر غير العلم، و ينصرف إلى المال، و تدلّ الآية سبحانه بالمقال بدلالته على أنّه بقي بعده، و أنّ الأنبياء تورّث المال و ترث منه.

و أمّا ما ذكره في دعاء زكريّا ﴿ع﴾ فمردود أيضاً بوجوه:

منها أنّ إرادة النّبوّة و الحبورة من الميراث خلاف الظّاهر المنصوص و الوارد عن طريق أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين و مخالفيهم جميعاً، و أكثر أئمّة مفسّري العامّة قال الرّازي في تفسيره: لأنّه تكرّمه: اختلفوا في المراد بالميراث على وجوه:

أحدها - أنّ المراد بالميراث في الموضعين هو وراثة المال، و هذا قول ابن عبّاس و الحسن و الضّحّاك.

و ثانيها - أنّ المراد في الموضعين وراثة النّبوّة و هو قول أبي صالح.

و ثالثها - يرثني المال و من آل يعقوب النّبوّة و هو قول السّدي و مجاهد و الشّعبي و روي أيضاً عن ابن عبّاس و الحسن و الضّحّاك.

ورابعها: يرثني نعمة ويرث من آل يعقوب النبوة، وهو مروي عن مجاهد.

وحكى السيوطي في الدر المنثور عن عبد بن حميد أنه أخرج عن ابن عباس قال: "كان زكريا لا يولد له فسأل ربه فقال: رب هب لي من لدنك وليًّا يرثني ويرث من آل يعقوب" قال: يرثني مالي ويرث من آل يعقوب النبوة.

ومنها أنهم يدعون على شيء حتى قبل موت صاحبه فإنهم من قبيل يدعون على خلاف ما أمر الله عز وجل، فقال تعالى حكاية عن زكريا ﴿ﷺ﴾: "وإني خفت الموالي من ورائي فهب لي من لدنك وليًّا يرثني" (مريم ٥-٦) فإنه يستفاد من هذه الآية أن زكريا كان حيًّا بعد موت ... ويستفاد منه أن ... بعد موت الأموات.

ومنها أنه لا بد من أن يتحلى به على مراتب قبل النبوة والعلم والحكمة بوجوه:

الأول: أن يحيى كان نبيًّا في حياة أبيه وهو صبي لقوله تعالى: "يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيًّا" (مريم ١٢) فلا معنى لأن يكون وارث النبوة من أبيه مع أن النبوة للأنبياء وعلمهم وحكمتهم لدنية ولا تكتسب بالتعلم أو بالميراث.

قال الله تعالى في عيسى بن مريم ﴿ع﴾: "ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل" (آل عمران ٤٩)

وقال في رسول الله ﴿ﷺ﴾ والأنبياء عليهم السلام: "وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم"، "إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده" (النساء ١١٣ و ١٦٣)

وقال: "وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار" (ص ٤٨)

الثاني: أن الموالي كانوا شرار بني إسرائيل فلا يجوز أن يرثوا النبوة حتى يخافهم من ورائه، ويدعو أن يهب الله تعالى له وارثًا غيرهم، ولو فرض ممكنًا ... فلا وجه لخوفه من إرثهم النبوة لأنها تحت مشيئة الله تعالى على نحو هو كما يرى، بل ينبغي سروره بذلك لخروجهم من الضلال إلى الهدى، ودعوى أنه ما خاف أن يرثوا النبوة بل

خاف أن يضيعوا الدّين و يغيّروه فدعا ربّه أن يهب له ولداً خاصّته الدّين ما يقفهم على الفساد فموقعه بعدها عن سياق الآيات و خصوصيّات الكلام التي منها أنّه طلب وليّاً و هو لا خصوصيّة له في تحصيل هذا الغرض و طلب أن يكون رضيّاً من دون قيد التمكّن من دفعهم عن الفساد

الثالث: أنّه لو كان المراد وليّاً وارثاً للنبوّة لكان سؤاله أن يجعله رضيّاً لغواً إذ لا تكون النبوّة إلّا لرضيّ، و خفي أنّ جوهر التّعقيبة كما يشهد له ما حكاه السّيوطي في الدرّ المنثور عن ابن أبي حاتم أنّه أخرج عن محمّد بن كعب قال «قال داود: يا ربّ هب لي ابناً، فوهب له ابناً خرج عليه، فبعث الله إليه: يا داود! ... قال: ربّ إنّي سألت أن تهب لي ابناً مخرج عليّ؟ قال: إنّك لم تستثن» قال محمّد بن كعب: لم يقل كما قال زكريّا «واجعله ربّ رضيّاً»

هذا ولا يستبعد من زكريّا أن يطلب وارثاً لماله، وإن لم يدخل المال تحت نظر الأنبياء، لأنّه خاف أن يرث أمواله مواليه، فيستعينون به على معاصي الله تعالى، و لا يمكن بأنّه إذا خاف ذلك أمكنه أن يتصدّق بماله، فيحصل له ثواب الصّدقة، و يتمّ غرضه، و ذلك لأنّه لا يرجح أن يفقر نفسه بالإنفاق بتمام ماله، وكيف لا وقد أخرجه في آية قال الله تعالى: «ولا تبسطها كلّ البسط فتقعد ملوماً محسوراً» الإسراء: ٢٩ على أنّ طلب الولد الصّالح الّذي يستفيد أبوه بدعائه و بتربيته و علمه أولى من التّصدّق

في شرح ابن أبي الحديد: قال المرتضى: وممّا يقوّي ما قدّمناه أنّ زكريّا ﴿عليه السلام﴾ خاف بني عمّه، فطلب وارثاً لأجل خوفه، و لا يليق خوفهم إلّا بالمال دون العلم و النّبوّة لأنّه ﴿عليه السلام﴾ كان يعلم أنّ الله تعالى لن يبعث نبيّاً ليس بأهل للنّبوّة، وأن يورث علمه و حكمه من ليس أهلاً لهما

و في ملحقات إحقاق الحقّ ج ١ ص ٣٧٧ ط هند: قال المولويّ اللاهوري «النّبيّ أنّ الأنبياء السّابقين قد ورثوا أبناءهم كما قال الثّعلبي في العرائس بمجالس ص ٤٠٠ «وورث سليمان داود» النّمل ١٦، يعني نبوّته و حكمته و علمه و ملكه» و في البيضاوي، و الكشّاف، و بحر المعاني و المدارك، و المعالم، و ربيع الأبرار للزّمخشري، تحت قوله تعالى «إذ عرض

عمدة» ص ٣١) الآية وورث سليمان من أبيه داود ألف فرس . « قال النووي في (ص ٤٣٤) عن الحسن البصري «يرثني و يرث من آل يعقوب» المراد وراثة المال، و لو أراد وراثة النبوّة لم يقل «و إنّي خفت الموالي من ورائي » لأنه لا يخاف الموالي على النبوّة

قال ابن عبّاس و مجاهد و قتادة و أبو صالح و ابن جرير خاف زكريّا أن يرثوا ماله و قال ابن جرير في قوله تعالى «هب لي من لدنك وليّاً يرثني» يقول زكريا فارزقني من عندك ولداً وارثاً و معيناً، يرثني من بعد وفاتي مالي، و يرث من آل يعقوب النبوّة

فقد جاءت الآيات الكريمة في ذكر الميراث بشكل مطلق دون أن تستثني الأنبياء منه كقوله عزّ وجلّ «يوصيكم الله في أولادكم للذّكر مثل حظّ الأنثيين» النساء ١١)

و ورثت الأنبياء الذين سبقوا محمّداً رسول الله (صلى الله عليه وآله) كقوله تعالى «و ورث سليمان داود» النمل: ١٦).

و قوله سبحانه: «يرثني و يرث من آل يعقوب» مريم: ٦)

و لقد أشارت الصدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها إلى ذلك كلّه في مناقشتها لأبي بكر غاصب الخلافة بمحضر جماعة من الصّحابة، ثمّ ختمت محاورتها مع هذا الغاصب الجاهل قائلة

«فدونكها مخطومة مرحولة، تلقاك يوم حشرك فنعم الحكم الله و الموعد القيامة، و عند السّاعة يخسر المبطلون...»

«يابن أبي قحافة أفي كتاب الله أن ترث أباك و لا أرث أبي؟ لقد جئت شيئاً فريّاً، أفعلى عمد تركتم كتاب الله و نبذتموه وراء ظهوركم؟

ألم تسمع قوله تعالى «و أولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله؟

أخصّكم الله بآية أخرج أبي منها؟ أم تقولون أهل ملّتين لا يتوارثان؟

أولست أنا و أبي من أهل ملّة واحدة؟ أم أنتم أعلم بخصوص القرآن و عمومه من أبي و ابن عمّي؟

و لمّا رأت الصّدّيقة الطّاهرة عليها السلام أنّ غاصب الخلافة و جاهل الكتاب و السّنّة، و مخالف سيرة الأنبياء، و مغرور العقل يصرّ على رأيه المستبد تركت الأمر و أعرضت عنه

ويلوح للباحث الخبير أنّ الصّدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها كانت عارفة منذ البداية أنّ غاصب الخلافة لا يعيدها فدك، وأنّها ذهبت إليه لإلقاء الحجّة وليتمّها عليه وعلى أذنابه إلى يوم القيامة، وتعلن عليهم أنّها لم تعترف من حيث الأساس بشرعيّة خلافته، وأنّ الشّخص الّذي له القدرة والجرأة على غصب الخلافة من صاحبها الشّرعي فهو أقدر على غصب فدك وأمثالها من صاحبها. وأنّ غصب الخلافة وفدك من صاحبها لا يدلّ على كون الغاصب محقّاً وأنّه صاحبها شرعاً أبداً.

وإذا أمعن القارئ النّظر في الحديث المختلق الّذي تقوّل به أبوبكر غاصب الخلافة وفدك هادم أساس الإسلام في ضوء سيرة النّبيّ الكريم ﴿ﷺ﴾ بصورة عامّة أمكنه أن يقول:

إنّ رسول الله ﴿ﷺ﴾ لم يستثن نفسه من الخضوع للقواعد العامّة الّتي جاء بها الإسلام ثمّ عرف عنه أنّه قال: «نحن معاشر الأنبياء لا نصلّي أو لا نصوم»؟ فكيف يعزل نفسه عن نصب الخليفة بعد وفاته، والخلافة بعده هي روح الإسلام أوّلاً، ثمّ يعزل عن ميراث فدك بعد وفاته وهي جسم الإسلام فهدم بنفسه أساس الإسلام روحاً وجسماً؟! فهل لقصّة فدك جانب سياسيّ؟ هل قصد رسول الله ﴿ﷺ﴾ بذلك أن يخضع ابنته الصّدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها وزوجها أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﴿؏﴾ لأوامر غاصب الخلافة لإرغامها على الاعتراف بخلافته الّتي نالها بالقعود والاغتصاب؟

وهل لهذا الموضوع جانب اقتصاديّ؟ هل قصد بذلك حرمان عليّ بن أبي طالب ﴿؏﴾ من التّمتّع بواردات فدك وهي موارده الوحيدة لكيلا يصبح مكتفياً من النّاحية الاقتصاديّة، وينصرف بذلك عن المطالبة بالخلافة؟

هل للموضوع فدك جانب ماليّ يتّصل بوضع الدّولة الإسلاميّة آنذاك وحاجتها إلى المال لمواجهة الّذين اتّهموا بالارتداد عن دفع الزّكاة؟

هل لقضيّة فدك جانب معنويّ يتعلّق بمحاولة تضعيف موقف آل النّبيّ الكريم ﴿ﷺ﴾ عند عامّة المسلمين؟ فيقال إنّ رسول الله ﴿ﷺ﴾ قد حرمهم كلّ شيء حتّى ميراثه من فدك؟ فتضعف حجّتهم بالمطالبة بالخلافة؟ هل للموضوع فدك أكثر من عامل واحد؟ ثمّ

لماذا وضع رسول الله (ﷺ) ـ إن صح الحديث الذي استشهد به غاصب الخلافة ـ صيغته بهذا الشكل من الإطلاق بحيث جعله يشمل معاشر الأنبياء كافة؟ ما الهدف الذي كان يرمي إليه رسول الله (ﷺ) من هذا الحديث؟

هل كان يخشى رسول الله (ﷺ) أن تتصرف ابنته الصديقة الطاهرة سلام الله عليها بعوائد فدك في غير أوجهها الشرعية، وإذا كان الأمر كذلك فلماذا وضعها تحت تصرفها في حياته! ولماذا أمر الله تعالى رسوله (ﷺ) بإعطاء فدك لفاطمة الزهراء عليها السلام.

ويجمل بنا قبل أن نتصدى لبحث فدك من الناحية التاريخية أن ننبه القارئ إلى أننا عثرنا على نقاش رائع من حيث الفكرة والأسلوب حصل بين قاضي القضاة والشريف المرتضى ذكره ابن أبي الحديد، فالقاضي يدعي نفي توريث الأنبياء، والمرتضى الشيعي يثبته، والقاضي يدلل على رأيه بأن ما ورد في القرآن لا يختص إلا بوراثة العلم والنبوة والحكمة، والشيعي يبرهن على أن القرآن يخص المال والعقار أولاً، ومن ثم العلم والنبوة من باب التجوز، وإن كلمة ميراث في اللغة، وما يتصل بها من المشتقات تعني ميراث الأمور المعنوية من باب التجوز والاتساع، وإن استعملت في ذلك في بعض الألفاظ على معنى المجاز فلا يجب أن يقتصر عليه، بل يجب أن نحمل معناها على الحقيقة التي هي الأصل إذا لم يمنع من ذلك مانع، ولو فرضنا جدلاً أن الميراث مقتصر على العلم والنبوة والحكمة، ألا يكون آل النبي الكرام (ﷺ) بحكم ذلك الميراث أولى من غيرهم بالخلافة.

ذلك ما يتصل بموضوع فدك من ناحية الميراث

أما ما يتصل به من ناحية النحلة فقد ذكرت الصديقة الطاهرة سلام الله عليها لأبي بكر الغاصب

أن رسول الله (ﷺ) قد وهبها فدك، فطلب أبو بكر منها البينة على ذلك، فقدمت له علياً (ع) وأم أيمن ـ مربية رسول الله (ﷺ) ـ فلم يلتفت إلى ذلك، وبدا كالمشكك في شهادة سيدة، فلو كان لأبي بكر أن يسمو على التشكك، فليس من المتوقع أن تكذب الصديقة الطاهرة عليها السلام على أبيها بعد وفاته بعشرة أيام فقط، وفي عشية وفاته كذلك أو أن تكذب أم أيمن العجوز الجليلة التي رعت رسول الله (ﷺ) من المهد إلى اللحد، ثم

أيمن التي خرجت مهاجرة مع رسول الله ﴿ﷺ﴾ من مكة إلى المدينة، وهي ماشية، وليس معها زاد ــ أمّ أيمن زوج زيد بن حارثة مولى النبيّ الكريم ﴿ﷺ﴾ وأمّ أسامة بن زيد! أو أن يكذب عليّ بن أبي طالب ﴿ع﴾!

ولا ندري كيف فات أبا بكر ــ وهو يعلم علم وحبّ النبيّ نعمى وبعض ــ أن يتذكّر أنّ الله تعالى قد نزل قرآناً في عليّ بن أبي طالب وفاطمة الزهراء عليهما السلام وأذهب عنهما الرجس وطهّرهما تطهيرا

وفي ذلك الموقف اكتفى أبو بكر ــ ولأنّ حبّ النبي نعمى وبعض ــ برد به الصدّيقة الطاهرة عليها السلام وحدها كما تكلم أبوه قبل ذلك حتى نازعه العراق في ذلك ادّعى كلّ منهما أنّه ذلك فشهد حرية بن ثابت رسول الله ﴿ﷺ﴾ فأجاز شهادته وجعلها شهادتين فسمّي ذا الشهادتين ولكن موضوع الصدّيقة الطاهرة ــ مع هذا لا تحتاج إلى شهود ــ ذلك لأنّها ورثت الرسول عن أبيها كما روى أبو بكر وأنه يجري على فرض صحتها، وأنّ الصدّيقة الطاهرة لم يطلب منه بيّنة على ما ادّعاه على الرغم من يقينها في احتلافه لأنّها تعلم علم اليقين أنّ الملك عباده وحقه وما الشهود فوقعهم في الدعوى

استمع إلى قوله تعالى: «يا أيّها الّذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمّى فاكتبوه ... واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان» البقرة ٢٨٢،

والحجة التي تسند إليها في إثبات شهادة الصدّيقة الطاهرة عليها السلام أنّ موقعها عند رسول الله ﴿ﷺ﴾ ــ من حيث صدقها ــ لا يقلّ على سبيل الفروض، عن موقع حزيمة بن ثابت

ويصدق الشيء نفسه على أمّ أيمن، وعلي بن أبي طالب ﴿ع﴾ الذي لم يعرف عنه قطّ إلاّ اتّباع الحقّ وقول الصدق فموقف أبي بكر غريب في بابه، وأغرب منه أنّه ترك سيف رسول الله ﴿ﷺ﴾ ونعله وعمامته، في يد عليّ بن أبي طالب ﴿ع﴾ على سبيل النحلة بغير بيّنة ظهرت ولا شهادة قامت، كما أنّه لم ينزع من عليّ ﴿ع﴾ الخاتم والبغلة اللذين وهبهما له رسول الله ﴿ﷺ﴾ أثناء مرضه، ولم يطالب كذلك بثياب رسول الله ﴿ﷺ﴾ التي مات فيها، فأخذتها فاطمة الزهراء عليها السلام بعد موته ﴿ﷺ﴾ ولا بحجر رسول

الله ﴿ﷺ﴾ التي بعثت بعد وفاته. لم تكن تلك الأشياء متروكات النبيّ ﴿ﷺ﴾ لابدّ وأن تكون صدقة إذ لم يترك ﴿ﷺ﴾ شيئاً منها حسب رواية أبي بكر «نحن معاشر الأنبياء لانورّث ما تركناه صدقة»

ولم يطلب أبو بكر من جابر على ما رواه البخاري في صحيحه ج ٣ ص ٨٠) البيّنة على دعواه حين زعم أنّ رسول الله ﴿ﷺ﴾ وعده بإعطائه مقداراً معيّناً من المال، بل سلّمه إيّاه عندما ورد مال من قبل العلاء بن الحضرمي، كما أنّ أبا بكر أيضاً لم يطلب البيّنة ـ عندما قدم عليه مال من البحرين ـ من أبي بشير المازني حين ادّعى أنّ النبيّ ﴿ﷺ﴾ قال له إذا جاءنا شيء فأت، وبذا دفع له حفنتين أو ثلاثاً من ذلك المال

وإذا كان النبيّ الكريم ﴿ﷺ﴾ لا يورّث وما تركه صدقة، فكيف يجوز أن يوارى جثمانه في الحجرة التي كانت تسكنها زوجته عائشة بنت أبي بكر غاصب الخلافة؟ لأنّ تلك الحجرة قد أصبحت صدقة بعد وفاة رسول الله ﴿ﷺ﴾ مباشرة بحكم ذلك الحديث

ثمّ كيف نوفّق بين ذلك الحديث، والحديث الآخر الذي تفرد بذكره أبو بكر القائل بأنّ الأنبياء يدفنون حيث يقبضون؟ أيّ الحديث ناسخ و منسوخ؟ ثمّ كيف يعتمد أبو بكر محتويات «الحديثين» على تناقضهما؟

وبقدر ما يتعلّق الأمر بالحديث الذي يمكن أن نقول إنّ النبيّ توفّي في أحد موضعين ما كان يملكه قبل وفاته! وما كان يملكه غيره من الناس ولا يجوز أن يدفن جثمانه في المحلّ الأوّل لأنّه أصبح صدقة على رواية أبي بكر عن النبيّ ﴿ﷺ﴾ كما لا يجوز دفنه في المحلّ الثاني لأنّ ملكيّته عائدة لغيره، كيف السبيل إلى الخروج من هذا المأزق الحرج؟

ثمّ كيف جاز لأبي بكر نفسه أن يطلب دفن جثمانه قرب النبيّ ﴿ﷺ﴾ في أرض لا حقّ له بها من الناحية الشرعيّة؟ وإذا كان دفن جثمان النبيّ ﴿ﷺ﴾ على الشكل الذي ذكرناه مستنداً إلى الحديث الذي ذكره أبو بكر، فإلى أيّ حديث يستند أبو بكر في طلب دفنه بجوار النبيّ الكريم ﴿ﷺ﴾ هل قال رسول الله ﴿ﷺ﴾ يدفن أبو بكر قريباً منه؟.

كل ذلك غريب في بابه، وأغرب منه أنّ بعض المفسّرين قد تكلّفوا فيما بعد تفسير آيات الميراث، فزعموا الردّ على من طعن بصحّة الحديث المختلق بأنّ الورثة المذكورة في

القرآن الكريم مقصورة على العلم والنّبوّة والحكمة دون سائر الأمور تفسيراً برأيهم غافلين عن الحديث المتواتر قال رسول الله (ﷺ) «من فسّر القرآن برأيه فليتبوّأ مقعده من النّار» ولسنا نعلم كيف يورث العلم والنّبوّة والحكمة وهو أمر يخالف ما ألفه النّاس من قديم الزّمان، وتتعارض مع أبسط مبادىء علم النّفس وعلم الاجتماع؟

وأغرب من ذلك كلّه أنّ أبابكر غاصب الخلافة وفدك، غرّم الصّدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها فدكاً لتطبيق الحديث الّذي انفرد بذكره في الوقت الّذي خالف فيه حديثاً آخر أجمع الرّواة على صحّته باعتراف أبي بكر نفسه «فاطمة بضعة منّي، من آذاها فقد آذاني، و من آذاني فقد آذى الله»

ولا ندري بالإضافة إلى ذلك كلّه كيف فات أبابكر أن يتذكّر موقف رسول الله (ﷺ) من أبي العاص بن الرّبيع زوج زينب بنت خديجة زوج النّبيّ (ﷺ) حين أسر في بدر مع المشركين

وإلى القارىء نبذة القصّة، ما رواه ابن الأثير في الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٩٣-٩٥،

وكانت أمّ زينب، هالة بنت خويلد أخت خديجة زوج النّبيّ (ﷺ)، فسألته أن يزوّجه زينب ففعل قبل أن يوحى إليه. فلمّا أوحي إليه آمنت به زينب و بقي أبو العاص على شركه، ولم يستطع رسول الله (ﷺ) في بادىء الأمر أن يفعل شيئاً تجاه زينب المسلمة أو زوجها المشرك. فلمّا هاجر إلى المدينة و وقعت بدر، و أسر أبو العاص و أطلق سراحه، أخبر رسول الله (ﷺ) بأنّه سوف يرسل إليه زينب إلى المدينة. فأرسل الرّسول زيد بن حارثة مولاه و رجلاً آخر من الأنصار ليصحبا زينب من مكّة. فلمّا قدم أبو العاص أمرها باللحاق بالنّبيّ (ﷺ) ففعلت ذلك

وكان في الأسارى أبو العاص بن الرّبيع بن عبدالعزّى بن عبد شمس زوج زينب بنت خديجة فلمّا بعثت قريش في فداء الأسارى بعثت زينب بفداء أبي العاص زوجها بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها معها، فلمّا رآها رسول الله (ﷺ) رقّ لها رقّة شديدة و قال «إن رأيتم أن تطلقوا أسيرها و تردّوا عليها الّذي لها فافعلوا، فأطلقوا لها أسيرها و ردّوا القلادة

فلمّا كان قبيل الفتح خرج أبو العاص تاجراً إلى الشام بأمواله وأموال رجال قريش، فلمّا عاد لقيته سرية رسول الله (ص) فأخذوا ما معه وهرب منهم، فلمّا كان الليل أتى إلى المدينة فدخل على زينب، فلمّا كان الصبح خرج رسول الله (ص) إلى الصلاة فنادت زينب من صفة النساء: أيّها الناس إنّي قد أجرت أبا العاص. فقال رسول الله (ص) للسرية: إن رأيتم أن تردّوا عليه الذي له فإن أبيتم ذلك فهو فيء الله الذي أفاء عليكم وأنتم أحقّ به.

فقالوا: يا رسول الله نردّه عليه. فردّوا عليه ماله كلّه حتى الشظاظ وهو خشبة عقفاء تجعل في عروتي الجوالقين.

فإذاً يقال ألم يكن باستطاعة أبي بكر ـ في حادثة تشبه هذه ـ أن يتقدّم لفاطمة عليها السلام: لا نورث نبيّاً، وإن شيئاً بكراً لم يهب فدكاً ـ إن فرض ـ أن يتّخذ موقفاً كهذا الذي شرع به؟ مع وجود أمثال ذلك الكثير من الحالات، فقد وهب المسلمون حقّهم لأبي العاص المشرك وكان هذا دون سابقة على الصعيد الدولي، ووهب حقوقهم ـ في حالة السلم ـ لمصلحة الإجراءات التي اتّخذها خاصّة بعلاقته وبما يتعلّق بابنة رسول الله (ص). ألم تكن تصرّفات رسول الله (ص) مع أبي العاص ـ في حادثة سنّة؟ فهل يعتبر تراث أبي بكر هذا في هذه الحادثة ـ منسجماً مع سنّته؟ فهل الخلافة من دون السنّة أشبه بأشباه الشؤمة يستحلّون أنفسهم إلى هذه السنّة؟ أم إلى سنّة من آل فرعون كما قال يعسوب الدين أمير المؤمنين الإمام علي (ع).

في نهج البلاغة «قد صاروا في الحيرة وذهلوا في السكرة على سنّة من آل فرعون من منقطع إلى الدنيا راكن، أو مفارق للدين مباين» الخطبة ١٥٠.

وفي كشف الغمّة للعلامة الإربلي، قال: قال شريك: «كان يجب على أبي بكر أن يعمل مع فاطمة بموجب الشرع، وأقلّ ما يجب عليه أن يستحلفها على دعواها أنّ رسول الله (ص) أعطاها فدك في حياته، فإنّ عليّاً وأم أيمن شهدا لها، وبقي ربع الشهادة، فردّها بعد الشاهدين لا وجه له، فإمّا أن يصدّقها أو يستحلفها ويمضي الحكم لها، فقال شريك: الله المستعان! مثل هذا الأمر يجهله أو يتعمّده؟!» انتهى كلامه.

﴿ فتوى سياسيّة لأبي بكر بن أبي قحافة
في غصب فدك و الخلافة ﴾

و من البداهة لمن كان له أدنى مسكة دراية و طيب ولادة أنّ الفتوى السياسيّة في كلّ ظرف من الظروف لا تبتني على أدلّة الاجتهاد و قواعد الاستنباط من الكتاب و السنّة و العقل السليم، و الإجماع الثابت بل إنّما تبتني على الاستبداد و الحميّة الجاهليّة و القوّة القهّارة و حبّ المال و الجاه و حبّ الرئاسة و الدنيا، و حبّ الشهوة و الاشتهار و شعارها الحكم لمن غلب و قد سار على هذا المنطق المستدلّ الإمام علي ﴿عليه السلام﴾ بقوله في نهج البلاغة «اللّهمّ إنّي أستعديك على قريش و من أعانهم، فإنّهم قد قطعوا رحمي، و أكفؤوا إنائي، و أجمعوا على منازعتي حقّاً كنت أولى به من غيري و قالوا: ألا إنّ في الحقّ أن نأخذه، و في الحقّ أن نمنعه فاصبر مغموماً أو مت متأسّفاً» الخطبة ٢٠٦ و على هذا المنطق غصب أبوبكر فدك من الصدّيقة الطاهرة عليها السلام، و حرّم عليها إرثها عليها مستنداً إلى ما رواه منفرداً عن رسول الله ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ «إنّ الأنبياء لا يورّثون» و هو مناقض لآيات الإرث في كتاب الله و سنّة رسوله ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ و سيرة الصحابة و جميع الأمم في كلّ ظرف من الظروف و عصر و زمن.

و على هذا الاستبداد و الخطّة جعلها الشيطان، و كان أوّل من اجتهد في مقابل النصّ و تخلّف عن أمر الله تعالى و أبى و استكبر و كان من الكافرين.

قال الله عزّ وجلّ «فسجد الملائكة كلّهم أجمعون إلّا إبليس استكبر وكان من الكافرين قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيديّ أستكبرت أم كنت من العالين قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين» ص ٧٣ ـ ٧٦.

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين سيّد الوصيّين إمام المتّقين عليّ بن أبي طالب (ع): «فقال سبحانه وهو العالم بمضمرات القلوب ومحجوبات الغيوب "إنّي خالق بشراً من طين فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلّهم أجمعون إلّا إبليس" اعترضته الحميّة فافتخر على آدم بخلقه، وتعصّب عليه لأصله. فعدوّ الله إمام المتعصّبين وسلف المستكبرين، الّذي وضع أساس العصبيّة، ونازع الله رداء الجبريّة، وادّرع لباس التعزّز، وخلع قناع التذلّل» الخطبة ٢٣٤.

وإنّي لا أظنّ أحداً ممّن له أدنى مسكة ودراية وحسب ولادة أن يشكّ في أنّ أساس الفتوى السياسيّة هذه أجمع أكثرهم بل كلّهم في أبي بكر بن أبي قحافة وفي خليفة عمر بن الخطّاب في غصب الخلافة من صاحبها الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (ع) أوّلاً في أوّل يوم وفاة رسول الله (ص) وفي غصب فدك من صاحبتها الصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء سلام الله عليها ثانياً في هذا اليوم ـ وهو الأظهر ـ أو في غده على اختلاف.

وقد كان عذر أبي بكر فتواه هذه أنّها سياسيّة صدرت حفاظاً على الخلافة الإسلاميّة ـ لضمّ بيعة فاطمة الزهراء، وأولادها سلام الله عليهم ـ المادّيّة ـ إلى بيعتهم الزوجيّة ـ يستأثرها خليفة المسلمين ولكي يبعدهم عن كلّ حركة ضدّ الحكم الإسلامي!

ثمّ ترى الصدّيقة الطاهرة عليها السلام تحتجّ على الخليفة أمام المسلمين لا رغبة في مال الدنيا، وإنّما لكي يعرف المسلمون مدى رعاية الخليفة لحقوق الإلهيّة. فلا يستغفلوا أنّ الخليفة غصبها عن أهلها، إذ من لا يغضّ النظر عن المال، فكيف يغضّه عن الخلافة والملك عقيم، وحبّ الشيء يعمي ويصمّ؟!

فلا تبالي من فتوى سياسيّة أن تفرد في فتوى، تخالف كتاب الله وسنّة رسوله (ص) وتبغض الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها الّتي صدّقها رسول الله (ص) ورفعها إلى درجة العصمة والطهارة، ثمّ يسند هذه الفتوى إلى رسول الله (ص) بل إلى

الأنبياء جميعاً إذ قال خاتمهم «نحن معاشر الأنبياء لانورّث ما تركناه صدقة» و هذه الرّواية على فرض صدقها لاتدلّ على ما ادّعاه أبوبكر منها، فإنّ المعنى الظّاهر أنّ «ما تركناه» مفعول «لانورّث» و «صدقة» تمييز أي إنّ متروكاتنا ليست صدقة مباحة لكافّة المسلمين، من إرث لورثتنا كسائر النّاس، و لو كان المعنى ما ادّعاه أبوبكر لقال «و ما تركناه» لا «ما تركناه» و لكنّ الكاذب المجعول ناسي

و قال بعض المحقّقين تنقيحاً منّا: إنّ الدّعوى على أنّ فدك كانت إرثاً للصّدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها من أبيها ﴿ﷺ﴾ مبنيّة على مقدّمتين

الاولى. أنّ فدك كانت لرسول الله ﴿ﷺ﴾ في حين وفاته إذ لاشبهة في ذلك على تقدير عدم إعطائها لفاطمة الزّهراء عليها السلام من باب النّحلة والعطيّة لكونها ممّا أفاء الله تعالى على رسوله ﴿ﷺ﴾ بإجماع الفريقين و الرّوايات المتضافرة الّتي سبق ذكرها، و لم يحصل منه انتقال بعد للصّدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها بإجماع الأمّة، فلو فرضنا عدم كونها نحلة لفاطمة الزّهراء عليها السلام فلابدّ وأن تكون باقية على ملكه ﴿ﷺ﴾ في حين وفاته

و هذا مسلّم عند الخصم أيضاً إذ لم يتمسّك أبوبكر في ردّ الصّدّيقة الطّاهرة صلوات الله عليها إلّا بالخبر المختلق الّذي نسبه إلى رسول الله ﴿ﷺ﴾ «نحن معاشر الأنبياء لانورّث ما تركناه صدقة» فجعل فدكاً من متروكات النّبيّ ﴿ﷺ﴾ إلّا أنّه ادّعى أنّ رسول الله ﴿ﷺ﴾ قال: ما تركه الأنبياء لايكون إرثاً، بل هو صدقة بين المسلمين. و لم يقل أحد أيضاً إنّ الأنبياء لايملكون بأنفسهم شيئاً في حياتهم، و إنّ كلّ ما يملكونه هو صدقة، و لايدّعيه أحد بالمرّة و هو خلاف الضّرورة، فمراد من روى الرّواية أنّ الأنبياء يملكون الأموال الّتي بيدهم مثل سائر النّاس ولكن ما تركوه من أموالهم يكون صدقة بعد موتهم، فلا يقسّم بين الورثة

الثّانية ـ أنّ ورثته ﴿ﷺ﴾ كانت منحصرة في الصّدّيقة الطّاهرة عليها السلام، فهي وحدها كانت وارثة لأبيها، و أنّ الأزواج فليس لها حصّة إرث من العقار و الضّيعة على المشهور بين الامّة، فثبت على تقدير عدم كون فدك نحلة لها من أبيها أنّها حقّها من جهة

الإرث البتّة للإجماع وعمومات الآيات المورّثة، والنصوص المتضافرة الدالّة على انتقال مال الميّت لورثته، وأنّ ما تركه الميّت فهو لورثته.

ولم يدلّ دليل على كون عدم التوريث من خصائص الأنبياء عليهم السلام، ولا نقل القول بذلك من أحد من المتقدّمين والمتأخّرين، وأصالة الاشتراك في الأحكام حاكمة بكونهم كسائر الناس إلّا ما خرج بدليل دالّ على خلاف تلك الأصالة.

وأمّا رواية أبي بكر التي قد تفرّد بها فمردود بوجوه:

أحدها: أنّه خبر لا أصل له، ولا فصل، بل إنّما هو قول هزل ومقالة كذب في روايته كان في شكّ منه كما يرى أنّه أسنده في موضع إلى نفسه، فقال: إنّي سمعت رسول الله يقول: «إنّا معاشر الأنبياء، لانورّث ما تركناه صدقة»

وأسنده حينئذ عمر بن الخطّاب إلى غير أبي بكر، فقال عمر: أوس بن الحدثان وعائشة وحفصة يشهدون أنّ النبيّ قال كذا، وذلك حين طلبت فاطمة الزهراء سلام الله عليها فدك من أبي بكر من باب النحلة والإرث بالنسبة فكتب أبو بكر بذلك كتاباً ثمّ جاء عمر فعلم بالواقعة، فأخذ الكتاب من يد فاطمة الزهراء عليها السلام ومزّقه، وقال: أوس بن الحدثان وعائشة وحفصة يشهدون على أنّ النبيّ قال كذا.

وفي قرب الإسناد: عن صدقة بن مسلم عن جعفر (عليه السلام) أنّه سئل عن الشاهد على فاطمة عليها السلام بأنّها لا ترث أباها فقال (عليه السلام): شهدت عليها عائشة وحفصة ورجل من العرب يقال له أوس بن الحدثان من بني نصر شهدوا عند أبي بكر بأنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: لا أورّث، فمنعوا فاطمة عليها السلام ميراثها من أبيها (صلى الله عليه وآله)»، وأسنده أبو بكر تارة أخرى إلى الأمّة، فقال: هم قالوا كذا.

وفي الاحتجاج: خطبة أمير المؤمنين (عليه السلام) لأبي بكر لمّا بلغه عنه كلام بعد منع الزّهراء عليها السّلام فدك:

«شقّوا متلاطمات أمواج الفتن بحيازيم سفن النّجاة، وحطّوا تيجان أهل الفخر بجمع أهل الغدر، واستضاؤوا (استضيئوا) بنور الأنوار، واقتسموا مواريث الطّاهرات الأبرار، واحتقبوا ثقل الأوزار، بغصبهم نحلة النّبيّ المختار، فكأنّي بكم تردّدون في العمى، كما يتردّد

العير في اتّخاذه، أما والله لو أُذن لي بما ليس لكم به علم لحصدتُ رؤوسكم عن أجسادكم كحبّ الحصيد بقواضب من حديد، ولقلعت من جماجم شجعانكم ما أقرح به آماقكم، وأوحش به محالّكم، إلى أن قال: وقد أمهل فما يحمي لكم التطاول، وعجّل ثمر غلّكم مرّاً، وتحصدون غرس أيديكم ذعافاً ممقراً، وسمّاً قاتلاً، وكفى بالله حكيماً، وبرسول الله خصيماً، وبالقيامة موقفاً، فلا أبعد الله فيها سواكم، ولا أتعس فيها غيركم، والسلام على مَن اتّبع الهدى»

فلمّا أن قرأ أبو بكر الكتاب رعب من ذلك رعباً شديداً، وقال: يا سبحان الله ما أجرأه عليّ، وأنكله عن غيري!

معاشر المهاجرين والأنصار، تعلمون أنّي شاورتكم في ضياع فدك بعد رسول الله ﷺ فقلتم: إنّ الأنبياء لا يورّثون، وإنّ هذه أموال يجب أن تضاف إلى مال الفيء، وتصرف في ثمن الكراع والسلاح وأبواب الجهاد ومصالح الثغور، فأمضينا رأيكم، ولم يمضه من يدّعيه، وهو ذا يبرق وعيداً ويرعد تهديداً، إيلاءً بحقّ محمد ﷺ أن يمضحها دماً ذعافاً، والله لقد استقلت منها فلم أُقل، واستعزلتها عن نفسي فلم أُعزل، كلّ ذلك كراهة منّي لابن أبي طالب وهرباً من نزاعه، ما لي ولابن أبي طالب؟ هل نازعه أحد ففلج عليه؟!

فتقدّم عمر بن الخطّاب فسكّن جأشه أبا بكر عن هذا الفزع والهلع، فقال له عمر: أبيت أن تكون إلّا هكذا؟!

فالاختلاف في الرواية دليل على عدم استقرارها، ولا أقلّ من إيقاع الوهن فيها، فلا تخصّص بها العمومات القطعيّة، ولا يكذّب أهل بيت العصمة والطّهارة.

وفي كشف الغمّة: أنّه لمّا ولي عثمان طلبت عائشة عطاءها كما كان يعطيها أبو بكر وعمر - وهذا كان طلباً منها لأربعة آلاف درهم التي قرّرها أبو بكر وعمر لها - فقال: لا أجد لها موضعاً في الكتاب ولا في السنّة ولكن كان أبو بكر وعمر يعطيانك من طيبة أنفسهما، وأنا لا أفعل. فقالت له: فأعطني ميراثي من النبيّ ﷺ؟ فقال: أليس جئت وشهدت أنت ومالك بن أوس النصري أنّ النبيّ لا يورّث؟! فقد غصبتِ حقّ فاطمة وجئت تطلبينه قال

فكان عثمان إذا خرج إلى الصّلاة نادت عائشة و ترفع القميص و تقول إنّه قد خالف صاحب هذا القميص فلمّا آذاه صعد المنبر، فقال: إنّ هذه الزعراء عدوّة الله تعالى ضرب الله مثلها و مثل صاحبتها حفصة في الكتاب كامرأة نوح و امرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما

فقالت له: يا نعثل يا عدوّ الله إنّما سمّاك النبيّ ﴿ص﴾ باسم نعثل اليهوديّ الّذي باليمن، فلاعنته و لاعنها و حلفت أن لا تساكنه بمصر أبداً فخرجت إلى مكّة

و هذا الحديث يدلّ على أنّ عقيدة كلّ من عائشة و عثمان كان على عدم صحّة تلك الرّواية

ثمّ إنّه على فرض تسليم صدق الخبر لم يكن فرق بين تركته، كما يظهر من هذا الخبر المطلق «لانورّث، ما تركناه صدقة»، و قد كان لرسول الله ﴿ص﴾ تركة أخرى غير فدك، قسّمت بين ورثته كما في الرّوايات الكثيرة

منها، ما رواه الإربلي في كشف الغمّة عن الحسن بن عليّ الوشّاء قال: سألت مولانا أبا الحسن عليّ بن موسى الرّضا عليهما السلام

هل خلّف رسول الله ﴿ص﴾ غير فدك شيئاً؟ فقال أبو الحسن ﴿ع﴾: إنّ رسول الله ﴿ص﴾ خلّف حيطاناً بالمدينة صدقة، و خلّف ستّة أفراس، و ثلاث نوق العضباء و الصّهباء و الدّيباج، و بغلتين الشّهباء و الدّلدل، و حماره اليعفور، و شاتين حلوبتين و أربعين ناقة حلوباً، و سيفه ذا الفقار، و درعه ذات الفضول، و عمامته السّحاب، و حبرتين يمانيّتين، و خاتمه الفاضل، و قضيبه الممشوق، و فراشاً من ليف، و عباءتين قطوانيّتين، و مخادّاً من أدم، صار ذلك إلى فاطمة عليها السلام ما خلا درعه و سيفه و عمامته و خاتمه، فإنّه جعلها لأمير المؤمنين ﴿ع﴾

و في بعض الرّوايات أنّ رسول الله ﴿ص﴾ أعطى بغلته أيضاً لعليّ ﴿ع﴾ و إنّ إعطاء البغلة كان في حجّة الوداع.

فلو كان ما رواه أبو بكر صحيحاً لماذا تركوا هذه الأشياء تركة و لم يجعلوها صدقة، و الرّواية على فرض صحّتها مطلقة «لانورّث ما تركناه صدقة»؟

كيف يأخذ أبوبكر فدكاً من الصّدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها مستنداً برواية رواها منفرداً بها، و يأخذها في بعض الوقت موكولاً أمرها إلى رأيه و اجتهاده لحسم مادّة المنازعة و الفتنة، ثمّ يعطي في هذا الوقت تلك الأشياء المتروكة ليست بقسمة لورّاث النّبيّ ﴿ﷺ﴾ من باب الإرثيّة بحسب الظّاهر من دون أن يصرّح بأنّي أعطيها من جهة الإرث

و مثل هذا يصدر من مثله عادةً سواء كان عامداً أو جاهلاً، و لا بُعد في صدور تلك الأمور المتناقضة من مثل أبي بكر بن أبي قحافة، إذ لا يكون حافظة للكذّابين و أمثاله

و تسمّى تلك المتناقضات فتوى سياسيّة لا تبتني على أيّة كرامة و إنسانيّة، و قد شاعت في زماننا هذا بين المتلبّسين بلباس العلم و الاجتهاد و التقوى و المنسوبين إلى أهله، و إنّ الإسلام و العلماء العاملين منهم برآء، و ممّا يعبدون من دون الله. و أيضاً قد مكّن أبوبكر أزواج النّبيّ ﴿ﷺ﴾ في حجراتهنّ بغير خلاف، و لم يحكم فيها بأنّها صدقة. و هذا يناقض معه في أمر فدك و ميراث النّبيّ الكريم ﴿ﷺ﴾ من جهة هذه الرّواية المختلقة. فإنّ تمكينها لهنّ إمّا من جهة الإرث أو النّحلة، و الأوّل مناقض لروايته في الميراث، و الثّاني محتاج في إثباته إلى بيّنة و نحوها، و لم يطالبهنّ شيئاً منهما كما طالب الصّدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها في دعواها، و هذا من أظهر شاهد و أوضح برهان و أبين دليل لمن له أدنى بصيرة و دراية و طيب ولادة على أنّ رواية أبي بكر مختلقة كاذبة كخلافته بعينها، و أنّه لم يفعل ما فعل إلّا لحبّ الملك و الرّئاسة و حبّ الشّيء يعمي و يصمّ، و الملك عقيم

و في **الاحتجاج**: و روي أنّه مرّ فضّال بن الحسن بن فضّال الكوفي بأبي حنيفة، و هو في جمع كثير، يملي عليهم شيئاً من فقهه و حديثه. فقال لصاحب كان معه: و الله لا أبرح أو أخجل أبا حنيفة. فقال صاحبه الّذي كان معه: إنّ أبا حنيفة ممّن قد علت حالته و ظهرت حجّته. قال: مه! هل رأيت حجّة ضالّ علت على حجّة مؤمن؟! ثمّ دنا منه، فسلّم عليه فردّها، و ردّ القوم السّلام بأجمعهم

فقال: يا أبا حنيفة! إنّ أخاً لي يقول إنّ خير النّاس بعد رسول الله ﴿ﷺ﴾ عليّ بن أبي طالب ﴿؏﴾ و أنا أقول أبوبكر خير النّاس، و بعده عمر، فما تقول أنت رحمك الله؟

فأطرق مليّاً ثمّ رفع رأسه فقال: لكن تكلّمها من رسول الله ﴿ﷺ﴾ كرماً و فخراً أما علمت أنّهما ضجيعاه في قبره؟ فأيّ حجّة لك أوضح من هذا؟

فقال له فضّال: إنّي قد قلت ذلك لأخي، فقال: والله لئن كان الموضع لرسول الله ﴿ﷺ﴾ دونهما فقد ظلما بدفنهما في موضع ليس لهما حقّ فيه، وإن كان الموضع لهما فوهباه لرسول الله ﴿ﷺ﴾ لقد أساءا و ما أحسنا، إذ رجعا في هبتهما و نسيا عهدهما.

فأطرق أبو حنيفة ساعة ثمّ قال له: لم يكن له ولا لهما خاصّة، و لكنّهما نظرا في حقّ عائشة و حفصة، فاستحقّا الدفن في ذلك الموضع بحقوق ابنتيهما.

فقال فضّال: قد قلت له ذلك، فقال: أنت تعلم أنّ النبيّ ﴿ﷺ﴾ مات عن تسع نساء، و نظرنا فإذا لكلّ واحدة منهنّ تسع الثمن، ثمّ نظرنا في تسع الثمن، فإذا هو شبر في شبر، فكيف يستحقّ الرجلان أكثر من ذلك؟ و بعد ذلك فما بال عائشة و حفصة يرثان رسول الله ﴿ﷺ﴾ و فاطمة ابنته منعت الميراث؟ فقال أبو حنيفة: يا قوم نحّوه عنّي فإنّه رافضيّ خبيث!

أقول: رواه السيّد المرتضى في «الفصول المختارة» و الكراجكي في «كنز الفوائد» و المجلسي في «البحار» و السيّد الجزائري في «الأنوار» و غيرهم.

ثمّ قال السيّد الجزائري بعد نقل هذه الرواية: أقول: و الموضح لهذا ما رواه في الجمع بين الصحيحين للحميدي و غيره أنّ النبيّ ﴿ﷺ﴾ لمّا هاجر إلى المدينة أقام ببعض دور أهلها، و استعرض مربداً مشتركاً لسهل و سهيل كانا يتيمين في حجر سعد بن زرارة ليشتريه فوهباه له فصار إلى أنّ الكلام ليس في مجرّد التشكيك بل في إجراء جميع أحكام الملك كدفن عائشة أباها، و حفصة عمر بن الخطّاب في بيت النبيّ ﴿ﷺ﴾ بغير إذنه، و لا إذن ورثته و لا المسلمين، و كمنعهم الحسن الزكيّ ﴿ع﴾ عن دفنه عند جدّه ﴿ﷺ﴾ و قد جاءت راكبة على بغل و حولها بنو أميّة و مروان، فقال لها ابن عبّاس:

تجمّلت، تبغّلت، و لو عشت تفيّلت ... لك التسع من الثمن و بالكلّ تملّكت

و روى الحميدي رواية أخرى و هو أنّ النبيّ ﴿ﷺ﴾ أراد أن يشتري موضع المسجد من قوم بني النجّار، فوهبوه له، و قد تضمّن القرآن كون البيوت للنبيّ ﴿ﷺ﴾ بقوله تعالى

«يا أيّها الّذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النّبي إلّا أن يؤذن لكم إلى طعام» ومن المعلوم أنّ زوجته عائشة لم تكن لها دار بالمدينة ولا لأبيها ولا لقومها لأنّهم من أهل مكّة، ولا روى أحد أنّها اشترت لنفسها، ومع هذا فلمّا ادّعت حجرة النّبي ﷺ بعد وفاته التي دفن فيها صدّقها أبوبكر وسلّمها إليها بمجرّد سكناها ودعواها، ومنع فاطمة عليها السلام عن فدك، ولم يصدّقها مع شهادته لها بالعصمة والطّهارة، وردّ شهودها بأنّ بعلها وابنيها لهم شك في جانبه، ومنع فاطمة من ميراثها، وادّعى أنّه لم يخلّف ميراثاً، ودفن أبوها فيها وضربوا المعاول عند رأسه.

وقال بعض مرتزقة المتعصّبة المتوهّمة ـ كما في شرح ابن أبي الحديد ـ في مقام الاعتذار: إنّ حجر أزواج النّبي ﷺ إنّما تركت في أيديهنّ لأنّها كانت لهنّ، ونطق الكتاب بشهادة ذلك بقوله تعالى: «وقرن في بيوتكنّ» الأحزاب: ٣٣. وروي في الأخبار أنّ رسول الله ﷺ قسّم ما كان له من الحجر على نسائه وبناته.

وفي الشّافي قال المرتضى رضي الله تعالى عنه ـ ردّاً لهذا الجواب ـ: وهذا من عجيب الاستدلال، لأنّ هذه الإضافة لا تقتضي الملك، بل العادة جارية فيها أن تستعمل من جهة السكنى، ولهذا يقال: هذا بيت فلان ومسكنه، ولا يراد الملك، وهذا من باب قوله تعالى: «إذا طلّقتم النّساء فطلّقوهنّ لعدّتهنّ وأحصوا العدّة واتّقوا الله ربّكم لا تخرجوهنّ من بيوتهنّ ولا يخرجن إلّا أن يأتين بفاحشة مبيّنة» الطلاق: ١، ومعلوم أنّ البيوت إنّما هي للأزواج.

وإنّما أضاف الله تعالى البيوت إليهنّ لاختصاصهنّ بسكناها لأنّ الإضافة يكفي فيها أدنى ملابسة، والمراد من البيوت هو بيوت الأزواج، وأضيف إلى الزّوجات لعلاقة السكنى، ولو كان ملكاً لهنّ لما جاز إخراجهنّ عند الفاحشة، وقد أباح الله تعالى إخراجهنّ عند إتيانهنّ بالفاحشة بقوله عزّوجلّ: «إلّا أن يأتين بفاحشة مبيّنة» فكذا الحال في إضافة البيت إلى عائشة في الحجرات.

مع أنّه معارض بقوله تعالى: «ولا تدخلوا بيوت النّبي» الأحزاب: ٥٣، وهو أدلّ على ملك النّبي ﷺ فإنّ الآية الكريمة ظاهرة في الملك إذ شأن الرّجال ملك مساكنهم كما هو

لعلي، علاف الشيء والاسم دون الأرواح، فمجرّد صدقه بموت إيمانهن لا يستلزم
الانتقال إليهنّ كما هو واضح

وفي تاريخ الطبري أنّ النبي ﷺ قال: غسّلوني وكفّنوني وضعوني على سريري في بيتي هذا على شفير قبري

وأمّا خبر التقسيم فلو كان صحيحاً فلا دليل على أن يكون القسمة على وجه التمليك دون الإسكان والإنزال، ولو كان كذلك لكان معروفاً مشهوراً أيضاً، والوجه في عدم تغيير علي بن أبي طالب ﷺ بعد ما صارت الخلافة إليه هو الوجه الذي أتى في فدك، فتركه على حالها

ثالثها ـ أنّه لو سلّمت صحّة الخبر يحتمل معانٍ ووجوهاً متعدّدة، سيأتي بيانها، وإذا جاء الاحتمال بطل الاستدلال

رابعها ـ أنّ الخبر مع قطع النظر عن الإجماع والأخبار المتواترة لمخصّصه أو لمعارضته في عمومه آيات المواريث الدالّة على أنّ الأنبياء عليهم السلام وغيرهم لا فرق في أمر حكمه مخالف للآيات العامّة، ومخصّصة في خصوص آيات المواريث من الأنبياء عليهم السلام، كالآيات التي استدلّت بها الصدّيقة الطاهرة عليها السلام في الخطبة وغيرها، وقد سبق وجه دلالتها على المراد من الميراث هو المال، فيجب أن نتمسّك بعموم الآيات وإطلاقها إلّا إذا قام دليل قاطع على خروج شيء منها، ولم يقم دليل على خروج النبي الأكرم ﷺ عن حكم الآيات المذكورة

خامسها ـ أنّ الخبر كان عند أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وعند الصدّيقة الطاهرة عليهما السلام موضوعاً باطلاً وكذباً محضاً ومنكراً، وحكما بكذب من ذكر فيه، وهما يقولان إلّا الحق والصدق فيجب كذب الرواية والراوي

سادسها ـ أنّه لو كان تركة النبي ﷺ صدقة ولم يكن لابنته الصدّيقة الطاهرة عليها السلام حظّ فيها لبيّن رسول الله ﷺ الحكم لها، فإنّ التكليف في تحريم أخذها يتعلّق بها، ولو بيّنه لها لما طلبت نصيبها، ولا يرتاب عاقل في أنّه ﷺ لو كان بيّن لأهل بيته أنّ تركتي صدقة لا تحلّ لكم لما خرجت ابنته وبضعته من بيتها، مستعدية

بخطبة خارجة في معشر المهاجرين و الأنصار، فغلبت بعد زمان برغم أشياعه، و تسبّبه إلى الجور و الظلم في غصب تراثها، و استنصار المهاجرين و الأنصار في التوثّب عليه، و أثار نقمة من المسلمين و هيّج الشرّ، و لم يستقرّ بعد أمر الإمارة و الخلافة

و قد أغري بذلك من كان له الثأر منه و طلب الثوار من المؤمنين لتصديقهم أنّ أبابكر بن أبي قحافة هو الذي غصب الخلافة، بحسب أهل الإمامة فصبّوا عليه النقض و الطعن إلى يوم النشور و يوم القيامة، و كان ذلك من أكبر ما يدلّ على أنّ شقّ عصا المسلمين، و تفرّق كلمتهم، و تشتّت شملهم، و قد كانت تلك الثغرة خلفها شأن الحكم هنا عليها السلام، و أمير المؤمنين صلوات الله عليه

و لا أظنّ أنّ عمر من أولي حظّ من الإسلام على قول أنّ فاطمة الطاهرة سلام الله عليها مع علمها بأن ليس لها في تركة أبيها بأمر الله تعالى و رسوله ﴿ﷺ﴾ نصيب كانت تقدم على مثل ذلك التشنيع و كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﴿ﷺ﴾ مع علمه بحكم الله لم يزجرها عن التظلّم و الاستعداء و لم يأمرها بالقعود في بيتها راضية بأمر الله فيها، و يكذّب أبابكر في ظلمه و جنايته و جوره، و جنايته و بره في قوله كان ذلك قياما عادلاً حاشا، و كذا يرى عمر بن الخطاب جناية أبي بكر كان ذلك عادلاً حاشا

فليت شعري! هل كان ذلك تركاً و إهمالاً منه لا تعلم شأن بضعته ﴿ﷺ﴾ التي كان يؤذيه ما آذاها و يريبه ما رابها أو أمر زوجها و ابن عمّه و أخيه المساوي لنفسه و مواسيه بنفسه، أو نفته الدلالة بجميع حكم الله تعالى و أمر أمّته، و قد أرسله الله تعالى بالحقّ بشيراً و نذيراً للعالمين

﴿ رأي مستبصر معاصر من مفكّري العامّة حول فدك ﴾

جدير بأن يهدى إلى كل قارئ... من يحب الحق ويطلب الحق ويقبل الحق، ومثال ذلك ما جاء به صاحب كتاب «ثم اهتديت» وهو الدكتور محمد التيجاني السماوي المعاصر المستبصر من أعلام مفكّري العامّة، ما ذكره حول فدك.

أمّا ما أجاد في بدء كتابه هذا فقال في المقدمة:

«كتابي متواضع لاتكلّف فيه، هو قصة رحلة، قصة اكتشاف جديد ليس اكتشافاً في عالم الاختراعات التقنيّة او الطبيعة، ولكن في دنيا المعتقدات في خضم المدارس المذهبيّة والفلسفات الدينيّة.

ولمّا كان الاكتشاف يعتمد أولاً على العقل السليم وإنّما تقوم لدى معظم الناس على نمط الحلوليين فإنّي اهدي كتابي إلى كلّ عقل سليم، يتحرّى الحق، فيعرفه من بين ركام الباطل، ويزن الأقوال بميزان العدل فيرجّح كفّة المعقول ويقارن الكلام والأحاديث، فيتبيّن الصحيح من المعلول، والقويّ من المهزول، قال تعالى «الّذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه اولئك الّذين هداهم الله واولئك هم اولوا الألباب» إلى كلّ هؤلاء أهدي كتابي هذا، راجياً منه سبحانه وتعالى أن يفتح بصائر قبل بصائرنا، وأن يهدينا وينوّر قلوبنا ويرينا الحقّ حقّاً لاغبار عليه فنتّبعه، ويرينا الباطل باطلاً لالبس فيه فنجتنبه، و

بالبحث في عدد من الكتب أنه شيع حسب محمد التيجاني السماوي

ثمّ ذكر أربعة أمور من أسباب استبصاره

١ ـ النصّ على الخلافة

وقد أخذ فيه من نفسي كلّ مسلّم من عمره

٢ ـ خلاف فاطمة الزهراء سلام الله مع أبي بكر

فحمل الدكتور المحقق الدكتور التيجاني منكراً مستنكراً قصة فدك مرتبطاً بالنصّ وثبت خلافة الإمام علي بن أبي طالب ﴿ع﴾ وجعلها سبباً من أسباب الاستبصار فقال

وهذا الموضوع ـ موضوع فدك ـ أيضاً مجمع على صحته من الفريقين فلا يسع المنصف إلا أن يحكم بخطأ أبي بكر إن لم نقل بتعمده في ظلمها [illegible]، لأنّ من يتتبع هذه المأساة ويطلع على خفاياها يعلم علم اليقين أنّ أبا بكر تعمّد إيذاء الزهراء، ولكي لا تحتج عليه بنصوص الغدير وغيرها على خلافة زوجها وابن عمها علي ﴿ع﴾ ونجد قرائن عديدة على ذلك منها ما أخرجه المؤرخون من أنّ الزهراء ـ سلام الله عليها ـ خرجت تطوف على مجالس الأنصار وتطلب منهم النصرة والبيعة لابن عمّها، فكانوا يقولون

«يا ابنة رسول الله قد مضت بيعتنا لهذا الرجل ولو أنّ زوجك وابن عمك سبق إلينا قبل أبي بكر ما عدلنا به، فيقول علي كرّم الله وجهه: أفكنت أدع رسول الله ﴿ص﴾ في بيته لا أدفنه، وأخرج أنازع الناس سلطانه؟ فقالت فاطمة: ما صنع أبو الحسن إلا ما كان ينبغي له، ولقد صنعوا ما الله حسيبهم وطالبهم

ولو كان أبو بكر مخطئاً عن حسن نية [illegible] لأقنعته فاطمة الزهراء، ولكنّها غضبت عليه ولم تكلّمه حتى ماتت لأنّه ردّ في كلّ مرّة دعواها ولم يقبل شهادتها ولا شهادة زوجها، وكلّ هذا اشتدّ غضبها عليه حتى أنّها لم تأذن له بحضور جنازتها حسب وصيتها لزوجها لمّا دفنها في الليل سرّاً

وعند ذكر دفنها ـ سلام الله عليها ـ سرّاً في الليل فقد سافرت خلال سنوات البحث إلى المدينة المنوّرة لأطّلع بنفسي على بعض الحقائق واكتشف

أوّلاً: أنّ قبر الزّهراء مجهول لا يعرفه أحد، فمن قائل بأنّه في الحجرة النّبويّة، ومن قائل بأنّه في بيتها مقابل الحجرة النّبويّة، وكانت تقول: بأنّه في البقيع وسط قبور أهل البيت بدون تحديد. هذه الحقيقة الأولى التي نستنتج منها بأنّها سلام الله عليها أرادت بهذا أن يتساءل المسلمون عبر الأجيال عن السّبب الذي دعاها أن تطلب من زوجها أن يدفنها في الليل سرّاً، ولا يحضر جنازتها منهم أحد. وبذلك يمكن لأيّ مسلم أن يصل إلى بعض الحقائق المذهلة من خلال مراجعة التاريخ.

ثانياً: اكتشفت أنّ الزائر الذي يريد زيارة قبر عثمان بن عفّان يمشي مسافة طويلة حتّى يصل إلى آخر البقيع فيجده خلف الحائط بينما أغلب الصّحابة مدفونين في بداية البقيع قرب المدخل، وحتّى مالك بن أنس صاحب المذهب وهو من تابعي التابعين مدفون قرب زوجات الرّسول ﴿ﷺ﴾. وتحقّق لديّ ما قاله المؤرّخون من أنّه دُفِنَ بحش كوكب وهي أرض يهوديّة لأنّ المسلمين منعوا دفنه في بقيع رسول الله ﴿ﷺ﴾ ولمّا استولى معاوية بن أبي سفيان على الخلافة اشترى تلك الأرض من اليهود وأدخلها في البقيع ليدخل بذلك قبر ابن عمّه عثمان فيه. والذي يزور البقيع حتّى اليوم سيرى هذه الحقيقة بأجلى ما يكون.

وإنّ عجبي لكبير حين أعلم أنّ فاطمة الزّهراء سلام الله عليها أوّل من لحق بأبيها بعده بستّة أشهر على أكثر الاحتمالات ثمّ لا تدفن إلى جانب أبيها!

وإذا كانت فاطمة الزّهراء هي التي أوصت بدفنها سرّاً فلم تدفن بالقرب من قبر أبيها كما ذكرت، فما بال ما حصل مع الحسن ولماذا الحسن لم يدفن قرب قبر جدّه؟ حيث منعت هذا عائشة، وقد تعلّق ذلك عندما جاء الحسين بأخيه الحسن يريد دفنه إلى جانب جدّه رسول الله ﴿ﷺ﴾ فركبت عائشة بغلة وخرجت تنادي وتقول: لا تدفنوا في بيتي من لا أحبّ. واصطفّت بنو أميّة وبنو هاشم للحرب. ولكنّ الإمام الحسين قال لها: بأنّه سيطوف بأخيه على قبر جدّه ثمّ يدفنه في البقيع لأنّ الإمام الحسن أوصاه أن لا يهرقوا من أجله ولو محجمة من دم. وقال لها ابن عبّاس أبياتاً مشهورة

تجمّلتِ تبغّلتِ ولو عشتِ تفيّلتِ
لكِ التسعُ من الثمن وبالكلّ تصرّفتِ

قوله: «تجمّلتِ» إشارة إلى ركوب الجمل في حرب الجمل المشهورة و«تبغّلتِ» إشارة إلى ركوبها البغلة يوم منعت دفن الحسن عند جدّه.

وهذه حقيقة أخرى من حقائق التاريخ فكيف ورثت عائشة كلّ البيت من بين أزواج النبيّ المتعدّدات وهنّ تسع نساء كما قاله ابن عباس.

وإن كان النبيّ ﷺ لا يورث كما شهد بذلك أبو بكر نفسه ومنع فدك ميراث الزهراء من أبيها فكيف ورثت عائشة؟ فهل هناك في كتاب الله يعطى الزوجة حقّ الميراث ويمنع البنت؟ أم أنّ المسألة هي أنّ الملك كان سياسيّ، فحرمت البنت من كلّ شيء وأعطيت الزوجة كلّ شيء؟

وبالمناسبة نذكر هنا قصّة طريفة ذكرها بعض المؤرّخين ولها علاقة بموضوع الإرث قال ابن أبي الحديد المعتزلي في شرحه لنهج البلاغة جاءت عائشة وحفصة ودخلتا على عثمان أيّام خلافته وطلبتا منه أن يقسم لهما إرثهما من رسول الله ﷺ

وكان عثمان متّكئاً فاستوى جالساً وقال لعائشة:

أنتِ وهذه الجالسة جئتما بأعرابيّ يتطهّر ببوله وشهدتما أنّ رسول الله ﷺ قال «نحن معشر الأنبياء لا نورّث» فإذا كان الرسول حقيقة لا يورّث، فماذا تطلبان بعد هذا، وإذا كان الرسول يورّث لماذا منعتم فاطمة حقّها؟ فخرجت من عنده غاضبة، وقالت: اقتلوا نعثلاً فقد كفر. انتهى كلامه في شرح النهج باختصار.

«محتملات الخبر المختلق ووجوه الرواية المجعولة»

ومع تسليم صحة هذه الرواية فإن لها وجوهاً ومحتملات متعددة من المعاني:

منها أن يراد بها أن الأنبياء عليهم السلام لم يقصدوا في حياتهم أن يتركوا تراثاً مدّخراً لأولادهم وورثتهم كسائر الناس الذين يقصدون في جمع الأموال وادّخارها وتنميتها بعدهم لورثتهم، بل هم من دار الدنيا زاهدون، فلم يكن همّهم شيء من المدّخرات ليكون تراثاً للناس بعدهم، وهذا لا ينافي الحديث.

ومنها أن الأنبياء عليهم السلام من حيث شؤونهم لم يورثوا إلا العلم والحكمة والنبوة، وأما من حيث الإنسانية والبشرية فيجوز أن يخلّفوا شيئاً من الأموال. ومن هنا قال بعض المحققين العلماء: الأولاد والحواريون هم الورثة، لأنهم يخلفون العلم والحكمة من مشكاة أنوارهم، ويرثون ممتلكات أرواحهم كما أن الأولاد الجسمانية والأقرباء الصورية يرثون الأموال، بل إن الأولى آكد من الثانية، ولذلك كان حق المعلم أوكد على المتعلم أولى من حق أبيه الجسماني عليه. والحاصل أنه من باب تعلق الحكم على الوصف المشعر بالعليّة.

ومنها أن الأنبياء عليهم السلام لم يخلّفوا جنس الدرهم والدينار الذي يخلّفه أهل الدنيا والثراة، أما غيرهما من الأملاك والزراعات والمنازل وما إليها فلا بأس بأن يخلّفوها.

ومنها أن مجرد العزم للصدقة لشيء من الأنبياء عليهم السلام يخرجه عن ملكهم فلا

يرثه ورثتهم، وهذا مختص بالأنبياء عليهم السلام، وهذا لا يدل على حرمان ورثتهم مما تركوه مطلقاً فيكون خاصاً بأن ما يكون من ملك صدقة المسلمين لا يعمل داخلاً في جملة الأموال حتى يكون ميراثاً

ونفهم أن ما يكون من الصدقات معتبرة في ملكهم سواء كانت صدقوها هم من أنفسهم، أو كانت صدقة خارجية لا تدخل بعد موتهم في جملة تركته كسائر المال عند المراجع الدينية، وكذا أنهم من الصدقات والزكوات والخمس والكفارات ومجهول المالك وما إليها لا تدخل بعد موتهم في جملة تركته بل يجب إرجاعها إلى المرجع الديني الجامع للشرائط

ويؤيده ذلك ما روي عن أبي ذر الغفاري في جواب ما يقول عنه أنه قال لعثمان بن عفان بعد ما مات عبد الرحمن بن عوف وترك مالاً كثيراً ولا يعتبر هذا المال ألف درهم، حسبهم من عشرة آلاف حتى يحقق منهم فكان أبو ذر قال هل تذكرون النبي ﷺ ... في ثلاثة أيام وهو في ... و ... ، وأنه الأئمة في ... وحسن ... عن ... والأمة فقال كان ... في ... صدقة وحسب ... في جملة أموال ... تصدق به وحسب إلى نفسه؟

«سيرة الأنبياء والأمم الماضية في الميراث»

قال بعض المحققين من أصحابنا: إنّ مع تتبع النظر من جميع [illegible] حكم قطعاً بأنّ مدلول هذا الخبر كذب محض، ومن [illegible] هذا الخبر لا يجوز أن يكذب، فلا بدّ من القول بكذب من [illegible] يقتضيه [illegible] حقيقته وظاهره.

وذلك أنّ عادة الناس قد جرت [illegible] بالاختبار من قبل ما جرى خلاف المعهود من [illegible] الناس [illegible] وقع في عصر [illegible] ومن المعلوم لكلّ احد انّ جميع الأمم على [illegible] واختلافهم في المذاهب [illegible] الأنبياء والمرسلين وسيرة [illegible] وما يجري عليهم بعد آبائهم، و [illegible]

ومن المعلوم أنّ العادة قد جرت من [illegible] الله تعالى [illegible] أولادهم وغيرهم [illegible] وذوي أرحامهم، [illegible] ولا شكّ لأحد في أنّ [illegible] الناس [illegible] إلى كلّ [illegible] إلى ذي شرف [illegible] الملوك في [illegible] و

يوصون به لأحبّ أهلهم فكيف سلاح الأنبياء وثيابهم ونعالهم؟ ألا ترى أنّ الأعمى إذا نظر في مشهد من المشاهد المشرّفة ويوقف عليه آلة ... فقطع ثيابه و تبرّكوا بها، وجعلوها حرزاً من كلّ بلاء وشرّ.

إذا عرفت ذلك فنقول: لو كان ما تركه الأنبياء والأوصياء والأئمّة المعصومون صلوات الله عليهم أجمعين من لدن آدم إلى الخاتم صلّى الله عليه وآله صدقة لاشتهر بين الناس خلاف المعهود من توارث الآباء والأولاد وسائر الأقارب، ولاحتاجوا إلى أن يكون كلّ نبيّ بيّن هذا الحكم لورثته بخلاف نبيّنا صلّى الله عليه وآله، ويتركون بيان كما تركه رسول الله صلّى الله عليه وآله فجرى على سنّة الّذين خلوا من قبله من رسل الله جلّ وعلا.

فإن كان الأوّل، فمع أنّه خلاف الظاهر يلزم ثبوت هذا الحكم على جميع أهل الملل والنحل وأصحاب الأديان والمذاهب وعلماء الفرق والملل، ولم يسمعه أحد إلّا أبو بكر ومن تبعه وحفدوه ونقلة متعدّدة، ولم ينقل أحد أنّ تركة موسى بن عمران عليه السلام انتقلت على وجه الصّدقة إلى فلان، وتركة عيسى عليه السلام إلى فلان، وكذا سائر الأنبياء وأوصيائهم وذراريهم ومن معهم مع أنّ تحقّقه قريب من الناس، ولم يكن في ورثة داود وزبريّة وغيرهم من كلّ نبيّ قوم ينازعون في ذلك، وإن كان خلاف حكم الله تعالى وقد كان أولاد يعقوب مع ما قد رأيتم يحسدون على أخيهم ويلقونه في غيابت الجبّ ويخالفون أباهم، أو وقعت تلك المنازعة الكثيرة ولم ينقلها أحد في عصر من الأعصار والأمم السابقة، وأرباب السير مع شدّة اعتنائهم بضبط أحوال الأنبياء والمرسلين وخصائص الأوصياء المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين وما جرى بعدهم.

وإن كان الثاني فكيف كانت حال ورثة الأنبياء والأوصياء عليهم السلام؟ كانوا يرضون بذلك ولا ينكرون؟ فكيف صارت ورثة الأنبياء وورثة أوصيائهم جميعاً يرضون بقول الدّعي بالأمر بعد الأنبياء ولم يرض به سيّدة النساء وسيّد الأوصياء؟ أو كانت سنّة لم يزعها جارية في جميع الأمم ولم ينقلها أحد ممّن تقدّم، ولا ذكر من انتقلت تركات الأنبياء إليهم؟ إنّ هذا لشيء عجاب!

وأعجب من ذلك أنّهم يشترطون في وجوب الحقّ على أمير المؤمنين عليّ بن

أبي طالب ﴿ﷺ﴾ مع كثرة ما تقدّس به من نوب [illegible] إلى الآن، ووجود الأخبار في صحاحهم، وادّعاء الشيعة تواتر ذلك من قبل الأئمّة من أهل البيت [illegible] في ذلك إلى أنّه لو كان حقاً لما خفي ذلك ... [illegible]

[illegible] بعض الإنصاف [illegible] الشهرة [illegible] مخصوصون من أهل قرن معيّن [illegible] الشهرة [illegible] من الأزمنة من لدن [illegible] الإمام ﴿ﷺ﴾ [illegible] مع [illegible] في الأمر [illegible] داع، ولم يذكره حتّى في كتابه [illegible] ولعمري لا أستحقّ [illegible] من أهل الإنصاف [illegible] الإنصاف [illegible] في [illegible] ومن النظر [illegible] قطعاً [illegible] وبطلانه.

وقال بعض المعاصرين [illegible] وهو هذا الحكم [illegible] عن [illegible] أنّه من خاصّته ﴿ﷺ﴾؟ و [illegible] بقوله تعالى: «[illegible] سليمان داود» النمل ١٦ وقوله سبحانه عن زكريّا: «فهب لي من لدنك وليّاً يرثني ويرث من آل يعقوب» مريم ٦ ومن المعلوم [illegible] إلى ورثته بعد موته بحكم المولى سبحانه، فيحمل [illegible] على العلم والنبوّة كما [illegible] خلاف الظاهر لأنّ النبوّة والعلم لا [illegible] والنبوّة [illegible] الأنبياء من قبل يومها عند [illegible] وإنّ الله [illegible] كما لا [illegible] للدّعاء والمسألة في [illegible] الله تعالى أحداً من [illegible] والعلم موقوف على من يتعرّض له ويتعلّمه على أنّ زكريّا سلام الله عليه [illegible] من ولده يحجب مواليه «كما هو صريح الآية» من بني عمّه وعصبته من الميراث، وذلك لا يمنع الأموال، ولا معنى لحجب الموالي عن النبوّة والعلم.

ثمّ إنّ اشتراطه ﴿ﷺ﴾ في وليّه الوارث كونه رضيّاً [illegible] رضيّاً لا يليق بالنبوّة، إذ العصمة والقداسة في الصفات والملكات لا تفارق الأنبياء، فلا [illegible] لمسألته ذلك [illegible] في المال ومن يرثه [illegible] يكون رضيّاً وقد لا يكون، وما كان الحكم من خاصّة رسول الله ﴿ﷺ﴾ فالقول به [illegible] تخصيص عموم آي الإرث

مثل قوله تعالى: ﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ النساء: ١١، وقوله سبحانه: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ الأنفال: ٧٥، وقوله تعالى: ﴿إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف﴾ البقرة: ١٨٠.

ولا يسوغ تخصيص الكتاب إلا بدليل ثابت مقطوع به، لا بخبر الواحد الذي لم يصح لأحد بعموم ظاهره وخصوصه ما ثبت من سيرة الأنبياء الماضين صلوات الله على نبينا وآله وعليهم، لا بخبر الواحد الذي خصت به فاطمة الأئمة وصدقتها التي ورثت عنها بنتها الأقدس ومدة طول سبحانه في الكتاب حتى ثبتت حتى لقد منعها و أتها

لا بخبر الواحد الذي لم يثبت عنه قط خبر من الأئمة وفي مقدمتهم العترة الطاهرة، وقد خصهم الحكيم بهم وهم الذين أخرجهم من حكمه الكتاب الكريم وسنته الشريفة، وحرموا من ... عنهم فدكاً ... خلفائه ... ولا يؤخر به على وجه خصومهم، ولا يكتمه في نفسه من كل هذه وذويه وصاحبه وأمه إلى آخر نفس نفسه.

لا بخبر الواحد الذي جرّ على الأمة كل هذه المحن والأرزاء، وفتح عليها باب البغضاء والحقد والشحناء، وأخرج فيها نيران الفتنة، وأنشبت في قلوبها أظافيره، وشقّ عصا المسلمين من أول يومهم، وفرق من شملهم ما أفلت وتوالى، وبوجود الكلمة جرى الله بحدّته على الأمة خير.

ثم إن كان أبو بكر قد عاد عن حديثه، فرد فاطمة بكتاب كتبه لها صرح فيه بفدك فأسلم الله عليها بعدك؟ فمرّ عمر بن الخطاب فدخل عليه، فقال: ما هذا؟ فقال: كتاب كتبته لفاطمة بميراثها من أبيها، فقال: ماذا تنفق على المسلمين، وقد حاربتك العرب كما ترى؟ ثم أخذ عمر الكتاب فشقه. ذكره سبط ابن الجوزي كما في السيرة الحلبية ٣: ٣٩١» انتهى كلامه.

وهذه كتب الشرائع وسير الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين تشهد أن الأنبياء والمرسلين عليهم السلام كانوا في المواريث أسوة لأمتهم فيما توجبه شرائعهم

فلو قال قائل: هذا الحديث المختلق عن رسول الله ﷺ: «أنا من دون الأنبياء لا

أورث ما تركناه فهو صدقة» لكن فيه بحث لحجية على مع تقدمه لطاهرة عليها السلام
عن ميراثها ولكن هو في مسموعه وغيره ... لا نبي لا نورث ولكن مع
فاطمة الزهراء من إرثها من أبيها وحرمه عليها كما في حديث عمر بن الخطاب المتعتان
كانتا على عهد رسول الله ﷺ وأنا أحرمهما وأعاقب عليهما، ومثل سعي وخبر
وغيرهم منهم عليهم ... من هذا ... ... تعيين على ... ... حق محمد وآل
محمد ... على ذلك ... ... أحاط به

«بحث أصولي حول قصة فدك ومطالبها ومنطقها»

ينبغي أن نبحث ـ هنا ـ حول هذا الموضوع في أمور:

الأوّل: أنّه قد ثبت بالأدلة العقلية والنقلية القطعية أنّ محمداً رسول الله (ص) نبيّ كل رسول أرسله الله معصوم مطلقاً لا ينطق عن الهوى، ولا يفتري على الله سبحانه أبداً، وقد ثبت أنّه يتّبع ما يوحى إليه، وقد قال تعالى: «والنجم إذا هوى ما ضلّ صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى علّمه شديد القوى» النجم ٢ ـ ٥.

وقال في شأنه أيضاً: «قل ما يكون لي أن أبدّله من تلقاء نفسي إن أتّبع إلا ما يوحى إليّ» يونس ١٥.

وقد أمر تعالى عباده بطاعته (ص) وجعل طاعته طاعة نفسه فقال: «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول» «من يطع الرسول فقد أطاع الله» النساء ٥٩، ٨٠.

وأمرهم بالأخذ بأوامره ونواهيه بقوله: «وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله» الحشر ٧.

الثاني: أنّه لا شكّ في عصمة الصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء سلام الله عليها عن الخطأ والنسيان وطهارتها عن كلّ خطيئة وعصيان، للآيات الكريمة الدالة على عصمتها وطهارتها وللأخبار المتواترة وللإجماع القطعي وضرورة العقل وقد ورد في فضلها

صلوات الله عليهم خصوصيتها في ضمن هذا النسب العصمة و الطهارة ما لا تعد و لا تحصى من الأخبار و الآثار حتى صارت كالشمس في رابعة النهار

و قد اتفق أعاظم العامة على أنّ آية التطهير نزلت في الخمسة و الطهارة المختصة و خصيصة، و النقادة الحلبية الأصلية في عصمة الطاهرة من أهل البيت الوحي من أصحاب الكساء صلوات الله عليهم أجمعين سيأتي في تفسير سورة الأحزاب إن شاء الله تعالى

و روى البخاري في (صحيحه ج ٦ ص ٤٠٢ حديث ٢٤٥) في تفسير قوله تعالى «قل لا أسئلكم عليه أجراً إلّا المودّة في القربى» الشورى ٢٣ أنّ رسول الله ﴿ﷺ﴾ قال «القربى هو عليّ و فاطمة و الحسنان»

رواه جماعة من أعلام العامة بأسانيدهم سيأتي تفصيلها في تفسير سورة «الشورى» إن شاء الله جلّ و علا و روى أنس بن مالك عن رسول الله ﴿ﷺ﴾ في تفسير قوله تعالى: «فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين و الصدّيقين و الشهداء و الصالحين و حسُن أولئك رفيقاً» النساء ٦٩

أنّه ﴿ﷺ﴾ قال «أنا النبيون و الصدّيق علي و الشهداء عمي حمزة و الصالحون ابنتي فاطمة و الحسنان»

رواه جماعة من أعاظم العامة بطرق مختلفة سبق ذكرها في تفسير سورة «النساء» فراجع

و في صحيح البخاري ج ٥ ص ١٣ حديث ٢٣٢ أنّ رسول الله ﴿ﷺ﴾ قال «فاطمة بضعة منّي فمن أغضبها أغضبني»

و الروايات فيه متواترة من طريق العامة و الخاصة و ردت في موارد لا تُحصى، و فيها نحو موطن من المواطن لا يتكلم رسول الله ﴿ﷺ﴾ في فضل فاطمة الزهراء سلام الله عليها

و روى الترمذي في (سننه ج ٥ ص ٦٦٢ حديث ٣٧٨٦) عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنّه قال رأيت رسول الله ﴿ﷺ﴾ في حجّة الوداع يوم عرفة و هو على ناقته القصواء يخطب فسمعته يقول «إنّي تارك فيكم ما إن أخذتم به لن تضلّوا: كتاب الله و عترتي أهل بيتي»

رواه جماعة من علماء السنة بأسانيدهم و طرقهم المختلفة أوردناها في البحث «حول حديث الثقلين» من هذا التفسير.

و روى ابن المغازلي في المناقب ص ۱۳۲ حديث ۱۷۳ عن أبي ذرّ الغفاري أنّه قال ـ و هو آخذ بباب الكعبة ـ: «سمعت النبيّ ﴿ﷺ﴾ يقول: «مثل أهل بيتي كمثل سفينة نوح من ركبها نجا و من تخلّف عنها هلك».

رواه جماعة من أعلامهم بطرق عديدة أوردناها في بحثها من هذا التفسير.

و غير ذلك من الرّوايات المتواترة و النّصوص المتضافرة في فضل أهل البيت الوحي صلوات الله عليهم أجمعين و قد سجّلت في كتب العامّة و الخاصّة بحيث لم يبق فيها جهة شبهة و ينكر بالمرّة، و سجّلت في الكثير من طرق العامّة و جدّ فيها فحسب، تسمع و تعي في مقام الخلاف و تكفي لأهل الإنصاف و غير أهل الإنصاف.

و دلالة جميع ذلك على الطّهارة و العصمة واضحة، و دلّت لإطلاق الطّهارة و زوال الرّجس الشّامل لطهارة خلقته و الخلقيّة و الفوتيّة و نفسيّة، و العمليّة و لا معنى لجعل مودّة ذوي القربى أجر الرّسالة مع كونهم من أهل الخطأ و المعصية، و إنّ الصّلاح المطلق لا يصدق إلّا مع العصمة، و إنّ المعصية مستلزمة للحدّ لأدلّته فكيف يجوز للحاكم أن يحكم بحدّها؟ فيلزم أن لا يصدر من الصّدّيقة الطّاهرة عليها السّلام المعصية الموجبة للأدلّة.

و لا معنى للأمر بالتّمسّك بالعاصي و النّجاة من تمسّك به، فمع المعصية لا يبقى وجه لأخبار الثّقلين، و أخبار السّفينة و غيرها. فثبت أنّ فاطمة الزّهراء سلام الله عليها معصومة مطهّرة، و من أهل القربى الّذين أمر الله تعالى عباده بمودّتهم، و جعلها أجر الرّسالة لرسوله ﴿ﷺ﴾ و أنّ الصّدّيقة الطّاهرة عليها السّلام هي الصّالحة و البضعة من النّبيّ ﴿ﷺ﴾ الّتي من آذاها فقد آذى رسول الله ﴿ﷺ﴾ و من آذى رسول الله ﴿ﷺ﴾ فقد آذى الله جلّ و علا، و أنّها من الثّقل الأصغر غير المفترق من كتاب الله الّذي هو الثّقل الأكبر، و أنّها من سفن النّجاة الّتي من تمسّك بها نجا، و من تخلّف عنها هلك.

الثّالث: و لا شكّ أنّ أبا بكر بن أبي قحافة قد آذى الصّدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها الّتي شهد الله عزّوجلّ و رسوله ﴿ﷺ﴾ بطهارتها إذ أخذ منها فدكاً بالقهر و المغالبة، و

كذّبها في مطالبتها إيّاها من باب النّحلة والعطيّة، وطلب منها الشّهود على ذلك مع كونها متصرّفة في هذه النّحلة. فكذّب الشّهود الّذين أقامتهم في تلك الواقعة، وإنّ تكذيب الشّهود هو تكذيب لمن استشهد بهم لا سيّما في قضيّة لا ريب من جهة أبيها رسول الله (ﷺ) وكفر بآيات الله الّتي استشهدت الزّهراء سلام الله عليها بها في إثبات حقّها بشرائعه المذكورة الصّادرة من هذا المصدر الأعلى في مقام العصمة والشّكّ به لا شكّ فيه بأنّ من كان مسلوب الدّراية، وخبيث الولادة

وإنّ أبابكر قد كذّب الصّدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها، وترك مودّة أهل القربى وذي هذه الصّالحة العظمى الّتي هي بضعة النّبيّ الأولى الّتي من آذاها فقد آذى الله وحاربها مع أنّ حربها حرب نبيّ الله تعالى، وترك التّمسّك بالثّقلين الأكبر والأصغر كليهما وتخلّف عن سفينة النّجاة فضلّ وهلك

هل كانت الصّدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها لا تعلم حقيقة مسألة الميراث وحكم فدك، وهي من معدن النّبوّة والوحي والرّسالة والعصمة والطّهارة محدّثة عالمة بالجفر والجامعة، وكان أبوبكر وعمر يعلمان وجه المسألة؟! وهل هذا التّجاهل إلّا حسداً أو مكابرة ومخاصمة وعداوة مع أنّه كان ذلك الأمر بمحضر من المؤمنين والحسنين عليهم السلام، فهل لا يعرفون حكم المسألة ولم يتعرّفوا عن الخروج إلى المسجد في محضر الخاصّة والعامّة؟! أم هم أيضاً مثلها لا يعرفون حكمها؟!

وقد حقّق في صحاح العامّة ومسانيدهم ومحدّثيهم المعتبرة عندهم بالرّوايات الصّحيحة أنّ الصّدّيقة الطّاهرة عليها السلام قد أوصت إلى عليّ (ع) أن يدفنها ليلاً حتّى لا يحضر أبوبكر وعمر على صلاتها وتشييعها، ولا يعرف قبرها ولا يزوراها كي لم يأذن أن يعوداها في مرضها، فكانت ساخطة عليهما حتّى ماتت، حاكمة بكفرهما وضلالهما، غير مذعنة بإمامتهما ولا مطيعة لهما، وأنّها قد استمرّت على تلك الحالة حتّى مضت إلى كرامة الله ورضوانه

فمن قال بإمامة أبي بكر لا محيص له عن القول بأنّ سيّدة نساء العالمين، ومن طهّرها الله تعالى في كتابه من كلّ رجس، وقال النّبيّ الكريم (ﷺ) في فضلها وطهارتها وعصمتها

ما قال، فقد بانت فيه جاهلية، و فيه كفر و ضلال و نفاق. و لا أظنّ أحداً من كلّ منتحل و مدّعٍ يرضى بهذا القول الشنيع، مع أنّه قد ثبت بالآيات و الأخبار و الإجماع و الضرورة كونها عليها السلام معصومة عن كلّ خطأ و خطيئة، و مطهّرة عن كلّ رجس و معصية البتّة.

و ما جرى في قصّة فدك و ما صدر عنها من الإنكار على أبي بكر و تجاهرها بالحكم بكفره و كفر طائفة من الصحابة و فسقهم و نفاقهم و ضلالهم بتصريح و تلويح، و غضبها و غضبها على أبي بكر و هجرانه و ترك كلامها حتّى ماتت. فلو كانت معصية على خلاف الشريعة لكانت من المعاصي الظاهرة التي قد أعلنت بها على رؤوس الأشهاد، و أيّ ذنب أظهر و أفحش من مثل هذا الردّ و الإنكار على الخليفة المفترض الطاعة على العالمين بزعمهم؟

فلا محيص لهم عن القول ببطلان خلافة خليفتهم المنصوب باختيار بعض سفلة هذه الأمّة، عبيد الشهوة و الشهرة تبعاً لآرائهم الفاسدة و أهوائهم الكاسدة، حذراً عن إسناد هذه المعصية الكبرى إلى سيّدة النساء. فظهر ممّا سبق بطلان دعوى أبي بكر في فدك و الخلافة، و أنّه لم يبق للخلافة أبداً، و لم يكن له حقّ في فدك و لو قدر قلامة.

الرابع: قد ثبت بالأدلّة و الأخبار المتواترة، و النصوص المتضافرة عند الفريقين أنّ عليّ بن أبي طالب ﴿ع﴾ كان لا يفارق الحقّ، و لا يفارقه الحقّ، بل يدور معه حيثما دار، و أنّه الفاروق بين الحقّ و الباطل بين الإيمان و الكفر بين العدل و الجور، بين النور و الظلمة، بين الإخلاص و النفاق، و بين الصلاح و الفساد، و أنّ من اتّبعه اتّبع الحقّ، و من تركه ترك الحقّ. و قد ورد في أخبار كثيرة من كتبهم و صحاحهم و مسانيدهم و مآخذهم و أسفارهم المعتبرة عندهم أنّ عليّ بن أبي طالب ﴿ع﴾ كان أقضى الناس، و أعلمهم و أحكمهم و أزهدهم و أورعهم و أعدلهم و أتقاهم و أشجعهم و أفصحهم و ما إليها ممّا ملأ الخافقين، و رفع الشبهة عن البين.

و لا يشكّ من له أدنى تتبّع في الآثار، و تنزّل قليلاً عن درجة التعصّب و الإنكار في أنّ مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﴿ع﴾ يرى فدك حقّاً للصدّيقة

الطّاهرة، وقد اعترف بذلك جلّ أهل الخلاف، ومرّ في السقيفة الشحيحة المشؤومة. وروي أنّ عليًّا (عليه السلام) قد شهد لفاطمة الزّهراء سلام الله عليها بذلك، بل خاصم مع أبي بكر وعمر بذلك به واستدلّ مرّات عديدة، وبذلك، فهم يجيبون تارة بعدم قبول شهادة الزوج و أخرى بأنّ أبا بكر لم يمض شهادة عليّ (عليه السلام) لأنّه يجرّ النفع إلى نفسه، وثالثة بكتب كتابٍ بردّ فدك إلى فاطمة الزهراء سلام الله عليها فيشقّه ويمزّقه ويمحوه عمر بن الخطّاب، وبردّ شهادة سبع شهود كأمّ أيمن، وأمّ سلمة، وأسماء بنت عميس، وأمّ كلثوم وأمّ سلمة كلّهنّ من نساء أهل الجنّة، والحسنين عليهما السلام وهما سيّدا شباب أهل الجنّة

فهل يشكّ عاقل في حقّيّة دعوى كان المدّعي فيها سيّدة نساء العالمين من الأوّلين و الآخرين باتّفاق المخالفين والمؤالفين، مع اتّصافها بالفضائل غير المحصورة الّتي مُلئت منها صحائف الأوّلين، والشاهد لها أمير المؤمنين الّذي قال فيه سيّد الأنبياء وخاتم المرسلين (صلى الله عليه وآله) ما قال من ملازمته للحقّ، وعدم مفارقته الحقّ قطّ وغير ذلك من الفضائل الجمّة الّتي لا تحصى

« قصّة فدك والنحلة في مجلّة الرسالة المصريّة »

واعلم أنّ السيّد حسن الأمين قد أورد في الجزء الثاني ص ٧ من دائرة المعارف الإسلاميّة الشيعيّة ط بيروت سنة ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٢ م، مقالة للسيّد محمود أبو رية ـ من مفكّري العامّة المعاصر ـ صاحب كتاب (أضواء على السنّة المحمّديّة أو دفاع عن الحديث) ما لفظه:

وفي مجلّة الرسالة المصريّة في العدد ٥١٨ من السنة ١١ ص ٤٧٥، كلام للسيّد محمود أبو رية من علماء مصر هذا لفظه: بقي أمر لا بدّ من أن نقول فيه كلمة صريحة هو موقف أبي بكر من فاطمة بنت الرسول، وما فعل معها في ميراث أبيها، لأنّا إذا سلّمنا بأنّ خبر الآحاد الظنّي يخصّص الكتاب القطعي، وأنّه قد ثبت أنّ النبيّ قد قال أنّه لا يورّث، وأنّه لا تخصيص في عموم هذا الخبر، فإنّ أبا بكر كان يسعه أن يعطي فاطمة بعض تركة أبيها كأن يخصّها بفدك، وهذا من حقّه الذي لا يعارضه فيه أحد، إذ يجوز للخليفة أن يخصّ من يشاء بما يشاء، وقد خصّ هو نفسه الزبير بن العوام ومحمّد بن مسلمة وغيرهما ببعض متروكات النبيّ، على أنّ فدكاً هذه التي منعها أبو بكر من فاطمة لم تلبث أن أقطعها الخليفة عثمان لمروان.

هذا ما ذكره هذا العالم الأزهري. وقد ورد في (معجم البلدان) أنّه أدّى اجتهاد عمر بن الخطّاب لمّا ولي الخلافة أن يردّ فدكاً إلى ورثة النبيّ، فكان عليّ بن أبي طالب والعبّاس عمّه يتنازعان فيها، ويدّعي العبّاس هو وارث النبيّ، وهذا الكلام قد انفرد بذكره صاحب

معجم البلدان، وهو كلام لا يصحّ، لأنّه إذا النبيّ لا يورّث ـ كما روى أبو بكر ـ فكيف يدّعي العبّاس أنّه وارثه، وإذا كان يورّث، فوارثه ابنته فاطمة. وسنورد كلاماً آخر في هذا الموضوع.

فاطمة البطلة المكافحة

كانت فاطمة عزيزة على النبيّ، وبلغ حبّه لها أقصى ما يمكن أن يبلغه حبّ إنسان لإنسان، ولم تكن أبوّته لها هي وحدها مصدر هذا الحبّ العظيم، بل كانت هناك عوامل عديدة زادت النبيّ تعلّقاً بابنته وحبّاً لها منها:

أوّلاً: أنّها كانت وحيدته بعد أن فقد الأولاد واحداً بعد واحد.

ثانياً: شخصيّتها الفريدة التي تبلغ أحسن ما تكون به، ففاطمة ذات شخصيّة متفوّقة وذكاء فطريّ عظيم وحسن تفهّم للأمور، وتحمّل للشدائد وإدراك لظروف المجتمع الذي تعيش فيه.

ثالثاً: وقوفها إلى جانب أبيها في مطلع الدعوة وهي لا تزال صغيرة السنّ، لا تعرف الأم الحنونة التي فقدت أمّها، فأصبحت عبئاً على أبيها كما حدث في مثل هذه الحالات، بل وقفت وقوف الفتاة التي تدرك ظروف أبيها، وتعلم خطر الرسالة التي يدعو لها، وتعرف ما يحيط به من شدائد وأهوال وعداوات، وما يحتاج إليه من مخلصين متحمّسين أكفاء، يشاركونه حمل الأعباء الضخمة التي يحملها.

لهذا تناست فاطمة أنّها صغيرة السنّ تحتاج لأن تجد من يرعاها في بيتها، ويقوم على شؤونها، وصمّمت على أن تقف إلى جانب أبيها وقوف المرأة الناضجة القويّة العزيمة المضحّية براحتها ورفاهيتها لا وقوف بنت المدينة التي تريد أن تكون عبئاً على غيره. ولو أنّ أيّ فتاة أخرى غير فاطمة، وغير متمتّعة بصفات فاطمة مرّت بظروف فاطمة لكانت بالفعل في مثل ذلك السنّ عبئاً على أبيها وشاغلاً من مشاغله وهمّاً من همومه.

ولكن فاطمة العظيمة صارت ربّة بيت أبيها بعد وفاة أمّها تكفيه التفكير بشاغل بيته، ثمّ صارت عضداً له في الشدائد التي أصابته، فحين يبلغها أنّ أباها تعرّض لأذى قريش تركض إليه ركض اللبوة، وتقف إلى جانبه مدافعة عنه، ثمّ تأخذ بيده مزيلة عن جسده ما

فقد فرض عليها أن تصمد جراحه بيديها مترفعة عن ضعف النساء في هذه الحالات مثبتة لأبيها أنّ إلى جانبه بطلة مكافحة لا طفلة مدللة

ولم يجد محمد كلمة تعبر عن تقديره لما لقي من ابنته الصغرى، وحبه لها في مواقفه من حياته ومماته [illegible] على ما كان لها من أثر في حياته، وفي تأدية رسالته

وهكذا نرى فاطمة فتاة يتيمة الأمّ تعمل في [illegible] لا تملك [illegible] بلاء، [illegible] المسلمين في [illegible]، وهل حرص المسلمون على أن يكون [illegible] شريكة محمد في الكفاح [illegible] هل حرص المسلمون على أن [illegible]؟ [illegible] ذلك فيما بعد

وهنا لا بد من [illegible] الدعوة الإسلامية جهادها وحدها [illegible] الإسلامية [illegible] الإسلامية [illegible]

وعندما [illegible] أن [illegible] أن أصبحت هي وزوجها [illegible] أطفال. لقد أعطاها مزرعة فدك، وهكذا كانت هذه المزرعة مورد [illegible] هذه الأسرة [illegible] النبي وزوجها وأولادها

أسباط النبيّ

وفي اليوم الأوّل بعد وفاة النبيّ كان أوّل إجراء اتّخذته الخلافة الحاكمة هو أن طلبت إلى فاطمة أن ترفع يدها عن فدك

وبالرّغم ممّا كانت فيه فاطمة من حزن على أبيها، ومن ألم للأسلوب الذي تمّ فيه الاستيلاء على الخلافة فقد هالها أن يبلغ الأمر إلى هذا الحدّ، فتحرم بعد وفاة أبيها حتى من موارد العيش. ولكن لابدّ لها من التصدّي من جديد. وهكذا نرى أنّ فاطمة العزيزة على النبيّ ووحيدته تضطرّ لأن تقف على أبواب من أوجدهم أبوها مطالبة بحقّها.

واضطرّت لأن تسأل عن حقّ يحرمونها من إرثها بعد وفاة أبيها وإذا بالأمر يزداد إمعاناً في تعذيبها بأن توقف موقف المدّعية بغير حقّها، ويطلب منها شهود على أنّ أباها وهبها فدكاً وقد كان من المضحك أن لا تعتبر بنت النبيّ الشهود المعروفين لتشهدهم على تصرّف عليّ بحقّ تجربته ونزاهته. وإذا هذا تطلّب في الزهراء فاطمة إذن، فإنّ فاطمة المكافحة التي بذلت الحبّ والعطاء، وجاهدت بكلّ صلابة مع أبيها العظيم، ثمّ ضحّت بكلّ ما ملكت من مال عزيز لإنجاح الدّعوة الإسلامية، وإذا فهي اليوم متّهمة ممّن أوجدهم أبوها بأنّها كاذبة في دعواها، وأنّ عليها أن تبحث عن شهود يؤيّدون دعواها

وقد كان هذا فوق ما تحمله فاطمة العظيمة، ولكنّها عزمت على الصبر مع ذلك إلى أنّها حفظاً لآخر حقّ لها وسبباً للألفة، فأفهمتهم أنّه لم يكن من شأن النبيّ أن يفتّش عمّن يشهد له ولابنته على تصرّف عليّ بحقّ حقّها وحدها، وأنّ وضع يدها على فدك وتصرّفها فيها في حياة أبيها ممّا هو معروف مشهور كاف لتأييد دعواها. ومع ذلك فإنّه حين أعلن لها أبوها بأنّه وهبها لها كان حاضراً كلّ من عليّ بن أبي طالب وأمّ أيمن. ثمّ ما شأنكم أنتم بذلك؟ إنّ المال مال أبي فلو فرضنا أنّه لم يكن قد وهبه لي في حياته، فإنّي وارثته الوحيدة

وهنا كانت الأقدار قد أعدّت لفاطمة المفاجأة المذهلة. لقد أجابوها بأنّها لن ترث عن أبيها شيئاً ولا فدكاً ولا غير فدك، وأنّ جميع أموال أبيها مصادرة، وقال الخليفة لقد سمعت النبيّ يقول نحن معاشر الأنبياء لا نورّث

فإنّ هذا القول معترف بأنّ أحداً من المسلمين غيره لم يسمعه من النبيّ وأنّه وحده الّذي سمعه ثمّ أضاف أنّه لا يقبل شهادة عليّ وأمّ أيمن لأنّهما رجل وامرأة وهو يريد رجلين على أنّ قبل أن نعرض مناقشة فاطمة لهم نتساءل لماذا يريد الخليفة أن يقبل في هذا الأمر قوله وحده، وقد جعل من نفسه شاهداً يشهد لنفسه في دعوى هو فيها المدّعى عليه

وإذا كان يرى أنّ شهادة رجل وامرأة لا تقبل فكيف تقبل شهادة رجل وحده؟!

ثمّ كيف يصحّ أن يجعل من نفسه خصماً وقاضياً وشاهداً؟!

إنّ الطريق السليم في مثل هذا الحال هو الآتي

إنّ القاعدة الإسلامية هي أن يرث كلّ وارث من مورّثه مهما كانت شخصية هذا المورّث وهذا رجل يدّعي أنّه سمع من النبيّ غير هذا، فإنّ عليه إذا أمكن قانوناً في العالم أن يعرض هذا القول على المسلمين، ثمّ يختار المسلمون قاضياً، ويعدّه هو كشاهد فإذا وجد من يؤيد شهادته أخذ القاضي بالشهادة، وإذا لم يجد ردّ القاضي شهادته، ثمّ أن يردّ هو شهادة رجل وامرأة ثمّ يجعل من نفسه القاضي والخصم والشاهد فذلك أمر لا يقرّه، لا عرف ولا قانون. هذا بصرف النظر عن شخصية صاحبة الدّعوى وشخصية النبي وشخصيتي الشّاهدين

ومثل هذا القول الّذي نقوله قال الكثيرون من العلماء المنصفين المتحرّرين من المسلمين ونذكر منهم العالم المصري الشيخ محمّد أبو ريّة الّذي مرّ قوله فيما تقدّم

على أنّ فاطمة المظلومة ثارت في طريقة الاستيلاء على الخلافة، ثمّ في المعاملة الّتي عوملت بها بعد أن رأت مستقبل الإسلام في المستقبل البعيد وما سينتهي إليه الحكم الإسلامي في الآتي من الأيّام

فكانت وهي تدافع عن حقّها الشخصي إنّما تدافع عن حقّ الشعب في المستقبل متّخذة من حقّها مظهراً لحقّ الشعب وسبيلاً لإنذاره بما سيصير إليه، فحذّرت من الفتق الّذي فتح بابها على مصراعيه، وقد تحقّق كلّ ما حذّرت منه فاطمة، وسارت إليه وانتهى أمر الإسلام إلى أن يحكمه مثل معاوية ومروان والوليد بن عقبة وعبد الله بن أبي سرح وزياد

إلى أبيه فضلاً عن يزيد وعبيد الله بن زياد والحجاج وأشباههم

وعندما تنكر قوم من أخلص المسلمين لعلي وفاطمة هذه المعاملة وترك بيتها مواساة لها في محنتها لم تشعر فاطمة في تلك من تبدل إلا وخلود خط عزمها، و القصد معنى حول لمنزل ابنتها وأبو عمر وحضر فقال عمر التي ستحرق البيت على من فيه! فقيل له إنّ ببيت فاطمة ... وتفعل في خرمة من لحطب واشعل فيها النار وأراد رميها على البيت

وهنا يختلف المؤرخون في وصف ما حدث ولا أثر التي ترتب على ذلك ولكن الثابت أنّ فاطمة وقفت كعادتها موقف المتوجه التي حدثت لمثلها في مثل هذه الحادث يوم كانت بمكة مع أبيها

﴿كذب مطالبة الإمام علي عليه السلام والعبّاس من أبي بكر بميراثهما﴾

ومن المعلوم لمن له أدنى مسكة ونزر من ذوق أنّ من دأب المنحرفين عن طريق الحق و الهدى، والخير والصلاح والنجاة والفلاح، والصواب والرشاد، ودأب المتجاوزين عن حدود الله جلّ وعلا اختلاق الأحاديث المختصرة ووضع الروايات المتضادة، صدرها لذيلها، وبعضها للبعض الآخر سواء أوضعوها بأنفسهم أو كانوا قادرين على الاختلاق والوضع أو آخرين أو كانوا عملائهم المخلصين لتوجيه جورهم و جناياتهم، وظلمهم وخياناتهم ونصبهم وعدوانهم، وفسادهم وضلالاتهم، وفسقهم و نفاقهم.

روى أحمد في المسند ج ١ ص ٣ عن ابن عباس أنّه قال: لمّا قبض رسول الله ﴿ﷺ﴾ واستخلف أبو بكر خاصم العبّاس عليًّا في أشياء تركها رسول الله ﴿ﷺ﴾ فقال أبو بكر شيءٌ تركه رسول الله ﴿ﷺ﴾ فلم يحركه فلا أُحركه ... الحديث.

روى مثله الهندي في كنز العمال في كتاب الخلافة ج ٣ ص ١٢٥، عن أحمد و البزار، وقال: حسن الإسناد. فإنّ هذا الحديث صريح في أنّهما اختصما بأشياء من متروكات النبيّ ﴿ﷺ﴾.

ولا يخفى أنّ مقتضى رواية أبي بكر أن تكون هذه المتروكات من الصدقات، فكيف كان

على أبي بكر أن لا يحرّكها، وإنّي عرفت أنّه من حكم النبيّ (ﷺ) بأنّها صدقة

وأمّا القول بأنّها كانت ميراثاً وكان العبّاس وارثاً فإنّه لعمّه فمردود بأنّ العمّ لا يرث مع البنت لبطلان التعصيب

وروى مسلم في صحيحه ج ٣ ص ١٤٢: «وقال عمر للعبّاس وعليّ: فلمّا توفّي رسول الله (ﷺ) قال أبو بكر أنا وليّ رسول الله (ﷺ) فجئتما تطلب ميراثك من ابن أخيك و يطلب هذا ميراث امرأته من أبيها، فقال أبو بكر قال رسول الله (ﷺ): ما نورث ما تركناه صدقة، فرأيتماه كاذباً آثماً غادراً خائناً والله يعلم إنّه لصادق بارّ راشد تابع للحقّ، ثمّ توفّي أبو بكر، فقلت أنا وليّ رسول الله (ﷺ) ووليّ أبي بكر، فرأيتماني كاذباً آثماً غادراً خائناً، والله يعلم إنّي لصادق بارّ راشد تابع للحقّ فوليتها، ثمّ جئتني أنت وهذا، و أنتما جميع، وأمركما واحد، فقلتما ادفعها إلينا»

رواه البخاري في (صحيحه) باختلاف يسير

فعلى العاقل أن ينظر إلى هذا الحديث الّذي أورده حفّاظهم في صحاحهم كيف جوّز لأبي بكر أن يقول أنا وليّ رسول الله (ﷺ) وكذا لعمر بن الخطّاب، مع أنّ رسول الله (ﷺ) مات، وقد جعلهما من جملة رعايا أسامة بن زيد، وقد اتّفق أصحاب السّير و الأخبار وقد أجمعوا على أنّ أبا بكر وعمر كانا في جيش أسامة وأرسلوا ذلك إرسال المسلّمات وهذا ممّا لا يختلف فيه اثنان، ولكنّهما ومن كان على حذوهما لم يعملوا بهذا ولم يبرحوا مع ما وعوه ورأوه من النصوص الصريحة على وجوب إسراعهم كقوله (ﷺ) «جهّزوا جيش أسامة، لعن الله من تخلّف عنه» كما في (الملل والنحل ج ١ ص ٢٣) وغيره

وكيف استجاز عمر بن الخطّاب أن يعبّر عن رسول الله (ﷺ) بقوله للعبّاس تطلب ميراثك من ابن أخيك، مع أنّ الله تعالى كان يخاطبه بصفاته كقوله عزّ وجلّ «يا أيّها الرّسول» و«يا أيّها النّبيّ» و«يا أيّها المزّمّل» و«يا أيّها المدّثّر» وغيرها، وقد نادى غيره من الأنبياء والمرسلين عليهم السلام بأسمائهم، ولم يذكره (ﷺ) باسمه إلّا في خمسة مواطن، شهد له فيها بالرّسالة لضرورة تخصيصه وتعيينه بالاسم

١ ـ كقوله عزّ وجلّ «وما محمّد إلّا رسول قد خلت من قبله الرّسل» آل عمران ١٤٤،

٢ ـ كقوله تعالى «وما كان محمّد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيّين» (الأحزاب: ٤٠).

٣ ـ كقوله سبحانه «وآمنوا بما نزّل على محمّد وهو الحقّ من ربّهم» (محمّد ﷺ: ٢).

٤ ـ كقوله جلّ وعلا «محمّد رسول الله والذين معه أشدّاء على الكفّار رحماء بينهم» (الفتح: ٢٩).

٥ ـ كقوله تعالى «ومبشّراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد» (الصفّ: ٦).

ثمّ إنّ الله عزّ وجلّ قال: «لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً» (النور: ٦٣).

ثمّ عبّر عمر بن الخطّاب عن صحابة رسول الله ﷺ مع عظم شأنهما وشرف منزلتهما بقوله لأمير المؤمنين ﷺ و... مرتبته.

ثمّ إنّه وصف اعتقاد الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﷺ واعتقاد العبّاس في حقّه، وحقّ خليفته أبي بكر بأنّهما كاذبان، آثمان، غادران، خائنان.

فإن كان اعتقاده فيهما حقّاً وكان قول الإمام عليّ ﷺ والعبّاس صدقاً لزم تطرّق الذمّ إلى أبي بكر وعمر وأنّهما لا يصلحان للخلافة وإن لم يكن كذلك لزم أن يكون ما قالا فيهما بهتاناً وزوراً إن كان اعتقاده مخطئاً وإن كان مخطئاً لزم تطرّق الذمّ إلى أمير المؤمنين الإمام عليّ ﷺ والعبّاس حيث اعتقدا في أبي بكر وعمر ما ليس فيهما، فكيف يصلحون للإمامة، مع أنّ الله تعالى قد نزّههم عن الكذب وقول الزور.

مع أنّ البخاري ومسلماً ذكرا في صحيحيهما أنّ قول عمر هذا بمحضر عليّ ﷺ والعبّاس بمحضر مالك بن أوس، وعثمان، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير، وسعد، ولم يعتذر أمير المؤمنين الإمام عليّ ﷺ ولا العبّاس عن هذا الاعتقاد الذي ذكره عمر، ولا أحد من الحاضرين اعتذر لأبي بكر وعمر.

وروى البخاري في صحيحه أحاديث تصرّح أنّ أمير المؤمنين ﷺ والعبّاس طلبا من عمر الميراث حيث يقول في أحدها «جئتماني وكلمتكما واحدة جئتني يا عبّاس تسألني نصيبك من ابن أخيك، وجاءني هذا يريد نصيب امرأته من أبيها، فقلت لكما إنّ

رسول الله ﴿ﷺ﴾ قال «لا نورث ما تركناه صدقة»، وقد رجع منه في حديثه الآخرين

وهو من الكذب الصريح لأمور.

الأول: أنه كيف يتصور أن تطلب من عمر الميراث وهي تعلم أن النبي ﴿ﷺ﴾ لا يورث، وهو من الكذب الصريح مخالفته لدينها وشأنها وكونه من طلب المستحيل عادة لأن أبا بكر قد حسم أمره وكان أكبر عون له عليه عمر بن الخطاب. فكيف تطلبان منه الميراث ومع ذلك فكيف دفع لهما عمر مال بني النضير ليعملا فيه عمله وعمل رسول الله ﴿ﷺ﴾ وأبي بكر وهما قد جاءا يطلبان الميراث فكيف لا يعلمهما عمر مسائل بحكم الله ورسوله ﴿ﷺ﴾ حتى لا يكون قد حتّ في عمر بن الخطاب.

الثاني: أن أمير المؤمنين ﴿ع﴾ والعباس لو سمعا من رسول الله ﴿ﷺ﴾ ما رواه أبو بكر حتى قرأه لعمر فكيف يقول لهما عمر كما في حديث مسلم «فرأيتما أبا بكر كاذباً آثماً غادراً خائناً ورأيتماني كاذباً آثماً غادراً خائناً».

الثالث: أن أمير المؤمنين ﴿ع﴾ وسمع ذلك منه ترك بضعة رسول الله ﴿ﷺ﴾ أن تطلب ما لا حق لها فيه أحق ذلك منها اغتصاباً لبعض مال المسلمين أو أعلمها، فلم يسأل وقدم على ما ليس لها فيه حق فيكون قد كذب كذباً أو غلط غلطاً شهد له بها ما طهّره. فلا مندوحة لمن صدّق الله وكتابه ورسوله ﴿ﷺ﴾ أن يقول بكذب هذه الأحاديث.

الرابع: أنه ذكر في حديث مسلم ويحرّ على نفسه، وإن كان نقل بكثير ليس كذلك فيه أن العباس قال لعمر «اقض بيني وبين هذا الكاذب الآثم الغادر الخائن» وهذا مما لا يتصور صدوره من العباس إذ كيف يسبّ عليّاً ﴿ع﴾ بالكذب والغدر والخيانة، وهو يعلم أنه نفس النبي الأمين ﴿ﷺ﴾ وأن الله سبحانه شهد له بالطهارة؟ وكيف يسبّه وقد علم أن من سبّ عليّاً ﴿ع﴾ سبّ الله تعالى ورسوله ﴿ﷺ﴾ أتهم، لأن يكون كافراً أحالقاً لما علم، وثبت بالضرورة، والعباس أجلّ قدراً وأعلى شأناً من ذلك؟

فلابد أن يكون هذا القول مكذوباً على العباس من المنافقين الذين يريدون سبّ الإمام الحق المعصوم ﴿ع﴾ ووضعوا هذا الحديث كما هو دأبهم لإصلاح حال أبي بكر و

حديقة عمر بن الخطاب من دون فيهم و ورثته و ذريته

و في الغدير قال: و إن تعجب فعجب خبر التوارث من تركة صدقة، و كان أبو بكر متصدقاً بها حياته، ثم تركها ذلك المتصدق به بعد أبي بكر و نحن نذكر شطراً منها

١- لما ولي عمر بن الخطاب الخلافة رد فدك إلى ورثة رسول الله ﷺ فكان علي بن أبي طالب و العباس بن عبد المطلب يتنازعان فيها فكان علي يقول إن رسول الله ﷺ جعلها في حياته لفاطمة، و كان العباس يأبى ذلك و يقول هي ملك رسول الله ﷺ و أنا وارثه، فكانا يتخاصمان إلى عمر، فيأبى أن يحكم بينهما، و يقول أنتما أعرف بشأنكما، أما أنا فقد سلمتها إليكما

راجع صحيح البخاري كتاب الجهاد و السير باب فرض الخمس ج ٥ ص ١٠٣، و (صحيح مسلم كتاب الجهاد باب حكم الفيء) و (الأموال لأبي عبيد ص ١١) ذكر حديث البخاري و برمته و (سنن البيهقي ج ٦ ص ٢٩٩) و (معجم البلدان ج ٦ ص ٣٤٣) و (تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣٣٥) و (تاريخ ابن كثير ج ٥ ص ٢٨٦) و (فتح الباري ج ٦ ص ١٦٦) و قال: نحن لا نستفيد مما عندنا من البخاري في حديث الباب كفصل التشاجر لمن عوتب بين علي ﷺ و العباس و ما جاء في لفظ مسلم في صحيحه من قول العباس لعمر: يا أمير المؤمنين اقض بيني و بين هذا الكاذب الآثم الغادر الخائن. فهكذا كان العباس يقذف سيد العترة الطاهرة المطهرة بهذه الشتائم المقذعة و بين يديه آية التطهير و غيرها مما نزل في علي أمير المؤمنين في آي الكتاب العزيز، فما العباس؟ و ما خطره عندئذ؟ و بماذا يحكم عليه أحد بقول النبي الطاهر ﷺ: من سب علياً فقد سبني، و من سبني فقد سب الله، و من سب الله كبه الله على منخريه في النار.

لا ها الله حاشا العباس عن هذه النسب المخزية، و نرى القوم راقهم سب مولانا أمير المؤمنين، فصححوا هذه الأحاديث و جعلوها للنيل منه قنطرة و معذرة، و الله يعلم ما تكن صدورهم و ما يعلنون و إلى الله المشتكى»

و في السقيفة و فدك لأبي بكر الجوهري البصري بإسناده عن عائشة أن فاطمة و العباس أتيا أبا بكر يلتمسان ميراثهما من رسول الله ﷺ و هما حينئذ يطلبان أرضه

فدك وسهمه بخيبر، فقال لها أبو بكر: إنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا نورث ما تركناه صدقة إنّما يأكل آل محمّد ﷺ من هذا المال، وإنّي والله لا أغيّر شيئاً رأيت رسول الله ﷺ يصنعه إلّا صنعته. ولا شكّ من أنّ هذا الدين مسكه ودرايته، وله حسب وقلادة أنّ هذا كذب صريح وادّعاء فارغ، وتأمّل على هذه السيرة مع فاطمة الزهراء عليها السلام فإنّ النبيّ الكريم ﷺ في أمثال لسائر من المهاجرين مع عصمته القصّة بتطهيره، ففدك فلما سمعتها منها، وغضبت، وأغضبت فاطمة الزهراء سلام الله عليها فهجرته فاطمة فلم تكلّمه حتّى ماتت؟ وأيّ أمر من الأمور يدلّ على أنّ بضعة المصطفى ﷺ و نحن نراها عليها السلام.

ولا شكّ أنّ أصحاب الشيعة الشيعة شيوخه وأهل بيته أزواجه وهو بن حمير بن العبّاس وأهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين بعيد، ولأبي بكر وعمر في مطالبة بني هاشم لها، ولو حضر العبّاس مع القصّة عليها السلام عند أبي بكر لكن لا يراه حجّة أبي بكر في قوله إنّ فعله ترث مع النسب، وكذلك كان حضوره مع عليّ ﷺ عند تكذيب مفتريه على رسول الله ﷺ أنّه قال: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث».

وفي الطرائف للسيّد بن طاووس رحمه الله تعالى عنه أنّ جعفر بن كاتب قد وصف هارون الرشيد بأنّه عالم زكيّه، وحضرت عنده، فقيل له: ما تقولون في منازعة العبّاس وعليّ ﷺ عند أبي بكر وعمر أنّهما كانا على الحقّ؟ وأنّهما كانا على الباطل؟ فقلت: كان كالملكين اللذين نزلا على داود ليختصما في الغنم، وإنّما أراد الملكان تعريف داود وجه الحكم، فكذلك أراد العبّاس وعليّ تعريفهما أنّ أبا بكر وعمر أنّهما ظالمان لهما بمنع ميراث نبيّهما فهذا جواب مزعوم بكر عندهم عداوة لأهل البيت، عرفت الحقّ واعتذرت عذراً جميلاً، فاستحسن الرشيد ذلك منه، وأشرفها بألوف كثيرة».

وفي شرح ابن أبي الحديد قال: وههنا إشكال آخر وهو أنّ عمر ناشد عليّاً والعبّاس هل تعلمان ذلك؟ فقالا: نعم، فإذا كانا يعلمانه فكيف جاء العبّاس وفاطمة إلى أبي بكر يطلبان الميراث على ما ذكره في خبر سابق على هذا الخبر وقد أورده فيه!

وهل يجوز أن يقال: كان العبّاس يعلم ذلك، ثمّ يطلب الإرث الّذي لا يستحقّه؟

وهل يجوز أن يقال: إنّ عليّاً كان يعلم ذلك، ويمكّن زوجته أن تطلب ما لا تستحقّه، خرجت من دارها إلى المسجد، ونازعت أبا بكر وكلّمته بما كلّمته إلّا بقوله وإذنه ورأيه؟ وأيضاً فإنّه إذا كان ﴿صلّى الله عليه وآله﴾ لا يورث، فقد أشكل دفع آلته ودابّته وحذائه إلى عليّ ﴿عليه السلام﴾ لأنّه غير وارث في الأصل، وإن كان أعطاه ذلك لأنّ زوجته بغرضه أن ترث، لولا الخبر، فهو أيضاً غير جائز لأنّ الخبر قد منع من أن يرث منه شيئاً قليلاً كان أو كثيراً!!

ثمّ قال ـ بعد نقل خبر مالك بن أوس بن الحدثان ـ: وهذا الحديث يدلّ صريحاً على أنّهما جاءا يطلبان الميراث لا الولاية، وهذا من المشكلات لأنّ أبا بكر حسم المادّة أوّلاً، وقرّر عند العبّاس وعليّ وغيرهما أنّ النّبيّ ﴿صلّى الله عليه وآله﴾ لا يورث، وكان عمر من المساعدين له على ذلك، فكيف يعود العبّاس وعليّ بعد وفاة أبي بكر يحاولان أمراً قد كان فرغ منه ويُئس من حصوله؟! اللّهمّ إلّا أن يكونا ظنّا أنّ عمر ينقض قضاء أبي بكر في هذه المسألة، وهذا بعيد لأنّ عليّاً والعبّاس كانا في هذه المسألة يتّهمان عمر بممالأة أبي بكر على ذلك، ألا تراه يقول: نسبتماني ونسبتما أبا بكر إلى الظلم والخيانة، فكيف يظنّان أنّه ينقض قضاء أبي بكر ويورّثهما!!

﴿ حكمة عدم استرداد الإمام علي ﴿ع﴾ فدكاً في خلافته ﴾

واعلم أنّ الروايات الواردة في العلة من طرق الفريقين كثيرة جداً نشير إلى عدة منها، مقتصرين على جانب الاختصار

١ـ في السقيفة وفدك لأبي بكر الجوهري البصري المتوفى ٣٢٣هـ «وروى عن أبي عبدالله ﴿ع﴾ وقد سأله أبو بصير فقال: لمَ لم يأخذ أمير المؤمنين فدكاً لمّا ولي الناس؟ ولأيّ علّة تركها؟ فقال: لأنّ الظالم والمظلومة قدما على الله، وجازى كلاً على قدر استحقاقه، فكره أن يسترجع شيئاً قد عاقب الله عليه الغاصب وأثاب المغصوبة».

٢ـ وفيه أيضاً: وروي أنّه كان لأمير المؤمنين ﴿ع﴾ في ترك فدك أسوة برسول الله ﴿ص﴾ فإنّه لمّا خرج من مكة باع عقيل داره، فلمّا فتح مكة قيل له: يا رسول الله ألا ترجع إلى دارك؟ فقال ﴿ص﴾: وهل ترك لنا عقيل داراً، وأبى أن يرجع فيها وقال: إنّا أهل بيت لا نسترجع ما أُخذ منّا في الله عزّ وجلّ»

وفي الطّرائف للسيّد ابن طاووس رحمة الله تعالى عليه قال: ومن طرائف صحيح الأجوبة في ترك عليّ بن أبي طالب ﴿ع﴾ لاسترداده فدك لمّا بويع له بالخلافة

٣ـ في علل الشّرائع ـ باب ١٢٤ ـ العلّة التي من أجلها ترك أمير المؤمنين فدك لمّا ولي الناس حديث ١، بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبدالله ﴿ع﴾ قال: قلت له: لمَ لم يأخذ

أمير المؤمنين ﴿عليه السلام﴾ فدك لمّا ولي الناس؟ و لأيّ علّة تركها؟ فقال: «لأنّ الظالم و المظلوم كانا قدما على الله عزّ و جلّ، و أثاب الله المظلوم و عاقب الظالم، فكره أن يسترجع شيئاً قد عاقب الله عليه غاصبه، و أثاب عليه المغصوب».

٤- و فيه بإسناده عن محمّد بن أبي عمير، عن إبراهيم الكرخي قال: سألت أبا عبدالله ﴿عليه السلام﴾ فقلت له: لأيّ علّة ترك عليّ بن أبي طالب ﴿عليه السلام﴾ فدك لمّا ولي الناس؟ فقال: للاقتداء برسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ لمّا فتح مكّة، و قد باع عقيل بن أبي طالب داره، فقيل له: يا رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ ألا ترجع إلى دارك؟ فقال ﴿صلى الله عليه و آله﴾: و هل ترك عقيل لنا داراً؟ إنّا أهل بيت لا نسترجع شيئاً يؤخذ منّا ظلماً، فلذلك لم يسترجع فدك لمّا ولي».

٥- و فيه بإسناده عن عليّ بن فضّال عن أبي الحسن موسى بن جعفر ﴿عليه السلام﴾ قال: سألته عن أمير المؤمنين ﴿عليه السلام﴾ لِمَ لم يسترجع فدكاً لمّا ولي الناس؟ فقال: لأنّا أهل بيت لا نأخذ حقوقنا ممّن ظلمنا إلّا هو، يعني الله تعالى، و نحن أولياء المؤمنين إنّما نحكم لهم و نأخذ حقوقهم ممّن ظلمهم و لا نأخذ لأنفسنا».

و في الطرائف: قال عبدالمحمود: من ... أجمع علماء أهل البيت عليهم السلام بالمتولّين من أبي بكر و عمر أخذ فدك من أيديهم، و قد وقفت على كتب لهم و روايات كثيرة عن سلفهم حتّى أنّهم يرعون حفظ حدود فدك كما يراعي المظلوم حفظ حدود ضيعته و ملكه إذا غصب منه.

أقول: إنّ بعدم استرجاع أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﴿عليه السلام﴾ فدكاً لمّا بويع له بالخلافة حِكَماً و عِلَلاً كثيرة.

منها: أنّه ﴿عليه السلام﴾ لو استرجعها في خلافته لنسي غصب الثلاثة الغاصبين الخلافة منه ﴿عليه السلام﴾ بعد وفاة رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و نسي كفرهم و ضلالهم، و فسقهم و عدوانهم، و نفاقهم و خياناتهم، و ظلمهم و جناياتهم، و بغيهم و هتكهم لحرمة أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين كما صرّح بها أمير المؤمنين و الصدّيقة الطاهرة عليهما السلام في خطبهما و كلماتهما و محاوراتهما و مناشداتهما، و صرّح بها أولادهما الأئمّة المعصومون عليهم السلام

و منها أنّه ﴿عليه السلام﴾ لو استردّها في خلافته لنسي غصب الصّدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها و سخطها على الأوّلين و نسي عدم رضاها عنهما و عن كلّ من يحذو حذوهما إلى يوم القيامة، و لم تتمّ الحجّة عليهم في اتّباعهم لهما

و قد صرّحت النصوص المتضافرة عن طريق العامّة فضلاً عن الخاصّة أنّ فاطمة الزّهراء سلام الله عليها أوصت أن تدفن سرّاً و أن لا يصلّي عليها أبوبكر و عمر و لا يعلما مضجعها لغضبها عليهما في غصب الخلافة من زوجها و غصبهما حقّها من فدك و غيره و هتكهما حرمة رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ و حرمة أهل بيته ﴿عليهم السلام﴾، و قد صار ذلك من أعظم المطاعن عليهما في كلّ ظرف من الظروف إلى يوم القيامة

و منها أنّه ﴿عليه السلام﴾ لو استردّها في خلافته لما كان لنسبة الصّدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها سند لبراءتها عن هؤلاء الغاصبين للخلافة، المعتدين الباغين، الظّالمين، المستكبرين، المستبدّين الطّواغيت الهتّاكين و من حذا حذوهم

و ذلك أنّ عمر بن الخطّاب لمّا أخذ سند فدك من يد الصّدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها و محاه أثبت سند البراءة الدّائمة منه و من خليفته و أدامها لنسبة فاطمة الزّهراء سلام الله عليها إلى يوم القيامة

و منها أنّه ﴿عليه السلام﴾ لو استرجعها لزم أن لا تكون الصّدّيقة الطّاهرة عليها السلام يوم القيامة غضبى على الغاصبين، و أن يكون أولادها و شيعتها مسرورين بسلطتهم على فدك و غيره في الحياة الدّنيا

و منها أنّ الإمام أمير المؤمنين ﴿عليه السلام﴾ لم يستردّ فدكاً في خلافته لدفع تهمة جرّ النّفع إلى نفسه ﴿عليه السلام﴾ كما اتّهمه أبوبكر في شهادته ﴿عليه السلام﴾ لفاطمة الزّهراء سلام الله عليها

﴿ فدك بين غصبها و استرجاعها إلى صاحبها ﴾

و قد حفظت كتب التاريخ في سيرة فدك إلى صاحبها اختلافاً كثيراً نشير إلى ما سبقه المقدم، و نص على نهج الاختصار

١ـ أنّ أبابكر لمّا غصب فدكاً، و احتجّت عليه الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها بأنّ رسول الله ﴿ﷺ﴾ أعطاها إيّاها بأمر من الله تعالى، أراد أبوبكر أن يكتب بردّ فدك إلى فاطمة الزهراء عليها السلام فمنعه عمر بن الخطّاب من الكتاب، و في بعض الروايات كتب أبوبكر بردّ فدك إليها، فمزّق عمر بن الخطّاب الكتاب

و بقيت فدك في يد أبي بكر، ثمّ في يد عمر بن الخطّاب، ثمّ في يد عثمان بن عفان، ثمّ أقطعها عثمان لمروان بن الحكم، فوهبها مروان لولديه عبدالملك و عبدالعزيز فبقيت فدك بيد الخلفاء الثلاث الغاصبين و هو الأشهر

٢ـ أنّ عمر بن الخطّاب لمّا ولي الخلافة ردّ فدكاً إلى ورثة رسول الله ﴿ﷺ﴾ فكان عليّ بن أبيطالب ﴿عليه السلام﴾ و العبّاس بن عبد المطّلب يتنازعان فيها

و هذا مردود لما سبق منّا

٣ـ أنّ مروان بن الحكم أقطع فدكاً في أيّام عثمان بن عفّان بأمر عثمان

٤ـ أنّ معاوية بن أبي سفيان لمّا استولى على الملك أمعن في السّخرية و أكثر الاستخفاف بالحقّ المهضوم بتقسيمه مثلثه فأقطع مروان ثلث فدك، و أقطع عمرو بن عثمان بن عفّان ثلثها، و أقطع يزيد بن معاوية ثلثها الآخر و ذلك بعد شهادة الحسن بن

عليّ ﴿عليه السلام﴾، فلم يزالوا كذلك حتّى خلصت كلّها لمروان بن الحكم أيّام ملكه، فوهبها لعبد العزيز ابنه، فوهبها عبدالعزيز لابنه عمر بن عبدالعزيز.

٥ـ أنّ عمر بن عبدالعزيز لمّا ولي الخلافة خطب، فقال: إنّ فدك كانت ممّا أفاء الله على رسوله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ ولم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فسألته إيّاها فاطمة عليها السلام فقال: ما كان لك أن تسأليني وما كان لي أن أعطيك، فكان يضع ما يأتيه منها في أبناء السبيل، ثمّ ولي أبوبكر وعمر وعثمان وعليّ ﴿عليه السلام﴾ فكانت في أيديهم ثمّ ولي معاوية فأقطعها مروان بن الحكم، فوهبها مروان لأبي ولعبد الملك فصارت لي وللوليد وسليمان، فلمّا ولي الوليد سألته حصّته منها، فوهبها لي، وسألت سليمان حصّته منها فوهبها لي، فاستجمعتها وما كان لي من مال أحبّ إليّ منها فاشهدوا أنّي قد رددتها إلى ما كانت عليه.

في السّقيفة وفدك لأبي بكر الجوهري البصري: «فلمّا ولي عمر بن عبدالعزيز الخلافة كانت أوّل ظلامة ردّها دعا حسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب ﴿عليه السلام﴾ وقيل بل دعا عليّ بن الحسين ﴿عليه السلام﴾ فردّها عليه وكانت بيد أولاد فاطمة عليها السلام مدّة ولاية عمر بن عبدالعزيز».

وفي تلخيص الشّافي للشيخ الطّوسي قدّس سرّه ما لفظه: «فقد روى محمّد بن زكريّا الغلابي عن شيوخه عن أبي المقدام هشام بن زياد مولى آل عثمان، قال: لمّا ولي عمر بن عبدالعزيز ردّ فدك على ولد فاطمة عليها السلام وكتب إلى واليه على المدينة أبي بكر بن عمرو بن حزم يأمره بذلك، فكتب إليه:

إنّ فاطمة عليها السلام قد ولدت في آل عثمان وآل فلان وفلان، فعلى من أردّ منهم؟ فكتب إليه: أمّا بعد فإنّي لو كتبتُ إليك آمرك أن تذبح شاة لسألتني جمّاء أو قرناء؟ أو كتبتُ إليك أن تذبح بقرة لسألتني ما لونها؟ فإذا ورد عليك كتابي فاقسمها في ولد فاطمة من عليّ ﴿عليه السلام﴾».

قال أبو المقدام: فنقمت بنو أُميّة ذلك على عمر بن عبدالعزيز وعاتبوه فيه، وقالوا له: هجّنت (هجنت خ) فعل الشّيخين، وخرج إليه عمر بن قيس في جماعة من أهل الكوفة،

فلمّا وصلهم قال لمّا عاتبوه على فعله: إنّكم جهلتم وعلمتُ، وغفلتم وذكرتُ، أنّ أبابكر محمّد بن عمرو بن حزم حدّثني عن أبيه عن جدّه أنّ رسول الله ﴿صلّى الله عليه وآله﴾ قال: «فاطمة بضعة منّي يسخطني ما أسخطها ويرضيني ما أرضاها»

وإنّ فدك كانت صافية على عهد أبي بكر وعمر، ثمّ صار أمرها إلى مروان، فوهبها لأبي عبد العزيز، فورثتها أنا وإخواني، فسألتهم أن يبيعوني حصّتهم منها، فمنهم من باعني ومنهم من وهب لي حتّى استجمعتها، فرأيت أن أردّها على ولد فاطمة عليها السلام. قالوا: فإن أبيت إلّا هذا فأمسك الأصل واقسم الغلّة، ففعل.

وفي السّقيفة وفدك: وروى مرفوعاً أنّ عمر بن عبد العزيز لمّا استخلف قال: أيّها النّاس إنّي قد رددت عليكم مظالمكم، وأوّل ما أردّ منها ما كان في يدي من فدك على ولد رسول الله ﴿صلّى الله عليه وآله﴾ وولد عليّ بن أبي طالب، فكان أوّل من ردّها.

وفيه: وروي أنّه ردّها بغلّاتها منذ ولي، فقيل له: نقمت على أبي بكر وعمر فعلهما، فطعنت عليهما ونسبتهما إلى الظلم والغصب، وقد اجتمع عنده في ذلك قريش ومشايخ أهل الشام من علماء السوء، فقال عمر بن عبد العزيز: قد صحّ عندي وعندكم أنّ فاطمة بنت رسول الله ﴿صلّى الله عليه وآله﴾ ادّعت فدك، وكانت في يدها، وما كانت لتكذب على رسول الله ﴿صلّى الله عليه وآله﴾ مع شهادة عليّ وأمّ أيمن وأمّ سلمة، وفاطمة عندي صادقة فيما تدّعي، وإن لم تقم البيّنة وهي سيّدة نساء أهل الجنّة، فأنا اليوم أردّها على ورثتها أتقرّب بذلك إلى رسول الله ﴿صلّى الله عليه وآله﴾ وأرجو أن تكون فاطمة والحسن والحسين يشفعون لي في يوم القيامة، ولو كنتُ بدل أبي بكر، وادّعت فاطمة كنت أصدّقها على دعواها، فسلّمها إلى محمّد بن عليّ الباقر عليهما السلام وعبد الله بن الحسن، فلم تزل في أيديهم إلى أن مات عمر بن عبد العزيز.

وفيه: وروي أنّه لمّا صارت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز ردّ عليهم سهام الخمس، سهم رسول الله ﴿صلّى الله عليه وآله﴾ وسهم ذي القربى، وهما من أربعة أسهم، ردّ على جميع بني هاشم وسلّم ذلك إلى محمّد بن عليّ الباقر عليهما السلام وعبد الله بن الحسن»

رواه عيسى الإربلي في (كشف الغمّة ج ١ ص ٤٩٥) وغيره

أقول: إنّي لا أظنّ أنّ عمر بن عبدالعزيز كان صادق النيّة و حسن السّريرة مخلصاً عادلاً ـ كما زعمه بعض المستطحين ـ و إلّا لردّ الخلافة إلى أهلها حقّاً لا فدك وحدها، حيث إنّ الخلافة و فدك ـ كالإنسان الحيّ الكامل المركّب من الجسم و الرّوح ـ بينهما رابطة وثيقة لا تفترقان.

وإنّما كانت فدك وسيلة بيد الخلفاء الغاصبين إن شاؤوا ردّوها لأصحابها، و إن شاؤوا قبضوها عنهم وفق مراجعهم الخاصّة و حالاتهم النّفسيّة من جهة، و موقف السّلاطين في أزمانهم من الأحداث المشابهة العامّة في الدّولة من جهة أخرى كما رأينا نظائرها في زماننا هذا كثيراً.

٦ـ أنّ فدك كانت بيد أولاد فاطمة الزّهراء سلام الله عليها مدّة ولاية عمر بن عبدالعزيز، فلمّا ولي يزيد بن عبدالملك قبضها منهم، فصارت في أيدي بني مروان كما كانت يتداولونها حتّى انتقلت الخلافة عنهم و انقرضت دولتهم.

٧ـ و لمّا جاء العبّاسيّون ردّها أبو العبّاس السفّاح إلى عبدالله المحض بن الحسن المثنّى بن الحسن بن عليّ أمير المؤمنين ﷺ فكان هو القيّم على فدك يفرّق غلّتها في بني فاطمة الزّهراء سلام الله عليها.

٨ـ فلمّا استولى المنصور الدّوانيقي على الملك، و خرج عليه بنو الحسن قبضها عنهم.

٩ـ ثمّ أعادها المهديّ بن المنصور على ولد فاطمة الزّهراء سلام الله عليها.

١٠ـ ثمّ قبضها موسى الهادي و أخوه هارون الرّشيد من أيدي بني فاطمة عليها السّلام فلم تزل في أيديهم حتّى استولى المأمون على الخلافة.

١١ـ ثمّ ردّها المأمون ابن هارون على بني فاطمة الزّهراء عليها سلام الله، و كتب يوم الأربعاء لليلتين خلتا من ذي القعدة سنة ٢١٠ هـ بإرجاع فدك إلى ورثة الصّدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها.

و في إرجاعها إليهم في عهد المأمون بشكل يدعو إلى التأمّل، و يشير بصراحة لا لبس فيها و لا غموض إلى حقّ الصّدّيقة الطّاهرة عليها السّلام في فدك، لذلك نرى إثباته هنا بالأشكال التي ذكرها الجوهري في السّقيفة و فدك ص ١٠٤، و العيّاشي في تفسيره و

البلاذري في فتوح البلدان ص ٤٦ـ٤٧، وياقوت الحموي في المعجم البلدان ج ٤ ص ٢٤٠، وغيرهم.

١ـ في السقيفة وفدك بإسناده عن مهديّ بن سابق قال: جلس المأمون للمظالم، فأوّل رقعة وقعت في يده نظر فيها وبكى وقال للذي على رأسه: ناد أين وكيل فاطمة؟ فقام شيخ عليه درّاعة وعمامة وخفّ تعزّي، فتقدّم فجعل يناظره في فدك، والمأمون يحتجّ عليه وهو يحتجّ على المأمون، ثمّ أمر أن يسجّل لهم بها فكتب السجلّ وقرئ عليه، فأنفذه، فقام دعبل إلى المأمون فأنشده الأبيات التي أوّلها:

أصبح وجه الزمان قد ضحكا   بردّ مأمون هاشم فدكا

٢ـ في تفسير العيّاشي عن عبد الرحمن بن صالح: كتب المأمون إلى عبيد الله بن موسى العبسي يسأله عن قصّة الفدك، فكتب إليه عبيد الله بن موسى بهذا الحديث رواه عن الفضيل بن مرزوق عن عطيّة، فردّ المأمون فدك على ولد فاطمة صلوات الله عليها.

إنّ عبيد الله بن موسى العبسي هو من علماء الشيعة ومحدّثيهم في القرن الثالث من الهجرة النبويّة.

٣ـ في فتوح البلدان: «ولمّا كانت سنة عشرين ومائتين أمر المأمون بردّ فدك إلى ولد فاطمة وكتب بذلك إلى قثم بن جعفر عامله على المدينة:

أمّا بعد فإنّ أمير المؤمنين بمكانه من دين الله وخلافة رسوله ﴿ﷺ﴾ والقرابة به أولى من استنّ سنّته، ونفّذ أمره، وسلّم لمن منحه منحة وتصدّق عليه بصدقة منحته وصدقته، وقد كان رسول الله ﴿ﷺ﴾ أعطى فاطمة بنت رسول الله فدك، وتصدّق بها عليها، وكان ذلك أمراً ظاهراً معروفاً لا اختلاف فيه بين آل رسول الله ﴿ﷺ﴾ ولم تزل تدّعي منه ما هو أولى به من صُدّق عليه، فرأى أمير المؤمنين أن يردّها إلى ورثتها ويسلّمها إليهم تقرّباً إلى الله بإقامة حقّه وعدله، وإلى رسول الله ﴿ﷺ﴾ بتنفيذ أمره وصدقته، فأمر بإثبات ذلك في دواوينه والكتاب به إلى عمّاله.

فلئن كان ينادى في كلّ موسم بعد أن قبض الله نبيّه ﴿ﷺ﴾ أن يذكر كلّ من كانت له صدقة أو هبة أو عدة ذلك، فيقبل قوله، وتنفذ عدته، إنّ فاطمة رضي الله عنها لأولى بأن

تصدّق بها في حق رسول الله ﷺ بها

وقد كتب أمير المؤمنين إلى المبارك الطبري مولى أمير المؤمنين يأمره بردّ فدك على ورثة فاطمة بنت رسول الله ﷺ بحدودها وجميع حقوقها المنسوبة إليها وما فيها من الرقيق والغلات وغير ذلك وتسليمها إلى محمد بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ومحمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب لتولية أمير المؤمنين إياهما القيام بها لأهلها.

فاعلم ذلك من رأي أمير المؤمنين وما ألهمه الله من طاعته، ووفقه له من التقرب إليه وإلى رسوله ﷺ، وأعلمه من قبلك، وعامل محمد بن يحيى ومحمد بن عبد الله بما كنت تعامل به المبارك الطبري، وأعنهما على ما فيه عمارتها ومصلحتها ووفور غلاتها إن شاء الله والسلام.

٤ ـ في معجم البلدان ـ مادة فدك ـ: فلما كانت سنة ٢١٠ هـ أمر المأمون بدفعها إلى ولد فاطمة وكتب إلى قثم بن جعفر عامله على المدينة أنه كان رسول الله ﷺ أعطى ابنته فاطمة رضي الله عنها فدك وتصدّق عليها بها وأنّ ذلك كان أمراً ظاهراً معروفاً عند آله ﷺ ثم لم تزل فاطمة تدّعي منه بما هو أولى من صدّق عليه وأنه قد رأى ردّها إلى ورثتها وتسليمها إلى محمد بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ومحمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ليقوما بها لأهلهما.

٥ ـ في الطرائف ـ باب فيما جرى على فاطمة عليها السلام من الأذى والظلم ومنعها من فدك ـ قال: وقد ذكر صاحب التاريخ في ذلك رسالة طويلة بتلخيص صورة أخذ من المأمون الخليفة العباسي بإنشائها وقرئت في موسم الحج وقد ذكرها صاحب التاريخ المعروف بالعباسي وأشار إليها مثله صاحب التاريخ في ذلك في حوادث سنة اثنتي عشرة ومائتين، انتهى.

أقول: وقد سبق ذكرها مع في المدد قبل شهادة ذي الشهادتين في قصّة الآية وردّ شهادة الإمام علي ﴿ع﴾ في قصة فدك، فراجع.

ولا يخفى على من له الدراية وطلب أولاده أنّ المأمون العبّاسي لم يكن أقلّ جوراً و عدواناً، وبغضاً وظلماً، واستبداداً وخيانة من أسلافه الطواغيت المدعين من الخلفاء الغاصبين الثلاث، وأذنابهم من بني أُميّة وبني العبّاس لعنة الله عليهم أجمعين، ولم يردّ فدكاً إلى بني فاطمة سلام الله عليها عن نيّة وقصد وحب، وإنّما ردّ فدك لأغراضه الخبيثة السياسية

وذلك أنّ الإمام الثامن علي بن موسى الرضا عليه آلاف التحيّة والثناء لمّا استشهد بسمّ المأمون سنة (٢٠٣هـ) تغيّر الجوّ السياسي واضطرب، وحصل شغب شيعة الإمام ومحبّي أهل بيت الوحي المعصومين عليهم السلام على المأمون من جهة، وثورة العلويّين عليه وخطرهم منه من جهة أخرى. فردّ فدك إلى بني فاطمة سلام الله عليها لإطفاء هذه الثائرة من جهة، وإسكات العلويّين من جهة أخرى بعد أن ناظره في أمرها شيخ طاعن في السنّ

وفي نهج الحقّ وكشف الصدق: ... جمع المأمون ألف نفس من الفقهاء والعلماء وأدّى بحثهم إلى ردّ فدك إلى العلويّين من ولدها فردّ فدك عليهم

وبعد سلب خلافة جميع الخلفاء الغاصبين عن مشتبه الشجرة الملعونة ولذا نرى العبّاسيّين وهم من بعد الناس عن الدين يجتهدون في سعي إبطال الخلفاء الثلاث الغاصبين الأوّلين وإثبات أحقّيتهم، إذ لا يتمّ دعوى استحقاقهم الخلافة إلّا بذلك، ويعدّون من أمارات الأئمّة موالاتهم والتمسّك بهم

ولا يظنّ أحد ممّن له أدنى مسكة وذكاء وفهم ووعي أن يشكّ أنّ أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين لم يستشهدوا إلّا بضرب أصحاب السقيفة كما تقدّمت الطاهرة سلام الله عليها بضرب عمر بن الخطّاب، وأسيافهم وسمومهم

ولذا قال القاضي بن قريعة من أبيات له:

لولا حدود صوارم — أمضى مضاربها الخليفة
لنشرت من أسرار آل — محمّد جملاً طريفة
وأريكم أنّ الحسين — أصيب في يوم السقيفة

١٢ـ لمّا استخلف المعتصم بن هارون الرّشيد أخو المأمون عام ٢١٨ هـ، أمر بردّ فدك إلى ما كانت عليه قبل المأمون، فغصبها كأسلافه من الغاصبين

١٣ـ و لمّا استولى الواثق بن المعتصم عام ٢٢٧ هـ، ردّ فدكاً إلى بني فاطمة سلام الله عليها

١٤ـ و لمّا استخلف المتوكّل بن محمّد بن هارون الرّشيد عام ٢٣٢ هـ، غصب فدكاً، و غصبها كأسلافه و لمّا قُتل سنة (٢٤٧) استخلفه ابنه المنتصر بعد خلعه أخويه المعتزّ و المؤيّد، و لمّا مات المنتصر عام (٢٤٨) استخلفه ابنه المستعين، و استخلفه المعتزّ بن المتوكّل، و كانت فدك بأيديهم غصباً كأسلافهم

١٥ـ و لمّا استخلف المهتدي بن الواثق ردّ فدكاً على بني فاطمة عليها السلام، و لمّا استخلفه ابنه محمّد ابن الواثق عام (٢٥٥) قبضها

١٦ـ و لمّا استخلف المعتمد عام (٢٥٦) ردّها عليهم، ثمّ استخلفه المعتضد عام (٢٧٩) ثمّ استخلفه المكتفي عام (٢٨٩) ثمّ استخلفه المقتدر بن المعتضد عام (٢٩٥) ثمّ خُلع المقتدر لصغر سنّه عام (٢٩٦) و استخلفه عبد الله بن المعتزّ الملقّب بالمنصف، و لكنّه قُتل و استولى المقتدر على خلافته، ثمّ قُتل المقتدر سنة (٣٢٠) و استخلفه محمّد بن أحمد المعتضد بن طلحة الموفّق بن جعفر المتوكّل العبّاسي الملقّب بالقاهر

و بعد ذلك ضاعت معالم فدك على المؤرّخين.

و في نهج الحقّ و كشف الصّدق للعلّامة الحلّي رضوان الله تعالى عليه «و ذكر أبو هلال العسكري في كتاب «أخبار الأوائل» أنّ أوّل من ردّ فدك على أولاد فاطمة عليها السلام عمر بن عبد العزيز و كان معاوية أقطعها لمروان بن الحكم، و عمر بن عثمان و يزيد ابنه أثلاثاً، ثمّ غصبت فردّها عليهم السّفاح، ثمّ غصبت فردّها عليهم المهدي، ثمّ غصبت فردّها عليهم المأمون

ثمّ قال، أعني أبا هلال: ثمّ غصبت، فردّها عليهم الواثق، ثمّ غصبت، فردّها عليهم المعتمد، ثمّ غصبت، فردّها عليهم المعتضد، ثمّ غصبت، فردّها عليهم الرّاضي» انتهى كلامه

أقول كيف دفنت فصادرت صدقة، جاء به أبو بكر ثم رده خليفته عمر بن الخطاب من خبر شاذ عن الكتاب والسنة وسير الأنبياء والأمم وضرورة العقل، وهذا شأنها، فالأذهان لا يكادون يفهمون حديثاً؟

في السقيفة وفدك فلم تزل بعد ذلك في أيديهم بني فاطمة حتى كان في أيام المتوكل، فأقطعها عبد الله بن عمر البازيار، وكان فيها إحدى عشرة نخلة غرسها رسول الله ﷺ بيده، فكان بنو فاطمة يأخذون ثمرها، فإذا قدم الحجاج أهدوا لهم من ذلك التمر، فيصلونهم فيصير إليهم من ذلك مال جزيل جليل، فصرم الباقي حتى وقطعها عبد الله بن عمر البازيار ذلك التمر، ووجّه رجلاً يقال له بشران بن أبي أمية الثقفي إلى المدينة، فصرمه، ثم عاد إلى البصرة ففلج»

« آثار شؤم غصب فدك للجوامع البشريّة
و عذاب غاصبيها في حميم جهنّم و لظى جحيم »

و نحن هنا نذكر ما يتعلّق به من غصب فدك من الآثار المشؤومة بنحو مع البشريّة و عذاب غاصبيها، و قد وردت روايات كثيرة في عذابهم يوم القيامة، و نكتفي بما رواه العلّامة المجلسي رضوان الله تعالى عليه نقلاً عن أمالي الشيخ الطوسي قدّس سرّه الشريف رومًا للاختصار.

في البحار كتاب الفتن و المحن باب ١١ ـ نزول الآيات في أمر فدك حديث ٣٨:

هذا حديث وجدته بخطّ بعض المشايخ رحمهم الله، ذكر أنّه وجده في كتاب لأبي غانم الأعرج ـ و كان مسكنه باب الشعير ـ وجد خطّه على ظهر كتاب له حتّى مات، و هو أنّ عائشة بنت طلحة دخلت على فاطمة عليها السّلام فرأتها باكية، فقالت لها: بأبي أنت و أمّي ما الّذي يبكيك؟ فقالت لها: أسائلتي (أتسألني خ) عن هنة (هبة خ) حلّق بها الطائر، و حفي (خفي خ) بها السائر و رفعت إلى السّماء أثرًا (و رفع إلى السّماء أمرًا خ) و رزئت في الأرض خبرًا؟

إنّ قحيف (ابن عمّ خ) تيم و أحيول عدي جاريا (أخا رباح خ) أبا الحسن في السّباق، حتّى إذا تفرّيا (تعرّيا خ) بالخناق أسرّا له الشّنآن و طوياه الإعلان، فلمّا خبا نور الدّين و قبض النّبيّ الأمين نطقا بفورهما و نفثا بسورهما و أدلّا بفدك، فيا لها كم من ملك ملك (ملكت خ)، إنّها عطيّة الرّبّ الأعلى للنّجيّ الأوفى، و لقد نحلنيها للصّبية السّواغب

من محمد و سلي و [illegible] العصم [illegible] و [illegible] منه، فإن [illegible] بعده، و معنى اللفظة [illegible] أو [illegible] عشر [illegible] و [illegible] عرد [illegible] في [illegible] حجم.

أقول: و لعمري [illegible] ولا تردّد في صحّة هذا الحديث في نفسه مع قطع النظر عن سنده و دلالته ـ و أنّه وارد عن لسان صاحب الولاية الكبرى، و عن بيان ذي العصمة و الطّهارة العظمى، من دون ريب و لا شبهة، حيث إنّ كلام المعصوم عند أصحاب الدراية و [illegible] أولاده ـ و [illegible] كلام [illegible] نقدّمه [illegible] [illegible] مع [illegible] سند لو [illegible] من [illegible] حتّى [illegible] صلوات الله عليهما في [illegible] الإنسانية من كونهم [illegible] في [illegible] الإنسان [illegible] من [illegible] و [illegible] و كلام غير المعصوم [illegible] من [illegible] و [illegible] كلام الإنسان و [illegible]

قوله عليه السلام: «[illegible]» و [illegible] شيء لا [illegible] و في نسخة [illegible] و [illegible] [illegible] في [illegible] مع [illegible] و «[illegible]» أي أسرع [illegible] في [illegible] هذا [illegible] و [illegible] و [illegible] أو [illegible] دابّته و في نسخة «خفي بها الساتر» أي لم يبق ساترها، و [illegible]

و قولها سلام الله عليها: «و رفعت إلى السماء [illegible]» أي ظهرت [illegible] في [illegible] و [illegible] من [illegible] و من [illegible] و [illegible] و في نسخة «و [illegible]» أي [illegible] و [illegible] «و [illegible] في الأرض [illegible]» أي [illegible] من [illegible] في الأرض [illegible] لولا [illegible] و لما [illegible] لخلافة، و لم [illegible] و [illegible] على [illegible] الأرض.

و قولها صلوات الله عليها: «فُحَتْفُ نَمِرٍ» [illegible] عليها السلام فُحَتْفٌ على أبي بكر لأنّ أباه أبو قحافة، و القِحْفُ ـ بالكسر ـ العظم فوق الدماغ، و القَحْفُ ـ بالفتح ـ قطع القحف أو كسره، و [illegible] كلّ شيء أي [illegible] و سيل قُحاف كغُراب [illegible] و [illegible] و المراد به عمر بن الخطّاب و

هو بل لم يكن أحول ظاهراً ولكنّه كان أحول باطناً لشركه وضلاله، وكفره ونفاقه، وبغيه وفساده، وظلمه وجوره، وعداوته وعناده وخبثه وخبث سريرته، ولكونه أعمى في باطنه وبصيرته. ويقال ـ أيضاً: ما أحوله؟ أي ما أخبثه وأكثر خبثه؟

وقولها عليها السلام «تجاريتما فرسي الشقاق» يقال جاراه أي جرى معه و الشقاق المخالفة، أي كان أبو بكر وعمر يتظاهران على سبيل الشقاق ـ في عهد رسول الله ﷺ ـ أن يسلب أمير المؤمنين عليّ ﷺ في المكارم، واعتقدا كقراءة سورة التوبة على مشركي مكّة وعزله عنها، وردّه عن طريق الموسم، وردّه في محنتها فيسبب من هذا التفسير وفي نسخة «تجاريتما من حبال الكافرين بركة حسده، وقطعه وخطّه، فكنا به عن تحصّن أبي بكر وعمر عمّا كان علمه أمير المؤمنين عليّ ﷺ من الحقّ والهدى

وقولها سلام الله عليها «تفرّيا» من تفرّى أي انشقّ، و«الخناق»: الحبل يخنق به «أسرتا» حقداً لأمير المؤمنين عليّ ﷺ الشنآن: العداوة والحقد والبغض أي لما شفّقا عما خبثها من ظهور مناقبه وفضائله ﷺ وعجزهما عن أن ينالا شيئاً منها، أو من شدّة غيظه أكمنا العداوة والحقد في نفسهما، منتهضين للفرصة و«طويا الإعلان» أي أضمرا أن يغصبا له ﷺ العداوة والبغضاء عند الفرصة وفي الكلام حذف و إيصال أي طويا به أو عنه ﷺ يقال فلان طوى الحديث كتمه و«خبت» من خبت النّار: سكنت وطفئت و«نطقا بفورهما» أي تكلّما أي بسبب فورانها أو بسبب غليان حقدهما وفوران حسدهما وعداوتهما

وقولها سلام الله عليها «وهدر فنيق» من نفثه ... و«النّفث»: النّفخ و البَزْقُ ونوّره الشيء حدّته وشدّته، ومن استطاب سطوته والعداوة وسار الشراب في رأسه سؤوراً: دار وارتفع، وسار الرّجلُ يسور: وثب وثار

في نهج البلاغة قال مولى الموحّدين يعسوب الدين أمير المؤمنين الإمام عليّ ﷺ «فوالله ما زلتُ مدفوعاً عن حقّي مستأثراً عليّ منذ قبض الله نبيّه ﷺ حتّى يوم الناس هذا» الخطبة ٦)

وفيه: قال سيّد الوصيّين إمام المتّقين عليّ بن أبي طالب ﷺ «حتّى إذا قبض الله رسوله ﷺ رجع قوم على الأعقاب، وغالتهم السبل، واتّكلوا على الولائج، ووصلوا

[illegible]

و فيه [illegible]

و فيه [illegible]

و قولها صلوات الله عليها [illegible]

[illegible]

[illegible]

تمّت سورة الرّوم

و الحمد لله ربّ العالمين و صلّى الله على محمّد و آله الطّاهرين

و لاسيّما بقيّة الله في الأرضين

الفهرس

فهرس ماجاء في تفسير سورة «الرّوم»
يدور البحث حولها على فصلين:

الفصل الأوّل في عناوين تفسير السّورة و فيها تسع عشرة بصيرة

		صفحه
الاولى	سورة الرّوم	٧
الثّانية	بحث عميق عرفاني قرآني في فضل السّورة و خواصّها	١٤
الثّالثة	بحث عميق ادبي في عرض السّورة و هدفها	١٨
الرّابعة	بحث قرآني في نزول السّورة و ترتيبها	٢٠
الخامسة	كلام في القراءة و وجوهها	٣٢
السّادسة	كلام في الوقف و الوصل و وجوههما	٣٦
السّابعة	مقتطفات في معاني جميع اربع عشرة لغة من لغات السّورة	٣٨
الثّامنة	بحث ادبي نحوي	٩٨
التّاسعة	بحث عميق علمي بياني	١٣٩
العاشرة	كلام لطيف في بعض وجوه إعجاز هذه السّورة	٢٣٩

		الصّفحة
الحادية عشر	تحقيق علميّ في أسرار تكرار بعض آيات السّورة و لغاتها	٢٤٥
الثّانية عشر	بحث جديد لطيف حول تناسب السّور نزولاً و مصحفاً و تناسب آيات هذه السّورة	٢٥٣
الثّالثة عشر	بحث دقيق علميّ في النّاسخ و المنسوخ و المحكم و المتشابه	٢٧٣
الرّابعة عشر	تحقيق عميق فنيّ اجتهاديّ في الأقوال و بيان المختار منها	٢٧٤
الخامسة عشر	بحث جديد علميّ عميق في تفسير القرآن بالقرآن و بيان التأويل	٤١٧
السّادسة عشر	ذكر جملة المعاني	٤٩٥
السّابعة عشر	تحقيق عميق روائيّ في تفسير القرآن الكريم	٥١١
الثّامنة عشر	بحث دقيق علميّ فقهيّ إستدلاليّ قرآنيّ	٥٥٢
التّاسعة عشر	بحث عميق علميّ مذهبيّ، كلاميّ و اعتقاديّ	٥٦٣

الفصل الثّاني: في مواضيع الحِكَم القرآنيّة الدّقيقة، و المعارف الإسلاميّة العميقة المبحوث عنها في تفسير سورة «الرّوم»

في الفصل ثلاث بصائر

البصيرة الاولى حول «الرّوم» و فيها ثلاثة أمور

		الصفحة
الأوّل	آراء حول الرّوم	٥٨١
الثّاني	قمار أبي بكر في غلبة الرّوم على الفرس	٥٨٣
الثّالث	القتال بين الرّوم و الفرس و سبب غلبة الرّوم على الفرس	٥٨٥

البصيرة الثانية حول الفطرة و فيها سبعة عشر أمرا

		الصفحة
الأوّل	[illegible]	٥٩٠
الثاني	التوحيد و الولاية في ذات الفطرة	٦٠٠
الثالث	[illegible]	٦٠٤
الرّابع	[illegible]	٦٠٧
الخامس	[illegible]	٦١٤
السّادس	[illegible]	٦١٧
السّابع	[illegible]	٦٢٥
الثّامن	[illegible]	٦٢٨
التّاسع	الإسلام و دين الفطرة	٦٣٢
العاشر	[illegible]	٦٣٧
الحاديعشر	الولاية و أساس الإسلام	٦٤٠
الثاني عشر	[illegible]	٦٤٧

الصفحة

الثالث عشر	الدعوة الإسلامية وبناء أحكام الإسلام على الفطرة الإنسانية	٦٥٥
الرابع عشر	بحث علمي عميق حول النفس والفطرة	٦٦٢
الخامس عشر	ظهور الفطرة بعد احتجابها عند حضور الهلاك	٦٦٧
السادس عشر	العقل والشرع يوجبان التخلص من الشك والحد وهو الفطرة	٦٧١
السابع عشر	الفرق بين الفطرة والغريزة ووقع الالتباس بينهما	٦٧٤

التبصرة الثّالثة حول فدك و فيها أربعون أمراً و ستّة عشر فصلاً

		الصّفحة
الأوّل	آيتا فدك في القرآن الكريم، و فدك في نهج البلاغة	٦٨١
الثّاني	معنى فدك و مكانها	٦٩٠
الثّالث	سبب غصب فدك	٧٠٣
الرّابع	إلغاء المالكيّة الفرديّة و مصادرة أموال أهل بيت النّبوّة	٧١٠
الخامس	قصّة المجاعة من فدك	٧١٤
السّادس	دعوى النّحلة	٧١٦
السّابع	دعوى الميراث	٧٢٣
الثّامن	دعوى سهم ذوي القربى	٧٢٩
التّاسع	إخراج وكيل الصّدّيقة الطّاهرة عليها السّلام من فدك و غصبها، و ردّ شهادة شهودها، و قبول شهادة عائشة و عمر	٧٣٥
العاشر	لماذا مزّق عمر بن الخطّاب سند فدك؟	٧٤٣
الحادي عشر	خطبة كاملة من الصّدّيقة الطّاهرة فاطمة الزّهراء (عليها السلام)	٧٤٨
الثّاني عشر	خطبة الصّدّيقة الطّاهرة سلام الله عليها حول فدك إجمالاً	٧٥٧

		الصفحة
الثالث عشر	حكمة خطبة الصدّيقة الطّاهرة عليها السّلام و أهدافها و شرحها	۷٦۲
الرابع عشر	حكمة سكوت أمير المؤمنين الإمام علي (عليه السلام)	۷٦۷
الخامس عشر	عنوانات خطبة فدك و محرابها	۷۷۳
السادس عشر	خطبة الصدّيقة الطّاهرة (عليها السلام) حول فدك تفصيلاً و شرحها إجمالاً	۷۷۷
	و في هذا الأمر ستّة عشر فصلاً	
الفصل الأوّل	في خروج الصدّيقة الطّاهرة (عليها السلام) من بيتها لإيراد الخطبة في مسجد أبيها (صلى الله عليه و آله)	۷۷۷
الثاني	في الحمدلله تعالى على نعمه و بيان حقيقة التوحيد و حكمة الخلق	۷۷۸
الثالث	في رسالة أبيها (صلى الله عليه و آله) و حكمة الرسالة	۷۸
الرابع	في وفاة أبيها (صلى الله عليه و آله)	۷۸۲
الخامس	في استنهاض المسلمين على العمل بالثقلين و إحقاق الحقّ و إبطال الباطل	۷۸۳
السادس	حول حكمة الإيمان و علل الشرائع	۷۸۹
السابع	في تعريف نفسها عليها السّلام و بيان فضل أبيها و تبليغ رسالته	۷۹۹
الثامن	في انحطاط العرب قبل الاسلام و نجاتهم من الانحطاط بأبيها و فضل زوجها عليهما السّلام	۸ ۷

		الصفحة
التاسع	في جنايات المنافقين باسم الصحابة وفسقهم و [illegible] الذين وثّقهم [illegible] بعد وفاة رسول الله ﷺ	٨٢٥
العاشر	في استدلال الصدّيقة الطاهرة ﷺ على [illegible] الإرث وفدك [illegible] بالآيات القرآنية	٨٥٢
الحادي عشر	في [illegible] أصحاب السقيفة و [illegible]	٨٥٦
الثاني عشر	في توبيخ الأنصار [illegible] الصدّيقة الطاهرة ﷺ حين غصب حقّها و [illegible]	٨٥٩
الثالث عشر	حول [illegible] بعد [illegible]	٨٧٤
الرابع عشر	في [illegible] الصدّيقة الطاهرة ﷺ [illegible] على الأنصار	٨٩٣
	جواب أبي بكر [illegible] على رسول الله ﷺ	٩٠
الخامس عشر	في [illegible] الصدّيقة الطاهرة ﷺ [illegible] أبي بكر و [illegible]	٩١٢
	اعتراف أبي بكر بجنايته على أهل بيت النبوّة.	٩١٩
السادس عشر	في توبيخ الصدّيقة الطاهرة ﷺ لأصحاب السقيفة	٩٢١
الأمر السابع عشر	إلتجاء الصدّيقة الطاهرة ﷺ إلى قبر أبيها بعد [illegible] من إحقاق حقّها	٩٢٧
الثامن عشر	إهانة أبي بكر لأهل بيت النبوّة وكفره.	٩٤٥
التاسع عشر	ردّ امّ سلمة، أقاويل أبي بكر...	٩٥١
العشرون	رجوع الصدّيقة الطاهرة ﷺ إلى بيتها و [illegible] لأمير المؤمنين الإمام علي ﷺ	٩٥٣

		الصفحة
الواحد و العشرون	سلسلة الائمة من الموصين المعصومين بعد الطاهر ﴿ﷺ﴾	٩٧٨
الثانى و العشرون	جملة من مصادر خطبة الفدكية عند الفريقين	٩٨٣
الثالث و العشرون	محتوى خطبة فدكيه و ثروة مضامينها و معطياتها حول ثبات الامامة المعصومة فى كلّ ظرف من الظّروف	٩٨٨
الرّابع و العشرون	هل بايعت فاطمة الزهراء ﴿ع﴾ ابابكر ثمّ ماتت مهاجرة لهما أوشهدت ساخطة على أبى بكر و عمر؟	٩٩١
الخامس و العشرون	غصب فدك و غصب فاطمة الزّهراء ﴿ع﴾ على منصبها	٩٩٨
السّادس و العشرون	عصمة فاطمة الزّهرآء ﴿ع﴾ و ردّ دعواها صدّاً لا يعصمها	١٠٠٣
السّابع و العشرون	لماذا قبلت شهادة ذى الشّهادتين فى قضيّة النّاقة و ردّت شهادة الإمام علىّ ﴿ع﴾ فى قضيّة فدك؟!	١٠١
الثّامن و العشرون	لماذا تردّ شهادة الإمام علىّ ﴿ع﴾ و هو اصدق النّاس بل هو ميزان الصّداقة	١٠١٥
التّاسع و العشرون	عمر بن الخطّاب و حملاته حول حديث عدم توريث الأنبياء ﴿ع﴾	١٠٢٢
الثّلاثون	عدم توريث الأنبياء ﴿ع﴾ حديث مختلق و مخالف للكتاب و السّنّة	١٠٣٦
الواحد و الثّلاثون	فتوى سياسيّة لأبى بكر فى غصب فدك و خلافة	١٠٥٠
الثّانى و الثّلاثون	رأى مستبصر معاصر من مفكّرى العامّة حول فدك	١٠٦١
الثّالث و الثّلاثون	محتملات الخبر المختلق و وجود الرّواية المجعولة	١٠٤٥

		الصفحة
الرابع و الثلاثون	سيرة الأنبياء و الامم الماضية في الميراث	١٠٦٧
الخامس و الثلاثون	بحث أصولي حول قصة فدك و عطيتها و معطيها	١٠٧٢
السادس و الثلاثون	قصة فدك و النحلة في مجلة الرسالة المصرية	١٠٧٨
	و طعنه المطعنة المكافحة	١٠٧٩
السابع و الثلاثون	كتب مطالبة الإمام علي ﴿ع﴾ و نقاش من أبي بكر عمر بها	١٠٨٤
الثامن و الثلاثون	حكمة عدم استرداد الإمام علي ﴿ع﴾ فدك في خلافته	١٠٩١
التاسع و الثلاثون	فدك بين غصبها و استرجاعها إلى صاحبها	١٠٩٣
الأربعون	آثار شؤم غصب فدك للجوامع البشرية و عذاب غاصبيها	
	في جحيم جهنّم، و لظى جحيم	١١٠٣

DEI SUB NUMINE VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY

Princeton University Library
32101 056221854